سورة إبراهيم

[٥٢٤] أخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت هذه الآية في الذين قتلوا يوم بدر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾[1] الآية.

* * *

---

[٥٢٤] (١) سورة إبراهيم: الآية (٢٨).

(١٤) سُورَة إبراهيم مكيّة
وآياتها اثنتان وخمسون

سورةُ إبراهيم مكيةٌ وموضوعُها الأساسي هو موضوع السور المكية ، وهدفها نفس هدف المكي وهو العقيدةُ في أصولها الكبيرة من الإيمان بالله واليوم الآخر ، والإيمان بالكتب والرسل ، والتركيزُ حول الوحي والرسالة ، وتقريرُ مبدأ الحساب والجزاء . سُميت هذه السورة الكريمة « سورة إبراهيم » تخليداً لمآثر إبراهيم عليه السلام ، المبارك الأَوّاه ، الشاكر المنيب « أبو الأنبياء » الذي أخلص نفسه لله فاختاره الله لخَلَّته وجعل في ذُرِّيته النبوة والكتاب ، وقد خصَّه تعالى بحماية جَنَاب التوحيد ، واستجاب لتلك الدعوات الطيبة الطاهرة ، حين دعا بها لنفسه ولذريته بعد أن انتهى من بناء البيت العتيق « وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعلْ هذا البلدَ آمناً واجنُبْني وبَنِيَّ أنْ نعبدَ الأصنام . ربّ إنهنَّ أضلَلْنَ كثيراً من الناسِ ، فمنْ تَبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفورٌ رحيم » ولهذا سُميت هذه السورة بسورة إبراهيم .

بدأت السورةُ الكريمة ببيانِ وظيفةِ الرسول ، وبتمجيد هذا الكتاب المعجز الذي أنزله الله نوراً وهدى وشفاءً لما في الصدور « آلر . كتابٌ أنزَلنَاهُ إليكَ لتُخرِجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النور بإذن ربهم إلى صراطِ العزيز الحميد . اللهِ الذي له ما في السموات وما في الأرض ، وويلٌ للكافرين من عذاب شديد » ثم ذكرتْ حقيقةَ وحدةِ الرسالة السماوية التي بعث الله بها الأنبياء والمرسلين ، فرسالتُهم واحدة ، ودعوتُهم

واحدة ، وهدفُهم واحد وهو تعريفُ الناسِ بالإلهِ الحقِّ ، خالقِ الكائنات ، ومنشيء العوالم ، الذي أرسل الرسل بلغاتِ أقوامهم ليبينوا لهم شريعة الله « وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه - أي بلغة قومه - ليبيّنَ لهم فيُضِلُّ الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيزُ الحكيم » وفي أثناء بيان هذه الحقيقة يَذْكرُ تعالى أنَّ موسى قد أُرسِلَ بمثلِ ما أرسل به محمدٌ ﷺ بياناً لوَحدةِ الرسالة ووحدةِ الهدف ، وهي إنقاذُ البشرية من ظلمات الكفر والضلال ، وتذكيرهم بالله الواحد الأحد الذي تعنو له الوجوه « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أَنْ أَخرجْ قومَك من الظُلُماتِ إلى النورِ وذكّرْهمْ بأيامِ اللهِ ، إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لكلِ صبَّارٍ شكور » وإلى جانب وظيفة الرسول تتحدث السورة عن حقيقة الرسالة . وحقيقةِ الرسولِ البشرية وهي التي تحدّد وظيفته فهو إنسان يُوحى إليه ، وهو مبلّغٌ ومنذرٌ عن الله ، وناصحٌ وأمين ، ولقد كانت بشريةُ الرسلِ هي موضعَ الاعتراض من جميع الأقوام في شتّى الأزمان والعصور ، فقد استبعدوا أن يبعث الله الرسل من البشر ولذلك كذبوهم وردُّوا عليهم دعوتهم « قالوا إن أنتم إلا بشرٌ مثلُنا تريدون أن تصدُّونا عما كان يعبدُ آباؤنا فأتونا بسلطانٍ مبين . قالت لهم رسلُهم إنْ نحنُ إلا بشرٌ مثلُكُم ولكنَّ اللهَ يمنُّ على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطانٍ إلاّ بإذنِ الله ، وعلى اللهِ فليتوكل المؤمنون » وينتقل الحديثُ من الكلام إلى البطش والانتقام وإلى تلك الحرب السافرة ضدَّ رسل الله الكرام ﴿ وقال الذين كفروا لرسُلهمْ لنخرجنّكم من أرضنا أو لتعودُنَّ في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكنَّ الظالمين . ولنسكنّنكم الأرضَ من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد » ويقف الطغاة المتجبرون بقوتهم الهزيلة الضئيلة في صفٍّ ، ويقف الرسلُ الداعون المتواضعون ومعهم قوة الله العظيمة في صفٍّ ، ويدعو كلٌّ من الفريقين

بالنصر والفتح وينكشف الأمر عن هلاك الظالمين « واستفتحوا وخابَ كلُّ جبارٍ عنيد . من ورائِهِ جهنَّمُ ويُسْقَى من ماءٍ صديد يتجرعُه ولا يكادُ يُسيغُه ويأتيه الموتُ من كلِ مكانٍ وما هو بميّت ، ومن ورائِه عذابٌ غليظ » . ثم يأتي المشهد المفزِعُ في الآخرة حيث يلتقي القادة المتجبرون بالأتباع الضعفاء ، الذين ضلّوا وأضلّوا غيرهم من ضعفاء العقول ، بطريق الإغراء والإغواء ، ويقفون في ساحة الحساب وقد غشيهم الذلُّ والهوان ، ويستشفع الأتباع بالقادة الزعماء ، فلا ينالهم من تلك الشفاعة إلا الحسرةُ والندم « وبرزوا للهِ جميعاً فقال الضعفاءُ للذين استكبروا إنّا كنّا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنّا من عذاب اللهِ من شيء ؟ قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواءٌ علينا أَجَزِعْنا أم صبرنا ما لنا من محيص » وتنتقل الآياتُ إلى مشهدٍ آخر في القيامة حيث يصبح الناس فريقين « فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير » ويتلظى الكفار بلهب النار ، ويلتفتون إلى الشيطان الذي زيَّن لهم الكفر وأغراهم بالعصيان ، فينها لون عليه باللعنة والشتائم ، وهناك يرى الإنسان عجباً ، يرى الشيطان وقد ظهر لهم على المسرح يلبس مسوح الكهّان ويخطبُ في أتباعه الغاوين خطبته الشهيرة « وقال الشيطانُ لما قُضيَ الأمرُ إن الله وعدكم وعدَ الحقّ ، ووعدتكم فأخلفتُكم ، وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلا أن دعوتُكم فاستجبتْم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيَّ – أي ما أنا بمغيثكم من عذاب الله وما أنتم بمنقذيَّ – إني كفرتُ بما أشركتموني من قبل ، إن الظالمين لهم عذابٌ أليم » ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن كفار مكة الذين بطروا النعمة وكفروا بآيات الله فاستحقوا الهلاك والدمار « ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمةَ الله كفراً وأحلُّوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار » وتختم السورة الكريمة ببيان نهاية المجرمين يوم الدين ، حيث

تلفح وجوهَهُم النارُ وهم في السلاسل والأغلال وقد لاقوا جزاءهم العادل «وترى المجرمين يومئذٍ مُقَرَّنين في الأصفاد. سرابيلُهُمْ من قَطِرَانٍ وتَغْشَى وجوهَهُم النارُ. ليجزي الله كل نفسٍ ما كسبت إنَّ الله سريع الحساب» وتنتهي السورةُ الكريمة بالتحذير والإنذار كما بدأتْ بالدعوة والتذكير «هذا بلاغٌ للناسِ ولِيُنْذروا به، وليعلموا أنما هو إلهٌ واحدٌ، وليذَّكَّرَ أولوا الألباب».

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة إبراهيم

عليه السلام، قيل: مكية. بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿الٓر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[١]

قوله[١] عز وجل: **الر كتاب، الر** كناية عن حروف مُقَطَّعَة جَعَلَها بالحكمة كتابًا، **أنزلناه**، أي جمعناها[٢] وجعلناها كتابًا، أعني [جعلنا] تلك الحروف المُقَطَّعَة كتابًا وأنزلناه إليك بعد ما لم تكن[٣] تدري ما الكتاب، / وهو كما قال: مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ[٤] وَلَا الْإِيمَانُ،[٥] وقوله: وَلَا تَخُطُّهُ [٣٨٢و] بِيَمِينِكَ.[٦] **لِتُخرِجَ الناس**، ما[٧] يُضاف [مِن] الإخراج إلى الله فإنه يكون بإعطاء الأسباب وحقيقة ما يكون به الأفعال وهي القدرة، وما يُضاف [مِن] الإخراج إلى الرسل فإنه لا يكون إلا بإعطاء الأسباب؛ لأنه لا يملك أحدٌ سِواه إعطاءَ ما به يكون الفعل. ثم الأسباب تكون[٨] بوجهين. أحدهما الدعاء إلى ذلك. والثاني ما أتاهم به[٩] مِن البيان والحجة على ذلك.[١٠] فهذه[١١] [هي] الأسباب التي يملك[١٢] الرسل إتيانها، وأمّا ما به حقيقة الفعل فإنه لا يملك [ذلك] إلا الله.

---

[١] ن ع: وقوله.
[٢] ك + وأنزلناها.
[٣] ع: لم يكن.
[٤] ع – وهو كما قال ما كنت تدري ما الكتاب.
[٥] ﴿وكذلك أوحينا إليك رُوحا مِن أمرنا ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ (سورة الشورى، ٤٢/٥٢).
[٦] ﴿وما كنتَ تتلو مِن قبله من كتاب ولا تَخُطُّه بيمينك إذًا لَارتاب المُبْطِلون﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٤٨).
[٧] جميع النسخ: وما.
[٨] ن ع م: يكون.
[٩] جميع النسخ: ما أتى بهم.
[١٠] ع: فعلى ذلك.
[١١] جميع النسخ: فهو.
[١٢] ك: تملك.

وقوله: **لِتُخرِجَ الناسَ مِن الظُّلُمات إلى النور**، قيل: مِن الكفر إلى الإيمان.[١] سمّى الكفر ظُلُمات، وهو واحد؛ لأنه يَستر جميعَ مَنَافِذِ الجوارح مِن البصر والسمع واللسان، يُبصِر ما لا يَصلُح ويَسمع ما لا يَصلُح،[٢] وكذلك القول يقول[٣] ما لا يَصلُح، وكذلك جميع الجوارح، والإيمان يَرفع ويَكشِف جميعَ الحُجُب والسُّتُور ويضيء[٤] له كل مستور. والثاني قوله: **مِن الظُّلُمات**، أي مِن الشُّبهات، **إلى النور**، أي[٥] إلى الإيمان والهدى.

وقوله: **لِتُخرِجَ الناسَ مِن الظُّلُمات إلى النور**، الإخراج المضاف إلى الله والهداية يَخرج[٦] على وجوه أربعة. أحدها يأمر ويدعوهم إلى ما ذكر. والثاني يَكشِف ويبيّن. والثالث يُرَغِّب ويُرَهِّب حتى يَرغبوا في المرغوب ويَحذروا[٧] المرهوب. والرابع تحقيق ما يكون به الهداية، وذلك لا يكون إلا بالله، وهو التوفيق والعصمة. وأمّا الوجوه الثلاثة الأُوَل فإنها تكون برسول الله، يأمر ويدعو ويُرَغِّب ويُرَهِّب ويُبيّن ويَكشِف. *والله أعلم*.

وقوله: **الر كتابٌ أنزلناه إليك لِتُخرِجَ الناسَ**، كأنه قال: **كتابٌ أنزلناه إليك**، لِتأمر الناس بالخروج مما ذكر إلى ما ذكر. والثاني[٨] أنزلناه لِتُخرِجَ به الناس مما ذكر.

بإذن ربهم، قيل: بأمر[٩] ربهم، أي تدعوهم[١٠] بأمر ربهم. وقال قائلون: بعلم ربهم، أي أنزل هذه الحروف المُقَطَّعَة[١١] بعلمه. والثالث يحتمل بتوفيق ربهم. الإذن مِن الله يحتمل أحد[١٢] هذه الوجوه التي ذكرنا: الأمر والعلم والتوفيق.

وقوله عز وجل: **إلى صراط العزيز الحميد، العزيز الحميد**[١٣] هو الله، أي يدعوهم إلى طريق الله الذي مَن سَلَكَه نجا. **العزيز الحميد**، سُمِّيَ عزيزا لأنّ كلَّ عزيزٍ به يَعِزّ.[١٤]

---

١ ع م + التي يملك الرسل إتيانها.
٢ ع – ويسمع ما لا يصلح.
٣ م: بقول.
٤ ن ع: وقضي.
٥ ع م – أي.
٦ ك: تخرج.
٧ ن: ويحذر.
٨ ك: الثاني.
٩ ن: يأمر.
١٠ ن ع م: يدعوهم.
١١ ن – المقطعة.
١٢ ك – أحد.
١٣ ع م – العزيز الحميد.
١٤ ع: بعز.

أو يقال: عزيز لأنه عزيز بذاته ليس بغيره كالخلائق. أو **العزيز**، هو الذي لا يُغلَب،[١] و **الحميد**، هو الذي لا يَلحقه الذم في فعله كالحكيم هو الذي لا يَلحقه الخطأ في تدبيره. وقال أهل التأويل: **العزيز**: المنيع، و **الحميد**: الذي[٢] يَقبل اليسير مِن العبادة.[٣]

﴿اَللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[٢]

وقوله عز وجل: **اللهِ الذي له ما في السماوات وما في الأرض**، مَن قرأ بالخفض صَيَّره مَوْصُولًا بالأول وجَعَلَه كلامًا واحدًا[٤] وأتبع الخفض بالخفض. ومَن قرأ بالرفع: اللهُ الذي، جَعَلَه مَقْطُوعًا عن الأول على حق الابتداء، فقال: اللهُ الذي **له ما في السماوات وما في الأرض**. ذَكَرَ قولَه: **اللهِ الذي له ما في السماوات وما في الأرض**،[٥] لِيُعلَم أنه بما يأمر الخَلْقَ ويدعوهم إلى دينه ويمتحنهم بأنواع المِحَن لا يفعل ذلك لمنافع نفسه أو لحاجته[٦] في ذلك، بل لحاجة[٧] الممتحَنين ولمنافعهم.

وقوله عز وجل: **وويلٌ للكافرين مِن عذابٍ شديدٍ**، قال[٨] قائلون: الوَيل هو[٩] الشدة. وقيل: الوَيل هو اسم وادٍ في جهنم. وقال الأصم: الوَيل هو نداءُ كلِّ مَكْرُوب ومَلْهُوف مِن شدة البلاء. وقول الحسن كذلك.

﴿اَلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾[٣]

وقوله عز وجل: **الذين يَسْتَحِبُّون الحياة الدنيا على الآخرة**، وَصَف أولئك الذين ذكر أنّ فيهم الوَيل مَن هم،[١٠] فقال:[١١] **الذين يَسْتَحِبُّون الحياة الدنيا على الآخرة**، أي آثَرُوا واختاروا الحياة الدنيا على الآخرة،

---

١ ع م: لا يطلب.
٢ ع م + هو.
٣ ن ع م: من العباد.
٤ ع: واحد.
٥ ع + ذكر قوله الله الذي له ما في السموات وما في الأرض.
٦ ك: أو لحاجة.
٧ ع: بل للحاجة.
٨ ن: وقال.
٩ ع م – هو.
١٠ ع: منهم.
١١ ن + الذين ذكر أن فيهم الويل من هم فقال.

أي رَضُوا بها واطمأنّوا فيها، كقوله: وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا.[1] اختاروا الحياة الدنيا للدنيا، لم يختاروا للآخرة. فالدنيا أُنْشِئَت لا للدنيا، ولكن إنما[2] أُنْشِئَت للآخرة؛ فمن اختارها لها لا لِيَسلُكَ[3] بها إلى الآخرة ضَلّ وزاغ عن الحق. وقوله: **الذين يَسْتَحِبُّون الحياة الدنيا على الآخرة،**[4] يَسْتَحِبُّون الحياة الدنيا على الآخرة حتى يَلْهُوا[5] عن الآخرة ويَسْهُوا[6] **فيها** ويَغفلوا. وإلّا أهلُ الإسلام ربما يَسْتَحِبُّون الحياة الدنيا على الآخرة، وهو ما ذكرنا أنهم يختارون ذلك للآخرة، وأولئك للدنيا.

وقوله عز وجل: **ويَصُدُّون عن سبيل الله،** يحتمل يَصُدُّون وجهين. أحدهما[7] أعرضوا هم[8] بأنفسهم. والثاني صَرَفُوا الناس عن سبيل الله الذي مَن سَلَكَه نَجَا. لكن إنما يتبيّن[9] ويظهر ذلك بالمصدر: صَدّ يَصُدّ صَدًّا: صَرَفَ غيرَه، وصَدّ يَصُدّ[10] صُدُودًا: أعرض هو بنفسه.[11] **ويَبْغُونها عِوَجًا،** أي طَعْنًا وعَيْبًا[12] فيه. دل هذا على أن الآية في الرؤساء منهم والقادة الذين كانوا يَصُدُّون الناس عن سبيل الله ويَبْغُون[13] في دين الله الطعن والعيب،[14] فما وجدوا إلى ذلك سبيلاً قط.

وقوله عز وجل: **أولئك في ضلال بعيد،** الضلال يحتمل وجوها. يحتمل الهلاك،[15] أي هلكوا هلاكًا لا نجاةَ فيه[16] قط. ويحتمل الحيرة والتِيه، / أي تَحَيَّرُوا فيه وتَاهُوا حتى لا يهتدون أبدًا. [٣٨٢ظ]

---

[1] ﴿إنّ الذين لا يَرجُون لقاءنا ورَضُوا بالحياة الدنيا واطمأنّوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ (سورة يونس، ١٠/٧).
[2] ن – إنما.
[3] م: لا يسلك.
[4] ع م + وهو ما ذكرنا.
[5] ك: يلهو.
[6] ك: ويسهو.
[7] ك: أحدها.
[8] أعرضوهم.
[9] ع: يبين.
[10] ن ع: يصده.
[11] قارن: *لسان العرب* لابن منظور، «صد».
[12] ن: وعينا.
[13] ن ع م: ويبغونها.
[14] ن: والطعن.
[15] جميع النسخ: الضلال.
[16] م – فيه.

ويحتمل الضلال البطلان، أي في بطلان بعيد حتى[١] لا يَصْلُحُوا أبدًا، وهو في قومٍ عَلِمَ الله أنهم لا يهتدون أبدًا ويُخْتَمُون[٢] على الضلالة.[٣]

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٤]

وقوله عز وجل: **وما أرسلنا مِن رسول إلا بلسان قومه**، لو كان غيره مِن الكتب أُرْسِلَ[٤] بغير لسان الأُمَم لكان هذا الكتاب يجب أن يكون مبعوثًا بلسان قومه؛ لأنه جُعِل هذا الكتاب نفسُه حجةً وآيةً لرسالته، لأنهم يعجزون عن إتيان مثله وهو كان بلسانهم ليعلموا أنه من الله جاء. إذ لو كان مِن اختراع الرسول لَقَدَرُوا هم[٥] على اختراع مثله؛ لأن لسانهم مثل لسانه، فإذا عجزوا عن إتيان مثله دل أنه منزل من الله تعالى لا من عند الخَلْق. ثم يحتمل قوله: **وما أرسلنا مِن رسول إلا بلسان قومه**، وجوها. قال قائلون: هذا بعد ما اختلفت[٦] الألسن، أرسل هذا وفيه أنباءُ أوائِلهم الذين كان[٧] لسانهم غير لسان هؤلاء وأخبارُهم[٨] لِيَعلموا أنه إنما عرف تلك الأنباء والأخبار التي كانت بغير[٩] لسانهم بالله. وقال بعضهم: أرسل بلسان قومه لئلا يكون لهم مقال، كقوله:[١٠] لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ،[١١] الآية.[١٢] والثالث أنه إذا كان بلسانهم يكون آلَفَ وأقربَ إلى القبول مِن[١٣] إذا كان بغيره؛ إذ كل ذي نوع وجنس يكون بجنسه ونوعه آلَف مِن غير نوعه وجوهره، وهو[١٤] كقوله: وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا،[١٥]

---

[١] ن: وحتى.
[٢] ك: ويجتمعون.
[٣] ك ن م: على الضلال؛ ك ن + والله أعلم.
[٤] جميع النسخ: أرسلت.
[٥] ع م − هم.
[٦] ن ع م: ما اختلف.
[٧] م: كانوا.
[٨] ن ع م: واختارهم.
[٩] ن: تغير؛ ع م: كان تغير.
[١٠] ن ع م: لقوله.
[١١] ﴿ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فُصِّلَتْ آياته أ أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وَقْرٌ وهو عليهم عَمًى أولئك يُنَادَوْنَ من مكان بعيد﴾ (سورة فصلت، ٤١/٤٤).
[١٢] م − الآية.
[١٣] ك: عنده.
[١٤] ع م − وهو.
[١٥] ﴿ولو جعلناه مَلَكًا لجعلناه رجلا ولَلَبَسْنا عليهم ما يَلْبِسون﴾ (سورة الأنعام، ٦/٩).

إذ ليس في وُسْع البشر رؤية الملك والنظر إليه على ما هو عليه؛ فعلى ذلك كل ذي **لسان** يكون بلسانه أفهم وأقرب للقبول وآلَف مِن غيره.

وقوله عز وجل: **لِيُبيِّنَ لهم**، قال قائلون: ليكون أبيَن لهم وأفهم. وقال قائلون: **لِيُبيِّنَ لهم**، فيَفهموا[1] قول رسولهم. وقوله عز وجل: **لِيُبيِّنَ لهم فيُضِلُّ الله مَن يشاء ويَهدِي مَن يشاء**، أي يُضِلُّ اللهُ مَن آثَرَ سببَ الضلال ويَهدِي[2] مَن آثَرَ سببَ الذي به يَهتدي، يَهدِيه ذلك. وقال **قائلون: فيُضِلُّ الله مَن يشاء ويَهدِي مَن يشاء**، هذا حُكمُ الله أن يُضِلَّ المكذِّبين ويَهدِي المصدِّقين. لكن الوجه فيه ما ذكرنا بَدْءً أنه يُضِلُّ مَن آثَرَ سببَ الضلال ويَهدِي مَن يشاء،[3] أي مَن آثَرَ سببَ الاهتداء. **وهو العزيز الحكيم، العزيز**[4] لأنّ جميع[5] الخلائق مُفتقِرون إليه[6] أَذِلّاء، به يَعِزّ مَن عَزّ. أو أن يكون **العزيز** هو الذي لا يُغلَب. و **الحكيم** هو الذي لا يَلحقه الخطأ في الحكم والتدبير. أو **الحكيم** في بعث الرسل وفي جميع فعله و لم يؤخَذ عليه في فعله خطأ قط، مُصِيبٌ، وَضَعَ[7] كل شيء موضعه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٥]

وقوله عز وجل: **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا**، يحتمل آياته حججه وبراهينه التي أرسل **بها** على وحدانية الله وألوهيته. ويحتمل آياته التي بعثها إلى موسى ليقيمها على رسالته. إن شئت قلت:[8] آياته حججه،[9] وإن شئت سَمّيتها أعلاما. والآيات والأعلام والحجج كله واحد. فيكون[10] [المقصود] أعلام وحدانية الله وألوهيته أو أعلام رسالته. وقال قائلون: **بآياتنا**، أي بديننا، أي أرسلنا موسى بديننا[11] ليدعوهم إليه، **أنْ أَخْرِجْ قومَك مِن الظلمات إلى النور**، وعلى ذلك بعث جميع الرسل والأنبياء، بُعِثُوا لِيُخرِجوا قومهم من الظلمات إلى النور. وقد ذكرنا هذا في غير موضع.

---

[1] ع م: فيفهمون.
[2] ن ع م + من يشاء.
[3] ع م + هذا حكم الله أن يضل المكذبين ويهدي المصدقين.
[4] ع م – العزيز.
[5] ع: أن جميع.
[6] ن: به.
[7] ع: ضع.
[8] ع: قبلت.
[9] ع: وحججه.
[10] ك: فتكون.
[11] ع – أي أرسلنا موسى بديننا.

وقوله عز وجل: **وذَكِّرهم بأيام الله**، التذكير[1] هو العِظَة، أي عِظْهم **بأيام الله**. قال قائلون: أيام الله نِعَمُه. قال قتادة: أمره[2] أن يُذكِّرهم بنعم الله التي أنعمها عليهم،[3] فإنّ لله[4] عليكم أيامًا مِن النعم كأيام القوم، كم مِن خير قد أعطاه الله لكم وكم مِن سوء قد[5] صرفه الله عنكم، وكم مِن كرب[6] نَفَّسَه الله عنكم،[7] وكم مِن غَمٍّ[8] قد[9] فَرَّجَه الله عنكم، فاللهم ربنا لك الحمد. وقال قائلون: أيام الله وقائعه، أي ذَكِّرهم بوقائع الله في الأمم السالفة كيف أهلكهم لما كذّبوا الرسل. هذا يحتمل: أن[10] يُذكّرهم بنعم الله التي كانت على المصدقين بتصديقهم وهو ما أَنجى المصدقين مِن التعذيب والإهلاكِ إهلاك تعذيب،[11] ويُذكِّر[12] المكذّبين[13] منهم بالوقائع التي كانت على أولئك بالتكذيب، وهو الإهلاك. ويشبه أن يكون قوله: **بأيام الله**، الأيام المعروفة نفسها، أمره أن يُذكّرهم بها لأن الأيام تأتي بأرزاقهم وتَمضي[14] بأعمالهم وأعمارهم،[15] إن كان[16] خيرًا فخير وإن كان شرًا فشر، وتُفنِي أعمارَهم وآجالَهم. وفيما تأتي[17] بأرزاقهم نعمة[18] من الله عليهم، وفي ذهاب أعمارهم وآجالهم إظهارُ سلطانِ الله وقدرته. فأمره أن يُذكّرهم بذلك.[19] ***والله أعلم***.

---

[1] ع: لتذكير.
[2] ك ن ع: أمرهم؛ م: أمر.
[3] *تفسير الطبري*، ١٣/١٨٤. روى الطبري هذا القسم فقط.
[4] ن ع: فإن الله.
[5] ك – قد.
[6] ن + قد.
[7] ع م – وكم من كرب نفسه الله عنكم.
[8] ك: من كرب.
[9] ك م – قد.
[10] ع م – أن.
[11] م: تعذيبا.
[12] ك ن م: وذكر؛ ع: أو ذكر.
[13] ن: المصدقين.
[14] م: ويمضي.
[15] ك: بأعمارهم وأعمالهم.
[16] ع م: وإن كان.
[17] ن م: يأتي.
[18] ن ع م: نعم.
[19] ع – بذلك.

هذا يشبه أن يكون أُمِرَ موسى أن يُذكّر بني إسرائيل ما كان عليهم من فرعون من أنواع التعذيب ثم الإنجاء مِن بَعد. يقول –والله أعلم– ذَكِّرهم الأيام الماضية وما يتلوها.[1] وهذا أشبه وأقرب.[2] *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **إن في ذلك لآيات لكل صَبّار شَكُور**، قد ذكرنا[3] أن الصبر هو كفّ النفس عن معاصي الله وعن جميع مناهيه، والشكر هو الرغبة في طاعته. أخبر أنّ فيما ذكر آياتٍ لمن كفّ[4]

[٣٨٣و] نفسه عن المعاصي ورَغِب في طاعته لا لمن تَطاوَل على الرسل وتكبّر عليهم وترك[5] / إجابتهم ولم يرغب فيما دَعَوْهم إليه. ليس لأمثال هؤلاء عبرة وآية، ولكن[6] لمن ذكرنا. ويشبه أن يكون الصَبّار[7] والشَّكُور كناية عن المؤمن؛ لأن كل من[8] آمن بالله ووحّده اعتقد الكفّ عن جميع معاصيه[9] والرغبة في كل طاعته وإن كان يقع أحيانًا في معصيته، فكأنه قال: إن في ذلك لآيات للمؤمنين، على ما ذكر في غيره من الآيات، مِن ذلك[10] قوله: إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ،[11] و لِلْمُوقِنِينَ،[12] و لِلْمُتَّقِينَ،[13] ونحوه. *والله أعلم*.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[٦]

وقوله عز وجل: **وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون**، يشبه[14] أن يكون هذا[15] على الإضمار، وهو ما ذكر في آية أخرى:[16] اُذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا،[17] الآية، واذكروا أيضًا **إذ أنجاكم من آل فرعون يَسُومُونكم**،

---

[1] م: يتلونها.

[2] ع + عليهم من فرعون من أنواع التعذيب ثم الإنجاء من بعد يقول والله أعلم ذكرهم الأيام الماضية وما يتلوها وهذا أشبه وأقرب.

[3] انظر تفسير الآية من سورة الأنفال، ٦٦/٨.

[4] ع م + هو.

[5] ن ع: ونزل.

[6] ع – ولكن؛ م: وآية.

[7] ع + وتكبر عليهم وترك إجابتهم و لم يرغب فيما دعوهم إليه ليس لأمثال هؤلاء عبرة وآية لمن ذكرنا ويشبه أن الصبار.

[8] ع م: كل مؤمن.

[9] ع م – معاصيه.

[10] ن – طاعته وإن كان يقع أحيانا في معصيته فكأنه قال إن في ذلك لآيات للمؤمنين على ما ذكر في غيره من الآيات من ذلك.

[11] سورة الحجر، ٧٧/١٥؛ سورة العنكبوت، ٤٤/٢٩.

[12] ﴿وفي الأرض آيات للمُوقِنين﴾ (سورة الذاريات، ٢٠/٥١).

[13] لعله يشير إلى مثل قوله تعالى: ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ (سورة آل عمران، ١٣٨/٣).

[14] ن: ويشبه.

[15] ك – هذا.

[16] ك ن ع + أي.

[17] سورة المائدة، ٢٠/٥.

قيل: يعذبونكم،[1] **سوء العذاب**. وقال قائلون: يُكلّفونكم **سوء العذاب ويُذبّحون أبناءكم ويَستحيون نساءكم**، السَّوْم الإذاقة والتعريض، يقال: سَامَنِي كذا، أي أذاقني وعَرَّضَني[2] [لكذا]، ويقال: سُمْتُ الدابة على الحوض، أي عَرَضتها. **وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم**، هذا أيضًا قد ذكرناه[3] فيما تقدم في سورة البقرة والأعراف.[4] ***والله أعلم***.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٧]

وقوله عز وجل: **وإذ تَأَذَّنَ ربكم**، قال بعضهم: وإذ[5] قال ربكم. وقيل: إذ أعلم ربكم وأخبر. والعرب ربما قالت:[6] أفعلت في معنى تفعّلت، فهذا من ذاك،[7] ومِثلُه في الكلام أَوعدني وتوعّدني، وهو قول الفَرّاء.[8] وحقيقته[9] وَعَد ربكم[10] أو كَفَل ربكم، **لَئِن شكرتم لأزيدنّكم**، لم يقل: لئن شكرتم[11] نعمة كذا، ولا بَيّنَ أيّ نِعَمِه، النعم كلها أو نعمة دون نعمة، ولا قال: شكرتم بماذا.[12] وقال: **لأزيدنّكم**، لم يذكر الزيادة فيما ذا مما ذا[13] ومِن أي شيء هي. فيشبه أن يكون قوله: **لَئِن شكرتم**، بالتوحيد، أي [لئن] وحّدتم الله في الدنيا فيما خلقكم خَلْقًا وركّب فيكم ما تتلذّذون[14] وتتنعّمون في الدنيا وفيما قَوّمكم مِن أحسن تقويم، **لأزيدنّكم**، النعم الدائمة في الآخرة. فيَصير على هذا التأويل كأنه قال: لَئِن أتيتم شاكرين في الآخرة **لأزيدنّكم** النعم الدائمة. وإلى هذا يذهب ابن عباس رضي الله عنه أو قريب منه.[15] ألا ترى أنه قال: **ولَئِن كفرتم إنّ عذابي لشديد**، أي **ولَئِن كفرتم**،

---

[1] ع: يعذبكم.
[2] ع: وعرضي.
[3] ع: قد ذكر.
[4] انظر تفسير الآية من سورة البقرة، ٤٩/٢؛ وسورة الأعراف، ١٤١/٧.
[5] ع: وإن؛ ع م + تأذن.
[6] ن: قال.
[7] م: من ذلك.
[8] *معاني القرآن* للفراء، ٤/٢.
[9] ع م: حقيقته.
[10] ن: بكم.
[11] ع – لأزيدنكم لم يقل لئن شكرتم.
[12] أي شكرتم بأي شكل من الأشكال من قول أو فعل.
[13] ع م – مما ذا.
[14] ن ع: ما يتلذذون.
[15] ذُكر عن ابن عباس: لئن وحّدتم وأطعتم لأزيدنكم من الثواب؛ انظر: *تفسير القرطبي*، ٣٤٣/٩؛ و*روح المعاني* للآلوسي، ١٩٠/١٣.

ولم توحّدوه وأشركتم غيره فيه وصَرَفْتُم شُكْرَ تلك النعم إلى غيره، **إنّ عذابي لشديد**. ويحتمل[1] أن يكون كل نعمة يَشكرها يَزيد له مِن نوعها في الدنيا ويَدُوم ذلك له.

وفي قوله: **لئِن شكرتم لأزيدنّكم**، لُطف وفضل؛ لأن الشكر هو المجازاة والمكافأة[2] لما سبق،[3] والله تعالى[4] لا يكافأ فيما أنعم، لأنهم يَستزيدون لأنفسهم الزيادة بالشكر الذي ذكر، فهو ليس بشكر في الحقيقة، لكن هذا منه لُطفٌ[5] ذَكَرَه. وهو كما قال الله تعالى: وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا،[6] الآية، وقال: إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ،[7] الآية. فهذه الأنفس والأموال في الحقيقة لله ليست لهم، فهم فيما يُقرِضون يُقرِضون[8] لأنفسهم، وكذلك في الشراء يَشترون لأنفسهم من مولاهم، لكنه ذكر شراءه من أنفسهم[9] لطفًا منه وفضلاً. فعلى ذلك فيما ذكر من الشكر له يطلبون الزيادة لأنفسهم لطفًا منه. وإن كان الشكر في الظاهر موضوعه المكافأة لما سبق[10] فهو فيما بين الرب والعباد ليس بمكافأة،[11] ولكن سبب الزيادة، ولكن سُمِّيَ شكرًا لطفًا[12] منه وفضلاً على ما ذكر التصدُّق[13] قَرْضًا. *والله أعلم*.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[٨]

ألا ترى أنه قال: **وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعًا فإن الله لغني حميد**، أي غني بذاته، ليس يأمر ما يأمر لحاجة نفسه ولا لمنفعةٍ[14] له، ولكن ما امتحنكم إنما امتحنكم

[1] ع: يحتمل.
[2] ع: المجازات والمكافات.
[3] ع – لما سبق.
[4] ع: والله أعلم.
[5] ك: هذا لطف منه.
[6] ﴿إنّ المُصَّدِّقين والمُصَّدِّقات وأَقرَضُوا الله قَرضًا حسنًا يُضاعَفُ لهم ولهم أجر كريم﴾ (سورة الحديد، ١٨/٥٧).
[7] ﴿إنّ الله اشترى مِن المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة يُقاتِلون في سبيل الله فيَقتُلون ويُقتَلون وَعدًا عليه حقًا في التوراة والإنجيل والقرآن ومَن أَوْفَى بعهده مِن الله فاستبشِروا ببيعكم الذي بايَعْتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ (سورة التوبة، ١١١/٩).
[8] ن ع م – يقرضون.
[9] ع م – من أنفسهم.
[10] ن + لما سبق.
[11] ع: بمكافات.
[12] ن – لطفا.
[13] ع م: التصديق.
[14] م: لا لمنفعة.

لحاجة أنفسكم ولمنفعة أبدانكم. وقال بعضهم: قوله: **إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعًا فإن الله لغني حميد**، أي غني عن عبادة خَلْقِه حميد عند خَلْقِه، وهو ما ذكرنا أنه ليس يأمرهم فيما يأمر لمنفعة نفسه أو لحاجة نفسه، ولكن لمنافع تحصل للخلق ولحوائج[١] تَبْدُو لهم. وكذلك النهي عما يَنهى ليس يَنهى[٢] لخوفِ مضرةٍ تَلحقه ولكن للضرر يَلحقهم ولآفةٍ تتوجّه إليهم. يخبر عز وجل عن غِناه عمّا يأمر خَلْقَه في طاعته[٣] وعبادته وتوجيه الشكر إليه. والحميد هو الذي لا يَلحقه الذمّ في فعله. يقول -والله أعلم- إنهم إن يكفروا[٤] وكان عَلِمَ منهم أنهم يكفرون فعِلمُه[٥] بذلك لا يجعله في إنشائهم مذمومًا. *والله أعلم*.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[٩]

وقوله عز وجل: **ألم يأتكم نبأ الذين مِن قبلكم قومِ نوح**، الآية، يشبه[٦] أن يكون الخطاب[٧] لأهل الإيمان منهم والرسل. خاطبهم عز وجل تصبيرًا منه لهم[٨] وتنبيهًا على تكذيب الكفرة إياهم وأذاهم واستهزائهم بهم،[٩] فقال: **ألم يأتكم نبأ الذين مِن قبلكم**، أي قد أتاكم [من] نبأ الذين مِن قبلكم ما فيه مَزْجَر لكم[١٠] عن مِثل مُعاملتهم الرسول. وهو ما ذكره: وَلَقَدْ جَاءَهُم مِنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ،[١١] أنه ماذا نزل[١٢] بهم بتكذيبهم الرسل والاستهزاء بأتباعهم. يَذكُر[١٣] هذا لهم[١٤] لِيَهُون ذلك عليهم ولِيَخِفّ؛

---

[١] م: والحوائج.
[٢] ن - ليس ينهى؛ ع: نهى.
[٣] ك: من طاعته.
[٤] ن ع م: وإن كفروا.
[٥] ن: فعله.
[٦] ك ع: ويشبه.
[٧] ك - الخطاب.
[٨] ع م - منه لهم. لهم: أي للرسل.
[٩] ك: به.
[١٠] أي لأهل الإيمان.
[١١] سورة القمر، ٥٤/٤.
[١٢] ع م: ما نزل.
[١٣] ك: يذكرهم.
[١٤] أي للرسل.

لأنّ مَن عَلِم أنّ له شركاء فيما بُلِيَ به وامتُحِن كان ذلك عليه أهون[1] وأخف مِن أن يكون هو المخصوص به.[2] ويحتمل أن يكون الخطاب[3] / لأهل الكفر[4] منهم، يقول: **ألم يأتكم نبأ الذين مِن قبلكم**، أي قد أتاكم خبر الذين مِن قبلكم أنه[5] ماذا نزل[6] بهم بتكذيبهم الرسل واستهزائهم بأتباعهم، فينزل بكم[7] ما نزل بهم؛ لأن الذي أنزل ذلك[8] عليهم حي قادر على إنزال مثله، فيَخرُج ذلك مَخرج التوقُّع[9] والتوبيخ[10] والتعيير[11] والوعيد لِيَحذروا عن صنيع أولئك. ***والله أعلم***. [٣٨٣ظ]

وقوله عز وجل: **لا يَعلمهم إلا الله**، فيه دلالة أنّ تكلُّف معرفة الأنساب[12] وحفظها إلى آدم شُغل وتكلُّف؛ لأنه أخبر أنّ فيهم مَن لا يَعلمه إلا الله. ورُوي في الخبر أنه[13] كان ينسب إلى مُضَر[14] ولا ينسب إلى أكثر من ذلك.[15] قال أبو بكر الأصم: قوله: **لا يَعلمهم إلا الله**، يُكذِّب مَن ادّعى معرفة الأنساب المتقدمة؛ لأنه قال: **لا يَعلمهم إلا الله**،[16] وقد أخبر أيضًا أنه لم يَقُصّ[17] عليه خبر الكل بقوله: مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ،[18] فمِن البعيد أن يُتكلَّف تعرُّفُ ما لم يَقصّ على رسوله. ***والله أعلم***.

---

[1] ك: ذلك أهون عليه.

[2] ن ع م: فيه.

[3] ع - الخطاب.

[4] ع: لأهل الخطاب.

[5] ع - أنه.

[6] ك ن م: أنزل.

[7] ك - خبر الذين من قبلكم أنه ماذا أنزل بهم بتكذيبهم الرسل واستهزائهم بأتباعهم فينزل بكم.

[8] ع: إليك.

[9] ن ع م - التوقع.

[10] ن ع م: التوبيخ.

[11] ن ع: والتغيير.

[12] م: الأسباب.

[13] أي النبي صلى الله عليه وسلم.

[14] ن: إلى مضمر.

[15] لم أجده هكذا. لكن مُضَر هو أب للكثير من القبائل العربية، ومنها قريش. وذُكر أنه كان مؤمنا على دين إبراهيم عليه السلام. وهو مُضَر بن نِزَار بن معد بن عدنان، والنسب ما بين عدنان إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام مختلف فيه. وأمّا مِن النبي صلى الله عليه وسلم إلى عدنان فمتفق عليه. انظر: *فتح الباري* لابن حجر، ٦/٥٢٨-٥٢٩. وأخرج أبو عُبَيد وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون. وأخرج أبو عُبَيد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير قال: ما وجدنا أحدا يعرف ما وراء معد بن عدنان. انظر: *الدر المنثور* للسيوطي، ٥/١٠.

[16] ك - يكذب من ادعى معرفة الأنساب المتقدمة لأنه قال لا يعلمهم إلا الله.

[17] ع: لم يقض.

[18] ن + الآية. ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قَصَصْنا عليك ومنهم من لم نَقْصُصْ عليك﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٧٨).

وقوله عز وجل: **جاءتهم رسلهم بالبينات،** قيل: البينات بينات على وحدانية الله وألوهيته. ويحتمل الحجج التي أَتَوْا بها الرسل على إثبات الرسالة والنبوة. وقال بعضهم: البينات ما يَتقون وما يَأتُون وما يَحِلّ عليهم وما يَحْرُم.

وقوله عز وجل: **فرَدُّوا أيديَهم في أفواههم،** يحتمل أن يكون هذا على التمثيل والكناية عن التكذيب وترك الإجابة؛ لأن ردّ الأيدي في أفواههم يمنعهم عن التصديق، كقوله: كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ،[١] الآية، إذا ترك إجابته، وقوله: يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ،[٢] وأمثاله. ويشبه أن يكون على تحقيق جعل الأيدي في أفواههم. ثم يخرج على وجهين. أحدهما رَدُّوا **أيديَهم في أفواههم،** في أفواه[٣] الرسل، فيقولون: إنكم كَذَبَة. ويحتمل ردّ الأيدي في أفواه أنفسهم، يُصَوِّتُون ويستهزءون بهم وبأتباعهم، كقوله: وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ،[٤] الآية. وقد ذكرنا معناه في موضعه. فعلى ذلك هذا يحتمل ذلك.[٥] *والله أعلم.*

وقوله عز وجل: **وقالوا إنّا كفرنا بما أُرسِلتم به،** الآية[٦] يحتمل قوله: **بما أُرسِلتم به،** التوحيد، لأنهم أُرسِلُوا بالدعاء إلى توحيد الله والعبادة له. يدل على[٧] ذلك قولهم: **وإنّا لَفِي شكّ مما تدعوننا إليه مُرِيب،** وقولُ الرسل: أَفِي اللهِ شَكٌّ،[٨] الآية.[٩] ويحتمل قوله: **إنّا كفرنا بما أُرسِلتم به،** من إثبات الرسالة وإقامة الحجة عليها، **وإنّا لَفِي شكّ مما تدعوننا إليه،** من التصديق بالرسالة والنبوة، **مُرِيب.** هذا يدل أنهم كانوا على شكّ مما يعبدون من الأوثان والأصنام؛ لأنه[١٠] لو كان لهم بيان في ذلك وحجة ودعاء إليه لكانوا لا يقولون: **وإنّا لَفِي شكّ مما تدعوننا إليه مُرِيب،** ولكن كانوا يَقطعون فيه القول، فدل أنهم كانوا على شكّ ورَيْب في عبادتهم الأصنام والأوثان التي عبدوها.

---

[١] ﴿له دعوة الحق والذين يَدْعُون مِن دونه لا يَستجيبون لهم بشيء إلا كباسطِ كَفَّيْه إلى الماء لِيَبْلُغَ فاه وما هو بِبالِغِه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ (سورة الرعد، ١٣/١٤).

[٢] ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يَرُدُّوكم على أعقابكم فتَنْقَلِبُوا خاسرين﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٤٩).

[٣] ع: في أفوه.

[٤] ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكَاءً وتَصْدِيَةً﴾ (سورة الأنفال، ٨/٣٥).

[٥] ع م – هذا يحتمل ذلك.

[٦] ع – الآية؛ ع + وقد ذكرنا معناه.

[٧] ن ع – على.

[٨] الآية التالية.

[٩] م – يحتمل قوله بما أرسلتم به التوحيد لأنهم أرسلوا بالدعاء إلى توحيد الله والعبادة له يدل على ذلك قولهم وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب وقول الرسل أفي الله شك الآية.

[١٠] ك: لأنهم.

ثم الشك والريب قال بعضهم: هما سواء. وقال بعضهم: الشك هو الشك المعروف، والرَّيْب هو النهاية في الشك.[١]

وقال[٢] بعض أهل التأويل في قوله تعالى: **فرَدُّوا أيديَهم في أفواههم**، أي عَضُّوا[٣] على أصابعهم غَيْظًا على ما دُعُوا. وقال بعضهم: رَدُّوا عليهم قولَهم وكذَّبوهم،[٤] وهو ما ذكرنا بَدْءً. وقال [بعضهم:] رَدُّوا عليهم بأفواههم.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[١٠]

وقوله عز وجل: **قالت رسلهم أفي الله شك**، أي أفي ألوهية[٥] الله شك، أو في[٦] عبادة الله شك، أي ليس في ألوهيته ولا في عبادته شك؛ إذ تُقِرّون[٧] أنتم أنه إله وأنه معبود، وكذلك أَقَرَّ آباؤكم أنه إله وأنه معبود، فليس في ألوهيته ولا في عبادته شك. إنما كان الشك في عبادة[٨] مَن تعبدون دونه من الأوثان والأصنام وألوهيتها؛ لأن آباءكم أقروا بألوهية[٩] الله وأنه معبود حيث قالوا: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى،[١٠] وقالوا:[١١] هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ،[١٢] وأَقَرُّوا أنه خالق السماوات والأرض وفاطر[١٣] جميع ما فيهما بقوله:[١٤] وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ،[١٥]

١ ك + والريب قال بعضهم هما سواء وقال بعضهم الشك هو الشك المعروف والريب هو النهاية في الشك.
٢ ع: قال.
٣ ع م: اعضوا.
٤ ك: أو كذبوهم.
٥ ن م: ألوهيته.
٦ م: شك أفي.
٧ ع م: أو تقرون.
٨ ع: في عبادته.
٩ ع: بألوهيته.
١٠ سورة الزمر، ٣٩/٣.
١١ م: قالوا.
١٢ سورة يونس، ١٠/١٨.
١٣ ع م: فاطر.
١٤ ك: بقولهم.
١٥ سورة لقمان، ٣١/٢٥.

وأن الأصنام التي عبدوها لم[١] تخلق شيئًا. فليس في الله شك عندكم، إنما الشك فيما تعبدون دونه أو في وحدانية الله. أو يقول: **أفي الله شك**،[٢] أنه معبود، أي ليس في الله شك[٣] أنه لم يَزَلْ معبودًا، إنما الشك في الأصنام التي قالوا: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى، فأما في الله فلا شك أنه لم يزل معبودًا فاطر السماوات والأرض. يشبه أن يكون على الإضمار، أي **أفي الله شك** وقد تُقِرّون أنه فاطر السماوات والأرض وتَعلمون أنه خالقهما. ويحتمل أن يكون على الاحتجاج، أي **أفي الله شك** وهو فاطر السماوات والأرض، أي تَعلمون أنه فاطر السماوات والأرض وتُقِرّون أنه خالقهما.

وقوله عز وجل: **يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم**، هذا يحتمل وجهين. يحتمل ليغفر لكم ذنوبكم[٤] التي كانت لكم في حال الفترة إذا أسلمتم. وفيه دلالة -والله أعلم- أنّ المَآثم التي كانت لهم في وقت الفترة مأخوذة[٥] عليهم، ثم وعد لهم المغفرة إذا أسلموا.[٦] والثاني وعد المغفرة[٧] والتجاوز لما كان منهم من الافتراء على الله والقول فيه بما لا يليق به إذا أسلموا وتابوا عن ذلك، أي إنكم وإن افتريتم على الله وقلتم فيه ما قلتم وكذّبتم رسله فإذا أسلمتم وتُبتم وصدّقتم رسله غفر لكم ذلك كله. وفيه ذكر لطفه وحسن معاملته خلقه. ويحتمل أيضًا قوله: **يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخرَكم إلى أجل مسمًّى**، جواب ما قالوا: إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا،[٨] يقول: إذا أسلمتم وتُبتم لا تُتَخطَّفون ولكن تبلغون إلى آجالكم / المسمّاة **ويؤخركم إلى أجل مسمًّى**.[٩] [٣٨٤و]

تعلّق[١٠] المعتزلة بظاهر هذه الآية أنّ لكل إنسان أجلين: أجل في حال إذا كان فَعَلَ فِعلَ كذا، وأجل في حال إذا فَعَل كذا. لكن جَعْل الأجلين إنما يكون بجهلٍ في العواقب ممن يَجهل[١١] العواقب،

[١] ع - لم.
[٢] ع م + أنه لم يزل.
[٣] ن - أنه معبود أي ليس في الله شك.
[٤] ن + ذنوبكم.
[٥] م: مأخوة.
[٦] ن: أسلم.
[٧] ك: المغفر.
[٨] ع م + ويحتمل أيضا قوله يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم. سورة القصص، ٥٧/٢٨.
[٩] ن + جواب ما قالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا.
[١٠] ن ع م: يتعلق.
[١١] ن ع م: من يجهل.

فأمّا الله[1] سبحانه وتعالى هو[2] عالم بما كان ويكون، فلا يحتمل أن يَجعل له أجلين وهو عالم بما يكون، فإنما جَعَلَ[3] أجلَه بالذي عَلِمَ أنه يكون منه في الوقت الذي جَعَل. *والله الموفق*.

وقوله عز وجل: **قالوا إنْ أنتم إلا بشرٌ مِثلُنا تريدون أن تَصُدُّونا عما كان يَعبد آباؤنا،** في قولهم تناقض من وجهين. أحدهما أنهم تركوا طاعة رسلهم واتّباعهم لأنهم بشر مثلهم، ثم أطاعوا آباءهم واتّبعوهم في عبادة الأصنام وهم بشر مثلهم،[4] حيث قالوا: **تريدون أن تَصُدُّونا عما كان يَعبد آباؤنا،** فذلك تناقض في القول. والثاني أنهم لم يَرَوا الرسل متبوعين لأنهم[5] بشر، ثم لا يخلو هم بأنفسهم مِن أن يكونوا متبوعين استَتْبَعوا غيرهم مِن[6] دونهم، أو كانوا أتباعًا لغيرهم، حيث قالوا: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ،[7] فذلك تناقض في القول.

فأْتُونا بسلطان مبين، سألوا الحجة على ما دُعُوا إليه من ألوهية الله تعالى وربوبيته، أو على ما ادَّعَوْا من الرسالة من الله، وفي كل شيءٍ وَقَعَ عليه بصرُهم دلالةُ وحدانيةِ الله وألوهيتِه. لكنهم سألوا ذلك سؤالَ تعنُّت وعناد. وكذلك [الرسل] قد أقاموا الحجج على ما ادَّعَوْا من الرسالة، لكنهم تعاندوا وكابروا في رد ذلك، فسألوا[8] آية وحجة تَضطرهم وتَقهرهم على ذلك أو[9] يكون عند إتيانها هلاكهم. فأجابهم الرسل فقالوا: وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ،[10] أي ما كان لنا أن نأتيكم بآية يكون[11] بها هلاككم، إنما ذلك إلى الله إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل.

[1] ع م – الله.
[2] ك: فهو.
[3] ك: جعله.
[4] ع م – ثم أطاعوا آبائهم واتبعوهم في عبادة الأصنام وهم بشر مثلهم.
[5] ع م – لأنهم.
[6] ك – من.
[7] سورة الزخرف، ٤٣/٢٣.
[8] جميع النسخ + سؤال.
[9] ع + أن.
[10] الآية التالية.
[11] ع م: تكون.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[١١]

وقوله: **[قالت لهم رسلهم] إنْ نحن إلا بشر مثلكم**، أي ما نحن إلا بشر مثلكم. فيه دلالة[١] ردّ قول الباطنية؛ لأنهم ينكرون كون الرسالة في جوهر البشرية ويقولون: إنما تكون[٢] الرسالة في جوهر الروحانية. فهم صلوات الله عليهم إنما أجابوا قومهم حيث قالوا لهم: ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا، بقولهم:[٣] **إنْ نحن إلا بشرٌ مثلكم**، لم يَذكروا شيئًا سِوى البشرية، فدل أن قول الباطنية باطل حيث قالوا: **إنْ نحن إلا بشرٌ مثلكم**.

ولكنّ الله يَمُنّ على من يشاء من عباده، فيه دلالة نقض قول المعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن الله لا يختص أحدًا بالرسالة إلا من كان منه ما يستحق به الرسالة. وهم صلوات الله عليهم لم يَذكروا سِوى مِنّة الله عليهم. دل أنه يَمُنّ عليهم[٤] ويختصهم لا بشيء من الاستحقاق[٥] يكون منهم من الأعمال ولكن بالمِنّة[٦] والفضل منه عليهم.

وقوله عز وجل: **وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله**، هو ما ذكرنا:[٧] الإذن موضوعه الإباحة، هو مقابل الحَجْر. لكن الإذن المذكور في القرآن ليس كله على وجه واحد، ولكن يتّجه[٨] في كل موضع ويُحمَل[٩] على ما[١٠] يَلِيق به. قال الله تعالى: فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ،[١١] أي بنصر الله، لأن الهزيمة هي موضع النصر، يُحمَل[١٢] عليه. وقال: وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ،[١٣] أي بإنشاء الله، فعلى ذلك الإذن هاهنا، حيث قال: **وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله**،[١٤]

---

[١] ن ع م – فيه دلالة.
[٢] ن ع م: يكون.
[٣] ك ع م: وقولهم؛ ن: وقوله.
[٤] ع – دل أنه يمن عليهم.
[٥] ك ن – من الاستحقاق.
[٦] ك: المنة.
[٧] انظر تفسير الآية من سورة البقرة، ٢١٣/٢؛ وسورة يونس، ١٠٠/١٠؛ وسورة إبراهيم، ١/١٤.
[٨] ع: بجة.
[٩] جميع النسخ: ويحتمل.
[١٠] ن + لا.
[١١] ﴿فهَزَمُوهم بإذن الله وقَتَلَ داودُ جالوتَ وآتاه الله الملك والحكمة وعلَّمه مما يشاء﴾ (سورة البقرة، ٢٥١/٢).
[١٢] ع: يحتمل.
[١٣] سورة آل عمران، ٤٩/٣. وهذا محكي في الآية من كلام عيسى عليه السلام.
[١٤] ك – أي بإنشاء الله فعلى ذلك الإذن هاهنا حيث قال وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله.

أي بإنشاء الله السلطانَ وإجرائِه على أيدينا. ويُحمَل[1] الإذن المذكور في القرآن على ما يَصلُح ويَلِيق بما تقدم ذكره. ويحتمل الإذن هاهنا الأمر، أي[2] بأمر الله نأتي،[3] أي إن أمرنا الله بذلك نأتي به.

وقوله عز وجل: **وعلى الله فليتوكل المؤمنون**، يشبه أن يكون ذكر هذا على إثر وعيد وأذًى كان منهم إليهم، فقالوا: على الله يَتَّكِل ويعتمد المؤمنون في دفع وعيدكم وأذاكم. وقوله: **وعلى الله فليتوكل المؤمنون**، هذا يخرج على وجهين. أحدهما على الأمر، أي على الله توكّلوا أيها المؤمنون في جميع ما يتوعّدكم[4] أهل الكفر وفي جميع أموركم. ويحتمل على الإخبار عن صنيع المؤمنين أنهم إنما يتوكّلون على الله، وعليه[5] يعتمدون[6] في جميع أمورهم، ومنه يَرَوْن كل خير وبِرّ، لا بالأسباب التي لهم ولا يَرَوْن [حصولها] منها. وأمّا أهل الكفر فإنما يتوكّلون ويعتمدون على الأسباب،[7] ومنها يَرَوْن كل سَعَة وخير. *والله أعلم*.

﴿وَمَا لَنَا أَنْ لَا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[١٢]

وقوله عز وجل: **وما لنا أن لا نتوكلَ على الله**، كأنّ هذا يخرج على إثر جواب كان منهم لَمّا قال الرسل: وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ،[8] فأجابوهم بحرف، فعند ذلك قال الرسل: **وما لنا أن لا نتوكلَ على الله**، لكنه لم يذكر ما كان منهم، ولكن ذكر جواب الرسل لهم: **وما لنا أن لا نتوكل على الله**.

وقد هَدانا سبلَنا، قال بعضهم: وقد بيّن لنا سلوك سبلنا. وعندنا قوله: **وقد هَدانا**، أي وَفَّقَ لنا السلوك في السبل التي علينا أن نَسلكها وأكرم لنا ذلك. أي ما لنا أن[9] لا نتوكل[10] عليه في النصر والظفر عليكم

---

[1] ع م: ويحتمل.
[2] ع – أي.
[3] ن ع: يأتي.
[4] ن ع م: ما يوعدكم.
[5] ن ع م: وبه.
[6] ك: على الله ويعتمدون به.
[7] جميع النسخ: بالأسباب.
[8] الآية السابقة.
[9] ع – أن.
[10] م: ما لنا ألا نتوكل.

وقد وَفَّقَنا وأكرمنا السلوك في السبل التي علينا سلوكها، وذلك أعسر من القيام للأعداء والنصر بهم. وقد أكرمنا ما هو أعسر وأعظم، فأنْ ينصرَنا أولى. **والله أعلم.**

وقوله عز وجل: **ولَنَصبرنَّ على ما آذيتمونا**، يحتمل أن يكون هذا قبل أن يؤمَروا[١] بالقيام / لهم والاستنصار منهم، أُمِروا بالصبر على أذاهم، فقالوا: **ولَنَصبرنَّ على ما آذيتمونا.** [٣٨٤ظ]

ويشبه أن يكون قوله: **وما لنا أن لا نتوكلَ على الله**، أنهم قالوا ذلك لما كان أهل الكفر في كثرة وكان أهل الإسلام وأتباع الرسل في قلة، يَستَقِلّون أهل الإسلام ويُعاتِبون على ذلك، فقالوا عند ذلك: وما كان لنا أن لا نتوكل على الله بالنصر[٢] على أعدائنا والغَلَبَة عليهم وقد أكرمنا بما ذكر.

وقوله عز وجل: **وعلى الله فليتوكل المتوكلون**، كأنه يخرج على الأمر، أي على الله فتوكلوا لا تتوكلوا على[٣] غيره. ويشبه أن يكون على الخبر، أي لا يتوكل المؤمن إلا على الله، لا يتوكل على غيره، كقول الرسول حيث قال: إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ،[٤] الآية، وهو قول هود وقول المؤمنين: عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا،[٥] الآية، ونحوه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾[١٣]

وقوله عز وجل: **وقال الذين كفروا لرسلهم لَنُخرجنّكم من أرضنا**، الإخراج يحتمل وجوها ثلاثة. أحدها على حقيقة الإخراج من البلد إلى غيره من البلدان والأَرَضِين. ويحتمل الإخراج الحبس،[٦] أي لَتَحبسنّكم عن الانتفاع[٧] بالبلد وبأهله وبما فيه. ويحتمل الإخراج القتل، أي لَنَقتلنّكم.[٨] وقد كان أهل الكفر يُوعِدون ويخوّفون الرسل وأتباعهم بهذه الوجوه[٩] الثلاثة،

---

[١] ن ع م: أن يأمروا.
[٢] ن ع + لنا.
[٣] م – على.
[٤] ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾ (سورة هود، ٥٦/١١).
[٥] ﴿على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ (سورة الأعراف، ٨٩/٧).
[٦] ك ن ع + لنخرجنكم؛ ع: الجنس.
[٧] ك + بها.
[٨] ك ع م: نقتلكم؛ ن: نقتلنكم.
[٩] ك ع م – الوجوه.

كقوله: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا،[١] الآية، ونحوه. ثم في وعيدهم الذي أوعدوا الرسل[٢] وجوهٌ[٣] ثلاثة حيث تجاسروا [على] الإقبال[٤] [على] الرسل بمثل هذا الوعيد[٥] ومع الرسل آيات وحُجج.
أحدها أنهم رأوْا أنفسهم مسلَّطين على أولئك قاهرين عليهم وكانوا أهل كبر وتجبُّر.[٦] ألا ترى أنه قال: وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ.[٧] دل هذا أنهم كانوا رأوْا أنفسهم كما ذكرنا أهل تسليط وتجبُّر.

والثاني قالوا ذلك لهم لِما لم يكن عندهم ما يَدفعون حُجج الرسل وبراهينهم، فهَمُّوا بقتلهم[٨] وإخراجهم لعجزهم[٩] عن دفع ما ألزمهم الرسل. وهكذا الأمر المتعارَف بين الخَلْق أنّ الخصم لا يقصد إهلاك خصمه ما دام له الوصول[١٠] إلى الحِجاج، فإذا عجز عن ذلك فعند ذلك يَهُمّ بقتله ويقصد[١١] إهلاكه.

والثالث جواب الرسل إياهم عند القول السيء[١٢] بالقول الذي ليس فوقه أحسن منه.

وقوله عز وجل: **أو لَتَعُودُنَّ في ملتنا**، الملة الدين، كقوله: «لا يَتَوَارَثُ أهلُ مِلَّتَين»،[١٣] وقوله: مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا،[١٤] أي دين إبراهيم. وقوله: **لَتَعُودُنَّ**، ليس أنهم كانوا فيها فتركوها،[١٥] ولكن على ابتداء الدخول فيها على ما ذكرنا.[١٦]

وقوله عز وجل: **فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين.**

---

[١] ﴿وإذ يَمكُرُ بك الذين كفروا لِيُثْبِتُوك أو يَقتلوك أو يُخرِجوك ويَمكُرُون ويَمكُرُ الله والله خير الماكرين﴾ (سورة الأنفال، ٨/٣٠).
[٢] ن: الرسول.
[٣] جميع النسخ: وجوها.
[٤] جميع النسخ: إقبال.
[٥] وعبارة *الشرح* هكذا: «حيث تجاسروا بمثل هذا الوعيد على المشافهة» (*شرح التأويلات*، ورقة ٤١٧و).
[٦] ع: وتجبر.
[٧] سورة إبراهيم، ١٤/١٥.
[٨] جميع النسخ: قتلهم.
[٩] ع: بعجزهم.
[١٠] ن – الوصول.
[١١] ع: بهم بقتله وبقصده؛ م: وبقصده.
[١٢] ع: السيئ.
[١٣] جميع النسخ: الملتين. وانظر للحديث: *سنن ابن ماجة*، الفرائض ٦؛ و*سنن أبي داود*، الفرائض ١٠؛ و*سنن الترمذي*، الفرائض ١٦.
[١٤] ﴿وقالوا كُونُوا هُودًا أو نصارى تهتدوا قل بل ملةَ إبراهيمَ حَنِيفًا وما كان من المشركين﴾ (سورة البقرة، ٢/١٣٥).
[١٥] ك: وتركوها.
[١٦] انظر تفسير الآية من سورة الأعراف، ٧/٨٨.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[١٤]

ولَنُسْكِنَنَّكم الأرض مِن بَعدهم، وَعَدَ لهم النصرَ والظفرَ عليهم والتمكينَ في أرضهم مع قلة عدد[١] أتباع الرسل وضَعْفِ أبدانهم ومع[٢] كثرة الأعداء وقوة أبدانهم، لِيَعلموا أنهم إنما قالوا ذلك بوحيٍ مِن الله ووَعْدِه إياهم لا مِن حيث أنفسهم. ***والله أعلم***. فكان على ما أخبروا، فكان ذلك مِن آيات رسالتهم.[٣] وما [كان] يَنبغي لهم أن يَطلبوا[٤] مِن الرسل الآيات والحُجج على ما ادَّعَوْا؛ لأنهم لم يَدعوهم إلى طاعة أنفسهم أو عبادتها،[٥] إنما دَعَوْهم[٦] إلى وحدانية الله تعالى وألوهيته وجَعْلِ الطاعة[٧] والعبادة له دون ما عبدوها مِن الأصنام، وذلك في شهادة خِلْقَتِهم وشهادةِ كلِّ خِلْقَةٍ وإنْ لَطُفَ وصَغُر. فلم يحتاجوا[٨] إلى أن يقيموا[٩] البراهين والحُجج على ما ادَّعَوْا[١٠] ودَعَوْهم إليه؛ لكنهم كانوا قومًا معانِدين مكابِرين لا يَقبلون قولهم ولا يصدّقونهم تعنُّتًا منهم وتكبُّرًا، لم يَنظروا في خَلْق الله لِيُدركوا آثار وحدانية الله[١١] وألوهيته، فكُلِّفُوا إقامةَ الحُجج والآيات لئلا يكون لهم مقال واحتجاج وإن لم يكن لهم الاحتجاج. ***والله أعلم***.

وقوله عز و جل: **ذلك لمن خاف مَقامي**، الآية، قوله تعالى: **ذلك**، يحتمل وجوها؛ لأنه قد سبق خصال ثلاث ما يحتمل رجوع هذا الحرف إلى كل واحد[١٢] مِن ذلك. أحدها قوله: إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ،[١٣] فيحتمل قوله: **ذلك**، المَنّ والفضل، **لمن خاف مَقامي وخاف وَعيدِ**. وسبق أيضا قوله: وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ،[١٤] أي[١٥] **ذلك**،

---

[١] م: عددهم.
[٢] م: مع.
[٣] ن: رسلهم.
[٤] ك + لهم.
[٥] ع م: أو عبادتهم.
[٦] ن – إنما دعوهم.
[٧] م: الطاعات.
[٨] جميع النسخ: فلم يحتجوا.
[٩] جميع النسخ: إلى أن يقوموا.
[١٠] ع + هم؛ م: ما ادعوهم.
[١١] ك ن ع: وحدانيته.
[١٢] ع: أحد.
[١٣] سورة إبراهيم، ١١/١٤.
[١٤] سورة إبراهيم، ١٢/١٤.
[١٥] م + على.

الهدى والسُّبل التي هدانا إليها، أي **ذلك**، الهدى والهداية، **لمن خاف مَقامي وخاف وَعيدِ**. وسبق أيضا: فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ،[1] الآية، أي **ذلك**، النصر والظفر بهم والتمكين في الأرض، **لمن خاف مَقامي وخاف وَعيدِ**.

ثم[2] قوله: **ذلك لمن خاف مَقامي وخاف وَعيدِ**، قال بعضهم: **خاف مقامي**، في الدنيا والآخرة. وتأويله -والله أعلم- أي خاف سلطاني ونِقْمَتي وعذابي في الدنيا والآخرة، أمّا في الدنيا لِما نَزَلَ بمكذِّبِي رُسلِه وأنبيائه، وخاف وعيده[3] وعذابه في الآخرة حيث وعد أنه يَحُلّ بهم بالتكذيب وتَرْكِ الإجابة. وقال[4] بعضهم: **خاف مَقامي**، في الآخرة، وهو كقوله: يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ،[5] يخاف ذلك المَقام، وخاف ما وعد من العذاب في النار.

ثم قوله: **مَقامي**، حيث أضاف إليه ليس في الاشتباه[6] بأقلَ مِن قوله: اِسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ،[7] وأقلّ مِن[8] قوله: وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ،[9] وقوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ،[10] الآية، وأمثاله.

[٣٨٥و] فكيف اشتَبَهَ هذا على أهل[11] التشبيه و لم يَشْتَبِهْ قوله: **مقامي**، / حيث سألوا في ذلك و لم يَسألوا[12] في هذا، وهذا إن لم يكن أكثر في الاشتباه فليس بأقلّ. والأصل في هذا وأمثاله مِن قوله: إِلَيْهِ الْمَصِيرُ،[13] وإِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ،[14] وَإِلَيْهِ مَآبِ،[15] وَإِلَيْهِ مَتَابِ،[16] ذكر هذا وإن كان الخلائق جميعًا في الدارَين جميعًا[17] يكون مصيرهم ومرجعهم إليه لأنه جلّ وعلا لم يخلقهم للمُقام في الدنيا والدوام فيها،

---

[1] الآية السابقة.
[2] ع – ثم.
[3] ن ع م: وعيد.
[4] ن: قال.
[5] سورة المطففين، ٦/٨٣.
[6] ن: في الاشباه.
[7] سورة الأعراف، ٥٤/٧؛ وسورة يونس، ٣/١٠، وغيرها.
[8] م – على العرش وأقل من.
[9] ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾ (سورة الفجر، ٢٢/٨٩).
[10] سورة البقرة، ٢١٠/٢.
[11] ع م – أهل.
[12] م – في ذلك و لم يسألوا.
[13] سورة المؤمن، ٣/٤٠.
[14] سورة الأنعام، ٦٠/٦؛ وسورة يونس، ٤/١٠.
[15] سورة الرعد، ٣٦/١٣.
[16] سورة الرعد، ٣٠/١٣.
[17] م – جميعا في الدارين جميعا.

إنما خلقهم للزوال عنها والفناء والمقام في الآخرة والدوام فيها. لكنْ خَلَقَهم في هذه الدنيا[١] لِيَمتحنهم، ويُبْتَلَوْن فيها ثم يَصيرون إلى دار المقام. فالآخرة هي المقصودة[٢] في خَلْقِهم في الدنيا لا الدنيا. فإذا كان[٣] كذلك أضاف المصير إلى نفسه لما هو المقصود في خَلْقِهم وإن[٤] كانوا في الدنيا والآخرة صائرين[٥] إليه غيرَ غائبين عنه طَرْفَةَ عين ولا فائتين. **وبالله النجاة.**

ذَكَرَ اللهُ[٦] عز وجل أنباء الرسل الماضية وأتباعهم وأنباء أعدائهم، وما عامل بعضُهم بعضًا وما نزل بالأعداء بما عاملوا رسلهم مِن العذاب والاستئصال وأنواع البلايا، وما أكرم رسلَه وأتباعهم وأولياءهم مِن النصر على أعدائهم والظفر بهم والتمكين في الأرض، وجَعَلَ ذلك كلَّه كتابًا بالحكمة يُتلَى لِيُعلَم أنْ كيف[٧] يُعامَل[٨] الأعداء والأولياء ولِيُرغَب[٩] فيما استوْجَب الأولياء مِن الكرامات ولِيَحذروا عن مثل صنيع الأعداء،[١٠] ولِيَعلموا أنْ كيف عامل الله رسلَه وأولياءه وكيف عامل الرسل ربَّهم. أضاف الرسلُ جميعَ ما نالوا[١١] مِن الخيرات والكرامات إلى الله كأنْ لا صنعَ لهم في ذلك حيث قالوا: إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.[١٢] ذكر قوله: إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، لِيُعلَم أنَّ الخير ليس يكون بالجوهر، ولكن بفضلٍ[١٣] مِن الله وبرحمته، وقوله عز وجل: وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا،[١٤] وأمثاله، أضافوا[١٥] ذلك إليه كأنهم لا صنعَ لهم في ذلك. وذَكَرَ اللهُ[١٦] عز وجل ما أكرم أولياءه ورسلَه مِن النصر والتمكين والإنزال في الديار كأنهم استوْجَبوا ذلك بفعلٍ[١٧] كان منهم،

---

[١] م – في هذه الدنيا.
[٢] ع م: المقصود.
[٣] ك: فإذ لكان.
[٤] م – وإن.
[٥] ع م: صابرين.
[٦] ك – الله.
[٧] ع م – أن كيف.
[٨] م: مقابل.
[٩] ع م: ليرغب.
[١٠] ن – والأولياء وليرغب فيما استوجب الأولياء من الكرامات وليحذروا عن مثل صنيع الأعداء.
[١١] م: ما يأتوا.
[١٢] سورة إبراهيم، ١١/١٤.
[١٣] ن: يفضل.
[١٤] الآية السابقة.
[١٥] ع: وأضافوا.
[١٦] ن – الله.
[١٧] م: بفضل.

وهو قوله: **ذلك**، أي ذلك النصر والتمكين وما ذكرنا مِن الوجوه، **لمن خاف مَقامي وخاف وَعيدِ**، ذَكَرَ كأنهم[١] استوْجَبوا ذلك، لا أنْ كان مِن الله ذلك[٢] بحقِّ إفضالٍ وامتنانٍ، لِيَعلموا معاملةَ الله رسلَه وأولياءَه ومعاملةَ الرسل والأولياء سيدَهم ومولاهم. ***والله أعلم***.

﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[١٥]

وقوله عز وجل: **واستَفْتَحوا**، يحتمل وجهين. أحدهما الاستنصار، استنصروا الله على أعدائهم، كقوله: وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا،[٣] أي يستنصرون. والثاني **واستفتحوا**، أي تحاكموا إلى الله في النصر للأحق منهم والأقرب إلى الحق، كقوله: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا،[٤] الآية،[٥] وهو التحاكم إليه.

وقوله عز وجل: **وخاب كلُّ جبّار عنيد**، هو ما ذكرنا، تحاكموا إلى الله فنَصَر أولياءه وأهلك أعداءه على ما ذُكر أنّ أبا جهل قال: اللهم دينك القديم وأياديك الحسنة، أيّنا كان أحبّ إليك وأقرب مِن الحق[٦] فانصره. فنَصَر المؤمنين وأهلك الأعداء. وقوله: **وخاب كلُّ جبّار عنيد**، أي [من] تجبّر على رسله وأوليائه. والعَنيد قيل: المُعرِض المُجانِب عن الحق والطاعة. وقال بعضهم: الجبّار القاتل على الغضب، والضارب على الغضب.[٧] وهو ما ذكرنا.[٨]

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾[١٦]

وقوله عز وجل: **مِن ورائه جهنمُ**، أي مِن وراء عذاب[٩] الدنيا لهم[١٠] جهنم وعذابه. وقوله:[١١] **مِن ورائه جهنمُ**، الوراء قد يُستعمَل[١٢] في أمام وخلف، أي مِن أمام ما حَلّ بهم جهنم. ويحتمل وراء ما أصابهم ما ذكر.

---

[١] ع م: أنهم..

[٢] ك: كان ذلك من الله؛ ع م + من الله.

[٣] ﴿ولمّا جاءهم كتاب مِن عند الله مُصَدِّقٌ لِمَا معهم وكانوا مِن قبلُ يَستفتِحون على الذين كفروا فلمّا جاءهم ما عَرَفُوا كفروا به فلعنةُ الله على الكافرين﴾ (سورة البقرة، ٨٩/٢).

[٤] ﴿ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ (سورة الأعراف، ٨٩/٧).

[٥] ك – الآية.

[٦] ك: إلى الحق.

[٧] ن – والضارب على الغضب.

[٨] انظر تفسير الآية من سورة هود، ٥٩/١١.

[٩] ع: العذاب.

[١٠] م + عذاب.

[١١] ك: قوله.

[١٢] ن: قد تستعمل.

وقوله عز وجل: **ويُسقَى مِن ماءٍ صَدِيد،** أي يُسقَى في جهنم صَدِيدًا[١] مكانَ ما يُسقَون في الدنيا الماء،[٢] وهو الذي يَسِيل مِن القُروح[٣] والجروح.[٤] جَعَل الله للكافرين[٥] في الآخرة مكانَ ما كان لهم في الدنيا لباسًا وشرابًا وطعامًا ما كانت تَكرهه أنفسهم. جَعَل مكانَ ما يُسقَون في الدنيا من الماء في النار الصَّدِيدَ والغِسْلِين[٦] والحَمِيم،[٧] ومكانَ الطعام في الدنيا في النار الزَّقُّوم[٨] والضَّرِيع،[٩] ومكانَ اللباس القَطِرَان[١٠] ونحوه. ومكانَ القَرِين والصديق في الدنيا يجعل قَرِينه الشيطان، كقوله: وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ؛[١١] إذ[١٢] ذلك كلّه كان[١٣] يمنعهم عن دين الله ويصدّهم عن ذكره[١٤] لِيكون جزاؤهم مِن نوع ما كان يمنعهم في الدنيا عن طاعته. ثم قال بعضهم: إن الصَّدِيد الذي يُسقَون هو أنّ[١٥] النار تجرحهم وتَقْرَحهم، فيَسِيل مِن ذلك الصَّدِيد فيُسقَون مِن ذلك. وقال[١٦] بعضهم: لا، ولكن يجعل شرابهم فيها صَدِيدًا كشراب أهل الجنة وطعامهم مِن غير أصل. وقوله: **ويُسقَى مِن ماءٍ صَدِيد،** يحتمل[١٧] يُسقَى مِن ماءٍ في ظنّهم ماء وهو في الحقيقة صَدِيد. ويحتمل أن يكون في الحقيقة والظاهر صديدًا،[١٨] لكن يَشربون رجاءَ أنْ يَدفع عطشَهم.

---

١ ن ع م: صديد.
٢ ك ع م – الماء.
٣ القروح جمع القَرْح والقُرْح، لغتان بمعنى الجرح الحاصل من السلاح ونحوه مما يَجرَح الجسد، وما يَخرُج بالبدن من الجراحات بسبب الأمراض (*لسان العرب* لابن منظور، «قرح»).
٤ ع م – والجروح.
٥ ك ع م: للكافر.
٦ م: في النار الغسلين والصديد. يقول الله تعالى: ﴿ولا طعامٌ إلا مِن غِسْلِين﴾ (سورة الحاقة، ٣٦/٦٩).
٧ ﴿فشَارِبُون عليه مِن الحَمِيم﴾ (سورة الواقعة، ٥٤/٥٦).
٨ ﴿إنّ شجرةَ الزَّقُّوم. طعامُ الأثيم﴾ (سورة الدخان، ٤٣/٤٤-٤٤).
٩ ﴿ليس لهم طعامٌ إلا مِن ضَرِيع﴾ (سورة الغاشية، ٦/٨٨).
١٠ ﴿سَرَابِيلُهم مِن قَطِرانٍ وتَغْشَى وجوهَهم النارُ﴾ (سورة إبراهيم، ٥٠/١٤).
١١ سورة الزخرف، ٣٦/٤٣.
١٢ ع م: أنه.
١٣ ع م – كان.
١٤ م: عن ذكر الله.
١٥ ن – أن.
١٦ ع م: فقال.
١٧ ع م: ويحتمل.
١٨ ن ع م: صديد.

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[١٧]

وقوله عز وجل: **يَتَجَرَّعُه**، قال أبو عَوْسَجَة: التجرُّع ما يَشربه مُكرَهًا عليه، **ولا يَكاد يُسِيغُه**، يقال: أَسَغْته، أي أدخلته في الحَلْق.[١] [و]يقال: أَسَغْته فساغ، أي دخل سهلاً مِن غير أن يؤذيه. وكذلك قيل في قوله: سَائِغٌ شَرَابُهُ،[٢] أي سهل في الحَلْق. وساغ[٣] في حَلْقه،[٤] إذا دخل دخولاً سهلاً لا يؤذيه.

[٣٨٥ظ] وقوله[٥] عز وجل: **ويأتيه الموت مِن كل / مكان**، قال قائلون: يأتيهم الغَمّ والهَمّ مِن كل مكان. وكذلك المتعارَف في الخَلْق إذا اشتدّ بهم الغَمّ والهَمّ والشدة يقال: كأنك ميت أو تموت غَمًّا. وقال بعضهم: **ويأتيه الموت**، أي أسباب الموت ما لو كان مِن قضائه الموت فيها لمَاتوا لشدة ما يَحُلّ بهم، ولكن قضاؤه أنْ لا[٦] يموتون فيها. **وما هو بميّت**، موتَ حقيقةٍ يَستريح مِن العذاب. وقوله: **من كل مكان**، قال بعضهم: من كل ناحية، مِن فوق ومِن تحت ومِن خلف ومِن قدّام، كقوله: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ،[٧] وقال: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ.[٨] أخبر أنّ النار تأتيهم وتأخذهم مِن كل جانب ومِن كل جهة. ويحتمل **من كل مكان**، أي مِن كل سبب مِن تلك الأسباب التي تأتيهم ما لو كان قضاؤه الموت لمَاتوا بكل سبب مِن تلك الأسباب. وقال بعضهم: أي ليس مِن موضعٍ مِن جسده ومِن سائر جوارحه[٩] إلا الموت يأتيه منها مِن شدّة ما يَحُلّ بهم حتى يجدوا طَعْمَ الموت وكَرْبَه.[١٠]

وقوله: **ومِن ورائه**، أي مِن وراء[١١] ذلك العذاب، **عذابٌ غليظ**، لا ينقطع ولا يَفْتُر. وَصَفَه بالغِلَظ والشدة لِدوامه والإياس عن انقطاعه. *والله أعلم*.[١٢]

---

[١] ع: في الحق.
[٢] سورة فاطر، ١٢/٣٥.
[٣] ع م – أي دخل سهلا من غير أن يؤذيه وكذلك قيل في قوله سائغ شرابه أي سهل في الحلق وساغ.
[٤] ع: في خلقه.
[٥] ن: قوله.
[٦] ع م: أي لا.
[٧] سورة الزمر، ١٦/٣٩.
[٨] سورة الأعراف، ٤١/٧.
[٩] ع: خوارجه.
[١٠] ك: وكرمه.
[١١] ك: ومن وراء.
[١٢] ن – والله أعلم.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾[١٨]

وقوله عز وجل: **مَثَلُ الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ**، هو[١] -والله أعلم- على التقديم والتأخير،[٢] أي مَثَلُ أعمالِ[٣] الذين كفروا بربهم **كرمادٍ اشتدّت به الريح**. ثم يحتمل[٤] **أعمالهم**، الأعمال التي كانت لهم في حال إيمانهم ثم كفروا، [و]ما أحدثوا[٥] مِن الكفر أَبْطَلَ[٦] الأعمالَ الصالحة في الإيمان، وهو ما ذكر: وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ.[٧] أو يكون [**أعمالهم**] محاسنهم التي كانت لهم في حال الكفر طَمعوا أن يَنتفعوا بتلك المحاسن في الآخرة، فما انتفعوا بها، فصارت كالرماد الذي تَذْرُوه الريح[٨] الشديدة، لم يَنتفع صاحب ذلك الرماد به بعد ما عَمِلَت به الريح ما عَمِلَت. فعلى ذلك الأعمال الصالحة التي عَمِلُوها في حال كفرهم أو أعمالهم[٩] الصالحة التي كانت لهم في حال الإيمان ثم أحدثوا الكفر لا ينتفعون بها. وقال في آية آخرى: أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ،[١٠] فيشبه أن يكون هذا في أعمالهم السيئة في أنفسها فرأَوْها صالحة حسنة، كقوله: سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا.[١١] فيُشَبّه[١٢] ما كان في نفسه سَيِّئًا[١٣] بالسراب[١٤] لأنه لا شيءَ هنالك، إنما يَرَى خيالاً، فعلى ذلك أعمالهم السيئة في أنفسها فرأَوْها حسنة صالحة وما كانت[١٥] [كذلك]. وما شَبّهه بالرماد فهي أعمال صالحة[١٦] في أنفسها[١٧] لكن الكفر أَبْطَلَها.

---

[١] ك: وهو.
[٢] ن ع م - والتأخير.
[٣] ك: أعمالهم.
[٤] ك: تحتمل.
[٥] ع م: بما أحدثوا.
[٦] جميع النسخ + ذلك؛ ن ع: بطل.
[٧] سورة المائدة، ٥/٥.
[٨] ع: الرياح.
[٩] ك: وأعمالهم.
[١٠] ﴿والذين كفروا أعمالهم كسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووَجَدَ اللهَ عنده فوَفّاه حسابه والله سريع الحساب﴾ (سورة النور، ٣٩/٢٤).
[١١] ﴿أفمَن زُيِّنَ له سُوءُ عملِه فرآه حَسَنا فإنّ الله يُضِلّ مَن يشاء ويَهدي مَن يشاء فلا تَذْهَبْ نفسُك عليهم حَسَرَاتٍ إنّ الله عليم بما يَصنعون﴾ (سورة فاطر، ٨/٣٥).
[١٢] ك: فشبه.
[١٣] ن: شيا؛ م: سيبا.
[١٤] ن - بالسراب.
[١٥] جميع النسخ: كان.
[١٦] ع م: الصالحة.
[١٧] ع: في نفسها.

وقوله عز وجل: **في يومٍ عاصف**، اليوم لا يكون عاصفًا، ولكن على الإضمار كأنه قال: في يومٍ فيه ريحٌ عاصف،[١] كقوله: وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا،[٢] النهار لا يُبصِر ولكن يُبصَر فيه أو يُبصَر به. والعاصف قيل: هو القاصف الكاسر الذي يكسر الأشياء. أو يكون قوله: **اشتدّت به الريح**،[٣] والعاصف[٤] حرفين[٥] يؤدّيان جميعا معنى واحدا.[٦]

وقوله عز وجل: **لا يَقدِرون مما كسبوا على شيء**، كالرماد الذي ذكرنا أنّ صاحبَه لا يَقدِر عليه[٧] بعد ما عَمِلَت به الريحُ وذَرَتْه. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **ذلك هو الضلال البعيد**، يحتمل **ذلك**، الكفر، **هو الضلال البعيد**، لا نجاة فيه أبدًا. أو **ذلك**،[٨] الكفر[٩] الذي أَتَوْا به بعيد عن الحق. *والله أعلم*.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[١٩]

وقوله عز وجل: **ألم تَرَ أنّ الله خلق السماوات والأرض، ألم تَرَ**، حرف تنبيه عن عجيبٍ بَلَغَه وعَلِمَ به [لكن] غَفَلَ عنه، أو نقول:[١٠] حرف تنبيه عن عجيب لم يَبلغه بَعدُ ولم يَعلم به. على هذين[١١] الوجهين يشبه أن يكون. *والله أعلم*.

وقوله[١٢] عز وجل: **خلق السماوات والأرض بالحق**، قال عامة أهل التأويل: **بالحق**، أي للحق. وتأويل قولهم -والله أعلم- للحق، أي للكائن[١٣] لا محالة، وهي الآخرة؛ لأنه خَلَقَ العالم الأول للعالم الثاني، والمقصود في خَلْق[١٤] هذا العالم هو العالم[١٥] الثاني.

---

[١] ك – اليوم لا يكون عاصفا ولكن على الإضمار كأنه قال في يوم فيه ريح عاصف.
[٢] ﴿هو الذي جَعَلَ لكم الليلَ لِتَسكُنُوا فيه والنهارَ مُبصِرا﴾ (سورة يونس، ١٠/٦٧).
[٣] م + والقاصف.
[٤] ك ن ع + والقاصف؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤١٨و.
[٥] جميع النسخ: حرفان.
[٦] ع: واحد.
[٧] جميع النسخ: به.
[٨] ك: وذلك.
[٩] ع م – الكفر.
[١٠] ك ن: أو يقول؛ ع: أو تقول.
[١١] ع م: على هذا.
[١٢] ن: قوله.
[١٣] ن ع م: للكافرين.
[١٤] ك – خلق.
[١٥] ع – هو العالم.

فكان خَلْقُهما[1] للثاني لا للأول؛ لأنه لو كان للأول[2] دون الثاني يَحصل خَلْقُهما للفناء، وذلك[3] خارج عن الحكمة، وهو ما قال: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ.[4] وقال قائلون: للحق الذي وَجَبَ له عليهم بالامتحان والابتلاء، خَلَقَهما للشهادة له على الممتحَن. أو يقول:[5] خَلَقَهما **بالحق**، أي بالحكمة.

وقوله: **أن الله خلق السماوات والأرض بالحق**، إن كان الخطاب به لرسول الله فيَصِير كأنه قال: قد[6] رأيتَ وعلمتَ أنّ الله خالق السماوات والأرض بالحق. وإن كان الخطاب به لغيره من أولئك يقول: اعلموا أنّ الله خلق السماوات والأرض بالحق، لم يخلقهما[7] عبثًا باطلاً.

وقوله عز وجل: **إن يَشَأْ يُذهِبْكم ويأتِ بخَلْقٍ جديد**، قال بعض أهل التأويل: هذه المخاطبة يخاطِب بها أهلَ مكة، يَذكُر قدرتَه وسلطانَه على بَعْثِهم بعد الموت والهلاكِ، [أي] يَقدِر على إذهابكم وإهلاككم ويَقدِر أيضًا أن يأتي بغيركم، فعلى ذلك يَقدِر على بَعْثِكم بعد مماتكم.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾[٢٠]

وقوله عز وجل: **وما ذلك على الله بعزيز**، قال أهل التأويل: أي عليه هَيِّن يَسِير. ولكن عندنا -والله أعلم- **وما ذلك**، أي ذهابكم وفناؤكم[8] ليس بشديد عليه ولا شاق، ليس كملوك الأرض إذا ذهب[9] شيء مِن مملكتهم[10] يشتدّ ذلك عليهم. فأمّا الله سبحانه وتعالى لا يَزيد الخَلْقُ في سلطانه ولا في ملكه ولا يَنقُص فناؤهم وذهابهم منه شيئا. كقوله: أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ،[11] أي أَشِدَّاء[12] عليهم، وهو / ما وصفهم عز وجل: أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ،[13] [٣٨٦و]

---

[1] م: خلقها.
[2] ع م - لأنه لو كان للأول.
[3] ن - وذلك.
[4] سورة المؤمنون، ١١٥/٢٣.
[5] ع: أو تقول؛ م: أو نقول.
[6] م - قد.
[7] م: لم يخلقها.
[8] جميع النسخ + عليه.
[9] ع م - ذهب.
[10] م - من مملكتكم.
[11] ﴿يا أيها الذين آمنوا مَن يَرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أَذِلَّةٍ على المؤمنين أَعِزَّةٍ على الكافرين﴾ (سورة المائدة، ٥٤/٥).
[12] جميع النسخ: شديد.
[13] ﴿محمد رسول الله والذين معه أَشِدَّاءُ على الكُفَّار رُحَمَاءُ بينهم﴾ (سورة الفتح، ٢٩/٤٨).

ذَكَرَ مكانَ الشدة العزة[1] ومكانَ الذلة هاهنا الرحمة. أو أن يكون قوله: **وما ذلك على الله بعزيز**، أي ما بَعْثُكم وإحياؤكم بعد الممات على الله بشاق ولا شديد.

﴿وَبَرَزُوا لِلهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾[٢١]

وقوله عز وجل: **وبَرَزُوا لله جميعا**، قال مُقاتِل: خرجوا إلى الله مِن قبورهم جميعا. وقال: **جميعا**، لأنه لا يُغادر أحدُ إلا بُعِث.[2] ويحتمل وجوها أُخَرَ سِوى ذلك. وهو أنّ قوله: **وبَرَزُوا لله**، أي لأمر الله أو لوعده[3] الذي وعد أنهم يُبعَثون. أو بَرَزُوا لِحُكم[4] الله يَحكُم في بعثهم. **وبَرَزُوا**، أي ظَهَرُوا[5] له[6] ووُجِدُوا، فيكونون له[7] موجودين ظاهرين بعد أن كانوا فائتين ذاهبين غائبين. أي عندهم في الدنيا أنهم كانوا[8] فائتين غائبين عن الله، فيومئذ يَعلمون أنه كان لا يَخفَى عليه شيء مِن أفعالهم وأحوالهم. وهو ما ذكرنا في قوله: لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ،[9] وقوله: حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ،[10] وأمثاله أنْ يَعلمهم[11] مجاهدين صابرين كما عَلِمَهم غيرَ مجاهدين وغيرَ صابرين. وكقوله: عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ،[12] يَعلمهم[13] شُهُودًا كما عَلِمَهم غَيْبًا. فعلى ذلك قوله: **وبَرَزُوا لله جميعا**، أي يكونون له موجودين ظاهرين.[14] ***والله أعلم.***

---

[1] ك ن: مكان العزة الشدة.

[2] *تفسير مقاتل بن سليمان*، ٤٠٢/٢.

[3] ع م: أي لوعده.

[4] جميع النسخ: أو يريد الحكم؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤١٨و.

[5] م: أظهروا.

[6] جميع النسخ: به.

[7] ك ن: به؛ ع م – له.

[8] ن ع م – كانوا.

[9] ﴿يا أيها الذين آمنوا لَيَبْلُوَنَّكم اللهُ بشيء مِن الصيد تَنالُه أيديكم ورِماحُكم لِيَعلمَ اللهُ مَن يَخافه بالغيب﴾ (سورة المائدة، ٩٤/٥).

[10] ﴿ولَنَبْلُوَنَّكم حتى نَعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونَبْلُوَ أخبارَكم﴾ (سورة محمد، ٣١/٤٧).

[11] ع: أي يعلمهم.

[12] سورة الأنعام، ٧٣/٦؛ وسورة الرعد، ٩/١٣؛ وغيرها.

[13] ع م: ويعلمهم.

[14] ك: له ظاهرين موجودين.

وإضافة البُرُوز إليه في الآخرة وإن كان بُرُوزُهم له في الدارَين جميعا وكذلك مِن المصير إليه[١] والمرجع إليه[٢] والمآب[٣] ونحوه فهو -والله أعلم- لِما لا يُنازِع أحد في البُرُوز في ذلك اليوم وقد يُنازِعونه في الدنيا. أو خصّ ذلك البُرُوز بالإضافة إليه[٤] لِما هو المقصود مِن إنشائه إياهم وخَلْقِهم، ليس المقصود في خَلْقِهم وإنشائهم الأول ولكن الآخر، فخصّ ذلك بالإضافة إليه. **والله أعلم**.

وقوله: **وبَرَزُوا لله جميعا**، أي يومئذ يَعلمون أنه كان لا يَخفَى عليه شيء، وكأنهم لم يكونوا يَعلمون قبل[٥] ذلك.

وقوله عز وجل: **فقال الضعفاء للذين استَكْبَروا إنّا كُنا لكم تَبَعًا فهل أنتم مُغْنُون عنا مِن عذاب الله مِن شيء**، قال قائلون: قوله: **فهل أنتم مُغْنُون عنا**، أي دافعون عنّا[٦] عذابَ الله إذ كنّا لكم أتباعًا[٧] وأنتم متبوعين، فادفعوا عنّا ذلك. لكن هذا بعيد أنْ يَطلبوا منهم دَفْعَ العذاب عنهم وقد رأَوْهم[٨] في العذاب، فلو قَدَرُوا على دَفعِ ذلك[٩] عنهم[١٠] لَدَفَعُوا أولاً عن أنفسهم إلا أن يكون فيهم حيرة وعَمًى كما كان في الدنيا، فللحيرة ما قالوا، كقوله: وَمَنْ كَانَ فِي هٰذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى.[١١] والأشبه أنهم يَطلبون عنهم رفعَ بعضِ[١٢] العذاب عنهم[١٣] وتَحَمُّلَ بعضٍ؛ لأن مؤنة الأتباع في العُرْف يتحمّلها المتبوع، فيَطلبون منهم رفعَ شيءٍ وتَحَمُّلَ بعضِ ما حَلَّ بهم. وهو ما ذكر في آية أخرى:[١٤] فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ،[١٥] طلبوا منهم تحمُّلَ بعضِ ما حَلَّ بهم.

---

[١] انظر مثلا: سورة المؤمن، ٣/٤٠.
[٢] انظر مثلا: سورة الأنعام، ٦٠/٦؛ وسورة يونس، ٤/١٠.
[٣] انظر مثلا: سورة الرعد، ٣٦/١٣.
[٤] ع م - إليه.
[٥] م: وقيل.
[٦] م + من.
[٧] م: تبعا.
[٨] ع م: رأوا هم.
[٩] ع م - ذلك.
[١٠] ك: عليهم.
[١١] سورة الإسراء، ٧٢/١٧.
[١٢] م - بعض.
[١٣] م - عنهم.
[١٤] م: في الآية الأخرى.
[١٥] ﴿وإذ يَتَحاجُّون في النار فيَقول الضعفاء للذين استَكْبَروا إنّا كُنّا لكم تَبَعًا فهل أنتم مُغْنُونَ عنا نصيبًا مِن النار﴾ (سورة المؤمن، ٤٧/٤٠).

وقوله عز وجل: **قالوا لو هدانا الله لهَديناكم**، قال بعض أهل العلم: إن الكفرة جميعًا أتباعهم ومتبوعَهم أعلمُ بهداية الله من المعتزلة؛ لأنهم قالوا: **لو هدانا الله لهَديناكم**،[١] عَلِمُوا أنّ الله عز وجل لو هداهم لاهْتَدَوْا ويملك هدايتَهم، والمعتزلة يقولون: قد هَدَى الله جميع الكفرة وجميعَ الخلائق فلم يَهتدوا، وإنه لو أراد أن يَهدي أحدًا لم يملك. والكفرة حيث قالوا: **لو هدانا الله لهَديناكم**، رأَوْا وعَلِمُوا أنّ الله لو هداهم لاهْتَدَوْا؛ لأنهم لو لم يَهتدوا بهدايته إذا هداهم[٢] لم يَعتذِروا إلى أتباعهم [بقولهم]: **لهَديناكم**. وكذلك[٣] قال[٤] إبليس: رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي،[٥] أضاف الإغواء إليه، وهم[٦] يقولون:[٧] لا يُغْوِي الله أحدًا، فإبليس أعلم بهذا[٨] من المعتزلة.

وقولهم: **لو هدانا الله**، أي لو رزقنا الله الهدى وأكرمنا[٩] به، **لهَديناكم**، ولكن لم يرزقنا ذلك ولم يكرمنا. وقال أبو بكر الأصم: تأويل قولهم: **لو هدانا الله لهَديناكم**، لو كان الذي كنّا عليه هُدًى لهديناكم. فهذا صَرْفُ ظاهرِ[١٠] الآية عن وجهها بلا دليل، فلو جاز له هذا[١١] جاز لِغيره صَرْفُ جميعِ الآيات عن ظاهرها بلا دليل، مع ما[١٢] أنّ الأتباع قد عَلِمُوا أنّ الذي كانوا عليه لم يكن هُدًى، فلا معنى لهذا.

وقوله عز وجل: **سواءٌ علينا أَجَزِعْنا أم صبرنا ما لنا مِن مَحِيص**، قال أهل التأويل: إنهم قالوا فيما بينهم: تَعالَوْا حتى نَجْزَع لعلّ الله يرحمُنا، فجَزِعُوا حِينًا فلم يُرحَموا، ثم قالوا: **تَعالَوْا** نَصبِر لعلّ الله يرحمُنا، فلم يُرحَموا، فعند ذلك قالوا: **سواءٌ علينا أَجَزِعْنا أم صبرنا ما لنا مِن مَحِيص**. لكن لا يحتمل أن يقولوا ذلك بعد الامتحان والاختبار،[١٣] لكن كأنهم قالوا ذلك بالذي سمعوا،

---

[١] ن – قال بعض أهل العلم إن الكفرة جميعا أتباعهم ومتبوعهم أعلم بهداية الله من المعتزلة لأنهم قالوا لو هدانا الله لهديناكم.

[٢] ع: إذ هداهم.

[٣] ع م – وكذلك.

[٤] ع م: وقال.

[٥] ﴿قال ربِ بما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لهم في الأرض وَلَأُغْوِيَنَّهم أجمعين﴾ (سورة الحجر، ١٥/٣٩).

[٦] ك – وهم.

[٧] ك: ويقولون.

[٨] ك ن: فإبليس بهذا أعلم.

[٩] ع: وأكبر منا.

[١٠] ع م: هذه.

[١١] ع + جاز له هذا.

[١٢] ن ع م + مع.

[١٣] ع: والاختيار.

وهو قوله: إِصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ،[١] لمّا[٢] سمعوا ذلك عند ذلك قالوا: **سواءٌ علينا أَجَزِعْنا أم صبرنا ما لنا مِن مَحِيص**، أي مَنْجًى ومَخْلَص. لا يحتمل أن يقولوا: **سواءٌ علينا أَجَزِعْنا أم صبرنا ما لنا مِن مَحِيص**، في أول أحوالهم وأمورهم، ولكن يحتمل ما ذَكَرَ أهلُ التأويل أنهم يقولون ذلك عند الإياس.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢٢]

وقوله عز وجل: **وقال الشيطان لمّا قُضِيَ الأمرُ**، قال بعضهم: **قُضِيَ الأمرُ**، أي [إذا] أُدخِل أهلُ[٣] الجنة الجنةَ وأهلُ النار النارَ يقوم إبليس خطيبًا في النار فيخطب[٤] كما ذكر. وقال قائلون: **قُضِيَ الأمرُ**، أي [إذا] مُيِّزَ وبُيِّنَ[٥] أهلُ الجنة مِن أهل النار قبل أن يدخل أهلُ[٦] النار النار وأهل الجنة الجنة قام خطيبًا / فخطب لأتباعه كما ذكر. ويحتمل قوله: [٣٨٦ظ] **لمّا قُضِيَ الأمرُ**، أي لمّا فُرِغَ مِن الحساب ومِن أمرهم عند ذلك يخطب ما ذكر، وهو كقوله:[٧] فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ،[٨] أي لمّا فُرِغ مِن السماع، فعلى ذلك هذا. وقال بعضهم: **لمّا قُضِيَ الأمرُ**، أي[٩] لمّا نزل[١٠] بهم العذاب. ويشبه أن يكون قوله: **لمّا قُضِيَ الأمرُ**، هو أنّ الله كان وَعَدَ أن يقوم إبليس خطيبا لهم فقُضِيَ الأمرُ، أي أَنْجَزَ ما وَعَد أنه يخطب. أو أن يكون لأهل الكفر لجَاجَات[١١] ومنازعاتٌ فيما بينهم يوم القيامة،

---

[١] سورة الطور، ٥٢/١٦.
[٢] ع م: ولما.
[٣] ع – أهل.
[٤] ك ن ع: فخطب؛ م: وخطب.
[٥] ن: وأبين.
[٦] ع – أهل.
[٧] ع: قوله.
[٨] ﴿وإذ صَرَفْنا إليك نَفَرًا مِن الجنّ يَستمعون القرآن فلمّا حضروه قالوا أَنصِتُوا فلمّا قُضِيَ وَلَّوْا إلى قومهم مُنذِرين﴾ (سورة الأحقاف، ٤٦/٢٩).
[٩] ن ع م + قضي ولو.
[١٠] ك م: لا نزل.
[١١] ع م: لحاجات.

كقوله: ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ،[1] وكقوله: فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ،[2] الآية، يَكذِبون في الآخرة ويكون لهم لَحَاجَة[3] على ما كان منهم في الدنيا. أو يحتجّون[4] فيقولون: إنّ إبليس هو كان غَلَبَنا وقَهَرَنا لأنه كان يَرانا ونحن لم نكن نَرَاه، فالمغلوب المقهور غير مأخوذ بما كان منه في حُكمِك. يحتجّون بمثل هذه[5] الخرافات واللَّجَاجَات ويقولون: هو الذي أَضَلَّنا، فيقوم عند ذلك إبليس خطيبا بينهم ويقول:[6] **وما كان لِيَ عليكم مِن سلطان،** حتى أَقْهَرَكم وأَغْلِبَكم إلا الدعاء، **فاستجَبْتم لي،** طائعين غير مقهورين ولا مُضطَرّين. والله أعلم بذلك.

وقوله عز وجل: **إن الله وَعَدَكم وَعْدَ الحق،** يشبه أن يكون وَعْدُه ما وَعَدَ على أَلْسُنِ الرسل أنّ البعث والجنة والنار والحساب والعذاب كائنٌ لا محالة،[7] أو جميع ما أَوْعَدَ مِن مَوَاعِيده، فذلك كلُّه حقٌّ، أي كائنٌ لا محالة. **ووَعَدْتُكم فأَخْلَفْتُكم،** يحتمل ما ذكر حيث قال: لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ،[8] وأمثاله مِن عِدَاتِه كانت كلُّها أَمَانِيَ وغُرُورًا وكذبًا.

وقوله عز وجل: **وما كان لِيَ عليكم مِن سلطان،** يحتمل السلطان وجهين. أحدهما أي[9] ما كان لي عليكم مِن ملك وقهر وغلبة أَقْهَرُكم وأَغْلِبُ عليكم إلا الدعاء، **فاستجَبْتم لي،** طَوْعًا. ويحتمل قوله: **مِن سلطان،** مِن حجة وبرهان، أي لم يكن لي حجة وبرهان على ما دَعَوْتُكم إليه، إنما كان لي دعاء ووساوس وكان مع[10] الرسل[11] حُجَج وبراهين، فتركتم[12] إجابتهم،

[1] سورة الأنعام، ٢٣/٦.
[2] ﴿يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون﴾ (سورة المجادلة، ١٨/٥٨).
[3] ن ع م: لحاجة.
[4] ع م: ويحتجون.
[5] ع: هذا.
[6] جميع النسخ: وقال.
[7] ع: كا محالة.
[8] ﴿وإذ زَيَّنَ لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جارٌ لكم فلمّا تَرَاءَتِ الفِئَتان نَكَصَ على عَقِبَيْه وقال إني بريء منكم إني أَرَى ما لا تَرَوْن إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾ (سورة الأنفال، ٤٨/٨).
[9] ك – أي.
[10] ع م – مع.
[11] م: للرسل.
[12] ع: فتركتكم.

فاستَجَبْتم لي، بلا حجة وبرهان،[1] أي لم أَقْهَرْكم ولم أَغْلِبْ عليكم. لكن هذا لا يصح؛ لأنه لو كان له عليهم سلطان القهر والغلبة لكانوا مَعْذُورِين غير مُعَذَّبِين، لأنّ المقهور والمغلوب مُضطَرّ، والمُضطَرّ[2] معذور، ولكن السلطان هو[3] الحجة.

وقوله عز وجل: **فلا تَلُومُونِي ولُومُوا أنفسكم**، ليس مراده -لعنه الله- أنه لا يُلَام، ولكن مراده أن[4] ارْجِعوا إلى لائِمَةِ[5] أنفسكم واشتغِلوا بها، فإنّ[6] ذلك كان منكم، لم يكن منّا إلا الدعاء.

وقوله عز وجل: **ما أنا بمُصْرِخِكم وما أنتم بمُصْرِخِيَّ**، قيل: ما أنا بناصركم وما أنتم بناصري. وقيل: ما أنا بمُغِيثكم وما[7] أنتم بمُغِيثِيَّ.[8] وقيل: ما أنا بمانعكم[9] وما أنتم بمانعِيَّ ما نزل بي. هذا كله واحد. وقوله: **ما أنا بمُصْرِخِكم**، أي ما أنا بمالكِ إغاثتِكم وإنقاذِكم وما أنتم بمالِكِي[10] إغاثتي، وإلا لو كان لهم مَلْكُ ذلك لَفَعلوا.

وقوله عز وجل: **إني كفرتُ بما أَشركتمونِ مِن قبلُ**، أي كفرتُ بما أَشركتموني في عبادة الله وطاعته، أي كنتُ بذلك كافرًا.[11] ويحتمل **إني كفرتُ**، أي تَبَرَّأْتُ اليوم مما[12] أَشركتموني مع الله في الطاعة والعبادة مِن قبلُ. أحدُ التأويلين يَرجِع[13] إلى أنه يتبرّأ في ذلك اليوم وقتَ ما قام خطيبًا. والثاني أي[14] كنت تبرّأتُ مِن ذلك في الدنيا، [وذلك] وقتَ ما[15] أَشركوه. **إنّ الظالمين لهم عذاب أليم**.

---

[1] م: ولا برهان.
[2] ك ن ع: فالمضطر.
[3] م – هو.
[4] ن ع م – أن.
[5] ع: إلى الأئمة.
[6] ع: وإن.
[7] ك: وأما.
[8] ك: بمغيثين لي.
[9] ع: بمنافعكم.
[10] م: بمالك.
[11] ك + ويحتمل إني كفرت بما أشركتموني من قبل أي كفرت بما أشركتموني في عبادة الله وطاعته أي كنت بذل ك كافرا.
[12] ن ع م: بما.
[13] ن ع م: ترجع.
[14] ن ع م: إني.
[15] م – ما.

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[٢٣]

وقوله عز وجل: **وأُدْخِلَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات [جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار]**، أي أُذِنَ لهم بالدخول في الجنة.[١]

وقوله: **خالدين فيها بإذن ربهم**، الإذن هاهنا كأنه الرحمة، أي خالدين فيها[٢] برحمة ربهم. **تحيتهم فيها سلام**، يحتمل السلام، ويحتمل الثناء، أي يُثْنُون على ربهم، كقوله: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ،[٣] الآية. وقوله: **تحيتهم فيها سلام**، قال بعضهم: يُسَلِّم بعضهم على بعض ويُحَيِّي بعضهم بعضا بالسلام. وقال بعضهم: السلام هو اسم كل خير ويُمْن وبركة، كما قال: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا.[٤] *والله أعلم*.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[٢٤] ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٢٥] ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾[٢٦]

وقوله عز وجل: **ألم ترَ**، قد ذكرنا[٥] أنّ كلمة **ألم ترَ**، حرف تنبيه عن عجيبٍ كان بَلَغَه فغَفَلَ عنه، أو تنبيه عن عجيب[٦] لم يَبْلُغْه. وقال أبو بكر الأصم: هي كلمة يَفْتَتِح[٧] بها العرب عند الحاجة، يقول الرجل لآخر: ألم تر إلى ما فعل فلان، ونحوه. هذا يحتمل في غيره من المواضع، وأمّا في[٨] هذا فإنه غير محتمل.

وقوله عز وجل: **ألم تر كيف ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا**، قيل: بَيَّنَ الله مَثَلًا وأَظْهَرَ، **كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ**، قال أبو بكر الكيساني: **كلمة طيبة**، هو هذا القرآن، و **كلمة خبيثة**، هي الكتب التي أحدثها الناس. شَبَّهَ القرآنَ بالشجرة الطيبة، وهي النخلة على ما ذُكِر إن ثبت، أو كلُّ شجرةٍ مُثْمِرَة.

---

[١] ك + وقوله الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار؛ ن ع م + قوله الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار.

[٢] ن + فيها.

[٣] ﴿وقالوا الحمد لله الذي أَذْهَبَ عنا الحَزَن إنّ ربَّنا لَغَفور شَكور﴾ (سورة فاطر، ٣٥/٣٤).

[٤] سورة مريم، ١٩/٦٢.

[٥] انظر تفسير الآية من سورة إبراهيم، ١٤/١٩.

[٦] ع: عن عجب.

[٧] ن ع م: تفتتح.

[٨] ك + غير.

وشَبَّهَ الكتبَ التي أحدثها الناس بالشجرة الخبيثة، وهي التي لا تُثْمِر. وقال: إنما شَبَّهَ القرآنَ بالشجرة الطيبة لأن الشجرة الطيبة هي باقية إلى آخر الدهر يَنتفع بها الناس بجميع أنواع المنافع لا يَقطعونها، فهي تَدُوم وتبقى دهرًا. فعلى ذلك القرآن / يَنتفع به[١] الناس، وهو دائم أبدًا. [٣٨٧و]

وقوله عز وجل: **أَصْلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السماء، أَصْلُها ثابتٌ**، لها قرار. فعلى ذلك القرآن[٢] هو ثابت بالحجج والبراهين، والكتب التي أحدثها أولئك هي باطلة فاسدة لا حجة معها ولا برهان، كالشجرة الخبيثة التي هي غير مُثْمِرَة لا بقاء لها ولا قرار ولا ثبات. وقال بعضهم: الكلمة الطيبة هي الإيمان والتوحيد، شَبَّهَها بالشجرة الطيبة وهي التي تُثْمِر وتَنْمُو وتَزْكُو،[٣] [و]هي على ما وَصَفَها عز وجل في قوله: **تُؤْتِي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذن ربها**، فعلى [ذلك] الإيمان والتوحيد لا يَزال يُثْمِر لأهله الخيراتِ والأعمالَ الصالحة كالشجرة التي وصفها أنها تُؤتِي أهلَها أُكُلَها في كل حين وكل وقت. **أَصْلُها ثابت**، بالحجج والبراهين، **وفَرْعُها في السماء**، في كل وقت يَرتفع ويَصعد به العمل[٤] إلى السماء. والكلمة[٥] الخبيثة[٦] هي الكفر؛ لأنه لا منفعة لأهلها فيها، إذ لا عاقبة له ولا حجة معها ولا برهان، إنما [هو] شيءٌ أَخَذُوه عن شهوة وأَمَانِيّ، فكان[٧] كالشجرة الخبيثة التي لا ثمرة لها[٨] ولا منفعة لأحد فيها، فهي لا تَبقى ولا تَدُوم، فذلك قوله: **اجْتُثَّتْ مِن فوق الأرض ما لها مِن قرار**.

ويشبه أن يكون ضَرْبُ المَثَلِ لغير[٩] هذا المعنى، وهو أنه ذَكَرَ جواهرَ طيبةً وجواهرَ خبيثةً مما يقع عليها الحواسّ ويقع عليها البصر ليكون كلُّ جوهر مِن هذه الجواهر التي يقع[١٠] عليها الحواسّ ويقع عليها البصر مِن خبيث أو طيب دليلاً وشاهدًا على ما غاب عن الخَلْق ولا يقع عليها الحواسّ. وهكذا جعل الله تعالى هذه المحسوسات والأشياء الظاهرة دليلاً وشاهدًا لِما غاب عنهم ولا يقع عليه الحسّ، تُدرَك[١١] بالعقول التي رَكَّبَ فيهم لِيُرَغِّبَ [في] الطيب مما يقع عليه الحسّ والبصر على الموعود الغائب

[١] ع م – بها.
[٢] ن – ينتفع به الناس وهو دائم أبدا وقوله عز وجل أصلها ثابت وفرعها في السماء أصلها ثابت لها قرار فعلى ذلك القرآن.
[٣] ن: وتزكوا؛ ع م: وتنموا وتركوا.
[٤] ك: العلمل.
[٥] ك – والكلمة.
[٦] ك: والخبيثة.
[٧] م: مكان.
[٨] ن: بها.
[٩] م: بغير.
[١٠] ك: تقع.
[١١] ك: يدرك.

ويُحذَر الخبيثُ المحسوس عما غاب وأوعد. وكذلك هذه الآلام والأمراض والشدائد[١] التي جَعَلَ في هذه الدنيا لِتَزْجُرَهم عن الأفعال التي بها يَستَوْجِبون مِثلَها في الآخرة. وكذلك[٢] النِعَم التي في الدنيا واللّذّات جَعَلَها لِتَدلهم[٣] على النعم الدائمة. على هذا يجوز أن يخرج، لا أنه أراد بالشجرة[٤] الطيبة الشجرة[٥] نفسها، أو بالشجرة الخبيثة الشجرة[٦] نفسها، ولكن ما وصفنا. **والله أعلم بذلك.**[٧]

وقال قائلون: ضَرَبَ اللهُ مَثَلَ[٨] الشجرة الطيبة مَثَلاً للمؤمن، هو في الأرض وعَمَلُه يَصعد في السماء[٩] كلَّ يوم، فكما تُؤتي الشجرة أُكُلَها كلَّ حين كذلك المؤمن يَعمل لله[١٠] في ساعات الليل والنهار.

وقوله عز وجل: **كلَّ حين**، قال قائلون: كلَّ عام؛ لأنها تُثمِر في كل عام مرة. وقال قائلون: ستة أشهر مِن وقت طلوعها[١١] إلى وقت إدراكها. وقال قائلون: كل عَشِيّة وغُدْوَة، كقوله: فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ.[١٢] وقال قائلون: شهرين، وأمثاله. ويشبه أن يكون ما ذكرنا أنه ليس في وقت دون وقت، ولكن الأوقات كلها، في كل وقت وكل ساعة.

فإن قال لنا مُلْحد:[١٣] إنّ الكلمة التي ضَرَبَ اللهُ مَثَلَها بالشجرة الطيبة هي[١٤] كلمتُنا، ونحن المراد بذلك، والكلمة الخبيثة التي ضَرَبَ[١٥] الله مَثَلَها بالشجرة الخبيثة هي كلمتُكم، وأنتم المراد بها لا نحن.

---

[١] ع: والشديد.
[٢] ع م: كذلك.
[٣] ع: لتذلهم.
[٤] ع: بالشجر.
[٥] ك – الشجرة.
[٦] ن – الشجرة؛ ع م – الخبيثة الشجرة.
[٧] ن – بذلك.
[٨] ع: مثلا.
[٩] ك: إلى السماء.
[١٠] ع: بعمل الله؛ م: الله.
[١١] أي طلوع الشجرة الطيبة. وطلع النخل طلوعا: خرج طَلْعه، وهو ما يبدو من تمرة النخل في أول ظهورها (*لسان العرب* لابن منظور، «طلع»).
[١٢] سورة الروم، ١٧/٣٠.
[١٣] ك ن ع: ملحدي.
[١٤] ع م – هي.
[١٥] م: ضربها.

قيل: قد سَبَقَ هٰذا المَثَل أمثال ودلائل على أنّ الكلمة الطيبة هي التي لها عاقبة وآخرة، وكلُّ أمرٍ له عاقبةٌ وآخِرة[١] فهو الحق، والذي أنتم عليه لا عاقبة له[٢] ولا آخرة، وفي الحكمة أنّ كل أمر لا عاقبة له فهو باطل، والكفر لا عاقبة له.[٣] والثاني أنّ الإيمان والتوحيد له الحجج والدلائل، والكفر مما لا حجة له ولا دلائل،[٤] إنما هو مأخوذ بالأَمَاني والشهوة مِن تَسْوِيل الشيطان وتَزْيِينه، لذلك[٥] كان ما ذكرنا.

وتحتمل[٦] الكلمة الطيبة أيضا أن تكون[٧] الوحي الذي أوحى الله إلى رسوله، والكلمة الخبيثة ما أوحى الشيطان إليهم، كقوله: وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ،[٨] الآية، فوَحْيُ الله هو ثابت دائم يَنتفع به[٩] أهله[١٠] في الدنيا[١١] والعاقبة، ووَحْيُ الشيطان هو باطل مُضْمَحِلّ لا عاقبة له ولا يَنتفع به أهله. ***والله أعلم***.[١٢]

وقوله عز وجل: **اجْتُثَّتْ مِن فوق الأرض**، قال بعضهم: اسْتُؤصِلَت. وقيل: انْتُزِعَتْ. وقال أبو عَوْسَجَة: اقْتُلِعَت مِن أصلها، يُقال: جَثَثْتُ الشجرة[١٣] أَجُثُّها جَثًّا، إذا قَلَعْتُها[١٤] مِن أصلها.

وقوله عز وجل: **ما لها مِن قرار**، هو ما[١٥] ذكرنا. وقال[١٦] بعض أهل التأويل: شَبَّهَ كلمةَ الشرك بحَنْظَلَةٍ قُطِعَت فلا أصل لها في الأرض ولا فرع في السماء، أي لا يَصعد له عمل ولا قول،[١٧] وشَبَّهَ كلمةَ الإيمان في نفعها وفضلها وثباتها[١٨] وقرارها في الأرض بما ذكر من الشجرة.[١٩] ***والله أعلم***.

---

[١] جميع النسخ: له عاقبة والنظر في آخره؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤١٩و.
[٢] ك: عليه.
[٣] م – له.
[٤] ن: ولا دليل.
[٥] ن – لذلك.
[٦] ن ع م: ويحتمل.
[٧] ن ع م: أن يكون.
[٨] سورة الأنعام، ١٢١/٦.
[٩] ن: بها.
[١٠] ك ن ع: أهلها.
[١١] ع – في الدنيا
[١٢] ك ن + بذلك.
[١٣] ع: الشجر.
[١٤] م: أقلعتها.
[١٥] ع – ما.
[١٦] ن: قال.
[١٧] جميع النسخ: حمل؛ والتصحيح مستفاد من *تفسير الطبري*، ٢١٣/١٣.
[١٨] ن ع: ونباتها.
[١٩] ع: من الشجر.

ثم مِن الناس مَن احتجّ بهذا المَثَل في خَلْق[١] الإيمان والكفر، فقال: لأنه ضَرَبَ مَثَلَه بما هو خَلْق، وهو الشجرة، فعلى ذلك الإيمان. ولكن عندنا لا يجب أن يُستدَلّ بهذا[٢] في خَلْقِه،[٣] ولكن لِما ثبت أنّ مُنشِئَهما[٤] واحد؛ لأنه لو كان مُنشِؤُهما[٥] مختلفًا لكان لا يَضرِب مَثَلَ هذا بهذا ولا هذا بهذا، فإذا ضَرَبَ دلّ أنّ مُنشِئَهما[٦] واحد، فإذا ثبت ذلك دلّ على ما وصفنا. ومِن الناس مَن استدل بهذا أنه يزداد ويَنتقِص[٧] حيث شبّهه[٨] بالشجرة وهي تزداد وتَنتقِص.[٩] ونحن نقول: ليس فيه دلالة ما ذكروا؛ لأن الشجرة في نفسها ليست بذي حَدّ، والإيمان ذو حَدّ، / فما يزداد إنما[١٠] [٣٨٧ظ]
هو في حق التزيين والتحسين، وأمّا الإيمان نفسه فإنه لا يزداد؛[١١] كالشجرة إذا تَوَرَّقَت وخرج[١٢] ثمارها تُوصَف بالزينة والحُسن، فأما نَفْس الشجرة فلا تُوصَف بالزيادة، فعلى ذلك الإيمان.

وقوله عز وجل: **ويَضرِب الله الأمثال للناس**، يحتمل يُبيّن الله الأمثال التي يقع عليها الحسّ[١٣] ويقع عليها البصر والأشياء الظاهرة لِتَدلهم على ما استتر وغاب عنهم، يُدرِكون بالعقول ما استتر وخَفِيَ بالظاهر والمحسوس، **لعلهم يتذكّرون**، لعلهم يتعظون.

وقوله: **ألم تَرَ كيف ضَرَبَ الله مَثَلاً كلمةً طيبةً**، الكلمة الطيبة تحتمل[١٤] التوحيد، وفُروعها هي الخوف والخشوع والخضوع والرغبة والرهبة،[١٥] وأُكُلها هو الأعمال الصالحة والخيرات تكون منه،

---

[١] ع: في خلف.
[٢] جميع النسخ: لا بهذا يجب أن يستدل؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤١٩ظ.
[٣] ك: على خلقه.
[٤] ن: أن منشئيهما؛ ع: أن مشيتها؛ م: أن شبههما.
[٥] ك ن: منشئيهما؛ ع: مشيتهما؛ م: شبههما.
[٦] ع: أن منشئها؛ م: أن شبههما.
[٧] ع م: وينقص.
[٨] ك ع: شبه.
[٩] م: وتنقص.
[١٠] م – إنما.
[١١] وعبارة السمرقندي هكذا: «ونحن نقول: ليس في الآية دلالة ما ذكروا، لأن الشجرة في نفسها ليست بذات حد، بل تزداد حقيقة وتنقص من ذاتها. فأما الإيمان له حد معلوم وهو التصديق فإنه لا يزداد ولا ينتقص، فما يزداد إنما هو في حق التزيين والتحسين. وأمّا الإيمان نفسه فإنه لا يزداد» (*شرح التأويلات*، ورقة ٤١٩ظ).
[١٢] ع م: وخرجت.
[١٣] ع: الحسن.
[١٤] ع م: يحتمل.
[١٥] ع م – والرهبة.

والكلمة الخبيثة هي الشرك، وفُروعها ما يكون منه في الشرك مِن القساوة[١] والتمرّد والعناد، وأُكُلها هو الأعمال التي تكون منه في[٢] الشرك. أو أن تكون[٣] الكلمة الطيبة هي الإيمان،[٤] وفُروعها هي الشرائع والأحكام التي تُعمَل، وأُكُلها هو[٥] ما يُثاب عليه في الدنيا والآخرة أبدا. *والله أعلم*.

﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾[٢٧]

وقوله عز وجل: **يُثَبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة**، ذَكَرَ مرة بالتثبيت[٦] ومرة بذكر الزيادة بقوله:[٧] لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ،[٨] ومرة بذكر الابتداء والتجديد بقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ،[٩] وقوله: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.[١٠] فالتجديد والابتداء في حادث الوقت، لأن تلك الأفعال تنقضي وتذهب ولا تبقى، وأمّا الزيادة على ما كان بضَمّ شيءٍ[١١] إلى ما كان، والثبات على ما كان،[١٢] فكله[١٣] واحد في الحقيقة.

وقوله عز وجل: **ويُضِلّ الله الظالمين**، أضاف الإضلال مرة إلى نفسه ومرة إلى الشيطان، ولا شكّ أنّ ما أُضيف إلى الشيطان إنما أُضيف على الذّمّ، فإذا كان ما ذُكر فتكون[١٤] الجهة التي أُضيف إلى الله غيرَ الجهة التي أُضيف إلى الشيطان. الجهة التي أُضيف إلى الله هو أنْ خَلَقَ فِعلَ[١٥] الضلال مِن الكافر، وما أُضيف إلى الشيطان هو على التَّزْيِين والتَّسْوِيل، لِتَصِحَّ الإضافتان.

[١] م: من الفساد.
[٢] م – في.
[٣] ن م: أن يكون.
[٤] ك: الأعمال.
[٥] ك – هو.
[٦] جميع النسخ: بالتثبت.
[٧] ع م: وقوله.
[٨] سورة الفتح، ٤٨/٤.
[٩] سورة النساء، ٤/١٣٦.
[١٠] سورة الفاتحة، ١/٦.
[١١] ك ن: شيئا.
[١٢] ع م – بضم شيء إلى ما كان والثبات على ما كان.
[١٣] ع م: وكله.
[١٤] ن ع م: فيكون.
[١٥] ك – فعل.

ولو كان [الأمر] على التسمية على ما يقوله المعتزلة أن سمّاه ضالا[١] لكان كلُّ مَن سمّى آخرَ ضالاًّ [أو] كافرًا[٢] [يكون مضلا له] فجاز[٣] أن يُسَمَّى مُضِلاًّ. فإذا لم يُسَمَّ بتسميته[٤] ضالاًّ أو كافرًا مُضِلاًّ دلّ أنه إنما سمّى الله نفسَه مُضِلاًّ لتحقيق الفعل له فيه. وهو ما ذكرنا أنْ خَلَقَ فِعلَ الضلال منه. والمعتزلة يقولون: إنّ الله هَدَى الخَلْقَ جميعا، لكنهم لم يَهتدوا وضَلُّوا مِن غير أنْ يكون الله أَضَلَّهم. فهذا صَرْفُ ظاهرِ الآية إلى غيره بلا دليل.

وقوله عز وجل: **ويفعل الله ما يشاء**، وعلى قول المعتزلة لا يَقدِر أنْ يفعل ما يشاء، لأنهم يقولون: إنه[٥] شاء إيمانَ جميعِ البشر، لكنهم لم يؤمنوا. وكذلك قال: فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ،[٦] وهم يقولون: أراد إيمانهم، لكنه لم يَفعل ما أراد ولا يَملِك، وقد أخبر أنه[٧] فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ولما يشاء، وهم يقولون: لم يَملِك أن يفعل ما شاء وأراد، بل العباد يَفعلون ما شاءوا[٨] غيرَ ما شاء هو،[٩] فتأويلهم خلافُ لظاهر[١٠] القرآن. *والله أعلم*.

وقوله: **يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة**، يشبه أن يكون هذا صلة قوله: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً،[١١] على تأويل مَن يقول: إنّ الكلمة الطيبة هي القرآن يكون القول الثابت هو القرآن. يقول -والله أعلم- **يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمنوا... في الحياة الدنيا**، حيث تَلَقَّوْه بالإجابة والقبول[١٢] والعمل به، **وفي الآخرة**، أي بالآخرة والبعث يُقِرّون به. **ويُضِلّ الله الظالمين**، حيث تركوا الإجابة له[١٣] وتَلَقَّوْه[١٤] بالردّ والمكابرة والعناد.

---

[١] «... على ما يقول المعتزلة: إن الإضلال هو تسميته ضالا» (شرح التأويلات، ورقة ٤١٩ظ).
[٢] ع: كافر.
[٣] جميع النسخ: جاز. والزيادة من *الشرح*، ورقة ٤١٩ظ.
[٤] ن ع: بتسمية.
[٥] ك – إنه.
[٦] سورة البروج، ١٦/٨٥.
[٧] ن ع + أراد.
[٨] م: ما شاء.
[٩] ن – هو.
[١٠] ع: الظاهر؛ م: ظاهر.
[١١] سورة إبراهيم، ٢٤/١٤.
[١٢] م: والقول.
[١٣] م – له.
[١٤] ع – له وتلقوه.

ومَن يقول: الكلمة الطيبة [هي] التوحيد والإيمان يكون القول الثابت هو الإيمان، **يُثَبِّتُهم في الحياة الدنيا**، باختيارهم، **وفي الآخرة**، قيل: في قبورهم يُثَبِّتُهم[١] لإجابة مُنْكر ونَكِير ويُمَكِّنُ لهم ذلك، **ويُضِلّ الله الظالمين**، الذين تركوا الإجابة له في الحياة الدنيا وفي القبور حيث تركوا الإجابة في الدنيا. ويحتمل أن يكون قوله: **يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا**، هو ما ذكر: وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ،[٢] يُثَبِّتُ[٣] مَن أجاب الله إلى ما دعا في الدنيا، **وفي الآخرة**، يَهديه الطريق الذي به يُوصَل إلى دار السلام، والكافرُ حيث تَرَكَ إجابتَه إلى ما دعاه يُضِلُّه[٤] في الآخرة طريقَ دار السلام بترك إجابته في الدنيا. *والله أعلم بذلك*.

وقوله: **ويَفعل الله ما يشاء**، في هدايةِ مَن اختار الإجابةَ والاهتداءَ، وإضلالِ[٥] مَن اختار تَرْكَ الإجابة والغواية.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[٢٨] ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[٢٩]

وقوله عز وجل: **ألم تَرَ إلى الذين بَدَّلُوا نعمةَ الله كُفْرًا**، اختُلِف في نزوله. قال بعضهم: هذه السورة كلُّها نزلت بمكة إلا هذه الآية فإنها نزلت بالمدينة. وقال بعضهم: نزلت بمكة كلُّها.[٦] فمَن يقول: نزلت بالمدينة يقول: قوله: **وأَحَلُّوا قومَهم دارَ البَوَار جهنم**، هو بَدْر، أي حَمَلُوهم إلى بَدْر حتى[٧] قُتِلُوا؛ لأنه لم يكن بمكة بَدْر، إنما كان بالمدينة. ومَن يقول: نزلت بمكة يقول: **دارَ البَوَار**، هي[٨] جهنم على ما فسّره ظاهر الكتاب. وهو الأشبه بظاهر الآية؛ لأنه بَيّن تلك الدار، فقال: **جهنم**. وفي الآية دلالة أنّ الآية كانت[٩] في عُظَمائهم وكُبَرائهم حيث قال: **وأَحَلُّوا قومَهم**، الآية.

---

[١] م: ثبتهم.
[٢] سورة يونس، ٢٥/١٠.
[٣] جميع النسخ: ثبت.
[٤] جميع النسخ: ويضله؛ ن + ويضله.
[٥] ع م: والإضلال.
[٦] ن - كلها.
[٧] ع - حتى.
[٨] ع - هي.
[٩] ع م - كانت.

[٣٨٨و] ثم اختُلِف في النعمة التي ذكر أنهم بَدَّلُوها كُفْرًا. فهو يحتمل وجوها. / أحدها أنّ الله عز وجل قد أنعم عليهم في هذه الدنيا ووَسَّعَها[١] عليهم فحَرَّمُوا تلك النعم على أنفسهم فجعلوها للأصنام التي عبدوها وسَيَّبُوها[٢] ولم يَنتفعوا بها مِن نحو البَحِيرة التي ذَكَرَ والسائبة والوَصِيلة والحامِي.[٣] وما جعلوا للأصنام هو ما ذكر: وَهٰذَا لِشُرَكَائِنَا،[٤] فذلك تبديل النعمة كُفْرًا حيث حَرَّمُوا ما أنعم الله[٥] عليهم[٦] وأحلّ لهم. والثاني تلك النعمة محمد أو القرآن أو الإسلام،[٧] وهو نعمة [عظيمة في حقهم][٨] فكذّبوه[٩] وكفروا به.[١٠] أو أن يكونوا بَدَّلُوا الشكر الذي عليهم بما أنعم عليهم كُفْرًا، جعلوها سببًا للكفر فلم يشكروه بما أنعم عليهم.

وقوله: **بَدَّلُوا نعمةَ الله كُفْرًا**، حقيقته[١١] تخرج[١٢] على وجهين. أحدهما[١٣] بَدَّلُوا وصَرَفُوا ما أنعم الله عليهم –وهو محمد صلى الله عليه وسلم– عن أنفسهم حتى أُخِذ منهم [وأُمِر بالهجرة إلى غيرهم]،[١٤] بَدَّلُوا به كُفْرًا. والثاني بَدَّلُوا به كُفْرَانًا[١٥] بعد ما سألوا ربهم، وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ،[١٦] الآية، فلم يَشكروا ما أنعم عليهم[١٧] وبَدَّلُوا الشكر كُفْرًا.

وقوله عز وجل: **وأَحَلُّوا قومَهم دارَ البَوَار**، أي أَنْزَلُوا. دل هذا أنّ الآية نزلت في الرؤساء مِن الكفرة والأئمة منهم حيث أخبر أنهم أَحَلُّوا قومَهم دارَ البَوَار. ذكر "أَحَلُّوا" على الماضي

---

[١] ن ع م: وسعها.
[٢] ع م + ولم ينتفعوا.
[٣] ك: والحام. يقول الله تعالى: ﴿ما جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ ولا سائِبَةٍ ولا وَصِيلَةٍ ولا حَامٍ ولكنّ الذين كفروا يَفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ (سورة المائدة، ١٠٣/٥).
[٤] ﴿وجَعَلُوا لله مما ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ والأنعام نصيبًا فقالوا هذا لله بِزَعْمِهِم وهذا لِشُرَكائِنا﴾ (سورة المائدة، ١٣٦/٥).
[٥] ك ن – الله.
[٦] ع م + كفرا.
[٧] م: والإسلام.
[٨] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٤١٩ظ.
[٩] جميع النسخ: كذبوهم.
[١٠] ك م: وكفروهم؛ ن + وهم؛ ع – وكفروا بهم.
[١١] م: حقيقة.
[١٢] ن ع م: يخرج.
[١٣] ك: أحدها.
[١٤] الزيادة من *الشرح*، ورقة ٤١٩ظ.
[١٥] ك: كفرا.
[١٦] ﴿وأَقْسَمُوا بالله جَهْدَ أَيْمانهم لئِنْ جاءهم نذير لَيَكُونُنّ أَهْدَى مِن إحدى الأُمَم فلمّا جاءهم نذير ما زادهم إلا نُفُورا﴾ (سورة فاطر، ٤٢/٣٥).
[١٧] جميع النسخ: عليه.

لأنه قد وُجِد منهم الجنايةُ بالإحلال[١] في دار البَوَار. وذكر في دخولهم جهنم على الائتناف بقوله: **جهنمَ يَصْلَوْنَهَا وبئس القرار**، لِما لم يوجد بعدُ، [و]سيوجَد. ويجوز أن يُستدل بهذا لأصحابنا لمسئلةٍ، وهو أنّ العبد إذا حفر بئرًا ثم أُعْتِق فوقع في البئر إنسان يُنظَر إلى قيمة العبد يومَ حَفَر؛ لأن الحَفْر منه جنايةٌ إلى[٢] الواقع فيه يومَ الوقوع لا يومَ الحفر، لأنه لم يوجد بَعدُ يومَ الحفر جناية. أو أن يُقال: أَحَلُّوا أرواحَهم دارَ البَوَار، فتَدخُل أجسادُهم يومئذ، لم تَدخُل بَعدُ.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾[٣٠]

وقوله[٣] عز وجل: **وجعلوا لله أَنْدَادًا**، ثم فسّر أنهم لِمَ أَحَلُّوا قومَهم[٤] دارَ البَوَار، فقال:[٥] **وجعلوا لله أَنْدَادًا**، أَعْدَالاً وأَمْثَالاً، **لِيُضِلُّوا عن سبيله**. يحتمل قوله: **وجعلوا لله أَنْدَادًا**، في العبادة يُعبَدون كما يُعبَد الله، أو في التسمية يُسَمُّونهَا آلهة كما يُسَمَّى اللهُ، جعلوا له[٦] أندادًا في هذين الوجهين. يَذكُر سَفَهَهم حيث جعلوا ما لا يَسمع[٧] ولا يُبصر ولا يَنفع ولا يَدفع ولا يَضُرّ أمثالاً وأعْدَالاً[٨] لله على عِلمٍ منهم أنّ الله هو الذي خلقهم ورزقهم ويُنعِم عليهم، وهو الذي يَدفع عنهم كلَّ بلاء وشدة. وجائز أن يكون قوله: **وجعلوا لله أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عن سبيله**، هو تفسير ما ذكر مِن تبديل النعمة كفرًا.

وقوله عز وجل: **قل تَمَتَّعُوا**، بهذه النعم التي ذكر أنهم بَدَّلُوها كُفْرًا، **فإنّ مَصِيرَكم إلى النار**، هذا في قومٍ ماتوا على الكفر. أو يقول:[٩] **قل تَمَتَّعُوا**، في الدنيا، أو **تَمَتَّعُوا**، بالكفر، **فإنّ مَصِيرَكم إلى النار**، هذا في قومٍ عَلِمَ الله أنهم لا يؤمنون أبدًا. وفيه دلالة إثبات الرسالة.

وقال أبو عَوْسَجَة: البَوَار الهلاك والفناء، يُقال: بار الرجل يَبُور بَوْرًا فهو بائر. وقومٌ بُور، أي[١٠] هالكون. ويقال: بارَت السوق وبارَت السلعة، إذا كَسَدَت. ويقال: بارَت المرأة تَبُور بَوَارًا،[١١]

[١] م: بالإهلال.
[٢] جميع النسخ: وإلى.
[٣] ن: قوله.
[٤] م – قومهم.
[٥] ع: وفقال.
[٦] جميع النسخ: جعلوه.
[٧] م: ما لا لا يسمع.
[٨] ك: ولا يضر أعدالا وأمثالا.
[٩] م: ويقول.
[١٠] م: بواري.
[١١] ن ع م: بورا.

فهي بائرة،[1] إذا كَبِرَت. وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «نعوذ بالله مِن بَوَار الأَيِّم»،[2] قيل: يعني مِن كَسَادِها. *والله أعلم.*

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾[٣١]

وقوله عز وجل: **قُل لِعبادِيَ الذين آمنوا يُقِيمُوا الصلاة**، يحتمل إقامة الإيمان بها، كقوله: فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ،[3] هو إقامة الإيمان به؛ إذ لا يحتمل الحبس إلى أن يُقِيمُوا إقامة الفعل والوفاء، إذ في ذلك حَبْسُهم أبدًا. ويحتمل إقامة الوفاء بها والفعل؛ لأنه إنما خاطب المؤمنين على إقامتها، وقد سبق[4] منهم الإيمان بها.

فإن قيل: كيف يحتمل الأمر بإقامتها إقامة الإيمان به[5] وقد سبق منهم ما ذكرنا مِن الإيمان بها؟

قيل: هذا جائز،[6] يأمرهم[7] بإقامة الإيمان بها في حادث الوقت؛ إذ للإيمان حكم التجدُّد في كل وقت، وهو كقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ،[8] أي آمِنُوا في حادث الوقت. فعلى ذلك هذا يحتمل[9] الأمر بإقامتها إقامة الإيمان بها. ويحتمل ما ذكر مِن إقامة الصلاة في الآية والإنفاقِ[10] [أن تكون] هي الصلاة المعروفة المعهودة والزكاة المعروفة[11] المفروضة والإدامة لهما واللزوم بهما. ويحتمل القبول والوفاء بهما.

---

[1] ن: بأمره.

[2] «عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: "اللهم إني أعوذ بك مِن غَلَبَةِ الدَّيْن وغَلَبَةِ العدو ومِن بَوَار الأَيِّم ومِن فتنة الدجال". رواه الطبراني في الصغير والأوسط والكبير، وفيه عباد بن زكريا الصريمي، ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح». (*مجمع الزوائد* للهيثمي، ١٠/١٤٣). بارَت السُّوق وبارَت البِيَاعَات إذا كَسَدَتْ. ومِن هذا قيل: نعوذ بالله مِن بَوَار الأَيِّم، أي كسادِها، وهو أن تبقى المرأة في بيتها لا يخطبها خاطب، مِن بارَت السُّوق إذا كَسَدَتْ، والأَيِّم التي لا زوج لها وهي مع ذلك لا يَرغب فيها أحد (*لسان العرب* لابن منظور، «بور»). وللأَيِّم استعمالات أخرى، فالأَيِّم مِن النساء أيضا: التي لا زوج لها بِكرًا كانت أو ثَيِّبًا، ومِن الرجال الذي لا امرأة له. والأَيِّم أيضا: الثَّيِّب من النساء (*لسان العرب* لابن منظور، «أيم»).

[3] سورة التوبة، ٩/٥.

[4] ن – يقيموا إقامة الفعل والوفاء إذ في ذلك حبسهم أبدا ويحتمل إقامة الوفاء بها والفعل لأنه إنما خاطب المؤمنين على إقامتها وقد سبق.

[5] ع م – وقد سبق منهم الإيمان بها فإن قيل كيف يحتمل الأمر بإقامتها إقامة الإيمان به.

[6] ن – جائز.

[7] ع: بأمرهم.

[8] سورة النساء، ٤/١٣٦.

[9] ع: محتمل.

[10] ن – في حادث الوقت فعلى ذلك هذا يحتمل الأمر بإقامتها إقامة الإيمان بها ويحتمل ما ذكر من إقامة الصلوة في الآية والإنفاق.

[11] ع – والزكاة المعروفة؛ م – المعهودة والزكاة المعروفة.

وقوله[١] عز وجل: **ويُنفِقوا مما رزقناهم سِرًّا وعَلانية**، قال الحسن: الأمر بالإنفاق **مما رزقناهم**، الزَّكَوات[٢] المفروضات؛[٣] ألا ترى أنه ذكر الوعيد في آخِره،[٤] وقال: **مِن قبل أن يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خِلالٌ**، ولا يحتمل الوعيد في صدقات التطوع. وهو ما ذكر أيضًا في آية أخرى: وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ،[٥] ولا يحتمل طلب الرجوع والتأخيرِ إلى أجل في النوافل. دل أنه أراد به الزَّكَوات[٦] المفروضات. وقال بعضهم: **ويُنفِقوا مما رزقناهم سِرًّا**، هي التطوع، والعلانية الفريضة؛[٧] لأن الفريضة لا بُدَّ مِن أنْ تُظهَر وتُعلَن، وليس في أدائها رياء. ***والله أعلم***.

وقوله[٨] عز وجل: **مِن قبل أن يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خِلالٌ، يومٌ**[٩] **لا بيعٌ فيه**،[١٠] أي يوم لا يَقدرِ أحد أن يبيع نفسه مِن ربه، وفي الدنيا يَقدِر[١١] أن يبيع نفسه مِن ربه، كقوله: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ،[١٢] وقوله: إِنَّ اللهَ اشْتَرَى.[١٣] فقوله:[١٤] **مِن قبل أن يأتيَ يومٌ**، لا يَقدِر أحد بيعَ نفسه مِن ربه. ويحتمل قوله:[١٥] **يومٌ لا بيعٌ فيه**، أي لا يَنفعه بيعُ نفسه منه في ذلك اليوم وإن باع، كقوله: لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ،[١٦] وقوله: / فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا،[١٧] الآية، فعلى ذلك الأول. [٣٨٨ظ]

---

[١] ك – وقوله.

[٢] ع: الزكوة.

[٣] م: الزكوة المفروضة. لم أجده عن الحسن، لكن روي عن ابن عباس؛ انظر: *تفسير الطبري*، ١٣/٢٢٤.

[٤] م: في الآخره.

[٥] ﴿وأنْفِقُوا مِن ما رزقناكم مِن قبلِ أن يأتيَ أحدَكم الموتُ فيقولَ ربِّ لولا أخَّرتَني إلى أجلٍ قريبٍ فأَصَّدَّقَ وأَكُنْ من الصالحين﴾ (سورة المنافقون، ٦٣/١٠).

[٦] م: الزكوة.

[٧] م: الفرائض.

[٨] ك – وقوله.

[٩] ع: أي.

[١٠] م – يوم لا بيع فيه.

[١١] ع: بقدرة.

[١٢] سورة البقرة، ٢/٢٠٧.

[١٣] ﴿إنّ الله اشترى مِن المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنّ لهم الجنة﴾ (سورة التوبة، ٩/١١١).

[١٤] جميع النسخ: وقوله.

[١٥] ع م: نفسه.

[١٦] ﴿يومَ يأتي بعضُ آيات ربك لا يَنفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت مِن قبلُ أو كسبت في إيمانها خيرا قُلِ انتظروا إنّا مُنتظِرون﴾ (سورة الأنعام، ٦/١٥٨).

[١٧] ﴿فلمّا رَأَوْا بأسَنا قالوا آمَنّا بالله وَحْدَه وكفرنا بما كنّا به مشركين. فلم يَكُ يَنفعهم إيمانهُم لمّا رَأَوْا بأسَنا﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٨٤-٨٥).

وقوله عز وجل: **ولا خِلال**، هو مصدر خالَلْت، وهو مِن الخُلّة والصداقة. ثم هو[1] يحتمل وجهين. أحدهما أن لا تَنفعهم الخُلّة التي كانت بينهم في الدنيا؛ لأنّ كلَّ خُلّة كانت في الدنيا مما ليست لله فهي تَصِير عداوة[2] في الآخرة، كقوله: ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ،[3] الآية، أخبر أنّ الأَخِلّاء الذين كانوا يُخَالُّون في الدنيا للدنيا فهم الأعداء إلا الخُلّة التي كانت لله فهي تَنفع أهلَها. وهو ما ذكر عز وجل: ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا،[4] وأمثاله، يخبر أنّ الخُلّة التي[5] كانت بينهم في الدنيا لا لله فهي تَصِير عداوة في الآخرة حتى يتبرّأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضًا.[6] والثاني أن يكون لهم شُفَعَاء وأَخِلّاء، ولكن لا يَشفعون، كقوله: وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى.[7] أو يُشفَع[8] لهم لكن لا يُقبَل،[9] كقوله: فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ.[10]

[٣٨٨ظ س ٣٢] * واستدل بعض المعتزلة بقوله: **قُل لعباديَ الذين آمنوا يُقِيمُوا الصلاة ويُنفِقوا مما رزقناهم سِرًّا وعَلانيةً مِن قبل أن يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خِلال**، أنّ صاحب الكبيرة يُخَلَّد في النار؛ لأنه أَوْعَدَ بترك الصلاة والزكاة التخليد أبدًا، وتَرْكُ الصلاة والزكاة مِن غير عذر مِن الكبائر، دل أنه ما ذكرنا. فنقول نحن -وبالله التوفيق- إنّ الآية تحتمل[11] الأمر بإقامة الصلاة وما ذَكَرَ مِن الزكاة والصدقة إقامةَ الإيمان بها على ما ذكرنا مِن تأويل بعض المتأوِّلين. فإن كان على هذا على إقامة الإيمان بها فمَن تَرَكَ ذلك فهو يُخَلَّد أبدًا لا شكَّ فيه. أو يكون مَن استَحَلّ تَرْكَها فهو بالاستحلال يَكفُر، فهو يُخَلَّد، أو يَترُك لِعُذْر، فهو لا يُخَلَّد على اتفاق القول. فإذا كان ما ذكرنا محتملاً دل أنّ الآية مخصوصة. ثم معرفة تخليد صاحب الكبيرة إنما هي بالدلائل سِوَى هذا؛ إذ ليس في ظاهر الآية دلالة التخليد لما ذكرنا مِن احتمال الخصوص. دل أنه إنما / يُطلَب الدليل مِن وجه آخَر. [٣٨٩و]

---

[1] ع – هو.

[2] ك: عدواة.

[3] ﴿الأَخِلّاءُ يومئذ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتقين﴾ (سورة الزخرف، ٦٧/٤٣).

[4] ﴿وقال إنما اتخذتم مِن دون الله أوثانًا مَوَدّةَ بينِكم في الحياة الدنيا ثم يومَ القيامة يَكفُر بعضُكم ببعضٍ ويَلعنُ بعضُكم بعضًا﴾ (سورة العنكبوت، ٢٥/٢٩).

[5] ع م – التي.

[6] ن ع م: من بعض.

[7] سورة الأنبياء، ٢٨/٢١.

[8] ك: أو تشفع.

[9] ك: لا تقبل.

[10] سورة المدثر، ٤٨/٧٤.

[11] ن ع م: يحتمل.

قال القُتَبي: **ولا خِلال**، مصدر خالَلْت فلانًا خِلالاً ومُخَالَّةً، والاسم الخُلَّة والمُخَالَّة،[١] وهي[٢] الصَّدَاقَة.[٣] وقال أبو عَوْسَجَة: **ولا خِلال**، قال: مِن المُخَالَّة، يعني المَوَدَّة.* [٣٨٩و س ٢]

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾[٣٢] ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[٣٣]

وقوله[٤] عز وجل: **الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم**، إلى آخر ما ذكر، فيه دلالة أنّ تدبير الله محيط مُتَّسِق[٥] بجميع ما في السماوات والأرض،[٦] وعلمه محيط بجميع الخلائق[٧] حيث ذكر:[٨] **وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم**، يعني البشر. إنه[٩] جَعَل منافعَ السماء متصلة بمنافع الأرض مع بُعدِ ما بينهما، دل أنه عن تدبيرٍ فَعَلَ هذا وعِلمٍ، وأنه[١٠] تدبيرُ واحدٍ عليم قدير. ثم ما ذكر مِن تسخير السماوات والأرض مع شدة السماء وصلابتها وغِلَظ الأرض وكثافتها وتسخير البحر مع أهواله وأمواجه وتسخير الأنهار الجارية وتسخير الشمس والقمر والليل والنهار لهذا البشر، في ذلك كله وجهان. أحدهما يُذكِّرهم نِعمَه التي أنعمها عليهم مِن المنافع التي جَعَلَ لهم في تسخير هذه الأشياء التي ذَكَر لهم على جهل هذه الأشياء أنهن مُسَخَّرات لغيرهن،[١١] يَسْتَأْدِي بذلك شُكْرَها. والثاني يَذكُر سلطانَه وقدرتَه حيث سَخَّرَ هذه الأشياء[١٢] مع شدتها وصلابتها وغِلَظها وأهوالها،

[١] ك ن ع: والمخلة؛ م – والمخالة؛ والتصحيح من *لسان العرب* لابن منظور، «خلل».
[٢] م: هي.
[٣] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٢٣٣.
* وقع ما بين النجمتين في تفسير الآية الآتية برقم ٣٤، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٨٨ظ/سطر ٣٢-٣٨٩و/سطر ٢.
[٤] ك – وقوله.
[٥] ك – متسق، صح هـ.
[٦] ن – إلى آخر ما ذكر فيه دلالة أن تدبير الله محيط متسق بجميع ما في السماوات والأرض.
[٧] ن + من.
[٨] ك ن + أنه.
[٩] ع م – إنه.
[١٠] ن: أو علم أنه.
[١١] ع م: لغيرهم.
[١٢] ن – التي ذكر لهم على جهل هذه الأشياء أنهن مسخرات لغيرهن يستأدي بذلك شكرها والثاني يذكر سلطانه وقدرته حيث سخر هذه الأشياء.

ومَن قَدَرَ على تسخير[1] ما ذكر قادرٌ على البعث والإحياء بعد الموت. ويحتمل ما ذكر مِن تسخير الأشياء التي ذَكَر أنه أنشأ هذه الأشياء مُسَخَّرَةً مُذَلَّلَةً لنا. والثاني سَخَّر لنا، أي عَلَّمَنا مِن الأسباب والحِيَل التي يتهيأ لنا الانتفاعُ بها والتسخير.

[٣٨٩و س٢] * **دائِبَيْن**، قال:[2] يجريان أبدًا، وهو مِن الدَّوْب، أي مِن[3] التعب.*

﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[٣٤]

وقوله[4] عز وجل: **وآتاكم مِن كل ما سألتموه**، فيه لغتان وتأويلان. قال بعضهم: وآتاكم مِن كلٍّ، على التنوين،[5] **ما سألتموه**، على الجَحْد، أي آتاكم مِن غيرِ أنْ سألتم الأشياء التي ذَكَر أنه سَخَّرها لكم،[6] أي آتاكم مِن غير سؤال ولا طِلْبَة. والثاني: **وآتاكم مِن كل ما سألتموه**، وما لم تسألوه؛ لأنه أعطانا أشياءَ قبل أن نَعلم أنه يجب أن نَسأل، حيث خَلَقَ هذه الأشياء التي ذَكَرَ مِن قبل أن يخلقنا. وقال الحسن: **مِن كل ما سألتموه**، قال: ما لم تسألوه،[7] وهو ما ذكرنا.[8]

فإن قيل: إنّا نَسأل أشياء لم نُعطَها، فما معنى الآية؟

قيل لوجوه:[9] أحدها ذَكَرَ حرف التبعيض، وهو ما قال: **مِن كل ما سألتموه**. والثاني **وآتاكم**،[10] عِلمَ منافعِ ما سألتموه قبل أن تَسألوا[11] وَجْهَ[12] عِلمِ الانتفاع به. والثالث **وآتاكم مِن كل ما** يَحِق السؤال ويَلِيق به. على هذه الوجوه تخرج[13] الآية. ***والله أعلم.***

---

[1] م – على تسخير.
[2] القائل هو أبو عَوْسَجة.
[3] ك – من.
* وقع ما بين النجمتين في تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٨٩و/سطر ٢-٣.
[4] ك – وقوله.
[5] وهي قراءة شاذة. انظر: *تفسير الطبري*، ١٣/٢٢٦-٢٢٧؛ و*تفسير القرطبي*، ٩/٣٦٧.
[6] جميع النسخ: لنا.
[7] *تفسير القرطبي*، ٩/٣٦٧؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٥/٤٤.
[8] ك: ما ذكرناه.
[9] ع م: بوجوه.
[10] ع: وإياكم.
[11] ع: أن يسألوا.
[12] جميع النسخ: وجهه.
[13] ن ع م: يخرج.

وقوله[١] عز وجل: **وإن تَعُدُّوا نعمة الله لا تُحْصُوها**، قال بعضهم: **لا تُحْصُوها**، أي لا تشكروها، أي لا تَقدِروا شُكْرَها. وقال بعضهم: أي لا تَقدِروا إحصاءها وعدَّها.[٢] وهكذا إنَّ أقلَّ الناس نعمةً لو تَكلَّف إحصاءَ ما أعطاه ما قَدَرَ عليه مِن حُسن الجوهر والصورة واستقامة التركيب والبِنْية وسلامة الجوارح وغير ذلك مما لا سبيل له[٣] إلى[٤] ذِكرها وإحصائها إلا بعد طُول التفكُّر والنظر. وقال بعضهم: **وإن تَعُدُّوا نعمة الله**، لا تُحيطوا بكُنْهِها ونهايتها.

وقوله[٥] عز وجل: **إنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّار، لَظَلُوم**،[٦] أي ظَلَمَ نفسَه حيث صَرَفَها إلى غير الجهة التي جُعِلَت وأُمِر، وأَدْخَلَها في المَهَالِك وألقاها في التهلكة، **كَفَّار**، لِنِعَمِه حيث صَرَفَ شُكْرَها إلى غير[٧] الذي جعلها له. *والله أعلم*.*

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[٣٥]

وقوله[٨] عز وجل: **وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمِنًا**، أي مَأْمَنًا، سُمِّيَ آمِنا لِما يَأْمَن الخَلْقُ فيه كما سُمِّيَ النهارُ مُبْصِرًا[٩] والنهار لا يُبصِر ولكن يُبصَر فيه، ومثله كثير. ثم يحتمل قوله: **اجعل هذا البلد آمنًا**، قال بعض أهل التأويل: إنما طَلَبَ إبراهيم أن يجعله آمِنا على أهله وولده خاصة لا على الناس كافة؛ إذ قد سُفِكَ فيه الدماء وهُتِكَ فيه الحُرَم، دلَّ أنه جعله[١٠] آمِنا على أهله وولده خاصة. ولكن لو كان ما ذكروا محتملاً ما يُصنَع بقوله: أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا،[١١] الآية،[١٢] وقوله: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا،[١٣] وغيره من الآيات،

---

[١] ك - وقوله.
[٢] ع م: وعددها.
[٣] ن م - له.
[٤] ع م + ما.
[٥] ك - وقوله؛ ن: قوله.
[٦] ك - لظلوم.
[٧] م: إلى الغير.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة برقم ٣١، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٣٨٨ظ/سطر ٣٢-٣٨٩و/سطر ٢. ووقع بعد ذلك مقطع من تفسير الآية السابقة، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٣٨٩و/سطر ٢-٣.
[٨] ك - وقوله.
[٩] يقول الله تعالى: ﴿هو الذي جَعَلَ لكم الليلَ لِتَسكُنُوا فيه والنهارَ مُبصِرا﴾ (سورة يونس، ٦٧/١٠).
[١٠] م: جعل.
[١١] ﴿أوَ لم يَرَوْا أنّا جَعلنا حَرَمًا آمِنًا ويُتَخَطَّفُ الناسُ مِن حَوْلِهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يَكفُرون﴾ (سورة القصص، ٦٧/٢٨).
[١٢] ن - الآية.
[١٣] سورة البقرة، ١٢٥/٢.

أخبر أنه جَعَلَ تلك البُقْعَةَ مَأْمَنًا للخَلْق يَأمَنون فيها. ثم يحتمل وجهين. أحدهما جَعَلَه آمِنا بحق الابتلاء والامتحان، أَلْزَم الخَلْقَ حِفظَ تلك البقعة عن سَفْك الدماء فيها وهَتْكِ الحُرُم وغير ذلك مِن المعاصي وإن كانوا ضيّعوا ذلك وعملوا فيها ما لا يَصلُح، كالمساجد التي بُنِيَت للعبادة وإقامة الخيرات أَلْزَمَ على[1] أهلها وعلى جميع الخلائق حِفظَها عن إدخال ما لا يَصلُح ولا يَحِلّ، ثم إنّ الناس قد ضيّعوا ذلك وعملوا فيها ما لا يَليق بها ولا يَصلُح، فعلى ذلك الحَرَم الذي أخبر أنه جعله[2] مَأْمَنًا.

والثاني جعله مَأْمَنًا بالخِلْقَة. مِن ذا الوجه يجوز أن يقال: كيف سُفِك فيه الدماء وهُتِك فيه الحُرُم، وهو بالخِلْقَة جعله مَأْمَنًا؟ قيل: يجوز هذا بحق العقوبة وإن كان بالخِلْقَة[3] آمِنًا.[4] ألا ترى[5] أنه قال: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ،[6] الآية. الطيبات[7] بالخِلْقَة حلال، لكنه حَرَّمَ عليهم ذلك بالظلم الذي كان منهم بحق العقوبة والانتقام. فعلى ذلك الحَرَم جعله مَأْمَنًا بالخِلْقَة ثم قُتِل[8] فيه عقوبةً لِما كان منهم مِن المعاصي. ***والله أعلم.***

وقوله[9] عز وجل: **واجْنُبْنِي وبَنِيَّ أن نعبد الأصنام**،[10] فإن قيل: كيف دعا وطَلَب منه العصمة وقد عَصَمَه بالنبوة والرسالة واختارها له[11] عن ذلك كله؟ قال بعض أهل التأويل: إنما سأل عصمة ولده وذريته لِما عَلِمَ أنّ ذريته قد يختلفون في دين الله وتوحيده، وما ذَكَرَ نفسَه لِما المعروف أنّ[12] مَن دعا لآخر[13] بَدَأَ بنفسه. قالت المعتزلة: دعاء إبراهيم وطَلَبُه العصمة مما[14] ذكر يدل أنه قد[15] يجوز أن يُدعَى بدعواتٍ عبادةً وإن كان قد أعطاه ذلك أو يَعلم أنه مغفور.

[1] ع م – على.
[2] ع: جعل.
[3] ع م – بالخلقة.
[4] م: مامنا.
[5] ك: ألا يرى.
[6] سورة النساء، ٤/١٦٠.
[7] ك: الطلبات.
[8] ن ع م: ثم قيل.
[9] ك – وقوله.
[10] ع م + الآية.
[11] م – له.
[12] م – أن.
[13] ن ع م: الآخر.
[14] م: لعصمة ما.
[15] ك – قد.

قيل: دعاء إبراهيم وغيرِه مِن الأنبياء عليهم السلام يجوز أن يكون عِصمتُهم كانت مقرونةً بما طلبوه[١] منه وسألوه وتَضَرَّعُوا إليه؛ إذ معلومٌ أنهم لم يستفيدوا تلك العصمة بإهمالهم أنفسَهم وتَرْكِهم إياها سُدًى، بل إنما وَجَبَ[٢] لهم ذلك بما أَجْهَدُوا[٣] أنفسَهم في طاعة الله.

ثم الآية على المعتزلة من وجهين. أحدهما أنّ إبراهيم طَلَب منه العصمة عن عبادة الأصنام، وهو عَلِم أنه يعتصم إذا عَصَمَه عن ذلك ويَهتدِي[٤] إذا هَدَاه. وهم يقولون: الله يَعْصِم ولا يَعتصِم العبد، ويَهدِي ولا يَهتدِي العبد، ويقولون: إذا أَعْطَى أحدًا[٥] ذلك خَرَج ذلك مِن يده ولا يَملِك إعطاء ذلك. فعلى قولهم تخرج[٦] دعوات[٧] الرسل على الهُزْء[٨] أو على الكتمان؛ لأنّ مَن سأل مِن آخَرَ شيئًا يَعلم أنه ليس ذلك عنده فهو هُزْء، أو سأل وهو يَعلم أنه قد أعطاه ذلك فهو كِتمان. وكان خوفُ الأنبياء والرسل والكُبَرَاء مِن الخَلْق أشدَّ وأكثرَ على دينهم والزَّيْغِ عما هم عليه لِما خافوا أن يكونوا عند الله على غير ما هو عند أنفسهم، كانوا أبدًا وَجِلِين خائفين على سَلْب ما هم عليه. وهكذا الواجب أن يكون الخوف على مَن نِعَمُه عليه أكثر فخَوْفُه أشدّ.

وقال[٩] أبو عَوْسَجَة: **واجْنُبْنِي**، أي باعِدْني وجَنِّبْني أيضًا. وقال القُتَبي: أي جَنِّبْني وإياهم.[١٠]

﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[٣٦]

وقوله[١١] عز وجل: **ربِّ إنهن أَضْلَلْنَ كثيرًا مِن الناس**، نسب الإضلال إلى الأصنام وإن لم يكن لها صُنْع في الإضلال لأنهم بها ضَلُّوا وكانت الأصنام سَبَبَ إضلالهم. وقد تُنسَب[١٢] الأشياء إلى الأسباب وإن لم يكن للأسباب صُنْعٌ فيها، نحو ما ذكرنا[١٣] مِن قوله:

---

[١] ع م – بما طلبوه.
[٢] ك ن: أوجب.
[٣] ع: اجتهدوا.
[٤] جميع النسخ: واهتدى.
[٥] م: أخذ.
[٦] ن ع م: يخرج.
[٧] ع: الدعوات.
[٨] ك: على الاستهزاء.
[٩] ن ع م: فقال.
[١٠] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٢٣٣.
[١١] ك – وقوله.
[١٢] ن ع م: ينسب.
[١٣] ع + من نحو ما ذكرنا.

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ،[١] والسورة لا تزيدهم رِجْسًا، لكن نُسِبَ[٢] الرِّجْسُ إليها[٣] لِما كانت هي سببَ[٤] زيادةِ رِجْسِهم. وهو أنها لمّا نزلت يَزداد لهم[٥] تكذيب وكُفرٌ[٦] بها، فنُسِبَ[٧] ذلك إليها. فعلى ذلك الأول. والثاني يُنسَب إلى الأحوال التي كانت **بها** ما لو كانت تلك بذَوَاتِ الأرواح لكانت تُضِلّ وتُغْوِي ممن يكون منه الإضلال؛ لأنها تُزَيِّن **وتُحَلّى** بالأشياء. نحو ما نُسِبَ الغُرورُ إلى الدنيا وإن كانت الدنيا لا تَغُرّ لأنها تكون[٨] بحالٍ لو كانت تلك الأحوال مِن ذِي الروح لكان ذلك تَغْرِيرًا. فعلى ذلك نسبة الإضلال إلى الأصنام. ***والله أعلم.***[٩]

[٣٨٩ظ] وقوله[١٠] عز وجل: **فَمَن تَبِعَني فإنه مِنّي**، يشبه أن يكون / **مِنّي**، أي مُوَافِقِي في **الدين** أو في الولاية. وحاصله -والله أعلم- مَعِي في الدين وفي أمر الدين. وكذلك معنى ما رُوي:[١١] «مَن غَشَّ فليس مِنّا»،[١٢] أي ليس بموافقٍ[١٣] لنا أو ليس معنا أو ليس مِن[١٤] مِلَّتِنا. وكذلك **قوله: فإنه مِنّي**، أي مِن مِلّتي. وحاصله: **فمَن تَبِعَني**، وأجابني فيما دعوته إليه وأمرته به، **فإنه مِنّي**، أي مما أنا عليه. وكذلك قوله: «مَن غَشَّ فليس مِنّا»، أي ليس مما نحن عليه.

وقوله[١٥] عز وجل: **ومن عصاني فإنك غفور رحيم**، يشبه قوله: **ومن عصاني**، ليس عصيانَ **شرك** ولكن عصيانَ ما دون الشرك، **فإنك غفور رحيم**. أو ومَن **عصاني فإنك غفور**، أي ساترٌ عليه **الكفرَ** إلى وقت معلوم؛ إذ الغُفران هو السَّتر، فيستر[١٦] عليه إلى أجل، كقوله: إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ.[١٧]

---

[١] سورة التوبة، ٩/١٢٥.
[٢] م: ينسب.
[٣] ع - إليها.
[٤] م: سب.
[٥] جميع النسخ + بها.
[٦] جميع النسخ: تكذيبا وكفرا.
[٧] م: فينسب.
[٨] ك: يكون.
[٩] ن - والله أعلم.
[١٠] ك - وقوله.
[١١] ع م - معنى ما روي.
[١٢] صحيح *مسلم*، الإيمان ١٦٤؛ وسنن *أبي داود*، البيوع ٥٠؛ وسنن *الترمذي*، البيوع ٧٤.
[١٣] ع: موافق.
[١٤] ع - من.
[١٥] ك - وقوله.
[١٦] جميع النسخ: فستر.
[١٧] ﴿ولا تحسَبَنّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليومٍ تشخصُ فيه الأبصارُ﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٤٢).

أو يقول: **ومن عصاني فإنك غفور رحيم**، أي تُمَكِّن[١] له مِن[٢] التوبة والإسلام فيُسلِم ويتوب فتَغفِر[٣] له ما كان منه مِن العصيان وتَرحمه.[٤] وقوله: **ومن عصاني**، فيما دعوتُه إليه وأمرتُه به، **فإنك غفور رحيم**، تُمَكِّنُ له مِن التوبة والرجوع عما كان منه، فتَغفِرُ له وتَرحمُه.[٥]

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[٣٧]

وقوله[٦] عز وجل: **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِن ذريتي بِوَادٍ غيرِ ذِي زَرْعٍ**، لا يحتمل أن يكون قال هذا أوّلَ ما قَدِمَ تلك البقعة؛ لأنه قال: **عند بيتك المحرَّم**، ولا بيت هنالك، دل أنه إنما دعا بهذه الدعوات: **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِن ذريتي**، وما ذكر: رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ،[٧] إلى آخر ما ذكر، بعد ما رَفَعَ البيت.

وقوله عز وجل: **أَسْكَنْتُ مِن ذريتي**، دل أنه إنما أسكَنَ بعضَ ذريته، لم يُسْكِن ذريتَه[٨] كلَّها، حيث قال: **مِن ذريتي**. قد امتحنه الله بمِحَن ثلاثة، لم يَمتحِن[٩] بمثلها أحدًا مِن الأنبياء. إحداها[١٠] امتحنه بإسكان ولده **بوادٍ غيرِ ذِي زَرْعٍ**، وغيرِ ذِي ماء، مما[١١] لا يحتمل قلبُ بشرٍ تَرْكَه في مِثل ذلك المكان مِثلَه. دل أنه إنما فَعَلَ بأمرٍ مِن الله تعالى. والثاني[١٢] امتحنه بذبح ولده حتى إذا أشرف على الهلاك فَدَاه الله بكَبْشٍ. وامتحنه بإلقائه في النار فأُلْقِيَ حتى إذا أشرف على الهلاك جعلها الله تعالى عليه بَرْدًا وسلامًا. ففي ذلك كلِّه دلالةُ رسالتِه. وكان[١٣] له هجرتان.

---

١ ع: أي يمكن.
٢ ن – من.
٣ م: فنغفر.
٤ جميع النسخ: وترحم عليه.
٥ ن ع م: فيغفر له ويرحمه.
٦ ك – وقوله.
٧ ﴿وإذ يَرفع إبراهيم القواعدَ مِن البيت وإسماعيلُ ربَّنا تقبَّلْ منّا إنك أنت السميع العليم. ربَّنا واجعلنا مسلمَين لك ومِن ذريتنا أمةً مسلمةً لك وأرِنا مَناسِكَنا وتُبْ علينا إنك أنت التوّاب الرحيم﴾ (سورة البقرة، ٢/١٢٧-١٢٨).
٨ ع – لم يسكن ذريته.
٩ ع – ثلاثة لم يمتحن.
١٠ م: أحدها.
١١ ع – مما.
١٢ ن + إنما.
١٣ ك: وكانت.

إحداهما إلى مكة حيث أسكن فيها ولده. والهجرة الثانية إلى بيت المقدس، وهو ما ذكر: وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا،[1] الآية.

ثم قوله: **ربَّنا إنِّي أَسْكَنْتُ مِن ذريتي بوادٍ غيرِ ذِي زَرْعٍ**، هو دعاءٌ بتعريض لا بتصريح. والدعاء بالتعريض والسؤال بالكناية أبلغ وأكثر من السؤال بالتصريح، وهو كدعاء[2] آدم وحوّاء:[3] رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا،[4] الآية، فهذا أبلغ في السؤال من قوله: اغفر لنا وارحمنا؛ لأنَّ مِثلَ هذا قد سُئِل مَن دونَه ولا يكون فيه ما ذُكِر فيه من الخسران.[5]

وقوله: **مِن ذريتي**، يحتمل أن تكون[6] كلمة "مِن" صلة، أي أَسْكَنْتُ ذريتي. ويحتمل على التبعيض، أي أَسْكَنْتُ بعضَ ذريتي، على ما ذُكِر في بعض التأويلات إسماعيل وإسحاق.[7]

وقوله[8] عز وجل: **عند بيتك المحرَّم**، يحتمل قوله: **المحرَّم**، وجهين. أحدهما حَرَّمَه أنْ يُسْتَحَلَّ فيه ما لا يَحِلّ ولا يَصلُح. لكنه خصّ تلك البقعة بالذكر وإن كان ذلك لا يَحِلّ في غيرها مِن البقاع لِفَضْلِ الحُرْمَة التي جعلها الله لها، كما خصّ المساجد بأشياء لِفَضْلِها على غيرها مِن الأَمْكِنَة والبقاع.

والثاني قوله: **عند بيتك المحرَّم**، أي الممنوع، يقال: حَرَّم، أي مَنَع، كقوله: وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ،[9] ليس ذلك على التحريم أنْ لا يَحِلُّ له المَرَاضِع، ولكن على المنع، أي مَنَعْنا عنه لِنَرُدَّه إلى أُمّه. فعلى ذلك قوله: **عند بيتك المحرَّم**، أي الممنوع عن الخَلْق لله حتى لم يَقدِر أحد[10] مِن الفَرَاعِنَة والملوك [على] الغَلَبَة عليها وإدخالها[11] في منافع أنفسهم، بل هي ممنوعة عنهم على ما كان. وفيه آية الوحدانية له والألوهية. ***والله أعلم***.

---

[1] سورة الأنبياء، ٢١/٧١.

[2] ن: لدعاء.

[3] ع: حوا.

[4] ﴿قالا ربَّنا ظَلَمْنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لَنكوننَ مِن الخاسرين﴾ (سورة الأعراف، ٧/٢٣).

[5] أي لأن المغفرة والمرحمة قد تُسأَل مِن غير الله، لكن ليس في عدم ذلك الخسران الأبدي، بخلاف الحال مع الله سبحانه وتعالى كما ذكر في الآية: ﴿وإن لم تغفر لنا وترحمنا لَنكوننَ مِن الخاسرين﴾.

[6] ن ع م: أن يكون.

[7] والمعروف أنه إسماعيل عليه السلام كما هو في القصة المشهورة حيث أخذ إبراهيم عليه السلام إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة وتركهما هناك بأمر الله. ولم يَذكر المفسرون إسحاق عليه السلام؛ انظر: *تفسير الطبري*، ١٣/٢٣٣؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٥/٤٧؛ و*تفسير القرطبي*، ٩/٣٧١؛ و*روح المعاني* للآلوسي، ١٣/٢٣٦.

[8] ك – وقوله.

[9] سورة القصص، ٢٨/١٢.

[10] م: واحد.

[11] ن + وإدخالها.

وقوله[١] عز وجل: **ربَّنا لِيُقِيمُوا الصلاة**، قال بعض[٢] أهل التأويل:[٣] فيه تقديم وتأخير،[٤] يقول: وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ،[٥] **لِيُقِيمُوا الصلاة**، لك[٦] عند بيتك. ويحتمل أيضًا غير هذا، وهو أنْ يقال: **أَسْكَنْتُ مِن ذريتي بوادٍ غيرِ ذِي زَرْعٍ**، أي ليس فيه ما يَشغَلهم عن الصلاة؛ لأنَ الزرع وغيره مِن التعيم يمنع الناس عن إقامة الصلاة والعبادة له، أي **أَسْكَنْتُ مِن ذريتي بوادٍ**، ليس فيه زَرْعٌ يَشغَلهم عن إقامة الصلاة.[٧] ثم يحتمل الصلاة الصلاة المعروفة. ويحتمل الصلاة الدعاء والأذكار وغيرها من الدعوات. ويحتمل قوله: **ربَّنا لِيُقِيمُوا الصلاة**، الصلاة[٨] نفسها وغيرها من الطاعات. وكذلك قوله: رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي.[٩]

وقوله[١٠] عز وجل: **فاجعل أفئدةً مِن الناس تَهْوِي إليهم**، يحتمل سؤالُه ربَّه أن يَجعل أفئدة الناس **تَهْوِي إليهم** وجهين. أحدهما لما أَسْكَنَ ذريتَه في مكانٍ لا بناء فيه ولا نبات ولا زرع ففي مِثل هذا المكان يُستوحَش المُقامُ فيه، فسأل ربَّه أن يَجعل أفئدةَ الناس **تَهْوِي إليهم**، لِيَأْتُوا ذلك المكان فتَذهَب[١١] عنهم تلك الوحشة فيَستأنِسوا[١٢] بهم. أو سأله أن يَجعل أفئدة الناس **تَهْوِي إليهم**، لِيَتَعَيَّشوا بما يُنقَل إليهم مِن الزاد والأطعمة؛ إذ أَسْكَنَهم[١٣] في مكانٍ لا زَرْعَ فيه ولا ما[١٤] يَتعيَّشون فيه[١٥] به. وقد جعل الله بنية هذا البشر أنْ لا قِوَامَ لهم إلا بالأغذية والأطعمة، فسأل ربَّه لِيَتعيَّشوا بما يُحمَل إليهم. وقال أهل التأويل: / **فاجعل أفئدةً مِن الناس تَهْوِي إليهم**، للحَجّ، وقالوا: [٣٩٠و] لو قال: فاجعل أفئدة الناس تَهْوِي إليهم، ولم يَقُل: "مِن" لَحَجَّهُ[١٦] الخَلْقُ جميعًا الكافر والمؤمن.

[١] ك - وقوله.
[٢] ن: بعضهم.
[٣] ن - أهل التأويل.
[٤] ك ع م - وتأخير.
[٥] سورة إبراهيم، ١٤/٣٥.
[٦] ك - لك.
[٧] ع م - والعبادة له أي أسكنت من ذريتي بواد ليس فيه زرع يشغلهم عن إقامة الصلاة.
[٨] ك - الصلاة.
[٩] سورة إبراهيم، ١٤/٤٠.
[١٠] ك - وقوله.
[١١] ن ع م: فيذهب.
[١٢] جميع النسخ: فيستأنس.
[١٣] ع: أو أسكنهم.
[١٤] ع م - ما.
[١٥] ن ع - فيه.
[١٦] ع م: حجه.

*ويحتمل قوله: **إنك تَعلم ما نُخفِي وما نُعلِن،** [أنه] كانت له حاجاتٌ أَخفَاها، طَلَبَ [٣٩٠و س٣٨
قضاءَها فقال:[١] تَعلم حاجاتي[٢] أَخفَيتُها أو[٣] أَعلَنتُها، فاقْضِها لي. أو أن يكون قومُه طَعَنُوا في شيء،
فقال[٤] ذلك على التَّبَرِّي مِن ذلك: إنه يَعلم[٥] / ما نُخفي وما نُعلن، و لم يَعلم ذلك الذين يَطعنون [٣٩٠ظ]
فِيَّ مِنِّي –والله أعلم– كقول[٦] عيسى: تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي.[٧] أو أن يكون قال ذلك لأنَّ أهلَ الأديان جميعًا كانوا يُوَالُون إبراهيم ويَدَّعُون أنه على دينهم، ولذلك[٨] قال: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا،[٩] الآية، بَرَّأه[١٠] الله مما ادَّعَى[١١] كلُّ فريق. ثم منهم مَن كان مِن هذه الفِرَق يَدَّعُون الإسرارَ عن الله والإخفاءَ عنه، فقال هذا لِيُعَلِّمَ الناسَ توحيدَه [و]أنه لا يَخفَى عليه شيءٌ أُخْفِيَ[١٢]
أو أُعْلِنَ لِيَعرفوا توحيدَه [و]أنه ليس شيءٌ يَخفَى عليه. *والله أعلم*.* ٣٩٠ظ س٥]

﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[٣٩]

وقوله[١٣] عز وجل: **الحمد لله الذي وَهَبَ لي على الكِبَرِ إسماعيل وإسحاق،** قال أهل التأويل: إنه وهب له الولد[١٤] وهو ابن كذا وامرأته ابنة[١٥] كذا.[١٦] لكن لا نَعلم ذلك سِوَى ما ذكر أنه وهب له الولد على الكِبَر في وقت الإياس عن الولد، حيث بُشِّرَ بالولد فقال:

---

[١] ع: وقال.
[٢] ن: حاجتي.
[٣] ع م + إن.
[٤] ع: وقال.
[٥] ع: ولأنه نعلم.
[٦] ع: وقوله؛ م: كقوله.
[٧] ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابنَ مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهَين مِن دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إنْ كنتُ قلتُه فقد عَلِمْتَه تَعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾ (سورة النساء، ١١٦/٤).
[٨] ن ع م: وكذلك.
[٩] ﴿ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حَنِيفًا مُسلِمًا وما كان مِن المشركين﴾ (سورة آل عمران، ٦٧/٣).
[١٠] ع: فراه.
[١١] ع: الدعا.
[١٢] ع: أحقى.
* وقع ما بين النجمتين في تفسير الآية الآتية برقم ٤١، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٩٠و/سطر ٣٨–٣٩٠ظ/سطر ٥.
[١٣] ك – وقوله.
[١٤] ع م: والولد.
[١٥] ن: ابنت؛ ع م: بنت.
[١٦] «قيل: إنها كانت يومئذ ابنة تسع وتسعين سنة وإبراهيم ابن مئة سنة، وقد ذَكرتُ الرواية فيما رُوِي في ذلك عن مجاهد قبلُ. وأما ابن إسحاق فإنه... قال: كانت سارة يومَ بُشِّرَتْ بإسحاق فيما ذُكر لي بعضُ أهل العلم ابنة تسعين سنة وإبراهيم ابن عشرين ومئة سنة» (*تفسير الطبري*، ٧٦/١٢).

*ويحتمل قوله: **إنك تعلم ما نُخفِي وما نُعلِن،** [أنه] كانت له حاجاتٌ أَخفَاها، طَلَبَ [٣٩٠و س٣٨
قضاءَها فقال:[1] تَعلم حاجاتي[2] أَخفَيتُها أو[3] أَعْلَنتُها، فاقْضِها لي. أو أن يكون قومُه طَعَنُوا في شيء،
فقال[4] ذلك على التَّبَرِّي مِن ذلك: إنه يَعلم[5] / ما نُخفي وما نُعلن، و لم يَعلم ذلك الذين يَطعنون [٣٩٠ظ]
فِيَّ مِنِّي -والله أعلم- كقول[6] عيسى: تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي.[7] أو أن يكون قال ذلك لأنّ أهلَ الأديان
جميعًا كانوا يُوَالُون إبراهيم ويَدَّعُون أنه على دينهم، ولذلك[8] قال: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا
وَلَا نَصْرَانِيًّا،[9] الآية، بَرَّأَه[10] الله ممّا ادَّعَى[11] كلُّ فريق. ثم منهم مَن كان مِن هذه الفِرَق يَدَّعُون
الإسرارَ عن الله والإخفاءَ عنه، فقال هذا لِيُعَلِّمَ الناسَ توحيدَه [و]أنه لا يَخفَى عليه شيءٌ أُخْفِيَ[12]
أو أُعْلِنَ لِيَعرفوا توحيدَه [و]أنه ليس شيءٌ يَخفَى عليه. *والله أعلم*.* ٣٩٠ظ س ٥]

﴿اَلْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[٣٩]

وقوله[13] عز وجل: **الحمد لله الذي وَهَبَ لي على الكِبَرِ إسماعيل وإسحاق،** قال أهل التأويل: إنه وهب له الولد[14] وهو ابن كذا وامرأته ابنة[15] كذا.[16] لكن لا نَعلم ذلك سِوَى ما ذكر أنه وهب له الولد على الكِبَر في وقت الإياس عن الولد، حيث بُشِّرَ بالولد فقال:

---

[1] ع: وقال.
[2] ن: حاجتي.
[3] ع م + إن.
[4] ع: وقال.
[5] ع: ولأنه نعلم.
[6] ع: وقوله؛ م: كقوله.
[7] ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابنَ مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأميَ إلهَين مِن دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إنْ كنتُ قلتُه فقد عَلِمْتَه تَعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾ (سورة النساء، ١١٦/٤).
[8] ن ع م: وكذلك.
[9] ﴿ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حَنيفًا مُسلمًا وما كان مِن المشركين﴾ (سورة آل عمران، ٦٧/٣).
[10] ع: فراه.
[11] ع: الدعا.
[12] ع: أحقى.
* وقع ما بين النجمتين في تفسير الآية الآتية برقم ٤١، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٩٠و/سطر ٣٨-٣٩٠ظ/سطر ٥.
[13] ك - وقوله.
[14] ع م: والولد.
[15] ن: ابنت؛ ع م: بنت.
[16] «قيل: إنها كانت يومئذ ابنة تسع وتسعين سنة وإبراهيم ابن مئة سنة، وقد ذَكرتُ الرواية فيما رُوِي في ذلك عن مجاهد قبلُ. وأما ابن إسحاق فإنه... قال: كانت سارة يومَ بُشِّرتْ بإسحاق فيما ذُكر لي بعضُ أهل العلم ابنة تسعين سنة وإبراهيم ابن عشرين ومئة سنة» (*تفسير الطبري*، ٧٦/١٢).

أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ،[1] وحيث قالت امرأته لمّا بُشِّرت بالولد: أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهٰذَا بَعْلِي شَيْخًا.[2] فعُلِم[3] أنه وهب له الولد وهما كانا كبيرين في وقت الإياس عن الولد.

وقوله: **الحمد لله الذي وَهَبَ لي على الكِبَرِ إسماعيل وإسحاق**، يكون حمده على الأمرين جميعًا، على الهبة وعلى الولادة في حال الكِبَر، وهو حال الإياس؛ إذ كلُّ واحدٍ مما[4] يوجب الحمدَ عليه والثناءَ.

وقوله[5] عز وجل: **إنّ ربي لَسميع الدعاء**، قيل: لمَجيب الدعاء.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾[٤٠]

وقوله[6] عز وجل: **ربِّ اجعلني مُقِيمَ الصلاة ومِن ذريتي**، قد سبق مِن الله الأمرُ بإقامة[7] الصلاة، وهو مقيمٌ[8] لها، فدلّ الدعاء منه والسؤال على أن يجعله مقيمَ الصلاة أنّ عند الله لُطفًا[9] سِوَى الأمر لم يُعطِه، فسأله[10] ذلك، وهو[11] التوفيق. و[هو يدل] على [فساد] قول المعتزلة لقولهم: إنه قد أَعطى كلَّ شيءٍ حتى لم يَبْقَ عنده ما يُعطيه.

وقوله[12] عز وجل: **ربَّنا وتَقَبَّلْ دعاءِ**، قال بعضهم: تَقَبَّلْ دعائي، [أي] في إقامة الصلاة لنفسه وذريته. لكن لا يجب أن يُخَصّ دعاءٌ مِن الدعوات التي سأل ربه، وقد دعا ربَّه بدعوات كثيرة، نحو ما قال: وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ،[13] وقوله: رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ،[14] وقال: رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ،[15] وغير ذلك من الدعوات.

---

[1] سورة الحجر، ٥٤/١٥.
[2] سورة هود، ٧٢/١١.
[3] ن ع م: يعلم.
[4] ع + مما.
[5] ك - وقوله.
[6] ك - وقوله.
[7] ع م: بإقامته.
[8] جميع النسخ: المقيم.
[9] جميع النسخ: لطف.
[10] ك: لم يعطه فسأل.
[11] ع م: هو.
[12] ك - وقوله.
[13] سورة إبراهيم، ٣٥/١٤.
[14] سورة إبراهيم، ٣٧/١٤.
[15] ﴿ربنا واجعلنا مُسلِمَين لك ومِن ذريتنا أمةً مسلمةً لك وأرِنا مَناسِكَنا وتُبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولًا منهم يَتلو عليهم آياتك ويُعلّمهم الكتاب والحكمة ويُزكّيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ (سورة البقرة، ١٢٨/٢-١٢٩).

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[٤١]

وقوله[١] عز و جل: **ربَّنا اغفر لي ولوالدَيَّ**، طلب مِن ربه المغفرة لوالدَيْه.[٢] قال الحسن: إنّ أمه كانت مسلمة، وأمّا أبوه فكان[٣] كافرًا؛ لأنه قال: وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ،[٤] خَصَّ[٥] والدَه بالضلال، دلّ أنّ أمه كانت مسلمة.[٦] لكنّا لا نَعلم ما حال[٧] أمه[٨] [أن] كانت مسلمة أو كافرة، وأمّا[٩] أبوه فهو لا شكّ أنه كان كافرًا. ثم يحتمل دعاؤه لوالديه وهما كافران -إن كانت[١٠] أمه كافرة-[١١] على إضمار الإسلام، أي اغفر لهما إن أسلما. أو أن يكون سؤال المغفرة لهما سؤالَ الإسلام نفسه. أو أن[١٢] يكون طَلَبَ منه الستر[١٣] عليهما في الدنيا وأن لا يَفضحَهما[١٤] ولا يُخزيَهما.[١٥] لكنه سأل المغفرة يوم يقوم الحساب، ولا[١٦] يحتمل طَلَبُ الستر إلا أنْ يُفصَل[١٧] بين قوله: **ربنا اغفر لي ولوالدَيّ**، وبين قوله: **وللمؤمنين**، يُبْتَدَأ بالمؤمنين يوم يقوم الحساب. وقد ذكرنا هذا فيما تقدم.[١٨] ودعاء إبراهيم وسؤاله[١٩] المغفرةَ لوالديه يكون سؤالَ السبب الذي يَستحقّان به المغفرة مِن ربهما ويكونان أهلًا لها،[٢٠] وهو التوحيد ومعرفة المولى.

---

[١] ك - وقوله.

[٢] ع: لوالدي.

[٣] ك ن: كان.

[٤] سورة الشعراء، ٨٦/٢٦.

[٥] م: خض.

[٦] ذكره الآلوسي مختصرا. انظر: *روح المعاني* للآلوسي، ٢٤٣/١٣. ونسب القرطبي هذا القول إلى القشيري. انظر: *تفسير القرطبي*، ٣٧٥/٩.

[٧] جميع النسخ + الأم.

[٨] ك: أم.

[٩] ع: فأما.

[١٠] ك: إن كان.

[١١] جميع النسخ + إلا.

[١٢] ك - أن.

[١٣] ع: ستر.

[١٤] ع: لا يخفحهما.

[١٥] ك: يخزايما.

[١٦] ع: فلا.

[١٧] ع: أن يحصل.

[١٨] انظر تفسير الآية من سورة التوبة، ١١٤/٩.

[١٩] ع: فسؤاله.

[٢٠] ع: أهل الذهما؛ م: لهما.

وهو ما ذكرنا[١] في أمْر نوحٍ قومَه الاستغفارَ له،[٢] وكذلك قول[٣] هود حيث قال: وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ،[٤] الآية.

وقوله[٥] عز وجل: **يوم يقوم الحساب**، يحتمل قوله: **يقوم الحساب**، بالعدل. يقول الرجل لآخَر: أَقِمْ حسابي، أي اعْدِلْ فيه. وإقامةُ الحساب العَدْلُ فيه على ما توجبه[٦] الحكمة لا يُزاد ولا يُنقَص، كقوله: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ.[٧] وقال بعضهم: **يوم يقوم الحساب**، يوم يُحاسَبون، [أي] قيامُ الحساب[٨] هو المحاسبةُ نفسُها.[٩] *والله أعلم*.*

﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ**﴾[٤٢] ﴿**مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ**﴾[٤٣]

وقوله[١٠] عز وجل: **ولا تَحسَبَنَّ الله غافلًا عمّا يَعمل الظالمون**، قال بعضهم: المخاطبة بهذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصّة على عِلمٍ مِنه أنّ رسول الله كان لا يظن أنّ الله يَغفل عما يعمل الظالمون، لكنه خاطب به كما خاطبه[١١] في قوله: وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ،[١٢] وقوله: وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،[١٣] وأمثاله، نَهاه مع العلم أنه لا يفعل[١٤] ذلك. والأصل[١٥] في هذا أنّ العصمة لا تَرفع المحنة، وليس المحنة إلا الأمر والنهي؛ إذ لو رَفعت العصمةَ المحنةُ

[١] ع: ما ذكر.
[٢] ﴿فقلت استغفِروا ربَّكم إنه كان غفارا﴾ (سورة نوح، ٧١/١٠).
[٣] ع: قوله.
[٤] سورة هود، ١١/٥٢.
[٥] ك – وقوله.
[٦] ن ع م: ما يوجبه.
[٧] ﴿ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليوم القيامة فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئًا وإنْ كان مثقالَ حبةٍ مِن خَردَلٍ أتينا بها وكَفَى بنا حاسبين﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/٤٧).
[٨] م – قيام الحساب.
[٩] جميع النسخ: نفسه.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة برقم ٣٨، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٣٩٠و/سطر ٣٨–٣٩٠ظ/سطر ٥.
[١٠] ك – وقوله.
[١١] جميع النسخ: كما خاطب به.
[١٢] سورة القصص، ٢٨/٨٨.
[١٣] سورة الأنعام، ٦/١٤؛ وسورة يونس، ١٠/١٠٥؛ وسورة القصص، ٢٨/٨٧.
[١٤] م: لا يغفل.
[١٥] جميع النسخ: وأصله.

والأمرُ والنهيُ لَذهبت فائدة العصمة ولا حاجةَ تَقَعُ إليها، فدلّ أنّ العصمة تَزيد في المحنة ومع المحنة يُحتاج إليها[١] ويُنتفَع بها. ويحتمل أن يكون الخطاب بالآية لغيره[٢] [أي] كلّ[٣] ظانٍّ يَظن بالله الغفلةَ عن ظُلم الظالم، وهو كما خاطب بقوله: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ،[٤] إنما خاطب به كلَّ مغرور[٥] بربه الكريم لا كلَّ إنسان، فعلى ذلك خاطب بقوله: **ولا تَحسَبَنَّ الله غافلاً عمّا يَعمل الظالمون**، كلَّ ظانٍّ بالله الغفلةَ عن ظُلم الظالم. ثم إنّ الذي حَمَلَهم على الظنّ بالله الغفلةَ عن ظُلم الظالم حِلْمُه وتأخيرُه العذاب عنهم عن وقتِ ظُلمِهم وتَرْكُ أَخْذِهم بذلك. فمِنهم مَن ادّعَى الغفلةَ عن ذلك لِمَا رَأَوْا مِن عادةِ مُلُوكِ الأرض أنّ مَن ظَلَمَ[٦] أحدًا[٧] مِنهم انْتقَمَ مِنه في أَعْجَلِ وقتٍ يَقدر على الانتقام مِنه، فحَمَلَ تأخيرَ الله[٨] العذابَ منهم والانتقامَ منهم على القول بالغفلة.[٩] ومنهم مَن ادّعَى الرضاءَ بما اختاروا هم مِن الشرك والكفر بالله وادّعَوْا الأمرَ بذلك لِمَا لم يَأخذهم ولم يَستأصِلْهم بصنيعهم، فاستدلّوا بذلك [على] رِضاه بفعلهم[١٠] وأمْرِه إياهم بذلك. فأَخبر رسولَه أنّ تأخيرَه[١١] العذابَ عنهم وإمهالَه إياهم ليس عن غفلةٍ عنه ولا عن سهوٍ ولا لِرضاه به وأَمْرٍ،[١٢] ولكن إنما يُؤخِّره ليومٍ.

* وقوله: **ولا تَحسَبَنَّ الله غافلاً عمّا يَعمل الظالمون**، يخرج على وجهين. أحدهما [٣٩٠ظ س٢٧] يقول: **ولا تَحسَبَنَّ الله غافلاً عما يَعمل الظالمون**،[١٣] وَقْتَ خَلْقِه الخَلْقَ وأنشأهم، عمّا يكون منهم مِن الظلم، أي لا عن غفلةٍ وسهوٍ عن ظُلم الظالمين أنشأهم وخَلَقَهم،

---

[١] ن – إليها.
[٢] جميع النسخ: غيره.
[٣] ع: وكل.
[٤] سورة الانفطار، ٦/٨٢.
[٥] جميع النسخ: كل غار.
[٦] ع م: من أظلم.
[٧] ك – أحدا.
[٨] ع + لله.
[٩] ع: الغفلة.
[١٠] ع م: بفعله.
[١١] ع م: أن تأخير.
[١٢] ع: عن سهو والرضا وأمر.
[١٣] ك – يخرج على وجهين أحدهما يقول ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون.

ولكن على علمٍ بما يكون منهم أنشأهم وخَلَقَهم[١] لأنّ مَنافعَ ما يكون[٢] منهم وضررَه يَرجع إليهم، فلم يَخرُج إنشاؤه إياهم[٣] على علمٍ منه بذلك[٤] عن الحكمة.

والثاني ما ذكرنا أنّ تأخيرَه العذابَ عنهم ليس لِغفلةٍ منه بذلك، ولكن لِمَا في أَخذِهم بالعذاب
٣٩٠ظ س٣١] وَقْتَ صَنيعهم زوالُ المحنة؛[٥] لأنه يَصيرُ العذاب والثواب مشاهدةً.[٦]*

ثم وَصَفَ ذلك اليوم لِشدة هَوْلِه وفَزَعِه[٧] فقال: **لِيومٍ تَشْخَصُ فيه الأَبصارُ مُهْطِعِين مُقْنِعِي رُءوسِهم لا يَرتدُّ إليهم طَرْفُهم**، قال بعضهم: هذا كلُّه يَرجع إلى الطَّرْف والبصر. يقولون: شاخصة أبصارهم، **مُهْطِعِين**، ناظرين إليه، أي إلى الداعي، **مُقْنِعِي رُءوسِهم**، رافِعِي رُءوسِهم، **لا يَرتدُّ إليهم طَرْفُهم**،[٨] لِهَوْلِ ذلك اليوم. هذا كلّه يَصرفونه[٩] إلى الأبصار دون النفس؛ لأنّ الإهْطاع والإقناع هو للنظر ولِشُخُوص[١٠] الأبصار. ومنهم مَن صَرَفَ قولَه: تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ،[١١] و **لا يَرتدُّ إليهم طَرْفُهم**، إلى البصر، وصَرَفَ قولَه: **مُهْطِعِين مُقْنِعِي رُءوسِهم**، إلى الأنفُس، وهو ما ذكر في موضع آخر: مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ،[١٢] أي مُسرِعين إليه بالإجابة[١٣] رجاءَ التخلُّص والنجاة عما حَلّ بهم بترك الإجابة. والإهطاع قيل: هو النظر الدائم، والإقناع هو الرفع، رَفْعُ الرءوس، **مُهْطِعِين**، أي مُدِيمِي النظر، **مُقْنِعِي رُءوسِهم**، أي[١٤] رافِعِيها.

---

[١] ك + لكن أنشأهم على علم منه بذلك؛ ن + ولكن أنشاهم على علم منه بذلك؛ ع م + لكن أنشاهم.
[٢] ن: ذلك.
[٣] ع م – لأن منافع ما يكون منهم وضرره يرجع إليهم فلم يخرج إنشاؤه إياهم.
[٤] جميع النسخ: ذلك.
[٥] ك: المحبة.
[٦] ك ن + والله أعلم.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٩٠ظ/سطر ٢٧-٣١.
[٧] ع: وقرعه.
[٨] ن – قال بعضهم هذا كله يرجع إلى الطرف والبصر يقولون شاخصة أبصارهم مهطعين ناظرين إليه أي إلى الداعي مقنعي رؤسهم رافعي رؤسهم لا يرتد إليهم طرفهم.
[٩] جميع النسخ: يصرفون.
[١٠] ع م: هو النظر والشخوص.
[١١] الآية السابقة.
[١٢] ﴿خُشَّعًا أبصارُهم يَخرجون من الأَجْداث كأنهم جرادٌ مُنتشِر. مُهْطِعِين إلى الداعِ يقول الكافرون هذا يومٌ عَسِر﴾ (سورة القمر، ٥٤/٧-٨).
[١٣] جميع النسخ: الإجابة.
[١٤] ن ع م – أي.

وعلى تأويل بعضهم: مُسرِعين، على ما ذكرنا. وقال بعضهم: **مُقْنِعِي رُءوسِهم**، أي رافِعِيها[١] مُلْتَزِقةً إلى أعناقهم.*

وقوله[٢] عز وجل: **وأفئدتهم هَوَاء**، قيل:[٣] خالية لِهَوْل ذلك اليوم، أي خالية عن التدبير؛ لأنّ في الشاهد أنّ[٤] مَن بُلِيَ ببَلايا وشَدائدَ يتدبّر ويتفكّر في دفع ذلك، فيُخبر[٥] أنّ أفئدتهم هَوَاءٌ يومئذ، أي خالية عن التدبير، إذ أفئدتهم لا تكون[٦] معهم لِشدة أهواله. وقال بعضهم: **وأفئدتهم هَوَاء**، أي لا شيء فيها ما ينتفعون بها، وهكذا الهَواء، هَواءُ كلِّ شيءٍ يُوصَف بالخَلاء[٧] عن كل شيء. *والله أعلم.*

*وقال بعضهم في قوله: **وأفئدتهم هَوَاءٌ**، أي تُنْزَع قلوبهم حتى صارت في حَناجرهم، [٣٩١و س٧ فلا تَخرُج مِن أفواههم ولا تعود إلى أماكنها لِشدة هَوْلِ ذلك اليوم وفَزَعِهم عليه. وهو على التمثيل والكناية كقولهم: إذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ،[٨] الآية، لِشدة خوفِهم، وهو على التمثيل؛ إذ لا يحتمل بلوغ القلوب[٩] الحناجر في الدنيا حقيقة، إذ لو بلغت ذلك لخَرجت فماتوا، إذ الدنيا يحتمل[١٠] الموت فيها، فدل أنّ ذلك على التمثيل لشدة خوفهم.* ٣٩١و س١١]

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾[٤٤]

وقوله[١١] عز وجل: **وأَنْذِرِ الناسَ يومَ يَأتيهمُ العذابُ فيَقولُ الذين ظَلموا ربَّنا أَخِّرنا إلى أجلٍ قريبٍ**، يحتمل قوله: **وأَنذِرِ الناسَ يومَ يَأتيهمُ العذابُ**، قولَهم الذي يقولون يومئذ: **ربنا أخرنا إلى أجل قريب.**

---

[١] ع: أي رافعها.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٣٩٠ظ/سطر ٢٧-٣١.

[٢] ك - وقوله.

[٣] ع م - قيل.

[٤] ع: في المشاهدتان.

[٥] ن: فيخبر.

[٦] جميع النسخ: لا يكون.

[٧] ع م: بالخلاص.

[٨] ﴿إذ جاءوكم مِن فوقِكم ومِن أسفلَ مِنكم وإذ زاغتِ الأبصارُ وبَلَغَتِ القلوبُ الحناجرَ وتَظنون بالله الظُّنُونا﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/١٠).

[٩] ك: القلب.

[١٠] ن ع: تحتمل.

* وقع ما بين النجمتين في تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٩١و/سطر ٧-١١.

[١١] ك - وقوله.

ويحتمل **وأَنذِرِ الناسَ يومَ يَأتيهمُ العذابُ**، الذي يَحِلُّ بهم، ثم أخبر عما يقولون إذا حَلَّ بهم العذاب: **ربَّنا أَخِّرْنا إلى أجلٍ قريبٍ**، قال بعضهم: إلى الدنيا، والدنيا أجلُها قريب. لكن هذا لا يحتمل؛ لأن الدنيا أُولى والآخرة آخرة، فلو جاز هذا[1] تكون[2] الآخرة أُولى، فذلك بعيد. لكن طَلبوا -والله أعلم- الردَّ إلى حال الأَمْن لِيُجِيبُوا داعِيَه؛ إذ لم تَنفعهم[3]
[٣٩١و] إجابتُهم في حال الخوف والهَوْل، وما حَلَّ بهم / إنما حَلَّ بِتَركِهم الإجابةَ[4] في حال الأَمْن، فطَلبوا الردَّ إلى الأَمْن لِيُجِيبُوا[5] داعِيَه[6] لِتَنفعهم إجابتُهم، حيث قالوا: **نُجِبْ دعوتَك ونَتَّبِعِ الرسل.**

وقوله[7] عز وجل: **أَوَلَم تكونوا أَقسمتم مِن قبلُ ما لكم مِن زوال**، لم يبيّن بما أَقسموا في هذه الآية، وهو ما بيّن في آية أخرى: وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ.[8]

ثم قوله: **ما لكم مِن زوال**، قال قائلون: **ما لكم مِن زوال**، مِن الدنيا، أي كنتم تقولون أنْ: ليس إلا الدنيا، لا زوالَ[9] لنا عنها أحياءً ومَوْتَى، كقولهم: إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا،[10] الآية، على ما ذكر مِن قَسَمِهم أنهم لا يُبْعَثون. وقال قائلون: قوله: **ما لكم مِن زوال**، جوابٌ لسؤالهم: **ربَّنا أَخِّرْنا إلى أجلٍ قريبٍ**، على الاستئناف قال: **ما لكم مِن زوال**، عمّا أنتم فيه مِن العذاب إلى ما تَسألون[11] مِن المدة والتأخير، أي ما لكم إلى ذلك[12] سبيل.*

---

[1] ك – هذا.
[2] جميع النسخ: لتكون.
[3] ع م: لم ينفعهم.
[4] ع م – الإجابة.
[5] ك: ليجيبوا.
[6] ن – إذ لم تنفعهم إجابتهم في حال الخوف والهول وما حل بهم إنما حل بتركهم الإجابة في حال الأمن فطلبوا الرد إلى الأمن ليجيبوا داعيه.
[7] ك – وقوله.
[8] سورة النحل، ١٦/٣٨.
[9] ع: إلى زوال.
[10] ﴿إنْ هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونَحيا وما نحن بمبعوثين﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/٣٧).
[11] م: ما يتسائلون.
[12] ن + من.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٣٩١و/سطر ٧-١١.

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾[٤٥]

وقوله[1] عز وجل: **وسَكَنتم في مَساكن الذين ظلموا أنفسهم**، بتكذيبهم الرسل. تأويله[2] -والله أعلم- أنهم كانوا يَطلبون مِن ربهم الردَّ إلى حال الأَمْن لِيُجيبوا، بقولهم: رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ،[3] فقال: **وسَكَنتم في مَساكن الذين ظلموا أنفسهم**، بتكذيبهم الرسل،[4] أي سَكَنتم في الدنيا في مِثل مَنازلهم ومَساكنهم فرأيتم ما نَزَلَ بأولئك الذين صَنَعُوا مِثلَ صَنيعِكم، وذلك قوله[5] عز وجل: **وتَبَيَّنَ لكم كيف فعلنا بهم**، مِن التعذيب والاستئصال، ثم لم تَتَّعِظُوا[6] بما حَلَّ بهم. فعلى ذلك إذا رُدِدْتم إلى حال الأَمْن لا تَتَّعِظُون[7] بما حَلَّ بكم في هذه الحال، وهو ما قال: وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ،[8] فيما يقولون: إنهم يجيبون دعوته. هذا -والله أعلم- تأويلُه. وقال بعض أهل التأويل: **وسَكَنتم في مَساكنِ الذين ظلموا أنفسهم**، أي عَمِلتم[9] مِثلَ أعمالِهم،[10] **وتَبَيَّنَ لكم كيف فعلنا بهم**، مِن الاستئصال بالتكذيب بتكذيبِهم الرسل،[11] فلم تَتَّعِظُوا بذلك، فلا تَتَّعِظُون[12] بهذا أيضًا إذا رُدِدْتم. *والله أعلم*.

وفي قوله:[13] **وسَكَنتم في مَساكنِ الذين ظلموا أنفسهم**، إلى آخر ما ذكر، دلالةُ لزومِ النظر والاستدلال ولزومِ القياس. ودلالةُ لزومِ العقوبة -وإن كان لم يَعلموا به- بعد أنْ مُكِّنُوا مِن العلم به. أمّا دلالةُ النظر والاستدلال هو قوله: **وسَكَنتم في مَساكنِ الذين ظلموا أنفسهم**،

[1] ك - وقوله.
[2] ع م: وتأويله.
[3] ع م + والله أعلم. وانظر: الآية السابقة.
[4] ك - تأويله والله أعلم أنهم كانوا يطلبون من ربهم الرد إلى حال الأمن ليجيبوا بقولهم ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل فقال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم الرسل.
[5] ن ع: وقوله؛ م: ذلك وقوله.
[6] ن ع م: لم يتعظوا.
[7] ك: لا تقبطون.
[8] سورة الأنعام، ٢٨/٦.
[9] ع م: أي علمتم.
[10] ع: أعمالكم.
[11] ن - بتكذيبهم الرسل.
[12] ع: فلا يتعظون.
[13] ن: وقوله.

فهلّا نَظرتم [في] ما حَلَّ بهم مِن تكذيبهم الرسل واتَّعَظْتم[1] به. ودلالةُ القياس هو ما خَوَّفَهم أنْ يَنزلَ بهم ما نَزَلَ بأولئك؛ لأنهم اشتركوا في المعنى الذي نَزَلَ بأولئك ما نَزَل، وهو[2] تكذيبهم الرسل وسوءُ معاملتِهم إياهم.

وقوله[3] عز وجل: **وضَرَبْنا لكم الأَمثال**، أي ضَرَبْنا لكم[4] مِن الأمثال ما لو تفكّرتم فيها ونَظرتم لَكان ذلك لكم موعظةً وزجرًا عن مِثل صَنيعكم. أو يقول: **وضَرَبْنا لكم الأَمثال**، أي قد بَيَّنّا لكم الأَمثال والأَشباه[5] وما[6] يُعَرِّفُكم لو تأمّلْتم أنّ أولئك لكم أشباهٌ وأمثالٌ وصَنيعَهم لِصَنيعكم أشباهٌ وأمثالٌ، فيَنزل بكم ما نَزَلَ بهم. ***والله أعلم***.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾[٤٦]

وقوله[7] عز وجل: **وقد مَكَرُوا مَكْرَهم**، مَكَرُوا[8] واحتالوا على إهلاك الرسل وقتلِهم، كقوله: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا،[9] الآية، وكَيْدِهم الذي ذكر في غير آيٍ مِن القرآن برسل الله حتى قال الرسل: فَكِيدُونِي جَمِيعًا.[10] ومَكروا أيضًا بدين الله الذي أتت به الرسل، مَكَرُوا واحتالوا على إطفاء ذلك النور، فأَبَى الله ذلك عليهم وأَظْهَرَ دينَه وأَبْقَى نورَه إلى يوم القيامة، كقوله: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ.[11] كأنّ مَكْرَهم وحِيَلَهم يَرجع في أحد[12] التأويلين إلى أنفُس الرسل حين هَمُّوا وقصدوا[13] إهلاكهم.[14] والثاني يَرجع إلى إطفاء الدين الذي أتى به الرسل والنور الذي دَعَوْا إليه.

---

[1] ع: واتعظم.
[2] ع م: هو.
[3] ك – وقوله.
[4] م – لكم.
[5] ع: والأشبا.
[6] ن م: ما.
[7] ك – وقوله.
[8] ك – مكروا.
[9] ﴿وإذ يَمكُر بك الذين كفروا لِيُثْبِتُوك أو يَقتُلوك أو يُخرِجوك ويَمكُرون ويَمكُر الله والله خير الماكرين﴾ (سورة الأنفال، ٣٠/٨).
[10] سورة هود، ٥٥/١١. وهو من قول هود عليه السلام.
[11] ﴿يريدون أن يُطفِئوا نورَ الله بأفواههم ويَأبَى اللهُ إلا أن يُتِمَّ نورَه ولو كَرِهَ الكافرون﴾ (سورة التوبة، ٣٢/٩).
[12] ن: إلى أحد.
[13] ع م: وبعدوا؛ وفي ك ن الكلمة غير واضحة وغير منقوطة. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٢ظ.
[14] ك: هلاكهم.

وقوله[١] عز وجل: **وعند الله مَكْرُهم**، يحتمل عند الله جزاءُ[٢] مَكْرِهم الذي مَكَرُوا برسل الله وبدينه. أو[٣] **وعند الله مَكْرُهم**، أي عند الله العلمُ[٤] بمَكْرِهم محفوظٌ ذلك عنده لا يَفُوت ولا يَذهب عنه شيء، فيَجزيهم بذلك في الآخرة. أو **وعند الله مَكْرُهم**، أي عند الله الأسبابُ التي بها مَكَرُوا، مِن عند الله استفادوا [ذلك]، وهو النعيم الذي[٥] أعطاهم والأموال التي مَلَّكَهم[٦] والعقول التي رَكَّبَ فيهم بما قَدَرُوا على المَكْر والاحتيال، عند الله ذلك كلُّه.[٧] *والله أعلم*.

وقوله[٨] عز وجل: **وإنْ كان مَكْرُهم لِتَزُولَ مِنه الجبال**، اختُلف في تلاوته وقراءته وتأويله. قرأ بعضهم: وإن كاد مَكْرُهم، بالدال، وهو حرف عمر وابن[٩] مسعود وأُبَيّ وابن[١٠] عباس رضي الله عنهم.[١١] وقرأ بعضهم: **وإنْ كان مَكْرُهم**، بالنون. ثم اختُلف في قوله: **وإنْ كان**. قال الحسن وغيره: **وإنْ**، بمعنى[١٢] "ما"، أي ما كان مَكْرُهم لِتَزُولَ منه الجبال، قال: كان مَكْرُهم أَوْهَنَ وأَضْعَفَ مِن أنْ تَزول[١٣] مِنه الجبال.[١٤] / و"إنْ" بمعنى "ما" كثير في القرآن، كقوله: [٣٩١ظ]
لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ،[١٥] أي ما كنا فاعلين، وكقوله: إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ،[١٦] أي ما نحن إلا بشر مثلكم. وقد يستعمل[١٧] "إنْ" في موضع "قد"، كقوله: إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا،[١٨] أي قد كان وَعْدُ ربِّنا لمَفعولاً. فمَن حَمَلَه على "ما" فقد استَهان بمكرهم واستَخَفَّ به،

---

[١] ك – وقوله.
[٢] ك – جزاء، صح هـ.
[٣] ن م – أو.
[٤] ك: العمل.
[٥] ك: النعم التي.
[٦] م: ملكتهم.
[٧] ع م – ذلك كله.
[٨] ك – وقوله.
[٩] ع م: بن.
[١٠] ع: ابن.
[١١] وهي من الشاذ لمخالفتها لرسم المصحف. انظر: *تفسير الطبري*، ١٣/٢٤٦-٢٤٧؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٥/٥٣، ٥٤.
[١٢] ع: معنى.
[١٣] ك ن ع: أن يزول.
[١٤] ع م + قال كان مكرهم. انظر: *تفسير الطبري*، ١٣/٢٤٧؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٥/٥٣.
[١٥] ﴿لو أردنا أن نتخذ لَهْوًا لاتخذناه مِن لَدُنَّا إنْ كنا فاعلين﴾ (سورة الأنبياء، ٢١/١٧).
[١٦] ﴿قالت لهم رُسلهم إنْ نحن إلا بشر مِثلكم﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/١١).
[١٧] ك: تستعمل.
[١٨] ﴿ويقولون سبحانَ ربِّنا إنْ كان وَعْدُ ربِّنا لمَفعولا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/١٠٨).

فقال: إنَّ[1] مكرهم أوهن وأضعف مِن أنْ تزول[2] منه الجبال، والجبال أَوْهَن وأسرع زوالاً مِن رسالة الرسل ودين الله، بل رسالة الرسل ودين الله أَثْبَتُ مِن الجبال، لأنّ دينَ الله[3] ورسلَه معهما حُجَجُ الله وبراهينُه، فإذا لم يَعمل مكرُهم في إزالة الجبال لا يَعمل في إزالة دين الله[4] ورسالة الرسل ومعهما الحُجج والبراهين. ومَن قال: **وإنْ كان،** [أي] قد كان،[5] حَمَلَه على الاستِعْظام[6] لمكرهم،[7] وعلى ذلك مَن قرأ: كاد،[8] بالدال، على الاستعظام لمكرهم،[9] كقوله: تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا،[10] مِن عظيم[11] ما قالوا في الله كادت السماوات أن تَنْشَق، فعلى ذلك مكرُهم. [ثم لا يحتمل مكرهم الوصف بالوجهين] جميعًا[12] أن يُستَهان مرة ويُستعظَم [أخرى][13] إلا أن يقال: إنّ كلمتهم مِن حيث الشرك والكفر عظيمة،[14] ومِن حيث احتيالهم ومكرهم في إزالة ذلك النور وإطفائه ضعيفة.[15] *والله أعلم.*

[٣٩١ظ س١٦] *وأمّا ما[16] قال أهل التأويل في قوله:[17] **وقد مَكَرُوا مَكْرَهم وعند الله مكرُهم وإن كان مكرُهم لِتزولَ منه الجبال،** إنه نزل في شأن[18] نُمْرُود، وإنه اتّخذ تابوتًا ورَبَطَ نُسُورًا على قَوائِمِه،

[1] ن – إن كان وعد ربنا لمفعولا أي قد كان وعد ربنا لمفعولا فمن حمله على ما فقد استهان بمكرهم واستخف به فقال إن.
[2] ن ع: أن يزول.
[3] ع م – أثبت من الجبال لأن دين الله.
[4] م + ورسله معهما حجج الله وبراهينه فإذا لم يعمل مكرهم في إزالة الجبال لا يعمل في إزالة دين الله.
[5] ك – كان.
[6] ك: على الاستفهام.
[7] جميع النسخ: بمكرهم.
[8] ك – كاد.
[9] جميع النسخ: بمكرهم.
[10] سورة مريم، ١٩/٩٠–٩١.
[11] ن: من عظم.
[12] جميع النسخ + الوجهين.
[13] الزيادتان من *الشرح*، ورقة ٤٢٢ظ.
[14] ك: عظيم.
[15] جميع النسخ: ضعيف.
[16] ع – ما.
[17] ك ن – في قوله.
[18] ك ن ع + فلان.

وما ذكروا إلى آخره،[1] فلا علم لنا إلى ذلك، وأظنه أنه كله خيال، فلا نَقول إلا القَدْر الذي ذكر في الآية. و "لَتَزُولُ" بنصب اللام الأولى وبرفع الآخرة على معنى التوكيد،[2] و "لِتَزُولَ" بكسر الأولى[3] ونصب الآخرة على[4] الجَحْد، أي ما كانت الجبال لِتَزُولَ مِن مكرِهم. وهو ما ذكرنا. **والله أعلم**.* [٣٩١ظ س٢٠]

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾[٤٧]

وقوله[5] عز وجل: **فلا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رسلَه**، الخطاب به يحتمل ما ذكرنا، أي لا تَحسَبَنَّ أنّ ما تأخر مِن نزول ما وَعد أنه يُخلِف وعدَه الذي وعد رسله، كما لم يكن[6] تأخير العذاب عنهم مِن وقتِ ظُلمِهم عن غفلة وسهو، ولكن كان وَعدُه إلى ذلك الوقت. وخُلْفُ الوعد في الشاهد مِن الخَلْق إنما يكون لوجهين. أحدهما لِما لا يَملِك إنجازَ ما وعد. والثاني لِمَا يضرّه الإنجاز. فالله يَتعالى عن ذلك كله.

وقوله[7] عز وجل: **إن الله عزيز ذو انتقام**، قال بعضهم:[8] **عزيز**، لا يُعجِزه شيء. وقيل: **عزيز**، قاهر يَقهَر ويُذِلّ، فالخلائق[9] كلهم أَذِلّاءُ دونَه. وقوله: **عزيز**، أي غالبٌ قاهر، **ذو انتقام**، لأوليائه مِن أعدائهم، أي غالب الأعداء وقاهرهم[10] وناصر الأولياء.*

---

[1] روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية: ﴿وإنْ كان مَكْرُهم لِتزولَ منه الجبالُ﴾، ثم فسّرها فقال: إن جبارا من الجبابرة قال: لا أنتهي حتى أنظر إلى ما في السماء. فأمر بفِراخ النُّسُور تُعلَف اللحم حتى شَبَّتْ وغَلُظَتْ. وأمر بتابوت فنُجِر يَسَعُ رَجُلَين. ثم جعل في وسطه خشبة. ثم ربط أرجلهن بأوتاد. ثم جَوَّعهن، ثم جعل على رأس الخشبة لحما. ثم دخل هو وصاحبه في التابوت. ثم ربطهن إلى قوائم التابوت ثم خَلَّى عنهن يُرِدن اللحم، فذَهَبْنَ به ما شاء الله تعالى. ثم قال لصاحبه: افتح فانظر ماذا ترى؟ ففتح فقال: أنظر إلى الجبال كأنها الذباب. قال: أغلق، فأغلق. فطِرْنَ به ما شاء الله، ثم قال: افتح، ففتح. فقال: انظر ماذا ترى؟ فقال: ما أرى إلا السماء، وما أراها تزداد إلا بُعدا. قال: صَوِّبِ الخشبة، فصَوَّبَهَا. فانقَضَّتْ تريد اللحم، فسَمِعَ الجبالُ هَدَّتَهَا، فكادت تَزول عن مَراتبها. وهناك روايات أخرى نحو ذلك. انظر: *تفسير الطبري*، ١٣/٢٤٤-٢٤٦؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٥/٥٤-٥٦.

[2] وهي قراءة متواترة قرأ بها الكسائي. انظر: *النشر في القراءات العشر* لابن الجزري، ٢/٣٠٠.

[3] ع م: اللام.

[4] ع: وعلى.

* وقع ما بين النجمتين في تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٩١ظ/سطر ١٦-٢٠.

[5] ك - وقوله.

[6] ع: كما ليريكن؛ م: كما لين يكن.

[7] ك - وقوله.

[8] ع - بعضهم.

[9] ن: فالخلق.

[10] ن: أو قاهرهم.

* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٣٩١ظ/سطر ١٦-٢٠.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[٤٨]

وقوله[١] عز وجل: **يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماواتُ**، قال الحسن: تُفْنَىَ هذه[٢] الأرضُ ثم تُعاد مِن ساعته مُستويةً لا شجرَ فيها ولا جبالَ[٣] ولا آكامَ،[٤] قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا.[٥] وقال بعضهم: تُبَدَّلُ هذه الأرضُ أرضًا غيرَ هذه بيضاءَ نَقِيَّةً لم يُسفَك عليها دمٌ و لم يُعمَل عليها بالمعاصي، وكذلك السماوات. ومنهم مَن يقول: لا تُبَدَّلُ عينُها ولكن تَتغيّرَ[٦] صِفتُها وزينتُها، كما يقول الرجل لآخر: تَبَدَّلْتَ يا فلان، لا يريد تَبَدُّلَ أصلِه وعينِه ولكن تَغَيُّرَ الأخلاق والدين، فعلى ذلك[٧] ما ذكر مِن تبديل الأرض والسماوات. والأشبه أن يكون على اختلاف الأحوال؛ لأنه ذكر في آية: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا،[٨] وقال: وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ،[٩] وقال: يَوْمَ تَشَقَّقُ،[١٠] و إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ،[١١] و إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ،[١٢] وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ،[١٣] وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ،[١٤] وقال: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ، وقال: فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا.[١٥] ذكر مرةً [أنه] تُمَدُّ[١٦] الأرض، وذكر مرة[١٧] أنها تُخبِر وتُحَدِّث عمّا عُمِل عليها، وذكر في السماء التشقُّق[١٨] والانفطار، وفي الجبال السَّيْرَ[١٩] والمرور مرّةً ومرّةً الرَّفع،[٢٠]

---

[١] ك – وقوله.

[٢] م: هذا.

[٣] ن ع م: جبل.

[٤] الآكام جمع أَكَمة، وهي التَّل الذي يكون ارتفاعه دون الجبل (*لسان العرب* لابن منظور، «أكم»).

[٥] ﴿ويَسألونك عن الجبال فقُل يَنسِفُها ربي نَسْفًا. فيَذَرُها قاعًا صَفْصَفًا. لا ترَى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا﴾ (سورة الكهف، ٢٠/١٠٥-١٠٧).

[٦] ن ع م: يتغير.

[٧] ن ع م – ذلك.

[٨] سورة الزلزلة، ٩٩/٤.

[٩] سورة الانشقاق، ٨٤/٣.

[١٠] ﴿يومَ تَشَقَّقُ الأرضُ عنهم سِرَاعًا ذلك حَشْرٌ علينا يَسِيرٌ﴾ (سورة ق، ٥٠/٤٤).

[١١] سورة الانشقاق، ٨٤/١.

[١٢] سورة الانفطار، ٨٢/١.

[١٣] ﴿وتَرَى الجبالَ تَحسَبُها جامدةً وهي تَمُرُّ مَرَّ السحاب﴾ (سورة النمل، ٢٧/٨٨).

[١٤] ﴿ويومَ نُسَيِّرُ الجبالَ وتَرَى الأرضَ بارزةً وحَشرناهم فلم نُغادِر منهم أحدا﴾ (سورة الكهف، ١٨/٤٧).

[١٥] ﴿وبُسَّتِ الجبالُ بَسًّا. فكانت هَبَاءً مُنبَثًّا﴾ (سورة الواقعة، ٥٦/٥-٦).

[١٦] ن: بمد.

[١٧] ع – تمد الأرض وذكر مرة.

[١٨] جميع النسخ: بالتشقق.

[١٩] جميع النسخ: بالسير.

[٢٠] جميع النسخ: بالرفع.

ومرة أخبر أنه جعلها[1] هباءً منثورًا، وأمثاله. فيُشبِه أن يكون هذا كلُّه على اختلاف الأحوال والأوقات؛ إذ يوم القيامة يوم ممتدّ، فيكون كلُّ ما ذكر على ما قال: يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ،[2] وقال[3] في آية: وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ،[4] وقال: وَلَا يَتَسَاءَلُونَ،[5] وقوله: يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،[6] فهو -والله أعلم-[7] على اختلاف الأحوال والأوقات، فعلى ذلك الأول. **والله أعلم بذلك**.

وتَبديل[8] الأرض والسماوات يحتمل وجهين. أحدهما تبديلُ[9] أهلِها على ما يُذكَر الأرضُ والقريةُ والمرادُ منها الأهل، كقوله: وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا،[10] وقوله: قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً[11] الآية، ونحوه كثير. والثاني تبديلُ نفسِ الأرض. ثم يحتمل كلُّ واحدٍ مِن الوجهين وجهين. أمّا تبديلُ أهلِها هو أن يكونوا[12] مُستسلمين خاضعين له في ذلك ولم يكونوا في الدنيا كذلك.[13] والثاني تَبديلُ[14] أهلِها هو أن يكون الأولياءُ في النعم الدائمة واللذة الباقية والأعداءُ في عذاب وألم وشدة، وكانوا في هذه الدنيا جميعًا مُشتركين -الأولياءُ والأعداءُ- في اللّذات والآلام. فإن كان تبديل نفس الأرض فهو يخرج على وجهين أيضًا.[15] أحدهما تغييرُ[16] زينتِها وصفتِها. والثاني تبديلُ عينِها وجوهرِها، وهو ما ذكر أنّ أرضَ الجنة تكون مِن مِسْك وزعفران، ونحو ما روي في الخبر.[17] **والله أعلم**.

---

[1] ن ع: جعلناها؛ م: جعلناه.

[2] ﴿فعَمِيَتْ عليهمُ الأنباءُ يومئذٍ فهم لا يَتساءلون﴾ (سورة النمل، ٦٦/٢٧).

[3] ع م: قال.

[4] سورة الصافات، ٢٧/٣٧.

[5] ﴿فإذا نُفِخَ في الصُّور فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يَتساءلون﴾ (سورة المؤمنون، ١٠١/٢٣).

[6] ﴿يَسألُه مَن في السماوات والأرض كلَّ يومٍ هو في شأن﴾ (سورة الرحمن، ٢٩/٥٥).

[7] ن ع م + ذلك.

[8] ن ع م: وتبدل.

[9] م: تبدل.

[10] سورة يوسف، ٨٢/١٢.

[11] ﴿وضَرَبَ اللهُ مثلاً قريةً كانت آمِنَةً مُطمئنةً يأتيها رزقُها رَغَدًا مِن كلِّ مكانٍ فكَفَرَتْ بأَنْعُمِ الله فأذاقها اللهُ لباسَ الجوع والخوف بما كانوا يَصنعون﴾ (سورة النحل، ١١٢/١٦).

[12] ع: أن يكون.

[13] ع م - كذلك.

[14] جميع النسخ: تبدل.

[15] ع م - أيضا.

[16] ك: تبديل.

[17] انظر لمختلف الروايات في ذلك: *تفسير الطبري*، ٢٤٩/٣-٢٥٤؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٥٦/٥-٥٨.

[٣٩٢و] كأنّ قولَه: **يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض،** / صِلةُ قولِه: فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ،[١] الآية،[٢] فقالوا: متى يكون ذلك؟ فقال: **يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض،** يَخرُج[٣] جوابًا لسؤالهم.[٤] ***والله أعلم.***

وقوله[٥] عز وجل: **وبَرَزُوا لله الواحد القهّار،** قد ذكرنا[٦] تخصيصَ بُرُوزِهم لله يومَ القيامة أنه –والله أعلم– أنشأ هذا العالم الأول للعالم الثاني، فالعالم الثاني[٧] هو المقصود في إنشاء هذا[٨] العالم، فخَصَّ بُرُوزَهم يومئذ له لِما هو المقصود في إنشائهم. وقال قائلون: تخصيص البُرُوز له يومئذ لأنهم يخرجون مِن قبورهم للحساب لا لغيره، فهو يُحاسِبُهم، فأضاف البُرُوزَ إليه لِما لا يخرجون[٩] إلا له، وأمّا في الدنيا فإنما يخرجون لحوائج أنفسهم، لذلك خرج التخصيص له والإضافة.

وقوله: **وبَرَزُوا لله،** يحتمل وجهين. أحدهما بَرَزُوا له مُستسلِمين خاضعين قابلين[١٠] طائعين ولم يكونوا في الدنيا كذلك. والثاني يَبْرُزُون له، [أي] لِما وُعِدوا وأُوعِدُوا، بارِزُون لِوَعْدِه ولِوَعِيدِه ولِما دُعُوا إليه ورُغِّبُوا فيه. وقيل:[١١] يَبْرُزُون له، [أي] لِما لا يَملِكون إخفاءَ[١٢] أنفسِهم وسَتْرَها، بل [يكونون] ظاهِرين له.

وقوله عز وجل: **لله الواحد القهّار، الواحد،**[١٣] الذي لا شريك له، و **القهّار،** يَقهَر الخلائق كلَّهم ويَغلِب[١٤] الجبابرة والفراعنة. أو يَبْرُزُون له لِيَجزِيَهم على ما ذكر تعالى: لِيَجْزِيَ اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ.[١٥] ***والله أعلم.***

---

[١] سورة إبراهيم، ٤٧/١٤.
[٢] ك – الآية.
[٣] ع: تخرج.
[٤] ع: بالسؤالهم؛ م: لسؤال.
[٥] ك – وقوله.
[٦] انظر تفسير الآية من سورة إبراهيم، ٢١/١٤.
[٧] ن – فالعالم الثاني.
[٨] ع: هذه.
[٩] ع م: لا لما يخرجون.
[١٠] ع م: قائلين.
[١١] جميع النسخ: والثالث.
[١٢] ك: خفاء.
[١٣] ع م – الواحد.
[١٤] جميع النسخ: ويغلبهم.
[١٥] سورة إبراهيم، ٥١/١٤.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾[٤٩] ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾[٥٠]

وقوله[١] عز وجل: **وتَرَى المجرمين يومئذ مُقَرَّنِين في الأَصْفَاد سَرابِيلُهم مِن قَطِرانٍ**، وذَكَرَ: **مِن قَطِرانٍ**، قيل: القِطْر هو النُّحَاس،[٢] والآنِي الذي قد انتهى حَرُّه، كقوله: حَمِيمٍ آنٍ.[٣] وقيل: الصُّفْر. وقال بعضهم: **مِن قَطِرَانٍ**، أي مِن نُحَاسٍ أُنِيَ لهم أنْ[٤] يُعَذَّبوا به.[٥] وقال بعضهم: هو مِن القَطْرَان المعروف الذي يُطْلَى به[٦] الإبلُ، ذكر هذا لأنه أشد احتراقًا[٧] واشتعالاً.

وقوله: **وتَرَى المجرمين يومئذ مُقَرَّنِين في الأَصْفَاد**، إلى آخِر ما ذكر، جَعَلَ الله عذاب الكفرة في الآخرة بالأسباب والأشياء التي كانوا يَفتخِرون بها في الدنيا مِن اللباس والشراب والأصحاب وغيره، وهو كان سببَ مَنْعِهم عن إجابة الرسل فيما دَعَوْهم إليه، فجَعَلَ تعذيبَهم في الآخرة بذلك النوع مِن النار. فقال: **وتَرَى المجرمين يومئذ مُقَرَّنِين في الأَصْفَاد**، يُقرَن[٨] ويُقَيَّضُ بعضُهم ببعض، كقوله: وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا،[٩] الآية؛ لأنه كان يَتبعه ويَأْتَمِر بأمره، وكقوله: اُحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا،[١٠] الآية، وكذلك الرؤساء منهم والمتبوعون. وقوله: **سَرابِيلُهم مِن قَطِرانٍ**، لِما كانوا يَفتخِرون في الدنيا بلباسهم، وكذلك كُلُّ نوعٍ كانوا[١١] يَفتخِرون به في الدنيا ويمنعهم[١٢] عن الإجابةِ إجابةِ الرسل. وقد ذكرنا هذا فيما تقدم.[١٣] والأَصْفَاد قيل: الأَغْلال، أي قد قُرِنَ بعضهم[١٤] إلى بعض في الأَغلال، واحِدُها صَفَد، وهو قول القُتَبي.[١٥]

---

[١] ك – وقوله.

[٢] ذكر أن هناك من قرأ هذه الكلمة هكذا: قِطْرٍ آنٍ. انظر: *تفسير الطبري*، ١٣/٢٥٦-٢٥٧؛ و*لسان العرب* لابن منظور، «قطر».

[٣] ﴿يَطوفون بينها وبين حَمِيمٍ آنٍ﴾ (سورة الرحمن، ٥٥/٤٤).

[٤] أي لأن.

[٥] م – به.

[٦] ك: بها.

[٧] م: إحراقا.

[٨] ن: يقترن.

[٩] ﴿ومَن يَعْشُ عن ذِكر الرحمن نُقَيِّض له شيطانًا فهو له قَرِين﴾ (سورة الزخرف، ٤٣/٣٦).

[١٠] ﴿احْشُرُوا الذين ظَلَمُوا وأزواجَهم وما كانوا يَعبدون. مِن دون الله فاهْدُوهم إلى صراطِ الجحيم﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٢٢-٢٣).

[١١] ع م – كانوا.

[١٢] ك: ومنعهم.

[١٣] انظر مثلا تفسير الآية من سورة التوبة، ٩/٣٥.

[١٤] جميع النسخ: بعضه.

[١٥] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٢٣٤.

وكذلك قولُ أبي عَوْسَجة[1] في الأَصْفَاد، إلا أنه قال: واحِدُها صِفَاد، والصَّفَد العَطِيَّة، **سَرَابِيلُهم:** قَمِيصُهم، واحِدُها سِرْبال، **مِن قَطِرانٍ،** القَطِر ما ذكرنا النُّحاس والآنِي الذي قد[2] اشتدَّ حَرُّه، وهو قول القُتَبي[3] وأبي عوسجة. ذَكَرَ هذه المَوَاعِيد والشدائد وأنواعَ ما يُعَذَّبون به في الآخرة ونعيمَها على أَلْسُن مَن قد ظَهَرَ صِدقُهم بالآيات والحُجَج لِيَحذروا ما أُوْعَدُوا ويَرغبوا فيما رَغَّبُوا لئلا يكونَ لهم الاحتجاج يومئذ، كقوله: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ،[4] وقوله: لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ،[5] الآية،[6] ونحوه. *والله أعلم.*

وقوله[7] عز وجل: **وتَغشَى وُجوهَهم النارُ،** لأنَّ أيديَهم مَغلولةٌ إلى أعناقهم فلا يَقدِرون أن يَتَّقُوا النار بأيديهم. ذكر هذا لأنّ في الشاهد مَن أصاب[8] وجهَه[9] أذى يَتَّقِي عنه بيده، فيخبر أنهم إنما يَتَّقُون ذلك بوجوههم. *والله أعلم.*

﴿لِيَجزيَ اللهُ كُلَّ نَفسٍ مَا كَسَبَتْ إنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [٥١]

لِيَجْزِيَ اللهُ كلَّ نفسٍ ما كَسَبَت، لما ذكرنا[10] يَبْرُزُون لله لِيَجزِيَهم [على أعمالهم] مِن خير وشر. وقوله:[11] **إن الله سريع الحساب،** قال بعضهم: كأنْ قد جاء حسابه.[12] والثاني ذَكَرَ هذا لأنّ الحساب إنما يُبطِئ لِما[13] لا يَتذكّر مَن له الحساب لمن يحاسبه في الشاهد فيما يحاسبه فيَطُول الحساب، أو للاشتغال[14] بشيءٍ يَشغَلُه[15] عنه، أو للجهل[16] بالحساب،

---

[1] ع + ذكر هذه المواعيد.

[2] ك – قد.

[3] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٢٣٤.

[4] ﴿رُسلاً مُبشِّرين ومُنذِرين لئلا يكونَ للناس على الله حجةٌ بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما﴾ (سورة النساء، ٤/١٦٥).

[5] ﴿إذ أنتم بالعُدْوَة الدُّنيا وهم بالعُدْوَة القُصْوَى والرَّكْبُ أسفلَ مِنكم ولو تَوَاعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن لِيَقضيَ الله أمرًا كان مفعولاً لِيَهلِكَ مَن هَلَكَ عن بينة ويَحيا مَن حَيَّ عن بينة وإن الله لَسميع عليم﴾ (سورة الأنفال، ٨/٤٢).

[6] ن – الآية.

[7] ك – وقوله.

[8] ك: من أصابه.

[9] ك – وجهه.

[10] انظر تفسير الآية من سورة إبراهيم، ١٤/٤٨.

[11] ك – وقوله.

[12] وعبارة الشارح هكذا: «قال بعضهم: أي إذا حاسب فحسابه سريع» (شرح *التأويلات*، ورقة ٤٢٣و).

[13] ع م – لما.

[14] جميع النسخ: أو الاشتغال.

[15] ع م – يشغله.

[16] ك: أو يجهل؛ ن: أو لجهل؛ ع م: أو الجهل.

فأمّا الله سبحانه وتعالى لا يَخفَى عليه شيءٌ ولا يَشغَلُه شيءٌ عن شيء، كلُّه محفوظ عنده، فهو **سريع الحساب**. *والله أعلم*. أو نقول: إنما يَطُول الحساب في الشاهد ويمتدّ[1] لِما يحتاج إلى التفكُّر والنظر[2] والتذكُّر في ذلك، فالله سبحانه مُتعالٍ عن التفكُّر والنظر، بل كلُّ شيءٍ محفوظٌ عنده. *والله أعلم*.

﴿هٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٥٢]

وقوله: **هذا بلاغٌ للناس ولِيُنذَروا به**، يحتمل قوله: **هذا بلاغ**، القرآن هو بلاغٌ للناس على ما ذكر في صدر السورة: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ،[3] الآية،[4] هو بلاغٌ على ما ذكر.[5] *والله أعلم*. **ولِيُنذَروا به**، أي بالقرآن أيضًا على ما ذكر: وَهٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا.[6] ويحتمل[7] قوله: **هذا بلاغ**،[8] ما ذكر مِن المَوَاعِيد، وهو قوله: وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ،[9] إلى آخِر ما ذكر، أي **هذا**، الذي ذكر، **بلاغٌ**، يَبلُغُهم لا محالة، **ولِيُنذَروا**، بما ذكر، **ولِيَعلموا أنما هو إله واحد**، لا شريك له بالآيات التي أقامها على وحدانية الله وألوهيته، **ولِيَذَّكَّر أُولُو الألباب**، أي ذَوُو[10] العقول.[11] *والله أعلم*.[12]

---

[1] ن ع م: وتمتد.
[2] م – والنظر.
[3] ﴿الر كتابٌ أنزلناه إليك لِتُخرجَ الناسَ مِن الظُّلُمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراطِ العزيز الحميد﴾ (سورة إبراهيم، ١/١٤).
[4] م – الآية.
[5] ع + الآية.
[6] سورة الأنعام، ٩٢/٦.
[7] ع: يحتمل.
[8] م – هو بلاغ على ما ذكر والله أعلم ولينذروا به أي بالقرآن أيضا على ما ذكر وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ويحتمل قوله هذا بلاغ، صح هـ.
[9] سورة إبراهيم، ٤٩/١٤.
[10] ك م: أي ذووا؛ ن ع: أي ذو.
[11] ن: العدل.
[12] م – أي ذووا العقول والله أعلم.

سورة إبراهيم

مكية إلا آيتي ٢٨ و٢٩ فمدنيتان وآياتها ٥٢ نزلت بعد سورة نوح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ①﴾

اعلم أن الكلام في أن هذه السورة مكية أو مدنية طريقه الآحاد. ومتى لم يكن في السورة ما يتصل بالأحكام الشرعية فنزولها بمكة والمدينة سواء، وإنما يختلف الغرض في ذلك إذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ فيكون فيه فائدة عظيمة وقوله: ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ معناه أن السورة المسماة بالر كتاب أنزلناه إليك لغرض كذا وكذا فقوله: ﴿الٓر﴾ مبتدأ وقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبره وقوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ صفة لذلك الخبر.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: دلت هذه الآية على أن القرآن موصوف بكونه منزلاً من عند الله تعالى. قالت المعتزلة: النازل والمنزل لا يكون قديمًا.

وجوابنا: أن الموصوف بالنازل والمنزل هو هذه الحروف وهي محدثة بلا نزاع.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: اللام في قوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ لام الغرض والحكمة، وهذا يدل على أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذا الغرض، وذلك يدل على أن أفعال الله تعالى وأحكامه معللة برعاية المصالح.

أجاب أصحابنا بأن من فعل فعلاً لأجل شيء آخر فهذا إنما يفعله لو كان عاجزًا عن تحصيل هذا المقصود إلا بهذه الواسطة وذلك في حق الله تعالى محال، وإذا ثبت بالدليل أنه يمتنع تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه بالعلل ثبت أن كل ظاهر أشعر به فإنه مؤول محمول على معنى آخر.

المسألة الثالثة: إنما شبه الكفر بالظلمات لأنه نهاية ما يتحير الرجل فيه عن طريق الهداية وشبه الإيمان بالنور لأنه ما ينجلي به طريق هدايته.

المسألة الرابعة: قال القاضي: هذه الآية فيها دلالة على إبطال القول بالجبر من جهات: أحدها: أنه تعالى لو كان يخلق الكفر في الكافر فكيف يصح إخراجه منه بالكتاب. وثانيها: أنه تعالى أضاف الإخراج من الظلمات إلى النور إلى الرسول ﷺ فإن كان خالق ذلك الكفر هو الله

تعالى فكيف يصح من الرسول عليه الصلاة والسلام إخراجهم منه وكان للكافر أن يقول: إن الله خلق الكفر فينا فكيف يصح منك أن تخرجنا منه فإن قال لهم: أنا أخرجكم من الظلمات التي هي كفر مستقبل لا واقع، فلهم أن يقولوا: إن كان تعالى سيخلقه فينا لم يصح ذلك الإخراج وإن لم يخلقه فنحن خارجون منه بلا إخراج. وثالثها: أنه ﷺ إنما يخرجهم من الكفر بالكتاب بأن يتلوه عليهم ليتدبروه وينظروا فيه فيعلموا بالنظر والاستدلال كونه تعالى عالمًا قادرًا حكيمًا ويعلموا بكون القرآن معجزة صدق الرسول ﷺ وحينئذ يقبلوا منه كل ما أداه إليهم من الشرائع، وذلك لا يصح إلا إذا كان الفعل لهم ويقع باختيارهم، ويصح منهم أن يقدموا عليه ويتصرفوا فيه.

والجواب عن الكل أن نقول: الفعل الصادر من العبد إما أن يصدر عنه حال استواء الداعي إلى الفعل والترك أو حال رجحان أحد الطرفين على الآخر.

والأول: باطل، لأن صدور الفعل رجحان لجانب الوجود على جانب العدم، وحصول الرجحان حال حصول الاستواء محال.

والثاني: عين قولنا لأنه يمتنع صدور الفعل عنه إلا بعد حصول الرجحان، فإن كان ذلك الرجحان منه عاد السؤال، وإن لم يكن منه بل من الله تعالى، فحينئذ يكون المؤثر الأول هو الله تعالى وذلك هو المطلوب والله أعلم.

المسألة الخامسة: احتج أصحابنا على صحة قولهم في أن فعل العبد مخلوق لله تعالى بقوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ فإن معنى الآية أن الرسول ﷺ لا يمكنه إخراج الناس من الظلمات إلى النور إلا بإذن ربهم، والمراد بهذا الإذن إما الأمر، وإما العلم، وإما المشيئة والخلق. وحمل الإذن على الأمر محال، لأن الإخراج من الجهل إلى العلم لا يتوقف على الأمر، فإنه سواء حصل الأمر أو لم يحصل، فإن الجهل متميز عن العلم والباطل متميز عن الحق، وأيضًا حمل الإذن على العلم محال، لأن العلم يتبع المعلوم على ما هو عليه فالعلم بالخروج من الظلمات إلى النور تابع لذلك الخروج ويمتنع أن يقال إن حصول ذلك الخروج تابع للعلم بحصول ذلك الخروج ولما بطل هذان القسمان لم يبق إلا أن يكون المراد من الإذن المشيئة والتخليق، وذلك يدل على أن الرسول ﷺ لا يمكنه إخراج الناس من الظلمات إلى النور إلا بمشيئة الله وتخليقه.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد من الإذن الإلطاف.

قلنا: لفظ اللطف لفظ مجمل ونحن نفصل القول فيه فنقول: المراد بالإذن إما أن يكون أمرًا يقتضي ترجيح جانب الوجود على جانب العدم أو لا يقتضي ذلك، فإن كان الثاني لم يكن فيه أمر البتة، فامتنع أن يقال: إنه مما حصل بسببه ولأجله فبقي الأول وهو أن المراد من الإذن معنى يقتضي ترجيح جانب الوجود على جانب العدم. وقد دللنا في (الكتب العقلية) على أنه متى حصل الرجحان فقد حصل الوجوب ولا معنى لذلك إلا الداعية الموجبة وهو عين قولنا، والله أعلم.

المسألة السادسة: القائلون بأن معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها إلا من تعليم الرسول ﷺ والإمام، احتجوا عليه بهذه الآية وقالوا: إنه تعالى صرح في هذه الآية بأن الرسول هو الذي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وذلك يدل على أن معرفة الله تعالى لا تحصل إلا من طريق التعليم.

وجوابنا: أن الرسول ﷺ يكون كالمنبه، وأما المعرفة فهي إنما تحصل بالدليل، والله أعلم.

المسألة السابعة: الآية دالة على أن طرق الكفر والبدعة كثيرة وأن طريق الخير ليس إلا الواحد، لأنه تعالى قال: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فعبر عن الجهل والكفر بالظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الإيمان والهداية بالنور وهو لفظ مفرد، وذلك يدل على أن طرق الجهل كثيرة، وأما طريق العلم والإيمان فليس إلا الواحد.

المسألة الثامنة: في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وجهان:

الأول: أنه بدل من قوله إلى النور بتكرير العامل كقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥].

الثاني: يجوز أن يكون على وجه الاستئناف كأنه قيل: إلى أي نور فقيل: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

المسألة التاسعة: قالت المعتزلة: الفاعل إنما يكون آتيًا بالصواب والصلاح، تاركًا للقبيح والعبث إذا كان قادرًا على كل المقدورات عالمًا بجميع المعلومات غنيًا عن كل الحاجات، فإنه إن لم يكن قادرًا على الكل فربما فعل القبيح بسبب العجز، وإن لم يكن عالمًا بكل المعلومات فربما فعل القبيح بسبب الجهل، وإن لم يكن غنيًا عن كل الحاجات فربما فعل القبيح بسبب الحاجة، أما إذا كان قادرًا على الكل عالمًا الكل غنيًا عن الكل امتنع منه الإقدام على فعل القبيح، فقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ إشارة إلى كمال القدرة، وقوله: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ إشارة إلى كونه مستحقًا للحمد في كل أفعاله، وذلك إنما يحصل إذا كان عالمًا بالكل غنيًا عن الكل فثبت بما ذكرنا أن صراط الله إنما كان موصوفًا بكونه شريفًا رفيعًا عاليًا لكونه صراطًا مستقيمًا للإله الموصوف بكونه عزيزًا حميدًا، فلهذا المعنى: وصف الله نفسه بهذين الوصفين في هذا المقام.

المسألة العاشرة: إنما قدم ذكر العزيز على ذكر الحميد، لأن الصحيح أن أول العلم بالله العلم بكونه تعالى قادرًا، ثم بعد ذلك العلم بكونه عالمًا، ثم بعد ذلك العلم بكونه غنيًا عن الحاجات، والعزيز هو القادر والحميد هو العالم الغني، فلما كان العلم بكونه تعالى قادرًا متقدمًا على العلم بكونه عالمًا بالكل غنيًا عن الكل لا جرم قدم الله ذكر العزيز على ذكر الحميد، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن عامر (اللَّهُ) مرفوعًا بالابتداء وخبره ما بعده، وقيل التقدير هو الله والباقون بالجر عطفًا على قوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهاهنا بحث، وهو أن جماعة من المحققين ذهبوا إلى أن قولنا: الله جار مجرى الإسم العلم لذات الله تعالى وذهب قوم آخرون إلى أنه لفظ مشتق والحق عندنا هو الأول. ويدل عليه وجوه:

الأول: أن الاسم المشتق عبارة عن شيء ما حصل له المشتق منه، فالأسود مفهومه شيء ما حصل له السواد، والناطق مفهومه شيء ما حصل له النطق، فلو كان قولنا الله اسمًا مشتقًا من معنى لكان المفهوم منه أنه شيء ما حصل له ذلك المشتق منه، وهذا المفهوم كلي لا يمتنع من حيث هو هو عن وقوع الشركة فيه، فلو كان قولنا الله لفظًا مشتقًا لكان مفهومه صالحًا لوقوع الشركة فيه، ولو كان الأمر كذلك لما كان قولنا لا إله إلا الله موجبًا للتوحيد، لأن المستثنى هو قولنا الله وهو غير مانع من وقوع الشركة فيه ولما اجتمعت الأمة على أن قولنا لا إله إلا الله يوجب التوحيد المحض علمنا أن قولنا الله جارٍ مجرى الاسم العلم.

الثاني: أنه كلما أردنا أن نذكر سائر الصفات والأسماء ذكرنا أولاً قولنا الله ثم وصفناه بسائر الصفات كقولنا هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس ولا يمكننا أن نعكس الأمر فنقول الرحمن الرحيم الله فعلمنا أن الله هو اسم علم للذات المخصوصة وسائر الألفاظ دالة على الصفات والنعوت.

الثالث: أن ما سوى قولنا الله كلها دالة، إما على الصفات السلبية، كقولنا: القدوس السلام، أو على الصفات الإضافية، كقولنا الخالق الرازق أو على الصفات الحقيقية كقولنا: العالم القادر، أو على ما يتركب من هذه الثلاثة، فلو لم يكن قولنا: الله اسمًا للذات المخصوصة لكان جميع أسماء الله تعالى ألفاظًا دالة على صفاته، ولم يحصل فيها ما يدل على ذاته المخصوصة وذلك بعيد، لأنه يبعد أن لا يكون له من حيث إنه هو اسم مخصوص. والرابع: قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] والمراد هل تعلم من اسمه الله غير الله، وذلك يدل على أن قولنا: الله اسم لذاته المخصوصة، وإذا ظهرت هذه المقدمة فالترتيب الحسن أن يذكر عقيبه الصفات كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤] فأما أن يعكس فيقال: هو الخالق المصور البارىء الله، فذلك غير جائز.

وإذا ثبت هذا فنقول: الذين قرؤا: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بالرفع أرادوا أن يجعلوا

قوله: ﴿ٱللَّهِ﴾ مبتدأ ويجعلوا ما بعده خبرًا عنه وهذا هو الحق الصحيح، فأما الذين قرؤا: ﴿ٱللَّهِ﴾ بالجر عطفًا على: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فهو مشكل لما بينا أن الترتيب الحسن أن يقال: الله الخالق. وإما أن يقال: الخالق الله فهذا لا يحسن، وعند هذا اختلفوا في الجواب على وجوه: الأول: قال أبو عمرو بن العلاء: القراءة بالخفض على التقديم والتأخير، والتقدير: صراط الله العزيز الحميد الذي له ما في السموات. والثاني: أنه لا يبعد أن يذكر الصفة أولاً ثم يذكر الاسم ثم يذكر الصفة مرة أخرى كما يقال: مررت بالإمام الأجل محمد الفقيه وهو بعينه نظير قوله: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وتحقيق القول فيه: أنا بينا أن الصراط إنما يكون ممدوحًا محمودًا إذا كان صراطًا للعالم القادر الغني، والله تعالى عبر عن هذه الأمور الثلاثة بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ثم لما ذكر هذا المعنى وقعت الشبهة في أن ذلك العزيز من هو؟ فعطف عليها قوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إزالة لتلك الشبهة. الثالث: قال صاحب (الكشاف): الله عطف بيان للعزيز الحميد، وتحقيق هذا القول ما قررناه فيما تقدم. الرابع: قد ذكرنا في أول هذا الكتاب أن قولنا الله في أصل الوضع مشتق إلا أنه بالعرف صار جاريًا مجرى الإسم العلم فحيث يبدأ بذكره ويعطف عليه سائر الصفات فذلك لأجل أنه جعل اسم علم، وأما في هذه الآية حيث جعل وصفًا للعزيز الحميد، فذاك لأجل أنه حمل على كونه لفظًا مشتقًا فلا جرم بقي صفة. الخامس: أن الكفار ربما وصفوا الوثن بكونه عزيزًا حميدًا فلما قال: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بقي في خاطر عبدة الأوثان أنه ربما كان ذلك العزيز الحميد هو الوثن، فأزال الله تعالى هذه الشبهة وقال: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي المراد من ذلك العزيز الحميد هو الله الذي له ما في السموات وما في الأرض.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يدل على أنه تعالى غير مختص بجهة العلو ألبتة، وذلك لأن كل ما سماك وعلاك فهو سماء، فلو حصل ذات الله تعالى في جهة فوق، لكان حاصلاً في السماء، وهذه الآية دالة على أن كل ما في السموات فهو ملكه، فلزم كونه ملكًا لنفسه وهو محال، فدلت هذه الآية على أنه منزه عن الحصول في جهة فوق.

المسألة الثالثة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى خالق لأعمال العباد لأنه قال: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأعمال العباد حاصلة في السموات والأرض فوجب القول بأن أفعال العباد له بمعنى كونها مملوكة له، والملك عبارة عن القدرة فوجب كونها مقدورة لله تعالى، وإذا ثبت أنها مقدورة لله تعالى وجب وقوعها بقدرة الله تعالى، وإلا لكان العبد قد منع الله تعالى من إيقاع مقدوره وذلك محال.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يفيد الحصر والمعنى أن ما في السموات وما في الأرض له لا لغيره وذلك يدل على أنه لا مالك إلا الله ولا حاكم إلا الله ثم إنه تعالى لما

ذكر ذلك عطف على الكفار بالوعيد فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ والمعنى: أنهم لما تركوا عبادة الله تعالى الذي هو المالك للسموات والأرض ولكل ما فيهما إلى عبادة ما لا يملك ضرًا ولا نفعًا ويُخلق ولا يَخلُق، ولا إدراك لها ولا فعل، فالويل ثم الويل لمن كان كذلك، وإنما خص هؤلاء بالويل، لأن المعنى يولولون من عذاب شديد ويصيحون منه ويقولون يا ويلاه. ونظيره قوله تعالى: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[الفرقان: ١٣] ثم بين تعالى صفة هؤلاء الكافرين الذين توعدهم بالويل الذي يفيد أعظم العذاب وذكر من صفاتهم ثلاثة أنواع: الأول: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إن شئت جعلت (الذين) صفة الكافرين في الآية المتقدمة وإن شئت جعلته مبتدأ وجعلت الخبر قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ وإن شئت نصبته على الذم.

المسألة الثانية: الاستحباب طلب محبة الشيء، وأقول إن الإنسان قد يحب الشيء ولكنه لا يحب كونه محبًا لذلك الشيء، مثل من يميل طبعه إلى الفسق والفجور ولكنه يكره كونه محبًا لهما، أما إذا أحب الشيء وطلب كونه محبًا له، وأحب تلك المحبة فهذا هو نهاية المحبة فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ يدل على كونهم في نهاية المحبة للحياة الدنيوية، ولا يكون الإنسان كذلك إلا إذا كان غافلاً عن الحياة الأخروية، وعن معايب هذه الحياة العاجلة، ومن كان كذلك كان في نهاية الصفات المذمومة، وذلك لأن هذه الحياة موصوفة بأنواع كثيرة من العيوب. فأحدها: أن بسبب هذه الحياة انفتحت أبواب الآلام والأسقام والغموم والهموم والمخاوف والأحزان. وثانيها: أن هذه اللذات في الحقيقة لا حاصل لها إلا دفع الآلام، بخلاف اللذات الروحانية فإنها في أنفسها لذات وسعادات. وثالثها: أن سعادات هذه الحياة منغصة بسبب الانقطاع والإنقراض والانقضاء. ورابعها: أنها حقيرة قليلة، وبالجملة فلا يحب هذه الحياة إلا من كان غافلاً عن معايبها وكان غافلاً عن فضائل الحياة الروحانية الأخروية، ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[الأعلى: ١٧] فهذه الكلمة جامعة لكل ما ذكرناه.

المسألة الثالثة: إنما قال: ﴿يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأن فيه إضمارًا، والتقدير: يستحبون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة، فجمع تعالى بين هذين الوصفين ليتبين بذلك أن الاستحباب للدنيا وحده لا يكون مذمومًا إلا بعد أن يضاف إليه إيثارها على الآخرة، فأما من أحبها ليصل بها إلى منافع النفس وإلى خيرات الآخرة فإن ذلك لا يكون مذمومًا حتى إذا آثرها على آخرته بأن اختار منها ما يضره في آخرته فهذه المحبة هي المحبة المذمومة.

النوع الثاني: من الصفات التي وصف الله الكفار بها قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ .

واعلم أن من كان موصوفًا باستحباب الدنيا فهو ضال، ومن منع الغير من الوصول إلى سبيل الله ودينه فهو مضل، فالمرتبة الأولى إشارة إلى كونهم ضالين، وهذه المرتبة الثانية وهي

كونهم صادين عن سبيل الله إشارة إلى كونهم مضلين.

والنوع الثالث: من تلك الصفات قوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، واعلم أن الإضلال على مرتبتين:

المرتبة الأولى: أنه يسعى في صد الغير ومنعه من الوصول إلى المنهج القويم والصراط المستقيم.

والمرتبة الثانية: أن يسعى في إلقاء الشكوك والشبهات في المذهب الحق ويحاول تقبيح صفته بكل ما يقدر عليه من الحيل، وهذا هو النهاية في الضلال والإضلال، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ قال صاحب (الكشاف) الأصل في الكلام أن يقال: ويبغون لها عوجًا، فحذف الجار وأوصل الفعل، ولما ذكر الله تعالى هذه المراتب الثلاثة لأحوال هؤلاء الكفار قال في صفتهم: ﴿أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ وإنما وصف هذا الضلال بالبعد لوجوه:

الوجه الأول: أنا بينا أن أقصى مراتب الضلال هو الذي وصفه الله تعالى في هذه المرتبة فهذه المرتبة في غاية البعد عن طريق الحق، فإن شرط الضدين أن يكونا في غاية التباعد، مثل السواد والبياض، فكذا هاهنا الضلال الذي يكون واقعًا على هذا الوجه يكون في غاية البعد عن الحق فإنه لا يعقل ضلال أقوى وأكمل من هذا الضلال.

والوجه الثاني: أن يكون المراد أن يبعد ردهم عن طريقة الضلال إلى الهدى، لأنه قد تمكن ذلك في نفوسهم.

والوجه الثالث: أن يكون المراد من الضلال الهلاك، والتقدير: أولئك في هلاك يطول عليهم فلا ينقطع، وأراد بالبعد امتداده وزوال انقطاعه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر في أول السورة: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] كان هذا إنعامًا على الرسول من حيث إنه فوض إليه هذا المنصب العظيم، وإنعامًا أيضًا على الخلق من حيث إنه أرسل إليهم من خلصهم من ظلمات الكفر وأرشدهم إلى نور الإيمان، فذكر في هذه الآية ما يجري مجرى تكميل النعمة والإحسان في الوجهين. أما بالنسبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، فلأنه تعالى بين أن سائر الأنبياء كانوا مبعوثين إلى قومهم خاصة، وأما أنت يا محمد فمبعوث إلى عامة الخلق، فكان هذا الإنعام في حقك أفضل وأكمل، وأما بالنسبة إلى عامة الخلق، فهو أنه تعالى ذكر أنه ما بعث رسولاً إلى قوم إلا بلسان أولئك القوم، فإنه متى كان الأمر كذلك، كان فهمهم لأسرار تلك الشريعة ووقوفهم على حقائقها أسهل، وعن الغلط والخطأ أبعد. فهذا هو وجه النظم.

المسألة الثانية: احتج بعض الناس بهذه الآية على أن اللغات اصطلاحية لا توفيقية. قال لأن التوقيف لا يحصل إلا بإرسال الرسل، وقد دلت هذه الآية على أن إرسال جميع الرسل لا يكون إلا بلغة قومهم، وذلك يقتضي تقدم حصول اللغات على إرسال الرسل، وإذا كان كذلك امتنع حصول تلك اللغات بالتوقيف، فوجب حصولها بالإصطلاح.

المسألة الثالثة: زعم طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية أن محمدًا رسول الله لكن إلى العرب لا إلى سائر الطوائف، وتمسكوا بهذه الآية من وجهين:

الأول:أن القرآن لما كان نازلاً بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة إلا العرب وحينئذ لا يكون القرآن حجة إلا على العرب، ومن لا يكون عربيًا لم يكن القرآن حجة عليه.

الثاني:قالوا: إن قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ المراد بذلك اللسان لسان العرب، وذلك يقتضي أن يقال: إنه ليس له قوم سوى العرب، وذلك يدل على أنه مبعوث إلى العرب فقط.

والجواب:لم لا يجوز أن يكون المراد من ﴿قَوْمِهِۦ﴾ أهل بلده، وليس المراد من ﴿قَوْمِهِۦ﴾ أهل دعوته. والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]بل إلى الثقلين، لأن التحدي كما وقع مع الإنس فقد وقع مع الجن بدليل قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

المسألة الرابعة: تمسك أصحابنا بقوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ على أن الضلال والهداية من الله تعالى، والآية صريحة في هذا المعنى. قال الأصحاب: ومما يؤكد هذا المعنى ما روي: أن أبا بكر وعمر أقبلا في جماعة من الناس وقد ارتفعت أصواتهما، فقال عليه السلام «مَا هَذَا» فقال بعضهم: يا رسول الله يقول أبو بكر الحسنات من الله والسيئات من أنفسنا، ويقول: عمر كلاهما من الله، وتبع بعضهم أبا بكر وبعضهم عمر، فتعرف الرسول ﷺ ما قاله أبو بكر، وأعرض عنه حتى عرف ذلك في وجهه، ثم أقبل على عمر فتعرف ما قاله وعرف البشر في وجهه ثم قال: «**أَقْضِي بَيْنَكُمَا كَمَا قَضَى بِهِ إِسْرَافِيلُ بَيْنَ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، قَالَ جِبْرِيلُ مِثْلَ مَقَالَتِكَ يَا عُمَرُ وَقَالَ مِيكَائِيلُ مِثْلَ مَقَالَتِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ فَقَضَاءُ إِسْرَافِيلَ أَنَّ الْقَدَرَ كُلَّهُ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَهَذَا قَضَائِي بَيْنَكُمَا**»[١] قالت المعتزلة: هذه الآية لا يمكن اجراؤها على

---

(١) **صحيح لغيره**: أورده الطبراني في (الأوسط) (٣/ ١١٣) حديث رقم/ ٢٦٤٨، من طريق مقاتل بن حيان عن عمرو بن شعيب... به، والبزار في مسنده (٦/ ٤٥٥) حديث رقم/ ٢٤٩٦، من طريق مقاتل بن حماد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٧/ ١٩٢)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط واللفظ له والبزار بنحوه وفي إسناد الطبراني عمر بن الصبح وهو ضعيف جدا وشيخ البزار الموطأ بن سعيد=

ظاهرها وبيانه من وجوه:

الأول: أنه تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ والمعنى: أنا إنما أرسلنا كل رسول بلسان قومه ليبين لهم تلك التكاليف بلسانهم، فيكون إدراكهم لذلك البيان أسهل ووقوفهم على المقصود والغرض أكمل، وهذا الكلام إنما يصح لو كان مقصود الله تعالى من إرسال الرسل حصول الإيمان للمكلفين، فأما لو كان مقصوده الإضلال وخلق الكفر فيهم لم يكن ذلك الكلام ملائمًا لهذا المقصود.

والثاني: أنه عليه السلام إذا قال لهم إن الله يخلق الكفر والضلال فيكم، فلهم أن يقولوا له فما الفائدة في بيانك، وما المقصود من إرسالك، وهل يمكننا أن نزيل كفرًا خلقه الله تعالى فينا عن أنفسنا وحينئذ تبطل دعوة النبوة وتفسد بعثة الرسل.

الثالث: أنه إذا كان الكفر حاصلاً بتخليق الله تعالى ومشيئته، وجب أن يكون الرضا به واجبًا لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب، وذلك لا يقوله عاقل.

والرابع: أنا قد دللنا على أن مقدمة هذه الآية وهو قوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] يدل على مذهب العدل، وأيضًا مؤخرة الآية يدل عليه، وهو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فكيف يكون حكيمًا من كان خالقًا للكفر والقبائح ومريدًا لها، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يمكن حمل قوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ على أنه تعالى يخلق الكفر في العبد، فوجب المصير إلى التأويل، وقد استقصينا ما في هذه التأويلات في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] ولا بأس بإعادة بعضها، فالأول: أن المراد بالإضلال: هو الحكم بكونه كافرًا ضالاً كما يقال: فلان يكفر فلانًا ويضلله، أي يحكم بكونه كافرًا ضالاً، والثاني: أن يكون الإضلال عبارة عن الذهاب بهم عن طريق الجنة إلى النار، والهداية عبارة عن إرشادهم إلى طريق الجنة. والثالث: أنه تعالى لما ترك الضال على إضلاله ولم يتعرض له صار كأنه أضله، والمهتدي لما أعانه بالألطاف صار كأنه هو الذي هداه. قال صاحب (الكشاف): المراد بالإضلال: التخلية ومنع الألطاف وبالهداية التوفيق واللطف.

والجواب عن قولهم أولاً أن قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ لا يليق به أن يضلهم.

قلنا: قال الفراء: إذا ذكر فعل وبعده فعل آخر، فإن كان الفعل الثاني مشاكلاً للأول نسقته عليه، وإن لم يكن مشاكلاً له استأنفته ورفعته. ونظيره قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٢] فقوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٢] في موضع رفع لا يجوز إلا ذلك، لأنه لا يحسن أن يقال: يريدون أن يأبى الله، فلما لم يمكن وضع الثاني موضع الأول بطل العطف، ونظيره أيضًا قوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [الحج: ٥] ومن ذلك

=ولم أعرفه وبقية رجال البزار ثقات وفي بعضهم كلام لا يضر، وأورده الألباني في (الصحيحة) (٢/ ٣٨٦) حديث (رقم/ ١٦٤٢).

قولهم: أردت أن أزورك فيمنعني المطر بالرفع غير منسوق على ما قبله لما ذكرناه، ومثله قول الشاعر:

يُـريـدُ أَنْ يُـعْـرِبَـهُ فـيـعـجـمـه[1]

إذا عرفت هذا فنقول: هاهنا قال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ثم قال: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ ذكر فيضل بالرفع فدل على أنه مذكور على سبيل الاستئناف وأنه غير معطوف على ما قبله، وأقول تقرير هذا الكلام من حيث المعنى، كأنه تعالى قال: وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه، ليكون بيانه لهم تلك الشرائع بلسانهم الذي ألفوه واعتادوه، ثم قال ومع أن الأمر كذلك فإنه تعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء، والغرض منه التنبيه على أن تقوية البيان لا توجب حصول الهداية فربما قوي البيان ولا تحصل الهداية وربما ضعف البيان وحصلت الهداية، وإنما كان الأمر كذلك لأجل أن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى. أما قوله ثانيًا: لو كان الضلال حاصلاً بخلق الله تعالى لكان للكافر أن يقول له: ما الفائدة في بيانك ودعوتك؟ فنقول: يعارضه أن الخصم يسلم أن هذه الآيات إخبار عن كونه ضالاً فيقول له الكافر: لما أخبر إلهك عن كوني كافرًا فإن آمنت صار إلهك كاذبًا فهل أقدر على جعل إلهك كاذبًا، وهل أقدر على جعل علمه جهلاً. وإذا لم أقدر عليه فكيف يأمرني بهذا الإيمان، فثبت أن هذا السؤال الذي أورده الخصم علينا هو أيضًا وارد عليه. وأما قوله ثالثًا: يلزم أن يكون الرضا بالكفر واجبًا، لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

قلنا: ويلزمك أيضًا على مذهبك أنه يجب على العبد السعي في تكذيب الله وفي تجهيله، وهذا أشد استحالة مما ألزمته علينا، لأنه تعالى لما أخبر عن كفره وعلم كفره فإزالة الكفر عنه يستلزم قلب علمه جهلاً وخبره الصدق كذبًا. وأما قوله رابعًا: إن مقدمة الآية وهي قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] يدل على صحة الاعتزال فنقول: قد ذكرنا أن قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١] يدل على صحة مذهب أهل السنة. وأما قوله خامسًا: أنه تعالى وصف نفسه في آخر الآية بكونه حكيمًا وذلك ينافي كونه تعالى خالقًا للكفر مريدًا له. فنقول: وقد وصف نفسه بكونه عزيزًا والعزيز هو الغالب القاهر فلو أراد الإيمان من الكافر مع أنه لا يحصل أو أراد عمل الكفر منهم، وقد حصل لما بقي عزيزًا غالبًا. فثبت أن الوجوه التي ذكروها ضعيفة، وأما التأويلات الثلاثة التي ذكروها فقد مر إبطالها في هذا الكتاب مرارًا فلا فائدة في الإعادة.

---

(١) هذا البيت من الرجز للشاعر الحطيئة وهو الحُطَيئَة وهو: جرول بن أوس بن مالك العبسي، أبو ملكية، ؟- ٤٥ هـ/ ؟- ٦٦٥ م، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. كان هجاءاً عنيفاً، لم يكد يسلم من لسانه أحد، وهجا أمه وأباه ونفسه. وأكثر من هجاء الزبرقان بن بدر، فشكاه إلى عمر بن الخطاب، فسجنه عمر بالمدينة، فاستعطفه بأبيات، فأخرجه ونهاه عن هجاء الناس.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ ﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بين أنه إنما أرسل محمدًا ﷺ إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وذكر كمال إنعامه عليه وعلى قومه في ذلك الإرسال وفي تلك البعثة، أتبع ذلك بشرح بعثة سائر الأنبياء إلى أقوامهم وكيفية معاملة أقوامهم معهم تصبيرًا للرسول عليه السلام على أذى قومه وإرشادًا له إلى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم فذكر تعالى على العادة المألوفة قصص بعض الأنبياء عليهم السلام فبدأ بذكر قصة موسى عليه السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ قال الأصم: آيات موسى عليه السلام هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وانفجار العيون من الحجر وإظلال الجبل وإنزال المن والسلوى. وقال الجبائي: أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إلى قومه من بني إسرائيل بآياته وهي دلالاته وكتبه المنزلة عليه، وأمره أن يبين لهم الدين. وقال أبو مسلم الأصفهاني: إنه تعالى قال في صفة محمد ﷺ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] وقال في حق موسى عليه السلام: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ والمقصود: بيان أن المقصود من البعثة واحد في حق جميع الأنبياء عليهم السلام، وهو أن يسعوا في إخراج الخلق من ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات.

المسألة الثانية: قال الزجاج: قوله: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ أي بأن أخرج قومك. ثم قال: ﴿أَنْ﴾ هاهنا تصلح أن تكون مفسرة بمعنى أي، ويكون المعنى: ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أي أخرج قومك، كأن المعنى قلنا له: أخرج قومك. ومثله قوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ [ص: ٦] أي امشوا، والتأويل قيل لهم: امشوا، وتصلح أيضًا أن تكون المخففة التي هي للخبر، والمعنى: أرسلناه بأن يخرج قومه إلا أن الجار حذف ووصلت (أن) بلفظ الأمر، ونظيره قولك: كتبت إليه أن قم وأمرته أن قم، ثم إن الزجاج حكى هذين القولين عن سيبويه.

أما قوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ فاعلم أنه تعالى أمر موسى عليه السلام في هذا المقام بشيئين: أحدهما: أن يخرجهم من ظلمات الكفر، والثاني: أن يذكرهم بأيام الله.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الواحدي: أيام جمع يوم، واليوم هو مقدار المدة من طلوع الشمس إلى غروبها، وكانت الأيام في الأصل أيوام فاجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون، فأدغمت إحداهما في الأخرى وغلبت الياء.

المسألة الثانية: أنه يعبر بالأيام عن الوقائع العظيمة التي وقعت فيها. يقال: فلان عالم بأيام العرب ويريد وقائعها وفي المثل (مَنْ يُرَ يَوْمًا يُرَ لَهُ) معناه: من رؤي في يوم مسرورًا بمصرع غيره ير في يوم آخر حزينًا بمصرع نفسه وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

إذا عرفت هذا، فالمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد، فالترغيب والوعد أن يذكرهم ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل في سائر ما سلف من الأيام، والترهيب والوعيد: أن يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل ممن سلف من الأمم فيما سلف من الأيام، مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب، ليرغبوا في الوعد فيصدقوا ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب.

واعلم أن أيام الله في حق موسى عليه السلام منها ما كان أيام المحنة والبلاء وهي الأيام التي كانت بنو إسرائيل فيها تحت قهر فرعون ومنها ما كان أيام الراحة والنعماء مثل إنزال المن والسلوى وانفلاق البحر وتظليل الغمام.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ والمعنى أن في ذلك التذكير والتنبيه دلائل لمن كان صبارًا شكورًا، لأن الحال إما أن يكون حال محنة وبلية أو حال منحة وعطية فإن كان الأول، كان المؤمن صبارًا، وإن كان الثاني كان شكورًا. وهذا تنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يخلو زمانه عن أحد هذين الأمرين فإن جرى الوقت على ما يلائم طبعه ويوافق إرادته كان مشغولاً بالشكر، وإن جرى ما لا يلائم طبعه كان مشغولاً بالصبر.

فإن قيل: إن ذلك التذكيرات آيات للكل فلماذا خص الصبار الشكور بها؟

قلنا: فيه وجوه: الأول: أنهم لما كانوا هم المنتفعون بتلك الآيات صارت كأنها ليست آيات إلا لهم كما في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥].
والثاني: لا يبعد أن يقال: الانتفاع بهذا النوع من التذكير لا يمكن حصوله إلا لمن كان صابرًا أو شاكرًا، أما الذي لا يكون كذلك لم ينتفع بهذه الآيات.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أمر موسى عليه السلام بأن يذكرهم بأيام الله تعالى، حكى عن موسى عليه السلام أنه ذكرهم بها فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ فقوله: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم﴾ ظرف للنعمة بمعنى الأنعام، أي اذكروا إنعام الله عليكم في ذلك الوقت. بقي في الآية سؤالات:

السؤال الأول: ذكر في سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾[البقرة: ٤٩] وفي سورة الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾[الأعراف: ١٤١] وهاهنا ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ مع الواو فما الفرق؟

والجواب: قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بغير واو لأنه تفسير لقوله: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وفي التفسير لا يحسن ذكر الواو تقول: أتاني القوم زيد وعمرو. لأنك أردت أن تفسر القوم بهما ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾[الفرقان: ٦٨، ٦٩] فالآثام لما صار مفسرًا بمضاعفة العذاب لا جرم حذف عنه الواو، أما في هذه السورة فقد أدخل الواو فيه، لأن المعنى أنهم يعذبونهم بغير التذبيح وبالتذبيح أيضًا فقوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ نوع آخر من العذاب لا أنه تفسير لما قبله.

السؤال الثاني: كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم؟

والجواب من وجهين: أحدهما: أن تمكين الله إياهم حتى فعلوا ما فعلوا كان بلاء من الله. والثاني: وهو أن ذلك إشارة إلى الإنجاء، وهو بلاء عظيم، والبلاء هو الابتلاء، وذلك قد يكون بالنعمة تارة، وبالمحنة أخرى، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء: ٣٥] وهذا الوجه أولى لأنه يوافق صدر الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

السؤال الثالث: هب أن تذبيح الأبناء كان بلاء، أما استحياء النساء كيف يكون بلاء.

الجواب: كانوا يستخدمونهن بالاستحياء في الخلاص منه نعمة، وأيضًا إبقاؤهن منفردات عن الرجال فيه أعظم المضار.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ من جملة ما قال موسى لقومه كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم، ومعنى ﴿تَأَذَّنَ﴾ أذن ربكم. ونظير تأذن وآذن توعد وأوعد وتفضل وأفضل، ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل، كأنه قيل: وإذ آذن ربكم إيذانًا بليغًا ينتفي عنده الشكوك، وتنزاح الشبهة، والمعنى: وإذ تأذن ربكم. فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ فأجرى ﴿تَأَذَّنَ﴾ مجرى قال لأنه ضرب من القول، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لَئِنْ شَكَرْتُمْ).

واعلم أن المقصود من الآية بيان أن من اشتغل بشكر نعم الله زاده الله من نعمه، ولا بد هاهنا من معرفة حقيقة الشكر ومن البحث عن تلك النعم الزائدة الحاصلة عن الاشتغال بالشكر، أما الشكر فهو عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة، وأما الزيادة في النعم فهي أقسام: منها النعم الروحانية، ومنها النعم الجسمانية، أما النعم

الروحانية فهي أن الشاكر يكون أبدًا في مطالعة أقسام نعم الله تعالى وأنواع فضله وكرمه، ومن كثر إحسانه إلى الرجل أحبه الرجل لا محالة، فشغل النفس بمطالعة أنواع فضل الله وإحسانه يوجب تأكد محبة العبد لله تعالى، ومقام المحبة أعلى مقامات الصديقين، ثم قد يترقى العبد من تلك الحالة إلى أن يصير حبه للمنعم شاغلاً له عن الالتفات إلى النعمة، ولا شك أن منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته، فثبت أن الاشتغال بالشكر يوجب مزيد النعم الروحانية، وأما مزيد النعم الجسمانية، فلأن الاستقراء دل على أن من كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر، كان وصول نعم الله إليه أكثر، وبالجملة فالشكر إنما حسن موقعه، لأنه اشتغال بمعرفة المعبود وكل مقام حرك العبد من عالم الغرور إلى عالم القدس، فهو المقام الشريف العالي الذي يوجب السعادة في الدين والدنيا.

وأما قوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فالمراد منه الكفران، لا الكفر، لأن الكفر المذكور في مقابلة الشكر ليس إلا الكفران، والسبب فيه أن كفران النعمة لا يحصل إلا عند الجهل بكون تلك النعمة نعمة من الله، والجاهل بها جاهل بالله، والجهل بالله من أعظم أنواع العقاب والعذاب وأيضًا فهاهنا دقيقة أخرى وهي أن ما سوى الواحد الأحد الحق ممكن لذاته وكل ممكن لذاته فوجوده إنما يحصل بإيجاد الواجب لذاته، وعدمه إنما يحصل بإعدام الواجب لذاته، وإذا كان كذلك فكل ما سوى الحق فهو منقاد للحق مطواع له، وإذا كانت الممكنات بأسرها منقادة للحق سبحانه فكل قلب حضر فيه نور معرفة الحق وشرف جلاله، انقاد لصاحب ذلك القلب ما سواه، لأن حضور ذلك النور في قلبه يستخدم كل ما سواه بالطبع، وإذا خلا القلب عن ذلك النور ضعف وصار خسيسًا فيستخدمه كل ما سواه ويستحقره كل ما يغايره فبهذا الطريق الذوقي يحصل العلم بأن الاشتغال بمعرفة الحق يوجب انفتاح أبواب الخيرات في الدنيا والآخرة، وأما الإعراض عن معرفة الحق بالاشتغال بمجرد الجسمانيات يوجب انفتاح أبواب الآفات والمخافات في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

اعلم أن موسى عليه السلام لما بين أن الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات في الدنيا وفي الآخرة، والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد، وحصول الآفات في الدنيا والآخرة، بين بعده أن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود إلا إلى صاحب الشكر وصاحب الكفران أما

المعبود والمشكور فإنه متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يستضر بالكفران، فلا جرم قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ والغرض منه بيان أنه تعالى إنما أمر بهذه الطاعات لمنافع عائدة إلى العابد لا لمنافع عائدة إلى المعبود، والذي يدل على أن الأمر كذلك ما ذكره الله في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ﴾ وتفسيره أنه واجب الوجود لذاته واجب الوجود بحسب جميع صفاته واعتباراته، فإنه لو لم يكن واجب الوجود لذاته، لافتقر رجحان وجوده على عدمه إلى مرجح فلم يكن غنيًا، وقد فرضناه غنيًا هذا خلف، فثبت أن كونه غنيًا يوجب كونه واجب الوجود في ذاته، وإذا ثبت أنه واجب الوجود لذاته، كان أيضًا واجب الوجود بحسب جميع كمالاته، إذ لو لم تكن ذاته كافية في حصول ذلك الكمال، لافتقر في حصول ذلك الكمال إلى سبب منفصل، فحينئذ لا يكون غنيًا، وقد فرضناه غنيًا هذا خلف، فثبت أن ذاته كافية في حصول جميع كمالاته، وإذا كان الأمر كذلك كان حميدًا لذاته، لأنه لا معنى للحميد إلا الذي استحق الحمد، فثبت بهذا التقرير الذي ذكرناه أن كونه غنيًا حميدًا يقتضي أن لا يزداد بشكر الشاكرين، ولا ينتقص بكفران الكافرين، فلهذا المعنى قال: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ وهذه المعاني من لطائف الأسرار.

واعلم أن قولنا: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ سواء حمل على الكفر الذي يقابل الإيمان أو على الكفران الذي يقابل الشكر، فالمعنى لا يتفاوت ألبتة، فإنه تعالى غني عن العالمين في كمالاته وفي جميع نعوت كبريائه وجلاله.

ثم إنه تعالى قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ وذكر أبو مسلم الأصفهاني أنه يحتمل أن يكون ذلك خطابًا من موسى عليه السلام لقومه والمقصود منه أنه عليه السلام كان يخوفهم بمثل هلاك من تقدم، ويجوز أن يكون مخاطبة من الله تعالى على لسان موسى لقومه يذكرهم أمر القرون الأولى، والمقصود إنما هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين، وهذا المقصود حاصل على التقديرين إلا أن الأكثرين ذهبوا إلى أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول ﷺ.

واعلم أنه تعالى ذكر أقوامًا ثلاثة، وهم: قوم نوح وعاد وثمود.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وذكر صاحب (الكشاف) فيه احتمالين: الأول: أن يكون قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضًا. والثاني: أن يقال قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ معطوف على قوم نوح وعاد وثمود وقوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فيه قولان:

القول الأول: أن يكون المراد لا يعلم كنه مقاديرهم إلا الله، لأن المذكور في القرآن جملة فأما ذكر العدد والعمر والكيفية والكمية فغير حاصل.

والقول الثاني: أن المراد ذكر أقوام ما بلغنا أخبارهم أصلاً كذبوا رسلاً لم نعرفهم أصلاً، ولا

يعلمهم إلا الله والقائلون بهذا القول الثاني طعنوا في قول من يصل الأنساب إلى آدم عليه السلام كان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية يقول كذب النسابون يعني أنهم يدعون علم الأنساب وقد نفى الله علمها عن العباد، وعن ابن عباس: بين عدنان وبين إسماعيل ثلاثون أبًا لا يعرفون، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقُرُونَا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]وقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]وعن النبي ﷺ: أنه كان في انتسابه لا يجاوز معد بن عدنان بن أدد. وقال: «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنَ النُّجُومِ مَا تَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى الطَّرِيقِ» (١)قال القاضي: وعلى هذا الوجه لا يمكن القطع على مقدار السنين من لدن آدم عليه السلام إلى هذا الوقت، لأنه إن أمكن ذلك لم يبعد أيضًا تحصيل العلم بالأنساب الموصولة.

فإن قيل: أي القولين أولى؟

قلنا: القول الثاني عندي أقرب، لأن قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ نفى العلم بهم، وذلك يقتضي نفي العلم بذواتهم إذ لو كانت ذواتهم معلومة، وكان المجهول هو مدد أعمارهم وكيفية صفاتهم لما صح نفي العلم بذواتهم، ولما كان ظاهر الآية دليلاً على نفي العلم بذواتهم لا جرم كان الأقرب هو القول الثاني، ثم إنه تعالى حكى عن هؤلاء الأقوام الذين تقدم ذكرهم أنه لما جاءتهم رسلهم بالبينات والمعجزات أتوا بأمور: أولها: قوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ وفي معناه قولان:

الأول: أن المراد باليد والفم الجارحتان المعلومتان.

والثاني: أن المراد بهما شيء غير هاتين الجارحتين وإنما ذكرهما مجازًا وتوسعًا. أما من قال بالقول الأول ففيه ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يكون الضمير في ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ و ﴿أَفْوَاهِهِمْ﴾ عائدًا إلى الكفار، وعلى هذا ففيه احتمالات: الأول: أن الكفار ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها من الغيظ والضجر من شدة

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٣٥١) حديث رقم/ ١٩٧٩، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٧٤) حديث رقم/ ٨٨٥٥، كلاهما من طريق عبد الله بن المبارك عن عبد الملك بن عيسى الثقفي عن يزيد مولي المنبعث عن أبي هريرة... به، والبخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٣٩) حديث (رقم/ ٧١).

من طريق عبدة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر... به، ورواه أبو نعيم في (معرفة الصحابة) (١٥/ ٤٠٧) حديث رقم/ ٤٩٣٣، من طريق مسلم بن إبراهيم حدثنا وهيب عن عبد الرحمن بن حرملة عن عبد الملك بن يعلي عن العلاء بن حارجة... به، ورواه البغوي في (شرح السنة) (٦/ ٢٦٦)، والحاكم في (المستدرك) (٤/ ١٧٨) حديث رقم/ ٧٢٨٤، وقال: هذا حديث غريب، كلاهما من طريق عبد الملك بن عيسي الثقفي عن عبد الله بن يزيد مولي المنبعث عن أبي هريرة... به، ورواه البيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٢٦٩) حديث رقم/ ١٧٢٣، وأورده الهيثمي في (المجمع) (١/ ١٩٣)، وقال: رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

نفرتهم عن رؤية الرسل واستماع كلامهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩] وهذا القول مروي عن ابن عباس وابن مسعود رحمهما الله تعالى، وهو اختيار القاضي. والثاني: أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية، فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فوضع يده على فيه، والثالث: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء أن كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث، وهذا مروي عن الكلبي. والرابع: أنهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وإلى ما تكلموا به من قولهم إنا كفرنا بما أرسلتم به، أي هذا هو الجواب عندنا عما ذكرتموه، وليس عندنا غيره إقناطًا لهم من التصديق ألا ترى إلى قوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾.

الوجه الثاني: أن يكون الضميران راجعين إلى الرسل عليهم السلام وفيه وجهان:

الأول: أن الكفار أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم.

الثاني: أن الرسل لما أيسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدي أنفسهم على أفواه أنفسهم فإن من ذكر كلامًا عند قوم وأنكروه وخافهم، فذلك المتكلم ربما وضع يد نفسه على فم نفسه وغرضه أن يعرفهم أنه لا يعود إلى ذلك الكرم ألبتة.

الوجه الثالث: أن يكون الضمير في أيديهم يرجع إلى الكفار وفي الأفواه إلى الرسل وفيه وجهان: الأول: أن الكفار لما سمعوا وعظ الأنبياء عليهم السلام ونصائحهم وكلامهم أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل تكذيبًا لهم وردًا عليهم. والثاني: أن الكفار وضعوا أيديهم على أفواه الأنبياء عليهم السلام منعًا لهم من الكلام، ومن بالغ في منع غيره من الكلام فقد يفعل به ذلك.

أما على القول الثاني: وهو أن ذكر اليد والفم توسع ومجاز ففيه وجوه:

الوجه الأول: قال أبو مسلم الأصفهاني: المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج وذلك لأن إسماع الحجة انعام عظيم والإنعام يسمى يدًا. يقال لفلان عندي يد إذا أولاه معروفًا، وقد يذكر اليد. المراد منها صفقة البيع والعقد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] فالبينات التي كان الأنبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نعم وأياد، وأيضًا العهود التي كانوا يأتون بها مع القوم أيادي وجمع اليد في العدد القليل هو الأيدي وفي العدد الكثير هو الأيادي، فثبت أن بيانات الأنبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالأيدي، وإذا كانت النصائح والعهود إنما تظهر من الفم فإذا لم تقبل صارت مردودة إلى حيث جاءت، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [النور: ١٥] فلما كان القبول تلقيًا بالأفواه عن الأفواه كان الدفع ردًا في الأفواه، فهذا تمام كلام أبي مسلم في تقرير هذا الوجه.

الوجه الثاني: نقل محمد بن جرير عن بعضهم أن معنى قوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أنهم

سكتوا عن الجواب يقال للرجل إذا أمسك عن الجواب، رد يده في فيه وتقول العرب كلمت فلانًا في حاجة فرد يده في فيه إذا سكت عنه فلم يجب، ثم إنه زيف هذا الوجه وقال: إنهم أجابوا بالتكذيب لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾.

الوجه الثالث: المراد من الأيدي نعم الله تعالى على ظاهرهم وباطنهم ولما كذبوا الأنبياء فقد عرضوا تلك النعم للإزالة والإبطال فقوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ردوا نعم الله تعالى عن أنفسهم بالكلمات التي صدرت عن أفواههم ولا يبعد حمل (في) على معنى الباء لأن حروف الجر لا يمتنع إقامة بعضها مقام بعض.

النوع الثاني: من الأشياء التي حكاها الله تعالى عن الكفار قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ والمعنى: إنا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم فيه لأنهم ما أقروا بأنهم أرسلوا.

واعلم أن المرتبة الأولى هو أنهم سكتوا عن قبول قول الأنبياء عليهم السلام وحاولوا إسكات الأنبياء عن تلك الدعوى، وهذه المرتبة الثانية أنهم صرحوا بكونهم كافرين بتلك البعثة.

والنوع الثالث: قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ قال صاحب (الكشاف): وقرىء (تَدْعُونَّا) بادغام النون ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة أو ذي ريبة من أرابه، والريبة قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر.

فإن قيل: لما ذكروا في المرتبة الثانية أنهم كافرون برسالتهم كيف ذكروا بعد ذلك كونهم شاكين مرتابين في صحة قولهم؟

قلنا: كأنهم قالوا إما أن نكون كافرين برسالتكم أو إن لم ندع هذا الجزم واليقين فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم، وعلى التقديرين فلا سبيل إلى الاعتراف بنبوتكم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

اعلم أن أولئك الكفار لما قالوا للرسل ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩]. قالت رسلهم: وهل تشكون في الله، وفي كونه فاطر السموات والأرض وفاطرًا لأنفسنا وأرواحنا وأرزاقنا وجميع مصالحنا وإنا لا ندعوكم إلا إلى عبادة هذا الإله المنعم ولا نمنعكم إلا عن عبادة غيره وهذه المعاني يشهد صريح العقل بصحتها، فكيف قلتم: وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب؟ وهذا النظم في غاية الحسن. وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، فلما ذكر هذا المعنى أردفه بالدلالة الدالة على وجود الصانع المختار، وهو قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقد ذكرنا

في هذا الكتاب أن وجود السموات والأرض كيف يدل على احتياجه إلى الصانع المختار الحكيم مرارًا وأطوارًا فلا نعيدها هاهنا.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): أدخلت همزة الإنكار على الظرف، لأن الكلام ليس في الشك إنما هو في أن وجود الله تعالى لا يحتمل الشك، وأقول من الناس من ذهب إلى أنه قبل الوقوف على الدلائل الدقيقة فالفطرة شاهدة بوجود الصانع المختار، ويدل على أن الفطرة الأولية شاهدة بذلك وجوه:

الوجه الأول: قال بعض العقلاء: إن من لطم على وجه صبي لطمة فتلك اللطمة تدل على وجوب الصانع المختار وعلى حصول التكليف وعلى وجوب دار الجزاء وعلى وجوب النبي، أما دلالتها على وجود الصانع المختار فلأن الصبي العاقل إذا وقعت اللطمة على وجهه يصيح ويقول: من الذي ضربني وما ذاك إلا أن شهادة فطرته تدل على أن اللطمة لما حدثت بعد عدمها وجب أن يكون حدوثها لأجل فاعل فعلها، ولأجل مختار أدخلها في الوجود فلما شهدت الفطرة الأصلية بافتقار ذلك الحادث مع قلته وحقارته إلى الفاعل فبأن تشهد بافتقار جميع حوادث العالم إلى الفاعل كان أولى، وأما دلالتها على وجوب التكليف، فلأن ذلك الصبي ينادي ويصيح ويقول: لم ضربني ذلك الضارب؟ وهذا يدل على أن فطرته شهدت بأن الأفعال الإنسانية داخلة تحت الأمر والنهي ومندرجة تحت التكليف، وأن الإنسان ما خلق حتى يفعل أي فعل شاء واشتهى، وأما دلالتها على وجوب حصول دار الجزاء فهو أن ذلك الصبي يطلب الجزاء على تلك اللطمة وما دام يمكنه طلب ذلك الجزاء فإنه لا يتركه فلما شهدت الفطرة الأصلية بوجوب الجزاء على ذلك العمل القليل فبأن تشهد على وجوب الجزاء على جميع الأعمال كان أولى، وأما دلالتها على وجوب النبوة فلأنهم يحتاجون إلى إنسان يبين لهم أن العقوبة الواجبة على ذلك القدر من الجناية كم هي ولا معنى للنبي إلا الإنسان الذي يقدر هذه الأمور ويبين لهم هذه الأحكام، فثبت أن فطرة العقل حاكمة بأن الإنسان لا بد له من هذه الأمور الأربعة.

الوجه الثاني: في التنبيه على أن الإقرار بوجود الصانع بديهي هو أن الفطرة شاهدة بأن حدوث دار منقوشة بالنقوش العجيبة، مبنية على التركيبات اللطيفة الموافقة للحكم والمصلحة يستحيل إلا عند وجود نقاش عالم، وبان حكيم، ومعلوم أن آثار الحكمة في العالم العلوي والسفلي أكثر من آثار الحكمة في تلك الدار المختصرة فلما شهدت الفطرة الأصلية بافتقار النقش إلى النقاش، والبناء إلى الباني، فبأن تشهد بافتقار كل هذا العالم إلى الفاعل المختار الحكيم كان أولى.

الوجه الثالث: أن الإنسان إذا وقع في محنة شديدة وبلية قوية لا يبقى في ظنه رجاء المعاونة من أحد، فكأنه بأصل خلفته ومقتضى جبلته يتضرع إلى من يخلصه منها ويخرجه عن علائقها وحبائلها وما ذاك إلا شهادة الفطرة بالإفتقار إلى الصانع المدبر. ﻫ

الوجه الرابع: أن الموجود إما أن يكون غنيًا عن المؤثر أو لا يكون، فإن كان غنيًا عن المؤثر

فهو الموجود الواجب لذاته، فإنه لا معنى للواجب لذاته إلا الموجود الذي لا حاجة به إلى غيره. وإن لم يكن غنيًا عن المؤثر فهو محتاج، والمحتاج لا بد له من المحتاج إليه وذلك هو الصانع المختار.

الوجه الخامس: أن الاعتراف بوجود الإله المختار المكلف، وبوجود المعاد أحوط، فوجب المصير إليه فهذه مراتب أربعة: أولها: أن الإقرار بوجود الإله أحوط، لأنه لو لم يكن موجودًا فلا ضرر في الإقرار بوجوده وإن كان موجودًا ففي إنكاره أعظم المضار. وثانيها: الإقرار بكونه فاعلاً مختارًا لأنه لو كان موجبًا فلا ضرر في الإقرار بكونه مختارًا. أما لو كان مختارًا ففي إنكار كونه مختارًا أعظم المضار. وثالثها: الإقرار بأنه كلف عباده، لأنه لو لم يكلف أحدًا من عبيده شيئًا فلا ضرر في اعتقاد أنه كلف العباد، أما إنه لو كلف ففي إنكار تلك التكاليف أعظم المضار. ورابعها: الإقرار بوجود المعاد فإنه إن كان الحق أنه لا معاد فلا ضرر في الإقرار بوجوده، لأنه لا يفوت إلا هذه اللذات الجسمانية وهي حقيرة ومنقوصة وإن كان الحق هو وجوب المعاد ففي إنكاره أعظم المضار فظهر أن الإقرار بهذه المقامات أحوط فوجب المصير إليه، لأن بديهة العقل حاكمة بأنه يجب دفع الضرر عن النفس بقدر الإمكان.

المسألة الثالثة: لما أقام الدلالة على وجود الإله بدليل كونه فاطر السموات والأرض وصفه بكمال الرحمة والكرم والجود وبين ذلك من وجهين، الأول: قوله: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قال صاحب (الكشاف): لو قال قائل ما معنى التبعيض في قوله من ذنوبكم، ثم أجاب فقال: ما جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين، كقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[نوح: ٣، ٤]. ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[الأحقاف: ٣١] وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الصف: ١٠] إلى أن قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران: ٣١] والاستقراء يدل على صحة ما ذكرناه، ثم قال: وكأن ذلك للتفرقة بين الخطابين، ولئلا يسوي بين الفريقين في المعاد، وقيل: إنه أراد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله تعالى بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم. هذا كلام هذا الرجل، وقال الواحدي في (البسيط)، قال أبو عبيدة (من) زائدة، وأنكر سيبويه زيادتها في الواجب، وإذا قلنا إنها ليست زائدة فهاهنا وجهان: أحدهما: أنه ذكر البعض هاهنا وأريد به الجميع توسعًا. والثاني: أن (من) هاهنا للبدل والمعنى لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب فدخلت من لتضمن المغفرة معنى البدل من السيئة، وقال القاضي: ذكر الأصم أن كلمة (من) هاهنا تفيد التبعيض، والمعنى أنكم إذا تبتم فإنه يغفر لكم الذنوب التي هي من الكبائر، فأما التي تكون من باب الصغائر فلا حاجة إلى غفرانها لأنها في أنفسها مغفورة، قال القاضي: وقد أبعد في هذا التأويل، لأن الكفار صغائرهم ككبائرهم في أنها لا تغفر إلا بالتوبة وإنما تكون الصغيرة مغفورة من المؤمنين الموحدين من حيث يزيد ثوابهم على عقابها فأما من لا ثواب له أصلاً فلا يكون شيء من ذنوبه صغيرًا ولا يكون

شيء منها مغفورًا. ثم قال وفيه وجه آخر وهو أن الكافر قد ينسى بعض ذنوبه في حال توبته وإنابته فلا يكون المغفور منها إلا ما ذكره وتاب منه فهذا جملة أقوال الناس في هذه الكلمة.

المسألة الرابعة: أقول هذه الآية تدل على أنه تعالى قد يغفر الذنوب من غير توبة في حق أهل الإيمان والدليل عليه أنه قال: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ وعد بغفران بعض الذنوب مطلقًا من غير اشتراط التوبة، فوجب أن يغفر بعض الذنوب مطلقًا من غير التوبة وذلك البعض ليس هو الكفر لإنعقاد الإجماع على أنه تعالى لا يغفر الكفر إلا بالتوبة عنه والدخول في الإيمان فوجب أن يكون البعض الذي يغفر له من غير التوبة هو ما عد الكفر من الذنوب.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال كلمة (من) صلة على ما قاله أبو عبيدة أو نقول: المراد من البعض هاهنا هو الكل على ما قاله الواحدي. أو نقول: المراد منها إبدال السيئة بالحسنة على ما قاله الواحدي أيضًا أو نقول: المراد منه تمييز المؤمن عن الكافر في الخطاب على ما قاله صاحب (الكشاف) أو نقول: المراد منه تخصيص هذا الغفران بالكبائر على ما قاله الأصم. أو نقول: المراد منه الذنوب التي يذكرها الكافر عند الدخول في الإيمان على ما قاله القاضي، فنقول: هذه الوجوه بأسرها ضعيفة أما قوله: إنها صلة فمعناه الحكم على كلمة من كلام الله تعالى بأنها حشو ضائع فاسد، والعاقل لا يجوز المصير إليه من غير ضرورة، فأما قول الواحدي: المراد من كلمة (من) هاهنا هو الكل فهو عين ما قاله أبو عبيدة لأن حاصله أن قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ هو أنه يغفر لكم ذنوبكم وهذا عين ما نقله عن أبي عبيدة، وحكي عن سيبويه إنكاره، وأما قوله: المراد منه إبدال السيئة بالحسنة فليس في اللغة أن كلمة من تفيد الإبدال، وأما قول صاحب (الكشاف): المراد تمييز خطاب المؤمن عن خطاب الكافر بمزيد التشريف فهو من باب الطامات، لأن هذا التبعيض إن حصل فلا حاجة إلى ذكر هذا الجواب، وإن لم يحصل كان هذا الجواب فاسدًا، وأما قول الأصم فقد سبق إبطاله، وأما قول القاضي فجوابه: أن الكافر إذا أسلم صارت ذنوبه بأسرها مغفورة لقوله عليه السلام: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ» فثبت أن جميع ما ذكروه من التأويلات تعسف ساقط بل المراد ما ذكرنا أنه تعالى يغفر بعض ذنوبه من غير توبة وهو ما عدا الكفر، وأما الكفر فهو أيضًا من الذنوب وأنه تعالى لا يغفره إلا بالتوبة، وإذا ثبت أنه تعالى يغفر كبائر كافر من غير توبة بشرط أن يأتي بالإيمان فبأن تحصل هذه الحالة للمؤمن كان أولى، هذا ما خطر بالبال على سبيل الارتجال والله أعلم بحقيقة الحال.

النوع الثاني: مما وعد الله تعالى به في هذه الآية قوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وفيه وجهان:

الأول: المعنى أنكم إن آمنتم أخر الله موتكم إلى أجل مسمى وإلا عاجلكم بعذاب الاستئصال.

الثاني: قال ابن عباس: المعنى يمتعكم في الدنيا بالطيبات واللذات إلى الموت.

فإن قيل: أليس إنه تعالى قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] فكيف قال هاهنا: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

قلنا: قد تكلمنا في هذه المسألة في سورة الأنعام في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢] ثم حكى تعالى أن الرسل لما ذكروا هذه الأشياء لأولئك الكفار قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

واعلم أن هذا الكلام مشتمل على ثلاثة أنوع من الشبه:

فالشبهة الأولى: أن الأشخاص الإنسانية متساوية في تمام الماهية، فيمتنع أن يبلغ التفاوت بين تلك الأشخاص إلى هذا الحد، وهو أن يكون الواحد منهم رسولاً من عند الله مطلعًا على الغيب مخالطًا لزمرة الملائكة، والباقون يكونون غافلين عن كل هذه الأحوال أيضًا كانوا يقولون: إن كنت قد فارقتنا في هذه الأحوال العالية الإلهية الشريفة، وجب أن تفارقنا في الأحوال الخسيسة، وفي الحاجة إلى الأكل والشرب والحدث والوقاع، وهذه الشبهة هي المراد من قولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

والشبهة الثانية: التمسك بطريقة التقليد، وهي أنهم وجدوا آباءهم وعلماءهم وكبراءهم مطبقين متفقين على عبادة الأوثان. قالوا ويبعد أن يقال: إن أولئك القدماء على كثرتهم وقوة خواطرهم لم يعرفوا بطلان هذا الدين، وأن الرجل الواحد عرف فساده ووقف على بطلانه، والعوام ربما زادوا في هذا الباب كلامًا آخر، وذلك أن الرجل العالم إذا بين ضعف كلام بعض المتقدمين قالوا له إن كلامك إنما يظهر صحته لو كان المتقدمون حاضرين، أما المناظرة مع الميت فسهلة، فهذا كلام يذكره الحمقى والرعاع وأولئك الكفار أيضًا ذكروه، وهذه الشبهة هي المراد من قوله: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

والشبهة الثالثة: أن قالوا المعجز لا يدل على الصدق أصلاً، وإن كانوا سلموا على أن المعجز يدل على الصدق، إلا أن الذي جاء به أولئك الرسل طعنوا فيه وزعموا أنها أمور معتادة، وأنها ليست من باب المعجزات الخارجة عن قدرة البشر، وإلى هذا النوع من الشبهة الإشارة بقوله: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ فهذا تفسير هذه الآية بحسب الوسع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار شبهاتهم في الطعن في النبوة، حكى عن الأنبياء عليهم السلام جوابهم عنها.

أما الشبهة الأولى: وهي قولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فجوابه: أن الأنبياء سلموا أن الأمر كذلك، لكنهم بينوا أن التماثل في البشرية والإنسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة لأن هذا المنصب منصب يمن الله به على من يشاء من عباده، فإذا كان الأمر كذلك فقد سقطت هذه الشبهة.

واعلم أن هذا المقام فيه بحث شريف دقيق، وهو أن جماعة من حكماء الإسلام قالوا: إن الإنسان ما لم يكن في نفسه وبدنه مخصوصًا بخواص شريفة علوية قدسية، فإنه يمتنع عقلاً حصول صفة النبوة له. وأما الظاهريون من أهل السنة والجماعة، فقد زعموا أن حصول النبوة عطية من الله تعالى يهبها لكل من يشاء من عباده، ولا يتوقف حصولها على امتياز ذلك الإنسان عن سائر الناس بمزيد إشراق نفساني وقوة قدسية، وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية، فإنه تعالى بين أن حصول النبوة ليس إلا بمحض المنة من الله تعالى والعطية منه، والكلام من هذا الباب غامض غائص دقيق، والأولون أجابوا عنه بأنهم لم يذكروا فضائلهم النفسانية والجسدانية تواضعًا منهم، واقتصروا على قولهم: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بالنبوة، لأنه قد علم أنه تعالى لا يخصهم بتلك الكرامات إلا وهم موصوفون بالفضائل التي لأجلها استوجبوا ذلك التخصيص، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وأما الشبهة الثانية: وهي قولهم: إطباق السلف على ذلك الدين يدل على كونه حقًا، لأنه يبعد أن يظهر للرجل الواحد ما لم يظهر للخلق العظيم، فجوابه: عين الجواب المذكور عن الشبهة الأولى، لأن التمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب عطية من الله تعالى وفضل منه، ولا يبعد أن يخص بعض عبيده بهذه العطية وأن يحرم الجمع العظيم منها.

وأما الشبهة الثالثة: وهي قولهم: إنا لا نرضى بهذه المعجزات التي أتيتم بها، وإنما نريد معجزات قاهرة قوية.

فالجواب عنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وشرح هذا الجواب أن المعجزة التي جئنا بها وتمسكنا بها حجة قاطعة وبينة قاهرة ودليل تام، فأما الأشياء التي طلبتموها فهي أمور زائدة والحكم فيها لله تعالى فإن خلقها وأظهرها فله الفضل وإن لم يخلقها فله العدل ولا يحكم عليه بعد ظهور قدر الكفاية. ثم إنه تعالى حكى عن الأنبياء والرسل عليهم السلام أنهم قالوا بعد ذلك: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ والظاهر أن الأنبياء لما أجابوا عن شبهاتهم بذلك الجواب فالقوم أخذوا في السفاهة والتخويف والوعيد، وعند هذا قالت الأنبياء عليهم السلام: لا نخاف من تخويفكم ولا نلتفت إلى تهديدكم فإن توكلنا على الله واعتمادنا على فضل الله ولعل الله سبحانه كان قد أوحى إليهم أن أولئك الكفرة لا يقدرون على إيصال الشر والآفة إليهم وإن لم يكن حصل هذا الوحي، فلا يبعد منهم أن لا يلتفتوا إلى سفاهتهم لما أن أرواحهم كانت مشرقة بالمعارف الإلهية مشرقة بأضواء عالم الغيب والروح متى كانت

موصوفة بهذه الصفات فقلما يبالي بالأحوال الجسمانية وقلما يقيم لها وزنًا في حالتي السراء والضراء وطورى الشدة والرخاء، فلهذا السبب توكلوا على الله وعولوا على فضل الله وقطعوا أطماعهم عما سوى الله، والذي يدل على أن المراد ما ذكرناه قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ﴾ يعني أنه تعالى لما خصنا بهذه الدرجات الروحانية، والمعارف الإلهية الربانية فكيف يليق بنا أن لا نتوكل على الله، بل اللائق بنا أن لا نتوكل إلا عليه ولا نعول في تحصيل المهمات إلا عليه، فإن من فاز بشرف العبودية ووصل إلى مكان الإخلاص والمكاشفة يقبح به أن يرجع في أمر من الأمور إلى غير الحق سواء كان ملكًا له أو ملكًا أو روحًا أو جسمًا، وهذه الآية دالة على أنه تعالى يعصم أولياءه المخلصين في عبوديته من كيد أعدائهم ومكرهم، ثم قالوا: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ﴾ فإن الصبر مفتاح الفرج، ومطلع الخيرات، والحق لا بد وأن يصير غالبًا قاهرًا، والباطل لا بد وأن يصير مغلوبًا مقهورًا، ثم أعادوا قولهم: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ والفائدة فيه أنهم أمروا أنفسهم بالتوكل على الله في قوله ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثم لما فرغوا من أنفسهم أمروا أتباعهم بذلك وقالوا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وذلك يدل على أن الآمر بالخير لا يؤثر قوله إلا إذا أتى بذلك الخير أولاً، ورأيت في كلام الشيخ أبي حامد الغزالي رحمه الله فصلاً حسنًا وحاصله: أن الإنسان إما أن يكون ناقصًا أو كاملاً أو خاليًا عن الوصفين، أما الناقص فإما أن يكون ناقصًا في ذاته ولكنه لا يسعى في تنقيص حال غيره، وإما أن يكون ناقصًا ويكون مع ذلك ساعيًا في تنقيص حال الغير، فالأول: هو الضال، والثاني: هو الضال المضل، وأما الكامل فإما أن يكون كاملاً ولا يقدر على تكميل الغير وهم الأولياء، وإما أن يكون كاملاً ويقدر على تكميل الناقصين وهم الأنبياء ولذلك قال عليه السلام: «عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ»[(1)] ولما كانت مراتب النقصان والكمال ومراتب الإكمال والإضلال غير متناهية بحسب الكمية والكيفية، لا جرم كانت مراتب الولاية والحياة غير متناهية بحسب الكمال والنقصان، فالولي هو الإنسان الكامل الذي لا يقوى على التكميل، والنبي هو الإنسان الكامل المكمل، ثم قد تكون قوته الروحانية النفسانية وافية بتكميل إنسانين ناقصين وقد تكون أقوى من ذلك فيفي بتكميل عشرة ومائة وقد تكون تلك القوة قاهرة قوية تؤثر تأثير الشمس في العالم فيقلب أرواح أكثر أهل العالم من مقام الجهل إلى مقام المعرفة ومن طلب الدنيا إلى طلب الآخرة، وذلك مثل روح محمد ﷺ، فإن وقت ظهوره كان العالم مملوءًا من اليهود وأكثرهم كانوا مشبهة ومن النصارى وهم حلولية ومن المجوس وقبح مذاهبهم ظاهر ومن عبدة الأوثان وسخف دينهم أظهر من أن يحتاج إلى بيان فلما ظهرت دعوة

(١) **لا أصل له:** أورده الفتني في (تذكرة الموضوعات) (١/ ٢٠)، وقال: قال شيخنا الزركشي: لا أصل له ولا يعرف في كتاب معتبر وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٦٤)، وقال: قال السيوطي في الدرر لا أصل له، وقال في المقاصد قال شيخنا يعني ابن حجر لا أصل له، وقبله الدميري والزركشي وزاد بعضهم ولا يعرف في كتاب معتبر.

محمد ﷺ سرت قوة روحه في الأرواح فقلب أكثر أهل العالم من الشرك إلى التوحيد، ومن التجسيم إلى التنزيه، ومن الاستغراق في طلب الدنيا إلى التوجه إلى عالم الآخرة، فمن هذا المقام ينكشف للإنسان مقام النبوة والرسالة.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما كانت حاصلة لهم من كمالات نفوسهم، وقولهم في آخر الأمر، وعلى الله فليتوكل المتوكلون، إشارة إلى تأثير أرواحهم الكاملة في تكميل الأرواح الناقصة فهذه أسرار عالية مخزونة في ألفاظ القرآن، فمن نظر في علم القرآن وكان غافلاً عنها كان محرومًا من أسرار علوم القرآن والله أعلم، وفي الآية وجه آخر وهو أن قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المراد منه أن الذين يطلبون سائر المعجزات وجب عليهم أن يتوكلوا في حصولها على الله تعالى لا عليها، فإن شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها.

وأما قوله في آخر الآية: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ المراد منه الأمر بالتوكل على الله في دفع شر الناس الكفار وسفاهتهم، وعلى هذا التقدير فالتكرار غير حاصل لأن قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ وارد في موضعين مختلفين بحسب مقصودين متغايرين، وقيل أيضًا: الأول: ذكر لاستحداث التوكل. والثاني: للسعي في إبقائه وإدامته، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الأنبياء عليهم السلام، أنهم اكتفوا في دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته، حكى عن الكفار أنهم بالغوا في السفاهة وقالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ والمعنى: ليكونن أحد الأمرين لا محالة إما إخراجكم وإما عودكم إلى ملتنا. والسبب فيه أن أهل الحق في كل زمان يكونون قليلين وأهل الباطل يكونون كثيرين والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين، فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة.

فإن قيل: هذا يوهم أنهم كانوا على ملتهم في أول الأمر حتى يعودوا فيها.

قلنا: الجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن أولئك الأنبياء عليهم السلام إنما نشأوا في تلك البلاد وكانوا من تلك القبائل

وفي أول الأمر ما أظهروا المخالفة مع أولئك الكفار، بل كانوا في ظاهر الأمر معهم من غير إظهار مخالفة فالقوم ظنوا لهذا السبب أنهم كانوا في أول الأمر على دينهم فلهذا السبب قالوا: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

الوجه الثاني: أن هذا حكاية كلام الكفار ولا يجب في كل ما قالوه أن يكونوا صادقين فيه فلعلهم توهموا ذلك مع أنه ما كان الأمر كما توهموه.

الوجه الثالث: لعل الخطاب وإن كان في الظاهر مع الرسل إلا أن المقصود بهذا الخطاب أتباعهم وأصحابهم ولا بأس أن يقال: إنهم كانوا قبل ذلك الوقت على دين أولئك الكفار.

الوجه الرابع: قال صاحب (الكشاف): العود بمعنى الصيرورة كثير في كلام العرب.

الوجه الخامس: لعل أولئك الأنبياء كانوا قبل إرسالهم على ملة من الملل، ثم إنه تعالى أوحى إليهم بنسخ تلك الملة وأمرهم بشريعة أخرى وبقي الأقوام على تلك الشريعة التي صارت منسوخة مصرين على سبيل الكفر، وعلى هذا التقدير فلا يبعد أن يطلبوا من الأنبياء أن يعودوا إلى تلك الملة.

الوجه السادس: لا يبعد أن يكون المعنى: أو لتعودن في ملتنا، أي إلى ما كنتم عليه قبل إدعاء الرسالة من السكوت عن ذكر معايبة ديننا وعدم التعرض له بالطعن والقدح وعلى جميع هذه الوجوه فالسؤال زائل، والله أعلم.

واعلم أن الكفار لما ذكروا هذا الكلام قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ قال صاحب (الكشاف): ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ حكاية تقتضي إضمار القول أو إجراء الإيحاء مجرى القول لأنه ضرب منه، وقرأ أبو حيوة: (لَيُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَيُسْكِنَنَّكُمْ) بالياء اعتبارًا لأوحى فإن هذا اللفظ لفظ الغيبة ونظيره قولك أقسم زيد ليخرجن ولأخرجن، والمراد بالأرض (أَرْضُ الظَّالِمِينَ وَدِيَارُهُمْ) ونظيره قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧] وعن النبي ﷺ: «مَنْ آذَى جَارَهُ أَوْرَثَهُ اللَّهُ دَارَهُ»[1] واعلم أن هذه الآية تدل على أن من توكل على ربه في دفع عدوه كفاهالله أمر عدوه.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ فقوله ذلك إشارة إلى أن ما قضى الله تعالى به من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم إثر ذلك الأمر حق لمن خاف مقامي وفيه

---

(١) أورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٢١٩)، وقال: كذا رأيته في كلام بعض من جمع في الحديث ممن لا يعرف، لكن بلفظ ورثه بتشديد الراء فلينظر حاله، ثم رأيت النجم قال أورده في الكشاف، ولعله مثل سائر وليس بحديث ومأخذه في كتاب الله من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤] ومن أمثلة العوام اصبر على جارك المشؤوم إما يموت وإما يرحل انتهى.

وجوه: الأول: موقفي وهو موقف الحساب، لأن ذلك الموقف موقف الله تعالى الذي يقف فيه عباده يوم القيامة، ونظيره قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾[النازعات: ٤٠] وقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٤٦] الثاني: أن المقام مصدر كالقيامة، يقال: قام قيامًا ومقامًا، قال الفراء: ذلك لمن خاف قيامي عليه ومراقبتي إياه كقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[الرعد: ٣٣]. الثالث: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي إقامتي على العدل والصواب فإنه تعالى لا يقضي إلا بالحق ولا حكم إلا بالعدل وهو تعالى مقيم على العدل لا يميل عنه ولا ينحرف ألبتة. الرابع: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي مقام العائذ عندي وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول، الخامس: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي لم خافني، وذكر المقام ههنا مثل ما يقال: سلام الله على المجلس الفلاني العالي والمراد: سلام الله على فلان فكذا ههنا.

ثم قال تعالى: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ قال الواحدي: الوعيد اسم من أوعد إيعادًا وهو التهديد. قال ابن عباس: خاف ما أوعدت من العذاب.

واعلم أنه تعالى ذكر أولاً قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ ثم عطف عليه قوله: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ فهذا يقتضي أن يكون الخوف من الله تعالى مغايرًا للخوف من وعيد الله، ونظيره: أن حب الله تعالى مغاير لحب ثواب الله، وهذا مقام شريف عال في أسرار الحكمة والتصديق.

ثم قال: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا۟﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: للاستفتاح ههنا معنيان: أحدهما: طلب الفتح بالنصرة، فقوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي واستنصروا الله على أعدائهم، فهو كقوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾[الأنفال: ١٩]. والثاني: الفتح الحكم والقضاء، فقول ربنا: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي واستحكموا الله وسألوه القضاء بينهم، وهو مأخوذ من الفتاحة وهي الحكومة كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾[الأعراف: ٨٩].

إذا عرفت هذا فنقول: كلا القولين ذكره المفسرون. أما على القول الأول فالمستفتحون هم الرسل، وذلك لأنهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب لما أيسوا من إيمانهم: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[نوح: ٢٦] وقال موسى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ﴾[يونس: ٨٨] الآية. وقال لوط: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[العنكبوت: ٣٠] وأما على القول الثاني: وهو طلب الحكمة والقضاء فالأولى أن يكون المستفتحون هم الأمم وذلك أنهم قالوا: اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا، ومنه قول كفار قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[الأنفال: ٣٢]. وكقول آخرين ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[العنكبوت: ٢٩].

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا۟﴾ معطوف على قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ

﴿إِلَيْهِمْ﴾ وقرىء واستفتحوا بلفظ الأمر وعطفه على قوله: ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾ أي أوحى إليهم ربهم، وقال لهم: ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾ وقال لهم ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: إن قلنا: المستفتحون هم الرسل، كان المعنى أن الرسل استفتحوا فنصروا وظفروا بمقصودهم وفازوا ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وهم قومهم؛ وإن قلنا: المستفتحون هم الكفرة، فكان المعنى: أن الكفار استفتحوا على الرسل ظنًا منهم أنهم على الحق والرسل على الباطل ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ منهم وما أفلح بسبب استفتاحه على الرسل.

المسألة الثانية: الجبار ههنا المتكبر على طاعة الله وعبادته. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤] قال أبو عبيدة عن الأحمر: يقال فيه جبرية وجبروة وجبروت وجبورة، وحكى الزجاج: الجبرية والجبر بكسر الجيم والباء والنجبار والجبرياء. قال الواحدي: فهي ثمان لغات في مصدر الجبار، وفي الحديث أن امرأة حضرت النبي ﷺ فأمرها أمرًا فأبت عليه فقال: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا جَبَّارَةٌ» أي مستكبرة، وأما العنيد فقد اختلف أهل اللغة في اشتقاقه، قال النضر بن شميل: العنود الخلاف والتباعد والترك، وقال غيره: أصله من العند وهو الناحية يقال: فلان يمشي عندًا، أي ناحية، فمعنى عاند وعند. أخذ في ناحية معرضًا، وعاند فلان فلانًا إذا جانبه وكان منه على ناحية.

إذا عرفت هذا فنقول: كونه جبارًا متكبرًا إشارة إلى الخلق النفساني وكونه عنيدًا إشارة إلى الأثر الصادر عن ذلك الخلق، وهو كونه مجانبًا عن الحق منحرفًا عنه، ولا شك أن الإنسان الذي يكون خلقه هو التجبر والتكبر وفعله هو العنود وهو الانحراف عن الحق والصدق، كان خائبًا عن كل الخيرات خاسرًا عن جميع أقسام السعادات.

واعلم أنه تعالى لما حكم عليه بالخيبة ووصفه بكونه جبارًا عنيدًا، وصف كيفية عذابه بأمور:
الأول: قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ وفيه إشكال وهو أن المراد: أمامه جهنم، فكيف أطلق لفظ الوراء على القدام والأمام؟

واجابوا عنه من وجوه: الأول: أن لفظ (وراء) اسم لما يوارى عنك، وقدام وخلف متوار عنك، فصح إطلاق لفظ (وراء) على كل واحد منهما. قال الشاعر:

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتُ فِيهِ ... يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ[1]

---

(١) هذا البيت من البحر الوافر للشاعر عبد الكريم البسطي وهو عبد الكريم القيسي البَسطي. ؟- ٨٩٧ هـ/ ؟- ١٤٩١ م، من شعراء الأندلس في القرن الأخير من حياة العرب المسلمين في تلك الديار، وقد وصل إلينا ديوان شعره كاملاً تقريباً، ولعله آخر ديوان أندلسي يصل إلينا من خلال الأحداث القاسية التى عانى منها الأندلسيون في آخر التاريخ الإسلامي هناك ولم تحفظ لنا الوثائق الباقية سنة ولادة القيسي البسطي ولا سنة وفاته، لكن ديوانه يشير إلى=

ويقال أيضا: الموت وراء كل أحد. الثاني: قال أبو عبيدة وابن السكيت: الوراء من الأضداد يقع على الخلف والقدام، والسبب فيه أن كل ما كان خلفًا فإنه يجوز أن ينقلب قدامًا وبالعكس، فلا جرم جاز وقوع لفظ الوراء على القدام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ﴾ [الكهف: ٧٩] أي أمامهم، ويقال: الموت من وراء الإنسان. الثاني: قال ابن الأنباري (وراء) بمعنى بعد. قال الشاعر:

وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ (١)

أي وليس بعد الله مذهب.

إذا ثبت هذا فنقول: إنه تعالى حكم عليه بالخيبة في قوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

ثم قال: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي ومن بعده الخيبة يدخل جهنم.

النوع الثاني: مما ذكره الله تعالى من أحوال هذا الكافر قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ وفيه سؤالات:

السؤال الأول: علام عطف ﴿وَيُسْقَىٰ﴾.

الجواب: على محذوف تقديره: من ورائه جهنم يلقى فيها ويسقى من ماء صديد.

السؤال الثاني: عذاب أهل النار من وجوه كثيرة، فلم خص هذه الحالة بالذكر؟

الجواب: يشبه أن تكون هذه الحالة أشد أنواع العذاب فخصص بالذكر مع قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

السؤال الثالث: ما وجه قوله: ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾.

الجواب: أنه عطف بيان والتقدير: أنه لما قال: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ﴾ فكأنه قيل: وما ذلك الماء فقال: ﴿صَدِيدٍ﴾ والصديد ما يسيل من جلود أهل النار. وقيل: التقدير ويسقى من ماء كالصديد. وذلك بأن يخلق الله تعالى في جهنم ما يشبه الصديد في النتن والغلظ والقذارة، وهو أيضًا يكون في نفسه صديدًا، لأن كراهته تصد عن تناوله وهو كقوله: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩].

السؤال الرابع: ما معنى يتجرعه ولا يكاد يسيغه.

الجواب: التجرع تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار، ويقال: ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغًا وأساغه إساغة. واعلم أن (يكاد).

=أنه من رجال القرن التاسع، وأنه لم يدرك سقوط غرناطة ٨٩٧ هـ.

(١) هذا عجز بيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر النابغة الذبياني وهو النابغة الذُّبياني هو: زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة. ؟- ١٨ ق. هـ/ ؟- ٦٠٥ م، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها، وكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره على النابغة، والبيت كاملاً هكذا:

حَلَفتُ فَلَم أَترُك لِنَفسِكَ رِيبَةً   وَلَيسَ وَراءَ اللَهَ لِلمَرءِ مَذهَبُ

فيه قولان:

القول الأول: أن نفيه إثبات، وإثباته نفي، فقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي ويسيغه بعد إبطاء لأن العرب تقول: ما كدت أقوم، أي قمت بعد إبطاء قال تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] يعني فعلوا بعد إبطاء، والدليل على حصول الإساغة قوله تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ٢٠] ولا يحصل الصهر إلا بعد الإساغة، وأيضًا فإن قوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يدل على أنهم أساغوا الشيء بعد الشيء فكيف يصح أن يقال بعده إنه يسيغه ألبتة.

والقول الثاني: أن كاد للمقاربة فقول: ﴿وَلَا يَكَادُ﴾ لنفي المقاربة يعني: ولم يقارب أن يسيغه فكيف يحصل الإساغة كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠] أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها.

فإن قيل: فقد ذكرتم الدليل على حصول الإساغة، فكيف الجمع بينه وبين هذا الوجه.

قلنا عنه جوابان: أحدهما: أن المعنى: ولا يسيغ جميعه كأنه يجرع البعض وما ساغ الجميع. الثاني: أن الدليل الذي ذكرتم إنما دل على وصول بعض ذلك الشراب إلى جوف الكافر، إلا أن ذلك ليس بإساغة، لأن الإساغة في اللغة إجراء الشراب في الحلق بقبول النفس واستطابة المشروب والكافر يتجرع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه، أي لا يستطيبه ولا يشربه شربًا بمرة واحدة وعلى هذين الوجهين يصبح حمل لا يكاد على نفي المقاربة، والله أعلم.

النوع الثالث: مما ذكره الله تعالى في وعيد هذا الكافر قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] والمعنى: أن موجبات الموت أحاطت به من جميع الجهات، ومع ذلك فإنه لا يموت وقيل من كل جزء من أجزاء جسده.

النوع الرابع: قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ وفيه وجهان:

الأول: أن المراد من العذاب الغليظ كونه دائمًا غير منقطع.

الثاني: أنه في كل وقت يستقبله يتلقى عذابًا أشد مما قبله. قال المفضل: هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواع عذابهم في الآية المتقدمة بين في هذه الآية أن أعمالهم بأسرها تصير ضائعة باطلة لا ينتفعون بشيء منها وعند هذا يظهر كمال خسرانهم لأنهم لا يجدون في

القيامة إلا العقاب الشديد وكل ما عملوه في الدنيا وجدوه ضائعًا باطلاً، وذلك هو الخسران الشديد. وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في ارتفاع قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ﴾ وجوه:

الأول: قال سيبويه: التقدير: وفيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا، أو مثل الذين كفروا فيما يتلى عليكم، وقوله: ﴿كَرَمَادٍ﴾ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم فقيل: أعمالهم كرماد. **الثاني:** قال الفراء: التقدير مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد فحذف المضاف اعتمادًا على ذكره بعد المضاف إليه وهو قوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ ومثله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧] أي خلق كل شيء، وكذا قوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] المعنى ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة. **الثالث:** أن يكون التقدير صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد، كقولك صفة زيد عرضه مصون، وماله مبذول. الرابع: أن تكون أعمالهم بدلاً من قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والتقدير: مثل أعمالهم وقوله: ﴿كَرَمَادٍ﴾ هو الخبر. الخامس: أن يكون المثل صلة وتقديره: الذين كفروا أعمالهم.

المسألة الثانية: اعلم أن وجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال، هو أن الريح العاصف تطير الرماد وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى لذلك الرماد أثر ولا خبر، فكذا ههنا أن كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لم يبق من تلك الأعمال معهم خبر ولا أثر، ثم اختلفوا في المراد بهذه الأعمال على وجوه:

الوجه الأول: أن المراد منها ما عملوه من أعمال البر كالصدقة وصلة الرحم وبر الوالدين وإطعام الجائع، وذلك لأنها تصير محبطة باطلة بسبب كفرهم، ولولا كفرهم لانتفعوا بها.

والوجه الثاني: أن المراد من تلك الأعمال عبادتهم للأصنام وما تكلفوه من كفرهم الذي ظنوه إيمانًا وطريقًا إلى الخلاص، والوجه في خسرانهم أنهم أتعبوا أبدانهم فيها الدهر الطويل لكي ينتفعوا بها فصارت وبالاً عليهم.

والوجه الثالث: أن المراد من هذه الأعمال كلا القسمين، لأنهم إذا رأوا الأعمال التي كانت في أنفسها خيرات قد بطلت، والأعمال التي ظنوها خيرات وأفنوا فيها أعمارهم قد بطلت أيضًا وصارت من أعظم الموجبات لعذابهم فلا شك أنه تعظم حسرتهم وندامتهم فلذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

المسألة الثالثة: قرىء الرياح في يوم عاصف جعل العصف لليوم، وهو لما فيه وهو الريح أو الرياح كقولك: يوم ماطر وليلة ساكرة، وإنما السكور لريحها قال الفراء: وإن شئت قلت في يوم ذي عصوف، وإن شئت قلت: في يوم عاصف الريح فحذف ذكر الريح لكونه مذكورًا قبل ذلك، وقرىء في يوم عاصف بالإضافة.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي لا يقدرون مما كسبوا على شيء

منتفع به لا في الدنيا ولا في الآخرة وذلك لأنه ضاع بالكلية وفسد، وهذه الآية دالة على كون العبد مكتسبًا لأفعاله.

واعلم أنه تعالى لما تمم هذا المثال قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: وجه النظم أنه تعالى لما بين أن أعمالهم تصير باطلة ضائعة، بين أن ذلك البطلان والإحباط إنما جاء بسبب صدر منهم وهو كفرهم بالله وإعراضهم عن العبودية فإن الله تعالى لا يبطل أعمال المخلصين ابتداء، وكيف يليق بحكمته أن يفعل ذلك وأنه تعالى ما خلق كل هذا العالم إلا لداعية الحكمة والصواب.

المسألة الثانية: قرأ حمزة والكسائي: (خَالِقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) على اسم الفاعل على أنه خبر أن والسموات والأرض على الإضافة كقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[إبراهيم: ١٠]. ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾[الأنعام: ٩٥]. و﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾[الأنعام: ٩٦] والباقون خلق على فعل الماضي: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بالنصب لأنه مفعول.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ نظير لقوله في سورة يونس: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٥] ولقوله في آل عمران: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾[آل عمران: ١٩١] ولقوله في ص: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾[ص: ٢٧] أما أهل السنة فيقولون إلا بالحق وهو دلالتهما على وجود الصانع وعلمه وقدرته، وأما المعتزلة فيقولون: إلا بالحق، أي لم يخلق ذلك عبثًا بل لغرض صحيح.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ والمعنى: أن من كان قادرًا على خلق السموات والأرض بالحق، فبأن يقدر على إفناء قوم وإماتتهم وعلى إيجاد آخرين وإحيائهم كان أولى، لأن القادر على الأصعب الأعظم بأن يكون قادرًا على الأسهل الأضعف أولى. قال ابن عباس: هذا الخطاب مع كفار مكة، يريد أميتكم يا معشر الكفار، وأخلق قومًا خيرًا منكم وأطوع منكم.

ثم قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي ممتنع لما ذكرنا أن القادر على إفناء كل العالم وإيجاده بأن يكون قادرًا على إفناء أشخاص مخصوصين وإيجاده أمثالهم أولى وأحرى، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أصناف عذاب هؤلاء الكفار ثم ذكر عقيبه أن أعمالهم تصير محبطة

باطلة، ذكر في هذه الآية كيفية خجالتهم عند تمسك أتباعهم وكيفية افتضاحهم عندهم. وهذا إشارة إلى العذاب الروحاني الحاصل بسبب الفضيحة والخجالة.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: برز معناه في اللغة ظهر بعد الخفاء. ومنه يقال للمكان الواسع: البراز لظهوره، وقيل في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]أي ظاهرة لا يسترها شيء، وامرأة برزة إذا كانت تظهر للناس. ويقال: برز فلان على أقرانه إذا فاقهم وسبقهم، وأصله في الخيل إذا سبق أحدها. قيل: برز عليها كأنه خرج من غمارها فظهر.

إذا عرفت هذا فنقول: ههنا أبحاث:

البحث الأول: قوله: ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ ورد بلفظ الماضي وإن كان معناه الاستقبال، لأن كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو صدق وحق، فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ونظيره قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠].

البحث الثاني: قد ذكرنا أن البروز في اللغة عبارة عن الظهور بعد الاستتار وهذا في حق الله تعالى محال، فلا بد فيه من التأويل وهو من وجوه:

الأول: أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله تعالى، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله تعالى عند أنفسهم وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية.

الثاني: أنهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه.

الثالث: وهو تأويل الحكماء أن النفس إذا فارقت الجسد فكأنه زال الغطاء والوطاء وبقيت متجردة بذاتها عارية عن كل ما سواها وذلك هو البروز لله.

البحث الثالث: قال أبو بكر الأصم قوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ﴾ هو المراد من قوله في الآية السابقة: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧].

واعلم أن قوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ﴾ قريب من قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٩، ١٠]وذلك لأن البواطن تظهر في ذلك اليوم والأحوال الكامنة تنكشف فإن كانوا من السعداء برزوا للحاكم الحكيم بصفاتهم القدسية، وأحوالهم العلوية، ووجوههم المشرقة، وأرواحهم الصافية المستنيرة فيتجلى لها نور الجلال؛ ويعظم فيها إشراق عالم القدس، فما أجل تلك الأحوال وإن كانوا من الأشقياء برزوا لموقف العظمة، ومنازل الكبرياء ذليلين مهينين خاضعين خاشعين واقعين في خزي الخجالة، ومذلة الفضيحة، وموقف المهانة والفزع، نعوذ بالله منها.

ثم حكى الله تعالى أن الضعفاء يقولون للرؤساء: هل تقدرون على دفع عذاب الله عنا؟ والمعنى: أنه إنما اتبعناكم لهذا اليوم، ثم إن الرؤساء يعترفون بالخزي والعجز والذل. قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ ومن المعلوم أن اعتراف الرؤساء والسادة والمتبوعين بمثل هذا العجز والخزي والنكال يوجب الخجالة العظيمة والخزي الكامل التام،

فكان المقصود من ذكر هذه الآية: استيلاء عذاب الفضيحة والخجالة والخزي عليهم مع ما تقدم ذكره من سائر وجوه أنواع العذاب والعقاب نعوذ بالله منها، والله أعلم.

المسألة الثانية: كتبوا الضعفاء بواو قبل الهمزة في بعض المصاحف، والسبب فيه أنه كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو، ونظيره علماء بني إسرائيل.

المسألة الثالثة: الضعفاء الأتباع والعوام، والذين استكبروا هم السادة والكبراء. قال ابن عباس: المراد أكابرهم الذين استكبروا عن عبادة الله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي في الدنيا. قال الفراء وأكثر أهل اللغة: التبع تابع مثل خادم وخدم وباقر وبقر وحارس وحرس وراصد ورصد قال الزجاج: وجائز أن يكون مصدرًا سمي به، أي كنا ذوي تبع.

واعلم أن هذه التبعية يحتمل أن يقال: المراد منها التبعية في الكفر، ويحتمل أن يكون المراد منها التبعية في أحوال الدنيا: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي هل يمكنكم دفع عذاب الله عنا.

فإن قيل: ما الفرق بين من في قوله: ﴿مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ وبينه في قوله: ﴿مِن شَىْءٍ﴾.

قلنا: كلاهما للتبعيض بمعنى: هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو عذاب الله أي بعض عذاب الله وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا أنهم قالوا: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ وفيه وجوه الأول: قال ابن عباس: معناه لو أرشدنا الله لأرشدناكم، قال الواحدي: معناه أنهم إنما دعوهم إلى الضلال، لأن الله تعالى أضلهم ولم يهدهم فدعوا أتباعهم إلى الضلال ولو هداهم لدعوهم إلى الهدى قال صاحب (الكشاف): لعلهم قالوا ذلك مع أنهم كذبوا فيه ويدل عليه قوله تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨].

واعلم أن المعتزلة لا يجوزون صدور الكذب عن أهل القيامة فكان هذا القول منه مخالفًا لأصول مشايخه فلا يقبل منه، الثاني: قال صاحب (الكشاف): يجوز أن يكون المعنى لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان. وذكر القاضي هذا الوجه وزيفه بأن قال: لا يجوز حمل هذا على اللطف، لأن ذلك قد فعله الله تعالى. والثالث: أن يكون المعنى لو خلصنا الله من العقاب وهدانا إلى طريق الجنة لهديناكم، والدليل على أن المراد من الهدى هذا الذي ذكرناه أن هذا هو الذي التمسوه وطلبوه فوجب أن يكون المراد من الهداية هذا المعنى.

ثم قال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ أي مستو علينا الجزع والصبر والهمزة وأم للتسوية ونظيره: ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦] ثم قالوا: ما لنا من محيص، أي منجي ومهرب، والمحيص قد يكون مصدرًا كالمغيب والمشيب، ومكانًا كالمبيت والمضيق، ويقال حاص عنه وحاض بمعنى واحد، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر المناظرة التي وقعت بين الرؤساء والأتباع من كفرة الإنس، أردفها بالمناظرة التي وقعت بين الشيطان وبين أتباعه من الإنس فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ وفي المراد بقوله: ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ وجوه:

القول الأول: قال المفسرون: إذا استقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، أخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه فيقوم في النار فيما بينهم خطيبًا ويقول ما أخبر الله عنه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾.

القول الثاني: أن المراد من قوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ لما انقضت المحاسبة، والقول الأول أولى، لأن آخر أمر أهل القيامة استقرار المطيعين في الجنة واستقرار الكافرين في النار، ثم يدوم الأمر بعد ذلك.

والقول الثالث: وهو أن مذهبنا أن الفساق من أهل الصلاة يخرجون من النار ويدخلون الجنة فلا يبعد أن يكون المراد من قوله: ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ ذلك الوقت، لأن في ذلك الوقت تنقطع الأحوال المعتبرة، ولا يحصل بعده إلا دوام ما حصل قبل ذلك، وأما الشيطان فالمراد به إبليس لأن لفظ الشيطان لفظ مفرد فيتناول الواحد وإبليس رأس الشياطين ورئيسهم، فحمل اللفظ عليه أولى، لا سيما وقد قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْخَلْقَ وَقَضَى بَيْنَهُمْ يَقُولُ الْكَافِرُ قَدْ وَجَدَ الْمُسْلِمُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا مَا هُوَ إِلاَّ إِبْلِيسُ هُوَ الَّذِي أَضَلَّنَا فَيَأْتُونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ**»(١).

أما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾.

ففيه مباحث:

البحث الأول: المراد أن الله تعالى وعدكم وعد الحق وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم ووعدتكم خلاف ذلك فأخلفتكم، وتقرير الكلام أن النفس تدعو إلى هذه الأحوال الدنيوية ولا تتصور كيفية السعادات الأخروية والكمالات النفسانية والله يدعو إليها ويرغب فيها كما قال: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[الأعلى: ١٧].

---

(١) لم أجده إلا في التفسير وعند النيسابوري.

البحث الثاني: قوله: ﴿وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ من باب إضافة الشيء إلى نفسه كقوله: ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ [ق: ٩] ومسجد الجامع على قول الكوفيين، والمعنى: وعدكم الوعد الحق، وعلى مذهب البصريين يكون التقدير وعد اليوم الحق أو الأمر الحق أو يكون التقدير وعدكم الحق. ثم ذكر المصدر تأكيدًا.

البحث الثالث: في الآية إضمار من وجهين:

الأول: أن التقدير إن الله وعدكم وعد الحق فصدقكم ووعدتكم فأخلفتكم وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد، لأنهم كانوا يشاهدونها وليس وراء العيان بيان ولأنه ذكر في وعد الشيطان الإخلاف فدل ذلك على الصدق في وعد الله تعالى.

الثاني: أن في قوله: ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ الوعد يقتضي مفعولاً ثانيًا وحذف ههنا للعلم به، والتقدير: ووعدتكم أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب.

أما قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ أي قدرة ومكنة وتسلط وقهر فاقهركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها، إلا أن دعوتكم أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني قال النحويون: ليس الدعاء من جنس السلطان فقوله: ﴿إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ﴾ من جنس قولهم ما تحيتهم إلا الضرب، وقال الواحدي: إنه استثناء منقطع، أي لكن دعوتكم وعندي أنه يمكن أن يقال كلمة (إلا) ههنا استثناء حقيقي، لأن قدرة الإنسان على حمل الغير على عمل من الأعمال تارة يكون بالقهر والقسر، وتارة يكون بتقوية الداعية في قلبه بإلقاء الوساوس إليه، فهذا نوع من أنواع التسلط، ثم إن ظاهر هذه الآية يدل على أن الشيطان لا قدرة له على تصريع الإنسان وعلى تعويج أعضائه وجوارحه، وعلى إزالة العقل عنه كما يقوله العوام والحشوية، ثم قال: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ يعني ما كان مني إلا الدعاء والوسوسة، وكنتم سمعتم دلائل الله وشاهدتم مجيء أنبياء الله تعالى فكان من الواجب عليكم أن لا تغتروا بقولي ولا تلتفتوا إلي فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم عليكم لا علي في هذا الباب.

وفي الآية مسألتان:

المسألة الأولى: قالت المعتزلة هذه الآية تدل على أشياء: الأول: أنه لو كان الكفر والمعصية من الله تعالى لوجب أن يقال: فلا تلوموني ولا أنفسكم فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه. الثاني: ظاهر هذه الآية يدل على أن الشيطان لا قدرة له على تصريع الإنسان وعلى تعويج أعضائه وعلى إزالة العقل عنه كما تقول الحشوية والعوام. الثالث: أن هذه الآية تدل على أن الإنسان لا يجوز ذمه ولومه وعقابه بسبب فعل الغير، وعند هذا يظهر أنه لا يجوز عقاب أولاد الكفار بسبب كفر آبائهم.

أجاب بعض الأصحاب عن هذه الوجوه بأن هذا قول الشيطان فلا يجوز التمسك به.

وأجاب الخصم عنه: بأنه لو كان هذا القول منه باطلاً لبين الله بطلانه وأظهر إنكاره، وأيضًا فلا

فائدة في ذلك اليوم في ذكر هذا الكلام الباطل والقول الفاسد. ألا ترى أن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ كلام حق وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ قول حق بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن الشيطان الأصلي هو النفس، وذلك لأن الشيطان بين أنه ما أتى إلا بالوسوسة، فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة والغضب والوهم والخيال لم يكن لوسوسته تأثير ألبتة، فدل هذا على أن الشيطان الأصلي هو النفس.

فإن قال قائل: بينوا لنا حقيقة الوسوسة.

قلنا: الفعل إنما يصدر عن الإنسان عند حصول أمور أربعة يترتب بعضها على البعض ترتيبًا لازمًا طبيعيًا وبيانه أن أعضاء الإنسان بحكم السلامة الأصلية والصلاحية الطبيعية صالحة للفعل والترك، والإقدام والإحجام، فما لم يحصل في القلب ميل إلى ترجيح الفعل على الترك أو بالعكس فإنه يمتنع صدور الفعل، وذلك الميل هو الإرادة الجازمة، والقصد الجازم. ثم إن تلك الإرادة الجازمة لا تحصل إلا عند حصول علم أو اعتقاد أو ظن بأن ذلك الفعل سبب للنفع أو سبب للضرر فإن لم يحصل فيه هذا الإعتقاد لم يحصل الميل لا إلى الفعل ولا إلى الترك، فالحاصل أن الإنسان إذا أحس بشيء ترتب عليه شعوره بكونه ملائمًا له أو بكونه منافرًا له أو بكونه غير ملائم ولا منافر، فإن حصل الشعور بكونه ملائمًا له ترتب عليه الميل الجازم إلى الفعل وإن حصل الشعور بكونه منافرًا له ترتب عليه الميل الجازم إلى الترك، وإن لم يحصل لا هذا ولا ذاك لم يحصل الميل لا إلى ذلك الشيء ولا إلى ضده، بل بقي الإنسان كما كان، وعند حصول ذلك الميل الجازم تصير القدرة مع ذلك الميل موجبة للفعل.

إذا عرفت هذا فنقول: صدور الفعل عن مجموع القدرة والداعي الحاصل أمر واجب فلا يكون للشيطان مدخل فيه وصدور الميل عن تصور كونه خيرًا أو تصور كونه شرًا أمر واجب فلا يكون للشيطان فيه مدخل وحصول كونه خيرًا أو تصورًا كونه شرًا عن مطلق الشعور بذاته أمر لازم فلا مدخل للشيطان فيه، فلم يبق للشيطان مدخل في شيء من هذه المقامات إلا في أن يذكره شيئًا بأن يلقي إليه حديثه مثل أن الإنسان كان غافلاً عن صورة امرأة فيلقي الشيطان حديثها في خاطره فالشيطان لا قدرة له إلا في هذا المقام، وهو عين ما حكى الله تعالى عنه أنه قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى﴾ يعني ما كان مني إلا مجرد هذه الدعوة فأما بقية المراتب فما صدرت مني وما كان لي فيها أثر ألبتة. بقي في هذا المقام سؤالان:

السؤال الأول: كيف يعقل تمكن الشيطان من النفوذ في داخل أعضاء الإنسان وإلقاء الوسوسة إليه.

والجواب: للناس في الملائكة والشياطين قولان:

القول الأول: أن ما سوى الله بحسب القسمة العقلية على أقسام ثلاثة: المتحيز، والحال في

المتحيز، والذي لا يكون متحيزًا ولا حالاً فيه، وهذا القسم الثالث لم يقم الدليل ألبتة على فساد القول به بل الدلائل الكثيرة قامت على صحة القول به، وهذا هو المسمى بالأرواح فهذه الأرواح إن كانت طاهرة مقدسة من عالم الروحانيات القدسية فهم الملائكة وإن كانت خبيثة داعية إلى الشرور وعالم الأجساد ومنازل الظلمات فهم الشياطين.

إذا عرفت هذا فنقول: فعلى هذا التقدير الشيطان لا يكون جسمًا يحتاج إلى الولوج في داخل البدن بل هو جوهر روحاني خبيث الفعل مجبول على الشر، والنفس الإنسانية أيضًا كذلك فلا يبعد على هذا التقدير في أن يلقى شيء من تلك الأرواح أنواعًا من الوساوس والأباطيل إلى جوهر النفس الإنسانية، وذكر بعض العلماء في هذا الباب احتمالاً ثانيًا، وهو أن النفوس الناطقة البشرية مختلفة بالنوع، فهي طوائف، وكل طائفة منها في تدبير روح من الأرواح السماوية بعينها، فنوع من النفوس البشرية تكون حسنة الأخلاق كريمة الأفعال موصوفة بالفرح والبشر وسهولة الأمر، وهي تكون منتسبة إلى روح معين من الأرواح السماوية، وطائفة أخرى منها تكون موصوفة بالحدة والقوة والغلظة، وعدم المبالاة بأمر من الأمور، وهي تكون منتسبة إلى روح آخر من الأرواح السماوية وهذه الأرواح البشرية كالأولاد لذلك الروح السماوي وكالنتائج الحاصلة، وكالفروع المتفرعة عليها، وذلك الروح السماوي هو الذي يتولى إرشادها إلى مصالحها، وهو الذي يخصها بالإلهامات حالتي النوم واليقظة. والقدماء كانوا يسمون ذلك الروح السماوي بالطباع التام ولا شك أن لذلك الروح السماوي الذي هو الأصل والينبوع شعبًا كثيرة ونتائج كثيرة وهي بأسرها تكون من جنس روح هذا الإنسان وهي لأجل مشاكلتها ومجانستها يعين بعضها بعضًا على الأعمال اللائقة بها والأفعال المناسبة لطبائعها، ثم إنها إن كانت خيرة طاهرة طيبة كانت ملائكة وكانت تلك الإعانة مسماة بالإلهام. وإن كانت شريرة خبيثة قبيحة الأعمال كانت شياطين وكانت تلك الإعانة مسماة بالوسوسة، وذكر بعض العلماء أيضًا فيه احتمالاً ثالثًا، وهو أن النفوس البشرية والأرواح الإنسانية إذا فارقت أبدانها قويت في تلك الصفات التي اكتسبتها في تلك الأبدان وكملت فيها فإذا حدثت نفس أخرى مشاكلة لتلك النفس المفارقة في بدن مشاكل لبدن تلك النفس المفارقة حدث بين تلك النفس المفارقة وبين هذا البدن نوع تعلق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما كان بدنًا لتلك النفس المفارقة، فيصير لتلك النفس المفارقة تعلق شديد بهذا البدن وتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن، ومعاضدة لها على أفعالها وأحوالها بسبب هذه المشاكلة ثم إن كان هذا المعنى في أبواب الخير والبركات كان ذلك إلهامًا وإن كان في باب الشر كان وسوسة فهذه وجوه محتملة تفريعًا على القول بإثبات جواهر قدسية مبرأة عن الجسمية والتحيز، والقول بالأرواح الطاهرة والخبيثة كلام مشهور عند قدماء الفلاسفة فليس لهم أن ينكروا إثباتها على صاحب شريعتنا محمد ﷺ.

وأما القول الثاني: وهو أن الملائكة والشياطين لا بد وأن تكون أجسامًا فنقول: إن على هذا التقدير يمتنع أن يقال إنها أجسام كثيفة، بل لا بد من القول بأنها أجسام لطيفة والله سبحانه ركبها تركيبًا عجيبًا وهي أن تكون مع لطافتها لا تقبل التفرق والتمزق والفساد والبطلان ونفوذ الأجرام اللطيفة في عمق الأجرام الكثيفة غير مستبعد ألا ترى أن الروح الإنسانية جسم لطيف، ثم إنه نفذ في داخل عمق البدن فإذا عقل ذلك فكيف يستبعد نفوذ أنواع كثيرة من الأجسام اللطيفة في داخل هذا البدن، أليس أن جرم النار يسري في جرم الفحم، وماء الورد يسري في ورق الورد، ودهن السمسم يجري في جسم السمسم فكذا ههنا، فظهر بما قررنا أن القول بإثبات الجن والشياطين أمر لا تحيله العقول ولا تبطله الدلائل، وأن الإصرار على الإنكار ليس إلا من نتيجة الجهل وقلة الفطنة، ولما ثبت أن القول بالشياطين ممكن في الجملة فنقول: الأحق والأولى أن يقال: الملائكة على هذا القول مخلوقون من النور، والشياطين مخلوقون من الدخان واللهب، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧] وهذا الكلام من المشهورات عند قدماء الفلاسفة، فكيف يليق بالعاقل أن يستبعده من صاحب شريعتنا محمد ﷺ.

السؤال الثاني: لم قال الشيطان: ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ وهو أيضًا ملوم بسبب اقدامه على تلك الوسوسة الباطلة.

والجواب: أراد بذلك فلا تلوموني على ما فعلتم ولوموا أنفسكم عليه، لأنكم عدلتم عما توجبه هداية الله تعالى لكم. ثم قال الله تعالى حكاية عن الشيطان أنه قال: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال ابن عباس: بمغيثكم ولا منقذكم، قال ابن الأعرابي: الصارخ المستغيث والمصرخ المغيث. يقال: صرخ فلان إذا استغاث وقال: واغوثاه أصرخته أغثته.

المسألة الثانية: قرأ حمزة: بمصرخي بكسر الياء. قال الواحدي: وهي قراءة الأعمش ويحيى بن وثاب. قال الفراء: ولعلها من وهم القراء فإنه قل من سلم منهم عن الوهم ولعله ظن أن الباء في قوله ﴿بِمُصْرِخِىَّ﴾ خافضة لجملة هذه الكلمة وهذا خطأ لأن الياء من المتكلم خارجة من ذلك قال، ومما نرى أنهم وهموا فيه قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥] بجزم الهاء ظنوا والله أعلم أن الجزم في الهاء وهو خطأ، لأن الهاء في موضع نصب وقد انجزم الفعل قبلها بسقوط الياء منه، ومن النحويين من تكلف في ذكر وجه لصحته إلا أن الأكثرين قالوا إنه لحن، والله أعلم.

ثم قال تعالى حكاية عنه: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: (ما) في قوله: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

فيه قولان:

الأول:إنها مصدرية والمعنى: كفرت بإشراككم إياي مع الله تعالى في الطاعة، والمعنى: أنه جحد ما كان يعتقده أولئك الأتباع من كون إبليس شريكًا لله تعالى في تدبير هذا العالم وكفر به، أو يكون المعنى أنهم كانوا يطيعون الشيطان في أعمال الشر كما كانوا قد يطيعون الله في أعمال الخير وهذا هو المراد بالإشراك.

والثاني:وهو قول الفراء أن المعنى أن إبليس قال: إني كفرت بالله الذي أشركتموني به من قبل كفركم، والمعنى: أنه كان كفره قبل كفر أولئك الأتباع ويكون المراد بقوله: (ما) في هذا الموضع (من) والقول هو الأول، لأن الكلام إنما ينتظم بالتفسير الأول، ويمكن أن يقال أيضًا الكلام منتظم على التفسير الثاني، والتقدير كأنه يقول: لا تأثير لوسوستي في كفركم بدليل أني كفرت قبل أن وقعتم في الكفر وما كان كفري بسبب وسوسة أخرى وإلا لزم التسلسل فثبت بهذا أن سبب الوقوع في الكفر شيء آخر سوى الوسوسة، وعلى هذا التقدير ينتظم الكلام.

أما قوله:﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالأظهر أنه كلام الله عز وجل وأن كلام إبليس تم قبل هذا الكلام، ولا يبعد أيضًا أن يكون ذلك من بقية كلام إبليس قطعًا لأطماع أولئك الكفار عن الإعانة والإغاثة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بالغ في شرح أحوال الأشقياء من الوجوه الكثيرة، شرح أحوال السعداء، وقد عرفت أن الثواب يجب أن يكون منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم، فالمنفعة الخالصة إليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وكونها دائمة أشير إليه بقوله: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ والتعظيم حصل من وجهين: أحدهما: أن تلك المنافع إنما حصلت بإذن الله تعالى وأمره. والثاني: قوله: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ لأن بعضهم يحيي بعضًا بهذه الكلمة، والملائكة يحيونهم بها كما قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]والرب الرحيم يحييهم أيضًا بهذه الكلمة كما قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

واعلم أن السلام مشتق من السلامة وإلا ظهر أن المراد أنهم سلموا من آفات الدنيا وحسراتها أو فنون آلامها وأسقامها، وأنواع غمومها وهمومها، وما أصدق ما قالوا، فإن السلامة من محن عالم الأجسام الكائنة الفاسدة من أعظم النعم، لا سيما إذا حصل بعد الخلاص منها الفوز بالبهجة الروحانية والسعادة الملكية.

المسألة الثانية: قرأ الحسن: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ على معنى وأدخلهم أنا، وعلى هذه القراءة فقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بما بعده، أي تحيتهم فيها سلام بإذن ربهم. يعني: أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال الأشقياء وأحوال السعداء، ذكر مثالاً يبين الحال في حكم هذين القسمين، وهو هذا المثل.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى ذكر شجرة موصوفة بصفات أربعة ثم شبه الكلمة الطيبة بها.

فالصفة الأولى: لتلك الشجرة كونها طيبة، وذلك يحتمل أمورًا.

أحدها: كونها طيبة المنظر والصورة والشكل.

وثانيها: كونها طيبة الرائحة.

وثالثها: كونها طيبة الثمرة يعني أن الفواكه المتولدة منها تكون لذيذة مستطابة.

ورابعها: كونها طيبة بحسب المنفعة يعني أنها كما يستلذ بأكلها فكذلك يعظم الانتفاع بها، ويجب حمل قوله: شجرة طيبة، على مجموع هذه الوجوه لأن اجتماعها يحصل كمال الطيب.

والصفة الثانية: قوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي راسخ باق آمن الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء وذلك لأن الشيء الطيب إذا كان في معرض الانقراض والانقضاء، فهو وإن كان يحصل الفرح بسبب وجدانه إلا أنه يعظم الحزن بسبب الخوف من زواله وانقضائه، أما إذا علم من حاله أنه باق دائم لا يزول ولا ينقضي فإنه يعظم الفرح بوجدانه ويكمل السرور بسبب الفوز به.

والصفة الثالثة: قوله: ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهذا الوصف يدل على كمال حال تلك الشجرة من وجهين: الأول: أن ارتفاع الأغصان وقوتها في التصاعد يدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق. والثاني: أنها متى كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية فكانت ثمراتها نقية ظاهرة طيبة عن جميع الشوائب.

والصفة الرابعة: قوله: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ والمراد: أن الشجرة المذكورة كانت موصوفة بهذه الصفة، وهي أن ثمرتها لا بد أن تكون حاضرة دائمة في كل الأوقات، ولا تكون مثل الأشجار التي يكون ثمارها حاضرًا في بعض الأوقات دون بعض، فهذا شرح هذه الشجرة

التي ذكرها الله تعالى في هذا الكتاب الكريم ومن المعلوم بالضرورة أن الرغبة في تحصيل مثل هذه الشجرة يجب أن تكون عظيمة، وأن العاقل متى أمكنه تحصيلها وتملكها فإنه لايجوز له أن يتغافل عنها وأن يتساهل في الفوز بها.

إذا عرفت هذا فنقول: معرفة الله تعالى والاستغراق في محبته وفي خدمته وطاعته، تشبه هذه الشجرة في هذه الصفات الأربع.

أما الصفة الأولى: وهي كونها طيبة فهي حاصلة، بل نقول: لا طيب ولا لذيذ في الحقيقة إلا هذه المعرفة وذلك لأن اللذة الحاصلة بتناول الفاكهة المعينة إنما حصلت، لأن إدراك تلك الفاكهة أمر ملائم لمزاج البدن، فلأجل حصول تلك الملاءمة والمناسبة حصلت تلك اللذة العظيمة وههنا الملائم لجوهر النفس النطقية والروح القدسية، ليس إلا معرفة الله تعالى ومحبته والاستغراق في الابتهاج به فوجب أن تكون هذه المعرفة لذيذة جدًا، بل نقول: اللذة الحاصلة من إدراك الفاكهة يجب أن تكون أقل حالاً من اللذة الحاصلة بسبب إشراق جوهر النفس بمعرفة الله وبيان هذا التفاوت من وجوه:

الوجه الأول: أن المدركات المحسوسة إنما تصير مدركة بسبب أن سطح الحاس يلاقي سطح المحسوس فقط، فأما أن يقال إن جوهر المحسوس نفذ في جوهر الحاس فليس الأمر كذلك، لأن الأجسام يمتنع تداخلها أما ههنا فمعرفة الله تعالى وذلك النور وذلك الإشراق صار ساريًا في جوهر النفس متحدًا به وكأن النفس عند حصول ذلك الإشراق تصير غير النفس التي كانت قبل حصول ذلك الإشراق فهذا فرق عظيم بين البابين.

والوجه الثاني: في الفرق أن في الالتذاذ بالفاكهة المدرك هو القوة الذائقة، والمحسوس هو الطعم المخصوص وههنا المدرك هو جوهر النفس القدسية، والمعلوم والمشعور به هو ذات الحق جل جلاله، وصفات جلاله وإكرامه، فوجب أن تكون نسبة إحدى اللذتين إلى الأخرى كنسبة أحد المدركين إلى الآخر.

الوجه الثالث: في الفرق أن اللذات الحاصلة بتناول الفاكهة الطيبة كلما حصلت زالت في الحال، لأنها كيفية سريعة الاستحالة شديدة التغير، أما كمال الحق وجلاله فإنه ممتنع التغير والتبدل واستعداد جوهر النفس لقبول تلك السعادة أيضًا ممتنع التغير، فظهر الفرق العظيم من هذا الوجه.

واعلم أن الفرق بين النوعين يقرب أن يكون من وجوه غير متناهية فليكتف بهذه الوجوه الثلاثة تنبيهًا للعقل السليم على سائرها. وأما الصفة الثانية وهي كون هذه الشجرة ثابتة الأصل، فهذه الصفة في شجرة معرفة الله تعالى أقوى وأكمل، وذلك لأن عروق هذه الشجرة راسخة في جوهر النفس القدسية، وهذا الجوهر جوهر مجرد عن الكون والفساد بعيد عن التغير والفناء، وأيضًا مدد هذا الرسوخ إنما هو من تجلي جلال الله تعالى، وهذا التجلي من لوازم كونه سبحانه

في ذاته نور النور ومبدأ الظهور، وذلك مما يمتنع عقلاً زواله لأنه سبحانه واجب الوجود لذاته، وواجب الوجود في جميع صفاته والتغير والفناء والتبدل والزوال والبخل والمنع محال في حقه، فثبت أن الشجرة الموصوفة بكونها ثابتة الأصل ليست إلا هذه الشجرة.

الصفة الثالثة: لهذه الشجرة كونها بحيث يكون فرعها في السماء.

واعلم أن شجرة المعرفة لها أغصان صاعدة في هواء العالم الإلهي وأغصان صاعدة في هواء العالم الجسماني.

وأما النوع الأول: فهي أقسام كثيرة ويجمعها قوله عليه السلام: «**التَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ**» ويدخل فيه التأمل في دلائل معرفة الله تعالى في عالم الأرواح، وفي عالم الأجسام، وفي أحوال عالم الأفلاك والكواكب، وفي أحوال العالم السفلي، ويدخل فيه محبة الله تعالى والشوق إلى الله تعالى والمواظبة على ذكر الله تعالى والاعتماد بالكلية على الله تعالى، والانقطاع بالكلية عما سوى الله تعالى والاستقصاء في ذكر هذه الأقسام غير مطموع فيه لأنها أحوال غير متناهية.

وأما النوع الثاني: فهي أقسام كثيرة ويجمعها قوله عليه السلام: «**وَالشَّفَقَةُ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ**» ويدخل فيه الرحمة والرأفة والصفح والتجاوز عن الذنوب، والسعي في إيصال الخير إليهم، ودفع الشر عنهم، ومقابلة الإساءة بالإحسان. وهذه الأقسام أيضًا غير متناهية وهي فروع ثابتة من شجرة معرفة الله تعالى فإن الإنسان كلما كان أكثر توغلاً في معرفة الله تعالى كانت هذه الأحوال عنده أكمل وأقوى وأفضل.

وأما الصفة الرابعة: فهي قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ ﴾ فهذه الشجرة أولى بهذه الصفة من الأشجار الجسمانية، لأن شجرة المعرفة موجبة لهذه الأحوال ومؤثرة في حصولها والسبب لا ينفك عن المسبب فأثر رسوخ شجرة المعرفة في أرض القلب أن يكون نظره بالعبرة كما قال: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] وأن يكون سماعه بالحكمة كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ [الزمر: ١٨] ونطقه بالصدق والصواب كما قال: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النساء: ١٣٥] وقال عليه السلام: «**قُولُوا الْحَقَّ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ**» وهذا الإنسان كلما كان رسوخ شجرة المعرفة في أرض قلبه أقوى وأكمل، كان ظهور هذه الآثار عنده أكثر، وربما توغل في هذا الباب فيصير بحيث كلما لاحظ شيئًا لاحظ الحق فيه، وربما عظم ترقيه فيه فيصير لا يرى شيئًا إلا وقد كان قد رأى الله تعالى قبله. فهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ ﴾ وأيضًا فما ذكرناه إشارة إلى الإلهامات النفسانية والملكات الروحانية التي تحصل في جواهر الأرواح، ثم لا يزال يصعد منها في كل حين ولحظة ولمحة كلام طيب وعمل صالح وخضوع وخشوع وبكاء وتذلل، كثمرة هذه الشجرة.

وأما قوله: ﴿ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ ﴾ ففيه دقيقة عجيبة، وذلك لأن عند حصول هذه الأحوال السنية،

والدرجات العالية، قد يفرح الإنسان بها من حيث هي هي، وقد يترقى فلا يفرح بها من حيث هي هي، وإنما يفرح بها من حيث إنها من المولى، وعند ذلك فيكون فرحه في الحقيقة بالمولى لا بهذه الأحوال، ولذلك قال بعض المحققين: من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالفاني، ومن آثر العرفان لا للعرفان، بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول، فقد ظهر بهذا التقرير الذي شرحناه والبيان الذي فصلناه أن هذا المثال الذي ذكره الله تعالى في هذا الكتاب مثال هادٍ إلى عالم القدس، وحضرة الجلال، وسرادقات الكبرياء، فنسأل الله تعالى مزيد الاهتداء والرحمة إنه سميع مجيب، وذكر بعضهم في تقرير هذا المثال كلامًا لا بأس به، فقال: إنما مثل الله سبحانه وتعالى الإيمان بالشجرة، لأن الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة، إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل قائم، وأغصان عالية. كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: معرفة في القلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان، والله أعلم.

المسألة الثانية: قال صاحب الكشاف: في نصب قوله: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وجهان:

الأول: أنه منصوب بمضمر والتقدير: جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة، وهو تفسير لقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾.

الثاني: قال ويجوز أن ينتصب مثلاً. وكلمة بضرب، أي ضرب كلمة طيبة مثلاً بمعنى جعلها مثلاً، وقوله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هي كشجرة طيبة. الثالث: قال صاحب (حل العقد) أظن أن الأوجه أن يجعل قوله: ﴿كَلِمَةٍ﴾ عطف بيان، والكاف في قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ في محل النصب بمعنى مثل شجرة طيبة.

المسألة الثالثة: قال ابن عباس: الكلمة الطيبة هي قول لا إله إلا الله، والشجرة الطيبة هي النخلة في قول الأكثرين. وقال صاحب (الكشاف): إنها كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمان، وأراد بشجرة طيبة الثمرة، إلا أنه لم يذكرها لدلالة الكلام عليها أصلها، أي أصل هذه الشجرة الطيبة ثابت، وفرعها أي أعلاها في السماء، والمراد الهواء لأن كل ما سماك وعلاك فهو سماء ﴿تُؤْتِي﴾ أي هذه الشجرة ﴿أُكُلَهَا﴾ أي ثمرها وما يؤكل منها كل حين، واختلفوا في تفسير هذا الحين فقال ابن عباس ستة أشهر، لأن بين حملها إلى صرامها ستة أشهر، جاء رجل إلى ابن عباس فقال: نذرت أن لا أكلم أخي حتى حين، فقال: الحين ستة أشهر، وتلا قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ وقال مجاهد وابن زيد: سنة، لأن الشجرة من العام إلى العام تحمل الثمرة. وقال سعيد بن المسيب: شهران، لأن مدة إطعام النخلة شهران. وقال الزجاج: جميع من شاهدنا من أهل اللغة يذهبون إلى أن الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أم قصرت، والمراد من قوله: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ أنه ينتفع بها في كل وقت وفي كل ساعة ليلاً أو نهارًا أو شتاء أو صيفًا. قالوا: والسبب فيه أن النخلة إذا تركوا عليها الثمر من السنة إلى السنة انتفعوا بها في جميع أوقات السنة. وأقول: هؤلاء وإن أصابوا في

البحث عن مفردات ألفاظ الآية، إلا أنهم بعدوا عن إدراك المقصود، لأنه تعالى وصف هذه الشجرة بالصفات المذكورة، ولا حاجة بنا إلى أن تلك الشجرة هي النخلة أم غيرها، فإنا نعلم بالضرورة أن الشجرة الموصوفة بالصفات الأربع المذكورة شجرة شريفة ينبغي لكل عاقل أن يسعى في تحصيلها وتملكها لنفسه، سواء كان لها وجود في الدنيا أو لم يكن، لأن هذه الصفة أمر مطلوب التحصيل، واختلافهم في تفسير الحين أيضًا من هذا الباب، والله أعلم بالأمور.

ثم قال: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ والمعنى: أن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني، وذلك لأن المعاني العقلية المحضة لا يقبلها الحس والخيال والوهم، فإذا ذكر ما يساويها من المحسوسات ترك الحس والخيال والوهم تلك المنازعة وانطبق المعقول على المحسوس وحصل به الفهم التام والوصول إلى المطلوب.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

فاعلم أن الشجرة الخبيثة هي الجهل بالله، فإنه أول الآفات وعنوان المخافات ورأس الشقاوات ثم إنه تعالى شبهها بشجرة موصوفة بصفات ثلاثة:

الصفة الأولى: أنها تكون خبيثة فمنهم من قال إنها الثوم، لأنه ﷺ وصف الثوم بأنها شجرة خبيثة[1]، وقيل: إنها الكراث. وقيل: إنها شجرة الحنظل لكثرة ما فيها من المضار وقيل: إنها شجرة الشوك.

واعلم أن هذا التفصيل لا حاجة إليه، فإن الشجرة قد تكون خبيثة بحسب الرائحة وقد تكون بحسب الطعم، وقد تكون بحسب الصورة والمنظر وقد تكون بحسب اشتمالها على المضار الكثيرة والشجرة الجامعة لكل هذه الصفات وإن لم تكن موجودة، إلا أنها لما كانت معلومة الصفة كان التشبيه بها نافعًا في المطلوب.

والصفة الثانية: قوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ وهذه الصفة في مقابلة قوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ ومعنى اجتثت استؤصلت وحقيقة الإجتثاث أخذ الجثة كلها، وقوله: ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: ليس لها أصل ولا عرق، فكذلك الشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة.

والصفة الثالثة: قوله ما لها من قرار، وهذه الصفة كالمتممة للصفة الثانية، والمعنى أنه ليس لها استقرار. يقال: قر الشيء قرارًا كقولك: ثبت ثباتًا، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت.

واعلم أن هذا المثال في صفة الكلمة الخبيثة في غاية الكمال، وذلك لأنه تعالى بين كونها موصوفة بالمضار الكثيرة، وخالية عن كل المنافع أما كونها موصوفة بالمضار فإليه الإشارة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأذان) باب (ما جاء في الثوم النيىء والبصل) (٢/ ٣٩٤) حديث رقم/ ٨٥٣، ومسلم في كتاب (المساجد ومواضع الصلاة) باب (نهي من أكل ثوماً أو بصلاً) (١/ ٦٨/ ٣٩٣) كلاهما من طريق يحي . . . به.

بقوله: ﴿خَبِيثَةٍ﴾ وأما كونها خالية عن كل المنافع فإليه الإشارة بقوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن صفة الكلمة الطيبة أن يكون أصلها ثابتًا، وصفة الكلمة الخبيثة أن لا يكون لها أصل ثابت بل تكون منقطعة ولا يكون لها قرار ذكر أن ذلك القول الثابت الصادر عنهم في الحياة الدنيا يوجب ثبات كرامة الله لهم، وثبات ثوابه عليهم، والمقصود: بيان أن الثبات في المعرفة والطاعة يوجب الثبات في الثواب والكرامة من الله تعالى فقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ أي على الثواب والكرامة، وقوله: ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي بالقول الثابت الذي كان يصدر عنهم حال ما كانوا في الحياة الدنيا.

ثم قال: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يعني كما أن الكلمة الخبيثة ما كان لها أصل ثابت ولا فرع باسق فكذلك أصحاب الكلمة الخبيثة وهم الظالمون يضلهم الله عن كراماته ويمنعهم عن الفوز بثوابه وفي الآية قول آخر وهو القول المشهور أن هذه الآية وردت في سؤال الملكين في القبر، وتلقين الله المؤمن كلمة الحق في القبر عند السؤال وتثبيته إياه على الحق. وعن النبي ﷺ أنه قال في قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قال: «حِينَ يُقَالُ لَهُ فِي الْقَبْرِ مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمِنْ نَبِيُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ وَدِينَيَ الْإِسْلَامُ ونبي محمد ﷺ»(١) والمراد من الباء في قوله: ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ هو أن الله تعالى إنما يثبتهم في القبر بسبب مواظبتهم في الحياة الدنيا على هذا القول، ولهذا الكلام تقرير عقلي وهو أنه كلما كانت المواظبة على الفعل أكثر كان رسوخ تلك الحالة في العقل والقلب أقوى، فكلما كانت مواظبة العبد على ذكر لا إله إلا الله وعلى التأمل في حقائقها ودقائقها أكمل وأتم كان رسوخ هذه المعرفة في عقله وقلبه بعد الموت أقوى وأكمل. قال ابن عباس: من داوم على الشهادة في الحياة الدنيا يثبته الله عليها في قبره ويلقنه إياها وإنما فسر الآخرة ههنا بالقبر، لأن الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا ودخل في أحكام الآخرة وقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يعني أن الكفار إذا سئلوا في قبورهم قالوا: لا ندري وإنما قال ذلك لأن الله أضله وقوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني إن شاء هدى وإن شاء أضل ولا اعتراض عليه في فعله ألبتة.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (السنة) باب (في المسألة في القبر وعذاب القبر) (٤/ ٢٠٣٠) حديث رقم/ ٤٧٥٣، وابن ماجه في كتاب (الجنائز) باب (ما جاء في الجلوس على المقابر) (١/ ٤٩٤) حديث رقم/ ١٥٤٨، والنسائي في كتاب (الجنائز) باب (الوقوف للجنائز) (٤/ ٣٨١) حديث رقم/ ٢٠٠٠، والإمام أحمد في (مسنده) (٤/ ٢٨٧)، من طريق المنهال بن عمرو... به.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى عاد إلى وصف أحوال الكفار في هذه الآية فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ نزل في أهل مكة حيث أسكنهم الله تعالى حرمه الآمن وجعل عيشهم في السعة وبعث فيهم محمدًا ﷺ فلم يعرفوا قدر هذه النعمة، ثم إنه تعالى حكى عنهم أنواعًا من الأعمال القبيحة.

النوع الأول: قوله: ﴿بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾.

وفيه وجوه:

الأول: يجوز أن يكون بدلوا شكر نعمة الله كفرًا، لأنه لما وجب عليهم الشكر بسبب تلك النعمة أتوا بالكفر، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلاً.

والثاني: أنهم بدلوا نفس نعمة الله كفرًا لأنهم لما كفروا سلب الله تلك النعمة عنهم فبقي الكفر معهم بدلاً من النعمة. الثالث: أنه تعالى أنعم عليهم بالرسول والقرآن فاختاروا الكفر على الإيمان.

والنوع الثاني: ما حكى الله تعالى عنهم قوله: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ وهو الهلاك يقال رجل بائر وقوم بور، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾[الفتح: ١٢] وأراد بدار البوار جهنم بدليل أنه فسرها بجهنم فقال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي المقر وهو مصدر سمي به.

النوع الثالث: من أعمالهم القبيحة قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم بدلوا نعمة الله كفرًا ذكر أنهم بعد أن كفروا بالله جعلوا له أندادًا، والمراد من هذا الجعل الحكم والاعتقاد والقول، والمراد من الأنداد الأشباه والشركاء، وهذا الشريك يحتمل وجوهًا: أحدها: أنهم جعلوا للأصنام حظًا فيما أنعم الله به عليهم نحو قولهم هذا لله وهذا لشركائنا. وثانيها: أنهم شركوا بين الأصنام وبين خالق العالم في العبودية. وثالثها: أنهم كانوا يصرحون بإثبات الشركاء لله وهو قولهم في الحج لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿لِيَضِلُّواْ﴾ بفتح الياء من ضل يضل والباقون بضم الياء من أضل غيره يضل.

المسألة الثالثة: اللام في قوله: ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ لام العاقبة لأن عبادة الأوثان سبب

يؤدي إلى الضلال ويحتمل أن تكون لام كي، أي الذين اتخذوا الوثن كي يضلوا غيرهم هذا إذا قرئ بالضم فإنه يحتمل الوجهين، وإذا قرئ بالنصب فلا يحتمل إلا لام العاقبة لأنهم لم يريدوا ضلال أنفسهم. وتحقيق القول في لام العاقبة أن المقصود من الشيء لا يحصل إلا في آخر المراتب كما قيل أول الفكر آخر العمل. وكل ما حصل في العاقبة كان شبيهًا بالأمر المقصود في هذا المعنى، والمشابهة أحد الأمور المصححة لحسن المجاز، فلهذا السبب حسن ذكر اللام في العاقبة، ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الأنواع الثلاثة من الأعمال القبيحة قال: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ والمراد أن حال الكافر في الدنيا كيف كانت، فإنها بالنسبة إلى ما سيصل إليه من العقاب في الآخرة تمتع ونعيم، فلهذا المعنى قال: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ وأيضًا إن هذا الخطاب مع الذين حكى الله عنهم أنهم بدلوا نعمة الله كفرًا، فأولئك كانوا في الدنيا في نعم كثيرة فلا جرم حسن قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ وهذا الأمر يسمى أمر التهديد ونظيره قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]وكقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]

قوله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا، أمر المؤمنين في هذه الآية بترك التمتع بالدنيا والمبالغة في المجاهدة بالنفس والمال.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي ﴿ لِعِبَادِي﴾ بسكون الياء، والباقون: بفتح الياء لالتقاء الساكنين فحرك إلى النصب.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿ يُقِيمُوا﴾ وجهان: الأول: يجوز أن يكون جوابًا لأمر محذوف هو المقول تقديره: قل لعبادي الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا. الثاني: يجوز أن يكون هو أمرًا مقولاً محذوفًا منه لام الأمر، أي ليقيموا كقولك: قل لزيد ليضرب عمرًا وإنما جاز حذف اللام، لأن قوله: ﴿ قُلْ﴾ عوض منه ولو قيل ابتداء يقيموا الصلاة لم يجز.

المسألة الثالثة: أن الإنسان بعد الفراغ من الإيمان لا قدرة له على التصرف في شيء إلا في نفسه أو في ماله. أما النفس فيجب شغلها بخدمة المعبود في الصلاة وأما المال فيجب صرفه إلى البذل في طاعة الله تعالى. فهذه الثلاثة هي الطاعات المعتبرة، وهي الإيمان والصلاة والزكاة وتمام ما يجب أن يقال في هذه الأمور الثلاثة ذكرناه في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة: الآية تدل على أن الرزق لا يكون حرامًا، لأن الآية دلت

على أن الانفاق من الرزق ممدوح، ولا شيء من الانفاق من الحرام بممدوح فينتج أن الرزق ليس بحرام. وقد مر تقرير هذا الكلام مرارًا.

المسألة الخامسة: في انتصاب قوله: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وجوه:

أحدها: أن يكون على الحال أي ذوي سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين.

وثانيها: على الظرف أي وقت سر وعلانية.

وثالثها: على المصدر أي انفاق سر وانفاق علانية والمراد إخفاء التطوع وإعلان الواجب.

واعلم أنه تعالى لما أمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ قال أبو عبيدة: البيع ههنا الفداء والخلال المخالة، وهو مصدر من خاللت خلالاً ومخالة، وهي المصادقة. قال مقاتل: إنما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة، فكأنه تعالى يقول: أنفقوا أموالكم في الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الإنفاق في مثل هذا اليوم الذي لا تحصل فيه مبايعة ولا مخالة. ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾[البقرة: ٢٥٤].

فإن قيل: كيف نفى المخالة في هاتين الآيتين، مع أنه تعالى أثبتها في قوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف: ٦٧].

قلنا: الآية الدالة على نفي المخالة محمولة على نفي المخالة بسبب ميل الطبيعة ورغبة النفس، والآية الدالة على ثبوت المخالة محمولة على حصول المخالة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

اعلم أنه لما أطال الكلام في وصف أحوال السعداء وأحوال الأشقياء، وكانت العمدة العظمى والمنزلة الكبرى في حصول السعادات معرفة الله تعالى بذاته وبصفاته، وفي حصول الشقاوة فقدان هذه المعرفة، لا جرم ختم الله تعالى وصف أحوال السعداء والأشقياء بالدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته، وذكر ههنا عشرة أنواع من الدلائل.

أولها: خلق السموات.

وثانيها: خلق الأرض، وإليهما الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

وثالثها: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

ورابعها: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾.

وخامسها: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾.

وسادسها وسابعها: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾.

وثامنها وتاسعها: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

وعاشرها: قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ وهذه الدلائل العشرة قد مر ذكرها في هذا الكتاب وتقريرها وتفسيرها مرارًا وأطوارًا ولا بأس بأن نذكر ههنا بعض الفوائد. فاعلم أن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ خبره. ثم إنه تعالى بدأ بذكر خلق السموات والأرض، وقد ذكرنا في هذا الكتاب أن السماء والأرض من كم وجه تدل على وجود الصانع الحكيم، وإنما بدأ بذكرهما ههنا لأنهما هما الأصلان اللذان يتفرع عليهما سائر الأدلة المذكورة بعد ذلك فإنه قال بعده: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: لولا السماء لم يصح إنزال الماء منها ولولا الأرض لم يوجد ما يستقر الماء فيه، فظهر أنه لا بد من وجودهما حتى يحصل هذا المقصود وهذا المطلوب.

البحث الثاني: قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وفيه قولان:

الأول: أن الماء نزل من السحاب وسمي السحاب سماء اشتقاقًا من السمو، وهو الارتفاع.

والثاني: أنه تعالى أنزله من نفس السماء وهذا بعيد، لأن الإنسان ربما كان واقفًا على قمة جبل عال ويرى الغيم أسفل منه فإذا نزل من ذلك الجبل يرى ذلك الغيم ماطرًا عليهم وإذا كان هذا أمرًا مشاهدًا بالبصر كان النزاع فيه باطلاً.

البحث الثالث: قال قوم: إنه تعالى أخرج هذه الثمرات بواسطة هذا الماء المنزل من السماء على سبيل العادة، وذلك لأن في هذا المعنى مصلحة للمكلفين، لأنهم إذا علموا أن هذه المنافع القليلة يجب أن تتحمل في تحصيلها المشاق والمتاعب، فالمنافع العظيمة الدائمة في الدار الآخرة أولى أن تتحمل المشاق في طلبها، وإذا كان المرء يترك الراحة واللذات طلبًا لهذه الخيرات الحقيرة، فبأن يترك اللذات الدنيوية ليفوز بثواب الله تعالى ويتخلص عن عقابه أولى. ولهذا السبب لما زال التكليف في الآخرة أنال الله تعالى كل نفس مشتهاها من غير تعب ولا نصب، هذا قول المتكلمين. وقال قوم آخرون: إنه تعالى يحدث الثمار والزروع بواسطة هذا الماء النازل من السماء، والمسألة كلامية محضة، وقد ذكرناه في سورة البقرة.

البحث الرابع: قال أبو مسلم: لفظ ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يقع في الأغلب على ما يحصل على الأشجار، ويقع أيضًا على الزروع والنبات، كقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[الأنعام: ١٤١].

البحث الخامس: قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ والمراد أنه تعالى إنما أخرج هذه الثمرات لأجل أن تكون رزقًا لنا، والمقصود أنه تعالى قصد بتخليق هذه الثمرات إيصال الخير والمنفعة إلى المكلفين، لأن الإحسان لا يكون إحسانًا إلا إذا قصد المحسن بفعله إيصال النفع إلى المحسن إليه.

البحث السادس: قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بيان للرزق، أي أخرج به رزقًا هو ثمرات، ويجوز أن يكون من الثمرات مفعول أخرج ورزقًا حال من المفعول أو نصبًا على المصدر من أخرج لأنه في معنى رزق، والتقدير: ورزق من الثمرات رزقًا لكم.

فأما الحجة الرابعة: وهي قوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢].

ففيها مباحث:

البحث الأول: أن الانتفاع بما ينبت من الأرض إنما يكمل بوجود الفلك الجاري في البحر، وذلك لأنه تعالى خص كل طرف من أطراف الأرض بنوع آخر من أنعمه حتى أن نعمة هذا الطرف إذا نقلت إلى الجانب الآخر من الأرض وبالعكس كثر الربح في التجارات، ثم إن هذا النقل لا يمكن إلا بسفن البر وهي الجمال أو بسفن البحر وهي الفلك المذكور في هذه الآية.

فإن قيل: ما معنى وسخر لكم الفلك مع أن تركيب السفينة من أعمال العباد؟

قلنا: أما على قولنا إن فعل العبد خلق الله تعالى فلا سؤال، وأما على مذهب المعتزلة فقد أجاب القاضي عنه فقال: لولا أنه تعالى خلق الأشجار الصلبة التي منها يمكن تركيب السفن ولولا خلقه للحديد وسائر الآلات ولولا تعريفه العباد كيف يتخذوه ولولا أنه تعالى خلق الماء على صفة السيلان التي باعتبارها يصح جري السفينة، ولولا خلقه تعالى الرياح وخلق الحركات القوية فيها ولولا أنه وسع الأنهار وجعل فيها من العمق ما يجوز جري السفن فيها لما وقع الانتفاع بالسفن فصار لأجل أنه تعالى هو الخالق لهذه الأحوال، وهو المدبر لهذه الأمور والمسخر لها حسنت إضافة السفن إليه.

البحث الثاني: أنه تعالى أضاف ذلك التسخير إلى أمره لأن الملك العظيم قلما يوصف بأنه فعل وإنما يقال فيه إنه أمر بكذا تعظيمًا لشأنه، ومنهم من حمله على ظاهر قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وتحقيق هذا الوجه راجع إلى ما ذكرناه.

البحث الثالث: الفلك من الجمادات فتسخيرها مجاز، والمعنى أنه لما كان يجري على وجه الماء كما يشتهيه الملاح صار كأنه حيوان مسخر له.

الحجة الخامسة: قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ واعلم أن ماء البحر قلما ينتفع به في الزراعات لا جرم ذكر تعالى إنعامه على الخلق بتفجير الأنهار والعيون حتى ينبعث الماء منها إلى مواضع الزرع والنبات، وأيضًا ماء البحر لا يصلح للشرب، والصالح لهذا المهم هو مياه الأنهار.

الحجة السادسة والسابعة: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾.

واعلم أن الانتفاع بالشمس والقمر عظيم، وقد ذكره الله تعالى في آيات منها قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[نوح: ١٦] ومنها قوله: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[الرحمن: ٥] ومنها قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[الفرقان: ٦١] ومنها قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[يونس: ٥] وقوله: ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ معنى الدؤب في اللغة مرور الشيء في العمل على عادة مطردة يقال دأب يدأب دأبًا ودؤبًا وقد ذكرنا هذا في قوله: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾[يوسف: ٤٧] قال المفسرون: قوله: ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ معناه يدأبان في سيرهما وإنارتهما وتأثيرهما في إزالة الظلمة وفي إصلاح النبات والحيوان فإن الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل ولولا الشمس لما حصلت الفصول الأربعة، ولولاها لاختلت مصالح العالم بالكلية وقد ذكرنا منافع الشمس والقمر بالاستقصاء في أول هذا الكتاب.

الحجة الثامنة والتاسعة: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

واعلم أن منافعهما مذكورة في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠، ١١] وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[يونس: ٦٧] قال المتكلمون: تسخير الليل والنهار مجاز لأنهما عرضان، والأعراض لا تسخر.

والحجة العاشرة: قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ ثم إنه تعالى لما ذكر تلك النعمة العظيمة بين بعد ذلك أنه لم يقتصر عليها، بل أعطى عباده من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها التعديد والإحصاء فقال: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ والمفعول محذوف تقديره من كل مسؤول شيئًا، وقرىء: ﴿مِّن كُلٍّ﴾ بالتنوين و ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ نفي ومحله نصب على الحال أي آتاكم من جميع ذلك غير سائليه ويجوز أن تكون (ما) موصولة والتقدير: آتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه النعم ختم الكلام بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ قال الواحدي: النعمة ههنا اسم أقيم مقام المصدر يقال: أنعم الله عليه، ينعم إنعامًا ونعمة أقيم الاسم مقام الإنعام كقوله: أنفقت عليه إنفاقًا ونفقة بمعنى واحد، ولذلك لم يجمع لأنه في معنى المصدر، ومعنى قوله: ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي لا تقدرون على تعديد جميعها لكثرتها.

واعلم أن الإنسان إذا أراد أن يعرف أن الوقوف على أقسام نعم الله ممتنع، فعليه أن يتأمل في شيء واحد ليعرف عجز نفسه عنه ونحن نذكر منه مثالين.

المثال الأول: أن الأطباء ذكروا أن الأعصاب قسمان، منها دماغية ومنها نخاعية. أما الدماغية فإنها سبعة ثم أتعبوا أنفسهم في معرفة الحكم الناشئة من كل واحد من تلك الأرواح السبعة، ثم مما لا شك فيه أن كل واحد من الأرواح السبعة تنقسم إلى شعب كثيرة وكل واحد من تلك الشعب أيضًا إلى شعب دقيقة أدق من الشعر ولكل واحد منها ممر إلى الأعضاء ولو أن شعبة

واحدة اختلت إما بسبب الكمية أو بسبب الكيفية أو بسبب الوضع لاختلت مصالح البنية، ثم إن تلك الشعب الدقيقة تكون كثيرة العدد جدًا، ولكل واحدة منها حكمة مخصوصة، فإذا نظر الإنسان في هذا المعنى عرف أن الله تعالى بحسب كل شظية من تلك الشظايا العصبية على العبد نعمة عظيمة لو فاتت لعظم الضرر عليه وعرف قطعًا أنه لا سبيل له إلى الوقوف عليها والاطلاع على أحوالها وعند هذا يقطع بصحة قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ وكما اعتبرت هذا في الشظايا العصبية فاعتبر مثله في الشرايين والأوردة، وفي كل واحد من الأعضاء البسيطة والمركبة بحسب الكمية والكيفية والوضع والفعل والإنفعال حتى ترى أقسام هذا الباب بحرًا لا ساحل له، وإذا اعتبرت هذا في بدن الإنسان الواحد فاعرف أقسام نعم الله تعالى في نفسه وروحه، فإن عجائب عالم الأرواح أكثر من عجائب عالم الأجساد ثم لما اعتبرت حالة الحيوان الواحد فعند ذلك اعتبر أحوال عالم الأفلاك والكواكب وطبقات العناصر وعجائب البر والبحر والنبات والحيوان وعند هذا تعرف أن عقول جميع الخلائق لو ركبت وجعلت عقلاً واحدًا ثم بذلك العقل يتأمل الإنسان في عجائب حكمة الله تعالى في أقل الأشياء لما أدرك منها إلا القليل، فسبحانه تقدس عن أوهام المتوهمين.

المثال الثاني: أنك إذا أخذت اللقمة الواحدة لتضعها في الفم فانظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها أما الأمور التي قبلها: فاعرف أن تلك اللقمة من الخبز لا تتم ولا تكمل إلا إذا كان هذا العالم بكليته قائمًا على الوجه الأصوب، لأن الحنطة لا بد منها، وأنها لا تنبت إلا معونة الفصول الأربعة، وتركيب الطبائع وظهور الرياح والأمطار، ولا يحصل شيء منها إلا بعد دوران الأفلاك، واتصال بعض الكواكب ببعض على وجوه مخصوصة في الحركات، وفي كيفيتها في الجهة والسرعة والبطء ثم بعد أن تكون الحنطة لا بد من آلات الطحن والخبز، وهي لا تحصل إلا عند تولد الحديد في أرحام الجبال، ثم إن الآلات الحديدية لا يمكن إصلاحها إلا بآلات أخرى حديدية سابقة عليها، ولا بد من انتهائها إلى آلة حديدية هي أول هذه الآلات، فتأمل أنها كيف تكونت على الأشكال المخصوصة، ثم إذا حصلت تلك الآلات فانظر أنه لا بد من اجتماع العناصر الأربعة، وهي الأرض والماء والهواء والنار حتى يمكن طبخ الخبز من ذلك الدقيق. فهذا هو النظر فيما تقدم على حصول هذه اللقمة. وأما النظر فيما بعد حصولها: فتأمل في تركيب بدن الحيوان، وهو أنه تعالى كيف خلق الأبدان حتى يمكنها الانتفاع بتلك اللقمة، وأنه كيف يتضرر الحيوان بالأكل وفي أي الأعضاء تحدث تلك المضار، ولا يمكنك أن تعرف القليل من هذه الأشياء إلا بمعرفة علم التشريح وعلم الطب بالكلية، فظهر بما ذكرنا أن الانتفاع باللقمة الواحدة لا يمكن معرفته إلا بمعرفة جملة الأمور، والعقول قاصرة على إدراك ذرة من هذه المباحث، فظهر بهذا البرهان القاهر صحة قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ ثم إنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ قيل: يظلم النعمة بإغفال شكرها كفار شديد

الكفران لها. وقيل: ظلوم في الشدة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع، والمراد من الإنسان هاهنا: الجنس، يعني أن عادة هذا الجنس هو هذا الذي ذكرناه، وههنا بحثان:

البحث الأول: أن الإنسان مجبول على النسيان وعلى الملالة، فإذا وجد نعمة نسيها في الحال وظلمها بترك شكرها، وإن لم ينسها فإنه في الحال يملها فيقع في كفران النعمة، وأيضًا أن نعم الله كثيرة فمتى حاول التأمل في بعضها غفل عن الباقي.

البحث الثاني: أنه تعالى قال في هذا الموضع: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وقال في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] ولما تأملت فيه لاحت لي فيه دقيقة كأنه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت الذي أخذتها وأنا الذي أعطيتها، فحصل لك عند أخذها وصفان: وهما كونك ظلومًا كفارًا، ولي وصفان عند إعطائها وهما كوني غفورًا رحيمًا، والمقصود كأنه يقول: إن كنت ظلومًا فأنا غفور، وإن كنت كفارًا فأنا رحيم أعلم عجزك وقصورك فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوقير ولا أجازي جفاء إلا بالوفاء، ونسأل الله حسن العاقبة والرحمة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين بالدلائل المتقدمة أنه لا معبود إلا الله سبحانه وأنه لا يجوز عبادة غيره تعالى ألبتة حكى عن إبراهيم عليه السلام مبالغته في إنكار عبادة الأوثان.

واعلم أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه طلب من الله أشياء: أحدها: قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ والمراد: مكة آمنًا ذا أمن.

فإن قيل: أي فرق بين قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] وبين قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾.

قلنا: سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها فلا يخافون، وفي الثاني: أن يزيل عنها الصفة التي كانت حاصلة لها، وهي الخوف، ويحصل لها ضد تلك الصفة وهو الأمن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنًا، وقد تقدم تفسيره في سورة البقرة. وثانيها: قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرىء (واجنبني) وفيه ثلاث لغات جنبه واجنبه وجنبه. قال الفراء: أهل الحجاز يقول جنبني يجنبني بالتخفيف. وأهل نجد يقولون جنبني شره وأجنبني شره، وأصله جعل الشيء عن غيره على جانب وناحية.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: الإشكال على هذه الآية من وجوه: أحدها: أن إبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يجعل مكة آمنًا، وما قبل الله دعاءه، لأن جماعة خربوا الكعبة وأغاروا على مكة. وثانيها: أن الأنبياء عليهم السلام لا يعبدون الوثن ألبتة، وإذا كان كذلك فما الفائدة في قوله أجنبني عن عبادة الأصنام. وثالثها: أنه طلب من الله تعالى أن لا يجعل أبناءه من عبدة الأصنام والله تعالى لم يقبل دعاءه، لأن كفار قريش كانوا من أولاده، مع أنهم كانوا يعبدون الأصنام.

فإن قالوا: إنهم ما كانوا أبناء إبراهيم وإنما كانوا أبناء أبنائه، والدعاء مخصوص بالأبناء، فنقول: فإذا كان المراد من أولئك الأبناء أبناءه من صلبه، وهم ما كانوا إلا إسماعيل وإسحاق، وهما كانا من أكابر الأنبياء وقد علم أن الأنبياء لا يعبدون الصنم، فقد عاد السؤال في أنه ما الفائدة في ذلك الدعاء.

والجواب عن السؤال الأول من وجهين: الأول: أنه نقل أنه عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة ذكر هذا الدعاء، والمراد منه: جعل تلك البلدة آمنة من الخراب. والثاني: أن المراد جعل أهلها آمنين، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وهذا الوجه اتفق عليه أكثر المفسرين، وعلى هذا التقدير فالجواب من وجهين:

الوجه الأول: ما اختصت به مكة من حصول مزيد في الأمن، وهو أن الخائف كان إذا التجأ إلى مكة أمن، وكان الناس مع شدة العداوة بينهم يتلاقون بمكة فلا يخاف بعضهم بعضًا، ومن ذلك أمن الوحش فإنهم يقربون من الناس إذا كانوا بمكة، ويكونون مستوحشين عن الناس خارج مكة، فهذا النوع من الأمن حاصل في مكة فوجب حمل الدعاء عليه.

والوجه الثاني: أن يكون المراد من قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ أي بالأمر والحكم يجعله آمنًا وذلك الأمر والحكم حاصل لا محالة.

والجواب: عن السؤال الثاني قال الزجاج: معناه ثبتني على اجتناب عبادتها كما قال: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] أي ثبتنا على الإسلام.

ولقائل أن يقول السؤال باق لأنه لما كان من المعلوم أنه تعالى يثبت الأنبياء عليهم السلام على الاجتناب من عبادة الأصنام فما الفائدة في هذا السؤال والصحيح عندي في الجواب وجهان:

الأول: أنه عليه السلام وإن كان يعلم أنه تعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أنه ذكر ذلك هضمًا للنفس وإظهارًا للحاجة والفاقة إلى فضل الله في كل المطالب.

والثاني: أن الصوفية يقولون: إن الشرك نوعان: شرك جلي وهو الذي يقول به المشركون، وشرك خفي وهو تعليق القلب بالوسايط وبالأسباب الظاهرة والتوحيد المحض هو أن ينقطع نظره عن الوسايط ولا يرى متصرفًا سوى الحق سبحانه وتعالى فيحتمل أن يكون قوله:

﴿ٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ المراد منه أن يعصمه عن هذا الشرك الخفي والله أعلم بمراده .

والجواب عن السؤال الثالث من وجوه :

الأول: قال صاحب (الكشاف) : قوله ﴿وَبَنِيَّ﴾ أراد بنيه من صلبه والفائدة في هذا الدعاء عين الفائدة التي ذكرناها في قوله : ﴿ٱجۡنُبۡنِي﴾ .

والثاني: قال بعضهم أراد من أولاده وأولاد أولاده كل من كانوا موجودين حال الدعاء ولا شبهة أن دعوته مجابة فيهم .

الثالث: قال مجاهد : لم يعبد أحد من ولد إبراهيم عليه السلام صنمًا ، والصنم هو التمثال المصور وما ليس بمصور فهو وثن . وكفار قريش ما عبدوا التمثال وإنما كانوا يعبدون أحجارًا مخصوصة وأشجارًا مخصوصة ، وهذا الجواب ليس بقوي ، لأنه عليه السلام لا يجوز أن يريد بهذا الدعاء إلا عبادة غير الله تعالى والحجر كالصنم في ذلك .

الرابع: أن هذا الدعاء مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال في آخر الآية : ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فإنه ليس منه ، ونظيره قوله تعالى لنوح : ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾[هود: ٤٦] .

والخامس: لعله وإن كان عمم في الدعاء إلا أن الله تعالى أجاب دعاءه في حق البعض دون البعض ، وذلك لا يوجب تحقير الأنبياء عليهم السلام ، ونظيره قوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام : ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ١٢٤] .

المسألة الثالثة: احتج أصحابنا بقوله : ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ على أن الكفر والإيمان من الله تعالى ، وتقرير الدليل أن إبراهيم عليه السلام طلب من الله أن يجنبه ويجنب أولاده من الكفر فدل ذلك على أن التبعيد من الكفر والتقريب من الإيمان ليس إلا من الله تعالى ، وقول المعتزلة إنه محمول على الألطاف فاسد ، لأنه عدول عن الظاهر ، ولأنا قد ذكرنا وجوهًا كثيرة في إفساد هذا التأويل .

ثم حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ واتفق كل الفرق على أن قوله : ﴿أَضۡلَلۡنَ﴾ مجاز لأنها جمادات ، والجماد لا يفعل شيئًا ألبتة ، إلا أنه لما حصل الإضلال عند عبادتها أضيف إليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم ، أي افتتنوا بها واغتروا بسببها .

ثم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ يعني في ديني واعتقادي فإنه مني ، أي جار مجرى بعضي لفرط اختصاصه بي وقربه مني ومن عصاني في غير الدين فإنك غفور رحيم ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن إبراهيم عليه السلام ذكر هذا الكلام والغرض منه الشفاعة في حق أصحاب الكبائر من أمته ، والدليل عليه أن قوله : ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ صريح في طلب المغفرة والرحمة لأولئك العصاة فنقول : أولئك العصاة إما أن يكونوا من الكفار أو لا يكونوا كذلك ،

والأول باطل من وجهين: الأول: أنه عليه السلام بين في مقدمة هذه الآية أنه مبرأ عن الكفار وهو قوله: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ وأيضًا قوله: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ يدل بمفهومه على أن من لم يتبعه على دينه فإنه ليس منه ولا يهتم باصلاح مهماته. والثاني: أن الأمة مجمعة على أن الشفاعة في إسقاط عقاب الكفر غير جائزة، ولما بطل هذا ثبت أن قوله: ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ شفاعة في العصاة الذين لا يكونون من الكفار.

وإذا ثبت هذا فنقول: تلك المعصية إما أن تكون من الصغائر أو من الكبائر بعد التوبة أو من الكبائر قبل التوبة، والأول والثاني باطلان لأن قوله: ﴿ وَمَنْ عَصَانِي﴾ اللفظ فيه مطلق فتخصيصه بالصغيرة عدول عن الظاهر، وأيضًا فالصغائر والكبائر بعد التوبة واجبة الغفران عند الخصوم فلا يمكن حمل اللفظ عليه، فثبت أن هذه الآية شفاعة في إسقاط العقاب عن أهل الكبائر قبل التوبة، وإذا ثبت حصول هذه الشفاعة في حق إبراهيم عليه السلام ثبت حصولها في حق محمد ﷺ لوجوه: الأول: أنه لا قائل بالفرق. والثاني: وهو أن هذا المنصب أعلى المناصب فلو حصل لإبراهيم عليه السلام مع أنه غير حاصل لمحمد ﷺ لكان ذلك نقصانًا في حق محمد عليه السلام. والثالث: أن محمدًا ﷺ مأمور بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ﴾ [النحل: ١٢٣] فهذا وجه قريب في إثبات الشفاعة لمحمد ﷺ وفي إسقاط العقاب عن أصحاب الكبائر، والله أعلم.

إذا عرفت هذا فلنذكر أقوال المفسرين: قال السدي معناه: ومن عصاني ثم تاب، وقيل: إن هذا الدعاء إنما كان قبل أن يعلم أن الله تعالى لا يغفر الشرك، وقيل من عصاني بإقامته على الكفر فإنك غفور رحيم، يعني أنك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله عن الكفر إلى الإسلام، وقيل المراد من هذه المغفرة أن لا يعاجلهم بالعقاب بل يمهلهم حتى يتوبوا أو يكون المراد أن لا تعجل اخترامهم فتفوتهم التوبة. واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة.

أما الأول: وهو حمل هذه الشفاعة على المعصية بشرط التوبة فقد أبطلناه.

وأما الثاني: وهو قوله إن هذه الشفاعة إنما كانت قبل أن يعلم أن الله لا يغفر الشرك فنقول: هذا أيضًا بعيد، لأنا بينا أن مقدمة هذه الآية تدل على أنه لا يجوز أن يكون مراد إبراهيم عليه السلام من هذا الدعاء هو الشفاعة في إسقاط عقاب الكفر.

وأما الثالث: وهو قوله المراد من كونه: ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أن ينقله من الكفر إلى الإيمان فهو أيضًا بعيد، لأن المغفرة والرحمة مشعرة بإسقاط العقاب ولا إشعار فيهما بالنقل من صفة الكفر إلى صفة الإيمان، والله أعلم.

وأما الرابع: وهو أن تحمل المغفرة والرحمة على تعجيل العقاب أو ترك تعجيل الإماتة فنقول هذا باطل، لأن كفار زماننا هذا أكثر منهم ولم يعاجلهم الله تعالى بالعقاب ولا بالموت مع أن

أهل الإسلام متفقون على أنهم ليسوا مغفورين ولا مرحومين فبطل تفسير المغفرة والرحمة على ترك تعجيل العقاب بهذا الوجه وظهر بما ذكرنا صحة ما قررناه من الدليل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام في هذا الموضع أنه طلب في دعائه أمورًا سبعة.

المطلوب الأول: طلب من الله نعمة الأمان وهو قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ [إبراهيم: ٣٥] والابتداء بطلب نعمة الأمن في هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به، وسئل بعض العلماء الأمن أفضل أم الصحة؟ فقال: الأمن أفضل، والدليل عليه أن شاة لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان، ثم إنها تقبل على الرعي والأكل ولو أنها ربطت في موضع وربط بالقرب منها ذئب فإنها تمسك عن العلف ولا تتناوله إلى أن تموت وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد.

والمطلوب الثاني: أن يرزقه الله التوحيد، ويصونه عن الشرك، وهو قوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

والمطلوب الثالث: قوله: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ فقوله: ﴿ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي بعض ذريتي وهو إسمعيل ومن ولد منه ﴿ بِوَادٍ﴾ هو وادي مكة ﴿ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ أي ليس فيه شيء من زرع، كقوله: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ [الزمر: ٢٨] بمعنى لا يحصل فيه اعوجاج عند بيتك المحرم، وذكروا في تسميته المحرم وجوها:

الأول: أن الله حرم التعرض له والتهاون به، وجعل ما حوله حرمًا لمكانه.

الثاني: أنه كان لم يزل ممتنعًا عزيزًا يهابه كل جبار كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب.

الثالث: سمي محرمًا لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه.

الرابع: أنه حرم على الطوفان أي امتنع منه كما سمي عتيقًا لأنه أعتق منه فلم يستعل عليه.

الخامس: أمر الصائرين إليه أن يحرموا على أنفسهم أشياء كانت تحل لهم من قبل.

السادس: حرم موضع البيت حين خلق السموات والأرض وحفه بسبعة من الملائكة، وهو مثل البيت المعمور الذي بناه آدم، فرفع إلى السماء السابعة.

السابع: حرم على عباده أن يقربوه بالدماء والأقذار وغيرها: روي أن هاجر كانت أمة لسارة فوهبتها لإبراهيم عليه السلام فولدت له إسماعيل عليه السلام، فقالت سارة: كنت أرجو أن يهب الله لي ولدًا من خليله فمنعنيه ورزقه خادمتي، وقالت لإبراهيم: بعِّدهما مني فنقلهما إلى مكة وإسماعيل رضيع، ثم رجع فقالت هاجر: إلى من تكلنا؟ فقال إلى الله. ثم دعا الله تعالى بقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ﴾ إلى آخر الآية ثم إنها عطشت وعطش الصبي فانتهت بالصبي إلى موضع زمزم فضرب بقدمه ففارت عينًا، فقال رسول الله ﷺ: «**رَحِمَ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْلاَ أَنَّهَا عَجِلَتْ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا**»[(١)] ثم إن إبراهيم عليه السلام عاد بعد كبر إسماعيل واشتغل هو مع إسماعيل برفع قواعد البيت. قال القاضي: أكثر الأمور المذكورة في هذه الحكاية بعيدة لأنه لا يجوز لإبراهيم عليه السلام أن ينقل ولده إلى حيث لا طعام ولا ماء مع أنه كان يمكنه أن ينقلهما إلى بلدة أخرى من بلاد الشام لأجل قول سارة إلا إذا قلنا: إن الله أعلمه أنه يحصل هناك ماء وطعام، وأقول: أما ظهور ماء زمزم فيحتمل أن يكون إرهاصًا لإسماعيل عليه السلام، لأن ذلك عندنا جائز خلافًا للمعتزلة وعند المعتزلة أنه معجزة لإبراهيم عليه السلام.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ واللام متعلقة بأسكنت أي أسكنت قومًا من ذريتي، وهم إسماعيل وأولاده بهذا الوادي الذي لا زرع فيه ليقيموا الصلاة.

ثم قال: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: قال الأصمعي هوى يهوي هويًا بالفتح إذا سقط من علو إلى سفل. وقيل: ﴿تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ تريدهم، وقيل: تسرع إليهم. وقيل: تنحط إليهم وتنحدر إليهم وتنزل، يقال: هوى الحجر من رأس الجبل يهوي إذا انحدر وانصب، وهوى الرجل إذا انحدر من رأس الجبل.

البحث الثاني: أن هذا الدعاء جامع للدين والدنيا. أما الدين فلأنه يدخل فيه ميل الناس إلى الذهاب إلى تلك البلدة بسبب النسك والطاعة لله تعالى. وأما الدنيا: فلأنه يدخل فيه ميل الناس إلى نقل المعاشات إليهم بسبب التجارات، فلأجل هذا الميل يتسع عيشهم، ويكثر طعامهم ولباسهم.

البحث الثالث: كلمة ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ تفيد التبعيض،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء) باب (يزفون النسلان في المشي) (٣/ ١٢٢٦) حديث رقم/ ٣١٨٣، وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٤٧) حديث رقم/ ٣٢٥٠، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس... به.

والمعنى: فاجعل أفئدة بعض الناس مائلة إليهم. قال مجاهد: لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند. وقال سعيد بن جبير: لو قال أفئدة الناس، لحجت اليهود والنصارى المجوس، ولكنه قال: ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فهم المسلمون.

ثم قال: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: أنه لم يقل: وارزقهم الثمرات، بل قال: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وذلك يدل على أن المطلوب بالدعاء اتصال بعض الثمرات إليهم.

البحث الثاني: يحتمل أن يكون المراد بإيصال الثمرات إليهم إيصالها إليهم على سبيل التجارات وإنما يكون المراد: عمارة القرى بالقرب منها لتحصيل الثمار منها.

ثم قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ وذلك يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لأداء العبادات وإقامة الطاعات، فإن إبراهيم عليه السلام بين أنه إنما طلب تيسير المنافع على أولاده لأجل أن يتفرغوا لإقامة الصلوات وأداء الواجبات.

المطلوب الرابع: قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾.

واعلم أنه عليه السلام لما طلب من الله تيسير المنافع لأولاده وتسهيلها عليهم، ذكر أنه لا يعلم عواقب الأحوال ونهايات الأمور في المستقبل، وأنه تعالى هو العالم بها المحيط بأسرارها، فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا منا، قيل: ما نخفي من الوجد بسبب حصول الفرقة بيني وبين إسماعيل، وما نعلن من البكاء، وقيل: ما نخفي من الحزن المتمكن في القلب وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حيث قالت له عند الوداع إلى من تكلنا؟ فقال إلى الله أكلكم، قالت آلله أمرك بهذا؟ قال نعم: قالت إذن لا نخشى (١).

ثم قال: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وفيه قولان: **أحدهما:** أنه كلام الله عز وجل تصديقًا لإبراهيم عليه السلام كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٣٤]. **والثاني:** أنه من كلام إبراهيم عليه السلام يعني وما يخفي على الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان، ولفظ (من) يفيد الاستغراق كأنه قيل: وما يخفى عليه شيء ما.

ثم قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: اعلم أن القرآن يدل على أنه تعالى إنما أعطى إبراهيم عليه السلام هذين الولدين

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء) باب (يزفون النسلان في المشي) (٣/ ١٢٣٠) حديث رقم/ ٣١٨٥، والنسائي في (سننه الكبرى) (٥/ ١٠١) حديث رقم/ ٨٣٨٠، كلاهما من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس... به.

أعني إسمعيل وإسحق على الكبر والشيخوخة، فأما مقدار ذلك السن فغير معلوم من القرآن وإنما يرجع فيه إلى الروايات فقيل لما ولد إسماعيل كان سن إبراهيم تسعًا وتسعين سنة، ولما ولد إسحق كان سنه مائة واثنتي عشرة سنة وقيل ولد له إسمعيل لأربع وستين سنة وولد إسحق لتسعين سنة، وعن سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة، وإنما ذكر قوله: ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ لأن المنة بهبة الولد في هذا السن أعظم، من حيث إن هذا الزمان زمان وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة في وقت اليأس من أعظم النعم، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم.

فإن قيل: إن إبراهيم عليه السلام إنما ذكر هذا الدعاء عندما أسكن إسمعيل وهاجر أمه في ذلك الوادي، وفي ذلك الوقت ما ولد له إسحق فكيف يمكنه أن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

قلنا قال القاضي: هذا الدليل يقتضي أن إبراهيم عليه السلام إنما ذكر هذا الكلام في زمان آخر لا عقيب ما تقدم من الدعاء. ويمكن أيضًا أن يقال: إنه عليه السلام إنما ذكر هذا الدعاء بعد كبر إسمعيل وظهور إسحق وإن كان ظاهر الروايات بخلافه.

البحث الثاني: على في قوله: ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ بمعنى مع كقول الشاعر:

إِنِّي عَلَى مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبَرِي ... أَعْلَمُ مِنْ حَيْثُ يُؤْكَلُ الْكَتِفُ[(١)]

وهو في موضع الحال ومعناه: وهب لي في حال الكبر.

البحث الثالث: في المناسبة بين قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وبين قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ وذلك هو كأنه كان في قلبه أن يطلب من الله إعانتهما وإعانة ذريتهما بعد موته ولكنه لم يصرح بهذا المطلوب، بل قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي إنك تعلم ما في قلوبنا وضمائرنا، ثم قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ وذلك يدل ظاهرًا على أنهما يبقيان بعد موته وأنه مشغول القلب بسببهما فكان هذا دعاء لهما بالخير والمعونة بعد موته على سبيل الرمز والتعريض وذلك يدل على أن الاشتغال بالثناء عند الحاجة إلى الدعاء أفضل من الدعاء قال عليه السلام حاكيًا عن ربه أنه قال: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ»[(٢)] ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر المنسرح وهو للشاعر قيس بن الخطيم وهو قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي، أبو يزيد. ؟- ٢ ق. هـ/ ؟- ٦٢٠ م، شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية. أول ما اشتهر به تتبعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلهما، وقال في ذلك شعراً. وله في وقعة بعاث التي كانت بين الأوس والخزرج قبل الهجرة أشعار كثيرة، أدرك الإسلام وتريث في قبوله، فقتل قبل أن يدخل فيه.

(٢) **إسناده ضعيف:** أخرجه الترمذي في كتاب (فضائل القرآن) باب (٢٥) (٥/ ١٦٩) حديث رقم/ ٢٩٢٦، وقال أبو عيسي: هذا حديث حسن غريب، من طريق شهاب... به، وعبد الله بن أحمد في (المسند) حديث=

واعلم أنه لما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الإيضاح والتصريح قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي هو عالم بالمقصود سواء صرحت به أو لم أصرح وقوله: سميع الدعاء. من قولك سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله ومنه سمع الله لمن حمده.

المطلوب الخامس: قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذا الآية على أن أفعال العبد مخلوقة لله تعالى فقالوا إن قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ يدل على أن ترك المنهيات لا يحصل إلا من الله وقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ يدل على أن فعل المأمورات لا يحصل إلا من الله، وذلك تصريح بأن إبراهيم عليه السلام كان مصرًا على أن الكل من الله.

المسألة الثانية: تقدير الآية: رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي؛ أي واجعل بعض ذريتي كذلك لأن كلمة (من) في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ للتبعيض، وإنما ذكر هذا التبعيض لأنه علم باعلام الله تعالى أنه يكون في ذريته جمع من الكفار وذلك قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

المطلوب السادس: أنه عليه السلام لما دعا الله في المطالب المذكورة دعا الله تعالى في أن يقبل دعاءه فقال: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ وقال ابن عباس: يريد عبادتي بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

المطلوب السابع: قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: طلب المغفرة إنما يكون بعد سابقة الذنب فهذا يدل على أنه كان قد صدر الذنب عنه وإن كان قاطعًا بأن الله يغفر له فكيف طلب تحصيل ما كان قاطعًا بحصوله؟

والجواب: المقصود منه الالتجاء إلى الله تعالى وقطع الطمع إلا من فضله وكرمه ورحمته.

المسألة الثانية: إن قال قائل كيف جاز أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟

فالجواب عنه من وجوه: الأول: أن المنع منه لا يعلم إلا بالتوقيف فلعله لم يجد منه منعًا فظن كونه جائزًا. الثاني: أراد بوالديه آدم وحواء. الثالث: كان ذلك بشرط الإسلام.

ولقائل أن يقول: لو كان الأمر كذلك لما كان ذلك الاستغفار باطلاً ولو لم يكن لبطل قوله

=رقم/ ١٢٥، من طريق حماد... به، والدارمي في كتاب (فضائل القرآن) باب (فضل كلام الله علي سائر الكلام) (٢/ ٣١٣) حديث رقم/ ٣٣٥٦، من طريق إسماعيل بن إبراهيم الترجماني... به، ثلاثتهم (حماد، شهاب، إسماعيل الترجماني) قال: حدثنا محمد بن الحسن بن أبي يزيد عن عمرو بن قيس عن عطية... فذكره وفي إسناد عطية: وهو ضعيف.

تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال بعضهم: كانت أمه مؤمنة، ولهذا السبب خص أباه بالذكر في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، والله أعلم وفي قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ قولان: **الأول:** يقوم أي يثبت وهو مستعار من قيام القائم على الرجل، والدليل عليه قولهم: قامت الحرب على ساقها، ونظيره قوله ترجلت الشمس، أي أشرقت وثبت ضوءها كأنها قامت على رجل. **الثاني:** أن يسند إلى الحساب قيام أهله على سبيل المجاز مثل قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهلها، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾

اعلم أنه لما بين دلائل التوحيد ثم حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه طلب من الله أن يصونه عن الشرك، وطلب منه أن يوفقه للأعمال الصالحة وأن يخصه بالرحمة والمغفرة في يوم القيامة ذكر بعد ذلك ما يدل على وجود يوم القيامة، وما يدل على صفة يوم القيامة، أما الذي يدل على وجود القيامة فهو قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فالمقصود منه التنبيه على أنه تعالى لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم، لزم أن يكون إما غافلاً عن ذلك الظالم أو عاجزًا عن الإنتقام، أو كان راضيًا بذلك الظلم، ولما كانت الغفلة والعجز والرضا بالظلم محالاً على الله امتنع أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم.

فإن قيل: كيف يليق بالرسول ﷺ أن يحسب الله موصوفًا بالغفلة؟

والجواب من وجوه:

الأول: المراد به التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً، كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨] وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ [الأحزاب: ٩]. **والثاني:** أن المقصود منه بيان أنه لو لم ينتقم لكان عدم الإنتقام لأجل غفلته عن ذلك الظلم، ولما كان امتناع هذه الغفلة معلومًا لكل أحد لا جرم كان عدم الانتقام محالاً. **والثالث:** أن المراد ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير. **الرابع:** أن يكون هذا الكلام وإن كان خطابًا مع النبي ﷺ في الظاهر، إلا أنه يكون في الحقيقة خطابًا مع الأمة، وعن سفيان بن عيينة: أنه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، ثم بين تعالى أنه إنما يؤخر عقاب هؤلاء الظالمين ليوم موصوف بصفات.

الصفة الأولى: أنه تشخص فيه الأبصار. يقال: شخص بصر الرجل إذا بقيت عينه مفتوحة لا يطرفها، وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة وسقوط القوة.

والصفة الثانية: قوله: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ وفي تفسير الإهطاع أقوال أربعة:

القول الأول: قال أبو عبيدة هو الإسراع. يقال: أهطع البعير في سيره واستهطع إذا أسرع وعلى هذا الوجه، فالمعنى: أن الغالب من حال من يبقى بصره شاخصًا من شدة الخوف أن يبقى واقفًا، فبين الله تعالى أن حالهم بخلاف هذا المعتاد، فإنهم مع شخوص أبصارهم يكونون مهطعين، أي مسرعين نحو ذلك البلاء. **القول الثاني:** في الإهطاع قال أحمد بن يحيى: المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع. **والقول الثالث:** المهطع الساكت. **والقول الرابع:** قال الليث: يقال للرجل إذا قر وذل أهطع.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ والإقناع رفع الرأس والنظر في ذل وخشوع، فقوله: ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ أي رافعي رؤوسهم والمعنى أن المعتاد فيمن يشاهد البلاء أنه يطرق رأسه عنه لكي لا يراه، فبين تعالى أن حالهم بخلاف هذا المعتاد وأنهم يرفعون رؤوسهم.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ والمراد من هذه الصفة دوام ذلك الشخوص، فقوله: ﴿تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ لا يفيد كون هذا الشخوص دائمًا وقوله: ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ يفيد دوام هذا الشخوص، وذلك يدل على دوام تلك الحيرة والدهشة في قلوبهم.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ الهواء الخلاء الذي لم تشغله الأجرام ثم جعل وصفًا فقيل: قلب فلان هواء إذا كان خاليًا لا قوة فيه، والمراد بيان أن قلوب الكفار خالية يوم القيامة عن جميع الخواطر والأفكار لعظم ما ينالهم من الحيرة ومن كل رجاء وأمل لما تحققوه من العقاب ومن كل سرور، لكثرة ما فيه من الحزن، إذا عرفت هذه الصفات الخمسة فقد اختلفوا في وقت حصولها فقيل: إنها عند المحاسبة بدليل أنه تعالى إنما ذكر هذه الصفات عقيب وصف ذلك اليوم بأنه يوم يقوم الحساب، وقيل: إنها تحصل عندما يتميز فريق عن فريق، والسعداء يذهبون إلى الجنة، والأشقياء إلى النار. وقيل: بل يحصل عند إجابة الداعي والقيام من القبور، والأول أولى للدليل الذي ذكرناه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿٤٥﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾.

فيه أبحاث:

البحث الأول: قال صاحب (الكشاف): ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ مفعول ثان لقوله: ﴿وَأَنذِرِ﴾ وهو يوم القيامة.

البحث الثاني: الألف واللام في لفظ ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ للمعهود السابق، يعني: وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب الذي تقدم ذكره وهو شخوص أبصارهم، وكونهم مهطعين مقنعي رؤوسهم.

البحث الثالث: الإنذار هو التخويف بذكر المضار، والمفسرون مجمعون على أن قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ هو يوم القيامة، وحمله أبو مسلم على أنه حال المعاينة، والظاهر يشهد بخلافه، لأنه تعالى وصف اليوم بأن عذابهم يأتي فيه وأنهم يسألون الرجعة، ويقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ ولا يليق ذلك إلا بيوم القيامة. وحجة أبي مسلم: أن هذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ [المنافقون: ١٠] ثم حكى الله سبحانه ما يقول الكفار في ذلك اليوم، فقال: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ واختلفوا في المراد بقوله: ﴿أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ فقال بعضهم: طلبوا الرجعة إلى الدنيا ليتلافوا ما فرطوا فيه، وقال: بل طلبوا الرجوع إلى حال التكليف بدليل قولهم: نجب دعوتك ونتبع الرسل، وأما على قول أبي مسلم فتأويل هذه الآية ظاهر فقال تعالى مجيبًا لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ ومعناه ما ذكره الله تعالى في آية أخرى، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] إلى غير ذلك مما كانوا يذكرونه من إنكار المعاد فقرعهم الله تعالى بهذا القول لأن التقريع بهذا الجنس أقوى، ومعنى: ما لكم من زوال، لا شبهة في أنهم كانوا يقولون لا زوال لنا من هذه الحياة إلى حياة أخرى، ومن هذه الدار إلى دار المجازاة، لا أنهم كانوا ينكرون أن يزولوا عن حياة إلى موت أو عن شباب إلى هرم أو عن فقر إلى غنى، ثم إنه تعالى زادهم تقريعًا آخر بقوله: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني سكنتم في مساكن الذين كفروا قبلكم، وهم قوم نوح وعاد وثمود، وظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية، لأن من شاهد هذه الأحوال وجب عليه أن يعتبر، فإذا لم يعتبر كان مستوجبًا للذم والتقريع.

ثم قال: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ وظهر لكم أن عاقبتهم عادت إلى الوبال والخزي والنكال.

فإن قيل: ولماذا قيل: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ ولم يكن القوم يقرون بأنه تعالى أهلكهم لأجل تكذيبهم؟

قلنا: إنهم علموا أن أولئك المتقدمين كانوا طالبين للدنيا ثم إنهم فنوا وانقرضوا فعند هذا يعلمون أنه لا فائدة في طلب الدنيا، والواجب الجد والاجتهاد في طلب الدين، والواجب على من عرف هذا أن يكون خائفًا وجلًا فيكون ذلك زجرًا له هذا إذا قرىء بالتاء أما إذا قرىء بالنون فلا شبهة فيه لأن التقدير كأنه تعالى قال: أولم نبين لكم كيف فعلنا بهم، وليس كل ما بين لهم تبينوه.

أما قوله: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فالمراد ما أورده الله في القرآن مما يعلم به أنه قادر على

الإعادة كما قدر على الإبتداء وقادر على التعذيب المؤجل كما يفعل الهلاك المعجل، وذلك في كتاب الله كثير، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۝٤٦﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر صفة عقابهم أتبعها بذكر كيفية مكرهم فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن الضمير في قوله: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ﴾ إلى ماذا يعود؟ على وجوه:

الأول: أن يكون الضمير عائدًا إلى الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وهذا القول الصحيح لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات. **والثاني:** أن يكون المراد به قوم محمد ﷺ والدليل عليه قوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [إبراهيم: ٤٥] يا محمد وقد مكر قومك مكرهم وذلك المكر هو الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقوله: ﴿مَكْرُهُمْ﴾ أي مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم. **الثالث:** أن المراد من هذا المكر ما نقل أن نمروذ حاول الصعود إلى السماء فاتخذ لنفسه تابوتًا وربط قوائمه الأربع بأربعة نسور، وكان قد جوعها ورفع فوق الجوانب الأربعة من التابوت عصيًا أربعًا وعلق على كل واحدة منهن قطعة لحم ثم إنه جلس مع حاجبه في ذلك التابوت فلما أبصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت في جو الهواء ثلاثة أيام وغابت الدنيا عن عين نمروذ ورأى السماء بحالها فنكس تلك العصي التي علق عليها اللحم فسفلت النسور وهبطت إلى الأرض، فهذا هو المراد من مكرهم. قال القاضي: وهذا بعيد جدًا لأن الخطر فيه عظيم ولا يكاد العاقل يقدم عليه وما جاء فيه خبر صحيح معتمد ولا حجة في تأويل الآية ألبتة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾.

فيه وجهان:

الأول: أن يكون المكر مضافًا إلى الفاعل كالأول. والمعنى: ومكتوب عند الله مكرهم فهو يجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه.

والثاني: أن يكون المكر مضافًا إلى المفعول، والمعنى: وعند الله مكرهم الذي يمكر بهم وهو عذابهم الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ فاعلم أنه قرأ الكسائي وحده ﴿لَتَزُولُ﴾ بفتح اللام الأولى ورفع اللام الأخرى منه، والباقون بكسر الأولى ونصب الثانية.

أما القراءة الأولى: فمعناها أن مكرهم كان معدًا لأن تزول منه الجبال، وليس المقصود من هذا

الكلام الإخبار عن وقوعه، بل التعظيم والتهويل وهو كقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠].

وأما القراءة الثانية: فالمعنى: أن لفظ (إن) في قوله؛ ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ بمعنى (ما) واللام المكسورة بعدها يعني بها الجحد ومن سبيلها نصب الفعل المستقبل. والنحويون يسمونها لام الجحد ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾[آل عمران: ١٧٩]. ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٧٩] والجبال ههنا مثل لأمر النبي ﷺ ولأمر دين الإسلام وإعلامه ودلالته على معنى أن ثبوتها كثبوت الجبال الراسية لأن الله تعالى وعد نبيه إظهار دينه على كل الأديان. ويدل على صحة هذا المعنى قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾[إبراهيم: ٤٧] أي قد وعدك الظهور عليهم والغلبة لهم. والمعنى: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، أي وكان مكرهم أوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال الراسيات التي هي دين محمد ﷺ، ودلائل شريعته، وقرأ علي وعمرو: (أن كانَ مَكْرُهُمْ).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[إبراهيم: ٤٢] وقال في هذه الآية: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ والمقصود منه التنبيه على أنه تعالى لو لم يقم القيامة ولم ينتقم للمظلومين من الظالمين، لزم إما كونه غافلاً وإما كونه مخلفًا في الوعد، ولما تقرر في العقول السليمة أن كل ذلك محال كان القول بأنه لا يقيم القيامة باطلاً وقوله: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ يعني قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾[غافر: ٥١] وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[المجادلة: ٢١].

فإن قيل: هلا قيل مخلف رسله وعده، ولم قدم المفعول الثاني على الأول؟

قلنا: ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً، إن الله لا يخلف الميعاد، ثم قال: ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾ ليدل به على أنه تعالى لما لم يخلف وعده أحدًا وليس من شأنه إخلاف المواعيد فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته، وقرىء: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ بجر الرسل ونصب الوعد، والتقدير: مخلف رسله وعده، وهذه القراءة في الضعف، كمن قرأ قتل أولادهم شركائهم ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي غالب لا يماكر ذو انتقام لأوليائه.

اعلم أن الله تعالى لما قال: ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ بين وقت انتقامه فقال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ وعظم من حال ذلك اليوم، لأنه لا أمر أعظم من العقول والنفوس من تغيير السموات والأرض وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الزجاج في نصب يوم وجهين، إما على الظرف لانتقام أو على البدل من قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

المسألة الثانية: اعلم أن التبديل يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون الذات باقية وتتبدل صفتها بصفة أخرى. والثاني: أن تفنى الذات الأولى وتحدث ذات أخرى، والدليل على أن ذكر لفظ التبدل لإرادة التغير في الصفة جائز، أنه يقال بدلت الحلقة خاتمًا إذا أذبتها وسويتها خاتمًا فنقلتها من شكل إلى شكل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠] ويقال: بدلت قميصي جبة أي نقلت العين من صفة إلى صفة أخرى، ويقال: تبدل زيد إذا تغيرت أحواله، وأما ذكر لفظ التبديل عند وقوع التبدل في الذوات فكقولك بدلت الدراهم دنانير، ومنه قوله: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] وقوله: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦] إذا عرفت أن اللفظ محتمل لكل واحد من هذين المفهومين ففي الآية قولان:

القول الأول: أن المراد تبديل الصفة لا تبديل الذات. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي تلك الأرض إلا أنها تغيرت في صفاتها، فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوى، فلا يرى فيها عوج ولا أمت. وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**يُبَدِّلُ اللَّهُ الْأَرْضَ غَيْرَ الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم العاكظي فَلَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا**»(١) وقوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي تبدل السموات غير السموات، وهو كقوله عليه السلام: «**لاَ يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ وَلاَ ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ**»(٢) والمعنى: ولا ذو عهد في عهده بكافر، وتبديل السموات بانتثار كواكبها وانفطارها، وتكوير شمسها، وخسوف قمرها، وكونها أبوابًا، وأنها تارة تكون كالمهل وتارة تكون كالدهان.

والقول الثاني: أن المراد تبديل الذات. قال ابن مسعود: تبدل بأرض كالفضة البيضاء النقية لم يسفك عليها دم ولم تعمل عليها خطيئة، فهذا شرح هذين القولين، ومن الناس من رجح القول الأول قال لأن قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ المراد هذه الأرض، والتبدل صفة مضافة إليها، وعند حصول الصفة لا بد وأن يكون الموصوف موجودًا، فلما كان الموصوف بالتبدل هو هذه الأرض

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٧/ ٤٩)، وابن راهوية في (مسنده) (١/ ٨٤/ ١٠)، كلاهما من طريق إسماعيل بن رافع المدني عن يزيد عن رجل من الأنصار عن محمد بن كعب القرظي عن رجل من الأنصار عن أبي هريرة... به، وفي إسناد مجهولين.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الديات) باب (أيقاد المسلم بالكافر) (٤/ ١٩٤٢) حديث رقم/ ٤٥٣٠، والنسائي في كتاب (القسامة) باب (القود بين الأحرار والمماليك) (٨/ ٣٨٧) حديث رقم/ ٤٧٤٨، وأحمد في (مسنده) (١/ ١٢٢) حديث رقم/ ٩٩٣، جميعا من طريق يحي بن سعيد... به.

وجب كون هذه الأرض باقية عند حصول ذلك التبدل، ولا يمكن أن تكون هذه الأرض باقية مع صفاتها عند حصول ذلك التبدل، وإلا لامتنع حصول التبدل، فوجب أن يكون الباقي هو الذات. فثبت أن هذه الآية تقتضي كون الذات باقية، والقائلون بهذا القول هم الذين يقولون: إن عند قيام القيامة لا يعدم الله الذوات والأجسام، وإنما يعدم صفاتها وأحوالها.

واعلم أنه لا يبعد أن يقال: المراد من تبديل الأرض والسموات هو أنه تعالى يجعل الأرض جهنم، ويجعل السموات الجنة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾[المطففين: ١٨] وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾[المطففين: ٧]، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ فنقول أما البروز لله فقد فسرناه في قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾[إبراهيم: ٢١] وإنما ذكر الواحد القهار ههنا، لأن الملك إذا كان لمالك واحد غلاب لا يغالب قهار لا يقهر فلا مستغاث لأحد إلى غيره فكان الأمر في غاية الصعوبة، ونظيره قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[غافر: ١٦] ولما وصف نفسه سبحانه بكونه قهارًا بين عجزهم وذلتهم، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ﴾.

واعلم أنه تعالى ذكر من صفات عجزهم وذلتهم أمورًا:

فالصفة الأولى: كونهم مقرنين في الأصفاد. قرنت الشيء بالشيء إذا شددته به ووصلته. والقرآن اسم للحبل الذي يشد به شيئان. وجاء هاهنا على التكثير لكثرة أولئك القوم والأصفاد جمع صفد وهو القيد.

إذا عرفت هذا فنقول: في قوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ ثلاثة أوجه: أحدها: قال الكلبي: مقرنين كل كافر مع شيطان في غل، وقال عطاء: هو معنى قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾[التكوير: ٧٠] أي قرنت فيقرن الله تعالى نفوس المؤمنين بالحور العين، ونفوس الكافرين بقرنائهم من الشياطين، وأقول حظ البحث العقلي منه أن الإنسان إذا فارق الدنيا، فإما أن يكون قد راض نفسه وهذبها ودعاها إلى معرفة الله تعالى وطاعته ومحبته، أو ما فعل ذلك، بل تركها متوغلة في اللذات الجسدانية مقبلة على الأحوال الوهمية والخيالية، فإن كان الأول فتلك النفس تفارق مع تلك البهجة بالحضرة الإلهية، والسعادة بالعناية الصمدانية، وإن كان الثاني فتلك النفس تفارق مع الأسف والحزن والبلاء الشديد، بسبب الميل إلى عالم الجسم، وهذا هو المراد بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾[التكوير: ٧٠] وشيطان النفس الكافرة هي الملكات الباطلة، والحوادث الفاسدة، وهو المراد من قول عطاء: إن كل كافر مع شيطانه يكون مقرونًا في الأصفاد.

والقول الثاني: في تفسير قوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ هو قرن بعض الكفار ببعض، والمراد أن تلك النفوس الشقية والأرواح المكدرة الظلمانية، لكونها متجانسة متشاكلة ينضم بعضها إلى بعض، وتنادي ظلمة كل واحدة منها إلى الأخرى، فانحدار كل واحدة منها إلى الأخرى في تلك الظلمات، والخسارات هي المراد بقوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾.

والقول الثالث: قال زيد بن أرقم: قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال، وحظ العقل من ذلك أن الملكات الحاصلة في جوهر النفس إنما تحصل بتكرير الأفعال الصادرة من الجوارح والأعضاء، فإذا كانت تلك الملكات ظلمانية كدرة، صارت في المثال كأن أيديها وأرجلها قرنت وغلت في رقابها. وأما قوله: ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾.

فيه وجهان:

أحدها: أن يكون ذلك متعلقًا بمقرنين، والمعنى: يقرنون بالأصفاد.

والثاني: أن لا يكون متعلقًا به، والمعنى: أنهم مقرنون مقيدون، وحظ العقل معلوم مما سلفت الإشارة إليه.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ السرابيل جمع سربال وهو القميص، والقطران فيه ثلاث لغات: قَطْران وقِطْران وقَطِرن، بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء وبفتح القاف وكسر الطاء، وهو شيء يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ ويطلى به الإبل الجرب فيحرق الجرب بحرارته وحدته، وقد تصل حرارته إلى داخل الجوف، ومن شأنه أن يتسارع فيه اشتعال النار، وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يصير ذلك الطلي كالسرابيل، وهي القمص فيحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب، لذع القطران وحرقته، وإسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح، وأيضًا التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين، وأقول حظ العقل من هذا أن جوهر الروح جوهر مشرق لامع من عالم القدس وغيبة الجلال، وهذا البدن جارٍ مجرى السربال والقميص له، وكل ما يحصل للنفس من الآلام والغموم، فإنما يحصل بسبب هذا البدن، فلهذا البدن لذع وحرقة في جوهر النفس، لأن الشهوة والحرص والغضب إنما تتسارع إلى جوهر الروح بسببه، وكونه للكثافة والكدورة والظلمة هو الذي يخفي لمعان الروح وضوءه وهو سبب لحصول النتن والعفونة، فتشبه هذا الجسد بسرابيل من القطران والقطر، وقرأ بعضهم (مِنْ قِطْرٍ آنٍ) والقطر النحاس أو الصفر المذاب والآني المتناهي حره. قال أبو بكر بن الأنباري: وتلك النار لا تبطل ذلك القطران ولا تفنيه كما لا تهلك النار أجسادهم والأغلال التي كانت عليهم.

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] وقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨].

واعلم أن موضع المعرفة والنكرة والعلم والجهل هو القلب، وموضع الفكر والوهم والخيال هو الرأس. وأثر هذه الأحوال إنما تظهر في الوجه، فلهذا السبب خص الله تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيهما فقال في القلب: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٦، ٧] وقال في الوجه: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ بمعنى تتغشى، ولما ذكر تعالى هذه الصفات الثلاثة قال: ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ قال الواحدي: المراد منه أنفس الكفار

لأن ما سبق ذكره لا يليق أن يكون جزاء لأهل الإيمان، وأقول يمكن إجراء اللفظ على عمومه، لأن لفظ الآية يدل على أنه تعالى يجزي كل شخص بما يليق بعلمه وكسبه ولما كان كسب هؤلاء الكفار الكفر والمعصية، كان جزاؤهم هو هذا العقاب المذكور، ولما كان كسب المؤمنين الإيمان والطاعة، كان اللائق بهم هو الثواب وأيضًا أنه تعالى لما عاقب المجرمين بجرمهم فلأن يثيب المطيعين على طاعتهم كان أولى.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ والمراد أنه تعالى لا يظلمهم ولا يزيد على عقابهم الذي يستحقونه. وحظ العقل منه أن الأخلاق الظلمانية هي المبادي لحصول الآلام الروحانية وحصول تلك الأخلاق في النفس على قدر صدور تلك الأعمال منهم في الحياة الدنيا، فإن الملكات النفسانية إنما تحصل في جوهر النفس بسبب الأفعال المتكررة، وعلى هذا التقدير فتلك الآلام تتفاوت بحسب تلك الأفعال في كثرتها وقلتها وشدتها وضعفها وذلك يشبه الحساب.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي هذا التذكير والموعظة بلاغ للناس، أي كفاية في الموعظة ثم اختلفوا فقيل: إن قوله هذا إشارة إلى كل القرآن، وقيل: بل إشارة إلى كل هذه السورة، وقيل: بل إشارة إلى المذكور من قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وأما قوله: ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ فهو معطوف على محذوف أي لينتصحوا: ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أي بهذا البلاغ.

ثم قال: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا في هذا الكتاب مرارًا أن النفس الإنسانية لها شعبتان: القوة النظرية وكمال حالها في معرفة الموجودات بأقسامها وأجناسها وأنواعها حتى تصير النفس كالمرآة التي يتجلى فيها قدس الملكوت ويظهر فيها جلال اللاهوت ورئيس هذه المعارف والجلاء، معرفة توحيد الله بحسب ذاته وصفاته وأفعاله.

والشعبة الثانية: القوة العملية وسعادتها في أن تصير موصوفة بالأخلاق الفاضلة التي تصير مبادي لصدور الأفعال الكاملة عنها، ورئيس سعادات هذه القوة طاعة الله وخدمته.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ إشارة إلى ما يجري مجرى الرئيس لكمال حال القوة النظرية وقوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إشارة إلى ما يجري مجرى الرئيس لكمال حال القوة العملية فإن الفائدة في هذا التذكر، إنما هو الإعراض عن الأعمال الباطلة والإقبال على الأعمال الصالحة، وهذه الخاتمة كالدليل القاطع في أنه لا سعادة للإنسان إلا من هاتين الجهتين.

المسألة الثانية: هذه الآيات مشعرة بأن التذكير بهذه المواعظ والنصائح يوجب الوقوف على التوحيد والإقبال على العمل الصالح، والوجه فيه أن المرء إذا سمع هذه التخويفات والتحذيرات

عظم خوفه واشتغل بالنظر والتأمل، فوصل إلى معرفة التوحيد والنبوة واشتغل بالأعمال الصالحة.

المسألة الثالثة: قال القاضي: أول هذه السورة وآخرها يدل على أن العبد مستقل بفعله، إن شاء أطاع وإن شاء عصى، أما أول هذه السورة فهو قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] فإنا قد ذكرنا هناك أن هذا يدل على أن المقصود من إنزال الكتاب إرشاد الخلق كلهم إلى الدين والتقوى ومنعهم عن الكفر والمعصية، وأما آخر السورة فلأن قوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يدل على أنه تعالى إنما أنزل هذه السورة، وإنما ذكر هذه النصائح والمواعظ لأجل أن ينتفع الخلق بها فيصيروا مؤمنين مطيعين ويتركوا الكفر والمعصية، فظهر أن أول هذه السورة وآخرها متطابقان في إفادة هذا المعنى. واعلم أن الجواب المستقصى عنه مذكور في أول السورة فلا فائدة في الإعادة.

المسألة الرابعة: هذه الآية دالة على أنه لا فضيلة للإنسان ولا منقبة له إلا بسبب عقله، لأنه تعالى بين أنه إنما أنزل هذه الكتب، وإنما بعث الرسل لتذكير أولي الألباب، فلولا الشرف العظيم والمرتبة العالية لأولي الألباب لما كان الأمر كذلك.

قال المصنف رحمه الله تعالى ورضي عنه: تم تفسير هذه السورة يوم الجمعة في أواخر شعبان سنة إحدى وستمائة ختم بالخير والغفران في صحراء بغداد، ونسأل الله الخلاص من الغموم والأحزان والفوز بدرجات الجنان والخلاص من دركات النيران، إنه الملك المنان، الرحيم الديان، بحمد الله وحسن توفيقه وصلاته وسلامه على خاتم النبيين محمد وآله وسلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صلَّى الله على محمدٍ وآلِه وسلَّمَ تسليماً

تفسير سورة إبراهيم

مكيةٌ كلُّها في قول الحسن وعكرمة وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها مدنية[1]. وقيل: ثلاث؛ نزلت في الذين حاربوا اللهَ ورسولَه، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ تقدَّم معناه[2].

﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: بالكتاب، وهو القرآن، أي: بدعائك إليه. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وهذا على التمثيل؛ لأنَّ الكفرَ بمنزلة الظُّلْمة، والإسلامَ بمنزلة النور[3]. وقيل: من البدعة إلى السُّنَّة، ومن الشَّكِّ إلى اليقين. والمعنى متقارب.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتوفيقِه إيَّاهم ولُطفِه بهم، والباءُ في ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقةٌ بـ «تُخرج»[4]، وأُضيفَ الفعلُ إلى النبيِّ ﷺ؛ لأنه الداعي والمنذرُ الهادي.

---

(١) من (ظ)، وفي غيرها: مدنيتين، والكلام في النكت والعيون ٣/ ١٢٠ .

(٢) ١/ ٢٣٧ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥١٣ .

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٣ .

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ هو كقولك: خرجتُ إلى زيدٍ العاقلِ الفاضل؛ من غير واو[١]؛ لأنهما شيءٌ واحد، واللهُ هو العزيزُ الذي لا مِثْلَ له ولا شبيه. وقيل: «العزيز»: الذي لا يَغلِبُه غالب. وقيل: «العزيز»: المَنيعُ في مُلْكِه وسُلْطانِه. «الحميد» أي: المحمودُ بكلِّ لسان، والمُمَجَّدُ في كلِّ مكانٍ على كلِّ حال.

وروى مِقْسَم عن ابن عباس قال: كان قومٌ آمنوا بعيسى ابنِ مريم، وقومٌ كفروا به، فلما بُعِثَ محمدٌ ﷺ؛ آمنَ به الذين كفروا بعيسى، وكفرَ الذين آمنوا بعيسى، فنزلت هذه الآية، ذكره الماورديُّ[٢].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ أي: مِلْكاً وعبيداً واختراعاً وخلقاً. وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وغيرُهما: «اللهُ» بالرفع على الابتداء[٣]، «الَّذِي» خبرُه. وقيل: «الَّذي» صفة، والخبر مُضمَرٌ[٤]، أي: اللهُ الذي له ما في السماوات وما في الأرض قادرٌ على كلِّ شيء. الباقون: بالخفض نعتاً للعزيز الحميد، فقدَّمَ النَّعتَ على المنعوت، كقولِكَ: مررتُ بالظريفِ زيدٍ[٥]. وقيل: على

---

(١) نقل ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٤٤ عن ابن الأنباري قوله: هذا مثل قول العرب: جلست إلى زيد، إلى العاقل الفاضل، وإنما تُعاد «إلى» بمعنى التعظيم للأمر.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ١٢١، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١١١٤)، قال الهيثمي في «المجمع» ٦/ ٣٢٣، وفيه أبو بلال الأشعري، وهو ضعيف.

(٣) السبعة ص٣٦٢، والتيسير ص١٣٤، وقرأ بالرفع أيضاً أبو جعفر، كما في النشر ٢/ ٢٩٨.

(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٢٥.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٥٨٩ - ٥٩٠، وردَّ ابن زنجلة هذا القول في «حجة القراءات» ص٣٧٦ فقال: ولا يجوز أن يقول: نعتٌ للحميد، وإنما هو كقولك: «مررتُ بزيدٍ الظريف»، فإن قلت: «بالظريف زيدٍ» عاد بدلاً، ولم يكن نعتاً.

البدل من «الحميد» وليس صفة؛ لأنَّ اسمَ اللهِ صارَ كالعَلَمِ فلا يُوصَفُ به[١]؛ كما لا يُوصَفُ بزيدٍ وعَمرٍو، بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى؛ لأنَّ معناه أنَّه المنفردُ بقدرة الإيجاد. وقال أبو عمرو: والخفض على التقديم والتأخير، مجازه: إلى صراط الله العزيز الحميد الذي له ما في السماوات وما في الأرض[٢]. وكان يعقوب[٣] إذا وقف على «الحميد» رفَعَ، وإذا وصلَ خفَضَ على النعت. قال ابنُ الأنباري[٤]: من خفَضَ وقَفَ على: «وما في الأرض».

قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ قد تقدَّم معنى الويل في «البقرة»[٥] وقال الزجَّاج[٦]: هي كلمةٌ تُقال للعذاب والهَلَكة. ﴿مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ أي: في جهنم.

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: يختارونها على الآخرة، والكافرون يفعلون ذلك. فـ «الذينَ» في موضع خفضٍ صفةٌ لهم. وقيل: في موضع رفع خبرُ ابتداءٍ مُضمَر؛ أي: هم الذين. وقيل: «الذين يَسْتَحبُّون» مبتدأ، وخبره: «أُولَئِكَ»، وكلُّ مَنْ آثرَ الدنيا وزَهْرَتَها، واستحبَّ البقاء في نعيمها على النعيم في الآخرة، وصدَّ عن سبيل الله - أي: صرفَ الناس عنه، وهو دين الله، الذي جاءت به الرسل، في قول ابن عباس وغيره - فهو داخل في هذه الآية؛ وقد قال ﷺ: «إنَّ أخوَفَ ما أخافُ على أمتي الأئمةُ المُضِلُّون»[٧] وهو حديث صحيح. وما أكثر ما هم في هذه الأزمان! والله المستعان.

---

(١) لفظة «به» من (ظ).

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥٨٩ ، وأبو عمرو: هو ابن العلاء.

(٣) في رواية رُويس، وهو من العشرة. النشر ٢/ ٢٩٨ .

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٣٩ .

(٥) ٢/ ٢١٩ - ٢٢٢ .

(٦) في معاني القرآن ١/ ١٦٠ .

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٤٨٥) من حديث أبي الدرداء.

وقيل: ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ أي: يلتمسون الدنيا من غير وجهها؛ لأنَّ نعمة الله لا تُلتَمسُ إلا بطاعته دون معصيته ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبون لها زَيْغاً وميلاً لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم. والسبيل تُذكَّر وتُؤنَّث(١). والعِوَجُ؛ بِكسر العينِ: في الدِّين والأمر والأرض، وفي كلِّ ما لم يكن قائماً. وبفتح العين: في كل ما كان قائماً، كالحائط والرُّمح ونحوه؛ وقد تقدم في «آل عمران»(٢) وغيرها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: ذهابٍ عن الحقِّ، بعيدٍ عنه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ أي: قبلَك يا محمد ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أي: بِلُغتهم؛ ليبيِّنوا لهم أمر دينهم(٣)، ووحَّد اللسان ـ وإن أضافه إلى القوم ـ لأن المراد اللغة، فهي اسمُ جنسٍ يقع على القليل والكثير، ولا حُجَّةَ للعجم وغيرهم في هذه الآية؛ لأنَّ كلَّ من تُرجِمَ له ما جاء به النبيُّ ﷺ ترجمةً يفهمها لزِمَتْه الحجَّة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨]، وقال ﷺ: «أُرسِلَ كلُّ نبيٍّ إلى أمته بلسانها، وأرسلني اللهُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ من خَلْقِه»(٤). وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم لم يؤمِنْ بالذي أُرسِلتُ به، إلا كان من أصحاب النار». خرَّجه مسلم، وقد تقدَّم(٥).

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ﴾ ردٌّ على القَدَريَّة في نفوذ المشيئة، وهو

---

(١) الصحاح (سبل).

(٢) ٥/ ٢٣٣ .

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٥٩٢ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢٠٠ .

(٤) أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٩٤٢).

(٥) صحيح مسلم (١٥٣)، وسلف ٢/ ١٦٠ .

مستأنَفٌ، وليس بمعطوفٍ على «لِيُبَيِّنَ»؛ لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا للإضلال. ويجوز النصبُ في «يضلُّ»؛ لأن الإرسال صار سبباً للإضلال؛ فيكون كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، وإنما صار الإرسال سبباً للإضلال؛ لأنهم كفروا به لمَّا جاءهم، فصار كأنه سببٌ لكفرهم[١]. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدَّم معناه[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ⑤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحجَّتنا وبراهيننا، أي: بالمعجزات الدالَّة على صدقه. قال مجاهد: هي التسع الآيات[٣].

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ نظيرُه قولُه تعالى لنبينا عليه الصلاة والسلام أول السورة: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. وقيل: «أَنْ» هنا بمعنى: أي، كقوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ [ص:٦]: أي امشوا[٤].

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أي: قُلْ لهم قولاً يتذكَّرون به أيامَ الله تعالى. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: بنعم الله عليهم[٥]. وقاله أبيّ بن كعب، ورواه مرفوعاً[٦]، أي: بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن التِّيه إلى سائر النِّعم.

---

(١) استبعد الزجَّاج في معاني القرآن ٣/ ١٥٤ النصب وقال: الرفع هو الوجه، وهو الكلام، وعليه القراءة.

(٢) معنى «العزيز» سلف ٢/ ٤٠٣ - ٤٠٤، ومعنى «الحكيم» سلف ١/ ٤٢٩.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٩٣ و ٥٩٤.

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٤ - ١٥٥.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٤١ والطبري ١٣/ ٥٩٦ و ٥٩٧ من قول مجاهد، و١٣/ ٥٩٧ من قول قتادة، ولم نقف على من أخرجه من قول ابن عباس.

(٦) أخرجه من قول أبي بن كعب: عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١١٢٩)، وأخرجه أيضاً عنه مرفوعاً (٢١١٢٨).

وقد تُسمَّى النِّعم: الأيام، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

وأيـــامٍ لـــنـــا غُـــرٍّ طِـــوالٍ[١]

وعن ابن عباس أيضاً ومقاتل: بوقائع الله في الأمم السالفة؛ يُقال: فلانٌ عالم بأيَّام العرب، أي: بوقائعها[٢]. قال ابن زيد: يعني: الأيام التي انتقم فيها من الأمم الخالية[٣] وكذلك روى ابنُ وهب عن مالك قال: بلاؤه. وقال الطبريّ: وعِظْهُمْ بما سلف في الأيام الماضية لهم[٤]، أي: بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة، وقد كانوا عبيداً مستذَلِّين. واكتفى بذكر الأيام عنه؛ لأنها كانت معلومةً عندهم.

وروى سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، عن أُبيّ بن كعب قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بينا موسى عليه السلام في قومه يُذكِّرهم بأيَّامِ الله، وأيَّامُ الله بَلاؤه ونَعماؤه» وذكر حديث الخضر[٥]. ودلَّ هذا على جواز الوعظِ المرقِّقِ للقلوب، المقوِّي لليقين، الخالي من كل بدعة، والمنزَّه عن كلِّ ضلالةٍ وشُبهة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في التذكير بأيَّام الله ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ أي: دلالات. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: كثير الصبر على طاعة الله، وعن معاصيه. ﴿شَكُورٍ﴾ لنعم الله. وقال قتادة: هو العبد؛ إذا أُعطِيَ شكر، وإذا ابتُلِيَ صبر[٦]. ورُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الإيمان نصفان: نصفٌ صبر، ونصفٌ شكر» ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٧]. ونحوه عن الشَّعبيِّ موقوفاً[٨]. وتَوارى الحسن

---

(١) شرح القصائد السبع لابن الأنباري ص٣٨٨، وعجزه: عَصَينا المَلْكَ فيها أن نَدينا، وسلف ١/٢١٦.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/٢٦.

(٣) تفسير الطبري ١٣/٥٩٧.

(٤) تفسير الطبري ١٣/٥٩٤.

(٥) أخرجه مسلم (٢٣٨٠): (١٧٢)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١١٢٠).

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/٥٩٨.

(٧) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٥٩) من حديث أنس بن مالك، لكن في إسناده عتبة بن السكن ويزيد بن أبان الرقاشي، وهما متروكان. ميزان الاعتدال ٣/٢٨ و ٤/٤١٨.

(٨) بلفظ: الشكر نصف الإيمان، والصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله. وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤٤٤٨).

البصريُّ عن الحجَّاج سبعَ سنين، فلما بلغه موتُه قال: اللهمَّ قد أمتَّه فأمِتْ سُنَّته. وسجد شكراً وقرأ: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»[١].

وإنما خصَّ بالآيات كلَّ صبَّارٍ شكور؛ لأنه يَعتبِرُ بها ولا يغفُل عنها، كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥] وإن كان منذِراً للجميع.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ تقدَّم في «البقرة» مستوفًى والحمد لله[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ قيل: هو من قول موسى لقومه. وقيل: هو من قول الله، أي: واذكُرْ يا محمد إذ قال ربك كذا. و«تَأَذَّنَ» وآذنَ بمعنى: أَعْلَمَ؛ مثل: أَوْعَدَ وتَوَعَّدَ[٣]؛ رُوي معنى ذلك عن الحسن وغيره. ومنه الأذان؛ لأنه إعلام، قال الشاعر:

فَلَمْ نَشْعُرْ بضوءِ الصُّبحِ حتَّى ... سمِعْنا في مجالِسِنا الأَذِينا[٤]

وكان ابن مسعود يقرأ: «وإذْ قالَ ربُّكُمْ»[٥]. والمعنى واحد.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: لئن وحَّدتم وأطعتم لأزيدنَّكم مما يجب الشكر

---

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم في «الحلية» ٢/ ١٥٩ دون قراءة الآية.

(٢) ٢/ ٨٠ - ٨٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٥ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٦٩ ، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٠٠ .

(٤) قائله الراعي النميري، وهو في ديوانه ص٢٧٦ ، وفيه: «مساجدنا» بدل: «مجالسنا».

(٥) وهي قراءة شاذة، ينظر البحر المحيط ٥/ ٤٠٧ ، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٠١ .

عليه، وهي نعمي[١]. وقال الربيع: المعنى[٢]: لئن شكرتُم إنعامي لأزيدنَّكم من فضلي. الحسن: لئن شكرتُم نعمتي لأزيدنَّكم من طاعتي[٣]. ابن عباس: لئن وَحَّدْتُم وأطعتُم لأزيدنَّكم من الثواب[٤]. والمعنى متقارب في هذه الأقوال، والآية نصٌّ في أنَّ الشكر سببُ المزيد، وقد تقدَّم في «البقرة»[٥] ما للعلماء في معنى الشكر.

وسُئِلَ بعضُ الصُّلحاء عن الشكر لله، فقال: ألَّا تتقوَّى بنعمه على معاصيه[٦].

وحُكيَ عن داود عليه السلام أنه قال: أيْ ربِّ، كيف أشكرُك، وشكري لك نعمةٌ مجدَّدةٌ منك عليَّ. قال: يا داود، الآن شكرتَني[٧].

قلت: فحقيقةُ الشكر على هذا الاعترافُ بالنعمة للمنعِم، وألّا يصرفَها في غير طاعته؛ وأنشد الهادي[٨] وهو يأكل:

أنالَكَ رِزقَه لتقومَ فيهِ بطاعتِه وتشكرَ بعضَ حقِّهْ
فلم تشْكُرْ لِنعمتِهِ ولكِنْ قَوِيتَ على معاصِيهِ برزقِهْ[٩]

فغَصَّ باللُّقمة، وخنقته العَبْرة.

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٤ .

(٢) من قوله: «وحَّدتم» إلى هذا الموضع من (ظ). وكلام الربيع في زاد المسير ٤/ ٣٤٧ .

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٠٢ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٤ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٤٧ .

(٥) ٢/ ١٠٤ .

(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٥٥٠)، والخطيب في «تاريخه» ٧/ ٢٤٤ من كلام الجنيد بن محمد البغدادي ﷺ.

(٧) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٢٩ إلى ابن أبي حاتم.

(٨) هو الخليفة موسى بن المهدي محمد بن المنصور، وليَ الخلافة بعد أبيه المهدي، مات سنة ١٧٠هـ، وعمره ثلاث وعشرون سنة، وكانت مدة خلافته سنة وشهر، وولي الخلافة من بعده أخوه الرشيد. السير ٧/ ٤٤١ - ٤٤٣ .

(٩) ذكرهما بنحوهما المبرِّد في الكامل ٢٠/ ٦٦٤ في ثلاثة أبيات، نسبت في بعض نسخه لمحمود الوراق (كما ذكر محققه).

وقال جعفر الصادق: إذا سمعتَ النعمةَ نعمةَ الشكر؛ فتأهَّبْ للمزيد.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ أي: جحدتُم حقِّي، وقيل: نِعَمي[١]؛ وَعَدَ بالعذاب على الكفر، كما وَعَدَ بالزيادة على الشكر[٢]، وحُذفتِ الفاءُ التي في جواب الشرط من «إنْ» للشهرة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: لا يَلحقُه بذلك نقص، بل هو الغني. «الحميدُ» أي: المحمود.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ النبأ: الخبر، والجمع: الأنباء؛ قال:

أَلَـمْ يَـأْتـيـكَ والأنـبـاءُ تَـنْـمـي[٤]

ثم قيل: هو من قول موسى. وقيل: من قول الله، أي: واذكُر يا محمد إذ قال ربُّك كذا. وقيل: هو ابتداء خطاب من الله تعالى. وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهورٌ، قصَّه الله في كتابه.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: لا يُحصي عددَهم إلا الله،

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٤ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٢٣ .

(٣) وقال الشوكاني في فتح القدير ٣/ ٩٦ : اللام في «لئن شكرتم» هي الموطئة للقسم، وقوله: «لأزيدنّكم» سادٌّ مسدَّ جوابي الشرط والقسم، وكذا اللام في «ولئن كفرتم»، وقوله: «إنَّ عذابي لشديد» سادٌّ مسدَّ الجوابين أيضاً.

(٤) هو صدر بيت لقيس بن زهير، وسلف عند تفسير الآية (٩٠) من سورة يوسف.

ولا يعرف نسبَهم إلا الله[١]؛ والنَّسَّابون وإن نَسَبُوا إلى آدم؛ فلا يدَّعون إحصاء جميع الأمم، وإنما ينسبون البعض، ويُمسِكون عن نسب البعض، وقد رُويَ عن النبيِّ ﷺ لمَّا سمع النَّسَّابين ينسبون إلى مَعَدِّ بنِ عدنان، ثم زادوا، فقال: «كذَبَ النسَّابون، إن الله يقول: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾»[٢].

وقد رُويَ عن عُرْوةَ بنِ الزُّبير أنه قال: ما وجدنا أحداً يعرفُ ما بين عدنان وإسماعيل[٣].

وقال ابن عباس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يُعرفون[٤]. وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: كذب النَّسَّابون[٥]. ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحُجج والدَّلالات. ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: جعل أولئك القومُ أيديَ أنفسهم في أفواههم ليَعضُّوها غيظاً مما جاء به الرسل؛ إذ كان فيه تَسفيهُ أحلامهم، وشتمُ أصنامهم؛ قاله ابن مسعود[٦]، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد، وقرأ: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[٧] [آل عمران: ١١٩]. وقال ابن عباس: لمَّا سمعوا كتاب الله؛ عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم[٨]. وقال أبو صالح: كانوا إذا قال لهم نبيُّهم: أنا رسول الله إليكم، أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم: أَنِ اسكُتْ؛

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٣، والوسيط ٣/ ٢٤.

(٢) أخرجه ابن سعد ١/ ٥٦، وخليفة بن خياط في طبقاته ١/ ٣ عن ابن عباس، وفيه أنه قرأ قوله تعالى: ﴿وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨] بدلاً من قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وفي إسناده هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وهو متروك، وأبوه محمد بن السائب متهم بالكذب. ميزان الاعتدال ٣/ ٥٥٦ - ٥٥٧ و ٤/ ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٣) أخرجه ابن سعد ١/ ٥٨، وخليفة بن خياط في طبقاته ١/ ٢.

(٤) أخرجه خليفة بن خياط في طبقاته ١/ ٣.

(٥) أخرجه ابن سعد ١/ ٥٦.

(٦) ذكره المصنف عنه بالمعنى، وسيذكر لفظه قريباً.

(٧) الدر المنثور ٤/ ٧٢.

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٠٧.

تكذيباً له، وردًّا لقوله. وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. والضميران للكفار، والقول الأول أصحُّها إسناداً؛ قال أبو عبيد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عن عبد الله في قوله تعالى ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ قال: عَضُّوا عليها غيظاً[١]. وقال الشاعر:

لـو أنَّ سَـلـمـى أبْـصَـرَتْ تَـخَـدُّدي ودِقَّـةً فـي عَـظْـمِ سـاقـي ويـدي

وبُـعْـدَ أهـلـي وجَـفـاءَ عُـوَّدي عَـضَّـتْ من الـوَجْـدِ بـأطـرافِ الـيـدِ[٢]

وقد مضى هذا المعنى في «آل عمران» مجوَّداً، والحمد لله[٣].

وقال مجاهد وقَتادة: رَدُّوا على الرسل قولَهم، وكذَّبوهم بأفواههم. فالضمير الأول للرسل، والثاني للكفار. وقال الحسن وغيره: جعلوا أيديَهم في أفواه الرسل ردًّا لقولهم[٤]. فالضمير الأول على هذا للكفار، والثاني للرسل. وقيل: معناه: أَوْمؤوا للرسل أن يسكتوا[٥]. وقال مقاتل: أخذوا أيديَ الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم[٦]. وقيل: ردَّ الرسل أيديَ القوم في أفواههم. وقيل: إن الأيديَ هنا النِّعم، أي: ردُّوا نِعَمَ الرسلِ بأفواههم، أي: بالنطق والتكذيب، ومجيء الرسل بالشرائع نِعَمٌ، والمعنى: كذَّبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل. و«في» بمعنى الباء؛ يقال: جلستُ في البيت وبالبيت[٧]، وحروف الصفات

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤١، والطبري ١٣/ ٦٠٥، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩١١٩)، والحاكم ٢/ ٣٥١ من طريق سفيان الثوري، به. وعبد الله: هو ابن مسعود، ﷺ.

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٢٤، والكامل ١/ ٢٦٣.

(٣) ٥/ ٢٧٨ - ٢٨٠.

(٤) زاد المسير ٤/ ٣٤٩.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦، والوسيط ٣/ ٢٥.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦.

(٧) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٩ - ٧٠، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٦.

يُقام بعضُها مقامَ بعض. وقال أبو عبيدة[١]: هو ضرب مَثَل، أي: لم يُؤمنوا ولم يُجيبوا؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت: قد ردَّ يدَه في فيه. وقاله الأخفش أيضاً. وقال القُتَبيُّ[٢]: لم نسمع أحداً من العرب يقول: ردَّ يدَه في فيه إذا ترك ما أُمِرَ به، وإنما المعنى: عَضُّوا على الأيدي حَنَقاً وغيظاً؛ لقول الشاعر:

يَـرُدُّونَ فـي فِـيـهِ عَـشْـرَ[٣] الـحـسـو دِ حـتـى يَـعَـضَّ عـلـيَّ الأكُـفَّـا[٤]

يعني أنهم يَغيظون الحسود حتى يَعَضَّ على أصابعه وكفَّيه. وقال آخر:

قَـدَ افْـنـى أنـامِـلَـهُ أزْمُـهُ فـأضحى يَـعَـضُّ علـيَّ الـوَظِـيفا[٥]

﴿وَقَالُوٓاْ﴾: يعني الأمم للرسل: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: بالإرسال على زعمكم، لا أنهم أقرُّوا أنهم أُرسِلوا[٦]. ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾ أي: في ريبٍ ومِرْيةٍ ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد. ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: مُوجِبٍ للرِّيبة؛ يُقال: أَرَبْتُه: إذا فعلتَ أمراً أوجبَ رِيبةً وشكًّا[٧]، أي: نظنُّ أنكم تطلبون الملك والدنيا.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ استفهامٌ معناه الإنكار، أي: لا شكَّ

---

(١) في مجاز القرآن ١/ ٣٣٦.

(٢) في غريب القرآن ص٢٣٠ - ٢٣١، وينظر المعاني الكبير له ٢/ ٨٣٤.

(٣) في (م): غِشّ.

(٤) أورد شطره الأول ابن قتيبة في المصدرين السالفين، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٤٨.

(٥) قائله صخر الغي كما في ديوان الهذليين ٢/ ٧٣ وأورد البيت ابن قتيبة وابن الجوزي (في المصادر السالفة). قوله: الأزم: شدة العَضّ بالفم كلِّه، وقيل: بالأنياب. والوَظيف: مُستدَقُّ الذراع والساق من الخيل والإبل ونحوهما. اللسان (أزم) و(وظف).

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٥، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٤٩.

(٧) تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٩.

في الله، أي: في توحيده. قاله قتادة. وقيل: في طاعته. ويَحتَمِلُ وجهاً ثالثاً: أفي قدرة الله شكٌّ؟! لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها[١]، يدلُّ عليه قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقِها ومخترعِها ومنشئِها ومُوجدِها بعد العدم؛ لينبِّه على قدرته، فلا تجوز العبادةُ إلا له. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ أي: إلى طاعته بالرسل والكتب. ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قال أبو عبيدة[٢]: «مِنْ» زائدة. وقال سيبويه: هي للتبعيض. ويجوز أن يُذكر البعضُ والمرادُ منه الجميع. وقيل: «مِن» للبدل، وليست بزائدةٍ ولا مُبعِّضة، أي: لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب[٣]. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني الموت، فلا يعذبكم في الدنيا. ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ في الهيئة والصورة؛ تأكلون مما نأكل، وتشربون مما نشرب، ولستُم ملائكة. ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجَّةٍ ظاهرة؛ وكان هذا مِحالاً منهم؛ فإنَّ الرسلَ ما دَعَوا إلا ومعهم المعجزات[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: في الصورة والهيئة كما قلتم. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: يتفضَّلُ عليه بالنبوّة.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٢٥، وقول قتادة في الوسيط ٣/ ٢٥، وزاد المسير ٤/ ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٢) في مجاز القرآن ١/ ٣٣٦.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٢٥ - ١٢٦.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٢٦.

وقيل: بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية. وقال سهل بن عبد الله: بتلاوة القرآن وفهم ما فيه[١].

قلت: وهذا قولٌ حسن، وقد خرَّجَ الطبريُّ من حديث ابن عمر قال: قلتُ لأبي ذَرٍّ: يا عَمُّ أوصِني. قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ كما سألتني، فقال: «ما من يومٍ ولا ليلةٍ ولا ساعةٍ إلا ولله فيه صدقةٌ يمُنُّ بها على من يشاء من عباده، وما مَنَّ اللهُ تعالى على عباده بمثل أن يُلهِمَهم ذِكْرَه»[٢].

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بـحُـجَّـةٍ وآيـة. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بمشيئته، وليس ذلك في قدرتنا، أي: لا نستطيع أن نأتيَ بحُجَّةٍ كما تطلبون إلا بأمره وقدرته، فلفظُه لفظُ الخبر، ومعناه النفي؛ لأنه لا يُحظَّرُ على أحدٍ ما لا يقدِرُ عليه[٣].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تقدَّم معناه[٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ «ما» استفهام في موضع رفعٍ بالابتداء، و«لَنَا» الخبر، وما بعدها في موضع الحال[٥]؛ التقدير: أيُّ شيءٍ لنا في ترك التوكل على الله. ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ أي: الطريق الذي يوصل إلى رحمته، ويُنجي من سَخَطِهِ ونِقْمَتِه. ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ لام قسم؛ مجازه: واللهِ لَنَصْبِرَنَّ ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ به، أي: من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثِقةً بالله أنه يكفينا ويُثيبنا. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٢٦ .

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٩٨٧)، والبزار في «مسنده» (٣٨٩٠)، وابن حبان في «المجروحين» ١/ ٢٤٤ ، في ترجمة حسين بن عطاء راوي الحديث، وقال: لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد لمخالفته الأثبات في الروايات، وذكره أيضاً في الثقات ٦/ ٢٠٩ ، وقال: يخطئ ويدلس.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٩ ، وفي مطبوعه «الحظر» بدلاً من «الخبر».

(٤) ٥/ ٢٩٠ - ٢٩٢ .

(٥) مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠١ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ اللام لام قسم، أي: واللهِ لَنخرجنَّكم. ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ أي: حتى تعودوا، أو: إلا أن تعودوا. قاله الطبريُّ وغيره[١]. قال ابن العربي: وهو غيرُ مفتقرٍ إلى هذا التقدير؛ فإنَّ «أوْ» على بابها من التخيير، خيَّر الكفارُ الرسلَ بين أن يعودوا في مِلَّتهم أو يُخرجوهم من أرضهم، وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ﴾[٢] [الإسراء: ٧٦-٧٧]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «الأعراف»[٣] وغيرها. ﴿فِى مِلَّتِنَا ۖ﴾ أي: إلى ديننا، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: مقامَه بين يديّ يوم القيامة، فأُضيف المصدر إلى الفاعل[٤]. والمَقام مصدرٌ كالقيام؛ يقال: قام قياماً ومَقاماً، وأضاف ذلك إليه؛ لاختصاصه به. والمَقام بفتح الميم: مكان الإقامة، وبالضَّمِّ: فِعْلُ الإقامة[٥]. و﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي: قيامي عليه، ومراقبتي له؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ﴾ [الرعد: ٣٣]. وقال الأخفش:

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٦١٢.

(٢) أحكام القرآن ٣/ ١١٠٤ - ١١٠٥.

(٣) ٩/ ٢٨٤.

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٣١، والنكت والعيون ٣/ ١٢٦، وينظر قول المصنف عند تفسير الآية ٧٣ من سورة مريم.

«ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي» أي: عذابي، «وَخَافَ وَعِيدِ» أي: القرآن وزواجره. وقيل: إنه العذاب. والوعيد الاسم من الوعد.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ أي: واستنصروا، أي: أُذِنَ للرسل في الاستفتاح على قومهم، والدعاء بهلاكهم. قاله ابن عباس وغيره[١]، وقد مضى في «البقرة»[٢]. ومنه الحديث: إنَّ النبيَّ ﷺ كان يستفتِحُ بصعاليك المهاجرين، أي: يستنصر. وقال ابن زيد: استفتحت الأمم بالدعاء كما قالت قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية[٣] [الأنفال:٣٢]. ورُوِيَ عن ابن عباس[٤]. وقيل: قال الرسول: «إنهم كذبوني فافتَحْ بيني وبينهم فتحاً». وقالت الأمم: إن كان هؤلاء صادقين فعذِّبنا. عن ابن عباس أيضاً[٥]، نظيره: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩] ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٧٧].

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الجبَّار: المتكبِّر الذي لا يرى لأحدٍ عليه حقًّا. هكذا هو عند أهل اللغة، ذكره النحاس[٦]. والعنيد: المعاندُ للحقِّ والمُجانِبُ له. عن ابن عباس وغيره[٧]، يُقال: عَنَدَ عن قومه، أي: تباعد عنهم[٨]. وقيل: هو من العَنَد،

---

(١) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠ أن فرقةً قرأت: «واستفتِحوا» بكسر التاء، على معنى الأمر للرسل. ثم قال: قرأها ابن عباس ومجاهد وابن مُحيصن.

(٢) ٢/ ٢٤٨ - ٢٤٩ ، وسلف هناك أيضاً الحديث الذي سيذكره المصنف بعده.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٢٧ ، وزاد المسير ٤/ ٣٥١ .

(٤) لم نقف عليه عن ابن عباس.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٨ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٥٢١ .

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٦١٥ عن مجاهد، وكذلك نقله عنه البغوي ٣/ ٢٩ ، وهو في تفسيره ١/ ٣٣٤ .

(٨) تهذيب اللغة ٢/ ٢٢١ .

وهو الناحية[١]. وعاندَ فلانٌ، أي: أخذَ في ناحيةٍ مُعْرِضاً؛ قال الشاعر:

إذا نـزلـتُ فـاجـعـلـونـي وَسَـطـا ... إنِّـي كـبـيـرٌ لا أُطِـيـقُ الْـعُـنَّـدا[٢]

وقال الهَرَويُّ[٣]: قوله تعالى: ﴿جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: جائرٍ عن القصد، وهو العَنُود والعَنيد والعانِد[٤]. وفي حديث ابن عباس وسئِل عن المستحاضة، فقال: إنه عِرْقٌ عانِدٌ[٥]. قال أبو عبيد[٦]: هو الذي عَنَد وبَغى؛ كالإنسان يعانِد، فهذا العِرقُ في كثرة ما يخرج منه بمنزلته. وقال شَمِر: العانِدُ: الذي لا يرقأ[٧]. وقال عمر يذكر سيرته: أَضُمُّ العَنُود؛ قال الليث: العَنُود من الإبل: الذي لا يُخالطها، إنما هو في ناحيةٍ أبداً[٨]؛ أراد مَنْ هَمَّ بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفتُ به إليها. وقال مقاتل: العنيد: المتكبر[٩]. وقال ابن كَيْسان: هو الشامخ بأنفه. وقيل: العَنُود والعَنيد: الذي يتكبَّر على الرسل ويذهب عن طريق الحقّ فلا يسلكها؛ تقول العرب: شرُّ الإبل العَنُود الذي يخرج عن الطريق[١٠]. وقيل: العنيد: العاصي. وقال قتادة: العنيد: الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله[١١].

---

(١) ينظر الصحاح (عند).

(٢) الرجز في أدب الكاتب ص٤٩١، وأمالي ابن الشجري ١/ ٤٢٢، وخزانة الأدب ١١/ ٣٢٣ وفيه وفي (د) و(ظ): فاجعلاني بدل: فاجعلوني.

(٣) في غريب الحديث ٤/ ٢٣٥.

(٤) قاله أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٩٠.

(٥) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٤/ ٢٣٤ - ٢٣٥، وابن المنذر في الأوسط ١/ ١٥٩، وقد روي من حديث عائشة كما في مسند أحمد (٢٥٣٩١)، وسنن النسائي ١/ ١٢٢.

(٦) في غريب الحديث ٤/ ٢٣٥.

(٧) ينظر اللسان (عند).

(٨) تهذيب اللغة ٢/ ٢٢٢، وغريب الحديث لابن الجوزي ٢/ ١٣٠.

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٢٩.

(١٠) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦١٦.

(١١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤١، والطبري ١٣/ ٦١٦، وهو في الوسيط للواحدي ٣/ ٢٦، وتفسير البغوي ٣/ ٢٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠.

قلت: والجبار والعنيد في الآية بمعنًى واحد، وإن كان اللفظ مختلفاً، وكلُّ متباعدٍ عن الحقِّ جبَّارٌ وعنيدٌ، أي: متكبِّر. وقيل: إنَّ المُرادَ به في الآية أبو جهل؛ ذكره المَهدويّ[١]. وحكى الماورديُّ في كتاب «أدب الدنيا والدين»[٢] أنَّ الوليدَ بن يزيد بن عبد الملك تفاءَل يوماً في المصحف، فخرج له قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، فمزَّقَ المصحفَ، وأنشأ يقول:

أتُوعِدُ كلَّ جَبَّارٍ عَنيدِ فها أنا ذاكَ جبَّارٌ عَنيدُ
إذا ما جِئتَ ربَّكَ يوم حَشْرٍ فَقُلْ يا رَبِّ مَزَّقني الوليدُ

فلم يلبَثْ إلا أياماً حتى قُتِلَ شرَّ قِتلةٍ، وصُلِبَ رأسُه على قصره، ثم على سُورِ بلده.

قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: من وراء ذلك الكافر جهنم، أي: من بعد هلاكه. ووراء بمعنى بَعْد[٣]؛ قال النابغة[٤]:

حَلَفتُ فلم أترُكْ لِنفسكَ رِيبةً وليس وراءَ اللهِ للمرءِ مذهبُ

أي: بعد الله، جلَّ جلالُه، وكذلك قوله تعالى [في الآية التالية]: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: من بعده، وقوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ [البقرة: ٩١] أي: بما سواه. قاله الفراء[٥]. وقال أبو عبيد[٦]: بما بعده. وقيل: «مِنْ وَرَائِهِ» أي: من أمامه، ومنه قول الشاعر:

ومِن ورائِكَ يومٌ أنتَ بالِغُهُ لا حاضرٌ مُعجِزٌ عنه ولا بادِي[٧]

---

(١) وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٠٣ .
(٢) ص٢٨٩ - ٢٩٠ .
(٣) النكت والعيون ٣/ ١٢٨ .
(٤) هو الذبياني، والبيت في ديوانه ص١٧ ، وسلف ١٠/ ٣٨٨ .
(٥) في معاني القرآن ١/ ٦٠ .
(٦) ينظر تهذيب اللغة ١٥/ ٣٠٤ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٦ .
(٧) ذكره في النكت والعيون ٣/ ١٢٧ .

وقال آخر:

أَتَرْجُو بنو مروانَ سمعي وطاعتي وقومي تميمٌ والفلاةُ ورائِيا[١]

وقال لبيد[٢]:

أليسَ ورائي إنْ تراخَتْ منيَّتي لُزومُ العَصا تُحنَى عليها الأصابعُ

يريد أمامي. وفي التنزيل: ﴿كَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف:٧٩] أي: أمامهم. وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وأبو عليّ قُطرب وغيرهما[٣]. وقال الأخفش: هو كما يقال: هذا الأمر من ورائك، أي: سوف يأتيك، وأنا من وراء فلان، أي: في طلبه، وسأصل إليه[٤]. وقال النحاس[٥] في قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: من أمامه، وليس من الأضداد ولكنه من توارى، أي: استتَر. وقال الأزهري[٦]: إنَّ «وراء» تكون بمعنى «خلف وأمام»، فهو من الأضداد. وقاله أبو عبيدة أيضاً[٧]. واشتقاقها[٨] مما توارى واستتر، فجهنم تَوارى ولا تظهر، فصارت من وراء؛ لأنها لا تُرى. حكاه ابن الأنباري[٩]، وهو حسن.

قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: من ماءٍ مثل الصديد، كما يُقال للرجل الشجاع: أسد، أي: مثلُ الأسد، وهو تمثيلٌ وتشبيه[١٠]. وقيل: هو ما يسيل من

---

(١) البيت لسوار بن المُضرَّب، كما في الكامل للمبرِّد ٢/ ٦٢٨، والأضداد لابن السكيت ص١٧٦، والأضداد للأصمعي ص٢٠، والأضداد لابن الأنباري ص٦٨. ونسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٠ لمساور بن حمثان.

(٢) ديوانه ص١٧٠.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٣٧، وسلف هذا المعنى قريباً.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٩.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٥٢٢.

(٦) في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٠٤.

(٧) في مجاز القرآن ١/ ٣٣٧.

(٨) في (ظ): واشتقاقه، وفي (م): واشتقاقهما.

(٩) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٢٨.

(١٠) المصدر السابق.

أجسام أهل النار من القيح والدم[١]. وقال محمد بن كعب القُرَظيّ والربيع بن أنس: هو غُسَالة أهل النار، وذلك ماءٌ يسيل من فروج الزُّناة والزواني[٢]. وقيل: هو من ماءٍ كراهتُه[٣] تَصدُّ عنه، فيكون الصديد مأخوذاً من الصَّدِّ.

وذكر ابن المبارك: أخبرنا صفوان بن عمرو، عن عُبيد الله بن بُسْر، عن أبي أُمامة، عن النبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قال: «يُقرَّبُ إلى فِيهِ فيكرهه، فإذا أُدنيَ منه شَوَى وجهَه، ووقعتْ فَرْوةُ رأسِه، فإذا شرِبَه قَطَّعَ أمعاءَه حتى تخرجَ من دُبُرِه، يقول الله: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول الله: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]» خرَّجه التِّرمذي، وقال: حديث غريب[٤]. وعُبيد الله بن بُسْر الذي روى عنه صفوان بن عمرو حديثَ أبي أُمامة لعلَّه أن يكون أخا عبد الله بن بُسْر.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي: يَتَحَسَّاه جُرَعاً لا مرَّةً واحدةً؛ لمرارته وحرارته[٥]. ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: يبتلعه؛ يقال: جرع الماء واجترعه وتجرَّعه بمعنى[٦]. وساغ الشَّرابُ في الحلق يسوغ سَوْغاً: إذا كان سَلِساً سهلاً، وأساغه اللهُ إساغةً[٧]. و«يَكَادُ» صلة، أي: يُسيغه بعد إبطاء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] أي:

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦١٩ عن الضحاك. وأخرجه أيضاً عن مجاهد، وهو في تفسيره ١/ ٣٣٤، وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ١٥٧، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣١.

(٢) زاد المسير ٤/ ٣٥٣.

(٣) في (د) و(م) والنكت والعيون (والكلام منه): كرهته.

(٤) الزهد لابن المبارك ـ زوائد نعيم بن حماد ـ (٣١٤)، وسنن الترمذي (٢٥٨٣)، وأخرجه من طريق ابن المبارك أيضاً أحمد (٢٢٢٨٥)، والنسائي في الكبرى (١١٢٦٣) وغيرهما، ونقل الترمذي بإثر الحديث عن البخاري قوله: لا نعرف عبيد الله بن بُسر إلا في هذا الحديث.

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٥٣.

(٦) تهذيب اللغة ١/ ٣٦١.

(٧) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٢٧.

فعلوا بعد إبطاء؛ ولهذا قال: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ٢٠]. فهذا يدلُّ على الإساغة. وقال ابن عباس: يُجيزه ولا يمرُّ به[١].

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال ابن عباس: أي: يأتيه أسباب الموت من كل جهة: عن يمينه وشماله، ومن فوقه وتحته، ومن قُدَّامه وخلفه[٢]، كقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال إبراهيم التيمي: يأتيه من كلِّ مكانٍ من جسده، حتى من أطراف شعره[٣]؛ للآلام التي في كلِّ مكانٍ من جسده[٤]. وقال الضحَّاك: إنه لَيأتيه الموت من كلِّ ناحيةٍ ومكان، حتى من إبهام رجليه. وقال الأخفش: يعني البلايا التي تصيب الكافر في النار سمَّاها موتاً، وهي من أعظم الموت[٥]. وقيل: إنه لا يبقى عضوٌ من أعضائه إلا وُكِّلَ به نوعٌ من العذاب؛ لو مات سبعين مرةً لكان أهونَ عليه من نوعٍ منها في فردِ لحظة؛ إما حيةٌ تَنهشُه، أو عقربٌ تَلسِبُه[٦]، أو نارٌ تَسفعُه، أو قيدٌ برجليه، أو غُلٌّ في عنقِه، أو سلسلةٌ يُقرَّنُ بها، أو تابوتٌ يكون فيه، أو زَقُّومٌ، أو حميمٌ، أو غيرُ ذلك من العذاب. وقال محمد بن كعب: إذا دعا الكافرُ في جهنم بالشراب فرآه، مات موتاتٍ، فإذا دنا منه؛ مات موتاتٍ، فإذا شرب منه؛ مات موتاتٍ، فذلك قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾. قال الضحَّاك: لا يموت فيستريح. وقال ابن جُرَيج: تَعلَقُ رُوحُه في حَنْجَرتِه فلا تخرج من فِيه فيموتَ، ولا تَرجِعُ إلى مكانها من جوفه فتنفَعَه الحياة[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٩.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٢٨، وتفسير البغوي ٣/ ٢٩، وزاد المسير ٤/ ٣٥٤.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٣٢، والطبري ١٣/ ٦٢١، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٢١٢.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٢٨.

(٥) زاد المسير ٤/ ٣٥٤.

(٦) في (ظ): «تلسَعُه»، وكلاهما بمعنى.

(٧) كذا نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٥٣ لابن جريج، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٢١ عن ابن جريج، عن مجاهد.

ونظيره قوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى:١٣]. وقيل: يخلق الله في جسده آلاماً، كلُّ واحدٍ منها كألم الموت. وقيل: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾؛ لتطاول شدائد الموت به، وامتداد سكراته عليه؛ ليكون ذلك زيادةً في عذابه.

قلت: ويظهر من هذا أنه يموت، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]، وبذلك وردت السنة[١]؛ فأحوالُ الكفار أحوالُ مَنِ استولى عليه سكراتُ الموت دائماً، والله أعلم.

﴿وَمِن وَرَائِهِ﴾ أي: من أمامه. ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: شديدٌ متواصلُ الآلامِ من غير فُتور؛ ومنه قوله: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:١٢٣] أي: شدَّةً وقوة. وقال فُضيل بن عِياض في قول الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ قال: حبس الأنفاس[٢].

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ اختلف النَّحْويُّون في رفع «مَثَلُ» فقال سيبويه: ارتفع بالابتداء، والخبر مضمر؛ التقدير: وفيما يُتلى عليكم أو يُقَصُّ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ أي: كمثل رماد ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾[٣]. وقال الزَّجَّاج[٤]: أي: مَثَلُ الذين كفروا فيما يُتلى عليكم أعمالُهم كرماد. وهو عند الفرَّاء على إلغاء المَثَل، التقدير: والذين كفروا بربهم

(١) سلف من حديث أبي سعيد الخدري ١/ ٣٧٥.

(٢) أخرجه النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٢٣.

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٦٦، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣١، وزاد المسير ٤/ ٣٥٥.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ١٥٧.

أعمالهم كرماد. وعنه أيضاً أنه على حذف مضاف؛ التقدير: مثلُ أعمالِ الذين كفروا بربهم كرماد. وذكر الأول عنه المهدويّ[١]، والثاني القُشَيريُّ والثَّعلبيُّ[٢]. ويجوز أن يكون مبتدأ، كما يقال: صفةُ فلانٍ أسمر، فـ «مَثَلُ» بمعنى صفة[٣]. ويجوز في الكلام جرُّ «أعمالهم» على بدل الاشتمال من «الَّذِينَ»[٤]، واتَّصل هذا بقوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

والمعنى: أعمالُهم مُحْبَطة غير مقبولة. والرَّماد: ما بقي بعد احتراق الشيء، فضربَ اللهُ هذه الآية مثلاً لأعمال الكفَّار في أنَّه يَمحقُها كما تَمحقُ الرِّيحُ الشديدةُ الرَّمادَ في يومٍ عاصف. والعَصْفُ: شدة الريح[٥]، وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غيرَ اللهِ تعالى. وفي وصف اليوم بالعُصُوف ثلاثةُ أقاويل: أحدها: أنَّ العُصُوفَ وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصَفُ به؛ لأنَّ الرِّيحَ تكون فيه، فجاز أن يُقال: يومٌ عاصف، كما يقال: يومٌ حارٌّ ويومٌ باردٌ، والبرد والحرُّ فيهما. والثاني: أن يُريدَ: في يومٍ عاصِفِ الرِّيحِ؛ لأنها ذُكِرتْ في أول الكلام[٦]، كما قال الشاعر:

إذا جاء يومٌ مُظْلِمُ الشَّمسِ كاسِفُ[٧]

يريد: كاسفِ الشمسِ، فحذف؛ لأنه قد مرَّ ذِكْرُه؛ ذكرهما الهَرَويُّ[٨]. والثالث أنه من نعت الريح، غير أنه لمَّا جاء بعد اليوم أُتبِعَ إعرابَه، كما قيل: جُحْرُ ضَبٍّ خرِبٍ. ذكره الثعلبيُّ والماورديُّ[٩].

---

(١) نقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣١.

(٢) وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٧٢، ونقله عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٧.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٧، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٦٦، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٣.

(٤) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٢.

(٥) الصحاح (عصف).

(٦) في النسخ: الكلمة، والمثبت من زاد المسير ٤/ ٣٥٤، والكلام فيه بنحوه.

(٧) عجز بيت لمسكين الدارمي، وهو في ديوانه ص٥٣، وصدره: وتضحك عرفان الدروع جلودنا.

(٨) وذكرهما ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٥٤.

(٩) في النكت والعيون ٣/ ١٢٩، وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦٢٤، قال النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٦٧: =

وقرأ ابنُ أبي إسحاق وإبراهيم بن أبي بكر: «في يومِ عاصفٍ»[1]. ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يعني: الكفار. ﴿مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يريد: في الآخرة، أي: من ثواب ما عملوا من البِرِّ في الدنيا؛ لإحباطه بالكفر. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي: الخسران الكبير، وإنما جعله كبيراً بعيداً؛ لفوات استدراكه بالموت.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الرؤية هنا: رؤية القلب[2]؛ لأن المعنى: ألم ينتهِ عِلمُك إليه؟. وقرأ حمزة والكسائي[3]: «خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». ومعنى «بِالْحَقِّ»: ليستدلَّ بها على قدرته. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس، أي: هو قادرٌ على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء، فلا تعصوه، فإنكم إن عصيتموه ﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أفضلَ وأطوعَ منكم؛ إذ لو كانوا مثلَ الأولين فلا فائدةَ في الإبدال. ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنعٍ[4] مُتعذِّر.

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: برزوا من قبورهم، يعني يوم القيامة.

= هذا مما لا ينبغي أن يُحمل كتابُ الله جلَّ وعزَّ عليه، وقد ذكر سيبويه أن هذا من العرب غلط، واستدلَّ بأنهم إذا ثنَّوْا قالوا: هذان جحرا ضبٍّ خربان لأنه قد استبان بالتثنية والتوحيد.

(١) بإضافة «يوم» إلى «عاصف». وينظر المحتسب ١/ ٣٦٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢.

(٢) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٣٩.

(٣) السبعة ص٣٦٢، والتيسير ص١٣٤.

(٤) في غير (ظ): منيع، وفي (ظ): ممتنع، والمثبت من زاد المسير ٤/ ٣٥٥.

والبُرُوز: الظُّهور. والبَرَاز: المكان الواسع؛ لظهوره، ومنه امرأة بَرْزة، أي: تظهر للناس[١]. فمعنى «بَرَزُوا»: ظهروا من قبورهم. وجاء بلفظ الماضي ومعناه الاستقبال[٢]، واتَّصل هذا بقوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: وقاربوا لمَّا استفتحوا فأهلكوا، ثم بُعِثوا للحساب، فبرزوا لله جميعاً لا يسترهم عنه ساتر. «لِلهِ» لأجل أمر الله إياهم بالبروز. ﴿فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ يعني الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ وهم القادة: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ يجوز أن يكون تَبَعٌ مصدراً، التقدير: ذوي تَبَعٍ. ويجوز أن يكون جمعَ تابِع، مثل: حارِس وحَرَس، وخادِم وخَدَم، وراصِد ورَصَد، وباقِر وبَقَر[٣]. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ أي: دافعون ﴿عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: شيئاً، و«مِن» صلة؛ يُقال: أغنى عنه: إذا دفع عنه الأذى، وأغناه: إذا أوصل إليه النفع. ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ أي: لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه. وقيل: لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها. وقيل: لو نجَّانا الله من العذاب لنجيناكم منه[٤].

﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ هذا ابتداء؛ خبره: «أَجَزِعْنا» أي: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من مَهربٍ وملجأ[٥]. ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، وبمعنى الاسم؛ يقال: حَاصَ فلانٌ عن كذا ـ أي: فرَّ وراغ ـ يَحِيص حَيْصاً وحُيوصاً وحَيَصاناً[٦]، والمعنى: ما لنا وجهٌ نتباعدُ به عن النار.

---

(١) ينظر اللسان (برز).

(٢) زاد المسير ٤/٣٥٦.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/١٥٨، وإعراب القرآن للنحاس ٢/٣٦٨، وتفسير الطبري ٣/٦٢٦، والوسيط ٣/٢٨، وتفسير البغوي ٣/٣٠، والمحرر الوجيز ٣/٣٣٢.

(٤) النكت والعيون ٣/١٢٩ - ١٣٠.

(٥) المصدر السابق.

(٦) ينظر اللسان (حيص).

ورُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يقولُ أهلُ النار إذا اشتدَّ بهم العذاب: تعالَوا نصبِرْ، فيصبرون خمس مئة عام، فلمَّا رأوا أنَّ ذلك لا ينفعهم قالوا: هَلُمَّ فلنجزَعْ، فيجزعون ويصيحون خمس مئة عام، فلمَّا رأوا أنَّ ذلك لا ينفعهم قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾»[1].

وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: ذُكِرَ لنا أنَّ أهل النار يقول بعضهم لبعض: يا هؤلاء، قد نزلَ بكم من البلاء والعذاب ما قد تَرَون، فهلُمَّ فلنصبِرْ؛ فلعلَّ الصَّبرَ ينفعُنا كما صبرَ أهلُ الطَّاعةِ على طاعة الله، فنفعهُم الصَّبرُ إذْ صبروا فأجمعوا رأيهم على الصَّبر، فصبروا، فطالَ صبرُهم، فجزعوا، فنادَوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: مَنجًى، فقام إبليس عند ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ يقول: لستُ بمغنٍ عنكم شيئاً ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ الحديث بطوله، وقد كتبناه في كتاب «التذكرة» بكماله[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ قال الحسن: يقف إبليس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبرٍ من نارٍ يسمعه الخلائق جميعاً[3]. ومعنى: «لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ» أي: حَصَل أهلُ الجنة في الجنة وأهلُ النار في النار[4]، على ما يأتي بيانُه في «مريم» عليها السلام[5]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني: البعث والجنة والنار، وثواب المطيع وعقاب العاصي، فصدَقكم وعدَه، ووعدتُكم أن لا بعثَ ولا جنةَ ولا نارَ،

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠.

(٢) التذكرة ص٤١٨، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٦٢٧.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٣٠، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٣١.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٣، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٢٨.

(٥) عند تفسير الآية (٣٤) منها.

ولا ثوابَ ولا عقابَ، فأخلفتُكم[١].

وروى ابن المبارك من حديث عُقْبةَ بنِ عامر، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة قال: «فيقولُ عيسى: أدلُّكم على النبيِّ الأُمِّيِّ، فيأتوني، فيأذَنُ اللهُ لي أن أقومَ، فَيثُورُ مجلسي من أطيبِ ريحٍ شَمَّها أحدٌ، حتى آتيَ ربي فيُشفِّعني، ويجعلُ لي نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكافرون: قد وجدَ المؤمنون مَنْ يشفَعُ لهم، فمن يشفَعُ لنا؟ فيقولون: ما هو غيرَ إبليس، هو الذي أضلَّنا، فيأتونه فيقولون: قد وجد المؤمنون مَنْ يشفَعُ لهم، فاشفَعْ لنا فإنَّكَ أضلَلْتنا، فَيثُور مجلسُه من أنتنِ ريحٍ شَمَّها أحدٌ، ثم يَعظُم نَحِيبُهم، ويقول عند ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الآية[٢].

«وَعْدَ الْحَقِّ»: هو إضافةُ الشيء إلى نفسه[٣]، كقولهم: مسجد الجامع. قاله الفرَّاء[٤]. وقال البصريون: وعدكم وعدَ اليومِ الحقِّ، أو: وعدكم وعدَ الوعدِ الحقِّ فصدَقكم، فحذف المصدر لدلالة الحال. ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من حُجَّةٍ وبيان، أي: ما أظهرتُ لكم حجَّةً على ما وعدتُكم وزيَّنتُه لكم في الدنيا، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ أي: أغويتكم فتابعتموني. وقيل: لم أقهركم على ما دعوتكم إليه. ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ هو استثناءٌ منقطع، أي: لكن دعوتُكم بالوَسواس فاستجبتم لي باختياركم ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾[٥]. وقيل: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾

(١) النكت والعيون ٣/ ١٣٠، وينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٤، والوسيط ٣/ ٢٩.

(٢) «المسند» (١١١) لابن المبارك، وفي «الزهد» (٣٧٤) له ـ زوائد نعيم بن حماد ـ وأخرجه من طريقه الطبري ١٣/ ٦٣٠ - ٦٣١، وفي إسناده رشدين بن سعد وعبد الرحمن بن زياد بن أنعُم الإفريقي، وهما ضعيفان. تقريب التهذيب.

(٣) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: «إلى نعته».

(٤) ينظر اللسان (جمع).

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦٢٨، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٤ - ٢٠٥، والوسيط ٣/ ٢٩، وزاد المسير ٤/ ٣٥٧.

أي: على قلوبكم وموضع إيمانكم، لكن دعوتُكم فاستجبتُم لي. وهذا على أنه خَطَبَ العاصيَ المؤمنَ والكافرَ الجاحدَ، وفيه نظر؛ لقوله: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ فإنه يدلُّ على أنه خَطَب الكفَّارَ دون العاصين الموحِّدين، والله أعلم.

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾: إذْ أجبتُموني[١] من غير حُجَّة. ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثكم. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ أي: بمُغيثيَّ. والصَّارخُ والمستصرخ: هو الذي يطلب النُّصرةَ والمعاونة، والمُصرِخُ: هو المغيث[٢]. قال سَلَامة بن جَنْدَل:

كُـنَّـا إذا مـا أتـانـا صـارِخٌ فَـزِعٌ كـان الـصُّـراخُ لـه قَـرْعَ الـظَّـنـابـيـبِ[٣]

وقال أُميّة بن أبي الصَّلْت:

ولا تَـجـزَعـوا إنّـي لـكـم غـيـرُ مُـصْـرِخٍ ولـيـس لـكـم عـنـدي غَـنَـاءٌ ولا نَـصْـرُ[٤]

يقال: صَرَخ فلانٌ، أي: استغاث، يَصرُخُ صَرخاً وصُرَاخاً وصرخة[٥]. واصطَرَخ بمعنى صَرَخَ. والتَّصرُّخ: تَكلُّف الصُّراخ، والمُصْرِخُ: المُغِيث، والمستصرِخ: المستغيث؛ تقول منه: استصرخَني فأصرَخْتُه. والصَّرِيخ: صوت المستصْرِخ. والصَّريخُ أيضاً: الصارِخ، وهو المغيث والمستغيث، وهو من الأضداد. قاله الجوهري[٦]. وقراءة العامَّة: «بِمُصْرِخِيَّ» بفتح الياء[٧]. وقرأ الأعمش وحمزة:

(١) في (م): إذا جئتموني، وهو تصحيف.

(٢) تهذيب اللغة ٧/ ١٣٦ .

(٣) ديوان سلامة ص١٢٥ ، والمفضليات ص١٢٤ ، والظنابيب جمع ظُنبوب: وهو حرف الساق اليابس من قُدُم، وقرع لذلك الأمر ظنبوبه: تهيَّأ له. اللسان (ظنب).

(٤) ذكره في النكت والعيون ٣/ ١٣١ ، ولم نقف عليه في ديوان أمية.

(٥) في معاجم اللغة: صرخ يصرخ صُراخاً وصَريخاً، ولم نقف على المصادر الأخرى التي ذكرها المصنف.

(٦) في الصحاح (صرخ).

(٧) السبعة ص٣٦٢ ، والتيسير ص١٣٤ .

«بِمُصْرِخِيِّ» بكسر الياء[١]. والأصل فيها: بمصرخيني[٢]، فذهبت النون للإضافة، وأُدغِمت ياءُ الجماعة في ياء الإضافة، فمن نصبَ فلأجل التضعيف، ولأنَّ ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها تعيَّن فيها الفتح، مثل: هَوايَ وعَصايَ، فإن تحرَّكَ ما قبلها جازَ الفتحُ والإسكان، مثل: غلامِيَ وغلامَتي، ومن كسرَ فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر، لأن الياء أخت الكسرة[٣]. وقال الفرّاء[٤]: قراءة حمزة وَهَمٌ منه، وقَلَّ مَنْ سَلِمَ منهم عن خطأ. وقال الزجَّاج[٥]: هذه قراءةٌ رديئةٌ ولا وجهَ لها إلا وجهٌ ضعيف. وقال قُطْرُب: هذه لغة بني يَرْبُوع، يزيدون على ياء الإضافة ياء[٦]. القُشَيريُّ: والذي يُغني عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبيِّ ﷺ فلا يجوز أن يُقال فيه هو خطأ أو قبيحٌ أو رديءٌ، بل هو في القرآن فصيح، وفيه ما هو أفصح منه، فلعلَّ هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذي قرأ به حمزة أفصح.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ﴾ أي: كفرتُ بإشراككم إيَّايَ مع الله تعالى في الطاعة؛ فـ «ما» بمعنى المصدر[٧]. وقال ابنُ جريج: إني كفرتُ اليوم بما كنتم تدعونه في الدنيا من الشِّرك بالله تعالى. قتادة: إني عصيتُ الله. الثوريُّ: كفرتُ بطاعتكم إياي في الدنيا. ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفي هذه الآيات ردٌّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقهم، انظُرْ إلى قول المتبوعين: «لو هدانا اللهُ لَهدَيناكُمْ» وقول إبليس: «إنَّ اللهَ وعدَكُمْ وَعْدَ الحقِّ»؛ كيف اعترفوا بالحقِّ في صفات الله تعالى وهم في دَرَكات النار، كما قال في

(١) قراءة حمزة من السبعة، أما قراءة الأعمش فقد نقلها عنه الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٥٩، والنحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٦٨، ومكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٣.

(٢) في (م): بمصرخيين، وهو تحريف وفي (ظ): بمصرخينني.

(٣) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٣، والوسيط ٣/ ٢٩.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٧٥ بمعناه.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٥٩.

(٦) نقله عنه مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٥٧.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٤.

موضعٍ آخر: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ [الملك: ٨-١١]. واعترافهم في دَرَكاتِ لَظى بالحقِّ ليس بنافع، وإنما ينفع الاعترافُ صاحبَه في الدنيا؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]. و«عَسى» من الله واجبة.

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ أي: في جنَّاتٍ؛ لأن «دخلتُ» لا يتعدَّى، كما لا يتعدَّى نقيضُه، وهو خرجتُ، ولا يُقاس عليه. قاله المهدوي(١). ولمَّا أخبر تعالى بحال أهل النار؛ أخبر بحال أهل الجنة أيضاً.

وقراءة الجماعة: «أُدْخِلَ» على أنه فِعْلٌ مبني للمفعول. وقرأ الحسن: «وَأُدْخِلُ» على الاستقبال والاستئناف(٢).

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمره. وقيل: بمشيئته وتيسيره. وقال: «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» ولم يقل: بإذني؛ تعظيماً وتفخيماً. ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ تقدم في «يونس»(٣). والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ لمَّا ذكر تعالى مَثَلَ أعمال

---

(١) قال مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٥ : الدليل على أن دخلت لا يتعدى، أن نقيضه لا يتعدى، وهو: خرجت، وكل فعل لا يتعدى نقيضه لا يتعدى هو.

(٢) المحتسب ١/ ٣٦١ .

(٣) ١٠/ ٤٥٩ .

الكفار، وأنها كرمادٍ اشتدَّتْ به الريح في يومٍ عاصف؛ ذكر مَثَلَ أقوالِ المؤمنين وغيرها، ثم فسَّر ذلك المَثَل فقال: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الثَّمر، فحذف؛ لدلالة الكلام عليه. قال ابن عباس: الكلمة الطيبة: لا إله إلا الله، والشجرة الطيبة: المؤمن[(١)]. وقال مجاهد وابنُ جريج: الكلمة الطيبة: الإيمان[(٢)]. عطية العَوْفيُّ والربيع بن أنس: هي المؤمن نفسه[(٣)]. وقال مجاهد أيضاً وعكرمة: الشَّجرة: النَّخلة[(٤)]. فيجوز أن يكون المعنى: أصل الكلمة في قلب المؤمن ـ وهو الإيمان ـ شبَّهه بالنخلة في المَنبِتْ، وشبَّه ارتفاعَ عملِه في السماء بارتفاع فروع النَّخلة، وثوابَ اللهِ له بالثَّمر[(٥)].

ورُوِيَ من حديث أنسٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ مَثَلَ الإيمان كمثَلِ شجرةٍ ثابتةٍ، الإيمانُ عُروقُها، والصلاةُ أصلُها، والزكاةُ فروعُها، والصيامُ أغصانُها، والتآخي[(٦)] في اللهِ نباتُها، وحُسنُ الخُلُقِ ورقُها، والكفُّ عن محارم الله ثمرتُها»[(٧)].

ويجوز أن يكون المعنى: أصل النَّخلة ثابتٌ في الأرض، أي: عروقُها تشرب من الأرض، وتسقيها السماءُ من فوقها، فهي زاكيةٌ نامية.

وخرَّجَ الترمذيُّ من حديث أنس بن مالك قال: أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بقِناعٍ فيه

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٥، والطبراني في الدعاء (١٥٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات ١/ ٢٧٢ - ٢٧٣ (٢٠٦).

(٢) ذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٣٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٦ عنهما، وذكره الماوردي ٣/ ١٣٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٩، والرامهرمزي في الأمثال ص١٠٩ عن مجاهد، والطبري ١٣/ ٦٤١، والرامهرمزي ص١٠٩ عن عكرمة.

(٥) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٣٠.

(٦) المثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في «تنزيه الشريعة»، وفي بقية النسخ: «التأذي».

(٧) أورده ابن عراق في «تنزيه الشريعة» ٢/ ٢٣٣ - ٢٣٤ وعزاه للحاكم، وذكر بأنه من مرسل حميد الطويل عن أنس، ثم قال: لم يُبيِّن ـ يعني الحاكم ـ علَّته مع إرساله، وهو من طريق محمد السلمي النيسابوري، وأظنه ابن أشرس، وهو متروك متهم، وشيخه حمزة بن شداد الجزري ما عرفتُه، والله أعلم.

رُطَبٌ، فقال: «مَثَلُ كلمةٍ طيِّبةٍ كشجرةٍ طيِّبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرْعُها في السَّماءِ، تُؤْتي أُكُلَها كُلَّ حينٍ بإذْنِ ربِّها». قال: «هي: النَّخلة، ومَثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأرضِ ما لها مِنْ قرار». قال: «هي الحنْظَل». ورُوي عن أنسٍ قولَه، وهو أصحُّ[1]. وخرَّجَ الدَّارقطنيُّ عن ابن عمر قال: قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هي؟» فوقعَ في نفسي أنها النَّخلة[2].

قال السُّهَيليُّ[3]: ولا يصِحُّ فيها ما رُويَ عن عليٍّ بن أبي طالب أنها جَوْزة الهند؛ لِما صحَّ عن النبيِّ ﷺ من حديث ابن عمر: «إنَّ من الشجرة شجرةً لا يسقطُ ورقُها، وهي مَثَلُ المؤمن، خبِّروني ما هي؟ ثم قال: «هي النخلة». خرَّجه مالك في «الموطأ» من رواية ابن القاسم وغيره، إلَّا يحيى؛ فإنه أسقطه من روايته، وخرَّجه أهل الصحيح[4]، وزاد فيه الحارث بن أسامة[5] زيادةً تساوي رِحلة، عن النبيِّ ﷺ قال: «وهي النخلة، لا تسقط لها أَنمَلة، وكذلك المؤمنُ لا تسقط له دعوة». فبيَّن معنى الحديث والمماثلة.

قلت: وذكر الغَزْنَويُّ عنه عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ المؤمن كالنَّخلة، إن صاحَبْتَه نفعَكَ، وإن جالَسْتَه[6] نفعَكَ، وإن شاوَرْتَه نفعَكَ، كالنخلة كلُّ شيءٍ منها

(١) سنن الترمذي (٣١١٩)، وأخرجه النسائي في الكبرى (١١١٩٨)، وأبو يعلى (٤١٦٥)، والطبري ١٣/ ٦٣٨، وابن حبان (٤٧٥) مرفوعاً. والقناع: الطبق الذي يؤكل عليه. النهاية (قنع). ثم أخرجه الترمذي بإثر الحديث (٣١١٩)، والطبري ١٣/ ٦٣٨ موقوفاً.

(٢) لم نقف على من خرَّجه بهذا اللفظ من حديث ابن عمر.

(٣) في التعريف والإعلام ص٨٥.

(٤) الموطأ ص٣٣٩، رواية محمد بن الحسن الشيباني، وأخرجه أحمد (٥٢٧٤)، والبخاري (١٣١)، والترمذي (٢٨٦٧) من طريق مالك. وأخرجه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١) من غير طريق مالك.

(٥) كما في بغية الباحث (١٠٦٧)، وفي إسناده محمد بن ربيع، ولم نقف له على ترجمة.

(٦) في (ظ): جافيته.

يُنتفَعُ به»[١]. وقال: «كُلُوا من عَمَّتكم ـ يعني النخلة ـ خُلِقَتْ من فَضْلةِ طينة آدم عليه السلام»[٢].

وكذلك أنها برأسها تَبقى، وبقلبها تَحيا، وثمرها بامتزاج الذّكر والأنثى. وقد قيل: إنَّها لمَّا كانت أشبهَ الأشجار بالإنسان شُبِّهت به؛ وذلك أنَّ كلَّ شجرةٍ إذا قُطِعَ رأسُها تشعَّبتِ الغصونُ من جوانبها، والنخلةُ إذا قُطِعَ رأسُها يبِستْ وذهبت أصلاً، ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان في الالتقاح؛ لأنها لا تحمل حتى تُلْقَح[٣]؛ قال النبيُّ ﷺ: «خيرُ المالِ سِكَّةٌ مأبورةٌ، ومُهْرَةٌ مأمورة»[٤]. والإِبارُ: اللَّقاح[٥]، وسيأتي في سورة «الحجر»[٦] بيانه.

ولأنها من فضلة طينة آدم. ويُقال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لمَّا صوَّرَ آدم من الطِّين فَضَلتْ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٥٤١)، والرامهرمزي في الأمثال (٣٠) عن ابن عمر مرفوعاً، وفي لفظ الطبراني: «كمثل العطار» وفي لفظ الرامهرمزي: «مثل النخلة أو النحلة» على الشك، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٨٣ : فيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس.

لكن رواه الرامهرمزي (٣١) بإسناد آخر عنه ورجاله ثقات، بلفظ: «كمثل الشجرة...» وأخرجه الطبراني (١٣٥١٤) بإسنادٍ ثالث عنه أيضاً صححه ابن حجر في الفتح ١/ ١٤٧ ، ولفظه: «مثل المؤمن مثل النخلة ما أتاك منها نفعك».

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٥٥)، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٢٥٦ ، وابن حبان في المجروحين ٣/ ٤٤ ، والرامهرمزي (٣٥)، وابن عدي ٦/ ٢٤٢٤ من طريق مسرور بن سعيد، عن الأوزاعي، عن عروة بن رويم، عن علي مرفوعاً، وعند الجميع: «أكرموا عمتكم» بدلاً من «كلوا من». قال ابن حبان: مسرور ابن سويد يروي عن الأوزاعي المناكير التي لا يجوز الاحتجاج بها. وقال ابن عدي: هذا حديث عن الأوزاعي منكر، وعروة بن رويم عن علي ليس بالمتصل، ومسرور بن سعيد غير معروف، لم أسمع بذكره إلا بهذا الحديث. وأخرجه ابن عدي أيضاً ٢/ ٥٧٨ عن ابن عمر مرفوعاً، وفي إسناده جعفر بن أحمد بن علي. قال ابن عدي (وقد أخرج له حديثاً آخر بعده): لا أشك أن جعفراً وضعهما.

(٣) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٣ ، وزاد المسير ٤/ ٣٦٠ .

(٤) أخرجه أحمد (١٥٨٤٥) من حديث سويد بن هبيرة ﷺ، وهو حديث ضعيف.

(٥) والسِّكة: الطريقة المصطفة من النخل. ومُهرةٌ مأمورة: كثيرة النسل والنِّتاج. النهاية (أبر) و(أمر).

(٦) عند تفسير الآية (٢٢) منها.

قطعةُ طينٍ، فصوَّرها بيده، وغرسها في جنَّة عَدْن. قال النبيُّ ﷺ: «أكرموا عَمَّتكم» قالوا: ومن عمَّتنا يا رسول الله؟ قال: «النخلة»[١].

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ قال الربيع: «كُلَّ حِينٍ»: غُدوةً وعشِيةً، كذلك يصعد عمل المؤمن أول النهار وآخرَه. وقاله ابن عباس[٢]. وعنه: «تُؤْتِي أُكُلَهَا كلَّ حِينٍ» قال: هو شجر جوز الهند، لا تتعطل من ثمرة، تحمل في كل شهر. شبَّه عمل المؤمن لله عزَّ وجلَّ في كلِّ وقتٍ بالنخلة التي تُؤتي أُكُلَها في أوقاتٍ مختلفة. وقال الضحَّاك: كلَّ ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ، شتاءً وصيفاً، يؤكل في جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات كلها[٣]. وقال النحاس[٤]: وهذه الأقوال متقاربةٌ غيرُ متناقضة؛ لأن الحين عند جميع أهل اللغة ـ إلا من شذَّ منهم ـ بمعنى الوقت، يقعُ لقليلِ الزمان وكثيرِه، وأنشد الأصمعيُّ بيتَ النَّابغة:

تَنَاذَرَها الرَّاقُونَ مِن سُوءِ سُمِّها تُطَلِّقُه حِيناً وحِيناً تُراجِعُ[٥]

فهذا يُبيِّن لك أنَّ الحين بمعنى الوقت، فالإيمان ثابتٌ في قلب المؤمن، وعملُه وقولُه وتسبيحُه عالٍ مرتفعٌ في السماء ارتفاعَ فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما يُنال من ثمرة النَّخلة في أوقات السنة كلِّها، من الرُّطَب والبُسْر والبلح والزَّهْو والتَّمر والطَّلع[٦]. وفي روايةٍ عن ابن عباس: إن الشجرةَ الطيبةَ[٧] شجرةٌ في الجنة تُثمِرُ في كل وقت.

(١) ذكره البغوي ٣/ ٣٣ بهذا اللفظ، وقد تقدم آنفاً بغير هذا اللفظ، وذكرنا علته ثمة.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤٥ و ٦٥١ عن الربيع، و١٣/ ٦٤٣ و ٦٤٤ عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤٥ بنحوه.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٥٢٨ - ٥٢٩ .

(٥) ديوان النابغة الذبياني ص٨٠ ، وفيه: طوراً وطوراً، بدل: حيناً وحيناً.

(٦) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٣٠ .

(٧) كلمة الطيبة ليست في (م).

و«مَثَلاً» مفعول بـ «ضَرَبَ»، و«كلمةً» بدلٌ منه، والكاف في قوله: «كشجرةٍ» في موضع نصبٍ على الحال من «كَلِمَة»؛ التقدير: كلمةً طيبةً مشبَّهةً بشجرةٍ طيبة[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ لمَّا كانتِ الأشجارُ تؤتي أُكُلَها كلَّ سنةٍ مرةً، كان في ذلك بيانُ حكم الحين؛ ولهذا قلنا: من حلف ألَّا يُكلِّم فلاناً حيناً، ولا يقول كذا حيناً: إنَّ الحين سنة[٢]. وقد ورد الحينُ في موضعٍ آخرَ يُرادُ به أكثر من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١] قيل في «التفسير»: أربعون عاماً. وحكى عكرمةُ أنَّ رجلاً قال: إن فعلتُ كذا وكذا إلى حينٍ فغلامُه حُرٌّ، فأتى عمرَ بن عبد العزيز فسأله، فسألني عنها، فقلتُ: إنَّ من الحين حيناً لا يُدرَكُ، قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١] فأرى أن تُمسِكَ ما بين صِرام النَّخلة إلى حَمْلِها، فكأنه أعجبه[٣]. وهو قول أبي حنيفة في الحين أنه ستة أشهر اتباعاً لعكرمة وغيره[٤]. وقد مضى ما للعلماء في الحين في «البقرة»[٥] مستوفًى والحمد لله.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: الأشباه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويعتبرون؛ وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الكلمة الخبيثة: كلمة الكفر[٦].

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٥، وذكر أبو حيان في البحر ٥/ ٤٢١، أنه على هذا الوجه يكون قوله: «كشجرة» نعتاً للكلمة.

(٢) سلف ١/ ٤٧٩، وقد عزاه المؤلف هناك إلى ابن خويزمنداد في أحكامه.

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ١٣/ ٦٤٩ - ٦٥٠، ولكن ذكر فيه الآية الآنفة الذكر من سورة الإنسان بدلاً من آية الأنبياء. وسيرد بسياق آخر عند تفسير الآية الأخيرة من سور ص.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٠٨.

(٥) ١/ ٤٧٧ - ٤٨٠.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٦، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٠.

وقيل: الكافر نفسه[١]. والشجرة الخبيثة: شجرة الحَنْظَل كما في حديث أنس، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما[٢]، وعن ابن عباس أيضاً: أنها شجرةٌ لم تُخلَقْ على الأرض[٣]. وقيل: هي شجرة الثُّوم عن ابن عباس أيضاً[٤]. وقيل: الكَمْأَةُ أو الطُّحلَبة. وقيل: الكَشُوث[٥]، وهي شجرةٌ لا ورقَ لها ولا عروق في الأرض؛ قال الشاعر:

وهُمْ كَشُوثٌ فلا أصلٌ ولا ورقٌ[٦]

﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾: اُقتُلِعَتْ من أصلها. قاله ابن عباس؛ ومنه قول لَقِيط:

هو الجلاءُ الذي يَجتثُّ أصلَكُمُ فمن رأى مثلَ ذا يوماً ومن سَمِعَا[٧]

وقال المؤرِّج: أُخِذَتْ جُثَّتُها وهي نفسُها، والجُثَّةُ: شخصُ الإنسان قاعداً أو نائماً[٨]. وَجَثَّه: قَلَعه، واجتثه: اقتلعه من فوق الأرض[٩]، أي: ليس لها أصلٌ راسخٌ يشرب بعروقه من الأرض. ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: من أصلٍ في الأرض. وقيل: من ثبات؛ فكذلك الكافر؛ لا حُجَّةَ له ولا ثباتَ ولا خيرَ فيه، وما يصعَدُ له قولٌ طيِّبٌ ولا عملٌ صالح[١٠].

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٥٨ - ٦٥٩ عن ابن عباس والربيع وعطية العوفي.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٥٣ -٦٥٤ ، والرامهرمزي في الأمثال ص١٠٩ عن مجاهد، وسلف حديث أنس في المسألة الأولى في الآية قبلها.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٥٤ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٣ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٦١ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٣٤ ، والوسيط ٣/ ٣٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٣ ، وزاد المسير ٤/ ٣٦٠ .

(٦) صدر بيت، وعجزه: ولا نسيمٌ ولا ظلٌّ ولا ثمرُ. وذكره الميداني في مجمع الأمثال ١/ ٢٨٤ ، والصفدي في تصحيح التصحيف ص١٢٣ . والجوهري في الصحاح (كشث). وقال فيه الكشوث: نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض.

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٣٥ - ١٣٦ ، والبيت في ديوان لقيط بن يعمر ص٨٦ وفيه: «رأياً» بدل «يوماً».

(٨) المثبت من (ظ) والصحاح، وفي بقية النسخ: قائماً.

(٩) ينظر الصحاح (جثث).

(١٠) تفسير البغوي ٣/ ٣٣ ، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٣٥ ، وزاد المسير ٤/ ٣٦١ .

وروى معاوية بن صالح، عن عليِّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس[(١)] في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قال: لا إله إلا اله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ لا إله إلا الله ثابتة في قلب المؤمن؛ «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ» قال: الشرك، ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قال: المشرك، ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: ليس للمشرك أصلٌ يعمل عليه[(٢)].

وقيل: يرجع المَثَلُ إلى الدعاء إلى الإيمان، والدعاء إلى الشرك؛ لأنَّ الكلمةَ يُفهم منها القولُ والدعاءُ إلى الشيء.

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ قال ابن عباس: هو لا إله إلا الله.

وروى النسائيُّ عن البراء قال[(٣)]: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قال: نزلت في عذاب القبر. يُقال: مَنْ ربُّكَ؟ فيقول: ربِّيَ الله، وديني دينُ محمد ﷺ، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[(٤)].

قلتُ: وقد جاء هكذا موقوفاً في بعض طرق مسلم عن البراء[(٥)] قوله[(٦)]،

---

(١) قوله: «عن ابن عباس» من (ظ) وتفسير الطبري، وليس في باقي النسخ.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٥ و ٦٥٦ - ٦٥٧ .

(٣) كلمة «قال» مكررة في (ف) و(م).

(٤) أخرجه إلى قوله: نزلت في عذاب القبر، موقوفاً النسائي في المجتبى ٤/ ١٠١ ، وفي السنن الكبرى (١١٢٠٢). وأخرجه بتمامه موقوفاً ابن أبي شيبة ٣/ ٣٧٧ ، والطبري ١٣/ ٦٥٨ ، والآجري في الشريعة ص٣٧١ من طريق آخر عن البراء.

(٥) بعدها في (م): «أنه».

(٦) صحيح مسلم (٢٨٧١): (٧٤) بمثل رواية النسائي.

والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم وكتاب النَّسائي وأبي داود وابن ماجه وغيرهم، عن البراء، عن النبيِّ ﷺ[١]. وذكر البخاريُّ[٢]: حدثنا حفص بن عمر، قال: حدثنا شُعبة، عن علقمة بن مَرْثَد، عن سعد بن عُبيدة، عن البراء بن عازب، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا أُقعِدَ المؤمنُ في قبره أتاه آتٍ، ثم يشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾». وقد بيَّنَّا هذا الباب في كتاب «التذكرة»[٣]، وبيَّنا هناك من يُفتَنُ في قبره ويُسأل، فمن أراد الوقوف عليه تأمَّله هناك.

قال سهل بن عمَّار: رأيتُ يزيد بن هارون في المنام بعد موته، فقلتُ له: ما فعلَ اللهُ بك؟ فقال: أتاني في قبري مَلَكانِ فظَّانِ غليظان، فقالا: ما دِينُكَ؟ ومن ربُّكَ؟ ومن نَبيُّكَ؟ فأخذتُ بلحيتي البيضاء وقلتُ: أَلِمِثلي يُقال هذا وقد عَلَّمتُ الناسَ جوابَكما ثمانين سَنة؟! فذهبا وقالا: أكَتَبْتَ عن حَريز بن عثمان؟ قلتُ: نعم. فقالا: إنَّه كان يبغض علياً[٤] فأبْغَضَه الله.

وقيل: معنى ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾: يُديمهمُ الله على القول الثابت، ومنه قول عبد الله ابن رَواحة:

يُـثَـبِّـتُ الـلـهُ مـا آتـاكَ مِـن حَـسَـنٍ ... تَثبيتَ موسى ونَصراً كالذي نُصِرا[٥]

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٧١): (٧٣)، والمجتبى ٤/ ١٠١ - ١٠٢ ، وسنن النسائي الكبرى (١١٢٠٠)، وسنن أبي داود (٤٧٥٠)، وسنن ابن ماجه (٤٢٦٩)، وهو في مسند أحمد (١٨٥٧٥)، وصحيح البخاري بإثر الحديث (١٣٦٩) (ولم يسق لفظه) وسنن الترمذي (٣١٢٠).

(٢) في صحيحه (١٣٦٩)، وتصحف اسم شيخه في النسخ إلى جعفر بن عمر.

(٣) ص١٢٥ .

(٤) وقع في النسخ: عثمان، والمثبت من التذكرة، وشرف أصحاب الحديث ص١٠٨ ، وصفة الصفوة ٣/ ١٨ ، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٣٦٥ ، ومن غيرها من كتب التراجم.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٣٥ ، والبيت في ديوان عبد الله بن رواحة ص٤٦ ، وفي مطبوعه: «فثبَّت» بدل «يثبت» و«نصروا» بدل «نصرا».

وقيل: يثبتهم في الدارين جزاءً لهم على القول الثابت. وقال القَفَّال وجماعة: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: في القبر؛ لأن الموتى في الدنيا إلى أن يُبعثوا، ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: عند الحساب[١]. وحكاه الماورديُّ عن البراء قال: المراد بالحياة الدنيا: المُساءلة في القبر، وبالآخرة: المُساءلة في القيامة[٢]. ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: عن حُجَّتهم في قبورهم كما ضَلُّوا في الدنيا بكفرهم، فلا يُلقِّنهم كلمةَ الحقِّ، فإذا سُئِلوا في قبورهم قالوا: لا ندري. فيقولان: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، وعند ذلك يُضرَب بالمقامع على ما ثبت في الأخبار[٣]، وقد ذكرنا ذلك في كتاب «التذكرة»[٤]. وقيل: يُمهلهم حتى يزدادوا ضلالاً في الدنيا.

﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من عذابِ قومٍ وإضلالِ قوم. وقيل: إن سبب نزول هذه الآية ما رُويَ عن النبيِّ ﷺ لمَّا وصفَ مُساءلة مُنْكَرٍ ونكير وما يكون من جواب الميت، قال عمر: يا رسول الله، أيكونُ معي عقلي؟ قال: «نعم» قال: كُفيتُ إذاً. فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الآية[٥].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ أي: جعلوا بدلَ نعمة الله عليهم الكفرَ في تكذيبهم محمداً ﷺ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا، والمراد

(١) ونقله أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٠٦ عن الربيع بن أنس.

(٢) نقله عن الماوردي ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٧ .

(٣) منها ما أخرجه أحمد (١١٠٠٠) عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وأحمد (١٢٢٧١)، والبخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠) عن أنس بن مالك ﷺ.

(٤) ص١١٣ - ١١٥ .

(٥) أخرجه بنحوه أحمد (٦٦٠٣) دون ذكر سبب نزول الآية من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

مشركو قريش، وأنَّ الآية نزلت فيهم. عن ابن عباس وعليٍّ وغيرهما[١]. وقيل: نزلت في المشركين الذين قاتلوا النبي ﷺ يوم بدر[٢]. قال أبو الطُّفَيل: سمعت عليًّا ﷺ يقول: هُمْ قريشٌ الذين نُحِروا يوم بدر[٣]. وقيل: نزلت في الأفْجَرَيْن من قريش بني مخزوم وبني أمية، فأما بنو أمية فمُتِّعوا إلى حين، وأما بنو مخزوم فأُهلكوا يوم بدر. قاله علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما[٤]. وقول رابع: أنهم مُتنصِّرة العرب جَبَلة بن الأَيْهَم وأصحابه حين لُطِم[٥]، فجعل له عمرُ القصاصَ بمثلها، فلم يرضَ، وأَنِفَ، فارتدَّ مُتنصِّراً، ولَحِقَ بالروم في جماعةٍ من قومه. عن ابن عباس وقتادة[٦]. ولمَّا صار إلى بلد الروم ندِمَ فقال:

تَنصَّرتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمةٍ ... وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ

تَكنَّفني منها لَجَاجٌ وَنَخْوةٌ ... وبِعتُ لها العينَ الصحيحةَ بالْعَوَرْ

فيا ليتَني أرعى المَخاضَ ببلدةٍ ... ولم أُنكرِ القولَ الذي قاله عُمرْ

وقال الحسن: إنها عامةٌ في جميع المشركين[٧]. ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾ أي: أنزلوهم. قال ابن عباس: هم قادة المشركين يوم بدر[٨]. «أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ» أي: الذين اتبعوهم

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٧١ - ٦٧٢ عن علي ﷺ.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٧٢ عن علي ﷺ، و ١٣/ ٦٧٣ عن ابن عباس ﷺ.

(٣) ذكره بهذا اللفظ البغوي ٣/ ٣٥، وأخرجه عنه النسائي في الكبرى (١١٢٠٣) والطبري ١٣/ ٦٧١ بلفظ: هم كفار قريش يوم بدر.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٦٩ - ٦٧٠ عن عمر ﷺ، و١٣/ ٦٧٠، والحاكم ٢/ ٣٥٢ والواحدي في الوسيط ٣/ ٣١ عن علي ﷺ، وأورده في زاد المسير ٤/ ٣٤٤ عن عمر وعلي رضي الله عنهما.

(٥) في (ظ): لطم رجلاً، وهي رواية أخرى في قصته أنه لطم رجلاً وفرَّ من القصاص، ينظر مختصر تاريخ دمشق ٥/ ٣٦٨-٣٧٤، والبداية والنهاية ١١/ ٢٦٣-٢٦٩، ونهاية الأرب للنويري ١٥/ ٣١١-٣١٥.

(٦) هو في النكت والعيون ٣/ ١٣٦، عن ابن عباس وحده، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٧ مختصراً، وقال: لم يُرد ابن عباس أنها فيه نزلت؛ لأن نزول الآية قبل قصته، وإنما أراد أنها تحصر من فعل جبلة إلى يوم القيامة.

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٣٦، وزاد المسير ٤/ ٣٤٤.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٣٢، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٣٦ لقتادة، وهو أحد الأقوال في شرح قوله: الذين بدلوا نعمة الله كفراً. وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٧٥ و ٦٧٦ وعن أبي مالك وقتادة.

﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ قيل: جهنم. قاله ابن زيد. وقيل: يوم بدر. قاله عليٌّ بن أبي طالب ومجاهد. والبوار: الهلاك[١]؛ ومنه قول الشاعر:

فَلَمْ أَرَ مِثْلَهُمْ أَبْطَالَ حَرْبٍ غَدَاةَ الحَرْبِ إِذْ خِيفَ البَوَارُ[٢]

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ بيَّن أنَّ دار البوار جهنم كما قال ابن زيد، وعلى هذا لا يجوز الوقف على ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾؛ لأن جهنَّمَ منصوبةٌ على الترجمة عن «دار البوار»، فلو رفعَها رافعٌ بإضمارٍ[٣]، على معنى: هي جهنم، أو بما عادَ من الضمير في «يَصْلَونها»؛ لَحَسُنَ الوقف على «دار البَوار»[٤]. ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي: المستقرّ.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أصناماً عبدوها، وقد تقدَّم في «البقرة»[٥]. ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: عن دينه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، وكذلك في الحج: ﴿لِيَضِلَّ عَن سَبيلِ اللَّهِ﴾[٦] [الآية:٩]، ومثله في «لقمان» [الآية:٦]، و«الزمر» [الآية:٨]، وضَمَّها الباقون على معنى: لِيُضِلُّوا الناسَ عن سبيله، وأما من فتح فعلى معنى أنهم هم يَضِلُّون عن سبيل الله على اللزوم، أي: عاقبتهم إلى الإضلال والضلال، فهذه لام العاقبة[٧].

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ وعيدٌ لهم، وهو إشارةٌ إلى تقليل ما هم فيه من ملاذِّ الدنيا؛ إذ هو منقطع. ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: مَردُّكم ومرجِعَكم إلى عذاب جهنم.

---

(١) الصحاح (بور).

(٢) النكت والعيون ٣/١٣٦ - ١٣٧، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ١٣/٦٧٧ - ٦٧٨.

(٣) في (ظ): بإضمار مبتدأ.

(٤) الإيضاح في الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/٧٤١.

(٥) ١/٣٤٧.

(٦) السبعة ص٢٦٧، والتيسير ص١٣٤.

(٧) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٣٨ أنها لام العاقبة على القراءة بفتح الياء، وأنها لام «كي» على القراءة بضمها، وينظر ما سلف في تفسير الآية (٨٨) من «يونس».

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: إنَّ أهل مكة بدَّلوا نعمةَ الله بالكفر، فقُلْ لمن آمنَ وحقَّق عبوديته أن ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: الصلوات الخمس، أي: قُلْ لهم: أقيموا، والأمر معه شرطٌ مُقدَّر، تقول: أطِعِ اللهَ يُدخِلْكَ الجنة؛ أي: إن أطعته يُدخِلْكَ الجنة. هذا قول الفراء[(١)]. وقال الزجّاج[(٢)]: «يُقيموا» مجزومٌ بمعنى اللام، أي: ليقيموا، فأُسقِطَتِ اللامُ؛ لأنَّ الأمر دلَّ على الغائب بـ«قل». قال: ويَحتملُ أن يُقال: «يُقيموا» جوابُ أمرٍ محذوف؛ أي: قُلْ لهم: أقيموا الصلاةَ يُقيموا الصلاةَ[(٣)].

﴿وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني: الزكاة. عن ابن عباس وغيره[(٤)]. وقال الجمهور: السِّرُّ ما خَفِيَ، والعلانيةُ ما ظهر. وقال القاسم بن يحيى: إنَّ السِّرَّ التطوعُ، والعلانيةَ الفرض[(٥)]. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» مجوَّداً عند قوله: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [الآية: ٢٧١][(٦)].

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ تقدَّم في «البقرة» أيضاً[(٧)]. و«خِلالٌ» جمع خُلَّة، كقُلَّة وقِلال. قال:

فلستُ بمَقْليِّ الخِلالِ ولا قالِ[(٨)].

---

(١) بمعناه في معاني القرآن له ٢/ ٧٧ . ونقل ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٨ عن سيبويه قوله: هو جواب شرط مقدر يتضمنه صدر الآية، تقديره: إن تقل لهم أقيموا يقيموا.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ١٦٢ .

(٣) وهو أيضاً قول المبرد في المقتضب ٢/ ٨٤ ، ونقله عنه مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٨٠ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٣٧ .

(٦) ٤/ ٣٥٩ .

(٧) ٤/ ٢٥٩ - ٢٦٢ .

(٨) عجز بيت لامرئ القيس، وصدره: صرفتُ الهوى عنهنَّ من خشية الردى، وهو في ديوانه ص٣٥ .

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أبدعَها واخترعَها على غير مثالٍ سبق. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السَّحاب ﴿مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: من الشجر ثمرات ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ تقدَّم معناه في «البقرة»[(١)]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ يعني: البحار العذبة؛ لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا، والبحار المالحة؛ لاختلاف المنافع من الجهات. ﴿وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أي: في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره، والدُّؤوب: مرور الشيء في العمل على عادةٍ جارية. وقيل: دائبين في السير امتثالاً لأمر الله، والمعنى: يجريان إلى يوم القيامة لا يفتُران. رُوي معناه عن ابن عباس[(٢)]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضله في النهار، كما قال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: أعطاكم من كل مسؤولٍ سألتُموه شيئاً؛ فحذف عن الأخفش[(٣)]. وقيل: المعنى: وآتاكم من كلٍّ ما سألتموه، ومن كلٍّ ما لم تسألوه، فحذف، فلم نسأله شمساً ولا قمراً، ولا كثيراً من نعمه التي ابتدأنا بها. وهذا كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١][(٤)]، على ما يأتي.

---

(١) ٢/ ٤٩٤.

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ١٦٣، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٢، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٦٤.

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٦٠٠.

(٤) نقله ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٦٤ - ٣٦٥ عن ابن الأنباري.

وقيل: «مِن» زائدة، أي: آتاكم كلَّ ما سألتُموه[١].

وقرأ ابن عباس والضحَّاك وغيرُهما: «وآتاكُمْ مِنْ كُلٍّ» بالتنوين «ما سأَلْتُمُوه»[٢]، وقد رُوِيَتْ هذه القراءة عن الحسن والضحَّاك وقَتادة؛ هي على النفي، أي: من كلٍّ لم[٣] تسألوه، كالشمس والقمر وغيرهما[٤]. وقيل: من كلِّ شيء ما سألتُموه، أي: الذي ما سألتموه[٥].

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: نِعَمَ الله ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ ولا تطيقوا عَدَّها، ولا تقوموا بحصرها؛ لكثرتها[٦]، كالسَّمع والبصر وتقويم الصُّوَر، إلى غير ذلك من العافية والرزق، نِعَمٌ لا تحصى، وهذه النّعم من الله، فَلِمَ تبدلون نِعَمَ الله بالكفر؟! وهلا استعنتُم بها على الطاعة؟!.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ الإنسان لفظ جنس، وأراد به الخصوص[٧]. قال ابن عباس: أراد أبا جهل[٨]. وقيل: جميع الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ يعني: مكة. وقد مضى

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٢.

(٢) المحتسب ١/ ٣٦٣، وهي قراءة شاذة.

(٣) قبلها في (م) زيادة «ما».

(٤) زاد المسير ٤/ ٣٦٥، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٨٥ عن الضحاك وقتادة.

(٥) ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٦٣.

(٦) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٦، وزاد المسير ٤/ ٣٦٥.

(٧) قال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٦٤: هذا اسم جنسٍ يقصد به الكافر خاصةً.

(٨) زاد المسير ٤/ ٣٦٥.

في «البقرة»[١]. ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ أي: اجعلني جانباً عن عبادتها[٢]. وأراد بقوله: «بنيَّ» بنيه من صُلْبه[٣]، وكانوا ثمانية، فما عبدَ أحدٌ منهم صنماً[٤]. وقيل: هو دعاءٌ لمن أراد الله أن يدعوَ له.

وقرأ الجَحْدَريُّ وعيسى «وَأَجْنِبْني» بقطع الألف[٥]، والمعنى واحد؛ يقال: جَنَبْتُ ذلك الأمر، وأجنَبْته وجَنَّبْته إيَّاه، فتجانَبه واجتَنَبه، أي: تركه[٦]. وكان إبراهيم التَّيْميُّ يقول في قصصه: مَنْ يأمنُ البلاءَ بعد الخليل حين يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ كما عبدَها أبي وقومي[٧]؟!

قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ لمَّا كانت سبباً للإضلال أضافَ الفعل إليهنَّ مجازاً؛ فإنَّ الأصنام جماداتٌ لا تفعل[٨]. ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ في التوحيد ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي: من أهل ديني. ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ أي: أصرَّ على الشِّرك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قيل: قال هذا قبل أن يُعرِّفَه اللهُ أنَّ اللهَ لا يغفِرُ أن يُشرَكَ به. وقيل: غفورٌ رحيمٌ لمن تاب من معصيته قبل الموت. وقال مقاتل بن حيَّان: «وَمَنْ عَصَانِي» فيما دون الشرك[٩].

---

(١) ٢/ ٣٨٢.

(٢) زاد المسير ٤/ ٣٦٥.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٠، والوسيط ٣/ ٣٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٦.

(٤) وقد أخرج الطبري ١٣/ ٦٨٧ عن مجاهد أن الله استجاب لإبراهيم دعوته في ولده، فلم يعبد أحدٌ من ولده صنماً بعد دعوته.

(٥) المحتسب ١/ ٣٦٣، وهي قراءة شاذة.

(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤١، وتفسير البغوي ٣/ ٣٦، والصحاح (جنب).

(٧) أخرجه عنه الطبري ١٣/ ٦٨٧ - ٦٨٨ دون قوله: كما عبدها أبي وقومي.

(٨) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٤، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٨، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٦٥، وجاء في (ظ) و(ف): لا تعقل.

(٩) الأقوال الثلاثة في الوسيط للواحدي ٣/ ٣٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٦، وزاد المسير ٤/ ٣٦٥، والقول الأول لمقاتل بن سليمان، والتعليل الذي أورده بعده لابن الأنباري، والقول الثاني للسدي.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: روى البخاريُّ عن ابن عباس: أولُ ما اتَّخذَ النِّساءُ المِنْطَقَ من قِبل أمِّ إسماعيل، اتخذت مِنْطَقاً لتُعفِّيَ أَثَرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيمُ وبابنِها إسماعيلَ وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحةٍ فوق زمزم في أعلى المسجد - وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء - فوضعَهُما هنالك، ووضع عندهما جِراباً فيه تَمرٌ، وسِقاءً فيه ماءٌ، ثم قفَّى إبراهيمُ منطلقاً، فتَبِعَتْه أمُّ إسماعيلَ، فقالت: يا إبراهيمُ، أينَ تذهبُ وتترُكُنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفِتُ إليها، فقالت له: آللهُ أمرَكَ بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يُضيِّعُنا. ثم رجعَتْ، فانطلقَ إبراهيمُ حتى إذا كان عند الثَّنِيَّة حيث لا يَرونه، استقبلَ بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ حتى بلغ: ﴿يَشْكُرُونَ﴾. وجعلتْ أمُّ إسماعيل تُرضعُ إسماعيل وتشربُ من ذلك الماء، حتى إذا نَفِدَ ما في السِّقاء؛ عطِشتَ وعَطِشَ ابنُها، وجعلت تنظر إليه يَتلوَّى - أو قال: يَتَلَبَّط - فانطلقَتْ كراهيةَ أن تنظرَ إليه، فوجدتِ الصَّفا أقربَ جبلٍ في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلتِ الواديَ تنظرُ هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، فهبطت من الصَّفا، حتى إذا بلغتِ الواديَ، رفَعتْ طَرَفَ دِرْعِها، ثم سعَتْ سعيَ الإنسانِ المجهود، حتى[1] جاوزتِ الوادي، ثم أتتِ المَرْوةَ فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبعَ مرات. قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «فذلِكَ سعيُ الناسِ بينهما». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صهٍ - تريدُ

(١) المثبت من (ظ)، وصحيح البخاري، وفي غير (ظ): ثم.

نفسَها ـ ثم تسمَّعتْ، فسمِعَتْ أيضاً، فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندكَ غَواث. فإذا هي بالمَلَكِ عند موضع زمزمَ، فبَحَث بعَقِبِهِ ـ أو قال: بجناحه ـ حتى ظهرَ الماءُ، فجعلت تُحَوِّضُه وتقول بيدها هكذا، وجعلَتْ تغرِفُ من الماء في سِقائها وهو يفورُ بعد ما تغرِفُ. قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «يرحَمُ اللهُ أمَّ إسماعيل، لو تركَتْ زمزَمَ ـ أو قال: لو لم تغرِفْ من الماء ـ لكانت زمزَمُ عيناً مَعِيناً». قال: فشرِبَتْ وأرضعَتْ ولدَها، فقال لها المَلَكُ: لا تخافي الضَّيْعةَ، فإنَّ هاهنا بيتَ اللهِ؛ يَبنيه هذا الغلامُ وأبوه، وإنَّ اللهَ لا يُضيِّعُ أهلَه. وذكر الحديث بطوله(١).

مسألة: لا يجوز لأحدٍ أن يتعلَّق بهذا في طرح ولده وعياله بأرضٍ مَضْيَعَةٍ؛ اتّكالاً على العزيز الرحيم، واقتداءً بفعل إبراهيم الخليل، كما تقول غُلاةُ الصُّوفية في حقيقة التوكل، فإن إبراهيم فعلَ ذلك بأمر الله؛ لقولها(٢) في الحديث: آللهُ أمركَ بهذا؟ قال: نعم. وقد رُويَ أنَّ سارة لمَّا غارت من هاجر بعد أن ولدت إسماعيل، خرجَ بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة، فرُوي أنَّه ركبَ البراقَ هو وهاجرُ والطِّفلُ، فجاء في يومٍ واحدٍ من الشام إلى بطن مكة، وترك ابنَه وأمَته هنالِكَ، وركب منصرفاً من يومه، فكان ذلك كلُّه بِوحيٍ من الله تعالى، فلما ولَّى دعا بضمن هذه الآية(٣).

الثانية: لمَّا أرادَ اللهُ تأسيسَ الحال، وتمهيدَ المقام، وخطَّ الموضعِ للبيت المكرَّم، والبلد المحرَّم، أرسلَ المَلَك، فبحث عن الماء وأقامه مقام الغذاء.

وفي الصحيح: أنَّ أبا ذَرٍّ ﷺ اجتزأ به ثلاثين بين يوم وليلة، قال أبو ذَرٍّ: ما كان لي طعامٌ إلا ماءُ زمزَمَ، فسمِنتُ حتى تَكَسَّرتْ عُكَنُ بَطْني(٤)، وما أجد على كبدي سَخْفَةَ

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤). قوله: المِنْطَقُ: هو ما يُشَدُّ به الوسط. لِتُعَفِّي أثرها: لِتُخفي أثرها. الدَّوحة: الشجرة الكبيرة. السِّقاء: القِربة الصغيرة. ثم قفَّ إبراهيم: ولَّى راجعاً إلى الشام. يتلبَّط: يتمرَّغ ويضرب بنفسه الأرض. الإنسان المجهود: الذي أصابه الجهد، وهو الأمر المُشِقُّ. غَواث؛ بفتح أوله للأكثر، وجزاء الشرط محذوف، تقديره: فأغثني. تُحَوِّضُه: تجعله مثل الحوض. عيناً مَعيناً: ظاهراً جارياً على وجه الأرض. الضَّيعة: الهلاك. فتح الباري ٦/ ٤٠٠ - ٤٠٢ .

(٢) في النسخ: لقوله، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٢ ، والكلام منه .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤١ ، وينظر طبقات ابن سعد ١/ ١٥٠ ، وأخبار مكة للفاكهي ٥/ ١٢٠ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): «عكني»، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لمصادر التخريج القادمة .

جوع. وذكر الحديث[١].

وروى الدَّارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ماءُ زمزمَ لِما شُرِبَ له، إنْ شربْتَه تستشفي به؛ شفاكَ اللهُ، وإنْ شرِبْتَه لِشِبَعِكَ؛ أشبعَك اللهُ به، وإنْ شرِبْتَه لِقَطْعِ ظمَئِكَ؛ قطعَه، وهي هَزْمةُ جبريل، وسُقْيا الله إسماعيل»[٢].

وروى أيضاً[٣] عن عِكرمة قال: كان ابن عباس إذا شربَ من زمزمَ قال: اللهمَّ إني أسألُكَ علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاءً من كل داء.

قال ابن العربي[٤]: وهذا موجودٌ فيه إلى يوم القيامة لمن صحَّتْ نيَّتُه، وسلمَتْ طَوِيَّتُه، ولم يكن به مكذِّباً، ولا يشربُه مجرِّباً، فإنَّ الله مع المتوكلين، وهو يفضح المجرِّبين.

وقال أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي: وحدثني أبي رحمه الله قال: دخلتُ الطَّوَاف في ليلةٍ ظلماء، فأخذني من البول ما شغلني، فجعلتُ أعتصر حتى آذاني، وخِفْتُ إن خرجتُ من المسجد أن أطأ بعضَ تلك الأقدام، وذلك أيام الحج، فذكرتُ هذا الحديث، فدخلتُ زمزم فَتَضَلَّعْتُ منه، فذهب عني إلى الصباح[٥]. ورُوِيَ

---

(١) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٢، والحديث أخرجه أحمد (٢١٥٢٥) ومسلم (٢٤٧٣)، والعُكَن جمع عُكْنة: وهي الطيُّ في البطن من السِّمَن. تكسَّرت: انثنت. السَّخْفة ـ بفتح السين وضمِّها: رِقة الجوع وضعفه. حاشية السندي على مسند أحمد.

(٢) سنن الدارقطني (٢٧٣٩) وهو من طريق محمد بن حبيب الجارودي، عن سفيان بن عيينة، عن عبد الله ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس مرفوعاً. قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ٢٦٨: الجارودي صدوق، إلا أن روايته شاذة، فقد رواه حفاظ أصحاب ابن عيينة: الحميدي وابن أبي عمر وغيرهما، عن ابن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قوله. اهـ. لكن أول الحديث وهو قوله: «ماء زمزم لما شرب له» رُوي من طرقٍ أخرى مرفوعة محتملة للتحسين بمجموعها، تُنظر في مسند أحمد (١٤٨٤٩) قوله: هزمة جبريل، أي: ضربها برجله فنبع الماء. النهاية (هزم).

(٣) في سننه (٢٧٣٨).

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١١١٢.

(٥) لم نقف عليه في المطبوع من نوادر الأصول.

عن عبد الله بن عمرو: إنَّ في زمزمَ عيناً من[١] الجنة من قِبَلِ الركن[٢].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ «مِنْ» في قوله تعالى: «مِنْ ذُرِّيَّتي» للتبعيض، أي: أسكنتُ بعضَ ذُرِّيَّتي، يعني: إسماعيلَ وأمَّه؛ لأن إسحاق كان بالشام[٣]. وقيل: هي صلة، أي: أسكنتُ ذُرِّيَّتي[٤].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ يدلُّ على أنَّ البيت كان قديماً على ما رُوِيَ قبل الطُّوفان، وقد مضى هذا المعنى في سورة البقرة[٥]. وأضاف البيتَ إليه؛ لأنَّه لا يملِكُه غيرُه، ووصفه بأنه مُحرَّم، أي: يَحرُمُ فيه ما يُستباح في غيره من جماعٍ واستحلال[٦]. وقيل: محرّم على الجبابرة، وأن تُنتهَكَ حرمتُه، ويُستخفَّ بحقِّه. قاله قتادة وغيره[٧]. وقد مضى القول في هذا في «المائدة»[٨].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خَصَّها من جملة الدِّين؛ لفضلها فيه، ومكانها منه، وهي عهد الله عند العباد؛ قال ﷺ: «خمس صلواتٍ كتبهنَّ اللهُ على العباد». الحديث[٩].

واللام في «لِيُقيموا الصَّلاةَ» لام كي، هذا هو الظاهر فيها[١٠]، وتكون متعلقةً

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: في.

(٢) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص٣٣٩ بنحوه، في قصة بلد زمزم دون نسبة.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤١ .

(٤) نقله العكبري في «إملاء ما منَّ به الرحمن» ٣/ ٤٠٩ عن الأخفش، وينظر زاد المسير ٤/ ٣٦٦ .

(٥) ٢/ ٣٨٦ وما بعده.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٣٨ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢ .

(٨) ٨/ ٢٢٠ - ٢٢٢ .

(٩) أخرجه أحمد (٢٢٦٩٣)، وأبو داود (٤٢٥)، والنسائي ١/ ٢٣٠ ، وابن ماجه (١٤٠١).

(١٠) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢ .

بـ«أسكنتُ»[١]، ويصِحُّ أن تكون لام أمر، كأنه رغِب إلى الله أن يأتمنهم، وأن[٢] يوفِّقهم لإقامة الصلاة.

السادسة: تَضمَّنت هذه الآية أنَّ الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها؛ لأن معنى ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أسكنتَهم عند بيتك المحرم ليقيموا فيه.

وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو في مسجد النبيِّ ﷺ؟ فذهب عامَّةُ أهل الأثر إلى أنَّ الصلاةَ في المسجد الحرام أفضلُ من الصلاة في مسجد الرسول ﷺ بمئة صلاة، واحتجُّوا بحديث عبد الله بن الزُّبير قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ فيما سواه من المساجد، إلا المسجدَ الحرام، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضلُ من صلاةٍ في مسجدي هذا بمئة صلاة».

قال الإمام الحافظ أبو عمر[٣]: وأسند هذا الحديث حبيبٌ المُعلِّم، عن عطاء بن أبي رَباح، عن عبد الله بن الزُّبير وجوَّده، ولم يُخلِّطْ في لفظه ولا في معناه، وكان ثقةً. قال ابن أبي خَيْثَمة: سمعتُ يحيى بنَ مَعِين يقول: حبيبٌ المُعلِّم ثقة. وذكر عبد الله بن أحمد قال: سمعتُ أبي يقول: حبيبٌ المُعلِّم ثقة ما أصحَّ حديثَه! وسُئِلَ أبو زُرْعة الرازي عن حبيب المُعلِّم فقال: بصريٌّ ثقة.

قلتُ: وقد خرَّجَ حديثَ حبيب المُعلِّم هذا عن عطاء بن أبي رَباح، عن عبد الله ابن الزبير، عن النبيِّ ﷺ الحافظُ أبو حاتم محمد بن حِبَّان[٤] التميمي البُستي في المسند الصحيح له[٥]، فالحديث صحيحٌ، وهو الحُجَّة عند التنازع والاختلاف، والحمد لله.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٣٦٧ .

(٢) قبلها في (ف) و(م) زيادة: أن يأتمنهم.

(٣) هو ابن عبد البر، وكلامه في التمهيد ٦/ ٢٥ - ٢٦ .

(٤) في (د) و(م): حاتم، وهو خطأ.

(٥) صحيح ابن حبان (١٦٢٠)، وهو عند أحمد (١٦١١٧).

قال أبو عمر: وقد رُويَ عن ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ مثلُ حديث ابن الزُّبير، رواه موسى الجُهَني، عن نافع، عن ابن عمر. وموسى الجُهني كوفيٌّ ثقة، أثنى عليه القَطَّان وأحمد ويحيى وجماعتهم، وروى عنه شعبةُ والثَّوريُّ ويحيى بن سعيد.

وروى حكيم بن سيف، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ فيما سواه، إلا المسجدَ الحرام، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضلُ من مئة ألفٍ فيما سواه». وحكيم بن سيف هذا شيخٌ من أهل الرقَّة، قد روى عنه أبو زُرْعة الرازيُّ، وأخذ عنه ابن وضَّاح، وهو عندهم شيخٌ صدوقٌ لا بأس به، فإن كان حفِظَ فَهُما حديثان، وإلا فالقول قول حبيب المُعلِّم.

وروى محمد بن وضَّاح، حدثنا يوسف بن عديٍّ، عن عمر بن عبيد، عن عبد الملك، عن عطاء، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ في غيره من المساجد، إلا المسجدَ الحرام، فإنَّ الصلاة فيه أفضل»(١).

قال أبو عمر: وهذا كلُّه نصٌّ في موضع الخلاف قاطعٌ له عند من أُلْهِمَ رُشدَه، ولم تَمِلْ به عصبيَّتُه(٢).

وذكر ابن حبيب عن مُطَرِّف، وعن أَصْبَغَ عن ابن وهب؛ أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة في المسجد الحرام على الصلاة في مسجد النبيِّ ﷺ على ما في هذا الباب(٣).

---

(١) التمهيد ٦/٢٧ - ٣٠، وحديث ابن عمر الأول أخرجه أحمد (٥١٥٥)، ومسلم (١٣٩٥): (٥٠٩) من طريق موسى الجهني، به دون قوله: «فإنه أفضل منه بمئة صلاة». وحديث جابر أخرجه أحمد (١٤٦٩٤)، وابن ماجه (١٤٠٦) من طرق عن عبيد الله بن عمرو الرقي، به. وحديث ابن عمر الثاني أخرجه أحمد (٤٨٣٨) من طريق عبد الملك، به.

(٢) لم نقف على قول ابن عبد البر هذا في هذه المسألة، إنما قاله في مسألة النية والقصد في الطهارة، ينظر التمهيد ٢٢/١٠١.

(٣) التمهيد ٦/ ٣٤.

وقدِ اتَّفق مالكٌ وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يُبْرَز لهما في كلِّ بلدٍ إلا مكةَ، فإنها تُصلَّى في المسجد الحرام(١).

وكان عمر وعلي وابن مسعود وأبو الدَّرْداء وجابر يفضِّلون مكةَ ومسجدَها، وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم(٢). وإلى هذا ذهب الشافعيُّ، وهو قول عطاءٍ والمكيين والكوفيين(٣).

ورُوِيَ مثلُه عن مالك؛ ذكر ابن وهب في «جامعه» عن مالك أنَّ آدمَ عليه السلام لمَّا أُهبِطَ إلى الأرض قال: يا ربِّ، هذه أحبُّ إليك أن تُعبدَ فيها؟ قال: بل مكة(٤).

والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيلُ المدينة، واختلف أهل البصرة والبغداديون في ذلك، فطائفةٌ تقول: مكة، وطائفةٌ تقول: المدينة(٥).

قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ الأفئدة جمع فؤاد: وهي القلوب، وقد يُعبَّر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر:

وإنَّ فؤاداً قادني بصَبابَةٍ(٦) إليكِ على طولِ المَدى لَصَبُورُ

وقيل: جمع وَفْد، والأصل أوفدة، فقُدِّمتِ الفاءُ، وقُلِبَتِ الواوُ ياءً كما هي، فكأنَّه قال: واجعَلْ وفوداً من الناس تَهْوي إليهم(٧)، أي: تَنزع؛ يقال: هَوَى نحوَه: إذا مال، وهَوَتِ الناقةُ تَهوي هُوِيًّا، فهي هاويةٌ: إذا عَدَتْ عَدْواً شديداً كأنها في هواء بئر(٨)، وقوله: «تَهْوِي إِلَيْهِمْ» مأخوذٌ منه.

---

(١) التمهيد ٦/ ٣١ .
(٢) التمهيد ٦/ ٣٤ .
(٣) الاستذكار ٧/ ٢٢٦ .
(٤) التمهيد ٦/ ٣١ .
(٥) الاستذكار ٧/ ٢٢٦ .
(٦) في (ظ) وزاد المسير ٣/ ٣٦٧ : لصبابة.
(٧) النكت والعيون ٣/ ١٣٨ .
(٨) تهذيب اللغة ٦/ ٤٩١ .

قال ابن عباس ومجاهد: لو قال: «أفئدةَ الناس» لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال: «مِنَ النَّاس»، فهم المسلمون[١].

فقوله: ﴿تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تحِنُّ إليهم، وتحِنُّ إلى زيارة البيت[٢]. وقرأ مجاهد: «تَهْوَى إليهم» أي: تهواهم وتُجِلُّهم[٣].

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فاستجاب الله دعاءه، وأنبتَ لهم بالطائف سائرَ الأشجار، وبما يجلب إليهم من الأمصار. وفي «صحيح البخاريّ» عن ابن عباس الحديثُ الطويلُ وقد ذكرنا بعضه: «فجاء إبراهيمُ بعد ما تزوَّجَ إسماعيلُ يُطالِعُ تَرِكَتَه، فلم يجِدْ إسماعيل، فسألَ امرأتَه عنه، فقالت: خرجَ يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيقٍ وشدة؛ فشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجُكِ فاقرَئي عليه السلام، وقولي له يُغيِّرْ عَتَبَة بابه. فلمَّا جاء إسماعيلُ كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم مِنْ أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألني عنكَ فأخبرتُه، وسألني كيف عيشتُنا، فأخبرته أنَّا في جَهدٍ وشدة. قال: فهل أوصاكِ بشيء؟ قالت: أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيِّرْ عَتَبَةَ بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أُفارِقَكِ، الْحَقي بأهلك، فطلَّقها وتزوَّجَ منهم أخرى، فلبِثَ عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بَعدُ فلم يجِدْه، ودخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحنُ بخيرٍ وسَعةٍ،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ١١٢ ، والطبري ١٣/ ٦٩٨ عن مجاهد بلفظ: لو قال: أفئدة الناس، لازدحمت عليه فارس والروم، ولكنه: ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. وأخرج الطبري ١٣/ ٦٩٨ عن سعيد بن جبير: لو قال: أفئدة الناس تهوي إليهم، لحجَّت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال: ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فهم المسلمون، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٤ ، والنكت والعيون ٣/ ١٣٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٣٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٧ .

(٣) المحتسب ١/ ٣٦٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢ ، وزاد المسير ٤/ ٣٦٨ .

وأثنَتْ على الله. قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهمَّ بارِكْ لهم في اللحم والماء. قال النبيُّ ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذٍ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه». قال: فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغير مكة إلا لم يوافِقاه. وذكر الحديث[١].

وقال ابن عباس: قول إبراهيم: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾: سأل أن يجعلَ اللهُ الناسَ يَهوَون السُّكْنى بمكة، فيصير بيتاً مُحرَّماً[٢]. وكلُّ ذلك كان والحمد لله، وأول من سكنه جُرْهُم. ففي البخاريِّ ـ بعد قوله: وإنَّ الله لا يُضيِّعُ أهلَه ـ: وكان البيتُ مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيولُ، فتأخذُ عن يمينه وعن شماله، وكانت كذلك[٣] حتى مرَّتْ بهم رُفقةٌ من جُرْهُم قافلين[٤] من طريق كَداء، فنزلوا بأسفلَ مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إنَّ هذا الطائرَ لَيَدُورُ على ماء، لَعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَّين، فإذا هُم بالماء، فأخبروهم بالماء، فأقبلوا. قال: وأمُّ إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنينَ لنا أن ننزِلَ عندَكِ؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء. قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «فألفى ذلكَ أمَّ إسماعيل وهي تُحِبُّ الأُنس». فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهلُ أبياتٍ منهم، شَبَّ الغلامُ، وماتت أمُّ إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوَّجَ إسماعيلُ يطالع تَرِكَته. الحديث[٥].

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤). وقوله: لا يخلو عليهما أحد . . . الخ، يعني: ليس أحد يخلو على اللحم والماء بغير مكة إلا اشتكى بطنه. ينظر فتح الباري ٦/ ٤٠٥ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٣٩ .

(٣) المثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في صحيح البخاري، وفي غير (ظ): وكذلك، بدل: وكانت كذلك.

(٤) في صحيح البخاري: مقبلين، وكلاهما بمعنى.

(٥) صحيح البخاري (٣٣٦٤). قوله: جُرهم: هو ابن قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح. والطائر العائف: هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه. والجَرِيُّ: الرسول، وقد يُطلق على الوكيل وعلى الأجير. فتح الباري ٦/ ٤٠٣ .

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ أي: ليس يخفى عليك شيء من أحوالنا. وقال ابن عباس ومقاتل: تعلم جميع ما أُخفيه وما أُعلنه من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أسكنتهما بوادٍ غير ذي زرع. ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل: هو من قول إبراهيم. وقيل: هو من قول الله تعالى لمَّا قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ قال الله: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾. ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ أي: على كِبَر سِنِّي وسِنِّ امرأتي؛ قال ابن عباس: ولد له إسماعيل وهو ابنُ تسعٍ وتسعين سنة، وإسحاق وهو ابن مئةٍ واثنتي عشرة سنة. وقال سعيد بن جُبَير: بُشِّر إبراهيمُ بإسحاق بعد عشرٍ ومئةِ سنة[1]. ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ أي: واجعَلْ من ذريتي من يُقيمها. ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ أي: عبادتي كما قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال عليه الصلاة والسلام: «الدعاءُ مُخُّ العبادة» وقد تقدم في «البقرة»[2]. ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قيل: استغفرَ إبراهيمُ لوالديه قبل أن يثبُتَ عنده أنهما عدُوَّان لله. قال القُشَيريُّ: ولا يبعدُ أن تكون أمُّه مسلمةً؛ لأنَّ اللهَ ذكر عُذرَه في استغفاره لأبيه دون أمه[3].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٨ - ٣٩، وفيه: بشِّر إبراهيم بإسحاق وهو ابن مئة وسبع عشرة سنة.

(٢) ٣/ ١٧٨ بلفظ: «الدعاء هو العبادة» من حديث النعمان بن بشير. وأما الحديث بلفظ: «الدعاء مخُّ العبادة» فقد أخرجه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك.

(٣) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٨.

قلت: وعلى هذا قراءة سعيد بن جُبير: «رَبِّ اغْفِرْ لي ولِوالِدي» يعني أباه[١].

وقيل: استغفر لهما طمعاً في إيمانهما[٢]. وقيل: استغفر لهما بشرط أن يُسلما[٣]. وقيل: أراد آدم وحوّاء[٤]. وقد رُويَ أن العبد إذا قال: اللهمَّ اغفر لي ولوالديَّ، وكان أبواه قد ماتا كافِرَين، انصرفتِ المغفرةُ إلى آدم وحواء؛ لأنهما والدا الخلق أجمع. وقيل: إنه أراد ولدَيه إسماعيل وإسحاق، وكان إبراهيم النَّخَعي يقرأ: «وَلِوَلَدَيَّ» يعني ابنَيه، وكذلك قرأ يحيى بن يَعْمَر، ذكره الماوردي والنحاس[٥]. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: من أمة محمدٍ ﷺ[٦]. وقيل: للمؤمنين كلِّهم[٧]. وهو أظهر. ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يوم يقوم الناس للحساب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ بعد أن عَجَّبَهُ[٨] من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم، أي: اصبِرْ كما صبر إبراهيم، وأَعلِمِ المشركينَ أنَّ تأخيرَ العذاب ليس للرضا بأفعالهم، بل سنَّةُ الله إمهال العصاة مدة. قال ميمون بن مِهْران: هذا وعيدٌ للظالم، وتعزيةٌ للمظلوم[٩]. ﴿إِنَّمَا

(١) المحتسب ١/ ٣٦٥.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٣٩، وزاد المسير ٤/ ٣٦٩.

(٣) الوجيز (بهامش مراح لبيد) ١/ ٤٣٨.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٥، والنكت والعيون ٣/ ١٣٩، وزاد المسير ٤/ ٣٦٩.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٣٧ والنكت والعيون للماوردي ٣/ ١٣٩.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٥.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩.

(٨) من (ظ)، وفي باقي النسخ: أعجبه.

(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٣ - ٧٠٤، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٦٣٦)، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٨٣ - ٨٤.

﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يعني: مشركي مكة، يُمهِلُهم ويؤخِّرُ عذابَهم[١]. وقراءة العامة «يُؤَخِّرُهُمْ» بالياء[٢]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾. وقرأ الحسن والسُّلَمي ورُويَ عن أبي عَمرٍو أيضاً: «نُؤَخِّرُهُمْ» بالنون للتعظيم[٣]. ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: لا تغمَضُ من هولِ ما تراه في ذلك اليوم. قاله الفراء. يقال: شَخَص الرجلُ بَصَرَه، وشَخَص البصرُ نفسُه، أي: سَما وطَمَح من هول ما يرى[٤]. قال ابن عباس: تَشخَصُ أبصارُ الخلائق يومئذٍ إلى الهواء؛ لشدة الحَيرةِ فلا يغمضون[٥].

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين. قاله الحسن وقَتادة وسعيد بن جُبير[٦]، مأخوذٌ من أهطع يُهطع إهطاعاً: إذا أسرع. ومنه قوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر:٨] أي: مسرعين. قال الشاعر:

بـدجْـلـةَ دارُهُـمْ ولـقـد أرَاهُـمْ بـدجْلَةَ مُـهْـطِـعِـينَ إلـى الـسَّـمـاعِ[٧]

وقيل: المُهطع الذي ينظر في ذلٍّ وخشوع، أي: ناظرين من غير أن يَطرِفوا. قاله ابن عباس[٨]. وقال مجاهد والضحَّاك: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مُديمي النظر[٩]. وقال النحاس[١٠]: والمعروف في اللغة أن يُقال: أهطعَ إذا أسرع. قال أبو عبيد: وقد

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٧٠٤ ، والوسيط ٣/ ٣٥ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢١٠ .

(٢) النشر ٢/ ٤٠٠ ، والسبعة ص٣٦٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٤ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧٠ .

(٤) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٩ ، وتهذيب اللغة ٧/ ٧٢ .

(٥) في (م) و(ظ): لا يرمضون، وفي (د): لا يرتمضون، والمثبت من الوسيط للواحدي ٢/ ٣٥ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٣٠ ، والوسيط ٣/ ٣٥ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧٠ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤٣ ، والطبري ١٣/ ٧٠٤ - ٧٠٥ عن قتادة.

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٣٠ ، والبيت ليزيد بن مُفرِّغ، وهو في ديوانه ص١١٠ ، وفيه: «أهلها» بدل: «دارهم».

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٥ .

(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٦ عنهما، ولفظ الضحاك بالمعنى.

(١٠) في معاني القرآن ٣/ ٥٣٨ .

يكون الوجهان جميعاً، يعني: الإسراع مع إدامة النظر. وقال ابن زيد: المُهطع الذي لا يرفع رأسه[١]. ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعي رؤوسهم ينظرون في ذُلٍّ. وإقناعُ الرأس: رفعُه. قاله ابن عباس ومجاهد[٢]. قال ابن عرفة والقُتَبيُّ وغيرهما: المُقنِعُ: الذي يرفع رأسه، ويُقبِلُ ببصره على ما بين يديه، ومنه الإقناع في الصلاة[٣] وأقنعَ صوتَه: إذا رفعه. وقال الحسن: وجوه الناس يومئذٍ إلى السماء لا ينظر أحدٌ إلى أحد[٤]. وقيل: ناكسي رؤوسهم[٥]. قال المهدويُّ: ويقال: أقنعَ: إذا رفعَ رأسه، وأقنع: إذا طأطأ رأسَه ذِلَّةً وخُضوعاً، والآية محتملةٌ للوجهين[٦]. وقاله المبرِّد[٧]. والقول الأول أعرَفُ في اللغة؛ قال الراجز:

أَنْـغَـضَ نَـحْـوي رَأْسَـهُ وأَقْـنَـعـا ... كـأنَّـمـا أَبْـصَـرَ شـيـئـاً أَطْـمَـعـا[٨]

وقال الشَّمَّاخ يصِفُ إبلاً:

يُـبـاكِـرْنَ الـعِـضـاهَ بِـمُـقْـنَـعَـاتٍ ... نَـواجِـذُهـنَّ كـالْـحَـدَأ الـوَقـيـعِ[٩]

يعني: برؤوسٍ مرفوعاتٍ إليها لتتناولهنَّ. ومنه قيل: مِقْنَعةٌ؛ لارتفاعها. ومنه قَنِعَ الرجلُ: إذا رَضِيَ، أي: رفع رأسَه عن السؤال. وقَنَع: إذا سأل، أي: أتى ما يتقنَّعُ

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٦.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٨ عنهما.

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٣٣.

(٤) نقله عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٥، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٩، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧١.

(٥) نقله الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤٠ عن المؤرِّج وقتادة.

(٦) نقله عنه النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٣٩.

(٧) في الكامل ٢/ ١٠٢٧.

(٨) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٤٤، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤١.

(٩) ديوان الشماخ ص٢٢٠، قوله: والعِضاه: كل شجر يعظُم وله شوك، والحَدأُ جمع حَدأة: وهي الفأس ذات الرأسين. الصحاح (عضه) و(حدأ).

منه. عن النحاس[١]. وفَمٌ مُقْنَعٌ، أي: معطوفةٌ أسنانُه إلى داخل. ورجل مُقنَّعٌ ـ بالتشديد ـ أي: عليه بَيْضَة. قاله الجوهري[٢].

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا ترجِعُ إليهم أبصارُهم من شدة النظر، فهي شاخصةُ النظر[٣]. يُقال: طَرَفَ الرجلُ يَطْرِفُ طَرْفاً: إذا أطبق جَفْنَه على الآخر[٤]، فسُمِّيَ النظرُ طَرْفاً؛ لأنه به يكون[٥]. والطَّرْفُ: العين؛ قال عَنْتَرة[٦]:

وَأَغُضُّ طَرْفي ما بَدَتْ لي جارتي حتَّى يُواري جارتي مَأْواها

وقال جَميل:

وَأَقْصِرُ طَرْفي دُونَ جُمْلٍ كَرامةً لِجُمْلٍ ولِلطَّرْفِ الذي أنا قاصِرُهْ[٧]

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: لا تعي[٨] شيئاً من شدّة الخوف. ابن عباس: خاليةٌ من كلِّ خير[٩]. السُّدِّيّ: خرجت قلوبهم من صدورهم، فنَشِبت في حلوقهم[١٠]. وقال مجاهد ومُرَّة وابن زيد: خاويةٌ خَرِبةٌ مُنخرقةٌ؛ ليس فيها خيرٌ ولا عقل، كقولك في البيت الذي ليس فيه شيء: إنما هو هَواءٌ. وقاله ابن عباس[١١].

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٥٤٠ .

(٢) في الصحاح (قنع).

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧١ .

(٤) الصحاح (طرِف).

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٤١ .

(٦) في ديوانه ص٧٦ .

(٧) لم نقف عليه في ديوانه، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤١ .

(٨) تحرفت في النسخ إلى: تغني، والتصويب من معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٦ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٤٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧١ .

(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٧١١ .

(١٠) ذكره عنه بنحوه أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢١٠ ، وهو قول قتادة أخرجه عنه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤٣ ، والطبري ١٣/ ٧١٣ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧١ .

(١١) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٧١٠ - ٧١٢ بألفاظ مقاربة.

والهواء في اللغة: المجوَّفُ الخالي، ومنه قول حسان:

ألا أَبلِـغْ أبـا سُـفْـيـانَ عَـنِّـي فـأنـتَ مُـجـوَّفٌ نَـخِـبٌ هَـواءُ(١)

وقال زهير يصف ناقةً صغيرة الرأس:

كـأنَّ الـرَّحْـلَ مِـنـهـا فـوقَ صَـعْـلٍ مـن الـظِّـلْـمـانِ جُـؤْجُـؤهُ هَـواءُ(٢)

فارغٌ، أي: خالٍ، وفي التنزيل: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: ١٠] أي: من كلِّ شيءٍ إلا من همِّ موسى. وقيل: في الكلام إضمار، أي: ذاتُ هواءٍ وخلاء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ قال ابن عباس: أراد أهل مكة(٣). ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة، أي: خَوِّفْهم ذلك اليوم، وإنما خصَّه(٤) بيوم العذاب ـ وإن كان يوم الثَّواب ـ لأنَّ الكلام خرج مخرج التهديد للعاصي. ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: في ذلك اليوم: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ أي: أمهِلْنا(٥). ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهرَ الحقُّ في الآخرة(٦). ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ أي: إلى الإسلام ﴿وَنَتَّبِعِ

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٤٤ ، والبيت في ديوان حسان ص٩ .

(٢) ديوان زهير ص٦٣ ، وفي (م) و(د): الرجل. قوله: صَعْل، أي: دقيق الرأس والعنق، وظليم: هو الذكر من النَّعام، جمعها: ظِلمان. قال ثعلب في شرحه للديوان: كأن الرحل منها: من هذه الناقة. فوق صعلٍ: فوق ظليمٍ دقيق العُنق صغير الرأس. جؤجؤه: صدره. هواءٌ: لا مُخَّ فيه.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٦ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧٢ .

(٤) في (ظ): خُصَّ، وفي (ز) و(د) و(م): خصَّهم، والمثبت من (ف)، وهو موافق لما في النكت والعيون ٣/ ١٤٢ ، (والكلام منه) وينظر زاد المسير ٤/ ٣٧٢ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٠ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٤٢ .

ٱلرُّسُلَۗ﴾. فيُجابون: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ يعني: في دار الدنيا[١]. ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ قال مجاهد: هو قَسَمُ قريش أنهم لا يُبعثون[٢]. ابن جُرَيج: هو ما حكاه عنهم في قوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾[٣] [النحل: ٣٨].

﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ فيه تأويلان: أحدهما: ما لكم من انتقالٍ عن الدنيا إلى الآخرة، أي: لا تُبعثون ولا تُحشرون. وهذا قول مجاهد. والثاني: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ أي: من العذاب[٤]. وذكر البيهقيُّ[٥] عن محمد بن كعب القُرَظيِّ قال: لِأهلِ النَّارِ خمسُ دَعَواتٍ: يُجيبهم اللهُ في أربعة، فإذا كان في الخامسة لم يتكلَّموا بعدها أبداً، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [غافر: ١١]. فيُجيبهم الله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]. ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] فيُجيبهم الله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤]. ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ فيُجيبهم اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [فاطر: ٣٧] فيُجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]. ويقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، فيُجيبهم

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٠، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠، وزاد المسير ٤/ ٣٧٢.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٧١٥ - ٧١٦ بمعناه.

(٣) لم نقف عليه من قول ابن جريج، وإنما هو تتمة كلام مجاهد السالف.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٤٢ وعزا القول الثاني للحسن، وأخرج قول مجاهد الطبري ١٣/ ٧١٥ بنحوه.

(٥) في البعث والنشور (٦٦٠)، وفي إسناده أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي، وهو ضعيف.

الله تعالى: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. فلا يتكلمون بعدها أبداً. خرَّجه ابن المبارك في «رقائقه» بأطْوَلَ من هذا ـ وقد كتبناه في كتاب «التذكرة»[١] ـ وزاد في الحديث: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ قال: هذه الثالثة، وذكر الحديث، وزاد بعد قوله: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فانقطع عند ذلك الدعاءُ والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض؛ ينبَح بعضهم في وجه بعض، وأطبقت عليهم. قال: فحدَّثني الأزهر بن أبي الأزهر أنه ذكرَ له أن ذلك قوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ أي: في بلاد ثمود ونحوها، فهلَّا اعتبرتُم بمساكنهم بعد ما تبيَّن لكم ما فعلنا بهم، وبعد أن ضربنا لكم الأمثال في القرآن[٢]. وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي: «ونُبَيِّنْ لَكُمْ» بنون، والجزم على أنه مستقبل، ومعناه الماضي[٣]، وليناسب قوله: ﴿كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾. وقراءة الجماعة: «وَتَبَيَّنَ»، وهي مثلها في المعنى؛ لأن ذلك لا يتبيَّنُ لهم إلا بتبيين اللهِ إيَّاه.

---

(١) ص٤١٧ - ٤١٩ ، ولم نقف عليه في الرقائق لابن المبارك، وقد ذكر المصنف هناك في التذكرة أن ابن المبارك رواه عن الحكم، والحكم هذا: هو ابن ظهير، وهو متروك، واتهمه ابن معين. تقريب التهذيب.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٠ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٦ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧٢ .

(٣) القراءات الشاذة ص٦٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٥ ، ونقل فيه ابن عطية أيضاً عن أبي عبد الرحمن أنه قرأ بضم النون ورفع النون الأخيرة، وينظر زاد المسير ٤/ ٣٧٢ .

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ أي: بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة. عن ابن عباس وغيره[١]. ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ «إن» بمعنى «ما» أي: ما كان مكرُهم لتزولَ منه الجبال؛ لضعفه ووهنه. و«إن» بمعنى «ما» في القرآن في مواضع خمسة: أحدها هذا. الثاني: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]. الثالث: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا﴾ [الأنبياء: ١٧] أي: ما كنا. الرابع: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]. الخامس: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقرأ الجماعة: «وإن كان» بالنون. وقرأ عمر وعليّ[٢] وابن مسعود وأُبيٌّ: «وإن كاد» بالدال[٣]. والعامة على كسر اللام في «لِتزولَ» على أنها لام الجحود وفتح اللام الثانية نصباً[٤]. وقرأ ابن مُحيْصِن وابن جُريج والكِسائي: «لَتَزُولُ»[٥] بفتح اللام الأولى على أنَّها لامُ الابتداء، ورفعِ الثانية، و«إنْ» مخفَّفة من الثَّقيلة، ومعنى هذه القراءة: استعظامُ مكْرِهم، أي: ولقد عظُمَ مكرُهُم حتى كادتِ الجبالُ تزول منه[٦].

قال الطَّبري[٧]: الاختيار القراءة الأولى؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة.

قال أبو بكر الأنباري: ولا حجةَ على مصحف المسلمين في الحديث الذي حدَّثناه أحمد بن الحسين، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدّثنا وكيع بن الجرَّاح، عن

---

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٤٢ .

(٢) في (ز) و(د) و(م): عمرو بن علي، وهو خطأ.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٣ ، والمحتسب ١/ ٣٦٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦ ، والنكت والعيون ٣/ ١٤٣ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧٤ .

(٤) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٧ .

(٥) قراءة الكسائي من السبعة، وينظر السبعة ص٣٦٣ ، والتيسير ص١٣٥ ، وذكرها الطبري ١٣/ ٧٢٠ عن ابن جُريج عن مجاهد.

(٦) ينظر الحجة في القراءات لابن زنجلة ص٣٧٩ والوسيط ٣/ ٣٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦ .

(٧) في تفسيره ١٣/ ٧٢٤ .

إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن دانيال قال سمعت عليَّ بن أبي طالبٍ ﷺ يقول: إنَّ جبَّاراً من الجبابرة قال: لا أنتهي حتَّى أعلم من في السماوات، فعَمَدَ إلى فراخِ نُسُورٍ، فأمر أن تُطعَم اللحم، حتى إذا[1] اشتدَّتْ وعَضَلتْ واستعلجتْ؛ أمرَ بأن يُتَّخذَ تابوتٌ يسَعُ فيه رجلين، وأن يُجعَلَ فيه عصاً؛ في رأسها لحمٌ شديدٌ حُمرتُه، وأن يُسْتَوثَقَ من أرجلِ النسور بالأوتاد، وتُشدَّ إلى قوائم التابوت، ثم جلس هو وصاحبٌ له في التابوت، وأثَارَ النُّسورَ، فلما رأتِ اللحمَ طلَبَتْه، فجعلت ترفع التابوتَ، حتى بلغت به ما شاء الله، فقال الجبَّارُ لصاحبه: افتحِ البابَ فانظُرْ ما ترى؟ فقال: أرى الجبالَ كأنَّها ذبابٌ. فقال: أغلقِ الباب؛ ثم صعَدَتْ بالتابوت ما شاء الله أن تصعَدَ، فقال الجبَّارُ لصاحبه: افتحِ الباب فانظُرْ ما ترى؟ فقال: ما أرى إلا السماء، وما تزداد منَّا إلا بُعْداً. فقال: نَكِّسِ العصا. فنكَّسها، فانقضَّتِ النُّسور، فلما وقع التابوت على الأرض سُمِعتْ له هَدَّةٌ كادتِ الجبالُ تزولُ عن مراتبها منها. قال: فسمعتُ عليًّا ﷺ يقرأ: «وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ» بفتح اللام الأولى من «لتزول» وضم الثانية[2].

وقد ذكر الثَّعلبيُّ[3] هذا الخبر بمعناه، وأن الجبَّار هو النُّمرود الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه؛ قال عكرمة: كان معه في التابوت غلامٌ أمرد، وقد حمل القوس والنَّبل، فرمى بهما، فعاد إليه مُلطَّخاً بالدم، وقال: كُفيتُ نَفْسُكَ[4] إلهَ السَّماء. قال عكرمة: تَلطَّخَ بدم سمكةٍ من السماء، قذفتْ نفسَها إليه من بحرٍ في الهواء مُعلَّق. وقيل: طائرٌ من الطير أصابه السَّهمُ، ثم أمر نُمرودُ صاحبَه أن يضرب العصا وأن يُنكِّس اللحم،

---

(١) لفظة: إذا من (ظ).

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٢١ من طريق وكيع، به وأخرجه الطبري ١٣/٧١٨ من طريق سفيان الثوري، و ١٣/٧١٩ من طريق شعبة، كلاهما عن أبي إسحاق، به. لكن وقع في روايتيهما تسمية الراوي عن علي: عبد الرحمن بن أذنان، وهو مجهول، فقد ترجم له البخاري في التاريخ الكبير ٥/ ٢٥٥ ، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٥/ ٢١٠ ، ولم يذكرا عنه راوياً سوى أبي إسحاق، ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في ثقاته ٥/ ٨٧ على عادته في توثيق المجاهيل.

(٣) في عرائس المجالس ص٩٨ - ٩٩ .

(٤) هكذا في النسخ، وفي العرائس: كفيت شغل.

فهبطتِ النُّسورُ بالتابوت، فسمعتِ الجبالُ حفيفَ التابوتِ والنّسورِ ففزعت، وظنَّتْ أنه قد حدَثَ بها حدَثٌ من السماء، وأنَّ الساعة قد قامت، فذلك قوله: «وإنْ كانَ مكرهُمْ لَتَزُولُ منهُ الجبالُ». قال القُشَيريُّ: وهذا جائز بتقدير خلق الحياة في الجبال.

وذكر الماورديُّ[١] عن ابن عباس: أنَّ النُّمرود بن كنعان بَنَى الصَّرح في قرية الرَّسِّ من سواد الكوفة، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعاً، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعاً، وصعد منه مع النُّسور، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء اتخذه حصناً، وجمع فيه أهله وولده ليتحصَّنَ فيه، فأتى اللهُ بنيانَه من القواعد، فتداعى الصَّرحُ عليهم، فهلكوا جميعاً، فهذا معنى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾.

وفي الجبال التي عنى زوالها بمكرهم وجهان: أحدهما: جبال الأرض، والثاني: الإسلام والقرآن؛ لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال[٢].

وقال القُشَيريُّ: ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: هو عالمٌ بذلك فيجازيهم، أو عند الله جزاءُ مكرهم، فحذف المضاف.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ بكسر اللام، أي: ما كان مكرهم مكراً يكون له أثرٌ وخطرٌ عند الله تعالى، فالجبال مَثَلٌ لأمر النبي ﷺ[٣]. وقيل: «وَإنْ كَانَ مَكْرُهُمْ» في تقديرهم «لِتَزولَ مِنْهُ الْجِبَالُ» ويؤثِّر في إبطال الإسلام. وقُرِئَ: «لَتَزُولُ منهُ الجبالُ» بفتح اللام الأولى وضم الثانية، أي: كان مكراً عظيماً تزول منه الجبال[٤]. ولكنَّ اللهَ حفِظَ رسولَه ﷺ، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢]

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ١٤٢ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٦ - ١٦٧ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٧ ، والبيان لابن الأنباري ٢/ ٦٢ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٧٩ . والقراءة المذكورة هي قراءة الكسائي، وقد ذكرها المصنف قريباً.

والجبال لا تزول، ولكنَّ العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ اسمُ الله تعالى و«مخلف» مفعولا تحسب؛ و«رُسُلَهُ» مفعول «وَعْدِهِ»، وهو على الاتساع، والمعنى: مخلفَ رُسُلِهِ وَعْدَه[١] قال الشاعر:

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رأسَهُ وسائِرُهُ بادٍ إلى الشَّمْسِ أجْمَعُ[٢]

قال القُتَبيُّ[٣]: هو من المُقدَّم الذي يوضِّحه التأخير، والمؤخَّر الذي يوضِّحه التقديم، وسواءٌ في قولك: مخلف وعدِه رسلَه، ومخلف رسلِه وعدَه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: من أعدائه. ومن أسمائه: المنتقم، وقد بيَّنّاه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٤].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أُذكُرْ يوم تبدَّل الأرض، و«غيرَ» نعتٌ لمحذوف، التقدير: أرضاً غيرَ الأرض. ويحتمل أن يكون المراد: إنَّ اللهَ عزيزٌ

(١) وقع في النسخ غير (ظ): مخلف وعده رسله، وفي (ظ): رسله وعده، دون لفظة: مخلف، والمثبت من مشكل إعراب القرآن ١/٤٠٨ .

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٨٠ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٣ ، والبيان لابن الأنباري ٢/ ٦٢ .

(٣) في تأويل مشكل القرآن ص١٤٨ .

(٤) لم نقف عليه في المطبوع منه.

ذو انتقامٍ يومَ تُبدَّلُ الأرض[١]، فيكون متعلقاً[٢] بما قبله. وقيل: هو صفةٌ لقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[٣].

واختُلِفَ في كيفية تبديل الأرض، فقال كثيرٌ من الناس: إنَّ تبدُّل الأرض عبارةٌ عن تغير صفاتها، وتسويةِ آكامها، ونسفِ جبالها، ومدِّ أرضها. ورواه ابن مسعود ﷺ، خرَّجه ابن ماجه في «سننه»[٤]. وذكره ابن المبارك من حديث شَهْر بن حَوْشَب قال: حدَّثني ابنُ عباس قال: إذا كان يوم القيامة مُدَّتِ الأرضُ مدَّ الأديم، وزِيدَ في سَعتها كذا وكذا؛ وذكر الحديث[٥].

ورُوي مرفوعاً من حديث أبي هُريرة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرضِ، فيبسُطُها ويمدُّها مدَّ الأديم العُكَاظيِّ، لا ترى فيها عِوجاً ولا أَمْتاً، ثم يزجرُ اللهُ الخلقَ زجرةً فإذا هم في الثانية في مثل مواضعهم من الأولى، مَن كان في بطنها ففي بطنها، ومَن كان على ظهرها كان على ظهرها» ذكره الغَزْنَويّ[٦].

وتبديلُ السماءِ تكويرُ شمسِها وقمرِها، وتناثرُ نجومها. قاله ابن عباس. وقيل: اختلاف أحوالها، فمرَّةً كالمُهْل ومرَّةً كالدِّهان. حكاه ابن الأنباري[٧]. وقد ذكرنا هذا الباب مُبيَّناً في كتاب «التذكرة»[٨] وذكرنا ما للعلماء في ذلك، وأنَّ الصحيح إزالة هذه

---

(١) من قوله: و«غير» إلى هذا الموضع من (ظ).

(٢) المثبت من (ظ)، وفي باقي النسخ: فتكون متعلقةً.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٩ .

(٤) برقم (٤٠٨١)، وأخرجه أحمد (٣٥٥٦) عن ابن مسعود مرفوعاً، وفي إسناديهما مؤثر بن عفازة، وهو مجهول.

(٥) الزهد لابن المبارك ـ زوائد نعيم بن حماد ـ (٣٥٣)، وشهر بن حوشب ضعيف.

(٦) وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٥ - ٧٣٦ من طريق إسماعيل بن رافع القاص، عن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة مرفوعاً. إسماعيل بن رافع ويزيد بن أبي زياد متروكان. ميزان الاعتدال ١/ ٢٢٧ و ٤/ ٤٢٥ .

(٧) نقله عنهما ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧٦ .

(٨) ص١٩٠ - ١٩٣ .

الأرض حسب ما ثبتَ عن النبيِّ ﷺ:

روى مسلم[١] عن ثَوْبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنتُ قائماً عند رسول الله ﷺ، فجاءه حَبْرٌ من أحبار اليهود فقال: السلامُ عليك... وذكر الحديث، وفيه: فقال اليهوديُّ: أين يكون الناس يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «في الظُّلمة دون الجِسر»[٢]. وذكر الحديث.

وخرَّجَ عن عائشة قالت: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين يكون الناسُ يومئذٍ؟ قال: «على الصراط». خرَّجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء، وخرَّجه الترمذيُّ عن عائشة وأنها هي السائلة، وقال: هذا حديث حسن صحيح[٣].

فهذه الأحاديث تنصُّ على أنَّ السماواتِ والأرضَ تُبدَّل وتُزال، ويخلق اللهُ أرضاً أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجِسْر.

وفي «صحيح مسلم» عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشَرُ الناسُ يومَ القيامة على أرضٍ بيضاءَ عَفْراء كقُرْصَة النَّقِيِّ ليس فيها عَلَمٌ لأحد»[٤].

وقال جابر: سألتُ أبا جعفر محمد بن علي عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: تُبدَّل خُبزةً يأكل منها الخلق يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿وَمَا

---

(١) في صحيحه (٣١٥).

(٢) أي: الصراط. إكمال المعلم ٢/ ٦٥٣ .

(٣) صحيح مسلم (٢٧٩١)، وسنن ابن ماجه (٤٢٧٩)، وسنن الترمذي (٣١٢١)، وهو في مسند أحمد (٢٤٠٦٩).

(٤) صحيح مسلم (٢٧٩٠)، وأخرجه البخاري (٦٥٢١)، وقوله: «ليس فيها علمٌ لأحد» ليس من كلام النبي ﷺ، وجاء التصريح بذلك في رواية البخاري، ونبَّه الحافظ في الفتح ١١/ ٣٧٥ على أن هذه العبارة أُدرجت في الحديث في رواية مسلم. ومعناه: أنه ليس فيها علامة سكنى أو بناء أو أثر. والعفراء: البيضاء المائلة إلى الحمرة؛ والنَّقيّ: هو الدقيق الحوري، وهو الدرمك. شرح صحيح مسلم للنووي ١٧/ ١٣٤ .

﴿جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾[١] [الأنبياء: ٨].

وقال ابن مسعود: إنها تُبدَّلُ بأرضٍ غيرِها بيضاءَ كالفضة، لم يُعْمَلْ عليها خطيئة[٢]. وقال ابن عباس: بأرضٍ من فضَّةٍ بيضاء[٣]. وقال عليٌّ ﷺ: تُبدَّل الأرض يومئذٍ من فضة، والسماءُ من ذهب[٤]. وهذا تبديل العين، وحسبُكَ. ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: من قبورهم، وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهم المشركون. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: مشدودين ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾: وهي الأغلال والقيود، واحدها صَفْد وصَفَد. ويقال: صَفَدتُه صَفْداً، أي: قَيَّدتُه، والاسمُ: الصَّفَد، فإذا أردتَ التكثير قلتَ: صَفَّدتُه تصفيداً؛ قال عمرو بن كُلْثوم[٥]:

فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبايا وأُبْنا بالمُلوكِ مُصَفَّدينا

أي: مقيَّدينا. وقال حسان[٦]:

مِن كلِّ مأسُورٍ يُشَدُّ صِفادُهُ صَقْرٍ إذا لاقَى الكريهةَ حامي

أي: غلُّه، وأصفدتُه إصفاداً: أعطيتُه. وقيل: صَفَدتُه وأَصْفَدتُه جاريان في القيد والإعطاء جميعاً؛ قال النابغة:

---

(١) مجمع البيان ١٣/ ٢٣٩.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٢٩ و ٧٣٠، وأبو الشيخ في العظمة (٦٠٠)، والحاكم ٤/ ٥٧٠ وصحَّح إسناده. وأخرجه البزار (١٨٥٩)، والطبراني في الكبير (١٠٣٢٣)، وفي الأوسط (٧١٦٧)، وابن عدي ٢/ ٥٤٧ عن ابن مسعود مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٥: رواه البزار، وفي إسناده جرير بن أيوب، وهو مجمعٌ على ضعفه.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٤.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٤ وفيه «الجنة» بدل «السماء».

(٥) في معلقته ص١٠٠.

(٦) ديوانه ص٢١٥.

فَلَمْ أُعَرِّضْ أَبَيْتَ اللعْنَ بالصَّفَدِ[(١)]

فالصَّفَدُ: العطاء؛ لأنه يُقيِّد ويُعَبِّد[(٢)]؛ قال أبو الطيب:

وقَيَّدتُ نفسي في ذَرَاكَ مَحبَّةً ومَن وَجَدَ الإحسانَ قَيْداً تَقيَّدا[(٣)]

قيل: يُقرَنُ كلُّ كافرٍ مع شيطانٍ في غُلٍّ، بيانه قوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] يعني: قرناءهم من الشياطين. وقيل: إنهم الكفار يجمعون في الأصفاد كما اجتمعوا في الدنيا على المعاصي[(٤)].

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي: قُمُصُهُم. عن ابن دُرَيد وغيره، واحدها سِرْبال[(٥)]، والفعل: تَسربلتُ وسَربلتُ غيري؛ قال كعب بن مالك:

تَلْقَاكُمُ عَصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَهُمْ مِنْ نَسْجِ دَاودَ في الْهَيْجا سَرابيلُ[(٦)]

﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ يعني: قَطِران الإبل الذي تُهْنَأ به. قاله الحسن[(٧)]. وذلك أبلَغُ لاشتعال النار فيهم[(٨)].

وفي الصحيح: أنَّ النائحةَ إذا لم تَتُبْ قبل موتها تُقام يومَ القيامة وعليها سِربالٌ من قَطِرانٍ ودِرْعٌ من جَرَب[(٩)]. ورُوي عن جماعةٍ[(١٠)] أنهم قالوا: هو النُّحاس[(١١)].

(١) وصدره: هذا الثناءُ فإن تسمَعْ به حسناً، والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص٣٧ .

(٢) أي: يُذَلِّل .

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي ٢/ ١٥ . وقوله: ذَرَاك، أي: كنفك. الصحاح (ذرا).

(٤) ينظر تهذيب اللغة ١٢/ ١٤٨-١٤٩ ، والنكت والعيون ٢/ ١٤٤-١٤٥ .

(٥) جمهرة اللغة ٣/ ٣٠٥ لابن دريد، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٤٥ والنكت والعيون للماوردي ٣/ ١٤٥ .

(٦) ديوان كعب ص٢٠٣ ، وفيه: مما يُعِدُّون للهيجا، بدل: من نسج داود في الهيجا.

(٧) أخرجه عنه الطبري ١٣/ ٧٤٣ ، ونقله أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢١٢ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧٧ .

(٨) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٠ .

(٩) صحيح مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري، وأخرجه أحمد (٢٢٩٠٣).

(١٠) من (ظ)، وفي بقية النسخ: حماد.

(١١) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٤٣ ، ٧٤٤ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

وقرأ عيسى بن عمر: «قَطْرَانٍ» بفتح القاف وتسكين الطاء[١]. وفيه قراءة ثالثة: كسر القاف وجزم الطاء[٢]؛ ومنه قول أبي النَّجْم:

جَوْنٌ كَأَنَّ الْعَرَقَ الْمَنْتُوحا لَبَّسَهُ الْقِطْرَانَ والْمُسُوحا[٣]

وقراءة رابعة: «مِنْ قِطْرٍ آنٍ» رُويت عن ابن عباس وأبي هُريرة وعكرمة وسعيد بن جُبير ويعقوب[٤]. والقِطْرُ: النحاس، والصُّفر المُذاب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ [الكهف: ٩٦]. و«آن»[٥]: الذي قد انتهى حرُّه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾[٦] [الرحمن: ٤٤].

﴿وَتَغۡشَىٰ﴾ أي: تضرب ﴿وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ فتُغشِّيها. ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ﴾ أي: بما كسبت. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ تقدَّم[٧].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ أي: هذا الذي أنزلنا إليك بلاغٌ؛ أي: تبليغٌ وعِظَةٌ. ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: ليُخوَّفوا عقابَ الله عزَّ وجلَّ. وقُرِئَ: «وَلِيَنْذَرُوا» بفتح الياء والذال[٨]، يقال: نَذِرتُ بالشيء أَنْذَرُ: إذا علمتَ به فاستعددتَ له، ولم يستعملوا منه مصدراً كما لم يستعملوا من عسى وليس، وكأنهم استغنَوا بأن والفعل، كقولك: سَرَّني أن نَذِرتُ بالشيء.

---

(١) ذكر الطبري ١٣/ ٧٤٢ أن عيسى بن عمر كان يقرأ: «من قِطْران» بكسر القاف، أما قراءة فتح القاف وإسكان الطاء فقد ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ٤٤٠ عن عمر وعلي.

(٢) وهي قراءة عيسى بن عمر فيما ذكره الطبري كما في التعليق السابق.

(٣) ديوان أبي النجم ص٨٣ . قوله: جَوْن، أي: أسود، أو أبيض (ضدٌّ). أو الأسود المشرب حمرة. والمُسوح: جمع مِسْح، وهو الكساء من الشعر.

(٤) القراءات الشاذة ص٧٠ ، والمحتسب ١/ ٣٦٦ . وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧٧ . والقراءة المشهورة عن يعقوب ـ وهو من العشرة ـ كقراءة الجماعة.

(٥) من (ظ)، وفي غيرها: الآن.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٠ ، والنكت والعيون ٣/ ١٤٥ .

(٧) ٣/ ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٨) المحتسب ١/ ٣٦٧ .

﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أي: وليعلموا وحدانية الله بما أقام من الحجج والبراهين. ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: وليتَّعِظَ أصحاب العقول[(١)]. وهذه اللامات في «وَلِيُنْذَرُوا» «وَلِيَعْلَمُوا» «وَلِيَذَّكَّرَ» متعلقةٌ بمحذوف؛ التقدير: ولذلك أنزلناه[(٢)].

وروى يَمان بن رِئَاب أنَّ هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ[(٣)].

وسُئِلَ بعضُهم: هل لكتاب الله عنوان؟ فقال: نعم. قيل: وأين هو؟ قال: قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ إلى آخرها.

تمَّ تفسير سورة إبراهيم عليه السلام، والحمد لله.

(١) النكت والعيون للماوردي ٣/ ١٤٦، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٧.

(٢) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٣٧، وزاد المسير ٤/ ٣٧٨.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٤٦.

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

مكيَّةٌ[1]، وهي إحدى وخمسونَ آيةً[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾؛ أي: هو كتابٌ ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ بدُعائِكَ إيَّاهُم إلى ما تضمَّنَه ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: مِن أنواعِ الضَّلالِ ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الهُدى.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: بتَوفيقِه وتَسهيلِه، مُستعارٌ مِن الإذنِ الذي هو تَسهيلُ الحِجابِ، وهو صِلَةٌ لـ﴿تُخْرِجَ﴾ أو حالٌ مِن فاعلِه أو مَفعولِه.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بدلٌ مِن قَولِه: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بتكريرِ العاملِ، أو استئنافٌ على أنَّه جوابٌ لِمَن يسألُ عنه، وإضافةُ الصِّراطِ إلى اللهِ إمَّا لأنَّه مقصدُهُ، أو المظهِرُ له، وتخصيصُ الوَصْفينِ للتَّنبيهِ على أنَّه لا يَذِلُّ سالِكُهُ ولا يَخيبُ سائِلُه.

(٢) ـ ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على قراءةِ نافعٍ وابنِ عامرٍ[3] مبتدأٌ وخبرٌ، أو ﴿ٱللَّهِ﴾ خبرُ مَحذوفٍ و﴿ٱلَّذِى﴾ صِفتُه، وعلى قراءةِ

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٧١)، وفيه: مكِّيَّة إلاَّ آيتين منها نزلتا بالمدينة في قتلى قريش يوم بدر، كذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة، وهما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ إلى قوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾.

(٢) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٧١)، وفيه: وهي خمسون وآيةٌ في البَصْريّ، وآيتان في الكوفي، وأربع في المدنيين والمكي، وخمس في الشَّامي. ثم ذكر الآيات التي وقع الاختلاف فيها.

(٣) أي: بالرفع، والباقون بالجر. انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٣٤).

الباقينَ عطفُ بيانٍ لـ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ لأنَّه كالعَلَمِ لاختِصاصِهِ بالمَعبودِ[١] الحَقِّ.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وعيدٌ لِمَن كَفَرَ بالكِتابِ ولم يخرُجْ بِهِ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، والوَيْلُ: نقيضُ الوَأْلِ وهو النَّجاةُ، وأصلُه النَّصبُ ـ لأنَّه مصدرٌ إلا أنه لم يُشتقَّ مِنه ـ لكنَّه رُفِعَ لإفادةِ الثَّباتِ.

(٣) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾: يختارونَها عليها، فإنَّ المُختارَ للشَّيءِ يطلبُ مِن نفسِهِ أَنْ يكونَ أَحَبَّ إِلَيْها مِن غَيرِه.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بتعويقِ النَّاسِ عَن الإيمانِ.

وقُرِئَ: (ويُصِدُّونَ) مِن أَصَدَّهُ[٢]، وهو مَنقولٌ مِن صَدَّ صُدُودًا: إذا تنكَّبَ، وليسَ فصيحًا[٣]؛ لأنَّ في صدَّهُ مَندوحَةً عَن تكلُّفِ التَّعدِيَةِ.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: ويبغونَ لها زيغًا ونُكوبًا عن الحقِّ ليَقدَحُوا فيه، فحُذِفَ الجارُّ وأوصِلَ الفِعلُ إلى الضَّميرِ، والموصولُ بصِلَتِه يَحتَمِلُ الجرَّ صفةً لـ(الكافرين)، والنَّصبَ على الذمِّ، والرَّفعَ عليهِ، أو على أنَّه مُبتدأٌ خبرُه:

﴿أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾؛ أي: ضَلُّوا عَن الحَقِّ ووَقَعُوا عنه بمَراحِلَ، والبعدُ

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «على الحق»، وفي نسخة التفتازاني: «وعلى الحق».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢)، و«الكشاف» (٤/ ٤١٧)، و«البحر» (١٣/ ١٢٨)، عن الحسن.

(٣) قال السيوطي: تَبِعَ في ذلك الزَّمخشريَّ. وقد قال الطِّيبيُّ: هذا مبنيٌّ على عادَتِه ـ أي الزمخشري ـ بأنَّ القِراءةَ ليسَتْ مَوقوفَةً على السَّماعِ، بل على الاجتهادِ، انتهى. قال الخفاجي في «الحاشية»: ليسَ هذا مبنيًّا على مذهبِ الزَّمخشريِّ من أنَّ القراءَة تكونُ برأي واجتهاد دون سماع منهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، كما قيلَ. وإنما هي ليست فصيحة بالنِّسبَةِ إلى اللُّغَة الأُخرى والقراءَة الأُخرى، ولا مَحذورَ في كونِ القراءَة المُتواتِرَة أفصح من غيرها.

في الحَقيقَةِ للضَّالِّ، فوُصِفَ بهِ فِعلُهُ للمُبالغَةِ، أو للأَمْرِ[1] الذي به الضَّلالُ، فوُصِفَ به لمُلَابسَتِهِ.

(٤) ـ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾: إلا بلُغَةِ قَومِه الذي هو مِنْهُم وبُعِثَ فيهِم.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ ما أُمِرُوا به فيَفْقَهُوهُ عَنْه بيُسْرٍ وسُرْعَةٍ ثمَّ يَنْقُلوهُ ويُتَرْجِمُوه لغَيْرِهِم، فإنَّهُم أَوْلَى النَّاسِ إليهِ بأَنْ يَدْعُوَهُم، وأَحَقُّ بأَنْ يُنذِرَهُم، ولذلك أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بإنذارِ عَشِيرته الأقربين أَوَّلًا، ولو نزلَ على مَن بُعِثَ إلى أُمَمٍ مُختلفَةٍ كُتُبٌ على أَلسِنَتِهِم استقلَّ ذلك بنوعٍ مِن الإعجازِ، لكِنْ أَدَّى إلى اختلافِ الكَلِمَةِ وإضاعَةِ فَضْلِ الاجتِهَادِ في تعَلُّمِ الأَلفاظِ ومَعانِيها والعُلومِ المُتشعِّبَةِ مِنْها، وما في إتعابِ القَرائحِ وكَدِّ النَّفسِ مِن القُرَبِ المُقتَضِيَةِ لجَزيلِ الثَّوابِ.

وقُرِئَ: (بلِسْنِ)[2]، وهو لغَةٌ فيهِ كرِيشٍ ورِيَاشٍ، و: (لُسُن) بضَمَّتينِ[3]، وضَمَّةٍ وسُكونٍ[4]، على الجَمعِ، كعُمُدٍ وعُمْدٍ.

وقيل: الضَّميرُ في ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ لِمُحمَّدٍ عليهِ السَّلامُ، وأنَّه تَعالى أنزلَ الكُتبَ كلَّها بالعربيَّةِ ثمَّ ترجمَها جِبريلُ، أو كلُّ[5] نبيٍّ بلغَةِ المنزلِ عليهِم، وذلك يردُّه قولُه: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ فإنَّه ضَميرُ القَومِ، والتَّوراةُ والإنجيلُ ونحوُهُما لم تنزل لتبيِّنَ للعربِ.

---

(١) قوله: «للأمر» عطف على قوله: «للضال».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٩)، عن أبي السمال. وزاد ابن خالويه: الأعمش.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢) عن جناح بن حبيش.

(٤) انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٢٠) دون نسبة.

(٥) قوله: «كلُّ» عطف على قوله: «جبريل».

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾: فيخذلُه عَن الإيمانِ ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بالتَّوفيقِ له ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يُغلبُ على مشيئتِه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يُضِلُّ ولا يَهدِي إلا لحكمةٍ.

(٥) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ يعني: اليدَ والعَصا وسائرَ مُعجِزاتِه.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بمعنى: أي أَخرِجْ؛ لأنَّ في الإرسالِ مَعنى القولِ، أو: بأَنْ أخرِجْ، فإنَّ صِيغَ الأفعالِ سَواءٌ في الدَّلالةِ على المصدرِ، فيَصِحُّ أن يُوصَلَ بها (أنْ) الناصبةُ.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾: بوقائعِه التي وقعَت على الأُمَمِ الدَّارجَةِ، وأيامُ العَرَبِ: حروبُها، وقيل: بنَعمائِه وبَلائِه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يصبرُ على بَلائِه[1] ويشكرُ لنَعمائِه، فإنَّه إذا سمعَ بما نزلَ على مَن قبلَهُ مِن البَلاءِ وأُفيضَ عليهِمْ مِن النَّعماءِ اعتبَرَ وتَنبَّهَ لِمَا يَجِبُ عليهِ مِن الصَّبرِ والشُّكرِ.

وقيل: المرادُ: لكلِّ مؤمنٍ، وإنَّما عبَّرَ عنه[2] بذلك تنبيهًا على أنَّ الصَّبرَ والشُّكرَ عنوانُ المُؤمِنِ.

(٦) ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: اذكُرُوا نعمتَهُ وقتَ إنجائِه إيَّاكُم، ويجوزُ أن ينتَصِبَ بـ﴿عَلَيْكُمْ﴾ إن جُعِلَت مُستقرَّةً غيرَ صِلَةٍ للنِّعمَةِ، وذلك إذا أُريدَت بها العَطِيَّةُ دونَ الإنعامِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ بدلًا مِن ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ بدلَ الاشتمالِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «بلاء الله».

(٢) في النسخ: «عنهم»، ولعل الصواب هو المثبت.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أحوالٌ مِن ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أو مِن ضَميرِ المُخاطبينِ، والمرادُ بـ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ هاهنا غيرُ المرادِ بِهِ في سُورةِ البَقرةِ والأعرافِ؛ لأنَّه مُفسَّرٌ بالتَّذبيحِ والقتلِ ثَمَّ، ومعطوفٌ عليه التَّذبيحُ هاهنا، وهو إمَّا جنسُ العَذابِ أو استِعبادُهُم واستِعمالُهُم بالأعمالِ الشَّاقَّةِ.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ من حيثُ إنَّه بإقدارِ اللهِ تَعالى إيَّاهُم وإمهالِهم فيهِ[1] ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: ابتلاءٌ مِنْه، ويجوزُ أَنْ تكونَ الإشارةُ إلى الإنجاءِ، والمرادُ بالبَلاءِ النِّعمَةُ.

(٧) ـ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أيضًا مِن كَلامِ مُوسَى، و﴿تَأَذَّنَ﴾ بمَعنى: آذَنَ، كتَوعَّدَ وأَوْعَدَ، غيرَ أنَّه أبلَغُ لِمَا في التَّفعُّلِ مِن مَعنى التَّكلُّفِ والمُبالَغةِ.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يا بَني إسرائيلَ ما أنعمتُ عليكُمْ مِنَ الإنجاءِ وغَيرِهِ بالإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمَةً إلى نِعمَةٍ ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فلعلِّي أُعذِّبُكم على الكُفرانِ عَذابًا شديدًا، ومِن عادةِ أكرمِ الأكرمينَ أن يصرِّحَ بالوَعدِ ويُعرِّضَ بالوَعيدِ.

والجُملَةُ مقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أو مفعولُ ﴿تَأَذَّنَ﴾ على أنَّه مُجرًى مُجرى (قال)؛ لأنَّه ضربٌ مِنه.

(٨) ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مِن الثَّقلينِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عَن شُكرِكُم ﴿حَمِيدٌ﴾ مُستَحِقٌّ للحَمدِ في ذاتِه، مَحمودٌ تَحمَدُهُ المَلائكَةُ وتَنطِقُ

---

(١) تبعَ فيهِ الزَّمخشريَّ، وهوَ إنَّما فسَّرَهُ بِهِ بناءً على مذهبِهِ فلو قالَ: من حيثُ إنَّه بخلق الله وإيجاده، وإن كانَ بكسبهم كانَ أوفى بمذهبِ أهل السُّنَّةِ، والإشارَة على هذا إلى فعلِ آل فرعون بهم، وإنَّما عدلَ عنه؛ لأنَّهُ مُناسب لإمهالهم فتنبه له. قاله الخفاجي في «الحاشية».

بنِعَمِه ذرَّاتُ[١] المَخلوقاتِ، فما ضَررتُم بالكُفرانِ إلا أَنفُسَكُم، حيثُ حَرَمْتُموها مَزيدَ الإنعامِ، وعَرَّضْتُموهَا للعَذابِ الشَّديدِ.

(٩) ـ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ مِـن كَلامِ مُوسى عليهِ السَّلامُ، أو كَلامٌ مبتدأٌ مِن اللهِ.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ جمـلَةٌ وقَعَت اعتِرَاضًا، أو: ﴿الَّذين مِن بَعْدِهِم﴾ عطفٌ على ما قبلَه، و﴿لَا يَعْلَمُهُمْ﴾ اعتراضٌ[٢].

والمَعنى: أَنَّهُم لكَثْرَتِهم لا يعلَمُ عددَهُم إلا اللهُ، ولذلك قالَ ابنُ مَسعودٍ: كذبَ النَّسَّابونَ[٣].

﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾: فعَضُّـوهـا غيظًا مما جاءَتْ بهِ الرُّسُلُ، كقولِه: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]، أو: وَضَعُوهَا عَلَيْها تَعَجُّبًا منه، أو استهزاءً عليه كمَن غلبَهُ الضَّحِكُ، أو إسكاتًا للأنبياءِ وأمرًا لهم بإطباقِ الأفْواهِ، أو أشارُوا بها إلى ألسِنَتِهم وما نطقَتْ بهِ مِن قَوْلِهِم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا﴾ تنبيهًا على أنْ لا جوابَ لَهُم سِواه.

أو: ردُّوها في أفواهِ الأَنبياءِ يَمْنَعُونَهُم عـن التَّكلُّمِ، وعـلى هذا يَحتمِلُ أن يكونَ تمثيلًا.

---

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «ذوات».

(٢) قـال الطِّيبيُّ: هذا أحسَـنُ مِـن الأَوَّلِ ـ أي الاعتـراض ـ؛ لأنَّ الاعتراضَ مِن التَّحاسِـنِ في الكلامِ، وحَسَّـنَ مَوقِعَـه أنْ يكـونَ مَـع التَّأكيـدِ ألطَـفُ كمـا قـال: والمَعنى أنَّهـم لكَثْرَتِهـم لا يعلَـمُ عَددَهُم إلا اللهُ، وعلـى الأوَّلِ ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ ليـسَ فـي رائِحَـةٍ مِـن ذلك. «فتوح الغيـب» (٨/ ٥٥٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٠٤).

وقيل: الأَيْدِي بمعنى: الأَيادِي؛ أي: رَدُّوا أيادِيَ الأنبياءِ التي هيَ مواعِظُهُم وما أُوحِيَ إليهِمْ مِن الحِكَمِ والشَّرائعِ في أفواهِهِم؛ لأنَّهم إذا كذَّبُوها أو لم يَقبَلُوها، فكأنَّهُم رَدُّوها إلى حيثُ جاءَتْ منه.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ على زَعْمِكُم ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ مِن الإيمانِ. وقُرِئَ: (تَدعونّا) بالإدغام(١).

﴿مُرِيبٍ﴾: مُوقِعٍ في الرِّيبَةِ، أو: ذِي رِيبَةٍ، وهي قَلَقُ النَّفسِ وأن لا تَطمَئِنَّ إلى شيءٍ.

(١٠) ـ ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أُدْخِلَت هَمزَةُ الإنكارِ على الظَّرفِ لأنَّ الكَلامَ في المَشكوكِ فيه لا في الشكِّ؛ أي: إنَّما نَدعوكُم إلى اللهِ وهو لا يَحتَمِلُ الشَّكَّ لكثرةِ الأدِلَّةِ وظهورِ دَلالَتِها عليه، وأشارُوا إلى ذلكَ بقَولِه: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو صِفَةٌ أو بَدَلٌ، و﴿شَكٌّ﴾ مُرتَفِعٌ بالظَّرفِ.

﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمانِ ببَعثِهِ إيَّانا ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ أو: يَدعوكُم إلى المغفرَةِ، كقولك: دَعَوْتُه ليَنْصُرَنِي، على إقامَةِ المَفعولِ له مُقامَ المفعولِ به.

﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: بعضَ ذُنوبِكُم، وهو ما بينكُم وبينَهُ؛ فإنَّ الإسلامَ يَجبُّه دونَ المَظالمِ.

وقيل: جيءَ بـ﴿مِّن﴾ في خطابِ الكفرَةِ دونَ المُؤمنينَ في جميعِ القُرآنِ تفرقةً بينَ الخِطابينِ، ولعلَّ المَعنى فيه: أنَّ المَغفِرَةَ حيثُ جاءَتْ في خطابِ الكُفَّارِ مرتَّبَةٌ(٢) على الإيمانِ، وحيثُ جاءَتْ في خطابِ المُؤمنينَ مَشفوعَةٌ بالطَّاعةِ والتَّجنُّبِ عَن المَعاصِي ونحوِ ذلك فتتناوَلُ الخُروجَ عَن المَظالمِ.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٢٧) عن طلحة بن مصرف.

(٢) في نسخة الخيالي: «مترتبة».

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إلى وقتٍ سَمَّاهُ اللهُ وجعلَهُ آخرَ أعمارِكُم.

﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا فضلَ لَكُم علينا، فلمَ تُخَصُّونَ بالنبوَّةِ دونَنا، ولو شاءَ اللهُ أَنْ يبعثَ إلى البشرِ رُسُلًا لبعَثَ مِن جنسٍ أفضَلَ.

﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ بهذه الدَّعوى[1] ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ يدلُّ على فَضلِكُم واستِحقاقِكُم لهذه المَزِيَّةِ، أو على صِحَّةِ ادِّعائِكُم النبوَّةَ، كأنَّهُم لم يَعتبِرُوا ما جاؤوا به مِن البيِّناتِ والحُجَجِ واقترحُوا عليهم آيةً أخرى تعنُّتًا ولجاجًا.

(١١) ـ ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ سَلَّمُوا مُشاركتَهُم في الجنسِ، وجَعَلُوا الموجِبُ لاختِصاصِهِم بالنُّبوَّةِ فضلَ اللهِ ومَنَّهُ عليهِم، وفيه دليلٌ على أنَّ النبوَّةَ عَطائيَّةٌ، وأنَّ ترجيحَ بَعضِ الجائزاتِ على بَعضٍ بمَشيئَةِ اللهِ تَعالى.

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ليسَ إِلَينا الإتيانُ بالآياتِ ولا تَستبدُّ به استطاعتُنا حتى نَأتِيَ بما اقترَحْتُموهُ، وإنَّما هو أَمْرٌ يَتعلَّقُ بمشيئَةِ اللهِ تعالى فيَخُصُّ كُلَّ نَبيٍّ بنوعٍ مِن الآياتِ.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فلْنتوَكَّل عليه في الصَّبرِ[2] على مُعانَدَتِكُم ومُعادَاتِكُم.

عمَّموا الأمرَ للإشعارِ بما يوجبُ التَّوكُّلَ، وقصَدوا به أنفسَهُم قصدًا أَوَّلِيًا، ألا تَرى قولَه:

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «الدعوة».

(٢) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «بالصبر»، والمثبت من نسخة الطبلاوي.

(١٢) ـ ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: أيُّ عذرٍ لنا في أن لا نتوكَّل ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ التي بها نَعرِفُه، ونعلمُ أنَّ الأمورَ كلَّها بيَدِه.

وقرأ أبو عَمرٍو بالتَّخفيفِ هاهنا وفي (العَنكبوتِ)[1].

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ جوابُ قَسمٍ مَحذوفٍ أكَّدُوا به توكُّلَهُم وعدمَ مُبالاتِهم بما يَجرِي من الكُفَّارِ عليهِم.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾: فلْيَثْبُت المُتوكِّلونَ على ما استحدَثوهُ مِن تَوكُّلِهم المُسبَّبِ عَن إيمانِهِم.

(١٣) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ حَلَفُوا على أنْ يكونَ أحدُ الأمرينِ: إمَّا إخراجُهُم للرُّسُلِ، أو عَوْدُهُم إلى مِلَّتِهِم، وهو بمَعْنَى الصَّيرورةِ؛ لأنَّهُم لم يَكونُوا على مِلَّتِهِم قطُّ، ويجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ لكلِّ رَسولٍ ولِمَن آمنَ مَعَه، فغلَّبوا الجماعةَ على الواحِدِ.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾؛ أي: إلى الرُسُلِ ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على إضمارِ القَولِ، أو إجراءِ الإيحاءِ مُجراهُ لأنَّه نوعٌ مِنه.

(١٤) ـ ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: أرضَهُم وديارَهُم، كقولِه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقُرِئَ: (ليُهْلِكَنَّ... وليُسكِنَنَّكُم) بالياءِ[2] اعتبارًا لـ﴿أَوْحَىٰ﴾، كقولك: أقسمَ زَيدٌ ليَخرُجَنَّ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموحَى به، وهو إهلاكُ الظَّالِمينَ وإسكانُ المُؤمنينَ.

---

(١) أي: ﴿سُبْلَنَا﴾ بسكون الباء. انظر: «التيسير» (ص: ٨٥).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢) عن أبي حيوة.

﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾: مَوقِفِي، وهو الموقفُ الذي يقيمُ فيه العبادَ للحُكومَةِ يومَ القِيامَةِ، أو: قيامي عليه وحِفظي لأعمالِهِ. وقيل: المقامُ مُقحَمٌ.

﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾؛ أي: وَعيدي بالعَذابِ، أو: عَذابي المَوعودَ للكُفَّارِ.

(١٥) - ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾: سَأَلُوا مِن اللهِ الفَتحَ على أَعدائِهِم، أو القَضاءَ بينَهُم وبينَ أَعدائِهِم، مِن الفُتاحةِ[1]، كقولِه: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وهو مَعطوفٌ على ﴿فَأَوْحَى﴾.

والضَّميرُ للأَنبياءِ، وقيل: للكفرَةِ، وقيل: للفَريقَيْنِ، فإنَّ كلَّهُم سألوهُ أن يَنصرَ المحقَّ ويُهلكَ المبطِلَ، وقُرِئَ بلفظِ الأمرِ[2] عَطْفًا على ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ أي: ففتحَ لهم فأفلَحَ المُؤمنونَ وخابَ كلُّ جبارٍ عاتٍ مُتكبِّرٍ على اللهِ مُعانِدٍ للحقِّ فلَمْ يُفلِح، ومَعنى الخيبَةِ إذا كانَ الاستِفتاحُ مِن الكفرَةِ أو مِن القَبيلَينِ كانَ أوقعَ.

(١٦) - ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: مِن بينِ يديهِ فإنَّه مُرْصَدٌ[3] بها واقفٌ على شَفيرِها في الدُّنيا مَبعوثٌ إليها في الآخرةِ، وقيل: مِن وَراءِ حياتِه، وحقيقتُه: ما تَوارَى عنكَ.

﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ﴾ عطفٌ على محذوفٍ تَقديرُه: مِن وَرائِه جهنَّمُ يَلْقَى فيها ما يَلْقَى ويُسْقَى.

﴿صَدِيدٍ﴾ عطفُ بيانٍ لـ﴿مَاءٍ﴾، وهو ما يسيلُ مِن جلودِ أَهلِ النَّارِ.

---

(١) وهي الحكومة.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٨)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٩)، عن ابن عباس ومجاهد وابن محيصن.

(٣) أي مترقِّب.

(١٧) ـ ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾: يَتكلَّفُ جرعَهُ، وهو صِفَةٌ لـ﴿مَّآءٍ﴾، أو حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿وَيُسْقَىٰ﴾.

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾: ولا يقارِبُ أَنْ يُسيغَهُ فكيفَ يُسيغُه؟ بل يَغَصُّ به فيطولُ عذابُه، والسَّوغُ: جوازُ الشَّرابِ على الحلقِ بسُهُولةٍ وقَبولِ نَفْسٍ.

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ أي: أسبابُه مِن الشَّدائدِ فتُحِيطَ به مِن جميعِ الجِهاتِ.

وقيل: مِن كلِّ مَكانٍ مِن جَسَدِه حتَّى مِن أُصولِ شَعرِهِ وإبهامِ رِجلِه.

﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فيَستريحَ.

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾: ومِن بينِ يديهِ ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾؛ أي: يَستقبلُ في كلِّ وقتٍ عَذابًا أشدَّ ممَّا هو عليه.

وقيل: هو الخلودُ في النَّارِ.

وقيل: حبسُ الأَنفاسِ.

وقيل: الآيةُ مُنقطِعَةٌ عَن قصَّةِ الرسلِ نازلةٌ في أَهلِ مَكَّةَ، طلبُوا الفتحَ الذي هو المطرُ في سِنِيهِم التي أرسلَ اللهُ عليهم بدعوةِ رسولِه فخيَّبَ رجاءَهُم فلَمْ يَسْقِهِم، ووعدَ لَهُم أن يَسْقِيَهُم في جهنَّمَ بدلَ سُقياهُم صديدَ أهلِ النَّارِ.

(١٨) ـ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ مُبتدأٌ خبرُه مَحذوفٌ؛ أي: فيما يُتلَى عليكُمْ صِفَتُهُم التي هي مثلٌ في الغَرابةِ، أو قولُه: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ وهي على الأَوَّلِ جملةٌ مُستأنفَةٌ لبيانِ مَثَلِهِم.

وقيل: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بدلٌ مِن المَثَلِ(١)، والخبرُ: ﴿كَرَمَادٍ﴾.

---

(١) أي: مثل أعمالهم.

﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾: حَمَلتْهُ وأسرَعَت الذَّهابَ به، وقرأ نافعٌ: ﴿الرِّياحُ﴾[1].

﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ العَصْفُ: اشتِدادُ الرِّيحِ، وصَفَ به زمانَه للمُبالغَةِ، كقولِهِم: نهارُهُ صائِمٌ وليلُهُ قائِمٌ، شبَّهَ صَنائِعَهُم مِن الصَّدقةِ وصِلَةِ الرَّحمِ وإغاثَةِ المَلهوفِ وعِتقِ الرِّقابِ ونحوِ ذلك مِن مَكارِمِهم في حُبوطِها لبنائِهَا على غَيرِ أَساسٍ مِن مَعرفَةِ اللهِ والتوجُّهِ بها إليه، أو أعمالَهم للأَصنامِ، برمادٍ[2] طيَّرَتْهُ الريحُ العاصِفَةُ.

﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يومَ القِيامَةِ ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ مِن أَعمالِهِم ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ لحبوطِه، فلا يَرَونَ له أثرًا مِن الثَّوابِ، وهو فَذْلَكَةُ التَّمثيلِ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ضَلالِهِم مع حسبانِهِم أنَّهُم مُحسِنونَ ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ فإنَّه الغايَةُ في البُعدِ عَن طريقِ الحقِّ.

(١٩) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطابٌ للنَّبيِّ، والمرادُ بِهِ أُمَّتُه. وقيل: لكلِّ واحدٍ مِن الكفرةِ على التَّلوين.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾: بالحكمةِ والوجهِ الذي يحقُّ أن تُخلقَ عليه.

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿خالقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[3].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: يُعْدِمْكُم ويَخْلُقْ خلقًا آخرَ مَكانَكُم، رتَّبَ ذلك على كونِه خالقًا للسَّماواتِ والأرضِ استِدلالًا به عليه، فإنَّ مَن خلقَ أُصولَهُم وما يتوقَّفُ عليه تَخليقُهُم ثمَّ كوَّنَهُم بتَبديلِ الصُّوَرِ وتَغييرِ الطَّبائعِ، قدَرَ أَنْ يبدِّلَهُم بخلقٍ آخرَ ولم يمتنِعْ عليه ذلك كمَا قال:

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٧٣)، و«التيسير» (ص: ٧٨).

(٢) قوله: «برماد» متعلق بـ«شَبَّه».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٣٤).

(٢٠) ـ ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾: بمُتعذِّرٍ أو مُتعسِّرٍ، فإنَّه قادِرٌ لذاتِه لا اختصاصَ له بمَقدورٍ دونَ مَقدورٍ، ومَن هذا شأنُهُ كانَ حقيقًا بأن يؤمَنَ به ويُعبَدَ رجاءً لثوابِهِ وخَوْفًا مِن عقابِه يومَ الجَزاءِ.

(٢١) ـ ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾؛ أي: يَبرزونَ مِن قُبورِهم يومَ القِيامَةِ لأمرِ اللهِ ومُحاسبتِه، أو للهِ على ظَنِّهم فإنَّهُم كانوا يُخفونَ ارتكابَ الفَواحشِ ويَظنُّونَ أنَّها تَخفى على اللهِ، فإذا كانَ يومُ القيامَةِ انكشَفُوا للهِ عندَ أنفُسِهِم، وإنَّما ذُكرَ بلفظِ الماضي لتحقُّقِ وُقوعِه.

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ ﴾: الأتباعُ، جمعُ ضَعيفٍ، يريدُ به ضِعافَ الرَّأيِ، وإنَّما كتبَ بالواوِ على لَفظِ مَن يُفخِّمُ الألِفَ قبلَ الهمزَةِ فيُميلُها إلى الواوِ.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ ﴾: لرُؤسائِهم الذين استَتْبَعُوهُم واستَغْوَوْهُم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ في تكذيبِ الرُّسلِ والإعراضِ عَن نَصائِحِهِم، وهو جمعُ تابعٍ، كغَائبٍ وغَيَبٍ، أو مصدرٌ نُعِتَ به للمُبالغةِ، أو على إضمارِ مُضافٍ.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا ﴾: رافعونَ عنَّا ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾، ﴿مِنْ﴾ الأولى للبَيانِ واقعةٌ مَوقِعَ الحالِ، والثَّانِيَةُ للتَّبعيضِ واقِعَةٌ موقِعَ المَفعولِ؛ أي: بعضَ الشَّيءِ الذي هو عذابُ اللهِ.

ويجوزُ أَنْ تَكُونَا للتَّبعيضِ؛ أي: بعضَ شيءٍ هو بعضُ عَذابِ اللهِ، والإعرابُ ما سبقَ.

ويحتملُ أن تكونَ الأولى مَفعولًا والثَّانية مَصْدرًا؛ أي: فهَلْ أَنتُمْ مُغنونَ بعضَ العَذابِ بعضَ الإغناءِ.

﴿قَالُوا۟ ﴾؛ أي: الذين استكْبَروا جوابًا عن مُعاتبةِ الأتباعِ واعتذارًا عمَّا فَعَلُوا

بهم: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ للإيمانِ ووفَّقَنا له ﴿لَهَدَيۡنَٰكُمۡ﴾ ولكن ضَلَلنا فأَضْلَلناكُم؛ أي: اختَرْنا لَكُم ما اخترناهُ لأنفُسِنا.

أو: لو هَدانا اللهُ طريقَ النَّجاةِ مِن العَذابِ لهَديناكُم وأغنيناه عَنْكُم كما عَرَّضْناكُم له، لكن سُدَّ دونَنا طريقُ الخَلاصِ.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ مَستويَانِ علينا الجَزَعُ والصَّبرُ ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ مَنْجًى ومَهْربٍ مِن العَذابِ، مِن الحَيْصِ، وهو العُدولُ على جِهَةِ الفِرارِ، وهو يحتمِلُ أَنْ يكونَ مَكانًا كالمَبيتِ، ومصدرًا كالمغيبِ.

ويجوزُ أن يكونَ قولُه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾ من كلامِ الفريقينِ، ويؤيِّدُه ما رُوِيَ أَنَّهُم يقولون: تَعالَوا نَجزَعْ، فيَجْزَعونَ خمسَ مئة عامٍ فلا ينفعُهُم فيقولون: تعالَوا نَصبِرْ، فيَصبِرُونَ كذلك ثُمَّ يَقولون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾[1].

(٢٢) ـ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: أُحكِمَ[2] وفُرِغَ مِنْه، ودخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلُ النَّارِ النَّارَ، خَطِيبًا في الأشقياءِ مِن الثَّقلينِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾: وَعْدًا مِن حَقِّه أَنْ يُنجَزَ، أو: وَعْدًا أنجزَهُ وهو الوَعْدُ بالبَعثِ والجزاءِ ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ﴾ وعدَ الباطلِ[3]، وهو أَنْ لا بعثَ ولا حِسابَ، وإن كانا فالأَصنامُ تشفَعُ لَكُم ﴿فَأَخۡلَفۡتُكُمۡ﴾ جعلَ تبيُّنَ خُلفِ وَعدِهِ كالإخلافِ مِنْه.

---

(١) لم أقف فيه على خبر مرفوع أو موقوف، وإنما ورد في «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٠٣)، وذكره عن مقاتل الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٩). وروى الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٢٧ ـ ٦٢٨) معناه عن ابن زيد.

(٢) في نسخة التفتازاني: «حكم».

(٣) في نسخة التفتازاني: «الأباطيل».

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾: تَسلُّطٍ فألجِئَكُم إلى الكُفرِ والمَعاصي ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾: إلَّا دُعائي إيَّاكُم إليهَا بتَسويلي[1].

وهو ليسَ مِن جنسِ السُّلطانِ، ولكنَّهُ على طريقَةِ قولِهِم:

تَحِيَّـــةُ بَيْنِهِـــم ضَـــرْبٌ وَجِيـــعُ[2]

ويجوزُ أَنْ يكونَ الاستثناءُ مُنقَطِعًا.

﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾: أَسْرَعْتُم إجابَتِي ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ بوَسْوَسَتِي، فإنَّ مَن صَرَّحَ العَداوةَ لا يُلامُ بأَمثالِ ذلك ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ حيثُ أَطَعْتُمُونِي إذ دَعَوْتُكُم ولم تُطيعوا ربَّكُم لَمَّا دعاكُم.

واحتَجَّت المُعتزِلَةُ بأمثالِ ذلك على استقلالِ العَبدِ بأَفعالِه، وليسَ فيها ما يدلُّ عليه؛ إذ يَكفي لصِحَّتِها أن يكونَ لقُدرَةِ العَبدِ مدخلٌ ما في فعلِهِ، وهو الكسبُ الذي يقولُه أَصحابُنا.

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾: بمُغيثِكُم مِن العَذابِ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾: بمُغيثيَّ.

وقرأَ حمزَةُ بكسرِ اليَاءِ[3] على الأصلِ في التقاءِ السَّاكِنَينِ، وهو أصلٌ مَرفوضٌ في مثلِهِ لِمَا فيهِ مِن اجتماعِ ياءَينِ وثلاثِ كَسراتٍ[4]، مع أنَّ حركَةَ ياءِ الإضافةِ الفَتحُ،

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «بتسويل».

(٢) عجز بيت لعمرو بن معدي كرب. انظر: «الكتاب» (٣/ ٥٠)، و«النوادر» لأبي زيد (ص: ٤٢٨)، و«الخزانة» (٩/ ٢٦٥)، وقال البغدادي: ولم أره في شعره. وقد تقدم مراراً.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٢)، و«التيسير» (٢: ١٣٤).

(٤) قال الخفاجي في «حاشيته»: طعن في هذهِ القراءَةِ الزَّجَّاج رحمَه اللهُ، واستضعفها تبعًا للفراء، وتبعَهُ الزَّمخشريّ، والمُصنِّفُ رحمَه اللهُ -يعني البيضاوي- والإمام -يعني الرازي-، وهوَ وهم منهم؛ فإنَّها قراءَة مُتواتِرَة عن السلف، والخلف، فلا يجوزُ أن يقال إنَّها خطا أو قبيحَة، وقد وجهت بأنَّها لغَة بني =

فإذا لم تُكسَر وقبلَها ألِفٌ فبالحريِّ أنْ لا تُكسرَ وقبلَها ياءٌ، أو على لُغَةِ مَن يزيدُ ياءً على ياءِ الإضافةِ إجراءً لها مُجرى الهاءِ والكافِ في: ضربتُه وأَعْطَيْتُكَهُ[1]، وحذف الياء اكتفاءً بالكسرةِ[2].

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ (ما) إمَّا مَصدريَّةٌ و﴿مِن﴾ مُتعلِّقَةٌ بـ﴿أَشْرَكْتُمُونِ﴾؛ أي: كَفرْتُ اليومَ بإشراكِكُم إيَّايَ مِن قبلِ هذا اليومِ؛ أي: في الدُّنيا، بمَعنى: تبرَّأْتُ مِنه واستَنْكَرْتُه، كقَولِه: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

أو مَوصولَةٌ بمعنى (مَن) نحو (ما) في قولهم: (سبحانَ ما سَخَّرَكُنَّ لنا)، و﴿مِن﴾ مُتعلِّقَةٌ بـ﴿كَفَرْتُ﴾؛ أي: كفرتُ بالذي أشركتُمُونيهِ ـ وهو الله تعالى ـ بطاعَتِكُم إيَّايَ فيما دَعَوْتُكُم إليه مِن عِبادةِ الأَصنامِ وغيرِها مِن قبلِ إشراكِكُم حينَ رَدَدْتُ أمرَهُ بالسُّجودِ لآدمَ. و(أشرك) منقولٌ مِن شَرِكْتُ زيداً للتَّعدِيَةِ إلى مَفعولٍ ثانٍ.

= يربوع كما نقلَه قُطْرُب، وأبو عمرو ونحاة الكوفَة. وانظر ردَّ أبي حيان كذلك في «البحر المحيط» (١٣/ ١٦٦).

(١) في نسخة الخيالي: «وأعطيتك».

(٢) قوله: «إجراء لها» تعليلٌ لصحة قراءةِ حمزةَ «مجرى الهاء والكاف في ضربته وأعطيتكه»؛ أي: في أن كلاً من هاء الضمير وكافِه يُتبعُ بحرف لِيْنٍ من حركته يُسمَّى صِلةً، فيقال في الهاء: لهو وبهي، وفي الكاف: أعطيتكاه وأعطيتكيه، «وحذف الياء اكتفاء بالكسرة» فيه معَ ما قبلَه خفاءٌ، وتحريرُه ما قاله غيره: إن أصلَ (مُصرِخيِّ): مُصْرِخِيِي بثلاث ياءات: ياءِ الجمع، وياءِ الإضافة، وياءِ الصلة، لكنها حُذِفت لاجتماع الياءات، وبقيت الكسرةُ لتدلَّ على الياء المحذوفة كما في عليهِ وإليهِ، وإنما كُسِرت الياء لاجتماع سكونِ ياء الجمعِ وياء المتكلِّم بعدَ سقوط النون بالإضافة، فحُرِّكَت ياءُ المتكلِّم بالكسر على الأصل في التحريك لالتقاء الساكنين. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٧١).

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تتمَّةُ كلامِهِ، أو ابتداءُ كلامٍ مِن اللهِ تَعالى، وفي حكايَةِ أمثالِ ذلك لطفٌ للسَّامعينَ، وإيقاظٌ لَهُم حتى يُحاسِبوا أنفُسَهُم ويَتدبَّرُوا عواقِبَهُم.

(٢٣) - ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾: بإذنِ اللهِ وأَمرِهِ، والمُدخِلُونَ هم الملائكَةُ.

وقُرِئَ: (أُدْخِلُ) على التكلُّمِ[١]، فيكونُ قولُه: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ مُتعلِّقًا بقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾؛ أي: تُحيِّيهم المَلائكَةُ بالسَّلامِ بإذنِ رَبِّهِم.

(٢٤) - ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾ كيفَ اعتمدَهُ ووَضعَهُ ﴿كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾؛ أي: جعلَ كلمَةً طيِّبَةً كشَجرةٍ طَيِّبَةٍ، وهو تَفسيرٌ لقولِه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾.

ويَجوزُ أَنْ تكونَ ﴿كَلِمَةٗ﴾ بدلًا مِن ﴿مَثَلٗا﴾ و﴿كَشَجَرَةٍ﴾ صِفَتَها أو خبرَ مُبتدأٍ مَحذوفٍ؛ أي: هي كشَجرةٍ، وأن تكونَ أَوَّلَ مفعولَيْ ﴿ضَرَبَ﴾ إجراءً له مُجرى (جعلَ).

وقد قُرِئَت بالرَّفعِ على الابتداءِ[٢].

﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾ في الأرضِ ضاربٌ بعُروقِه فيها ﴿وَفَرۡعُهَا﴾: وأعلاها ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢)، و«المحتسب» (١/ ٣٦١)، عن الحسن وعمرو بن عبيد.

(٢) أي: (كلمةٌ). ذكرها العكبري في «التبيان» (٢/ ٧٦٨) دون نسبة.

ويجوزُ أَنْ يريدَ: وفروعُها؛ أي: أَفْنانُها، على الاكتفاءِ بلفظِ الجنسِ لاكتِسابِه[١] الاستغراقَ مِن الإضافةِ.

وقرئ: (ثابتٍ أَصلُها)[٢]، والأوَّلُ علـى أَصلِه، ولذلك قيل: إنَّه أَقْوى، ولعلَّ الثَّاني أبلَغُ[٣].

(٢٥) ـ ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا﴾: تُعطي ثَـمـرَهَا ﴿كُلَّ حِينِۭ﴾ وقَّتَهُ اللهُ لإثمارِهَا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾: بإرادَةِ خالِقِهَا وتكوينِه.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأنَّ في ضَربِهَا زيادةَ إفهامٍ وتَذكيرٍ، فإنَّه تَصويرٌ للمَعاني وإدناءٌ لها مِن الحسِّ.

(٢٦) ـ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ﴾: كمثلِ شَجرَةٍ ﴿خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ﴾: استؤصِـلَتْ وأُخِذَت جُثَّتُه في الكُلِّيَّةِ ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ لأنَّ عُروقَهَا قَريبَةٌ منه ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾: استقرار.

واختلفَ في الكلمَةِ والشَّجرَةِ؛ ففُسِّرَت الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ بكلمَةِ التَّوحيدِ ودعوةِ الإسلامِ والقُرآنِ، والكلمَةُ الخَبيثَةُ بالإشراكِ باللهِ والدُّعاءِ إلى الكُفرِ وتكذيبِ الحَقِّ،

---

(١) في نسخة التفتازاني: «لاكتسابها».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القرآن» (ص: ٧٢)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٢)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) قوله: «والأول»؛ أي: من القراءتين «على أصله»؛ أي: وضعِه من حيثُ إفادةُ المعنى الأقوى؛ لأن في قراءة أنس أُجريت الصفةُ على الشجرة، وإذا قلتَ: (مررتُ برجلٍ أبوه قائمٌ) فهو أقوى معنًى من قولك: (مررتُ برجلٍ قائمٍ أبوه) لأن المخبَر عنه إنما هو الأبُ لا رجل، وهذا ما في «الكشاف» (٤/ ٤٤٢)، وقد حكاه المصنف مع ترجيحِه خلافَه بقوله: «ولذلك قيل: إنه أقوى، ولعل الثاني أبلغ». انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٧١).

ولعلَّ المُرادَ بهمَا ما يَعُمُّ ذلك، فالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ ما أَعربَ عَن حقٍّ أو دَعا إلى صَلاحٍ، والكَلِمَةُ الخبيثَةُ ما كانَ على خلافِ ذلك.

وفُسِّرَت الشَّجرةُ الطَّيِّبَةُ بالنَّخلةِ، ورُوِيَ ذلكَ مَرفوعًا[1]، وبشَجرةٍ في الجنَّةِ[2]، والخبيثَةُ بالحَنْظَلَةِ، والكَشُوثِ[3]، ولعلَّ المُرادَ بهما أيضًا ما يعمُّ ذلك.

(٢٧) ـ ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾: الذي ثبتَ بالحُجَّةِ عِندَهُم وتَمكَّنَ في قلوبِهِم.

﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فلا يَزِلُّونَ إذا افتُتِنُوا[4] في دينِهِم كزَكَرِيَّاءَ ويَحيَى وجرجيسَ وشَمسُونَ[5] والذين فتَنَهُم أَصحابُ الأُخدودِ.

---

(١) رواه الترمذي (٣١١٩)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٩٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٧٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٤١).

ورواه البخاري (١٣١) و(٤٦٩٨) و(٦١٤٤)، ومسلم (٢٨١١). وابن حبان في «صحيحه» (٢٤٣)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٤٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٤١) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وصوَّب الطبري قولَ مَن قال: (هي النَّخْلَةُ) لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ.

(٣) قوله: «والكشوث»، بالثاء المثلثة: نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض. انظر: «الصحاح» (مادة: كشث).

(٤) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «إذا فتنوا».

(٥) روى قصته الطبري في «التاريخ» (٢/ ٢٢) عن وهب وملخصها: أنه كان من أهل قرية من قرى الروم، قد هداه الله لرشده، وكان قومه أهل أوثان يعبدونها، وكان منزله منها على أميال غير كثيرة، وكان يغزوهم وحده ويجاهدهم في الله، وكان قد أعطي قوة في البطش، وكان لا يوثقه حديد ولا غيره، وكان على ذلك يجاهدهم في الله ويغزوهم، ويصيب منهم حاجته، لا يقدرون منه على شيء، فأخذوه بالحيلة من قِبَل امرأته، فلما نام أوثقت يده إلى عنقه بشعر رأسه، فأوثقه ذلك، وبعثت إلى =

﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ فلا يَتلَعْثَمُونَ إذا سُئِلُوا عَن مُعتقَدِهِم في المَوقِفِ، ولا تُدهِشُهُم أهوالُ[1] القيامَةِ، ورُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ ذكرَ قبضَ روحِ المُؤمنِ فقال: «ثمَّ تُعادُ رُوحُهُ في جَسَدِهِ فيأتيهِ مَلَكانِ فيُجلِسَانِه في قَبرِهِ ويَقُولانِ له: مَن ربُّكَ، وما دِينُكَ، ومَن نَبيُّكَ؟ فيقول: ربِّي اللهُ ودِيني الإسلامُ ونَبِيِّي محمَّدٌ، فيُنادِي مُنادٍ مِن السَّماءِ: أنْ صدَقَ عَبْدِي، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾»[2].

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الذينَ ظَلَمُوا أنفُسَهُم بالاقتصارِ على التَّقليدِ فلا يهتدونَ إلى الحَقِّ ولا يَثْبُتونَ في مواقفِ الفِتَنِ.

﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مِن تَثبيتِ بَعضٍ وإضلالِ آخرينَ مِن غيرِ اعتراضٍ عليه.

(٢٨) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾؛ أي: شُكرَ نِعمَتِه كفرًا بأَنْ وَضعوهُ مَكانَهُ، أو بدَّلُوا نفسَ النِّعمَةِ كُفْرًا، فإنَّهُم لَمَّا كَفَرُوها سُلِبَتْ مِنْهُم فصاروا تاركينَ لها مُحَصِّلينَ للكُفرِ بدلَها، كأَهلِ مَكَّةَ خلَقَهُم اللهُ وأَسْكَنَهُم حَرَمَهُ وجَعَلَهُم قوامَ بيتِهِ ووسَّعَ عَلَيْهِم أبوابَ رِزْقِه وشَرَّفَهُم بمُحمَّدٍ ﷺ فكَفَروا ذلك، فقُحِطُوا سبعَ سِنينَ وأُسِرُوا وقُتِلُوا يومَ بَدرٍ، وصارُوا أَذِلَّاءَ فبقُوا مَسلوبي النِّعمَةِ موصوفينَ بالكُفرِ.

= القوم، فجاءوا فأخذوه، فجدعوا أنفه وأذنيه، وفقؤوا عينيه، ووقفوه للناس بين ظهراني المئذنة ـ وكانت مئذنة ذات أساطين، وكان ملكهم قد أشرف عليها بالناس لينظروا إلى شمسون وما يصنع به ـ فدعا اللهَ شمسونُ حين مَثَلوا به ووقفوه أن يسلطه عليهم، فأُمر أن يأخذ بعمودين من عمد المئذنة التي عليها الملك والناس الذين معه فيجذبهما، فجذبهما فرد الله عليه بصره وما أصابوا من جسده، ووقعت المئذنة بالملك ومَن عليها من الناس، فهلكوا فيها هدماً.

(١) في نسخة الخيالي: «ولا تدهشهم أحوال».

(٢) رواه أبو داود (٤٧٥٣)، وبنحوه الحاكم في «المستدرك» (١٠٧) مطولاً، وسكت عنه الذهبي في «التلخيص»، ونقل ابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ٢٣٤) عن أبي عوانة وغيره تصحيحه. ورواه مختصراً البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١).

وعَن عُمَرَ وعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: همُ الأفجرانِ مِن قُريشٍ: بَنُو المغيرةِ وبنُو أُميَّةَ، فأمَّا بنو المغيرَةِ فكُفِيتُمُوهُم يومَ بَدرٍ، وأمَّا بنو أُميَّةَ فمُتِّعوا إلى حينٍ[1].

﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ الذين شايَعُوهُم في الكفرِ ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾: دارَ الهَلاكِ بحَمْلِهِم على الكُفرِ.

(٢٩) ـ ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ عطفُ بيانٍ لها ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حالٌ مِنْها، أو مِن القَوْمِ؛ أي: داخلينَ فيها مُقاسِينَ لحَرِّهَا، أو مُفسِّرٌ لفعلٍ يقدَّرُ ناصبًا لـ﴿ جَهَنَّمَ ﴾.

﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾؛ أي: وبئسَ المقرُّ جهنَّمُ.

(٣٠) ـ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ الذي هو التَّوحيدُ. وقرأ ابنُ كَثيرٍ وأبو عَمرٍو ورُوَيسٌ عَن يعقوبَ بفَتحِ الياءِ[2]، وليسَ الضَّلالُ ولا الإضلالُ غرضَهُم في اتخاذِ الأَندادِ، لكنْ لَمَّا كان نتيجتَهَ جُعِلَ كالغَرضِ.

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ بشَهَواتِكُم، أو بعِبادَةِ الأَوثانِ فإنَّها مِن قَبيلِ الشَّهواتِ التي يُتمتَّع بها، وفي التَّهديدِ بصِيغَةِ الأَمرِ إيذانٌ بأنَّ المُهدَّدَ عليه كالمَطلوبِ لإفضائِه إلى المهدَّدِ به، وأنَّ الأَمْرينِ كائنانِ لا مَحالةَ، ولذلك علَّلَه بقولِه: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾، وأنَّ المُخاطبَ لانهماكِه فيهِ كالمَأمورِ بهِ مِن آمرٍ مُطاعٍ.

(٣١) ـ ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ خصَّهُم بالإضافةِ تَنويهًا لهم، وتنبيهًا على أنَّهُم المقيمونَ لحُقوقِ العُبوديَّةِ، ومَقُولُ ﴿ قُل ﴾ محذوفٌ يدلُّ عليهِ جَوابُه؛ أي: قُلْ لعِبادِيَ الذين آمنوا أقيمُوا الصَّلاةَ وأَنفِقُوا ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ﴾

---

(١) رواه عن عمر رضي الله عنه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٧٠). ورواه عن علي رضي الله عنه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤١٠)، والطبري في «تفسيره» (١٣/ ٦٧٠).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٤)، و«النشر» (٢/ ٣٩٩).

فيكونُ إيذانًا بأنَّهُم لفرطِ مُطاوعَتِهِم الرَّسولَ عليهِ السَّلامُ بحيثُ لا ينفَكُّ فِعلُهُم عَن أَمْرِه، وأنَّه كالسَّببِ الموجِبِ له، ويجوزُ أن يُقَدَّرَا بلامِ الأَمرِ لِيَصِحَّ تعلُّقُ القَولِ بهمَا، وإنَّما حَسُنَ ذلك هاهنا ولَمْ يَحْسُن قولُه:

مُحَمَّـدُ تَفْـدِ نَفْسَـكَ كُلُّ نَفْـسٍ إِذَا مَـا خِفْـتَ مِـنْ أَمْـرٍ تَبَـالَا[1]

لدلالَةِ ﴿ قُل ﴾ عليه.

وقيل: هُمَا جَوابَا (أَقيمُوا) و(أَنفِقُوا) مُقامَيْنِ مُقامَهُما، وهو ضعيفٌ؛ لأَنَّه لا بُدَّ مِن مُخالفَةٍ ما بين الشَّرطِ وجَوابِه، ولأنَّ أمرَ المُواجهَةِ لا يُجابُ بلفظِ الغَيبةِ إذا كان الفاعلُ واحِدًا.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ مُنتَصبانِ على المَصدَرِ؛ أي: إنفاقَ سِرٍّ وعَلانِيَةٍ، أو على الحال؛ أي: ذَوِي سرٍّ وعلانيةٍ، أو على الظَّرفِ؛ أي: وقتَيْ سِرٍّ وعَلانِيَةٍ. والأحبُّ إعلانُ الواجبِ وإخفاءُ المتطوَّعِ بهِ.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ ﴾ فيبتـاعَ المقصِّـرُ مـا يتداركُ به تَقصيـرَهُ أو يَفْدي به نفسَـه.

﴿وَلَا خِلَالٌ ﴾ ولا مخالَّةَ فيشفعَ لكَ خليلٌ[2].

أو: مِن قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا انتفاعَ فيه بمبايعَةٍ ولا مخالَّةٍ، وإنما يُنتفَعُ فيه بالإنفاقِ لوَجهِ اللهِ تعالى.

وقرأ ابنُ كَثيرٍ وأبو عَمرٍو ويعقوبُ بالفتحِ فيهِما[3] على النَّفيِ العامِّ.

---

(١) انظر: «الكتاب» (٣/ ٨)، و«المقتضب» (٢/ ١٣٢)، و«سر صناعة الإعراب» (١/ ٣٩١)، وعزاه ابن هشام في «شرح شذور الذهب» (ص: ٢٧٥) لأبي طالب.

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «خليلك».

(٣) أي: (لا بيعَ... ولا خلالَ)، انظر: «السبعة» (ص: ١٨٧)، و«التيسير» (ص: ٨٢)، و«النشر» (٢/ ٢١١).

(٣٢) ـ ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ تَعيشونَ به، وهو يَشتَمِلُ المطعومَ والمَلبوسَ، وهو مفعولٌ لـ(أَخْرَجَ).

و﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ بيانٌ له وحالٌ منه، ويحتمِلُ عكسَ ذلك، ويجوزُ أَنْ يُرادَ بِهِ المصدَرُ فينتصِبَ بالعِلَّةِ، أو المصدرِ لأنَّ (أخرج) في مَعنى: رَزَقَ.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾: بمَشيئَتِه إلى حيثُ تَوجَّهْتُم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ فجعَلَها مُعدَّةً لانتِفاعِكُم وتَصرُّفِكُم.

وقيل: تسخيرُ هذه الأشياءِ: تَعليمُ كيفيَّةِ اتِّخاذِهَا.

(٣٣) ـ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ يَدْأَبانِ في سَيرِهِما وإنارَتِهما وإِصلاحِ ما يُصلِحَانِه مِن المُكوَّناتِ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ يتعاقبانِ لسُباتِكُم ومَعاشِكُم.

(٣٤) ـ ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾؛ أي: بعضَ جميعِ ما سَألْتُموه؛ يعني: مِن كلِّ شيءٍ سألتموهُ شيئًا، فإنَّ الموجودَ مِن كلِّ صنفٍ بعضُ ما في قُدرةِ اللهِ، ولعلَّ المرادَ بـ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾: ما كانَ حقيقًا بأنْ يُسألَ لاحتياجِ النَّاسِ إليه سُئِلَ أو لَمْ يُسأَلْ.

و﴿مَا﴾ يحتملُ أَنْ تكونَ مَوصولَةً ومَوصوفَةً ومَصدريَّةً، ويكونُ المصدَرُ بمَعنى المفعولِ.

وقُرِئَ: (مِن كلٍّ) بالتَّنوين[1]؛ أي: وآتاكم مِن كلِّ شيءٍ ما احتَجْتُم إليه وسَألتموهُ

---

(١) نسبت لابن عباس والحسن والضحاك ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٨)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٣).

بلِسانِ الحالِ، ويجوزُ أن تكونَ ﴿مَا﴾ نافيَةً في مَوضعِ الحال؛ أي: وآتاكُمْ مِن كلِّ شَيءٍ غيرَ سائليه.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾: لا تَحصرُوهَا ولا تُطيقُوا عدَّ أنواعِهَا فَضْلًا عن أفرادِهَا فإنَّها غيرُ مُتناهِيَةٍ، وفيهِ دَليلٌ على أنَّ المُفرَدَ يُفيدُ الاستغراقَ بالإضافَةِ.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ﴾ يَظلِمُ النِّعمَةَ بإغفالِ شُكرِهَا، أو: يَظلِمُ نفسَهُ بأن يُعرِّضَهـا للحِرمانِ.

﴿كَفَّارٌ﴾ شديدُ الكُفرانِ، وقيل: ظلومٌ في الشدَّةِ يَشكو ويَجزَعُ، كَفَّارٌ في النِّعمَةِ يَجمَعُ ويَمنَعُ.

(٣٥) ـ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ بلدةَ مكَّةَ ﴿ءَامِنًا﴾: ذا أمنٍ لِمَن فيهَا، والفرقُ بينَهُ وبينَ قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]: أنَّ المسؤولَ في الأوَّلِ إزالَةُ الخوفِ عنه وتَصييرُه آمِنًا، وفي الثَّاني جعلُهُ مِن البلادِ الآمنَةِ.

﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾: بَعِّدْنِي وإيَّاهُم ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾: واجعَلْنَا مِنهم في جانبٍ.

وقُرِئَ: (وأَجْنِبْنِي)(١)، وهما على لُغَةِ نَجْدٍ، وأمَّا أَهْلُ الحِجازِ فيَقولون: جَنِّبْنِي شَرَّهُ.

وفيه دَليلٌ على أنَّ عِصمةَ الأنبياءِ بتَوفيقِ اللهِ وحِفظِهِ إيَّاهُم، وهو بظاهِرِه لا يَتناوَلُ أحفادَهُ وجميعَ ذُرِّيَّتِه، وزعمَ ابنُ عُيينَةَ أنَّ أولادَ إسماعيلَ لم يعبُدُوا الصَّنَمَ

---

(١) نسبت للجحدري وعيسى الثقفي وابن يعمر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٣)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٣)، و«البحر» (١٣/ ١٩٤).

مُحْتَجًّا به، وإنَّما كانَتْ لهم حِجارَةٌ يَدورونَ بها ويُسمُّونَها: الدُّوارَ، ويقولون: البيتُ حَجَرٌ فحيثُمَا نَصبْنَا حَجَرًا فهو بمَنزِلَتِه[1].

(٣٦) ـ ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فلذلك سألتُ مِنكَ العِصمَةَ واستَعَذْتُ بكَ مِن إضلالِهِنَّ. وإسنادُ الإضلالِ إليهنَّ باعتبارِ السَّببيَّةِ، كقولِه: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ على دِيني ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾؛ أي: بَعْضِي لا يَنفَكُّ عَنِّي في أَمرِ الدِّينِ.

﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تقدِرُ أَنْ تَغفِرَ لهُ وترحمَهُ ابتداءً، أو بعدَ التَّوفيقِ للتَّوبَةِ، وفيهِ دَليلٌ على أنَّ كُلَّ ذنبٍ فللّهِ أَنْ يَغفِرَه حتَّى الشِّرك، إلا أنَّ الوَعيدَ فرَّقَ بينَهُ وبينَ غَيرِهِ.

(٣٧) ـ ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾؛ أي: بعضَ ذُرِّيتي، أو: ذُريَّةً مِن ذُرِّيتي، فحُذِفَ المفعولُ وهم إسماعيلُ ومَن وُلِدَ منه، فإنَّ إسكانَه مُتضمِّنٌ لإسكانِهم.

﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ يعني: وادي مكَّةَ، فإنها حَجَريَّةٌ لا تُنبِتُ.

﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ الذي حرَّمْتَ التعرُّضَ له والتَّهاوُنَ به، أو: لم يَزَلْ مُعظَّمًا ممنَّعًا[2] يَهابُه الجبابرةُ، أو: منعَ منه الطُّوفانَ فلم يَستولِ عليه ولذلك سُمِّيَ عتيقًا؛ أي: أُعتقَ منه.

ودعا بهذا الدُّعاءِ أوَّلَ ما قَدِمَ، فلعلَّهُ قال ذلك باعتبارِ ما كان[3] أو ما سيؤولُ إليه.

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٤٥٢).

(٢) في نسخة الخيالي: «ممتنعًا».

(٣) بعدها في نسخة الخيالي زيادة: «عليه».

رُوي: أنَّ هاجرَ كانَتْ جاريةً لسارةَ، فوَهَبَتْها إبراهيمَ عليه السَّلام فولدَتْ منه إسماعيلَ، فغارَتْ عليهما فناشَدَتْه أن يُخرِجَهُما مِن عندِها، فأخرجَهُمَا إلى أرضِ مكَّةَ، فأظهرَ اللهُ عينَ زَمْزَمَ، ثمَّ إنَّ جُرْهُمَ رأَوْا ثَمَّ طيورًا فقالوا: لا طيرَ إلا على الماءِ، فقصدوهُ فرأوهُما وعندَهُما عينُ ماء، فقالوا: أَشْرِكينا في مائكِ نُشرِكْكِ في ألبانِنا، ففَعَلَتْ[1].

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اللامُ لامُ كَيْ، وهي مُتعلِّقَةٌ بـ﴿أَسْكَنتُ﴾؛ أي: ما أسكنتُهُم بهذا الوادي البَلْقَعِ[2] مِن كلِّ مُرتفَقٍ ومُرتزَقٍ إلا لإقامةِ الصَّلاةِ عندَ بيتكَ المُحرَّمِ، وتكريرُ النِّداءِ وتَوسيطُه للإشعارِ بأنَّها المقصودةُ بالذَّاتِ مِن إسكانهم ثَمَّ، والمقصودُ مِن الدُّعاءِ تَوفيقُهُم لها.

وقيل: اللامُ لامُ الأمرِ، والمرادُ هو الدُّعاءُ لهم بإقامةِ الصَّلاةِ، كأنَّه طلبَ مِنْهُم الإقامةَ وسألَ مِن اللهِ أَنْ يُوَفِّقَهُم[3] لها.

﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: أفئدةً مِن أَفئدَةِ النَّاسِ، و﴿مِّنَ﴾ للتَّبعيضِ، ولذلك قيل: لو قال: (أفئدةَ النَّاسِ) لازدَحَمَتْ عليهم فارسُ والرُّومُ ولحجَّتِ اليَهودُ والنَّصارَى.

أو للابتداءِ كقولك: القلبُ مِنِّي سَقيمٌ؛ أي: أفئدةَ ناسٍ.

وقرأ هشام: ﴿أَفْئِيدَةً﴾ بخُلْفٍ عنه، بياءٍ بعد الهمزة[4].

---

(١) لم أجده هكذا لكن رواه البخاري (٣٣٦٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكنْ لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم.

(٢) الأَرضُ القَفْراءُ التي لا شيءَ بها.

(٣) في نسخة التفتازاني: «توفيقهم».

(٤) انظر: «التيسير» (ص: ١٣٥). ولم يذكرها ابن مجاهد في «السبعة».

وقُرِئَ: (آفِدَةً)[1]، وهو يحتمل أن يكونَ مَقلوبَ أَفْئِدَة، كآدُرٍ في أَدْؤُرٍ، وأن يكونَ اسمَ فاعلٍ مِن أَفِدَتِ الرِّحلة: إذا عَجِلَت؛ أي: جماعةً يعجلونَ نحوَهُم.

و(أَفِـدَةً) بطـرحِ الهمـزةِ للتَّخفيـفِ[2]، وإن كانَ الوَجـهُ فيه إخراجَهـا بينَ بينَ، ويجـوزُ أن يكونَ مِـن أَفِدَ.

﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾: تُسرِعُ إليهِمْ شوقًا ووِدادًا.

وقُرِئَ: (تُهوَى) على البناءِ للمَفعولِ[3]، مِن هوَى إليه، وأهواه غيرُه.

و(تَهْوَى)[4] من هَوِيَ يَهْوَى: إذا أحبَّ، وتَعدِيَتُه بـ(إلى) لتَضمينِ معنى النُّزوعِ.

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مع سُكناهُم واديًا لا نباتَ فيه ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلك النِّعمةَ.

فأجابَ اللهُ دعوتَهُ، فجعلَهُ حَرَمًا آمِنًا يُجبى إليه ثَمراتُ كلِّ شيءٍ، حتى توجَدُ فيه الفواكِهُ الرَّبيعيَّةُ والصَّيفيَّةُ والخريفيَّةُ في يومٍ واحدٍ.

(٣٨) ـ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾: تعلمُ سِرَّنا كما تعلَمُ عَلَنَنا، والمعنى: أنَّك أعلَمُ بأحوالِنا ومَصالحنا وأرحَمُ بنا مِنَّا بأنفُسِنا، فلا حاجةَ لنا إلى الطَّلبِ، لكنَّا نَدعوكَ إظهارًا لعُبوديَّتِك، وافتقارًا إلى رحمتِكَ، واستِعجالًا لنيلِ ما عِندَكَ.

---

(١) رويت عن ابن كثير في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٣).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٣) عن عيسى بن عمر.

(٣) انظر: «المحتسب» (١/ ٣٦٤) عن مسلمة بن عبد الله.

(٤) نسبت لعلي بن أبي طالب وأبي جعفر محمد بن علي وجعفر بن محمد ومجاهد. انظر: «المحتسب» (١/ ٣٦٤).

وقيل: ما نُخفِي من وَجْدِ الفُرقةَ، وما نُعلنُ من التَّضرُّعِ إليك والتَّوكُّلِ عليك، وتكريرُ النِّداءِ للمُبالغَةِ في التَّضرُّعِ واللَّجأِ[١] إلى اللهِ تعالى.

﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنَّه العالِمُ بعلمٍ ذاتيٍّ تَستوي نسبتُه إلى كلِّ مَعلومٍ، و﴿مِن﴾ للاستغراق.

(٣٩) ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾؛ أي: وهبَ لي وأنا كبيرٌ آيِسٌ عن الولدِ، قيَّدَ الهِبةَ بحالِ الكبرِ استعظامًا للنِّعمَةِ وإظهارًا لِمَا فيها مِن آلائِه.

﴿إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ رُوِيَ: أنَّه ولدَ له إسماعيلُ لتسعٍ وتِسعينَ سنةً، وإسحاقُ لمئةٍ وثِنْتَيْ عشرةَ سنةً.

﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾؛ أي: لَمُجيبُه، مِن قولك: سَمِعَ الملكُ كلامي: إذا اعتدَّ به، وهو من أبنيةِ المُبالغةِ العاملَةِ عملَ الفِعلِ أضيفَ إلى مَفعولِه أو فاعلِه على إسنادِ السَّماعِ إلى دعاءِ اللهِ على المجازِ، وفيه إشعارٌ بأنَّه دَعا ربَّه وسألَ مِنه الولدَ فأجابَهُ ووهبَ له سُؤلَهُ حينما وقعَ اليأسُ مِنه ليكونَ مِن أجلِّ النِّعَمِ وأَجْلَاها.

(٤٠) ـ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: مُعدِّلًا لها مُواظبًا عليها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ عطفٌ على المَنصوبِ في ﴿ٱجْعَلْنِى﴾، والتَّبعيضُ لعلمِه بإعلامِ اللهِ تَعالى أو استقرارِ عادتِه في الأُمَمِ الماضيَةِ أنَّه يَكونُ في ذُرِّيَّتِه كفَّارٌ.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾: واستَجِبْ دُعائي، أو: وتقبَّلْ عِبادَتِي.

(٤١) ـ ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ وقُرِئَ: (ولأبويَّ)[٢]، وقد تَقدَّمُ عذرُ استغفارِه لَهُما، وقيل: أرادَ بهما آدمَ وحوَّاءَ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «والالتجاء».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٣) عن أبيٍّ رضي الله عنه.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾: يَثْبُتُ، مستعارٌ مِن القيامِ على الرِّجْلِ، كقولهم: قامَتِ الحربُ على سَاقٍ، أو: يقومُ إليه أهلُهُ، فحُذِفَ المضافُ أو أُسنِدَ إليه قيامُهُم مجازًا.

(٤٢) ـ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ خطابٌ لرسولِ اللهِ ﷺ، والمرادُ به: تثبيتُه على ما كان عليه مِن أنَّه مُطَّلِعٌ على أحوالِهم وأفعالِهم لا يَخفى عليه خافيَةٌ، والوعيدُ بأنَّه مُعاقِبُهُم على قليلِه وكثيرِه لا محالةَ، أو لكلِّ مَن تَوهَّمَ غفلتَهُ جَهْلًا بصِفاتِه واغترارًا بإمهالِه.

وقيل: إنَّه تَسلِيَةٌ للمَظلومِ وتَهديدٌ للظَّالمِ.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾: يؤخِّرُ عَذابَهُم. وعَن أَبي عَمرٍو بالنُّونِ.

﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾؛ أي: تشخَصُ أبصارُهُم فلا تَقَرُّ في أماكِنِها مِن هَولِ ما ترى.

(٤٣) ـ ﴿مُهْطِعِينَ﴾: مُسرِعينَ إلى الدَّاعي، أو: مُقبلينَ بأبصارِهِم لا يَطْرِفُونَ هَيبةً وخوفًا، وأصلُ الكَلِمَةِ هو الإقبالُ على الشَّيءِ. ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: رافعِيها.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ بل بَقِيَت[1] عُيونُهُم شاخِصَةً لا تَطْرِفُ، أو: لا يرجِعُ إليهِمْ نَظَرُهم فينظُروا إلى أَنفُسِهِم.

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾: خَلاءٌ؛ أي: خاليَةٌ عَن الفهمِ لفَرطِ الحيرةِ والدَّهشةِ، ومنه يقالُ للأحمقِ وللجَبانِ: قلبُهُ هَوَاءٌ؛ أي: لا رأيَ فيه ولا قوَّةَ، قال زُهيرٌ:

مِـن الظِّلْمَـانِ جُؤْجُـؤُهُ هَـوَاءُ[2]

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «بل تثبت».

(٢) صدرُه:

وقيل: خاليةٌ عن الخيرِ خاويةٌ عن الحقِّ.

(٤٤) ـ ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ يا مُحمَّدُ ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني: يومَ القِيامَةِ، أو يومَ الموتِ، فإنَّه أوَّلُ أيَّامِ عَذابِهِم، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ﴿أنذر﴾.

﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالشِّركِ والتَّكذيبِ: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾: أخِّرِ العَذابَ عنَّا ورُدَّنا إلى الدُّنيا وأَمْهِلْنا إلى حدٍّ مِن الزَّمانِ قريبٍ، أو: أخِّر آجالَنا وأبقِنا مِقدارَ ما نُؤمِنُ بك ونُجيبُ دعوتَك.

﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ جوابٌ للأمرِ، ونظيرُه: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ على إرادةِ القَولِ، و﴿مَا لَكُم﴾ جوابُ القَسَمِ جاءَ بلفظِ الخِطابِ على المطابقَةِ دونَ الحِكايَةِ، والمعنى: أقسَمْتُم أنَّكُم باقونَ في الدُّنيا لا تُزالونَ بالموتِ، ولعلَّهُم أقسَمُوا بَطرًا وغُرورًا، أو دلَّ عليه حالُهُم حيثُ بَنَوْا شديدًا وأَمَّلوا بعيدًا.

وقيل: أقسَمُوا أنَّهم لا ينتقلونَ إلى دارٍ أخرى، وأنَّهم إذا ماتُوا لا يزالونَ عن تلك الحالةِ إلى حالةٍ أخرى، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

= كأنَّ الرَّحْـلَ مِنها فـوقَ صَعْـلِ

انظر: «ديوان زهير» (ص: ٦٧)، و«الحيوان» للجاحظ (٤/ ٤٥٤).

قال الطِّيبيُّ: الصَّعْلُ: الصَّغيرُ الرَّأسِ مِن الرِّجالِ والنَّعامِ مِن غيرِ قصرِ العنقِ، والجؤجؤ مِن الطائرِ والسَّفينَةِ: صَدرُهما، يُهمَزُ ولا يُهمَزُ، يَصِفُ مَطِيَّته بالقلقِ، يقول: كأنَّ رحلَ هذه المطيَّة فوقَ ظليمٍ ـ أي: نعامة ـ لا قوَّةَ في صلتِه؛ لأنَّ النَّعامَ يضربُ به المثلُ في الجبنِ. «فتوح الغيب» (٨/ ٦٢٩).

(٤٥) ـ ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالكفرِ والمعاصي كعادٍ وثمودَ، وأصلُ سكنَ أَنْ يُعدَّى بـ(في)، كـ: قَرَّ وغَنِيَ وأقامَ، وقد يُستعملُ بمعنى التَّبَوُّءِ فيجري مجراه، كقولك: سكنتُ الدَّار.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ بما تُشاهدونَ في مَنازلهم مِن آثارِ ما نزلَ بهم وما تواترَ عِندَكُم من أخبارِهم.

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ مِن أحوالِهم؛ أي: بيَّنَّا لَكُم أنَّكُم مثلُهُم في الكفرِ واستحقاقِ العَذابِ، أو صفاتِ ما فعلوا وفُعِلَ[1] بهم التي هي في الغرابَةِ كالأمثالِ المَضروبَةِ.

(٤٦) ـ ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ ﴾ المستفرَغَ فيه جهدهُم لإبطالِ الحقِّ وتقريرِ الباطلِ.

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾: ومكتوبٌ عندَهُ فِعلُهُم، فهو مُجازيهِمْ عليه، أو: عندَهُ ما يَمكُرُهُمْ به جزاءً لِمَكرِهِم وإبطالًا له.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾؛ أي: في العِظَمِ والشِّدَّةِ ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ مُسوًّى لإزالةِ الجبالِ ومُعَدًّا.

وقيل: ﴿إنْ﴾ نافيةٌ واللامُ مؤكِّدَةٌ لها، كقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، على أنَّ ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ مَثَلٌ لأمرِ النبيِّ ونحوِه.

وقيل: مخفَّفَةٌ مِن الثقيلةِ، والمعنى: أنَّهم مكَروا ليُزيلوا ما هو كالجبالِ الراسِيَةِ ثباتًا وتمكُّنًا من آياتِ اللهِ وشرائعِهِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «ما فعلوا أو ما فعل»، وفي نسخة التفتازاني: «أو فعل»، والمثبت من نسخة الطبلاوي.

وقرأ الكسائيُّ: ﴿لَتَزُولُ﴾ بالفتحِ والرَّفعِ(١) على أنَّها المُخفَّفةُ، واللامُ هي الفاصِلَةُ، ومعناه: تعظيمُ مَكرِهِم.

وقُرِئَ بالفَتحِ والنَّصبِ(٢) على لغَةِ مَن يفتَحُ لامَ كَيْ.

وقُرِئَ: (وإن كادَ مَكرُهُم)(٣).

(٤٧) ـ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ مثلُ قولِهِ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، وأصلُه: مُخلِفَ رسلِه وعدَهُ، فقدَّمَ المفعولَ الثَّاني إيذانًا بأنه لا يُخلِفُ الوعدَ أصلًا، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، وإذا لم يُخلِفْ وعدَهُ أحدًا فكيفَ يخلفُ وعدَه رسلَه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: غالبٌ لا يُماكَرُ، قادرٌ لا يُدافَعُ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لأوليائِه مِن أعدائِه.

(٤٨) ـ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ من ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ﴾، أو ظرفٌ للانتقامِ، أو مقدَّرٌ بـ: اذكر، أو: لا يُخلفُ وعدَهُ، ولا يجوزُ أَنْ يَنتَصِبَ بـ﴿مُخْلِفَ﴾؛ لأنَّ ما قبلَ (إنَّ) لا يعملُ فيما بعدَه.

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، وتقديرُه: والسَّماواتُ غيرَ السَّماواتِ.

---

(١) وهي قراءة الكسائي، والمصدَّر بها قراءة الباقين. انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٣٥).

(٢) انظر: «البحر المحيط» (١٣/ ٢١٢).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٤)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٥) عن علي وعمر وابن عباس وابن مسعود وأبيٍّ رضي الله عنهم وأبي إسحاق السَّبيعي.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٢٠ ـ ٧٢٣) عن عمر وأنس وابن مسعود.

والتَّبديلُ[1] يكونُ في الذَّاتِ، كقولك: بَدَّلتُ الدَّراهِمَ بالدَّنانيرِ، وعليه قوله: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، وفي الصِّفَةِ كقولِك: (بدَّلْتُ الحلقةَ خاتمًا): إذا أذبتَها وغَيَّرتَ شَكلَها، وعليه قولُه: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، والآية تحتَمِلُهُما.

وعن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه: تُبدَّلُ أرضًا مِن فضَّةٍ وسماواتٍ مِن ذهبٍ[2].

وعن ابن مسعودٍ وأنسٍ: يُحشَرُ النَّاسُ على أرضٍ بَيضاءَ لم يُخطِئْ عليها أحدٌ خطيئةً[3].

وعن ابنِ عبَّاسٍ: هي تلك الأرضُ، وإنَّما تغيَّرُ صِفاتُها[4]، ويدلُّ عليه ما روى أبو هريرةَ: أنَّه عليه السَّلامُ قال: «تبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ فتُبسَطُ وتُمَدُّ مدَّ الأديم العكاظيِّ، لا ترى فيها عِوَجًا ولا أمتًا»[5].

---

(١) بعدها في نسخة الخيالي: «قد».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٣٣ ـ ٧٣٤).

(٣) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٣٠ ـ ٧٣٢). ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٢٤) عن عمرو بن ميمون.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (٢١٧).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٧٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٣١)، وهو قطعة من حديث الصور الطويل، رواه الطبراني في «الأحاديث الطوال» (٤٨). وذكره ابن كثير عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام ونقل عن الطبراني قوله: هذا الحديث مشهور وهو غريب جدًّا ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة، وقد اختلف فيه فمنهم من وثقه ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل وأبي حاتم الرازي وعمرو بن علي الفلاس، ومنهم من قال فيه: هو متروك، وقال ابن عدي: أحاديثه كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء. =

واعلم أنه لا يلزَمُ على الوَجهِ الأوَّلِ أن يكونَ الحاصِلُ بالتَّبديلِ أرضًا وسماءً على الحقيقةِ، ولا يَبعُدُ على الثَّاني أن يَجعلَ اللهُ الأرضَ جهنَّمَ والسَّماواتِ الجنَّةَ على ما أَشعرَ به قولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ [المطففين: ٧].

﴿وَبَرَزُواْ﴾ من أجداثِهم ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾: لِمُحاسبتِه ومُجازاتِه، وتوصيفُه بالوَصفينِ للدَّلالةِ على أنَّ الأمرَ في غايةِ الصُّعوبةِ كقولِه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فإنَّ الأمرَ إذا كان لواحدٍ غلَّابٍ لا يُغالَبُ فلا مُستغاثَ لأحدٍ إلى غيرِه ولا مُستجار.

(٤٩) - ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ﴾ قُرِنَ بَعضهُم مع بعضٍ بحسبِ مُشاركَتِهم في العَقائدِ والأعمالِ كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ [التكوير: ٧]، أو: قُرِنُوا مع الشَّيطانِ، أو: مع ما اكتَسَبُوا من العقائدِ الزَّائغَةِ والملَكاتِ الباطلةِ، أو: قُرِنت أيديهِم وأرجلُهم إلى رقابِهِم بالأغلالِ، وهو يحتمِلُ أن يكونَ تمثيلًا لِمُؤاخذَتِهم على ما اقترفَتْهُ أيديهِم وأَرجُلُهم.

﴿فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾، أو حالٌ مِن ضَميرِه، والصَّفَدُ: القيدُ، وقيل: الغُلُّ، قال سَلامةُ بنُ جَنْدَلٍ:

= ثم قال ابن كثير: وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة، وقد أفردتها في جزء على حدة، وأما سياقه فغريب جدًا، ويقال: إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقًا واحدًا، فأنكر عليه بسبب ذلك، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول: إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفًا قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث. فالله أعلم.

وَزَيْدُ الخَيْلِ قَدْ لَاقَى صِفَادًا يَعَضُّ بساعِدٍ وبعَظْمِ ساقِ[1]

وأصله: الشدُّ.

(٥٠) ـ ﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾: قمصانُهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وجاءَ (قَطْرانٌ) و(قِطْرانٌ) لغتينِ فيه، وهو ما يتحلَّبُ مِن الأبهلِ فيُطبخُ فتُهنأُ بهِ الإبلُ الجَرْبَى، فيُحرِقُ الجَرَبَ بحِدَّتِه، وهو أسودُ لوناً مُنتِنٌ تشتَعِلُ فيه النَّارُ بسرعةٍ، تُطْلى به جلودُ أهلِ النَّارِ حتى يكونَ طلاؤُه لهم كالقُمُصِ؛ ليَجتَمِعَ عليهم لَذْعُ القطرانِ ووحشةُ لونِه ونَتَنُ ريحِه مع إسراعِ النَّارِ في جلودِهِم، على أنَّ التَّفاوُتَ بين القطرانينِ كالتَّفاوُتِ بينَ النَّارينِ.

ويحتمِلُ أَنْ يكونَ تمثيلًا لِمَا يحيطُ بجوهرِ النَّفسِ مِن الملكاتِ الرَّديئَةِ والهيئات الوَحِشَةِ[2] فيجلبُ إليها أنواعًا مِن الغُمومِ والآلامِ.

وعن يعقوبَ: (قِطْرٍ آنٍ)[3]، والقطرُ: النُّحاسُ أو الصُّفْرُ المذابُ، والآني: المُتناهي حرُّهُ.

والجملةُ حالٌ ثانيَةٌ، أو حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾؛ أي: وتَغشاهَا لأنَّهُم لم يَتوجَّهُوا بها إلى الحقِّ، ولم

---

(١) انظر: «ديوان سلامة بن جندل» (ص: ٧٠). والبيت شاهدٌ على أنَّ الصَّفَدَ هو الغُلُّ أَخْذاً من الصِّفادِ، ومعناه: أن زيداً يعضُّ على ساعدِه تارةً، وعلى ساقِه أخرى؛ ليتخلَّصَ من الوثاقِ.

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «الوحشية».

(٣) رويت عن علي وابن عباس وأبي هريرة وعكرمة وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٤)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٦)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٤٨)، و«البحر» (١٣/ ٢١٨).

يَستَعمِلُوا في تَدبُّرِه مشاعِرَهُم وحواسَّهُم التي خُلِقَت فيها لأجلِه، كما يطَّلِعُ على أفئِدَتِهم لأنَّها فارِغَةٌ عَن المعرفَةِ مملوءةٌ بالجهالاتِ، ونظيرُه قولُه: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [الزمر: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ [القمر: ٤٨].

(٥١) ـ ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ﴾؛ أي: يَفعلُ بهم ذلك ليجزيَ كلَّ نفسٍ مُجرِمَةٍ ﴿مَّا كَسَبَتْ ﴾ أو: كل نفسٍ مِن مجرِمَةٍ أو مُطيعَةٍ؛ لأنه إذا بيَّنَ أنَّ المجرمينَ مُعاقَبونَ لإجرامِهم عُلِمَ أنَّ المطيعينَ يُثابونَ لطاعَتِهِم، ويتعيَّنُ ذلك إنْ عُلِّقَ اللامُ بـ﴿برزوا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ لأنه لا يَشغَلُه حسابٌ عن حسابٍ.

(٥٢) ـ ﴿ هَـٰذَا ﴾ إشارةٌ إلى القرآنِ، أو السُّورَةِ، أو ما فيه من العِظَةِ والتَّذكيرِ، أو ما وصفَهُ مِن قَولِه: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ ﴾.

﴿بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ كفايَةٌ لَهُم في المَوعِظَةِ.

﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ عطفٌ على مَحذوفٍ؛ أي: ليُنصَحُوا وليُنذَرُوا بهذا البلاغِ، فتكونُ اللامُ مُتعلِّقَةً بالبلاغِ، ويجوزُ أنْ تتعلَّقَ بمَحذوفٍ تَقديرُهُ: وليُنذَروا به أُنزلَ أو تُلِيَ.

وقُرِئَ بفتحِ الياءِ(١)، مِن نَذِرَ به: إذا عَلِمَ به واستعدَّ له.

﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَ ٰحِدٌ ﴾ بالنَّظرِ والتَّأمُّلِ فيما فيه من الآياتِ الدالَّةِ عليه، أو المنبِّهةِ على ما يدلُّ عليه.

---

(١) نسبت ليحيى بن عمر الذارع وأحمد بن يزيد بن أسيد السلمي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٤)، و«المحتسب» (١/ ٣٦٧).

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيَرْتَدِعُوا عما يُردِيهم ويَتدرَّعُوا بما يُحظيهم.

واعلَمْ أنَّه سُبحانَهُ ذكرَ لهذا البلاغِ ثلاثَ فوائدَ هي الغايةُ والحِكمَةُ في إنزالِ الكتبِ: تكميلُ الرُّسلِ للنَّاسِ، واستكمالُ القوَّةِ النَّظريَّةِ التي مُنتهى كمالها التَّوحيدُ، واستِصلاحُ القُوَّةِ العَمَليَّةِ الذي هو[1] التَّدرُّعُ بلباسِ التَّقوَى، جعلنا اللهُ مِن الفائزين بهما.

وعن النبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ إبراهيمَ أُعطِيَ مِن الأجرِ عشرَ حَسناتٍ بعَددِ مَن عبدَ الأصنامَ وعددِ مَن لَمْ يَعْبُد»[2].

***

---

(١) في نسخة الخيالي: «التي هي».

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٠٤)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٢٢)، من حديث أبي رضي الله عنه. وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

سورة إبراهيم[1]

عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ۝٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾.

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ هذه السورة مكّية كلّها في قول الجمهور. وعن ابن عباس وقتادة: هي مكّية إلاّ من قوله «ألم تر إلى الذين بدّلوا» إلى «النار»[2].

وارتباط هذه السورة بالتي قبلها واضح جدًّا لأنه ذكر فيها ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا ۝٣١﴾ [الرعد] ثم [قال] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ ۝٣٧﴾ [الرعد] ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ۝٤٣﴾ [الرعد] فناسب قوله «آلر كتاب أنزلناه إليك».

---

(١) مكّية وآياتها ثنتان وخمسون.

(٢) الآيات ٢٨ - ٣٠.

وأيضاً فإنهم لمّا قالوا على سبيل الاقتراح ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرعد] وقيل له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد] أنزل «ألّر كتاب أنزلناه إليك» كأنه قيل: أولم يكفهم من الآيات كتاب أنزلناه إليك.

﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وهي الضلال «إلى النور» وهو الهدى.

«كتاب» خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا كتاب «أنزلناه» جملة في موضع الصفة. «لتخرج» متعلّق «بأنزلناه» وهي لام العلّة. «من الظلمات» متعلق «بتخرج» [«إلى النور» متعلق «بتخرج»] أيضاً. «إلى صراط العزيز الحميد» بدل من قوله «إلى النور» وأعيد معه حرف الجرّ وهو «إلى» كما تقول: مررت بزيد بأخيك.

وقرىء: الله، بالجرّ على البدل أو عطف بيان. وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ، أو خبر مبتدأ أي: هو الله. «وويل» مبتدأ خبره «للكافرين». و«من عذاب» في موضع الصفة «لويل».

ولا يضرّ الفصل بالخبر بين الصفة والموصوف، ولا يجوز أن يكون متعلّقاً «بويل» لأنه مصدر، ولا يجوز الفصل بين المصدر وما يتعلق به بالخبر.

ويظهر من كلام الزمخشري أنه ليس في موضع الصفة، قال(١): فإن قلت: ما وجه اتصال قوله «من عذاب شديد» بالويل؟ قلت: لأن المعنى: يُوَلْوِلُون من عذاب شديد ويضجّون منه ويقولون: يا ويلاه [٣٠٢/ب] كقوله(٢) تعالى ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان] انتهى.

(١) الكشاف ٢: ٣٦٥.
(٢) ق: لقوله.

فظاهره على تقدير عامل يتعلّق به «من عذاب شديد». ويحتمل هذا العذاب أن يكون واقعاً بهم في الدنيا أو واقعاً بهم في الآخرة.

والاستحباب: الإيثار والاختيار، وهو استفعال من المحبّة، لأن المُؤْثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحبّ إليها وأفضل عندها من الآخر. ويجوز أن يكون استفعل بمعنى أفعل كاستجاب وأجاب. ولمّا ضُمّن معنى الإيثار عُدّي بعلى.

وجوّزوا في إعراب «الذين» أن يكون مبتدأ خبره «أولئك في ضلال بعيد» وأن يكون مقطوعاً على الذّم إمّا خبر مبتدأ محذوف أي: هم الذين، وإمّا منصوباً بإضمار فعلٍ تقديره: أذمّ.

وأن يكون صفة «للكافرين». ونصّ على هذا الوجه الأخير الحوفي والزمخشري وأبو البقاء[1].

وهو لا يجوز، لأنّ فيه الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي منهما وهو قوله «من عذاب شديد» سواء أكان «من عذاب شديد» في موضع الصفة «لويل» أم متعلقاً بفعل محذوف أي: يضجّون ويُوَلوِلُون من عذاب شديد.

وتقدم الكلام على «ويبغونها عوجاً» في آل عمران[2] وعلى وصف الضلال بالبعد.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ الآية، سبب نزولها أن قريشاً قالوا: ما بال الكتب كلّها أعجمية وهذا عربي فنزلت.

---

(١) الكشاف ٢: ٣٦٦، والإملاء ٢: ٦٦.

(٢) انظر تفسير الآية ٩٩ من آل عمران.

والظاهر أن قوله «وما أرسلنا من رسول» العموم، فيندرج فيه الرسول عليه السلام. فإن كانت الدعوة عامّة للناس كلّهم أو اندرج في اتباع ذلك الرسول [من] ليس من قومه [كان] من لم تكن لغته لغة ذلك الرسول موقوفاً على تعلّم تلك اللغة حتى يفهمها أو يرجع في تفسيرها إلى من يعلمها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

و﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ يحتمل أن تكون «أنْ» مفسّرة بمعنى أي، وأن تكون مصدرية.

وفي قوله: «قومك» خصوص لرسالته إلى قومه بخلاف قوله ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم]. والظاهر أن قومه هم بنو إسرائيل. «وذكّرهم» معطوفة على قوله «أخرِجْ قومك».

والإشارة بقوله «إنّ في ذلك» إلى التذكير بأيّام الله.

و«صبّار شكور» صيغتا[1] مبالغة وهما مشعرتان بأن أيام الله تعالى المراد بها بلاؤه ونعماؤه، أي: صبّار على بلائه شكور لنعمائه.

---

(١) ق: صفتا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، لمّا تقدم أمره تعالى لموسى عليه السلام بالتذكير بأيّام الله ذكّرهم بما أنعم تعالى عليهم من نجاتهم من آل فرعون، وفي ضمنها تعداد شيء ممّا جرى عليهم من نقمات الله تعالى. وتقدم إعراب «إذ» في نحو هذا التركيب في قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران]. وتقدّم تفسير نظير هذه الآية[1]، إلاّ أنّ هنا «ويذبّحون» بالواو، وفي البقرة بغير واو، وفي الأعراف «يقتّلون». فحيث لم يُؤت بالواو جُعل الفعل[2] تفسيراً لقوله «يسومونكم» وحيث أُوتي بها دلّ على المغايرة، وأنّ سوء العذاب كان بالتذبيح وبغيره. وحيث جاء «يقتّلون» جاء باللفظ المطلق المحتمل للتذبيح ولغيره من أنواع القتل.

وتقدّم شرح «تأذن» وتلقّيه بالقسم في قوله في الأعراف ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف]. واحتمل «إذ» أن يكون منصوباً باذكروا، وأن يكون معطوفاً على «إذ نجّاكم» لأنّ هذا الإعلام بالمزيد على الشكر من نعمه تعالى.

والظاهر أن متعلّق الشكر هو الإنعام أي: لئن شكرتم إنعامي لأزيدنّكم.

«ولئن كفرتم» أي: نعمتي فلم [٣٠٣/أ] تشكروها رتّب العذاب الشديد على كفر نعمه تعالى. ولم يبيّن محلّ الزيادة فاحتمل أن يكون في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما.

---

(١) في قوله تعالى ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة]، وقوله ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف].

(٢) ق: العقل.

وجاء التركيب على ما عُهد في القرآن من أنه إذا ذكر الخير أسنده إليه تعالى وإذا ذكر العذاب بعده عدل عن نسبته إليه فقال «لأزيدنكم» ونسب الزيادة إليه تعالى وقال «إن عذابي لشديد» ولم يأت التركيب: لأعذبّنكم وصرّح في «لأزيدنكم» بالمفعول، وهنا لم يُذكر وإن كان المعنى عليه أي: إن عذابي لكم لشديد.

وجواب «إن تكفروا» محذوف لدلالة المعنى عليه، التقدير: فإنما ضرر كفركم لاحقٌ بكم والله تعالى متّصف بالغنى المطلق والحمد سواء أكفروا أم شكروا. وفي خطابه لهم تحقير لشأنهم وتعظيم لله تعالى في ذكر هاتين الصفتين.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ
مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ
أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ
مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ
لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ
مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ
مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ

جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ
ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية، الظاهر أنّ هذا خطاب من موسى عليه السلام لقومه، وقيل ابتداء خطاب من الله تعالى لهذه الأمة. وخبر قوم نوح وعاد وثمود قد قصّه الله تعالى في كتابه وتقدّم في الأعراف وهود[١]. والهمزة في «ألم» للتقرير والتوبيخ. والظاهر أن «والذين» في موضع خفض عطفاً على ما قبله، إما على «الذين» وإما على «قوم نوح وعاد وثمود».

قال الزمخشري[٢]: والجملة من قوله «لا يعلمهم إلا الله» اعتراض، والمعنى أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله تعالى انتهى.

وليست جملة اعتراض، لأن جملة الاعتراض تكون بين جزأين أحدهما الآخر.

وقال أبو البقاء[٣]: تكون هذه الجملة حالاً من الضمير في «من بعدهم».

فإن عنى من الضمير المجرور في «من بعدهم» فلا يجوز لأنه حال مما جرّ بالإضافة، وليس له محلّ إعراب من رفع أو نصب. وإن عنى من الضمير المستقرّ في الجار والمجرور النائب عن العامل أمكن.

---

(١) انظر على التوالي الآيات ٥٩، ٦٥، ٧٣ من الأعراف وما يلي كلاًّ منها، والآيات ٢٥، ٥٠، ٦١ من هود وما يلي كلاًّ منها.

(٢) الكشاف ٢: ٣٦٨.

(٣) الإملاء ٢: ٦٦.

وقال أبو البقاء أيضاً[١]: ويجوز أن يكون مستأنفاً، وكذلك «جاءتهم».

وأجاز الزمخشري وتبعه أبو البقاء[٢] أن يكون «والذين» مبتدأ [والخبر «لا يعلمهم إلا الله». وقال الزمخشري[٣]: والجملة من المبتدأ] والخبر وقعت اعتراضاً انتهى.

وليست باعتراض، لأنها لم تقع بين جزأين أحدهما يطلب الآخر.

والضمير في «جاءتهم» عائد على «الذين من قبلكم»، والجملة تفسيرية للنّبأ.

والظاهر أن الأيدي هي الجوارح، وأن الضميرين في «أيديهم» و«أفواههم» عائدان على الذين جاءتهم الرسل.

«وقالوا إنّا كفرنا» بادروا أولاً إلى الكفر وهو التكذيب المحض، ثم أخبروا أنهم في شكّ وهو التردّد، كأنهم نظروا بعض نظر، اقتضى أن انتقلوا من التكذيب المحض إلى التردّد، أو هما قولان من طائفتين: طائفة بادرت بالتكذيب والكفر، وطائفة شكّت، والشكّ في مثل ما جاءت به الرسل عليهم السلام كفر. و«مريب» صفة توكيدية.

ودخلت همزة الاستفهام الذي معناه الإنكار على الظرف على الجار الذي هو خبر عن المبتدأ، لأن الكلام ليس في الشكّ، إنّما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشكّ لظهور الأدلّة وشهادتها عليه. وقدّر مضاف فقيل: أفي

---

(١) الموضع نفسه.

(٢) الكشاف ٢: ٣٦٨. ولا يظهر في الإملاء تبعيّة أبي البقاء للزمخشري.

(٣) الكشاف ٢: ٣٦٨.

إلهيّته أو في وحدانيّته. ثم نبّههم على الوصف الذي يقتضي ألاّ يقع فيه شكّ البتّة وهو كونه منشىء العالم وموجده فقال: «فاطر السماوات والأرض». و«فاطر» صفة لله تعالى، ولا يضرّ الفصل بين الموصوف وصفته بمثل هذا المبتدأ فيجوز أن تقول: في الدار زيدٌ الحسنةِ، وإن كان أصل التركيب: في الدّار الحسنة زيد. ولمّا ذكر تعالى أنه موجد العالم، ونبّه على الوصف الذي لا يناسب [٣٠٣/ب] أن يكون معه فيه شكّ، ذكر ما هو عليه من اللطف بهم والإحسان إليهم فقال «يدعوكم ليغفر لكم» أي: يدعوكم إلى الإيمان كما قال ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ ﴿١٠﴾﴾ [غافر] أو يدعوكم لأجل المغفرة نحو: دعوتـه لينصـرني. وتقدّم الكلام في طرفٍ من هذا في الأعراف في قوله ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف]. وقيل هنا «ويؤخركم إلى أجل مسمّى» قبل الموت ولا يعاجلكم بالعذاب.

ومعنى «مسمّى» أي: قد سمّاه وبيّن مقداره.

«إن أنتم» أي: ما أنتم. «إلا بشر مثلنا» لا فضل بيننا وبينكم ولا فضل لكم علينا، فلِمَ تُخَصُّون بالنبوّة دوننا. والظاهر أن طلبهم السلطان المبين، وقد أتتهم الرسل بالبيّنات، إنما هو على سبيل التعنّت والاقتراح، وإلاّ فما أَتَوْا به من الدلائل والآيات كافٍ لمن استبصر، ولكنّهم قلّدوا آباءهم فيما كانوا عليه من الضلال. ألا ترى أنهم لمّا ذكروا أنهم مماثلوهم قالوا «تريدون أن تصدّونا عمّا كان يعبد آباؤنا» أي: ليس مقصودكم إلاّ أن نكون لكم تبعاً، ونترك ما نشأنا عليه من دين آبائنا.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الآية، سلّموا لهم في أنهم مماثلوهم في البشريّة وحدها، وأمّا ما سوى ذلك من الأوصاف التي اختصّوا بها، فلم يكونوا مثلهم، ولم يذكروا ما هم عليه من الوصف الذي تميّزوا به

تواضعاً منهم ونسبة ذلك إلى الله تعالى. ولم يصرّحوا بمنّ الله عليهم وحدهم، لكن أبرزوا ذلك في عموم «من يشاء من عباده» والمعنى: يمنّ بالنبُوّة على[1] من يشاء تَنْبِئَتَه.

ومعنى «بإذن الله» بتسويغه[2] وإرادته، أي: الآية التي اقترحوها ليس لنا الإتيان بها ولا [هي] في استطاعتنا، ولذلك كان التركيب «وما كان لنا» وإنما ذلك أمر متعلّق [بالمشيئة].

و«فليتوكل» أمرٌ منهم للمؤمنين بالتوكّل وقصدوا به أنفسهم قصداً أوّلياً، وأمروها به كأنهم قالوا: ومن حقّنا أن نتوكّل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجري علينا منكم. ألا ترى إلى قولهم «وما لنا ألاّ نتوكل على الله» ومعناه: وأيّ عذرٍ لنا في ألاّ نتوكل[3] على الله «وقد هدانا» فعل بنا ما يوجب توكّلنا عليه، وهو التوفيق لهداية كلّ واحد منّا سبيله الذي يجب سلوكه في الدين.

والأمر الأول وهو قوله «فليتوكّل المؤمنون» لاستحداث التوكّل، والثاني للثبات على ما استحدثوا من توكّلهم.

﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ﴾ جواب قسم، ويدلّ على ما سبق ما يجب فيه الصبر وهو الأذى.

و«ما» مصدرية. وجوّزوا أن تكون بمعنى الذي والضمير محذوف أي: ما آذيتموناه وكان أصله: به، فهل حذف به أو الباء فوصل الفعل إلى

---

(١) ق: وعلى.

(٢) ق: بتسويفه.

(٣) ق: ومعناه: في أي عذر لنا ألاّ نتوكل.

الضمير؟ قولان.

﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم﴾ أقسموا على أنه لا بدّ من إخراجهم أو عودهم في ملّتهم كأنهم قالوا: ليكونن[١] أحد هذين. ولمّا أقسموا هم على إخراج الرّسل أو العودة في ملّتهم، أقسم تعالى على إهلاكهم - وأي: إخراجٍ أعظم من الإهلاك بحيث لا يكون لهم عودة إليها أبداً؟ - وعلى إسكان الرسل ومن آمن[٢] بهم وذرّياتهم أرض أولئك المُقسِمين على إخراج الرسل عليهم السلام.

والإشارة «بذلك» إلى توريث الأرض الأنبياء ومن آمن بهم بعد إهلاك الظالمين كقوله تعالى ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف] ومقام: يحتمل المصدر أي: قيامي عليه بالحفظ لأعماله ومراقبتي إياه كقوله تعالى ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ ٣٣﴾ [الرعد].

والظاهر أن الضمير في «واستفتحوا» عائد على الأنبياء أي: استنصروا الله على أعدائهم كقوله تعالى ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ ١٩﴾ [الأنفال]. ويجوز أن يكون من الفتاحة وهي الحكومة، أي: استحكموا الله: طلبوا منه القضاء بينهم. واستنصار الرسل في القرآن كثير.

«وخاب» معطوف على محذوف [٣٠٤/أ] تقديره: فنصروا وظفروا. «وخاب كلّ جبّار عنيد» وهم قوم الرّسل، وتقدّم شرح جبار عنيد[٣]. والعنيد: المعاند كالخليط بمعنى المخالط.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ ذكر ما يؤول إليه حال الجبار العنيد في الآخرة. ووراء: من

(١) ق: لنكونن.
(٢) ق: وآمن.
(٣) انظر تفسير الآية ٥٩ من هود، ولم يُذكر فيه شيء.

الأضداد ينطبق(١) على خلف وعلى أمام كأنه قيل: من أمامه وبين يديه جهنم.

«ويُسقى» معطوف على محذوف تقديره: يدخلها ويُسقى. والظاهر إرادة حقيقة الماء.

و«صديد» قال مجاهد وغيره: هو ما يسيل من أجساد أهل النار.

وقال الزمخشري(٢): «صديد» عطف بيان لما قال «ويُسقى من ماء» فأبهمه إبهاماً ثم بيّنه بقوله «صديد» انتهى.

والبصريون لا يجيزون عطف البيان في النكرات، وأجازه الكوفيون، وتبعهم الفارسي فأعرب «زيتونة» عطف بيان لـ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۝٣٥﴾ [النور].

فعلى رأي البصريين لا يجوز أن يكون قوله «صديد» عطف بيان.

وتجرّع: تفعّل، والظاهر أنها للتكلّف نحو تحلّم(٣)، أي: يأخذه شيئاً فشيئاً. والظاهر انتفاء مقاربة(٤) إساغته، وإذا انتفت [انتفت] الإساغة، فيكون كقوله ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۝٤٠﴾ [النور] أي: يقرب من رؤيتها فكيف يراها. والحديث جاء بأنه يشربه(٥)، فإن صحّ الحديث كان المعنى: ولا يكاد يسيغه قبل أن يشربه ثم شربه، كما جاء ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧١﴾ [البقرة]

---

(١) ق: ينطلق.
(٢) الكشاف ٢: ٣٧١.
(٣) ق: تحكّم.
(٤) ق: مقارنة.
(٥) انظر مثلاً المستدرك ٢: ٣٥١.

أي: وما كادوا يفعلون [قبل] الذبح.

«ويأتيه الموت» أي: أسبابه. والظاهر أن قوله «من كل مكان» معناه من الجهات السّت وذلك تفظيع لما يصيبه من الآلام.

«وما هو بميّت» لتطاول شدائد الموت وامتداد سكرته.

«ومن ورائه» الخلاف في «من ورائه» [هنا] كالخلاف في «من ورائه جهنم».

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِىۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾ الآية، ارتفاع «مثل» على الابتداء، وخبره محذوف تقديره عند سيبويه: فيما يُتلى عليكم أو يُقصّ.

قال ابن عطية: وقيل هو مبتدأ و«أعمالهم» ابتداء ثانٍ و«كرماد» خبر

الثاني، والجملة خبر الأول، وهذا عندي أرجح الأقوال، وكأنك قلت: المتحصّل مثالاً في النفس للذين كفروا هذه الجملة المذكورة وهي أعمالهم في فسادها وقت الحاجة، وتلاشيها كالرماد الذي تذروه الرياح، وتفرّقه بشدّتها حتى لا يبقى له أثر ولا يجتمع منه شيء انتهى.

هذا القول الذي رجّحه ابن عطية قاله الحوفي، وهو لا يجوز، لأن الجملة الواقعة خبراً عن المبتدأ [الأول الذي] هو «مثل» عارية من رابط يعود على المثل، وليست نفس المبتدأ في المعنى، فلا تحتاج إلى رابط. والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة.

و«أعمالهم كرماد» جملة مستأنفة على تقدير سؤال، كأنه قيل: كيف مَثَلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد، كما تقول: صفة زيد عِرْضُه مصون وماله مبذول.

ووصف اليوم بقوله «عاصف» وإن كان من صفة الريح على سبيل التجوّز كما قالوا: يوم ماطر وليل نائم.

«لا يقدرون» يوم القيامة. «مما كسبوا» من أعمالهم. «على شيء» أي: لا يرون له أثراً من ثواب، كما لا يُقْدَر من الرّماد المطيَّر بالرياح على شيء.

«ذلك» إشارة إلى كونهم بهذه الحال، وعلى مثل هذا الغرر البعيد[1] الذي تعمّق فيه صاحبه، وأبعد عن طريق النجاة، أو البعيد عن الحق أو الثواب. وفي البقرة ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة] وهنا «لا يقدرون مما كسبوا على شيء» من التفنّن في الفصاحة والتغاير في التقديم

(١) ق: الغدر والبعيد.

والتأخير والمعنى واحد..

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية، الظاهر أن قوله «يذهبكم» خطاب عام للناس. وعن ابن عباس: خطاب للكفار.

«ويأت بخلق جديد» الظاهر أن يكون المعنى: إن يشأ يذهبكم[1] أيها الناس ويأت بناسٍ آخرين من جنسكم آدميين.

﴿وَبَرَزُوا﴾ أي: ظهروا من قبورهم [٣٠٤/ب] إلى جزاء الله وحسابه. والذين استكبروا: هم رؤساؤهم وقادتهم استتبعوا[2] الضعفاء واستغووهم.

«واستكبروا» تكبّروا وأظهروا تعظيم أنفسهم واستكبروا عن اتباع الرسل وعبادة الله تعالى.

و«تبعاً» يحتمل أن يكون اسم جمعٍ لتابع كخادم وخَدَم وخائب وخَيَب، ويحتمل أن يكون مصدراً كقوم عدل ورضى.

و«هل أنتم مغنون عنا» استفهام، معناه توبيخهم إياهم وتقريعهم، وقد علموا أنهم لن يغنوا شيئاً. والمعنى: إنا تبعناكم فيما كنتم فيه من الضلال كما أمرتمونا، وما أغنيتم عنا شيئاً، ولذلك جاء جوابهم «لو هدانا الله لهديناكم» فأجابوا بذلك على سبيل الاعتذار والخجل وردّ[3] الهداية إلى الله تعالى، وهو كلام حق في نفسه.

---

(١) ق: يذهبكم يعذبكم.

(٢) ق: استعتبوا.

(٣) ق: وردًا.

قال الزمخشري[(١)]: «مِن» الأولى للتّبيين والثانية للتبعيض، كأنه قيل: هل أنتم مغنون عنّا بعض الشيء الذي هو عذاب الله. ويجوز أن يكونا للتبعيض معاً، بمعنى: هل أنتم مغنون عنّا بعض شيء هو بعض عذاب الله انتهى.

هذان التوجيهان اللذان وجّههما الزمخشري في المكانين يقتضي أولهما التقديم في قوله «من شيء» على قوله «من عذاب الله» لأنه جعل «من شيء» هو المبيّن بقوله «من عذاب الله»، ومِن التّبيينيّة يتقدّم عليها ما تبيّنه ولا يتأخر. والتوجيه الثاني وهو بعض شيء هو بعض العذاب يقتضي أن يكون بدلاً، فيكون بدل عام من خاص لأن «من شيء» أعمّ من قوله «من عذاب الله».

وإن عنى «بشيء» شيئاً من العذاب، فيؤول المعنى إلى ما قدّر وهو بعض بعض عذاب الله، وهذا لا يقال، لأن بعضيّة الشيء مطلقة، فلا يكون لها بعض. والظاهر أن قوله «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا» إلى آخره داخل تحت قول المستكبرين، وجاءت جُملاً بلا واو عطف كأنّ كلّ جملة أنشئت مستقلّة غير معطوفة وإن كانت مرتبطاً بعضها ببعض من جهة المعنى، لأن سؤالهم «هل أنتم مغنون عنّا» إنما كان لجزعهم ممّا هم فيه فقالوا لهم ذلك، سوّوا بينهم وبينهم في ذلك لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها، يقولون ما هذا الجزع والتوبيخ، فلا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر.

ولمّا قالوا «لو هدانا الله» أتبعوا ذلك بالإقناط من النجاة فقالوا «ما لنا من محيص» أي: منجى ومهرب جزعنا أم صبرنا. وتقدم الكلام في مثل هذه

(١) الكشاف ٢: ٣٧٣.

التسوية في البقرة[1].

والظاهر أن هذه المحاورة بين الضعفاء والرؤساء هي في موضع العرض وقت البروز بين يدي الله تعالى.

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لمّا ذكر محاورة الأتباع لرؤسائهم الكفرة، ذكر محاورة الشيطان وأتباعه من الإنس، وذلك لاشتراك الرؤساء والشيطان في التلبس بالإضلال. والشيطان هنا إبليس وهو رأس الشياطين.

ومعنى «قضي الأمر» تعيّن قوم للجنّة وقوم للنار،وذلك كله في الموقف.

و«وعد الحق» يحتمل أن يكون من إضافة الموصوف إلى صفته أي: الوعد الحق، وأن يكون «الحق» صفة الله أي: وعده، وأن يكون «الحق» الشيء الثابت وهو البعث والجزاء على الأعمال، أي: يوفّي لكم بما وعدكم ووعدتُكم خلاف ذلك فأخلفتُكم.

و«إلاّ أن دَعَوْتُكم» الظاهر أنه استثناء منقطع لأن دعاءه إياهم إلى الضلال ووسوته ليس من جنس السلطان وهو الحجة البيّنة.

«ما أنا بمصرخكم» أي: مغيثكم. «وما أنتم بمصرخيّ» أي: بمغيثيّ. وقرأ الجمهور: بمُصرخيَّ، بفتح الياء.

وقرأ يحيى [٣٠٥/أ] بن وثّاب والأعمش وحمزة بكسر الياء.

وقد طعن ناس في هذه القراءة، وما ذهبوا إليه لا يُلتفت إليه لأن هذه

(١) انظر تفسير الآية ٦ من البقرة.

قراءة متواترة نقلها [السلف] واقتفى آثارهم فيها الخلف. وقد نقل جماعة من أهل اللغة أنها لغة، لكنّه قلّ استعمالها، ونصّ قطرب على أنها لغة في بني يربوع وأنشدوا للأغلب العجلي[1]: [من الرجز]

قال لها هل لك يا تا فيِّ   قالت له ما أنت بالمرضيِّ

و«ما» في «بما أشركتموني» مصدرية. و«من قبل» متعلق بـ«أشركتموني» أي: كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم أي: في الدنيا.

«إن الظالمين لهم عذاب أليم» الظاهر أنه من تمام كلام إبليس، حكى الله عنه ما سيقوله في ذلك الوقت، ليكون تنبيهاً للسامعين على النظر في عاقبتهم والاستعداد لما لا بدّ منه. وأن يتصوّروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول، فيخافوا ويعملوا [ما يخصّلهم] منه وينجيهم.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ﴾ الآية، لمّا جمع الفريقين في قوله ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم] وذكر شيئاً من أحوال الكفّار، ذكر ما آل إليه حال المؤمنين من إدخالهم الجنة.

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: فبم يتعلّق - يعني «بإذن ربهم» - في القراءة الأخرى[3] وقولك فأُدخِلُهم أنا بإذن ربهم كلام غير ملتئم؟ قلت: الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله «بإذن ربهم» بما بعده، أي: تحيّتهم فيها

(١) الرجز للأغلب العجلي في معاني القرآن ٢: ٧٦، والخزانة ٢: ٢٥٧. وتا: منادى وهو اسم إشارة يشار به إلى المؤنث.
(٢) الكشاف ٢: ٣٧٦.
(٣) يعني بها قراءة: أُدْخِلُ، على فعل المتكلّم.

سلام بإذن ربّهم، يعني أن الملائكة يحيّونهم[١] بإذن ربهم انتهى.

ظاهر كلامه أنّ «بإذن ربهم» معمول لقوله «تحيّتهم» ولذلك قال: يعني أنّ الملائكة يحيّونهم بإذن ربهم. وهذا لا يجوز، لأن تقديم معمول المصدر المنحلّ لحرف مصدري والفعل عليه هو[٢] غير جائز.

وتقدّم تفسير «تحيّتهم فيها سلام» في أوائل يونس[٣].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ الآية، تقدم الكلام في «ضرب» مع المثل في أوائل البقرة[٤] فأغنى عن إعادته.

والكلمة الطيبة هي لا إله إلا الله، قاله ابن عباس.

---

(١) ق: يجيئونهم.

(٢) ق: وهو.

(٣) انظر تفسير الآية ١٠ من يونس.

(٤) انظر تفسير الآية ٢٦ من البقرة.

«أصلها ثابت وفرعها في السماء» يريد بالفرع أعلاها ورأسها، وإن كان المشبّه به ذا فروع فيكون من باب الاكتفاء بلفظ الجنس. ومعنى «في السماء» في جهة العلو والصّعود [لا] المظلّة. ولمّا شبّهت الكلمة الطّيبة بالشجرة، كانت الكلمة أصلها ثابت في قلوب[1] أهل الإيمان، وما يصدر عنها من الأعمال الزكيّة والأعمال الصالحة هو فرعها يصعد إلى السماء إلى الله تعالى كما قال ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر] الآية، [وما يترتب على ذلك العمل - وهو ثواب الله تعالى - هو جناها].

ووصف هذه الشجرة بأوصاف: الأول قوله «طيّبة» أي: كريمة المنبت، والأصل في الشجرة [أن تكون] لذيذة في الطعم. الثاني: رسوخ أصلها وذلك يدلّ على تمكّنها وأنّ[2] الرياح لا تقصفها فهي بطيئة الفناء. الثالث: علوّ فرعها وذلك يدلّ على تمكّن الشجرة ورسوخ عروقها وعلى بعدها عن عفونات الأرض وعلى صفائها من الشوائب. الرابع: ديمومة[3] وجود ثمرتها وحضورها في كل الأوقات. والحين في اللغة: قطعة من الزمان.

والكلمة الخبيثة: هي كلمة الكفر. والظاهر أن التشبيه وقع بشجرة غير معيّنة إذا وجدت منها هذه الأوصاف.

ومعنى ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ أي: اقتطعت جثّتها بنزع الأصول وبقيت في غاية الوهي والضعف فيقلبها[4] أقل ريح، فالكافر يرى أن بيده شيئاً، ولا يستقر، ولا يغني عنه شيئاً. «ما لها من قرار» أي: استقرار، يقال:

---

(١) ق: قول.

(٢) ق: فأن.

(٣) ق: ديموميّة.

(٤) ق: فيقبلها.

قرّ[١] الشيء [٣٠٥/ب] قراراً: ثبت ثباتاً. وهذا النوع من المجاز هو من تشبيه المعقول بالمحسوس.

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ بدأ بحال المؤمن، وتثبيتُه في الدنيا كونه لو فُتن عن دينه في الدنيا لثبت[٢] عليه وما زال، كما جرى لأصحاب الأخدود.

ثم ذكر حال الكافر بقوله «ويضلّ الله الظالمين».

ولمّا ذكر تعالى ما فعل بكل واحد من القسمين، ذكر أنه لا يمكن اعتراض [عليه] فيما خصّ به كلّ واحد منهما، إذ ذاك راجع إلى مشيئته تعالى فقال «ويفعل الله ما يشاء» لا يُسأل عمّا يفعل.

﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾. «الذين بدّلوا» ظاهره أنه عامّ في جميع المشركين. وسأل ابن عباس عمر بن الخطاب رضي الله عنهم فقال: هما الأفجران[٣] من قريش أخوالي - أي: بني مخزوم، فاستُؤصلوا ببدر - وأعمامك، أي: بني أميّة. وبدّل: يتعدى إلى اثنين أحدهما بالباء أو ما جرى مجراها. وقد تُحذف الباء، وهي هنا محذوفة تقديره: بنعمة الله، أي: بشكر نعمة الله، وتقدّم الكلام على مثل ذلك في قوله ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ۝١٠٨﴾ [البقرة].

«وأحلّوا قومهم دار البوار» أي: دار الهلاك.

و«جهنم» بدل من قوله «دار البوار». والمخصوص بالذّم محذوف

(١) ق: قرا.

(٢) ق: أثبت.

(٣) ق: الأبجران.

تقديره: وبئس القرار هي، أي: جهنم.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: زادوا إلى كفر نعمته أن[1] صيّروا له أنداداً، وهي الأصنام التي اتّخذوها آلهة من دون الله تعالى. والظاهر أنّ اللام لام الصيرورة والمآل، لما كانت نتيجة جَعْل الأنداد آلهة آل إلى الضلال. والأمر بالتّمتع أَمْرُ تهديد ووعيد.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى حال الكفار وكُفْرهم نعمته وجَعْلَهم له أنداداً وتهدّدهم، أَمَرَ المؤمنين بلزوم الطاعة والتّيقظ لأنفسهم، والتزام عمودي الإسلام الصلاة والزكاة قبل مجيء يوم القيامة. ومعمول «قل» محذوف تقديره: أقيموا الصلاة، و«يقيموا» جواب لهذا الأمر المحذوف، وعلامة الجزم فيه حذف النون.

قال ابن عطية: ويظهر أن المقول[2] هو الآية التي بعدُ، أي: قوله «الله الذي خلق السماوات والأرض» انتهى.

وهذا الذي ذهب إليه من كون معمول القول هو «الله الذي خلق» الآية،

---

(١) ق: أي.

(٢) ق: القول.

تفكيك للكلام يخالفه ترتيب التركيب، ويكون قوله «يقيموا الصلاة» كلاماً مفلتاً من القول ومعموله، [أو يكون جواباً فُصل به بين القول ومعموله]. ولا يترتب أن يكون جواباً لأن قوله تعالى «الله الذي خلق السماوات والأرض» لا يستدعي إقامة الصلاة والإنفاق إلا بعد تقدير بعيد جدًّا. وتقدّم الكلام على قوله «لا بيع فيه» في البقرة[1].

ولمّا أطال الكلام في وصف أحوال السّعداء والأشقياء، ختم وصفه بالدلائل الدالّة على وجود الصانع فقال «الله الذي خلق السماوات» الآية، وذكر أنواعاً من الدلائل فذكر أولاً إبداعه وإنشاءه السماوات والأرض، ثم أعقب بباقي الدلائل وأبرزها في جملة مستقلّة ليدلّ وينبّه على أنّ كل جملة منها مستقلّة في الدّلالة، ولم يجعل متعلّقاتها معطوفات عطف المفرد على المفرد. و«الله» مرفوع على الابتداء و«الذي» خبره.

قال ابن عطية: ويجوز أن تكون [«مِن»] لبيان الجنس، كأنه قال: فأخرج به رزقاً لكم هو الثمرات.

وهذا ليس بجيّد، لأنّ مِن التي لبيان الجنس إنما تأتي بعد المبهم الذي بيّنَتْه.

قال الزمخشري[2]: ويجوز أن يكون «من الثّمرات» مفعول «أخرج»، و«رزقاً» حالاً من المفعول أو نصباً على المصدر من «أخرج» لأنه في معنى رزق. وقيل «مِن» زائدة انتهى.

هذا لا يجوز عند جمهور البصريين، لأن ما قبلها واجب وبعدها معرفة،

---

(١) انظر تفسير الآية ٢٥٤ من البقرة.

(٢) الكشاف ٢: ٣٧٩.

ويجوز عند الأخفش.

[٣٠٦/أ] وانتصب «دائبين» على الحال، والمعنى: يدأبان في سيرهما وإنارتهما وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات.

والضمير [المنصوب] في «سألتموه» عائد على «ما» وهي موصولة بمعنى الذي. والذي يظهر أن النّعمة هو المنعَم به وأنه هو اسم جنس لا يُراد به الواحد بل يراد به الجمع كأنه قيل: وإن تعدّوا نعم الله.

ومعنى «لا تحصوها» لا تحصروها ولا تطيقوا عدّها.

والمراد بالإنسان هنا الجنس أي: توجد فيه هذه الخلال وهي الظّلم والكفر؛ يظلم النعمة بإغفال شكرها، ويكفرها بجحدها. وجاء في النحل ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ وجاءت مختتمة بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨﴾ [النحل] وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣٦ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لمّا ذكر التعجّب من الذين بدّلوا نعمة الله كفراً، وجعلوا لله أنداداً وهم قريش ومن تابعهم من

العرب الذين اتخذوا من دون الله آلهة، وكان من نعمه تعالى عليهم إسكانهم حرمه - أردف ذلك بذكر أصلهم إبراهيم وأنّه صلوات الله وسلامه عليه دعا الله تعالى أن يجعل مكّة آمنة، ودعا بأن يجنّب بنيه عبادة الأصنام(١).

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ كقوم نوح. «فمن تبعني» أي: على ديني وما أنا عليه. «فإنه مني» جعله بعضَه لفرط الاختصاص به وملابسته له. «ومن عصاني» هذا فيه طباق معنوي لأن التبعيّة طاعة. «فإنك غفور رحيم» معناه لمن عصاه لغير الشرك.

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ الآية، كرّر النداء رغبة في الإجابة وإظهار التذلّل والالتجاء إلى الله تعالى. وأتى بضمير جماعة المتكلّمين، لأنه تقدّم ذكره وذكر بنيه في قوله ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم].

و«من ذريتي» هو إسماعيل ومن ولد منه. وذلك أن هاجر لمّا ولدت إسماعيل، غارت منها سارة، فروي أنه ركب البُراق هو وهاجر والطفل، فجاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكّة، فنزل وأنزل ابنه وأَمَتَه هنالك، وركب منصرفاً من يومه ذلك، وكان هذا كلّه بوحي من الله تعالى. فلما ولّى دعا بما في ضمن هذه الآية. و«مِن» للتبعيض لأن إسحاق كان بالشام. والوادي: ما بين الجبلين وليس من شرطه أن يكون فيه ماء، وإنما قال «غير ذي زرع» لأنه كان علم أنّ الله لا يضيّع هاجر وابنها في ذلك الوادي، وأنه يرزقهما الماء.

«ليقيموا» متعلق بـ«أسكنت». و«ربّنا» دعاء معترض. والمعنى أنه لا يخلو

---

(١) ق: الأرض.

هذا البيت المعظم من العبادة، و«مِن» للتبعيض.

قال الزمخشري[1]: «بواد» هو وادي مكة. «غير ذي زرع» لا يكون فيه شيء من زرع قطّ كقوله ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ۝٢٨﴾ [الزمر] بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج ما فيه إلا استقامة لا غير انتهى.

استعمل قطّ وهو ظرف لا يستعمل إلا مع الماضي معمولاً لقوله: لا يكون، وهو ليس ماضياً. وهو مكانَ: أبداً الذي يستعمل فيه مع غير الماضي من المستقبلات.

و«أفئدة» هو على حذف مضاف تقديره: ذوي أفئدة من الناس. [وأصل الهُوِيّ أن يكون من علوّ.

قال الزمخشري[2]: ويجوز أن تكون «مِن» للابتداء كقولك: القلب مني سليم، تريد: قلبي، فكأنه قيل: أفئدة ناس. وإنّما نكّرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة، لأنها في الآية نكرة ليتناول[3] بعض الأفئدة انتهى.

لا يظهر كونها لابتداء الغاية، لأنه ليس لها فعل يُبتدأ به لغاية ينتهي إليها؛ إذ لا يصحّ ابتداءَ جَعْلُ الأفئدة من الناس].

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ الآية، كرّر النداء للتضرّع والالتجاء، ولا يظهر تفاوت بين إضافة «ربّ» إلى ياء المتكلم وبين إضافته إلى جمع المتكلّم.

---

(١) الكشاف ٢: ٣٨٠.

(٢) الكشاف ٢: ٣٨٠.

(٣) ق: لتناول.

و«ما نخفي وما نعلن» عامّ فيما يخفونه ويعلنونه، ثم أتى بأعمّ منه وهو قوله تعالى «وما يخفى على الله من شيء».

والظاهر أن هذه الجمل التي تكلّم بها إبراهيم عليه السلام لم تقع منه في زمان واحد، وإنّما [٣٠٦/ب] حكى الله تعالى عنه ما وقع منه في أزمان مختلفة، يدلّ على ذلك أن إسحاق لم يكن موجوداً حالة دعائه إذ ترك هاجر والطفل بمكة. والظاهر أن حَمْده الله تعالى على هبة ولديه كان بعد وجود إسحاق. و«على الكبر» يدلّ على مطلق الكبر، ولم يتعيّن لتُعَيَّن المدةُ التي وُهب له فيها ولداه. وروي أنه وُلد [له] إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مئة واثنتي عشرة سنة.

قال الزمخشري[1]: ويجوز أن يكون من إضافة فعيل إلى فاعله، ويجعل دعاء الله سميعاً على الإسناد المجازي والمراد سماع الله، انتهى. هذا بعيد لاستلزامه أن يكون من باب الصفة المشبّهة، والصفة متعدّية، ولا يجوز ذلك إلا عند أبي علي الفارسي حيث لا يكون لبس، وأمّا هنا فاللبس حاصل؛ إذ الظاهر أنه من إضافة المثال للمفعول لا من إضافته إلى الفاعل. وإنما أجاز ذلك الفارسي في مثل: زيد ظالم العبيد، إذا علم أن له عبيداً ظالمين.

والظاهر أن إبراهيم عليه السلام سأل[2] المغفرة لأبويه القريبين وكانت أمّه مؤمنة وكان والده لم ييأس من إيمانه، ولم يتبين له عداوة الله تعالى.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ

(١) الكشاف ٢: ٣٨١.
(٢) ق: سأل.

هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا
لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ
لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ
وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ
ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ
ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ
فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ
كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ
وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا﴾ الآية، الخطاب بقوله «ولا تحسبنّ» للسامع الذي يمكن منه حسبان مثل هذا، لجهله بصفات الله تعالى، لا للرسول عليه السلام، لأنه مستحيل ذلك في حقّه. وفي هذه الآية وعيد عظيم للظالمين.

ومعنى «مهطعين» مسرعين. ومعنى «مقنعي رؤوسهم» وجوه الناس يومئذ إلى السماء، لا ينظر أحد إلى أحد.

ومعنى «أفئدتهم هواء» أي: اضطراب أفئدتهم وجيشانها في الصدور، وأنها تجيء وتذهب وتبلغ على ما رُوي حناجرهم، فهي في ذلك كالهواء الذي هو أبداً في اضطراب. وحصول هذه الصفات الخمس للظالمين قيل عند المحاسبة، بدليل ذكرها عقيب قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم].

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الآية، هذا خطاب لرسول الله ﷺ. و«يوم» منصوب على أنه مفعول ثانٍ «لأنذر» ولا يصحّ أن يكون ظرفاً، لأن

ذلك اليوم ليس بزمان الإنذار وهذا اليوم هو يوم القيامة.

«وأنذر الناس» الظالمين، وبيّن ذلك قوله «فيقول الذين ظلموا» لأن المؤمنين يُبشَّرون ولا يُنذَرون.

«أوَلم تكونوا» هو على إضمار القول، والظاهر أن التقدير: فيقال لهم، والقائل الملائكة أو الباري تعالى. يُوبَّخون ويُذكَّرون بذلك مقالتهم في إنكار البعث وإقسامهم على ذلك كما قال تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۝٣٨﴾ [النحل].

قال الزمخشري[1]: «أولم تكونوا أقسمتم» على إرادة القول وفيه وجهان: أن يقولوا ذلك بطراً وأشراً ولِمَا استولى عليهم من عادة الجهل والسّفه، وأن يقوله[2] بلسان الحال حيث بَنَوْا شديداً وأمّلوا بعيداً. و«ما لكم» جواب القسم، وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله «أقسمتم» ولو حكى لفظ المُقْسِمين لقال: ما لنا من زوال. والمعنى أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزولون بالموت والفناء، وقيل: لا تنتقلون إلى دار أخرى انتهى.

جَعْلُ الزمخشري «أوَ لم تكونوا» محكيًا بقولهم مخالف لما قدّمناه. وقوله: لا تزولون بالموت والفناء ليس بجيد؛ لأنهم مُقرّون بالموت والفناء، وقيل: هو قول مجاهد. ومعنى «ما لكم من زوال» من الأرض بعد الموت أي: لا نُبعث من القبور.

«وسكنتم» إن كان من السكون فالمعنى أنهم قرّوا فيها واطمأنّوا طيّبي النفوس سائرين سيرة مَن [٣٠٧/أ] قَبْلَهم في الظلم والفساد، لا يحدثونها

---

(١) الكشاف ٢: ٣٨٣.

(٢) ق: يقولوا.

بما لقي الظالمون قبلهم.

«وتبيّن لكم» بالخبر والمشاهدة ما فعلنا بهم من الهلاك والانتقام.

«وضربنا لكم الأمثال» أي: صفات ما فعلوا وما فُعل بهم وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم.

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ الآية، الظاهر أن الضمير في «مكروا» عائد على المخاطَبين في قوله ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم]، أي: مكروا بالشرك بالله تعالى وتكذيب الرسل. ومعنى «مكرهم» المكر العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم. والظاهر أن هذا إخبار من الله تعالى لنبيّه بما صدر منهم(١) في الدنيا وأنه(٢) ليس مقولاً في الآخرة. والظاهر إضافة «مكرهم» وهو المصدر إلى الفاعل كما هو مضاف في الأول [إليه] كأنه قيل: وعند الله [ما] مكروا، أي: مكرهم.

وقال الزمخشري(٣): أو يكون مضافاً إلى المفعول على معنى: وعند الله مكرهم الذي يمكرهم [به] وهو عذابهم الذي يستحقّونه، يأتيهم من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون انتهى.

هذا لا يصح إلا إن كان «مَكَرَ» يتعدّى بنفسه كما قدّر هو: يمكرهم به. والمحفوظ أنّ مكر(٤) [لا] يتعدّى إلى مفعول بنفسه، قال تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال] ولا يُحفظ: زيد ممكور، وإنما يقال:

---

(١) ق: منه.

(٢) ق: ولأنه.

(٣) الكشاف ٢: ٣٨٣.

(٤) ق: مكره.

ممكور[(١)] به.

وقرىء: لَتزولُ، بفتح اللام الأولى وضمّ الثانية، ولِتزولَ، بكسر اللام الأولى وفتح الثانية.

والذي [يظهر أنّ] زوال الجبال مجاز، ضُرب مثلاً لمكر قريش وعِظَمه، والجبال لا تزول. وهذا من باب الغلوّ والإيغال والمبالغة في ذمّ مكرهم.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ هذا الوعد هو قوله تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر]. «إن الله عزيز» لا يمتنع عليه شيء ولا يُغالَب. «ذو انتقام» من الكفرة لا يعفو عنهم.

والتبديل يكون في الذات أي: تزول ذات وتجيء أخرى، ومنه ﴿ بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]، ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴿١٦﴾ ﴾ [سبأ]. ويكون في الصفات كقولك: بدّلت الحلقة خاتماً، فالذات لم تفقد لكنها انتقلت من شكل إلى شكل. واختلفوا في التبديل هنا أهو في الذات أو هو في الصفات وقال ابن عباس: تُمَدّ كما يُمَدّ الأديم وتُزال عنها جبالها وآكامها وشجرها وجميع ما فيها حتى تصير مستوية ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه]. وتُبدّل[(٢)] السماوات بتكوير شمسها وانتثار[(٣)] كواكبها وانشقاقها وخسوف قمرها.

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ «مقرنين» مشدودين في القرن أي: مقرون بعضهم مع بعض في القيود والأغلال. والظاهر تعلّق «في

(١) ق: منكور، في الموضعين.

(٢) ق: وينذر.

(٣) ق: انتشار.

الأصفاد» بقوله[١] «مقرّنين» [أي]: يقرّنون في الأصفاد.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ السرابيل: القمص، فيجمع عليهم الأربع: لذع القطران وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوَحِش[٢]، ونتن الرّيح.

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ﴾ متعلق بقوله ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم]، و«ترى المجرمين» جملة معترضة بينهما.

و«كل نفس» عامٌّ في الطائعة والعاصية.

«ما[٣] كسبت» في حياتها من طاعة ومعصية فيثيب الطائعة ويعاقب العاصية.

«إن الله سريع الحساب» [تقدم شرحه[٤]].

والإشارة «بهذا» إلى ما ذكره تعالى من قوله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾ إلى قوله ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[٥]]. ومعنى «بلاغ» كفاية في الوعظ والتذكير. فالإشارة «بهذا» إلى إعلام الله تعالى بما يجزي في الآخرة.

«ولينذَروا» وما بعده متعلق بمحذوف يدلّ عليه ما تقدّم، تقديره: فأعلَمْنا

---

(١) ق: لقوله.

(٢) ق: والوحش.

(٣) ق: بما.

(٤) انظر تفسير الآية ٢٠٢ من البقرة، والآية ١٩، ١٩٩ من آل عمران، والآية ٤ من المائدة.

(٥) الآيات ٤٢ - ٥١ المتقدمة.

به ليُنذَروا به. «وليعلموا أنما هو» الضمير في «هو» عائد على الله تعالى، هو المتصرّف في ذلك اليوم وغيره وهو المتوحّد بالألوهية.

[٣٠٧/ب] «وليذّكر أولو الألباب» هم أرباب العقول.

سورة إبراهيم عليه السلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾.

هذه السورة مكيَّة كلُّها في قول الجمهور، وعن ابن عباس وقتادة: هي مكيَّة إلا من قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٢٨] إلى قوله: ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [الآية: ٣٠][(١)].

وارتباط أول هذه السورة بالسورة[(٢)] قبلَها واضحٌ جدًّا، لأنه ذُكر فيها: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ ثم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ ثم ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾. فناسبَ هذا قولَه: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾.

وأيضاً فإنَّهم لمَّا قالوا على سبيل الاقتراح: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وقيل له: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أنزل: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ كأنه قيل: أوَلَمْ يَكْفِهم من الآيات كتابٌ أنزلناه إليك لتخرجَ الناسَ من الظلمات، وهي الضلال، إلى النور، وهو الهدى؟

وجوَّزُوا في إعراب «الر» أن يكون في موضع رفع بالابتداء، و«كتاب» الخبر،

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ١٠٢، وهو في تفسير الثعلبي ٣/ ٤٥٤ دون نسبة.
(٢) في (ح) و(د١): بآخر السورة.

أو في موضع رفع على خبر مبتدأ محذوف تقديرُه: هذه الر، وفي موضع نصب على تقدير: الْزَمْ أوِ اقْرَأْ الر، و«كتابٌ أنزلناه إليك» جملة مفسِّرة في هذين الإعرابين، و«كتاب» مبتدأ، وسَوَّغَ الابتداءَ به كونُه موصوفاً في التقدير، أيْ: كتابٌ أيُّ كتاب[١]، أي: عظيمٌ أنزلناه إليك.

وجوَّزُوا أن يكون «كتاب» خبر مبتدأ محذوف تقديرُه: هذا كتاب، و«أنزلناه» جملة في موضع الصفة.

وفي قوله: «أنزلناه» وإسنادِ الإنزال إلى نون العظَمة ومخاطبتهِ تعالى بقوله: «إليك» وإسنادِ الإخراج إليه عليه الصلاة والسلام تنويهٌ عظيمٌ وتشريفٌ له ﷺ من حيث المشاركةُ في تحصيل الهداية بإنزاله تعالى وبإخراجه عليه الصلاة والسلام، إذ هو الداعي والمنذر، وإن كان في الحقيقة مخترعُ الهداية هو الله تعالى. و«الناس» عامٌّ، إذ هو مبعوثٌ إلى الخلق كلِّهم. والظلماتُ والنورُ مستعارانِ للكفر والإيمان.

ولمَّا ذكرَ علَّةَ إنزال الكتاب ـ وهي قولُه: «لتُخرِجَ» ـ قال: «بإذن ربِّهم» أي: ذلك الإخراجُ بتسهيلِ مالكِهم الناظرِ في مصالحهم، إذْ هم عبيدُه، فناسبَ ذِكْرُ الربِّ هنا تنبيهاً على مِنَّةِ المالك وكونِه ناظراً في حال عبيده.

و«بإذن» ظاهرُه التعلُّق بقوله: «لتُخرِجَ»، وجوَّزَ أبو البقاء أن يكون «بإذنِ ربِّهم» في موضع الحال، قال: أي: مأذوناً لك[٢].

وقال الزمخشري[٣]: «بإذن ربِّهم»: بتسهيلِه وتيسيرِه، مستعارٌ من الإذْن الذي هو تسهيلُ الحِجاب، وذلك ما يمنحُهم من اللطف والتوفيق. انتهى. وفيه دسيسةُ الاعتزال.

والظاهر أنَّ قوله: «إلى صراط» بدل من قوله: «إلى النور»، ولا يضرُّ هذا الفصل بين المبدَل منه والبدَل؛ لأنَّ «بإذْن» معمول للعامل في المبدَل منه، وهو «لِتُخْرِجَ».

---

(١) قوله: أيُّ كتاب، سقط من (د١) و(ح) ومطبوع البحر.
(٢) الإملاء ٢/ ٦٥.
(٣) الكشاف ٢/ ٣٦٥.

وأجازَ الزمخشريُّ أن يكون «إلى صراط» على وجه الاستئناف، كأنه قيل: إلى أيِّ نور؟ فقيل: إلى صراط العزيز الحميد.

وقرئ: «لِيَخْرُجَ» مضارع خَرَجَ، بالياء بنقطتين من تحتها[١]، و«الناسُ» رفعٌ به.

ولما كان قولُه: «إلى النور» فيه إبهامٌ مَّا أوضحَه بقوله: «إلى صراط». ولمَّا تقدَّم شيئان: أحدُهما إسنادُ إنزالِ هذا الكتاب إليه، والثاني إخراجُ الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربِّهم؛ ناسبَ ذكرُ هاتين الصفتين صفةَ العزَّة المتضمِّنةَ للقدرة والغلَبة؛ وذلك من حيث إنزالُ الكتاب، وصفةَ الحمد المتضمِّنةَ استحقاقَه الحمدَ من حيث الإخراجُ من الظلمات إلى النور، إذِ الهدايةُ إلى الإيمان هي النِّعمةُ التي يجبُ على العبد الحمدُ عليها والشكر، وتقدَّمت صفة العزيز لتقدُّمِ ما دلَّ عليها، وتَلَتْها صفة الحميد لِتلُوِ ما دلَّ عليها.

وقرأ نافع وابنُ عامر: «اللهُ» بالرفع، فقيل: مبتدأ خبرُه «الذي»، وقيل: خبر مبتدأ[٢] محذوف، أي: هو الله، وهذا الإعراب أمكنُ لظهورِ تعلُّقِه بما قبلَه وتفلُّتِه على التقدير الأول. وقرأ باقي السبعة والأصمعي عن نافع: «اللهِ» بالجرّ على البَدَل في قول ابنِ عطية والحَوْفيّ وأبي البقاء[٣]، وعلى عطف البيان في قول الزمخشري، قال[٤]: لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي يحقُّ له العبادة كما غلب النجم على الثُّريَّا. انتهى. وهذا التعليل لا يتمُّ إلا على تقدير أن يكون أصلُه: الإله، ثم نُقلت الحركة إلى لام التعريف وحُذفت الهمزة والتُزِمَ فيه النقل والحذف، ومادتُه إذ ذاك الهمزة واللام والهاء. وقد تقدَّمت الأقوال في هذا اللفظ في البسملة أولَ «الحمد».

وقال الأستاذ أبو الحسن بنُ عصفور: لا تُقدَّمُ صفةٌ على موصوف إلا حيث سُمع، وذلك قليل، وللعرب فيما وُجد من ذلك وجهان:

---

(١) المصدر السالف. وهي في القراءات الشاذة ص٦٨ رواية عن ابن عامر وأبي الدرداء.
(٢) قوله: «خبره الذي وقيل خبر مبتدأ» من (ز١) و(به) وسقط من النسخ الأخرى والمطبوع.
(٣) الإملاء ٢/ ٦٥، وقولُ ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٢، وذكرَ فيه روايةَ الأصمعي عن ابن عامر. وينظر السبعة ص٣٦٢، والتيسير ص١٣٤.
(٤) الكشاف ١/ ٣٦٥.

أحدُهما: أن تُقدِّمَ الصفة وتُبقِيَها على ما كانت عليه، وفي إعراب مثلِ هذا وجهان: أحدُهما: إعرابُه نعتاً مقدَّماً، والثاني: أن يُجعل ما بعد الصفة بدلاً.

والوجه الثاني: أن تضيف الصفة إلى الموصوف إذا قدَّمْتَها. انتهى.

فعلى هذا الذي ذكره ابنُ عصفور يجوز أن يكون «العزيزِ الحميدِ» يُعربان صفتين متقدِّمتين، ويعرب لفظ «الله» موصوفاً متأخراً، وممَّا جاء فيه تقديمُ ما لو تأخَّر لكان صفة وتأخيرُ ما لو تقدَّم لكان موصوفاً قولُ الشاعر:

والمؤمنِ العائذاتِ الطَّيْرَ تمسحُها[1] ركبانُ مكةَ بين الغِيلِ والسَّعَدِ[2]

فلو جاء على الكثير لكان التركيب: والمؤمنِ الطيرَ العائذاتِ.

وارتفع «وَيْلٌ» على الابتداء، و«للكافرين» خبرُه، لمَّا تقدَّم ذكر الظلمات دعا بالهَلَكة على مَنْ لم يخرج منها. و«من عذاب شديد» في موضع الصفة لـ «وَيْل»، ولا يضرُّ الفصلُ بالخبر بين الصفة والموصوف، ولا يجوز أن يكون متعلّقاً بـ «وَيْل» لأنه مصدر، ولا يجوز الفصل بين المصدر وما يتعلّق به بالخبر.

ويظهر من كلام الزمخشريّ أنه ليس في موضع الصفة؛ قال: فإنْ قلت: ما وَجْهُ اتصال قوله: «من عذاب شديد» بالوَيْل؟ قلت: لأن المعنى أنهم يُوَلْوِلُونَ من عذاب شديد ويَضِجُّون منه ويقولون: يا وَيْلاه، كقوله: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]. انتهى. وظاهرُه يدلُّ على تقدير عاملٍ يتعلَّق به «من عذابٍ شديد»، ويحتمل هذا العذاب أن يكون واقعاً بهم في الدنيا أو واقعاً بهم في الآخرة.

والاستحبابُ الإيثار والاختيار، وهو استفعال من المحبَّة، لأنَّ المُؤْثِرَ للشيء على غيره كأنَّه يطلب من نفسه أن يكونَ أحبَّ إليها وأفضلَ عندها من الآخر[3]،

(١) المثبت من (ز٢)، وفي النسخ الأخرى: يمسحها، غير (به) فاللفظة فيها مهملة من النقط.
(٢) البيت للنابغة، وهو في ديوانه ص٣٥. قوله: المؤمن، يعني الله عزَّ وجلَّ، والعائذات: ما عاذَ من الطير بالبيت، والغِيل والسَّعَد: أجَمَتان كانتا بين مكة ومنى. كذا نقله النحاس في شرح المعلَّقات التسع ٢/ ٧٦٠ عن أبي عبيدة، وذكر أن رواية الأصمعي: بين الغَيْل والسَّنَدِ، ونقل عنه أن الغَيْلَ بالفتح الماءُ، وأنَّ النابغة عَنَى به ماءً كان يخرجُ من أبي قُبَيْس.
(٣) الكشاف ١/ ٣٦٦، وفيه: من الآخرة.

ويجوز أن يكون «استفعلَ» بمعنى «أفعلَ» كاستجابَ وأجابَ، ولمَّا ضمن معنى الإيثار عُدِّيَ بـ «على».

وجوَّزُوا في إعراب «الذين» أن يكون مبتدأ خبرُه «أولئك في ضلال بعيد»، وأن يكون مقطوعاً على الذّمّ إمَّا خبرَ مبتدأ محذوف، أي: هم الذين، وإمَّا منصوباً بإضمار فعل تقديرُه: أذُمُّ، وأن يكون بدلاً، وأن يكون صفة للكافرين. ونصَّ على هذا الوجه الأخير الحَوْفيُّ والزمخشريّ وأبو البقاء، وهو لا يجوز لأنَّ فيه الفصلَ بين الصفة والموصوف بأجنبي منهما، وهو قوله: «من عذاب شديد» سواءٌ أكان «من عذابٍ شديد» في موضع الصفة لـ «وَيْل» أم متعلّقاً بفعل محذوف، أي يَضِجُّون ويُوَلْوِلُون من عذاب شديد، ونظيرُه إذا كان صفة أن تقول: الدارُ لزيدٍ الحسنةُ القرشيّ. فهذا التركيبُ لا يجوز لأنك فصلتَ بين زيد وصِفتِه بأجنبيّ منهما، وهو صفة الدار، والتركيب الفصيح أن تقول: الدارُ الحسنةُ لزيدٍ القرشيّ، أو الدارُ لزيدٍ القرشيّ الحسنةُ.

وقرأ الحسن: «ويُصِدُّون» مضارع «أَصَدَّ» الداخل عليه همزة النقل من «صَدَّ» اللازم صدوداً[(١)].

وتقدَّم الكلام على قوله تعالى: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ في آل عمران [٩٩] وعلى وصف الضلال بالبعد.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾.

سببُ نزولها أنَّ قريشاً قالوا: ما بالُ الكتب كلِّها أعجمية، وهذا عربيّ؟ فنزلت[(٢)].

وساق قصة موسى أنه تعالى أرسلَه إلى قومه بلسانه أنْ أخرِجْ قومَك من

(١) القراءات الشاذة ص٦٨، والكشاف ١/ ٣٦٦.
(٢) زاد المسير ٤/ ٣٤٥.

الظلمات إلى النور كما أرسلكَ لتُخرجَ الناسَ من الظلمات إلى النور.

والظاهر أنَّ قولَه: «وما أرسلنا من رسول» العموم، فيندرجُ فيه الرسول عليه الصلاة والسلام، فإن كانت الدعوة عامّة للناس كلِّهم أو اندرجَ في اتِّباع ذلك الرسول مَنْ ليس من قومه كان مَنْ لم تكن لُغتُهُ لغةَ ذلك النبيِّ موقوفاً على تعلُّم تلك اللغة حتى يفهمها، أو أن يرجع في تفسيرها إلى مَنْ يعلمُها.

وقيل: في الكلام حذف تقديرُه: وما أرسلنا من رسول قبلَك إلا بلسان قومه، وأنتَ أرسلناك للناس كافَّة بلسان قومك، وقومُك يُترجمون لغيرهم بألسنتهم. ومعنى «بلسان قومه»: بلغة قومه.

وقرأ أبو السَّمَّال وأبو الجَوْزاء وأبو عِمْران الجَوْنيّ: «بِلِسْنِ» بإسكان السين[1]؛ قالوا: هو كالرِّيش والرِّياش.

وقال صاحب «اللوامح»: واللِّسْنُ خاصٌّ باللغة، واللسانُ قد يقع على العضو وعلى الكلام. وقال ابنُ عطيَّة مثلَ ذلك، قال: اللسانُ في هذه الآية يُراد به اللغة، ويقال: لِسْن ولِسان في اللغة، وأمَّا العضو فلا يقال فيه: لِسْن[2]. وقرأ أبو رجاء وأبو المتوكِّل والجَحْدريّ: «بلُسُن» بضمّ اللام والسين[3]، وهو جمع لسان، كعِماد وعُمُد، وقرئ أيضاً بضم اللام وسكون السين، خُفِّف، كرُسُل ورُسْل.

والضمير في «قومه» عائد على «رسول» أي: قوم ذلك الرسول. وقال الضحَّاك: والضمير في «قومه» عائد على محمد ﷺ. قال: والكتبُ كلُّها نزلت بالعربية، ثم أدَّاها كلُّ نبيّ بلغةِ قومه. قال الزمخشري[4]: وليس بصحيح لأنَّ قوله: «ليُبيِّن لهم» ضمير القوم، وهم العرب، فيؤدِّي إلى أنَّ الله أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبيِّن للعرب. وهذا معنى فاسد. انتهى.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٨ عن أبي السَّمَّال والأعمش، وزاد المسير ٤/ ٣٤٥ عن أبي الجوزاء وأبي عمران، والكشاف ٢/ ٣٦٦ دون نسبة، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٢٣ عن أبي السَّمَّال.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٣.

(٣) زاد المسير ٤/ ٣٤٥، والكشاف ٢/ ٣٦٧ (دون نسبة). ونسبت في القراءات الشاذة ص٦٨ لجناح بن حبيش.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٦٧، وفيه قول الضحَّاك السالف.

وقال الكلبيّ: جميعُ الكتب تأدَّت إلى جبريل بالعربية، وأمرَه تعالى أن يأتيَ رسولَ كلٍّ قومٍ بلغتهم.

وأورد الزمخشريّ هنا سؤالاً وابنُ عطية آخَرَ؛ هما[١] في كتابيهما. ونقول: قامت الحجَّة على البشر بإذعان الفصحاء الذين يُظَنُّ بهم القدرةُ على المعارضة وإقرارِهم بالعجز كما قامت بإذعان السَّحَرة لموسى والأطبَّاء لعيسى عليهما السلام. وبيَّن تعالى العِلَّةَ في كون مَنْ أرسلَ من الرُّسل بلغةِ قومِه، وهي التبيينُ لهم، ثم ذكرَ أنه تعالى يضلُّ مَنْ يشاء إضلالَهُ، ويهدي من يشاء هِدايتَه، فليس على ذلك الرسول غيرُ التبليغ والتبيين، ولم يُكَلَّفْ أن يهديَ، بل ذلك بيد الله على ما سبق به قضاؤه، وهو العزيزُ الذي لا يغالَبُ، الحكيمُ الواضعُ الأشياءَ على ما اقتضته حكمتُه وإرادتُه.

وقال الزمخشري[٢]: والمرادُ بالإضلال التخليةُ ومنعُ الألطاف، وبالهداية التوفيقُ واللطفُ، وكان ذلك كنايةً عن الكفر والإيمان «وهو العزيزُ» فلا يُغْلَبُ على مشيئته، «الحكيمُ» فلا يَخذُلُ إلا أهلَ الخِذْلان، ولا يلطفُ إلا بأهل اللطف. انتهى. وهو على طريقة الاعتزال.

والجمهور على تفسير قوله: «بآياتنا» أنها تِسْعُ الآيات التي أجراها الله على يد موسى عليه السلام[٣].

وقيل: يجوز أن يُراد بها آياتُ التوراة، والتقدير: كما أرسلناك يا محمدُ بالقرآن بلسان عربيّ، وهو آياتُنا، كذلك أرسلنا موسى بالتوراة بلسان قومِه.

و«أنْ أَخْرِجْ» يحتمل «أَنْ» أن تكون مفسِّرة وأن تكون مصدرية، ويضعفُ زَعْمُ من زعمَ أنها زائدة. وفي قوله: «قَوْمَكَ» خصوصٌ لرسالته إلى قومه بخلاف «لتُخْرِجَ الناسَ».

---

(١) في (ح) و(د١): انظره، بدل: آخرَ هُما.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٦٧.

(٣) مثل العصا واليد والطوفان. . . ، وهو قول مجاهد، ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٥٩٣-٥٩٤، والنكت والعيون ٣/ ١٢٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٢٣.

والظاهر أنَّ قومه هم بنو إسرائيل، وقيل: القِبْط، فإن كانوا القِبْطَ فالظلمات هنا الكفر، والنور الإيمان، وإن كانوا بني إسرائيل وقلنا إنهم كلَّهم كانوا مؤمنين؛ فالظلماتُ ذُلُّ العبوديَّة، والنورُ العزَّةُ بالدِّين وظهورُ أمرِ الله، وإن كانوا أشياعاً متفرِّقين في الدِّين قومٌ مع[1] القِبْط في عبادة فرعون وقومٌ على غير شيء؛ فالظلمات الكفرُ والنورُ الإيمان[2].

قيل: وكان موسى مبعوثاً إلى القِبْط وبني إسرائيل. وقيل: إلى القِبْط بالاعتراف بوحدانية الله وأن لا يُشْرَكَ به، والإيمانِ بموسى وأنه نبيٌّ من عند الله، وإلى بني إسرائيل بالتكليف بفروع[3] شريعته إذ كانوا مؤمنين.

ويحتمل «وذَكِّرْهُمْ» أن يكون أمراً مستأنَفاً، وأن يكون معطوفاً على «أَخْرِجْ»[4] فيكون في حَيِّز «أنْ».

و«أيَّامُ الله» قال ابن عبَّاس ومجاهد وقتادة: نِعَمُ اللهِ عليهم[5]. ورواه أُبيّ مرفوعاً[6]. ومنه قول الشاعر:

وأيامٍ لنا[7] غُرٌّ طِوالٍ ... عَصَيْنا المَلْكَ فيها أنْ نَدِينا[8]

وعن ابن عباس أيضاً ومقاتل وابن زيد: وقائعُه ونَقِماتُه في الأمم الماضية[9]، ويقال: فلان عالِمٌ بأيَّام العرب، أي: وقائِعها وحُروبِها ومَلَاحِمها، كيوم ذي قار،

---

(١) في (يه): من.
(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٣-٣٢٤.
(٣) في (أ) و(د١) و(د٢) و(ع) والمطبوع: وبفروع. والمثبت من (ح) و(ز١) و(يه).
(٤) المثبت من (ز١) و(يه)، وفي النسخ الأخرى: أن أخرج.
(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٥٩٦-٥٩٧، والنكت والعيون ٣/ ١٢٢، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٠٦.
(٦) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١١٢٨).
(٧) ضبط في (ح) و(ز١): وأيامٌ لنا، ولم أقف على من ضبَطَه كذلك، إنما ذُكر فيه أن قوله: «أيام» معطوف على قوله قبلَه: «بأنَّا»، أو أن تُجعل الواو بدلاً من «رُبَّ».
(٨) البيت لعمرو بن كلثوم التغلبي، والبيت من معلَّقته. ينظر شرحُها لابن كيسان ص٥٩، وشرح القصائد التسع للنحاس ٢/ ٦٢٩، وروايتُه فيهما: وأيامٍ لنا ولهم طوالٍ. وذكر له صاحب اللسان (دين) أيضاً رواية: وأياماً لنا غُرًّا كراماً.
(٩) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٥٩٧، وزاد المسير ٤/ ٣٤٦، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٠٧.

ويوم الفِجَار، ويوم قِضَّة وغيرِها[١]. ورُويَ نحوه عن مالك؛ قال: بلاؤه[٢]. وقال الشاعر:

وأيامُنا مشهورةٌ في عَدُوِّنا[٣]

أي: وقائعُنا.

وعن ابن عباس أيضاً: نَعماؤه وبلاؤه. واختاره الطبري[٤]، فنَعْماؤه بتظليلِهِ عليهم الغَمام وإنزالِ المنّ والسَّلْوَى وفَلْقِ البحر، وبلاؤه باستعباد فرعون لهم، وتذبيح أبنائهم، وإهلاك القرون قبلَهم.

وفي حديث أُبَيّ في قصَّة موسى والخَضِر: «بينما موسى عليه السلام في قومه يُذَكِّرُهُم بأيَّام الله، وأيامُ الله بلاؤه ونَعماؤه» واختار الطبريّ هذا القول الأخير[٥].

ولفظة الأيام تعمُّ المعنَيَيْن، لأنَّ التذكير يقعُ بالوجهين جميعاً، وفي هذه اللفظة تعظيمُ الكوائن المذكَّر بها، وعبَّر عنها بالظرف الذي وقعَتْ فيه، وكثيراً ما يقع الإسنادُ إلى الظروف، وفي الحقيقة الإسنادُ لغيرها كقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] ومن ذلك قولهم: يومٌ عَبُوس، ويومٌ عَصِيب، ويوم بسَّام، والحقيقةُ وصفُ ما وقعَ فيه من شدَّةٍ أو سرور.

والإشارة بقوله: «إن في ذلك» إلى التذكير بأيَّام الله، و«صَبَّار» و«شَكُور» صفتا مبالغة، وهما مشعرتان بأنَّ «أيام الله» المرادُ بهما[٦] بلاؤه ونَعْماؤه، أي: صَبَّارٍ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٧. ويوم ذي قار يومٌ انتصر فيه العرب على الفُرس، ويوم الفِجار، أو أيام الفِجار كانت فيها وقائع بين الأوس والخزرج، ويوم قِضَّة هو اليوم الخامس من الأيام التي اشتدَّت فيها الحرب بين بكر وتغلب. ينظر الكامل في التاريخ ١/ ٤٨٢ و٥٣٧ و٦٧٦-٦٧٨.

(٢) تفسير القرطبي ١٢/ ١٠٧.

(٣) هو صدر بيت للسَّمَوْأَل، كما في ديوان المعاني ١/ ٣٧، ومنتهى الطَّلَب من أشعار العرب ٨/ ١٧٤، وهو فيه ضمن قصيدة له، ونُسب في الحماسة ١/ ١١٠ (بشرح المرزوقي) لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، قال: ويقال إنه للسموأل، وعَجُزُه: لها غُرَرٌ معلومةٌ وحُجُولُ.

(٤) تفسيره ١٣/ ٥٩٤.

(٥) الحديث في صحيح مسلم (٢٣٨٠): (١٧٢). وسلف كلام المصنف عن اختيار الطبري.

(٦) في (ح) و(د١): بها.

على بلائه، شكورٍ لِنَعْمائه، فإذا سمعَ بما أنزل الله من البلاء على الأمم أو بما أفاضَ عليهم من النِّعَم؛ تنبَّه على ما يجبُ عليه من الصبر إذا أصابه بلاء، ومن الشكر إذا أصابَتْه نَعْماء[١].

وخصَّ الصَّبَّارَ والشَّكُورَ، لأنَّهما هما اللذان ينتفعان بالتذكير والتنبيه ويتَّعظان به.

وقيل: أراد لكلِّ مؤمنٍ ناظرٍ لنفسه؛ لأنَّ الصبر والشكر من سجايا أهل الإيمان[٢].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾.

لمَّا تقدَّم أمرُهُ تعالى لموسى بالتذكير بأيَّام الله؛ ذكَّرَهم بما أنعم تعالى عليهم من نجاتهم من آل فرعون، وفي ضمنها تعدادُ شيء ممَّا جرى عليهم من نَقِمات الله.

وتقدَّم إعرابُ «إذ» في نحو هذا التركيب في قوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ [آل عمران: ١٠٣] وتفسيرُ نظير هذه الآية إلا أنَّ هنا: «ويُذَبِّحُونَ» بالواو، وفي البقرة [٤٩] بغير واو، وفي الأعراف [١٤١] «يُقَتِّلون» فحيث لم يُؤت بالواو؛ جُعل الفعل تفسيراً لقوله: «يَسُومُونكم» وحيث أتى بها دلَّ على المغايرة، وأنَّ سَوْمَ سوءِ العذاب كان بالتذبيح وبغيره[٣]، وحيث جاء «يُقَتِّلُون» جاء باللفظ المطلق المحتمل للتذبيح ولغيره من أنواع القتل.

وقرأ ابنُ محيصن: «ويَذْبَحُون» مضارع «ذَبَحَ» ثلاثياً[٤]، وقرأ زيد بنُ عليّ كذلك؛ إلا أنه حَذَفَ الواو.

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٣٦٧.
(٢) بنحوه في المصدر السالف.
(٣) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٨-٦٩، وتفسير الثعلبي ٣/ ٤٥٥، والكشاف ٢/ ٣٦٨.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٥.

وتقدَّم شرحُ «تَأَذَّنَ» وتلقِّيهِ بالقَسَم في قوله في الأعراف [١٦٧] ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ﴾.

واحتمل «إذْ» أن يكون منصوباً بـ «اذكروا»، وأن يكون معطوفاً على «إذْ أنجاكم» لأنَّ هذا الإعلام بالمزيد على الشكر من نِعَمِهِ تعالى.

والظاهرُ أنَّ متعلَّق الشكر هو الإنعام، أي: لئن شكرتم إنعامي. وقاله الحسن والربيع؛ قال الحسن: لأزيدنَّكم من طاعتي، وقال الربيع: لأزيدنَّكم من فضلي[١].

وقال ابن عباس: أي: لئن وَحَّدْتُم وأطعتُم لأزيدنَّكم في الثواب[٢]. وكأنَّه راعى ظاهرَ المقابلة في قوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فظاهرُ الكفر المرادُ به الشركُ، فلذلك فسَّر الشكر بالتوحيد والطاعة.

وغيرُه قال: «ولئن كفرتُم» أي: نعمتي فلم تشكروها؛ رَتَّبَ العذابَ الشديدَ على كفران نِعَمِهِ تعالى[٣]. ولم يبيِّن محلَّ الزِّيادة، فاحتمل أن يكون في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما[٤].

وجاء التركيب على ما عُهِدَ في القرآن من أنه إذا ذكر الخَيْر[٥] أسند إليه تعالى، وإذا ذكر العذاب بعدَه عَدل عن نسبته إليه، فقال: «لأزيدنَّكم» فنسب الزِّيادة إليه، وقال: «إن عذابي لشديد» ولم يأت التركيب: لأُعذِّبَنَّكم.

وصُرِّح[٦] في «لأزيدنَّكم» بالمفعول، وهنا لم يُذكر، وإن كان المعنى عليه، أي: إنَّ عذابي لكم لشديد.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٣٤٧، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٠٩. وأخرج الطبري قول الحسن ١٣/ ٦٠٢، وأخرج أيضاً مثله عن سفيان وعليّ بن صالح، وضعَّفَه، فتعقَّبه ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٥ بقوله: بل هو قويّ حسن.

(٢) تفسير القرطبي ١٢/ ١٠٩، ولفظ قوله في الوسيط للواحدي ٣/ ٢٤: لئن وحَّدتمُوني وأطعتُموني لأزيدنَّكم طاعتي التي تقود إلى جنتي.

(٣) في (د٢) والمطبوع: نعمة الله تعالى.

(٤) بنحوه في المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٥.

(٥) في (أ) والمطبوع: الخبر، وهو تصحيف.

(٦) المثبت من (ز١) و(يه). وفي النسخ الأخرى والمطبوع: وخرج.

وقرأ عبد الله: «وإذ قال ربكم»[1] كأنه فسَّر قوله: «تَأَذَّنَ» لأنه بمعنى «أَذِنَ» أي: أعْلَمَ، وأعْلَمَ يكون بالقول.

ثم نَبَّهَ موسى عليه السلام قومَه على أنَّ الباريَ تعالى وإنْ أوْعَدَ بالعذاب الشديد على الكفر فهو غيرُ مفتقرٍ إلى شُكركم، لأنه تعالى هو الغنيُّ عن شكركم، الحميدُ المستوجبُ الحمدَ على ما أسبغَ من نِعمِهِ وإنْ لم يحمده الحامدون، فثمرةُ شكرِكم إنَّما هي عائدة إليكم.

و«أنتم» خطابٌ لقومه، وقال: «ومَنْ في الأرض» يعني الناسَ كلَّهم لأنَّ مَنْ كان في العالم العُلْويِّ ـ وهم الملائكة ـ لا يدخلون فيمن في الأرض.

وجواب «إنْ تكفُروا» محذوف لدلالة المعنى، التقدير: فإنَّما ضررُ كفرِكم لاحقٌ بكم، واللهُ تعالى متَّصف بالغِنَى المطلق والحمدِ، سواء أكفرُوا أم شكرُوا. وفي خطابِه لهم تحقيرٌ لشأنهم وتعظيمٌ للهِ تعالى، وكذلك في ذكرِ هاتين الصفتين.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

الظاهرُ أنَّ هذا من خطاب موسى لقومه. وقيل: ابتداءُ خطاب من الله لهذه الأمَّة. وخبرُ قوم نوح وعاد وثمود قد قصَّه الله في كتابه، وتقدَّم في الأعراف وهود.

والهمزة في «أَلَمْ» للتقرير والتوبيخ، والظاهر أنَّ «والذين» في موضع خفض عطفاً على ما قبلَه؛ إمَّا على «الذين»، وإمَّا على قوم نوح وعاد وثمود.

قال الزمخشري[2]: والجملةُ من قوله: «لا يَعْلَمُهُمْ إلا الله» اعتراضٌ، والمعنى

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٦٠١، والكشاف ٢/ ٣٦٨، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٠٨.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٦٨.

أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عَدَدَهُم إلا الله. انتهى. وليست جملة اعتراض؛ لأنَّ جملة الاعتراض تكونُ بين جزأين يطلبُ أحدُهما الآخر.

وقال أبو البقاء[١]: تكونُ هذه الجملة حالاً من الضمير في «مِنْ بعدِهم» فإنْ عَنَى من الضمير المجرور في «بعدِهم» فلا يجوز لأنه حالٌ ممَّا جُرَّ بالإضافة، وليس له محلّ إعراب من رفع أو نصب، وإن عَنَى من الضمير المستقرّ في الجارّ والمجرور النائب عن العامل أمكن.

وقال أبو البقاء أيضاً: ويجوز أن يكون مستأنفاً، وكذلك «جاءتهم».

وأجاز الزمخشريّ وتبعَه أبو البقاء أن يكون «والذين» مبتدأ، وخبرُه «لا يعلمهم إلا الله». وقال الزمخشريّ: والجملة من المبتدأ والخبر وقعت اعتراضاً. انتهى. وليست باعتراض لأنها لم تقع بين جزأين أحدُهما يطلبُ الآخَر.

والضميرُ في «جاءتهم» عائدٌ على «الذين من قبلكم» والجملة تفسيرية للنبأ.

والظاهر أنَّ الأيدي هي الجوارح، وأنَّ الضميرين في «أيديهم» وفي «أفواههم» عائدان[٢] على الذين جاءتهم الرسل. قال ابن مسعود وابنُ زيد: أي: جعلوا أيديَ أنفسِهم في أفواه أنفسِهم[٣] لِيَعَضُّوها غيظاً ممَّا جاءت به الرُّسُل، وقرأ ابنُ زيد: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[٤] [آل عمران: ١١٩] والعَضُّ بسبب الغيظ[٥] مشهورٌ من البشر، وقال الشاعر:

قَدَ افْنَى أنامِلَه أزْمُهُ ... وأَضْحَى يَعَضُّ عَلَيَّ الوَظِيفَا[٦]

---

(١) الإملاء ٢/٦٦.
(٢) المثبت من (ز١) و(يه). وفي النسخ الأخرى والمطبوع: وأن الضمير في... عائد.. إلخ.
(٣) في (ح) و(د١): جعلوا أيديهم أي أيدي أنفسهم في أفواه أنفسهم.
(٤) تفسير الطبري ١٣/٦٠٥-٦٠٦، والثعلبي ٣/٤٥٧، والمحرر الوجيز ٣/٣٢٦، وتفسير القرطبي ١٢/١١١، وبنحوه في النكت والعيون ٣/١٢٤، وزاد المسير ٤/٣٤٨، وذكر القرطبي أنه أصحُّ الأقوال.
(٥) لفظة «الغيظ» من (ز١) و(يه). ولم ترد في النسخ الأخرى والمطبوع.
(٦) البيت لصخر الغي، وهو في ديوان الهذليين ٢/٧٣. قوله: الأَزْمُ يعني العضّ الشديد. والوظيف: مستدقّ الذراع والساق. وأراد هنا الكفّ. قال البكري في شرح الأمالي ١/٥٠٢: الوظيف هنا مَثَل، وإنما يريد كفَّه حين ذهبت أصابعه.

وقال آخر:

لـو أنَّ سَـلْـمَـى أبْـصَـرَتْ تَـخَـدُّدِي ودِقَّـةً فـي عَـظْـمِ سـاقـي ويَـدِي
وبُـعْـدَ أهـلـي وجَـفـاءَ عُـوَّدِي عَـضَّـتْ من الـوَجْـدِ بأطرافِ الـيَـدِ[١]

وقال ابن عباس: لمَّا سمعوا كتابَ الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم[٢].

وقال أبو صالح: لمَّا قال لهم رسول الله ﷺ: «أنا رسولُ اللهِ إليكم» أشارُوا بأصابعهم إلى أفواههم أنِ اسكُت[٣]. تكذيباً له وردًّا لقوله[٤] واستبشاعاً لِما جاء به.

وقيل: رَدُّوا أيديَهم في أفواههم ضَحِكاً واستهزاءً كمن غَلَبَهُ الضَّحِك، فوضعَ يدَه على فيه.

وقيل: أشارُوا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: «إنَّا كَفَرْنا بما أُرسلتُم به»، أي: هذا جوابٌ لكم ليس عندنا غيره، إقناطاً لهم من التصديق[٥].

وقيل: الضميرانِ عائدانِ على الرُّسل. قاله مقاتل؛ قال: أخذُوا أيديَ الرُّسل ووضعوها على أفواه الرسل ليُسكتوهم ويقطعُوا كلامهم[٦].

---

(١) البيتان لرجل اعتلَّ في غُربةٍ فتذكّر أهلَه، كما في الكامل للمبرّد ١/ ٢٦٣. وهما أيضاً في التذكرة الحمدونيَّة ٨/ ١٣٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦، والنكت والعيون ٣/ ١٢٤، وتفسير القرطبي ١٢/ ١١٢.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٧، والثعلبي ٣/ ٤٥٧، والنكت والعيون ٣/ ١٢٤، والقرطبي ١٢/ ١١١، وبنحوه مختصر في المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦.

(٣) لفظ الخبر في المصادر (وهذا لفظ القرطبي): «كانوا إذا قال لهم نبيُّهم: أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم أن اسكت». وسياقة المصنف تُوهم أنَّ الكلام عن نبيِّنا ﷺ وينظر النكت والعيون ٣/ ١٢٤، وتفسير القرطبي ١٢/ ١١١. وهو في معاني الفراء ٢/ ٦٩ وزاد المسير ٤/ ٣٤٨ عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٤) في (ح) و(د١): تكذيباً لقوله ورداً له.

(٥) القولان في الكشاف ٢/ ٣٦٩.

(٦) تفسير القرطبي ١٢/ ١١٢، ونسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦ للمهدوي وضعَّفه. وينظر تفسير الثعلبي ٣/ ٤٥٧.

وقال الحسن وغيرُه: جعلوا أيديَ أنفسِهم في أفواه الرُّسل ردًّا لقولهم[١]. وهذا أشنعُ في الردّ وأذهبُ في الاستطالة على الرُّسل والنَّيْلِ منهم. فعلى هذا الضمير في «أيديهم» عائد على الكفار، وفي «أفواههم» عائد على الرُّسل.

وقيل: المراد بالأيدي هنا النِّعم، جمعُ يَدٍ، المرادُ بها النِّعمة[٢]، أي: رَدُّوا نِعَمَ الأنبياء التي هي أجلُّ النِّعَم من مواعظهم ونصائحهم وما أوحى إليهم من الشرائع والآيات في أفواه الأنبياء؛ لأنهم إذا كذَّبوها ولم يقبلوها فكأنَّهم رَدُّوها في أفواههم ورَجَعُوها إلى حيث جاءت منه على طريق المَثَل. وقيل: الضمير في أفواههم على هذا القول عائدٌ على الكفار، و«في» بمعنى الباء، أي: بأفواههم، والمعنى كذَّبوهم بأفواههم. و«في» بمعنى الباء يقال: جلستُ في البيت وبالبيت[٣].

وقال الفرَّاء: قد وجدنا من العرب مَنْ يجعلُ «في» موضعَ الباء فتقول: أدخلك الله بالجنَّة[٤] وفي الجنَّة. وأنشد:

وأرغب فيها[٥] عن لقيطٍ ورَهْطِهِ ولكنَّني عن سِنْبِسٍ لستُ أَرْغَبُ[٦]

يريد: أرغبُ بها.

وقال أبو عبيدة[٧]: هذا ضَرْبُ مَثَل، أي: لم يؤمنوا ولم يُجيبوا، والعربُ تقول للرجل إذا سكتَ عن الجواب وأمسكَ: رَدَّ يدَه في فيه. وقاله الأخفش أيضاً.

وقال القتبي[٨]: لم نسمع أحداً من العرب يقول: رَدَّ يدَه في فيه إذا تركَ ما أُمِرَ به. انتهى. ومن سمعَ حُجَّةٌ على مَنْ لم يسمع. هذا أبو عبيدة والأخفش نقلا ذلك

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٢٥، وزاد المسير ٤/ ٣٤٩، وتفسير القرطبي ١٢/ ١١٢.
(٢) بمعنى الأيادي، كما في الكشاف ٢/ ٣٦٩، والكلام فيه.
(٣) تفسير القرطبي ١٢/ ١١٢.
(٤) المثبت من (ز١) و(يه). وفي النسخ الأخرى والمطبوع: الجنة. (وليست مرادةً هنا).
(٥) المثبت من النسختين السالفتين. وفي الأخرى: من.
(٦) معاني الفراء ٢/ ٧٠، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٠٨، وزاد المسير ٤/ ٣٤٩. قال الفراء: «أرغب فيها، يعني بنتاً له». وسِنْبِس: قبيلة. ينظر القاموس.
(٧) بمعناه في مجاز القرآن ١/ ٣٣٦، ولفظهُ عنه في تفسير القرطبي ١٢/ ١١٢.
(٨) هو ابن قُتيبة، وكلامه في تفسير القرطبي ١٢/ ١١٣، وينظر غريب القرآن له ص٢٣٠-٢٣١.

عن العرب، فعلى ما قاله أبو عبيدة يكون ذلك من مجاز التمثيل، كأنَّ المُمسك عن الجواب الساكت عنه وضعَ يده على فيه.

وقد ردَّ الطبريّ[١] قولَ أبي عبيدة وقال: إنهم قد أجابوا بالتكذيب لأنهم قالوا: «إنَّا كفَرْنا بما أُرسلتم به». ولا يَرِدُ ما قاله الطبريّ؛ لأنه يريد أبو عبيدة أنهم أمسكوا وسكتوا عن الجواب المرضيّ الذي يقتضيه مجيء الرسل بالبيِّنات، وهو الاعتراف بالإيمان والتصديق للرسل.

قال ابن عطية[٢]: ويحتمل أن يُتَجَوَّز في لفظة الأيدي، أي إنَّهم رَدُّوا قوَّتهم ومدافعتَهم ومكافحتَهم فيما قالوا بأفواههم من التكذيب، فكأنَّ المعنى: رَدُّوا جميعَ مدافعتِهم في أفواهِهم، أي: في أقوالهم، وعُبِّر عن جميع المدافعة بالأيدي، إذ الأيدي موضع أشدّ المدافعة والمرادَّة. انتهى.

بادروا أولاً إلى الكفر، وهو التكذيب المحض، ثم أخبَرُوا بأنهم في شكّ، وهو التردُّد، كأنَّهم نظروا بعضَ نظر اقتضى أن انتقلوا من التكذيب المحض إلى التردُّد، أو هما قولان من طائفتين؛ طائفةٍ بادرَتْ بالتكذيب والكفر وطائفةٍ شكَّتْ، والشكُّ في مثل ما جاءت به الرُّسل كفرٌ.

وقرأ طلحة: «ممَّا تَدْعُونَّا» بإدغام نون الرفع في الضمير[٣] كما تُدغم في نون الوقاية في مثل ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ [الأنعام: ٨٠]. والمعنى: ممَّا تدعوننا إليه من الإيمان بالله. و«مُرِيب» صفة توكيديَّة.

ودخلت همزة الاستفهام الذي معناه الإنكار على الظرف الذي هو خبرٌ عن المبتدأ لأنَّ الكلام ليس في الشكّ إنَّما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشَّكَّ لظهور الأدلَّة وشهادتِها عليه[٤]، وقُدِّرَ مضاف، فقيل: أفي إلاهيَّةِ الله؟ وقيل: أفي وحدانيَّتِه؟

---

(١) تفسيره ١٣/ ٦٠٩.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦.

(٣) المصدر السالف، وهي في الكشاف ٢/ ٣٦٩ دون نسبة.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٦٩.

ثم نبَّههم على الوصف الذي يقتضي أن لا يقعَ فيه شكٌّ البتَّة ـ وهو كونهُ منشئَ العالَمِ ومُوجِدَه ـ فقال: «فاطرِ السماوات والأرض»، و«فاطر» صفة لله، ولا يضرُّ الفصلُ بين الموصوف وصفتِه بمثل هذا المبتدأ، فيجوز أن تقول: في الدار زيدٌ الحسنةِ. وإن كان أصلُ التركيب: في الدار الحسنةِ زيدٌ.

وقرأ زيد بن عليّ: «فاطِرَ» نصباً على المدح.

ولمَّا ذكرَ أنه مُوجِدُ العالَمِ ونبَّه على الوصف الذي لا يناسبُ أن يكون معه فيه شكٌّ ذكرَ ما هو عليه من اللُّطف بهم والإحسان إليهم، فقال: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ أي: يدعوكم إلى الإيمان كما قال: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [المؤمن: ١٠] أو يدعوكم لأجل المغفرة، نحو: دعوتُه لينصرني[١]. وقال الشاعر:

دَعَوْتُ لِمَا نَابَنِي مِسْوَراً فَلَبَّى، فَلَبَّيْ يَدَيْ مِسْوَرِ[٢]

و«من ذنوبكم» ذهبَ أبو عبيدة والأخفش إلى زيادة «مِنْ» أي: ليغفرَ لكم ذنوبَكم، وجمهورُ البصريين لا يُجيزُ زيادتها في الواجب، ولا إذا جرَّت المعرفة، والتبعيضُ يصحُّ فيها، إذِ المغفورُ هو ما بينَهم وبين الله، بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم، وبطريق آخر يصحُّ التبعيض، وهو أنَّ الإسلام يَجُبُّ ما قبلَه، ويَبقَى ما يُستأنف بعد الإيمان من الذنوب مسكوتاً عنه، فهو في المشيئة، والوعدُ إنَّما هو بغفران ما تقدَّم، لا بغفران ما يُستأنف.

وقال الزمخشريّ ما معناه[٣]: إنَّ الاستقراء في الكافرين أن يأتيَ «من ذنوبكم» وفي المؤمنين «ذنوبَكم» وكأنَّ ذلك للتفرقة بين الخطابَيْن، ولئلا يُسَوَّى بين الفريقين. انتهى. ويقال: ما فائدةُ الفرق في الخطاب والمعنى مشترك؟ إذِ الكافرُ

(١) المصدر السالف.

(٢) الكتاب ١/ ٣٥٢، وسرّ صناعة الإعراب ٢/ ٧٤٧، والحماسة ٣/ ١٢٤٧ و٤/ ١٨١٨ (بشرح المرزوقي)، واللسان (لبب ـ لبَّى)، ولا يُعرف قائلُه كما ذكر صاحب الخزانة ٢/ ٩٣. قولُه: فلبَّى، أي قال: لبَّيْك. فَلَبَّيْ يَدَيْ مِسْوَرِ، أي: أجبتُه إجابةً بعدَ إجابة. والبيت شاهدٌ على إضافة «لَبَّيْ» إلى الظاهر، إذ هي ملازمة للإضافة إلى ضمير المخاطب غالباً في قولك: لبيك.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٦٩.

إذا آمنَ والمؤمنُ إذا تابَ مشتركانِ في الغفران، وما تُخُيِّلَتْ فيه مغفرةُ بعضِ الذنوب في الكافر الذي آمنَ هو موجودٌ في المؤمن الذي تاب.

وقال أبو عبد الله الرازيّ: أمَّا قولُ صاحب «الكشاف»: المرادُ تمييزُ خطابِ المؤمن من خطابِ الكافر، فهو من باب الطَّامَّات[١] لأنَّ هذا التبعيضَ إن حصل فلا حاجة إلى ذكر هذا الجواب، وإن لم يحصل كان هذا الكلام فاسداً[٢].

وقال: «إلى أجلٍ مسمًّى»: إلى وقتٍ قد سمَّاه وبَيَّنَ[٣] مقدارَه [يبلِّغكمُوه][٤] إنْ آمنتُم، وإلَّا عاجَلَكُم بالهلاك قبل ذلك الوقت. انتهى. وهذا بناءً على القول بالأجلَين، وهو مذهب المعتزلة.

وتقدَّم الكلام في طرفٍ من هذا في سورة الأعراف [٣٤] في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

وقيل هنا ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قبل الموت[٥] فلا يعاجلُكم بالعذاب.

«إنْ أنتم»: ما أنتم[٦] «إلا بشرٌ مثلُنا» لا فضلَ بينَنا وبينَكم، ولا فضلَ لكم علينا، فلِمَ تُخَصُّون بالنُّبُوَّة دوننا؟

قال الزمخشري[٧]: ولو أرسلَ الله إلى البشر رسلاً لجعلَهم من جنسٍ أفضلَ منهم، وهم الملائكة. انتهى. وهذا على مذهب المعتزلة في تفضيل الملائكة على مَنْ سواهم.

---

(١) كلمة «الطامات» من المطبوع وتفسير الرازي ١٩/ ٩٤، ولم ترد في (أ) و(د١)، ومكانها بياض في النسخ الأخرى.

(٢) إلى هذا الموضع من تفسير الرازي ١٩/ ٩٤. وينظر التعليق التالي.

(٣) في (ح) والمطبوع: قد بيَّنَّاه وبيَّنَّا. وفي النسخ الأخرى غير (يه): قد بيَّنَّاه وبيَّن. والمثبت من (يه)، وهو كذلك في الكشاف ٢/ ٣٦٩، وقد وُصل الكلام منه بكلام الرازي قبله، لكنه بنحوه أيضاً في تفسير الرازي ١٩/ ٩٥.

(٤) ما بين حاصرتين من الكشاف.

(٥) كذا. ولعل صواب العبارة: يعني الموت، ينظر تفسير الثعلبي ٣/ ٤٥٧، وزاد المسير ٤/ ٣٥١، وتفسير القرطبي ١٢/ ١١٤.

(٦) لفظ «ما أنتم» من (ز١) و(يه). ولم يرد في النسخ الأخرى.

(٧) الكشاف ٢/ ٣٦٩-٣٧٠.

وقال ابن عطية: في قولهم استبعادُ بعثةِ البشر، وقال بعض الناس: بل أرادوا إحالتَه، وذهبوا مذهبَ البراهمة أو مَنْ يقولُ من الفلاسفة أنَّ الأجناس لا يقعُ فيها هذا التباين[(١)]، فظاهرُ كلامِهم لا يقتضي أنَّهم أغمضوا هذا الإغماض. ويدلُّ على ما ذكرتُ أنَّهم طلبوا منهم حجة[(٢)]، ويحتمل أنَّ طلبهم منهم السلطان إنَّما هو على جهة التعجيز، أي: بِعْثَتُكم محالٌ، وإلا فأتوا بسلطان مبين، أي إنكم لا تفعلون ذلك أبداً. فيقوى بهذا الاحتمال منحاهم إلى مذهب الفلاسفة. انتهى.

والذي يظهر أنَّ طلبَهم السلطان المبين وقد أتتهم الرسل بالبينات إنما هو على سبيل التعنُّت والاقتراح، وإلا فما أَتَوْا به من الدلائل والآيات كافٍ لمن استبصر، ولكنهم قَلَّدُوا آباءهم فيما كانوا عليه من الضلال، ألا ترى إلى أنَّهم لمَّا ذكروا أنهم مماثلُوهم قالوا: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي ليس مقصودُكم إلا أن نكونَ لكم تبعاً ونتركَ ما نشأنا عليه من دين آبائنا.

وقرأ طلحة: «أنْ تَصُدُّونَّا» بتشديد النون، جعل «أنْ» هي المخفَّفة من الثقيلة، وقدَّر فصلاً بينها وبين الفعل، وكان الأصل: أنَّه تَصُدُّونَنا[(٣)]، فأدغم نون الرفع في الضمير، والأَوْلَى أن تكون «أنْ» الثنائية التي تنصب المضارع[(٤)]، لكنه هنا لم يُعملها بل ألغاها كما ألغاها من قرأ ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] برفع «يُتِمُّ» حملاً على «ما» المصدرية أختِها.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ

(١) المثبت من (ز١) و(يه). وهو كذلك في المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٨ والكلام منه، وفي النسخ الأخرى: القياس، بدل: التباين.

(٢) عبارة المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٨: ويدلُّ على ما ذكرتُ أنهم طلبوا منهم الإتيان بآية وسلطان مبين، ولو كانت بعثُهم عندهم محالاً لما طلبوا منهم حجة. . . . إلخ.

(٣) وعلى تقدير الفصل، أي: أنه قد تصدوننا. وشذَّ عدم الفصل. ينظر الدر المصون ٧/ ٧٥، وروح المعاني ١٣/ ٢٤٠.

(٤) و«أنْ» الناصبة هذه ثنائية اللفظ والوضع، أمَّا «أنْ» المخففَّة من الثقيلة، فهي ثنائية اللفظ، ثلاثية الوضع. ينظر شرح ابن عقيل ٢/ ٣٤٢، ومغني اللبيب ص٤٧.

فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

سَلَّمُوا لهم في أنهم يماثلونهم[1] في البشرية وحدَها، وأمَّا ما سوى ذلك من الأوصاف التي اختُصُّوا بها فلم يكونوا مثلَهم، ولم يذكروا ما هم عليه من الوصف الذي تميَّزُوا به تواضعاً منهم، ونسبوا[2] ذلك إلى الله، ولم يُصَرِّحُوا بمَنِّ اللهِ عليهم وحدَهم ولكن أبرزُوا ذلك في عموم «مَنْ يشاءُ مِنْ عِباده»، والمعنى: يَمُنُّ بالنبوَّة على مَنْ يشاء تنبيئَهُ[3].

ومعنى «بإذن الله»: بتسويغِه وإرادتِه، أي الآيةُ التي اقترحتُموها ليس لنا الإتيانُ بها، ولا هي في استطاعتنا، ولذلك كان التركيب: «وما كان لنا»، وإنَّما ذلك أمرٌ متعلِّقٌ بالمشيئة.

و«فَلْيَتَوَكَّلْ» أمرٌ منهم للمؤمنين بالتوكّل وقصدوا به أنفسَهم قصداً أوليًّا، وأمرُوها به، كأنَّهم قالوا: ومِن حقِّنا أنْ نتوكَّلَ على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجري علينا منكم. ألا ترى إلى قولهم[4]: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾؟ ومعناه: وأيُّ عُذْرٍ لنا في أن لا نتوكّل على الله «وقد هدانا» فعلَ بنا ما يُوجب توكُّلَنا عليه، وهو التوفيقُ لهداية كلِّ واحدٍ منا سبيلَه الذي يجب[5] عليه سلوكُه في الدِّين. والأمرُ الأولُ ـ وهو قولُه: «فلْيتوكّل المؤمنون» ـ لاستحداث التوكُّل، والثاني للثبات على ما استحدثُوا من توكُّلهم[6].

«ولَنَصْبِرَنَّ» جوابُ قَسَمٍ، ويدلُّ على سبقِ ما يجبُ فيه الصبر وهو الأذى. و«ما»

(١) في (ح) و(د٢): مماثلوهم، وفي (ع): ماثلوهم.
(٢) في النسخ عدا (ح): ونسبة، والمثبت منها.
(٣) في (ح) والمطبوع: تنبئته.
(٤) في (يه): قوله. وكذلك هو في الكشاف ٢/ ٣٧٠ والكلام فيه.
(٥) في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع): يوجب. والكلام في المصدر السالف.
(٦) بنحوه في المصدر السالف بسياق سؤال وجواب.

مصدريَّة، وجوَّزوا أن تكون بمعنى «الذي» والضمير محذوف، أي: ما آذيتموناه، وكان أصلُه: «به»، فهل حُذف «به» أو الباء فوصَلَ الفعلُ إلى الضمير؟ قولان.

وقرأ الحسن بكسر لام الأمر في «ليتوكل» وهو الأصل[١].

و«أو» لأحد الأمرين؛ أقسموا على أنه لا بدَّ من إخراجهم أو عودِهم في ملّتهم، كأنهم قالوا: ليَكونَنَّ أحدُ هذين. وتقديرُ «أو» هنا بمعنى «حتى» أو بمعنى «إلا أنْ» قولُ مَنْ لم يُنعم النظرَ في ما بعدَها، لأنه لا يصحُّ تركيب «حتى» ولا تركيب «إلا أن» مع قوله: «لَتَعُودُنَّ» بخلاف: لألزمنَّك أو تَقْضِيَني حقِّي[٢].

والعَوْدُ هنا بمعنى الصيرورة[٣]، أو يكون خطاباً للرُّسل ومَنْ آمَنُوا بهم. وغلبَ حكمُ مَنْ آمنوا بهم لأنهم كانوا قبل ذلك في ملَّتهم، فيصحُّ إبقاء «لَتَعُودُنَّ» على المفهوم منها أولاً، إذ سبقَ كونُهم كانوا في ملَّتهم، وأمَّا الرُّسل فلم يكونوا في ملَّتهم قطّ، أو يكون المعنى في عَوْدِهم إلى ملَّتهم: سكوتهم عنهم وكونهم أغفالاً عنهم لا يطالبونهم بالإيمان بالله وما جاءت به الرسل[٤].

وقرأ أبو حَيْوة: «لَيُهلكنَّ الظالمين ولَيُسْكِنَنَّكُم» بياء الغائب[٥] اعتباراً بقوله: «فأوْحَى إليهم ربُّهم» إذ لفظُه لفظُ الغائب.

وجاء «ولَنُسْكِنَنَّكُم» بضمير الخطاب[٦] تشريفاً لهم بالخطاب، ولم يأت بضمير الغيبة كما في قوله: «فأوْحَى إليه ربُّهم».

ولـمَّا أقسموا هم[٧] على إخراج الرُّسل أو العودة[٨] في ملتهم؛ أقسمَ تعالى

(١) المحتسب ١/ ٣٥٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٢٩.
(٢) بنحوه في المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٩.
(٣) الكشاف ٢/ ٣٧٠.
(٤) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٩-٣٣٠.
(٥) القراءات الشاذة ص٦٨، والكشاف ٢/ ٣٧٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠.
(٦) المثبت من (ز١) و(يه): وليسكننَّكم.
(٧) المثبت من (ز١) و(يه) ولم ترد لفظة «هم» في (ح) و(د١)، وفي النسخ الأخرى والمطبوع: بهم.
(٨) المثبت من (ح) و(ز١) و(يه). وفي النسخ الأخرى: والعودة.

على إهلاكِهم. وأيُّ إخراجٍ[1] أعظم من الإهلاك بحيث لا يكون لهم عودةٌ إليها أبداً وعلى إسكانِ الرُّسُلِ ومن آمنَ بهم وذُرِّيَّاتِهم أرضَ أولئك المُقسِمين على إخراج الرسل؟

قال ابن عطية: وخصَّ الظالمين من الذين كفروا، إذ جائز أن يؤمنَ من الكفَرة الذين قالوا المقالة ناسٌ، وإنَّما توعَّد لإهلاك[2] من خَلَصَ للظلم.

وقال غيره: أراد بالظالمين المشركين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والإشارة بـ «ذلك» إلى توريث الأرض الأنبياءَ ومَنْ آمنَ بهم بعد إهلاك الظالمين، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

و«مقام» يحتمل المصدر والمكان، فقال الفرَّاء: «مَقَامي» مصدر أُضِيفَ إلى الفاعل، أي: قيامي عليه بالحفظ لأعماله ومراقبتي إيَّاه؛ لقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

وقال الزجاج: مكانَ[3] وقوفِه بين يديَّ للحسابِ وهو موقف الله الذي يقفُ فيه عباده يومَ القيامة، كقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرحمن: ٤٦].

أو على إقحام «المقام» أي: لمن خافني.

والظاهر أنَّ الضمير في «واستفتحوا» عائدٌ على الأنبياء، أي: استنصروا اللهَ على أعدائهم، كقوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]. ويجوزُ أن يكون من الفُتاحة، وهي الحكومة، أي: استحكموا الله: طلبوا منه القضاءَ بينَهم.

واستنصارُ الرُّسل في القرآن كثير، كقولِ نوح: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى﴾ [الشعراء: ١١٨]، وقولِ لوط: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٩]. وقولِ

---

(١) في (يه): وأتى بإخراج.
(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠: بالإهلاك.
(٣) لفظة «مكان» ليست في (ح) و(د١) و(يه).

شعيب: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقولِ موسى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ﴾ الآية [يونس: ٨٨].

وقال ابنُ زيد: الضميرُ عائد على الكفار، أي: واستفتح الكفار، على نحو ما قالت قريش: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦]، وقول أبي جهل: اللهمَّ، أَقْطَعُنا للرَّحِم وآتانا بما لا يُعرف[١]، فأَحِنْهُ الغداة[٢]. وكأنَّهم لمَّا قَوِيَ تكذيبُهم وأذاهُم ولم يُعاجَلُوا بالعقوبة ظنُّوا أنَّ ما جاؤوا به باطل، فاستفتحوا على سبيل التهكّم والاستهزاء، كقول قوم نوح: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود: ٣٢]، وقوم شعيب: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وعادٍ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨]، وبعضِ قريش: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقيل: الضمير عائد على الفريقين الأنبياء ومكذِّبيهم لأنهم كانوا كلُّهم سألوا أن يَنصر المُحقَّ ويُبطل المُبطل.

ويُقَوِّي عودَ الضمير على الرُّسل خاصة قراءةُ ابن عباس ومجاهد وابن مُحيصن: «واسْتَفْتِحُوا» بكسر التاء[٣]، أمراً للرُّسل معطوفاً على «لَنُهلكنَّ» أي: أوحى إليهم ربُّهم وقال لهم: لنُهلكنَّ، وقال لهم: اسْتَفْتِحُوا، أي: اطلُبوا النصرَ وسلُوه من ربّكم.

وقال الزمخشري[٤]: ويحتمل أن يكون أهلُ مكة قد استفتَحوا، أي: استمطروا، والفتح المطر في سِني القحط التي أُرسلت عليهم بدعوة الرسول فلم يُسْقَوْا، فذكر سبحانه ذلك، وأنه خيَّبَ رجاء كلِّ جبارٍ عنيد، وأنه يُسقى في جهنَّم بدَلَ سقياه ماءً آخرَ، وهو صَدِيدُ أهل النار، و«استفتحوا» على هذا التفسير كلام مستأنف منقطع عن حديث الرُّسل وأممِهم. انتهى.

---

(١) في (ح) و(يه): نعرف.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠. وينظر النكت والعيون ٣/ ١٢٧، وزاد المسير ٤/ ٣٥١، وتفسير القرطبي ١٢/ ١١٧. قوله: فأَحِنْهُ، أي: أَهْلِكْه.
(٣) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٥٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠، وزاد المسير ٤/ ٣٥١. وهي في الكشاف ٢/ ٣٧١ دون نسبة.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٧١.

و«خاب» معطوف على محذوف تقديرُه: فنُصِرُوا وظَفِرُوا وخابَ كلُّ جبَّارٍ عنيد، وهم قومُ الرُّسل.

وتقدَّم شرح «جبَّار». والعنيد المعانِد كالخليط بمعنى المُخالِط.

وعلى قول من جعل الضمير عائداً على الكفار كان «وخابَ» عطفاً على «واستفتحوا».

«من ورائه» قال أبو عبيدة وابنُ الأنباريّ: أي: من بعده[1]. وقال الشاعر:

حَلَفْتُ فلم أترك لنفسكَ رِيبةً ... وليس وراءَ اللهِ للمرءِ مَذْهَبُ[2]

وقال أبو عبيدة أيضاً وقُطرب والطبريّ وجماعة: و«من ورائه» أي: ومن أمامه[3]، وهو معنى قول الزمخشري: من بين يديه. وأَنْشَدَ:

عَسَى الكَرْبُ الذي أمْسَيْتُ فيهِ ... يكونُ وراءَه فَرَجٌ قَريبُ

وهذا وصفُ حالِهِ في الدنيا لأنَّه مُرصَدٌ لجهنم، فكأنها بين يديه وهو على شَفِيرِها، أو وصفُ حالِه في الآخرة حين يُبعث ويُوقف[4].

وقال الشاعر:

أيرجُو بنُو مروانَ سمعي وطاعتي ... وقَوْمي تميمٌ والفلاةُ وَرَائِيا[5]

وقال آخر:

أليسَ ورائي إنْ تراخَتْ مَنِيَّتي ... لزُومُ العَصا تُحْنَى عليها الأصابعُ[6]

---

(١) هو في زاد المسير ٤/ ٣٥٢ عن ابن الأنباري، وفي تفسير القرطبي ١٢/ ١١٩ عن أبي عبيد.

(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١٧. ووقع في (د٢) ومطبوع البحر: مهرب، بدل: مذهب.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٣٧، وتفسير الطبري ١٣/ ٦١٧، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٢٠.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٧١. والبيت ضمن قصيدة لهُدْبَة بن خشرم في الأمالي للقالي ١/ ٧٢، والحماسة البصرية ١/ ٤٤. وهو من شواهد سيبويه ٣/ ١٥٩.

(٥) نُسب البيت لسوار بن المضرّب في الكامل ٢/ ٦٢٨، وأضداد كلٌّ من ابن السكّيت ص١٧٦، والأصمعي ص٢٠، وابن الأنباري ص٦٨. ونُسب في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٠ لمساور بن حمثان من بني ربيعة بن كعب.

(٦) البيت للبيد، وهو في ديوانه ص٨٩.

و«وراء» من الأضداد، قاله أبو عُبيدة والأزهريّ، وقيل: ليس من الأضداد[١].

وقال ثعلب: اسمٌ لما تَوارَى عنك سواءٌ كانَ أمامَك أم خلفَك[٢].

وقيل: بمعنى: من خلفه، أي في طلبه، كما تقول: الأمر من ورائك، أي: سوفَ يأتيك[٣].

«ويُسْقى» معطوف على محذوف، تقديرُه: يُلْقَى فيها ويُسْقَى، أو معطوف على العامل في «من ورائه» إذْ هو واقع موقعَ الصفة، وارتفاعُ «جهنم» به على الفاعليَّة.

والظاهر إرادةُ حقيقة الماء، و«صَدِيد»؛ قال ابنُ عطية: هو نعتٌ لـ «ماء»، كما تقول: هذا خاتمُ حديدٍ، وليس بماء، لكنَّه لمَّا كانَ بَدَلَ الماء في العُرف عندنا يعني أُطلِقَ عليه ماء[٤].

وقيل: هو نعت على إسقاط أداة التشبيه كما تقول: مرَرْتُ برجلٍ أسدٍ، التقدير: مثل صديد[٥]. فعلى قول ابن عطية هو نفسُ الصَّديد، وليس بماء حقيقة، وعلى هذا القول لا يكون صديداً ولكنه ماءٌ شُبِّه بالصَّدِيد.

وقال الزمخشري[٦]: «صَدِيد» عطف بيان لـ «ماء»؛ قال: ويُسْقَى من ماء، فأبهمَه إبهاماً ثم بيَّنَه بقوله: «صَدِيد». انتهى. والبصريُّون لا يُجيزون عطفَ البيان في النكرات، وأجازه الكوفيُّون وتبعَهم الفارسيّ فأعربَ «زيتونةٍ»، عطف بيان لـ «شجرةٍ مباركة»[٧] فعلى رأي البصريِّين لا يجوزُ أن يكون قولُه: «صَدِيد» عطف بيان. وقال الحوفي: «صَدِيد» نعت لـ «ماء».

(١) ينظر مجاز القرآن ١/ ٣٣٧، وتهذيب اللغة ١٥/ ٣٠٤، والنكت والعيون ٣/ ١٢٧.
(٢) زاد المسير ٤/ ٣٥٢. وينظر معاني القرآن للزجَّاج ٣/ ١٥٦-١٥٧.
(٣) هو في تفسير القرطبي ١٢/ ١٢٠ عن الأخفش، وينظر معانيه ٢/ ٥٩٨.
(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣١: عُدَّ ماءً، بدل: يعني أطلق عليه ماء.
(٥) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٢٨.
(٦) الكشاف ٢/ ٣٧١.
(٧) في الآية (٢٥) من سورة النور.

وقال مجاهد وقتادة والضحَّاك: هو ما[1] يسيلُ من أجساد أهلِ النار[2].

وقال محمد بنُ كعب والرَّبيع: هو غُسالةُ أهلِ النار في النار، وهو[3] ما يسيلُ من فروج الزناة والزواني.

وقيل: «صَدِيد» بمعنى مصدود عنه، أي: لكراهته يُصَدُّ عنه، فيكون مأخوذاً من الصَّدِّ[4].

وذكر ابنُ المبارك من حديث أبي أُمامة عن رسول الله ﷺ قال في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ قال: «يُقَرَّبُ إليه[5] فيتَكَرَّهُهُ، فإذا أُدْنِيَ منه شَوَى وجهَه ووقَعَتْ فروةُ رأسه، وإذا شَرِبَه قَطَّعَ أمعاءَه حتى تخرج من دُبُره»[6].

«يَتَجَرَّعُهُ» يتكلَّفُ جَرْعَهُ «ولا يكادُ يُسِيغُه» أي: ولا يُقارب أن يُسِيغَهُ، فكيف تكون الإساغة؟ والظاهرُ هنا انتفاءُ مقاربةِ إساغتِه إيَّاه، وإذا انتفَتْ؛ انتفَتْ الإساغة، فيكون كقوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠] أي: لم يَقْرُبْ من رؤيتها، فكيف يراها؟ والحديث جاء بأنه يشربُه، فإنْ صحَّ الحديث كان المعنى: ولا يكادُ يُسِيغُه قبل أن يشربَه، ثم شَرِبَه، كما جاء: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] أي: وما كادوا يفعلون قبل الذبح.

وتَجرَّعَ تَفَعَّلَ، ويحتمل هنا وجوهاً: أن يكون للمطاوعة، أي: جَرَّعَهُ فتجرَّع، كقولك: علَّمتُه فتعلَّم، وأن يكون للتكلُّف، نحو: تَحَلَّم[7]، وأن يكون لمواصلة العمل في مُهلة، نحو: تَفَهَّم، أي: يأخذه شيئاً فشيئاً، وأن يكون موافقاً للمجرَّد، أي: تجرَّعَه، كما تقول: عدا الشيءَ وتعدَّاه.

---

(١) في (ح): ماء.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ١١٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣١، وينظر تفسير القرطبي ١٢/ ١٢٠-١٢١.
(٣) في (دا) والمطبوع: وقيل: هو. وهو خطأ. فالكلام تابع لما قبله. وينظر تفسير الثعلبي ٣/ ٤٥٩، وزاد المسير ٤/ ٣٥٣، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٢١.
(٤) بنحوه في النكت والعيون ٣/ ١٢٨.
(٥) في (يه): منه.
(٦) الزهد لابن المبارك (زوائد نُعيم بن حمَّاد) (٣١٤). وأخرجه الترمذي (٢٥٨٣) وقال: حديث غريب.
(٧) أي: يتكلَّف جَرْعَه. ينظر الدر المصون ٧/ ٨١.

و«يتجرَّعُه» صفة لِما قبله، أو حال من ضمير «يُسْقَى»، أو استئناف. «ويأتيه الموت» أي: أسبابُه. والظاهر أنَّ قوله: «من كلِّ مكان» معناه من الجهات الستّ، وذلك لفظيع ما[1] يصيبُه من الآلام.

وقال إبراهيم التيمي: من كل مكانٍ من جسده حتى من أطراف شعره[2]. وقيل: حتى من إبهام رجليه[3].

والظاهر أن هذا في الآخرة، وقال الأخفش: أرادَ البلايا التي تصيب الكافر في الدنيا[4]، سمَّاها موتاً، وهذا بعيد لأنَّ سياق الكلام يدلُّ على أنَّ هذا من أحوال الكافر في جهنم.

وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ لتطاول شدائد الموت وامتدادِ سَكَراتِه.

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ الخلاف في «من ورائه» كالخلاف في «من ورائه جهنم».

وقال الزمخشريّ[5]: ومن بين يديه عذابٌ غليظ، أي: في كل وقت يستقبلُه يتلقَّى عذاباً أشدَّ ممَّا قبلَه وأغلظ. وعن الفُضَيْل: هو قَطْعُ الأنفاس وحَبْسُها في الأجساد. انتهى.

وقيل: الضمير في «ورائه» هو يعود إلى العذاب المتقدّم لا على «كلّ جبار»[6].

❁ ❁ ❁

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ

---

(١) في (ز١): تفطيع لما.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٦٢١، والنكت والعيون ٣/ ١٢٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣١، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٢٢. وهو في زاد المسير ٤/ ٣٥٣ عن عطاء عن ابن عباس.

(٣) هو قطعة من قول الضحاك كما في تفسير القرطبي ١٢/ ١٢٢.

(٤) كذا ذكر المصنف. ولفظه في زاد المسير ٤/ ٣٥٤ ونقله عنه القرطبي ١٢/ ١٢٢: في النار. وعندئذ لا معنى لتعقُّب المصنف كما سيرد.

(٥) الكشاف ٢/ ٣٧١.

(٦) ينظر زاد المسير ٤/ ٣٥٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣١.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ
﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ
عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا
مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ
وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى
وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ
إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ
مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ
حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ
﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ
يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ
مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ
فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ
لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ
إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

المفردات

الرَّماد معروف، وقال ابنُ عيسى: هو جسم يسحقُه الإحراق سَحْقَ الغُبار، ويُجمع على رُمُد في الكثرة، وأرْمِدَة في القلَّة، وشذَّ جمعُه على أفْعِلاء، قالوا: أرْمِداء[1]، ورَمَادٌ رِمْدِدٌ: إذا صارَ هَباءً أرقَّ ما يكون.

الجَزَع: عدمُ احتمالِ الشِّدَّة، وهو نقيضُ الصَّبر، قال الشاعر:

---

(١) جاء في الصحاح ومعجم مقاييس اللغة والقاموس أن الأرمداء هو الرَّماد، ولم يُذكر فيها أنه جمع، وذُكر ذلك في اللسان.

جَزِعْتُ ولم أجْزَعْ من البَيْنِ مَجْزَعاً وعَزَّيْتُ قلباً بالكَوَاعِبِ مُولَعَا[١]

المُصْرِخ المُغِيث. قال الشاعر:

فَلا تَجْزَعُوا إنّي لكم غَيْرُ مُصْرِخٍ وليس لكم عندي غَنَاءٌ ولا نَصْرُ[٢]

والصارخ المُستغيث، صَرَخَ يَصْرُخُ صَرْخاً وصُراخاً وصَرْخَةً. قال سلَّامة بنُ جَنْدَل:

كُنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ كان الصُّراخُ له قَرْعَ الظَّنابِيبِ[٣]

واصطرخَ بمعنى صَرَخَ، وتَصَرَّخَ: تكلَّف الصُّراخ، واستصرخَ استغاثَ، يقال: استَصْرَخَني فأَصْرَخْتُهُ، والصَّريخ مصدر كالبَرِيح[٤]، ويُوصف به المُغيث والمُستغيث، من الأضداد.

الفَرْعُ: الغُصن من الشجرة، ويُطلق على ما تَوَلَّدَ من الشيء، والفَرْعُ: الشَّعْر، يقال: رجل أَفْرَعُ، وامرأةٌ فَرْعَاء لمن كثُر شَعْرُه.

وقال الشاعر[٥]:

وفَرْعٍ يُغَشِّي[٦] المتنَ أسودَ فاحِمٍ

اجْتَثَّ الشيء: اقتلَعَه، وجَثّ الشيءَ: قَلَعَه، والجُثَّة: شَخْصُ الإنسان قاعداً وقائماً. وقال لقيط الإيادي:

(١) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٢٤٠.

(٢) البيت في النكت والعيون ٣/ ١٣١، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٢٩، ونُسب فيهما لأمية بن أبي الصَّلت.

(٣) ديوان سلَّامة (رواية الأصمعي وأبي عَمرو الشيباني) ص١٢٥، وهو في المفضَّليات ص١٢٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٤، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٢٩، قوله: الظنابيب هو جمع ظُنْبُوب، وهو عظم الساق. قال الأصمعي: يقال: ضربَ لهذا الأمر ظُنْبُوبَهُ: إذا هو جَدَّ فيه.

(٤) المثبت من (يه)، وهو كذلك في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٤. ووقع في (ز١): التريح، ولم تنقط في (ح) ولم تجوَّد في النسخ الأخرى.

(٥) بعدها في (د٢) ومطبوع البحر: وهو امرؤ القيس بن حُجر.

(٦) في (د٢): يَزِينُ، وهي رواية. والبيت في ديوان امرئ القيس ص١٦.

هو[١] الجلاءُ الذي يجْتَثُّ أصْلَكُمُ فَمَنْ رأى مثلَ ذا آتٍ ومَنْ سَمِعَا[٢]

البَوَار: الهلاك. قال الشاعر:

فلم أرَ مثلَهُمْ أبطالَ حَرْبٍ غَدَاةَ الحَرْبِ إذْ خِيفَ البَوَارُ[٣]

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ١٨﴾

التفسير

ارتفاع «مَثَلُ» على الابتداء، وخبرُه محذوف، تقديرُه عند سيبويه: فيما يُتلى عليكم أو يُقَصُّ، والمَثَلُ مستعارٌ للصِّفة التي فيها غَرَابة. و«أعمالُهم كرماد» جملة مستأنَفة على تقدير سؤال، كأنه قيل: كيف مَثَلُهم؟ فقيل: أعمالُهم كرماد، كما تقول: صفةُ زيد عِرْضُهُ مَصُونٌ ومالُه مبذول[٤].

وقال ابن عطية: ومذهب الكسائيّ والفرَّاء أنه على إلغاء «مَثَل» وأنَّ المعنى: الذين كفروا أعمالُهم كرماد[٥].

وقال الحَوْفيّ: «مَثَلُ» رفعٌ بالابتداء، و«أعمالُهم» بدل من «مَثَلُ» بدلَ اشتمال، كما قال:

مَا لِلْجِمَالِ مَشْيِهَا وَئِيدَا
أَجَنْدَلاً يَحْمِلْنَ أَمْ حَدِيدَا[٦]

---

(١) في (د٢): لولا.

(٢) ديوان لقيط ص٨٦، وفيه: رأياً، بدل: آتٍ. وهو برواية يوماً في النكت والعيون ٣/ ١٣٤-١٣٥، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٣٧، ولم أقف على رواية المصنف: آتٍ.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٣٦-١٣٧، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٤٢.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٧٢.

(٥) كذا نسبَ المصنف للكسائيّ والفرَّاء إلغاء «مَثَل» فيما نقلَه عن ابن عطية، ونسبَ إليهما إلغاءَها أيضاً السمين في الدُّرّ ٧/ ٨٢، والآلوسي في روح المعاني ١٣/ ٢٥٢. والواقع أنَّ ابن عطية قد نسبَ إلغاءَها للفرَّاء وحدَه، فقال في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣١: «ومذهب الكسائي والفرَّاء أنه (يعني لفظ «مَثَل») ابتداء، خبرُه «كَرَماد»، والتقدير عندهم: مَثَلُ أعمالِ الذين كفروا كرماد، وقد حُكي عن الفرَّاء أنه يرى إلغاء «مَثَل»، وأن المعنى: الذين كفروا أعمالُهم كرماد». اهـ. فلعلَّ سقطاً وقع للمصنف، وهو ما نقله ابن عطية عن الكسائي والفراء أولاً. والله أعلم.

(٦) الرَّجَز للزَّبَّاء، وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٧٣، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٦٧، =

و«كَرَمَاد» الخبر.

وقال الزمخشري[١]: أو يكون «أعمالُهم» بدلاً من «مَثَلُ الذين كفروا» على تقدير: مَثَلُ أعمالِهم، و«كرماد» الخبر.

وقال ابن عطية[٢]: وقيل: هو ابتداء، و«أعمالُهم» ابتداء ثانٍ، و«كَرَمَاد» خبر الثاني، والجملة خبر الأوَّل، وهذا عندي أرجحُ الأقوال، وكأنَّك قلت: المتحصلُ مثالاً في النفس للذين كفروا هذه الجملة المذكورة، وهي أعمالهم في فسادها وقتَ الحاجة وتلاشيها كالرَّماد الذي تَذْرُوه الرِّيح وتفرِّقُه بشدَّتها حتى لا يبقى له أثر ولا يجتمع منه شيء. انتهى[٣].

وهذا القولُ الذي رجَّحه ابنُ عطيَّة قاله الحَوْفيّ، وهو لا يجوزُ؛ لأنَّ الجملةَ الواقعة خبراً عن المبتدأ الأول الذي هو «مَثَل» عاريةٌ من رابط يعودُ على المَثَل، وليست نفسَ المبتدأ في المعنى، فلا تحتاجُ إلى رابط، وأعمال الكفرة؛ المكارمُ التي كانت لهم من صلة الأرحام وعِتْقِ الرِّقاب وفِداءِ الأسارى وعَقْرِ الإبل للأضياف وإغاثةِ الملهوفين والإجارةِ وغيرِ ذلك؛ شَبَّهها في حُبوطها وذَهابِها هَباءً منثوراً لبنائها على غيرِ أساس من معرفة الله والإيمان به وكونِها لوجهه برمادٍ طَيَّرتْه الرِّيح العاصف[٤].

وقرأ نافع وأبو جعفر: «الرِّياح»، على الجمع[٥]، والجمهورُ على الإفراد.
ووصفَ اليوم بقوله: «عاصف» ـ وإن كان من صفة الرِّيح ـ على سبيل التجوُّز، كما قالوا: يومٌ ماطر[٦]، وليلٌ نائم.

= وأمالي الزجَّاجي ص١٦٦، وأخبارِه ص١٨٠. وينظر المحاسن والأضداد ص١٢٩، ومجمع الأمثال ١/ ٢٣٦. قولُه: وئيداً، أي: على تُؤَدَة، والجَنْدَل: الحجارة. ويجوز أيضاً الرفع في قوله: «مشيها» على أنه فاعل لـ «وئيد»، أي: وئيداً مَشْيُها، على التقديم والتأخير للضرورة. ينظر خزانة الأدب ١٠/ ٢٢٨.

(١) الكشاف ٢/ ٣٧٢.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣١، وفيه اختصار.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣١، وقد اختُصر منه بعض الكلام أو سقط منه، فليراجع.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٧٢.

(٥) السبعة ص١٧٢، والتيسير ص٧٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢، والنشر ٢/ ٢٢٣.

(٦) المثبت من (ز١) و(يه). وفي النسخ الأخرى والمطبوع: ما حل. وينظر الكشاف ٢/ ٣٧٢.

وقال الهروي: التقدير: في يوم عاصفِ الرِّيح، فحذَف لتقدُّم ذكرِها، كما قال الشاعر:

إذا جاءَ يومٌ مظلمُ الشمسِ كاسفُ[١]

يريد: كاسفُ الشمس.

وقيل: «عاصف» من صفة الرِّيح إلا أنه لمَّا جاء بعد اليوم أُتبع إعرابَه، كما قيل: جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ، يعني أنه خُفض على الجوار[٢].

وقرأ ابن أبي إسحاق وإبراهيم بن أبي بكر عن الحسن: «في يومِ عاصفٍ» على إضافة اليوم لعاصف[٣]، وهو على حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامَه، تقديرُه: في يومِ ريحٍ عاصفٍ.

وتقدَّم تفسير العُصوف في «يونس» في قوله: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [٢٢] وعلى قول من أجاز إضافة الموصوف إلى صفته يجوزُ أن تكون هذه القراءة منه.

﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يومَ القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من أعمالهم ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: لا يرون لها أثراً من ثواب كما لا يُقْدَرُ من الرَّماد المطيَّر بالرِّيح على شيء.

وقيل: لا يقدرون من ثواب ما كسبوا، فهو على حذف مضاف، وفي الصحيح عن عائشة ﵂ قالت: يا رسول الله، ابنُ جُدْعَانَ كان في الجاهلية يَصِلُ الرَّحِم، ويُطعم المسكين، هل ذلك نافعُه؟ قال: «لا ينفعُه لأنه لم يقل: ربِّ اغْفِرْ لي خطيئتي يوم الدين»[٤].

---

(١) هو عجز بيت لمسكين الدارمي، وصدرُه: وتُضحِكُ عِرْفانُ الدُّرُوعِ جُلودَنا، وهو في ديوانه ص٥٣. وينظر تفسير الثعلبي ٣/ ٤٦١، وزاد المسير ٤/ ٣٥٤-٣٥٥، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٢٤.

(٢) تفسير الثعلبي ٣/ ٤٦١، والنكت والعيون ٣/ ١٢٩، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٢٤. وينظر تعقُّب النحَّاس لهذا القول في إعراب القرآن ٢/ ٣٦٧.

(٣) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٢٥، وليس في هذه المصادر قوله: عن الحسن، ونُسبت القراءة في زاد المسير ٤/ ٣٥٥ للنخعي وابن يعمر والجحدري، وهي في الكشاف ٢/ ٣٧٢ دون نسبة.

(٤) صحيح مسلم (٢١٤).

وفي الصحيح أيضاً: «أنَّ الكافر لَيُطْعَمُ بحسناته في الدنيا ما عمل للهِ منها»[(١)].

«ذلك» إشارة إلى كونهم بهذه الحال، وعلى[(٢)] مثل هذا الغَرَر «البعيد» الذي تَعمَّقَ فيه صاحبُه وأبعد عن طريق النجاة، أو البعيد عن الحقّ أو الثواب.

وفي البقرة: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ۗ﴾ وهنا[(٣)]: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَيْءٍۚ﴾ من التفنُّن في الفصاحة والمغايرة في التقديم والتأخير، والمعنى واحد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾.

قرأ السُّلَميُّ: «ألم ترْ» بسكون الراء[(٤)]، ووجهُه أنه أجرى الوصلَ مجرى الوقف، وتوجيهٌ آخرُ وهو أن «تَرَى» حذفت العرب ألفَها في قولهم: قام القوم ولو تَرَ ما[(٥)] زيدٌ، كما حَذفَتْ ياء لا أُبالي، فقالت[(٦)]: لا أُبال، فلمَّا دخل الجازم تُخُيِّل أنَّ الرَّاء هي آخر الكلمة، فسكنت للجازم، كما قالوا في «لا أبالي»: لم أُبَلْ، تَخيَّلُوا اللام آخر الكلمة[(٧)].

والرؤية هنا بمعنى العلم، فهي من رؤية القلب.

---

(١) هو بنحوه قطعة من حديث أنس ﷺ، أخرجه مسلم (٢٨٠٨).
(٢) في (يه): على.
(٣) قوله: «لا يقدرون على شيء مما كسبوا وهنا» من (ز١) و(يه) وسقط من النسخ الأخرى والمطبوع.
(٤) المحتسب ١/ ٣٦٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢.
(٥) قولهم: ولو تَرَ ما، ولو ترى ما؛ جزماً ورفعاً، وكذلك: ولا تَرَ ما، ولا ترى ما، بمعنى: ولاسيَّما. ينظر اللسان (رأى).
(٦) في (ح) و(د١) و(أ) والمطبوع: في، بدل: فقالت، وفي (د): في قولهم.
(٧) والمشهور التوجيه الأول كما ذكر الآلوسي في روح المعاني ١٣/ ٢٥٥.

وقرأ الأخَوَان: «خالقُ» اسم فاعل. «والأرضِ» بالخفض، وقرأ باقي السبعة: «خَلقَ» فعلاً ماضياً «والأرض» بالفتح(١).

ومعنى «بالحق» قال الزمخشريّ(٢): بالحكمةِ والغرَضِ الصحيح والأمرِ العظيم، ولم يخلقها عبثاً ولا شهوة.

وقال ابن عطية(٣): «بالحقّ» أي بما يَحُقُّ من جهة مصالح عبادِه وإنفاذِ سابقِ قضائِه، وليدلَّ عليه وعلى قدرتِهِ.

وقيل: بقوله وكلامه. وقيل: «بالحقّ» حال، أي: مُحِقّاً.

والظاهر أنَّ قوله: «يُذْهِبْكُم» خطابٌ عامٌّ للناس، وعن ابن عباس: خطابٌ للكفار(٤).

﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يحتمل أن يكون المعنى إنْ يشأْ يُعْدِمْكُم(٥) أيُّها الناسُ ويأتِ بناسٍ آخرينَ من جنسِكم آدميِّين، ويحتمل: من غير جنسكم، والأول قولُ جمهور المفسِّرين. وتقدَّم تجويزُ هذين الاحتمالين للمفسِّرين في قوله في النساء: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [١٣٣]. وبيَّنَّا في ذلك أنه لا يحتمل إلا الوجه الأول.

«وما ذلك» أي: وما إذْهابُكم والإتيانُ بخلق جديد بممتنع ولا متعذِّرٍ عليه تعالى، لأنَّه تعالى هو القادرُ على ما يشاء.

وقال الزمخشريّ: لأنه قادرُ الذات(٦) لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، فإذا خَلَصَ له الداعي إلى شيء وانتفَى الصارف تكوَّنَ من غير توقُّف، كتحريك أصبعك إذا دعاك إليه داعٍ، ولم يعترض من دونه صارف. انتهى. وفيه دسيسةُ

(١) السبعة ص٣٦٢، والتيسير ص١٣٤. والأخَوان: حمزة والكسائي.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٧٢.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢.
(٤) ينظر زاد المسير ٤/ ٣٥٥.
(٥) في (د٢) و(يه): يعذبكم، وفي المطبوع: يذهبكم.
(٦) في الكشاف ٢/ ٣٧٢: بالذات.

الاعتزال لقوله: القادر الذات؛ لأنهم يُثبتون القادرية وينفون القدرة ولتشبيه فعلِه تعالى بفعل العبد في قوله: كتحريك أصبعك، وعندنا أنَّ تحريكَ أصبعنا ليس إلا بقدرة الله تعالى، وأنَّ ما نسب إلينا من القدرة ليس مؤثراً في إيجاد شيء.

وقال الزمخشري أيضاً: وهذه الآية بيانٌ لإبعادهم في الضلال وعظيمِ خَطْبهم في الكفر بالله لوضوحِ آياتِه الشاهدة له الدالةِ على قدرته الباهرة وحكمتهِ البالغة، وأنَّه هو الحقيقُ بأنْ يُعبَدَ ويُخاف عقابُه، ويُرجى ثوابُه في دار الجزاء. انتهى.

﴿وَبَرَزُوا﴾ أي: ظهرُوا من قبورهم إلى جزاء الله وحسابه، وقال الزمخشريّ: ومعنى بُروزِهم لله ـ واللهُ تعالى لا يتوارَى عنه شيء حتى يبرز ـ أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكابِ الفواحش، ويظنُّون أنَّ ذلك خافٍ على الله، فإذا كان يومُ القيامة انكشفُوا للهِ عند أنفسهم، وعلموا أنَّ الله لا تخفى عليه خافية.

وقال ابن عطية[1]: «وبَرَزُوا» معناه صارُوا بالبَرَاز، وهي الأرض المتَّسعة، فاستُعير ذلك لجمع يوم القيامة.

وقال أبو عبد الله الرازي[2]: تأويلُ الحكماء أنَّ النفس إذا فارقت الجسد فكأنَّه زالَ الغطاء، وبقيت متجرِّدةً بذاتها عاريةً عن كلِّ ما سواها، وذلك هو البُرُوزُ للهِ تعالى. انتهى. وهذا الرجلُ كثيراً مَّا يُوردُ كلامَ الفلاسفة، وهم مباينون لأهل الشرائع في تفسير كلام الله تعالى المنزَّل بلغة العرب، والعربُ لا تفهم شيئاً من مفاهيم أهل الفلسفة، فتفسيرُهم كاللُّغز والأحاجِيّ، ويُسَمِّيهم هذا الرجلُ حكماءَ، وهم من أجهل الكفَرَةِ بالله تعالى وبأنبيائه.

والضمير في «وبَرَزُوا» عائدٌ على الخلق المحاسَبين، وعبَّر بلفظ الماضي لصدق المخبَر بِهِ، فكأنَّه قد وقع[3].

وقرأ زيد بنُ عليّ: «وبُرِّزُوا» مبنيًّا للمفعول وبتشديد الراء.

والضعفاء: الأتباع والعَوَامّ، وكُتب بواو في المصحف قبل الهمزة على لفظ

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢.
(٢) تفسيره ١٩/ ١٠٧.
(٣) بنحوه في الكشاف ٢/ ٣٧٢.

من يُفَخِّم الألف قبل الهمزة فيُميلها إلى الواو، ومثله: ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[١] [الشعراء: ١٩٧].

والذين استكبروا هم رؤساؤهم وقاداتُهم استغْوَوا الضعفاء واستتبعوهم. و«استكبروا»: تكبَّروا وأظهروا تعظيمَ أنفسِهم، أو استكبروا عن اتِّباع الرُّسلِ وعبادةِ الله.

و«تَبَعاً» يحتمل أن يكون اسمَ جمع لتابع[٢]، كخادم وخَدَم، وغائب وغَيَب، ويحتمل أن يكون مصدراً، كقومٍ[٣] عَدْلٍ ورضاً.

و«هَلْ أنتم مُغْنُون» استفهامٌ معناه توبيخُهم إيَّاهم وتقريعُهم وقد علموا أنهم لن يُغنوا، والمعنى: إنَّا تَبِعْناكم فيما كنتم فيه من الضلال كما أمرتُمونا، وما أغنيتُم عنَّا شيئاً، ولذلك جاء جوابُهم: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ أجابوا بذلك على سبيل الاعتذار والخجَل وردِّ الهدايةِ إلى الله تعالى، وهو كلامٌ حقٌّ في نفسه.

وقال الزمخشريّ: «من» الأولى للتبيين، والثانية للتبعيض، كأنه قيل: هل أنتم مُغْنُون عنَّا بعضَ الشيء الذي هو عذابُ الله؟ ويجوز أن يكونا للتبعيض معاً بمعنى: هل أنتم مُغْنُون عنَّا بعضَ شيء هو بعضُ عذابِ الله؟ أي: بعضَ بعضِ عذابِ الله. انتهى.

وهذان التوجيهان اللذان وجَّهَهما الزمخشريّ في «مِن» في المكانَين يقتضي أوَّلهُما التقديم في قوله: «من شيء» على قوله: «من عذاب الله» لأنه جعلَ «من شيء» هو المبيَّن بقوله: «من عذاب الله»، و«من» التبيينيَّة يتقدَّم عليها ما تُبيِّنُه ولا يتأخَّر.

والتوجيهُ الثاني وهو بعضُ شيء هو بعضُ العذاب يقتضي أن يكون بدلاً، فيكون بدلَ عامٍّ من خاصٍّ، لأنَّ «من شيء» أعمُّ من قوله: «من عذاب الله»، وإنْ

(١) المصدر السالف.
(٢) أو جمع. وينظر روح المعاني ١٣/ ٢٥٧.
(٣) في النسخ عدا (ز١، يه): كقوله، والمثبت منهما.

عَنَى بشيء شيئاً من العذاب فيؤول المعنى إلى ما قدَّر، وهو بعضُ بعضِ عذابِ الله، وهذا لا يُقال، لأنَّ بعضيَّة الشيء مطلقة، فلا يكون لها بعض[١].

ونصَّ الحَوْفيُّ وأبو البقاء على أنَّ «من» في قوله: «مِنْ شيء» زائدة؛ قال الحَوْفيّ: «من عذاب الله» متعلّق بـ «مغنون»، و«من» في «من شيء» لاستغراق الجنس زائدة للتوكيد.

وقال أبو البقاء: و«من» زائدة، أي: شيئاً كائناً من عذاب الله، ويكون محمولاً[٢] على المعنى، تقديرُه: هل تمنعون عنا شيئاً. ويجوز أن يكون «شيء» واقعاً موقعَ المصدر، أي: غَنَاءً، فيكون «من عذاب الله» متعلِّقاً بـ «مُغْنُون» انتهى. ومُسَوِّغ الزِّيادة كون الخبر في سياق الاستفهام فكأنَّ الاستفهام دخل عليه وباشرَه، وصارت الزيادة هنا كالزيادة في تركيب: فهل تغنون؟

وقال الزمخشريّ[٣]: أجابوهم معتذرين عمَّا كان منهم إليهم بأنَّ الله لو هداهم إلى الإيمان لَهَدَوْهُم ولم يُضِلُّوهم إمَّا مُوَرِّكِين الذنب[٤] في ضلالهم وإضلالهم على الله كما حكى الله عنهم وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدُّنيا، ويدلُّ عليه قوله حكايةً عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ﴾ [المجادلة: ١٨]. انتهى.

وحكى أبو عبد الله الرازيّ[٥] عن الزمخشريّ أنهم قالوا ذلك مع أنهم كذَبُوا فيه، ويدلُّ عليه قوله تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ﴾. قال أبو عبد الله: واعلم أنَّ المعتزلة لا يُجَوِّزون

---

(١) للسمين الحلبي في الدّرّ المصون ٧/ ٨٦ تعقيب على كلام أبي حيَّان في هذين التوجيهين، وينظر أيضاً روح المعاني ١٣/ ٢٥٨.
(٢) في الإملاء ٢/ ٦٧ (والكلام منه): ويكون الفعل محمولاً . . .
(٣) الكشاف ٢/ ٣٧٣.
(٤) في اللسان (ورك): ورَّك فلان ذنبه على غيره: إذا أضافه إليه.
(٥) تفسيره ١٩/ ١٠٩.

صدورَ الكذب على أهل القيامة، فكان هذا القولُ منه مخالفاً لأصول مشايخِه فلا يقبلُ منه.

وقال الزمخشري أيضاً: ويجوز أن يكون المعنى[١]: لو كنَّا من أهل اللُّطف فلَطَفَ بنا ربُّنا واهتدَيْنا لَهَدَيْناكم إلى الإيمان.

قال أبو عبد الله الرازيّ: وذكر القاضي هذا الوجهَ وزيَّفَه بأن قال: لا يجوزُ حملُ هذا على اللطف لأنَّ ذلك قد فعلَه الله، وقيل: لو خَلَّصَنا الله من العذاب وهدانا إلى طريق الجنة لهديناكم.

وقال الزمخشري في بسط هذا القول: لو هدانا اللهُ طريقَ النَّجاة من العذاب لهديناكم، أي: لأغنَيْنا عنكم وسَلَكْنا بكم طريقَ النجاة كما سَلَكْنا بكم سبيلَ الهلكة. انتهى.

وقيل: ويدلُّ على أنَّ المراد بالهدى الهدى إلى طريق الجنة أنه هو الذي التمسوه وطلبوه، فوجَبَ أن يكون المرادَ[٢].

وقال ابن عباس: لو أرشَدَنا الله لأرشَدْناكم[٣].

والظاهر أن قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾إلى آخره داخلٌ تحت قولِ المستكبرين، وجاءت جُمَلاً[٤] بلا واو عطف، كأنَّ كلَّ جملة أُنشئت مستقلَّة غير معطوفة، وإن كانت مرتبطاً بعضُها ببعض من جهة المعنى، لأنَّ سؤالهم: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾ إنَّما كان لجَزَعهم ممَّا هم فيه، فقالوا لهم ذلك؛ سَوَّوْا بينهم وبينهم في ذلك لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها، يقولون: ما هذا الجَزَع والتوبيخ؟ ولا فائدة في الجَزَع كما لا فائدة في الصبر، أوْ لمَّا[٥]

(١) سلف قول الزمخشري: إمَّا مُوَرِّكين... إلخ، وكلامه هنا القسم الثاني منه فقال: وإمَّا أن يكون المعنى... الخ.

(٢) تفسير الرازي ١٩/١٠٩، وفيه: فوجبَ أن يكون المرادُ من الهداية هذا المعنى.

(٣) المصدر السابق. وهو في تفسير الواحدي ٣/٢٩، وزاد المسير ٤/٣٥٦ دون نسبة.

(٤) المثبت من (ز١) و(يه). وفي (ح) والمطبوع: جُمَلُهُ، وفي باقي النسخ: جملة.

(٥) في (د٢) و(ع) والمطبوع: ولما. والكلام في الكشاف ٢/٣٧٣.

قالوا: «لو هدانا الله» أَتْبَعُوا ذلك بالإقناط من النَّجاة فقالوا: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾أي، مَنْجًى ومَهْرَبٍ جَزِعْنا أم صَبَرْنا.

وقيل: «سواءٌ علينا» من كلام الضُّعفاء والذين استكبروا، التقدير: قالوا جميعاً: «سواءٌ علينا» يُخبرون عن حالهم[١].

وتقدَّم الكلام في مثل هذه التسوية في أول البقرة.

والظاهر أنَّ هذه المحاورة بين الضعفاء والرؤساء هي في موضع العَرْض وقتَ البُرُوز بين يدي الله.

وعن محمد بن كعب وابن زيد أنَّ قولهم: «سواءٌ علينا أجَزِعنا أم صَبَرْنا» بعد صبرهم في النار خمس مئة عام وبعد جَزَعِهم مثلها[٢].

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

مناسبة هذه الآية لما قبلَها أنه لما ذكرَ محاورةَ الأتباع لرؤسائهم الكفرة ذكر محاورةَ الشيطان وأتباعه من الإنس، وذلك لاشتراك الرؤساء والشياطين في التلبُّس بالإضلال، والشيطان هنا إبليس، وهو رأس الشياطين.

وفي حديث الشفاعة من حديث عقبة بن عامر أنَّ الكافرين يقولون: وجدَ المؤمنون مَنْ يشفعُ لهم، فمن يشفعُ لنا؟ فيقولون: ما هو غير إبليس؛ هو الذي أضلَّنا. فيأتونه فيقولون: قد وجدَ المؤمنون من يشفعُ لهم، فقُم أنت فاشفَعْ لنا، فإنَّك أضلَلْتَنا. فيقوم فيثورُ من مجلسه أنتَنُ ريحٍ شَمَّهُ أحد، يقول عند ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾الآية[٣].

(١) المصدر السالف ٢/ ٣٧٤.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢-٣٣٣. وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦٢٧.
(٣) مسند ابن المبارك (١١١)، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٣٠-٦٣١، وتفسير الثعلبي ٣/ ٤٦٢-٤٦٣، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٢٨، وأشار إليه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٣. وإسناده ضعيف.

وعن الحسن: يقفُ إبليس خطيباً في جهنَّم على منبرٍ من نار يسمعُه الخلائق جميعاً فيقول: «إنَّ اللهَ وعَدَكم وَعْدَ الحقِّ» يعني البعثَ والجنةَ والنارَ وثوابَ المطيع وعقابَ العاصي، فَصَدَقَكُم وَعْدَه «ووعَدْتُكم» أنْ لا بعثَ ولا جنةَ ولا نارَ ولا ثوابَ ولا عقاب «فأخلفتُكم»[١].

ومعنى «قُضِيَ الأمر» تعيَّن قومٌ للجنة وقومٌ للنار، وذلك كلُّه في الموقف، وعليه يدلُّ حديث الشفاعة، أو بعد حصول أهلِ الجنة في الجنة، وأهلِ النار في النار، ويدلُّ عليه ما ذكرناه عن الحسن. وهو تأويل الطبري[٢].

وقيل: «قُضِيَ الأمر» قُطِعَ وفُرِغَ منه، وهو الحساب، وتَصادُرُ الفريقين[٣] إلى مقرَّيْهما.

و«وَعْدَ الحقّ» يحتمل أن يكون من إضافة الموصوف إلى صفتِه، أي: الوعد الحقّ، وأن يكون «الحقّ» صفةَ الله، أي: وعدَه، وأن يكون «الحقّ» الشيء الثابت، وهو البعثُ والجزاء على الأعمال، أي فوفى لكم بما وعدَكم، «ووعدتُكم» خلافَ ذلك «فأخلفتُكم»[٤].

و«إلا أن دعوتُكم» الظاهر أنه استثناءٌ منقطع[٥]؛ لأنَّ دعاءه إياهم إلى الضلالة ووسوستَه ليس من جنس السلطان، وهو الحجَّة البيِّنة.

قيل: ويحتمل أن يريد بالسلطان الغَلَبة والتسليط[٦] والقدرة، أي: ما اضطررتُكم ولا خوَّفتُكم بقوَّة مني، بل عرضتُ عليكم شيئاً فأتى رأيُكم عليه.

وقيل: هو استثناءٌ متصل؛ لأنَّ القدرة على حمل الإنسان على الشيء تارةً يكون بالقَهْر من الحامل، وتارةً يكون بتقوية الداعية في قلبه، وذلك بإلقاء الوَسْواس إليه، فهذا نوعٌ من أنواع التسليط.

---

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٣٠، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٢٧.
(٢) تفسيره ١٣/ ٦٢٨. وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٣.
(٣) في (ح) و(د١): وصار الفريقان. والكلام في الكشاف ٢/ ٣٧٤.
(٤) المصدر السالف.
(٥) تفسير الثعلبي ٣/ ٤٦٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٣، وزاد المسير ٤/ ٣٥٧، والإملاء ٢/ ٦٨، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٢٨، وهو مراد الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٧٤.
(٦) في (ز١) و(يه): والتسلُّط.

قيل: وظاهر هذا الكلام يدلُّ على أنَّ الشيطان لا قدرة له على صَرْعِ الإنسان وتعويج أعضائِهِ وجوارحِه وإزالةِ عقلِه.

﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾وقُرِئ: «فلا يلوموني» بالياء على الغيبة[١]، وهو التفات، يريد في ما أتيتُموه من الضلال «ولُومُوا أنفسكم» في سوء نظركم واستجابتكم لدعائي من غير تثبُّت ولا حجَّة.

وقال الزمخشري: «ولُومُوا أنفسكم» حيث اغتررتُم بي[٢] وأطعتموني إذْ دعوتُكم، ولم تطيعوا ربَّكم إذْ دعاكم، وهذا دليل على أنّ الإنسان هو الذي يختار الشقاوةَ والسعادة[٣] ويُحصِّلُها لنفسه، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين، ولو كان الأمر كما تزعم المُجْبِرَة[٤] لقال: فلا تلُوموني ولا أنفسَكم، فإنَّ الله قَضَى عليكم الكُفر وأجبرَكم عليه. انتهى. وهو على طريقة الاعتزال.

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾قال ابن عباس: بنافعكم. وقال ابن جُبير: بمنقذكم. وقال الربيع: بمنجيكم. وقال مجاهد: بمغيثكم[٥]. وكلُّها أقوال متقاربة.

وقرأ يحيى بن وثَّاب والأعمش وحمزة: «بمُصْرِخيِّ» بكسر الياء[٦]. وطعنَ كثيرٌ من النُّحاة في هذه القراءة؛ قال الفرَّاء: لعلَّها من وَهْم القُرَّاء، فإنَّه قلَّ من سَلِمَ منهم من الوَهْم، ولعله ظنَّ أنَّ الباء في «بمصرخيّ» خافضة للفظ كلِّه والياء للمتكلِّم خارجة من ذلك.

وقال أبو عبيد: نراهم غلطوا، ظنُّوا أن الباء تكسرُ لِما بعدَها.

وقال الأخفش: ما سمعتُ هذا من أحد من العرب ولا من النحويين.

(١) القراءات الشاذة ص٦٨.
(٢) لفظة «بي» من (ز١). وهي كذلك في الكشاف ٢/ ٣٧٤، والكلام منه.
(٣) في المصدر السابق: أو السعادة.
(٤) المُجْبِرَة أو الجَبْرِيَّة، فرقة تعتقد أن العبد مجبورٌ لا اختيارَ له.
(٥) النكت والعيون ٣/ ١٣١.
(٦) السبعة ص٣٦٢، والتيسير ص١٣٤، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٩، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٦٨، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٤.

وقال الزجَّاج: هذه القراءةُ عند جميع النحويين رديئة مرذُولة، ولا وجهَ لها إلا وُجَيْهٌ ضعيف.

وقال النحَّاس: صار هذا إجماعاً ولا يجوز أن يُحمَلَ كتابُ الله على الشذوذ(١).

وقال الزمخشري(٢): هي ضعيفة واستشهدوا لها ببيتٍ مجهول:

قالَ لها هل لكِ يا تا فيِّ

قالَتْ لهُ ما أنتَ بالمَرْضِيِّ(٣)

وكأنَّه قَدَّرَ ياءَ الإضافة ساكنةً وقبلَها ياء ساكنة، فحرَّكها بالكسر لِما عليه أصلُ التقاء الساكنين، ولكنه غير صحيح، لأنَّ ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحةً حيث قبلَها ألف في نحو: عَصَايَ، فما بالُها وقبلها ياء؟

فإنْ قلتَ: جرتِ الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح لأجل الإدغام، فكأنَّها ياءٌ وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن فحُرِّكت بالكسر على الأصل.

قلت: هذا قياس حسن، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات. انتهى.

أمَّا قولُه: واستشهدُوا لها ببيت مجهول، قد ذكرَ غيرُه أنه للأغلب العِجْلي وهي لغة باقية في أفواه كثير من الناس إلى اليوم، يقول القائل ما فيِّ أفعل كذا، بكسر الياء.

وأمَّا التقدير الذي قال، فهو توجيهُ الفَرَّاء، ذكره عنه الزجَّاج.

(١) ينظر ما سلف في: معاني كلٍّ من الفراء ٢/ ٧٦، والأخفش ٢/ ٥٩٩، والزجَّاج ٣/ ١٥٩، والنحاس ٢/ ٣٦٨-٣٦٩.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٧٤-٣٧٥.

(٣) الرَّجَز للأغلب العجلي كما سيرد، وهو في المصادر المذكورة في التعليقين قبلَه. وقال ابن مجاهد في المحتسب ٢/ ٤٩: أراد: فيَّ، ثم أشبعَ الكسرةَ للإطلاق. اهـ. وقال البغدادي في الخزانة ٤/ ٤٣١: «تا» منادى، وهو اسم إشارة يُشار به إلى المؤنث، و«لكِ» جار ومجرور خبر مبتدأ محذوف وهو متعلِّق قوله: فيَّ. يقول: هل لكِ رغبةٌ فيَّ؟

وأمَّا قولُه في غُضون كلامه: حيث قبلَها ألف، فلا أعلمُ «حيثُ» تضاف إلى الجملة المصدَّرة بالظرف، نحو: قعدَ زيدٌ حيثُ أمامَ عَمرٍو بكرٌ[١]، فيحتاج هذا التركيب إلى سماع[٢].

وأمَّا قولُه: لأنَّ ياء الإضافة إلى آخره، قد رُوِيَ سكونُ الياء بعد الألف، وقرأ بذلك القُرَّاء، نحو: «ومَحْيَايْ»[٣].

وما ذهب إليه مَنْ ذكَرْنَا من النُّحاة لا ينبغي أن يُلتفت إليه، لأنَّ هذه قراءةٌ متواترة، نقلَها السَّلَفُ[٤]، واقتفى آثارَهم فيها الخَلَفُ، فلا يجوزُ أن يقال فيها: إنها خطأ أو قبيحة أو رديئة، وقد نقلَ جماعةٌ من أهل اللغة أنها لغة، لكنه قلَّ استعمالُها، ونَصَّ قُطْرُب على أنها لغة في بني يربوع.

وقال القاسم بنُ معن وهو من رؤساء النحويِّين الكوفيين: هي صواب، وسأل حسينُ الجُعْفيُّ أبا عَمرو بنَ العلاء وذكرَ له تلحينَ أهلِ النحو، فقال: هي جائزة. وقال أيضاً: لا تُبالي إلى أسفلَ حَرَّكْتَها أم إلى فوق. وعنه أنه قال: هي بالخفض حسنة. وعنه أيضاً أنه قال: هي جائزة، وليست عند الإعراب[٥] بذاك.

ولا التفاتَ إلى إنكار أبي حاتم على أبي عَمرٍو تحسينَها، فأبو عَمرو إمامُ لغة وإمامُ نحو وإمام قراءة، وعَربيٌّ صريح، وقد أجازَها وحسَّنَها، وقد رَوَوْا بيت النابغة:

عَلَيَّ لِعَمْرٍو نِعْمَةٌ بعدَ نِعْمَةٍ لِوَالِدِهِ ليسَتْ بذاتِ عَقَارِبِ[٦]

---

(١) المثبت من (ز١) والمطبوع، ووقع في (يه): عمرو وبكر، وفي الأخرى: عمرو من بكر. وكلاهما خطأ.

(٢) تعقَّب السمين في الدُّرِّ ٧/ ٩١-٩٢ المصنِّفَ بقوله: إطلاقُ النحاةِ قولهم: إنَّ «حيثُ» تُضاف إلى الجُمل كافٍ في هذا، ولا يحتاجُ إلى تتبُّع كل فردٍ فرد؛ مع إطلاقهم القوانين الكليَّة.

(٣) هي من الآية (١٦٢) من سورة الأنعام، والقراءة بسكون الياء لنافع.

(٤) قوله: «لأن هذه قراءة متواترة نقلها السلف» من (ز١)، وسقط من النسخ الأخرى.

(٥) في إبراز المعاني ٢/ ٥٥١: عند أهل الإعراب.

(٦) ديوان النابغة الذبياني ص٩. وعمرو: هو ابنُ الحارث الذي صارَ إليه النابغة حين فارقَ النعمان بن المنذر. كذا في المعارف ص٦٤٣، وقوله: بذات عقاربٍ، أي: لا يُكَدِّرُها ولا يَمُنُّها، قاله أبو الفرج في الأغاني ١١/ ١٧، وقال ابن منظور في اللسان ١/ ٦٢٤: أي هنيئة غير ممنونة.

بخفض الياء من «عَلَيِّ»[(١)].

و«ما» في «بما أشركتموني» مصدريَّة، و«من قبلُ» متعلِّق بـ «أشْرَكْتُموني» أي: كفرتُ اليومَ بإشراككم إيَّايَ من قبلِ هذا اليوم، أي: في الدنيا، كقوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤]. وقال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[(٢)] [فاطر: ١٤].

وقيل: موصولة بمعنى «الذي» والتقدير: كفرتُ بالصنم الذي أشركتمونيه، فحذفَ العائد[(٣)].

وقيل: «من قبلُ» متعلِّق بـ «كفرتُ» و«ما» بمعنى: «الذي» أي: كفرتُ من قبلُ حين أبيتُ السجودَ لآدم بالذي أشركتمونيه، وهو الله عزَّ وجلَّ. تقول: شَرِكْتُ زيداً، فإذا أدخلتَ همزةَ النقل قلت: أشْرَكْتُ زيداً عَمْراً، أي: جعلتُه له شريكاً[(٤)]، إلا أنَّ في هذا القول إطلاقَ «ما» على الله تعالى، و«ما» الأصحُّ فيها أنها لا تُطلق على آحاد من يعلم.

وقال الزمخشري: ونحوُ «ما» هذه ـ يعني في إطلاقها على الله ـ «ما» في قولهم: «سبحان ما سَخَّرَكُنَّ لنا» انتهى. ومَنْ منعَ ذلك جعلَ «سبحان» عَلَماً على معنى التسبيح كما جعل «بَرَّة» عَلَماً للمبرَّة، و«ما» مصدريَّة ظرفية[(٥)].

ويكون ذلك من إبليس إقراراً على نفسه بِكفرِهِ الأقدم، أي: خطيئتي قبلَ خطيئتِكم، فلا إصراخَ عندي[(٦)].

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الظاهرُ أنه من تمام كلام إبليس؛ حكى اللهُ عنه ما سيقولُه في ذلك الوقت ليكون تنبيهاً للسامعين على النظر في عاقبتهم والاستعدادِ

---

(١) ذكر السمين في الدُّرّ المصون ٧/ ٩٢ أنَّ النُّحاة أنشدوها بالكسر والفتح.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٧٥.
(٣) ينظر الإملاء ٢/ ٦٨.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٧٥.
(٥) قال السمين ٧/ ٩٧: فيكون على حذف مضاف، أي: سبحان صاحبِ تسخيرِكُنّ؛ لأن التسبيح لا يليق إلا بالله.
(٦) وتكون «ما» على هذا المعنى موصولة، يريد الله تعالى. ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٤.

لِما لا بدَّ منه، وأن يتصوَّروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول، فيخافوا ويعملوا ما يُخَلِّصُهم منه ويُنجيهم[1].

وقيل: هو من كلام الخَزَنَة يوم ذاك. وقيل: من كلام الله تعالى.

ولأبي عبد الله الرازي كلامٌ هنا في الشيطان والملائكة يُوقف عليه من تفسيره[2].

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ لمَّا جمعَ الفريقين في قوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وذكرَ شيئاً من أحوال الكفار؛ ذكرَ ما آلَ إليه أمرُ المؤمنين من إدخالهم الجنة.

وقرأ الجمهور: «وأُدْخِلَ» ماضياً مبنيًّا للمفعول. وقرأ الحسن وعَمرو بن عبيد: «وأُدْخِلُ» بهمزة المتكلِّم مضارع: «أَدْخَلَ» أي: وأُدْخِلُ أنا[3]. وعلى قراءة الجمهور يحتمل أن يكون الفاعل الملائكة.

والظاهر تعلُّق «بإذن ربِّهم» بـ «أُدْخِلَ»[4]، وقال الزمخشريّ: فإنْ قلتَ: فبم يتعلَّق - يعني «بإذن رَبِّهم» - في القراءة الأخرى، وقولُك: وأُدخِلُهم أنا بإذن ربِّهم؛ كلامٌ غيرُ ملتئم؟ قلت: الوجهُ في هذه القراءة أنْ يتعلَّق قوله: «بإذنِ ربِّهم» بما بعدَه، أي: تحيَّتُهم فيها سلامٌ بإذن ربِّهم. يعني أنَّ الملائكة يُحيُّونَهم بإذنِ ربِّهم. انتهى.

فظاهرُ كلامه أنَّ «بإذنِ ربِّهم» معمولٌ لقوله: «تحيَّتُهم» ولذلك قال: يعني أنَّ الملائكة يُحَيُّونَهم بإذن ربِّهم. وهذا لا يجوزُ، لأنَّ فيه تقديمَ معمول المصدر المنحلّ بحرف مصدري والفعل عليه، وهو غير جائز.

وقال أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازيّ: الحَسَنُ: «أُدْخِلُ» برفع اللام

(١) الكشاف ٢/ ٣٧٥.
(٢) تفسير الرازي ١٩/ ١١٢-١١٤.
(٣) المحتسب ١/ ٣٦١، والكشاف ٢/ ٣٧٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٤، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٣١. ووقع في القراءات الشاذة ص٦٨: وأُدخِلُوا. وهو خطأ.
(٤) قال السمين: ويجوز تعلُّقه بمحذوف على أنه حال، أي ملتبسين بأمر ربِّهم، وجوَّز أبو البقاء أن يكون من تمام «خالدين» يعني أنه متعلق به، وليس بممتنع.

على الاستقبال بإخبار الله تعالى عن نفسِه، فيصيرُ بذلك «بإذنِ ربهم» ألطفَ لهم وأحنى عليهم.

وتقدَّم تفسير «تَحيَّتُهمْ فيها سلام» في أوائل «يونس» [١٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

تقدَّم الكلامُ في «ضَرَبَ» مع المَثَل في أوائل «البقرة» [١٧ و٢٦] فكان يغني ذلك عن الكلام فيه هنا إلا أنَّ المفسِّرين أبْدَوْا هنا تقديراتٍ، فأعربَ الحَوْفيُّ والمهدويُّ وأبو البقاء[١] «مَثَلاً» مفعولاً بـ «ضَرَبَ» و«كلمةً» بدلاً من «مَثَلاً» وإعرابُهم هذا تفريع على أن «ضَرَبَ» مع المَثَل لا يتعدَّى إلا إلى مفعول واحد.

وقال ابنُ عطية وأجازَه الزمخشريّ[٢]: «مَثَلاً» مفعول بـ «ضَرَبَ»، و«كلمة» مفعول أول تفريعاً على أنها مع المَثَل تتعدَّى إلى اثنين، لأنَّها بمعنى «جَعَلَ»، وعلى هذا تكون «كشجرة» خبرَ مبتدأ محذوف، أي: جعلَ كلمةً طيبةً مثلاً هي - أي الكلمة - كشجرةٍ طيِّبة، وعلى البَدَل تكون «كشجرة» نعتاً للكلمة.

وأجاز الزمخشريّ وبدأ به أن تكون «كلمةً» نصباً بمضمر، أي: جعلَ كلمةً طيِّبةً كشجرةٍ طيِّبة، وهو تفسير لقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ كقولك: شرَّفَ الأميرُ زيداً كساه حُلَّةً وحملَه على فرس. انتهى. وفيه تكلُّف إضمار لا ضرورةَ تدعو إليه[٣].

وقرئ شاذًّا: «كلمةٌ طيِّبةٌ» بالرفع؛ قال أبو البقاء[٤]: على الابتداء، و«كشجرة»

(١) الإملاء ٢/ ٦٨.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٧٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٤-٣٣٥.
(٣) قال السمين: بل معناه محتاجٌ إليه، فيُضطرُّ إلى تقديره محافظةً على لمح هذا المعنى الخاص. الدر المصون ٧/ ٩٩.
(٤) الإملاء ٢/ ٦٨.

خبرُه. انتهى. ويجوز أن يكون خبرَ مبتدأ محذوف، والتقدير: هو ـ أي: المَثَلُ ـ كلمةٌ طيِّبة كشجرة، و«كشجرة» نعتٌ لـ «كلمة».

والكلمة الطيِّبة هي: «لا إله إلا الله»، قاله ابن عباس، أو الإيمان، قاله مجاهد وابنُ جُريج، أو المؤمن نفسُه، قاله عطيَّة العَوْفي والرَّبيع[١]، أو جميعُ طاعاتِه أو القرآن، قاله الأصمّ، أو دعوة الإسلام، قاله ابنُ بحر، أو الثناء على الله أو التسبيح والتنزيه.

والشجرة الطيِّبة المؤمن، قاله ابنُ عباس، أو جوزة الهند، قاله علي وابنُ عباس[٢]، أو شجرة في الجنة، قاله ابن عباس أيضاً، أو النخلة، وعليه أكثرُ المتأوِّلين، وهو قول ابن مسعود وابن عباس وأنس ومجاهد وعكرمة والضحَّاك وابنِ زيد[٣]، وجاء ذلك نصًّا من حديث ابنِ عمر ممَّ خرَّجَهُ الدَارَقطنيُّ عنه قال: قرأ رسولُ الله ﷺ وذكرَ الآية، فقال: «أتَدْرُونَ ما هي؟» فوقع في نفسي أنها النخلة، الحديث[٤].

وقال أبو العالية: أتيتُ أنس بنَ مالك فجيء بطَبَقٍ عليه رُطَب، فقال أنس: كُلْ يا أبا العالية، فإنَّها الشجرة الطيِّبة التي ذكرَها الله في كتابه. ثم قال: أُتيَ رسولُ الله ﷺ بقِناعِ بُسْرٍ[٥]، وتلا هذه الآية[٦]، وفي الترمذي من حديث أنس نحوُ هذا[٧].

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦٣٥-٦٣٦، والنكت والعيون ٣/ ١٣٢، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٣٢.
(٢) نسبه ابنُ مردويه لابن عباس (كما في الدر المنثور ٤/ ٧٧)، ونسبه السهيليّ في التعريف والإعلام ص٨٥ لعليّ وقال: لا يصحّ.
(٣) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦٣٧-٦٤١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٥، وزاد المسير ٤/ ٣٥٨، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٣٢.
(٤) لم أقف عليه عند الدارقطني، وذكره عنه القرطبي ١٢/ ١٣٣، وهو بنحوه في صحيح البخاري (٦١) وصحيح مسلم (٢٨١١) دون ذكر الآية.
(٥) البُسْر: التَّمْرُ قبل إرطابِه، والقِناع (والقِنْع أيضاً): الطَّبق من عُسُب النَّخْل. (القاموس: بسر ـ قنع). وتحرَّف لفظ «قِناع» في النسخ الخية والمطبوع إلى: صاع.
(٦) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦٣٧-٦٣٩، وتفسير الثعلبي ٣/ ٤٦٣.
(٧) رواه الترمذي عنه (٣١١٩) مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أصحّ كما ذكر الترمذي بإثره والقرطبي ١٢/ ١٣٣.

وقال الزمخشريّ[١]: كلُّ شجرةٍ مثمرةٍ طيِّبةِ الثمار، كالنَّخلة، وشجرةِ التين، والعِنَب، والرُّمَّان، وغير ذلك. انتهى.

وقد شبَّه الرَّسولُ المؤمنَ الذي يقرأ القرآن بالأُتْرُجَّة[٢]، فلا يبعد أن يُشَبَّهَ أيضاً بشجرتها.

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: في الأرض، ضاربٌ بعروقِهِ فيها[٣].

وقرأ أنس بن مالك: «كشجرة طيبةٍ ثابتٍ أصلُها»[٤]. أجريت الصفة على الشجرة لفظاً وإن كانت في الحقيقة للسَّبَبيّ، وقراءةُ الجماعة فيها إسنادُ الثبوت إلى السببيّ لفظاً ومعنًى، وفيها حُسن التقسيم، إذْ جاء «أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء» يريد بالفَرْع أعلاها ورأسَها، وإن كان المشَبَّهُ به ذا فروع، فيكون من باب الاكتفاء بلفظ الجنس[٥].

ومعنى «في السماء» جهةُ العُلُوّ والصعود، لا المِظَلَّة[٦]، وفي الحديث: «خلقَ اللهُ آدمَ طولُه في السماء ستُّون ذراعاً»[٧].

ولمَّا شبهتُ الكلمةُ الطيبةُ بالشجرة الطيِّبة كانت الكلمةُ أصلُها ثابتٌ في قلوب أهلِ الإيمان، وما يصدرُ عنها من الأفعال الزكيَّة والأعمالِ الصالحِة هو فَرْعُها يصعدُ إلى السماء إلى الله تعالى[٨]: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وما يترتَّب على ذلك العمل ـ وهو ثوابُ الله ـ هو جَنَاها.

ووصفَ هذه الشجرةَ بأربعة أوصاف:

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧٦.
(٢) الأُتْرُجَّة واحدة الأُتْرُجّ، من فصيلة الحمضيات، كبيرة الحجم، تسمى في بلاد الشام الكَبَّاد.
(٣) الكشاف ٢/ ٣٧٦.
(٤) المحتسب ١/ ٣٦٢ (وينظر فيه كلام ابن جنّي عليها) والكشاف ٢/ ٣٧٦.
(٥) ينظر الكشاف ٢/ ٣٧٦.
(٦) الكشاف ٢/ ٣٧٦.
(٧) هو نحو قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١). وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٥.
(٨) بنحوه في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٥.

الأول: قولُه: «طيِّبة» أي: كريمةُ المنبتِ والأصلِ في الشجر، لذيذة في المَطْعَم؛ قال الشاعر:

طَيِّبُو البَاءَةِ سَهْلٌ ولَهُمْ سُبُلٌ إنْ شئتَ في وَحْشٍ وَعِرْ[1]

أي: ساحتُهم طيبةٌ سَهْلَة.

الثاني: رُسُوخ أَصْلِها، وذلك يدلُّ على تمكُّنها، وأنَّ الرِّياح لا تَقْصفُها، فهي بطيئةُ الفَناء، وما كان كذلك حصلَ الفَرَحُ بوِجْدانِه.

والثالث: عُلُوُّ فَرْعِها، وذلك يدلُّ على تمكُّن الشجرة ورُسوخِ عُروقِها، وعلى بعدها عن عفونات الأرض، وعلى صفائها من الشوائب.

الرابع: ديمومةُ وجودِ ثمرتِها وحضورها في كلِّ الأوقات.

والحينُ في اللغة قطعةٌ من الزَّمان. قال الشاعر:

تناذَرَها الرَّاقونَ من سُوءِ سُمِّها تطلِّقُهُ حِيناً وحِيناً تُراجِعُ[2]

والمعنى: تُعطي جَنَاها كلَّ وقتٍ وقتَه الله له.

وقال ابنُ عباس وعكرمة ومجاهد والحسن: أي كلَّ سنة[3]. ولذلك قال ابنُ عباس وعكرمة ومجاهد والحَكَم وحمَّاد وجماعة من الفقهاء: مَنْ حَلَفَ أن لا يفعلَ شيئاً حِيناً، فإنه لا يفعلُه سنة، واستشهدوا بهذه الآية[4].

---

(١) البيت لطَرَفَة بن العبد، وهو في ديوانه ص٥٤، واللسان (بوأ). قال البغدادي في الخزانة ٨/ ٤٨٨: الباءة الساحة والفِناء، أي: ساحتُهم طيِّبةٌ سهلة لمن أراد معروفهم، وهي وعرة خشنة لمن أرادهم بسوء، والوحش المتوحِّش، وهو كناية عن خشونة الجانب وشدَّتِه.

(٢) البيت للنابغة الذُّبياني، وهو بهذه الرواية في النكت والعيون ٣/ ١٣٢، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٣٥، وذكر أنها رواية الأصمعي. وروايتُه في ديوانه ص٨٠: تُطَلِّقُهُ طَوْراً وطَوْراً تُراجِعُ.

(٣) نُسب القول في تفسير الثعلبي ٣/ ٤٦٣ لمجاهد وعكرمة وابن زيد، ونسب في زاد المسير ٤/ ٣٥٩ لابن عباس ومجاهد وابن زيد.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٥. وينظر تفسير القرطبي ١/ ٤٧٩.

وقيل: ثمانية أشهر؛ قاله عليٌّ، وقال مجاهد: ستة أشهر[(١)]، وهي مدَّة بقاء الثمر عليها.

وقال ابن المسيِّب: الحين شهران؛ لأنَّ النخلة تدومُ مثمرةً شهرين[(٢)].

وقيل: لا تتعطَّل من ثمر تحمل في كلِّ شهر، وهي شجرة جَوْز الهند.

وقال ابن عباس أيضاً والضحاك والربيع: «كلَّ حين» أي: كلَّ غُدوة وعَشِيَّة ومتى أُرِيدَ جَنَاها[(٣)]. ويتخرَّجُ على أنَّها شجرةٌ في الجنة.

والتذكُّر المرجُوّ بضرب المَثَل هو التفهُّم والتصوُّر للمعاني المُدْرَكة بالعقل، فمتى أُبرزت مشبَّهةً بالمحسوسات لم ينازِع فيها الحسّ والخيال والوَهْم، وانطبق المعقول على المحسوس، فحصل الفهمُ والوصول إلى المطلوب.

والكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر على قول الجمهور[(٤)]، وقال مسروق: الكذب، وقال ابن بَحْر[(٥)]: دعوة الكفر وما يُعزى إليه الكافر، وقيل: كل كلامٍ لا يرضاه الله تعالى.

وقرأ أُبيّ: «وضَرَبَ الله مثلاً كلمةً خبيثة»[(٦)]، وقُرئ: «ومَثَلَ كلمةٍ» بنصب «مَثَل» عطفاً على «كلمةً طيبةً»[(٧)].

---

(١) نُسب هذا القول في النكت والعيون ٣/ ١٣٢ للحسن وعكرمة، وزادَ ابنُ عطية ٣/ ٣٣٥ نسبتَه لابن عباس، وزادَ أيضاً ابنُ الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٥٩ نسبتَه لقتادة.

(٢) تفسير الثعلبي ٣/ ٤٦٤، وزاد المسير ٤/ ٣٥٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٥، وفي النكت والعيون ٣/ ١٣٢: أربعة أشهر.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٥. وينظر تفسير الثعلبي ٣/ ٤٦٤.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٦، والوسيط ٣/ ٣٠، والنكت والعيون ٣/ ١٣٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٦، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٣٦.

(٥) المثبت من (د١) و(ز١) و(يه) ولم أقف على هذا القول. ووقع في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع) والمطبوع: أن تجرَّ (؟).

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٦.

(٧) الكشاف ٢/ ٣٧٧.

والشجرة الخبيثة شجرةُ الحنظل. قاله الأكثرون؛ ابنُ عباس ومجاهدٌ وأنسُ بنُ مالك ورواه عن النبيّ ﷺ[1].

وقال الزجَّاج وفرقة: شجرة الثوم[2]، وقيل: شجرة الكَشُوث، وهي شجرة لا ورقَ لها ولا أصل؛ قال:

وَهْيَ كَشُوثٌ[3] فلا أصلٌ ولا ثَمَرُ[4]

قال ابن عطية[5]: ويَرِدُ على هذه الأقوال أنَّ هذه كلَّها من النَّجْم[6] وليست من الشجر، واللهُ تعالى إنَّما مثَّل بالشجر، فلا تسمَّى هذه شجرة إلا بتجوُّز، فقد قال رسول الله ﷺ في الثُّوم والبصل: «مَنْ أَكَلَ من هذهِ الشجرةِ».

وقيل: الطُّحْلُبة، وقيل: الكَمْأة، وقيل: كلُّ شجر لا يَطِيبُ له ثَمَر، وعن ابن عباس: هي الكافر، وعنه أيضاً: شجرة لم تُخلق على الأرض[7].

وقال ابن عطية: والظاهرُ عندي أنَّ التشبيهَ وقعَ بشجرةٍ غيرِ معيَّنة إذا

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٦٥٣-٦٥٤، والنكت والعيون ٣/ ١٣٤، وزاد المسير ٤/ ٣٦٠، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٣٧. وحديث أنس المرويّ هنا هو تتمة حديثه السالف في تفسير الكلمة الطيِّبة عند الترمذي (٣١١٩) وذكر الترمذي أنَّ وَقْفَهُ على أنس أصحُّ من رَفْعِه.

(٢) لعلّ في نسبة هذا القول إلى الزَّجَّاج وهماً، فقولُه في معانيه ٣/ ١٦١ (ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٦) هو القولُ الآتي بعده: شجرة الكَشُوث.

(٣) في (ح): الكشوت. ووقع في النسخ الأخرى: تشُوت (بالتاء) وهو خطأ.

(٤) هو صدر بيت، وعجُزه: ولا نسيمٌ ولا ظِلٌّ ولا ثمرُ. كما في مجمع الأمثال ١/ ٢٨٤ و٢/ ٢٥٠، واللسان (كشث) وفيهما: هو الكَشُوث... إلخ. وروايةُ صدره في تفسير القرطبي ١٢/ ١٣٧: وهم كَشُوث... إلخ. وفي التذكرة الحمدونية ٥/ ١٥٨: هم الكَشُوث، وفي عجزه: ولا زَهَرُ، بدل: ولا ثمرُ. ونُسب فيه لأبي علي بن عبدوس الرازي. وروايتُه في غرر الخصائص الواضحة ص٥٦:

هم الكَشُوثُ فلا أصلٌ ولا ثَمَرُ ولا نسيمٌ ولا ظلٌّ ولا ورقُ

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٦.

(٦) النجم من النبات ما لم يكن على ساق.

(٧) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦٥٤، والنكت والعيون ٣/ ١٣٤، وزاد المسير ٤/ ٣٦٠، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٣٧. وقوله ﷺ: «من أكلَ من هذه الشجرة...» أخرجه البخاري (٨٥٣)، ومسلم (٥٦١) عن ابن عمر ﵄.

وُجدت منها هذه الأوصاف، هو[1] أن يكون كالعِضاهِ أو شجرة السَّموم ونحوِها إذا اجْتُثَّت ـ أي اقتُلعت جُثَّتُها ـ بنزع الأصول وبقيت في غاية الوَهْي والضَّعْف، فيُقلِّهُا أقلُّ ريح، فالكافرُ يرى أنَّ بيده شيئاً وهو لا يستقرُّ ولا يُغني عنه، كهذه الشجرة التي يَظُنُّ بها على بُعد الجاهلُ أنها شيءٌ نافعٌ وهي خبيثةُ الجَنَى غيرُ نافعة. انتهى. و«اجتُثَّتْ من فوق الأرض» مقابلٌ لقوله: «أصلُها ثابت» أي: لم يتمكَّن لها أصلٌ ولا عِرْقٍ في الأرض، وإنَّما هي نابتةٌ على وجه الأرض. «ما لَها من قَرار» أي: استقرار، يقال: قَرَّ الشيءُ قَرَاراً: ثَبَتَ ثباتاً، شَبَّهَ بهذه الشجرةِ القولَ الذي لم يُعْضَد بحُجَّة، فهو لا يثبت، بل يضمحلُّ عن قريبٍ لبطلانه[2].

و«القولُ الثابت» هو الذي ثبتَ بالحُجَّة والبُرهان في قلب صاحبِه وتمكَّن فيه، واطمأنَّت إليه نفسُه، وتثبيتُهم به في الدنيا كونُهم لو فُتنوا عن دينهم في الدنيا لَثَبَتُوا عليه ومازَلُّوا، كما جرى لأصحاب الأخدود، والذين نُشِرُوا بالمناشير، ومُشطت[3] لحومُهم بأمشاط الحديد، وكما ثبت جِرْجِيس وشمعون وبلال حين كان يُعَذَّبُ بالرَّمضاء وهو يقول: أَحَدٌ أَحَد.

وتثبيتُهم في الآخرة كونهم إذا سُئلوا عند تواقف[4] الأشهاد عن معتقدهم لم يتلعثموا ولم يُبْهَتُوا ولم تُحيِّرْهُم أهوالُ الحَشْرِ.

و«الذين آمنوا» عامٌّ من لدن آدم إلى يوم القيامة، وقال طاوس وقتادة وجمهورٌ من العلماء: إنَّ تثبيتَهم في الدُّنيا هو مدَّةُ حياة الإنسان. وفي الآخرة هو في وقت سؤالِهِ في قبره. ورجَّحَ هذا القولَ الطبريُّ[5].

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٦: فالخُبْثُ هو...

(٢) الكشاف ٢/ ٣٣٧.

(٣) المثبت من (ز١) و(يه)، وهي كذلك في المصدر السالف (والكلام منه بنحوه). وفي النسخ الأخرى: كُشطت.

(٤) في (د١) والمطبوع: توافق. وهو خطأ. والكلام في المصدر السالف.

(٥) تفسيره ١٣/ ٦٦٧. والكلام في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٧.

وقال البراء بن عازب وجماعة: «في الحياة الدنيا» هي وقتُ سؤالِهِ في قبرِه، ورواه البراء عن النبي ﷺ[١].

«وفي الآخرة» هو يوم القيامة عند العرض[٢].

وقيل: معنى تثبيته في الحياة الدنيا وفي الآخرة هو حياتُه على الإيمان وحشرُه عليه.

وقيل: التثبيت في الدنيا الفتح والنصر، وفي الآخرة الجنةُ والثوابُ، وما صحَّ عن الرسول ﷺ في حديث البراء[٣] من تلاوته عند إقعاد[٤] المؤمن في قبرِهِ وسُئلَ وشهدَ شهادة الإخلاص قولَه تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية = لا يَظْهَرُ منه تَعَيُّنُ أنَّ الحياة الدنيا هي حياة الإنسان، وأنَّ الآخرة هي في القبر، ولا أنَّ الحياةَ الدنيا هي في القبر وأنَّ الآخرة هي يوم القيامة، بل اللفظُ مُحْتَمِل.

ومعنى «يُثَبِّتُ» يُديمُهم عليه ويمنعُهم من الزَّلَل، ومنه قولُ عبد الله بنِ رواحة:

فثبَّتَ اللهُ ما آتاكَ من حَسَنٍ تثبيتَ موسى ونَصْراً كالذي نُصِروا[٥]

والظاهرُ أنَّ «بالقول الثابت» متعلّق بقوله: «يُثَبِّتُ»، وقيل: يتعلَّق بـ «آمنوا».

وسؤالُ العبدِ في قبره معتقدُ أهلِ السُّنَّة وأنكره المعتزلة، والحديثُ الصحيح يشهد لأهل السُّنَّة[٦].

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾أي: الكافرين، لمقابلتهم المؤمنين، وإضلالُهم في الدنيا كونُهم لا يَثْبُتُون في مواقف الفتن، وتزلُّ[٧] أقدامُهم، وهي الحَيْرةُ التي

---

(١) عبارة المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٧: «ورواه البراء عن النبي ﷺ في لفظ متأوَّل». وسيشير المصنف إلى حديثه.
(٢) المصدر السالف.
(٣) ينظر صحيح البخاري (١٣٦٩)، وصحيح مسلم (٢٨٧١).
(٤) في (أ) و(ع): إبعاد، وفي المطبوع: إيعاد. وكلاهما تحريف.
(٥) تفسير الطبري ٤/ ٦٦٨، والنكت والعيون ٣/ ١٣٥ (وفيه: نُصِرا). وينظر سيرة ابن هشام ٢/ ٣٧٣. والاستيعاب ص٣٩٧ (ترجمة عبد الله بن رواحة).
(٦) قوله: وأنكره المعتزلة... الخ. من (ز١) و(يه). ولم يرد في المطبوع والنسخ الأخرى.
(٧) في (ح) و(د١): وتزول.

تلحقُهم، إذ ليسوا متمسِّكين بحُجَّة، وفي الآخرة هو اضطرابُهم في جوابهم.

ولمَّا تقدَّم تشبيهُ الكلمة الطيبة على تشبيه الكلمة الخبيثة؛ تقدَّم في هذا الكلام مَنْ نُسبت إليه الكلمة الطيِّبة، وتلاه مَنْ نُسبت إليه الكلمةُ الخبيثة.

ولمَّا ذكرَ تعالى ما فعلَ بكلٍّ واحد من القسمين ذكرَ أنه لا يمكنُ اعتراضٌ فيما خَصَّ به كلَّ واحدٍ منهما؛ إذ ذاك راجعٌ إلى مشيئتِهِ فقال[1]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[2] [الحج: ١٨]، ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقال الزمخشري: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾أي: [ما] تُوجِبُهُ[3] الحكمة؛ لأنَّ مشيئة الله تابعةٌ للحكمة من تثبيتِ المؤمنين وتأييدهم وعصمتِهم عند ثباتِهم وعزمِهم، ومن إضلالِ الظالمين وخِذْلانِهم، والتَّخليةِ بينَهم وبينَ شأنِهم عند زلَلِهم. انتهى. وفيه دسيسةُ الاعتزال.

﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

لمَّا ذكرَ حالَ المؤمنين وهُداهم، وحالَ الكافرين وإضلالهم؛ ذكرَ السببَ في إضلالهم.

و«الذين بدَّلوا» ظاهرُه أنَّه عامٌّ في جميع المشركين. قاله الحسن[4]، بدَّلُوا بنعمةِ الإيمانِ الكُفْرَ.

وقال مجاهد: هم أهل مكة[5]، أنعم الله تعالى عليهم ببَعْثِهِ رسولاً منهم يُعلِّمُهم أمرَ دينِهِ، وشرَّفَهم به، وأسكنَهم حَرَمَهُ وجعلَهم قُوَّامَ بيته، فوضعوا مكانَ شكرِ هذه النعمةِ كفراً.

---

(١) لفظة: فقال، من (ز١) و(يه). وجاء بدلها في النسخ الأخرى: تعالى.

(٢) كذا وقع في النسخ الخطية. ولفظ الآية هنا: ويفعل الله ما يشاء.

(٣) تحرفت اللفظة في (أ) و(د١) و(د٢) والمطبوع إلى: توجيه. ولفظة «ما» بين حاصرتين من الكشاف ٢/ ٣٧٧.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٣٦، وزاد المسير ٤/ ٣٤٤، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٤١.

(٥) بنحوه في النكت والعيون ٣/ ١٣٦، وجاء في الطبري ١٣/ ٦٧٥ عن ابن عباس.

وسألَ ابنُ عباسٍ عمرَ عنهم، فقال: هما الأفجران[١] من قريش: أخوالي، أي: بني مخزوم، واستُؤصلوا ببدر، وأعمامُك، أي بني أمية، ومُتِّعُوا إلى حين. وعن علي نحوٌ من ذلك[٢].

وقال قتادة: هم قادةُ المشركين يومَ بدر، وعن عليٍّ: هم قريش الذين تحزَّبُوا يومَ بدر. وعلى أنهم قريشٌ جماعةٌ من الصحابة والتابعين.

وعن علي أيضاً: هم منافقو قريش[٣]؛ أنعمَ عليهم بإظهار عَلَم الإسلام، بأن صانَ دماءَهم وأموالَهم وذَرَارِيهم، ثم عادُوا إلى الكفر، وعن ابن عبَّاس: في جَبَلَة بن الأيْهَم[٤]. ولا يريد أنَّها نزلت فيه؛ لأنَّ نزول الآية قبلَ قصَّتِه، وقصتُه كانت في خلافة عُمر، وإنَّما يريدُ ابنُ عبَّاس أنَّها تخصُّ مَنْ فَعَلَ فِعْلَ جَبَلَة إلى يوم القيامة.

و«نعمةُ الله» على حذف مضاف، أي: بَدَّلُوا شُكْرَ نعمةِ الله، كقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، أي: شُكْرَ رِزْقِكُم، كأنَّه وجبَ عليهم الشُّكر، فوَضَعوا مكانَه كفراً وجعلُوا مكانَ شكرهم التكذيب.

قال الزمخشريّ: ووَجْهٌ آخرُ؛ وهو أنَّهم بدَّلُوا نفسَ النعمةِ كُفْراً، على أنَّهم لمَّا كَفَرُوها سُلِبُوها، فبَقُوا مسلوبي النِّعمَة، موصوفين[٥] بالكفر حاصلاً لهم الكفرُ بَدَلَ النعمة، وهم أهلُ مكة، أسكنَهم الله حَرَمَهُ، وجعلَهم قوَّامَ بيتهِ، وأكرمَهم بمحمدٍ ﷺ، فكفَرُوا نعمةَ الله بَدَلَ ما ألزمَهم[٦] من الشكر العظيم، أو أصابَهم اللهُ بالنِّعمة[٧] والسَّعة لإيلافهم الرِّحلتين، فكفرُوا نعمتَه، فضربَهم الله بالقَحْط سبعَ

(١) المثبت من (ز١) و(يه). وتحرَّف في النسخ الأخرى والمطبوع إلى: الأعراب.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٦٧٠-٦٧١، وينظر تفسير الثعلبي ٣/ ٤٦٨، والنكت والعيون ٣/ ١٣٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٧، وزاد المسير ٤/ ٣٦٢.
(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٦٧٢ و٦٧٣، وزاد المسير ٤/ ٣٦٢.
(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٦٧٧، والنكت والعيون ٣/ ١٣٦، وتفسير الثعلبي ٣/ ٤٦٨. وينظر تفسير القرطبي ١٢/ ١٤١.
(٥) من قوله: كفراً على أنهم لما. . . إلى هذا الموضع من (ز١) و(يه). والكلام في الكشاف ٢/ ٣٧٧.
(٦) في (ح) و(د١): لزمهم. وهو كذلك في الكشاف ٢/ ٣٧٧.
(٧) بعدها في المصدر السالف: في الرخاء.

سنين، فحصلَ لهم الكفرُ بَدَلَ النِّعمة، وكذلك حين أُسِرُوا وقُتِلُوا يوم بدر؛ قد ذهبت عنهم النعمة[1]. وبقيَ الكفرُ طوقاً في أعناقهم. انتهى.

و«نعمةَ الله» هو المفعولُ الثاني، لأنه هو الذي يدخلُ عليه حرف الجرّ، أي: بنعمةِ الله، و«كفراً» هو المفعول الأول، كقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٖ﴾ [الفرقان: ٧٠] أي: بسيِّئاتهم حسناتٍ، فالمنصوبُ هو الحاصل، والمجرورُ بالباء ـ أو المنصوبُ على إسقاطها ـ هو الذاهبُ، على هذا لسانُ العرب، وهو على خلاف ما يفهمُه العوامُّ وكثيرٌ ممن ينتمي إلى العلم، وقد أوضحنا هذه المسألة في قوله في البقرة: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [١٠٨].

وإذا قدَّرْتَ مضافاً محذوفاً ـ وهو شكرُ نعمة الله ـ فهو الذي دخلت عليه الباء ثم حُذفت، وإذا لم يقدَّر مضاف محذوف فالباء دخلت على «نعمة» ثم حُذفت.

﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾ أي: مَنْ تابعَهم على الكفر.

وزعمَ الحَوْفيّ وأبو البقاء[2] أنَّ «كُفْراً» هو مفعولٌ ثانٍ لـ «بدَّلُوا»، وليس بصحيح، لأنَّ «بدَّلَ» من أخوات «اختار» فالذي يُباشرُه حرفُ الجرّ هو المفعولُ الثاني، والذي يصلُ إليه الفعلُ بنفسه لا بوساطة حرف الجرّ هو المفعولُ الأولُ.

وأعربَ الحَوْفيّ وأبو البقاء «جهنمَ» بَدَلاً من «دار البَوَار»، والزمخشريُّ: عطفَ بيان، فعلى هذا يكون الإحلال في الآخرة.

و«دار البَوَار» هي جهنم، وقاله ابنُ زيد، وقيل عن عليّ: يوم بدر[3]. وعن عطاء بن يسار: نزلت في قتلى بدر[4]. فيكون «دار البَوَار» أي: الهلاك في الدنيا، كقَلِيب بدر، وغيرِه من المواضع التي قُتِلُوا فيها.

وعلى هذا أعربَ ابنُ عطية وأبو البقاء «جهنَّمَ» منصوباً على الاشتغال، أي: يَصْلَوْن جهنَّم يَصْلَوْنَها. ويؤيِّد هذا التأويلَ قراءةُ ابن أبي عَبْلة «جهنم» بالرفع على

(١) قوله: وكذلك حين أُسروا... إلى هذا الموضع من (ز١). وهو كذلك في الكشاف ٢/ ٣٧٧.
(٢) الإملاء ٢/ ٦٨.
(٣) النكت والعيون ٣/ ١٣٦، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٤٢. وأخرج الطبري ١٣/ ٦٧٧-٦٧٨ قول ابن زيد.
(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٦٧٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٨.

أنه يحتمل أن يكون «جهنم» مرفوعاً على أنه خبرُ مبتدأ محذوف، وهذا التأويل أولى لأنَّ النصب على الاشتغال مرجوح من حيث إنه لم يتقدَّم ما يرجِّحُه، ولا ما يكون مساوياً له.

وجمهورُ القرَّاء على النصب، ولم يكونوا ليقرؤوا بغير الرَّاجح أو المساوي، إذ: زيدٌ ضربتُه أفصحُ من زيداً ضربتُه، فلذلك كان ارتفاعه على أنه خبرُ مبتدأ محذوف في قراءة ابنِ أبي عَبْلَة راجحاً.

وعلى تأويل الاشتغال يكون «يَصْلَوْنَها» لا موضعَ له من الإعراب، وعلى التأويل الأوَّل جوَّزُوا أن يكون حالاً من «جهنَّم» أو حالاً من «دار البَوَار» أو حالاً من «قَوْمَهم».

والمخصوصُ بالذمِّ محذوف، تقديرُه: وبئس القرار هي، أي: جهنَّم.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: زادوا إلى كُفرِ نعمتِه أنْ صَيَّرُوا له أنداداً، وهي الأصنامُ التي اتخذوها آلهةً من دون الله.

وقرأ ابنُ كثير وأبو عَمرو: «لِيَضِلُّوا» هنا، و«لِيَضِلَّ» في الحجِّ [٩] ولقمان [٦] والزُّمَر[١] [٨] بفتح الياء، وباقي السبعة بضمِّها[٢].

والظاهرُ أنَّ اللام لامُ الصيرورة والمآل؛ لمَّا كانت نتيجةُ جعلِ الأندادِ آلهةً الضلالَ أو الإضلال؛ جرى مجرى لام العلَّة في قولك: جئتُك لتُكرِمَني، على طريقة التشبيه.

وقيل: قراءة الفتح لا تَحتمِلُ أن تكون اللام إلا لامَ العاقبة[٣]، وأمَّا بالضمّ فتَحتمِلُ العاقبة والعلَّة.

والأمرُ بالتَّمتُّع أمرُ تهديدٍ ووعيد، على حدِّ قوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]. قال الزمخشري[٤]: «تَمَتَّعُوا» إيذانٌ بأنَّهم لانغماسِهم في التَّمتُّع بالحاضرِ وأنَّهم

---

(١) المثبت من (ز١) و(يه). ووقع في النسخ الأخرى والمطبوع: الروم. وهو خطأ.
(٢) السبعة ص٢٦٧، والتيسير ص١٣٤. وينظر تفسير القرطبي ١٢/ ١٤٢.
(٣) لفظة «إلا» من (ز١) و(يه)، وسقطت من النسخ الأخرى، وهذا القولُ لابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٨، وينظر الدر المصون ٧/ ١٠٣.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٧٨.

لا يعرفون غيرَه ولا يريدونَه مأمورُون به قد أمرَهم آمِرٌ مُطاع لا يسعُهم أن يخالفوه، ولا يملكون لأنفسهم أمراً دونَه، وهو أمرُ الشهوة، والمعنى: إنْ دُمتُم على ما أنتم عليه من الامتثال لأمرِ الشهوة فإنَّ مصيرَكم إلى النار. ويجوزُ أن يُراد الخِذْلانُ والتخلية، ونحوُه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]. انتهى.

و«مصيركم» مصدر «صار» التامَّة بمعنى: «رَجَعَ»، وخَبرُ «إنّ» هو قوله: «إلى النار»؛ ولا يقال هنا «صار» بمعنى «انتقلَ»، ولذلك تعدَّت بـ «إلى»، أي: فإنَّ انتقالكم إلى النار، لأنه تبقى «إنَّ» بلا خبر، ولا ينبغي أن يُدَّعَى حذفُه فيكون التقدير: فإنَّ مصيركم إلى النار واقعٌ لا محالة أو كائن، لأنَّ حذفَ الخبر في مثل هذا التركيب قليل، وأكثرُ ما يُحذف إذا كان اسم «إنَّ» نكرة، والخبرُ جارٌّ ومجرور[١]. وقد أجازَ الحَوْفيُّ أن يكون «إلى النار» متعلِّقاً بـ «مصيركم»، فعلى هذا يكون الخبرُ محذوفاً.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

لمَّا ذكرَ تعالى حالَ الكفار وكُفْرَهم نعمتَه وجَعْلَهم له أنداداً وتَهدَّدَهم؛ أمَرَ المؤمنين بلزوم الطاعةِ والتيقُّظِ لأنفسهم والتزامِ[٢] عمودَي الإسلام الصلاة والزكاة قبلَ مجيء يومِ القيامة.

ومعمول «قُلْ» محذوف، تقديرُه: أقيموا الصلاةَ يقيموا، و«يقيموا» مجزوم على جواب الأمر، وهذا قولُ الأخفش والمازنيّ، ورُدَّ بأنه لا يلزمُ من القول أن يُقيموا،

(١) وشاهدُه قولُ الأعشى (كما في ديوانه ص٢٨٣): إنَّ مَحَلًّا وإنَّ مُرْتَحَلاً. والتقدير كما قال البغدادي في الخزانة ١٠/ ٤٥٢: إنَّ لنا مَحَلًّا في الدنيا ما عشنا، وإنَّ لنا مُرْتَحَلاً إلى الآخرة. وينظر الكتاب ٢/ ١٤١، وسرّ صناعة الإعراب ٢/ ٥١٧، والدرّ المصون ٧/ ١٠٤.

(٢) المثبت من (ز١) و(يه). وفي النسخ الأخرى والمطبوع: وإلزام.

ورُدَّ هذا الردُّ بأنه أمرٌ للمؤمنين بالإقامة؛ لا للكافرين، والمؤمنون متى أمرَهم الرسولُ بشيء فعلُوه لا محالة.

قال ابنُ عطية[١]: ويحتمل أن يكون «يقيموا» جوابَ الأمر الذي يعطينا معناه قولهُ: «قل» وذلك أن تجعلَ «قُلْ» في هذه الآية بمعنى: بَلِّغْ وَأَدِّ الشريعةَ يُقِيمُوا الصلاة. انتهى. وهذا قريب ممَّا قبلَه إلا أن فيما قبلَه معمول القول «أقيموا»، وفي هذا: الشريعة، على تقدير: بلِّغ الشريعةَ.

وذهبَ الكسائيُّ والزجَّاج وجماعة إلى أنَّ معمول «قُلْ» هو قولُه: «يُقيموا» وهو أمر مجزوم بلام الأمر محذوفة على حدِّ قول الشاعر:

محمَّدُ تَفْدِ[٢] نَفْسَكَ كلُّ نَفْسٍ

أنشدَه سيبويهِ إلا أنه قال: إنَّ هذا لا يجوزُ إلا في الشِّعر[٣].

وقال الزمخشري[٤] في هذا القول: وإنَّما جازَ حذفُ اللام لأنَّ الأمر الذي هو «قُلْ» عِوَضٌ منه، ولو قيل: يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداءً بحذف اللام؛ لم يَجُزْ. انتهى.

وذهب المبرِّد[٥] إلى أنَّ التقدير: قل لهم أقيموا يقيموا، فـ «يُقِيمُوا» المصرَّح به جواب «أقيموا» المحذوف، قيل: وهو فاسدٌ لوجهين:

أحدُهما: أنَّ جوابَ الشرط يخالف الشرط إمَّا في الفعل، أو في الفاعل، أو فيهما. فأمَّا إذا كان مثلَه فيهما فهو خطأ، كقولك: قُم تقم، والتقدير على هذا الوجه: إنْ يُقيموا يقيموا.

والوجه الثاني: أنَّ الأمر المقدَّر للمواجهة، و«يقيموا» على لفظ الغيبة، وهو خطأ إذا كان الفاعل واحداً[٦].

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٩.
(٢) أي: لِتَفْدِ.
(٣) بنحوه في الكتاب ٣/ ٨. وينظر خزانة الأدب ٩/ ١١.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٧٨.
(٥) نقله عنه أبو البقاء في الإملاء ٢/ ٦٩. وهو بنحوه في المقتضب ٢/ ٨٤.
(٦) الإملاء ٢/ ٦٩.

وقيل: التقدير: إنْ تَقُلْ لهم أقيموا يقيموا. قاله سيبويه فيما حكى ابنُ عطية[١].

وقال الفرَّاء[٢]: جواب الأمر معه شرطٌ مقدَّر، تقول: أطعِ اللهَ يُدخِلْكَ الجنة، أي: إنْ تُطعه يُدْخِلْك الجنة. ومخالفةُ هذا القول للقول قبلَه أنَّ الشرط في هذا مقدَّر بعد فعل الأمر، وفي الذي قبلَه الأمرُ مضمَّنٌ معنى الشرط.

وقيل: هو مضارع بلفظ الخبر، صُرف عن لفظ الأمر، والمعنى: أقيموا. قاله أبو علي وفرقة. ورُدَّ بأنَّه لو كان مضارعاً بلفظ الخبر ومعناه الأمرُ لَبَقِيَ على إعرابه بالنون، كقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ [الصف:١٠]. ثم قال: «تؤمنون» والمعنى: آمِنُوا. واعتلَّ أبوعليّ لذلك بأنه لمَّا كان بمعنى الأمر بُنِيَ، يعني على حذف النون لأنَّ المراد: أقيموا. وهذا كما بُنِيَ الاسم المتمكِّن في النِّداء في قولك: يا زيد ـ يعني على الضمة ـ لمَّا شُبِّه بـ «قبلُ وبعدُ»[٣]. انتهى.

ومتعلَّق القولِ الملفوظ به أو المقدَّر في هذه التخاريج هو الأمرُ بالإقامة والإنفاق إلا في قول ابن عطية؛ فتعلَّقُه: الشريعة، فهو أعمُّ؛ إذْ قَدَّرَ «قُلْ» بمعنى: بَلِّغْ وأدِّ الشريعة. قال ابنُ عطية: ويظهرُ[٤] أنَّ المَقُول هو الآية التي بعدُ، أعني قولَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾. انتهى.

وهذا الذي ذهبَ إليه من كون معمولِ القول هو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾ الآية تفكيكٌ للكلام يُخالفه ترتيبُ التركيب، ويكون قولُه: «يقيموا الصلاة» كلاماً مفلَّتاً من القول ومعمولِه، أو يكون جواباً فُصل به بين القول ومعمولِه، ولا يترتَّبُ أن يكون جواباً؛ لأنَّ قولَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ لا يستدعي إقامةَ الصلاة والإنفاقَ إلا بتقديرٍ بعيدٍ جدّاً.

واحتمل «الصلاة» أن يُراد بها العموم، أي: كلَّ صلاة فرض وتطوُّع، وأن يُراد بها الخَمْسُ، وبذلك فسَّرها ابنُ عبَّاس، وفَسَّرَ الإنفاقَ بزكاة الأموال[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٨.

(٢) نقله عن الفراء القرطبيُّ في تفسيره ١٢/ ١٤٣. وهو بمعناه في معاني الفراء ٢/ ٧٧.

(٣) ذكر الآلوسي في روح المعاني ١٣/ ٢٨٩ أنَّ هذا القول ممَّا لا يكاد يُلتفت إليه.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٩: وقيل، بدل: ويظهر.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦٨٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٩، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٤٣.

وتقدَّم إعرابُ «سرًّا وعلانيةً» وشرحُهما في أواخر البقرة.

وقال أبو عبيدة: البيع هنا: البَذْل[١]، والخِلال المُخَالَّة، وهو مصدر من: خالَلْتُ خِلالاً ومُخالَّةً، وهي المصاحبة. انتهى. ويعني بالبَذْل مقابل شيء.

وقال امرؤ القيس:

صرفْتُ الهوى عنهنَّ من خشية الرَّدَى ... ولَسْتُ بِمَقْليِّ الخِلَالِ ولا قَالِ[٢]

وقال الأخفش[٣]: الخِلال جمع خُلَّة.

وتقدَّم الخلاف في قراءة ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ بالفتح أو بالرفع في البقرة[٤] [٢٥٤]. والمرادُ بهذا اليوم يومُ القيامة.

قال الزمخشريّ: فإن قلت: كيف طابقَ الأمرُ بالإنفاق وصفَ اليوم بأنه لا بيعٌ فيه ولا خِلال؟ قلت: من قِبَلِ أنَّ الناسَ يُخرِجون أموالَهم في عقود المعاوضات، فيُعطونَ بَدَلاً ليأخذوا مِثلَه، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء، ليستجرُّوا[٥] بهداياهم أمثالَها أو خيراً منها، وأمَّا الإنفاقُ لوجهِ الله خالصاً كقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٩-٢٠] فلا يفعلُه إلا المؤمنون الخُلَّص، فبعثوا عليه ليأخذوا بَدَلَه في يوم لا بيعٌ فيه ولا خِلال، أي: لا انتفاعَ فيه بمبايعة ولا مُخَالَّة ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارمات، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله. انتهى.

ولما أطالَ تعالى الكلامَ في وصف أحوال السُّعداء والأشقياء وكان حصولُ السَّعادة بمعرفة الله وصِفاته، والشقاوةِ بالجهل بذلك؛ ختَم وَصْفَه بالدلائل الدالَّة

---

(١) قول أبي عبيدة هذا نقله الرازي ١٩/ ١٢٥ وفيه: الفداء، بدل: البذل. وفي مجاز القرآن ١/ ٣٤١: مبايعة فِدْية. ووقع في (ح) و(د١): البَدَل. وكذا في الموضع التالي.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٣٥. قال شارحه: يقول: لم أصرمهنَّ؛ لا لأنَّني قليتُهنَّ ولا لأنهنَّ قَلَيْنَني، ولكن خشية الافتضاح والعار.

(٣) في معانيه ٢/ ٥٩٩، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٩.

(٤) قرأ ابن كثير وأبو عَمرو ويعقوب بالفتح من غير تنوين، وقرأ الباقون بالرفع والتنوين. وينظر السبعة ص١٨٧، والتيسير ص٨٢، والنشر ٢/ ٢١١.

(٥) في المطبوع: ليستخرجوا. والكلام في الكشاف ٢/ ٢٧٨-٢٧٩.

على وجود الصانع، وكمالِ علمه وقدرتِه، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وذكر عَشَرَةَ أنواع من الدَّلائل، فذكرَ أوّلاً إبداعَه وإنشاءَه السماواتِ والأرضَ، ثم أعقبَ بباقي الدَّلائل، وأبرزَها في جُمل مستقلَّة لِيَدُلَّ وينبِّهَ على أنَّ كلَّ جملة منها مستقلَّةٌ في الدِّلالة، ولم يجعل متعلَّقاتِها معطوفاتٍ عَطْفَ المفردِ على المفرد.

و«الله» مرفوع على الابتداء، و«الذي» خبرُه، قال ابنُ عطية[١]: ومن أُخْبِرَ بهذه الجملة وتقرَّرَتْ في نفسه آمنَ وصلَّى وأنفق. انتهى. يشيرُ إلى ما تقدَّم من قوله: إنَّ معمول «قُلْ» هو قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية، فكأنَّه يقولُ: «يقيموا الصلاة» جوابٌ لقوله: قُلْ لعبادي الله الذي خلق السماوات والأرض.

والظاهر أنَّ مفعول «أَخْرَجَ» هو «رِزْقاً لكم»، و«مِنْ» للتبعيض، ولمَّا تقدَّم على النَّكرة كان في موضع الحال، ويكون المعنى أنَّ الرِّزقَ هو بعضُ جَنْي الأشجار، ويخرجُ منها ما ليس برزق، كالمجرَّد للمضرَّات.

ويجوز أن تكون «مِنْ» لبيان الجنس، قاله ابن عطية والزمخشريّ، وكأنَّه قال: فأخرجَ به رزقاً لكم هو الثمرات. وهذا ليس بجيِّد؛ لأنَّ «مِنْ» التي لبيان الجنس إنما تأتي بعد المبهم الذي تُبَيِّنُه[٢].

وقال الزمخشريّ[٣]: ويجوز أن يكون «من الثمرات» مفعول «أَخْرَجَ»، و«رزقاً» حالاً من المفعول، أو نصباً على المصدر من «أَخْرَجَ» لأنه في معنى رَزَقَ.

وقيل: «مِنْ» زائدة، وهذا لا يجوز عند جمهور البصريِّين؛ لأنَّ ما قبلَها واجبٌ، وبعدَها معرفة، ويجوزُ عند الأخفش[٤].

و«الفُلْك» هنا جمع «فُلْك»[٥]، ولذلك قال: «لِتجرِيَ»، ومعنى «بأَمْرِهِ» راجع

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٩.

(٢) قال السمين: قد يُجاب عنهما بأنهما أرادا ذلك من حيث المعنى لا الإعراب. ينظر الدر المصون ٧/ ١٠٨.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٧٩.

(٤) بنحوه في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٩.

(٥) الفُلْك: السفينة، واحدٌ وجمع، يُذكَّر ويؤنَّث. ينظر الصحاح (فلك).

إلى الأمر القائم بالذات. وقال الزمخشريّ: بقوله[(١)]: «كُنْ»، وانطوى في تسخير الفُلك تسخيرُ البحار وتسخيرُ الرِّياح، وأمَّا تسخيرُ الأنهار فبجريانِها وبتفجيرِها للانتفاع بها.

وانتصب «دائبَيْن» على الحال، والمعنى: يَدْأبانِ في سَيْرِهما وإنارتِهما وإصلاحِهما ما يُصلحانِ من الأرض والأبدان والنبات[(٢)].

وعن مقاتل بن حَيَّان[(٣)] يرفعُه إلى ابن عباس أنه قال: معناه دائبَيْنِ في طاعة الله، قال ابنُ عطية[(٤)]: وهذا قولٌ إنْ كانَ يُرادُ به أنَّ الطاعةَ انقيادٌ منهما في التسخير فذلك موجودٌ في قوله: «سَخَّرَ»، وإن كان يُرادُ أنَّها طاعةٌ مقصودة كطاعة العبادة من البشر، فهذا جيِّد. والله أعلم. انتهى.

وتسخيرُ الليلِ والنهار كونُهما يتعاقبانِ خِلْفَةً للمنام والمعاش. وقال المتكلِّمون[(٥)]: تسخيرُ الليل والنهار مجازٌ لأنهما عَرَضان، والأعراضُ لا تُسَخَّر.

ولمَّا ذكرَ تعالى تلك النعم العظيمة؛ ذكرَ أنه لم يقتصر عليها، فقال: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ﴾ والخطاب للجنس من البشر، أي إنَّ الإنسان قد أوتيَ من كلِّ ما شأنُه أن يُسألَ ويُنتفع به، ولا يطَّردُ هذا في كلِّ واحدٍ من الناس، وإنَّما تفرَّقت هذه النِّعم في البشر، فيقال بحسب هذا للجميع: أوتيتُم كذا، على جهة التقرير للنعمة[(٦)].

وقرأ ابنُ عبَّاس والضحَّاك والحسن ومحمد بن عليّ وجعفر بنُ محمد وعَمرو بن فائد وقتادة وسَلَّام ويعقوب ونافع في رواية: «من كلٍّ» بالتنوين[(٧)]، أي: من كلٍّ هذه المخلوقات المذكورات.

---

(١) المثبت من (ز١) و(يه)، وهو كذلك في الكشاف ٢/ ٣٧٩. ووقع في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع) والمطبوع: لقوله. وفي (د١): كقوله.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٧٩.
(٣) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: حبان. وهو خطأ.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٩. وقول ابن عباس فيه، وفي تفسير الثعلبي ٣/ ٤٦٨.
(٥) تفسير الرازي ١٩/ ١٢٨.
(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٠. وفيه: التعديد للنعمة.
(٧) ينظر القراءات الشاذة ص٦٨، وتفسير الثعلبي ٣/ ٤٦٨، والمحتسب ١/ ٣٦٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٠، وزاد المسير ٤/ ٣٦٤، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٤٥.

و«ما» موصولة مفعول ثانٍ، أي: ما شأنُه أن يُسأل، بمعنى: يُطلب الانتفاعُ به. وقيل: «ما» نافية، والمفعول الثاني هو: «من كلٍّ»[١]، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] أي: غيرَ سائليه، أخبرَ بسُبوغ نعمتِه عليهم بما لم يسألوه من النِّعم، ولم يعرض لما سألوه، والجملة المنفيةُ في موضع نصب على الحال، وهذا القول بدأ به الزمخشريُّ، وثنَّى به ابنُ عطية وقال: إنه تفسيرُ الضحَّاك، وهذا التفسير يظهرُ أنَّه منافٍ لقراءة الجمهور: «من كلِّ ما سألتموه» بالإضافة، لأنَّ في تلك القراءة على ذلك التخريج تكون «ما» نافية، فيكونون لم يسألوه، وفي هذه القراءة يكونون قد سألوه، و«ما» بمعنى الذي.

وأُجيز أن تكون مصدرية، ويكون المصدر بمعنى المفعول.

ولمَّا أحَسَّ الزمخشريُّ بظهور التنافي بين هذه القراءة وبين تلك على تقدير أنَّ «ما» نافية قال: ويجوز أن تكون «ما» موصولة على: وآتاكم من كلِّ ذلك ما احتجتُم إليه ولم تصلُح أحوالُكم ومعايشكم إلَّا به، فكأنَّكم سألتُموه أو طلبتُموه بلسان الحال[٢]. فتأوَّلَ «سألتُموه» بقوله: ما احتجتُم إليه.

والضمير في «سألتموه» إنْ كانت «ما» مصدريَّة عائدٌ على الله تعالى، ويكون المصدرُ يُرادُ به المسؤول، وإنْ كانت موصولة بمعنى «الذي» عادَ عليها، والتقدير: من كلِّ الذي سألتُموه إيَّاه، ولا يجوز أن يكون عائداً على الله، والرابط للصلة بالموصول محذوف، لأنك إن قدَّرتَه متصلاً فيكون التقدير: ما سألتموه، فلا يجوز، أو منفصلاً فيكون التقدير: ما سألتموه إيَّاه، فالمنفصل لا يجوز حذفُه.

والنعمة هنا؛ قال الواحديّ[٣]: اسمٌ أُقيم مقامَ المصدر، يقال: أنعم إنعاماً ونعمة، أُقيم الاسم مقام الإنعام، كقولك: أنفقتُ إنفاقاً ونَفَقةً، ولذلك لم يُجمع لأنه في معنى المصدر. انتهى.

والذي يظهر أن النعمة هو المُنعَمُ به، وأنه هو اسمُ جنس لا يرادُ به الواحد بل يُرادُ به الجمع، كأنَّه قيل: وإنْ تعدُّوا نِعَمَ الله. ومعنى «لا تُحْصُوها»: لا تحصُرُوها

(١) وهذا على القراءة الشاذَّة المذكورة آنفاً.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٧٩.
(٣) الوسيط ٣/ ٣٢-٣٣، ونقله المصنف عنه بواسطة تفسير الرازي ١٩/ ١٢٩.

ولا تُطيقوا عدَّها، هذا إذا أرادُوا أن يَعُدُّوها على الإجمال، وأمَّا التفصيل فلا يقدرُ عليه ولا يعلمُه إلا الله.

وقال أبو الدرداء: مَنْ لم يَرَ نعمةَ الله عليه إلا في مطعمه ومشربِه فقد قلَّ عِلْمُهُ[١] وحَضَرَ عذابُه.

والمراد بالإنسان هنا الجنس، أي: تُوجَدُ فيه هذه الخِلال، وهي الظُّلْم والكُفر، يظلِمُ النعمةَ بإغفال شُكرها، ويكفُرُها بِجَحْدِها.

وقيل: ظَلُومٌ في الشدَّة يشكو ويجزع، كَفَّارٌ في النِّعمة يجمعُ ويمنعُ[٢].

وفي «النحل»: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [١٨] والفرق بين الختمين أنَّه هنا تقدَّم قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ وبعدَه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ فكان ذلك نصًّا على ما فعلوا من القبائح من كُفران النِّعمة والظلم الذي هو الشِّرك بجعل الأنداد؛ ناسبَ[٣] أن يختم بذمِّ من وقع ذلك منه، فجاء: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

وأمَّا في النحل فلما ذكر عدَّة تفضُّلات؛ وأطنبَ فيها وقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ أي: مَنْ أوجدَ هذه النِّعم السابقَ ذِكرُها ليس كمن لا يقدرُ على الخلق ولا على شيء منه؛ ذكرَ من تفضُّلاته اتِّصافَه بالغفران والرحمة[٤] تحريضاً على الرجوع إليه، وأنَّ هاتين الصفتين هو متصفٌ بهما كما هو متَّصف بالخلق، ففي ذلك إطماعٌ لمن آمنَ به وانتقلَ من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق أنَّه يغفرُ زَلَلَهُ السابقَ ويرحمهُ، وأيضاً فإنَّه لما ذكرَ أنه تعالى هو المتفضِّلُ بالنِّعم على الإنسان ذكرَ ما حصلَ من المُنْعِم وجنسِ المُنْعَم عليه، فحصلَ من المُنْعِم ما يناسبُه حالة إعطائه، وهو الغفران والرحمة، إذْ لولاهما لما أنعمَ عليه، وحصل من جنس المنعَم عليه

(١) المثبت من (د٢). وهو الصواب، وفي النسخ الأخرى: عمله. والخبر في الزهد لأحمد ص١٦٦، وشعب الإيمان ٦/ ٢٦٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٠.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٧٩، وتفسير الرازي ١٩/ ١٣٠.
(٣) كذا وقع الكلام. ولعل الجادَّة: فناسبَ.
(٤) المثبت من (ز١)، وفي (يه): بالغفران أو الرحمة، وفي النسخ الأخرى والمطبوع: بالعذاب والرحمة.

ما يناسبُه حالة الإنعام عليه، وهو الظلم والكفران، فكأنه قيل: إنْ صَدَرَ من الإنسان ظلمٌ فالله غفورٌ، أو كفرانُ نعمةٍ فالله رحيمٌ لعلمِه بعجزِ الإنسان وقصورِه[1].

ودعوى أنَّ هذه الآية منسوخة بآية النحل لا يُلتفت إليها، ونقل ذلك السخاويّ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

* * *

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ (٣٥)
رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦)
رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَآ
إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ (٣٨)
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٩) رَبِّ
ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ (٤٠) رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ (٤١) وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا
يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ
وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن
زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا
بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ
مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو
ٱنتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى
ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ
(٥٠) لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٥١) هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ
وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٥٢)﴾.

---

(١) بنحوه في تفسير الرازي ١٩/ ١٣٠-١٣١.

المفردات

جَنَبَ مخفَّفاً وأجْنَبَ رباعيًّا لغة نجد، وجَنَّبَ مشدَّداً لغة الحجاز، والمعنى مَنَعَ، وأصلُه من الجانب.

الهُوِيُّ: الهبوطُ بسرعة، قال:

وإذا رَمَيْتَ بهِ الفِجَاجَ رَأَيْتَهُ يَهْوِي مَخارمَها هُوِيَّ الأجْدَلِ[1]

شخَصَ البصرُ: أحَدَّ النظرَ ولم يستقرَّ في مكانِهِ.

المُهْطِع: المُسرع في مَشْيِه، قال الشاعر:

بِمُهْطِعٍ سُرُحٍ كأنَّ عِنانَهُ في رأسِ جِذْعٍ من أَوَالَ[2] مُشَذَّبِ[3]

وقال عِمْران بنُ حِطَّان:

إذا دعانا فأهْطَعْنا لدَعْوَتِهِ داعٍ سميعٌ فَلَفُّونا[4] وسَاقُونَا

وقال أبو عبيدة: قد يكون الإهطاع الإسراع وإدامة النظر[5].

المُقْنِع: هو الرافعُ رأسَه المُقْبِلُ ببصرِه على ما بين يديه، قاله ابنُ عرفة والقُتَبِيّ[6]. وقال:

---

(١) البيت لأبي كبير الهُذَليّ، وهو في ديوان الهُذَلِيِّين ٢/ ٩٤، وفيه: يَنْضُو، بدل: يَهْوِي. ويَنْضُو، يعني: يقطع ويجوزُ، والمَخَارم أُنوف الجبال، الواحد منها مَخْرَم، والأجْدَل: الصَّقْر. كذا في شرح الديوان. والبيت برواية المصنِّف في معجم مقاييس اللغة ١٦/٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢، واللسان (خرم). قال ابنُ منظور: أراد: في مخارمها، فهو على هذا ظرف، كقولهم: ذهبت الشامَ... وقيل: «يهوي» هنا في معنى: يقطع.

(٢) المثبت من (ز١) و(يه). ووقع في النسخ الأخرى: أراك.

(٣) البيت في مجاز القرآن ١/ ٣٤٢ وتفسير الطبري ١٣/ ٧٠٧ (وفيهما: زمامه، بدل: عِنانه) والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٤. والبيت من الكامل، ووقع في تفسير الطبري: وبمهطعٍ، وكلاهما صواب، فبالواو على الجادّة: متفاعلن، وبدون واو: مفاعلن، وفيه وَقْصٌ. وقوله: سُرُح، هو جمع سَرُوح، وهي السريعة من الإبل والخيل. وأوال: اسم موضع مما يلي الشام، كما في اللسان (أول).

(٤) المثبت من (ز١) و(يه)، وهو كذلك في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٨٨. ووقع في النسخ الأخرى: فلبُّونا، ولم تجوَّد هذه اللفظة في المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٤.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٤، وجاء في تفسير القرطبي ١٢/ ١٥٨-١٥٩ عن أبي عُبيد.

(٦) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٣٣، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٥٩.

يُباكِرنَ العِضاهَ بمُقْنَعاتٍ نَواجِذُهنَّ كالحَدَأ الوَقِيعِ[(١)]

يصفُ الإبلَ بالإقناع عند رَعْيِها أعالي الشجر. ويقال: أَقْنَعَ رأسَه: نكَّسه وطأطأه، فهو من الأضداد.

قال المبرِّد: وكونُه بمعنى رفَعَ أعرفُ في اللغة[(٢)]. انتهى.

وقيل منه: قَنِعَ الرجلُ: إذا رَضِيَ، أي: رَفَعَ رأسَه عن السؤال. وفَمٌ مُقْنَعٌ: معطوفةٌ أسنانُه إليه داخلاً، ورجلٌ مُقَنَّع ـ بالتشديد ـ عليه بيضة[(٣)].

الرأسُ معروف، ويُجمع في القلَّة على أرْؤس.

الطَّرْفُ: العَيْن. قال:

وأَغُضُّ طَرْفي ما بَدَتْ لِي جارتي حتى يُواري جارتي مَأْوَاهَا[(٤)]

ويقال: طَرَفَ الرجلُ: طَبَّقَ جَفْنَه على الآخَر، وسُمِّيَ الجَفْنُ طَرْفاً لأنه يكون فيه ذلك.

الهواء ما بين السماء والأرض، وهو الخلاء الذي لم تَشْغَلْهُ الأجرام الكثيفة، واستُعير للجَبَان، فقيل: قلبُ فلانٍ هواء. وقال:

كأنَّ الرَّحْلَ منها فَوْقَ صَعْلٍ مِنَ الظِّلْمانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءُ[(٥)]

المقرَّن المشدود في القَرَن، وهو الحَبْل.

---

(١) البيت للشمَّاخ بن ضرار، وهو في ديوانه ص٢٢٠، وفيه: يُبَادِرْنَ، بدل: يُبَاكِرْنَ. والبيت في وصف إبل. قوله: العِضاه: هو كلُّ شجر يعظُم وله شوك، واحدُها عِضاهة. والحَدَأ: جمع حَدَأة، وهي الفأس ذات الرأسين.

(٢) هذا كلام القرطبي في تفسيره ١٢/ ١٥٩ قاله بإثر نقلِه عن المهدويّ والمبرِّد المعنَيَيْن المذكورين في الإقناع. والله أعلم.

(٣) الصحاح (قنع). وينظر تفسير القرطبي ١٢/ ١٦٠.

(٤) البيت لعنترة، وهو في ديوانه ص٧٦.

(٥) البيت لزهير في وصف ناقة صغيرة الرأس، وهو في ديوانه ص٦٣. قال ثعلب في شرحه: «فوق صَعْل: فوق ظليم دقيق العُنقِ صغير الرأس. جُؤْجُؤه: صدرُه. هواء: لا مخَّ فيه». قلت: والظَّلِيم واحدُ الظِّلْمان، وهو الذَّكَرُ من النَّعام.

الصَّفَد: الغُلّ والقَيْد، يقال: صَفَدَهُ صَفْداً: قيَّده، والاسم الصَّفَد، وفي التكثير: صَفَّدَه، مُشَدَّداً. قال:

وأُبْنَا بالملوكِ مُصَفَّدِينا[1]

وأَصْفَدْتُهُ: أعطيتُه، وقيل: صَفَدَ وأصْفَدَ معاً في القَيْد والإعطاء.

قال:

فلم أُعَرِّضْ أبَيْتَ اللَّعْنَ بالصَّفَدِ[2]

أي: بالعطاء. وسُمِّيَ العَطَاءُ صَفَداً لأنهُ يُقَيِّدُ ويُعَبِّدُ.

السِّرْبال: القميص، يقال: سَرْبَلْتُهُ فتَسَرْبَلَ.

القَطِرَان: ما تَحَلَّبَ من شجرِ الأبْهَل[3]، فيُطبخ وتُهْنَأُ به الإبل الجَرْبَى، فيحرقُ الجَرَبَ بحرِّه وحِدَّتِه، وهو أقبلُ الأشياء اشتعالاً، ويقال فيه: قَطْرَان، بوزن: سَكْران، وقِطْران، بوزن سِرْحان.

* * *

التفسير ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

مناسبةُ هذه الآية لما قبلَها أنه تعالى لمَّا ذكرَ التعجيب من الذين بدَّلوا نعمة الله كفراً وجعلوا للهِ أنداداً، وهم قريشٌ ومن تابعَهم من العرب الذين اتَّخذُوا آلهةً من دون الله، وكان من نعم الله عليهم إسكانُه إياهم حَرَمَه = أردفَ ذلك بذكر أصلهم إبراهيم، وأنه صلواتُ الله عليه دعا اللهَ تعالى أن يجعلَ مكةَ آمنةً ودعا بأنْ يَجْنُبَ بنيه عبادةَ الأصنام، وأنه أسكنه ذُرِّيَّتَهُ ليعبدوه[4] وحدَه بالعبادة التي هي

(١) هو عجز بيت لعَمرو بن كلثوم، وصدرُه: فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبايا. وهو في معلَّقته ص١٠٠.
(٢) هو عجز بيت للنابغة الذُّبياني، وصدرُه: هذا الثناءُ فإنْ تَسْمَعْ به حَسَناً. وهو في ديوانه ص٣٧.
(٣) في القاموس (بهل): الأَبْهَلُ حَمْلُ شجرٍ كبير، ثمرُهُ كالنَّبق.
(٤) في (ح) و(د١) والمطبوع: وأنه أسكنه وذريَّته في بيته ليعبدوه.

أشرفُ العبادات ـ وهي الصلاة ـ لينظروا في دين أبيهم، وأنه مخالفٌ لما ارتكبوه من عبادة الأصنام فيزدجروا ويرجعوا عنها.

وتقدَّم الكلام على قوله هنا: ﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ معرَّفاً، وفي البقرة: ﴿هَٰذَا بَلَدًا﴾ [١٢٦] مُنكَّراً.

وقال الزمخشريُّ هنا[١]: سألَ في الأوَّل أنْ يجعلَه من جملة البلاد التي يأمنُ أهلُها ولا يخافون، وفي الثاني أن يُخرجَه من صفةٍ كان عليها من الخوف إلى ضدِّها من الأمن، كأنَّه قال: هو بلدٌ مَخُوفٌ فاجعلْه آمناً. انتهى.

ودعا إبراهيم أوَّلاً بما هو مُعِينٌ على طاعة الله تعالى، وهو كونُ محلِّ العابد آمِناً لا يُخاف فيه، إذْ يتمكَّن فيه من عبادة الله تعالى، ثم دعا ثانياً بأن يُجَنَّب هو وبنوه من عبادة الأصنام.

ومعنى «واجْنُبْني وبَنِيَّ»: أَدِمْني وإيَّاهم على اجتناب عبادةِ الأصنام، وأراد بقوله: «وبَنِيَّ» أولادَه من صُلْبِه الأقرباء، وأجابه اللهُ تعالى، فجعلَ الحَرَمَ آمِناً، ولم يعبد أحدٌ من بنيه الأقرباءِ لصُلبهِ صنماً. قال سفيان بن عيينة وقد سُئل كيف عَبَدَتِ العربُ الأصنام؟ فقال: ما عبدَ أحدٌ من ولد إسماعيلَ صنماً ـ وكانوا ثمانية ـ إنما كانت لهم حجارةٌ يَنْصِبُونها ويقولون: البيت حَجَر، فحيثما نَصَبنَا حَجَراً فهو بمعنى البيت، فكانوا يَدُورُونَ بذلك الحَجَرِ ويُسَمُّونه الدَّوَّار. انتهى[٢].

قال ابن عطيَّة[٣]: وهذا الدعاءُ من الخليل عليه السلام يقتضي إفراطَ خوفِه على نفسه ومن حصلَ في رتبته، فكيف يخافُ أن يعبدَ صنماً؟ لكن هذه الآية ينبغي أن يُقتَدى بها في الخوف وطلبِ الخاتمة.

وكرَّر النِّداءَ استعطافاً لربِّه تعالى، وذكرَ سببَ طلبِه أن يُجَنَّبَ هو وبنوه عبادةَ

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧٩.

(٢) المصدر السالف، وقال مجاهد نحوه. قال الرازي ١٩/ ١٣٣: هذا الجوابُ ليس بقويّ، لأنه عليه السلام لا يجوز أن يريد بهذا الدعاء إلا عبادة غير الله تعالى. والحجر كالصَّنم في ذلك. وقال الآلوسي في روح المعاني ١٣/ ٢١٧: ليت شعري! كيف ذهبت على هذين الجليلين ما في القرآن من قوارعَ تَنْعَى على قريش عبادة الأصنام؟!

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤١.

الأصنام بقوله: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ إذْ قد شاهدَ أباه وقومَه يعبدون الأصنام.

ومعنى «أَضْلَلْنَ»: كنَّ سبباً لإضلالِ كثيرٍ من النَّاس، والمعنى أنَّهم ضلُّوا بعبادتها، كما تقول: فَتَنَتْهم الدنيا، أي: افتُتِنُوا بها واغترُّوا بسببها.

وقرأ الجَحْدريّ وعيسى الثقفيّ: «وأَجْنِبْني»[1] من: أَجْنَبَ. وأنَّث الأصنام لأنَّ جَمْعَ ما لا يعقل يُخبَرُ عنه إخبارَ المؤنَّث، كما تقول: الأَجْذاعُ انكَسَرْنَ[2]، والإخبارُ عنهم إخبارَ جمع العاقل المذكَّر بالواو مجازٌ، نحو قوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٤].

﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ أي: على ديني وما أنا عليه ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ جعله بعضَه[3] لفَرْطِ الاختصاصِ به وملابستِه له، كقوله: «مَنْ غَشَّنا فليس منَّا» أي: ليس بعضَ المؤمنين، تنبيهاً على تعظيم الغِشّ بحيث هو يَسْلُبُ الغاشَّ الإيمانَ، والمعنى أنَّ الغِشَّ ليس من أوصاف أهلِ الإيمان[4].

﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ هذا فيه طباق معنويّ، لأنَّ التبعيَّة طاعة، وقوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال مقاتل: ومن عصاني فيما دُونَ الشِّرْك[5].

وقال الزمخشريّ: تغفرُ له ما سلفَ من[6] عصياني إذا بدا له فيه واستحدثَ الطاعةَ لي.

وقال ابن عطيَّة: «ومن عصاني» ظاهرُه بالكفر؛ لمعادلة قوله: «فمن تَبِعني فإنَّه منِّي» وإذا كان كذلك فقولُه: «فإنك غفور رحيم» معناه حين يؤمنوا لا أنَّه[7] أرادَ

(١) المحتسب ١/ ٣٦٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤١، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٤٦.
(٢) في (د١) والمطبوع: انكسرت.
(٣) لفظة «بعضه» سقطت من (د١) والمطبوع.
(٤) بنحوه في الكشاف ٢/ ٣٨٠.
(٥) تفسير الثعلبي ٣/ ٤٧٠، وزاد المسير ٤/ ٣٦٥، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٤٦، وهو في الكشاف ٢/ ٣٨٠ دون نسبة. وتحرف قوله: «فيما دون» في مطبوع البحر إلى: فيحادون!
(٦) في الكشاف ٢/ ٤٣١: ما سلف منه من... ووقع في مطبوع البحر في هذا الموضع أخطاء لم أُشر إليها لئلا تطول الحواشي.
(٧) في (أ) و(ح) و(د٢) و(ع) والمطبوع: لأنه، بدل: لا أنه. وهو خطأ قبيح.

أنَّ الله يغفرُ لكلِّ كافر[1]، لكنَّه حملَه على هذه العبارة ما كان يأخذُ نفسَه به من القول الجميلِ والنُّطق الحَسَن وجميل الأدب ﷺ، وكذلك قال نبيُّ الله عيسى عليه السلام: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ كرَّر النِّداء رغبةً في الإجابة وإظهاراً للتذلُّل والالتجاء إلى الله تعالى، وأتى بضمير جماعة المتكلِّمين لأنه تقدَّم ذكرُه وذكرُ بَنِيْه في قوله: «واجْنُبْني وبَنيَّ».

﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ هو إسماعيلُ ومَنْ وُلِدَ منه، وذلك أنَّ هاجَرَ لمَّا وَلَدَتْ إسماعيلَ غارَتْ منها سارة، فرُوِيَ أنه ركبَ البُراقَ هو وهاجَرُ والطفلُ، فجاء في يوم واحد من الشام إلى بَطْنِ مكة، فنزلَ وتركَ ابنَه وأَمَتَه هنالك، ورَكِبَ منصرِفاً من يومِه ذلك، وكان هذا كلُّه بوَحْيٍ من الله تعالى، فلمَّا ولَّى دعا بضمنِ[2] هذه الآية. وأمَّا كيفيةُ بقاء هاجَرَ وما جرى لها ولإسماعيلَ هناك ففي كتاب البخاري والسِّيَر وغيرِه[3].

و«من» للتبعيض لأنَّ إسحاق كان بالشام.

والوادي: ما بين الجَبَلَيْن، وليس من شرطه أن يكون فيه ماء، وإنَّما قال: «غيرِ ذي زَرْع» لأنه كان عَلِمَ أنَّ اللهَ لا يُضيع هاجَرَ وابنَها في ذلك الوادي وأنه يرزقُها[4] الماءَ، وإنَّما نظرَ النظرَ البعيدَ، فقال: «غيرِ ذي زرعٍ» ولو لم يعلم ذلك من الله تعالى لقال: غيرِ ذي ماء، على ما كانت عليه حال الوادي عند ذلك. قاله ابنُ عطية.

وقد يقال: إنَّ انتفاءَ كونِه ذا زرع مستلزم لانتفاء الماء، إذْ لا يمكنُ أن يوجد زرعٌ إلا حيثُ الماء، فنَفَى ما يتسبَّبُ عن الماء ـ وهو الزَّرع ـ لانتفاء سببِه، وهو الماء.

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٣٤١ (والكلام فيه): يغفر لكافر.
(٢) في (ح) و(د١) والمطبوع: بما في ضمن، وفي المحرر الوجيز ٣/ ٣٤١. (والكلام فيه): دعا بمضمَّن.
(٣) الخبر مطوَّل في صحيح البخاري (٣٣٦٤)، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٩٠-٦٩٤ وغيرهما عن ابن عباس.
(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٣٤١ (والكلام منه كما سيرد): يرزقهما.

وقال الزمخشريّ[١]: «بوادٍ» هو وادي مكة «غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» لا يكونُ فيه شيء من زَرْعٍ قَطّ، كقوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزُّمَر: ٢٨] بمعنى لا يوجدُ فيه اعوجاج، ما فيه إلا استقامةٌ لا غير. انتهى. واستعمل «قَطّ» ـ وهي ظرف لا يُستعمل إلا مع الماضي ـ معمولاً لقوله: لا يكون، وهو ليس ماضياً، وهو مكان «أبداً» الذي يُستعمل مع غير الماضي من المستقبَلات.

والظاهر أن قوله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ يقتضي وجودَ البيت حالةَ الدُّعاء وسبقَه قبلَه. وتقدَّم الكلام في البيت ومتى وُضع في «البقرة» وفي «آل عمران».

ووُصف بالمحرَّم لكونه حُرِّمَ على الطُّوفان، أي: مُنِعَ منه، كما سمِّي بـ «عَتِيق» لأنّه أُعْتِقَ منه، فلم يَسْتَوْلِ عليه، أو لكونه لم يزل عزيزاً مُمَنَّعاً من الجبابرة، أو لكونه محترماً لا يَحِلُّ انتهاكُهُ[٢].

و«ليقيموا» متعلق بـ «أسكنْتُ»، و«رَبَّنا» دعاء معترض، والمعنى أنه لا يخلو هذا البيتُ المعظَّم من العبادة. وقيل: هي لام الأمر دَعَا لهم بإقامة الصلاة[٣].

وقال أبو الفرج بن الجوزيّ: اللام متعلقة بقوله: «واجنبني وبَنِيَّ أنْ نعبدَ الأصنام»، فالمعنى: جَنِّبْهُم الأصنامَ[٤] ليقيموا الصلاة. انتهى. وهذا بعيد جدّاً.

وخصَّ الصلاةَ دون سائرِ العبادات لأنها أفضلُها، أو لأنها سببٌ لكلِّ خير، وقوله: «ليقيموا» بضمير الجمع دلالةٌ على أنَّ الله أعلمَه بأنَّ هذا الطِّفلَ سيُعْقِبُ هنالك ويكونُ له نَسْلٌ[٥].

و«أفئدة» جمع فؤاد، وهي القلوب، سُمِّيَ القلبُ فؤاداً لإنفادِه، مأخوذ من «فَأَدَ»، ومنه: المُفْتَأَد، وهو مستوقَدُ النار حيث يُشْوَى اللحم.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٠.
(٢) الكلام في الكشاف ٢/ ٣٨٠ بتقديم وتأخير.
(٣) بنحوه في المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢.
(٤) قوله: فالمعنى جنِّبهم الأصنام، من (ز١) و(يه) والكلام في زاد المسير ٤/ ٣٦٧.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢.

وقال مُؤرِّج: الأفئدة القِطَع من الناس بلغة قريش، وإليه ذهب ابنُ بحر.

قال مجاهد: لو قال إبراهيم عليه السلام: أفئدةَ الناس، لازدحمَتْ على البيت فارسُ والرُّوم. وقال ابن جُبير: لَحَجَّتْهُ اليهودُ والنصارى[١].

والظاهر أنَّ «من» للتبعيض، إذ التقدير: أفئدةً من أفئدةِ الناس، قال الزمخشري: ويجوزُ أن تكون «من» للابتداء، كقولك: القلبُ منّي سقيم، تريد: قلبي، فكأنَّه قيل: أفئدةَ ناسٍ، وإنَّما نَكَّرْتُ المضافَ إليه في هذا التمثيل لتنكير «أفئدة» لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة. انتهى. ولا يظهر كونُها لابتداء الغاية لأنه ليس لنا فعل يُبتدأ فيه لغاية ينتهي إليها، إذْ لا يصحُّ ابتداء جعل الأفئدة من الناس، وإنما الظاهر في «من» التبعيض.

وقرأ هشام: «أفئيدة» بياء بعد الهمزة، نصَّ عليه الحلوانيُّ عنه[٢]، وخُرِّج ذلك على الإشباع، ولمَّا كان الإشباعُ لا يكون إلا في ضرورة الشِّعر حملَ بعضُ العلماء هذه القراءةَ على أنَّ هشاماً قرأ بتسهيل الهمزة كالياء، فعبَّر الرَّاوي عنها بالياء، فظنَّ من أخطأ فهمُه أنَّها بياء بعد الهمزة، والمرادُ بياء عوضاً من الهمزة. قال: فيكون هذا التحريفُ من جنس التحريف المنسوبِ إلى من روى عن أبي عَمرو: «بارئكم» و«يأمركم»[٣]، ونحوَه بإسكان حركة الإعراب، وإنما كان ذلك اختلاساً. قال أبو عَمرو الدَّانيّ الحافظ: ما ذكره صاحبُ هذا القول لا يُعتمد عليه، لأنَّ النَّقَلَةَ عن هشام وأبي عَمرو كانوا من أعلم الناس بالقراءة ووجوهها، وليس يُفضي بهم الجهلُ إلى أن يُعتقد فيهم مثلُ هذا[٤].

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٦٩٨، وتفسير الثعلبي ٣/ ٤٧١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢. وذكر الزمخشري ٣/ ٣٨٠ قول مجاهد، وقول ابن جُبير جاء نحوه في النكت والعيون ٣/ ١٣٩ عن ابن عباس.

(٢) التيسير ص١٣٥، وجامع البيان ٢/ ٢٣٣، ولم يذكرها ابن مجاهد في السبعة.

(٣) لفظ «بارئكم» من الآية (٥٤) في سورة البقرة، ولفظ «يأمركم» فيها أيضاً، في الآيات (٦٧) (٩٣) (١٦٩) (٢٦٨)، وفي آل عمران الآية (٨٠).

(٤) وقال أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٢٣٣: الإشباع لغة الممطلين من العرب الذين يقولون: الدراهيم والمنايير والمساجيد.

وقُرئ: «آفِدَة» على وزن فاعلة، فاحتمل أن يكون اسم فاعل للحدوث[١] من: أَفِدَ، أي: دنا وقرُبَ وعَجِلَ، أي: جماعةً آفِدَة، أو جماعاتٍ آفدة، وأن يكون ذلك جمعَ فؤاد، ويكون من باب القلب، وصار بالقلب أأْفِدَة، فأبدلت الهمزة الساكنة ألفاً كما قالوا في أرْآم: أآرام، فوزنُه أعْفِلَة. وقرئ: «أَفِدَة» على وزن فَعِلَة[٢]، فاحتمل أن يكون جمعَ فؤاد، وذلك بحذف الهمزة ونقلِ حركتها إلى الساكن من قبلها وهو الفاء، وإنْ كان تسهيلُها بينَ بينَ هو الوَجْهَ، وأن يكون اسمَ فاعل من: أَفِدَ، كما تقول: فَرِحَ، فهو فَرِحٌ.

وقرأت أمُّ الهيثم: «أَفْوِدَة» بالواو المكسورة بدل الهمز؛ قال صاحب «اللوامح»: وهو جمع «وَفْد»، والقراءة حسنة، لكنّي لا أعرفُ هذه المرأةَ، بل ذكرَها أبو حاتم. انتهى. أبدل الهمزة في «فؤاد» بعد الضمة كما أُبدلت في «جُوَن»[٣]، ثم جَمَعَ فأقرَّها في الجمع إقرارَها في المفرد، أو هو جمعَ «وَفْد» كما قال صاحب «اللوامح» وقُلب، إذِ الأصل: أوْفِدة. وجَمْعُ فَعْلٍ على أفعِلَة شاذّ، نحو: نَجْد وأنجدة، ووَهْي وأوْهِية[٤]. وأمُّ الهيثم امرأة نُقل عنها شيء من لغات العرب.

وقرأ زيد بنُ علي: «إفادة» على وزن إمارة[٥]، ويظهر أنَّ الهمزة بدل من الواو المكسورة، كما قالوا: إشاح في وِشاح، فالوزن فِعالة، أي: فاجعلْ ذَوِي وِفادة، ويجوزُ أن يكون مصدر أفادَ إفادةً، أي[٦]: ذَوِي إفادة، وهم الناس الذين يُفيدون ويُنتَفَعُ بهم.

وقرأ الجمهور: «تَهْوِي إليهم» أي: تُسرعُ إليهم وتطيرُ نحوَهم شَوْقاً ونِزَاعاً،

---

(١) المثبت من (ز١)، وتحرفت في (يه) إلى: الحدوب، وفي النسخ الأخرى والمطبوع: الحذف. وهو خطأ.

(٢) نُسبت القراءة في القراءات الشاذة ص٦٩ لعيسى بن عمر، والتي قبلها لابن كثير.

(٣) جُوَن ـ كصُرَد ـ جمع جُؤنة، بالضم: سَفَطٌ مُغَشًّى بجلد، ظرفٌ لِطِيبِ العطّار، أصلُه الهمز، ويُلَيَّن. كذا في القاموس.

(٤) الوَهْيُ: الشَّقُّ في الشيء، والنَّجْد: المرتفع من الأرض.

(٥) في (ح) و(د١) والمطبوع: إشارة.

(٦) المثبت من (ز١) و(يه)، وفي النسخ الأخرى: أو، بدل: أي.

ولما ضمّن «تهوي» معنى «تميل» عدّاه بـ «إلى»، وأصلُه أن يتعدَّى باللام؛ قال:

حتى إذا ما هَوَتْ كفُّ الوليدِ لَهَا　　طارَتْ وفي كفِّهِ من رِيشِها بِتَكُ[(١)]

ومثال ما في الآية قول الشاعر:

تهوي إلى مكةَ تبغي الهُدَى　　ما مؤمنُ الجِنِّ كأنجاسها[(٢)]

وقرأ مَسْلَمة بنُ عبد الله: «تُهْوَى» بضمّ التاء مبنيًّا للمفعول[(٣)]، من: أَهْوَى المنقولة بهمزة التعدية من: «هَوى» اللازمة، كأنه قيل: يُسْرَعُ بها إليهم.

وقرأ عليُّ بنُ أبي طالب وزيد بنُ علي ومحمد بنُ علي وجعفر بنُ محمد ومجاهد: «تَهْوَى» مضارع «هَوِيَ»[(٤)] بمعنى: أحَبَّ، ولما ضمِّن معنى النزوع والميل عُدِّيَ بـ «إلى».

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مع سُكْناهم وادِياً ما فيه شيء منها؛ بأن تُجْلَبَ إليهم من البلاد[(٥)]، كقوله: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧].

ورُوِيَ عن مسلم بن محمد الطائفي أنّه لمَّا دَعا عليه السلام بأن يرزقَ سكَّان مكة الثمرات[(٦)] بعثَ اللهُ جبريلَ عليه السلام فاقتلعَ بجناحه قطعةً من فلسطين ـ وقيل: من الأردنّ ـ فجاء بها وطافَ حول البيت بها سبعاً ووضعَها قريب مكَّة،

---

(١) البيت لزهير، وهو في ديوانه ص١٧٥. وفيه: الغلام، بدل: الوليد. وبِتَك، أي: قِطَع، واحدُها بِتْكَة.

(٢) هو بيت من ثلاثة أبيات لِرئيٍّ من الجنّ كان يأتي سَوَادَ بنَ قارب وأخبرَه بِبِعْثةِ النبيّ ﷺ. ينظر خبرُه مطوَّلاً في الأحاديث الطوال للطبراني ٢٥/ ٢٥٦ (٣١)، والاستيعاب ص٣٢٢، وخبره مختصر في صحيح البخاري (٣٨٦٦) دون تسميته، ودون ذكر الشعر.
ملاحظة: وقع في (ح) و(د١) والمطبوع: ككُفَّارِها، بدل: وأنجاسها. ووقع في المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢: ما مؤمنو الجنِّ... واختلفت رواية عجز البيت في المصادر، وينظر سيرة ابن هشام ١/ ٢٠٩.

(٣) المحتسب ١/ ٣٦٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢.

(٤) المصدران السالفان. وينظر القراءات الشاذة ص٦٩.

(٥) الكشاف ٢/ ٣٨٠.

(٦) في المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢ (والخبر فيه بلفظه): من الثمرات. وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٧٠١.

فهي الطائف، وبهذه القصة سمِّيت، وهي موضع ثَقِيف، وبها أشجارٌ وثمرات[١]. ورُوِيَ نحوٌ منه عن ابن عبَّاس.

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ قال الزمخشري[٢]: النعمةُ في أن يُرزقوا أنواعَ الثمرات حاضرةً في وادٍ يَبَاب ليس فيه نجمٌ ولا شجرٌ ولا ماء[٣]، لا جَرَمَ أنَّ الله عزَّ وجلَّ أجابَ دعوةَ إبراهيمَ، فجعلَه حَرَماً آمِناً يُجْبَى إليه ثمراتُ كلِّ شيء رزقاً من لَدُنْهُ[٤]، ثم فضَّلَه في وجود أصنافِ الثمارِ فيه على كلِّ رِيف، وعلى أخصبِ البلادِ وأكثرِها ثماراً، وفي أيِّ بلدٍ من بلاد الشرق والغرب ترى الأُعجوبةَ التي يُرِيكَها الله بوادٍ غيرِ ذي زَرْعٍ، وهي اجتماعُ البواكيرِ[٥] والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعيَّة والصيفيَّة والخريفيَّة في يوم واحد، وليس ذلك من آياته بعجيب[٦].

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

كرَّر النداء للتضرع والالتجاء، ولا يظهر تفاوت بين إضافة «ربّ» إلى ياء المتكلِّم وبين إضافته إلى جمع المتكلِّم.

و«ما نُخفي وما نُعلن» عامٌّ فيما يُخفونه وما يُعلنونه، وقيل: ما نُخفي من الوَجْد لِما وقعَ بيننا من الفُرْقة، وما نُعلن من البكاء والدعاء، وقيل: ما نُخفي من كآبة الافتراق، وما نُعلنُ ممّا جرى بينَه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع: إلى مَنْ

---

(١) الله أعلم بصحة هذا الخبر. وينظر كلام الآلوسي فيه في روح المعاني ١٣/ ٢٢٩.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٨٠.

(٣) وادٍ يَبَابٌ، أي: خالٍ لا شيءَ فيه، والنجمُ من النبات ما لا ساقَ له.

(٤) قوله: حرماً آمناً يُجْبى إليه... الخ. اقتباس من آية القصص (٥٧) وسلفت قريباً.

(٥) بَوَاكير جمع باكورة، وهي أول ما يُدرك من الفاكهة. ينظر المصباح المنير. وجاء في أساس البلاغة (بشر) أن البواكير تباشير النخل.

(٦) الكشاف ٢/ ٣٨٠.

تَكِلُنا؟ قال: إلى الله أَكِلُكُم. قالت: آللهُ أمرَكَ بهذا؟ قال: نعم. قالت: [إذن][١] لا نخشى، تَرَكْتَنَا إلى كافٍ.

والظاهر أنَّ قولَه: «وما يَخْفَى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء» من كلام إبراهيم لاكتنافِ ما قبلَه وما بعدَه بكلام إبراهيم، لمَّا ذكرَ أنه تعالى عمَّم ما يُخفي هو ومَنْ كنى عنه عمَّم جميعَ الأشياء وأنها غيرُ خافيةٍ عنه تعالى.

وقيل: «وما يَخْفَى» الآية، من كلام الله عزَّ وجلَّ تصديقاً لإبراهيم عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[٢] [النمل: ٣٤].

والظاهر أنَّ هذه الجمل التي تكلَّم بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم تقع منه في زمان واحد، وإنما حكى الله عنه ممَّا وقع منه في أزمان مختلفة، يدلُّ على ذلك أنَّ إسحاقَ لم يكن موجوداً حالةَ دعائه، إذْ تركَ هاجرَ والطفلَ بمكة، فالظاهرُ أنَّ حَمْدَه اللهَ تعالى على هبةِ ولدَيْه له كان بعد وجود إسحاق.

و«على الكِبَر» يدلُّ على مطلق الكِبَر، ولم يتعرَّض لتعيين المدَّة التي وُهب له فيها ولداه، ورُوِيَ أنه وُلد له إسماعيلُ وهو ابنُ تسع وتسعين سنة، ووُلد له إسحاقُ وهو ابنُ مئة وثنتي عشرة سنة[٣].

وقيل: إسماعيل لأربع وستين، وإسحاق لتسعين. وعن ابن جبير: لم يُولَد له إلا بعد مئةٍ وسبعَ عشرةَ سنة[٤].

وإنَّما ذكرَ حال الكِبَرِ لأنَّ المِنَّة فيها بهبةِ الولد أعظمُ من حيث إنَّ الكِبَر مَظِنَّةُ اليأس من الولد، ومجيءُ الشيء بعد اليأس أحلى في النفس وأبهجُ لها.

---

(١) لفظة «إذن» من المصدر السالف والكلام منه، وهو معنى حديث ابن عباس المطوّل عند البخاري (٣٣٦٤)، والطبري ١٣/ ٦٩٠-٦٩٤، وأشار المصنف إليه أول تفسير هذه الآية.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٨١.

(٣) هو قول ابن عباس كما في تفسير الثعلبي ٣/ ٤٧١، وزاد المسير ٤/ ٣٦٨، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٥٦. وهو في الكشاف ٢/ ٣٨١ دون نسبة.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٨١. ولفظُه في تفسير الطبري ١٣/ ٧٠٢: بُشِّرَ إبراهيم بعد سبع عشرة ومئة سنة.

و«على الكبر» في موضع الحال، كأنَّه قال: وأنا كبير. و«على» على بابها من الاستعلاء، لكنه مجاز، إذِ الكِبَرُ معنىً لا جِرْمٌ فيكونَ حقيقة، وكأنه لمَّا أسنَّ وكَبِرَ صار مستعلياً على الكِبَر.

وقال الزمخشريّ: «على» في قوله: «على الكِبَر» بمعنى «مع» كقوله:

إنـي عـلـى مـا تـريـنَ مـن كِـبَـرِي أعـلـمُ مـن حـيـثُ تُـؤكـلُ الـكَـتِـفُ[1]

وكَنَى بـ «سميع الدعاء» عن الإجابة والتقبُّل، وكان قد دعا اللهَ أن يهبَه ولداً بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، فحَمِدَ اللهَ على ما وهبَه من الولد، وأكرمَه به من إجابة دعائه.

والظاهر إضافة «سميع» إلى المفعول، وهو من إضافة المثال الذي على وزن فَعِيل[2] إلى المفعول، فتكون إضافةً من نصبٍ، ويكون ذلك حُجَّةً على إعمال فَعِيل الذي للمبالغة في المفعول على ما ذهب إليه سيبويه، وقد خالفَ في ذلك جمهورَ البصريِّين، وخالفَ الكوفيون فيه وفي إعمال باقي الخمسةِ الأمثلة: فَعُول، وفَعَّال، ومِفْعال، وفَعِل. وهذا مذكور في علم النحو.

ويمكن أن يقال في هذا: ليس ذلك إضافةً من نصب فيلزمَ جوازُ إعماله، بل هي إضافة كإضافة اسم الفاعل في نحو: هذا ضاربُ زيدٍ أمسِ.

وقال الزمخشريّ[3]: ويجوز أن يكون من إضافة فَعِيل إلى فاعله، ويُجعلُ دعاءُ الله سميعاً على الإسناد المجازيّ، والمرادُ سماعُ الله. انتهى. وهو بعيد لاستلزامِهِ أن يكون من باب الصفة المشبَّهة، والصفةُ متعدِّية، ولا يجوزُ ذلك إلا عند أبي عليّ الفارسيّ حيث لا يكون لَبْسٌ، وأمَّا هنا فاللَّبْسُ حاصلٌ، إذِ الظاهرُ أنه من

(١) البيت لقيس بن الخَطِيم ضمن قصيدة له في الحماسة البصرية ٣/ ١٠٠٣، وفيه: من أين، بدل: من حيث، وهو في جمهرة الأمثال ٢/ ٤٢٢ (وفيه: من أين)، والمستقصى من أمثال العرب ٢/ ٤١٣، والكشاف ٢/ ٣٨١، وتفسير الرازي ١٩/ ١٣٨.

(٢) المثال: هو ما حُوِّلَ من اسم الفاعل للمبالغة إلى: فَعُول، وفَعَّال، ومِفْعال، وفَعِيل، وفَعِل. وغالبُ تحويلها من الثلاثي المجرَّد. قاله المصنف في الارتشاف ٥/ ٢٢٨١. وينظر الكتاب ١/ ١١٠.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٨١.

إضافة المثال للمفعول لا من إضافتِه إلى الفاعل، وإنَّما أجازَ ذلك الفارسيُّ في مثل: زيدٌ ظالمُ العبيد؛ إذا عُلم أنَّ له عبيداً ظالمين.

ودعاؤه بأنْ يجعلَه مقيم الصلاة وهو مُقِيمُها إنَّما يُريد بذلك الدَّيمومة.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ «من» للتبعيض، لأنه أُعْلِمَ أنَّ من ذُرِّيَّتِه مَنْ يكونُ كافراً، أو مَنْ يُهْمِلُ إقامتَها وإنْ كان مؤمناً.

وقرأ طلحة والأعمش: «دُعَاءِ رَبَّنا» بغير ياء، وقرأ ابنُ كثير وأبو عَمرو بياء ساكنة في الوصل، وأثبتَها بعضُهم في الوقف، وروى ورش عن نافع إثباتَها في الوصل[1].

والظاهرُ أنَّ إبراهيم سألَ المغفرةَ لأبويه القريبَيْنِ، وكانت أمُّهُ مؤمنةً، وكان والدُه لم ييأس من إيمانه، ولم تتبيَّن له عداوةُ الله، وهذا يتمشَّى إذا قلنا إنَّ هذه الأدعيةَ كانت في أوقات مختلفة، فجمَعَ هنا أشياءَ ممَّا كان دَعَا بها. وقيل: أرادَ أمَّه ونوحاً عليه السلام. وقيل: آدمَ وحوَّاء[2]، والأظهر القولُ الأوَّل، وقد جاء نصًّا دعاؤه لأبيه بالمغفرة في قوله: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

قال الزمخشري[3]: فإن قلتَ: كيف جازَ له أن يستغفرَ لأبويه وكانا كافِرَيْن؟ قلت: هو من مجوِّزات العقل، لا يُعلم امتناعُ جوازِه إلا بالتوقيف. انتهى. وهو في ذلك موافق لأهل السُّنَّة مخالفٌ لمذهب الاعتزال.

وقرأ الحسين بُن علي ومحمدٌ وزيد ابنا عليِّ بنِ الحُسين وابنُ يَعْمَر والزُّهريُّ والنَّخَعيُّ: «ولِوَلَدَيَّ» بغير ألف وبفتح اللام، يعني إسماعيلَ وإسحاق، وأنكرَ عصامٌ الجحدريّ هذه القراءة وقال: إنَّ في مصحف أُبيّ بن كعب: «ولأبَويَّ».

---

(١) ثمة تقصيرٌ في تفصيل قراءة السبعة لهذا الحرف، ولخَّصه السمين بقوله: قرأ أبو عَمرو وحمزة وورش بإثبات الياء وصلاً وحذفِها وقفاً، والبَزِّيُّ بإثباتها في الحالين، والباقون بحذفها وصلاً ووقفاً، وقد روى بعضُهم إثباتها وقفاً أيضاً. الدّرّ المصون ٧/ ١١٧. وينظر التيسير ص١٣٥، وينظر أيضاً السبعة ص٣٦٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٣.

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٣٩، وزاد المسير ٤/ ٣٦٩.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٨٢.

وعن يحيى بن يَعْمَر: «ولوُلْدِي» بضمّ الواو وسكون اللام[1]، فاحتملَ أن يكون جمعَ وَلَدٍ كأُسد في أَسَد، ويكون قد دعا لذُرِّيَّتِه، وأن يكون لغةً في الوَلَد، وقال الشاعر:

فليتَ زياداً كان في بطنِ أمِّهِ ... وليتَ زياداً كان وُلْدَ حِمارِ[2]

كما قالوا: العُدْم والعَدَم.

وقرأ ابنُ جُبير: «ولِوَالِدِي» بإسكان الياء على الإفراد[3]، كقوله[4]: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ [الشعراء: ٨٦].

وقيام الحساب مجازٌ عن وقوعِه وثبوتِه، كما يقال: قامت الحربُ على ساق، أو على حذف مضاف، أي: أهلُ الحساب، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5] [المطففين: ٦].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾.

الخطاب بقوله: «ولا تحسَبَنَّ» للسامع الذي يمكنُ منه حِسبانُ مثلِ هذا لِجَهْلِهِ[6] بصفات الله، لا للرسول ﷺ، فإنه مستحيلٌ ذلك في حقّه. وفي هذه الآية وعيدٌ عظيمٌ للظالمين، وتسليةٌ للمظلومين[7].

---

(١) ينظر المحتسب ١/ ٣٦٥، والقراءات الشاذة ص٦٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٣، وزاد المسير ٤/ ٣٦٩، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٥٧.

(٢) البيت بهذه الرواية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٣، وهو في إصلاح المنطق ص٤٣، وتهذيب اللغة ١٤/ ١٧٨، وتفسير الطبري ١٥/ ٦٢٠، والمحتسب ١/ ٣٦٥، واللسان (ولد) برواية: فليت فلاناً، وسيرد بهذه الرواية في تفسير «مريم» (٧٧).

(٣) المحتسب ١/ ٣٦٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٣.

(٤) في (ح): لقوله.

(٥) ينظر تفسير الرازي ١٩/ ١٤٠.

(٦) في (ح): هذه الجهلة، وفي (د١) و(يه): هذه الجملة، وهو تصحيف.

(٧) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٧٠٣-٧٠٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٣، والكشاف ٢/ ٣٨٢، وزاد المسير ٤/ ٣٦٩.

وقرأ طلحة: «ولا تحسب» بغير نون التوكيد، وكذا: «فلا تحسبِ اللهَ مخلفَ وَعْدِه»[١].

والمراد بالنهي عن حِسْبانِه غافلاً الإيذانُ بأنه عالمٌ بما يفعلُ الظالمون، لا يَخْفَى عليه منه شيء، وأنه معاقبُهم على قليلِه وكثيرِه على سبيل الوعيد والتهديد، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ يريدُ الوعيد، ويجوزُ أن يُراد: ولا تحسبنَّه يعاملُهم معاملة الغافل عمَّا يعملون، ولكن معاملةَ الرقيبِ عليهم، المحاسبِ على النَّقير والقِطْمير.

وقرأ السُّلَميُّ، والحسن، والأعرج، والمفضَّل عن عاصم، وعبَّاس بن الفضل وهارون العَتَكيّ ويونس بنُ حبيب عن أبي عَمرو: «نُؤَخِّرُهم» بنون العظمة[٢]، والجمهورُ بالياء، أي: يؤخِّرُهم الله.

﴿مُهْطِعِينَ﴾: مُسْرِعين، قاله ابنُ جُبير وقتادة[٣]، وذلك بذلَّة واستكانة كإسراع الأسير والخائف.

وقال ابن عباس وأبو الضُّحى: شديدي النظر من غير أن يَطْرِفوا. وقال ابنُ زيد: غير رافعي رؤوسهم. وقال مجاهد: مُدِيمينَ النظرَ. وقال الأخفش: مُقبلين للإصغاء، وأنشد:

بِدِجْلَةَ دَارُهُمْ ولقد أرَاهُمْ ... بدجْلةَ مُهْطِعِينَ إلى السماعِ[٤]

وقال الحسن: «مُقْنِعي رؤوسِهم»: وجوهُ الناسِ يومئذٍ إلى السماء لا ينظرُ أحدٌ إلى أحد. انتهى[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٤.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٤، وزاد المسير ٤/ ٣٧٠، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٥٨. وقراءة أبي عمرو المشهورة عنه بالياء كقراءة الجماعة.
(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٧٠٤-٧٠٥، والنكت والعيون ٣/ ١٣٠، وزاد المسير ٤/ ٣٧٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٤، والكلام الآتي بعده لابن عطية.
(٤) البيت ليزيد بن مفرِّغ، وهو في النكت والعيون ٣/ ١٤٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٤، وروايتُه في تاج العروس (هطع): أهلها، بدل: دارهم. وتنظر الأقوال السالفة (دون قول الأخفش) في تفسير الطبري ١٣/ ٧٠٥-٧٠٦، وتفسير الثعلبي ٣/ ٤٧٢-٤٧٣، والنكت والعيون ٣/ ١٤٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٤، وزاد المسير ٤/ ٣٧٠.
(٥) الوسيط ٣/ ٣٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٤، وزاد المسير ٤/ ٣٧١، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٥٩.

وقال ابنُ جُريج: «هواء» صِفْرٌ من الخير، خاويةٌ منه. وقال أبو عبيدة: جُوْفٌ لا عقولَ لهم(١).

وقال ابن عباس ومجاهد وابنُ زيد: خَرِبَةٌ خاويةٌ، ليس فيها خير ولا عقل(٢).

وقال سفيان: خالية إلَّا مِن فَزَعِ ذلك اليوم، كقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: ١٠] أي: إلا من همِّ موسى.

و«هواء» تشبيهٌ محض، لأنها ليست بهواء حقيقةً، ويحتمل أن يكون التشبيه في فراغها من الرَّجاء والطمع في الرحمة، فهي منخرقة مشبهةٌ الهواءَ في تفرُّغِهِ من الأشياء وانخراقِه، وأن يكون(٣) في اضطراب أفئدتهم وجيشانها في الصدور، وأنها تجيء وتذهب وتبلغُ - على ما رُوِيَ - حناجرَهم، فهي في ذلك كالهواء الذي هو أبداً في اضطراب.

وحصولُ هذه الصفات الخمس للظالمين؛ قيل: عند المحاسبة، بدليل ذِكرِها عَقِيب قوله: «يومَ يقومُ الحسابُ». وقيل: عند إجابة الدَّاعي والقيام من القبور. وقيل: عند ذهاب السُّعداء إلى الجنة والأشقياء إلى النار(٤).

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾.

هذا خطابٌ للرسول ﷺ، و«يومَ» منصوب على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «أَنْذِرْ»؛ ولا يصحُّ أن يكون ظرفاً؛ لأنَّ ذلك اليوم ليس بزمان للإنذار، وهذا اليومُ هو يومُ القيامة، والمعنى: وأنذرِ الناسَ الظالمين، ويُبيِّنُ ذلك قولهُ: «فيقولُ الذين ظلموا» لأنَّ المؤمنين يُبَشَّرُون ولا يُنذَرون.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٢-٣٨٣، وزاد المسير ٤/ ٣٧١.
(٢) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٧١٠-٧١٢، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٦٠.
(٣) أي: ويحتمل أن يكون... الخ. كما في المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٤-٣٤٥، والكلام فيه.
(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٤١-١٤١، وقال: والأوّل أَوْلى للدليل الذي ذكرناه.

وقيل: اليوم يومُ هلاكِهم بالعذاب العاجل، أو يومُ موتِهم معذَّبين بشدَّة السَّكَرَات، ولقاءِ الملائكة بلا بشرى، كقوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾[١] [المنافقون: ١٠].

ومعنى التأخير إلى أجلٍ قريب الرَّدُّ إلى الدُّنيا. قاله الضحَّاك، أو[٢] الإمهالُ إلى أمَدٍ وحَدٍّ من الزَّمان قريب. قاله السُّدِّيّ، أي: لتَدارُكِ ما فرَّطُوا من إجابة الدَّعوة واتّباع الرُّسُل.

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟﴾ هو إلى إضمار القول، والظاهرُ أنَّ التقدير: فيقال لهم، القائل الملائكة، أو الباري تعالى، يُوَبَّخُون بذلك ويُذَكَّرون مقالتَهم في إنكار البعث وإقسامَهم على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ﴾ [النحل: ٣٨].

ومعنى ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ من الأرض بعد الموت، أي: لا نُبعث من القبور. وقال محمد بن كعب: إنَّ هذا القولَ يكون منهم وهم في النار، ويُرَدُّ عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟﴾[٣] ومعناه التوبيخ والتقريع.

وقال الزمخشريّ[٤]: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم﴾ على إرادة القول، وفيه وجهان: أن يقولوا ذلك بَطَراً وأَشَراً، ولِما استولَى عليهم من عادة الجهل والسَّفَه، وأن يقولوه بلسان الحال حيث بنَوْا شديداً وأمَّلُوا بعيداً، و«مالكُم» جواب القسم، وإنَّما جاء بلفظ الخطاب لقوله: «أقسمتُم»، ولو حكى لفظ المُقسِمين لقيل: ما لنا من زوال، والمعنى: أقسمتُم أنكم باقون في الدُّنيا لا تزولون بالموت والفَناء. وقيل: لا تنتقلون إلى دارٍ أخرى. انتهى. فجعلَ الزمخشريُّ ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟﴾ محكيّاً بقولهم، وهو مخالف لما قدَّمناه من أنه يقال لهم ذلك. وقوله: لا تزولون

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٣. وينظر النكت والعيون ٣/ ١٤٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٥.
(٢) المثبت من (ز١) و(يه). وفي النسخ الأخرى والمطبوع: إذ. وهو تحريف.
(٣) هو بمعنى قطعة من خبر مطول أخرجه البيهقي عنه في البعث والنشور (٦٦٠)، وذكره القرطبي ١٢/ ١٦٢-١٦٣.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٨٣.

بالموت والفَناء، ليس بجيِّد؛ لأنهم مُقِرُّون بالموت والفَناء. وقولُه: وقيل، هو قولُ مجاهد[١].

«وسكنتُم» إن كان من السُّكون، فالمعنى أنهم قَرُّوا فيها واطمأنُّوا طَيِّبي النفوس سائرين بسيرةِ مَنْ قبلَهم في الظُّلم والفساد لا يحدثونها بما لقيَ الظالمون قبلَهم. وإن كان من السُّكْنَى، فإنَّ السُّكْنَى من السُّكون الذي هو اللُّبْث، والأصلُ تعديتُه بـ «في» كما يقال: أقام في الدار وقَرَّ فيها، ولكنّه لمَّا أُطْلِقَ على سكون خاصّ تُصُرِّفَ فيه، فقيل: سكنَ الدارَ، كما قيل: تبوَّأها[٢].

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بالخبر وبالمشاهدة ما فعلنا بهم من الهلاك والانتقام.

وقرأ الجمهور: «وتَبَيَّنَ» فعلاً ماضياً، وفاعلُه مضمر يدلُّ على الكلام، أي: وتبيَّنَ لكم هو، أي: حالُهم، ولا يجوز أن يكون الفاعل «كيف» لأنَّ «كيفَ» إنَّما تأتي اسمَ استفهام أو شرط، وكلاهما لا يعملُ فيه ما قبلَه إلا ما رُوي شاذّاً من دخول «على» على «كيفَ» في قولهم: على كيفَ تبيعُ الأحمرَيْن، و«إلى» في قولهم: انظر إلى كيف تصنع[٣]، وإنما «كيفَ» هنا سؤال عن حال في موضع نصب بـ «فَعَلْنا».

وقرأ السُّلَميُّ فيما حكى عنه أبو عَمرو الدانيُّ: «ونُبَيِّنُ» بضمِّ النون ورفع النون الأخيرة، مضارع «بَيَّنَ»[٤]، وحكاها صاحب «اللوامح» عن عمر بن الخطاب ﷺ، وذلك على إضمار «ونحن نُبَيِّنُ» والجملة حاليَّة.

وقال المهدويّ عن السُّلمي أنه قرأ كذلك إلا أنه جزم النون[٥]، عطفاً على «أوَلم تكونوا» أي: ولم نُبَيِّنْ، فهو مشارك في التقرير.

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٧١٥، والنكت والعيون ٣/ ١٤٢، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٦٢. وسقط لفظ «وقيل» من مطبوع البحر.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٨٣ بتقديم وتأخير.
(٣) ينظر شرح الرضيّ على الكافية ٣/ ٢٨٨، والمقصود بالأحمرين هنا اللحم والخمر. ينظر الصحاح (حمر)
(٤) القراءات الشاذة ص٦٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٥. وجاء في زاد المسير ٤/ ٣٧٢ أن السُّلَمي قرأ بضم التاء.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٥.

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: صفات ما فعلوا وما فُعِل بهم، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

الظاهر أنَّ الضمير في «مَكَرُوا» عائدٌ على المخاطبين في قوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم﴾ أي: مكرُوا بالشِّركِ بالله وتكذيب الرسل(١).

وقيل: الضمير عائد على قوم الرسول؛ لِقوله(٢): ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾ أي: وقد مكرَ قَومُك يا محمد، وهو الذي في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٠] الآية(٣).

ومعنى «مَكرَهُم» أي: المَكْرَ العظيمَ الذي استفرغُوا فيه جُهْدَهم(٤). والظاهر أنَّ هذا إخبارٌ من الله لنبيِّه بما صدرَ منهم في الدنيا، وأنَّه ليس مَقُولاً في الآخرة.

وقال ابن عطيَّة: ويحتمل أن يكون ممَّا يقال يومَ القيامة للظَّلَمة الذين(٥) سُكِنَ في منازلهم.

﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: عِلْمُ مكْرِهِم، فهو مُطَّلعٌ عليه، فلا يُنَفِّذُ لهم فيه قصداً، ولا يُبَلِّغُهم فيه أملاً، أو جزاءُ مكرِهم، وهو عذابُه لهم. والظاهر إضافة

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ١٦٤، ونُسب القول فيه لابن عبَّاس.
(٢) المثبت من (د٢) و(ز١) و(يه). وفي النسخ الأخرى والمطبوع: كقوله.
(٣) ينظر زاد المسير ٤/ ٣٧٤ (القول الرابع).
(٤) الكشاف ٢/ ٣٨٣. وفيه إضافة المصدر إلى الفاعل.
(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦: والضمير للذين... الخ.

«مَكْر» وهو المصدر إلى الفاعل كما هو مضاف في الأوَّل إليه[١]، كأنه قيل: وعندَ اللهِ ما مكرُوا، أي: مَكْرُهُم.

وقال الزمخشريُّ[٢]: أو يكون مضافاً إلى المفعول على معنى: وعندَ الله مكرُهم الذي يمكرُهُم به، وهو عذابُهم الذي يستحقُّونه؛ يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون. انتهى.

وهذا لا يصحُّ إلا إنْ كان «مَكَرَ» يتعدَّى بنفسه كما قال هو، إذْ قدَّر: يمكرُهُم به، والمحفوظ أنَّ «مَكَرَ» لا يتعدَّى إلى مفعول به بنفسه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٣٠] وتقول: زيدٌ ممكورٌ به، ولا يُحفظ: زيدٌ ممكورٌ بسبب كذا.

وقرأ الجمهور: «وإنْ كانَ» بالنون، وقرأ عُمر وعليّ وعبدُ الله وأُبيّ وأبو سَلَمة بنُ عبد الرحمن وأبو إسحاق السَّبِيعيّ وزيدُ بنُ عليّ «وإنْ كادَ» بدال مكان النون «لَتَزُولُ» بفتح اللام الأولى ورفع الثانية، ورُوِيَ كذلك عن ابن عباس[٣]. وقرأ ابنُ عبَّاس ومجاهد وابنُ وثَّاب والكِسائيّ كذلك، إلا أنَّهم قرؤوا: «وإن كانَ» بالنون[٤]، فعلى هاتين القراءتين تكون «إنْ» هي المخفَّفة من الثقيلة، واللام هي الفارقة، وذلك على مذهب البصريِّين، وأما على مذهب الكوفيِّين فـ «إنْ» نافية، واللام بمعنى «إلا» فمَن قرأ: «كادَ» بالدال فالمعنى أنه يقرُبُ زوالُ الجبال بمكرهم ولا يقع الزوال، وعلى قراءة «كان» بالنون يكون زوالُ الجبال قد وقع، ويكون في ذلك تعظيمُ مكرِهم وشدَّته، أي: هو بحيثُ تزول منه الجبال وتتقطَّع عن أماكنها[٥].

---

(١) يعني في «مَكْرَهُم» في قوله: «وقد مكروا مكرهم».

(٢) الكشاف ٢/ ٣٨٣. والكلام السالف قبله هو فيه بنحوه.

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٣، والقراءات الشاذة ص٦٩، والمحتسب ١/ ٣٦٥، وتفسير الثعلبي ٣/ ٤٧٤، والنكت والعيون ٣/ ١٤٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦، وزاد المسير ٤/ ٣٧٤، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٦٤.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٦. وقراءة الكسائي «لَتَزُولُ» من السبعة.

(٥) في الكشاف ٢/ ٣٨٣ (والكلام فيه بنحوه): وتتقلَّع من أماكنها.

ويحتمل أن يكون معنى «لَتَزُولُ» ليقرُبُ زوالُها، فيصير المعنى كمعنى قراءة «كاد» ويؤيِّد هذا التأويلَ ما ذكره أبو حاتم من أنَّ في قراءة أُبي: «ولولا كلمةُ الله لَزَالَ من مكرِهم الجبال»(١). وينبغي أن تُحمَلَ هذه القراءةُ على التفسير لمخالفتها لسواد المصحف المُجمَعِ عليه.

وقرأ الجمهور وباقي السبعة: «وإنْ كانَ» بالنون «مكرُهم لِتزولَ» بكسر اللام ونصب الأخيرة، ورُويت هذه القراءة عن عليّ، واختُلف في تخريجها، فعن الحسن وجماعة أنَّ «إنْ» نافية، و«كان» تامة، والمعنى تحقيرُ مكرِهم، وأنه ما كان لِتزولَ منه الشرائعُ والنبوَّات وأقدارُ الله التي هي كالجبالِ في ثبوتها وقوَّتها(٢). ويؤيِّد هذا التأويلَ ما رُوِيَ عن ابن مسعود أنه قرأ: «وما كان»(٣) بـ «ما» النافية، لكن هذا التأويل وما رُوِيَ عن ابن مسعود من قراءة «وما» بالنفي يعارض ما تقدَّم من القراءات، لأنَّ فيها تعظيمَ مكرِهم، وفي هذا تحقيرُه، ويحتمل على تقدير «إنْ» أنها نافية أن تكون «كان» ناقصة، واللام لام الجحود، وخبر «كان» على الخلاف الذي بين البصريِّين والكوفيِّين أهو محذوف أو هو الفعل الذي دخلت عليه اللام، وعلى أنَّ «إنْ» نافية و«كان» ناقصة واللام في «لِتزولَ» متعلِّقة بفعل في موضع خبر «كان» خرَّجه الحَوْفي.

وقال الزمخشريّ: «وإن كان مكرُهم لِتزولَ منه الجبال»: وإن عظُم مكرُهم وتبالغَ في الشدَّة. فضَربَ زوالَ الجبالِ منه مثلاً لتفاقمِه وشدَّتِه، أي: وإن كان مكرُهم مُسَوًّى(٤) لإزالة الجبال مُعَدّاً لذلك.

وقال ابن عطية(٥): وتحتمل عندي هذه القراءة أن تكون بمعنى تعظيم مكرِهم، أي: وإن كان شديداً بما يفعل لتذهبَ به عظامُ الأمور. انتهى.

وعلى تخريج هذين تكون «إنْ» هي المخفَّفة من الثقيلة، و«كان» هي الناقصة،

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦.
(٢) المصدر السالف.
(٣) القراءات الشاذة ص٦٩.
(٤) في (د١) و(د٢): مستوي. وفي المطبوع: مستوٍ. وهو خطأ. والكلام في الكشاف ٢/ ٣٨٣.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦.

وعلى هذا التخريج تتَّفق معاني القراءات أو تتقارب، وعلى تخريج النفي تتعارض كما ذكرنا.

وقُرئ: «لَتَزُولَ» بفتح اللام الأولى ونصب الثانية، وذلك على لغة من فتح لام «كي».

والذي يظهرُ أنَّ زوالَ الجبال مجازٌ ضُرب مثلاً لمكر قريش وعِظَمِه، والجبالُ لا تزولُ، وهذا من باب الغلوّ والإيغال والمبالغة في ذمّ مكرِهم، وأمَّا ما رُوِيَ من أنَّ جبلاً زالَ لِحَلِفِ امرأة اتَّهمها زوجُها، وكان ذلك الجبلُ مَن حلفَ عليه كاذباً مات، فحملَها للحَلِفِ فمكرت بأن رمَتْ نفسَها عن الدابَّة وكانت وعدَتْ من اتُّهمت به أن يكون في المكان الذي وقعت فيه عن الدابَّة، فأركبَها زوجُها وذلك الرجلَ، وحلفت على الجبل أنَّها ما مسَّها غيرهما، فنزلت سالمةً وأصبح الجبلُ قد اندكّ، وكانت المرأة من عدنان، وما رُوِيَ من قصَّةٍ للنُّمرود[1] - أو بُخْتَنَصَّر - واتخاذِ الأَنْسُر وصعودِهما عليها إلى قُرب السماء، في قصة طويلة، وما تأوَّلَ بعضُهم أنه عبَّر بالجبال عن الإسلام والقرآن لثبوتِه ورُسوخِه، وعَبَّرَ بمكرهم عن اختلافهم فيه من قولهم: هذا سِحْر، هذا شِعْر، هذا إفْك = فأقوالٌ ينبُو عنها ظاهرُ اللفظ، وبعيدٌ جدّاً قصة الأَنْسُر[2].

والنَّهيُ عن الحِسْبان كهو في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾ وأطلقَ الحِسْبان على الأمر المتحقِّق هنا، كما قال الشاعر:

فلا تَحْسَبَنْ أنِّي أَضِلُّ مَنِيَّتي فكلُّ امْرِئٍ كأسَ الحِمام يَذُوقُ

وهذا الوعدُ قولُه[3] تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقرأ الجمهور بإضافة «مُخْلِفَ» إلى «وَعْدِه» ونصب «رُسُلَه»، واختُلِفَ في إعرابه، فقال الجمهور؛ الفرَّاء وقُطرب والحَوْفيّ والزمخشريّ وابنُ عطية

---

(١) المثبت من (ز١). وفي النسخ الأخرى: النمروذ.

(٢) القصة في تفسير الطبري ١٣/ ٧٢١، والثعلبي ٣/ ٤٧٤-٤٧٥، وزاد المسير ٤/ ٣٧٣، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٦٥. وهي قصة تالفة.

(٣) في (د١): لقوله، وفي مطبوع البحر: كقوله. والكلام في الكشاف ٢/ ٣٨٤-٣٨٥.

وأبو البقاء[١]: إنه ممَّا أُضيف فيه اسمُ الفاعل إلى المفعول الثاني، كقولهم: هذا معي دِرْهَم زيداً، لمَّا كان يتعدَّى إلى اثنين جازت إضافتُه إلى كلٍّ واحدٍ منهما فينتصبُ ما تأخَّر، وأنشدَ بعضُهم نظيراً له قولَ الشاعر:

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رأسَهُ وسائرُه بادٍ إلى الشَّمْسِ أجْمَعُ[٢]

وقال أبو البقاء: هو قريبٌ من قولهم:

يا سارقَ الليلةِ أهلَ الدارِ[٣]

وقال الفرَّاء وقُطرب: لمَّا تعدَّى الفعلُ إليهما جميعاً لم يُبالَ بالتقديم والتأخير.

وقال الزمخشريّ: فإن قلتَ: هلَّا قيل: مُخْلِفَ رُسُلِهِ وَعْدَه، ولِمَ قُدِّمَ المفعولُ الثاني على الأول؟ قلت: قُدِّمَ الوعدُ ليُعلم أنه لا يُخلِفُ الوَعْدَ أصلاً؛ كقوله[٤]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩] ثم قال: «رُسُلَه» ليؤذِنَ أنه إذا لم يُخلف وعدَه أحداً وليس من شأنه إخلافُ المواعيد؛ كيف يُخلِفُه رسلَه الذين هم خِيرتُه وصَفوتُه؟ انتهى. وهو جوابٌ على طريقة الاعتزال في أنَّ ما وعدَ الله واقعٌ[٥] لا محالة، فمن وعدَه بالنار من العصاة لا يجوزُ أن يغفرَ له أصلاً، ومذهبُ أهلِ السُّنَّة أنَّ كلَّ ما وعدَ من العذاب للعصاة المؤمنين هو مشروطٌ إنفاذُه بالمشيئة.

وقيل: «مُخْلِف» هنا متعدٍّ إلى واحد، كقوله: «لا يخلف الميعاد» فأُضيف إليه وانتصبَ «رُسُلَه» بوعده، إذ هو مصدر ينحلُّ بحرف مصدريّ والفعل، كأنَّه قال: مُخْلِفَ ما وَعَدَ رسلَه، و«ما» مصدريَّة لا بمعنى «الذي».

---

(١) ينظر الكتاب ١/ ١٧٥، ومعاني الفرّاء ٢/ ٧٩-٨٠، والكشاف ٢/ ٣٨٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦، والإملاء ٢/ ٧١.

(٢) الكتاب ١/ ١٨١، ومعاني الفراء ٢/ ٨٠، وإعراب النحاس ٢/ ٣٧٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٦٧.

(٣) الإملاء ٢/ ٧١. وينظر الرَّجَز أيضاً في الكتاب ١/ ١٧٥ و١٩٣، ومعاني الفراء ٢/ ٨٠، والأصول في النحو ١/ ١٩٥. قال البغدادي في خزانة الأدب ٣/ ١٠٨: الشاهد على أنه قد يُتوسَّع في الظروف المتصرِّفة، فيضاف إليها المصدر والصفة المشتقة منه.

(٤) في (د١) و(ع) والمطبوع: لقوله. والكلام في الكشاف ٢/ ٣٨٤.

(٥) في (ح) و(د١) والمطبوع: في أن وعد الله واقع، وفي (د٢): في أن ما وعده واقع.

وقرأت فرقة: «مُخْلِفَ وَعْدَهُ رُسُلِه»(١) بنصب «وَعْدَه» وإضافة «مُخْلِف» إلى «رسلِه» ففصلَ بين المضافِ والمضافِ إليه بالمفعول، وهو كقراءة: «قَتْلُ أولادَهم شركائِهم»(٢) وتقدَّم الكلام عليه مشبعاً في الأنعام [١٣٧]، وهذه القراءة تؤيِّدُ إعرابَ الجمهور في القراءة الأولى، وأنَّه ممَّا تعدَّى فيه «مُخْلِفَ» إلى مفعولين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يمتنعُ عليه شيء ولا يُغالَب ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ من الكَفَرة لا يعفُو عنهم.

والتبديل يكون في الذات، أي: تزول ذات وتجيء أخرى، ومنه: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦] ويكون في الصفات، كقولك: بدَّلتُ الحَلْقَةَ خاتماً، فالذاتُ لم تُفقد، لكنَّها انتقلت من شكل إلى شكل(٣).

واختلفوا في التبديل هنا أهو في الذات أو في الصفات، فقال ابنُ عبَّاس: تُمَدُّ كما يُمَدُّ الأديمُ، وتُزالُ عنها جبالُها وآكامُها وشجرُها وجميعُ ما فيها حتى تصيرَ مستويةً لا ترى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً. وتُبدَّلُ السماواتُ بتكويرِ شمسِها وانتثارِ كواكِبها وانشقاقِها وخُسوفِ قمرِها(٤).

وقال ابن مسعود: تُبَدَّلُ الأرضُ بأرضٍ كالفضة نقية لم يُسفك فيها دم، ولم تُعمل فيها خطيئة(٥).

وقال عليّ: تلك الأرضُ من فضة، والجنَّة من ذهب(٦).

(١) ينظر معاني الفراء ٢/ ٨١، ومعاني الزجَّاج ٣/ ١٦٨، والكشاف ٢/ ٣٨٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦.
(٢) وهي قراءة ابن عامر الشامي من السبعة.
(٣) بنحوه في الكشاف ٢/ ٣٨٤.
(٤) أخرجه البيهقي عنه بنحوه في البعث، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩١. وينظر تفسير الرازي ١٩/ ١٤٦، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٦٨.
(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٧٣٠، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٧٠.
(٦) ينظر تفسير كل من الطبري ١٣/ ٧٣٣-٧٣٤، والثعلبي ٣/ ٤٧٦، والقرطبي ١٢/ ١٧٠.

وقال محمد بنُ كعب وابنُ جُبير: هي أرضٌ من خُبز يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم. وجاء هذا مرفوعاً[(١)].

وقيل: تصيرُ ناراً والجنةُ من ورائها تُرى أكوابُها وكواعبُها[(٢)]. وقال أُبيّ: تصيرُ السماوات جِناناً[(٣)].

وقيل: تبديلُها من طَيِّها. وقيل: مَرَّةً كالمُهْل، ومَرَّةً وَرْدَة كالدِّهان. قاله ابن الأنباري[(٤)]. وقيل: بانشقاقِها فلا تُظِلُّ[(٥)].

وفي الحديث أنَّ الله يُبَدِّلُ هذه الأرضَ بأرضٍ عَفْراءَ بيضاءَ كأنَّها قُرْصَةُ نَقِيٍّ[(٦)].

وفي كتاب الزمخشري: وعن علي: تُبدَّلُ أرضاً من فضة، وسماوات من ذهب. وعن الضحَّاك: أرضاً من فضة بيضاء كالصحائف. وعن ابن عباس: هي تلك الأرض، وإنما تغيَّر، وأنشد:

وما الناسُ بالناسِ الذين عَهِدْتَهُمْ ولا الدارُ بالدارِ التي كنتَ تعلمُ[(٧)]

---

(١) بنحوه في تفسير الطبري ١٣/ ٧٣٥، وأخرج البخاري (٦٥٢٠)، ومسلم (٢٧٩٢) عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «تكون الأرضُ يومَ القيامة خُبْزَةً واحدةً...» الحديث.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٧٣٣ عن ابن مسعود.

(٣) زاد المسير ٤/ ٣٧٦. وجاء هذا ضمن خبر في تفسير الطبري ١٣/ ٧٣٥، وتفسير الثعلبي ٣/ ٤٧٦، والنكت والعيون ٣/ ١٤٤ عن كعب الأحبار، والله أعلم. ووقع في (د١) والمطبوع: حقاباً. وهو تحريف.

(٤) قولُه هذا في النكت والعيون ٣/ ١٤٤، وزاد المسير ٤/ ٣٧٦، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٦٨.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤٤ عن ابن شجرة، ونسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧٦ للماوردي.

(٦) أخرجه البخاري (٦٥٢١) ومسلم (٢٧٩٠) من حديث سهل بن سعد مرفوعاً بلفظ: «يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامة على أرضٍ بيضاءَ عَفْراءَ كقُرْصَةِ نَقِيٍّ». وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٧. قوله: قُرْصَة، أي: خُبزة صغيرة مبسوطة مدوَّرة، والنَّقِيّ: الدقيق الجيِّد.

(٧) الكشاف ٢/ ٣٨٤. وسلف قول عليّ قريباً. وأورد الثعلبي ٣/ ٤٧٦ قول ابن عباس، وفيه: كنتُ أعرف، بدل: كنتَ تعلم. وجاء البيت بنحوه ضمن ثلاثة أبيات في ديوان المعاني ص٧٨، وجمهرة الأمثال ١/ ٩٦.

قال ابنُ عطية: وسمعتُ من أبي ﷺ أنه[1] رُوِيَ أن التبديل يقع في الأرض، ولكن تبدَّلُ لكلِّ فريق بما يقتضيه حالُه، فالمؤمنُ يكونُ على خُبز يأكلُ منه بحسب حاجته إليه، وفريقٌ يكونون على فضة؛ إن صحَّ السَّنَد بها، وفريقُ الكفَرة يكونون على نار، ونحو هذا وكلُّه واقعٌ تحت قدرة الله تعالى. وفي الحديث: «المؤمنون وقتَ التبديلِ في ظلِّ العَرْش»[2]، وفيه: أنهم ذلك الوقت على الصراط[3].

وقال أبو عبد الله الرازيّ[4]: المرادُ من تبديل الأرض والسماواتِ هو أنه تعالى يجعلُ الأرضَ جهنَّمَ، ويجعلُ السماواتِ الجنةَ، والدليلُ عليه قولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، وقولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] انتهى. وكلامُه هذا يدلُّ على أنَّ الجنَّةَ والنارَ غيرُ مخلوقتين، وظاهرُ القرآن والحديث أنهما قد خُلقتا، وصحَّ في الحديث أنَّ رسول الله ﷺ اطَّلَعَ عليهما[5]، ولا يمكنُ أنْ يَطَّلِعَ عليهما حقيقةً إلا بعد خَلْقِهما.

﴿وَبَرَزُوا۟﴾ أي: ظهروا لا يُوارِيهِم بناءٌ ولا حِصْن.

وانتصاب «يومَ»[6] على أنه بدل من «يومَ يأتيهم» قاله الزمخشري[7]، أو معمولاً لـ «مُخْلِفَ وَعْدِهِ»، و«إنَّ» وما بعدَها اعتراض. قاله الحَوْفيّ.

وقال أبو البقاء[8]: لا يجوز أن يكون ظرفاً لـ «مُخْلِفَ» ولا لـ «وَعْدِهِ» لأنَّ ما قبل «إنَّ» لا يعملُ فيما بعدَها، ولكن جُوِّزَ أن يلحق من معنى الكلام ما يعملُ في

---

(١) لفظة «أنه» من (ز١) و(يه)، والكلام في المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٧.
(٢) لفظ الحديث من المحرَّر الوجيز ٣/ ٣٤٧، ولم أقف عليه. وجاء في صحيح مسلم (٣١٥) من حديث ثوبان ﷺ أنَّ الناس يومئذ في الظُّلمة دون الجِسْر، أي: الصراط. والله أعلم.
(٣) أخرجه مسلم (٢٧٩١) من حديث عائشة ﵂.
(٤) تفسيره ١٩/ ١٤٧.
(٥) ينظر على سبيل المثال حديث عمران بن حُصين في صحيح البخاري (٣٢٤١) وصحيح مسلم (٢٧٣٨) مرفوعاً: «اطَّلعتُ في الجنة فرأيتُ أكثرَ أهلها الفقراء...».
(٦) في قوله: «يومَ تُبَدَّلُ الأرض».
(٧) الكشاف ٢/ ٣٨٤.
(٨) الإملاء ٢/ ٧١.

الظرف، أي: لا يُخلِفُ وعدَه يومَ تُبدَّلُ. انتهى. وإذا كان «إنَّ» وما بعدها اعتراضاً لم يُبالَ بهِ[١] فَصْلاً بين العامل والمعمول، أو معمولاً لـ «انتقام». قاله الزمخشريّ والحَوْفيّ وأبو البقاء. أو لـ «اذْكُر» قاله أبو البقاء.

وقُرئ: «نُبَدِّلُ» بالنون[٢] «الأرضَ» بالنصب «والسماواتِ» معطوف على «الأرض»، وثَمَّ محذوف، أي: غيرَ السماوات، حُذف لدلالة ما قبلَه عليه.

والظاهر استئناف «وبَرَزُوا»، وقال أبو البقاء: يجوزُ أن يكونَ حالاً من «الأرض»، و«قَدْ» معه مُرادة. ومعنى «للهِ»: لحُكم الله، أو لمَوْعُودِه من الجنة والنَّار.

وقرأ زيد بنُ عليّ: «وبُرِّزُوا» بضمّ الباء وكسر الراء مشدَّدةً، جعلَه مبنيًّا للمفعول على سبيل التكثير بالنسبة إلى العالَم وكثرتِهم لا بالنسبة إلى تكرير الفعل.

وجيء بهذين الوصفَيْن، وهما «الواحد»، وهو الذي لا يَشْرَكُهُ أحدٌ في ألوهيَّته، ونبَّه به على أنَّ آلهتَهم في ذلك اليوم لا تنفع، و«القَهَّار» وهو الغالبُ لكلِّ شيء، وهذا نظيرُ قولِه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ يومَ إذ تُبدَّلُ وبَرَزُوا «مُقَرَّنين»: مشدُودين في القَرَن[٣]، أي: مقرونٌ بعضُهم مع بعض في القيود والأغلال، أو مع شياطينهم؛ كلُّ كافرٍ مع شيطانِهِ في غُلٍّ، أو تُقرَنُ أيديهم إلى أرجلهم مُغَلَّلين[٤].

والظاهر تعلُّق «في الأصفاد» بقوله: «مُقَرَّنين» أي: يُقرنون في الأصفاد، ويجوزُ أن يكون في موضع الصفة لـ: «مقرَّنين»، وفي موضع الحال فيتعلَّق بمحذوف، كأنه قيل: مستقرِّين في الأصفاد.

---

(١) المثبت من (ز١) و(يه). وفي النسخ الأخرى: أنه، وهو تحريف.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٨٤، وزاد المسير ٤/ ٣٧٤، ونُسبت القراءة فيه لأبان.
(٣) يعني الحَبْل، وهو في الأصل: الحَبْلُ الذي يُقْرَنُ به البعيران.
(٤) نُسب القول الأول في زاد المسير ٤/ ٣٧٧ لابن قُتيبة، والثاني لابن عباس، والثالث لابن زيد، وفيه أن أيديهم وأرجلَهم قُرنت إلى رقابهم. وهو كذلك في تفسير الثعلبي ٣/ ٤٧٦.

وقال الحسن: ما في جهنَّمَ وَادٍ ولَا مغارةٌ[1] ولا قَيْدٌ ولا سلسلةٌ إلا اسمُ صاحبِه عليه مكتوب.

وقرأ عليّ وأبو هريرة وابنُ عبَّاس وعكرمةُ وابنُ جُبير وابنُ سِيرِين والحسن بخلاف عنه وسِنان بنُ سَلَمة بن المُحَبِّق وزيدُ بنُ علي وقتادة وأبو صالح والكلبيّ وعيسى الهَمْدَاني وعَمرو بن فائد وعَمرو بن عُبيد: «من قَطِرٍ» بفتح القاف وكسر الطاء وتنوين الراء «آنٍ» اسم فاعل من «أَنَى» صفة لـ «قَطِر»[2]؛ قيل: وهو القِصْدير، وقيل: النُّحاس. وعن عمر ﷺ أنه قال: ليس بالقَطِران، ولكنَّه النُّحاس يصيرُ بلونه.

والآنِي الذائبُ الحارُّ الذي قد تَنَاهَى حَرُّه؛ قال الحسن: قد سُعِّرَتْ عليه جهنَّم منذ خُلقت، فتَنَاهَى حَرُّه. وقال ابنُ عباس: المعنى: أَنَى أَنْ يُعَذَّبُوا به، يعني: حانَ تعذيبُهم به[3].

وقال الزمخشريّ[4]: ومن شأنِه ـ أي القَطِران ـ أن يُسْرِعَ فيه اشتعالُ النار، وقد يُستسرَجُ به، وهو أسودُ اللون منتن الريح، فتُطْلَى به جلودُ أهلِ النار حتى يعود طِلاؤه لهم كالسَّرَابيل، وهي القُمُص، لتجتمعَ عليهم الأربعُ: لَذْعُ القَطِرَان وحُرْقَتُه، وإسراعُ النار في جلودهم، واللونُ الوَحِش، ونَتْنُ الرِّيح؛ على أنَّ التفاوتَ بين القَطِرَانَيْن كالتفاوتِ بين النارَيْن، وكلُّ ما وعدَه الله أو أَوْعَدَ به في الآخرة فبينَه وبينَ ما نشاهدُ من جنسه ما لا يُقادَرُ قَدْرُه، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي، والمسمَّياتُ ثمةَ، فبكرمِهِ الواسع نعوذُ من سَخَطِه، ونسألُه التوفيقَ فيما يُنجينا من عذابه. انتهى.

وقرأ عمر بنُ الخطاب وعليّ بنُ أبي طالب: «من قَطْرَان» بفتح القاف وإسكان

---

(١) في (أ) و(د١) و(د٢) و(ع) والمطبوع: مفازة. والقول في الهداية لمكي ٩/ ٣٨٤٩.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨، والمحتسب ١/ ٣٦٦، وضبطت لفظة «قطر» فيه بكسر القاف وإسكان الطاء. وذكر الطبري ١٣/ ٧٤٢ عن عيسى الهمداني أنه قرأ: «من قِطْران» (كلمة واحدة) بكسر القاف وإسكان الطاء. واستشهد بالرجز الآتي، فلعله رُوي عنه الوجهان.

(٣) تنظر الأقوال السالفة في المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٨٥.

الطاء، وهو في شعر أبي النَّجْم؛ قال:

لَـبَّـسـهُ[(١)] الـقَـطْـرَانَ والـمُـسُـوحَـا[(٢)]

وقرأ الجمهور: «وتَغْشَى وُجُوهَهُمْ» بالنصب، وقُرِئ بالرفع[(٣)]، فالأولى على نحو قوله: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝﴾ فهي على حقيقة الغِشْيان، والثانية على التجوُّز؛ جعلَ وُرُودَ الوُجوه على النَّار غِشياناً.

وقُرئ: «وتَغَشَّى وُجُوهَهم»[(٤)] بمعنى: تَتَغَشَّى، وخَصَّ الوُجوهَ هنا وفي قوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٢٤] ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] لأنَّ الوَجْهَ أعزُّ موضع في ظاهر البَدَن وأشرفُه، كالقلب في باطنه، ولذلك قال: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾.

و«لِيَجْزِيَ» متعلّق بمحذوف تقديرُه: يفعلُ بالمجرمين ما يفعلُ لِيجزيَ كلَّ نفس، أي: مجرمة، بما كسبت، أو كلَّ نفسٍ من مجرمةٍ ومطيعةٍ، لأنه إذا عاقبَ المجرمين لإجرامهم عُلم أنه يُثيبُ المطيعين لطاعتِهم. قاله الزمخشري[(٥)].

ويظهر أنها تتعلَّق بقوله: «وبَرَزُوا» أي: الخلقُ كلُّهم، ويكون «كلّ نفس» عامًّا، أي: مطاعةً ومجرمة، والجملة من قوله: «وتَرَى» معترضة.

وقال ابن عطية: اللام متعلّقة بفعل مضمر، تقديره: فعلَ هذا أو أنفذَ هذا العقابَ على المجرمين ليجزيَ في ذلك المسيءَ على إساءته[(٦)]. انتهى.

والإشارة بـ «هذا» إلى ما ذَكَّرَ بِهِ تعالى من قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾ إلى

---

(١) في النسخ الخطية والمطبوع: لبَّسنه. والمثبت من المصادر. ينظر ديوان أبي النجم ص٨٣، وتفسير كلٍّ من الطبري ١٣/ ٧٤٢، والثعلبي ٣/ ٤٧٧، والقرطبي ١٢/ ١٧٢.

(٢) ذكر الطبري ١٣/ ٧٤٢ أنَّ في «قَطِران» ثلاث لغات: «قَطِران» بفتح القاف وكسر الطاء، و«قَطْران» بفتح القاف وإسكان الطاء، ثم استشهد بهذا الرَّجز على قراءة عيسى بن عُمر الهَمْداني بكسر القاف وإسكان الطاء كما سلف قبل تعليقين.

(٣) يعني رفع «وجوههم» ونصب «النار» وهي قراءة ابن مسعود كما في المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٨٥. ونسبت في القراءات الشاذة ص٧٠ لابن مسعود.

(٥) المصدر السالف.

(٦) عبارة المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨: ليكون في ذلك جزاء المسيء على إساءته.

قوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾. وقيل: الإشارة إلى القرآن، وقيل: إلى السورة. ومعنى «بلاغ» كفاية في الوعظ والتذكير.

﴿وَلِيُنذَرُوا۟﴾ قال الماورديّ: الواو زائدة، وعن المبرِّد: هو عطفُ مفرَد على مفرد، أي: هذا بلاغٌ وإنذارٌ. انتهى. وهذا تفسير معنى، لا تفسيرُ إعراب.

وقيل: هو محمول على المعنى، أي: ليُبلَّغوا وليُنذَرُوا. وقيل: اللامُ لامُ الأمر. قال بعضهم: وهو حسن لولا قولُه: «وليذكَّر» فإنه منصوبٌ لا غير. انتهى. ولا يخدشُ ذلك، إذ يكون «وليذَّكَّرَ» ليس معطوفاً على الأمر، بل يُضمر له فعل يتعلَّق به.

وقال ابن عطية: المعنى: هذا بلاغٌ للناس، وهو لِيُنْذَرُوا به. انتهى. فجعلَه في موضع رفع خبراً لـ «هو» المحذوفة.

وقال الزمخشري: «ولِيُنْذَرُوا» معطوف على محذوف، أي: لِيُنْصَحُوا وليُنذَرُوا به بهذا البلاغ. انتهى.

وقرأ الجمهور: «وليُنْذَرُوا» بالياء مبنيًا للمفعول[1]، وقرأ مجاهد وحُميد بتاء مضمومة وكسر الذال، كَأَنَّ البلاغَ للعموم والإنذار للمخاطَبين.

وقرأ يحيى بنُ عُمارة الذَّارع عن أبيه وأحمد بنُ يزيد بن أسيد السُّلَميّ: «وليَنْذَرُوا» بفتح الياء والذال[2]، مضارع: نَذِرَ بالشيء: إذا عَلِمَ به فاستعدَّ له. قالوا: ولم يُعرف لهذا الفعل مصدر، فهو مثل «عَسَى» وغيرِهِ ممَّا استُعملَ من الأفعال، ولم يُعرف له أصل.

«وليعلموا» لأنهم إذا خافوا ما أُنذروا به دعاهم ذلك إلى النظر، فيتوصَّلون إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، إذِ الخشية أصلُ الخير[3].

---

(١) قوله: وقرأ الجمهور... إلى هذا الموضع، من (ز١) و(به) وسقط من النسخ الأخرى والمطبوع.
(٢) القراءات الشاذة ص٧٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨، والقراءة في الكشاف ٢/ ٣٨٥ دون نسبة.
(٣) الكشاف ٢/ ٣٨٥.

«وليذَّكَّرَ» أي: يَتَيقَّظَ[١] ويُراجعَ نفسَه بما سمعَ من المواعظ[٢]. وأسندَ التذكُّرَ والاتِّعاظَ إلى مَنْ له لُبٌّ لأنهم هم الذين يُجْدِي فيهم التَّذَكُّر.

وقيل: هي في أبي بكر الصِّدِّيق[٣].

وناسبَ مختتمُ هذه السورة مفتتحَها، وكثيراً ما جاء هذا في سُوَر القرآن، حتى إنَّ بعضهم زعم أنَّ قولَه: «ولِيُنْذَرُوا به» معطوف على قوله: «لِتُخْرِجَ الناس».

(١) في (د١) والمطبوع: يتَّعظ.
(٢) ينظر النكت والعيون ٣/١٤٦.
(٣) المحرر الوجيز ٣/٣٤٨، ونُسب القول في النكت والعيون ٣/١٤٦ ليمان بن رِئاب.

(١٤) سورة إبراهيم مكية
وآياتها ثنتان وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾
اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. ﴿كتاب أنزلناه إليك﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو (القرآن العظيم) الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم، ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ أي إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي، إلى الهدى والرشد، كما قال تعالى: ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿بإذن ربهم﴾ أي هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره، يهديهم ﴿إلى صراط العزيز﴾ أي العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿الحميد﴾ أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعته وأمره ونهيه، الصادق في خبره، ﴿الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ بالجر على الاتباع صفة للجلالة، كقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض﴾ الآية. وقوله: ﴿وويل للكافرين من عذاب شديد﴾ أي ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي يقدمونها ويؤثرونها عليها ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم. ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ وهي اتباع الرسل، ﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق لا يرجى لهم والحالة هذه صلاح.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٤﴾

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا بـه إليهم، كما روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله عزّ وجلّ نبياً إلا بلغة قومه». وقوله: ﴿فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، يضل الله من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق ﴿وهو العزيز﴾ الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿الحكيم﴾ في أفعاله فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج النـاس من الظلمـات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا. قال مجاهد: هي التسع الآيات، ﴿أن أخرج قومك﴾ أي أمرناه قائلين له: ﴿أخرج قومك من الظلمات إلى النور﴾ أي ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال، إلى نور الهـدى وبصيرة الإيمان، ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ أي بأياديه ونعمه عليهم[1]، في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم الغمام، وإنزالـه عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد. وقوله: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يـد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبرة لكل ﴿صبار﴾ أي في الضراء، ﴿شكور﴾ أي في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر. وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كله عجب، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له».

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكّر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا

(١) ورد تفسير ﴿أيام الله﴾ بالنعم في حديث مرفوع في المسند عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ قال: بنعم الله، قال ابن كثير: وورد موقوفاً وهو أشبه.

يسومونهم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم فأنقذهم الله من ذلك، وهذه نعمة عظيمة، ولهذا قال: ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ أي نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك أنتم عاجزون عن القيام بشكرها. وقيل ﴿بلاء﴾ أي اختبار عظيم، ويحتمل أن يكون المراد هذا، وهذا – والله أعلم – كقوله تعالى: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾، وقوله: ﴿وإذ تأذن ربكم﴾ أي آذنكم وأعلمكم بوعده لكم؛ ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، كقوله تعالى: ﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة﴾. وقوله: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿ولئن كفرتم﴾ أي كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها، ﴿إن عذابي لشديد﴾ وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها، وقد جاء الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه». وقوله تعالى: ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾ أي هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفره.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

قص الله علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل مما لا يحصي عددهم إلا الله عزّ وجلّ، ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات، وقوله: ﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾ اختلف المفسرون في معناه، قيل: معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم لما دعوهم إلى الله عزّ وجلّ، وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم، وقال مجاهد وقتادة: معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم، ويؤيد قول مجاهد: تفسير ذلك بتمام الكلام ﴿وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾ فكأن هذا والله أعلم – تفسير لمعنى: ﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾، وقال العوفي عن ابن عباس: لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم، وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به الآية، يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به فإن عندنا فيه شكاً قوياً.

* قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ

﴿عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أفي الله شك﴾، أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه: ﴿فاطر السموات والأرض﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما فلا بد لهما من صانع، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلاهه ومليكه، وقالت لهم رسلهم: ﴿يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي في الدار الآخرة، ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ أي في الدنيا، فقالت لهم الأمم: ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾ أي كيف نتبعكم بمجرد قولكم ولما نر منكم معجزة، ﴿فأتونا بسلطان مبين﴾ أي خارق نقترحه عليكم، ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم﴾ أي صحيح إنا بشر مثلكم في البشرية، ﴿ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده﴾ أي بالرسالة والنبوة، ﴿وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان﴾ على وفق ما سألتم ﴿إلا بإذن الله﴾، أي بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك، ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي في جميع أمورهم. ثم قالت الرسل: ﴿وما لنا أن لا نتوكل على الله﴾ أي وما يمنعنا من التوكل عليه؟ وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها، ﴿ولنصبرنّ على ما آذيتمونا﴾ أي من الكلام السيء والأفعال السخيفة، ﴿وعلى الله فيتوكل المتوكلون﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لنخرجنّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا﴾ الآية، وكما قال قوم لوط: ﴿أخرجوا آل لوط من قريتكم﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكنّ الظالمين. ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾، كما قال تعالى: ﴿وإنّ جندنا لهم الغالبون﴾، وقال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾، وقال تعالى: ﴿وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾، وقال تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾، وقوله: ﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ أي وعيدي، هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي وهو تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى﴾،

وقال: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، وقوله: ﴿واستفتحوا﴾ أي استنصرت الرسل ربها على قومهم[1]، وقال ابن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾، ويحتمل أن يكون هذا مراداً، وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم﴾ الآية، ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ أي متجبر في نفسه عنيد معاند للحق، كقوله تعالى: ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد، مناع للخير معتد مريب﴾. وفي الحديث: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادي الخلائق فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد» الحديث، وقوله: ﴿من ورائه جهنم﴾ وراء هنا بمعنى أمام، كقوله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً﴾، وكان ابن عباس يقرؤها: وكان أمامهم ملك، أي من وراء الجبار العنيد جهنم، أي هي له بالمرصاد يسكنها مخلداً يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وعشياً إلى يوم التناد، ﴿ويسقى من ماء صديد﴾ أي في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق، كما قال: ﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج﴾، وقال مجاهد: الصديد من القيح والدم. وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده، وفي رواية عنه: الصديد ما يخرج من جوف الكافر فقد خالط القيح والدم، وفي حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد ابن السكن قالت، قلت: يا رسول الله ما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار»، وفي رواية: «عصارة أهل النار»، وقال الإمام أحمد، عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرعه﴾ قال: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا أدني منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره»، يقول تعالى: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾، ويقول: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ الآية[2].

وقوله تعالى: ﴿يتجرعه﴾ أي يتغصصه ويتكرهه، أي يشربه قهراً وقسراً لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿ولهم مقامع من حديد﴾، ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ أي يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع، ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ أي يألم له جميع بدنه من كل عظم وعصب وعرق، وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره، وقال ابن عباس: ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ قال: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه، لو كان يموت، ولكن لا يموت لأن الله تعالى قال: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾، ومعنى كلام ابن عباس رضي الله عنه أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه، اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾، وقوله: ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم * ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في

---

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة. (٢) أخرجه الإمام أحمد وابن جرير.

شرب حميم، وتارة يردون إلى جحيم، عياذاً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم﴾، وقال تعالى: ﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله عزّ وجلّ، جزاء وفاقاً ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾.

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار، الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت فقال تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم﴾ أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء، فلم يجدوا شيئاً إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿في يوم عاصف﴾ أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾، وقوله تعالى: ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته﴾، وقوله تعالى: ﴿فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا﴾، ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه.

۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السماوات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها، وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد، وأوتاد وبراري وصحارى وقفار وبحار وأشجار، ونبات وحيوان ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى، بلى إنه على كل شيء قدير﴾، وقوله: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ٭ وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم.

وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾

يقول تعالى: ﴿وبرزوا﴾ أي برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها لله الواحد القهار، أي اجتمعوا له في براز

من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً، ﴿فقال الضعفاء﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿للذين استكبروا﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، قالوا لهم: ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ أي مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، ﴿فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾ أي فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا، فقالت القادة لهم: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين، ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه. قال عبدالرحمن بن أسلم: إن أهل النار قالوا: تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله عزّ وجلّ، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله، فبكوا وتضرعوا، فلما رأوا أنه لا ينفعهم، قالوا: إنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر فصبروا صبراً لم ير مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ الآية. **قلت**: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾، وقال ﴿حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار: قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾، وقال تعالى: ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾، وأما تخاصمهم في المحشر فقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم مجرمين﴾.

وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم وغبناً إلى غبنهم وحسرة إلى حسرتهم فقال: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾ أي على ألسنة رسله ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾

ثم قال: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ أي ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به، ﴿إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ بمجرد ذلك، ، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فلا تلوموني﴾ اليوم، ﴿ولوموا أنفسكم﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج، واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل، ﴿ما أنا بمصرخكم﴾ أي بنافعكم ومنقذكم

ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿وما أنتم بمصرخيّ﴾ أي بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ قال قتادة: أي بسبب ما أشركتموني من قبل، قال ابن جرير: يقول إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجلّ، وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ۝ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾، وقال: ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾. وقوله: ﴿إن الظالمين﴾ أي في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل لهم عذاب أليم، والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا، قال الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول تعالى لعيسى بن مريم: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ ؟ قال: ويقوم إبليس لعنه الله فيقول: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ الآية، ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيبهم إبليس عطف بمآل السعداء، فقال: ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا، ﴿خالدين فيها﴾ ماكثين أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام﴾، كما قال تعالى: ﴿حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم﴾، وقال تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾، وقال تعالى: ﴿ويلقون فيها تحية وسلاماً﴾، وقال تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

قال ابن عباس: قوله: ﴿مثل كلمة طيبة﴾: شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كشجرة طيبة﴾ وهو المؤمن ﴿أصلها ثابت﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وفرعها في السماء﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء؛ وقال البخاري عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه - أو - كالرجل المسلم، لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين بإذن بها، قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا. وعن ابن عباس: ﴿كشجرة طيبة﴾ قال: هي شجرة في الجنة. وقوله: ﴿تؤتي أكلها كل حين﴾ قيل: غدوة وعشياً، وقيل: كل شهر، وقيل كل شهرين، وقيل غير ذلك. والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمرة في كل وقت، من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين ﴿بإذن ربها﴾ أي كاملاً حسناً كثيراً طيباً مباركاً ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم

يتذكرون﴾. وقوله تعالى: ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة﴾ هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات، مشبه بشجرة الحنظل[١]، وقوله: ﴿اجتثت﴾ أي استؤصلت ﴿من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل ولا يتقبل منه شيء.

* ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

روى **البخاري**، عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾»[٢]. وقال الإمام إحمد، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت بـه الأرض فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان - قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها يعني على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: «ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي كنت يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجه

(١) روي هذا في حديث مرفوع أن الشجرة الخبيثة هي الحنظلة، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

(٢) ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة.

معهم المسوح فجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، فيجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب – قال – فتفرق في جسده فينتزعه كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾، فيقول الله: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً – ثم قرأ: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له ما دينك؟ فيقول هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: ومن أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك – قال – ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه، فينطلق به إلى ربه عزّ وجلّ فيقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن كان الكافر إذا خرجت روحه – قال حماد – وذكر من نتنها، وذكر مقتاً ويقول أهل السماء روح خبيثة جاءت من قبل الأرض، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت عليه على أنفه هكذا. وقال ابن حبان في صحيحه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا قبض أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون: اخرجي إلى روح الله، فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى أنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونه حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان، فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان في غم، فيقول: قد مات أما أتاكم، فيقولون: ذهب إلى أمه الهاوية، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرجي إلى غضب الله، فتخرج كأنتن ريح جيفة، فيذهب به إلى الأرض».

وروى العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مشوا مع جنازته، ثم صلوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ، فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول:

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة.

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فيوسع له في قبره مد بصره. وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة فيبسطون أيديهم، والبسط هو الضرب ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ عند الموت، فإذا أدخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئاً، وأنساه الله ذكر ذلك، وإذا قيل: من الرسول الذي بعث إليك؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئاً ﴿ كذلك يضل الله الظالمين﴾. وقال ابن أبي حاتم، عن أبي قتادة الأنصاري في قوله تعالى: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ الآية، قال: إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ فيقول: الله، فيقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد بن عبد الله، فيقال له: ذلك مرات ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: أنظر إلى منزلك من النار لو زغت، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: انظر إلى منزلك من الجنة إذا ثبت. وإذا مات الكافر أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ من نبيك؟ فيقول: لا أدري، كنت أسمع الناس يقولون، فيقال له: لا دريت، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك إذا ثبت، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك إذ زغت، فذلك قوله تعالى: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾. وقال عبد الرزاق: عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا﴾ قال: لا إله إلا الله ﴿ وفي الآخرة﴾: المسألة في القبر، وقال قتادة أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ﴿ وفي الآخرة﴾: في القبر. وكذا روي عن غير واحد من السلف، وعن عثمان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل»[1].

* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾

قال البخاري: قوله: ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً﴾، ألم تعلم، كقوله: ﴿ ألم تر كيف﴾، ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا﴾. البوار: الهلاك، بار يبور بوراً، ﴿ قوماً بوراً﴾ هالكين. حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء سمع ابن عباس: ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً﴾ قال: هم كفار أهل مكة. والمعنى جميع الكفار، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار. وقال ابن أبي حاتم: قام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: ألا أحد يسألني عن القرآن؟ فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم به مني وإن كان من وراء البحار لأتيته، فقام عبد الله بن الكواء، فقال: مَنْ ﴿ الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾؟ قال: مشركو قريش أتتهم نعمة الله الإيمان، فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار. وقال سفيان الثوري، عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً﴾ قال: هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أميَّة، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين. وكذا رواه حمزة الزيات عن عمرو بن مرة قال، قال ابن عباس لعمر

(١) أخرجه أبوداود في سننه.

ابن الخطاب: يا امير المؤمنين هـذه الآية: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ قال: هم الأفجران من قريش أخوالي وأعمامك، فأما أخوالي فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين. وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر؛ وكذا رواه مالك في تفسيره عن نافع عن ابن عمر. وقوله: ﴿وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله﴾، أي جعلوا لـه شركاء عبدوهم معـه ودعوا الناس إلى ذلك، ثم قال تعالى: مهدداً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيّه ﷺ: ﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ أي مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا فهما يكن من شيء ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ أي مرجعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾. وقال تعالى: ﴿متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾.

۞ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾

يقول تعالى آمراً عباده بطاعته، والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة، وأن ينفقوا مما رزقهم الله، بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودهـا وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق ممـا رزق في السر، أي في الخفية والعلانية وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ وهو يوم القيامة، ﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾ أي ولا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾. وقولـه: ﴿ولا خلال﴾ قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مخالة خليل فيصبح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته، بل هناك العدل والقسط، يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد، إذا لقي الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾.

ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً والأرض فراشاً، ﴿وأنزل من السماء مـاء فأخرج به من الثمرات رزقاً بكم﴾ ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها

من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقاً للعبـاد، ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ أي يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾، ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار﴾، وقوله: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ يقول: هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم. وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه، وقوله: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾، يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين. وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك الحمد غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا». وقد روي في الأثر أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك عليّ؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر المنعم. وقال الإمام الشافعي رحمه الله: الحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها، وقال القائل في ذلك:

لو كل جارحة مني لها لغـة ... تثني عليك بما أوليتَ من حسن
لكان ما زاد شكري إذ شكرت بـه ... إليك أبلغ في الإحسان والمنن

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾

يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة، إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه آهلة تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾، وقد استجاب الله له فقـال تعالى: ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا﴾ الآية. وقال في هذه القصة: ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها، ولهذا قال: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل واسحق﴾، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، وقوله: ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس، وأنه تبرأ ممن عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كقول عيسى عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لا تجويز وقوع ذلك. قال عبدالله بن وهب، عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾ الآية، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ الآية، ثم رفع يديه ثم قال: «اللهم أمتي، اللهم أمتي، اللهم أمتي» وبكى، فقال الله: اذهب يا جبريل إلى محمد، وربك

أعلم؛ وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، فقال الله: اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك.

رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه تأكيداً ورغبة إلى الله عزّ وجلّ، ولهذا قال: ﴿عند بيتك المحرم﴾. وقوله: ﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾ أي إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾، قال ابن عباس[1]: لو قال أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿من الناس﴾ فاختُص به المسلمون. وقوله: ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ أي ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا﴾ وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام (مكة) شجرة مثمرة، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام.

رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ أي أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء، ثم حمد ربه عزّ وجلّ على ما رزقه من الولد بعد الكبر فقال: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء﴾ أي أنه يستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد، ثم قال: ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة﴾ أي محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿ومن ذريتي﴾ أي واجعلهم كذلك مقيمين لها[2]، ﴿ربنا وتقبل دعاء﴾ أي فيما سألتك فيه ﴿ربنا اغفر لي ولوالديّ﴾، وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله عزّ وجلّ ﴿وللمؤمنين﴾ أي كلهم ﴿يوم يقوم الحساب﴾ أي يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

---

(١) وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما.

(٢) يعني بذريته: بني إسماعيل الذين تناسلت فيهم عرب الحجاز. وقيل أيضاً عرب اليمن، وذريته اثنا عشر رجلاً وامرأة.

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى: ولا تحسبن الله – يا محمد – غافلاً عما يعمل الظالمون، أي لا تحسبنه إذاأنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم، مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعده عليهم عداً، ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ أي من شدة الأهوال يوم القيامة: ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر، فقال: ﴿مهطعين﴾ أي مسرعين ، كما قال تعالى: ﴿مهطعين إلى الداع﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له﴾. وقال تعالى: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعاً﴾ الآية، وقوله: ﴿مقنعي رؤوسهم﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: رافعي رؤوسهم، ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ أي أبصارهم ظاهرة شاخصة مديمون النظر، لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم عياذاً بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وأفئدتهم هواء﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف، ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية، لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: هي خراب لا تعي شيئاً لشدة ما أخبر به تعالى عنهم، ثم قال تعالى لرسوله ﷺ :

۞ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: ﴿ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾، كقوله: ﴿حتى إذ جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم﴾ الآيتين، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم﴾ الآية، وقال: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وهم يصطرخون فيها﴾ الآية، قال تعالى راداً عليهم في قولهم هذا: ﴿أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال﴾ أي أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء فذوقوا هذا بذلك، قال مجاهد وغيره ﴿ما لكم من زوال﴾: أي ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كقوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ الآية، ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾ أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿حكمة بالغة فما تغني النذر﴾. وروى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن كان

مكرهم لتزول منه الجبال﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، وكذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم بـه ما ضر ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك عليهم، ويشبه هذا قول الله تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾، والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ يقول: شركهم كقوله: ﴿تكاد السموات والأرض يتفطرن منه﴾ الآية، وهكذا قال الضحاك وقتادة.

* فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ أي من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحـده، ﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾، ولهذا قال: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، كما جاء في الصحيحين، عن سهل بن سعد قال، قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها معلم لأحد»، وقال الإمام أحمد، عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ قالت، قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط»[1]. وقال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائمـاً عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار يهود فقـال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه بـه أهله، فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني بـه أهلي»، فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيئاً إن حدثتك»؟ فقال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل»، فقال اليهودي: أين يكون النـاس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر»، قال: فمن أول الناس إجازة؟ فقال: «فقراء المهاجرين»، فقال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون»، قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها»، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلاً»، قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان، قال: «أينفعك إن حدثتك»؟ قال: أسمع بأذني، قال جئت أسألك عن الولد، قال: «ماء الرجـل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منيّ الرجل منيّ المرأة كان ذكراً بإذن الله تعالى، وإذا علا منيّ المرأة منيّ الرجل كان أنثى بإذن الله»، قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي، ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به».

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى أبو جعفر بن جرير الطبري، عن عمرو بن ميمون يقول: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ قال: أرض كالفضة البيضاء نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي حفاة عراة كما خلقوا، قال، أراه قال قياماً حتى يلجمهم العرق، وعن عمرو بن ميمون عن عبدالله عن النبي ﷺ في قول الله عزّ وجلّ ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ قال: «أرض بيضاء لم يسفك عليها دم، ولم يعمل عليها خطيئة»[1]. وقال الربيع، عن أبي بن كعب قال: تصير السماوات جناناً. وقال الأعمش، عن عبدالله بن مسعود: الأرض كلها نار يوم القيامة، والجنة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده إن الرجل ليفيض عرقاً حتى ترشح في الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه الحساب، قالوا: ممَ ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال مما يرى الناس ويلقون. وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنَس عن كعب في قوله: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ قال: تصير السماوات جناناً ويصير مكان البحر ناراً وتبدل الأرض غيرها. وقوله: ﴿وبرزوا لله﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿الواحد القهار﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب وخضعت له الألباب.

وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾

يقول تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ وتبرز الخلائق لديَّانها ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم، ﴿مقرّنين﴾ أي بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾، وقال: ﴿وإذا النفوس زوّجت﴾، وقال: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً﴾، وقال: ﴿والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ والأصفاد هي القيود[2]، قال عمرو بن كلثوم:

فآبوا، بالثياب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

وقوله تعالى: ﴿سرابيلهم من قطران﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي تهنأ به الإبل، أي تطلى، قال قتادة: وهو ألصق شيء بالنار، وكان ابن عباس يقول: القطران هو النحاس المذاب[3]، أي من نحاس حار قد انتهى حره، وقوله: ﴿وتغشى وجوههم النار﴾، كقوله: ﴿تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون﴾، وقال الإمام أحمد، عن أبي مالك الأشعري قال، قال رسول الله ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها؛ تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»[4]، وقوله: ﴿ليجزي الله كل نفس ما كسبت﴾ أي يوم

(١) رواه الحافظ أبو بكر البزار.

(٢) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والأعمش وعبدالرحمن بن زيد.

(٣) وهو مروي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة.

(٤) أخرجه مسلم والإمام أحمد في المسند.

القيامة ﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا﴾ الآية، ﴿إن الله سريع الحساب﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز، لأنه يعلم كل شيء ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سريع الحساب﴾ إحصاءً، ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين والله أعلم.

هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة: ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ الآية، ﴿ولينذروا به﴾ أي ليتعظوا به، ﴿وليعلموا أنما هو إله واحد﴾ أي يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو، ﴿وليذكر أولو الألباب﴾ أي ذوو العقول.

[آخر تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين].

* * *

تفسير سورة إبراهيم، عليه السلام

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٣) ﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور.

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أى: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، الذى هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله فى الأرض، إلى جميع أهلها عَربهم وعَجَمهم(١).

﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب؛ لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغى إلى الهدى والرشد، كما قال: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩].

وقوله: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أى: هو الهادى لمن قَدر له الهداية على يدى رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ ﴾ أى: العزيز الذى لا يمانع ولا يُغَالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿الْحَمِيدِ﴾ أى: المحمود فى جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق فى خبره.

وقوله: ﴿ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ : قَرأه بعضهم مستأنفاً مرفوعاً، وقرأه آخرون على الإتباع صفة للجلالة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقوله: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أى: ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد

---

(١) فى ت، أ: «عربيهم وعجميهم».

وكذبوك.

ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أى: يقدمونها ويؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا ونسُوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهى اتباع الرسل، ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أى: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة[1]، وهى مستقيمة فى نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم[2] فى ابتغائهم ذلك فى جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجى لهم ـ والحالة هذه ـ صلاح.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) ﴾.

هذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلا[3] منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، عن عمر[4] بن ذر قال: قال مجاهد: عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله، عز وجل، نبيا إلا بلغة قومه»[5].

وقوله: ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أى: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدى من يشاء إلى الحق، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال، ويهدى من هو أهل لذلك.

وقد كانت هذه سنة الله فى خلقه: أنه ما بعث نبيا فى أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبى بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمدَ بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت فى الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يُعطهُن أحد من الأنبياء قبلى: نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداً وطَهُوراً، وأحلَّت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة»[6].

وله شواهد من وجوه كثيرة، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

---

(١) عائلة: أى جائرة.
(٢) فى ت: «ففهم».
(٣) فى أ: «رسولاً».
(٤) فى أ: «عمرو».
(٥) المسند (٥/١٥٨) ومجاهد لم يسمع من أبى ذر.
(٦) صحيح البخارى برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) ﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى فى بنى إسرائيل بآياتنا.

قال مجاهد: وهى التسع الآيات.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ أى: أمرناه قائلين له: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى: ادعهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أى: بأياديه ونعَمه عليهم، فى إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد.

وقد ورد فيه الحديث المرفوع الذى رواه عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل فى مسند أبيه حيث[(١)] قال: حدثنى يحيى بن عبد الله مولى بنى هاشم، حدثنا محمد بن أبان الجعفى، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير [عن ابن عباس، عن أبى بن كعب، عن النبى ﷺ فى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ ، قال: «بنعم الله تبارك وتعالى]»[(٢)].

[ورواه ابن جرير][(٣)]، وابن أبى حاتم، من حديث محمد بن أبان، به[(٤)]. ورواه عبد الله ابنه[(٥)] أيضا موقوفا[(٦)]، وهو أشبه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى: إن فيما صنعنا بأوليائنا بنى إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبرة لكل صبَّار، أى: فى الضراء، شكور، أى: فى السراء، كما قال قتادة: نعم العبد، عبد إذا ابتُلى صَبَر، وإذا أعطى شكر.

وكذا جاء فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كُلَّه عَجَب، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له»[(٧)].

---

(١) فى هـ: «فى مسنده حديث قال» والمثبت من ت، أ. (٢) زيادة من ت، أ، والمسند. (٣) زيادة من ت، أ.

(٤) زوائد المسند (٥/ ١٢٢) وتفسير الطبرى (١٦/ ٥٢٢).

(٥) فى ت: «بن أحمد».

(٦) زوائد المسند (٥/ ١٢٢).

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضى الله عنه.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى، حين ذكَّر قومه بأيام الله عندهم ونعَمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حين[1] كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم فأنقذ الله بنى إسرائيل من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أى: نعمة عظيمة منه عليكم فى ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها.

وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بَلَاءٌ﴾ أى: اختبار عظيم. ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أى: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ [مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ][2]﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقوله[3]: ﴿لَئِن[4] شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أى: لئن شكرتم نعمتى[5] عليكم لأزيدنكم منها، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أى: كفرتم النعم وسترتموها وجَحَدتموها، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها.

وقد جاء فى الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[6].

وفى المسند: أن رسول الله ﷺ مرَّ به سائل فأعطاه تمرة، فَتَسَخَّطها ولم يقبلها، ثم مر به آخر فأعطاه إياها، فقبلها وقال: تمرة من رسول الله ﷺ، فأمر له بأربعين درهما، أو كما قال.

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا عمارة الصَّيدلانى، عن ثابت، عن أنس قال: أتى النبى ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها ـ أو: وحَّش بها ـ قال: وأتاه آخر فأمر له بتمرة، فقال: سبحان الله! تمرة من رسول الله ﷺ. فقال للجارية: «اذهبى إلى أم سلمة، فأعطيه الأربعين درهما التى

---

(١) فى ت، أ: «حيث». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «وقال هاهنا».

(٤) فى ت، أ: «وإذ تأذن ربكم لئن». (٥) فى ت: «نعمة الله».

(٦) رواه أحمد فى المسند (٥/ ٨٠) وابن ماجة فى السنن برقم (٩٠) من حديث ثوبان رضى الله عنه، وحسنه العراقى كما فى الزوائد للبوصيرى (١/ ٦١).

عندها».

تفرد به الإمام أحمد(١).

وعمارة بن زاذان وثقه ابن حبَّان، وأحمد، ويعقوب بن سفيان(٢). وقال ابن معين: صالح. وقال أبو زُرْعَة: لا بأس به. وقال أبو حاتم: يكتب حديث ولا يحتج به، ليس بالمتين. وقال البخارى: ربما يضطرب فى حديثه. وعن أحمد أيضا أنه قال: روى عنه أحاديث منكرة. وقال أبو داود: ليس بذاك. وضعفه الدارقطنى، وقال ابن عدى: لا بأس به ممن يكتب حديثه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أى: هو غنى عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود، وإن كَفَره من كَفَره، كما قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

وفى صحيح مسلم، عن أبى ذر، عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه، عز وجل، أنه قال: «يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً. يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك فى(٣) ملكى شيئاً. يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا فى صعيد واحد، فسألونى، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً، إلا كما ينقُص المخْيَط إذا أدخل فى البحر». فسبحانه وتعالى الغنى الحميد(٤).

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩)﴾.

قال ابن جرير: هذا من تمام قيل(٥) موسى لقومه(٦).

يعنى: وتذكاره إياهم بأيام الله، بانتقامه من الأمم المكذبة للرسل.

وفيما قال(٧) ابن جرير نظر؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل:

(١) المسند (٣/ ١٥٤).

(٢) فى ت: «أحمد ويعقوب بن سفيان وابن حبان».

(٣) فى ت، أ: «من».

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).

(٥) فى أ: «قول».

(٦) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٢٩).

(٧) فى ت، أ: «قاله».

إن قصة عاد وثمود ليست فى التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقَصَه عليهم ذلك فلا شك[١] أن تكون هاتان القصتان فى «التوراة»، والله أعلم. وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل، مما لا يحصى عددهم[٢] إلا الله عز وجل أتتهم رسلهم بالبينات، أى: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات.

وقال ابن[٣] إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله أنه قال فى قوله: ﴿ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾: كذب النسابون.

وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحدا يعرف ما بعد معد بن عدنان.

وقوله: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾: اختلف المفسرون فى معناه، فقيل: معناه: أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم [٤] بالسكوت عنهم، لما دعوهم إلى الله، عز وجل.

وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم.

وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل .

وقال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقتادة: معناه: أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواهم.

قال ابن جرير: وتوجيهه[٥] أن «فى» هاهنا بمعنى «الباء»، قال: وقد سمع من العرب: «أدخلك الله بالجنة» يعنون: فى الجنة، وقال الشاعر:

وَأَرْغَبُ فِيها عَن لَقيطٍ ورهْطه   عَن سِنْبس لَسْتُ أرغَب

يريد: أرغب بها[٦].

قلت: ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام: ﴿وقالوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، فكأن هذا [والله أعلم] [٧] تفسير لمعنى «ردّ أيديهم فى أفواههم».

وقال سفيان الثورى، وإسرائيل، عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص، عن عبد الله فى قوله: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قال: عضوا عليها غَيْظًا.

وقال شعبة، عن أبى إسحاق، عن هُبَيْرَة ابن مريم، عن عبد الله أنه قال ذلك أيضا.

وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ووجهه ابن جرير مختاراً له، بقوله تعالى عن المنافقين: ﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقال العوفى، عن ابن عباس: لما سمعوا كتاب[٨] الله عَجبوا، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم.

---

(١) فى ت، أ: «لأوشك». (٢) فى ت، أ: «عدده». (٣) فى ت: «أبو».
(٤) فى ت: «يأمروهم». (٥) فى ت: «ويوجهه».
(٦) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٣٤).
(٧) زيادة من ت، أ. (٨) فى ت: «كلام».

وقالوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به؛ فإن عندنا فيه شكا قويا.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾.

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لاشريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾؟

وهذا يحتمل شيئين، أحدهما: أفي وجوده شك، فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضرورى فى الفطَر السليمة، ولكن قد يعرض [١] لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر فى الدليل الموصل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الذى خلقها وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث [٢] والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلابد لها من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شىء وإلهه ومليكه.

والمعنى الثانى فى قولهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أى: أفى إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا [٣] يستحق العبادة إلا هو، وحده لا شريك له؛ فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد [٤] معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى.

وقالت لهم الرسل: ندعوكم [٥] ليغفر لكم من ذنوبكم، أى: فى الدار الآخرة، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: فى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ الآية [هود:٣]، فقالت لهم الأمم محاجين فى مقام الرسالة، بعد تقدير تسليمهم للمقام الأول، وحاصل ما قالوه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أى: كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولَمَّا نَر منكم معجزة؟ ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: خارق نقترحه عليكم.

---

(١) فى ت: «تعرض». (٢) فى ت، أ: «الحدث». (٣) فى ت، أ: «فلا».
(٤) فى ت، أ: «يعبد». (٥) فى هـ: «وقالت لهم رسلهم: الرسل يدعوكم»، والمثبت من ت، أ.

قالت لهم رسلهم: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أى: صحيح أنا بشر مثلكم فى البشرية ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى: بالرسالة والنبوة ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾ على وفق ما سألتم ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: بعد سؤالنا إياه، وإذنه لنا فى ذلك، ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: فى جميع أمورهم.

ثم قالت الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى: وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها، ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أى: من الكلام السيئ، والأفعال السخيفة، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) ﴾.

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلَهم، من الإخراج من أرضهم، والنفى من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨]، وقال قوم لوط: ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦]، وقال تعالى إخباراً عن مشركى قريش: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٧٦]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وكان (١) من صنعه تعالى: أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجندا، يقاتلون فى سبيل الله، ولم يزل يرقيه [الله] (٢) تعالى من شىء إلى شىء، حتى فتح له مكة التى أخرجته، ومكَّن له فيها، وأرغم آناف أعدائه منهم، و[من] (٣) سائر [أهل] (٤) الأرض، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، فى مشارق الأرض ومغاربها فى أيسر زمان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ. وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ (٥) عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

(١) فى ت، أ: «فكان». (٢ـ٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «لقوى» وهو خطأ.

[الأنبياء: ١٠٥]، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أى: وعيدى [1] هذا لمن خاف مقامى بين يدى يوم القيامة، وخشى من وعيدى، وهو تخويفى وعذابى، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أى: استنصرت الرسل ربها على قومها. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ١٩]، والله أعلم.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أى: متجبر فى نفسه معاند للحق، كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٤ ـ ٢٦].

وفى الحديث: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادى الخلائق فتقول: إنى وُكلت بكل جبار عنيد» الحديث [2].

خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء فى الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر.

وقوله: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾: و«وراء» هاهنا بمعنى «أمام»، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، وكان ابن عباس يقرؤها «وكان أمامهم ملك».

أى: من وراء الجبار العنيد جهنم، أى: هى له بالمرصاد، يسكنها مخلدا يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وعشيا إلى يوم التناد.

---

(١) فى ت: «وعدى».

(٢) رواه أحمد فى المسند (٣/ ٤٠) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٥٧٤) من طريق الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، وقال الترمذى: «حديث حسن غريب صحيح».

﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: فى النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، فهذا [١] فى غاية الحرارة، وهذا فى غاية البرد والنتن، كما قال: ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ. وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٧، ٥٨].

قال مجاهد، وعكرمة: الصديد: من القيح والدم.

وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده. وفى رواية عنه: الصديد: ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم.

وفى حديث شَهْر بن حَوْشَب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قلت: يا رسول الله، ما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار» [٢] وفى رواية: «عُصَارة أهل النار» [٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنا صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن بُرْ، عن أبى أمامة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ. يَتَجَرَّعُهُ﴾، قال: «يُقَرَّبُ إليه فيتكرهه، فإذا أدنى منه شَوَى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره. يقول الله تعالى [٤]: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾» [٥] [الكهف: ٢٩].

وهكذا رواه ابن جرير، من حديث عبد الله بن المبارك، به [٦]. ورواه هو وابن أبى حاتم: من حديث بَقِيَّة ابن الوليد، عن صفوان بن عمرو، به [٧].

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ أى: يتغصصه ويتكرهه، أى: يشربه قهرا وقسرا، لا يضعه فى فيه [٨] حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١].

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أى: يزدرده لسوء لونه وطعمه وريحه، وحرارته أو برده الذى لا يستطاع.

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أى: يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه.

قال ميمون بن مِهْرَان: من كل عظم، وعرق، وعصب.

وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره.

---

(١) فى ت، أ: «فهذا حار».

(٢) رواه أحمد فى المسند (٦/ ٤٦٠).

(٣) وهى رواية أبى ذر، رضى الله عنه، رواها أحمد فى المسند (٥/ ١٧١).

(٤) فى أ: «عز وجل».

(٥) المسند (٥/ ٢٦٥).

(٦) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٤٩) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٥٨٣) من طريق عبد الله بن المبارك به، وقال: «هذا حديث غريب، وهكذا قال محمد بن إسماعيل عن عبيد الله بن بُسْر، ولا نعرف عبيد الله بن بُسْر إلا فى هذا الحديث».

(٧) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٥١) من طريق حيوة بن شريح عن بقية به.

(٨) فى ت: «لا يضعه فى فمه» وفى أ: «لا يضيعه فى فمه».

وقال إبراهيم التيمى: من موضع كل شعرة، أى: من جسده، حتى من أطراف شعره.

وقال ابن جرير: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أى: من أمامه وورائه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه(١) ومن تحت أرجله(٢)، ومن سائر أعضاء جسده.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواع العذاب الذى يعذبه الله بها يوم القيامة فى نار جهنم، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكن لا يموت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا [كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ](٣)﴾ [فاطر: ٣٦].

ومعنى كلام ابن عباس، رضى الله عنه: أنه ما من نوع من هذه الأنواع من [هذا] (٤) العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد فى دوام العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

وقوله: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أى: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ، أى: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذى قبله وأدهى وأمر. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ. فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤ ـ ٦٨]، فأخبر أنهم تارة يكونون فى أكل زقوم، وتارة فى شرب حميم، وتارة يردون إلى الجحيم(٥)، عياذاً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ . خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ .ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٥٠]، وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ .فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ . لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٤٤]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ . وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٥ ـ ٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله، عز وجل، جزاء وفاقا، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت: ٤٦].

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم

(١) فى ت: «فوقهم». (٢) فى ت: «أرجلهم». (٣) زيادة من أ.
(٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «جحيم».

على غير أساس صحيح؛ فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى: مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شىء، فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلا إلا كما يتحصَّل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أى: ذى ريح عاصفة قوية، فلا[يقدرون على شىء من أعمالهم التى كسبوها فى الدنيا إلا كما] [(١)] يقدرون على جمع هذا الرماد فى هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال فى هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أى: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما هم إليه، ﴿ذَٰلِكَ [(٢)] هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على مَعاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض التى هى أكبر من خلق الناس، أفليس الذى قدر على خلق هذه السموات، فى ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفات، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبرارى وصحارى وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها؛ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ [(٣)] أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧ـ٨٣].

وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أى: بعظيم ولاممتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره، أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، أ: «هذا» وهو خطأ. (٣) فى ت، أ: «ولقد خلقنا الإنسان» وهو خطأ.

بعزيز﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٧]، وقال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١)﴾.

يقول: ﴿وَبَرَزُوا [لِلَّهِ][(١)]﴾ أى: برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها لله وحده الواحد القهار، أى: اجتمعوا له فى براز[(٢)] من الأرض، وهو المكان الذى ليس فيه شىء يستر أحدا.

﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، فقالوا لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أى: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾؟ أى: فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله، كما كنتم تَعدُوننا وتمنوننا؟ فقالت القادة لهم: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾، ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أى: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله، عز وجل، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله، فبكوا وتضرعوا، فلما رأو ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر، فصبروا صبرا لم يُر مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا[(٣)]: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة فى النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ[(٤)] النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أُولَاهُمْ

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «برار». (٣) فى أ: «فقالوا».
(٤) فى ت: «فى».

لأُخْراهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا من فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨].

وأما تخاصمهم فى المحشر، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ(١) مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا(٢) النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣].

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ (٢٣) ﴾.

يخبر تعالى عما خطب به إبليس [لعنه الله] (٣) أتباعه، بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس ـ لعنه الله ـ حينئذ خطيباً ليزيدهم حزنا إلى حزنهم(٤)، وغَبنا إلى غبْنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أى: على ألسنة رسله، ووعدكم فى اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقا، وخبرا صدقا، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أى: ما كان لى عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، ﴿ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه، ﴿ فَلا تَلُومُونِي﴾ اليوم، ﴿ وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾، فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتمونى بمجرد

---

(١) في ت، أ: «المجرمون» وهو خطأ.
(٢) فى ت: «وأسر» وهو خطأ.
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت: «خزياً إلى خزيهم».

ما دعوتكم إلى الباطل، ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أى: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أى: بنافعى بإنقاذى مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

قال قتادة: أى بسبب ما أشركتمونى من قبل.

وقال ابن جرير: يقول: إنى جحدت أن أكون شريكا لله، عز وجل.

وهذا الذى قاله هو الراجح[(١)]، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال: ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله: ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أى: فى إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

والظاهر من سياق الآية: أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار، كما قدمنا. ولكن قد ورد فى حديث رواه ابن أبى حاتم ـ وهذا لفظه ـ وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد: حدثنى دخين [(٢)] الحَجْرى، عن عقبة بن عامر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين، فقضى بينهم، ففرغ من القضاء، قال المؤمنون: قد قضى بيننا ربنا، فمن يشفع لنا؟ فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم ـ وذكر نوحا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ـ فيقول عيسى: أدلكم على النبى الأمى. فيأتونى، فيأذن الله لى أن أقوم إليه فيثور [(٣)] [من] [(٤)] مجلسى من أطيب ريح شمها أحد قط، حتى آتى ربى فيشفعنى، ويجعل لى نورا من شعر رأسى إلى ظُفر قدمى، ثم يقول الكافرون هذا: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس هو الذى أضلنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فقم أنت فاشفع لنا ، فإنك أنت أضللتنا. فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط، ثم يعظم نحيبهم[(٥)]، ﴿ وَقَالَ[(٦)] الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾[(٧)].

وهذا سياق ابن أبى حاتم، ورواه ابن المبارك عن رِشْدين بن سعد، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن دُخَيْن [(٨)] عن عُقْبَة، به مرفوعا[(٩)].

---

(١) فى أ: «الأرجح». (٢) فى ت، أ: «دجين». (٣) فى ت، أ: «فيفور».
(٤) زيادة من ت، أ، والطبرى. (٥) فى ت، أ: «بجهنم». (٦) فى ت، أ: «ويقول» وهو خطأ.
(٧) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٦٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧/ ٣٢٠) من طريق ابن وهب: أخبرنى ابن نعيم (كذا فى المعجم) عن دخين،عن عقبة مرفوعاً. وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٧٦): «فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وهو ضعيف» وضعف السيوطى إسناده أيضا.
(٨) فى أ: «دجين».
(٩) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٦٢) من طريق سويد بن نصر، عن ابن المبارك به.

وقال محمد بن كعب القُرظى، رحمه الله: لما قال أهل النار: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ قال لهم إبليس: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم، فنودوا: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

وقال عامر الشعبى: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول الله لعيسى ابن مريم: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، إلى قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٩]، قال: ويقوم إبليس ـ لعنه الله ـ فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ الآية.

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزى والنَّكَال. وأن خطيبهم إبليس، عطف بحال السعداء وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجرى من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا(١)، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾. ماكثين أبدا لا يحولون ولا يزولون، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ. سَلامٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦)﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: «ومثل كلمة طيبة»: شهادة أن لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله فى قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.

وهكذا قال الضحاك، وسعيد بن جُبَير، وعِكْرِمة وقتادة وغير واحد: إن ذلك عبارة عن المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كالشجرة من النخل، لا يزال يرفع له عمل صالح فى كل حين ووقت، وصباح ومساء.

وهكذا رواه السُّدِّى، عن مُرَّة، عن ابن مسعود قال: هى النخلة.

وشعبة، عن معاوية بن قُرَة، عن أنس: هى النخلة.

---

(١) فى ت: «شاؤوا أين شاؤوا» وفى أ: «شاؤوا حيث شاؤوا».

وحماد بن سلمة، عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتى بقناع بُسْر فقال:[١] «ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة» قال: «هى النخلة»[٢].

وروى من هذا الوجه ومن غيره، عن أنس موقوفا[٣]. وكذا نص عليه مسروق، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة وغيرهم.

وقال البخارى: حدثنا عُبَيدُ بن إسماعيل، عن أبى أسامة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبرونى عن شجرة تُشبه ـ أو: كالرجل ـ المسلم، لا يتحات ورقها [ولا، ولا، ولا][٤] تؤتى أكلها كل حين». قال ابن عمر: فوقع فى نفسى أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئا، قال رسول الله ﷺ: «هى النخلة». فلما قمنا قلت لعُمَرَ: يا أبتا، والله لقد كان وقع فى نفسى أنها النخلة. قال: ما منعك أن تكلَّم؟ قال: لم أركُم تَتكلَّمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا[٥].

وقال أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبى نَجيح، عن مُجاهد: صحبت ابن عمر إلى المدينة، فلم أسمعه يحدِّث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحدا ـ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتى بجُمَّار. فقال: «من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم». فأردت أن أقول: هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، [فسكتُّ][٦]، فقال رسول الله ﷺ: «هى النخلة» أخرجاه[٧].

وقال مالك وعبد العزيز، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوما لأصحابه: «إن من الشجر شجرة لا يَطْرحُ ورقها، مثل المؤمن». قال: فوقع الناس فى شَجر البوادى، ووقع فى قلبى أنها النخلة [فاستحييت، حتى قال رسول الله ﷺ: «هى النخلة]»[٨]. أخرجاه أيضا[٩].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان ـ يعنى ابن يزيد العطار ـ حدثنا قتادة: أن رجلا قال: يا رسول الله، ذهب أهل الدُّثور بالأجور! فقال: «أرأيت لو عمد إلى متاع

---

(١) فى هـ، ت، أ: «فقرأ» والمثبت من الطبرى والترمذى.

(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٧٠) والترمذى فى السنن برقم (٣١١٩) من طريق حماد بن سلمة به، وقال الترمذى: «وروى غير واحد مثل هذا موقوفاً، ولانعلم أحداً رفعه غير حماد بن سلمة، ورواه معمر وحماد بن زيد وغير واحد ولم يرفعوه».

(٣) رواه أبو بكر بن شعيب بن الحبحاب، عن أبيه، عن أنس بن مالك نحوه موقوفاً، أخرجه الترمذى فى السنن برقم (٣١١٩) ورواه حماد بن زيد، عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس موقوفاً، أخرجه الترمذى فى السنن برقم (٣١١٩).

(٤) زيادة من ت، أ، والبخارى.

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٨).

(٦) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٧) المسند(٢/ ١٢) وصحيح البخارى برقم (٧٢) وصحيح مسلم برقم (٢٨١١).

(٨) زيادة من ت، أ، والصحيحين.

(٩) صحيح البخارى برقم (١٣١) وصحيح مسلم برقم (٢٨١١).

الدنيا، فركب بعضها على بعض أكان يبلغ السماء؟ أفلا أخبرك بعمل أصله فى الأرض وفرعه فى السماء؟». قال: ما هو يا رسول الله؟ قال: «تقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله»، عشر مرات فى دبر كل صلاة، فذاك أصله فى الأرض وفرعه فى السماء»(١).

وعن ابن عباس: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: هى شجرة فى الجنة.

وقوله: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾: قيل: غُدوة وعَشيا. وقيل: كل شهر. وقيل: كل شهرين. وقيل: كل ستة أشهر. وقيل: كل سبعة أشهر. وقيل: كل سنة.

والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر فى كل وقت من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار فى كل وقت وحين.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أى: كاملاً حسنا كثيراً طيبا، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: هذا مثل كفر الكافر، لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها: «الشريان». [رواه شعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك: أنها شجرة الحنظل](٢).

وقال أبو بكر البزار الحافظ: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع، حدثنا شعبة، عن معاوية بن قُرَّة، عن أنس ـ أحسبه رفعه ـ قال: «مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة»، قال: هى النخلة، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، قال: هى الشّرْيان»(٣).

ثم رواه عن محمد بن المثنى، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن معاوية، عن أنس موقوفا(٤).

وقال بن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد ـ هو ابن سلمة ـ عن شعيب بن الحَبْحاب عن أنس بن مالك؛ أن النبى ﷺ قال: «ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة» هى الحنظلة». فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: هكذا كنا نسمع.

ورواه ابن جرير، من حديث حماد بن سلمة، به(٥). ورواه أبو يعلى فى مسنده بأبسط من هذا فقال:

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٢٢) وعزاه لابن أبى حاتم، وهو مرسل.

(٢) زيادة من ت، أ.

(٣) ورواه حماد بن سلمة عن شعيب بن الحبحاب عن أنس مرفوعاً مثله رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٧٠، ٥٨٥).

(٤) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٨٣) عن محمد بن المثنى به موقوفاً، ورواه شبابة وعمرو بن الهيثم، عن شعبة فأوقفوه. انظر: تفسير الطبرى (١٦/ ٥٨٣).

(٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٨٥).

حدثنا غسان، عن حماد، عن شعيب، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ أتى بقناع عليه بُسْر، فقال: ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها فى السماء. تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها فقال: «هى النخلة» ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، قال: «هى الحنظل»(١). قال شعيب: فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: كذلك كنا نسمع(٢).

وقوله: ﴿اجْتُثَّتْ﴾ أى: استؤصلت ﴿مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أى: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يُتَقَبَّل منه شىء.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾.

قال البخارى: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أخبرنى علقمة بن مَرْثَد قال: سمعت سعد بن عُبَيدة، عن البراء بن عازب، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل فى القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾»(٣).

ورواه مسلم أيضاً وبَقيَّة الجماعة كلهم، من حديث شعبة، به(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحَد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وفى يده عود يَنْكت به فى الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر»، مرتين أو ثلاثا، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحَنُوط من حَنُوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر. ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان». قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِىِّ السِّقَاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحَنُوط، ويخرج منها كأطيب نَفْحة مِسْك وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرون ـ يعنى بها ـ على ملأ من الملائكة

---

(١) فى أ: «الحنظلة».

(٢) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١١٩) عن عبد بن حميد، عن أبى الوليد، عن حماد بن سلمة به نحوه، وقد سبق الكلام عليه.

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٩).

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٨٧١) وسنن أبى داود برقم (٤٧٥٠) وسنن الترمذى برقم (٣١٢٠) وسنن النسائى (٤/ ١٠١) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٦٩).

إلا قالوا: ما هذا الروح [الطيب](١)؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التى [كانوا](٢) يسمونه بها فى الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدى فى عِليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنهم أخرجهم تارة أخرى».

قال: «فتُعاد روحه [فى جسده](٣)، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربى الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت. فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدى، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة ـ قال: فيأتيه من رَوْحِها وطيبها، ويفسح له فى قبره مد بصره. ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسرك، هذا يومك الذى كنت تُوعَد. فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه يجىء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب، أقم الساعة. رب، أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلى ومالى».

قال: «وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المُسُوح، فجلسوا منه مدَ البصر. ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجى إلى سَخَط من الله وغَضَب». قال: «فتَفرق فى جسده، فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها(٤) فى يده طرفة عين، حتى يجعلوها فى تلك المسوح. ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على مَلأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التى كان يسمونه بها فى الدنيا [حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا](٥) فيستفتح له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقول الله: «اكتبوا كتابه فى سجين، فى الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحا». ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

«فتعاد روحه فى جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى. فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى. فينادى مناد من السماء: أن كذب فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها، ويُضَيَّق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل

(١ ـ ٣) زيادة من ت، أ، والمسند. (٤) فى أ: «لم يدعها». (٥) زيادة من ت، أ، والمسند

قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بالذى يسوؤك، هذا يومك الذى كنت توعد. فيقول: ومن أنت فوجهك [الوجه][(١)] يجىء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب، لا تقم الساعة».

ورواه أبو داود من حديث الأعمش، والنسائى وابن ماجة من حديث المنهال بن عمرو، به[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن يونس بن خباب[(٣)]، عن المِنْهَال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب، رضى الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فذكر نحوه.

وفيه: «حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، [وكل ملك فى السماء][(٤)]، وفتحت أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله، عز وجل، أن يعرج بروحه من قبلهم».

وفى آخره: «ثم يقيض له أعمى أصم أبكم، وفى يده مرزبَّة لو ضرب بها جبل لكان ترابا، فيضربه ضربة فيصير ترابا. ثم يعيده الله، عز وجل، كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الثقلين». قال البراء: ثم يفتح له باب إلى النار، ويمهد من فرش النار[(٥)].

وقال سفيان الثورى، عن أبيه، عن خَيْثَمَة، عن البراء فى قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: عذاب القبر.

وقال المسعودى، عن عبد الله بن مُخَارق، عن أبيه، عن عبد الله قال: إن المؤمن إذا مات أجْلس فى قبره، فيقال له: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيثبته الله، فيقول: ربى الله، ودينى الإسلام، ونبيى محمد ﷺ. وقرأ عبد الله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[(٦)].

وقال الإمام عبد بن حميد، رحمه الله، فى مسنده: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع فى قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم». قال: «فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟» قال: «فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله». قال: «فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة». قال نبى الله ﷺ: «فيراهما جميعا». قال

---

(١) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٢) المسند (٤/ ٢٨٧) وسنن أبى داود برقم (٤٧٥٣) وسنن النسائى برقم (٤/ ٧٨) وسنن ابن ماجة برقم (١٥٤٨).

(٣) فى هـ، أ: «يونس بن حبيب» والمثبت من ت والمسند.

(٤) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٥) المسند (٤/ ٢٩٥).

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٥٩٧).

قتادة: وذُكر لنا أنه يفسح له فى قبره سبعون ذراعا، ويملأ عليه خَضِراً إلى يوم القيامة.

رواه مسلم عن عبد بن حميد، به[١]. وأخرجه النسائى من حديث يونس بن محمد المؤدّب، به[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن جُرَيْج، أخبرنى أبو الزبير، أنه سأل جابر بن عبد الله عن فَتَّانى القبر فقال: سمعت النبى ﷺ يقول: «إن هذه الأمة تُبْتَلَى فى قبورها، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه، جاء ملك شديد الانتهار، فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول المؤمن: أقول: إنه رسول الله وعبده. فيقول له الملَك: انظر إلى مقعدك الذى كان لك فى النار، قد أنجاك الله منه، وأبدلك بمقعدك الذى ترى من النار مقعدك الذى ترى من الجنة، فيراهما كليهما. فيقول المؤمن: دعونى أبشر أهلى. فيقال له: اسكن. وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله، فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى، أقول كما يقول الناس. فيقال له: لا دَرَيتَ، هذا مقعدك الذى كان لك فى الجنة، قد أبدلت مكانه مقعدك من النار».

قال جابر: فسمعت النبى ﷺ يقول: «يبعث كل عبد فى القبر على ما مات، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه».

إسناده[٣] صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه[٤] [٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عباد بن راشد، عن داود بن أبى هند، عن أبى نَضْرة، عن أبى سعيد الخدرى قال: شَهِدنا مع رسول الله ﷺ جنازة، فقال رسول الله ﷺ: «يأيها الناس، إن هذه الأمة تُبتَلى فى قبورها، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه، جاءه ملك فى يده مطراق فأقعده، قال: ما تقول فى هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله[٦]، فيقول له: صدقت. ثم يفتَح له بابا إلى النار، فيقول: هذا كان منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فهذا منزلك. فيفتح له بابا إلى الجنة، فيريد أن ينهض إليه، فيقول له: اسكن. ويفسح له فى قبره».

«وإن كان كافرا أو منافقا يقول[٧] له: ما تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى، سمعت الناس يقولون شيئا[٨]. فيقول: لا دَرَيت ولا تَلَيت ولا اهتديت. ثم يفتح له بابا إلى الجنة، فيقول له: هذا

---

(١) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٧٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٧٠).

(٢) سنن النسائى (٤/ ٩٧).

(٣) فى ت: «إسناد». (٤) فى ت: «ولم يخرجوه».

(٥) الذى فى المسند (٣/ ٣٤٦): حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن أبى الزبير به. وكذا فى أطراف المسند لابن حجر (٢/ ١١٠).

(٦) فى أ: «وأن محمداً رسول الله». (٧) فى ت، أ: «فيقول». (٨) فى أ: «شيئا فقلته».

منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت به فإن الله، عز وجل، أبدلك به هذا. فيفتح[١] له بابا إلى النار، ثم يقمَعه قمعةً بالمطراق يسمعها خَلْقُ الله، عز وجل، كلهم غير الثقلين». فقال بعض القوم: يا رسول الله، ما أحد يقوم عليه ملك فى يده مطراق[٢] إلا هيل عند ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾»[٣].

وهذا أيضا إسناد لا بأس به، فإن عباد بن راشد التميمى روى له البخارى مقرونا، ولكن ضعفه بعضهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، عن ابن أبى ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يَسَار، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ[٤]: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجى أيتها النفس المطمئنة[٥] كانت فى الجسد الطيب، اخرجى حميدة، وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان». قال: «فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقولون: مرحبا بالروح الطيبة كانت فى الجسد الطيب، ادخلى حميدة، وأبشرى بروح وريحان، ورب غير غضبان» قال: فلا يزال يقال لها ذلك، حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل.

وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث، اخرجى ذميمة، وأبشرى بحميم وغَسَّاق، وآخر من شكله أزواج. فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث، ارجعى ذميمة، فإنه لا تفتح[٦] لك أبواب السماء. فيرسل[٧] من السماء، ثم يصير[٨] إلى القبر»، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول.

ورواه النسائى وابن ماجة، من طريق ابن أبى ذئب[٩] بنحوه[١٠].

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن، تلقاها ملكان يصعدان بها. قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك. قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قِبَل الأرض، صَلَّى الله عليك وعلى جَسَد كنت تَعْمُرينه، فيُنطَلَقُ به إلى ربه عز وجل، فيقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه. قال حماد: وذكر من

(١) فى ت: «ففتح». (٢) فى ت: «مطرقة».
(٣) المسند (٣/٣).
(٤) فى ت، أ: «عن النبى ﷺ أنه قال». (٥) فى ت، أ: «الطيبة». (٦) فى ت، أ: «يفتح».
(٧) فى ت: «فترسل». (٨) فى ت: «تصير». (٩) فى ت: «ابن أبى ذهاب» وفى أ: «ابن أبى ذر».
(١٠) المسند (٢/٣٦٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٦٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/٣١١): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

نَتْنها وذكر مقتا، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبَل الأرض. قال: فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فردّ رسول الله ﷺ رَيْطَةَ كانت عليه على أنفه، هكذا[١].

وقال ابن حبان فى صحيحه: حدثنا عمر بن محمد الهمدانى، حدثنا زيد بن أخزَم، حدثنا معاذ ابن هشام، حدثنى أبى، عن قتادة، عن قسامة بن زهير، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «إن المؤمن إذا قُبض، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجى إلى روح الله. فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضا يشمونه حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون ما هذا الريح الطيبة التى جاءت من قِبل الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فَلهُم أشدّ فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان فى غمّ! فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ فيقولون: ذُهب به إلى أمه الهاوية. وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمِسْح فيقولون: اخرجى إلى غضب الله، فتخرج كأنتن ريح جيفة، فَيُذْهَب به إلى باب الأرض»[٢].

وقد روى أيضا من طريق هَمَّام بن يحيى، عن قتادة، عن أبى الجوزاء، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ بنحوه. قال: «فَيُسأل: ما فعل فلان، ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟» قال: «وأما الكافر فإذا قُبضت نفسه، وذُهب بها إلى باب الأرض تقول خزنة الأرض: ما وجدنا ريحا أنتن من هذه. فَيُبْلَغُ بها الأرض السفلى»[٣].

قال قتادة: وحدثنى رجل، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو قال: أرواح المؤمنين تجمع بالجابية. وأرواح الكفار تجمع ببرهوت، سبخة بحضرموت.

وقال الحافظ أبو عيسى الترمذى، رحمه الله: حدثنا يحيى بن خلف، حدثنا بشر بن المفضل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبى سعيد المقْبُرِى، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت ـ أو قال: أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان[٤]، يقال لأحدهما: المنكر، والآخر: النكير، فيقولان: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا. ثم يُفسَح له فى قبره سبعون ذراعا فى سبعين. ثم ينوّر له فيه، ثم يقال له: نَمْ. فيقول: أرجع إلى أهلى فأخبرهم؟ فيقولان: نَمْ نومةَ العروس الذى لا يوقظه إلا أحَبٌّ أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقا قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم، لا أدرى. فيقولان: قد كنا نعلم أنك

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٧٢).

(٢) صحيح ابن حبان برقم (٧٣٣) «موارد».

(٣) صحيح ابن حبان برقم (٧٣١) «موارد» ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٣٥١) من طريق همام به نحوه وصححه الحاكم ووافقه الذهبى.

(٤) فى ت: «أزراق».

تقول ذلك، فيقال[1] للأرض: التئمى عليه. فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[2].

ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب.

وقال حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾. قال: «ذاك إذا قيل له فى القبر: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربى الله، ودينى الإسلام، ونبيى محمد، جاءنا بالبينات من عند الله، فآمنت به وصدّقت. فيقال له: صَدَقْتَ، على هذا عشت، وعليه مت، وعليه تُبعث»[3].

وقال ابن جرير: حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قالا: حدثنا يزيد، أنبأنا محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة[4]. إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه مدبرين، فإذا كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصيام عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة: ما قِبَلى مَدخَلٌ، فيؤتى من عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبَلى مدخل. فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلى مدخل. فيؤتى من عند رجليه فيقول[5] فعل الخيرات: ما قبلى مدخل. فيقال له اجلس. فيجلس، قد تَمثّلت[6] له الشمس، قد دنت للغروب، فيقال له أخبرنا عما[7] نسألك. فيقول: دعونى[8] حتى أصلى. فيقال: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك. فيقول: وعَمَّ تسألونى؟ فيقال: أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم، ماذا تقول فيه، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد؟ فيقال له: نعم. فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا[9] بالبينات من عند الله، فصدقناه. فيقال له: على ذلك حَييتَ، وعلى ذلك متّ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله. ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ويُنَوَّر له فيه، ويفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها. فيزداد غبطة [وسرورا][10]، ثم يجعل نسمه فى النّسم الطيب، وهى طير خضر تعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدئ منه من التراب»، وذلك قول الله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾[11].

ورواه ابن حبّان، من طريق المعتمر بن سليمان، عن محمد بن عمرو، وذكر جواب الكافر

---

(١) فى ت: «ويقال».

(٢) سنن الترمذى برقم (١٠٧١).

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/٥٩٦).

(٤) فى ت، أ: «عن أبى هريرة قال».

(٥) فى ت: «فتقول».

(٦) فى ت، أ: «مثلت».

(٧) فى ت: «كما».

(٨) فى ت، أ: «دعنى».

(٩) فى ت، أ: «جاء».

(١٠) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(١١) تفسير الطبرى (١٦/٥٩٦، ٥٩٧).

وعذابه[١].

وقال البزار: حدثنا سعيد بن بحر القراطيسى، حدثنا الوليد بن القاسم، حدثنا يزيد بن كَيْسان، عن أبى حازم، عن أبى هريرة ـ أحسبه رفعه ـ قال: «إن المؤمن ينزل به الموت، ويعاين ما يعاين، فيودّ[٢] لو خرجت ـ يعنى نفسُه ـ والله يحب لقاءه، وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء، فتأتيه أرواح المؤمنين، فتستخبره[٣] عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال: تركت فلانا فى الأرض[٤]، أعجبهم ذلك. وإذا قال: إن فلانا قد مات، قالوا: ما جىء به إلينا. وإن المؤمن يجلس فى قبره، فيسأل: من ربك؟ فيقول: ربى الله[٥]. ويسأل: من نبيك؟ فيقول: محمد نبيى[٦]. فيقال: ماذا دينك؟ قال: دينى الإسلام. فيفتح له باب فى قبره، فيقول ـ أو: يقال ـ انظر إلى مجلسك. ثم يرى القبر فكأنما كانت رَقْدَة. وإذا كان عَدُو الله نزل به الموت وعاين ما عاين، فإنه لا يحب أن تخرج روحه أبداً، والله يبغض لقاءه، فإذا جلس فى قبره ـ أو: أجلس ـ يقال له: من ربك؟ فيقول: لا أدرى. فيقال: لا دَرَيت. فيفتح له باب من جهنم، ثم يضرب[٧] ضربة يسمعها[٨] كل دابة إلا الثقلين، ثم يقال له: نم كما ينام المنهوش». قلت لأبى هريرة: ما المنهوش؟ قال: الذى تنهشه الدواب والحيات، ثم يضيق عليه قبره.

ثم قال: لا نعلم رواه إلا الوليد بن القاسم[٩].

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا حُجَين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشُون، عن محمد بن المنْكَدِر قال: كانت أسماء ـ يعنى بنت الصديق ـ رضى الله عنها، تحدث عن النبى ﷺ قالت: قال: «إذا دخل الإنسان قبره، فإن كان مؤمنا أحَفّ به عملُه: الصلاةُ والصيام»، قال: «فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده، ومن نحو الصيام فيرده»، قال: «فيناديه: اجلس. فيجلس. فيقول له: ماذا تقول فى هذا الرجل؟ يعنى النبى ﷺ، قال: من؟ قال: محمد. قال أشهد أنه رسول الله، قال: يقول: وما يدريك؟ أدركته؟ قال: أشهد أنه رسول الله. قال: يقول: على ذلك عشتَ، وعليه متّ، وعله تبعثُ. وإن[١٠] كان فاجراً أو كافراً، جاءه الملك ليس بينه وبينه شىء يَرُدّه، فأجلسه يقول: اجلس، ماذا تقول فى هذا الرجل؟ قال: أىّ رجل؟ قال: محمد؟ قال: يقول: والله ما أدرى، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته. قال له الملك: على ذلك عشتَ، وعليه متَ، وعليه

---

(١) صحيح ابن حبان برقم (٧٨١) «موارد».

(٢) فى ت: «فود». (٣) فى ت: «فيستخبرونه». (٤) فى أ: «فى الدنيا».

(٥) فى ت: «الله ربى». (٦) فى ت، أ: «نبيى محمد». (٧) فى ت، أ: «يضربه».

(٨) فى ت، أ: «يسمع».

(٩) مسند البزار برقم (٨٧٤) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٥٢): «فى الصحيح طرف منه رواه البزار ورجاله ثقات خلا سعيد بن بحر القراطيسى فإنى لم أعرفه».

(١٠) فى ت: «قال: وإن».

تبعثُ. قال: وتسلَّط عليه دابة فى قبره، معها سوط تَمْرَته[١] جَمرةٌ مثل غَرْب[٢] البعير، تضربه ما شاء الله، صماء لا تسمع صوتَه فترحَمه»[٣].

وقال العوفى، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، فى هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حَضَره الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مَشَوا مع جنازته، ثم صلَّوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس فى قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربى الله. فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ. فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله. فيوسَّع له فى قبره مد بَصَره. وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة، فيبسطون أيديهم ـ «والبسط»: هو الضرب ـ يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت. فإذا أدخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يَرْجع إليهم شيئا، وأنساه الله ذكر ذلك. وإذا قيل: من الرسول الذى بُعثَ إليكم؟ لم يهتد له، ولم يرجع إليه شيئاً، كذلك يضل الله الظالمين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودى، حدثنا شريح بن مسلمة حدثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبى إسحاق، عن عامر بن سعد البجلى، عن أبى قتادة الأنصارى فى قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ الآية، قال: إن المؤمن إذا مات أجلس فى قبره، فيقال[٤] له: من ربك؟ فيقول: الله. فيقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد بن عبد الله. فيقال له فى ذلك مرات. ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك فى النار لو زُغت[٥]. ثم يفْتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك [من الجنة إذا ثبت. وإذا مات الكافر أجلس فى قبره، فيقال له: من ربك؟ من نبيك؟ فيقول: لا أدرى، كنت أسمع الناس يقولون. فيقال له: لا دريت. ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك][٦] لو ثبت، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك إذ زغت[٧]، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ابن طاووس، عن أبيه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾: المسألة فى القبر[٨].

وقال قتادة: أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ فى القبر. وكذا روى عن غير واحد من السلف.

وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذى فى كتابه «نوادر الأصول»: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن

---

(١) فى ت، أ: «ثمر به». (٢) فى ت، أ: «عرف».
(٣) المسند (٦/ ٣٥٢).
(٤) فى ت: «يقال». (٥) فى ت: «لو رغبت». (٦) زيادة من ت، أ.
(٧) فى ت، أ: «إذ رغبت».
(٨) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٩٦).

نافع، عن ابن أبى فُدَيْك، عن عبد الرحمن بن عبد الله[١]، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن ابن سَمُرَة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم، ونحن فى مسجد المدينة، فقال: «إنى رأيت البارحة عجباً، رأيت رجلا من أمتى [جاءه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه برُّه بوالديه[٢] فرد عنه. ورأيت رجلا من أمتى][٣] قد بسط عليه عذاب القبر، فجاءه وُضوءه فاستنقذه من ذلك. ورأيت رجلا من أمتى [قد][٤] احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم. ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم. ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشا، كلما ورد حوضا مُنع منه، فجاءه صيامه فسقاه وأرواه. ورأيت رجلا من أمتى والنبيون قعود حلَقا حلَقا، وكلما دنا لحقة طردوه، فجاءه اغتساله من الجنابة، فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى. ورأيت رجلا من أمتى [من][٥] بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن شماله ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، فهو متحير فيها، فجاءته حجته وعمرته، فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور، ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين فلا يكلمونه، فجاءته صلَة الرحم، فقالت: يا معشر المؤمنين، كلموه، فكلموه. ورأيت رجلا من أمتى يتقى وهَج النَّار أو شَرَرهَا بيده عن وجهه، فجاءته صدقته فصارت سترا على وجهه وظلاً على رأسه. ورأيت رجلا من أمتى قد أخذته الزبانية من كل مكان، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فاستنقذاه من أيديهم، وأدخلاه مع ملائكة الرحمة. ورأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه، بينه وبين الله حجاب، فجاءه حسن خُلُقه، فأخذ بيده فأدخله على الله، عز وجل. ورأيت رجلا من أمتى قد هَوت صحيفته من قبل شماله، فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته، فجعلها فى يمينه. [ورأيت رجلا من أمتى قد خف ميزانه، فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه][٦] ورأيت رجلا من أمتى قائما على شفير جهنم، فجاءه وجَله من الله، فاستنقذه من ذلك ومضى. ورأيت رجلا من أمتى هوى فى النار، فجاءته دموعه التى بكى من خشية الله فى الدنيا فاستخرجته من النار، [ورأيت رجلا من أمتى قائما على الصراط يُرعَد كما ترعد السَّعَفة، فجاء حسن ظنه بالله، فسكَّن رِعْدَته، ومضى][٧]. ورأيت رجلا من أمتى على الصراط يزحف أحيانا ويحبو أحيانا، فجاءته صلاته علىَّ، فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط. ورأيت رجلا من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة، فغلقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة: أن لا إله إلا الله، ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة»[٨].

قال القرطبى بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه: هذا حديث عظيم، ذكرَ فيه أعمالا خاصة تنجى من أهوال خاصة. أورده هكذا فى كتابه «التذكرة»[٩].

---

(١) فى التذكرة: «عبد الرحمن بن أبى عبد الله». (٢) فى ت: «بوالدته». (٣ ـ ٧) زيادة من ت، أ، والتذكرة.

(٨) ذكره الزبيدى فى الإتحاف وعزاه للحكيم فى النوادر وضعفه، ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق برقم (٤٩) من طريق سعيد بن عبد الله، عن على بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن سمرة مرفوعاً بأخصر منه، وذكر أن ابن تيمية كان يعظم شأن هذا الحديث ويقول: «شواهد الصحة عليه».

(٩) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢).

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلى فى هذا حديثا غريبا مطولا فقال: حدثنا أبو عبد الله[١] أحمد بن إبراهيم النُكْرِى، حدثنا محمد بن بكر البرسانى أبو عثمان، حدثنا أبو عاصم الحبطى ـ وكان من خيار أهل البصرة، وكان من أصحاب حزم، وسلام بن أبى مطيع ـ حدثنا بكر بن خُنَيس، عن ضرار بن عمرو، عن يزيد الرقاشى، عن أنس بن مالك، عن تميم الدارى، عن النبى ﷺ قال: «يقول الله، عز وجل، لملك الموت: انطلق إلى وليى فأتنى به، فإنى قد ضَربته بالسراء والضراء، فوجدته حيث أحب. ائتنى به فَلأريحنَّه»[٢].

فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة، معهم أكفان وحَنُوط من الجنة، ومعهم ضبائر الرَّيْحان، أصل الريحانة واحد وفى رأسها عشرون لونا، لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر. فيجلس[٣] ملك الموت عند رأسه، وتحف به الملائكة. ويضع كل مَلَك منهم يده على عضو من أعضائه ويَبْسط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفَر تحت ذقنه، ويَفتَح له بابٌ إلى الجنة، فإن نفسه لَتَعلَّلُ عند ذلك بطرف الجنة تارة، وبأزواجها[٤] [مرة][٥] ومرةً بكسْواتها ومَرَّةً بثمارها، كما يُعَلِّل الصبى أهله إذا بكى». قال: «وإن أزواجه ليبتهشن عند ذلك ابتهاشاً».

قال: «وتنزو الروح». قال البُرْسَانى: يريد أن تخرج من العَجَل إلى ما تحب. قال: «ويقول مَلَك الموت: اخرجى يا أيتها الروح الطيبة، إلى سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب». قال: «ولمَلَك الموت أشدّ به لطفا من الوالدة بولدها، يعرف أن ذلك الروح حبيب لربه، فهو يلتمس بلطفه تحببا لديه رضاء للرب عنه، فتُسَلُّ روحه كما تسل الشعرة من العجين». قال: «وقال الله، عز وجل: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾» [النحل: ٣٢]» وقال: «﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ .فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. قال: «روح من جهة الموت، وريحان يتلقى به، وجنة نعيم تقابله».

قال: «فإذا قَبض ملك الموت روحه، قال الروح للجسد: جزاك الله عنى خيرا، فقد كنت سريعا بى إلى طاعة الله، بطيئا بى عن معصية الله، فقد نجيت وأنجيت». قال: «ويقول الجسد للروح مثل ذلك».

قال: «وتبكى[٦] عليه بقاع الأرض التى كان يطيع الله فيها، وكل باب من السماء يصعد منه عمله. وينزل منه رزقه أربعين ليلة».

قال: «فإذا قَبَض ملك الموت روحه، أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده، فلا يقلبه[٧] بنوآدم لشق إلا قلبته الملائكة قبلهم، وغسلته وكفنته بأكفان قبل أكفان بنى آدم، وحَنُوط قبل حنوط

---

(١) فى أ: «أبو عبد الرحمن». (٢) فى ت، أ: «فلأريحه». (٣) فى أ: «قال: . فيجلس».
(٤) فى ت، أ: «مرة بأزواجها». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) فى ت: «ويبكى».
(٧) فى ت، أ: «فلا تقلبه».

بنى آدم، ويقوم من بين باب بيته إلى باب قبره صفّان من الملائكة، يستقبلونه بالاستغفار، فيصيح عند ذلك إبليس صيحة تتصدع[١] منها عظام[٢] جسده». قال: «ويقول لجنوده: الويل لكم. كيف خلَص هذا العبد منكم، فيقولون إن هذا كان عبدا معصوما».

قال: «فإذا صعد ملك الموت بروحه، يستقبله جبريل فى سبعين ألفاً من الملائكة، كلّ يأتيه ببشارة من ربه سوى بشارة صاحبه». قال: «فإذا انتهى ملك الموت بروحه إلى العرش، خرّ الروح ساجدا». قال: «يقول الله، عز وجل، لملك الموت: انطلق بروح عبدى فضعه فى سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب».

قال: «فإذا وضع فى قبره، جاءته الصلاة فكانت عن يمينه، وجاءه الصيام فكان عن يساره، وجاءه القرآن فكان عند رأسه، وجاءه مشيه إلى الصلاة فكان عند رجليه، وجاءه الصبر فكان ناحية القبر». قال: «فيبعث الله، عز وجل، عُنُقاً من العذاب». قال: «فيأتيه عن يمينه» قال: «فتقول الصلاة: وراءك والله ما زال دائبا عمره كله وإنما استراح الآن حين وضع فى قبره». قال: «فيأتيه عن يساره، فيقول الصيام مثل ذلك». قال: «ثم يأتيه من عند رأسه، فيقول القرآن والذكر مثل ذلك». قال: «ثم يأتيه من عند رجليه، فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك. فلا يأتيه العذاب من ناحية يلتمس هل يجد مساغاً إلا وجَد ولى الله قد أخذ جنته». قال: «فينقمع العذاب عند ذلك فيخرج». قال: «ويقول الصبر لسائر الأعمال: أما إنه لم يمنعنى أن أباشر أنا بنفسى إلا أنى نظرت ما عندكم، فإن عجزتم كنت أنا صاحبه، فأما إذ أجزأتم عنه فأنا له ذخر عند الصراط والميزان».

قال: «ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنيابهما كالصياصى، وأنفاسهما كاللهب، يطآن فى أشعارهما، بين مَنْكب كل واحد مسيرة كذا وكذا، وقد نزعت منهما الرأفة والرحمة، يقال لهما: منكر ونكير، فى يد كل واحد منهما مطرقة، لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يُقلّوها». قال: «فيقولان له: اجلس». قال: «فيجلس فيستوى جالسا». قال: «وتقع أكفانه فى حَقْوية». قال: «فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟»».

قال: قالوا: يا رسول الله، ومن يطيق الكلام عند ذلك، وأنت تصف من المَلَكين ما تصف؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾».

قال: «فيقول: ربى الله وحده لا شريك له، ودينى الإسلام الذى دانت به الملائكة، ونبيى محمد خاتم النبيين». قال: «فيقولان: صدقت». قال: «فيدفعان القبر، فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعا، وعن يمينه أربعين ذراعا، وعن شماله[٣] أربعين ذراعا، ومن خلفه أربعين ذراعا، ومن عند رأسه

---

(١) فى ت، أ: «يتصدع». (٢) فى أ: «بعض عظام».
(٣) فى أ: «وعن يساره».

أربعين ذراعا، ومن عند رجليه أربعين ذراعا». قال: «فيوسعان له مائتى ذراع».

قال البرساني: فأحسبه: وأربعين ذراعا تحاط به[(١)].

قال: «ثم يقولان له: انظر فوقك، فإذا باب مفتوح إلى الجنة». قال: «فيقولان له: ولىَّ الله، هذا منزلك إذ أطعت الله». فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفس محمد بيده[(٢)]، إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة، ولا ترتد أبداً، ثم يقال له: انظر تحتك». قال: «فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار قال: «فيقولان: ولى الله نجوت آخر ما عليك». قال: فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبدا». قال: فقالت عائشة: يفتح له سبعة وسبعون باباً إلى الجنة، يأتيه ريحها وبردها، حتى يبعثه الله، عز وجل.

وبالإسناد المتقدم إلى النبى ﷺ قال: «ويقول الله تعالى لملك[(٣)] الموت: انطلق إلى عدوى فأتنى به، فإنى قد بسطت له رزقى، ويَسّرت له نعمتى، فأبى إلا معصيتى، فأتنى به لأنتقم منه».

قال: «فينطلق إليه ملك الموت فى أكره صورة ما رآها أحد من الناس قَطّ، له اثنتا عشرة[(٤)] عينا، ومعه سَفود من النار كثير الشوك، ومعه خمسمائة من الملائكة، معهم نحاس وجَمْر من جمر جهنم، ومعهم سياط من نار، لينها لين السياط وهى نار تأجج». قال: «فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيبُ كل أصل شوكة من ذلك السفّود فى أصل كلّ شعرة وعرق وظفر». قال: «ثم يلويه ليا شديدا». قال: «فينزع روحه من أظفار قدميه». قال: «فيلقيها» فى عقبيه[(٥)] ثم يسكر[(٦)] عند ذلك عدو الله[(٧)] سكرة، فيرفّه ملك الموت عنه». قال: «وتضرب[(٨)] الملائكة وجهه ودُبُره بتلك السياط». [قال: «فيشده ملك الموت شدة، فينزع روحه من عقبيه، فيلقيها فى ركبتيه، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة، فيرفه ملك الموت عنه». قال: «فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط»][(٩)]. قال: «ثم ينتره[(١٠)] ملك الموت نَترة، فينزع روحه من ركبتيه فيلقيها فى حقويه». قال: «فيسكر عدو الله عند ذلك سكرة، فيرفه ملك الموت عنه». قال: «وتضرب الملائكة[(١١)] وجهه ودبره بتلك السياط». قال: «كذلك إلى صدره، ثم كذلك إلى حلقه». قال: «ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه». قال: «ويقول ملك الموت: اخرجى أيتها الروح اللعينة الملعونة إلى سَمُوم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم».

قال: «فإذا قبض ملك الموت روحه قال الروح للجسد: جزاك الله عنى شرا، فقد كنت سريعا بى

---

(١) فى أ: «محاط».
(٢) فى أ: «والذى نفسى بيده».
(٣) فى أ: «إلى ملك».
(٤) فى أ: «اثنى عشر».
(٥) فى هـ: «ركبتيه» والمثبت من ت، أ
(٦) فى أ: «قال: فيسكر».
(٧) فى ت: «قال فيسكر عدو الله عند ذلك».
(٨) فى ت: «ويضرب».
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) فى ت، أ: «فينتره».
(١١) فى ت: «فيضرب»، وفى أ: «فتضرب».

إلى معصية الله، بطيئا بى عن طاعة الله، فقد هلكت وأهلكت» قال: «ويقول الجسد للروح مثل ذلك، وتلعنه بقاع الأرض التى كان يعصى الله عليها، وتنطلق جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبدا من ولد آدم النار».

قال: فإذا وضع فى قبره ضُيق عليه قبره حتى تختلف(١) أضلاعه، حتى تدخل اليمنى فى اليسرى، واليسرى فى اليمنى» قال: «ويبعث الله إليه أفاعى دُهماً كأعناق الإبل يأخذن (٢) بأرنبته وإبهامى قدميه فيقرضنه حتى يلتقين فى وسطه».

قال: «ويبعث الله ملكين أبصارهما (٣) كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنيابهما كالصياصى، وأنفاسهما كاللهب(٤)، يطآن فى أشعارهما، بين منكبى كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا، قد نزعت منهما الرأفة والرحمة يقال لهما: منكر ونكير، فى يد كل واحد منهما مطرقة، لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها» قال: «فيقولان له: اجلس». قال: «فيستوى جالسا» قال: «وتقع أكفانه فى حقويه» قال: «فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدرى. فيقولان: لا دريت ولاتَليّت». [قال](٥) «فيضربانه ضربة يتطاير شررها فى قبره، ثم يعودان». قال: «فيقولان: انظر فوقك. فينظر، فإذا باب مفتوح من الجنة، فيقولان: هذا ـ عدوَّ الله (٦)ـ منزلك لو أطعت الله».

قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبدا».

قال: «ويقولان له: انظر تحتك فينظر تحته، فإذا باب مفتوح إلى النار، فيقولان: عدو الله، هذا منزلك إذ عصيت الله».

قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبداً».

قال: وقالت عائشة: ويفتح له سبعة وسبعون بابا إلى النار، يأتية [من] (٧)حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها(٨).

هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيب، ويزيد الرقاشى ـ راويه عن أنس ـ له غرائب ومنكرات، وهو ضعيف الرواية عند الأئمة، والله أعلم.

ولهذا قال أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازى، حدثنا هشام ـ هو ابن يوسف ـ عن عبد الله ابن بَحير، عن هانئ مولى عثمان، عن عثمان، رضى الله عنه، قال: كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له بالتثبيت، فإنه الآن يسأل»، انفرد به أبو

(١) فى ت: «يختلف». (٢) فى أ: «يأخذونه». (٣) فى أ: «أيضا وهما».
(٤) فى ت: «كاللهيب». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) فى ت، أ: «عدو الله هذا».
(٧) زيادة من أ.
(٨) أورده ابن حجر فى المطالب العالية (٤/ ٣٨٢) وعزاه لأبى يعلى قال: «هذا حديث عجيب السياق، وهو شاهد لكثير مما ثبت فى حديث البراء الطويل المشهور، ولكن إسناده غريب وفيه ضعف».

داود[١].

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأنعام:٩٣] حديثا مطولا جداً، من طريق غريب، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعا، وفيه غرائب أيضا[٢].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾[٣].

قال البخارى: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾: ألم تعلم؟ كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [إبراهيم :٢٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾[البقرة:٢٤٣]، البوار: الهلاك ،بار يبور بَوراً، و ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨، الفتح: ١٢]: هالكين.

حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء سمع ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم كفار أهل مكة[٤].

وقال العوفى، عن ابن عباس فى هذه الآية: هو جبلة بن الأيهم، والذين اتبعوه من العرب، فلحقوا بالروم. والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار؛ فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردّها وكفرها دخل النار.

وقد روى عن على نحو قول ابن عباس الأول، قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا شعبة، عن القاسم بن أبى بزة، عن أبى الطفيل: أن ابن الكواء سأل عليا عن ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قال: كفار قريش يوم بدر.

حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا بسام ـ هو الصيرفى[٥] ـ عن أبى الطفيل قال: جاء رجل إلى على فقال: يا أمير المؤمنين، من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار

---

(١) سنن أبى داود برقم (٣٢٢١).

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣/٣١٨) وقال: «أخرج ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس فذكره».

(٣) **تنبيه**: من هذه الآية يبتدئ الاعتماد فى تخريج الأحاديث والآثار فى تفسير الطبرى على الطبعة المصورة عن الطبعة الأميرية بعد أن كان الاعتماد على الطبعة التى حققها الفاضلان الشيخ أحمد شاكر والأستاذ محمود شاكر فى ستة عشر مجلداً وطبعت فى دار المعارف، والله أسأل أن يقيض لهذا الكتاب من يكمل تحقيقه فهو من أعظم كتب التفسير وأجلها، والله المستعان.

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٠٠).

(٥) فى ت: «الصرفى».

البوار؟ قال: منافقو قريش.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن نفيل قال: قرأت على مَعْقِل، عن ابن أبى حسين [(١)] قال: قام على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فقال: ألا أحد يسألنى عن القرآن، فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم منى به[(٢)] وإن كان من وراء البحار لأتيته. فقام عبد الله بن الكواء [(٣)] فقال: من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار؟ فقال: مشركو قريش، أتتهم نعمة [(٤)] الله: الإيمان، فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار.

وقال العدوى فى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾الآية، ذكر مسلم المستوفى [(٥)] عن على أنه قال: هما الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أحد. وكان أبو جهل يوم بدر، وأبو سفيان يوم أحد. وأما دار البوار فهى جهنم.

وقال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحارث بن منصور، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عليا قرأ هذه الآية: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ قال: هما الأفجران من قريش: بنو أمية وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأهلكوا يوم بدر، وأما بنو أمية فمتِّعوا إلى حين.

ورواه أبو إسحاق، عن عمرو بن مرة، عن على، نحوه، وروى من غير وجه عنه.

وقال سفيان الثورى، عن على بن زيد، عن يوسف بن سعد، عن عمر بن الخطاب، فى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فَكُفِيتمُوهُم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين.

وكذا رواه حمزة الزيات، عن عمرو بن مرة قال: قال ابن عباس لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، هذه الآية: ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، قال: هم الأفجران من قريش: أخوالى وأعمامك فأما أخوالى فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة بن زيد[(٦)]: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر وكذا رواه مالك فى تفسيرة عن نافع، عن ابن عمر.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أى: جعلوا له[(٧)] شركاء عبدوهم معه، ودَعَوُا الناس إلى ذلك.

ثم قال تعالى مَهدِّدا لهم [(٨)] ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾

(١) فى ت، أ: «حنين». (٢) فى ت، أ: «به منى». (٣) فى ت: «الكراء».
(٤) فى ت، أ: «نعم». (٥) فى أ: «المسوف». (٦) فى ت: «وقتادة وابن زيد».
(٧) فى ت: «جعلوا لله». (٨) فى ت: «له».

أى: مهما قدرتم عليه فى الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شىء ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى: مرجعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠].

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١)﴾.

يقول تعالى آمراً العباد [(١)] بطاعته والقيام بحقه، والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة وهى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات، والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب.

والمراد بإقامتها هو: المحافظة على وقتها وحدودها، وركوعها وخشوعها وسجودها.

وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق فى السر، أى: فى الخفية، والعلانية وهى: الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة، وهو يوم ﴿لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾ أى: لا يقبل من أحد فدية بأن تباع [(٢)] نفسه، كما قال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الحديد: ١٥].

وقوله: ﴿وَلا خِلالٌ ﴾: قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مُخَالة [(٣)] خليل، فيصفح [(٤)] عمن استوجب العقوبة، عن العقاب لمُخَالَّته، بل هنالك العدل والقسط، فالخلال مصدر، من قول القائل: «خاللت فلانا، فأنا أخاله مُخَالَّة وخلالا»، ومنه قول امرىء القيس:

صَرَفْتُ الهَوَى عَنْهُنَّ من خَشْيَة الرَّدَى ... وَلَسْتُ بمقْلىَ الخلال ولا قَالٍ[(٥)].

وقال قتادة: إن الله قد علم أن فى الدنيا بيوعا وخلالا يتخالون بها فى الدنيا، فينظر رجل من يخالل وعلام صاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه.

قلت: والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحدا بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا لو وجده، ولا ينفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذ لقى الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

---

(١) فى ت، أ: «العباده». (٢) فى ت: «بياع». (٣) فى ت: «مخالطة».
(٤) فى ت: «فصفح».
(٥) البيت فى تفسير الطبرى (١٣/١٤٩).

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾.

يعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً(١)، والأرض فراشاً، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع، مختلفه الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجرى عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر، لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هاهنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقا للعباد من شرب وسقى وغير ذلك من أنواع المنافع.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ أى: يسيران لا يقران (٢) ليلا ولا نهاراً، ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار عارضان(٣)، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى «وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»(٤)﴾ [لقمان: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٥].

وقوله: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾: يقول: هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه فى جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم (٥) وقالكم.

وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه.

وقرأ بعضهم: «وَآتَاكُم مِّن كُلٍّ مَا سَأَلْتُمُوهُ».

وقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾: يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب، رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر (٦) من أن يحصيها (٧) العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسُوا توابين.

---

(١) فى أ: «مرفوعاً». (٢) فى أ: «لايفتران». (٣) فى ت، أ: «يتعارضان».
(٤) فى هـ ت، أ: «ألا وهو العزيز الغفار» والصواب ما أثبتناه. (٥) فى ت، أ: «لحالكم».
(٦) فى أ: «أكبر». (٧) فى ت، أ: «تحصيها».

وفى صحيح البخارى: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم، لك الحمد غير مكْفِىّ ولا مودَع، ولا مستغنى عنه ربَّنا»(١).

وقال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده: حدثنا إسماعيل بن أبى الحارث، حدثنا داود بن المحبَّر، حدثنا صالح المرْىّ عن جعفر بن زيد العَبْدى، عن أنس، عن النبى ﷺ أنه قال: «يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة (٢) داووين، ديوان، فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه، فيقول الله لأصغر (٣) نعَمه ـ أحسبَه. قال: فى ديوان النعم: خذى ثمنك من عمله الصالح، فتستوعب عمله الصالح كله، ثم تَنَحَّى وتقول: وعزتك ما استوفيت. وتبقى الذنوب والنعم(٤) فإذا أراد الله أن يرحم قال: يا عبدى، قد ضاعفتُ لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك ـ أحسبه قال: ووهبت لك نعَمى» (٥). غريب، وسنده ضعيف.

وقد رُوى فى الأثر: أن داود، عليه السلام، قال: يارب، كيف أشكرك وشكرى لك نعمة منك علىّ؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتنى يا داود، أى: حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم.

وقال الشافعى، رحمه الله: الحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة(٦) تُوجِب على مُؤدى ماضى نعَمه بأدائها، نعمة حادثةَ توجب عليه شكره بها(٧).

وقال القائل فى ذلك:

لو كل جارحَة منى لها لُغَةٌ ... تُثْنى عليكَ بما أولَيتَ مِنْ حَسَنِ

لكانَ ما زادَ شُكرى إذ شكَرتُ به ... إليكَ أبلغَ فى الإحسَان والمننِ

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) ﴾.

يذكر تعالى فى هذا المقام محتجاً على مشركى العرب، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه، آهلة تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾. وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٤٥٨) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه.

(٢) فى أ: «ثلاث» وهو خطأ. (٣) فى ت، أ: «لأصغرهم».

(٤) فى ت، أ: «والنعم والعمل الصالح فيستوعب عمله الصالح كله».

(٥) مسند البزار برقم (٣٤٤٤) «كشف الأستار» وفيه داود بن المحبر وصالح المرى وهما ضعيفان.

(٦) فى هـ، ت، أ: «بنعمة حادثة» والمثبت من الرسالة.

(٧) الرسالة للشافعى (ص٧، ٨).

أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي[1] بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال فى هذه القصة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، فعرفه كأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضا فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، كما ذكرناه هنالك فى سورة البقرة مستقصى مطولا.

وقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾، ينبغى لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته.

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس وأنه برىء ممن عبدها، ورد أمرهم[2] إلى الله، إن شاء عذبهم[3]، وإن شاء غفر لهم[4]، كما قال عيسى، عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وليس فى هذا أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى، لا تجويز[5] وقوع ذلك.

قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن بكر بن سَوَادة حدثه، عن عبد الرحمن بن جُبير[6] عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقول[7] عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ورفع يديه، [ثم][8] قال: «اللهم أمتى، اللهم أمتى، اللهم أمتى»، وبكى فقال الله: [يا جبريل][9] اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل، عليه السلام، فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، [قال][10] فقال الله: اذهب إلى محمد، فقل له: إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك[11].

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾.

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذى دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيداً ورغبة إلى الله، عز وجل؛ ولهذا قال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾: قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: ﴿الْمُحَرَّمِ﴾ أى: إنما جعلته محرما ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده.

---

(١) فى أ: «للتى» وهو خطأ. (٢) فى أ: «أمره». (٣) فى أ: «عذبه».
(٤) فى أ: «له». (٥) فى ت: «لا تحرير». (٦) فى أ: «بن جرير».
(٧) فى ت، أ: «وقال». (٨، ٩) زيادة من ت، أ. (١٠) زيادة من ت.
(١١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ١٥١).

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: لو قال: «أفئدة الناس» لازدحم عليه فارس والروم واليهود [(١)] والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ فاختص به المسلمون.

وقوله: ﴿وارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: ليكون ذلك عونا لهم على طاعتك وكما أنه ﴿وَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فاجعل لهم ثماراً يأكلونها. وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص:٥٧]، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنه ليس فى البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهى تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابة لخليله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾.

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبرا عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أى: أنت تعلم قصدى فى دعائى وما أردت بدعائى لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، ولايخفى عليك منها شيء فى الأرض ولا فى السماء.

ثم حمد ربه، عز وجل، على ما رزقه من الولد بعد الكبر. فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، أى: إنه ليستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لى فيما سألته [(٢)] من الولد.

ثم قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أى: محافظا عليها مقيما لحدودها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أى: واجعلهم كذلك مقيمين [(٣)] الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أى: فيما سألتك فيه كله.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾: وقرأ بعضهم: «ولوالدى»، على الإفراد وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه [(٤)] لما تبين له عداوته [(٥)] لله، عز وجل، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أى: يوم تحاسب عبادك فتجزيهم [(٦)] بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. [والله أعلم][(٧)].

---

(١) فى ت: «واليهود والروم». (٢) فى ت: «فيما سألت». (٣) فى ت، أ: «مقيمى».
(٤) فى ت: «ابنه». (٥) فى أ: «أنه عدو». (٦) فى ت: «فيجزيهم».
(٧) زيادة من أ.

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾.

يقول [تعالى شأنه][(١)]: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ ﴾ يامحمد ﴿ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي: لا تحسبه إذ[(٢)] أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم[(٣)]، بل هو يحصى ذلك عليهم ويعدّه عداً، أي: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾ أي: من شدة الأهوال يوم القيامة.

ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم ومجيئهم إلى قيام المحشر فقال: ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ [يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ][(٤)] ﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١٩٨ ـ ١١١]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣].

وقوله: ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: رافعي رؤوسهم.

﴿ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي: [بل][(٥)] أبصارهم طائرة شاخصة، يديمون النظر لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة[(٦)]، لما يحل بهم، عياذاً بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ أي: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة [الفزع و][(٧)] الوجل والخوف. ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: ﴿ هَوَاءٌ ﴾: خراب لاتعى[(٨)] شيئا.

ولشدة ما أخبر الله تعالى [به][(٩)] عنهم، قال لرسوله: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾.

﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) ﴾.

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى ت: «إذا».
(٣) فى ت، أ: «صنيعهم».
(٤) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية».
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى ت: «والمخافة والفكرة».
(٧) زيادة من ت، أ.
(٨) فى أ: «لايعى».
(٩) زيادة من ت.

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم، عند معاينة العذاب: ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن(١) مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[المنافقون: ٩، ١٠]، وقال تعالى مخبراً عنهم فى حال محشرهم: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال تعالى رادا عليهم فى قولهم هذا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أى: أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال: أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذاك.

قال مجاهد وغيره: ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أى: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كما أخبر عنهم تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ أى: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم مزدجر لكم(٢)﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥].

وقد روى شعبة، عن أبى إسحاق، عن عبد الرحمن [بن دابيل] (٣) أن عليا، رضى الله عنه، قال فى هذه الآية: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قال: أخذ ذاك الذى حاج إبراهيم فى ربه نسرين صغيرين، فرباهما حتى استغلظا واستعلجا وشبا(٤).

قال: فأوثق رِجْل كل واحد منهما بوتد إلى تابوت، وجوعهما، وقعد هو ورجل آخر فى التابوت قال:ـ ورفع فى التابوت عصا على رأسه اللحم ـ قال: فطارا [قال](٥): وجعل يقول لصاحبه: انظر، ما (٦) ترى؟ قال: أرى كذا وكذا،حتى قال: أرى الدنيا كلها كأنها ذباب. قال: فقال: صَوِّب العصا،

(١) فى أ: «وأكون».
(٢) فى ت: «لكم مزدجر».
(٣) زيادة من ت، وفى أ: «ابن دنيال».
(٤) فى ت: «فشبا».
(٥) زيادة من ت، أ.
(٦) فى ت: «ماذا».

فصوبها، فهبطا. قال: فهو قول الله، عز وجل: «وَإِن كَادَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ». قال أبو إسحاق: وكذلك هى فى قراءة عبد الله: «وإن كاد مكرهم»[١].

قلت: وكذا رُوى عن أبى بن كعب، وعمر بن الخطاب، رضى الله عنهما، أنهما قرآ: «وإن كاد»، كما قرأ على. وكذا رواه سفيان الثورى، وإسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبد الرحمن بن أذنان[٢]، عن على، فذكر نحوه.

وكذا رُوى عن عكرمة أن سياق هذه القصة للنمرود ملك كنعان: أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر، كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط فى بناء الصرح، فعجزا وضعفا. وهما أقل وأحقر، وأصغر وأدحر.

وذكر مجاهد هذه القصة عن بختنصر، وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها، نودى أيها الطاغية: أين تريد؟ فَفَرِق، ثم سمع الصوت فوقه فصوب الرماح، فصَوبت النسور، ففزعت الجبال من هَدتها، وكادت الجبال أن تزول من حس[٣] ذلك، فذلك قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

ونقل ابن جُريج[٤] عن مجاهد أنه قرأها: «لَتَزُولُ منه الجبال»، بفتح اللام الأولى، وضم[٥] الثانية.

وروى العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال. وكذا قال الحسن البصرى، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذى فعلوه بأنفسهم من كفرهم بالله وشركهم به، ما ضر ذلك شيئا من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك على أنفسهم.

قلت: ويشبه هذا إذاً قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

والقول الثانى فى تفسيرها: ما رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾: يقول شركهم، كقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]، وهكذا قال الضحاك، وقتادة.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ

---

(١) تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٠)، وصوب العصا: خفضها وأنزلها أ. هـ. مستفادًا من حاشية الشعب.

(٢) فى ت: «أرباب»، وفى أ: «أريان».

(٣) فى ت: «من حين».

(٤) فى أ: «ابن جرير».

(٥) فى ت، أ: «ورفع».

الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾.

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً: ﴿ **فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ** ﴾ أى: من نصرتهم فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ثم أخبر أنه ذو عزة لا يمتنع (١) عليه شىء أراده، ولا يغالب، وذو انتقام ممن (٢) كفر به وجحده ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [الطور: ١١]؛ ولهذا قال: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ** ﴾ أى: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهى هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء فى الصحيحين، من حديث أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقُرصة النَّقىّ، ليس فيها مَعْلَم لأحد»(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبى عَدىّ، عن داود، عن الشعبى، عن مسروق، عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴾، قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط».

رواه مسلم منفرداً به دون البخارى، والترمذى، وابن ماجة، من حديث داود بن أبى هند، به(٤). وقال الترمذى: حسن صحيح.

ورواه أحمد أيضا، عن عفان، عن وهيب(٥)، عن داود، عن الشعبى، عنها(٦). ولم يذكر مسروقاً (٧).

وقال قتادة، عن حسان بن بلال المزنى، عن عائشة، رضى الله عنها، أنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ** ﴾ قال: قالت(٨): يا رسول الله، فأين الناس يومئذ؟ قال: «لقد سألتنى (٩) عن شىء ما سألنى عنه أحد من أمتى، ذاك أن الناس على جسر جهنم(١٠)»(١١).

وروى الإمام أحمد، من حديث حبيب بن أبى عمرة، عن مجاهد، عن ابن عباس، حدثتنى عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ، عن قوله تعالى: ﴿ **وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ**

---

(١) فى ت: «تمتنع». (٢) فى ت: «بمن».
(٣) صحيح البخارى برقم (٦٥٢١) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٠).
(٤) المسند (٦/ ٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩١) وسنن الترمذى برقم (٣١٢١) وابن ماجة برقم (٤٢٧٩).
(٥) فى ت: «وهب». (٦) فى ت: «عنهما».
(٧) المسند (٦/ ١٣٤).
(٨) فى ت، أ: «قلت». (٩) فى ت: «سألتينى». (١٠) فى ت: «على حشرهم».
(١١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ١٦٦).

مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «هم على متن جهنم»[(١)].

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن، حدثنا على بن الجعد، أخبرنى القاسم، سمعت الحسن قال: قالت عائشة: يا رسول الله، **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾**، فأين الناس يومئذ؟ قال: «إن هذا شيء ما سألنى عنه أحد»، قال: «على الصراط يا عائشة».

ورواه أحمد، عن عفان[(٢)]، عن القاسم بن الفضل، عن الحسن، به[(٣)].

وقال الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه: حدثنى الحسن بن على الحُلْوانى، حدثنا أبو تَوْبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد ـ يعنى: أخاه ـ أنه سمع أبا سلاَّم، حدثنى أبو أسماء الرَّحَبى؛ أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ حدثه قال: كنت قائما عند رسول الله ﷺ، فجاءه[(٤)] حبَر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعته دَفعةً كاد يُصرَع منها، فقال: لم تدفعنى؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله؟! فقال اليهودى: إنما ندعوه باسمه الذى سَمَّاه به أهله! فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمى محمدٌ الذى سمانى به أهلى». فقال اليهودى: جئت أسألك. فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شىء إن حدثتك؟» فقال: أسمع بأذنى. فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل». فقال اليهودى: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم فى الظلمة دون الجسر»[(٥)]. قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقال: «[فقراء][(٦)] المهاجرين». قال اليهودى: فما تُحْفَتهمُ حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون» قال: فما غذاؤهم فى أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلا». قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شىء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبى أو رجل أو رجلان؟ قال: «ينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذنى. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فَعَلا منىُّ الرجل منىَّ المرأة أذكرا[(٧)] بإذن الله ـ تعالى ـ وإذا علا منى المرأة منى الرجل أنَّثا بإذن الله». قال اليهودى: لقد صدقت، وإنك لنبى. ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألنى هذا عن الذى سألنى عنه، وما لى علم بشىء منه، حتى أتانى الله به»[(٨)].

[و][(٩)]قال أبو جعفر بن جرير الطبرى: حدثنى ابن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا ابن أبى

---

(١) المسند (٦/ ١١٧).

(٢) فى ت، أ: «عثمان».

(٣) تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٦) والمسند (٦/ ١٠١).

(٤) فى ت: «فجاء».

(٥) فى ت: «الحشر».

(٦) زيادة من ت، أ، ومسلم.

(٧) فى أ: «ذكرا».

(٨) صحيح مسلم برقم: (٣١٥).

(٩) زيادة من ت.

مريم، حدثنا سعيد بن ثوبان الكَلاعى، عن أبى أيوب الأنصارى، قال: أتى النبىَّ ﷺ حَبْر من اليهود فقال: أرأيت إذ يقول الله فى كتابه: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾، فأين الخَلْق عند ذلك؟ فقال: «أضياف الله، فلن يعجزهم ما لديه»[1].

ورواه ابن أبى حاتم، من حديث أبى بكر بن عبد الله بن أبى مريم، به.

وقال شعبة: أخبرنا أبو إسحاق، سمعت عمرو بن ميمون ـ وربما قال: قال عبد الله، وربما لم يقل ـ فقلت له: عن عبد الله؟ فقال: سمعت عمرو بن ميمون يقول: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ قال: أرض كالفضة البيضاء نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها[2] خطيئة، ينفذهم البصر، ويُسمعهم الداعى، حفاةً عراة كما خلقوا. قال: أراه قال: قياما حتى يُلجِمَهم العرق[3].

وروى من وجه آخر عن شعبة وعن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن ابن مسعود، بنحوه. وكذا رواه عاصم، عن زرّ، عن ابن مسعود، به.

وقال سفيان الثورى، عن أبى إسحاق، عن عمرو بن ميمون، لم يخبر به. أورد ذلك كله ابن جرير[4].

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل، حدثنا سهل بن حماد أبو عتاب، حدثنا جرير بن أيوب، عن أبى إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله، عن النبى ﷺ فى قول الله، عز وجل: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ قال: «أرض بيضاء لم يسقط عليها دم[5]، ولم يعمل عليها خطيئة». ثم قال: لا نعلم رفعه إلا جرير بن أيوب، وليس بالقوى[6].

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سنان[7]، عن جابر الجُعْفى، عن أبى جُبَيرة[8]، عن زيد قال: أرسل رسول الله ﷺ إلى اليهود فقال: «هل تدرون لم أرسلت إليهم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أرسلت إليهم أسألهم عن قول الله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾، إنها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة». فلما جاؤوا سألهم فقالوا: تكون بيضاء مثل النَّقِى[9].

وهكذا رَوى عن على، وابن عباس، وأنس بن مالك، ومجاهد بن جبير: أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة.

وعن على، رضى الله عنه، أنه قال: تصير الأرض فضة، والسموات ذهبا.

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٣/ ١٦٤).

(٢) فى ت، أ: «فيها».

(٣، ٤) تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٤).

(٥) فى ت: «دما».

(٦) مسند البزار برقم (٣٤٣١) «كشف الأستار» وجرير بن أيوب ضعفه الأئمة.

(٧) فى ت، أ: «شيبان».

(٨) فى أ: «عن ابن حبرة».

(٩) تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٤).

وقال الربيع: عن أبى العالية، عن أبى بن كعب قال: تصير السموات جنانا.

وقال أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظى، أو عن محمد بن قيس فى قوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾، قال: [تبدل](١) خبزة يأكل منها المؤمنون(٢) من تحت أقدامهم(٣).

وكذا رَوَى وَكِيع، عن عمر بن بشير الهمدانى، عن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ قال: تبدل خبزة بيضاء، يأكل المؤمن من تحت قدميه.

وقال الأعمش، عن خَيْثَمة قال: قال عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ: الأرض كلها يوم القيامة(٤) نار، والجنة من ورائها ترى كواعبها وأكوابها، ويُلجِم الناس العرقُ، أو يبلغ منهم العرق، ولم يبلغوا الحساب.

وقال الأعمش أيضاً، عن المِنْهَال بن عمرو، عن قيس بن السكن(٥) قال: قال عبد الله: الأرض كلها نار يوم القيامة، [و](٦) الجنة من ورائها، ترى أكوابها وكواعبها، والذى نفس عبد الله بيده، إن الرجل ليفيض عرقا حتى ترسخ(٧) فى الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه الحساب. قالوا(٨): مم ذاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يرى الناس يلقون(٩).

وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن كعب فى قوله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾، قال: تصير السموات جنانا، ويصير مكان البحر ناراً، وتبدل الأرض غيرها.

وفى الحديث الذى رواه أبو داود: «لا يركب البحر إلا غاز أو حاج أو معتمر، فإن تحت البحر ناراً ـ أو: تحت النار بحرا»(١٠).

وفى حديث الصور المشهور المروى عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «تبدل الأرض غير الأرض والسموات، فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظى، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم يزجر الله الخلق زجرة، فإذا هم فى هذه المبدلة»(١١).

وقوله: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ﴾ أى: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى: الذى

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت، أ: «المؤمن». (٣) فى أ: «قدميه».
(٤) فى ت: «يوم القيامة كلها». (٥) فى ت: «ابن سكن». (٦) زيادة من ت، أ.
(٧) فى ت: «يرسخ»، وفى أ: «يرشح».
(٨) فى ت: «فقالوا».
(٩) تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٤، ١٦٥).
(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٤٨٩) ولفظه: «فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً» رواه من طريق بشر أبى عبد الله، عن بشير بن مسلم، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً، وقد ضعف هذا الحديث جماعة من الأئمة. انظر أقوالهم فى: السلسلة الضعيفة برقم (٤٧٨).
(١١) سبق تخريج الحديث عند تفسير سورة الأنعام.

قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب، وخضعت له الألباب.

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ** ﴾، وتبرز الخلائق لديَّانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم، ﴿ **مُّقَرَّنِينَ** ﴾ أى: بعضهم إلى بعض، قد جمع بين النظراء أو الأشكال[1] منهم، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ** ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال: ﴿ **وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ** ﴾ [التكوير: ٧]، وقال: ﴿ **وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا** ﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿ **وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ** ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨].

والأصفاد: هى القيود، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والأعمش، وعبد الرحمن بن زيد. وهو مشهور فى اللغة، قال عمرو بن كلثوم.

فَآبُوا[2] بالثياب وبالسّبايا ... وأُبْنَا بالمُلُوك[3] مُصَفَّدينا[4]

وقوله: ﴿ **سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ** ﴾ أى: ثيابهم التى يلبسونها عليهم من قطران، وهو الذى تُهنأ به الإبل، أى: تطلى، قاله قتادة. وهو ألصق شيء بالنار.

ويقال فيه: «قَطِران»، بفتح القاف وكسر الطاء، وبفتح القاف وتسكين الطاء، وبكسر القاف وتسكين الطاء، ومنه قول أبى النجم.

كأنّ قِطْراناً إذَا تَلاهَا ... تَرْمى[5] به الرّيح إلى مَجْراها[6]

وكان ابن عباس يقول: القَطران هو: النحاس المذاب، وربما قرأها: «سَرَابيلهم من قَطِران» أى: من نحاس حار قد انتهى حره. وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَيْر، والحسن، وقتادة.

وقوله: ﴿ **وَتَغْشَىٰ[7] وُجُوهَهُمُ النَّارُ** ﴾، كقوله: ﴿ **تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن إسحاق، أنبأنا أبان بن يزيد، عن يحيى بن أبى

---

(١) فى ت: «النظر والأشكال».

(٢) فى ت: «فأتوا».

(٣) فى ت: «وابنا الملوك»، وفى أ: «وأبناء الملوك».

(٤) البيت فى تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٧).

(٥) فى ت: «يرمى».

(٦) البيت فى تفسير الطبرى (١٣/ ١٦٧).

(٧) فى ت: «ويغشى».

كثير، عن زيد، عن أبي سلام، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من أمر الجاهلية لا يُتْرَكن(١): الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، والنائحة(٢) إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قَطران، ودرْع من جرَب». انفرد بإخراجه مسلم(٣).

وفي حديث القاسم، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «النائحة إذا لم تتب، توقف في طريق(٤) بين الجنة والنار، وسرابيلها من قطران، وتغشى وجهها النار»(٥).

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ أي: يوم(٦) القيامة، كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يحتمل أن يكون كقوله(٧) تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، ويحتمل أنه في حال محاسبته(٨) لعبده سريع النَّجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق(٩) بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: [إحصاء](١٠).

ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)﴾.

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجان، كما قال في أول السورة: ﴿الر. كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ أي: ليتعظوا(١١) به، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو(١٢)، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: ذوو العقول.

---

(١) في ت: «لابد لهن»، وفي أ: «لا يزكهن».

(٢) في أ: «والنابحة».

(٣) المسند (٥/ ٣٤٢) وصحيح مسلم برقم (٩٣٤).

(٤) في ت: «الطريق».

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٣٨) من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم ـ وكلهم ضعفاء ـ عن أبي أمامة به. وقد قال ابن حبان: «إذا جاء الحديث من طريق عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد، عن القاسم، فهو مما صنعته أيديهم».

(٦) في ت، أ: «أي يقسم يوم».

(٧) في ت: «قوله».

(٨) في ت: «محسباته».

(٩) في ت: «الخلائق».

(١٠) زيادة من ت، أ.

(١١) في ت، أ: «يتعظوا».

(١٢) في ت، أ: «إلا الله».

[تفسير] سورة إبراهيم عليه السلام

[وهي مكية]

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ (١) ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ (٢) ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ (٣)

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور .

﴿ **كتاب أنزلناه إليك** ﴾ أي : هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد ، وهو القرآن العظيم ، الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء ، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض ، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم . ﴿ **لتخرج**[١] **الناس من الظلمات إلى النور** ﴾ أي : إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب ؛ لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد ، كما قال تعالى : ﴿ **الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ **هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾ الآية . وقوله : ﴿ **بإذن ربهم** ﴾ أي : هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿ **إلى صراط العزيز الحميد** ﴾ أي : العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب ، بل هو القاهر لكل ما سواه ﴿ **الحميد** ﴾ أي : المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه ، الصادق في خبره . وقوله : ﴿ **الله الذي له ما في السموات وما في الأرض** ﴾ قرأه بعضهم مستأنفًا مرفوعًا[٢] ، وقرأه آخرون على الإتباع صفة للجلالة[٣] ؛ كقوله تعالى : ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا الذي له ملك السموات والأرض** ﴾ الآية . وقوله : ﴿ **وويل للكافرين من عذاب شديد** ﴾ أي : ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك

---

[١] - في خ : « ليخرج » .

[٢] - وهي قراءة نافع وابن عامر .

[٣] - وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم وحمزة والكسائي .

يا محمد وكذبوك . ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا علىٰ الآخرة ، أي : يقدمونها ويؤثرونها عليها ، ويعملون للدنيا ، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم ﴿ **ويصدون عن سبيل الله** ﴾ وهي اتباع الرسل ﴿ **ويبغونها عوجًا** ﴾ أي : ويحبون أن يكون[١] سبيل الله عوجًا مائلة عائلة ، وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها ولا من خذلها ، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل ، وضلال بعيد من الحق ، لا يرجىٰ لهم - والحالة هذه - صلاح .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

هذا من لطفه تعالىٰ بخلقه أنه يرسل إليهم رسلًا منهم بلغاتهم ؛ ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم ، كما قال[٢] الإمام أحمد(١)[٣] : حدثنا وكيع ، عن عمر بن ذر ، قال : قال مجاهد عن أبي ذر قال : قال رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم : « **لم يبعث الله ، عز وجل ، نبيًا إلا بلغة قومه** » .

وقوله : ﴿ **فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء** ﴾ أي : بعد البيان وإقامة الحجة عليهم ، يضل تعالىٰ[٤] من يشاء عن وجه الهدىٰ ، ويهدي من يشاء إلىٰ الحق ﴿ **وهو العزيز**[٥] ﴾ الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ﴿ **الحكيم** ﴾ في أفعاله ، فيضل من يستحق الإضلال ، ويهدي من هو أهل لذلك . وقد كانت هذه سنته في خلقه ، أنه ما بعث نبيًا في أمة إلا أن يكون بلغتهم ، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته[٦] إلىٰ أمته دون غيرهم ، واختص محمد بن عبد الله رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، بعموم الرسالة إلىٰ سائر الناس ، كما ثبت في الصحيحين(٢) عن جابر ؛ قال : قال رسول الله ، صلىٰ الله عليه وآله وسلم : « **أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ؛ نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلىٰ قومه خاصة[٧] وبعثت إلىٰ الناس عامة** » . وله

(١) - **إسناده ضعيف للانقطاع بين مجاهد وأبي ذر ، لكن الآية شاهدة له** . وهو في « المسند » (٢١٤٩٠) (١٥٨/٥) ، وذكره الهيثمي في « المجمع » (٤٦/٧) وقال : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح إلا أن مجاهدًا لم يسمع من أبي ذر .

(٢) - تقدم تخريجه [سورة الأعراف / آية ١٥٨] .

[١] - في ت : « تكون » .
[٢] - في ت : « روى » .
[٣] - زيادة من : ت .
[٤] - في ت : « الله » .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في خ : « رسالاته » .
[٧] - سقط من : ز ، خ .

شواهد من وجوه كثيرة(٣) ، وقال تعالىٰ : ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا** ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾

يقول تعالىٰ : وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب ؛ لتخرج الناس كلهم تدعوهم إلىٰ الخروج من الظلمات إلىٰ النور ، كذلك أرسلنا موسىٰ في بني إسرائيل بآياتنا .

قال مجاهد : وهي التسع الآيات .

﴿ **أن أخرج قومك من الظلمات** ﴾ أي : أمرناه قائلين له ﴿ **أخرج قومك من الظلمات إلىٰ النور** ﴾ أي : ادعهم إلىٰ الخير ؛ ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال ، إلىٰ نور الهدىٰ وبصيرة[١] الإيمان .

﴿ **وذكرهم بأيام الله** ﴾ أي : بأياديه ونعمه عليهم ، في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم ، وفلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المنّ والسلوىٰ ، إلىٰ غير ذلك من النعم ؛ قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد .

وقد ورد فيه الحديث المرفوع الذي رواه عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل في [مسند أبيه][٢] حيث قال(٤) : حدثني يحيىٰ بن عبد الله مولىٰ بني هاشم ، حدثنا محمد بن أبان الجعفي ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، [عن ابن عباس ، عن أبي بن كعب ، عن النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، في قوله تعالىٰ : ﴿ **وذكرهم بأيام الله** ﴾ قال : « **بنعم الله تبارك وتعالى** » .

---

(٣) - منها حديث حذيفة وحديث أبي هريرة عند مسلم ٤ ، ٥ - (٥٢٢ ، ٥٢٣) ، وحديث أبي موسى عند أحمد (٤/٤١٦) وقد تقدم تخريجه [سورة الأعراف /آية ١٥٨] .

(٤) - **إسناده ضعيف لضعف محمد بن أبان ، لكنه حديث صحيح** ، وهو في « المسند » (٢١٢٠٨) (٥/ ١٢٢) ، وأخرج مسلم (١٧٢) (٢٣٨٠) من حديث أُبَيّ أيضًا مرفوعًا « ... **أيامُ الله نَعْمَاؤهُ وبلاؤهُ ...**» .

---

[١] - في ز : « نصر » . [٢] - في ز ، خ : « مسنده » .

ورواه ابن جرير(٥)][١] وابن أبي حاتم من حديث محمد بن أبان ، به . ورواه عبد الله ابنه(٦)[٢] أيضًا موقوفًا وهو أشبه .

وقوله : ﴿ **إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور** ﴾ أي : إن[٣] فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون ، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين - لعبرةً لكل صبار ، أي : في الضراء ، ﴿ **شكورٍ**[٤] ﴾ أي : في السراء ، كما قال قتادة : نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر ، وإذا أعطي شكر .

[وكذا جاء ، في الصحيح][٥] (٧) عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « **إن أمر المؤمن كله عجب ، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له** » .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبرًا عن موسى حين ذكّر قومه بأيام الله عندهم ، ونعمه عليهم إذ أنجاهم

---

(٥) - كسابقه ، تفسير ابن جرير (١٨٤/١٣) وابن أبي حاتم (١٢٢١١/٧) ، وكذا أخرجه الطيالسي (٥٣٨) وعبد بن حميد في « المنتخب » (١٦٨) من طريق محمد بن أبان به ، وأخرجه النسائي في « التفسير » - كما في « التحفة » (٢٧/١) من طريق زيد بن أبي أنيسة عن إسحاق ، به .

(٦) - **إسناده ضعيف** ، « المسند » (٢١٢٠٩) (١٢٢/٥) من طريق محمد بن أبان أيضًا لكنه موقوف ، وقد صح مرفوعًا عند مسلم كما تقدم رقم (٣) .

(٧) - أخرجه مسلم كتاب الزهد والرقائق ، باب : المؤمن أمره كله خير (٦٤) (٢٩٩٩) من حديث صهيب . والمصنف أورده بمعناه وليس بلفظه . وانظر ما تقدم [سورة الأعراف / آية ٩٥] و [سورة يونس / آية ١٣] .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ . [٢] - في ز : « ابن » .

[٣] - سقط من : ز ، خ .

[٤] - في ز : « شكورا » . [٥] - في ت : كذا جاء وفي الصحيح .

من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حين كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم ويتركون إناثهم، فأنقذ الله بني إسرائيل من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿ **وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها.

وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿ **بلاء** ﴾ أي: اختبار عظيم، ويحتمل أن يكون المراد هذا، وهذا - والله أعلم - كقوله تعالىٰ: ﴿ **وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون** ﴾.

وقوله: ﴿ **وإذ تأذن ربكم** ﴾ أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم، ويحتمل أن يكون المعنىٰ: وإذ أقسم ربكم وآلىٰ بعزته وجلاله وكبريائه، [كما قال][١]: ﴿ **وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلىٰ يوم القيامة** ﴾.

وقوله][٢]: ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ أي: لئن شكرتم [نعم الله][٣] لأزيدنكم منها ﴿ **ولئن كفرتم** ﴾ أي: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ﴿ **إن عذابي لشديد** ﴾ وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم علىٰ كفرها.

وقد جاء في الحديث(٨): « **إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه** ».

وفي المسند أن رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، مر به سائل، فأعطاه تمرة فتسخطها ولم يقبلها، ثم مر به آخر فأعطاه إياها فقبلها، وقال: تمرة من رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، فأمر له بأربعين درهمًا، أو كما قال[٤] الإمام أحمد(٩):

حدثنا أسود، حدثنا عمارة الصيدلاني، عن ثابت، عن أنس قال: أتىٰ النبيَّ، صلىٰ

(٨) - تقدم تخريجه [سورة الرعد / آية ٣٩].

(٩) - « المسند » (١٥٥/٣، ٢٦٠)، ووقع في الموضع الثاني « ثنا إسرائيل » بين أسود وعمارة، وذكره الهيثمي في موضعين (١٠٥/٣) (١٨٥/٨) وقال في الأول منهما: « رواه أحمد والبزار باختصار وفيه عمارة ابن زاذان وهو ثقة وفيه كلام لا يضر، وبقية رجاله رجال الصحيح ». وقال في الموضع الثاني: « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عمارة بن زاذان وثقه جماعة وضعفه الدارقطني » قلت: وعمارة بن زاذان وإن وثقه غير واحد وكذا أحمد في رواية إلا أنه قال - فيما رواه عنه الأثرم، كما في « التهذيب » -: « يروي عن ثابت عن أنس أحاديث مناكير ».

[١] - في ت: « كقوله تعالى ».

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من: ز، خ.

[٣] - ما بين المعكوفتين في ت: « نعمتي عليكم ».

[٤] - مكرة في: ز.

اللَّه عليه وسلم ، سائل ، فأمر له بتمرة فلم يأخذها أو وَحْشَ[١] [٢] بها . قال : وأتاه آخر فأمر له بتمرة ، فقال : سبحان اللَّه ! تمرة من رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم . فقال للجارية : « **اذهبي[٣] إلىٰ أم سلمة فأعطيه الأربعين درهمًا التي عندها** » . تفرد به الإمام أحمد .

وعمارة بن زاذان وثقه ابن حبان وأحمد ويعقوب بن سفيان[٤] ، وقال ابن معين : صالح . وقال أبو زرعة : لا بأس به . وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به ، ليس بالمتين . وقال البخاري : ربما يضطرب[٥] في حديثه . وعن أحمد أيضًا أنه قال : روي عنه أحاديث منكرة . وقال أبو داود : ليس بذلك . وضعفه الدارقطني ، وقال ابن عدي : لا بأس به ، ممن يكتب حديثه .

[وقوله تعالىٰ][٦] : ﴿ **وقال موسىٰ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعًا فإن اللَّه لغني حميد** ﴾ أي : هو غني عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفره ؛ [كما قال تعالى][٧] : ﴿ **إن تكفروا فإن اللَّه غني عنكم ولا يرضىٰ لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم** ﴾ . [وقال تعالى][٨] : ﴿ **فكفروا وتولوا واستغنىٰ اللَّه واللَّه غني حميد** ﴾ .

وفي صحيح مسلم(١٠) : عن أبي ذر ، عن رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، فيما يَرْوِي عن ربه عز وجل أنه قال : « **يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحدٍ[٩] منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا ، يا عبادي ، لو أن أولكم و آخركم وإنسكم وجنكم ، [كانوا علىٰ أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا ، يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم][١٠] ، قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا ، إلا كما ينقص المخِيَطُ إذا أُدخِلَ في[١١] البحر** » . فسبحانه وتعالىٰ الغني الحميد !

(١٠) - صحيح مسلم ، كتاب : البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم (٥٥) (٢٥٧٧) .

[١] - في ز : « رحش » ، وغير واضحة في خ .
[٢] - أي : رماها .
[٣] - في ز ، خ : « اذهبوا » .
[٤] - في خ : « عثمان » .
[٥] - في ز ، خ : « يضرب » .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٧] - في ت : « كقوله » .
[٨] - في ت : « وقوله » .
[٩] - زيادة من : « مسلم » .
[١٠] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[١١] - سقط من : ت .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

قال ابن جرير(١١) : هذا من تمام قيل موسى لقومه . يعني : وتذكاره إياهم بأيام الله ، بانتقامه من الأمم المكذبة للرسل .

وفيما قال ابن جرير نظر ، والظاهر أنه خبر[١] مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ، فإنه قد قيل : إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصّه عليهم ذلك ، فلا شك[٢] أن تكون[٣] هاتان القصتان في التوراة ، والله أعلم . وبالجملة ، فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود ، وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل ، مما لا يحصي عددهم[٤] إلا الله عز وجل ﴿ **جاءتهم**[٥] **رسلهم بالبينات** ﴾ أي : بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات .

وقال [أبو إسحاق](١٢)[٦]، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله أنه قال في قوله : ﴿ **لا يعلمهم إلا الله** ﴾ : كذب النسابون .

وقال[٧] عروة بن الزبير : ما وجدنا أحدًا يعرف ما بعد معدّ بن عدنان .

---

(١١) - تفسير ابن جرير (١٨٧/١٢) .

(١٢) - وقد ورد مرفوعًا من حديث ابن عباس ، أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (٤٧/١) ، وابن عساكر في « التاريخ » (٣٩٢/١ مخطوط) من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن ابن عباس به ، وهشام متروك ، وأبوه كذاب .

---

[١] - في ز : « خبرا » .

[٢] - في ز : « ولاشك » .

[٣] - في خ : « يكون » .

[٤] - في خ : « عدده » .

[٥] - في ز ، خ : « أتتهم » .

[٦] - في (ز ، خ) « ابن إسحاق » ، والمثبت من « الطبقات لابن سعد » (٤٧/١) ، وتفسير ابن جرير (١٨٧/١٢) .

[٧] - في ت : « قال » .

وقوله : ﴿ **فردوا أيديهم في أفواههم** ﴾ اختلف المفسرون في معناه ؛ فقيل[١] : معناه أنهم أشاروا إلىٰ أفواه الرسل ، يأمرونهم بالسكوت عنهم لما دعوهم إلىٰ الله عز وجل .

وقيل : بل وضعوا أيديهم علىٰ أفواههم تكذيبًا لهم . وقيل : بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل .

وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة : معناه[٢] أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم .

قال ابن جرير(١٣) : وتوجيهه أن « في » هٰهنا[٣] بمعنىٰ الباء ، قال : وقد سمع من العرب : أدخلك الله بالجنة ، يعنون في الجنة ، وقال الشاعر :

وأَرْغَبُ فيها عن لَقِيطٍ وَرَهْطِهِ ولكِنَّني عن سِنْبِسٍ لستُ أَرْغَبُ

يريد : أرغب بها .

قلت : ويؤيد[٤] قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام ﴿ **وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب** ﴾ فكأن هذا [-والله أعلم-][٥] تفسير لمعنىٰ ﴿ **فردوا أيديهم في أفواههم** ﴾ .

وقال سفيان الثوري وإسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله في قوله ﴿ **فردوا أيديهم في أفواههم** ﴾ قال : عضوا عليها غضًّا[٦] .

وقال شعبة ، عن أبي إسحاق عن [هبيرة بن يريم][٧] ، عن عبد الله أنه قال ذلك أيضًا .

وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، ووجهه ابن جرير مختارًا له بقوله تعالىٰ عن المنافقين : ﴿ **وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ** ﴾ .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : لما سمعوا كلام الله عجبوا ، ورجعوا بأيديهم إلىٰ أفواههم .

(١٣) - تفسير ابن جرير (١٨٩/١٢) .

[١] - في ت : « قيل » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في ت : « هنا » .
[٤] - في خ : « ويريد » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٦] - في ت : « غَليظًا » .
[٧] - في ز ، خ : هبيرة بن مريم . وفي ت : أبي هبيرة بن مريم . وكل ذلك تحريف ، والصواب ما أثبتناه . وانظر ترجمته في تهذيب التهذيب [٢٦٣/٤] ط الرسالة

﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ يقولون : لا نصدقكم فيما جئتم به[١] ، فإن عندنا فيه شكا قويًا .

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

يخبر تعالىٰ عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة ، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة اللّٰه وحده لا شريك له ، قالت[٢] الرسل : ﴿ أفي اللّٰه شك ﴾ وهذا يحتمل شيئين ؛ أحدهما : أفي وجوده شك ؟! فإن الفِطَرَ شاهدة بوجوده ، ومجبولة علىٰ الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر[٣] السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب ، فتحتاج إلىٰ [النظر في الدليل][٤] الموصل إلىٰ وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلىٰ طريق معرفته بأنه : ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ الذي خلقهما وابتدعهما علىٰ غير مثال سبق ، فإن شواهد الحدوث[٥] والخلق والتسخير ظاهر عليهما ، فلابد لهما[٦] من صانع وهو اللّٰه لا إله إلا هو ، خالق كل شيء وإلهه ومليكه .

والمعنىٰ الثاني : في قولهم : ﴿ أفي اللّٰه شك ﴾ أي : أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك ، وهو الخالق لجميع الموجودات ، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ؛ فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم ، أو تقربهم من اللّٰه زلفىٰ .

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ز ، خ : « قال » .
[٣] - في خ : « البطن » .
[٤] - في ز : « الدليل في النظر » .
[٥] - في ز ، خ : « الحدث » .
[٦] - في ز : « لها » .

وقالت لهم رسلهم : [﴿ **يدعوكم ليغفر**][١] **لكم من ذنوبكم** ﴾ أي : في الدار الآخرة ﴿ **ويؤخركم إلىٰ أجل مسمىً** ﴾ [أي : في الدنيا ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعًا حسنًا إلىٰ أجل مسمىً**][٢] **ويؤت كل ذي فضل فضله** ﴾ الآية ، فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة ، بعد تقدير تسليمهم للمقام الأول ، وحاصل ما قالوه : ﴿ **إن أنتم إلا بشر مثلنا** ﴾ أي : كيف نتبعكم بمجرد قولكم ، ولما نر منكم معجزة ﴿ **فأتونا بسلطان مبين** ﴾ أي : خارق نقترحه عليكم .

﴿ **قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم** ﴾ أي : صحيح أنا بشر مثلكم في البشرية ﴿ **ولكن اللَّه يمنّ علىٰ من يشاء من عباده** ﴾ أي : بالرسالة والنبوة ﴿ **وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان** ﴾ علىٰ وفق ما سألتم ﴿ **إلا بإذن اللَّه** ﴾ أي : بعد سؤالنا إياه ، وإذنه لنا في ذلك ﴿ **وعلىٰ اللَّه فليتوكل المؤمنون** ﴾ أي : في جميع أمورهم .

ثم قالت الرسل : ﴿ **وما لنا أن لا نتوكل علىٰ اللَّه** ﴾ أي : وما يمنعنا من التوكل عليه وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿ **ولنصبرن علىٰ ما آذيتمونا** ﴾ أي : من الكلام السيئ والأفعال السخيفة ﴿ **وعلىٰ اللَّه فليتوكل المتوكلون** ﴾ .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

يخبر تعالىٰ عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم ، والنفي من بين أظهرهم ، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به : ﴿ **لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا**[٣] **أو لتعودن في ملتنا** ﴾ ، وكما قال قوم لوط : ﴿ **أخرجوا آل لوط من**

---

[١] - في خ : « الرسل تدعوكم ليغفر » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٣] - في ز ، خ : « أرضنا » .

قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ . وقال تعالىٰ إخبارًا عن مشركي قريش : ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذًا لا يلبثون خلافك إلا قليلًا** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر اللَّه واللَّه خير الماكرين** ﴾ .

وكان[١] من صنعه تعالىٰ أنه أظهر رسوله ونصره ، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارًا وأعوانًا ، وجندًا يقاتلون في سبيل اللَّه تعالى ، ولم يزل يرقيه تعالىٰ من شيء إلى شيء حتىٰ فتح له مكة التي أخرجته ، ومكّن له فيها ، وأرغم آناف[٢] أعدائه منهم ومن سائر أهل الأرض ، حتىٰ دخل الناس في دين اللَّه أفواجًا ، وظهرت كلمة اللَّه ودينه علىٰ سائر الأديان ، في مشارق الأرض ومغاربها ، في أيسر زمان ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **فأوحىٰ إليهم ربهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الأرض من بعدهم** ﴾ ، وكما قال تعالى : ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورن * وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **كتب اللَّه لأغلبن أنا ورسلي إن اللَّه لقوي عزيز** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون** ﴾ . ﴿ **وقال موسىٰ لقومه استعينوا باللَّه واصبروا إن الأرض للَّه يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها [وتمت كلمة ربك الحسنىٰ علىٰ بني إسرائيل بما صبروا]**[٣] **ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد** ﴾ أي : وعدي[٤] هذا[٥] لمن خاف مقامه بين يدي يوم القيامة ، وخشي من وعيدي وهو تخويفي وعذابي ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **فأما من طغىٰ * وآثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوىٰ [وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى]**[٦] ﴾ ، وقال : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ .

وقوله : ﴿ **واستفتحوا** ﴾ أي : استنصرت الرسل ربها علىٰ قومها ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : استفتحت الأمم علىٰ أنفسها ؛ كما قالوا : ﴿ **اللهم**

---

[١] - في خ : « فكان » .
[٢] - في ت : « أنوف » .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - في ت : « وعيدي » .
[٥] - سقط من : ر .
[٦] - سقط من : خ .

إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ .

ويحتمل أن يكون هذا مرادًا وهذا مرادًا ، كما أنهم استفتحوا علىٰ أنفسهم يوم بدر واستفتح رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، وانتصر[١] ، وقال اللّٰه تعالىٰ للمشركين : **﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم ﴾** الآية ، واللّٰه أعلم .

﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ أي : متجبر في نفسه ، [ ][٢] معاند للحق ، كقوله تعالىٰ : **﴿ ألقيا في جهنم كل كفار عنيد * مناع للخير معتد مريب * الذي جعل مع اللّٰه إلهًا آخر فألقياه في العذاب الشديد ﴾** .

وفي الحديث(١٤) : « **إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة فتنادي الخلائق ، فتقول : إني وكلت بكل جبار عنيد** ...» الحديث . خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء في الابتهال إلىٰ ربها العزيز المقتدر .

وقوله : **﴿ من ورائه جهنم ﴾** وراء هنا بمعنىٰ أمام ، كقوله تعالىٰ : **﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا ﴾** وكان ابن عباس يقرؤها : (وكان أمامهم ملك) أي : من وراء الجبار العنيد جهنم ، أي : هي[٣] له بالمرصاد ، يسكنها مخلدًا يوم المعاد ، ويعرض عليها غدوًّا وعشيًّا إلىٰ[٤] يوم التناد .

﴿ ويسقىٰ من ماء صديد ﴾ أي : في النار ، ليس له شراب إلا من حميم أو[٥] غساق ، فهذا حار في غاية الحرارة ، وهذا بارد في غاية البرد والنتن ، كما قال : **﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق * وآخر من شكله أزواج ﴾** .

قال مجاهد وعكرمة : الصديد من القيح والدم .

وقال قتادة : هو ما يسيل من لحمه وجلده . وفي رواية عنه : الصديد ما يخرج من جوف الكافر ، قد خالط القيح والدم .

---

(١٤) - لم أهتد إليه بهذا اللفظ ، وأخرج الترمذي ، كتاب : صفة جهنم ، باب : ما جاء في صفة النار (٢٥٧٤) من حديث أبي هريرة مرفوعًا : « تخرج عنق من النار يوم القيامة لها عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق ، يقول : إني وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد .... » وفي الباب عن أبي سعيد الخدري عند أحمد (٤٠/٣) وفي إسناده عطية العوفي وهو ضعيف .

---

[١] - في ت : « واستنصر » .

[٢] - ما بين المعكوفين في ت : عنيد .

[٣] - سقط من : خ .

[٤] - في ز : « أي » .

[٥] - في ت : « و » .

وفي حديث شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد[١] بن السكن ؛ قالت : قلت : يا رسول الله ، ما طينة الخبال ؟ قال : « **صديد أهل النار** »(١٥) . وفي رواية : « **عُصارة أهل النار** »(١٦) .

وقال الإمام أحمد(١٧) : حدثنا علي بن إسحاق ، أنبأنا عبد الله ، أنا صفوان بن عمرو ، عن عبيد الله بن بسر[٢] عن أبي أمامة ، رضي الله عنه ، عن النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، في قوله : ﴿ **ويسقىٰ من ماء صديد يتجرعه** ﴾ قال[٣] : « **يقرب إليه فيتكرهه**[٤] ، **فإذا أدني منه شوىٰ وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتىٰ يخرج من دبره** » . يقول الله تعالىٰ : ﴿ **وسقوا ماء حميمًا فقطع أمعاءهم** ﴾ ، ويقول : ﴿ **وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب**﴾ .

وهكذا رواه ابن جرير(١٨) : من حديث عبد الله بن المبارك ، به . ورواه هو وابن أبي حاتم : من حديث بقية بن الوليد ، عن صفوان بن عمرو ، به .

وقوله : ﴿ **يتجرعه** ﴾ أي : يتغصصه ويتكرهه ، أي : يشربه قهرًا وقسرًا[٥] ، لا يضعه في فيه[٦] حتىٰ يضربه الملك بمطراق من حديد ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ولهم مقامع من حديد** ﴾ .

---

(١٥) - **إسناده ضعيف لضعف شهر بن حوشب** ، أخرجه أحمد (٦/٤٦٠) ، والطبراني (٢٤/ رقم ٤٢٨) وانظر ما بعده .

(١٦) - **صحيح** ، أخرجه ابن ماجة (٣٣٧٧) ، وصححه ابن حبان (١٢/٥٣٥٧) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأخرجه أحمد (٥/١٧١) ، والبزار (٣/٢٩٢٦) ، والطبراني كما في « المجمع » (٥/٧٢) من حديث أبي ذر ، وفي إسناده ضعف وجهالة ، وحديث عبد الله بن عمرو عند أحمد (٢/١٨٩) ، وصححه الحاكم (٤/١٤٥ - ١٤٦) ووافقه الذهبي لكن لفظه « **صديد أهل النار** » .

(١٧) - **إسناده ضعيف لجهالة عبيد الله بن بسر** ، والحديث في « المسند » (٥/٢٦٥) ، وأخرجه أيضًا الترمذي (٢٥٨٦) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٦/١١٢٦٣) وغيرهم وقال الترمذي : « هذا حديث غريب وهكذا قال محمد بن إسماعيل - البخاري - عن عبيد الله بن بسر ولا نعرف عبيد الله بن بسر إلا في هذا الحديث » . وانظر ما بعده .

(١٨) - **كسابقه** ، تفسير ابن جرير (١٣/١٩٥ ، ١٩٦) والحديث في « الزهد » لابن المبارك (٣١٤/ زوائد نعيم بن حماد) وأخرجه أيضًا الطبراني في « الكبير » (٨/٧٤٦٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/٣٥١ ، ٣٦٨ - ٣٦٩) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي !! وأخرجه أبو نعيم في « الحلية » =

---

[١] - في ز ، خ : « زيد » .
[٢] - في (ز ، خ) : « بشر » .
[٣] - سقط من ز ، خ .
[٤] - في خ : فيكرهه .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - في ت : « فمه » .

﴿ **ولا يكاد يسيغه** ﴾ أي : يردده[١] لسوء لونه وطعمه وريحه ، وحرارته[٢] أو برده الذي لا يستطاع .

﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان** ﴾ أي : يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه .

قال ميمون بن مهران : من كل عظم وعصب وعرق ، وقال عكرمة : حتى من أطراف شعره .

وقال إبراهيم التيمي : من موضع كل شعرة ، أي : من جسده ، حتىٰ من أطراف شعره .

وقال ابن جرير : ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان** ﴾ أي : من أمامه [وخلفه . وفي رواية : و][٣] عن يمينه وشماله ، ومن فوقهم[٤] ومن تحت أرجلهم[٥] ، ومن سائر أعضاء جسده .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان** ﴾ قال : أنواع العذاب الذي يعذبه اللَّه بها يوم القيامة في نار جهنم ، وليس منها نوع إلا [يأتيه الموت][٦] منه لو كان يموت ، ولكن لا يموت ؛ لأن اللَّه تعالىٰ قال : ﴿ **لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها** ﴾ .

ومعنىٰ كلام ابن عباس ، رضي اللَّه عنهما[٧] : أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضىٰ أن يموت منه لو كان يموت ، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميّت** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ومن ورائه عذاب غليظ** ﴾ أي : وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ ، أي : مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهىٰ[٨] وأمر ، وهذا كما قال تعالىٰ عن شجرة الزقوم : ﴿ **إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم * طلعها كأنه رءوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم إن لهم لشوبًا من حميم * ثم إن مرجعهم**

= (١٨٢/٨) والبيهقي في « البعث والنشور » (٦٠٢) والبغوي في « شرح السنة » (٤٤٠٥) كلهم من طريق صفوان بن عمرو ، به ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٣٨/٤) إلى أبي يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه .

[١] - في ت : « يزدريه » .
[٢] - في خ : « لحرارته » .
[٣] - في ز ، خ : « ورائه » .
[٤] - في ت : « فوقه » .
[٥] - في ت : « أرجله » .
[٦] - في خ : « الموت يأتيه » .
[٧] - في خ : « عنه » .
[٨] - في ز : « وأوهى » .

لإلىٰ الجحيم ﴾ فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم ، وتارة في شرب حميم ، وتارة يردون إلىٰ جحيم[١] ، عياذًا باللَّه من ذلك ، وهكذا قال تعالىٰ : **﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾** وقال تعالىٰ : **﴿ إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون * كغلي الحميم * خذوه فاعتلوه إلىٰ سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم * إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾** ، وقال : **﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في سموم وحميم * وظل من يحموم * لا بارد ولا كريم ﴾** ، وقال تعالىٰ : **﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب * جهنم يصلونها فبئس المهاد * هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج ﴾** إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ تنوع العذاب عليهم ، وتكراره وأنواعه وأشكاله مما لا يحصيه إلا اللَّه عز وجل جزاءً وفاقًا **﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾** .

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

هذا مثل ضربه اللَّه تعالىٰ لأعمال الكفار : الذين عبدوا [مع الله][٢] غيره ، وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم علىٰ غير أساس صحيح ، فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها ، فقال تعالىٰ : **﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم ﴾** أي : مثل [أعمال الذين كفروا][٣] يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من اللَّه تعالىٰ ، لأنهم كانوا يحسبون أنهم [ ][٤] علىٰ شيء ، فلم يجدوا شيئًا ، ولا ألفوا حاصلًا إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة **﴿ في يوم عاصف ﴾** أي : ذي ريح شديدة[٥] عاصفة قوية ، [فلا يقدرون][٦] علىٰ [شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا ، إلا كما يقدرون علىٰ][٧] جمع هذا الرماد في هذا اليوم ، [كما قال تعالىٰ][٨] : **﴿ وقدمنا إلىٰ ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا ﴾** ، وقال[٩] تعالىٰ : **﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم اللَّه ولكن أنفسهم يظلمون ﴾** وقوله تعالىٰ : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذىٰ كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن باللَّه واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه**

---

[١] - في خ : « الجحيم » .
[٢] - في ت : « معه » .
[٣] - في ما بين المعكوفين في ت : « أعمالهم » .
[٤] - ما بين المعكوفين في ت : كانوا .
[٥] - سقط من : ز .
[٦] - في ت : « فلم يقدروا » .
[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٨] - في ت : « كقوله تعالى » .
[٩] - في ت : « وقوله » .

صلدًا لا يقدرون علىٰ شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ .

وقوله[١] في هذه الآية : ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ أي : سعيهم وعملهم علىٰ غير أساس ولا استقامة ، حتىٰ فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن قدرته علىٰ معاد الأبدان يوم القيامة بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس ، أفليس الذي قدر علىٰ خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها ، وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات ، والحركات المختلفات ، والآيات الباهرات ، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد ، وبراري وصحاري ، وقفار وبحار ، وأشجار ونبات وحيوان ، علىٰ اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألونها ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يَعْيَ بخلقهن بقادر علىٰ أن يحيي الموتىٰ بلىٰ إنه علىٰ كل شيء قدير ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلًا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا فإذا أنتم منه توقدون * أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر علىٰ أن يخلق مثلهم بلىٰ وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ .

وقوله : ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك علىٰ الله بعزيز ﴾ أي : بعظيم ولا ممتنع ، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره ، [أن يذهبكم ويأت بآخرين علىٰ غير صفتكم ؛ كما قال : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلىٰ الله والله هو الغني الحميد][٢] * إنْ يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك علىٰ الله بعزيز ﴾ ، وقال : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لايكونوا أمثالكم ﴾ ، وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ ، وقال : ﴿ إن يشأ يذهبكم [أيها الناس][٣] ويأت بآخرين، وكان الله علىٰ ذلك قديرًا ﴾ .

---

[١] - في خ : « وقال » .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالىٰ[١] : ﴿ **وبرزوا** ﴾ أي : برزت الخلائق كلها ؛ برها وفاجرها للّٰه الواحد القهار ، أي : اجتمعوا له في براز من الأرض ، وهو المكان الذي ليس[٢] فيه شيء يستر أحدًا .

﴿ **فقال الضعفاء** ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿ **للذين استكبروا** ﴾ عن عبادة اللّٰه وحده لا شريك له ، وعن موافقة الرسل فقالوا[٣] لهم : ﴿ **إنا كنا لكم تبعًا** ﴾ أي : مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ﴿ **فهل أنتم مغنون عنا من عذاب اللّٰه من شيء** ﴾ أي : فهل تدفعون عنا شيئًا من عذاب اللّٰه كما كنتم تعدوننا وتمنوننا ؟ فقالت القادة لهم : ﴿ **لو هدانا اللّٰه لهديناكم** ﴾ ولكن حق علينا قول ربنا ، وسبق فينا وفيكم قدر اللّٰه ، وحقت كلمة العذاب علىٰ الكافرين .

﴿ **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص** ﴾ أي : ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن أهل النار قال بعضهم لبعض : تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلىٰ اللّٰه عز وجل ، تعالوا نبك ونتضرع إلىٰ اللّٰه ، فبكوا وتضرعوا ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا : [تعالوا فإنما][٤] أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر ، تعالوا حتىٰ نصبر ، فصبروا صبرًا لم ير مثله ، فلم ينفعهم ذلك فعند ذلك قالوا : ﴿ **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص** ﴾ .

قلت : والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعًا فهل أنتم مغنون عنا نصيبًا من النار قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن اللّٰه قد حكم بين العباد** ﴾ ، وقال

---

[١] - سقط من : خ .

[٢] - في خ : « يستر » .

[٣] - في ت: « قالوا » .

[٤] - في ت : « إنما » .

تعالىٰ : ﴿ **قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتىٰ إذا اداركوا فيها جميعًا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابًا ضعفًا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون * وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ [**يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يٰليتنا أطعنا اللّٰه وأطعنا الرسولا * وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا**][١] **وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنًا كبيرًا**[٢] ﴾ .

وأما تخاصمهم في المحشر فقال تعالىٰ : ﴿ **ولو ترىٰ إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلىٰ بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدىٰ بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر باللّٰه ونجعل له أندادًا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون**[٣] **إلا ما كانوا يعملون** ﴾ .

وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالىٰ عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضىٰ اللّٰه بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس ، لعنه اللّٰه ، يومئذ خطيبًا ؛ ليزيدهم حزنا إلىٰ حزنهم ، وغبنا إلىٰ غبنهم ، وحسرة إلىٰ حسرتهم ، فقال : ﴿ **إن اللّٰه وعدكم وعد الحق** ﴾ أي : علىٰ ألسنة رسله ، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة ، وكان وعدًا

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ . [٢] - في ز ، خ : « كثيرًا » .

[٣] - في خ : « تجزون » .

حقًّا وخبرًا صدقًا ، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم ؛ كما قال الله[١] تعالىٰ : ﴿ **يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **وما كان لي عليكم من سلطان** ﴾ أي : ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به ﴿ **إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي** ﴾ بمجرد ذلك ، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة علىٰ صدق ما جاءوكم به ، فخالفتموهم فصرتم إلىٰ ما أنتم فيه ﴿ **فلا تلوموني** ﴾ اليوم ﴿ **ولوموا أنفسكم** ﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج ، واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلىٰ الباطل ﴿ **ما أنا بمصرخكم** ﴾ أي : بنافعكم فمنقذكم[٢] ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿ **وما أنتم بمصرخي** ﴾ أي : بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿ **إني كفرت بما أشركتمون من قبل** ﴾ .

قال قتادة : أي : بسبب ما أشركتمون من قبل .

وقال ابن جرير : يقول : إني جحدت أن[٣] أكون شريكًا للّٰه عز وجل .

وهذا الذي قاله هو الراجح ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون اللّٰه من لا يستجيب له إلىٰ يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ ، وقال : ﴿ **كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًّا** ﴾ .

وقوله : ﴿ **إن الظالمين** ﴾ أي : في إعراضهم عن الحق ، واتباعهم الباطل ﴿ **لهم عذاب أليم** ﴾ .

والظاهر من سياق الآية : أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا ، ولكن قد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم - وهذا لفظه - وابن جرير(١٩) : من رواية عبد الرحمن بن زياد ، حدثني دخين[٤] الحجري ، عن عقبة بن عامر ، عن رسول اللّٰه ،

(١٩) - **إسناده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن زياد** ، أخرجه ابن جرير (٢٠١/١٣) ، والبخاري في « خلق أفعال العباد » (٦٠٦) ، والدارمي (٢٨٠٧) ، وابن المبارك في « الزهد » (٣٧٤ - زوائد نعيم بن حماد) ، والطبراني في « الكبير » (٨٨٧/١٧) ، وضعف إسناده السيوطي في « الدر المنثور » (١٤٠/٤) ، وزاد نسبته إلى ابن مردويه وابن عساكر ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٣٧٩/١٠) : « رواه الطبراني وفيه عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم وهو ضعيف » .

[١] - زيادة من : خ .
[٢] - في خ : « ومنقذكم » .
[٣] - سقط من : « ت » .
[٤] - في خ : « دحين » .

صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « **إذا جمع الله الأولين والآخرين ، فقضى بينهم ففرغ من القضاء ، قال المؤمنون : قد قضى بيننا ربنا فمن يشفع لنا ؟ فيقولون : انطلقوا بنا إلى آدم** - وذكر نوحًا ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى - **فيقول عيسى : أدلكم على النبي الأمي ، فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم إليه ، فيثور من مجلسي من أطيب ريح شمها أحد قط ، حتى آتي ربي فيشفعني ، ويجعل لي نورًا من شعر رأسي إلى ظفر قدمي ، ثم يقول الكافرون : هذا قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ؟ ما هو إلا إبليس هو الذي أضلنا ؛ فيأتون إبليس فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، فقم أنت فاشفع لنا ؛ فإنك أنت أضللتنا ، فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط ، ثم [يعظم نحيبهم] ويقول الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم** » .

وهذا سياق ابن أبي حاتم . ورواه ابن المبارك ، عن رشدين[١] بن سعد ، عن عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم ، عن دخين[٢] ، عن عقبة به مرفوعًا .

وقال محمد بن كعب القرظي رحمه الله : لما قال أهل النار : ﴿ **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص** ﴾ قال لهم إبليس : ﴿ **إن الله وعدكم وعد الحق** ﴾ الآية ، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودوا : ﴿ **لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون** ﴾ .

وقال عامر الشعبي : يقوم خطيبان[٣] يوم القيامة على رءوس الناس ، يقول الله تعالى لعيسى ابن مريم : ﴿ **أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله** ﴾ ؟ - إلى قوله - ﴿ **قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم** ﴾ قال : ويقوم إبليس ، لعنه الله ، فيقول : ﴿ **ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي** ﴾ الآية .

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال ، وأن خطيبهم إبليس ، عطف بحال[٤] السعداء [وأنهم يدخلون يوم القيامة][٥] جنات تجري من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ﴿ **خالدين فيها** ﴾ ماكثين أبدًا لا يحولون ولا يزولون

---

[١] - في ز : « رشد » .

[٢] - في خ : « دحين » .

[٣] - في ز : « خطبتان » .

[٤] - في ت : « بمآل » .

[٥] - في ت : « وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

﴿ بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام ﴾ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ حتىٰ إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ ويلقون فيها تحية وسلاما ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد للّه رب العالمين ﴾ .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ مثلًا كلمة طيبة ﴾ شهادة أن لا إله إلا اللّه ﴿ كشجرة طيبة ﴾ وهو المؤمن ﴿ أصلها ثابت ﴾ يقول : لا إله إلا اللّه في قلب المؤمن ﴿ وفروعها في السماء ﴾ يقول : يرفع بها عمل المؤمن إلىٰ السماء .

وهكذا[١] قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وغير واحد : إن ذلك عبارة عن المؤمن وقوله الطيب وعمله الصالح ، وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت ، وصباح ومساء .

وهكذا رواه السدي ، عن مرة ، عن ابن مسعود قال : هي النخلة .

وشعبة ، عن معاوية بن قرة ، عن أنس : هي النخلة .

وحماد بن سلمة ، عن شعيب بن الحَبْحاب ، عن أنس : أن رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، أُتي بقناع[٢] بُسْر فقرأ ﴿ مثلًا[٣] كلمة طيبة كشجرة طيبة ﴾ قال : « هي النخلة »(٢٠) .

---

(٢٠) - **رجاله ثقات** ، أخرجه النسائي في « التفسير » (١١٢٦٢/٦) بهذا اللفظ ، وبنحوه أخرجه الترمذي كتاب «التفسير» باب : ومن سورة إبراهيم عليه السلام (٣١١٨) ، وأبو يعلى (٤١٦٥/٧) - وعنه ابن حبان (٤٧٥/٢) - ، وابن جرير (٢٠٥/١٣) ، وابن أبي حاتم - ويأتي برقم (٢٤)- ، وصححه الحاكم على شرط مسلم (٣٥٢/٢) ووافقه الذهبي ، وقد أعل بالوقف فانظر ما بعده .

---

[١] - في خ : « هكذا » .

[٢] - القناع : الطبق يعمل من عُسُبِ النخل . [٣] - في ز ، خ : « ومثل » .

وروي من هذا الوجه ومن غيره عن أنس موقوفًا(٢١) ؛ وكذا نص عليه مسروق ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وغيرهم .

وقال البخاري(٢٢) : حدثنا عبيد بن إسماعيل ، عن أبي أسامة ، عن عبيد اللَّه ، عن نافع عن ابن عمر ؛ قال : كنا عند رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، فقال : « **أخبروني بشجرة تشبه - أو - كالرجل المسلم ، لا يتحاتُّ ورقها [لا صيفًا ولا شتاء ، و][١] تؤتي أكلها كل [حين بإذن ربها][٢]** » . قال ابن عمر : فوقع في نفسي أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئًا قال رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **هي النخلة** » . فلما قمنا قلت لعمر[٣] : يا أبتاه ، واللَّه لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة . قال : ما منعك أن تكلم[٤] ؟ [قلت : لم][٥] أركم تتكلمون[٦] ، فكرهت أن أتكلم ، أو أقول شيئًا ، قال عمر : لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا .

وقال أحمد(٢٣) : حدثنا سفيان ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قال : صحبت ابن عمر إلىٰ المدينة ، فلم أسمعه يحدث عن رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، إلا حديثًا واحدًا ، قال : كنا عند رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، فأتي بجُمَّار فقال : « **إن من الشجر شجرة مَثَلُها كمثل الرجل المسلم** » . فأردتُ أن أقول : هي النخلة ، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم فسكت[٧] ، فقال رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **هي النخلة** » أخرجاه .

(٢١) - كلام ابن كثير يوحي بأن حماد بن سلمة رواه موقوفًا ، ولم أقف على ذلك - والله أعلم - لكن أوقفه غير واحد عن شعيب أخرج ذلك الترمذي (عقب حديث ٣١١٨) ، وابن جرير (١٣/٢٠٥ ، ٢١١) ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٤/١٤٣) إلى عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والرامهرمزي في « الأمثال » ، وقال الترمذي : « وهذا أصح من حديث حماد بن سلمة ، وروى غير واحد مثل هذا موقوفًا ، ولا نعلم أحدًا رفعه غير حماد بن سلمة ، ورواه معمر وحماد بن زيد وغير واحد ولم يرفعوه » .

(٢٢) - صحيح البخاري كتاب : « التفسير » ، سورة إبراهيم (٤٦٩٨) ، والحديث عند مسلم : كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : مثل المؤمن مثل النخلة (٦٣ ، ٦٤) (٢٨١١) .

(٢٣) - **صحيح** ، « المسند » (٢/١٢) ، وأخرجه البخاري كتاب : العلم ، باب : الفَهْمِ في العلم (٧٢) ، ومسلم (٢٨١١) .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - في ت : « تتكلم » .
[٥] - في خ : « قال : ألم » .
[٦] - في ت : « تكلمون » .
[٧] - سقط من : ز ، خ .

وقال مالك وعبد العزيز(٢٤) : عن عبد اللّه بن دينار ، عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم ، يومًا لأصحابه : « **إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها مثل المؤمن** » . قال : فوقع الناس في شجر البوادي ، ووقع في قلبي أنها النخلة ، [فاستحييت حتىٰ قال رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم : « **هي النخلة** »][١] أخرجاه أيضًا .

وقال ابن أبي حاتم(٢٥) : حدثنا أبي حدثنا موسىٰ بن إسماعيل ، حدثنا أبان - يعني ابن يزيد[٢] العطار - حدثنا قتادة : أن رجلًا قال : يا رسول اللّه ، ذهب أهل الدثور[٣] بالأجور . فقال : « **أرأيت لو عمد إلىٰ متاع الدنيا ، فركب بعضها علىٰ بعض أكان[٤] يبلغ السماء ؟ أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء ؟** » قال : ما هو يا رسول اللّه ؟ قال : « **تقول لا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، وسبحان اللّه ، والحمد للّه ، عشر مرات في دبر كل صلاة ، فذاك أصله في الأرض وفرعه في السماء** » .

وعن ابن عباس ﴿ **كشجرة طيبة** ﴾ قال : هي شجرة في الجنة وقوله : ﴿ **تؤتي أكلها كل حين** ﴾ قيل[٥] : غدوة وعشيًا[٦] ، وقيل : كل شهر ، وقيل : [كل سنة شهرين][٧] ، وقيل : كل ستة أشهر ، وقيل : كل سبعة أشهر ، وقيل : كل سنة .

والظاهر من السياق : أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت ؛ من صيف أو شتاء ، أو ليل أو نهار ، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار ، في كل وقت وحين .

﴿ **بإذن ربها** ﴾ أي : كاملًا حسنًا كثيرًا طيبًا ﴿ **ويضرب اللّه الأمثال للناس لعلهم**

---

(٢٤) - **صحيح** ، طريق مالك عند أحمد (٦١/٢) ، والبخاري كتاب : العلم ، باب : الحياء في العلم (١٣١) ، والترمذي كتاب : الأمثال ، باب : ما جاء في مثل المؤمن القارئ للقرآن وغير القارئ (٢٨٧١) .
وطريق عبد العزيز عند أحمد (١٢٣/٢) ، ولم يخرج مسلم أيًا من الطريقين ، فعزو ابن كثير الحديث له سهو . والله تعالى أعلم .

(٢٥) - رجاله ثقات رجال الشيخين غير أنه مرسل ، ولبعض ألفاظه شاهد عند البخاري (٨٤٣) ومسلم (١٤٢) (٥٩٥) وغيرهما من حديث أبي هريرة مرفوعًا .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٢] - في خ : « زيد » .
[٣] - الدثور : جمع دثْر ، وهو المال الكثير .
[٤] - في ز : « لكان » ، خ : « فكان » .
[٥] - في خ : « قال » .
[٦] - في خ : « وعشية » .
[٧] - في ت : « كل شهرين » .

يتذكرون ﴾ .

وقوله تعالى[١] : ﴿ **ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة** ﴾ هذا مثل كفر الكافر[٢] ، لا أصل له ولا ثبات وشبه بشجرة الحنظل ، ويقال لها : الشريان[٣] ، [رواه شعبة ، عن معاوية ابن قرة ، عن أنس بن مالك « **أنها شجرة الحنظل**][٤] » .

وقال أبو بكر البزار الحافظ(٢٦) : حدثنا يحيىٰ بن محمد بن[٥] السكن ، حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع ، حدثنا شعبة ، عن معاوية بن قرة ، عن أنس - أحسبه رفعه - قال : ﴿ **مثلًا كلمة طيبة كشجرة طيبة** ﴾ قال : « **هي النخلة** » ﴿ **ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة** ﴾ قال : « **هي الشّرْيان**[٦] » .

ثم رواه عن محمد بن المثنى ، عن غندر عن شعبة ، عن معاوية عن أنس موقوفًا .

وقال ابن أبي حاتم(٢٧) : حدثنا أبي ، حدثنا موسىٰ بن إسماعيل ، حدثنا حماد - هو ابن سلمة - عن شعيب بن الحبحاب ، عن أنس بن مالك أن النبي ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، قال : « ﴿ **ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة** ﴾ **هي : الحنظلة** » . فأخبرت بذلك أبا العالية فقال : هكذا كنا نسمع .

ورواه ابن جرير(٢٨) : من حديث حماد بن سلمة ، به . ورواه أبو يعلىٰ في مسنده بأبسط من هذا فقال(٢٩) :

حدَّثنا غسان ، عن حماد ، عن شعيب ، عن أنس : أن رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، أتي بقناع عليه بُسْر فقال : ﴿ **ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها** ﴾ فقال : « **هي النخلة** » ﴿ **ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار** ﴾ قال : « **هي الحنظل**[٧] » قال

---

(٢٦) - رجاله ثقات مترجم لهم في « التهذيب » لكن الحديث أعل بالوقف ، فانظر ما تقدم برقم (١٧ ، ١٨) .

(٢٧) - **رجاله ثقات** ، انظر ما تقدم برقم (١٧ ، ١٨) .

(٢٨) - **كسابقه** ، تفسير ابن جرير (١٣/٢٠٥) ، وانظر السابق .

(٢٩) - **كسابقه** ، مسند أبي يعلى (٧/٤١٦٥) ، وانظر السابق .

---

[١] - سقط من : خ .

[٢] - في خ : « المكلف » .

[٣] - في خ : « الشربان » .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٥] - سقط من : خ .

[٦] - في ز : « الشربان » .

[٧] - في ت : « الحنظلة » .

شعيب : فأخبرت بذلك أبا العالية فقال : كذلك كنا نسمع .

وقوله : ﴿ **اجتثت** ﴾ أي : استؤصلت ﴿ **من فوق الأرض ما لها من قرار** ﴾ أي : لا أصل لها ولا ثبات ، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ، ولا يصعد للكافر عمل ، ولا يتقبل منه شيء .

يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

قال البخاري(٣٠) : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة ، أخبرني علقمة بن مرثد ، قال : سمعت سعد بن عبيدة ، عن البراء بن عازب رضي اللّٰه عنه ، أن رسول اللّٰه ، صلى اللّٰه عليه وسلم ، قال : « **المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا رسول اللّٰه ، فذلك قوله : ﴿ يثبت اللّٰه الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾** » .

ورواه مسلم أيضًا وبقية الجماعة كلهم : من حديث شعبة ، به(٣١) .

وقال الإمام أحمد(٣٢) : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن زاذان ، عن البراء بن عازب ؛ قال : خرجنا مع رسول اللّٰه ، صلى اللّٰه عليه وسلم ، في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ولمّا يُلْحَد ، فجلس رسول اللّٰه ، صلى اللّٰه عليه وسلم ، وجلسنا حوله وكأنّ على رءوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت[١] به في الأرض ، فرفع رأسه فقال : « **استعيذوا باللّٰه من عذاب القبر !** » . مرتين أو ثلاثًا ، ثم قال : « **إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء**

---

(٣٠) - صحيح البخاري كتاب : « التفسير » ، باب : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت** ﴾ (٤٦٩٩) .

(٣١) - أخرجه مسلم ، كتاب : الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر ، والتعوذ منه (٧٣) (٢٨٧١) . وأبو داود ، كتاب : السنة ، باب : في المسألة في القبر وعذاب القبر (٤٧٥٠) . والترمذي ، كتاب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة إبراهيم عليه السلام (٣١١٩). والنسائي ، كتاب : الجنائز ، باب : عذاب القبر (٤/١٠١ - ١٠٢) . وابن ماجة ، كتاب : الزهد ، باب : ذكر القبر والبلى (٤٢٦٩) .

(٣٢) - تقدم تخريجه [سورة الأعراف / آية ٤٠] .

---

[١] - في خ : « ينكث » .

بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتىٰ يجلسوا منه مدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت ، عليه السلام ، حتىٰ يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة ، اخرجي إلىٰ مغفرة من[١] اللّه ورضوان قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتىٰ يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت علىٰ وجه الأرض ، قال : فيصعدون بها فلا يمرون بها يعني علىٰ ملإ[٢] من الملائكة إلا قالوا : ما هذا[٣] الروح الطيب[٤] ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا[٥] يسمونه بها في الدنيا ، حتىٰ ينتهوا به إلىٰ السماء الدنيا ، فيستفتحون له فيفتح له ، فيشيعه[٦] من كل سماء مقربوها إلىٰ السماء التي تليها ، حتىٰ يُنتهىٰ بها إلىٰ السماء السابعة ، فيقول اللّه : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، وأعيدوه إلىٰ الأرض ، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ .

قال : فتعاد روحه [في جسده][٧] ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي اللّه . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام . فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول اللّه فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب اللّه فآمنت به وصدقت . فينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابًا إلىٰ الجنة . قال : فيأتيه من روحها[٨] وطيبها ، ويفسح له في قبره مد بصره ، قال ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول[٩] : أبشر بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء[١٠] بالخير . فيقول : أنا عملك الصالح . فيقول : [رب ؛ أقم الساعة ، رب ؛ أقم الساعة ، حتىٰ أرجع إلىٰ أهلي ومالي][١١] .

قال : وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه [من السماء ملائكة] سود الوجوه ، معهم المُسوح ، فيجلسون منه مدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت [حتى يجلس][١٢] عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجي إلىٰ

---

[١] – سقط من : خ .
[٢] – في ز ، خ : « ملك » .
[٣] – في خ : « هذه » .
[٤] – سقط من : ز ، خ .
[٥] – سقط من : ز .
[٦] – سقط من : خ .
[٧] – ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٨] – في خ : « ريحها » .
[٩] – في خ : « ويقول » .
[١٠] – في ت : « الذي يأتي » .
[١١] – ما بين المعكوفتين غير مكررة في المسند .
[١٢] – في خ : « فيجلس » .

سخط من اللّه وغضب . قال : فتفرق[١] في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السّفود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتىٰ يجعلوها في تلك المسوح ، وتخرج[٢] منها كأنتن ريح جيفة وجدت علىٰ وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها علىٰ ملإ من الملائكة إلا قالوا : [ما هذا الروح الخبيث][٣] ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التي [كانوا يسمونه][٤] بها في الدنيا ، [حتىٰ ينتهىٰ بها إلىٰ السماء الدنيا][٥] ، فيستفتح له فلا يفتح له . ثم قرأ رسول اللّه ، صلىٰ اللّه عليه وسلم : ﴿ لا[٦] تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتىٰ يلج الجمل في سم الخياط ﴾ فيقول اللّه : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلىٰ ، فتطرح روحه طرحًا . ثم قرأ : ﴿ ومن يشرك باللّه فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ .

فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له : من ربك ؟ فيقول هاه هاه ، لا أدري . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري . فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري . فينادي مناد من السماء : أن كذب عبدي[٧] فافرشوه من النار ، وافتحوا له بابًا إلىٰ النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتىٰ تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوءك ، هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول : ومن أنت فوجهك الوجه[٨] يجيء بالشر ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : رب ؛ لا تقم الساعة » .

ورواه أبو داود : من حديث الأعمش ، والنسائي وابن ماجه : من حديث المنهال بن عمرو ، به .

وقال[٩] الإمام أحمد(٣٣) : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن يونس بن خباب[١٠] ،

---

(٣٣) - إسناده ضعيف وهو حديث صحيح ، « المسند » (٤/٢٩٥ - ٢٩٦) ، ويونس بن خباب ، قال البخاري : « منكر الحديث » ، وقال ابن معين : لا شيء ، وقال أبو حاتم : مضطرب الحديث ، ليس بالقوي ، وقال النسائي : ليس بثقة ، لكن تابعه الأعمش كما في الحديث السابق . وقد تقدم تخريج =

---

[١] - في ز : « فيفرق » .
[٢] - في خ : « ويخرج » .
[٣] - في ت : « ما هذه الروح الخبيثة » .
[٤] - في ت : « كان يُسمىٰ » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٦] - في خ : « فلا » .
[٧] - سقط من : ز ، خ .
[٨] - سقط من : خ .
[٩] - مكانها بياض في : « ز » ، في خ : « قال » .
[١٠] - في ز ، خ : « حبيب » .

عن المنهال بن عمرو ، عن زاذان ، عن البراء بن عازب ، رضي اللَّه عنه ، قال : خرجنا مع رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، إلىٰ جنازة ... فذكر نحوه ، وفيه : « **حتى إذا خرج[١] روحه صلىٰ عليه[٢] كل ملك بين السماء والأرض ، [وكل ملك في السماء][٣] ، وفتحت أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم [يدعون إلى اللَّه][٤] عز وجل أن يعرج بروحه من قِبَلِهم** » .

وفي آخره : « **ثم يقيض له أعمىٰ أصم أبكم ، وفي يده مرزبة لو ضُرب بها جبل[٥] كان[٦] ترابًا ، فيضربه ضربة فيصير ترابًا ، ثم يعيده اللَّه عز وجل كما كان ، فيضربه ضربة أخرىٰ ، فيصيح صيحة يسمعها[٧] كل شيء إلا الثقلين** » . قال البراء : ثم يفتح له باب إلىٰ النار ، ويمهد له[٨] [من فرش][٩] النار .

وقال سفيان الثوري(٣٤) : عن أبيه ، عن خيثمة ، عن البراء في قوله تعالىٰ : ﴿ **يثبت اللَّه الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ قال : عذاب القبر .

وقال المسعودي(٣٥) ، عن عبد اللَّه بن مخارق ، عن أبيه ، عن عبد اللَّه قال : إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره ، فيقال له : من[١٠] ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ فيثبته اللَّه ، فيقول : ربي اللَّه ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم . وقرأ عبد اللَّه : ﴿ **يثبت اللَّه الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ .

وقال الإمام عبد بن حميد رحمه اللَّه في مسنده(٣٦) : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن ، عن[١١] قتادة ، حدثنا أنس بن مالك ؛ قال : قال رسول اللَّه ،

=طريق يونس والأعمش وطرق أخرى في [سورة الأعراف / ٤٠] .

(٣٤) - أخرجه مسلم (٧٤) (٢٨٧١) ، والنسائي (١٠١/٤ - ١٠٢) .

(٣٥) - أخرجه الطبرى في تفسيره (١٤٤/١٣) ، والطبراني في « الكبير » (٩١٤٥/٩) ، والبيهقي في « عذاب القبر » (٩) ، والمسعودي ثقة ، لكنه اختلط ، ويشهد له السابق .

(٣٦) - **صحيح** ، « المنتخب » لعبد بن حميد (١١٨٠) ، وانظر ما بعده .

---

[١] - في ت : « خرجت » .
[٢] - في خ : « الله » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٤] - في ت : « يدعون الله » .
[٥] - في ز : « جبلا » .
[٦] - في ت : « لكان » .
[٧] - في خ : « فيسمعه » .
[٨] - سقط من : ز .
[٩] - في خ : « فراش » .
[١٠] - في خ : « ما » .
[١١] - في ز : « بن » .

صلى الله عليه وسلم : « **إن العبد إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع نعالهم**[١] ، **قال : فيأتيه ملكان فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ قال : فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله . قال : فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار ، قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة** » . قال [نبي الله][٢] ، صلى الله عليه وسلم : « **فيراهما**[٣] **جميعًا** » . قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعًا ، ويملأ عليه خضرًا إلى يوم القيامة .

رواه مسلم عن عبد بن حميد ، به . وأخرجه النسائي : من حديث يونس بن محمد المؤدب ، به(٣٧) .

وقال الإمام أحمد(٣٨) : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن ابن جريج ، أخبرني أبو الزبير : أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتاني القبر ؟ فقال : سمعت [رسول الله][٤] ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : « **إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ، فإذا أدخل المؤمن قبره ، وتولى عنه أصحابه ، جاءه ملك شديد الانتهار ، فيقول له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ [فيقول المؤمن : أقول]**[٥] **: إنه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وعبده . فيقول له الملك : انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار ، قد أنجاك الله منه ، وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من**[٦] **الجنة . فيراهما كليهما ، فيقول المؤمن : دعوني أبشر أهلي . فيقال له : اسكن . وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله ، فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري ، أقول كما**[٧] **يقول الناس . فيقال**

---

(٣٧) - أخرجه مسلم ، كتاب : الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : عرض مقعد الميت من الجنة أو النار ... (٧٠) (٢٨٧٠) ، والنسائي ، كتاب : الجنائز ، باب : المسألة في القبر (٩٧/٤) .

وأخرجه البخاري : كتاب الجنائز ، باب : الميت يسمع خفق النّعال (١٣٣٨) ، ومسلم (٧١) (٢٨٧٠) ، وأبو داود ، كتاب : الجنائز ، باب : المشي في النعل بين القبور (٣٢٣١) ، والنسائي (٩٦/٤ - ٩٧) . من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به نحوه .

(٣٨) - هكذا أورد الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - هذا الحديث بهذا الإسناد ، لكن ورد هذا الحديث في « المسند » (٣٤٦/٣) وأطرافه لابن حجر (١٨٠٥/٢) وفي كتاب السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد ، ومن طريق أبيه - ورد الإسناد هكذا : حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن أبي الزبير أنه سأل جابر بن عبد الله ... فذكره ، وهذا إسناد ضعيف من أجل ابن لهيعة ، ثم وقفت على هذا الحديث من طريق =

---

[١] - في خ : « أنعالهم » .
[٢] - ما بين المعكوفتين في ت : « النبي » .
[٣] - في ز ، خ : « فرآهما » .
[٤] - في خ : « النبي » .
[٥] - في ت : « فأما المؤمن فيقول » .
[٦] - في خ : « في » .
[٧] - في المسند ما .

له : لا دريت ، هذا مقعدك الذي كان لك من الجنة ، قد أبدلت مكانه مقعدك من النار » .

قال جابر : فسمعت النبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، يقول : « **يبعث كل عبد في القبر علىٰ ما مات ، المؤمن علىٰ إيمانه ، والمنافق علىٰ نفاقه** » .

إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه .

وقال الإمام أحمد(٣٩) حدثنا أبو عامر ، حدثنا عباد بن راشد ، عن داود بن أبي هند ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد الخدري قال : شهدنا مع رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، جنازة ، فقال رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **يا أيها الناس ، إن هذه الأمة تبتلىٰ في قبورها ، فإذا الإنسان دفن ، وتفرق عنه أصحابه ، جاءه ملك في يده مطراق ، فأقعده قال[١] : ما تقولَ في هذا الرجل ؟ فإن كان مؤمنًا قال : أشهد أن لا إله إلا اللَّه ، وأشهد أن محمدًا [عبده ورسوله][٢] . فيقول له : صدقت . ثم يفتح له بابًا إلىٰ النار ، فيقول : كان هذا منزلك لو كفرت بربك ، فأما إذ آمنت فهذا منزلك . فيفتح له بابًا إلىٰ الجنة ، فيريد أن ينهض إليه ، فيقول له : اسكن . ويفسح له في قبره . وإن كان كافرًا أو منافقًا فيقول له : ما تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئًا ، فيقول : لا دريت ولا تليت ولا اهتديت . ثم يفتح له بابًا إلىٰ الجنة ، فيقول له[٣] : هذا منزلك لو آمنت بربك ، فأما إذ كفرت به فإن اللَّه عز وجل أبدلك به هذا . فيفتح له بابًا إلىٰ النار ، ثم يقمعه قمعة بالمطراق ، [فيصيح صيحة][٤] يسمعها خلق اللَّه عز وجل كلهم غير الثقلين** » فقال بعض القوم : يا رسول اللَّه ، ما أحد يقوم عليه

= ابن لهيعة أيضًا عند الطبراني في « الأوسط » (٩٠٧٦/٩) وابن أبي زمنين في « أصول السنة » رقم (٨١) ، وذكره الهيثمي في « المجمع » (٥١/٣) وقال : « رواه أحمد والطبراني في الأوسط وفيه ابن لهيعة ، وفيه كلام ، وبقية رجاله ثقات » . ولعل هذا يؤكد سهو الحافظ ابن كثير في هذا الإسناد ، والله تعالى أعلم وأخرج مسلم في صحيحه (٨٣) (٢٨٧٨) من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال : « سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول : « **يبعث كل عبد على ما مات عليه** » وانظر ما تقدم [سورة الأعراف / آية ٣٠] .

(٣٩) – **إسناده حسن** ، « المسند » (١١٠١٣) (٣/٣ – ٤) ، وأخرجه أيضًا ابن أبي عاصم في « السنة » (٨٦٥) ، وابن جرير في تفسيره (٢١٤/١٣) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٣/٥٠ – ٥١) : « رواه أحمد والبزار ... ورجاله رجال الصحيح » .

وقوله : « **إن هذه الأمة تبتلى في قبورها** » في صحيح مسلم (٦٧) (٢٨٦٧) من حديث أبي سعيد الخدري عن زيد بن ثابت .

---

[١] – في ت : « فقال » .

[٢] – في خ : « رسول الله » .

[٣] – سقط من ت .

[٤] – ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

ملك في يده مطراق إلا هَبِلَ[١] عند ذلك . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت** ﴾ » .

وهذا أيضًا إسناد لا بأس به ، فإن عباد بن راشد التميمي روى له البخاري مقرونًا ، ولكن ضعفه بعضهم .

وقال الإمام أحمد(٤٠) : حدثنا حسين بن محمد ، عن ابن أبي ذئب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سعيد بن يسار ، عن أبي هريرة ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال[٢] : « **إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح ، قالوا[٣] : اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان . قال : فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان . فيقولون : مرحبًا بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان . قال : فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السوء قالوا : اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان . فيقال : لا مرحبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة فإنه [لا يفتح] لك أبواب السماء ، فيرسل من السماء ، ثم يصير إلى القبر ، فيجلس الرجل الصالح** » فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول - ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول .

ورواه النسائي وابن ماجه : من طريق ابن أبي ذئب بنحوه .

وفي صحيح مسلم(٤١) : عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : إذا[٤] خرجت روح العبد المؤمن ، تلقاها ملكان يصعدان بها . قال حماد : فذكر من طيب ريحها وذكر المسك . قال : ويقول أهل السماء : روح طيبة جاءت[٥] من قبل الأرض ، صلى الله عليك

(٤٠) - **إسناده صحيح** ، « المسند » (٣٦٤/٢) ، والحديث تقدم تخريجه [سورة الأنعام / آية ٦٢] .
(٤١) - صحيح مسلم كتاب : الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : عرض مقعد الميت من الجنة أو النار .. (٧٥) (٢٨٧٢) .

[١] - في ز ، « بدون إعجام » ، خ : « هدله » واستعار الهبل ههنا لفقد الميز والعقل مما يراه .
[٢] - زيادة من : ت . [٣] - في خ : « قال » .
[٤] - سقط من : ز . [٥] - في ز ، خ : « جاء » .

وعلىٰ جسد كنت تعمرينه ، فينطلق به إلىٰ ربه عز وجل ، فيقال[١] : انطلقوا به إلىٰ آخر الأجل . وإن الكافر إذا خرجت روحه . قال حماد : وذكر من نتنها وذكر لَعْنًا ، ويقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض ، قال[٢] : فيقال : انطلقوا به إلىٰ آخر الأجل . قال أبو هريرة : فردَّ رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، رَيْطَةً[٣] كانت عليه علىٰ أنفه هكذا .

وقال ابن حبان في صحيحه(٤٢) : حدثنا عمر بن محمد الهمداني ، حدثنا زيد بن أخزم[٤] ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثني أبي ، عن قتادة ، عن قسامة[٥] بن زهير ، عن أبي هريرة ، عن رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، قال : « **إن المؤمن إذا قُبِضَ أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : اخرجي إلىٰ روح اللّٰه ، فتخرج كأطيب ريح مسك ، حتىٰ إنهم لَيَتَاوَلُهُ بعضُهُم بعضًا يشمونه[٦] ، حتىٰ يأتون به باب السماء ، فيقولون : ما هذه[٧] الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض ؟ ! ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك ، حتىٰ يأتون به أرواح المؤمنين ، فلهم أشد فرحًا به من أهل الغائب بغائبهم ، فيقولون : ما فعل فلان ، فيقولون : دعوه حتىٰ يستريح فإنه كان في غم ، فيقول : قد مات ، أما أتاكم ؟ فيقولون : ذُهِبَ به إلىٰ أمه الهاوية ، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح ، فيقولون : اخرجي إلىٰ غضب اللّٰه ، فتخرج كأنتن ريح جيفة ، فيذهب به إلىٰ باب الأرض** » .

وقد روى أيضًا(٤٣) : من طريق همام بن يحيىٰ عن قتادة عن أبي الجوزاء ، عن أبي هريرة ، عن النبي ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، بنحوه قال : « **فيسأل : ما فعل فلان ؟ ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ قال : وأما الكافر فإذا قبضت نفسه وذهب بها إلىٰ باب الأرض ، تقول[٨] خزنة الأرض : ما وجدنا ريحًا أنتن من هذه ، فتبلُغ بها إلى الأرض**

(٤٢) - **إسناده صحيح** ، صحيح ابن حبان كتاب : الجنائز ، باب : ذكر الأخبار بأن الأرواح يعرف بعضها بعضًا بعد موت أجسامها (٣٠١٤/٧) ، وأخرجه أيضًا النسائي ، كتاب : الجنائز ، باب : ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه (٤/ ٨ - ٩) ، وصححه الحاكم (٣٥٣/١) ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا .

(٤٣) - **كسابقه** ، ابن حبان في صحيحه ، كتاب : الجنائز ، باب : ذكر الإخبار عما يُعْمَلُ بروح المؤمن والكافر إذا قُبِضَا (٣٠١٣/٧) ، وصححه الحاكم (٣٥٣/١) ، ووافقه الذهبي وهو كما قالا ، وانظر ما قبله .

---

[١] - في خ : « فيقول » .

[٢] - سقط من : ت .

[٣] - الريطة : كل ثوب لينٍ رقيق .

[٤] - في ز ، خ : « أخرم » .

[٥] - في ز : « قسام » .

[٦] - في خ : « يسمونه » .

[٧] - في ز : « هذا » .

[٨] - في خ : « يقول » .

السفلىٰ » .

قال قتادة : وحدثني رجل ، عن سعيد بن المسيب ، عن عبد اللَّه بن عمرو ؛ قال : أرواح المؤمنين تجمع بالجابيتين[١] ، وأرواح الكفار تجمع بِبَرَهُوتَ سبخةٌ بحضرموت [ ][٢] .

وقال الحافظ أبو عيسىٰ الترمذي ، رحمه اللَّه(٤٤) : حدثنا يحيىٰ بن خلف ، حدثنا بشر ابن المفضل ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **إذا قبر الميت - أو قال : أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير ، فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول ما كان يقول : هو عبد اللَّه ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا . ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين ، ثم ينوَّر له فيه ، ثم يقال له[٣] : نم . فيقول : أرجع إلىٰ أهلي فأخبرهم . فيقولان : نم كنومة العروس الذي[٤] لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتىٰ يبعثه اللَّه من مضجعه ذلك ، وإن كان منافقًا قال : سمعت الناس يقولون فقلت مثله ، لا أدري . فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك . ويقال[٥] للأرض : التئمي عليه ، فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه ، فلا يزال فيها[٦] معذبًا حتىٰ يبعثه اللَّه من مضجعه ذلك** » . ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

وقال حماد بن سلمة(٤٥) : عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ؛ قال : قال رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم : ﴿ **يثبت اللَّه الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ قال : « **ذاك إذا قيل له في القبر : من ربك ؟ وما دينك ؟ [ومن نبيك]**[٧] ؟ **فيقول : ربي اللَّه ، وديني الإِسلام ، ونبيي محمد ، جاءنا بالبينات**

(٤٤) - **إسناده قوي** ، « الجامع » للترمذي ، كتاب : الجنائز ، باب : ما جاء في عذاب القبر (١٠٧١) ، وأخرجه أيضًا ابن أبي عاصم في « السنة » (٨٦٤/٢) ، وقال الترمذي : « حديث حسن غريب » وصححه ابن حبان (٣١١٧/٧) وجوَّد إسناده الألباني في « الصحيحة » (١٣٩١/٣) إذ إن عبد الرحمن بن إسحاق - وهو العامري - تكلم فيه بعضهم .

(٤٥) - **إسناده حسن** ، أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢١٥/١٣) ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٥٠/٤) إلى ابن مردويه ، وبنحوه أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٤٦٢/٥) وفي إسناده ابن لهيعة .

[١] - في ت : « بالجابية » .

[٢] - في خ : « ثم يضيف عليه قبره » وضبب عليها في ز .

[٣] - سقط من : ز .

[٤] - سقط من : ز .

[٥] - في ت: « فيقال » .

[٦] - سقط من : خ .

[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

من عند اللَّه فآمنت به وصدقت . فيقال له : صدقت ، علىٰ هذا عشت ، وعليه مت ، وعليه تُبعث » .

وقال ابن جرير(٤٦) : حدثنا مجاهد بن موسىٰ والحسن بن محمد ، قالا : حدثنا يزيد ، أنا محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة [رضي اللَّه عنه ، عن النبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، قال : « **والذي نفسي بيده][١] ، إن الميت ليسمع خفق نعالهم[٢] حين يولون عنه مدبرين ، فإذا[٣] كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه ، والزكاة عن يمينه ، والصيام عن يساره ، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلىٰ الناس عند رجليه ، فيؤتى من عند[٤] رأسه فتقول الصلاة : ما قبلي مدخل ، فيؤتى [من][٥] عن يمينه فتقول الزكاة : ما قبلي مدخل ، فيؤتىٰ عن يساره فيقول الصيام : ما قبلي مدخل ، فيؤتي من[٦] عند رجليه فيقول[٧] فعل الخيرات : ما قبلي مدخل ، فيقال : اجلس ، فيجلس قد مثلت[٨] له الشمس قد دنت للغروب ، فيقال له : أخبرنا عما نسألك ، فيقول : [دعني ، دعني][٩] حتى أصلي ، فيقال له : إنك ستفعل ، فأخبرنا عما نسألك ، فيقول : عم[١٠] تسألوني ؟ فيقال : أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول فيه ؟ وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول : أمحمد ؟ فيقال له : نعم ، فيقول : أشهد أنه رسول اللَّه ، وأنه جاءنا بالبينات من عند اللَّه فصدقناه ، فيقال له : علىٰ ذلك حييت ، وعلىٰ ذلك مت ، [وعلى ذلك][١١] تبعث إن شاء اللَّه ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا وينوّر له فيه ، ويفتح له باب إلىٰ الجنة ، فيقال له : انظر إلىٰ ما أعد اللَّه لك فيها ، فيزداد غبطة وسرورًا[١٢] ، ثم تجعل نسمته في النسم الطيب : [وهي طير**

---

(٤٦) - **إسناده حسن** ، ابن جرير في تفسيره (١٣/٢١٥ - ٢١٦) ، وأخرجه أيضًا عبد الرزاق في « المصنف » (٣/٦٧٠٣) ، وابن أبي شيبة (٣/٢٥٨ - ٢٥٩) عن أبي هريرة موقوفًا ، وهو مرفوع عند الطبراني في « الأوسط » (٣/٢٦٣٠) ، وهناد في « الزهد » (١/٣٣٨) ، والبيهقي في « عذاب القبر » (٥٨) وحسن إسناده الهيثمي في « المجمع » (٣/٥٥) ، وصححه ابن حبان (٧/٣١١٣) ، والحاكم (١/ ٣٧٩ - ٣٨٠) ووافقه الذهبي ، وهو حسن فحسب ، للكلام المعروف في محمد بن عمرو ، وهو ابن علقمة بن وقاص الليثي .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز ، خ : « قال » .
[٢] - في خ : « نعالي » .
[٣] - في خ : « فإن » .
[٤] - في ت : « قبل » .
[٥] - سقط من خ .
[٦] - سقط من : ت .
[٧] - في ز : « فتقول » .
[٨] - في خ : « تمثلت » ، والمثبت من : ز .
[٩] - في ابن جرير : « دعوني » .
[١٠] - في خ : « وعم » .
[١١] - ما بين المعكوفتين في ت : « وعليه » .
[١٢] - سقط من : ز ، خ .

خُضْرٌ تُعلق][١] بشجر الجنة ، ويعادِ الجسد إلىٰ ما بدئ منه[٢] من التراب » . وذلك قول الله [عز وجل][٣] : ﴿ **يثبت اللَّه الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ .

رواه ابن حبان : من طريق المعتمر بن سليمان ، عن محمد بن عمرو ، وذكر جواب الكافر وعذابه .

وقال البزار(٤٧) : حدثنا سعيد بن بحر القراطيسي ، حدثنا الوليد بن القاسم ، حدثنا يزيد ابن كيسان ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة - أحسبه رفعه - قال : **« إن المؤمن ينزل به الموت ، ويعاين ما يعاين ، فيود لو خرجت - يعني نفسه - واللَّه يحب لقاءه ، وإن المؤمن يُصْعَدُ بِرُوحِهِ إلىٰ السماء ، فتأتيه أرواح المؤمنين فتستخبره عن معارفهم من أهل الأرض ، فإذا قال : تركت فلانًا في الأرض أعجبهم ذلك ، وإذا قال إن فلانًا قد مات ، قالوا : ما جيء به إلينا ، وإن المؤمن يجلس في قبره فيسأل من ربك[٤] ؟ فيقول : ربي اللَّه ، فيقول[٥] من نبيك ؟ فيقول : محمد نبيي ، فيقول[٦] : ما دينك ؟ قال : ديني الإسلام ، فيفتح له باب في قبره ، فيقول أو يقال : انظر إلىٰ مجلسك ، ثم يرىٰ القبر فكأنما كانت رَقدةً ، وإذا كان عدو اللَّه نزل به الموت ، وعاين ما عاين ، فإنه لا يحب أن تخرج روحه أبدًا ، واللَّه يبغض لقاءه . فإذا جلس في قبره - أو أجلس - يقال[٧] له : من ربك ؟ فيقول : لا أدري ، فيقال : لا دريت ، فيفتح له باب من[٨] جهنم ، ثم يضرب ضربة يسمع[٩] كل دابة إلا الثقلين ، ثم يقال له : نم كما ينام المنهوش »** قلت لأبي هريرة : ما المنهوش ؟ قال : الذي تنهشه الدَّوَابُّ والحيات ثم يضيق عليه قبره .

ثم قال : لا نعلم رواه إلا الوليد بن القاسم[١٠] .

---

(٤٧) - الحديث ذكره الهيثمي في « المجمع » (٣/٥٥ - ٥٦) وقال : « في الصحيح طرف منه ، رواه البزار ورجاله ثقات خلا سعيد بن بحر القراطيسي ؛ فإني لم أعرفه » ، وتعقبه ابن حجر في « مختصر الزوائد » (١/ ٥٩٦) فقال : « هو مُوثق ، ولم يتفرد به » فانظر ما قبله .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز : « في طير خضر يعلق » .

[٢] - سقط من خ .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٤] - في ز : « ربه » .

[٥] - في ت : « يقال » .

[٦] - في ت : « يقال » .

[٧] - في ز ، خ : « فقال » .

[٨] - في خ : « إلى » ، والمثبت من : ز .

[٩] - في ت : « تسمعها » .

[١٠] - في ز ، خ : « مسلم » .

وقال الإمام أحمد رحمه الله(٤٨) : حدثنا حجين بن المثنى ، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون ، عن محمد بن المنكدر قال : كانت أسماء - يعني بنت الصديق رضي الله عنها - تحدث عن النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قالت : قال : « **إذا دخل الإنسان [قبره ، فإن كان][١] مؤمنًا أحَفَّ به عمله ؛ الصلاةُ والصيامُ ، قال : فيأتيه الملكَ من نحو الصلاة فَتَرُدُّهُ ، ومن نحو الصيام فيرده ، قال : فيناديه : اجلس ، قال : فيجلس ، فيقول له : ماذا تقول في هذا الرجل ، يعني النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ؟ قال : من ؟ قال : محمد ، قال : أنا أشهد أنه رسول الله ، قال : [يقول][٢] وما يدريك ؟ أدركته ؟ قال : أشهد أنه رسول الله ، قال : يقول : علىٰ ذلك عشت ، وعليه مت ، وعليه تبعث ، وإن كان فاجرًا أو كافرًا جاءه الملك ليس بينه وبينه شيء يرده ، فأجلسه [فيقول له][٣] : ماذا تقول في هذا الرجل ؟ قال : أي رجل ؟ قال : محمد ، قال : يقول : والله ما أدري ، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته ، قال : فيقول له الملك : علىٰ ذلك عشت ، وعليه مت ، وعليه تبعث ، قال : وتسلط[٤] عليه دابة في قبره معها[٥] سوط ، ثمرته[٦] جمرة مثل عرق[٧] البعير ، تضربه ما شاء الله صماء[٨] لا تسمع صوته فترحمه** » .

وقال العوفي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، في هذه الآية قال : إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة ، فسلموا عليه وبشروه بالجنة ، فإذا مات مشوا مع جنازته ، ثم صلوا عليه مع الناس ، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله . [فيقال له : من رسولك ؟ فيقول : محمد ، صلىٰ الله عليه وسلم][٩] . فيقال له : ما شهادتك ؟ فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله . فيوسع له في قبره مد

(٤٨) - **إسناده صحيح** ، « المسند » (٢٧٠٨٨) (٦/٣٥٢) ، وأخرجه أيضًا الطبراني (٢٤/٢٨١) من طريق حجين بن المثنى به مختصرًا ، ومن طريق آخر عن أسماء (٢٤/٢٣٠) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٣/٥٤) : « .... رجال أحمد رجال الصحيح » .

وأخرجه أيضًا الطبراني في « الأوسط » (٢/١٣٤٧) حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة ، قال : نا أحمد بن عثمان به .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٢] - سقط من خ .
[٣] - في خ : يقول اجلس .
[٤] - في ز ، خ : « ويسلط » .
[٥] - في خ : « معه » .
[٦] - في خ : « تمرته » .
[٧] - كذا في ز ، خ ، وبعض مخطوطات المسند . ورسمت في جامع المسانيد لابن كثير : عرب . ولعل الصواب : غارب البعير . وهو ما بين سنامه إلى عنقه . والله أعلم .
[٨] - في خ : « مما » .
[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

بصره ، وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة فيبسطون أيديهم ، والبسط : هو الضرب . ﴿ **يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ عند الموت ، فإذا أدخل قبره أقعد ، فقيل له : من ربك ؟ فلم يرجع إليهم شيئًا ، وأنساه الله ذكر ذلك ، وإذا قيل : من الرسول الذي بعث إليك ؟ [لم يهتد][١] ولم يرجع إليهم[٢] شيئًا ﴿ **كذلك يضل الله الظالمين** ﴾ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودي[٣] ، حدثنا شريح بن مسلمة ، حدثنا إبراهيم بن يوسف ، عن أبيه ، عن أبي إسحاق ، عن عامر بن سعد البجلي ، عن أبي قتادة الأنصاري في قوله تعالىٰ : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ الآية ، قال : إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره ، فيقال له : من ربك ؟ فيقول : الله ، فيقال له : من نبيك ؟ فيقول : محمد بن عبد الله ، فيقال له ذلك مرات ، ثم يفتح له باب إلىٰ النار ، فيقال له : انظر إلىٰ منزلك في[٤] النار لو زغت ، ثم يفتح له باب إلىٰ الجنة ، فيقال له : انظر إلىٰ منزلك [من الجنة إذ][٥] ثبت ، [وإذا مات الكافر أجلس في قبره ، فيقال له : من ربك ؟ من نبيك ؟ فيقول : لا أدري ، كنت أسمع الناس يقولون ، فيقال له : لا دريت][٦] ، [ثم يفتح له باب][٧] [إلىٰ الجنة ، فيقال له : انظر إلىٰ منزلك لو ثبت][٨] ، [ثم يفتح له باب][٩] إلىٰ النار ، فيقال له : انظر إلىٰ منزلك إذ زغت ، فذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ .

وقال عبد الرزاق : عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ قال لا إله إلا الله ﴿ **وفي الآخرة** ﴾ المسألة في القبر .

وقال قتادة : أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ﴿ **وفي الآخرة** ﴾ في القبر ، وكذا روي عن غير واحد من السلف .

وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذي في كتابه « **نوادر الأصول** »(٤٩) : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن نافع ، عن ابن أبي فديك ، عن عبد الرحمن بن عبد الله ، عن سعيد بن

(٤٩) – في الأصل المائتان والخمسون في برالوالدين (٢٢٣/٢) في النسخة الغير مسندة .

[١] – في ز ، خ : « لم يهش » .
[٢] – في ز : « إليه » .
[٣] – في ز ، خ : « الأزدي » .
[٤] – في ت : « من » .
[٥] – ما بين المعكوفتين في ز ، خ : « لو » .
[٦] – ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٧] – ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٨] – ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٩] – ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

المسيب ، عن عبد الرحمن بن سمرة ، قال : خرج علينا رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، ذات يوم ونحن في مسجد المدينة ، فقال : « **إني رأيت البارحة عجبًا ؛ رأيت رجلًا من أمتي [جاءه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد عنه ، ورأيت أنَّ رجلًا من أمتي][1] قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلًا من أمتي قد[2] احتوشته الشياطين فجاءه ذكر اللّٰه فخلصه من بينهم ، ورأيت رجلًا من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلًا من أمتي يلهث عطشًا كلما ورد حوضًا منع منه فجاءه صيامه فسقاه وأرواه ، ورأيت رجلًا من أمتي والنبيون قعود حلقًا حلقًا كلما دنا لحلقة طردوه فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلىٰ جنبي ، ورأيت رجلًا من[3] أمتي من بين يديه ظلمة ، ومن خلفه ظلمة ، وعن يمينه ظلمة ، وعن شماله ظلمة ، ومن فوقه ظلمة ، ومن تحته ظلمة ، وهو[4] متحير فيها فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور ، ورأيت رجلًا من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته[5] صلة الرحم فقالت : يا معشر المؤمنين كلموه ، فكلموه ، ورأيت رجلًا من أمتي يتقي وهج النار وشررها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت سترًا علىٰ وجهه وظلًّا علىٰ رأسه ، ورأيت رجلًا من أمتي قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذاه من أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلًا من أمتي جاثيًا علىٰ ركبتيه بينه وبين اللّٰه حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله علىٰ اللّٰه عز وجل ، ورأيت رجلًا من أمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من اللّٰه فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه[6] ، [ورأيت رجلًا من أمتي][7] [قد خف ميزانه فجاءته أفراطه[8] فثقلوا ميزانه][9] ، [ورأيت رجلًا من أمتي][10] قائمًا علىٰ شفير جهنم فجاءه وجله من اللّٰه فاستنقذه من ذلك ومضىٰ ، ورأيت رجلًا من أمتي هوىٰ في النار فجاءته دموعه التي بكىٰ من خشية اللّٰه في الدنيا فاستخرجته من النار ، ورأيت رجلًا من أمتي قائمًا[11] علىٰ الصراط [يُرْعَدُ كما ترعد السعفة فجاء حسن ظنه باللّٰه فسكن رعدته ومضىٰ ، ورأيت رجلًا من أمتي علىٰ**

---

[1] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[2] - سقط من : ز ، خ .
[3] - سقط من: ز ، خ .
[4] - في ز : « فهو » .
[5] - في ز ، خ : « فجاءه » .
[6] - في خ : « عينه » .
[7] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[8] - جمع فَرَط ، وهو ما قدم من ولد . أي مات له أولاد صغار .
[9] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[10] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[11] - سقط من : خ .

الصراط][١] يزحف أحيانًا ويحبو أحيانًا فجاءته صلاته عليَّ فأخذت بيده فأقامته ومضىٰ علىٰ الصراط ، ورأيت رجلًا من أمتي انتهىٰ إلىٰ أبواب[٢] الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة » .

قال القرطبي بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه : هذا حديث عظيم ، ذكر فيه أعمالًا خاصة تنجي من أهوال خاصة . أورده هكذا في كتابه التذكرة .

وقد روىٰ الحافظ أبو يعلىٰ الموصلي في هذا حديثًا غريبًا مطولًا فقال(٥٠) : حدثنا أبو عبدالله[٣] أحمد بن إبراهيم النكرى ، حدثنا محمد بن بكر البرساني أبو عثمان ، حدثنا أبو عاصم الحبطي - وكان من خيار أهل البصرة ، وكان من أصحاب حزم وسلام بن أبي مطيع - حدثنا بكر بن خُنَيْس[٤] ، عن ضرار بن عمرو ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك ، عن تميم الداري ، عن النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قال : « **يقول الله عز وجل لملك الموت : انطلق إلىٰ وليي فأتني به ، فإني قد ضربته بالسراء والضراء فوجدته حيث أحِبُّ ، ائتني به فلأريحنه[٥]** .

فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ، معهم أكفان وحنوط من الجنة ، ومعهم ضبائر[٦] الريحان ، أصل الريحانة واحد ، وفي رأسها عشرون لونًا ، لكل لون منها ريح سوىٰ ريح صاحبه ، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر[٧] ، [فيجلس ملك الموت عند رأسه ، وتحف به الملائكة ، ويضع كل ملك منهم يده علىٰ عضو من أعضائه ، ويبسط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفر][٨] من تحت ذقنه ، ويفتح له باب إلىٰ الجنة ، فإن نفسه لتعلَّل[٩] عند ذلك بطرف[١٠] الجنة ، مرة[١١] بأزواجها[١٢] ، ومرة[١٣]

---

(٥٠) - **إسناده ضعيف لضعف يزيد الرقاشي** وبه أعله المصنف والحديث غير موجود في المطبوع من مسند أبي يعلى فلعله في مسنده « الكبير ، والله أعلم ، وأخرجه من طريق أبي يعلى ابن عساكر في « التاريخ » (٥٢٨/٣ - ٥٣٠ مخطوط) ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٢٣٦/٦ ، ٢٣٨) إلى ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٢] - في خ : « باب » .

[٣] - في ز ، خ : « عبد الرحمن » .

[٤] - في ز ، خ : « حبيش » .

[٥] - في ز : « فلأريحه » .

[٦] - الضبائر : جمع ضبارة وهي الحزمة .

[٧] - الأذفر : الشديد الرائحة .

[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٩] - تعلل بالشيء : اشتغل به .

[١٠] - في خ : « طرق » ، والمثبت من : ز .

[١١] - في خ : « تارة » .

[١٢] - في ز : « وبأزواجها » .

[١٣] - في خ : « تارة » .

بكسواتها ، ومرة بثمارها ، كما يعلل الصبي أهله إذا بكىٰ . قال : وإن أزواجه [ليبتهشن[١] عند ذلك][٢] ابتهاشًا[٣] .

قال : وتنزو[٤] الروح – قال البرساني : تريد أن تخرج من العَجل إلىٰ ما تحب[٥] – قال : ويقول ملك الموت : اخرجي يا أيتها الروح الطيبة ، إلىٰ سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب . قال : وَلَـمَلَكُ الموت أشد به لطفًا من الوالدة بولدها ، يعرف أن ذلك الروح حبيب لربه ، فهو يلتمس بلطفه تحببًا لديه رضاء للرب عنه ، فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين . قال : وقال الله عز وجل : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾ ، وقال : ﴿ فأما إن كان من المقرّبين * فروح وريحان وجنة نعيم ﴾ قال : روح من جهة الموت ، [ ][٦] وريحان يتلقىٰ به ، [ ][٧] وجنة نعيم تقابله[٨] .

قال : فإذا قبض ملك الموت روحه ، قالت[٩] الروح للجسد : جزاك الله عني خيرًا ، فقد كنت سريعًا بي[١٠] إلىٰ طاعة الله ، بطيئًا بي عن معصية الله ، فقد نجيت وأنجيت . قال ويقول الجسد للروح مثل ذلك .

قال : وتبكي عليه بقاع الأرض التي كان يطيع الله فيها ، وكل باب من السماء يصعد منه عمله ، وينزل منه رزقه أربعين ليلة .

قال : فإذا قبض ملك الموت روحه ، أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده ، فلا يقلبه[١١] بنو آدم لشق إلا قلبته الملائكة قبلهم ، وغسلته وكفنته بأكفان قبل أكفان بني آدم ، وحنوط قبل حنوط بني آدم ، ويقوم من بين[١٢] باب بيته إلىٰ باب قبره صفان من الملائكة، يستقبلونه بالاستغفار، فيصيح عند ذلك إبليس صيحة تتصدع منها عظام جسده – قال : ويقول لجنوده : الويل لكم ! كيف خَلَصَ هذا العبد منكم ؟ ! فيقولون : إن هذا كان عبدًا معصومًا .

قال : فإذا صعد ملك الموت بروحه ، يستقبله جبريل في سبعين ألفًا من الملائكة ، كلّ

---

[١] – ابتهش : فرح وابتهج .
[٢] – في خ : « ليشهين عند ذلك » .
[٣] – في ز ، خ : « ابتهاش » .
[٤] – في خ : « وتبدو » وفي المطالب : وتبرز .
[٥] – في ز ، خ : « يحب » .
[٦] – في ز ، خ : « قال » .
[٧] – ما بين المعكوفتين في ز : « قال » .
[٨] – في ز ، خ : « مقابله » .
[٩] – في ز : « قال » .
[١٠] – سقط من : خ .
[١١] – في خ : « يغلبه » .
[١٢] – سقط من : خ .

يأتيه ببشارة من ربه سوى بشارة صاحبه - قال: فإذا انتهى ملك الموت بروحه إلى العرش، خَر الروح ساجدًا - قال: يقول اللّٰه -عز وجل- لملك الموت: انطلق بروح عبدي فضعه في سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب.

قال: فإذا وضع في قبره، جاءته الصلاة فكانت عن يمينه، وجاءه الصيام فكان عن يساره، وجاءه القرآن فكان عند رأسه، وجاءه مشيه إلى الصلاة فكان عند رجليه، وجاءه الصبر فكان ناحية القبر؛ قال: فيبعث اللّٰه، عز وجل، عنقًا من العذاب، قال: فيأتيه[١] عن يمينه، قال: فتقول الصلاة: وراءك واللّٰه ما زال دائبًا[٢] عمره كله، وإنما استراح الآن حين وضع في قبره، قال: فيأتيه[٣] عن يساره، فيقول الصيام مثل ذلك - قال: ثم يأتيه من عند رأسه، فيقول القرآن والذكر مثل ذلك، قال: ثم يأتيه من عند رجليه، فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك. فلا يأتيه العذاب من ناحية يلتمس هل يجد إليه مساغًا، إلا وجدَ ولي اللّٰه قد أخذ جنة[٤] - قال: فينقمع العذاب عند ذلك فيخرج، قال: ويقول الصبر لسائر الأعمال: أما إنه لم يمنعني أن أباشر أنا بنفسي إلا أني نظرت ما عندكم، فإن عجزتم كنت أنا صاحبه، فأما إذ أجزأتم عنه فأنا له ذخر عند الصراط والميزان.

قال: ويبعث اللّٰه[٥] ملكين أبصارهما[٦] كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف[٧]، وأنيابهما كالصياصي، وأنفاسهما كاللهب، يطآن[٨] في أشعارهما، بين منكب كل واحد مسيرة كذا وكذا، قد نزعت منهما الرأفة والرحمة، يقال لهما: «منكر ونكير»، في يد كل واحد منهما مطرقة، لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يُقلوها[٩] - قال: فيقولان له: اجلس. قال: فيجلس فيستوي جالسًا. قال: وتقع[١٠] أكفانه في حقَويه[١١]، قال: فيقولان له: من ربك وما دينك؟ ومن نبيك؟.

قال: قالوا: يا رسول اللّٰه؛ ومن يطيق الكلام عند ذلك، وأنت تصف من الملكين ما تصف؟. قال: فقال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم: ﴿ **يثبت اللّٰه الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل اللّٰه ما يشاء** ﴾.

قال: فيقول: ربي اللّٰه وحده لا شريك له، وديني الإسلام الذي دانت به الملائكة،

[١] - في ز: «فتأتيه». [٢] - في خ: «دانيا».

[٣] - في ز: «فتأتيه».

[٤] - في ز: «جنته»، خ: «حبته». والجُنة: كل ما وقىٰ من سلاح وغيره.

[٥] - سقط من: ز. [٦] - في ز، خ: «أيضا هما».

[٧] - في ز: «العاصف». [٨] - في ز: «يطنان».

[٩] - يقلوها: يرفعوها. [١٠] - في خ: «ويقع».

[١١] - الحقْو: الخصر.

ونبيي محمد خاتم النبيين . قال : فيقولان له[١] : صدقت . قال : فيدفعان القبر فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعًا ، وعن يمينه أربعين ذراعًا ، وعن شماله أربعين ذراعًا ، ومن خلفه أربعين ذراعًا ، ومن[٢] عند رأسه أربعين ذراعًا ، ومن عند رجليه أربعين ذراعًا ، قال : فيوسعان له مائتي ذراع -

قال البرساني : وأحسبه قال أربعون ذراعا تحاط[٣] به .

قال : ثم يقولان له : انظر فوقك ، فإذا باب مفتوح إلى الجنة . قال : فيقولان له : وليّ الله هذا منزلك إذ أطعت الله - فقال رسول الله : - والذي نفس محمد بيده ، إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة ولا ترتد أبدًا ، ثم يقال له : انظر إلى[٤] تحتك . قال : فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار . قال : فيقولان : « وليّ الله [هذا منزلك لو عصيت][٥] نجوت آخر ما عليك » قال : فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « **إنه ليصل[٦] إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد[٧] أبدًا** » قال : فقالت عائشة : يفتح له سبعة وسبعون بابًا إلى الجنة يأتيه ريحها وبردها حتى يبعثه الله عز وجل .

وبالإسناد المتقدم إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « **ويقول الله تعالى لملك الموت : انطلق إلى عدوي فأتني به ، فإني قد بسطت له رزقي ، ويسرت له نعمتي ، فأبى إلا معصيتي ، فأتني به لأنتقم منه .**

قال : فينطلق إليه ملك الموت في أكره صورة رآها أحد من الناس قط ، له [اثنتا عشرة][٨] عينًا ، ومعه سفود من النار كثير الشوك ، ومعه خمسمائة من الملائكة معهم نحاس وجمر من جمر جهنم ، ومعهم سياط من نار ، لينها لين السياط وهي نار تأجج . قال : فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيب أصل كل شوكة من ذلك السفود في أصل كل شعرة وعرق وظفر ، قال : ثم يلويه ليًا شديدًا . قال : فينزع روحه من أظفار قدميه . قال : فيلقيها في[٩] عقبيه[١٠] . فيسكر[١١] [عدو الله عند ذلك][١٢]

---

[١] - سقط من : ز .　[٢] - سقط من خ .

[٣] - في ز : « يحاط » .　[٤] - سقط من : ت .

[٥] - سقط من ز ، خ . ت ، وأثبتناه من المطالب العالية .

[٦] - في ز ، خ : « لا يصل » .　[٧] - في ز : « يرتد » .

[٨] - في ز : « اثني عشر » ، خ : « اثنا عشر » .　[٩] - سقط من : خ .

[١٠] - في ز : « ركبتيه » ، وسقط من : خ .

[١١] - في ز : « ثم يسكر » ، وسقط من : خ .

[١٢] - ما بين المعكوفتين في ز : « عند ذلك عدو الله » ، وسقط من : خ .

[سكرة فيرفه ملك الموت عنه . قال : وتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط][١] . [قال : ثم][٢] : ينثره [ملك الموت][٣] نثرة[٤] [فينزع روحه من عقبيه فيلقيها][٥] في ركبتيه [قال : فيسكر][٦] عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه . قال : وتضرب[٧] الملائكة وجهه ودبره [بتلك السياط][٨] . قال : [فيشده ملك الموت شدّة][٩] فينزع روحه من ركبتيه فيلقيها في حقويه [فيسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه قال][١٠] : فتضرب[١١] [الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط قال][١٢] كذلك إلىٰ صدره ، ثم كذلك إلىٰ حلقه . قال : ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه . قال : ويقول ملك الموت : اخرجي أيتها الروح اللعينة الملعونة إلىٰ سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم .

قال : فإذا قبض ملك الموت روحه ، قال الروح للجسد : جزاك اللّٰه عني شرًّا ، فقد كنت سريعًا بي إلىٰ معصية اللّٰه ، بطيئًا بي عن طاعة اللّٰه ، فقد هلكت وأهلكت .قال : ويقول الجسد للروح مثل ذلك ، وتلعنه بقاع الأرض التي كان يعصي اللّٰه عليها ، وتنطلق[١٣] جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبدًا من ولد آدم النار .

قال : فإذا وضع في قبره ضيق عليه قبره حتىٰ تختلف أضلاعه ، حتىٰ تدخل اليمنىٰ في اليسرىٰ ، واليسرىٰ في اليمنىٰ . قال : ويبعث اللّٰه إليه أفاعي دهمًا كأعناق الإبل ، يأخذون[١٤] بأرنبته[١٥] وإبهامي قدميه فتقرضه حتىٰ يلتقين في وسطه .

قال : ويبعث اللّٰه ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف ، وأصواتهما كالرعد القاصف ،

---

[١] – ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٢] – في ت : « ثم قال » ، وسقط من : خ .

[٣] – ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٤] – سقط من : خ .

[٥] – ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٦] – ما بين المعكوفتين في خ : « ثم يسكر » .

[٧] – في ت : « فتضرب » .

[٨] – في خ : « بالسياط » .

[٩] – ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، وفي خ : « ثم ينتره ملك الموت نترة » .

[١٠] – ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[١١] – سقط من : ز ، في خ : « وتضرب » .

[١٢] – ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[١٣] – في ز : « تنطق » .

[١٤] – في ت : « يأخذن » .

[١٥] – في خ : « بأذنيه » .

وأنيابهما كالصياصي ، وأنفاسهما كاللهب ، يطآن في أشعارهما ، بين منكبي كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا ، قد نزعت منهما الرأفة والرحمة ، يقال لهما : منكر ونكير ، في يد كل واحد منهما مطرقة ، لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها ؛ قال : فيقولان له : اجلس ، [قال][١] : فيستوي جالسًا ، قال : وتقع أكفانه في حقويه ، قال[٢] فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : لا أدري . فيقولان له[٣] : لا دريت ولا تليت ، [قال][٤] فيضربانه ضربة يتطاير شررها[٥] في قبره ثم يعودان . قال : فيقولان : انظر فوقك ، فينظر فإذا باب مفتوح [من الجنة][٦] ، فيقولان : [عدو الله هذا][٧] منزلك لو أطعت الله » .

قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « **والذي نفسي بيده ، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبدًا** » قال : « **ويقولان له : انظر تحتك ، فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار ، فيقولان : عدو الله ، هذا منزلك إذ عصيت الله** » .

فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « **والذي نفسي بيده ، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبدًا** » .

قال : وقالت عائشة : ويفتح له سبعة وسبعون بابًا إلى النار ، يأتيه حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها .

هذا حديث غريب جدًا ، وسياق عجيب ، ويزيد الرقاشي راويه عن أنس له غرائب ومنكرات ، وهو ضعيف الرواية عند الأئمة ، والله أعلم .

ولهذا قال أبو داود(٥١) : حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي ، حدثنا هشام - هو ابن يوسف - عن عبد الله بن بحير ، عن هانئ مولى عثمان ، عن عثمان ، رضي الله عنه ،

---

(٥١) - **إسناده حسن** ، سنن أبي داود كتاب : الجنائز ، باب : الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف (٣٢٢١) .

وأخرجه أيضًا البزار في مسنده (٢/٤٤٥) ، والبيهقي في « الكبرى » (٤/٥٦) ، وصححه الحاكم (١/٣٧١) ، ووافقه الذهبي ، وهانئ مولى عثمان ، صدوق كما في « التقريب » .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٢] - سقط من : ز .

[٣] - سقط من : ز .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٥] - في ز : « شراره » ، خ : « شرره » .

[٦] - سقط من : خ .

[٧] - ما بين المعكوفتين في خ : « والله » .

قال : كان النبي ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، إذا فرغ من دفن الرجل[١] وقف عليه فقال[٢] : « **استغفروا لأخيكم وسَلُوا له التثبيت[٣] فإنه الآن يسأل** » . انفرد به أبو داود .

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه عند قوله تعالىٰ : ﴿ **ولو ترىٰ إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم** ﴾ الآية حديثًا[٤] مطولًا جدًّا : من [طريق غريب][٥] ، عن الضحاك ، عن ابن عباس مرفوعًا وفيه غرائب أيضًا .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾

قال البخاري(٥٢) : قوله : ﴿ **ألم تر إلىٰ الذين بدلوا نعمة اللّٰه كفرًا** ﴾ ألم تعلم[٦] ، كقوله : ﴿ **ألم تر كيف** ﴾ ،﴿ **ألم تر إلىٰ الذين خرجوا** ﴾ . البوار : الهلاك ، بار يبور بورًا ، و﴿ **قومًا بورًا** ﴾ : هالكين .

حدثنا علي بن عبد اللّٰه ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عطاء ، سمع ابن عباس : ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة اللّٰه كفرًا** ﴾ قال : وهم كفار أهل مكة .

وقال العوفي ، عن ابن عباس في هذه الآية : هو جبلة بن الأيهم ، والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم .

والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول ، وإن كان المعنىٰ يعم جميع الكفار ، فإن اللّٰه تعالىٰ بعث محمدًا ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، رحمة للعالمين ، ونعمة للناس ، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردها وكفرها دخل النار .

وقد روي عن علي نحو قول ابن عباس الأول . وقال ابن أبي حاتم(٥٣) :

---

(٥٢) - صحيح البخاري ، كتاب : التفسير ، باب : ﴿ **ألم تر إلى الذي بدلوا نعمة الله كفرًا** ﴾ (٤٧٠٠) .

(٥٣) - **صحيح** ، وأخرجه النسائي « التفسير » (١١٢٦٧/٦) ، وابن جرير (١٣/ ٢٢٠ ، ٢٢١) من =

---

[١] - في سنن أبي داود : الميت .

[٢] - في خ : « وقال » ، والمثبت من : ز .   [٣] - في ز : « بالتشبيت » .

[٤] - في خ : « حديث » .

[٥] - ما بين المعكوفتين في خ : « طرق غريبة » .   [٦] - في خ : « يعلم » .

حدثنا أبي ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا شعبة ، عن القاسم بن أبي بزة[١] ، عن أبي الطفيل : أن ابن الكواء سأل عليًا عن ﴿ **الذين بدلوا نعمة اللَّه كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار** ﴾ قال : هم[٢] كفار قريش يوم بدر .

حدثنا المنذر بن شاذان ، حدثنا يعلى بن عبيد ، حدثنا بسام - هو الصيرفي - عن أبي الطفيل قال : جاء رجل إلىٰ علي فقال : يا أمير المؤمنين ، مَن ﴿ **الذين بدلوا نعمة اللَّه كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار** ﴾ قال : منافقو قريش .

وقال ابن أبي حاتم(٥٤) : حدثنا أبي ، حدثنا ابن نفيل ، قال : قرأت علىٰ معقل ، عن ابن أبي حسين ، قال : قام علي بن أبي طالب ، رضي اللَّه عنه ، فقال[٣] : ألا أحد يسألني عن القرآن ، فواللَّه لو أعلم اليوم أحدًا أعلم به مني - وإن[٤] كان من وراء البحار - لأتيته . فقام عبد اللَّه بن الكواء فقال : مَنِ[٥] ﴿ **الذين بدلوا نعمة اللَّه كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار** ﴾ فقال[٦] : مشركو قريش ، أتتهم نعمة اللَّه ، الإيمان فبدلوا نعمة اللَّه كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار .

وقال السدي في قوله : ﴿ **ألم تر إلىٰ الذين بدلوا نعمة اللَّه كفرًا** ﴾ الآية : ذكر مسلم المستوفي[٧] عن علي أنه قال : هم الأفجران من قريش ؛ بنو أمية و[٨] بنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر ، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أحد ، وكان أبو جهل يوم بدر ، وأبو سفيان يوم أحد ، وأما دار البوار فهي جهنم .

= طريق شعبة به ، وأخرجه ابن جرير (٢٢١/١٣) ، والحاكم (٣٥٢/٢) من طريق بسام الصيرفي به ، وقال الحاكم : « حديث صحيح عال ، وبسام بن عبد الرحمن الصيرفي من ثقات الكوفيين ممن يجمع حديثهم ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣٤٢/٢) من طريق وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل به ، وأخرجه البيهقي في « الدلائل » (٩٥/٣) من طريق يحيى بن عبد الله بن الأدرع عن أبي الطفيل أنه سمع علي بن أبي طالب يقول ... فذكره . وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٥٧/٤) إلى : الفريابي وابن الأنباري في « المصاحف » وابن مردويه .

(٥٤) - **إسناده منقطع بين علي وابن أبي حسين ، وهو عبد الله بن عبد الرحمن** ، ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (١٥٧/٤) .

---

[١] - في خ : « بره » .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في خ : « ولو » .
[٥] - سقط من : ز ، خ .
[٦] - في خ : « قال » .
[٧] - في خ : « المستوف » .
[٨] - سقط من : ز .

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله(٥٥) : حدثنا محمد بن يحيىٰ ، حدثنا الحارث بن[١] منصور ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو ذي مُرٍّ قال : سمعت عليًّا قرأ هذه الآية ﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ قال : هم الأفجران من قريش ؛ بنو أمية وبنو المغيرة ؛ فأما بنو المغيرة فأهلكوا يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا إلىٰ حين .

ورواه أبو إسحاق : عن عمرو [ذي مُرٍّ][٢] ، عن علي نحوه ، وروي من غير وجه عنه .

وقال سفيان الثوري(٥٦) : عن علي بن زيد ، عن يوسف بن سعد ، عن عمر بن الخطاب في قوله ﴿ ألم تر إلىٰ الذين بدلوا نعمة الله كفرًا ﴾ قال : هم[٣] الأفجران من قريش ؛ بنو المغيرة وبنو أمية ؛ فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية[٤] فمتعوا إلىٰ حين .

وكذا رواه حمزة[٥] الزيات(٥٧) ، عن عمرو بن مرة قال : قال ابن عباس لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، هذه الآية ﴿ [ألم تر إلىٰ][٦] الذين بدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ قال : هم[٧] الأفجران من قريش أخوالي وأعمامك ، فأما أخوالي فاستأصلهم الله[٨] يوم بدر ، وأما أعمامك فأملىٰ الله لهم إلىٰ حين .

وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد : هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر ، وكذا رواه مالك في تفسيره : عن نافع ، عن ابن عمر .

وقوله : ﴿ وجعلوا لله أندادًا ليضلوا عن سبيله ﴾ أي : جعلوا له شركاء عبدوهم معه ،

---

(٥٥) - **إسناده فيه جهالة** ، وأخرجه ابن جرير (٢٢١/١٣) ، والطبراني في « الأوسط » (٧٧٦/١) ، وابن المنذر وابن مردويه - كما في « الدر المنثور » (١٥٧/٤) - وصححه الحاكم (٣٥٢/٢) ووافقه الذهبي ، وفي إسناده عمرو ذو مر ، قال الهيثمي في « المجمع » (٤٧/٧) : « لم يرو عنه غير أبي إسحاق السبيعي ... » ، وقال البخاري في « التاريخ » (٣٣٠/٦) : لا يعرف ، وذكره ابن أبي حاتم في « الجرح والتعديل » (٦/ ٢٣٢) ولم يذكر فيه شيئًا .

(٥٦) - **إسناده ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان** ، أخرجه ابن جرير (٢١٩/١٣) ، والبخاري في تاريخه وابن المنذر وابن مردويه - كما في « الدر المنثور » (١٥٦/٤) .

(٥٧) - أخرجه ابن جرير (٢١٩/١٣) حدثنا المثنى ، ثنا أبو نعيم الفضل بن دكين ؛ قال : أخبرنا حمزة الزيات ، به .

---

[١] - في ز : « أبو » .
[٢] - ما بين المعكوفتين في خ : « بن مرة » .
[٣] - في ت : « هما » .
[٤] - في خ : « أمته » .
[٥] - سقط من : خ .
[٦] - سقط من : خ .
[٧] - في خ : « هما » .
[٨] - سقط من : خ .

ودعوا الناس إلىٰ ذلك .

ثم قال تعالىٰ متهددًا لهم ، ومتوعدهم علىٰ لسان نبيه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم : ﴿ **قل تمتعوا فإن مصيركم إلىٰ النار** ﴾ أي : مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا ، فمهما يكن من شيء ﴿ **فإن مصيركم إلىٰ النار** ﴾ أي : مرجعكم وموئلكم إليها ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلىٰ عذاب غليظ** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون** ﴾ .

قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾

يقول تعالىٰ آمرًا لعباده[١] بطاعته ، والقيام بحقه ، والإحسان إلىٰ خلقه ، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة اللَّه وحده لا شريك له ، وأن ينفقوا مما رزقهم اللَّه ؛ بأداء الزكوات ، والنفقة علىٰ القرابات ، والإحسان إلىٰ الأجانب .

والمراد بإقامتها هو المحافظة علىٰ وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها .

وأمر تعالىٰ بالإنفاق مما رزق في السر ، أي : في الخفية ، والعلانية : وهي الجهر ، وليبادروا إلىٰ ذلك لخلاص[٢] أنفسهم ﴿ **من قبل أن يأتي يوم** ﴾ وهو يوم القيامة [وهو يوم][٣] ﴿ **لا بيع فيه ولا خلال** ﴾ أي : لا[٤] يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ولا خلال** ﴾ قال ابن جرير : يقول ليس هناك مخالّة خليل ، فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالّته[٥] ، بل هناك[٦] العدل والقسط ، والخلال[٧] : مصدر من قول القائل : خاللت فلانًا فأنا أخاله مخالة وخلالًا ؛ ومنه قول امرئ القيس :

صرفتُ الهوىٰ عَنْهُنَّ من خَشْيَةِ الرَّدَى وَلَسْتُ بِمَقْلِيِّ الخِلالِ ولا قالي[٨]

وقال قتادة : إن اللَّه قد علم أن في الدنيا بيوعًا وخلالًا يتخالون بها في الدنيا ، فينظر

---

[١] - في ت : « عباده » .

[٢] - في خ : « بخلاص » .

[٣] - سقط من : ت .

[٤] - في ت : « ولا » .

[٥] - في ز : « لمخالته » .

[٦] - في خ : « هنالك » .

[٧] - في خ : « والخلال » .

[٨] - في ز ، خ : « قال » .

الرجل[١] من يخالل وعلام يصاحب ، فإن كان لله فليداوم ، وإن كان لغير الله [فإنها ستنقطع][٢] .

قلت : والمراد من هذا أنه يخبر تعالىٰ أنه لا ينفع أحدًا بيع ولا فدية ، ولو افتدىٰ بملء الأرض ذهبًا لو وجده ؛ ولا ينفعه[٣] صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافرًا ، قال الله تعالىٰ : ﴿ **واتقوا يومًا لا تجزي نفس عن نفس شيئًا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون** ﴾ .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

يعدد تعالىٰ نعمه علىٰ خلقه : بأن خلق لهم السموات سقفًا محفوظًا ، والأرض فراشًا ﴿ **وأنزل من السماء ماء فأخرجنا[٤] به أزواجًا من نبات شتىٰ** ﴾ ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع ، وسخر الفلك بأن[٥] جعلها طافية علىٰ تيار ماء البحر تجري عليه بأمر الله تعالىٰ ، وسخر البحر بحملها ؛ ليقطع المسافرون بها من إقليم إلىٰ إقليم آخر ؛ لجلب ما هنا[٦] إلىٰ هناك ، وما هناك إلىٰ هاهنا ، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلىٰ قطر رزقًا للعباد من شربٍ وسقيٍ ، وغير ذلك من أنواع المنافع .

﴿ **وسخر لكم الشمس والقمر دائبين** ﴾ أي : يسيران لا يقرّان ليلًا ولا نهارًا ﴿ **لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون** ﴾ ﴿ **يغشي الليل النهار يطلبه حثيثًا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾ فالشمس والقمر يتعاقبان ، والليل والنهار يتعارضان ، فتارة

---

[١] - في ز ، خ : « رجل » .
[٢] - في ت : « تنفعه » .
[٣] - في ت : فسيقطع عنه .
[٤] - في ز ، خ : « فأخرج » .
[٥] - في خ : « و » .
[٦] - في ت : « هاهنا » .

يأخذ هذا من هذا فيطول ، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر ﴿ [**يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل**][١] **وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمىٰ ألا هو العزيز الغفار**﴾ .

وقوله : ﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه** ﴾ يقول هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما[٢] تسألونه بحالكم وقالكم .

وقال بعض السلف : من كل ما سألتموه وما لم تسألوه .

وقرأ بعضُهم : (وآتاكم من كلٍّ ما سألتموه) .

وقوله ﴿ **وإن تعدوا[٣] نعمة اللَّه لا تحصوها** ﴾ يخبر تعالىٰ عن عجز العباد عن تعداد النعم ، فضلًا عن القيام بشكرها ، كما قال طلق بن حبيب رحمه اللَّه : إن حق اللَّه أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم اللَّه أكثر من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين .

وفي صحيح البخاري(٥٨) أن رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، كان يقول : « **اللهم ، لك الحمد غير مكفيٍ ولا مُودع ولا مستغنى[٤] عنه ربنا** » .

وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده(٥٩) : حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث ، حدثنا داود ابن المحبر ، حدثنا صالح المري ، عن جعفر بن زيد العبدي ، عن أنس ، عن النبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، أنه قال : « **يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين : ديوان فيه العمل الصالح ، وديوان فيه ذنوبه ، وديوان فيه النعم من اللَّه تعالىٰ عليه ، فيقول اللَّه تعالىٰ لأصغر نعمه - أحسبه قال : في ديوان النعم - : خذي ثمنك من عمله الصالح ، فتستوعب عمله الصالح كله[٥] ، ثم تنحى وتقول : وعزتك ما استوفيت ، وتبقىٰ الذنوب**

(٥٨) - صحيح البخاري ، كتاب : الأطعمة ، باب : ما يقول إذا فرغ من طعامه (٥٤٥٨) ، وأخرجه أيضًا أبو داود (٣٨٤٩) ، والترمذي (٣٤٥٢) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (٢٨٣) ، وابن ماجة (٣٢٨٤) من حديث أبي أمامة .

(٥٩) - **إسناده ضعيف جدًا** ، وذكره الهيثمي في « المجمع » (٣٦٠/١٠) وقال : « رواه البزار وفيه صالح المري وهو ضعيف » قلت : والراوي عنه داود بن المحبَّر ، متروك .

[١] - ما بين المعكوفتين في ز ، خ : « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » .

[٢] - في ز : « ما » .

[٣] - في خ : « يعدوا » .

[٤] - في خ : « ولا مستغن » .

[٥] - سقط من : خ .

والنعم والعمل الصالح ، [فتستوعب][١] عمله الصالح كله ، فإذا أراد اللَّه أن يرحمه[٢] ، قال : يا عبدي قد ضاعفت لك حسناتك ، وتجاوزت [ ][٣] عن سيئاتك - أحسبه قال - : ووهبت لك نعمي » . غريب وسنده[٤] ضعيف .

وقد روي في الأثر(٦٠) : أن داود عليه السلام قال : يا رب ، كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك عليَّ ؟ فقال اللَّه تعالىٰ : الآن شكرتني يا داود . أي :حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم .

وقال الإمام[٥] الشافعي رحمه اللَّه : [الحمد للَّه][٦] الذي لا تؤدىٰ شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب علىٰ مؤدي ماضي نعمه بأدائها نعمة حادثة توجب عليه شكره بها .

وقال القائل في ذلك :

لو كل[٧] جارحة مني لها لغة تثني عليك بما أوليت من حَسَنِ
لكان ما زاد شكري إذ شكرت به إليك أبلغ في الإحسان والمنن[٨]

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾

يذكر تعالىٰ في هذا المقام محتجًا علىٰ مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت علىٰ عبادة اللَّه وحده لا شريك له ، وأن إبراهيم الذي كانت [ ][٩] بسببه آهلة عامرة تبرَّأ ممن عبد غير اللَّه ، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال : ﴿ **رب اجعل هذا البلد آمنًا** ﴾ وقد استجاب اللَّه له ، فقال تعالىٰ : ﴿ **أو لم يروا أنا جعلنا حرمًا آمنًا ويتخطف الناس من حولهم** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **إن أوّل بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا**

---

(٦٠) - أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤/٤٤١٤) .

---

[١] - في خ : ويستوعب .
[٢] - في ز ، خ : « يرحم » .
[٣] - ما بين المعكوفتين في ت : لك .
[٤] - في خ : « ومسنده » .
[٥] - سقط من : ز ، خ .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٧] - في ز ، خ : « كان » .
[٨] - في ت : « والمن » .
[٩] - ما بين المعكوفتين في ت : « عامرة » .

وهدىً للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا ﴾ ، وقال في هذه القصة : ﴿ **رب اجعل هذا البلد آمنًا** ﴾ فعرفه كأنه[١] دعا به بعد بنائها ، ولهذا قال : ﴿ **الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق** ﴾ ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة ، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة ، فإنه دعا أيضًا فقال : ﴿ **رب اجعل هذا بلدًا آمنًا** ﴾ . كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطوّلًا .

وقال[٢] : ﴿ **واجنبني وبني أن نعبد الأصنام** ﴾ ينبغي لكل داعٍ أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته .

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس ، وأنه بريء[٣] ممن عبدها ، وردّ أمرهم إلى الله ؛ إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم ، كقول[٤] عيسى عليه السلام : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ وليس [في هذا][٥] أكثر من الردّ إلى مشيئة الله تعالى ، لا تجويز وقوع ذلك .

قال عبد الله بن وهب(٦١) : حدثنا عمرو بن الحارث ، أن بكر بن سوادة حدثه ، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر ، عن عبد الله بن عمرو ؛ أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تلا قول إبراهيم عليه السلام ﴿ **رب إنهنّ أضللن كثيرًا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم** ﴾ ، وقول[٦] عيسى عليه السلام : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ ، [فرفع يديه وقال][٧] : « **اللهم أمتي ، اللهم أمتي** » . وبكى ، فقال الله : [يا جبريل ، اذهب] إلى محمد - وربك أعلم - واسأله ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل ، عليه السلام ، فسأله ، فأخبره رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ما قال ، فقال الله : يا جبريل ، اذهب إلى محمد فقل له[٨] : **إنا سنرضيك في أمّتك ولا نسوؤك .**

---

(٦١) - **صحيح** ، ولفظ المصنف هو الذي أورده ابن جرير في تفسيره (٢٢٩/١٣) ، والحديث أخرجه مسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - لأمته وبكائه شفقة عليهم (٣٤٦ (٢٠٢) ، والنسائي في « التفسير » من الكبرى (١١٢٦٩/٦) .

---

[١] - في ت : « لأنه » .
[٢] - في ت : « وقوله » .
[٣] - في خ : « تبرأ » .
[٤] - في خ : « كما قال » .
[٥] - في ت : « فيه » .
[٦] - في ز ، خ : « وقال » .
[٧] - ما بين المعكوفتين في خ : « وقال » .
[٨] - سقط من : ز .

رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ (٣٧)

وهذا يدل علىٰ أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول ، الذي دعا به عندما[١] ولىٰ عن هاجر وولدها ، وذلك قبل بناء البيت ، وهذا كان بعد بنائه تأكيدًا ورغبة إلىٰ الله عز وجل ؛ ولهذا قال : ﴿ **عند بيتك المحرم** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ربنا ليقيموا الصلاة** ﴾ قال ابن جرير : هو متعلق بقوله : ﴿ **المحرم** ﴾ أي : إنما جعلته محرمًا ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده .

﴿ **فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : لو قال : أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارىٰ والناس كلهم ، ولكن قال : ﴿ **من الناس** ﴾ فاختص به المسلمون .

وقوله : ﴿ **وارزقهم من الثمرات** ﴾ أي : ليكون ذلك عونًا لهم علىٰ طاعتك ، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثمارًا يأكلونها ، وقد استجاب الله ذلك كما قال : ﴿ **أولم نمكن لهم حرمًا آمنًا يجبىٰ إليه ثمرات كل شيء رزقًا من لدنًا** ﴾ وهذا من لطفه تعالىٰ وكرمه ورحمته وبركته : أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة ، وهي تجبىٰ إليها ثمرات ما حولها ، استجابة [لخليله إبراهيم][٢] ، عليه الصلاة السلام .

رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ (٣٨) ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٩) رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ (٤٠) رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ (٤١)

---

[١] - في خ : « بعدما » .

[٢] - في ت : « لدعاء الخليل » .

قال ابن جرير(٦٢) : يقول تعالىٰ مخبرًا عن إبراهيم خليله أنه قال : ﴿ **ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن** ﴾ أي : أنت تعلم قصدي في دعائي ، وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد ، وإنما هو القصد إلىٰ رضاك والإخلاص لك ، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها ، ولايخفىٰ عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء .

ثم حمد ربه عز وجل علىٰ ما رزقه من الولد بعد الكبر ، فقال : ﴿ **الحمد لله الذي وهب لي علىٰ الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء** ﴾ أي : إنه ليستجيب[١] لمن دعاه ، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد .

ثم قال : ﴿ **رب اجعلني مقيم الصلاة** ﴾ أي : محافظًا عليها مقيمًا لحدودها ﴿ **ومن ذريتي** ﴾ أي : واجعلهم كذلك مقيمين الصلاة ﴿ **ربنا وتقبل دعاء** ﴾ أي : فيما سألتك فيه كله .

﴿ **ربنا اغفر لي ولوالدي** ﴾ قرأ بعضهم : (ولوالدي) [على الإفراد][٢] ، وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله عز وجل ﴿ **وللمؤمنين** ﴾ أي : كلهم ﴿ **يوم يقوم الحساب** ﴾ أي : يوم تحاسب عبادك فتجزيهم بأعمالهم ، إن خيرًا فخير ، وان شرًّا فشر .

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ (٤٣)

يقول تعالىٰ :﴿ **ولا تحسبن الله** ﴾ يا محمد ﴿ **غافلًا عما يعمل الظالمون** ﴾ أي : لا[٣] تحسبه[٤] إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم ، مهمل لهم ، لا يعاقبهم علىٰ صنعهم ، بل هو يحصي ذلك عليهم ، ويعده عدًّا ، [ ][٥] : ﴿ **إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار** ﴾ أي : من شدة الأهوال يوم القيامة .

ثم ذكر تعالىٰ كيفية قيامهم من قبورهم ، ومجيئهم إلىٰ قيام المحشر فقال : ﴿ **مهطعين** ﴾ أي : مسرعين ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **مهطعين الىٰ الداع ...** ﴾ الآية ، [وقال تعالى :

(٦٢) - في التفسير (١٣ / ٢٣٣) .

[١] - في ت : « يستجيب » .
[٢] - في ت : « بالإفراد » .
[٣] - سقط من : خ .
[٤] - في ت : « تحسبنه » .
[٥] - في ز ، خ : أي .

﴿**يومئذ يتبعون الداعي**][١] **لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسًا** ﴾ ، [إلىٰ قوله][٢] ﴿ **وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلمًا** ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ **يوم يخرجون من الأجداث سراعًا كأنهم إلى نصب يوفضون** ﴾ .

وقوله : ﴿ **مقنعي رءوسهم** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : رافعي رءوسهم .

﴿ **لا يرتد إليهم طرفهم** ﴾ أي : [بل][٣] أبصارهم طائرة شاخصة ، يديمون[٤] النظر لايطرفون لحظة ؛ لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم ، عياذًا بالله العظيم من ذلك ، ولهذا قال : ﴿ **وأفئدتهم هواء** ﴾ أي : وقلوبهم خاوية خالية [ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف ، ولهذا قال قتادة وجماعة ، إن أمكنة أفئدتهم خالية][٥] ؛ لأن القلوب لدىٰ الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف ، وقال بعضهم : « **هواء** » خراب لا تعي شيئًا .

و[٦] لشدة ما [أخبر الله تعالىٰ به][٧] عنهم ، [ ][٨] قال تعالىٰ [لرسوله ، صلىٰ الله عليه وسلم][٩] : [﴿ **وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب** ﴾][١٠] .

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ (٤٦) ﴾

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط : من ز ، خ .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٤] - في خ : « مديمون » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٦] - سقط من : ز .
[٧] - في ت : « أخبر به تعالى » .
[٨] - في ت : ثم .
[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[١٠] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

يقول تعالىٰ مخبرًا عن قيل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب ﴿ **ربنا أخرنا إلىٰ أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل** ﴾ [كما قال تعالى][١] : ﴿ **حتىٰ إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون** ﴾ ، وقال تعالىٰ مخبرًا عنهم في حال[٢] محشرهم ، ﴿ **ولو ترىٰ إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون** ﴾ ، وقال : ﴿ **ولو ترىٰ إذ وقفوا علىٰ النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾ .

وقال[٣] تعالىٰ رادًّا عليهم في قولهم هذا : ﴿ **أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال** ﴾ أي : أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه[٤] الحال[٥] : أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه ، وأنه لا معاد ولا جزاء ، فذوقوا هذا بذاك[٦] .

قال مجاهد وغيره : ﴿ **ما لكم من زوال** ﴾ أي : ما لكم من انتقال من الدنيا إلىٰ الآخرة . [كما أخبر عنهم تعالى][٧] : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت بلى وعدًا عليه حقًّا** ﴾ .

﴿ **وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال** ﴾ أي : قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿ **حكمة بالغة فما تغن[٨] النذر** ﴾ .

وقد روىٰ شعبة(٦٣) ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الرحمن ؛ أن عليًا ، رضي الله عنه ، قال في هذه الآية : ﴿ **وإن كان مكرهم لتزول منه[٩] الجبال** ﴾قال : أخذ ذاك الذى حاج

(٦٣) - **إسناده فيه جهالة** ، أخرجه ابن جرير (٢٤٤/١٣) ، وعبد الرحمن هذا هو ابن دانيال وقيل ابن أذنان وكلاهما ذكرهما ابن أبي حاتم في « الجرح والتعديل » ولم يذكر فيهما جرحًا ولا تعديلًا .

[١] - في ت : « كقوله » .
[٢] - في خ : « حالة » .
[٣] - في خ : « قال » .
[٤] - في خ : « هذا » .
[٥] - في ت : « الحالة » .
[٦] - في ت : « بذلك » .
[٧] - في ت : « كقوله » ، خ : « كما أخبر » .
[٨] - في خ : « تغنى » .
[٩] - في خ : « منها » .

إبراهيم في ربه نسرين صغيرين فرباهما حتى استغلظا [واستعلجا[١] وشبا][٢] ، قال : فأوثق رِجْل كل واحد[٣] منهما بوتد إلى تابوت وجوعهما ، وقعد هو وَرَجُلٌ آخر في التابوت ، قال : ورفع في التابوت عصا على رأسه اللحم ، قال : فطارا وجعل يقول لصاحبه : انظر ماذا ترى . قال : أرى[٤] كذا وكذا ، حتى قال : أرى الدنيا كلها كأنها ذباب . قال : [فقال : صوب][٥] العصا فصوبها فهبطا . قال فهو قول الله[٦] عز وجل ﴿ **وإن كاد**[٧] **مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾ . قال أبو إسحاق : وكذلك هي في قراءة عبد الله ﴿ **وإن كاد مكرهم** ﴾ .

قلت : وكذا[٨] روي عن أبي بن كعب وعمر بن الخطاب ، رضى الله عنهما ، أنهما قرآ ﴿ **وإن كاد** ﴾ كما قرأ علي ، وكذا رواه سفيان الثورى وإسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الرحمن بن أذنان[٩] ، عن علي ... فذكر نحوه ، وكذا روي عن عكرمة : أن سياق[١٠] هذه القصة لنمروذ[١١] ملك كنعان : أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر ، كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط في بناء الصرح ، فعجزا وضعفا وهما أقل وأحقر وأصغر وأدحر .

وذكر مجاهد هذه القصة عن بُخْتَنَصَّر ، وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها نودي : أيها الطاغية أين تريد ؟ فَفَرِقَ ، ثم سمع الصوت فوقه [فصوب الرماح][١٢] ، فصوبت النسور ففزعت الجبال من هدتها ، وكادت الجبال أن تزول من حس ذلك ، فذلك قوله : ﴿ **وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾ .

ونقل ابن جريج ، عن مجاهد أنه قرأها : (**لَتزولُ منه الجبال**) بفتح اللام الأولى وضم الثانية .

وروى العوفي ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾ يقول : ما كان مكرهم لتزول منه الجبال . وكذا قال الحسن البصرى ، ووجهه ابن جرير :

---

[١] - استعلج فلان : غلُظ واشتد وضخم بدنه .
[٢] - في ز ، خ : « واستعجلا فشبا » .
[٣] - في خ : « واحة » .
[٤] - في خ : « أنظر » .
[٥] - في خ : « فصوب » .
[٦] - في ت : « قوله » .
[٧] - في خ : « كان » .
[٨] - في ت : « كذلك » .
[٩] - في ز ، خ : « رباب » .
[١٠] - في ز : « شأن » ، خ : « شاة » .
[١١] - في ز ، خ : « النمرود » .
[١٢] - ما بين المعكوفتين في ز : « فصوبت الرياح » .

بأن هذا الذى فعلوه بأنفسهم [من كفرهم بالله . وشركهم به][١] ، ما ضر ذلك شيئًا من الجبال ولا غيرها ، وإنما عاد وبال ذلك عليهم .

قلت : ويشبه هذا إذا[٢] [قوله][٣] تعالىٰ : ﴿ **ولا تمش في الأرض مرحًا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولًا** ﴾ .

والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ **وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾ يقول : شركهم ؛ كقوله : ﴿ **تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا أن دعوا للرحمن ولدًا** ﴾ ، وهكذا قال الضحاك وقتادة .

فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ (٤٨)

يقول تعالىٰ مقررًا لوعده ومؤكدًا : ﴿ **فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله** ﴾ أي : من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

ثم أخبر تعالىٰ[٤] أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يغالب[٥] ، وذو انتقام ممن كفر به وجحده ﴿ **فويل يومئذ للمكذبين** ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات** ﴾ أي : وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض [غير الأرض][٦] ، وهي هذه علىٰ غير الصفة المألوفة المعروفة ، كما جاء في الصحيحين(٦٤) من حديث أبي حازم ، عن سهل بن سعد ؛ قال : قال رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم : « **يحشر الناسُ يوم القيامة علىٰ أرض بيضاءَ عفراءَ كقُرْصَةِ النقيِّ ، ليس فيها معلم لأحدٍ** » .

وقال الإمام أحمد(٦٥) : حدثنا محمد بن أبي عدي ، عن داود ، عن الشعبي ، عن

(٦٤) - أخرجه البخاري ، كتاب : الرقاق ، باب : يقبض الله الأرض يوم القيامة (٦٥٢١) ، ومسلم ، كتاب : صفات المنافقين وأحكامهم ، باب : في البعث والنشور ، وصفة الأرض يوم القيامة (٢٨) (٢٧٩٠).

(٦٥) - **صحيح** ، الحديث في « المسند » (٢٤١٧٨) (٦/٣٥) ، وأخرجه مسلم ، كتاب : صفات=

[١] - ما بين المعكوفتين في ت : « من شركهم بالله وكفرهم به » .

[٢] - سقط من : خ .

[٣] - في خ : « أن قوله » .

[٤] - زيادة في : ت .

[٥] - في خ : « يغالبه » .

[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

مسروق ، عن عائشة ؛ أنها قالت : أنا أول الناس سأل النبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، عن هذه الآية : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسمٰوات وبرزوا لله الواحد القهار** ﴾ قالت : قلت : أين الناس يومئذ يا رسول اللَّه ؟ قال : « **علىٰ الصراط** » . رواه مسلم - منفردًا به دون البخاري - والترمذي وابن ماجة من حديث داود بن أبي هندٍ ، به ، وقال الترمذي : حسن صحيح [ ][١] .

ورواه أحمد أيضًا(٦٦) : عن عفان ، عن وهيب ، عن [داود ، عن الشعبي][٢] ، عنها ولم يذكر مسروقًا ، وقال قتادة(٦٧) : عن حسان بن بلال المزني ، عن عائشة ، رضى اللَّه عنها : أنها سألت رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، عن [قول الله][٣] : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات** ﴾ قال : قالت : يا رسول اللَّه ، فأين الناس يومئذ ؟ قال : « **لقد سألتني[٤] عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي ، ذاك إذ الناس علىٰ [جسر جهنم][٥]** » .

وروىٰ الإمام أحمد(٦٨) من حديث حبيب بن أبي عمرة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، حدثتني عائشة أنها سألت رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، عن قوله تعالىٰ : ﴿ **والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه** ﴾ فأين الناس يومئذ يا رسول اللَّه ؟ قال : « **هم علىٰ متن جهنم** » .

= المنافقين وأحكامهم ، باب : في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة (٢٩) (٢٧٩١) ، والترمذي ، كتاب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة إبراهيم (٣١٢٠) ، وباب : ومن سورة الزمر (٣٢٤٣) ، وابن ماجة ، كتاب : الزهد ، باب : ذكر البعث (٤٢٧٩) .

(٦٦) - **صحيح** ، « المسند » (٢٥١٣٥) (١٣٤/٦) ، وأخرجه أحمد أيضًا (٢٥٩٣٧) (٢١٨/٦) ثنا إسماعيل قال : أنا داود ، به ، ليس فيه مسروق ، وانظر السابق .

(٦٧) - أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٥٣/١٣) ، وفي إسناده الوليد بن مسلم وهو كثير التدليس والتسوية ولم يصرح بالتحديث .

(٦٨) - **صحيح** ، الحديث في « المسند » (٢٤٩٦٨) (١١٧/٦) ، وأخرجه أيضًا النسائي في « التفسير » من الكبرى (١١٤٥٣/٦) ، والترمذي ، كتاب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الزمر (٣٢٤٢) وقال : « حديث حسن صحيح غريب » ، وصححه الحاكم أيضًا (٤٣٦/٢) ووافقه الذهبي .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز : « ورواه أحمد أيضًا عن عفان عن وهيب عن داود بن أبي هند به ، وقال الترمذي : حسن صحيح » .

[٢] - سقط من : خ .

[٣] - في ت : « قوله » .

[٤] - في ز : « سألتيني » .

[٥] - ما بين المعكوفتين في ز ، خ : « خيرهم » .

وقال ابن جرير(٦٩) : حدثنا الحسن ، حدثنا علي بن الجعد ، أخبرنا القاسم ، قال : سمعت الحسن ؛ قال : قالت عائشة : يا رسول الله ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض** ﴾ فأين الناس يومئذ ؟ قال : « **إن هذا الشَّيْءَ ما سألني عنه أحد** » قال : « **علىٰ الصراط يا عائشة** » .

ورواه أحمد(٧٠) : عن عفان ، عن القاسم بن الفضل ، عن الحسن ، به .

وقال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه(٧١) : حدثني الحسن بن علي الحُلْوَانيُّ ، حدثني أبوتَوْبَة[١] الربيع بن نافع ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن زيد - يعني أخاه - أنه سمع أبا سلام ، حدثني أبو أسماء الرَّحَبِيُّ ، أن ثوبان مولىٰ رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، حدثه قال : كنت قائمًا عند رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، فجاء حبر من أحبار اليهود ، فقال : السلام عليك يا محمد ؛ فدفعته دفعة كاد يصرع منها ، فقال : لم تدفعني ؟ فقلت : ألا تقولُ : يا رسول الله ؟ فقال اليهودي : إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهلُهُ . فقال رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم : « **إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي** » فقال اليهودي : جئت أسألك . فقال له رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم : « **أينفعك شي إن حدثتك** » قال : أسمع بأذني . فَنَكَتَ رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، بعود معه ، فقال : « **سَلْ** » . فقال اليهودي : أين يكون[٢] الناس حين[٣] تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ؟ فقال رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم : « **هم في الظلمة دون الجسر** » . قال : فمن أول الناس إِجَازَةً ؟ قال : « **فقراءِ المهاجرين** » . فقال اليهودي : فما تحفتهم حين يدخُلون الجنة ؟ قال : « **زيادةُ كَبِد الحُوتِ[٤]** » . قال : فما غِذَاؤُهُمْ في إِثْرِهَا ؟ قال : « **يُنْحَر لهم ثَوْرُ الجنة الذي كان يأكُلُ من أطرافها** » . قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : « **من عين فيها[٥] تسمىٰ سلسبيلًا** » . قال : صدقت .

قال : وجئت أسألك عن شيء لايعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان .

---

(٦٩) - **إسناده منقطع** ، تفسير ابن جرير (٢٥٣/١٣) ، والحسن لم يسمع من عائشة ، وانظر ما بعده .

(٧٠) - **كسابقه** ، « المسند » (٢٤٨٠٩) (١٠١/٦) وأخرجه أيضًا ابن أبي الدنيا في « الأهوال » (رقم ٦٧) ثنا علي بن الجعد نا القاسم بن الفضل ، به .

(٧١) - صحيح مسلم ، كتاب : الحيض ، باب : بيان صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما (٣٤) (٣١٥) .

---

[١] - في خ : « ثوبة » .

[٢] - في ز : « تكون » .

[٣] - في خ : « يوم » .

[٤] - في خ : « النون » .

[٥] - زيادة من : ت .

قال : « **أينفعك**[١] **إن حدثتك** ؟ » قال : أسمع بأذني . قال : جئت أسألك عن الولد . قال : « **ماء الرجلِ أبيضُ ، وماء المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا فَعَلاَ منيُّ الرجلِ منيَّ المرأة أَذْكَرا**[٢] **بإذن اللَّه تعالىٰ ، وإذا علا منيُّ المرأة منيَّ الرجل آنثا بإذن اللَّه** » . قال اليهودى : لقد صدقت ، وإنك لنبي . ثم انصرف فذهب ، فقال رسول اللَّه ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه وما لي عِلْمٌ بشيء منه ، حتىٰ أتاني اللَّه به** » .

قال[٣] أبوجعفر بن جرير الطبري(٧٢) ، حدثنا ابن عوف ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا ابن أبي مريم ، حدثنا سعيد بن ثوبان الكلاعي ، عن أبي أيوب الأنصاري : أتى النبيَّ ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم حبْرٌ من اليهود ، فقال : أرأيت إذ يقول اللَّه تعالىٰ في كتابه : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات** ﴾ فأين الخلق عند ذلك ؟ فقال : « **أضياف اللَّه فلن يعجزهم ما لديه** » .

ورواه ابن أبي حاتم : من حديث أبي بكر بن عبد اللَّه بن أبي مريم به .

وقال شعبة(٧٣) : أخبرنا أبو إسحاق ، سمعت عمرو بن ميمون - وربما قال : قال[٤] عبد اللَّه ، وربما لم يقل - فقلت له : عن عبد اللَّه ؟ فقال : سمعت عمرو بن ميمون يقول : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض** ﴾ قال : أرض كالفضة البيضاء نقية ، لم يسفك فيها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة ، ينفذهم البصر ، ويسمعهم الداعي ، حفاة عراة كما خلقوا . قال : أراه قال : قيامًا حتىٰ يلجمهم العرق .

وروي من وجه آخر(٧٤) : عن شعبة ، عن[٥] إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن

(٧٢) - **إسناده ضعيف** ، تفسير ابن جرير (١٣/٢٥٣ - ٢٥٤) وابن أبي مريم - وهو أبو بكر بن عبد الله - ضعيف ، وشيخه مجهول .

(٧٣) - **صحيح موقوفًا** ، أخرجه ابن جرير (١٣/٢٤٩) ، وأحمد في « العلل » (٢/١٧٦) ، وأخرجه ابن جرير ، والحاكم (٤/٥٧٠) ، وعلقه أحمد في « العلل » من طريق شعبة ، قال : سمعت أبا إسحاق يقول : سمعت هبيرة بن يريم يقول : سمعت عبد الله بن مسعود ... فذكره . وانظر ما بعده .

(٧٤) - **كسابقه** ، أخرجه ابن جرير (١٣/٢٤٩ - ٢٥٠) وتابع شعبة ، عبيد الله بن موسى عن إسرائيل به ؛ عند الحاكم (٤/٥٧٠) ، وأبي الشيخ في « العظمة » (٣/٥٩٨) ، وقال الحاكم عن هذا الإسناد والذي قبله : « حديث صحيح الإسنادين جميعًا على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

[١] - في ز : « ينفعك » . [٢] - في خ : « أذكر » .

[٣] - مكانها بياض في : « ز » وفي خ : « حدثنا » .

[٤] - سقط من : ت . [٥] - في خ : « وعن » .

ميمون ، عن ابن مسعود ، بنحوه .

وكذا رواه عاصم(٧٥) ، عن زر ، عن ابن مسعود ، به . وقال سفيان الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون لم يخبر به(٧٦) . أورد ذلك كله ابن جرير .

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار(٧٧) : حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل ، حدثنا سهل بن حماد أبو عتاب[١] ، حدثنا جرير بن أيوب ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في قول الله عز وجل : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض** ﴾ قال : « **أرض بيضاء لم يسفك[٢] عليها دم ، أو[٣] لم يعمل عليها خطيئة** » . ثم قال : لا نعلم رفعه إلا جرير بن أيوب ، وليس[٤] بالقوي .

ثم قال ابن جرير(٧٨) : حدثنا أبو كريب ، ثنا معاوية بن هشام ، عن سنان ، عن جابر الجعفي ، عن أبي جبيرة ، عن زيد قال : أرسل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إلى اليهود فقال : « **هل تدرون لم أرسلتُ إليهم ؟** » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « **فإني أرسلتُ إليهم أسألهم عن قول الله : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ إنها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة** » . فلما جاءوا سألهم ، فقالوا : تكون بيضاء مثل النقي .

وهكذا روي عن علي وابن عباس وأنس بن مالك ومجاهد بن جبير : أنها[٥] تبدل يوم القيامة بأرض من فضة .

وعن علي رضي الله عنه أنه قال : تصير الأرض فضة ، والسماوات ذهبًا .

---

(٧٥) - **كسابقه** ، أخرجه ابن جرير (١٣/٢٥٠) ، والطبراني في « الكبير » (٩/٩٠٠١) وجوَّد إسناده الهيثمي في « المجمع » (٧/٤٨) .

(٧٦) - أخرجه ابن جرير (١٣/٢٥٠) .

(٧٧) - **إسناده ضعيف جدًا** ، والحديث في مسنده (٥/٢٤٦)(١٨٥٩) ، وأخرجه أيضًا الطبراني في «الكبير» (١٠/١٠٣٢٣) ، وفي « الأوسط » (٧/٧١٦٧) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٧/٤٨) : « وفيه جرير بن أيوب البجلي وهو متروك » ، وقال أيضًا (١٠/٣٤٨) : « رواه البزار وفيه جرير بن أيوب وهو مجمع على ضعفه » .

(٧٨) - **إسناده ضعيف لضعف جابر الجعفي** ، ابن جرير في تفسيره (١٣/٢٥٠) ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٤/١٦٨) إلى ابن مردويه .

---

[١] - في ز ، خ : « غياث » .

[٢] - في ز ، خ : « يسقط » .

[٣] - في خ : « و » .

[٤] - في ت : « ليس » .

[٥] - في خ : « حدثنا » .

وقال الربيع ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب ؛ قال : تصير السماوات جنانًا .

وقال أبومعشر ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن محمد بن قيس في قوله : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض** ﴾ قال : خبزة يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم .

وكذا روىٰ وكيع ، عن [عمر][1] بن بشير الهمداني ، عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض** ﴾ قال : تبدل الأرض[2] خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه .

وقال الأعمش ، عن خيثمة ؛ قال : قال عبد الله - هو[3] ابن مسعود - : الأرض كلها يوم القيامة نار ، والجنة من ورائها ترىٰ كواعبها وأكوابها ، ويلجم الناس العرق ، أو[4] يبلغ منهم العرق ، ولم يبلغوا الحساب .

وقال الأعمش أيضًا ، عن المنهال بن عمرو[5] ، عن قيس بن السكن ، قال : قال عبدالله : الأرض كلها نار يوم القيامة ، والجنة من ورائها ترىٰ أكوابها وكواعبها ، والذي نفس عبد الله بيده ، إن الرجل ليفيض عرقًا حتىٰ ترسخ في الأرض قدمه ، ثم يرتفع حتىٰ يبلغ[6] أنفه وما مسه الحساب . [فقالوا : مم ذاك][7] يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : مما يرىٰ[8] الناس ويلقون .

وقال أبوجعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن كعب في قوله : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات** ﴾ قال : تصير السماوات جنانًا ، ويصير مكان البحر نارًا ، وتبدل الأرض غيرها .

وفي[9] الحديث الذي رواه أبوداود(٧٩) : « **لايركب البحر إلا غاز أو حاج أو معتمر ، فإن تحت البحر نارًا ، أو تحت النار بحرًا** » .

---

(٧٩) - **إسناده ضعيف جدًا** ، « السنن » لأبي داود (٢٤٨٩) لكن بلفظ « **لا يركب البحر إلا حاجٌّ أو معتمر أو غاز في سبيل الله .....** » .
وانظر « السلسلة الضعيفة » للألباني (١/ رقم ٤٧٨ ، ٤٧٩) .

---

[١] - في ز ، خ : « معمر » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - سقط من : ت .
[٤] - في ز : « و » .
[٥] - في ز : « عمر » .
[٦] - في خ : « تبلغ » .
[٧] - في ت : « قالوا : مما ذلك » .
[٨] - في خ : « ترى » .
[٩] - سقط من : ز ، خ .

وفي حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة(٨٠) ، [عن النبي ، صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، أنه قال][١] : « [**يبدل اللَّه الأرض**][٢] **غير الأرض والسماوات فيبسطها ، ويمدها مد الأديم العُكَاظِيِّ ، لا ترىٰ فيها عوجًا ولا أمتًا ، ثم يَزْجُرُ اللهُ الخَلْقَ زَجْرةً فإذا هم في هذه المُبَدلَةِ** » .

وقوله : ﴿ **وبرزوا للَّه** ﴾ أي : خرجت الخلائق جميعها من قبورهم للَّه ﴿ **الواحد القهار** ﴾ أي : الذي قهر كل شيء وغلبه ، ودانت له الرقاب ، وخضعت له الألباب .

وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات** ﴾ وتبرز الخلائق لديَّانها ، ترىٰ يا محمد يومئذ المجرمين : وهم الذين أجرموا بفسادهم وكفرهم ﴿ **مقرنين** ﴾ أي : بعضهم إلىٰ بعض ، قد جُمِع بين النظراء[٣] أو الأشكال منهم ، كل صنف إلىٰ صنف ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم** ﴾ ، وقال : ﴿ **وإذا النفوس زوجت** ﴾ ، وقال : ﴿ **وإذا ألقوا منها مكانًا ضيقًا مقرنين دعوا هنالك ثبورًا** ﴾ ، وقال : ﴿ **والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين فىٰ الأصفاد** ﴾ .

والأصفاد : هي القيود ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والأعمش ، وعبد الرحمن ابن زيد ، وهو مشهور فى اللغة ؛ قال عمرو بن كلثوم :

فـآبـوا بـالـثـيـاب وبـالـسـبـايـا وأبـنـا بـالملـوك مـصـفـديـنـا

وقوله : ﴿ **سرابيلهم من قطرانٍ** ﴾ أي : ثيابهم التي يلبسونها عليهم[٤] من قطران ؛ وهو الذي تهنأ به الإِبل ، أي : تطلىٰ ، قال[٥] قتادة : وهو ألصق شيء بالنار .

ويقال فيه : قطران بفتح القاف وكسر الطاء وتسكينها[٦] ، وبكسر القاف وتسكين

(٨٠) - **إسناده ضعيف مضطرب** ، تقدم تخريجه [سورة الأنعام/ آية ٧٣] .

[١] - ما بين المعكوفتين مكررة في : خ .
[٢] - في ز ، خ : « تبدل الأرض » .
[٣] - في خ : « النظر » .
[٤] - سقط من : ت .
[٥] - في خ : « قاله » .
[٦] - في خ : « وبفتح القاف وتسكين الطاء » .

الطاء ، ومنه قول أبي النجم :

كأن قطرانا إذا تلاها ترمي[١] به الريح إلى مجراها

وكان ابن عباس يقول : القطران هو النحاس المذاب ، وربما قرأها : ﴿ **سرابيلهم من قطران** ﴾ أي : من نحاس حار قد انتهى حرّه ، وكذا روي عن مجاهد وعكرمة ، وسعيد ابن جبير ، والحسن ، وقتادة .

وقوله : ﴿ **وتغشىٰ وجوههم النار** ﴾ كقوله : ﴿ **تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون** ﴾ .

وقال الإمام أحمد رحمه الله(٨١) : حدثنا يحيى بن إسحاق ، أنبأنا أبان بن يزيد ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن زيد ، عن أبي سلام ، عن أبي مالك الأشعري ؛ قال : قال رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم : [« **أربع في أمتي**][٢] **من أمر الجاهلية لا يتركوهن**[٣] ؛ **الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة** [**علىٰ الميت**][٤] ، و[ ][٥] **النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ، ودرع من جرب** » . انفرد بإخراجه مسلم .

وفي حديث القاسم ، عن أبي أمامة ، رضي الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ، صلىٰ الله عليه وسلم ، [ ][٦] : « **النائحة إذا لم تتب توقف في طريق بين الجنة والنار ، سرابيلها**[٧] **من قطران ، وتغشىٰ وجهها**[٨] **النار** »(٨٢) .

وقوله : ﴿ **ليجزي الله** [**كل نفس ما كسبت**][٩] ﴾ أي : [ ][١٠] يوم القيامة ﴿ **ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى** ﴾ .

(٨١) - **صحيح** ، الحديث في « المسند » (٣٤٢/٥ - ٣٤٣) ووقع بين يحيى بن إسحاق ، وأبان بن يزيد « ثنا موسى » ولعلها مقحمة ، وأخرجه أحمد أيضًا (٣٤٤/٥) ، ومسلم ، كتاب : الجنائز ، باب : التشديد في النياحة (٢٩) (٩٣٤) من طريقين عن أبان به ، وأخرجه أحمد (٢٣٠١١) (٣٤٣/٥) ثنا أبو عامر ثنا علي ابن المبارك عن يحيى بن أبي كثير ، به .

(٨٢) - **إسناده ضعيف** ، أخرجه الطبراني في « الكبير » (٧٨١٨/٨) ، وفي إسناده علي بن يزيد الألهاني وعبيد الله بن زَحْر وكلاهما ضعيف ، وإن كان الأخير أحسن حالًا من الذي قبله ، وقد أعل الهيثمي =

---

[١] - في خ : « يرمي » .
[٢] - في ز ، خ : « أربعة » .
[٣] - في ز ، خ : « يتركهن » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٥] - ما بين المعكوفتين في خ : والنياحة .
[٦] - ما بين المعكوفتين في ت : رفعه .
[٧] - في ت : « وسرابيلها » .
[٨] - في خ : « وجوههم » .
[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[١٠] - ما بين المعكوفين في ز ، خ : يقسم .

﴿ **إن الله سريع الحساب** ﴾ يحتمل[١] أن يكون كقوله تعالىٰ : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز ؛ لأنه يعلم كل شيء ولايخفىٰ عليه خافية ، وإن جميع الخلق بالنسبة إلىٰ قدرته كالواحد منهم ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ﴾ وهذا معنىٰ قول مجاهد : ﴿ **سريع الحساب** ﴾ إحصاء[٢] .

ويحتمل أن يكون المعنيان[٣] مرادين ، والله أعلم .

هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

يقول تعالىٰ : هذا القرآن بلاغ للناس ، كقوله : ﴿ **لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ أي : هو بلاغ لجميع الخلق ؛ من إنس وجان[٤] ، كما قال في أول السورة : ﴿ **الر[٥] كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم** ﴾ .

﴿ **ولينذروا به** ﴾ أي : يتعظوا[٦] به ﴿ **وليعلموا أنما هو إله واحد** ﴾ أي : يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات علىٰ أنه لا إله إلا هو ﴿ **وليذكر أولوا الألباب** ﴾ أي : ذوو العقول .

آخر تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، [والحمد لله][٧] رب العالمين

☆ ☆ ☆

= في « المجمع » (١٧/٣) الحديث بهذا الأخير ، فقال : « رواه الطبراني في الكبير وفيه عبيد الله بن زحر وهو ضعيف » لكن يشهد لمعناه الحديث السابق والحمد لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا .

[١] - في ز ، خ : « ويحتمل » .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - في ز ، خ : « المعنيين » .
[٤] - في ت : « وجن » .
[٥] - في ز ، خ : « الم » .
[٦] - في خ : « ليتعظوا » .
[٧] - ما بين المعكوفتين في خ : « ولله الحمد » .

[٢٥٣ظ] / سورة إبراهيم عليه السلام

وهي إحدى وخمسون آيةً.[١]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾

﴿الٓر﴾ مرّ الكلام فيه وفي محلّه غير مرّة. وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر له على تقدير كون ﴿الٓر﴾ مبتدأ، أو لمبتدأ مضمَر على تقدير كونه خبرًا لمبتدإٍ محذوف، أو مسرودًا على نمط التعديد، ويجوز أن يكون خبرًا ثانيًا لهذا المبتدأ المحذوف. وقوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ صفة له.

وقوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ متعلّق بـ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، أي: لتخرجهم كافّةً بما في تضاعيفه مِن البيّنات الواضحة المُفصِحةِ عن كونه مِن عند الله عزّ وجلّ، الكاشفةِ عن العقائد الحقّة. وقُرئ: "لِيَخْرُجَ النَّاسُ"،[٢] أي: لِيَخرُج به الناسُ ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ مِن عقائد الكفر والضلال التي كلّها ظلمات محضة وجهالات صِرفة ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الحقّ الذي هو نور بَحت، لكن لا كيف ما كان، فإنّك لا تهدي مَن أحببت؛ بل ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: بتيسيره وتوفيقه.

وللإنباء عن كون ذلك مَنوطًا بإقبالهم إلى الحقّ -كما يُفصِح عنه قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ [الرعد، ٢٧/١٣]- استُعِير له الإذنُ الذي هو عبارة عن تسهيل الحجاب لمَن يقصد الورودَ، وأُضِيفَ إلى ضميرهم اسمُ الربِّ المُفصحُ عن التربية التي هي عبارة عن تبليغ الشيء إلى كماله المتوجِّهِ إليه.

---

[١] س: سورة إبراهيم، مكيّة، وهي إحدى وخمسون أو ثنتان أو أربع أو خمس.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عياض. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٩.

وشمول الإذن بهذا المعنى للكلّ واضح، وعليه يدور كون الإنزال لإخراجهم جميعًا. وعدمُ تحقّق الإذن بالفعل في بعضهم لعدم تحقّق شرطه[1] المستنِد إلى سوء اختيارهم غيرُ مخِلّ بذلك.

و"الباء" متعلّقة بـ﴿تُخْرِجَ﴾، أو بمُضمَر وقع حالًا مِن مفعوله، أي: ملتبسين بإذن ربّهم. وجعلُه حالًا مِن فاعله[2] يأباه إضافة الربّ إليهم، لا إليه.

وحيث كان الحقّ مع وضوحه في نفسه وإيضاحِه لغيره موصلًا إلى الله عزّ وجلّ استُعير له "النور" تارةً و"الصراط" أخرى، فقيل: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ على وجه الإبدال بتكرير العامل، كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف، ٧/٧٥]، وإخلالُ البدل والبيان بالاستعارة إنّما هو في الحقيقة لا في المجاز، كما في قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة، ٢/١٨٧].

وقيل: هو استئناف مبنيّ على سؤال، كأنّه قيل: إلى أيّ نور؟ فقيل: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾. وإضافة "الصراط" / إليه تعالى لأنّه مَقصِده أو المبيّن [٢٥٤و]
له. وتخصيص الوصفين بالذكر للترغيب في سلوكه ببيان ما فيه مِن الأمن والعاقبةِ الحميدة.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾

﴿ٱللَّهِ﴾ بالجرّ عطف بيان لـ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾؛ لجريانه مَجرى الأعلام الغالبة بالاختصاص بالمعبود بالحقّ، كالنجم في الثريّا. وقُرئ بالرفع[3] على "هُوَ اللهُ"،[4] أي: العزيزُ الحميد -الذي أضيفَ إليه الصراطُ- اللهُ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾ مِلكًا ومُلكًا ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما وجد فيهما داخلًا فيهما أو خارجًا عنهما متمكّنًا فيهما، كما مرّ في آية الكرسي. ففيه على القراءتين بيانٌ لكمال فَخامة

---

١ وفي هامش م: أي: التوجّه والإقبال. «منه».
٢ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٢/٣.
٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر، وقرأ رُويس برفع الهاء في الابتداء وخفضِها في الوصل. النشر لابن الجزري، ٢٩٨/٢.
٤ أي: على تقدير: "هو الله".

شأن الصراط، وإظهارٌ لتحتّم سلوكه على الناس قاطبةً. وتجويز الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبرًا[1] مبناه الغُفول عن هذه النكتة.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وعيد لمَن كفر بالكتاب ولم يخرج به مِن الظلمات إلى النور بالويل، وهو نقيض الوَأل؛ وهو النجاة. وأصله النصب كسائر المصادر ثمّ رُفِعَ رَفْعَها للدلالة على الثبات، كـ"سلامٌ عليك". ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ متعلّق بـ﴿وَيْلٌ﴾ على معنى: يُوَلْوِلُون[2] ويضجّون منه قائلين: يا وَيلاه، كقوله تعالى: ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان، ١٣/٢٥].

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: يُؤْثِرونها، استفعال مِن المحبّة، فإنّ المُؤْثِر للشيء على غيره كأنّه يطلب مِن نفسه أن يكون أحبّ إليها وأفضل عندها مِن غيره. ﴿عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: الحياةِ الآخرة الأبديّة.

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التي بيّن شأنها. والاقتصار على الإضافة إلى الاسم الجليل المنطوي على كلّ وصف جميلٍ لزومُ الاختصار. وهو مِن "صَدّه صَدًّا". وقُرئ: "يُصِدُّونَ"[3] مِن "أَصَدّ" المنقول مِن "صَدّ صُدودًا" إذا نكَبَ، وهو غير فصيح كـ"أَوْقَفَ"، فإنّ في "صَدَّه ووقَفَه" لَمَنْدُوحَةً عن تكلّف النقل.

﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي: يبغون لها، فحُذف الجارّ وأُوصِل الفعل إلى الضمير، أي: يطلبون لها ﴿عِوَجًا﴾ أي: زَيغًا واعوِجاجًا وهي أبعد شيء مِن ذلك، أي: يقولون لمَن يريدون صدّه وإضلاله: إنّها سبيل ناكِبة وزائغة غيرُ مستقيمة.

ومحلُّ موصولِ هذه الصلات الجرُّ على أنّه بدل مِن ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أو صفةٌ لَهُ فيُعتبر كلُّ وَصْفٍ مِن أوصافهم بإزاء ما يناسبه مِن المعاني / المعتبرة في [٢٥٤ظ]
"الصراط". فالكفر المنبئ عن الستر بإزاء كونه نورًا، واستحبابُ الحياة الدنيا

---

[1] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٢/٣.

[2] وفي هامش م: أي: يكرّرُون الوَيل.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٩.

الفانيةِ المُفصِحةِ عن وَخامة العاقبة بمقابلة كون سلوكه محمودَ العاقبة، والصدُّ عنه بإزاء كونه مأمونًا. وفيه مِن الدلالة على تماديهم في الغيّ ما لا يخفى.

أو النصب على الذمّ، أو الرفع على الابتداء، والخبر قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾، وعلى الأوّل جملة مستأنفة وقعت معلِّلةً لِما سبق مِن لحوق الويل بهم، تأكيدًا لِما أَشعر به بناءُ الحكم على الموصول، أي: أولئك الموصوفون بالقبائح المذكورة -مِن استحباب الحياة الدنيا على الآخرة، وصدِّ الناس عن سبيل الله المستقيمة، ووصفِها بالاعوجاج وهي منه بِنُزْهٍ- في ضلال عن طريق الحقّ بعيدٍ بالغٍ في ذلك غايةَ الغايات القاصية. والبعد وإن كان مِن أحوال الضالّ إلّا أنّه قد وُصف به وصفُه مجازًا للمبالغة، كـ"جَدّ جِدّه"، و"داهية دهياء". ويجوز أن يكون المعنى في ضلال ذي بُعد، أو فيه بعد، فإنّ الضالّ قد يضلّ عن الطريق مكانًا قريبًا، وقد يضلّ بعيدًا. وفي جَعل الضلال محيطًا بهم إحاطةَ الظرف بما فيه ما لا يخفى مِن المبالغة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ أي: في الأمم الخالية مِن قَبلك -كما سَيُذكَرُ إجمالًا- ﴿مِن رَّسُولٍ إِلَّا﴾ ملتبسًا ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ متكلّمًا بلغة مَن أرسلَ إليهم مِن الأمم المتّفقة على لغةٍ، سواء بعث فيهم أو لا. وقُرئ: "بِلِسْنِ"، وهو لغة فيه، كـ"رِيش ورِياش"، و"بِلُسُنِ" بضمّتين، وضمّة وسكون،[1] كعُمُدٍ وَعُمْدٍ.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما أُمروا به، فيتلقَّوه منه بيُسر وسرعة، ويعملوا بموجَبه مِن غير حاجةٍ إلى الترجمة ممّن لم يؤمر به.

وحيث لم يمكن مراعاة هذه القاعدة في شأن سيّدنا صلّى الله عليه[2] وعليهم أجمعين؛ لعموم بعثته الثقلينِ كافّةً على اختلاف لغاتهم، وكان تعدُّد

---

[1] القراءات الثلاث شاذّة، مرويّة عن أبي السّمّال. وعن الأعمش: "بِلَسْنِ" بفتح اللام وسكون السين. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٩.

[2] س + وسلّم.

نظم الكتاب[١] المنزّل إليه حسب تعدّد ألسنة الأمم أدعى إلى التنازع واختلاف الكلمة وتطرّق أيدي التحريف، مع أنّ استقلال بعضٍ مِن ذلك بالإعجاز دون غيره مئِنّة لقدح القادحين، واتّفاقَ الجميع / فيه أمر قريب مِن الإلجاء، وحصل البيان بالترجمة والتفسير؛ اقتضت الحكمة اتّحاد النظم المنبئ عن العزّة وجلالة الشأن المستتبع لفوائدَ غنيّة عن البيان، على أنّ الحاجة إلى الترجمة تتضاعف عند التعدّد، إذ لا بدّ لكلّ أمّة مِن معرفة توافق الكلّ وتحاذيه حَذوَ القُذّةِ بالقُذّة[٢] مِن غير مخالفة ولو في خَصلة فذّةٍ،[٣] وإنّما يتمّ ذلك بمَن يترجم عن الكلّ واحدًا أو متعدّدًا، وفيه مِن التعذّر ما يتاخم الامتناع. [٢٥٥و]

ثمّ لمّا كان أشرف الأقوام وأولاهم بدعوته عليه السلام قومه الذين بُعث فيهم ولغتُهم أفضلَ اللغات نزل الكتاب المتين بلسان عربي مبين، وانتشرت أحكامه فيما بين الأمم أجمعين.

وقيل:[٤] الضمير في ﴿قَوْمِهِ﴾ لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، فإنّه تعالى أنزل الكتب كلّها عربيّة ثمّ ترجمها جبريل عليه السلام، أو كلّ مَن نزل عليه مِن الأنبياء عليهم السلام بلغة مَن نزل عليهم. ويردّه قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، فإنّه ضمير القوم، وظاهر أنّ جميع الكتب لم ينزل لتبيين العرب. وَفي رَجْعِه إلى قوم كلّ نبيّ -كأنّه قيل: وما أرسلنا مِن رسول إلّا بلسان قوم محمّد عليه السلام ليبيّن الرسول لقومه الذين أرسل إليهم-[٥] ما لا يخفى مِن التكلّف.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ إضلالَه، أي: يخلق فيه الضلال لِمباشرة أسبابه المؤدّية إليه، أو يخذله ولا يلطف به لِما يَعلم أنّه لا ينجع فيه الإلطاف. ﴿وَيَهْدِى﴾ بالتوفيق ومنح الإلطاف ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه لِما فيه مِن الإنابة والإقبال إلى الحقّ.

---

١ س - الكتاب.

٢ أي: مِثلًا بمِثل. وهو مَثَل يُضرب في التسوية بين الشيئين. ومثله "حَذوَ النَّعلِ بالنَّعل". والقُذّة: مِن القَذِ وهو القطع، يعني: قَطع الريشة المقذوذة على قدر صاحبتها في التسوية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٩٥.

٣ الفَذُّ: الفردُ. الصحاح للجوهري، «فذذ».

٤ ذكره الزمخشري، وقال: «روَوه عن الضحّاك... وليس بصحيح». انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٣٩.

٥ انظر: فتوح الغيب للطيبي، ٨/٥٤٩.

والالتفات بإسناد الفعلين إلى الاسم الجليل المنطوي على الصفات لتفخيم شأنهما وترشيح مَناط كلّ منهما. و"الفاء" فصيحة، مثلها في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ[1] ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٦٣]، كأنّه قيل: فبيّنوه لهم، فأضلّ الله منهم مَن شاء إضلالَه لِما لا يليق إلّا به، وهدى مَن شاء هدايته لاستحقاقه لها. والحذف للإيذان بأنّ مسارعة كلّ رسول إلى ما أُمِرَ به وجريانَ كلّ مِن أهل الخذلان والهداية على سُننه أمرٌ محقّق غنيّ عن الذكر والبيان.

[٢٥٥ظ] والعدول إلى صيغة الاستقبال لاستحضار / الصورة، أو للدلالة على التجدّد والاستمرار، حسب تجدّد البيان مِن الرسل المتعاقِبة عليهم السلام. وتقديم الإضلال على الهداية إمّا لأنّه إبقاءُ ما كان على ما كان، والهداية إنشاءُ ما لم يكن، أو للمبالغة في بيان أن لا تأثير للتبيين والتذكير مِن قِبَل الرسل، وأنّ مدار الأمر إنّما هو مشيئته تعالى بإيهام أنّ ترتّب الضلالة على ذلك أسرع مِن ترتّب الاهتداء، وهذا محقِّق لِما سلف مِن تقييد الإخراج مِن الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يغالَبُ في مشيئته ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل شيئًا مِن الإضلال والهداية إلّا لحكمةٍ بالغة. وفيه أنّ ما فُوِّض إلى الرسل إنّما هو تبليغ الرسالة وتبيين طريق الحقّ، وأمّا الهداية والإرشاد إليه فذلك بيد الله سبحانه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ شروع في تفصيل ما أُجمِلَ في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ الآيةَ.[2] ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: ملتبِسًا بها، وهي معجزاته التي أظهرها لبني إسرائيل. ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ بمعنى: أي: أَخرِجْ؛

---

[1] م س - ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ﴾؛ م س + فقلنا. [2] في الآية السابقة.

لأنّ الإرسال فيه معنى القول، أو بأن أخرِجْ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [يونس، ١٠/١٠٥]، فإنّ صيغ الأفعال في الدلالة على المصدر سواء، وهو المدار في صحّة الوصل. والمراد بذلك إخراج بني إسرائيل بعد مَهلِك فرعون.

﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ مِن الكفر والجهالات التي أدّتهم[1] إلى أن يقولوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف، ٧/١٣٨]. ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الإيمان بالله وتوحيده وسائرِ ما أُمروا به. ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أي: بنَعمائه وبلائه كما يُنبئ عنه قوله عليه السلام: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾،[2] لكن لا بما جرى عليهم فقط؛ بل عليهم وعلى مَن قبلهم مِن الأمم في الأيّام الخالية حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآيات،[3] أو بأيّامه المنطوية على ذلك كما يلوِّح به قوله: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم﴾.[4]

والالتفات مِن التكلّم إلى الغيبة بإضافة "الأيّام" إلى الاسم الجليل للإيذان بفخامة شأنها، والإشعارِ بعدم اختصاص ما فيها مِن المعاملة بالمخاطَب وقومه كما يوهمه الإضافة إلى ضمير التكلّم، أي: عِظْهُم بالترغيب والترهيب والوعدِ والوعيد.

وقيل:[5] / ﴿أَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ وقائعه التي وقعت على الأمم قبلَهم، و"أيّامُ العرب": وقائعها وحروبها وملاحمها، أي: أنذِرهم وقائعَه التي دَهِمَت الأمم الدارجة. ويردّه ما تصدّى له عليه السلام بصدد الامتثال مِن التذكير بكلٍّ مِن السرّاء والضرّاء ممّا جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما يُتلى عليك. [٢٥٦و]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في التذكير بها، أو في مجموع تلك النعماءِ والبلاء، أو في أيّامها ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عظيمةً أو كثيرةً دالّةً على وحدانيّة الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته. فهي على الأوّل[6] عبارة عن الأيّام سواء أريدَ بها أنفسُها أو ما فيها

---

١ ط س: أدّاهم. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٢ في الآية التالية.

٣ إبراهيم، ١٤/٩.

٤ في الآية التالية.

٥ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢/٥٤٠؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/١٩٣.

٦ وفي هامش م: هو كون ذلك إشارة إلى التذكير. «منه».

مِن النعماء والبلاء، ومعنى ظرفيّة التذكير لها كونه مناطًا لظهورها. وعلى الثالث[١] عن تلك النعماء والبلاء، ومعنى الظرفيّة ظاهر. وأمّا على الثاني[٢] فعن كلّ واحدة مِن تلك النعماء والبلاء، والمشارُ إليه المجموع المشتمل عليها مِن حيث هو مجموع، أو كلمةُ ﴿فِي﴾ تجريديّة، مثلها في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت، ٢٨/٤١].

﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ لنَعمائه. وقيل: لكلّ مؤمن، والتعبير عنهم بذلك للإشعار بأنّ الصبر والشكر بعنوان المؤمن، أي: لكلّ مَن يليق بكمال الصبر والشكر أو الإيمان ويصير أمره إليها، لا لِمَن اتّصف بها بالفعل؛ لأنّه تعليل للأمر بالتذكير المذكور السابق على التذكّر المؤدّي إلى تلك المرتبة، فإنّ مَن تذكّر ما فاض أو نزل عليه أو على مَن قبله مِن النعماء والبلاء وتنبّه لعاقبة الشكر والصبر أو الإيمان لا يكاد يفارقها. وتخصيص الآيات بهم لأنّهم المنتفِعون بها، لا لأنّها خافية عن غيرهم، فإنّ التبيين حاصل بالنسبة إلى الكلّ. وتقديم "الصبّار" على "الشكور" لتقدّم متعلَّق الصبر -أعني: البلاء- على متعلَّق الشكر -أعني: النعماء-، وكونِ الشكر عاقبة الصبر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ شروع في بيان تصدّيه عليه السلام لِما أُمِر به مِن التذكير للإخراج المذكور. و﴿إِذْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمُضمَر خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وتعليق الذكر بالوقت مع أنّ المقصود تذكير ما وقع فيه مِن الحوادث قد مرّ سرّه غيرَ مرّة،[٣] أي: اذكر لهم وقتَ قوله عليه السلام لقومه: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بدأ عليه السلام بالترغيب لأنّه عند النفس أقبَل، وهي إليه أميَل.

---

[١] وفي هامش م: وهو كونه إشارة إلى أيّامها. «منه».

[٢] وفي هامش م: وهو كونه إشارةً إلى مجموع النعماء والبلاء. «منه».

[٣] وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة، ٣٠/٢]، وغيره مِن المواقع. «منه».

والظرف متعلّق بنفس النعمة إن جُعلت مصدرًا، وبمحذوف وقع حالًا منها إن جعلت اسمًا، أي: اذكروا إنعامه عليكم، أو اذكروا نعمته كائنةً عليكم.

وكذا كلمةُ ﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ / أي: اذكروا إنعامه [٢٥٦ظ] عليكم وقت إنجائه إيّاكم مِن آل فرعونَ، أو اذكروا نعمة الله مستقرّةً عليكم وقتَ إنجائه إيّاكم منهم. أو بدلُ اشتمال مِن ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ مرادًا بها الإنعام أو العطيّة.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يبغونكم، مِن "سامَهُ خَسْفًا" إذا أولاه ظلمًا، وأصل السَّوم الذهاب في طلب الشيء. ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ "السوء" مصدر "ساءَ يسُوء"، والمراد به جنس العذاب السيّئ، أو استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقّة والاستهانةُ بهم وغيرُ ذلك ممّا لا يُحصر. ونصبه على أنّه مفعول لـ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾.

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ المولودين. وإنّما عطفه على ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ إخراجًا له عن مرتبة العذاب المعتاد. وإنّما فعلوا ذلك لأنّ فرعونَ رأى في المنام -أو قال له الكهنة- أنّه سيولد منهم مَن يذهب بمُلكه، فاجتهدوا في ذلك، فلم يغنِ عنهم مِن قضاء الله شيئًا.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: يُبقونهنّ في الحياة مع الذلّ والصَّغار، ولذلك عُدّ مِن جملة البلاء. والجُمل أحوال مِن ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، أو مِن ضمير المخاطبِين، أو منهما جميعًا؛ لأنّ فيها ضمير كلّ منهما.

﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ أي: فيما ذكر مِن أفعالهم الفظيعة ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: ابتلاء منه، لا أنّ البلاء عين تلك الأفعال، اللّهمّ إلّا أن يُجعل ﴿فى﴾ تجريديّة، فنسبته إلى الله تعالى إمّا مِن حيث الخلقُ أو الإقدارُ والتمكين. ﴿عَظِيمٌ﴾ لا يطاق.

ويجوز أن يكون المشار إليه الإنجاءَ مِن ذلك. و"البلاء": الابتلاءُ / بالنعمة، [٢٥٧و] وهو الأنسب كما يلوِّح به التعرّض لوصف الربوبيّة. وعلى الأوّل يكون ذلك باعتبار المآل الذي هو الإنجاء، أو باعتبار أنّ بلاء المؤمِن تربيةٌ له.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ مِن جملة مقال موسى عليه السلام لقومه، معطوف على ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾، أي: اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذّن ربُّكم، أي:

آذن إيذانًا بليغًا لا تبقى معه شائبةُ شبهةٍ، لِما في صيغة التفعّل مِن معنى التكلّف المحمول في حقّه سبحانه على غايته التي هي الكمال. وقيل: هو معطوف على قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم﴾،[١] أي: اذكروا نعمته تعالى في هذين الوقتين، فإنّ هذا التأذّن أيضًا نعمة مِن الله تعالى عليهم ينالون بها خيرَي الدنيا والآخرة. وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ".[٢]

ولقد ذكّرهم عليه السلام أوّلًا بنعمائه تعالى عليهم صريحًا، وضمّنه تذكيرَ ما أصابهم قبل ذلك مِن الضرّاء، ثمّ أمرهم ثانيًا بذكر ما جرى مِن الله سبحانه مِن الوعد بالزيادة على تقدير الشكر، والوعيدِ بالعذاب على تقدير الكفر. والمراد بتذكير الأوقات تذكير ما وقع فيها مِن الحوادث مفصّلةً، إذ هي محيطة بذلك، فإذا ذُكرت ذُكر ما فيها كأنّه مشاهَد مُعايَنٌ.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ما خوّلتُكم مِن نعمة الإنجاء وإهلاك العدوّ وغير ذلك مِن النعم والآلاء الفائتة للحصر وقابلتموه بالإيمان والطاعة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمةً إلى نعمةٍ، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ذلك وغمَطتُموه ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فعسى يصيبكم منه ما يصيبكم.

ومِن عادة الكرام التصريح بالوعد، والتعريضُ بالوعيد، فما ظنّك بأكرم الأكرمين؟ ويجوز أن يكون المذكور تعليلًا للجواب المحذوف، أي: لَأعذِّبنّكم.

و"اللام" في الموضعين موطّئة للقسَم، وكلٌّ مِن الجوابين سادّ مَسدّ جوابَي الشرط والقسَم. والجملة إمّا مفعول / لـ﴿تَأَذَّنَ﴾ لأنّه ضرب مِن القول، أو لقولٍ مقدّر بعده، كأنّه قيل: وإذ تأذّن ربّكم فقال... إلخ. [٢٥٧ظ]

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: جامع البيان للطبري، ١٣/٦٠١، والكشف والبيان للثعلبي، ٥/٣٠٦.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ﴾ نِعَمَهُ تعالى ولم تشكروها ﴿أَنتُمۡ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن الخلائق ﴿جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم وشكر غيركم، ﴿حَمِيدٌ﴾ مستوجِب للحمد بذاته لكثرة ما يوجبه مِن أياديه وإن لم يحمَده أحد، أو محمود يحمَده الملائكة؛ بل كلّ ذرّة مِن ذرّات العالم ناطقة بحمده. والحمد حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها مِن الفضائل كان أدلّ على كماله سبحانه. وهو تعليل لِما حُذف مِن جواب «إن»، أي: إن تكفروا لم يرجع وَباله إلّا عليكم فإنّ الله تعالى لغنيّ عن شكر الشاكرين.

ولعلّه عليه السلام إنّما قاله عندما عايَن منهم دلائلَ العناد، ومخائلَ الإصرار على الكفر والفساد، وتيقّن أنّه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريضُ بالترهيب، أو قاله غِبَّ تذكيرهم بما ذُكر مِن قول الله عزّ سلطانه تحقيقًا لمَضمونه وتحذيرًا لهم مِن الكفران.

ثمّ شرع في الترهيب بتذكير ما جرى على الأمم الخالية فقال: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ ليتدبّروا ما أصاب كلّ واحد مِن حِزبَيِ المؤمِن والكافر، فيُقْلِعُوا عمّا هم عليه مِن الشرّ، ويُنِيبوا إلى الله تعالى. وقيل:[1] هو ابتداءُ كلام مِن الله سبحانه خطابًا للكفرة في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيختصّ تذكير موسى عليه السلام بما اختصّ ببني إسرائيل مِن السرّاء والضرّاء، والأيّامُ بالأيّام الجارية عليهم فقط. وفيه ما لا يخفى مِن البُعد، وأيضًا لا يظهر حينئذ وجه تخصيصِ تذكير الكفرة الذين في عهد النبيّ عليه الصلاة والسلام[2] بما أصاب أولئك المعدودين مع أنّ غيرهم أسوة لهم في الخلوّ قبل هؤلاء.

﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾ بدل مِن الموصول، أو عطف بيان، ﴿وَعَادٖ﴾ معطوف على «قَوۡمِ نُوحٖ»، ﴿وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: مِن بعد هؤلاءِ المذكورين، عطفٌ على ﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾ وما عُطف عليه.

---

[1] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/١٩٤.

[2] م: عليه الصلاة؛ س: عليه السلام. | والمثبت مِن ط.

[٢٥٨و] وقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ / اعتراض، أو الموصول مبتدأً، و﴿لَا يَعْلَمُهُمْ﴾ إلى آخره خبره، والجملة اعتراض، والمعنى: أنّهم مِن الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلّا اللهُ سبحانه. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «بين عدنانَ وإسماعيلَ ثلاثون أبًا لا يُعرفون».[١] وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية قال: «كذَب النسّابون»،[٢] يعني: أنّهم يَدَّعون عِلْمَ الأنساب وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد.

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ استئناف لبيان نبَئِهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الظاهرة والبيّنات الباهرة، فبيّنَ كلُّ رسول لأمّتِه طريقَ الحقّ، وهداهم إليه ليخرجهم مِن الظلمات إلى النور، ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ مشيرين بذلك إلى ألسنتهم وما يصدر عنها مِن المقالة اعتناءً منهم بشأنها، وتنبيهًا للرسل على تلقّيها والمحافظة عليها، وإقناطًا لهم عن التصديق والإيمان بإعلام أن لا جواب لهم سِواه.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: على زعمكم، وهي البيّنات التي أظهروها حجّةً على صحّة رسالاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [هود، ٩٦/١١]، ومرادهم بالكفر بها الكفرُ بدلالتها على صحّة رسالاتهم، أو فَعَضُّوها غَيْظًا وضجَرًا مِمّا جاءت به الرسل، كقوله تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران، ١١٩/٣]، أو وَضعوها عليها تعجّبًا منه واستهزاءً به، كمَن غلبه الضحِك، أو إسكاتًا للأنبياء وأمرًا لهم بإطباق الأفواه، أو ردّوها في أفواه الأنبياء عليهم السلام يمنعونهم مِن التكلّم تحقيقًا أو تمثيلًا، أو جعلوا أيدي الأنبياء في أفواههم تعجّبًا مِن عتوّهم وعنادهم، كما ينبئ عنه تعجّبهم[٣] بقولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾... إلخ.[٤]

وقيل: الأيدي بمعنى الأيادي، عبّر بها عن مواعظهم ونصائحهم وشرائعهم التي هي مدار النعم الدينيّة والدنياويّة؛ لأنّهم لمّا كذّبوها فلم يقبلوها فكأنّهم ردّوها إلى حيث جاءت منه.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٢؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣٢٦/٣؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ١٠/٥.

٢ جامع البيان للطبري، ٦٠٤/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٧/٥.

٣ وفي هامش م: أي: تعجّب الرسل. «منه».

٤ في الآية التالية.

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ عظيم ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ مِن الإيمان بالله والتوحيد، فلا ينافي شكّهم في ذلك كفرَهم القطعي بما أرسل به الرسل مِن البيّنات، فإنّهم كفروا بها قطعًا حيث لم يعتدّوا بها / ولم يجعلوها مِن جنس المعجزات، [٢٥٨ظ] ولذلك قالوا: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.[١] وقُرِئ: "تَدْعُونَّا" بالإدغام.[٢] ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة، مِن "أرابَه"، أو ذي ريبة، مِن "أرابَ الرجل"، وهي قلق النفس وعدم اطمئنانها بالشيء.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ينساق إليه المقال، كأنّه قيل: فماذا قالت لهم رسلهم؟ فأجيبَ بأنّهم قالوا منكرِين عليهم ومتعجّبين مِن مقالتهم الحمقاء: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ بإدخال الهمزة على الظرف؛ للإيذان بأنّ مدار الإنكار ليس نفسَ الشكّ؛ بل وقوعه فيما لا يكاد يُتَوَهَّم فيه الشكّ أصلًا، مُتَفادين عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا: أأنتم في شكّ مريب مِن الله تعالى؟ مبالغةً في تنزيه ساحة السُّبْحان[٣] عن شائبة الشكّ، وتسجيلًا عليهم بسخافة العقول، أي: أفِي شأنه سبحانه مِن وجوده ووحدته ووجوبِ الإيمان به وحدَه شكٌّ ما، وهو أظهر مِن كلّ ظاهر، وأجلى مِن كلّ جليّ، حتّى تكونوا مِن قِبَلِه في شكّ مريب؟

وحيث كان مقصدهم الأقصى الدعوةَ إلى الإيمان والتوحيد، وكان إظهار البيّنات وسيلةً إلى ذلك، لم يَتعرّضوا للجواب عن قول الكفرة: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾، واقتَصَروا على بيان ما هو الغاية القصوى، ثمّ عقّبوا ذلك الإنكارَ

---

[١] في الآية التالية.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٩.

[٣] قال أبو حيّان: «سُبحان: هو اسم وُضع موضع المصدر الذي هو التسبيح، وأصله الإضافة، ثمّ استعمل مقطوعًا عنها منوّنًا في الشعر وغير منوّن، وقيل: وُضع نكرة جارية مَجرى المصادر، فعُرِّف بالإضافة، وبـ"ال"، قال:

سُبحانك اللّهمّ ذا السُّبحان»

ارتشاف الضرَب لأبي حيّان، ١٣٦٦/٣.

بما يوجبه مِن الشواهد الدالّة على انتفاء المنكَر فقالوا: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مبدعِهما وما فيهما مِن المصنوعات على نظام أنيق شاهد بتحقّق ما أنتم منه في شكّ. وهو صفة للاسم الجليل، أو بدل منه. وَ﴿شَكٌّ﴾ مرتفع بالظرف لاعتماده على الاستفهام. وجعلُه مبتدأً على أنّ الظرف خبره يفضي إلى الفصل بين الموصوف والصفة بالأجنبي، أعني: المبتدأ، والفاعلُ ليسَ بأجنبي مِن رافعه، وقد جُوّز ذلك أيضًا.

﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان بإرساله إيّانا، لا أنّا ندعوكم إليه مِن تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾.[1] ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ بسببه، أو يدعوكم لأجل المغفرة، كقولك: "دعوتُه ليأكلَ معي". ﴿مِن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعضَها، وهو / ما [٢٥٩و]
عدا المظالم ممّا بينهم وبينه تعالى، فإنّ الإسلام يَجبُّه.

قيل: هكذا وقع في جميع القرآن في وعد الكفرة دون وعد المؤمنين تفرقةً بين الوعدين، ولعلّ ذلك لِما أنّ المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفرة مرتّبة على مَحض الإيمان، وفي شأن المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنّب عن المعاصي ونحو ذلك، فيتناول الخروج عن المظالم. وقيل: المعنى: ليغفر لكم بدلًا مِن ذنوبكم.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقتٍ سمّاه الله تعالى وجعله منتهى أعماركم على تقدير الإيمان.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف كما سبَق: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ مِن غير فضل يؤهّلكم لِما تدّعونه مِن النبوّة، ﴿تُرِيدُونَ﴾ صفة ثانية لـ﴿بَشَرٌ﴾ حملًا على المعنى، كقوله تعالى: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن، ٦/٦٤]، أو كلام مستأنَف، أي: تريدون بما تَتَصَدَّونَ له مِن الدعوة والإرشاد ﴿أَن تَصُدُّونَا﴾ بتخصيص العبادة بالله سبحانه ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: عن عبادة ما استمرّ آباؤنا على عبادته مِن غير شيء يوجبه، وإلّا ﴿فَأْتُونَا﴾ أي: إن لم يكن الأمر كما قلنا -بل كنتم رسلًا مِن جهة الله تعالى كما تدّعونه- فأتونا ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ يدلّ على فضلكم

---

[1] في الآية السابقة.

واستحقاقكم لتلك الرتبة، أو على صحّة ما تدّعونه مِن النبوّة حتّى نترك ما لم نَزَلْ نعبده أبًا عن جدّ.

ولقد كانوا آتوهم مِن الآيات الظاهرة والبيّنات الباهرة ما تخِرّ له صُمّ الجبال، ولكنّهم إنّما يقولون ما يقولون مِن العظائم مكابرةً وعنادًا وإراءةً لمَن وراءهم أنّ ذلك ليس مِن جنس ما ينطلق عليه السلطان المبين.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مُجاراةً معهم في أوّل مقالتهم، وإنّما قيل: ﴿لَهُمْ﴾ لاختصاص / الكلام بهم حيث أريدَ إلزامهم، بخلاف ما سلف مِن إنكار وقوعِ [٢٥٩ظ] الشكّ في الله سبحانه، فإنّ ذلك عامّ وإن اختصّ بهم ما يعقُبه.

﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما تقولون ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ﴾ بالنبوّة ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يعنون أنّ ذلك عطيّة مِن الله تعالى[1] يعطيها مَن يشاء مِن عباده بمحض الفضل والامتنان مِن غير داعية توجبه، قالوه تواضعًا وهضمًا للنفس، أو ما نحن مِن الملائكة؛ بل نحن بشر مثلكم في الصورة، أو في الدخول تحت الجنس، ولكنّ الله تعالى يمُنّ بالفضائل والكمالات والاستعدادات[2] على مَن يشاء المَنّ بها، وما يشاء ذلك إلّا لعلمه باستحقاقه لها، وتلك الفضائل والكمالات والاستعدادات هي التي يدور عليها فلَك الاصطفاءِ للنبوّة.

﴿وَمَا كَانَ﴾ وما صحّ وما استقام ﴿لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بحجّة مِن الحجج فضلًا عن السلطان المبين بشيء مِن الأشياء وسبب مِن الأسباب ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإنّه أمر يتعلّق بمشيئته تعالى، إن شاء كان، وإلّا فلا.

---

١ س - تعالى.

٢ م ط - والاستعدادات [هو في هامش م بدون إشارة إلى مكانه، ووُضع في ط قبل "والكمالات" وفي س بعده كما اثبتناه].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحدَه دون ما عداه مطلقًا ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أمرٌ منهم للمؤمنين بالتوكّل، ومقصودهم حمل أنفسهم عليه آثِرَ ذِي أَثِيرٍ، ألا يُرى إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا لَنَآ﴾ أي: أيّ عذر لنا ﴿أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في أن لا نتوكل عليه. والإظهار لإظهار النشاط بالتوكّل عليه والاستلذاذِ بذكر اسمه تعالى وتعليلِ التوكّل. ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾ أي: والحال أنّه قَد فعَل بنا ما يوجبه ويستدعيه حيث هدانا / ﴿سُبُلَنَا﴾ [٢٦٠و]
أي: أرشد كلًّا منّا سبيلَه ومنهاجه الذي شرَع له وأوجب عليه سلوكه في الدين.

وحيث كانت أذيّة الكفّار مِمّا يوجب القلقَ والاضطراب القادح في التوكّل قالوا على سبيل التوكيد القسَمي مظهرين لكمال العزيمة: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ بالعناد واقتراح الآيات وغير ذلك ممّا لا خير فيه. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ خاصّةً ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: فليثبت المتوكّلون على ما أحدثوه مِن التوكّل. والمراد هو المراد ممّا سبق مِن إيجاب التوكّل على أنفسهم، والمراد بـ"المتوكّلين" المؤمنون، والتعبيرُ عنهم بذلك لسبق ذكر اتّصافهم به، ويجوز أن يراد: وعليه فليتوكّلْ مَن يتوكّل دون غيره.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لعلّ هؤلاء القائلين بعضُ المتمرّدين العاتين الغالِين في الكفر مِن أولئك الأممِ الكافرة التي نُقِلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيب وأضرابهم، ولذلك لم يُقَل: "وقالوا" ﴿لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ لم يقتنعوا بعصيانهم الرسل ومعاندتهم الحقّ بعد ما رأوا البيّنات الفائتةَ للحصر حتّى اجترأوا على مثلِ هاتِيك العظيمة التي لا يكاد يحيط بها دائرة الإمكان، فحلَفوا على أن يكون أحد المُحالَين. والعَوْدُ إمّا بمعنى مطلق الصيرورة، أو باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل، وقد مرّ في الأعراف،[١] وسيأتي في الكهف.[٢]

---

[١] الأعراف، ٨٨/٧.

[٢] الكهف، ٢٠/١٨.

﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: إلى الرسل ﴿رَبُّهُمۡ﴾ مالك أمرهم عند تناهي كفر الكفرة وبلوغهم مِن العتوّ إلى غاية لا مَطمَع بعدها في إيمانهم: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على إضمار القول، أو على إجراء الإيحاءِ مُجراه؛ لكونه ضربًا منه.

﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾

﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ / أي: أرضَهم وديارَهم عقوبةً لهم بقولهم: [٢٦٠ظ] ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ﴾،[1] كقوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف، ١٣٧/٧]. ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: مِن بعد إهلاكهم.

وقُرئ: "لَيُهلِكَنَّ"، "وَلَيُسكِنَنَّكُمْ" بالياء[2] اعتبارًا لِـ﴿أَوۡحَىٰٓ﴾، كقولهم: "حلَف زيد لَيخرجَنّ غدًا".

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الموحى به، وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارَهم، أي: ذلك الأمر محقّق ثابت ﴿لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي﴾ مَوقفي، وهو الموقف الذي يقف فيه العباد يوم يقوم الناس لربّ العالمين، أو قيامي عليه وحفظي لأعماله. وقيل: لفظ "المقام" مُقحَم.

﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وعيدِي بالعذاب، أو عذابي الموعود للكفّار، والمعنى أنّ ذلك حقّ للمتقين، كقوله: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف، ١٢٨/٧].

﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥﴾

﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ أي: استنصروا الله على أعدائهم، كقوله تعالى: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُ﴾ [الأنفال، ١٩/٨]، أو استحكموا وسألوه القضاء بينهم، مِن "الفَتاحة"، وهي الحكومة، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف، ٨٩/٧]، فالضمير للرسل، وقيل: للكفرة، وقيل: للفريقين، فإنّهم سألوا أن ينصُر المحقّ ويُهلك المُبطل، وهو معطوف على ﴿أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.[3]

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم النخعي وأبي البرهسم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٠.

٣ إبراهيم، ١٣/١٤.

وقُرئ بلفظ الأمرِ[١] عطفًا على ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾،[٢] أي: أَوحى إليهم ربُّهم: لَنُهلكنّ، وقال لهم: استفتِحوا.

﴿وَخَابَ﴾ أي: خَسِرَ وهلك ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ متّصف بضدّ ما اتّصف به المتّقون، أي: فنُصِروا عند استفتاحهم، وظَفِروا بما سألوا، وأفلحوا، وخاب كلّ جبّارٍ عنيد، وهم قومُهم المعانِدون. فالخيبة بمعنى مطلق الحرمان، دون الحرمان / عن المطلوب، أو ذلك باعتبار أنّهم كانوا يزعمون أنّهم على الحقّ، [٢٦١و]
أو استفتح الكفّار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا.

وإنّما قيل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالتجبّر والعناد، لا أنّ بعضهم ليسوا كذلك وأنّه لم يُصبهم الخيبة، أو استفتحوا جميعًا، فنُصر الرسل، وأُنجِزَ لهم الوعدُ، وخاب كلّ عاتٍ متمرِّد. فالخيبة بمعنى الحرمان غِبَّ الطلب. وفي إسناد الخيبة إلى كلّ منهم ما لا يخفى مِن المبالغة.

﴿مِن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦﴾

﴿مِن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: بين يديه، فإنّه مُرصَد لها،[٣] واقف على شفيرها في الدنيا، مبعوث إليها في الآخرة. وقيل: مِن وراء حياته، وحقيقته ما تَوارى عنك. ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ معطوف على مقدّر جوابًا عن سؤال سائل، كأنّه قيل: فماذا يكون إذن؟ فقيل: يُلقى فيها، ويُسقى ﴿مِن مَّآءٍ﴾ مخصوص لا كالمياه المعهودة ﴿صَدِيدٍ﴾ وهو قيح، أي: دم مختلط بمِدّةٍ يسيل مِن الجرح. قال مجاهد وغيره: «هو ما يسيل مِن أجساد أهلِ النار».[٤] وهو عطف بيان لِـ﴿مَآءٍ﴾، أُبهِمَ أوّلًا ثمّ بيّنَ بـ"الصَّدِيد" تهويلًا لأمره. وتخصيصه بالذكر مِن بين عذابها يدلّ على أنّه مِن أشدّ أنواعه.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٠.
٢ إبراهيم، ١٤/١٣.
٣ ط س: بها.
٤ جامع البيان للطبري، ١٣/٦١٨؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣/٣٣١.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قيل: هو صفة لـ﴿مَآءٍ﴾، أو حال منه، والأظهر أنّه استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا يَفعل به؟ فقيل: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾، أي: يتكلّف جَرعه مرّة بعد أخرى؛ لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: لا يقارب أن يسيغه فضلًا عن الإساغة؛ بل يغصّ به فيشربه بعد اللّتيا والتي،[١] جَرعةً غِبّ جَرعة، / فيطول عذابه، تارة بالحرارة والعطش، وأخرى بشربه على تلك الحال، فإنّ السوغ انحدار الشراب في الحلق بسهولةٍ وقبولِ نفسٍ، ونفيُه لا يوجب نفي ما ذكر جميعًا. وقيل: لا يكاد يُدخله في جوفه، وعُبّر عنه بالإساغة لِما أنّها المعهودة في الأشربة. وهو حال مِن فاعل ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾، أو مِن مفعوله، أو منهما جميعًا. [٢٦١ظ]

﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: أسبابه مِن الشدائد ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ ويحيط به مِن جميع الجهات، أو مِن كلّ مكان مِن جسده حتّى مِن أصول شعره وإبهام رجله. ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: والحال أنّه ليس بميّت حقيقةً كما هو الظاهر مِن مجيء أسبابه لا سيّما مِن جميع الجهات حتّى لا يتألّم بما غشيه مِن أصناف المُوبِقات.

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ مِن بين يديه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ يستقبل كلّ وقت عذابًا أشدّ وأشقّ ممّا كان قبله، ففيه دفع ما يتوهّم مِن الخِفّة بحسب الاعتياد، كما في عذاب الدنيا. وقيل: هو الخلود في النار. وقيل: هو حبس الأنفاس. وقيل: المراد بـ"الاستفتاح والخيبة" استسقاء أهل مكّة في سِنِيهِم التي أرسلها الله تعالى عليهم بدَعوته صلّى الله عليه وسلّم وخيبتهم في ذلك، وقد وَعَدَ لهم بدلَ ذلك صديدَ أهل النار.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ أي: صفتهم وحالهم العجيبة الشأن التي هي كالمَثَل في الغرابة، وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾ كقولك:

---

١ اللّتيا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٦٤.

"صفة زيد عِرضه مَهتوك وماله مَنهوب". والجملة[١] استئناف مبنيّ على سؤال مَن قال: ما بَالُ أعمالهم التي عملوها في وجوه البِرّ مِن صلة الأرحام، وإعتاقِ الرقاب، وفداء الأسارى، وإغاثة الملهوفين، / وقِرَى الأضياف، وغيرِ [٢٦٢و] ذلك ممّا هو مِن باب المكارم، حتّى آل أمرُهم إلى هذا المآل؟ فأجيب بأنّ ذلك كرمادٍ ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ حملَتْه وأسرعَتْ الذهابَ به ﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍ﴾ العصف اشتداد الريح، وُصف به زمانها مبالغةً، كقولك: "ليلة ساكرة"،[٢] وإنّما السُّكورُ لريحها. شُبِّهَتْ[٣] صنائعُهم المعدودة -لابتنائها على غير أساسٍ مِن معرفة الله تعالى والإيمان به والتوجّه بها إليه تعالى- برماد طيّرته الريح العاصفة.

أو استئناف مسوق لبيان أعمالهم للأصنام، أو مبتدأ خبره محذوف، كما هو رأي سيبويه،[٤] أي: فيما يتلى عليك مَثَلُهم. وقوله: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ جملة مستأنَفة مبنيّة على سؤال مَن يقول: كيف مَثَلهم؟ فقيل: أعمالهم كَيت وكَيت، سواء أريدَ بها صنائعهم أو أعمالهم لأصنامهم. وقيل: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بدل مِن ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ﴾، وقولُه: ﴿كَرَمَادٍ﴾ خبره.

﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ مِن تلك الأعمال ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ ما، أي: لا يرَون له أثرًا مِن ثواب أو تخفيف عذاب كدأب الرماد المذكور، وهو فَذْلكة التمثيل. والاكتفاء ببيانِ عدم رؤية الأثر لِأعمالهم للأصنام مع أنّ لها عقوباتٍ هائلةً للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنّها شفعاءُ لهم عند الله تعالى، وفيه تهكّم بهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دلّ عليه التمثيل دلالةً واضحةً مِن ضلالهم مع حسبانهم أنهم على شيء ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ عن طريق الحقّ والصواب، أو عن نيل الثواب.

---

١ م ط: وهو؛ س: أو هو [صُحّح في هامش م].

٢ ليلةٌ ساكِرةٌ، أي: ساكنةٌ. **الصحاح** للجوهري، «سكر».

٣ م + أو.

٤ انظر: **الكتاب** لسيبويه، ١/١٤٣؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٤٧.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، والمراد به أمّته. وقيل: لكلّ أحد مِن الكفرة؛ لقوله تعالى: ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾. والرؤية رؤية القلب، وقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ سادّ مسدّ مفعولَيها،[1] أي: ألم تعلم أنّه تعالى خلقهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ / ملتبسةً بالحكمة والوجهِ الصحيح الذي يحقّ أن تُخلَق عليه. وقُرئ: "خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ".[2] [٢٦٢ظ]

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يُعدِمكم بالمرّة ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: يَخلُق بدلكم خلقًا آخر مستأنَفًا لا علاقة بينكم وبينهم، رتّب قدرته تعالى على ذلك على قدرته تعالى على خلق السماوات والأرض على هذا النمط البديع إرشادًا إلى طريق الاستدلال، فإنّ مَن قدر على خلق مثل هاتِيك الأجرام العظيمة كان على تبديل خلقٍ آخرَ بهم أقدر، ولذلك قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي: إذهابكم والإتيانُ بخَلقٍ جديد مكانكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذّر أو متعسّر، فإنّه قادر لذاته على جميع الممكنات، لا اختصاصَ له بمقدور دون مقدور، ومَن هذا شأنه حقيقٌ بأن يؤمَن به، ويُرجَى ثوابُه، ويُخشى عقابه.

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: يبرزون يوم القيامة. وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقّق وقوعه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف، ٤٤/٧]، أو لأنّه لا مضيّ ولا استقبال بالنسبة إليه سبحانه. والمراد بُروزهم مِن قبورهم لأمر الله تعالى ومحاسبته، أو لله على ظنّهم، فإنّهم كانوا يظنّون

---

[1] س: مفعوليهما.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلَف. النشر لابن الجزري، ٢٩٨/٢.

عند ارتكابهم الفواحش سرًا أنّها تخفى على الله سبحانه، فإذا كان يومُ القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم.

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ الأتباعُ، جمع "ضَعيف"، والمراد ضعف الرأي، وإنّما كُتب بالواو على لفظ مَن يفخّم الألف قبل الهمزة.[١] ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ لرؤسائهم الذين استتبعُوهم واسْتَغْوَوهُم: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ في تكذيب الرسل والإعراض عن نصائحهم. وهو جمع "تابع"، كـ"غَيَب" في جمع "غائب"، أو مصدر نُعِتَ به مبالغةً، أو على إضمارٍ، أي: ذَوِي تَبَع.

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ﴾ دافعون ﴿عَنَّا﴾ و"الفاء" للدلالة على سببيّة الاتّباع للإغناء. والمراد التوبيخ والعتاب والتقريع والتبكيت. / ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ [٢٦٣و]
﴿مِنْ﴾ الأولى للبيان واقعةً موقع الحال، والثانية للتبعيض واقعةً موقع المفعول، أي: بعض الشيء الذي هو عذاب الله تعالى، ويجوز كونهما للتبعيض، أي: بعض شيء هو بعض عذاب الله، والإعراب كما سبق. ويجوز أن يكون الأولى مفعولًا، والثانية مصدرًا، أي: فهل أنتم مُغنون عنّا بعض العذاب بعض الإغناء؟ ويعضد الأوّل قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [غافر، ٤٠/٤٧].

﴿قَالُواْ﴾ أي: المستكبرون جوابًا عن معاتبة الأتْباعِ، واعتذارًا عمّا فعلوا بهم: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي: للإيمان وَوَفَّقَنا له ﴿لَهَدَيۡنَـٰكُمۡ﴾ ولكن ضَللْنا فأضللْناكم، أي: اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا، أو لو هدانا الله طريق النجاة مِن العذاب لهديناكم وأغنَينا عنكم كما عرّضناكم له، ولكن سَدَّ دُوننا طريق الخلاص، ولاتَ حينَ مَناص.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ﴾ ممّا لقينا ﴿أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ على ذلك، أي: مستوٍ علينا الجزعُ والصبر في عدم الإنجاء. و"الهمزة" و"أم" لتأكيد التسوية، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة، ٢/٦]. وإنّما أسندوهما ونسبوا استواءَهما

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٤٨/٢. وقال أبو داود سليمان بن نَجاح: «وكتبوا هنا ﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ بواو بعد الفاء وألِف بعدها تقويةً للهمزة لخفائها، مِن غير ألف قبلها استغناءً بحركة الفاء عنها». مختصر التبيين لسليمان بن نَجاح، ٧٤٩/٣.

إلى ضمير المتكلِّم المنتظِم للمخاطبين أيضًا مبالغةً في النهي عن التوبيخ بإعلام أنّهم شركاءُ لَهم فيما ابتُلُوا به وتسليةً لهم.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَا﴾... إلخ مِن كلام الفريقين، على منوال قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ [يوسف، ٥٢/١٢]، ويؤيّده ما رُوي أنّهم يقولون: تَعالَوا نَجزَعْ، فيَجزَعون خمسمائة عامٍ، فلا ينفعهم، فيقولون: تَعالَوا نصبِر، فيصبرون كذلك، فلا ينفعهم، فعند ذلك يقولون ذلك.[١]

/ ولمّا كان عتاب الأَتباع مِن باب الجَزَعِ ذَيَّلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى في ذلك فقالوا: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ مِن مَنجى ومَهرَب مِن العذاب، مِن "حاصَ الحِمار" إذا عدل بالفِرار. وهو إمّا اسم مكان، كالمَبيت والمَصيف، أو مصدر، كالمَغيب والمَشيب. وهي جملة مفسِّرة لإجمال ما فيه الاستواء، فلا محلّ لها مِن الإعراب، أو حال مؤكِّدة، أو بدل منه. [٢٦٣ظ]

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الذي أضلَّ كلا الفريقين واستتبعهما عندما عَتَباهُ بما قاله الأَتباعُ للمستكبرين ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: أُحكمَ وفُرغَ منه، وهو الحساب، ودخل أهل الجنّة الجنّةَ، وأهلُ النارِ النارَ، خطيبًا في محفل الأشقياء مِن الثقلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: وعدًا مِن حقّه أن يُنجَز فأَنجزه، أو وَعدًا أَنجزَه، وهو الوعدُ بالبعث والجزاء، ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ أي: وعدَ الباطل، وهو أن لا بعث ولا حساب، ولئن كان فالأصنام شفعاؤكم، ولم يصرّح ببطلانه لِما دلّ عليه قوله: ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي: مَوعدي، على حذف المفعول الثاني، أي: نقضته، جعل خُلفَ وعده كالإخلاف منه، كأنّه كان قادرًا على إنجازه، وأنّى لَهُ ذلك.

---

[١] قاله مقاتل. انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٨٤٠/٤؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣١٣/٥.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: تسلّطٍ أو حجّةٍ تدلّ على صدقي ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ إلّا دعائي إيّاكم إليه وتسويله، وهو وإن لم يكن مِن باب السلطان، لكنّه أبرَزَه في مَبرَزه على طريقة:

تحيّةُ بينِهم ضَربٌ وجيعُ[1]

مبالغةً في نفي السلطان عن نفسه، كأنّه قال: إنّما يكون لي عليكم سلطان [٢٦٤و] إذا كان / مجرّد الدعاء مِن بابه، ويجوز كون الاستثناء منقطعًا. ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ فأسرعتم إجابتي، ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ بوعدي إيّاكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القَسْرِ والإلجاء كما يدلّ عليه الفاء. وقُرئ بالياء[2] على وجه الالتفات، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس، ٢٢/١٠].

﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ حيث استجبتم لي باختياركم حينَ دعوتكم بلا حجّة ولا دليل بمجرّد تزيينٍ وتسويلٍ، ولم تستجيبوا ربّكم إذ دعاكم دعوةَ الحقّ المقرونةَ بالبيّنات والحُجج، وليس مراده التَنصُّلَ عن توجّه اللائمة إليه بالمرّة؛ بل بيانُ أنّهم أحقّ بها منه. وليس فيه دلالة على استقلال العبد في أفعاله كما زعمت المعتزلة؛ بل يكفي في ذلك أن يكون لقدرته الكاسبة التي عليها يدور فلَكُ التكليف مدخل فيه، فإنّه سبحانه إنّما يخلق أفعاله حسبما يختاره، وعليه يترتّب السعادة والشقاوة. وما قيل مِن أنّه يستدعي أن يُقال: فلا تلوموني ولا أنفسَكم، فإنّ الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه؛[3] مبنيّ على عدم الفرق بين مذهب أهل الحقّ وبين مسلك الجبريّة.

---

١ صدره:

وخيلٍ قد دَلَفتُ لها بخيلٍ

وهو منسوب إلى عمرو بن مَعدي كَرِب. قال البغدادي: «وهذا البيت نسبه شرّاح أبيات الكتاب وغيرهم إلى عمرو بن مَعدِي كَرِب الصحابي، ولم أرَه في شعره». خزانة الأدب للبغدادي، ٢٦٥/٩. وانظر: شعر عمرو بن معدي كرب، ص ١٤٩. الشاهد فيه أنّه جعَل الضرب بالسيوف تحيّةً بينهم. ودلَفت لها: قصَدت إليها وقرُبَت منها ولقيتها. يريد أنّه كان يجمع الجيوش فيلقَى بهم أمثالَهم، وعنَى أنّه كان يرأسهم؛ لأنّ الرؤساء يجهّزون الجيوش ويسيّرونهم. شرح كتاب سيبويه للسيرافي، ١٨٧/٢.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٥٢/٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٢٨/٦.

٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٥٠/٢.

﴿مَآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أي: بمُغيثِكم مِمّا أنتم فيه مِن العذاب، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ ممّا أنا فيه. وإنّما تعرَّضَ لذلك مع أنّه لم يكن في حيّز الاحتمال مبالغةً في بيان عدم إصراخه إيّاهم، وإيذانًا بأنّه أيضًا مبتلًى بمثل ما ابتُلُوا به،[1] ومحتاج إلى الإصراخ، فكيف مِن إصراخ الغير، ولذلك آثر الجملة الاسميّة، فكأنّ ما مضى كان جوابًا منه عن توبيخهم وتقريعهم، وهذا جواب عن استغاثتهم واستعانتهم به في استدفاع / ما دهِمَهُم مِن العذاب. وقُرئ بكسر الياء.[2] [٢٦٤ظ]

﴿إِنِّي كَفَرۡتُ﴾ اليوم ﴿بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ﴾ أي: بإشراككم إيّاي، بمعنى: تبرّأتُ منه واستنكرته، كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ [فاطر، ١٤/٣٥]، يعني: أنّ إشراككم لي بالله سبحانه هو الذي يُطمِعكم في نصرتي لكم بأن كان لكم عليّ حقّ حيث جعلتموني معبودًا، وكنتُ أَوَدّ ذلك وأرغب فيه، فاليوم كفرتُ بذلك ولم أحمَده، ولم أقبَله منكم؛ بل تبرّأت منه ومنكم، فلم يبقَ بيني وبينكم علاقة.

أو كفرتُ مِن قبلُ حين أبَيتُ السجود لآدم بالذي أَشۡرَكۡتُمُونِيهِ وهو الله عزّ وجلّ، كما في قوله: "سبحان ما سخّركُنّ لنا"،[3] فيكون تعليلًا لعدم إصراخه، فإنّ الكافر بالله سبحانه بمَعزِل مِن الإغاثة والإعانة، سواء كان ذلك بالمُدافعة أو الشفاعة. وأمّا جعله تعليلًا لعدم إصراخهم إيّاه فلا وجه له، إذ لا احتمال له حتّى يحتاج إلى التعليل، ولأنّ تعليل عدم إصراخهم بكُفره يوهم أنّهم بسبيل مِن ذلك لولا المانعُ مِن جهته.

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ تتمّة كلامه، أو ابتداء كلام مِن جهة الله عزّ وعلا.[4] وفي حكاية أمثاله لطف للسامعين وإيقاظ لهم حتّى يحاسِبوا أنفسهم ويتدبّروا عواقبهم.

---

١ س – به.

٢ قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٢٩٨/٢.

٣ انظر: المفصّل للزمخشري، ص ١٨٦.

٤ س: عزّ وجلّ.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمره، أو بتوفيقه وهدايته. وفي التعرّض لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرهم إظهارُ مزيد اللطف بهم. والمُدخِلون هم الملائكة عليهم السلام. وقُرئ على صيغة التكلّم،[١] فيكون قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلّقًا بقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: يحيّيهم الملائكة بالسلام بإذن ربّهم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، وقد عُلِّق بما بعده مِن قوله تعالى: ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: كيف اعتمده ووضعه في موضعه اللائق به ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ منصوب بمُضمَر، أي: جعل كلمةً طيّبةً / هي كلمة التوحيد، أو [٢٦٥و]
كلَّ كلمة حسنة، كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة. ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي: حَكَم بأنّها مثلُها، لا أنّه تعالى صيّرها مِثلَها في الخارج، وهو تفسير لقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ كقولك: "شرّف الأمير زيدًا؛ كساه حُلّة، وحمله على فرَس". ويجوز أن يكون ﴿كَلِمَةً﴾ بدلًا مِن ﴿مَثَلًا﴾، و﴿كَشَجَرَةٍ﴾ صفتها، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي كشجرة، وأن يكون أوّلَ مفعولَيْ ﴿ضَرَبَ﴾ إجراءً له مُجرى "جعل" قد أُخّر عن ثانيهما -أعني: ﴿مَثَلًا﴾- لئلّا يبعد عن صفته التي هي ﴿كَشَجَرَةٍ﴾. وقد قُرئت بالرفع على الابتداء.[٢]

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: ضارب بعروقه في الأرض. وقرأ أنس بن مالك رضي الله عنه: "كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ثَابِتٍ أَصْلُهَا".[٣] وقراءة الجماعة أقوى سبكًا وأنسب بقرينته،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٠.
[٢] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٨/٣. والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٣٢/٦.
[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦١.

أعني: قوله عزّ وجلّ:[١] ﴿وَفَرۡعُهَا﴾ أي: أعلاها ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ في جهة العلوّ، ويجوز أن يُراد "وفروعها" على الاكتفاء بلفظ الجنس عن الجمع.

﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾

﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا﴾ تعطي ثمرها ﴿كُلَّ حِينِۭ﴾ وقّته الله تعالى لإثمارها ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهَا﴾ بإرادة خالقها. والمراد بالشجرة المنعوتة إمّا النخلة، كما رُوي مرفوعًا،[٢] أو شجرة في الجنّة. ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأنّ في ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإنّه تصوير للمعاني بصور المحسوسات.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦﴾

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر والدعاءُ إليه، أو تكذيبُ الحقّ، أو ما يعمّ الكلّ، أو كلُّ كلمة قبيحة ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ أي: كمِثل شجرة خبيثة. قيل: هي كلّ شجرة لا يطيب ثمرها كالحَنظَل والكَشُوثِ[٣] ونحوهما. وتغيير الأسلوب للإيذان بأنّ ذلك غيرُ مقصودِ الضربِ والبيانِ، وإنّما ذلك أمر ظاهر يعرفه كلّ أحد.

﴿ٱجۡتُثَّتۡ﴾ استؤصلت وأخذت جثّته بالكلّيّة ﴿مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ لكون عروقها قريبة منها. ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ / استقرار عليها. [٢٦٥ظ]

---

[١] س: تعالى.

[٢] منه ما أخرجه البخاري في صحيحه، ٣٤/٨ (٦١٤٤)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أخبروني بشجرة مَثَلها مَثَل المسلم، تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربها، ولا تَحُتُّ ورقَها» فوقع في نفسي أنّها النخلة، فكرِهت أن أتكلّم وثَمّ أبو بكر وعمر، فلمّا لم يتكلّما، قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «هي النخلة» الحديث. وما أخرجه الترمذي في سننه، ٢٩٥/٥ (٣١١٩)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: أُتي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقِناع عليه رُطب، فقال: ﴿مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم، ٢٤/١٤]، قال: «هي النخلة»، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ [إبراهيم، ٢٦/١٤]، قال: «هي الحنظل». وروى الترمذي مثله موقوفًا على أنس رضي الله عنه وقال: «هذا أصحّ» يعني الموقوف.

[٣] الكَشُوث: نبت يتعلّق بأغصان الشجر مِن غير أن يضرب بعِرْقٍ في الأرض. **الصحاح** للجوهري، «كشث».

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الذي ثَبَتَ بالحجّة عندهم، وتمكّن في قلوبهم، وهو الكلمة الطيّبة التي ذُكرت صفتها العجيبة. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا يُزَالون عنه إذا افتتنوا في دينهم، كزكريّا ويحيى وجرجيس[1] وشمسون[2] والذين فتنهم أصحاب الأخدود، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فلا يتلعثَمون إذا سُئِلوا مِن معتقَدهم في الموقف، ولا يُدْهِشُهم أهوالُ القيامة، أو عند سؤال القبر.

رُوي أنّه عليه السلام ذَكر قبض روح المؤمِن فقال: «ثمّ يعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيُجلِسانِه في قبره، فيقولانِ: "مَن رَبّك؟ وما دينك؟ ومَن نبيّك؟" فيقول: "ربّي الله، وديني الإسلامُ، ونبيّي محمّدٌ صلّى الله عليه وسلّم"، فينادي منادٍ مِن السماء أنّه صدَق عبدي»، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾.[3] وهذا مثالُ إيتاء الشجرة المذكورة أُكلَها كلَّ حينٍ.

---

١ قال الطيبي: «وجدت في كتاب المبتدأ المنسوب إلى أبي عبد الله محمّد بن عبد الله الكسائي أنّه قال: إنّ جَرجيس كان مِن الحواريّين أصحاب عيسى عليه السلام، وعلّمه الله الاسمَ الذي يحيا به الموتى، وكان بأرض الموصل جبّار يعبد الصنم، فدعاه جرجيس إلى عبادة الله، ونهاه عن عبادة الصنم، فأَمَر به، فشُدَّ يديه ورجليه، ودعا بأمشاط مِن الحديد فسرح بها صدره وبدنه، ثمّ صبّ عليه ماء الملح، فصبّره الله عليه، ثمّ دعا بمسامير مِن حديد فسمَر عينيه وأذنيه، فصبّره الله عليه، ثمّ دعا بحوض مِن نحاس فأوقد عليه حتى ابيضّ، ثمّ ألقي عليه وأطبق رأسه، فجعله الله له بردًا وسلامًا، وزاده حسنًا وجمالًا، ثمّ قطّع إربًا إربًا، فأحياه الله، ودعاهم إلى الله، فلم يؤمن الملك، فأمر الله أن يغيّر بهم، وقلب بالمدينة عاليَها وسافلَها». فتوح الغيب للطيبي، ٨/٥٩٤.

٢ قال الثعلبي: «كانت قصّته على ما ذكر وهب بن منبّه: أنّه كان رجلًا مسلمًا، وكانت أمّه قد جعلته نذيرًا، وكان مِن أهل قرية مِن قرى الروم كانوا يعبدون الأصنام، وكان منزله منها على أميال غير كثيرة، فكان يغزوهم وحدَه، ويجاهدهم في الله فيصيب منهم»... وفيه: «فأخذوه فجدعوا أنفَه وانفذوا أذنيه وفقَئوا عينيه...، فدعا شمسون ربّه حين مثّلوا ووقفوه أن يسلّطه عليهم، فأمر أن يأخذ بعمودين مِن عُمد المدينة التي عليها الملِك والناس الذين معه، فاجتذبهما جميعا فجذبهما، فردّ الله تعالى إليه بصره وما أصابوا مِن جسده، ووقعت المئذنة بالملِك ومَن عليها مِن الناس، فهلكوا فيها هدمًا». انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٠/٢٥٧ (سورة القدر).

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٥٤. وأخرجه بنحوه أبو داود في سننه، ٧/١٣١ (٤٧٣٥). وأخرجه البخاري في صحيحه، ٦/٨٠ (٥٦٩٩) مختصرًا.

قال الثعلبي في تفسيره:[١] «أخبرني أبو القاسم بن حبيب[٢] في سنة ستٍّ وثمانين وثلاثمائة، قال: سمعت أبا الطيّب محمد بنَ عليّ الخيّاطَ[٣] يقول: سمعتُ سَهلَ بنَ عمّار العملي[٤] يقول: رأيت يَزيدَ بنَ هارون[٥] في منامي بعد موته فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أتاني في قبري ملكان فَظّانِ، فقالا: مَن ربّك؟ وما دينك؟ ومَن نبيّك؟ فأخذتُ بلحيتي البيضاء، فقلت لهما: أَلِمِثْلِي يقالُ هذا، وقد علَّمتُ الناسَ جوابَكما ثمانين سنةً؟ فذهبا».

/ ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: يخلق فيهما الضلال عن الحقّ الذي ثبّت المؤمنين عليه حَسْبَ إرادتِهم واختيارهم، والمراد بهم الكفرة، بدليل ما يقابله. ووَصْفُهم بالظلم إمّا باعتبار وضعهم للشيء في غير موضعه، وإمّا باعتبار ظلمهم لأنفسهم حيث بدّلوا فطرة الله التي فطَر الناس عليها، فلم يهتدوا إلى القول الثابت، أو كلُّ مَن ظلم نفسه بالاقتصار على التقليد والإعراض عن البيّنات الواضحة، [٢٦٦و]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٨/٥.

٢ هو الحسن بن محمّد بن حبيب بن أيوب النيسابوري، أبو القاسم (ت. ٤٠٦هـ/١٠١٦م)، الواعظ، المفسّر. كان أديبًا نحويًّا، عارفًا بالمغازي والقصص والسير، انتشر عنه بنيسابور العلم الكثير، وسارت تصانيفه الحِسان في الآفاق، وكان أبو القاسم الثعلبي مِن خواصّ تلاميذه. صنّف في القراءات، والتفسير، والآداب. انظر: طبقات المفسّرين للسيوطي، ص ٤٥؛ والأعلام للزركلي، ٢١٣/٢.

٣ هو محمّد بن عليّ بن الحسن، الخيّاط، النيسابوري، أبو الطيّب، سمع أبا يحيى سهلَ بن عمّار العَتكي، وعنه أبو عبد الله الحاكم، ووَصَفه بالزاهد، وذكر أنّه حدّثه مِن أصل كتابه، وأبو الحسن محمّد بن الحسين بن داود العلوي، ووصفه بالصوفي. ترجمه الحاكم في تاريخ نيسابور، ص ١٠٦، وذكَر أنّه كان مجابَ الدعوة. الروض الباسم للمنصوري، ١١٤٢/٢.

٤ كذا في الأصول الخطّيّة، والصواب: "العَتكي". وهو سهل بن عمّار العَتكي، النيسابوري، أبو يحيى (ت. ٢٦٧هـ/٨٨٠م)، القاضي، العلّامة، الحنفي، شيخ أهل الرأي بخراسان، وقاضي هراة. ارتحل في الحديث. وسمع مِن يزيد بن هارون، وشَبابة بن سوار، وجعفر بن عون، وعبد الرحمن بن قيس، والواقدي، وعدّة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٢/١٣.

٥ هو يزيد بن هارون بن زاذي السلمي مولاهم، الواسطي، أبو خالد (ت. ٢٠٦هـ/٨٢١م)، الإمام، القدوة، الحافظ، شيخ الإسلام. سمع مِن عاصم الأحول، ويحيى بن سعيد الأنصاري القاضي، وسليمان التيمي، وخلق كثير. وحدّث عنه بقيّة بن الوليد -مع تقدّمه- وعليّ بن المديني، وأحمد بن حنبل، وأبو بكر بن أبي شيبة. وكان رأسًا في العلم والعمل، ثقة، حجّة، كبير الشأن. قال عليّ بن المديني: «ما رأيت أحفظَ مِن يزيد بن هارون». انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٥٩/٩؛ والأعلام للزركلي، ١٩٠/٨.

فلا يَتَثَبَّتُ في مواقف الفِتَن، ولا يهتدي إلى الحقّ، فالمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حينئذ المخلصون في الإيمان، الراسخون في الإيقان، كما يُنبئ عنه التثبيت، لكنّه يوهم كون كلمة التوحيد إذا كانت لا عن إيقان داخلةً تحت ما لا قرارَ له مِن الشجرة المضروبة مثلًا.

﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مِن تثبيت بعضٍ وإضلالِ آخرين حسبما يوجبه مشيئته التابعة للحِكَمِ البالغة المقتضية لذلك.

وفي إظهار الاسم الجليل في الموضعين مِن الفخامة وتربية المَهابة ما لا يخفى، مع ما فيه مِن الإيذان بالتفاوت في مبدأَي التثبيت والإضلال، فإنّ مبدأ صدور كلّ منهما عنه سبحانه وتعالى مِن صفاته العُلَا غيرُ ما هو مبدأ صدور الآخَر.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ۝٢٨﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ تعجيب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم -أو لكلّ أحد- ممّا صنع الكفرة مِن الأباطيل التي لا تكاد تصدر عمّن له أدنى إدراك، أي: ألم تنظر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: شكر نعمته تعالى، بأن وضَعُوا مَوضعَه ﴿كُفۡرٗا﴾ عظيمًا وغَمْطًا لَها، أو بدّلوا نفسَ النعمة كفرًا، فإنّهم لَمّا كَفروها سُلِبُوها، فصاروا مستبدِلين بِها كفرًا، كأهل مكّة حيث خلقهم الله سبحانه وأسكنهم حرمَه الآمِن الذي يُجبى إليه ثمرات كلّ شيء، وجعلهم قُوّام بيته، وشرّفهم بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، فكفروا ذلك، فقُحِطوا سبعَ سنين، وقُتِلوا وأُسِروا / يوم بدر، فصاروا أذِلّاء مسلوبي النعمة، باقين بالكفر بدلَها. [٢٦٦ظ]

وعن عُمَرَ وعليّ رضي الله تعالى[١] عنهما: «هم الأفجران مِن قريش: بنو[٢] المُغِيرة وبنو[٣] أُميّة، أمّا بنو[٤] المغيرة فكُفِيتُمُوهم يومَ بدر، وأمّا بنو[٥] أميّة فَمُتِّعوا إلى حين».[٦] كأنّهما يتأوّلان ما سيُتلى مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ﴾ الآية.[٧]

---

١ ط س - تعالى.
٢ م: بنوا.
٣ م: بنوا.
٤ م: بنوا.
٥ م: بنوا.
٦ **جامع البيان للطبري**، ١٣/٦٦٩-٦٧٣؛ **أنوار التنزيل للبيضاوي**، ٣/١٩٩.
٧ إبراهيم، ١٤/٣٠.

﴿وَأَحَلُّواْ﴾ أي: أنزلوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ بإرشادهم إيّاهم إلى طريقة الشرك والضلال. وعدم التعرّض لِحُلولهم لدلالة الإحلال عليه، إذ هو فرع الحلول، كقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود، ١١/٩٨]. ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ دار الهلاك الذي لا هَلاكَ وراءَه.

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴿٢٩﴾﴾

﴿جَهَنَّمَ﴾ عطف بيان لها. وفي الإبهام ثمّ البيانِ ما لا يخفى مِن التهويل. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال منها، أو مِن ﴿قَوْمَهُمْ﴾، أي: داخلين فيها، مُقَاسِينَ لحَرّها. أو استئناف لبيان كيفيّة الحلول، أو مفسّر لفعل يقدّر ناصبًا لـ﴿جَهَنَّمَ﴾. فالمراد بالإحلال المذكور حينئذ تعريضهم للهلاك بالقَتل والأسر، لكنّ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[1] أنسبُ بالتفسير الأوّل.

﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ على حذف المخصوص بالذمّ، أي: بئس المَقرّ جهنّمُ، أو بئس القرار قَرارُهم فيها. وفيه بيان أنّ حلولهم وصِليّهم على وجه الدوام والاستمرار.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَجَعَلُواْ﴾ عطف على ﴿أَحَلُّواْ﴾[2] وما عُطف عليه، داخل معهما في حيّز الصِّلة وحكمِ التعجيب، أي: جعلوا في اعتقادهم وحكمِهم ﴿لِلَّهِ﴾ الفردِ الصمَد الذي ليس كمثله شيء وهو الواحد القهّار ﴿أَندَادًا﴾ أشباهًا في التسمية، أو في العبادة؛ ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ قومَهم الذين يُشايِعُونهم حسبما ضلّوا ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ القَويم الذي هو التوحيد، ويُوقِعُوهم في وَرطة الكفر والضلال.

ولعلّ تغييرَ الترتيب -مع أنّ مقتضى ظاهر النظم أن يذكر كُفرانهم نعمةَ الله تعالى، / ثمّ كفرَهم بذاته تعالى باتّخاذ الأنداد، ثمّ إضلالَهم لقومهم المؤدّي إلى إحلالهم دار البوار- لِتثنِيَةِ التعجيب وتكريرِه، والإيذانِ بأنّ كلّ واحد مِن وضع الكفر موضع الشكر، وإحلالِ القومِ دارَ البوار، واتّخاذِ الأنداد للإضلال، [٢٦٧و]

---

[1] في الآية التالية.

[2] إبراهيم، ١٤/٢٨.

أمرٌ يُقضى منه العجَب. ولو سيق النظم على نسق الوجود لَربّما فُهِم التعجيبُ مِن مجموع الهَنَاتِ الثلاث، كما في قصّة البقرة. وقُرئ: "لِيَضِلُّوا" بالفتح.[١] وأيًّا ما كان فليس ذلك غرضًا حقيقيًّا لهم مِن اتّخاذ الأنداد، لكن لمّا كان ذلك نتيجةً له شُبّه بالغرَض، وأُدخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعيّة.

﴿قُلْ﴾ تهديدًا لأولئك الضالّين المضلّين، ونعيًا عليهم، وإيذانًا بأنّهم لِشدّة إبائهم قبولَ الحقّ، وفرطِ انهماكهم في الباطل، وعدمِ ارعوائهم عن ذلك بحالٍ؛ أحِقّاءُ بأن يُضرَب عنهم صفحًا، ويُعطف عنهم عنانُ العِظة، ويُخَلَّوا وشأنَهم، ولا يُنهَوا عنه؛ بل يُؤمَرُوا بمباشرته مبالغةً في التخلية والخذلان، ومسارعةً إلى بيان عاقبته الوخيمة، ويقالَ لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ بما أنتم عليه مِن الشهوات التي مِن جملتها كفران النِّعم العظام، واستتباعُ الناس في عبادة الأصنام.

﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ليسَ إلّا، فلا بدّ لكم مِن تعاطي ما يوجب ذلك ويقتضيه مِن أحوالكم؛ بل هي في الحقيقة صورة لدخولها، ومثال له حسبما يلوِّح به قوله سبحانه: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾... إلخ،[٢] فهو تعليل للأمر[٣] المأمور. وفيه مِن التهديد الشديد والوعيد الأكيد ما لا يوصف.

أو قل لهم تصويرًا لِحالهم وتعبيرًا عمّا يُلجئهم إلى ذلك: تمتّعوا؛ إيذانًا بأنّهم لفَرْط انغماسهم في التمتّع بما هم فيه مِن غير صارف يَلويهم ولا عاطفٍ يثنيهم مأمورون بذلك مِن قِبَلِ آمرِ الشهوة، مُذعِنون لحُكمِه، منقادون لِأَمرِه، / كدأب مأمورٍ ساعٍ في طاعة آمرٍ مطاعٍ، فليس قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ حينئذ تعليلًا للأمر؛ بل هو جواب شرط ينسحب عليه الكلام، كأنّه قيل: هذه حالكم، فإن دمتم عليه فإنّ مصيركم إلى النار. وفيه التهديد والوعيد، لا في الأمر. [٢٦٧ظ]

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خصّهم بالإضافة إليه تنويهًا لهم، وتنبيهًا على أنّهم

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورُويس. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٩.

[٢] إبراهيم، ٢٨/١٤.

[٣] وفي هامش م: أي: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾. «منه».

المقيمون لوظائف العبوديّة، الموفون بحقوقها. وترك العطف بين الأمرين للإيذان بتباين حالهما باعتبار المَقول تهديدًا وتشريفًا.[1] والمقول ههنا محذوف دلّ عليه الجواب، أي: قل لهم: أقيموا وأنفِقوا. ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ أي: يُداوِمُوا على ذلك. وفيه إيذان بكمال مطاوعتهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وغايةِ مسارعتهم إلى الامتثال بأوامره.

وقد جوّزوا أن يكون المقول ﴿يُقِيمُواْ﴾ ﴿وَيُنفِقُواْ﴾ بحذف لام الأمر عنهما، وإنّما حسُن ذلك دون الحذف في قوله:

مـحـمّـدُ تَـفْـدِ نـفـسَـك كـلُّ نـفـسٍ إذا مـا خِـفْـتَ مِـن أمـرٍ تَـبـالا[2]

لدلالة ﴿قُل﴾ عليه.

وقيل: هما جوابا "أقيموا" و"أنفقوا" قد أُقيما مُقامهما،[3] وليس بذاك.

﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ منتصبان على المصدريّة مِن الأمر المقدّر، لا مِن جواب الأمر المذكور، أي: أنفقوا إنفاق سرّ وعلانية، والأحبّ في الإنفاق إخفاء المتطوَّع به وإعلانُ الواجب. والمراد حثّ المؤمنين على الشكر لنعم الله سبحانه بالعبادة البدنيّة[4] والماليّة، وتركِ التمتّع بمتاع الدنيا والركونِ إليها كما هو صنيع الكفرة.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ / يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ فيبتاعَ المقصِّر ما يَتَلافَى به تقصيرَه أو [٢٦٨و]
يفتدي به نفسه. والمقصود نفي عقد المعاوضة بالمرّة، وتخصيصُ البيع بالذكر للإيجاز مع المبالغة في نفي العقد، إذ انتفاء البيع يستلزم انتفاءَ الشراء على أبلغ وجه، وانتفاؤه ربّما يتصوّر مع تحقّق الإيجاب مِن قِبل البائع.

---

[1] وفي هامش م س: فإنّ مقول الأوّل الأمر التهديدي ومقول الثاني الأمر التشريفي.

[2] بغير نسبة في **الكتاب** لسيبويه، ٨/٣. ونسب إلى أبي طالب في **شرح شذور الذهب** لابن هشام، ص ٢٧٥. قال السيوطي: «و"تَفْدِ" على إظهار الجازم وهو اللام ضرورة، وفيه الشاهد. وقيل: هو مرفوع حذفت ياؤه ضرورة واكتفي بالكسرة. قال الأعلم: وهذا أشهر في الضرورة وأقرب. و"التَّبال": بفتح المثنّاة وتخفيف الموحّدة: الفساد». **شرح شواهد المغني** للسيوطي، ٥٩٧/٢.

[3] ذكره البيضاوي في **أنوار التنزيل**، ١٩٩/٣، وضعّفه. وقال الشهاب الخفاجي: «قولٌ لبَعض النحاة، وعُزِي للمبرّد رحمه الله». **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، ٢٦٧/٥.

[4] س − البدنيّة.

﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ ولا مُخالّة، فيشفع له خليل أو يسامحه بمالٍ يفتدي به نفسه. أو مِن قَبل أن يأتي يوم لا أثرَ فيه لِما لَهِجوا بتعاطيه مِن البيع والمخالّة، ولا انتفاعَ بذلك، وإنّما الانتفاع والارتفاق فيه بالإنفاق لوجه الله سبحانه. والظاهر أنّ ﴿مِن﴾ متعلّقة بـ"أنفِقوا".

وتذكير إتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه -كما في سورة البقرة-[١] مِن حيث إنّ كلًّا مِن فقدان الشفاعة، وما يُتدارك به التقصير معاوضةً وتبرّعًا، وانقطاعِ آثار البيع والخلال الواقعَين في الدنيا، وعدمِ الانتفاع بهما؛ مِن أقوى الدواعي إلى الإتيان بما يبقى عوائده ويدوم فوائده مِن الإنفاق في سبيل الله عزّ وجلّ.

أو مِن حيث إنّ ادّخار المال وتركَ إنفاقه إنّما يقع غالبًا للتجارات والمُهاداة، فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة فلا وجه لادّخاره إلى وقت الموت. وتخصيص التأكيد بذلك لمَيل الطباع إلى المال وكونها مجبولة على حبّه والضِّنّةِ به. ولا يبعُد أن يكون تأكيدًا لِمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضًا مِن حيث إنّ تركها كثيرًا ما يكون بالاشتغال بالبِياعات والمُخالّات، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة، ١١/٦٢].

[٢٦٨ظ] وقُرئ بالفتح فيهما[٢] على إرادة النفي العامّ، ودلالةُ الرفع على ذلك / باعتبارِ خطابيّ هو وقوعه في جواب: هل فيه بيع أو خِلال؟

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وما فيها مِن الأجرام العلويّة ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيها مِن أنواع المخلوقات.

---

١ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة، ٢٥٤/٢].

٢ أي: "لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ". قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١١/٢.

لمّا ذكَر أحوالَ الكافرين لنِعم الله تعالى وأمرَ المؤمنين بإقامة مراسم الطاعة شكرًا لنِعَمِه شرَع في تفصيل ما يستوجب على كافّة الأنام المثابرةَ على الشكر والطاعة مِن النِّعم العِظام والمِنَن الجِسام، حثًّا للمؤمنين عليها، وتقريعًا للكفرة المخِلّين بها، الواضعين موضعَها الكفرَ والمعاصي. وفي جعل المبتدأ الاسمَ الجليل والخبرِ الاسمَ الموصولَ بتلك الأفاعيل العظيمة مِن خلق هذه الأجرام العِظام وإنزالِ الأمطار وإخراجِ الثمرات وما يتلوها مِن الآثار العجيبة ما لا يخفى مِن تربية المهابة والدلالة على قوّة السلطان.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحابِ، فإنّ كلّ ما علاك سماء، أو مِن الفَلك، فإنّ المطر منه يبتدئ إلى السحاب، ومنه إلى الأرضِ على ما دلّت عليه ظواهر النصوص،[1] أو مِن أسباب سماويّة تثير الأجزاء الرطبة مِن أعماق الأرض إلى الجوّ فينعقد سحابًا ماطرًا. وأيًّا ما كان فـ﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة.

﴿مَآءً﴾ أي: نوعًا منه، هو المطر. وتقديم المجرور على المنصوب إمّا باعتبار كونه مبدأً لنزوله، أو لتشريفه كما في قولك: "أعطاه السلطان مِن خِزانته مالًا"، أو لِما مرّ مِرارًا مِن التشويق إلى المؤخّر.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ بذلك الماء ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الفائتة للحصر، / إمّا لأنّ صيغ الجموع يتعاور بعضها موضعَ بعض، وإمّا لأنّه أريدَ بمفردها جماعة الثمرة التي في قولك: "أدركتُ ثمرة بستانِ فلان". ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تعيشون به، وهو بمعنى المرزوق، شامل للمطعوم والملبوس، مفعول لـ﴿أَخْرَجَ﴾، و﴿مِنْ﴾ للتبيين، كقولك: "أنفقْتُ مِن الدراهم ألفًا". [٢٦٩و]

ويجوز أن يكون ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مفعولًا و﴿رِزْقًا﴾ حالًا منه، أو مصدرًا مِن ﴿أَخْرَجَ﴾؛ لأنّه بمعنى "رَزَق"، أو للتبعيض بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾

---

[1] كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة، ١٩/٢]، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [المؤمنون، ١٨/٢٣]، ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر، ٢١/٣٩]. وأخرج أبو الشيخ ابن حِبّان في العظمة عن الحسَن، أنه سئل: المطر مِن السماء، أم مِن السحاب؟ قال: «مِن السماء، إنّما السحاب علَم ينزل عليه الماء مِن السماء». نواهد الأبكار للسيوطي، ٨٣/٢.

[فاطر، ٢٧/٣٥]، كأنّه قيل: أنزل مِن السماء بعضَ الماء، فأخرج به بعضَ الثمرات، ليكون بعضُ رزقكم، إذ لم يُنزل مِن السماء كلّ الماء، ولا أخرج بالمطر كلّ الثمار، ولا جعل كلّ الرزق ثمرًا.

وخروج الثمرات وإن كان بمشيئته عزّ وجلّ وقدرته، لكن جرت عادته تعالى بإفاضة صُوَرِها وكيفيّاتها على الموادّ الممتزَجة مِن الماء والتراب، أو أودع في الماء قوّة فاعلة وفي الأرض قوّة قابلة يتولّد مِن اجتماعهما أنواع الثمار، وهو قادر على إيجاد الأشياء بلا أسباب وموادَّ كما أبدع نفوس الأسباب كذلك؛ لِما أنَّ له تعالى في إنشائها مدرّجًا مِن طورٍ إلى طورٍ صنائعَ وحِكَمًا، يُجدِّد فيها لأولي الأبصار عِبَرًا وسكونًا إلى عظيم قدرته، ليس ذلك في إبداعها دفعةً.

وقوله: ﴿لَكُمْ﴾ صفة لقوله: ﴿رِزْقًا﴾ إن أريدَ به المَرزوق، ومفعول به إن أريدَ به المصدر، كأنّه قيل: رزقًا إيّاكم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ بأن أقدَركم على صَنعتها واستعمالها بما ألهمكم كيفيّة ذلك ﴿لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ جريًا تابعًا لإرادتكم ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بمشيئته التي بها نِيطَ كلُّ شيء. وتخصيصه بالذكر للتنصيص على أنّ ذلك ليس بمزاولة الأعمال / واستعمالِ الآلات كما يتراءى مِن ظاهر الحال. [٢٦٩ظ]

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ إن أريدَ بها المياه العظيمة الجارية في الأنهار العظام -كما يومئ إليه ذِكرها عند البحر- فتسخيرُها جعلُها مُعَدَّة لانتفاع الناس حيث يتّخذون منها جداولَ يسقون بها زروعهم وجِنانهم وما أشبه ذلك. وإن أريدَ بها نفس الأنهار فتسخيرُها تيسيرُها لهم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ يدأبانِ في سيرهما وإنارتِهما أصالةً وخلافةً، وإصلاحِهما لِما نِيط بهما صلاحُه مِن المكوِّنات. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقَبان خِلْفة لمَنامكم ومَعاشكم، ولعَقد الثمار وإنضاجِها.

ذكر سبحانه وتعالى أنواع النعم الفائضةِ عليهم، وأبرز كلّ واحدة منها في جملة مستقلّة تنويهًا لِشأنها وتنبيهًا على رفعة مكانها وتنصيصًا على كون كلّ منها نعمةً جليلةً مستوجِبةً للشكر.

وفي التعبير عن التصريف المتعلّق بما ذكر مِن الفلك والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار بالتسخير مِن الإشعار بما فيها مِن صعوبة المأخذ وعِزّة المنال والدلالة على عظم السلطان وشدّة المِحَال ما لا يخفى.

وتأخير تسخير الشمس والقمر عن تسخير ما تقدّمه مِن الأمور المعدودة مع ما بينه[1] وبين خلق السماوات مِن المناسبة الظاهرة لاستتباع ذكرِها لذِكر الأرض المستدعي لذِكر إنزال الماء منها إليها الموجِبِ لذِكر إخراج الرزق الذي مِن جملته ما يحصل بواسطة الفَلَك والأنهار، أو للتفادي عن توهّم كون الكلّ –أعني: خلق السماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر- نعمةً واحدةً، كما مرّ في قصّة البقرة.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: أعطاكم بعضَ جميعِ ما سألتموه حسبما يقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة، كقوله سبحانه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ / ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء، ١٧/١٨]. أو آتاكم مِن كلّ ذلك [٢٧٠و] ما احتجتم إليه ونِيط به انتظامُ أحوالكم على الوجه المقدّر، فكأنكم سألتموه، أو كلَّ ما طلبتموه بلسان الاستعداد، أو كلَّ ما سألتموه، على أنّ ﴿مِن﴾ للبيان، وكلمة ﴿كُلِّ﴾ للتكثير، كقولك: "فلان يعلم كلّ شيء"، و"أتاه كلُّ الناس"، وعليه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام، ٦/٤٤].

وقيل: الأصل: وآتاكم مِن كلّ ما سألتموه وما لم تسألوه، فحُذف الثاني لدلالة ما أُبقيَ على ما أُلقِي.

---

[1] وفي هامش م: مع ما بينهما وبين السماوات. «منه».

وقُرئ بتنوين ﴿كُلٍّ﴾[١] على أنّ ﴿مَا﴾ نافية، ومحلّ ﴿مَاسَأَلْتُمُوهُ﴾ النصب على الحاليّة، أي: آتاكم مِن كلٍّ غيرَ سائِليه.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ التي أنعم بها عليكم ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تطيقوا بِحصرِها ولو إجمالًا، فإنّها غير متناهية. وأصل الإحصاء أنّ الحاسب إذا بلغ عقدًا معيّنًا مِن عقود الأعداد وضع حَصاةً ليحفظ بها. ففيه إيذان بعدم بلوغ مرتبة معتدٍّ بها مِن مراتبها فضلًا عن بلوغ غايتها. كيف لا وما مِن فردٍ مِن أفراد الناس وإن كان في أقصى مراتب الفقر والإفلاس ممنوًّا بأصناف العَنايا مبتلى بأنواع الرزايا فهو بحيث لو تأمّلته ألفيتَه متقلّبًا في نِعمٍ لا تُحدّ ومِنَنٍ لا تُحصى ولا تُعدّ، كأنّه قد أعطي كلَّ ساعةٍ وآنٍ مِن النعماء ما حواه حيطة الإمكان؟

وإن كنت في ريب مِن ذلك فَقَدِّر أنّه مَلِكٌ مَلك أقطارَ العالَم، ودانت له كافّة الأمم، وأذعنت لطاعته السَّراة،[٢] وخضعت لهيبته رقابُ العُتاة، وفاز بكلّ مَرام، ونال كلّ مَنال، وحاز جميع ما في الدنيا مِن أصناف الأموال مِن غير نِدٍّ يزاحمه، ولا شريك يساهمه؛ بل قَدِّر أنّ جميع ما فيها مِن حجَر ومدَرٍ يواقيتُ غالية ونفائسُ دُرَرٍ، ثمّ قَدِّر أنّه قد وقع مِن فقْدِ مشروب أو مطعوم في حالة بلغت نفسُه الحلقوم، فهل يشتري وهو في تلك الحال بجميع ما لَه مِن المُلك والمال لُقمةً تنجّيه عن رِواه،[٣] / أو شربةً تُرويه مِن ظَماه، أم يختار الهلاك فيذهب الأموالُ والأملاكُ بغير بدل يبقى عليه، ولا نفعٍ يعود إليه؟ كلّا؛ بل يبذل لذلك كلَّ ما تحويه اليدان كائنًا ما كان، وليس في صفقته شائبةُ الخسران، فإذن تلك اللقمة والشربة خيرٌ ممّا في الدنيا بألفِ رُتْبة مع أنّهما في طرَف الثُّمام،[٤] ينالهما متى شاء مِن الليالي والأيّام. [٢٧٠ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والضحّاك وزيد عن يعقوب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٦١.

٢ السَّراة: الأشراف، وسَراة كلِّ شيء ما ارتفع منه وعَلا. انظر: **لسان العرب** لابن منظور، «سرو».

٣ ماء رَواء بالفتح ممدود، أي: عَذْب. وإذا كسرتَ الراء قصَرته وكتبته بالياء وقلت: ماءٌ رِوى. ويقال: هو الذي فيه للواردة رِيّ. **الصحاح** للجوهري، «روى».

٤ «هو على طرَف الثُّمام» مَثَل يضرب في تسهيل الحاجة وقرب النجاح. والثُّمام: نبت ضعيف سهل التناول يُسدّ به خُصاص البيوت، وقالوا: إنه ينبت على قدر قامة المَرء. **مجمع الأمثال** للميداني، ٢/٣٩٨.

أو قَدِّر أنّه قد احتبس عليه النفَس، فلا دخَل منه ما خرَج، ولا خرَج منه ما ولَجَ، والحَيْنُ[١] قد حان، وأتاه الموت مِن كلّ مكان، أمَا يُعطي ذلك كلّه[٢] بمقابلة نفَس واحد؟ بل يعطيه وهو لرأيه حامد، فإذن هو خير مِن أموال الدنيا بجملتها، ومطالبها برمّتها، مع أنّه قد أُتيح له كلّ آنٍ مِن آنات الليالي والأيّام، حال اليقظة والمنام.

هذا مِن الظهور والجلاء بحيث لا يكاد يخفى على أحد مِن العقلاء. وإن رُمتَ العثور على حقيقة الحقّ، والوقوفَ على كلّ ما جلّ مِن السرّ ودقّ، فاعلم أنّ الإنسان بمقتضى حقيقته المُمكنة بمَعزِل عن استحقاق الوجود وما يتبعه مِن الكمالات اللائقة والملكاتِ الرائقة بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الإلهيّة مِن العلاقة لَمَا استقرّ له القرار، ولا اطمأنّت به الدار، إلّا في مطمورة العدَم والبوار، ومهاوي الهلاك والدمار، لكن يفيض عليه مِن الجَناب الأقدس تعالى شأنه وتقدّس في كلّ زمانٍ يمضي وكلِّ آنٍ يمرّ وينقضي مِن أنواع الفيوض المتعلّقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانيّة والنفسانيّة والجسمانيّة ما لا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلمه إلّا العليم الخبير.

وتوضيحه أنّه كما لا يستحقّ الوجودَ ابتداءً لا يستحقّه بقاءً، وإنّما ذلك مِن جانب المبدأ الأوّل عزّ وجلّ، فكما لا يتصوّر وجودُه ابتداءً ما لم ينسدّ عليه جميع أنحاء عدمِه الأصلي لا يتصوّر بقاؤه على الوجود بعد تحقّقه بعِلّته ما لم ينسدّ عليه جميع أنحاء عدمه الطارئ؛ لأنّ الاستمرار والدوام مِن خصائص الوجود الواجبي.

وأنت خبير بأنّ ما يتوقّف عليه وجوده مِن الأمور الوجوديّة التي هي علله وشرائطه وإن وجب كونها متناهيةً لوجوب تناهي ما دخل تحت الوجود، لكنّ الأمور العدميّة التي لها دخل في وجوده ليست كذلك، إذ لا استحالةَ في أن يكون لشيء واحد موانعُ غير متناهية، وإنّما الاستحالة في دخولها تحت الوجود،

---

١ الحَين، بالفتح: الهلاك. لسان العرب لابن منظور، «حين».

٢ س - كلّه.

فارتفاع تلك الموانع التي لا تتناهى -أعني: بقاءَها على العدم مع إمكان وجودها في أنفسها في كلّ آنٍ مِن آنات وجوده- نِعَمٌ غير متناهية حقيقةً لا ادّعاءً، وكذا الحال في وجودات عِلله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداءً وبقاءً، وكذا في كمالاته التابعة لوجوده.

فاتّضح أنّه يَفيض عليه كلَّ آنٍ نِعمٌ لا تتناهى مِن وجوهٍ شتّى، فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانَك، لا يلاحظك العيون بأنظارها، ولا يطالعك العقول بأفكارها، شأنك لا يُضاهى، وإحسانك لا يتناهى، ونحن في معرفتك حائرون، وفي إقامة مراسم شكرك قاصرون، نسألك الهداية إلى مناهج معرفتك، والتوفيقَ لأداءِ حقوقِ نعمتك، لا نحصي ثناءً عليك، لا إله إلّا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

[٢٧١و] / ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ يظلم النعمةَ بإغفال شكرها، أو بوضعه في غير موضعه، أو يظلم نفسَه بتعريضها للحِرمان ﴿كَفَّارٌ﴾ شديدُ الكُفران. وقيل: ظَلوم؛ في الشدّة يشكو ويجزع، كَفّار؛ في النعمة يجمع ويمنع. و"اللام" في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ للجنس، ومصداق الحُكم بالظلم والكفرانِ بعضُ مَن وُجِدَا فيه مِن أفراده، ويدخل في ذلك ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾... إلخ[١] دخولًا أوّليًا.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: واذكر[٢] وقتَ قوله عليه السلام. والمقصود مِن تذكيره تذكيرُ ما وقع فيه مِن مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل. والمراد به تأكيد ما سلف مِن تعجيبه صلّى الله عليه وسلّم ببيان فنٍّ آخر مِن جناياتهم، حيث كفروا بالنِّعم الخاصّة بهم بعدما كفروا بالنِّعم العامّة، وعَصَوْا أباهم إبراهيم عليه السلام حيثُ أسكنهم بمكّة شرّفها الله تعالى لإقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الأصنام والشكر لنِعَم الله تعالى، وسألَه تعالى أن يَجْعَلَه[٣] بلدًا آمنًا، ويرزقَهم مِن الثمرات،

---

١ إبراهيم، ٢٨/١٤.

٢ ط س: اذكر.

٣ وفي هامش م: التذكير باعتبار الخبر.

ويهوي قلوب الناس إليهم مِن كلّ أَوب سحيق، فاستجاب الله سبحانه دعاءَه، وجعله حرمًا آمنًا يُجبَى إليه ثمرات كلّ شيء، فكفروا بتلك النِّعم العظام، واستبدلوا بالبلد الحرام دارَ البوار، وجعلوا لله تعالى أندادًا، وفعلوا ما فعلوا.

/ ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ﴾ يعني مكّة شرّفها الله سبحانه ﴿ءَامِنٗا﴾ أي: ذا أمنٍ، أو آمِنًا أهلُه بحيث لا يُخاف فيه، على ما مرّ في سورة البقرة. والفرق بينه وبين ما فيها مِن قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ [البقرة، ١٢٦/٢] أنّ المسئول هناك البلديّةُ والأمنُ معًا، وههنا الأمنُ فقط، حيث جُعِل هو المفعولَ الثاني للجَعل، وجُعِل البلد صفةً للمفعول الأوّل. [٢٧١ظ]

فإن حُمل على تعدّد السؤال فلعلّه عليه السلام سأل أوّلًا كِلا الأمرين فاستُجيب له في أحدهما وتأخّر الآخر إلى وقته المقدّر لِما يقتضيه مِن الحكمة الداعية إليه، ثمّ كرّر السؤال كما هو المعتاد في الدعاء والابتهال، أو كان المسئول أوّلًا مجرّدَ الأمن المصحِّحِ للسكنى كما في سائر البلاد، وقد أُجيبَ إليه، وثانيًا الأمنَ المعهودَ، أو كان هو المسئول فيهما، وقد أجيب إليه أيضًا، لكنّ السؤالَ الثاني للاستدامة، والاقتصارُ على ذلك لأنّه المقصود الأصلي، أو لأنّ المعتاد في البلديّة الاستمرار بعد التحقّق، بخلاف الأمن.

وإن حُمل على وحدة السؤال وتكرّر الحكاية كما هو المتبادَر فالظاهر أنّ المسئول كِلا الأمرين، وقد حُكي أوّلًا،[١] واقتُصر ههنا على حكاية سؤال الأمن، لا لمجرّد أنّ نعمة الأمن أدخلُ في استيجاب الشكر، فذِكره أنسب بمقام تقريع الكفَرة على إغفاله كما قيل؛ بل لأنّ سؤال البلديّة قد حُكي بقوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾،[٢] إذ المسئول هُوِيّتُها إليهم للمساكنة معهم لا للحجّ فقط، وهو عين سؤال البلديّة قد حكي بعبارة أخرى، وكان ذلك أوّلَ ما قدِم عليه السلام مكّة، كما روى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه عليه السلام لمّا أسكن إسماعيل وهاجَر هناك وعاد متوجّهًا إلى الشام

---

[١] وفي هامش م: أي: في سورة البقرة.[(١)] «منه».

| [(١)] البقرة، ١٢٦/٢.

[٢] إبراهيم، ٣٧/١٤.

تبعَتْهُ هاجَر وجَعَلَتْ تقول: «إلى مَن تكِلُنَا في هذا البَلْقَعِ؟»[١] وهو لا يردّ عليها جوابًا، حتّى قالت: «آللهُ أمرك بهذا؟» فقال: «نعم»، قالت: «إذًا لا يُضيِّعنا»، فرَضِيَتْ، ومضى حتّى إذا استوى على ثنيّة كَداء أقبل على الوادي فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾ الآية.[٢] وإنّما فصل[٣] ما بينهما تثنيةً للامتنان، وإيذانًا بأنّ كلًّا منهما نعمة جليلة مستتبِعة لشكر كثير.

﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ﴾ بعّدني وإيّاهم ﴿أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ واجعلنا مِنه[٤] في جانب بعيد، أي: ثبّتنا على ما كنّا عليه مِن التوحيد وملّة الإسلام والبعدِ عن عبادة الأصنام. وقُرِئ: "أَجْنِبْنِي"[٥] مِن الإفعال، وهما لغة أهل نجدٍ، يقولون: / "جَنَبَنِي شرَّهُ" و"أَجْنَبَنِي شرَّه"، وأمّا أهل الحجاز فيقولون: "جَنَّبَنِي شرَّه"، وفيه دليل على أنّ عصمة الأنبياء عليهم السلام بتوفيق الله تعالى. [٢٧٢و]

والظاهر أنّ المراد بِبَنِيهِ أولادُه الصلبيّة، فلا احتجاج به لابن عُيَيْنة رضي الله عنه على أنّ أحدًا مِن أولاد إسماعيل عليه السلام لم يعبُد الصنَم، وإنّما كان لكلّ قومٍ حَجَرٌ نَصَبُوه، وقالوا: هو حَجر والبيت حَجر، فكانوا يدورون به ويسمّونه الدُّوار، فاستُحِبّ أن يقال: طاف بالبيت، ولا يقالَ: دار بالبيت.[٦] وليت شِعري كيف ذهب عليه ما في القرآن العظيم مِن قَوارعَ تَنْعي على قريش عبادةَ الأصنام؟ على أنّ فيما ذكره كرًّا على مَا فرَّ منه.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي: الأصنامَ ﴿أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: تسبّبن له، كقوله تعالى:

---

١ البَلْقَع والبَلْقَعة: الأرضُ القَفْرُ التي لا شيء بها. الصحاح للجوهري، «بلقع».

٢ إبراهيم، ٣٧/١٤. | جامع البيان للطبري، ٦٩٢/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/٥.

٣ وفي هامش م: ولم يجمع بينهما كما جمع أوّلًا. «منه».

٤ وفي هامش م: كما في قصّة البقرة. «منه».

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري والثقفي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦١.

٦ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٥٨/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٠/٣.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام، ٧٠/٦]. وهو تعليل لدعائه، وإنّما صدّره بالنداء إظهارًا لاعتنائه به ورغبته في استجابته.

﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ منهم في ما[١] أدعو إليه مِن التوحيد وملّة الإسلام ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي: بَعضي، قاله عليه السلام مبالغةً في بيان اختصاصه به، أو متّصل بي لا ينفكّ عنّي في أمر الدين.

﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ أي: لم يتّبعني. والتعبير عنه بالعصيان للإيذان بأنّه عليه السلام مستمرّ على الدعوة، وأنّ عدم اتّباع مَن لم يتّبعه إنّما هو لعصيانه، لا لِأنّه لم يبلغه الدعوة. ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قادر على أن تغفِر له وترحَمه ابتداءً، أو بعد توبته، وفيه أنّ كلّ ذنب فللّه تعالى أن يغفِره حتّى الشركِ، خلا أنّ الوعيد قضى بالفرق بينه وبين غيره.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿رَبَّنَا﴾ آثر عليه السلام ضميرَ الجماعة لا لِما قيل[٢] مِن تقدّم ذِكره وذِكرِ بَنيه، وإلّا لَراعاه في قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾... إلخ؛[٣] لأنّ الدُّعاء المصدَّر به وما أورده بصدَد تمهيد مبادي إجابته مِن قوله: ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ﴾ الآيةَ متعلّق بذرّيّته، فالتعرّض لوصف ربوبيّته تعالى لهم / أدخَل في القبول وإجابةِ المسئول. ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي: بعضَهم، أو ذرّيّةً مِن ذرّيّتي، فحُذف المفعول، وهو إسماعيل عليه السلام وما سيولَد له، فإنّ إسكانه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمّن لإسكانهم. [٢٧٢ظ]

رُوي أنّ هاجر أمّ إسماعيل كانت لسارة، فوهبتْها مِن إبراهيم عليه السلام، فلمّا ولدت له إسماعيل عليه السلام غارَت عليها، فناشدته أن يُخرجها مِن عندها، فأخرجها إلى أرض مكّة، فأظهر الله تعالى عين زمزم.

---

١ س: فيما.

٢ قاله أبو حيّان في البحر المحيط، ٤٤٦/٦.

٣ في الآية السابقة.

﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ لا يكون فيه زرع أصلًا، وهو وادي مكّة شرّفها الله سبحانه. ﴿عِندَ بَيْتِكَ﴾ ظرف لـ﴿أَسْكَنتُ﴾، كقولك: "صلّيت بمكّة عند الركن"، لا أنّه صفة لـ﴿وَادٍ﴾ أو بدل منه، إذ المقصود إظهار كون ذلك الإسكان مع فقدان مباديه بالمرّة لِمَحض التقرّب إلى الله تعالى والالتجاءِ إلى جواره الكريم، كما ينبئ عنه التعرّض لعنوان الحرمة المؤذِن بعزّة الملتجئ وعصمته عن المكاره في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾ حيث حُرِّم التعرّض له والتهاون به، أو لم يزل معظّمًا ممنّعًا يَهَابُه الجبابرةُ في كلّ عصر، أو مُنع منه الطوفانُ فلم يستولِ عليه، ولذلك سُمّي "عَتيقًا".

وتسميته إذ ذاك "بيتًا" ولم يكن له بناءٌ -وإنّما كان نَشَزًا مثلَ الرابية، تأتيه السيول فتأخذ ذات اليمين وذات الشمال- ليست باعتبار ما سيئول إليه الأمر مِن بنائه عليه السلام، فإنّه ينزِع إلى اعتبار عنوان الحرمة أيضًا كذلك؛ بل إنّما هي باعتبار ما كان مِن قبل، فإنّ تعدّد بناء الكعبة المعظّمة ممّا لا ريب فيه، وإنّما الاختلاف في كمّيّة عدده، وقد ذكرناها في سورة البقرة بفضل الله سبحانه.

[٢٧٣و] / ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ متوجّهين إليه متبرّكين به، وهو متعلّق بـ﴿أَسْكَنتُ﴾، وتخصيصها بالذِّكر مِن بين سائر شعائر الدين لفضلها. وتكرير النداء وتوسيطه
[٢٧٣ظ] لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة، / والاهتمامِ بِعَرْض أنّ الغَرَض مِن إسكانهم بذلك الوادي البَلْقَع ذلك المقصِدُ الأقصى والمطلبُ الأسنى، وكلّ ذلك لتمهيد مبادي إجابة دعائه وإعطاء مسئوله الذي لا يتسنّى ذلك المرام إلّا به، ولذلك أدخل عليه "الفاء" فقال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أفئِدةً مِن أفئدتهم. فـ﴿مِن﴾ للتبعيض، ولذلك قيل: لو قال: "أفئدةَ الناس" لازدحمت عليهم فارس والروم، وأمّا ما زيد عليه مِن قولهم: "ولحجّت اليهود والنصارى"[١] فغير مناسب للمقام، إذ المسئول توجيه القلوب إليهم للمُساكنة معهم، لا توجيهُها إلى البيت للحجّ، وإلّا لقيل: تهوي إليه، فإنّه عين الدعاء بالبلديّة قد حُكي بعبارة أخرى كما مرّ. أو لابتداء الغاية[٢] كقولك: "القلب منّي سقيم"، أي: أفئدةَ ناسٍ.

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/٢٠١.
٢ السياق: فـ(مِن) للتبعيض... أو لابتداء الغاية...

وقُرِئ: "آفِدَةً"[١] على القلب، كـ"آدُر" في "أَدْؤُرٍ"،[٢] أو على أنّه اسم فاعل مِن "أَفِدَتِ الرحلةُ"، أي: عجِلت، أي: جماعةً مِن الناس. و"أَفِدَةً"[٣] بطرح الهمزة مِن "الأفئدة"، أو على النعت مِن "أَفِدَ".[٤]

﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ تُسرع إليهم شوقًا ووِدادًا. وقُرِئ على البناء للمفعول[٥] مِن "أهواه غيرُه"، و"تَهْوَى"[٦] مِن باب عَلِم، أي: تحبّ، وتعديته بـ"إلى" لتضمّنه معنى الشوق والنزوع.

وأوّل آثار هذه الدعوة ما رُوي أنّه مرّت رُفقةٌ مِن جُرهم تريد الشام، فرأوا الطيرَ تحوم على الجبل، فقالوا: «إنّ هذا الطائر لَعائِف[٧] على الماء»، فأشرفوا، فإذا هم بهاجَر، فقالوا لها: «إن شئتِ كنّا معكِ وَأَنِسناكِ، والماءُ ماؤكِ»، فأذِنَتْ لهم، وكانوا معها إلى أن شَبّ إسماعيل عليه السلام وماتت هاجر، فتزوّج إسماعيل منهم كما هو المشهور.[٨]

﴿وَٱرْزُقْهُم﴾ أي: ذرّيتي الذين أسكنتهم هناك، أو مع مَن ينحاز إليهم مِن الناس. وإنّما لم يخصّ الدعاء بالمؤمنين منهم -كما في قوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ / ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة، ٢/١٢٦]- اكتفاءً بذكر إقامة الصلاة. ﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مِن أنواعها بأن يُجعل بقرب منه قُرًى يحصل فيها ذلك، أو يُجبى إليه مِن الأقطار الشاسعة، وقد حصل كلاهما، حتّى إنّه يجتمع فيه الفواكه الربيعيّة والصيفيّة والخريفيّة في يوم واحدٍ. [٢٧٤و]

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٥٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٤٤٧.

٢ في جمع "دار". انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «دار».

٣ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٥٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٤٤٧.

٤ أَفِدَ الرجل -بالكسر- يَأْفَد أفدًا، أي: عَجِل، فهو أَفِد على فَعِل، أي: مستعجلٌ. وأَفِدَ الترَحُّل، أي: دنا وأزِف. الصحاح للجوهري، «أفد».

٥ أي: "تُهْوَى". قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ والحسين بن عليّ وعن سلمة بن عبد الله. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ ومحمد بن عليّ وجعفر بن محمد ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٢.

٧ عافَتِ الطيرُ تَعيفُ عَيْفًا، إذا كانت تحوم على الماء وتتردّد ولا تمضي تريد الوقوع، فهي عائفة. الصحاح للجوهري، «عيف».

٨ انظر: جامع البيان للطبري، ١٣/٦٩٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٥/٣٢٢.

رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما «أنّ الطائف كانت مِن أرض فلسطين، فلمّا دعا إبراهيم عليه السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى ووضعها حيث وضعها رزقًا للحرَم».[١] وعن الزهري «أنّه تعالى نقل قرية مِن قُرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم عليه السلام».[٢]

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمةَ بإقامة الصلاة وأداء سائر مراسم العبوديّة.

وقيل:[٣] "اللام" في ﴿لِيُقِيمُواْ﴾ لام الأمر، والمراد أمرهم بإقامة الصلاة والدعاء مِن الله تعالى بتوفيقهم لها، ولا يناسبه "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ﴾... إلخ.

وفي دعائه عليه السلام مِن مراعاة حسن الأدب والمحافظة على قوانين الضَّراعة وعرض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة ما لا يخفى، فإنّه عليه السلام بذكر كون الوادي غيرَ ذي زرعٍ بيَّنَ كمال افتقارهم إلى المسئول، وبذكر كون إسكانهم عند البيت المحرّم أشار[٤] إلى أنّ جوار الكريم يستوجب إفاضة النعيم، وبعرض كون ذلك الإسكان مع كمال إعواز مرافق المعاش لمَحض إقامة الصلاة وأداء حقوق البيت مهّد جميع مبادي إجابةِ السؤال، ولذلك قرنت دعوته عليه السلام بحُسن القبول.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ مِن الحاجات وغيرها، والمراد بـ﴿مَا نُخْفِي﴾ ما يقابل ﴿مَا نُعْلِنُ﴾، سواء تعلّق به الإخفاء أو لا، أي: تعلم ما نُظهره وما لا نُظهره، فإنّ علمه تعالى متعلِّق بما لا يخطر بباله ممّا فيه مِن الأحوال الخفيّة فضلًا عن إخفائه. وتقديم ﴿مَا نُخْفِي﴾[٥] على ﴿مَا نُعْلِنُ﴾ لتحقيق المساواة بينهما / في تعلّق العلم بهما على أبلغ وجه، فكأنّ تعلّقه بما يُخفى أقدم منه [٢٧٤ظ]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٦٢. وفي جامع البيان للطبري، ١٣/٧٠١، نحوه مِن قول محمّد بن مسلم الطائفي.

٢ تفسير ابن أبي حاتم، ١/٢٣٠؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ١/٣٠٣.

٣ ذكره البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣/٢٠١؛ وابن عادل في اللباب، ١١/٣٩٦.

٤ س: إشارة.

٥ م: ما نُخف.

بما يُعلَن، أو لأنّ مرتبة السرّ والخفاء متقدّمة على مرتبة العلَن، إذ ما مِن شيء يُعلَن إلّا وهو قبل ذلك خفيّ، فَتَعلُّق علمِه سبحانه بحالتِه الأولى أقدم مِن تعلّقه بحالته الثانية.

ومقصده عليه السلام أنّ إظهار هذه الحاجات وما هو مِن مباديها وتتمّاتها ليس لكونها غير معلومة لك؛ بل إنّما هو لإظهار العبوديّة والتخشّعِ لعظمتك، والتذلّلِ لعزّتك، وعرضِ الافتقار إلى ما عندك، والاستعجالِ لنَيل أياديك.

وتكرير النداء للمبالغة في الضراعة والابتهال. وضمير الجماعة لأنّ المراد ليس مجرّدَ علمه تعالى بسرّه وعلنه؛ بل بجميع خفايا المُلك والملَكوت، وقد حقّقه بقوله على وجه الاعتراض: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لِما أنّه العالِم بالذات، فما مِن أمر يدخل تحت الوجود كائنًا ما كان في زمان مِن الأزمان إلّا ووجوده في ذاته عِلم بالنسبة إليه سبحانه.

وإنّما قال: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾... إلخ -دون أن يقول: "ويَعلم ما في السماوات والأرض"- تحقيقًا لِما عناه بقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ مِن أنّ علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة إلى علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة إلى علوم المخلوقات.

وكلمة ﴿فِي﴾ متعلّقة بمحذوف وقع صفة لـ﴿شَيْءٍ﴾، أي: مِن شيء كائنٍ فيهما، أعمّ مِن أن يكون ذلك على وجه الاستقرار فيهما، أو على وجه الجزئيّة منهما، أو بـ﴿يَخْفَىٰ﴾. وتقديم ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾[1] مع توسيط ﴿لَا﴾ بينهما باعتبار القربِ والبُعد منّا المستدعِيَين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا.

والالتفات مِن الخطاب إلى اسم الذات المستجمِعة للصفات لتربية المَهابة والإشعار بعلّة الحكم[2] على نهج قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك، ١٤/٦٧]، والإيذانِ بعمومِه؛ لأنّه ليس بشأن يختصّ به أو بمَن يتعلّق به؛ بل شامل لجميع الأشياء، فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مصحّح لمبدئيّة الكلّ.

---

[1] س - على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾.

[2] وفي هامش م: وهو عدم الخفاء. «منه».

[٢٧٥و] / وقيل: هو مِن كلام الله عزّ وجلّ وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل، ٣٤/٢٧]. و﴿مِن﴾ للاستغراق على الوجهين.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أي: مع كِبَري ويأسي عن الولد. قيّد الهبة به استعظامًا للنعمة وإظهارًا لِشكرها. ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ رُوي أنّه وُلد له إسماعيل وهو ابن تسعٍ وتسعين سنةً، ووُلد له إسحاق وهو ابن مائةٍ واثنتي عشرةَ سنةً،[١] أو مائةٍ وسبعَ عشرةَ سنةً.[٢]

﴿إِنَّ رَبِّى﴾ ومالكَ أمري ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ لَمجيبه، مِن قولهم: "سمِع الملِك كلامَه" إذا اعتدّ به، وهي مِن أبنية المبالغة العاملةِ عملَ الفعل، أضيفَ إلى مفعوله أو فاعله بإسناد السماع إلى دعاء الله تعالى مجازًا، وهو مع كونه مِن تتمّة الحمد والشكر -إذ هو وَصْف له تعالى بأنّ ذلك الجميل سُنّته المستمِرّة- تعليل على طريقة التذييل للهبة المذكورة. وفيه إيذان بتضاعف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاء بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات، ١٠٠/٣٧]، فاقترنت الهبة بقَبول الدعوة. وتوحيد ضمير المتكلِّم وإن كان عقيب ذِكر هبتهما لِما أنّ نعمة الهبة فائضة عليه خاصّةً، وهما مِن النِّعم، لا مِن المنعَم عليهم.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ مثابرًا عليها مُعَدِّلًا لها. وتوحيد ضمير المتكلّم مع شمول دعوته لذرّيّته أيضًا -حيث قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي: بعضَهم مِن المذكورين ومَن يسير سيرتهما مِن أولادهما- للإشعار بأنّه المقتدَى في ذلك، وذرّيّته أَتباع له، وأنّ ذِكرهم بطريق الاستطراد، لا كما في قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ﴾... إلخ،[٣] فإنّ إسكانه مع عدم تحقّقه بلا ملابسةٍ لِمَن أسكنه

---

[١] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٣/٥، والتفسير الوسيط للواحدي، ٣٤/٣.

[٢] عن سعيد بن جبير في معالم التنزيل للبغوي، ٣٥٧/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٦١/٢.

[٣] إبراهيم، ٣٧/١٤.

إنّما هو مذكور بطريق التمهيد للدعاء الذي هو مخصوص بذرّيّته، وإنّما خصّ هذا الدعاء ببعض ذرّيّته لعلمه مِن جهة الله تعالى أنّ بعضًا منهم لا يكون مقيمَ الصلاة، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة، ١٢٨/٢].

/ ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أي: دعائي هذا المتعلّق بجعلي وجعل بعض ذرّيّتي مقيمي الصلاة، ثابتين على ذلك، مجتنبين عن عبادة الأصنام، ولذلك جيء بضمير الجماعة. [٢٧٥ظ]

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾ أي: ما فرط منّي مِن ترك الأولى في باب الدين وغير ذلك ممّا لا يسلَم منه البشر ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ وقُرئ بالتوحيد،[١] و"لِأَبَوَيَّ".[٢] وهذا الاستغفار منه عليه السلام إنّما كان قبل تبيُّن الأمرِ له عليه السلام. وقيل: أراد بوالدَيه آدم وحوّاء. وقيل: بشرط الإسلام،[٣] ويردّه قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية [الممتحنة، ٤/٦٠]، وقد مرّ في سورة التوبة[٤] نوع تحقيق للمقام، وسيأتي تمامه في سورة مريم[٥] بفضل الله عزّ وجلّ.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كافّة مِن ذرّيّته وغيرهم، وللإيذان باشتراك الكلّ في الدعاء بالمغفرة جيء بضمير الجماعة. ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يثبُت ويتحقّق محاسبة أعمال المكلّفين على وجه العدل، استُعير له مِن ثبوت القائم على الرِّجل بالاستقامة، ومنه "قامت الحَرب على ساقٍ"، والمراد تهويله. وقيل: أسندَ إليه قيامُ أهله مجازًا، أو حُذف المضاف كما في ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف، ٨٢/١٢].

واعلم أنّ ما حُكي عنه عليه السلام مِن الأدعية والأذكار وما يتعلّق بها ليس بصادر عنه على الترتيب المحكي ولا على وجه المعيّة؛ بل صدر عنه

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٢/٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٢/٢.

٣ ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٥٦٢/٢.

٤ انظر: التوبة، ١١٤/٩.

٥ انظر: مريم، ٤٧/١٩.

في أزمنة متفرّقةٍ، حكي مرتّبًا للدلالة على سوء حال الكفرة بعد ظهور أمره في الملّة، وإرشاد الناس إليها والتضرّعِ إلى الله تعالى لمصالحهم الدينيّة والدنيويّة.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ٤٢﴾

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والمراد تثبيته على ما كان عليه مِن عدم حسبانه عزّ وجلّ كذلك، نحو قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، ١٤/٦] ونظائره، مع ما فيه مِن الإيذان بكونه واجِبَ الاحتراز عنه في الغاية حتّى نُهِي عنه مَن لا يمكن تعاطيه، [٢٧٦و] / أو نهيُه عليه السلام عن حسبانه تعالى تاركًا لعقابهم على طريقة العفو. والتعبير عنه بذلك للمبالغة في النهي، والإيذانِ بأنّ ذلك الحسبان بمنزلة حسبانه تعالى غافلًا عن أعمالهم؛ إذ العلم بذلك مستوجِب لعقابهم لا محالةَ، فتركُه لو كان لَكان للغفلة عمّا يوجبه مِن أعمالهم الخبيثة. وفيه تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ووعدٌ له أكيدُ[١] ووعيد للكفرة وسائر الظالمين شديد.

أو لكلّ أحد[٢] ممّن يستعجل عذابهم أو يتوهّم إهمالهم للجهل بصفاته تعالى والاغترار بإمهاله. وقيل: معناه لا تحسبنّه تعالى يعاملهم معاملة الغافل عمّا عملوا؛ بل معاملةَ مَن يحافظ على أعمالهم ويجازيهم بذلك نقيرًا وقطميرًا.

والمراد بالظالمين أهلُ مكّة ممّن عُدّت مَساويهم، مِن تبديل نعمة الله كفرًا، وإحلالِ قومهم دارَ البوار، واتّخاذِ الأنداد، كما يُؤذن به التعرّض لحكمةِ التأخير المنبئ عنه قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ الآية،[٣] أو جنسُ الظالمين، وهم داخلون في الحكم دخولًا أوّليًّا.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يمهلهم متمتّعين بالحظوظ الدنيويّة، ولا يعجّل عقوبتهم حسبما يشاهَد. وهو استئناف وقع تعليلًا للنهي السابق، أي: دُم على ما كنت عليه مِن عدم حسبانه تعالى غافلًا عن أعمالهم، ولا تحزن بتأخير ما تستوجبه

---

١ ط س: أكيدٌ.
٢ السياق: خطاب لرسول الله... أو لكلّ أحد...
٣ إبراهيم، ٣٠/١٤.

مِن العذاب الأليم، إنّ تأخيره للتشديد والتغليظ، أو لا تحسبنّه تعالى تاركًا لعقوبتهم لِما ترى مِن تأخيرها، إنّما ذلك لأجل هذا، أو لا تحسبنّه تعالى يعاملهم معاملة الغافل ولا يؤاخذهم بما عملوا لِما ترى مِن التأخير، إنّما هو لهذه الحكمة. وقُرئ بالنون.[١]

وإيقاع التأخير عليهم مع أنّ المؤخَّر إنّما هو عذابهم لتهويل الخَطب وتفظيع الحال ببيان أنّهم متوجّهون إلى العذاب، مُرصَدون لأمر ما، لا أنّهم باقون باختيارهم، وللدلالة على أنّ حقّهم / مِن العذاب هو الاستئصال بالمرّة، [٢٧٦ظ] وأن لا يبقى منهم في الوجود عينٌ ولا أثرٌ، وللإيذان بأنّ المؤخَّر له مِن جملة العذاب وعنوانه، ولو قيل: إنّما يؤخِّر عذابَهم... إلخ لَما فُهم ذلك.

﴿لِيَوۡمٖ﴾ هائل ﴿تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ ترتفع أبصارُ أهل الموقف، فيدخل في زُمرتهم الكفرة المعهودون دخولًا أوّليًا، أي: تبقى مفتوحة لا تتحرّك أجفانهم مِن هَول ما يرونه. واعتبار عدم قرارها في أماكنها إمّا باعتبار الارتفاع الحِسّي في جِرم العين، وإمّا بجعل الصيغة مِن "شَخَصَ مِن بلد إلى بلد، وسار في ارتفاع".

﴿مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾

﴿مُهۡطِعِينَ﴾ مسرعين إلى الداعي، مُقبلين عليه بالخوف والذلّ والخشوع، أو مُقبلين بأبصارهم عليه، لا يُقلِعون عنه، ولا يَطرِفُون هيبةً وخوفًا. وحيث كان إدامة النظر ههنا بالنظر إلى الداعي قيل: ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: رافعيها مع إدامة النظر مِن غير التفات إلى شيء، قاله العَيني[٢] وابن عرفة.[٣] أو ناكسيها، ويقال:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وقتادة والسلمي وعبّاس عن أبي عمرو والمفضّل عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٢.

٢ هو محمود بن أحمد بن موسى العينتابي العيني، بدر الدين (ت. ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، الحنفي، قاضي القضاة. ولد في عينتاب. وتفقّه بها ثمّ قدِم حلب، وأخذ بها عن الجمال يوسف الملطي. ثمّ قدم القاهرة فأخذ عن مشايخها، وبرَع في الفنون، وولي حُسبة القاهرة، وقضاء الحنفيّة، وله عدّة مصنّفات، منها: شرح البخاري، وشرح معاني الآثار للطحاوي، وشرح الشواهد الكبرى. انظر: نظم العقيان للسيوطي، ص ١٧٤؛ والأعلام للزركلي، ١٦٣/٧.

٣ انظر: شرح سنن أبي داود للعيني، ٣١٦/٣. والعبارة في تفسير القرطبي، ٣٧٦/٩؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤٣/٦: "قاله ابن عرفة «

"أقنَع رأسَه"، أي: طأطأها ونكَّسَها، فهو مِن الأضداد. وهما حالان ممّا دلّ عليه ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ مِن أصحابها، أو الثاني حال متداخِلة مِن الضمير في الأوّل، وإضافته غير حقيقيّة، فلا ينافي الحاليّة.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا يرجِع إليهم تحريكُ أجفانهم حسبما كان يرجع إليهم كلّ لحظة؛ بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تَطرِف، أو لا ترجع إليهم أجفانهم التي هي آلة الطَّرْف، فيكون إسناد الرجوع إلى الطَّرْف مَجازيًا، أو هو نفس الجَفن. قال الفيروزاباديّ:[١] «الطَّرْف: العَين، لا يُجمع؛ لأنّه مصدر في الأصل، أو اسم جامع للعين».

[٢٧٧و] أو لا يرجع نظرهم إلى أنفسهم فضلًا / عن أن يرجع إلى شيء آخر فيَبقَون مَبهوتين، وهو أيضًا حال أو بدل مِن ﴿مُقْنِعِي﴾... إلخ، أو استئناف، والمعنى: لا يزول ما اعتراهم مِن شُخوص الأبصار، وتأخيره عمّا هو مِن تتمّته مِن الإهطاع والإقناع مع ما بينه وبين الشُّخوص المذكور مِن المناسبة لتربية هذا المعنى.

﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ خالية مِن العقل والفهم لفَرط الحيرة والدهش، كأنّها نفس الهواء الخالي مِن كلّ شاغل، ومنه قيل للجبان والأحمق: "قلبه هواء"،

< والقُتَبي". | ابن عرفة: هو محمّد بن محمّد بن عرفة بن حمّاد الوَرْغَمي، أبو عبد الله (ت. ٨٠٣هـ/١٤٠٠م). فقيه تونس وإمامها وعالمها وخطيبها، تبحّر في العلوم، وفاقَ في الأصول والكلام، وتقدّم في الفقه والنحو والتفسير، قرأ القراءات على محمّد بن محمّد بن سلامة، وأخذ العلم عن جماعة مِن العلماء الجلّة، منهم والده أبو عبد الله بن الوادياشي وغيره، قال ابن الجزري: «لم يخلِّف بعدَه مثله». مِن كتبه: **المختصر الكبير في فقه المالكيّة، والمختصر الشامل في التوحيد، ومختصر الفرائض، والمبسوط في الفقه، والطرق الواضحة في عمل المناصحة، والحدود في التعاريف الفقهيّة**. انظر: **غاية النهاية لابن الجزري**، ٢/٢٤٣؛ **والأعلام للزركلي**، ٧/٤٣.

[١] **القاموس المحيط للفيروزابادي**، «طرف». | هو محمّد بن يعقوب بن محمّد بن إبراهيم، الشيرازي، الفيروزابادي، مجد الدين، أبو طاهر (ت. ٨١٧هـ/١٤١٥م)، مِن أئمّة اللغة والأدب. وُلد بكارِزين مِن أعمال شيراز، وانتقل إلى العراق، وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند. ورحل إلى زُبيد فأكرمه مِلِكها الأشرف إسماعيل وقرأ عليه، فسكَنها، وولي قضاءها، وانتشر اسمه في الآفاق، حتّى كان مرجعَ عصره في اللغة والحديث والتفسير، أشهر كتبه **القاموس المحيط، وله بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ونزهة الأذهان في تاريخ أصبهان**. انظر: **بغية الوعاة للسيوطي**، ١/٢٧٣؛ **والأعلام للزركلي**، ٧/١٤٦.

أي: لا قوّةَ ولا رأيَ فيه، واعتبارُ خلوّها عن كلّ خير[١] لا يناسب المقام، وهو إمّا حال عاملُها ﴿لَا يَرْتَدُّ﴾ مفيدة لكون شخوص أبصارهم وعدمِ ارتداد طرفهم بلا فَهم ولا اختيار، أو جملةٌ مستقِلّة.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد إعلامه أنّ تأخيرهم لماذا، وأمرٌ له بإنذارهم وتخويفهم منه. والمراد بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الكفّار المعبّر عنهم بالظالمين، كما يقتضيه ظاهر إتيان العذاب، والعدول إليه مِن الإضمار للإشعار بأنّ المراد بالإنذار هو الزجر عمّا هم عليه مِن الظلم شفقةً عليهم، لا التخويف للإزعاج والإيذاء، فالمناسب عدم ذكرِهم بعنوان الظلم. أو الناسُ جميعًا، فإنّ الإنذار عامّ للفريقين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس، ٣٦/١١]، والإتيان يعمّهما مِن حيث كونُهما في الموقف، وإن كان لحوقه بالكفّار خاصّةً، أي: أنذرهم وخوّفهم.

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المعهود، وهو اليوم الذي وُصِف بما لا يوصف مِن الأوصاف الهائلة، أعني: يوم القيامة، وقيل: هو يوم موتهم معذَّبين بالسكَرات ولقاء الملائكة بلا بشرى، أو يومُ هلاكهم بالعذاب العاجل، ويأباهُ القصر السابق.

﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: فيقولون، والعدول عنه إلى ما عليه النظم الكريم للتسجيل عليهم بالظلم، وللإشعار بأنَّ مَا لَقُوه مِن الشدّة إنّما هو لظلمهم. وإيثارُه على صيغة الفاعل حسبما ذُكر أوّلًا للإيذان بأنّ الظلم / في الجملة كافٍ [٢٧٧ظ]
في الإفضاء إلى ما ذُكر مِن الأهوال مِن غير حاجة إلى الاستمرار عليه كما يُنبئ عنه صيغة الفاعل.

وعلى تقدير كون المراد بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ مَن يعمّ المسلمين أيضًا، فالمعنى: الذين ظلموا منهم وهم الكفّار. أو يقول:[٢] كلُّ مَن ظلَم بالشرك والتكذيب مِن المنذرين

---

[١] ذكره الزمخشري عن ابن جريج. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٦٤.

[٢] وفي هامش م: على التقديرين. «منه».

وغيرهم مِن الأمم الخالية فإنّ إتيان العذاب يعمّهم كما يُشعر بذلك وَعدُهم باتّباع الرسل.

﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ﴾ رُدَّنا إلى الدنيا وأمهلنا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ إلى أَمدٍ وحدٍّ مِن الزمان قريب ﴿نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ﴾ أي: الدعوةَ إليكَ وإلى توحيدك، أو دعوتَك لنا على ألسنة الرسل، ففيه إيماء إلى أنّهم صدّقوهم في أنّهم مرسلون مِن عند الله تعالى. ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ فيما جاءونا به، أي: نتدارك ما فرّطنا فيه مِن إجابة الدعوة واتّباع الرسل. والجمع إمّا باعتبار اتّفاق الجميع على التوحيد، وكونِ عصيانهم للرسول عليه السلام عِصيانًا لهم جميعًا عليهم السلام، وإمّا باعتبار أنّ المحكي كلام ظالِمي الأمم جميعًا، والمقصودُ بيانُ وَعد كلّ أمّة باتّباع رسولها.

﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ على إضمار القول معطوفًا على ﴿فَيَقُولُ﴾ أي: فيقال لهم توبيخًا وتبكيتًا: أَلَم تؤخَّروا في الدنيا؟ ولم تكونوا أقسمتم إذ ذاك بألسنتكم بطرًا وأَشَرًا وجهلًا وسفهًا: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ ممّا أنتم عليه مِن التمتّع بالحظوظ الدنياويّة؟ أو بألسنة الحال حيث بنيتم مَشيدًا وَأمّلتُم بَعِيدًا، ولم تحدّثوا أنفسكم بالانتقال منها إلى هذه الحالة؟ وفيه إشعار بامتداد زمان التأخير وبُعدِ مَداه، أو ما لكم مِن زوالٍ مِن هذه الدار إلى دار أخرى للجزاء، كقوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل، ٣٨/١٦].

[٢٧٨و] وصيغة الخطاب / في جواب القسَم لمراعاة حال الخطاب في ﴿أَقۡسَمۡتُم﴾ كما في قوله: "حلَف بالله ليخرُجَنّ"، وهو أدخل في التوبيخ مِن أن يقال: "ما لنا" مراعاةً لحال المُقسِم.

ذكر البيهقيّ[١] عن محمّد بن كعب القرظي رحمه الله أنّه قال: لأهل النار خمسُ دعوات يجيبهم الله تعالى في أربعٍ منها، فإذا كانت الخامسة لم يتكلّموا بعدها أبدًا، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [غافر، ١١/٤٠]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ [غافر، ١٢/٤٠]، ثمّ يقولون:

---

[١] الأسماء والصفات للبيهقي، ٥٥٥/١ (٤٨٢)؛ البعث والنشور للبيهقي، ص ٣٢٨-٣٢٩ (٦٠١).

﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة، ١٢/٣٢]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ الآية [السجدة، ١٤/٣٢]، ثمّ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم﴾ الآية، ثمّ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ [فاطر، ٣٧/٣٥]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر، ٣٧/٣٥]، فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون، ١٠٦/٢٣]، فيجيبهم الله تعالى: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون، ١٠٨/٢٣]، فلا يتكلّمون بعدها أبدًا، إن هو إلّا زفير وشهيق، وعند ذلك انقطع رجاؤهم، وأقبل بعضهم يَنْبُحُ في وجه بعضٍ، وأُطبقت عليهم جهنّم. اللّهمّ إنّا بك نعوذ وبكنَفك نلوذ، عزّ جارك، وجلّ ثناؤك، ولا إله غيرك.

﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ۝٤٥﴾

﴿وَسَكَنتُمۡ﴾ مِن السُّكنى بمعنى التَبَوُّء والإيطان، وإنّما استُعمل بكلمة ﴿فِي﴾ حيث قيل: ﴿فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ جريًا على الأصل؛ لأنّه منقول عن مطلق السكون الذي حقّه التعدية بها، أو مِن السكون واللبث، / أي: [٢٧٨ظ] قرَرتم في مساكنهم مُطْمَئنّين سائرين سيرتَهم في الظلم بالكفر والمعاصي غير محدِّثين لأنفسكم بما لقيه الأوّلون بسبب ما اجترحوا مِن الموبقات. وفي إيقاع الظلم على أنفسهم بعد إطلاقه فيما سلف إيذانٌ بأنّ غائلة الظلم آيِلة[١] إلى صاحبه.

والمراد بهم إمّا جميعُ مَن تقدّمَ مِن الأمم المهلَكة عن تقدير اختصاص الاستمهال، والخطاب السابق بالمنذَرين، وإمّا أوائلهم مِن قوم نوح وهود على تقدير عمومهما للكلّ، وهذا الخطاب وما يتلوه باعتبار حال أواخرهم.

---

[١] س: آئِلة.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ مِن الإهلاك والعقوبة بما فعلوا مِن الظلم والفساد، و﴿كَيْفَ﴾ منصوب بما بعده مِن الفعل. وليس الجملة فاعلًا لـ﴿تَبَيَّنَ﴾ كما قاله بعض الكوفيين؛[١] بل فاعله ما دلّت هي عليه دلالة واضحة، أي: فعلْنَا العَجيبُ بهم،[٢] كما مرّ في قوله تعالى: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ [يوسف، ٣٥/١٢]. وقُرِئَ: "يُبَيَّنُ".[٣]

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: بيّنّا لكم في القرآن العظيم -على تقدير اختصاص الخطاب بالمنذَرين- أو على ألسنة الأنبياء عليهم السلام -على تقدير عمومه لجميع الظالمين- صفاتِ ما فعلوا وما فُعِل بهم مِن الأمور التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكلّ ظالم؛ لتعتبروا بها، وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم، ومآلكم على مآلهم، وتنتقلوا مِن حلول العذاب العاجل إلى حلول العذاب الآجل، فترتدعوا عمّا كنتم فيه مِن الكفر والمعاصي، أو بيّنّا لكم أنكم مثلُهم في الكفر واستحقاق العذاب.

والجمل الثلاث في موقع الحال مِن ضمير ﴿أَقْسَمْتُم﴾،[٤] أي: أقسمتم بالخلود والحال أنكم سكنتم في مساكنِ المهلَكين بظلمهم، وتبيّن لكم فِعلُنا العجيبُ بهم، / ونبهناكم على جَليّة الحال بضرب الأمثال. [٢٧٩و]

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۝٤٦﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ حال مِن الضمير الأوّل في ﴿فَعَلْنَا بِهِمْ﴾،[٥] أو مِن الثاني، أو منهما جميعًا. وإنّما قُدّم عليه قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[٦] لشدّة ارتباطه بما قبله، أي: فَعلنا بهم ما فَعلنا، والحال أنّهم قد مكروا

---

[١] انظر: شرح شذور الذهب لابن هشام، ص ٢١٧.

[٢] وفي هامش م: وفيه مِن المبالغة ما ليس في أن يقال: ما فعلنا بهم.

[٣] لم أجد مَن ذكَر القراءة بالياء. والمذكور في المصادر: "وَنُبَيِّنُ" بنون مضمومة ورفع النون الأخيرة، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وحكاها أبو عمرو الداني عن السُّلمي. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٣/٦؛ واللباب لابن عادل، ٤١٠/١١.

[٤] في الآية السابقة.

[٥] في الآية السابقة.

[٦] في الآية السابقة.

في إبطال الحقّ وتقريرِ الباطل مكرَهم العظيم، الذي استفرغوا في عمله المجهودَ، وجاوزوا فيه كلّ حدٍّ معهود، بحيث لا يقدِر عليه غيرهم. فالمراد بيان تناهيهم في استحقاق ما فُعِل بهم. أو قد مكروا مكرَهم المذكورَ في ترتيب مبادي البقاء ومدافعةِ أسباب الزوال، فالمقصود إظهارُ عجزهم واضمحلال قُدرتهم وحقارتها عند قدرة الله سبحانه[1] وتعالى.

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي: جزاءُ مَكرهم الذي فعلوه، على أنّ المَكر مضاف إلى فاعله، أو أخذُه تعالى بهم، على أنّه مضاف إلى مفعوله، وتسميته "مكرًا" لكونه بمقابلة مكرهم وجودًا وذِكرًا، أو لكونه في صورة المكرِ في الإتيان مِن حيث لا يشعرون. وعلى التقديرين فالمراد به ما أفاده قوله عزّ وجلّ: ﴿كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾،[2] لا أنّه وعيد مستأنَف. والجملة حال مِن الضمير في ﴿مَكَرُواْ﴾، أي: مكروا مكرَهم وعند الله جزاؤه أو ما هو أعظم منه. والمقصود بيان فساد رأيهم حيث باشروا فعلًا مع تحقّق ما يوجب تركه.

﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ﴾ في العِظم والشدّة ﴿لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ أي: وإن كان مكرهم في غاية المتانة والشدّة، وعبّر عن ذلك بكونه مسوًّى ومُعَدًّا لإزالة الجبال عن مقارّها لكونه مَثلًا في ذلك. والجملة المصدّرة بـ﴿إِن﴾ الوصليّة معطوفة على جملة مقدّرة، والمعنى: وعند الله جزاء مكرهم أو المكرُ الذي يحيق بهم إن لم يكن مكرهم لِتزول منه الجبال وإن كان... إلخ، وقد حُذف ذلك حذفًا مطّردًا لدلالة المذكور عليه دلالة واضحة، فإنّ الشيء إذا تحقّق عند وجود المانع القويّ فلأن يتحقّق عند عدمه أَولى. / وعلى هذه النكتة يدور ما في ﴿إِن﴾ الوصليّة مِن التأكيد المعنوي. والجواب محذوف دلّ عليه ما سبق، وهو قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾. [٢٧٩ظ]

وقيل: ﴿إِن﴾ نافية، و"اللام" لتأكيدها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾ [الأنفال، ٣٣/٨]، وينصره قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "وَمَا كَانَ مَكْرُهُمْ".[3] فالجملة حينئذ حال مِن الضمير في ﴿مَكَرُواْ﴾، لا مِن قوله تعالى:

---

[1] ط: تعالى.
[2] في الآية السابقة.
[3] قراءة شاذّة، عزاها الزمخشري إليه رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٦/٢.

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾، أي: مكروا مكرَهم والحالُ أنّ مكرَهم لم يكن لِتزول منه الجبال، على أنّها عبارة عن آيات الله تعالى وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدي الرسل السالفة عليهم السلام التي هي بمنزلة الجبال الراسيات في الرسوخ.

وأمّا كونها عبارة عن أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأمرِ القرآن العظيم -كما قيل-[١] فلا مجالَ له، إذ الماكرون هم المهلَكون لا الساكنون في مساكنهم مِن المخاطَبين، وإن خُصّ الخطاب بالمنذَرين.

وقيل: هي مخففة مِن "إنّ"، والمعنى: إنّه كان مكرهم لِتزول منه ما هو كالجبال في الثبات ممّا ذُكر مِن الآيات والشرائع والمعجزات، والجملة كما هي حال مِن ضمير ﴿مَكَرُواْ﴾، أي: مكروا مكرَهم المعهودَ، وإنّ الشأن كان مكرهم لإزالة الآيات والشرائع، على معنى أنّه لم يكن يصحّ أن يكون منهم مكر كذلك، وكان شأن الآيات والشرائع مانعًا مِن مباشرة المكر لإزالته.

وقد قرأ الكسائيّ: "لَتَزُولُ" بفتح اللام[٢] على أنّها الفارقة، والمعنى تعظيم مكرهم، فالجملة حال مِن قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾، أي: عنده تعالى جزاءُ مكرهم، أو المكرُ بهم، والحالُ أنّ مكرهم بحيث تزول منه الجبال، أي: في غاية الشدّة. وقُرئ بالفتح والنصب[٣] على لغة مَن يفتح لام "كي". وقُرئ: "وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ"،[٤] هذا هو الذي يقتضيه النظم الكريم، وينساق إليه الطبع السليم.

وقد قيل: إنّ الضمير في ﴿مَكَرُواْ﴾ للمنذَرين، والمراد بـ﴿مَكۡرَهُمۡ﴾ ما أفاده قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَ﴾ الآية [الأنفال، ٨/٣٠]، / وغيرُه مِن أنواع مكرهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم. [٢٨٠و]

ولعلّ الوجهَ حينئذ أن يكون قولُه تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ﴾... إلخ حالًا مِن القول المقدّر، أي: فيقال لهم ما يقال والحال أنّهم مع ما فعلوا مِن الإقسام المذكور

---

١ قاله الثعلبي في الكشف والبيان، ٥/٣٢٦؛ والواحدي في التفسير الوسيط، ٣/٣٦.

٢ انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٠.

٣ أي: "لَتَزُولَ". قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٤٥٥؛ واللباب لابن عادل، ١١/٤١٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو وعليّ وابن مسعود وأبيّ وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو إسحاق السبيعي وزيد بن عليّ. انظر: شواذ القراءات للكرماني، ص ٢٦٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٤٥٤.

مع ما ينافيه مِن السكون في مساكن المهلَكين وتبيُّنِ أحوالهم وضرب الأمثال قد مكروا مَكْرَهم العظيم، أي: لم يكن الصادر عنهم مجرّدَ الإقسام الذي وُبِخُوا به؛ بل اجترءوا على مثل هذه العظيمة. وقوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ حال مِن ضمير ﴿مَكَرُواْ﴾ حسبما ذكرنا مِن قبل.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ مسوق لبيان عدم تفاوت الحال في تحقيق الجزاء بين كون مكرهم قويًا أو ضعيفًا كما مرّ هناك. وعلى تقدير كون ﴿إِن﴾ نافيةً فهو حال مِن ضمير ﴿مَكَرُواْ﴾، والجبال عبارة عن أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أي: وقد مكروا والحال أنّ مكرهم ما كان لتزول منه هاتِيك الشرائعُ والآيات التي هي في القوّة كالجبال. وعلى تقدير كونها مخفّفة مِن المثقّلة و"اللامُ" مكسورة يكون حالًا منه أيضًا، على معنى أنّ ذلك المكر العظيم منهم كان لهذا الغرَض، على معنى أنّه لم يكن يصحّ أن يكون منهم مكر لذلك، لِما أنّ شأن الشرائع أعظمُ مِن أن يَمكُر بها ماكر. وعلى تقدير فتح "اللام" فهو حال مِن قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ كما ذكرنا مِن قبلُ، فليتأمّل.

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ۝٤٧﴾

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ لم يُرد به -والله سبحانه أعلم- ما وعده بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية [غافر، ٥١/٤٠]، وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة، ٢١/٥٨] كما قيل،[١] فإنّه لا اختصاصَ له بالتعذيب لا سيّما الأخرويّ؛ بل ما سلف آنفًا مِن وعده بتعذيب الظالمين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ﴾ الآية،[٢] كما يُفصِح عنه الفاء الداخلة على النهي الذي أريدَ به تثبيته عليه السلام على ما كان عليه مِن الثقة بالله تعالى والتيقّن بإنجاز وعده المذكور المقرون بالأمر بإنذارهم يومَ إتيان العذاب المتضمّن لذكر تعذيب الأمم السالفة، بسبب كفرهم وعصيانهم رسلَهمْ بعد ما وعدهم بذلك كما فُصِلت قصّة كلّ منهم في القرآن العظيم، فكأنّه قيل: وإذ قد وعدناك بعذاب / الظالمين يوم القيامة، [٢٨٠ظ]

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٦٦/٢؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٠٣/٣.

٢ إبراهيم، ٤٢/١٤.

وأخبرناك بما يلقَونه مِن الشدائد، وبما يسألونه مِن الردّ إلى الدنيا، وبما أجبناهم به، وقرّعناهم بعدم تأمّلهم في أحوال مَن سبقهم مِن الأمم الذين أهلكناهم بظلمهم بعد ما وعدنا رسلَهم بإهلاكهم، فَدُم على ما كنت عليه مِن اليقين بعدم إخلافنا رسلَنا وعدَنا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يُماكَرُ، وقادِر لا يُقادَر، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لأوليائه مِن أعدائه. والجملة تعليل للنهي المذكور، وتذييل له. وحيث كان الوعد عبارة عمّا ذكرنا مِن تَعذيبهم خاصّةً لم يُذيّل بأن يقال: "إنّ الله لا يُخلِف الميعاد"؛ بل تعرّض لوصف العزّة والانتقام المشعِرَين بذلك. والمراد بالانتقام ما أشيرَ إليه بالفعل،[١] وعُبّر عنه بالمكر.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ ظرف لمُضمَر مستأنَف ينسحب عليه النهي المذكور، أي: يُنجِزُه[٢] يومَ... إلخ، أو معطوف عليه، نحو: وارْتَقِبْ يومَ تُبدّلُ الأرض غيرَ الأرض. أو لـ﴿ٱنتِقَامٍ﴾، وهو ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾[٣] بعينه، ولكن له أحوال جمّة يُذكر كلّ مرّة بعنوان مخصوص. والتقييد به مع عموم انتقامه للأوقات كلّها للإفصاح عمّا هو المقصود به مِن تعذيب الكفرة المؤخَّر إلى ذلك اليوم بموجَب الحكمة الداعية إليه.

وقيل: بدل مِن ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾،[٤] أو نصب بـ"اذكر"، أو بإضمار "لا يُخلِف وعده يومَ تُبدّل"... إلخ، وفيه أيضًا ما في الوجه الثالث مِن الحاجة إلى الاعتذار. ولا يجوز أن ينتصب بقوله: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ﴾؛[٥] لأنّ ما قبل "إنّ" لا يعمل فيما بعده. وقيل: هو غيرُ مانع؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[٦] جملة اعتراضيّة، فلا يُبالى بها فاصلًا.

---

١ وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم، ١٤/٤٥]. «منه».
٢ وفي هامش م: أحد.
٣ إبراهيم، ١٤/٤٤.
٤ إبراهيم، ١٤/٤٤.
٥ في الآية السابقة.
٦ في الآية السابقة.

واعلم أنّ التبديل قد يكون في الذات، كما في: "بدّلتُ الدراهمَ دنانيرَ"، وعليه قوله عزّ وجلّ: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء، ٥٦/٤]، وقد يكون في الصفات كما في قولِك: "بدّلتُ الحلْقةَ خاتمًا" إذا غيّرتَ شكلَها، ومنه قوله تعالى: / ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان، ٧٠/٢٥] على بعض الأقوال، [٢٨١و]
والآية الكريمة ليست بنصّ في أحد الوجهين.

فعن عليّ كرّم الله تعالى[١] وجهه: «يبدّل أرضًا مِن فضّة، وسماواتٍ مِن ذهب».[٢] وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «يبدّل الأرض بأرض كالفضّة بيضاء نقيّة لم يُسفك فيها دم، ولم يُعمل عليها خطيئة».[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله تعالى[٤] عنهما: «هي تلك الأرض وإنّما تُغيَّر صفاتُها»، وأنشَد:

وما الناسُ بالناس الذين عَهِدتُهم   وما الدارُ بالدارِ التي كنت تعلمُ[٥]

ويُبدَّلُ السماوات بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبوابًا، ويدلّ عليه ما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال: «تُبدّل الأرض غيرَ الأرض، فتُبسَط وتُمَدُّ مدَّ الأديم العُكاظي، لا ترى فيها عِوجًا ولا أمْتًا».[٦]

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي: ويبدّل السماوات غير السماوات حسبما مرّ مِن التفصيل. وتقديم تبديل الأرض لقُربها منّا، ولكون تبديلها أعظمَ أثرًا بالنسبة إلينا.

﴿وَبَرَزُوا۟﴾ أي: الخلائق، أو الظالمون المدلول عليهم بمعونة السباق. والمراد بروزهم مِن أجداثهم التي في بطون الأرض، أو ظهورُهم بأعمالهم

---

١ س - تعالى.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٧/٢؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٠٣/٣. ولفظه في جامع البيان للطبري، ٧٣٣/١٣: «الأرض مِن فضّة، والجنّة مِن ذهَب».

٣ جامع البيان للطبري، ٧٣٠/١٣؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٧/٣.

٤ ط س - تعالى.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٨/٥؛ التفسير البسيط للواحدي، ٥١٤/١٢. وأخرج ابن بطّة في الإبانة الكبرى، ٥٧٤/٢ (٧٢١)، بسنده أنّ ابن عبّاس رضي الله عنهما كان يتمثّل بهذا البيت. والبيت للعبّاس بن عبد المطّلب في التذكرة الحمدونيّة لابن حمدون، ٢٩٦/٧؛ وجمهرة الأمثال للعسكري، ٩٦/١.

٦ جامع البيان للطبري، ٧٣٥/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٨/٥. وأخرجه في حديث طويل أبو الشيخ في العظمة، ٨٢١/٣ (٣٨٦)؛ والبيهقي في البعث والنشور، ص ٣٣٨-٣٤٤ (٦٠٩).

التي كانوا يعملونها سرًا ويزعمون أنّها لا تظهر، أو يعملون عملَ مَن يزعم ذلك. ولعلّ إسنادَ البُروز إليهم مع أنّه لأعمالهم للإيذان بتشكّلهم بأشكالٍ تناسِبُها. وهو معطوف على ﴿تُبَدَّلُ﴾، والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقّق وقوعه، أو حالٌ مِن ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بتقدير "قد"، والرابط بينها وبين صاحبِها "الواو".

﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ للحساب والجزاء. والتعرّض للوصفين لتهويلِ الخطب، وتربية المهابة، وإظهارِ بطلان الشرك، وتحقيقِ الانتقام في ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفًا له، وتحقيقِ إتيان العذاب / الموعود على تقدير كونه بدلًا مِن ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾،[١] فإنّ الأمر إذا كان لواحدٍ غلّابٍ لا يُعازّ وقادرٍ لا يُضارّ ولا يُعارّ كان في غاية ما يكون مِن الشدّة والصعوبة. [٢٨١ظ]

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩﴾

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ عطفٌ على ﴿بَرَزُواْ﴾،[٢] والعدول إلى صيغة المضارع لاستحضار الصورة، أو للدلالة على الاستمرار. وأمّا البروز فهو دفعيّ لا استمرارَ فيه. وعلى تقدير حاليّة ﴿بَرَزُواْ﴾[٣] فهو معطوف على ﴿تُبَدَّلُ﴾،[٤] ويجوز عطفه على عامل الظرف المقدّم، على تقدير كونِهِ يُنْجِزُهُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يومَ إذ برزوا له عزّ وجلّ، أو يومَ إذ تُبدَّل الأرض، أو يومَ إذ يُنجِز[٥] وعدَه.

﴿مُقَرَّنِينَ﴾ قُرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم في الجرائم والجرائر، أو قُرِنوا مع الشياطين الذين أغوَوهم، أو قُرنوا مع ما اقترفوا مِن العقائد الزائغة والملَكات الرديّة والأعمال السيّئة غِبّ تَصوّر كلّ منها وتَشكّلها بما يناسبها مِن الصور الموحشة والأشكال الهائلة، أو قُرنت أيديهم وأرجلُهم إلى رقابهم. وهو حال مِن ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ في القيود أو الأغلال. وهو إمّا متعلّق بقوله تعالى: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾، أو حال مِن ضميره، أي: مصفَّدين.

---

١ إبراهيم، ١٤/٤٤.
٢ في الآية السابقة.
٣ في الآية السابقة.
٤ في الآية السابقة.
٥ ط س: ينجزه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ۝٥٠﴾

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي: قُمصانهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر، محلُّها النصب على الحاليّة مِن ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾،[١] أو مِن ضميرهم في ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾،[٢] رابطتها الضمير فقط، كما في "كلّمتُه فُوهُ إلى فِيّ"، أو مستأنَفة.

و"القَطران": ما يتحلّب مِن الأَبْهُل،[٣] فيُطبَخ فتُهْنَأُ به الإبل الجَرْبَى، فيُحرق الجرَب بما فيه مِن الحدّة الشديدة، وقد يصل حرارته إلى الجوف، وهو أسود مُنتِن، يُسرع فيه اشتعال النار، يُطلى به جلود أهل النار حتّى يعود طلاؤه لهم كالسراويل؛ ليجتمع عليهم الألوان الأربعة مِن العذاب؛ لذعه، وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الموحش / والنتن، على أنّ التفاوت بينه وبين ما [٢٨٢و] نشاهده وبين النارين لا يكاد يُقادَر قدره، فكأنّ ما نشاهِدُه منهما أسماءٌ مسمّياتها في الآخرة، فبكرمه العميم نعوذ، وبكنفه الواسع نلوذ.

ويحتمل أن يكون ذلك تمثيلًا لِما يُحيط بجوهر النفس مِن الملَكات الرديّة والهيئات الموحشة، فتَجلب إليها الآلامَ والغموم؛ بل وأن يكون القَطران المذكور عينَ ما لابَسوه في هذه النشأة وجعلوه شِعارًا لهم مِن العقائد الباطلة والأعمال السيّئة المستجلِبة لفنون العذاب، قد تجسّدت في النشأة الآخرة بتلك الصورة المستتبِعة لاشتداد العذاب، عصمَنا الله سبحانه عن ذلك بمنّه ولطفه. وقُرئ: "مِن قَطْرٍ آنٍ"،[٤] أي: نُحاس مُذاب متناهٍ حرُّه.

﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تعلوها وتحيط بها النار التي تمسّ جسدَهم المُسَرْبَلَ بالقَطران. وتخصيص الوجوه بالحُكم المذكور مع عمومه لسائر أعضائهم لكونها أعزَّ الأعضاء الظاهرةِ وأشرفَها، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾... إلخ [الزمر، ٢٤/٣٩]، ولكونها مَجمع المشاعرِ والحواسّ

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ الأبهَل: شجر الغَرب: شجر كبير، ورقه كالطرفاء، وثمره كالنبق، أو ورقه كالسرو، كثير الشوك، شجر العرعر أو ثمره، وهو شجر يستخرج منه القَطران. انظر: لسان العرب لابن منظور، «بهل»؛ ومعجم متن اللغة لأحمد رضا، «بهل».

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير وعكرمة وزيد عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٣.

التي خُلقت لإدراك الحقّ، وقد أعرضوا عنه، ولم يستعملوها في تدبّره، كما أنّ الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحلُّ المعرفة، وقد مَلئوها بالجهالات، ولذلك قيل: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة، ٧/١٠٤]، أو لخلوّها عن القَطران المغني عن ذكر غشَيان النار لها. ولعلّ تخليتَها عنه ليتعارفوا عند انكشاف اللهَب أحيانًا، ويتضاعف عذابهم بالخِزي على رءوس الأشهاد.

وقُرئ: "تَغَشّى"،[١] أي: تتغشّى، بحذف إحدى التاءين. والجملة نصب على الحاليّة، لا على أنّ الواو حاليّة؛ لأنّه مضارع مثبت؛ بل على أنّها معطوفة على الحال، قاله أبو البقاء.[٢]

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ﴾ متعلّق بمُضمَر، أي: يفعل بهم ذلك ليجزي ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ مجرمة ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ مِن أنواع الكفر والمعاصي جزاءً موافقًا لعملها. وفيه إيذان بأنّ جزاءهم مناسب لأعمالهم. أو بقوله: ﴿بَرَزُواْ﴾[٣] على تقدير كونه معطوفًا على ﴿تُبَدَّلُ﴾،[٤] والضمير للخلق، وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾... إلخ[٥] اعتراض بين المتعلِّق والمتعلَّق به، أي: برزوا للحساب ليجزي الله كلَّ نفس مطيعة أو عاصية ما كسبت مِن خير أو شرّ. وقد اكتُفي بذكر عقاب العُصاة تعويلًا على شهادة الحال لا سيّما مع ملاحظة سبق الرحمة الواسعة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إذ لا يشغله شأن عن شأن، فيتمّه في أعجل ما يكون مِن الزمان، فيوفّي الجزاء بحسبه، أو سريعُ المجيء يأتي عن قريب، أو سريعُ الانتقام كما قال ابن عبّاس رضي الله عنهما / في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ [٢٨٢ظ]
ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد، ٤١/١٣].[٦]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٣.

[٢] انظر: التبيان لأبي البقاء العكبري، ٧٧٥/٢؛ واللباب لابن عادل، ٤١٩/١١.

[٣] إبراهيم، ٤٨/١٤.

[٤] إبراهيم، ٤٨/١٤.

[٥] في الآية السابقة.

[٦] التفسير البسيط للواحدي، ٣٨٥/١٢ (الرعد، ٤١/١٣)؛ اللباب لابن عادل، ٣٢٣/١١ (الرعد، ٤١/١٣).

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿هَٰذَا﴾ أي: ما ذُكر مِن قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾[1] إلى قوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[2] ﴿بَلَٰغٌ﴾ كفاية في العِظة والتذكير مِن غير حاجة إلى ما انطوى عليه السورة الكريمة أو كلُّ القرآن المجيد مِن فنون العظات والقوارعِ. ﴿لِّلنَّاسِ﴾ للكفّار خاصّةً على تقدير اختصاص الإنذار بهم في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾،[3] أو لهم وللمؤمنين كافّةً على تقدير شموله لهم أيضًا، وإن كان ما شُرِح مختصًّا بالظالمين.

﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ عطفٌ على مقدّر، و"اللام" متعلّقة بالبلاغ، أي: كفاية لهم في أن يُنصَحُوا ويُنذَروا به، أو هذا بلاغ لهم ليفهموه ولِيُنذَروا به، على أنّ البلاغ بمعنى الإبلاغ، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة، ٩٩/٥]، أو متعلّقة بمحذوف، أي: ولِيُنذَروا به أُنزل أو تُلِيَ. وقُرِئ: "لِيَنْذَرُوا بِهِ"[4] مِن "نذِر بالشيء" إذا علمه وحذِره واستعدّ له.

﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ﴾ بالتأمّل فيما فيه مِن الدلائل الواضحة التي هي إهلاك الأمم وإسكانُ آخَرين مساكنَهم وغيرُهما ممّا سبَق ولحِق ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريكَ له. وتقديم الإنذار لأنّه الداعي إلى التأمّل المؤدّي إلى ما هو غاية له مِن العلم المذكور والتذكّر في قوله تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ليتذكّروا ما كانوا يعلمونه مِن قبلُ مِن التوحيد وغيرِه مِن شُئون الله عزّ وجلّ ومعاملته مع عباده، فيرتدعوا عمّا يُرْديهم مِن الصفات التي يتّصف بها الكفّار، ويتدرّعوا بما يُحْظِيهم مِن العقائد الحقّة والأعمال الصالحة.

وفي تخصيص التذكّر بـ"أولي الألباب" تلويح باختصاص العلم بالكفّار، ودلالةٌ على أنّ المشار إليه بهذا ما ذكرنا مِن القوارع المسوقة لشأنهم، لا كلُّ السورة المشتملة عليها وعلى ما سيق للمؤمنين أيضًا، فإنّ فيه ما يُفيدهم فائدة جديدةً.

---

[1] إبراهيم، ٤٢/١٤.
[2] في الآية السابقة.
[3] إبراهيم، ٤٤/١٤.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن عمارة وأحمد بن يزيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٣.

وحيث كان ما يفيده البلاغ مِن التوحيد وما يترتَّب عليه مِن الأحكام بالنسبة إلى الكفرة أمرًا حادثًا وبالنسبة إلى أولي الألباب الثباتَ على ذلك حسبما أشيرَ إليه عُبِّر عن الأوّل بالعلم، وعن الثاني بالتذكّر، وروعي ترتيب الوجود، مع ما فيه مِن الختم بالحُسنى، والله سبحانه أعلم. ختمَنا الله بالسعادة والحُسنى، ورزقَنا الفوز بمَرضاته في الأولى والعُقبى، آمين.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة إبراهيم أُعطي مِن الأجر عشرُ حسنات بعدد مَن عبد الأصنام ومَن لم يعبُدْ».[1]

والحمد لله وحدَه.[2]

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٤/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٢/٣. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

[2] وفي هامش م: إلى هنا انتهت المطالعة بفضل الله سبحانه وتعالى وقت الضحوة الكبرى مِن يوم الاثنين السادس مِن المحرّم المحترم، سنة ستّ وخمسين وتسعمائة، حامدًا لله تعالى ومصلّيًا على نبيّه عليه السلام، حسبنا الله تعالى ونعم الوكيل.

١٤

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

مكية إلاّ «ألم تر إلى الذين بدّلوا» الآيتين، إحدى أو ثنتان أو أربعٌ أو خمس وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الر﴾ اللهُ أعلم بمُراده بذلك.

هـذا القُرآن ﴿كِتابٌ أنزَلْناهُ إلَيكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿لِتُخرِجَ النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ﴾: الكُفر ﴿إلَى النُّورِ﴾: الإيمان ﴿بِإذنِ﴾: بأمر ﴿رَبِّهِم﴾، ويُبدل من «إلى النور»: ﴿إلَى صِراطِ﴾: طريقِ ﴿العَزيزِ﴾: الغالب ﴿الحَميدِ﴾: المحمود، ٢ ـ ٣ ـ ﴿اللهِ﴾ بالجرِّ: بدل أو عطف بيان وما بعده صِفة، والرفعِ: مبتدأ خبرُه: ﴿الَّذي لَهُ ما في السَّماواتِ وما في الأَرضِ﴾ مُلكًا وخلقًا وعبيدًا،......................

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

قولُهُ: (هَذَا القُرْآنُ) أو هذه السُّورةُ.

قولُهُ: (بِأَمرِ) أو: بتوفيقٍ.

قولُهُ: (وَيُبدَلُ) بتكريرِ العامِلِ.

قولُهُ: (المَحْمُودِ) وإضافَةُ الصِّراطِ إلى اللهِ لأنَّهُ مقصدُهُ، أو المظهِرُ له، وتخصِيصُ الوصفَينِ إشارةٌ إلى أنَّهُ لا يُذَلُّ سالكُهُ ولا يخيَّبُ سائلُهُ.

قولُهُ: (والرَّفعِ): نافعٌ وشاميٌّ[1].

قولُهُ: (مُبتَدَأٌ) أو ﴿اللهُ﴾ خبرُ محذوفٍ هو «هو»، و﴿الَّذي﴾ صفتُهُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٦).

﴿وَوَيلٌ لِلكافِرينَ مِن عَذابٍ شَدِيدٍ الَّذِينَ﴾: نعت ﴿يَستَحِبُّونَ﴾: يختارون ﴿الحَياةَ الدُّنيا علَى الآخِرةِ، ويَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾: دِينِ الإسلام، ﴿ويَبغُونَها﴾ أي: السبيلَ ﴿عِوَجًا﴾: مُعْوَجّة. ﴿أُولئِكَ في ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحقّ.

٤ ـ ﴿وما أرسَلْنا مِن رَسُولٍ إلاّ بِلِسانِ﴾: بلغةِ ﴿قَومِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُم﴾: ليُفهّمهم ما أتى به، ﴿فيُضِلُّ اللهُ مَن يَشاءُ ويَهدِي مَن يَشاءُ ـ وهُوَ العَزِيزُ﴾ في مُلكه ﴿الحَكِيمُ﴾ في صُنعه ـ ٥ ـ ﴿ولَقَد أرسَلْنا مُوسَى بِآياتِنا﴾ التسع، وقلنا له: ﴿أنْ أخرِجْ قَومَكَ﴾ بني إسرائيلَ ﴿مِنَ الظُّلُماتِ﴾: الكُفر ﴿إلَى النُّورِ﴾: الإيمان، ﴿وذَكِّرْهُم بِأيّامِ اللهِ﴾: بنِعَمِه. ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ التذكير ﴿لَآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ﴾ على الطاعة ﴿شَكُورٍ﴾ للنِّعم.

٦ ـ ٧ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ قالَ مُوسَى لِقَومِهِ: اذكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ علَيكُم، إذ أنجاكُم مِن آلِ فِرعَونَ، يَسُومُونَكُم سُوءَ العَذابِ، ويُذَبِّحُونَ أبناءَكُم﴾ المولودِين،.........................

قولُهُ: (نَعتٌ) فهو مجرورٌ، ويحتملُ النَّصبَ على الذَّمِّ، والرَّفعَ على أنَّهُ مبتدأٌ خبرُهُ: ﴿أولئكَ﴾.

قولُهُ: (مُعوَجَّةً) أو يَبغونَ لها زيغاً ليقدَحوا فيه، على الحذفِ والإيصالِ.

قولُهُ: (عَنِ الحَقِّ) أي: ضلُّوا عن الحقِّ ووقَعوا عنه بمراحلَ، والبعدُ في الحقيقةِ للضَّالِّ، فوصفَ به فعلَهُ للمُبالغَةِ.

قولُهُ: (ليُفهِّمَهُمْ) بيسرٍ وسرعةٍ، ثمَّ ينقُلوهُ ويترجِموهُ لغيرِهم، فإنَّهُم أولى النَّاسِ إليه بأن يَدعوهُم.

قولُهُ: (قُلْنَا) هذا التَّقديرُ غيرُ صحيحٍ؛ فإنَّ ﴿أنْ﴾ حينئذٍ لا يمكنُ أن تكونَ مصدريَّةً؛ لأنَّ المقولَ لا يكونُ إلَّا جملةً، ولا أن تكونَ مفسِّرةً؛ لأنَّها إنَّما تكونُ فيما فيه معنى القولِ لا في القولِ الصَّريحِ؛ فالصَّحِيحُ أنَّ ﴿أنْ﴾ مفسِّرةٌ؛ لأنَّ في الإرسالِ معنى القَولِ، أو مصدريَّةٌ بتقديرِ الباءِ، فإنَّ صيغَ الأفعالِ إنشائيَّةً أو خبريَّةً سواءٌ في الدَّلالةِ على المصدرِ، فيصحُّ أن يوصَلَ بها «أن» النَّاصبةُ.

قولُهُ: (بنِعمِهِ) أو أنذرْهُم بوقائعِهِ الَّتي وقعَتْ على الأممِ الدَّارجةِ.

قولُهُ: (للنِّعَمِ) قيل: المرادُ: لكلِّ مؤمنٍ، وإنَّما عبَّرَ عنهم بذلك تنبيهاً على أنَّ الصَّبرَ والشُّكرَ عنوانُ المؤمنِ، ولذا قالَ ﷺ: «الإيمانُ نصفُهُ صبرٌ ونصفُهُ شكرٌ»[1].

---

(١) رواه الخرائطي في «فضيلة الشكر» (١٨)، والقضاعي في «مسنده» (١٥٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٢٦٤) من حديث يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (ص: ١٣٩٩) بعد أن عزاه لمسند الفردوس، قال: يزيد ضعيف.

﴿وَيَسْتَحيُونَ﴾: يَستبقُون ﴿نِساءَكُم﴾ لقول بعض الكهنة: إنّ مولودًا يُولد في بني إسرائيلَ يكون سببَ ذهابِ مُلكِ فِرعونَ - ﴿وفي ذلِكُم﴾: الإنجاءِ أو العذابِ ﴿بَلاءٌ﴾: إنعام أو ابتلاء، ﴿مِن رَبِّكُم عَظِيمٌ - وإذ تأذَّنَ﴾: أعلمَ ﴿رَبُّكُم: لَئِنْ شَكَرتُم﴾ نعمتي بالتوحيد والطاعة ﴿لَأزِيدَنَّكُم، ولَئِنْ كَفَرتُم﴾: جحدتم النِّعمة بالكُفر والمعصية لَأعذِّبنكم، دلّ عليه: ﴿إنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ﴾.

٨ - ﴿وقالَ مُوسَى﴾ لقومه: ﴿إن تَكفُرُوا أنتُم ومَن في الأرضِ جَمِيعًا فإنَّ اللهَ لَغَنيٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾: محمود في صُنعه بهم. ٩ - ﴿ألَم يأتِكُم﴾ - استفهام تقرير - ﴿نَبَأُ﴾: خبرُ ﴿الَّذِينَ مِن قَبلِكُم قَومِ نُوحٍ وعادٍ﴾: قومِ هودٍ ﴿وثَمُودَ﴾: قومِ صالح، ﴿والَّذِينَ مِن بَعدِهِم، لا يَعلَمُهُم إلاّ اللهُ﴾ لكثرتهم؟ ﴿جاءَتْهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ﴾: بالحُجج الواضحة على صِدقهم، ﴿فرَدُّوا﴾ أي: الأُممُ ﴿أيدِيَهُم في أفواهِهِم﴾ أي: إليها ليعضّوا عليها من شِدّة الغيظ،.......................................

قولُهُ: (أو ابتِلَاءٌ) لفٌّ ونشرٌ مرتَّبٌ.

قولُهُ: (﴿تَأَذَّنَ﴾) أي: أعلمَ؛ كتوعَّدَ بمعنى: أوعدَ.

قالَ تعالى: (﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]) أي: نعمةً إلى نعمةٍ، قيلَ: لئن شكرتُم هدايَتِي لأزيدنَّكُم خدمَتِي، ولئنْ شكرْتُم خدمَتِي لأزيدنَّكُم ولايتِي، ولئن شَكَرْتُم ولايتِي لأزيدنَّكُم مشاهَدتي، ولئن شكَرْتُم مشاهَدتِي لأزيدنَّكُم رُؤيَتي[2].

قولُهُ: (دَلَّ عَلَيهِ) ومن عادَةِ أكرمِ الأكرَمينَ أن يصرِّحَ بالوَعدِ ويعرِّضَ بالوَعيدِ.

قولُهُ: (عَنْ خَلقِهِ) وشكرِهِم.

قولُهُ: (مَحمُودٌ) أو مستَحِقٌّ للحَمدِ في ذاتِهِ، يحمدُه الملائكةُ وينطقُ بنعتِهِ[3] ذرَّاتُ المخلوقاتِ، فما ضرَرتُم بالكُفرانِ إلَّا أنفسَكُم حيثُ حَرَمتُموها مزيدَ الإنعامِ وعرَّضتُموها للعَذابِ الشَّديدِ الإيلامِ.

قولُهُ: (اسْتِفهَامُ تَقْرِيرٍ) من كلامِ موسى، أو كلامٌ مبتدأٌ من اللهِ.

قولُهُ: (لِكَثرَتِهِم) أي: لا يعلمُ عددَهُم إلَّا هو، ولذا قالَ ابنُ مسعودٍ: كذبَ النَّسَّابونَ[4].

قولُهُ: (لِيَعَضُّوا) وقيل: المعنى: فردُّوا أيديَهُم إلى أفواهِ الأنبياءِ تسكيتاً لهم عن الإنباءِ[5].

---

(١) في (ص): «﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾».

(٢) هو من كلام ابن عطاء، انظر: «عرائس البيان» (٢/ ٢٥٥).

(٣) في (ص): «بنعمه».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠٥٩٢).

(٥) جاء بنحوه من قول الحسن، ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٥٠٦)، وأبو حيان في «البحر المحيط» (٦/ ٤١٣).

﴿وقالُوا: إنّا كَفَرْنا بِما أُرسِلتُم بِهِ﴾ على زعمكم، ﴿وإنّا لَفِي شَكٍّ مِمّا تَدعُونَنا إلَيهِ مُرِيبٍ﴾: مُوقعٍ للرِّيبة.

١٠ ـ ﴿قالَتْ رُسُلُهُم: أفِي اللهِ شَكٌّ﴾، استفهام إنكار، أي: لا شكَّ في توحيده للدلائل الظاهرة عليه، ﴿فاطِرِ﴾: خالقِ ﴿السَّماواتِ والأرضِ، يَدعُوكُم﴾ إلى طاعته ﴿لِيَغفِرَ لَكُم مِن ذُنُوبِكُم﴾ ـ من: زائدةٌ، فإنّ الإسلام يُغفر به ما قبلَه، أو تبعيضيةٌ لِإخراج حُقوق العباد ـ ﴿ويُؤَخِّرَكُم﴾ بلا عذاب ﴿إلَى أجَلٍ مُسَمًّى﴾: أجلِ الموت؟ ﴿قالُوا: إن﴾: ما ﴿أنتُم إلاّ بَشَرٌ مِثلُنا، تُرِيدُونَ أن تَصُدُّونا عَمّا كانَ يَعبُدُ آباؤُنا﴾ من الأصنام. ﴿فائتُونَا بِسُلطانٍ مُبِينٍ﴾: حُجّة ظاهرة على صِدقكم.

١١ ـ ﴿قالَتْ لَهُم رُسُلُهُم: إنْ﴾: ما ﴿نَحنُ إلاّ بَشَرٌ مِثلُكُم﴾ كما قلتم، ﴿ولكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ﴾ بالنُّبوّة، ﴿وما كانَ﴾: ما ينبغي ﴿لَنا أن نأتِيَكُم بِسُلطانٍ إلاّ بِإذنِ اللهِ﴾: بأمره لأنّا عبيد مَربوبون. ﴿وعلَى اللهِ فلْيَتَوَكَّلِ المُؤمِنُونَ﴾: يثقوا به. ١٢ ـ ﴿وما لَنا ألاّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ﴾ أي: لا مانعَ لنا من ذلك، ﴿وقَد هَدانا سُبُلَنا؟ ولَنَصبِرَنَّ عَلَى ما آذَيتُمُونا﴾:.........................

قولُهُ: (لِلرِّيبَةِ) وهي قلقُ النَّفسِ، وأن لا تطمئنَّ إلى الشَّيءِ.

قولُهُ: (اسْتِفهَامُ) أُدخِلَت همزةُ الإنكارِ على الظَّرفِ؛ لأنَّ الكلامَ في المشكوكِ فيه لا في الشَّكِّ؛ أي: إنَّما نَدعوكُم إلى اللهِ، وهو لا يحتَمِلُ الشَّكَّ.

قولُهُ: (خَالِقِ) أو: مبدعِ، وهو صفةٌ أو بدلٌ، و﴿شكٌّ﴾ مرتفعٌ بالظَّرفِ.

قولُهُ: (إِلَى طَاعَتِهِ) ببعثِهِ إيَّانا.

قولُهُ: (بِلَا عَذَابٍ) أو تأخيراً حسناً.

قولُهُ: (أَجَلِ المَوْتِ) أي: إلى وقتٍ سمَّاهُ اللهُ وجعلَهُ آخرَ أعمارِكُم.

قولُهُ: (عَلَى صِدقِكُم) أي: على صحَّةِ ادِّعائكُمُ النُّبوَّةَ، كأنَّهُم لم يعتَبِروا ما جاؤوا به من البيِّناتِ والحججِ واقترَحوا عليهم آيةً أخرى تعنُّتاً ولجاجاً[1]، أو: على فضلِكُم واستِحقاقِكُم لهذه المزيَّةِ، وهو الأظهرُ.

قولُهُ: (بالنُّبوَّةِ) سلَّموا مشاركتَهُم في الجنسِ، وجعلُوا الموجِبَ لاختِصاصِهِم بالنُّبوَّةِ فضلَ اللهِ ومنَّه عليهِم.

قولُهُ: (مِنْ ذَلكَ) أي: التَّوكُّلِ، أو: أيُّ عذرٍ لنا في تركِ التَّوكُّلِ.

---

(١) اللجاج: التمادي في الخصومة. «الصحاح» (١/ ٣٣٧).

على أذاكم. ﴿وعلى اللهِ فليَتَوكَّلِ المُتَوكِّلونَ﴾.

١٣ ـ ﴿وقالَ الَّذينَ كَفَروا لِرُسُلِهِم: لَنُخرِجَنَّكُم مِن أرضِنا، أو لَتَعُودُنَّ﴾: لتصيرُنّ ﴿في مِلَّتِنا﴾: دِيننا. ﴿فأوحَى إليهِم ربُّهُم: لَنُهلِكَنَّ الظّالِمينَ﴾: الكافرين، ١٤ ـ ﴿ولَنُسكِنَنَّكُمُ الأرضَ﴾: أرضهم ﴿مِن بَعدِهِم﴾: بعدِ هلاكهم. ﴿ذلِكَ﴾ النصر وإيراث الأرض ﴿لِمَن خافَ مَقامِي﴾ أي: مَقامَه بين يديّ، ﴿وخافَ وَعِيدِ﴾ بالعذاب.

١٥ ـ ﴿واستَفتَحُوا﴾: استنصر الرسل بالله على قومهم، ﴿وخابَ﴾: خسر ﴿كُلُّ جبّارٍ﴾: مُتكبّر عن طاعة الله ﴿عَنِيدٍ﴾: مُعاند للحقّ، ١٦ ـ ﴿مِن وَرائِهِ﴾ أي: أمامِهِ ﴿جَهَنَّمُ﴾ يدخلها، ﴿ويُسقَى﴾ فيها ﴿مِن ماءٍ صَدِيدٍ﴾ ـ هو ما يَسيل من جَوف أهل النار مُختلطًا بالقَيح والدم ـ ١٧ ـ ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾: يبتلعه مرّة بعد مرّة لمرارته، ﴿ولا يَكادُ يُسِيغُهُ﴾: يَزدرده لقُبحه وكراهته،........................

قولُهُ: (عَلَى أَذَاكُم) يعني: ﴿ما﴾ مصدريَّةٌ.

قولُهُ: (لَتَصِيرُنَّ) يعني: العَوْدُ بمعنى الصَّيرورةِ؛ لأنَّهُم لم يكونُوا على ملَّتِهِم.

قولُهُ: (أَرْضَهُم) وديارَهُم.

قولُهُ: (النَّصرُ... إلخ) أي: إشارةٌ إلى الموحَى به، وهو إهلاكُ الظَّالمينَ وإسكانُ المؤمنينَ.

قولُهُ: (أي: مَقَامَهُ) وقيل: المقامُ زائدٌ.

قولُهُ: (بالعَذَابِ) أو عَذابي الموعودَ للكفَّارِ، فعيلٌ بمعنى المفعولِ، وعلى الأوَّلِ مصدرٌ بمَعنى الإيعادِ.

قولُهُ: (خَسِرَ) أي: ففتحَ لهم فأفلحَ المؤمنُونَ وخابَ المشرِكونَ.

قولُهُ: (﴿مِنْ وَرَائِهِ﴾ أَي: أَمَامِه) أو خلفِه.

قولُهُ: (فِيهَا) عطفٌ على محذوفٍ تقديرُهُ: من ورائِهِ جهنَّمُ يُلقَى فيها ما يُلقَى ويُسْقَى، وأشارَ إلى هذا المقدَّرِ بقولِهِ: (يدخلُها).

قولُهُ: (هُوَ مَا يَسِيلُ) عطفُ بيانٍ[1] لـ﴿مَاءٍ﴾، وإنَّما سُمِّيَ ماءً لكونِهِ على صفتِهِ من السَّيلانِ.

قولُهُ: (مِنْ جوفِ) أو جلودِ.

قوله: (يَبتَلِعهُ) يتكلَّفُ جرعَهُ.

قولُهُ: (يَزدَرِدُهُ) أي: لا يقربُ أن يسيغَهُ فكيفَ يسيغُه، بل يغصُّ به فيطولُ عذابُهُ، والسَّوغُ: مجاوزةُ الشَّرابِ على الحلقِ بسهولةٍ وقبولِ نفسٍ[2].

---

(١) قوله: عطف بيان؛ أي: كلمة ﴿صديدٍ﴾ عطف بيان.

(٢) انظر: «تاج العروس» (٢٢/ ٥٠٧).

﴿ويأتِيهِ المَوتُ﴾، أي: أسبابه المُقتضية له من أنواع العذاب ﴿مِن كُلِّ مَكانٍ، وما هُوَ بِمَيِّتٍ، ومِن وَرائِهِ﴾: بعدِ ذلك العذابِ ﴿عَذابٌ غَلِيظٌ﴾: قويّ مُتّصل.

١٨ ـ ﴿مَثَلُ﴾: صِفةُ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم﴾: مبتدأ، ويُبدَل منه: ﴿أعمالُهُم﴾ الصالحةُ كصِلةٍ وصدقة في عدم الانتفاع بها ﴿كَرَمادٍ اشتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ في يَومٍ عاصِفٍ﴾: شديدِ هُبوبِ الريح، فجعلته هباءً منثورًا لا يُقدر عليه. والمجرور خبر المبتدأ. ﴿لا يَقدِرُونَ﴾ أي: الكُفّار ﴿مِمّا كَسَبُوا﴾: عملوا في الدنيا ﴿عَلَى شَيءٍ﴾ أي: لا يجدون له ثوابًا لعدم شرطه. ﴿ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ﴾: الهلاك ﴿البَعِيدُ﴾.

١٩ ـ ﴿أَلَم تَرَ﴾: تنظرْ يا مُخاطَبًا ـ استفهام تقرير ـ ﴿أنَّ اللهَ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ بِالحَقِّ﴾؟: متعلقٌ بـ «خلقَ». ﴿إن يَشَأْ يُذهِبْكُم﴾ ـ أيُّها الناس ـ ﴿ويأتِ بِخَلقٍ جَدِيدٍ﴾ بدلَكم، ٢٠ ـ ﴿وما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾: شديد.

قالَ تعالى: (﴿مِنْ كُلِّ مَكانٍ﴾) أي: من جسدِهِ حتَّى من أصولِ شعرِهِ وإبهامِ رجليهِ، وقيلَ: من جميعِ الجهاتِ، (﴿وما هو بميِّتٍ﴾) فيستريحَ.

قولُهُ: (بَعدَ ذَلِكَ) أو من بينِ يديهِ عذابٌ؛ أي: يستقبلُ في كلِّ وقتٍ عذاباً أشدَّ ممَّا هو عليه، وقيلَ: حبسُ الأنفاسِ.

قولُهُ: (الصَّالِحَةُ) أي: صورةً، أو احترازٌ ممَّا قيل: ﴿أعمالُهُمْ﴾ للأصنامِ.

قولُهُ: (وَصَدقَةٍ) وإغاثةِ ملهوفٍ ونحوِ ذلك من مكارمِهِم؛ لبنائِها على غَيرِ أساسٍ من معرفةِ اللهِ والتوجُّهِ بها إليه.

قالَ تعالى: (﴿اشتدَّتْ بِهِ﴾) أي: حملَتهُ وأسرعَتِ الذَّهابَ به، وقرأ نافعٌ: ﴿الرِّياحُ﴾[1].

قولُهُ: (أي: الكُفَّارُ) يومَ القيامةِ.

قولُهُ: (لِعَدَمِ شَرطِهِ) وهو الإيمانُ، أو الإخلاصُ، أو لأنَّهُم جُوزوا به في الدُّنيا.

قولُهُ: (تَنظُرْ) نظرَ اعتبارٍ.

قولُهُ: (مُتعَلِّقٌ بـ﴿خَلَقَ﴾) وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿خالقُ﴾ مضافاً[2].

قولُهُ: (شَدِيدٍ) أي: متعذِّرٍ أو متعسِّرٍ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٧٣)، و«الحجة للقراء السبعة» (٢/ ٢٤٩).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٢).

٢١ ـ ﴿وبَرَزُوا﴾ أي: الخلائق ـ والتعبير فيه وفيما بعده بالماضي لتحقّق وقوعه ـ ﴿لِلهِ جَمِيعًا، فقالَ الضُّعَفاءُ﴾: الأتباع ﴿لِلَّذِينَ استَكبَرُوا﴾ المتبوعين: ﴿إنّا كُنّا لَكُم تَبَعًا﴾: جمع تابع. ﴿فهَل أنتُم مُغنُونَ﴾: دافعون ﴿عَنّا مِن عَذابِ اللهِ مِن شَيءٍ﴾؟ مِن الأُولى: للتبيين، والثانية: للتبعيض. ﴿قالُوا﴾ أي: المتبوعون: ﴿لَو هَدانا اللهُ لَهَدَيناكُم﴾: لدعوناكم إلى الهُدى. ﴿سَواءٌ علَينا أجَزِعْنا أم صَبَرْنا. مالَنا مِن﴾: زائدةٌ ﴿مَحِيصٍ﴾: مَلجأ.

٢٢ ـ ﴿وقالَ الشَّيطانُ﴾ إبليس، ﴿لَمّا قُضِيَ الأمرُ﴾ وأُدخل أهلُ الجنّةِ الجنّةَ وأهلُ النار النارَ، واجتمعوا عليه: ﴿إنَّ اللهَ وَعَدَكُم وَعدَ الحَقِّ﴾ بالبعث والجزاء فصدقكم، ﴿ووَعَدتُكُم﴾ أنه غير كائن ﴿فأخلَفتُكُم، وما كانَ لِي علَيكُم مِن﴾: زائدةٌ ﴿سُلطانٍ﴾: قُوّة وقُدرة أقهركم على متابعتي، ﴿إلاّ﴾: لكنْ ....

قولُهُ: (أي: الخَلَائِقُ) من قبورِهم يومَ القيامةِ لأمرِ اللهِ ومحاسبتِهِ.

قولُهُ: (الأتبَاعُ) جمعُ: ضعيفٍ، يريدُ: ضعافَ الرَّأي.

قولُهُ: (جَمْعُ تَابِعٍ) كخادمٍ وخَدَمٍ، أو مصدرٌ نُعتَ به للمُبالغةِ، أو على إضمارِ مُضافٍ؛ أي: ذوي تبعٍ.

قولُهُ: (للتَّبيينِ) واقعةٌ موقعَ الحالِ.

قولُهُ: (للتَّبعِيضِ) واقعةٌ موقعَ المفعولِ، أو زائدةٌ.

قولُهُ: (لَدَعَونَاكُمْ) ولكن ضَلَلنا فأضلَلناكُم؛ أي: اختَرنا لكم ما اختَرنا لأنفُسِنا.

قولُهُ: (مَلجَأ) ومَنجًى ومهربٍ من العَذابِ.

قالَ تعالى: (﴿لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾) أي: أُحكمَ وفُرِغَ منه.

قولُهُ: (وَاجْتَمَعُوا) أي: أهلُ النَّارِ خطيباً في الأشقِياءِ من الثَّقلينِ.

قولُهُ: (أَنَّهُ) أي: ما ذُكرَ من البعثِ والجزاءِ.

قولُهُ: (غَيرُ كَائِنٍ) وأن كانَ فالأصنامُ تشفَعُ لكم؛ يعني: وعدَ الباطلِ.

وقولُهُ: (﴿فَأَخلَفْتُكُم﴾) جعلَ تبيُّنَ خلفِ وعدِهِ كالإخلافِ منه.

قولُهُ: (أَقهَرُكُم) وألجِئُكم.

قولُهُ: (لَكِنْ) يعني: استثناءٌ منقَطعٌ، قالَ البغويُّ: تقديرُهُ: لكن دعوتُكُم[1]، ففيه إشارةٌ إلى زيادةِ ﴿أن﴾.

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٣٦).

﴿أَنْ دَعَوتُكُم فاستَجَبتُم لِي. فلا تَلُومُونِي ولُومُوا أنفُسَكُم﴾ على إجابتي. ﴿ما أنا بِمُصرِخِكُم﴾: بمُغيثكم، ﴿وما أنتُم بِمُصرِخِيَّ﴾، بفتح الياء وكسرها. ﴿إنِّي كَفَرتُ بِما أشرَكتُمُونِي﴾: بإشراككم إياي مع الله ﴿مِن قَبلُ﴾ في الدنيا. قال تعالى: ﴿إنَّ الظَّالِمِينَ﴾: الكافرين ﴿لَهُم عَذابٌ أَلِيمٌ﴾: مُؤلم.

٢٣ ـ ﴿وأُدخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنّاتٍ، تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ خالِدِينَ﴾: حالٌ مُقدّرة ﴿فِيها بِإذنِ رَبِّهِم، تَحِيَّتُهُم فِيها﴾ من الله ومن الملائكة وفيما بينهم ﴿سَلامٌ﴾.

٢٤ ـ ٢٥ ـ ﴿أَلَم تَرَ﴾: تنظرْ: ﴿كَيفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾، ويُبدل منه ﴿كَلِمةً طَيِّبَةً﴾ أي: لا إلــٰـهَ إلاّ الله، ....

وقولُهُ: (﴿فاسْتَجَبْتُمْ﴾) أي: أسرعتُم إجابَتِي فلا تلوموني بوسوَسَتِي، فإنَّ من صرَّحَ العَداوةَ لا يلامُ بأمثالِ ذلك.

قولُهُ: (عَلى إجَابَتِي) وتركِ إجابةِ ربِّكُم.

قولُهُ: (بمُغيثِكُم) من العَذابِ.

قولُهُ: (بفَتحِ اليَاءِ وكَسرِهَا) كذا في نسخةٍ، وهو الصَّوابُ، فقرأ حمزةُ: بالكسرِ، والباقونَ: بالفتحِ(١)، وفي بعضِ النُّسخِ: بفتحِ الياءِ وسكونِها، فلعلَّ السُّكونَ قراءةٌ شاذَّةٌ(٢)، أو أرادَ حالةَ الوقفِ.

قولُهُ: (بإشْرَاكِكُم إِيَّايَ) قرأ أبو عمرٍو: بإثباتِ الياءِ وصلًا(٣)، ففي كلامِهِ إشارةٌ إلى أنَّ (ما) مصدريَّةٌ، و﴿مِن﴾ متعلِّقةٌ بـ﴿أشركتُمُوني﴾؛ أي: كفَرتُ اليومَ بإشراكِكُم إيَّايَ من قبلِ هذا اليومِ في الدُّنيا، بمعنى: تبرَّأتُ منه واستنكرتُهُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

قولُهُ: (الكَافِرِيْنَ) تتمَّةُ كلامِهِ، أو ابتِداءُ كلامٍ من اللهِ تعالى، وفي حكايةِ أمثالِ ذلك لطفٌ للسَّامعينَ وإيقاظٌ لهم حتَّى يحاسِبوا أنفسَهُم، ويتدبَّروا عواقبَهُم، وإعلامٌ بأنَّ اللهَ يعلمُ أحوالَ مبدئِهم ومعادِهِم.

قولُهُ: (مِنَ اللَّهِ ومِنَ المَلَائِكَةِ) كما في نسخةٍ.

قولُهُ: (وَيُبدَلُ مِنهُ) و﴿كَشَجَرَةٍ﴾ صفتُها.

قولُهُ: (أَيْ: لَا إِلَه إِلَّا اللَّهُ) أي: كلمةُ التَّوحيدِ، وقيلَ: دعوةُ الإسلامِ، أو القرآنُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٧).

(٢) لم أقف عليها في القراءات الشاذة.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٤).

﴿كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ﴾ هي النخلة، ﴿أصلُها ثابتٌ﴾ في الأرض ﴿وفَرعُها﴾: غُصنها ﴿في السَّماءِ، تُؤتِي﴾: تُعطي ﴿أُكُلَها﴾: ثمرها ﴿كُلَّ حِينٍ بِإذنِ رَبِّها﴾: بإرادته؟ كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن، وعملُه يصعد إلى السماء وينالُه بركته وثوابه كُلَّ وقت. ﴿ويَضرِبُ﴾: يُبيِّن ﴿اللهُ الأمثالَ لِلنّاسِ، لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾: يتّعظون فيؤمنون.

٢٦ ـ ﴿ومَثَلُ كَلِمةٍ خَبِيثةٍ﴾ ـ هي كلمة الكُفر ـ ﴿كَشَجَرةٍ خَبِيثةٍ﴾ هي الحَنظَل، ﴿اجتُثَّتْ﴾: استُؤصلتْ ﴿مِن فَوقِ الأرضِ، مالَها مِن قَرارٍ﴾: مُستقَرّ وثبات. كذلك كلمة الكُفر لا ثبات لها ولا فرع ولا بركة. ٢٧ ـ ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثّابِتِ﴾ ـ هو كلمة التوحيد ـ ﴿في الحَياةِ الدُّنيا وفي الآخِرةِ﴾ أي: في القبر لمّا يسألُهم الملَكانِ عن ربّهم ودِينهم ونبيّهم، فيُجيبون بالصواب كما في حديث الشيخين، ﴿ويُضِلُّ اللهُ الظّالِمِينَ﴾: الكُفّار فلا يهتدون إلى الجواب بالصواب ـ بل يقولون: «لا ندري» كما في الحديث ـ ﴿ويَفعَلُ اللهُ ما يَشاءُ﴾.

قولُهُ: (هيَ النَّخلَةُ) رُويَ ذلك مرفوعاً[1].

قولُهُ: (فِي الأَرضِ) ضاربٌ بعروقِهِ فيها.

قولُهُ: (غُصنُهَا) وأعلاها.

قالَ تعالى: (﴿كُلَّ حِينٍ﴾) وقتَهُ اللهُ لإثمارِها.

قولُهُ: (بِإِرَادَتِهِ) وتكوينِهِ.

قولُهُ: (فيُؤمِنُونَ) لأنَّ في ضَربِها زيادةَ إفهامٍ وتذكيرٍ؛ فإنَّهُ تصويرٌ للمَعاني وتقريبٌ لها إلى الحسِّ.

قولُهُ: (اسْتُؤصِلَتْ) وأُخذَت جثَّتُهُ بالكلِّيَّةِ.

قالَ تعالى: (﴿مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ﴾) لأنَّ عروقَها قريبةٌ منه.

قولُهُ: (مُستَقَرٌّ) أي: استقرارٍ.

قولُهُ: (هُو كَلِمَةُ التَّوحِيدِ) الَّذي ثبتَ بالحجَّةِ عندهُم وتمكَّنَ في قلوبِهم.

قالَ تعالى: (﴿وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾) من تثبيتِ بعضٍ وإضلالِ بعضٍ من غَيرِ اعتراضٍ[2] عليه.

---

(١) رواه الترمذي (٣١١٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٩٨)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤١٦٥)، والطبري في «تفسيره» (٢٠٦٧٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٧٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٤١) من حديث أنس رضي الله عنه.

ورجح الترمذي وقفه. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.

(٢) في (م): «إعراض».

٢٨ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: تنظرْ ﴿إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أي: شُكرَها ﴿كُفْرًا﴾، هم كُفَّار قريش، ﴿وَأَحَلُّوا﴾: أنزَلوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ بإضلالهم إياهم ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾: الهلاكِ، ٢٩ ـ ﴿جَهَنَّمَ﴾: عطفُ بيان ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها، ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ المَقرُّ هي! ٣٠ ـ ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾: شُركاء ﴿لِيُضِلُّوا﴾ ـ بفتح الياء وضمِّها ـ ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾: دِينِ الإسلام؟ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ بدنياكم قليلاً. ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾: مَرجعكم ﴿إِلَى النَّارِ﴾.

٣١ ـ ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ﴾: فِداءَ ﴿فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾: مُخالَّةٌ أي: صداقة تنفع، هو يوم القيامة.

٣٢ ـ ٣٣ ـ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾: السُّفن ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ﴾ بالركوب والحمل ﴿بِأَمْرِهِ﴾: بإذنه، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾:..........

قولُهُ: (أي: شُكرَها) بأن وضعوا مكانَهُ[1].

قولُهُ: (بفتحِ الياءِ): مكِّيٌّ وبصريٌّ[2]، واللَّامُ للعاقبةِ.

قولُهُ: (بدُنياكُم) أي: بشهواتِكُم، أو بعبادةِ[3] الأوثانِ، والأمرُ للتَّهديدِ.

قالَ تعالى: (﴿يُقِيمُوا﴾) مفعولُ ﴿قُل﴾ محذوفٌ يدلُّ عليه جوابُهُ؛ أي: قُل لعِبادِيَ الَّذينَ آمَنوا: أقيموا الصَّلاةَ وأنفقُوا، ويجوزُ أن يُقدَّرا بلامِ الأمرِ ليصحَّ تعلُّقُ القولِ بهما.

وقولُهُ تعالى: (﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾) منتصبانِ على المصدرِ؛ أي: إنفاقَ سرٍّ وعلانيةٍ، أو على الحالِ؛ أي: ذوي سرٍّ وعلانيةٍ، أو على الظَّرفِ؛ أي: وقتَي سرٍّ وعلانيةٍ، والأحبُّ: إعلانُ الواجبِ وإخفاءُ المتطوَّعِ به.

قولُهُ: (فِدَاء) أي: فيبتاعُ المقصِّرُ ما يتداركُ به تقصيرَهُ أو يفدي به نفسَهُ.

قولُهُ: (مُخَالَّة) وفي قراءةِ مكِّيٍّ وبصريٍّ: بالفتحِ فيهما على النَّفي العامِّ[4].

قولُهُ: (أي: صَدَاقة تَنفَعُ) فيشفعَ خليلٌ، أو من قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا انتفاعَ فيه بمبايعةٍ ولا مخالَّةٍ، وإنَّما يُنتفعُ فيه بالإنفاقِ لوجهِ اللهِ، ويمكنُ أن يُقالَ: معناهُ ﴿يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ * إلَّا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

---

(١) كذا في النسخ، وفي «تفسير البيضاوي» (٣/ ١٩٩): «بأن وضعوه مكانه».

(٢) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٣٧٨).

(٣) في (ص): «بعبادتكم».

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٨٧).

جاريَين في فلكهما لا يفترُان، ﴿وسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ﴾ لتسكنوا فيه، ﴿والنَّهارَ﴾ لتبتغوا فيه من فضله، ٣٤ ـ ﴿وآتاكُم مِن كُلِّ ما سألتُمُوهُ﴾ على حسَب مصالحكم. ﴿وإن تَعُدُّوا نِعْمةَ اللهِ﴾، بمعنى إنعامه، ﴿لا تُحصُوها﴾: لا تُطيقوا عدّها. ﴿إنَّ الإنسانَ﴾: الكافرَ ﴿لَظَلُومٌ كَفّارٌ﴾: كثير الظلم لنفسه بالمعصية والكُفر لنِعمة ربه.

٣٥ ـ ٣٦ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ قالَ إبراهِيمُ: رَبِّ، اجعَلْ هذا البَلَدَ﴾ مكّةَ ﴿آمِنًا﴾: ذا أمنٍ ـ وقد أجاب الله دُعاءَه فجعله حَرَمًا لا يُسفك فيه دم إنسان، ولا يُظلم فيه أحد، ولا يُصاد صيده ولا يُختلى خَلاه ـ ﴿واجنُبْني﴾: بعِّدْني ﴿وبَنِيَّ﴾ عن ﴿أن نَعبُدَ الأصنامَ. رَبِّ، إنَّهُنَّ﴾ أي: الأصنامَ ﴿أضلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النّاسِ﴾ بعِبادتهم لها. ﴿فمَن تَبِعَني﴾ على التوحيد ﴿فإنَّهُ مِنّي﴾: من أهل دِيني، ﴿ومَن عَصاني فإنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾..

قولُهُ: (جَارِيَينِ) يدأبانِ ويدومانِ في سيرِهما وإنارتِهما وإصلاحِ ما يصلحانِهِ من المكوَّناتِ.

قولُهُ: (عَلَى حَسبِ مَصَالِحِكُم) أي: بعضَ جميعِ ما سألتُموهُ؛ يعني: من كلِّ شيءٍ سألتُموهُ شيئاً، فإنَّ الموجودَ من كلِّ صنفٍ بعضُ ما في قدرةِ[1] اللهِ، ولعلَّ المرادَ بـ﴿ما سألتُموهُ﴾: ما كانَ حقيقاً بأن يُسألَ لاحتياجِ النَّاسِ إليه سُئلَ أو لم يُسألْ. ويمكنُ أن يكونَ المرادُ السُّؤالَ بلسانِ القالِ أو الاستعدادِ والحالِ، و﴿ما﴾ موصولةٌ أو موصوفةٌ أو مصدريَّةٌ، والمصدرُ بمعنى المفعولِ.

قولُهُ: (بِمَعنَى إنعَامِهِ) الظَّاهرُ أنَّ المرادَ بالنِّعمةِ: الاسمُ لا المصدرُ.

قولُهُ: (عَدَّهَا) أي: عدَّ أنواعِها فضلاً من أفرادِها، فإنَّها غيرُ متناهيةٍ.

(﴿كفَّارٌ﴾): شديدُ الكفرانِ.

وقيلَ: ظلومٌ في الشِّدَّةِ يشكو أو يجزعُ، كفَّارٌ في النِّعمةِ يجمعُ ويمنعُ.

قولُهُ: (كَثِيرُ الظُّلمِ... إلخ) أو يظلمُ النِّعمةَ بإغفالِ شُكرِها، أو يظلمُ نفسَهُ بأن يعرِّضَها للحِرمانِ.

قولُهُ: (ذَا أَمْنٍ) لمن فيها.

قولُهُ: (بَعِّدْني) واجعَلني في جانبٍ.

قولُهُ: (﴿وبَنِيَّ﴾) أي: من أصلابي.

قولُهُ: (بعبادَتِهِمْ) وإسنادُ الإضلالِ إليهنَّ باعتِبارِ السَّببيَّةِ، كقولِهِ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

---

(١) في (ص): «بعض ما قدره».

هذا قبلَ عِلمه أنه ـ تعالى ـ لا يَغفِر الشِّرك.

٣٧ ـ ﴿رَبَّنا، إِنِّيَ أسكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: بعضَها ـ وهو إسماعيل مع أُمّه هاجَرَ ـ ﴿بِوادٍ غَيرِ ذِي زَرعٍ﴾، هو مكّة، ﴿عِندَ بَيتِكَ المُحَرَّمِ﴾ الذي كان قبل الطوفان، ﴿رَبَّنا، لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ. فاجعَلْ أفئِدَةً﴾: قُلوبًا ﴿مِنَ النّاسِ تَهوِي﴾: تَميلُ وتَحِنّ ﴿إلَيهِم﴾........

قولُهُ: (هذَا قَبلَ عِلْمِهِ) فيه، أو بعد التَّوفيقِ للتَّوبةِ، ويمكنُ حملُ العصيانِ على ما عدا الشِّركِ، والتَّبعيَّةِ على كَمالِ المتابعةِ، وتقييدُ المغفرةِ بالمشيئةِ، واللهُ أعلمُ بمرادِهِ.

قولُهُ: (هُوَ مَكَّةُ) فإنَّ واديها حجرةٌ لا تُنبِتُ، قيل: الحكمةُ فيه أنَّهُ لا يشتغلُ بالزِّراعةِ عمَّا وضعَ البيتُ لها من العبادةِ والطَّاعةِ، أو لا يعتَمِدُ على الزِّراعةِ بل على اللهِ بطريقِ الضَّراعةِ، قالَ ابنُ عطاءٍ: أسكنتُهم وادياً لا متعلَّقَ لي ولا علاقَ لهم سواكَ.

أو لأن يُجبَى إليهم ثمراتُ كلِّ شيءٍ رزقاً من لدنَّا، إظهاراً للقُدرةِ الكاملةِ والحكمَةِ البالغةِ.

قولُهُ: (الَّذِي كَانَ) فمعنى المحرَّمِ: الذي منعَ منه الطُّوفانُ فلم يستولِ عليه، ولذلك سُمِّي عتيقاً؛ أي: أُعتقَ منه، أو معناهُ: الَّذي حرَّمتَ التَّعرُّضَ له والتَّهاونَ به، أو لم يزَل معظَّماً ممنَّعاً تهابُهُ الجبابرةُ، رُويَ: أنَّ هاجرَ كانت لسارةَ فوهبَتْها من إبراهيمَ فولدَتْ منه إسماعيلَ، فغارَتْ عليهما، فناشدَتهُ أن يُخرِجَهُما من عندَها، فأخرجَهُما إلى أرضِ مكَّةَ، فأظهرَ اللهُ عينَ زمزمَ، ثمَّ إنَّ جُرْهمَ رأوا ثَمَّ طيوراً فقالُوا: لا طيرَ إلَّا على الماءِ، فقصَدوهُ فرأوهُما وعندَهُما عينٌ فقالُوا: أشركِيْنا في مائكِ نشركْكِ في ألبانِنا، ففعلَتْ(١).

واللَّامُ في ﴿لِيُقِيمُوا﴾ لامُ كي، وهي متعلِّقةٌ بـ﴿أَسْكَنْتُ﴾؛ أي: ما أسكنتُهم بهذا الوادِي إلَّا لإقامةِ الصَّلاةِ عند بيتِكَ المحرَّمِ.

وقيل: لامُ الأمرِ، والمرادُ: الدُّعاءُ لهم.

قولُهُ: (قُلُوباً) أي: أفئدةً من أفئدةِ النَّاسِ، و﴿مِن﴾ للتَّبعيضِ، ولذلكَ قيل: لو قالَ: أفئدةَ النَّاسِ لازدحمَتْ عليهم فارسُ والرُّومُ، ولحجَّتِ اليهودُ والنَّصارى.

ويمكنُ أن يكونَ المعنى: خلاصةً وزبدةً من النَّاسِ.

قولُهُ: (تَمِيلُ) أو تسرعُ إليهم شَوقاً ووداداً.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٠١). ورواه البخاري (٣٣٦٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، لكن فيه: فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكنْ لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم.

ـ قال ابن عبّاس: لو قال «أفئدةَ الناسِ» لحنّت إليه فارسُ والروم والناس كُلّهم ـ ﴿وارزُقْهم مِنَ الثَّمراتِ، لَعَلَّهم يَشكُرُونَ﴾. وقد فعَلَ بنقل الطائف إليه.

٣٨ ـ ﴿رَبَّنا، إنَّكَ تعلَمُ ما نُخفِي﴾: نُسِرّ ﴿وما نُعلِنُ، وما يَخفَى علَى اللهِ مِن﴾: زائدةٌ ﴿شَيءٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ﴾. يحتمل أن يكون من كلامه ـ تعالى ـ أو كلام إبراهيم. ٣٩ ـ ٤٠ ـ ﴿الحَمدُ لِلهِ الَّذِي وَهَبَ لِي﴾: أعطاني ﴿علَى﴾: معَ ﴿الكِبَرِ إسماعِيلَ﴾ ـ وُلِدَ وله تسعٌ وتسعون سنةً ـ ﴿وإسحاقَ﴾ وُلد وله مِائَةٌ وثِنتا عَشْرةَ سنةً. ﴿إنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ. رَبِّ، اجعَلْني مُقِيمَ الصَّلاةِ و﴾ اجعلْ ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ من يُقيمها ـ وأتى بـ «مِن» لإعلام الله ـ تعالى ـ له أنّ منهم كُفّارًا ـ ﴿رَبَّنا وتَقَبَّلْ دُعائِي﴾ المذكورَ. ٤١ ـ ﴿رَبَّنا، اغفِرْ لِي ولِوالِدَيَّ﴾ ـ هذا قبل أن يتبيّن له عداوتهما لله عزّ وجلّ. وقيل: أسلمتْ أُمّه. وقُرِئَ: «والِدِي» مُفردًا و«وَلَدَيَّ» ـ ﴿ولِلمُؤمِنِينَ يَومَ يَقُومُ﴾: يَثبُتُ ﴿الحِسابُ﴾.

قولُهُ: (إِلَيهِ) أي: إلى قربِهِ يجبى إليه ثمراتُ كلِّ شيءٍ، قالَ القاضِي: حتَّى يوجدَ فيه الفواكِهُ الرَّبيعيَّةُ والصَّيفيَّةُ والخريفيَّةُ في يومٍ واحدٍ(١).

قولُهُ: (﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ) للاستغراقِ.

قالَ تعالى: (﴿لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾) أي: مجيبُهُ.

قولُهُ: (اجعَلْ) يعني: عطفٌ على المنصُوبِ في ﴿اجعلْنِي﴾، والتَّبعيضُ لعلمِهِ بإعلامِ اللهِ أو استقراءِ عادتِهِ سبحانَهُ في الأممِ الماضيةِ أن يكونَ في ذرِّيَّتِه كفَّارٌ.

قولُهُ: (المَذكُورَ) وغيرَه، أو: عبادَتِي.

قولُهُ: (عداوَتهُمَا) وقيل: أرادَ بهما آدمَ وحوَّاءَ.

قولُهُ: (أَسْلمَتْ أُمُّه) وفي أبيهِ خلافٌ، والصَّحيحُ أنَّهُ ماتَ كافراً.

قولُهُ: (مُفْرَداً) فيحتملُ أحدَهُما، والظَّاهرُ: أنَّه أبوهُ.

قولُهُ: (و: وَلَدَيَّ) فلا إشكالَ، وقُرِئَ: (ولأَبويَّ)(٢) ويمكنُ أن يكونَ: وأبويَّ وذرِّيَّتي، فيكونُ المرادُ ولديهِ إسماعيلَ وإسحاقَ.

قولُهُ: (يَثبُتُ) مستَعارٌ مِنَ القيامِ على الرِّجلِ؛ كقولِهِم: قامَتِ الحربُ على ساقٍ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٠١).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٣) عن أبيٍّ رضي الله عنه.

٤٢ ـ قال تعالى: ﴿ولا تَحسِبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمّا يَعمَلُ الظّالِمُونَ﴾: الكافرون من أهل مكّة. ﴿إنَّما يُؤَخِّرُهُم﴾ بلا عذاب ﴿لِيَومٍ تَشخَصُ فِيهِ الأبصارُ﴾ لهول ما ترى ـ يقال: شَخَصَ بصرُ فُلانٍ، أي: فتحه فلم يُغمضه ـ ٤٣ ـ ﴿مُهطِعِينَ﴾: مُسرِعِينَ حالٌ ﴿مُقنِعِي﴾: رافعِي ﴿رُؤُوسِهِم﴾ إلى السماء، ﴿لا يَرتَدُّ إلَيهِم طَرفُهُم﴾: بصرهم، ﴿وأفئِدَتُهُم﴾: قُلوبهم ﴿هَواءٌ﴾: خالية من العقل لفزعهم.

٤٤ ـ ﴿وأنذِرِ﴾: خوِّفْ ـ يا مُحمّد ـ ﴿النّاسَ﴾: الكُفّار ﴿يَومَ يأتِيهِمِ العَذابُ﴾ هو يوم القيامة، ﴿فيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: كفروا: ﴿رَبَّنا، أخِّرْنا﴾ بأن تردّنا إلى الدنيا ﴿إلَى أجَلٍ قَرِيبٍ، نُجِبْ دَعوَتَكَ﴾ بالتوحيد، ﴿ونَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾. فيقال لهم توبيخًا: ﴿أوَلَم تَكُونُوا أقسَمتُم﴾: حلفتم ﴿مِن قَبلُ﴾ في الدنيا، ﴿ما لَكُم مِن﴾: زائدةٌ ﴿زَوالٍ﴾ عنها إلى الآخرة، ....

قولُهُ: (الكَافِرُونَ) قيلَ: إنَّه تسليةٌ للمَظلومِ وتهديدٌ للظَّالمِ.

قولُهُ: (بلَا عَذَابٍ) أو يؤخِّرُ عذابَهم.

قولُهُ: (فلَمْ يُغمِضْهُ) أي: أبصارُهم.

قولُهُ: (مُسْرِعِينَ) إلى الدَّاعي.

قولُهُ: (بَصَرهُمْ) بل بقيَت عيونُهم شاخصَةً لا تطرفُ.

قولُهُ: (خَالِيَةٌ) يعني: الهواءُ بمعنى الخلاءِ، وهو بمعنى الخاليَةِ.

قولُهُ: (لفَزَعهِمْ) وحيرتِهم ودهشتِهم.

قولُهُ: (يَومُ القِيَامةِ) أو يومُ الموتِ؛ فإنَّهُ أوّلُ أيّامِ عذابِهم، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ﴿أنْذِرِ﴾.

قولُهُ: (بِأنْ تَرُدَّنَا) أو أخِّرِ العذابَ عنَّا وردَّنا إلى الدُّنيا وأمهِلْنا إلى حدٍّ من الزَّمانِ قريبٍ، أو أخِّر آجالَنَا وأبقِنا مقدارَ ما نؤمنُ بك.

قولُهُ: (زَائِدَةٌ) و﴿مَا لَكُمْ﴾ جوابُ القسَمِ جاءَ بلفظِ الخِطابِ على المطابقةِ دونَ الحكايةِ، وإلَّا لقيل: ما لنا، والمعنى: إنَّكُم أقسمْتُم أنَّكم باقونَ في الدُّنيا لا تُزالونَ بالموتِ، ولعلَّهُم أقسَموا بطراً وغروراً، ودلَّ عليه حالُهُم حيثُ بَنوا شديداً وأمَّلوا بعيداً.

وقيل: أقسَموا أنَّهم لا ينتقلونَ إلى دارٍ أُخرَى، وأنَّهم إذا ماتُوا لا يُزالونَ عن تلك الحالةِ إلى حالةٍ أخرى؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] وقولُ الشَّيخِ: (﴿زوالٍ﴾ عنهَا إلى الآخرةِ) مائلٌ إلى هذا القيلِ.

٤٥ ـ ﴿وسَكَنتُم﴾ فيها ﴿في مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أنفُسَهُم﴾ بالكُفر من الأُمم السابقة، ﴿وتَبَيَّنَ لَكُم: كَيفَ فَعَلْنا بِهِم﴾ من العُقوبة؟ فلم تنزجروا، ﴿وضَرَبْنا﴾: بيّنّا ﴿لَكُمُ الأمثالَ﴾ في القُرآن، فلم تعتبروا؟

٤٦ ـ ﴿وقَدْ مَكَرُوا﴾ بالنبيّ ﴿مَكرَهُم﴾ حيثُ أرادوا قتله أو تقييده أو إخراجه، ﴿وعِندَ اللهِ مَكرُهُم﴾، أي: عِلمُه أو جزاؤه، ﴿وإنْ﴾: ما ﴿كانَ مَكرُهُم﴾، وإن عظُم، ﴿لِتَزُولَ مِنهُ الجِبالُ﴾. المعنى: لا يُعبأ به ولا يضرّ إلاّ أنفُسَهم. والمُراد بالجبال هنا قيل: حقيقتها، وقيل: شرائعُ الإسلام المُشبّهةُ بها في القرار والثبات. وفي قراءة بفتح لام «لَتَزُولُ» ورفع الفعل. فإنْ: مُخفّفة. والمراد تعظيم مكرهم. وقيل: المُراد بالمكر كُفرهم. ويُناسبه على الثانية: «تَكادُ السَّماواتُ يَنفَطِرْنَ مِنهُ وتَنشَقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجِبالُ هَدًّا»، وعلى الأُولى ما قُرئ: «وما كانَ». ٤٧ ـ ﴿فلا تَحسِبَنَّ اللهَ مُخلِفَ وَعدِهِ رُسُلَهُ﴾ بالنصر. ﴿إنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾: غالب لا يُعجزه شيء ﴿ذُو انتِقامٍ﴾ ممّن عصاه.

٤٨ ـ ٤٩ ـ اذكرْ ﴿يَومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غَيرَ الأرضِ والسَّماواتُ﴾، ....

قولُهُ: (فِيهَا) أي: في الدُّنيا.

قولُهُ: (بالكُفرِ) والمعاصِي.

قولُهُ: (مِنَ الأُممِ السَّابِقةِ) كعادٍ وثمودَ.

قولُهُ: (مِنَ العُقُوبَةِ) بما تشاهِدونَ في منازِلِهم من آثارِ ما نزلَ بهم وما تواترَ عندكُم من أخبارِهِم.

قولُهُ: (أو جَزَاؤُهُ) أو مكتوبٌ عندَهُ فعلُهُم فهو مجازيهِم عليه.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ): للكسائيِّ[1].

قولُهُ: (فَـ﴿إِنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ) واللَّامُ هي الفاصلةُ، وقيل: على قراءةِ الباقِي مخفَّفةٌ أيضاً، والمعنى: أنَّهم مكروا ليُزيلوا ما هو كالجبالِ الرَّاسيةِ ثباتاً وتمكُّناً من آياتِ اللهِ وشرائعِهِ.

قولُهُ: (عَلى الثَّانيَةِ) أي: قراءةِ الكسائيِّ.

قولُهُ: (مَا قُرِئَ) أي: الَّذي قرئَ شاذًّا.

قولُهُ: (ممَّنْ عصَاهُ) لمن والاهُ.

قالَ تعَالى: (﴿وَالسَّمَوَاتُ﴾) عطفٌ على ﴿الأَرْضُ﴾ أي: والسَّماواتُ غيرَ السَّماواتِ، والتَّبديلُ يكونُ في الذَّاتِ وفي الصِّفةِ، والآيةُ تحتملُهُما.

---

(١) ﴿لتزول﴾ بفتح اللام الأولى وضم الثانية. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٩).

هو يوم القيامة، فيُحشر الناس على أرض بيضاء نقيّة كما في حديث الصحيحين، وروى مسلم حديثَ: سُئل النبيّ ﷺ: أينَ الناسُ يومَئذٍ؟ قالَ: «علَى الصِّراطِ»، ﴿وبَرَزُوا﴾: خرجوا من القُبور ﴿لِلهِ الواحِدِ القَهّارِ ـ وتَرَى﴾ يا مُحمّد: تُبصِر ﴿المُجرِمِينَ﴾: الكافرين ﴿يَومَئِذٍ مُقَرَّنِينَ﴾: مشدودينَ مع شياطينهم ﴿في الأصفادِ﴾: القُيود أو الأغلال، ٥٠ ـ ٥١ ـ ﴿سَرابِيلُهُم﴾: قُمصُهم ﴿مِن قَطِرانٍ﴾ لأنه أبلغ لاشتعال النار، ﴿وتَغشَى﴾: تعلو ﴿وُجُوهَهُمُ النّارُ ـ لِيَجزِيَ﴾: مُتعلّق بـ«برزوا» ﴿اللهُ كُلَّ نَفسٍ ما كَسَبَتْ﴾ من خير وشرّ. ﴿إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ﴾: يحاسِبُ جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك.

قولُهُ: (نَقِيَّة) عن عليٍّ: تُبدَلُ أرضاً من فضَّةٍ وسماواتٍ من ذهبٍ[١].

قولُهُ: (أَيْنَ النَّاسُ؟) قيل: فأينَ الأشياءُ إذ ذاكَ؟ قيل: عادَتْ إلى مصادِرِها.

وقيل: متى كانوا شيئاً حتَّى صارُوا لا شيءَ؟ لأنَّهم أقلُّ من الهباءِ في الهواءِ في جنبِ الحقِّ.

قولُهُ: (مِنَ القُبُور) لمحاسبةِ اللهِ ومجازاتِهِ، وتوصيفُهُ بالوصفَينِ للدّلالةِ على أنَّ الأمرَ في غايةِ الصُّعوبةِ[٢] كقولِهِ: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] فإنَّ الأمرَ إذا كانَ لواحدٍ غلَّابٍ لا يغالبُ؛ فلا مستغاثَ لأحدٍ إلى غيرِهِ ولا مستَجارَ.

قولُهُ: (معَ شيَاطينِهِم) أو قُرِنَ بعضُهُم معَ بعضٍ بحسَبِ مشَاركتِهِم في العَقائدِ والأعمَالِ، أو قُرِنوا معَ ما اكتَسبوا من العقائدِ المائلةِ عن الحقِّ، أو قُرِنَت أيديهِم وأرجلُهُم إلى رقابِهِم.

قالَ تعَالى: (﴿مِنْ قَطِرَانٍ﴾) هو ما يتحلَّبُ من شجرٍ يُسمَّى الأبهلَ[٣]، فيُطبَخُ فيُطلى به الإبلُ الجربَى فيُحرِقُ الجربَ بحدَّتِهِ، وهو أسودُ منتنٌ تشتَعلُ فيه النَّارُ بسرعةٍ، تُطلى به جلودُ أهلِ النَّارِ حتَّى يكونَ طلاؤهُم كالقُمصانِ ليجتَمعَ عليهم حرقةُ القَطِرانِ ووحشَةُ لونِه ونتنُ ريحِه مع إسراعِ النَّارِ في جلودِهِم، على أنَّ التَّفاوتَ بين القطرانَينِ كالتَّفاوتِ بينَ النَّارَينِ.

قولُهُ: (يُحَاسِبُ) أو لأنَّه لا يشغلُهُ حِسابٌ عن حِسابٍ.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (٦٦)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٨).

(٢) في (م): «العقوبة».

(٣) الأبهل: حمل شجرة وهي العرعر؛ أو الأبهل شجرة يقال لها الإيرس؛ قال ابن سيده: وليس بعربي محض. «اللسان» (مادة: بهل).

٥٢ ـ ﴿هذا﴾ القُرآن ﴿بلاغٌ لِلنّاسِ﴾ أي: أُنزل لتبليغهم، ﴿ولِيُنذَرُوا بِهِ، ولِيَعلَمُوا﴾ بما فيه من الحُجج ﴿أَنَّما هُوَ﴾ أي: اللهُ ﴿ إلـهٌ واحِدٌ، ولِيَذَّكَّرَ﴾، بإدغام التاء في الأصل في الذال: يتّعظَ ﴿أُولُو الألبابِ﴾: أصحابُ العقول.

قولُهُ: (القُرْآنُ) أو السُّورةُ، والتَّذكيرُ لتذكيرِ الخبرِ، أو: ما فيه من العظَةِ والتَّذكيرِ، أو: ما وصفَهُ من قولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وقولُهُ تعالى: (﴿بَلَاغٌ﴾) أي: كفَايةٌ لهم في الموعظَةِ (﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾) عطفٌ على محذوفٍ؛ أي: لِيُنصَحوا ولِيُنذَروا بهذا البلاغِ، فتكونُ اللَّامُ متعلِّقةً بالبلاغِ، ولا يحتاجُ إلى تقديرِ نحوِ: أنزل، كما قدَّرَهُ الشيخُ.

ويجوزُ أن يتعلَّقَ[1] بمحذوفٍ تقديرُهُ: ولينذَروا به أُنزِلَ أو تليَ، وبهذا عُلمَ أنَّ في كلامِ الشَّيخِ تلفيقاً، وفَّقَ اللهُ لنا توفيقاً، واللهُ أعلمُ.

***

---

(١) في (ص): «يعلق».

سورة إبراهيم

أخرج ابنُ مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنَّها نزلت بمكة[1]، والظاهرُ أنَّهما أرادا أنَّها كلَّها كذلك، وهو الذي عليه الجمهور، وأخرج النَّحاسُ في «ناسخه» عن الحبر أنَّها مكِّيةٌ إلا آيتين منها فإنَّهما نزلَتا بالمدينة، وهما: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ الآيتَين [إبراهيم:٢٨ ـ ٢٩] نَزلَتا في قتلَى بدر من المشركين[2]، وأخرج نحوَه أبو الشيخ عن قتادة[3]، وقال الإمام: إذا لم يكن في السورة ما يتَّصل بالأحكام فنزولُها بمكةَ والمدينة سواءٌ، إذ لا يختلف الغرضُ فيه إلا أنْ يكونَ فيها ناسخٌ أو منسوخٌ فتظهرُ فائدتُه[4]. يعني أنَّه لا يختلفُ الحالُ وتظهر ثمرتُه إلا بما ذكر، فإنْ لم يكن ذلك فليس فيه إلا ضبطُ زمانِ النزول، وكفَى به فائدةً.

وهل في هذه السورةِ منسوخٌ أَوْ لا؟ قولان، والجمهورُ على الثاني، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنَّ فيها آيةً منسوخةً، وهي قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤] فإنَّه قد نُسِخَت باعتبار الآخر بقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١٨] وفيه نظرٌ.

وهي إحدى وخمسون آيةً في البصري، وقيل: خمسون فيه، واثنتان وخمسون في الكوفي، وأربعٌ في المدني، وخمسٌ في الشامي.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٦٩، وأخرج أثر ابن عباس ﭭ ابن الضريس في فضائل القرآن ص٣٤.

(٢) الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٨٠.

(٣) وأخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٨٠.

(٤) تفسير الرازي ١٩/ ٧٢.

وارتباطُها بالسورة التي قبلها واضحٌ جدّاً؛ لأنَّه قد ذُكر في تلك السورة من مَدْح الكتاب وبيان أنَّه مُغْنٍ عمَّا اقترحوه ما ذُكِر، وافتُتِحَت هذه بوصف الكتاب والإيماء إلى أنَّه مُغنٍ عن ذلك أيضاً، وإذا أُريد بـ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣] الله تعالى، ناسبَ مطلعُ هذه ختامَ تلك أشدَّ مناسبة.

وأيضاً قد ذُكر في تلك إنزالُ القرآن حكماً عربيّاً، ولم يُصرَّح فيها بحكمة ذلك، وصُرِّح بها هنا.

وأيضاً تضمَّنت تلك الإخبار مِن قِبَلِهِ تعالى بأنَّه ما كان لرسول أنْ يأتيَ بآيةٍ إلا بإذن الله تعالى، وتضمَّنَت هذه الإخبار به من جهة الرسل عليهم السلام وأنَّهم قالوا: ما كان لنا أنْ نأتيَ بسلطان إلا بإذن الله.

وأيضاً ذُكر هناك أمرُه عليه الصلاة والسلام بأن (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) وحُكي هنا عن إخوانه المرسلين عليهم السلام توكُّلُهم عليه سبحانه، وأمرهم بالتوكل عليه جلَّ شأنه.

واشتَملَت تلك على تمثيلٍ للحقِّ والباطل، واشتَملَت هذه على ذلك أيضاً بناءً على بعض ما ستسمعُه إن شاء الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: ٢٤] إلى آخره.

وأيضاً ذكر في الأُولى مِن رفعِ السماء ومدِّ الأرض وتسخير الشمس والقمر إلى غير ذلك ما ذكر، وذكر هنا نحو ذلك إلا أنَّه سبحانه اعتَبر ما ذكر أولاً آياتٍ وما ذكر ثانياً نِعَماً، وصرَّح في كلٍّ بأشياءَ لم يُصرِّح بها في الآخر.

وأيضاً قد ذكر هناك مكر الكفرة، وذكر هنا أيضاً، وذكر من وصفه ما لم يذكر هناك.

وأيضاً قال الجلال السيوطي: إنه ذكر في الأولى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ [الرعد: ٣٢] وذلك مجملٌ في أربعة مواضع: الرسل، والمُستهزِئين، وصفة الاستهزاء، والأخذ، وقد فصِّلَت الأربعة في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [إبراهيم: ٩] الآيات[1].

(١) تناسق الدرر في تناسب السور ص٦١.

وقد اشتركَت السورتان ممَّا عدا افتتاح كلٍّ منهما بالمتشابه بأنَّ كلًّا قد افتتح بالألف واختتم بالباء، وجُمِعَا أيضاً في آخر ما خُتما به، وبَقي مناسبات بينهما غير ما ذكرنا لو ذكرناها لطالَ الكلامُ، والله تعالى أعلم بما في كتابه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر﴾ مرَّ الكلامُ فيما يتعلَّق به ﴿كِتَٰبٌ﴾ جوِّز فيه أنْ يكون خبراً لـ «الر» على تقدير كونه مبتدأ، أو لمبتدأ مضمَرٍ على تقدير كونه خبراً لمبتدأ محذوفٍ، أو مفعولاً لفعلٍ محذوف، أو مسروداً على نمط التعديد.

وجوِّز أن يكونَ خبراً ثانياً للمبتدأ الذي أُخبِرَ عنه بـ «الر»، وأن يكونَ مبتدأً، وسَوَّغ الابتداءَ به كونُه موصوفاً في التقدير، أي: كتابٌ عظيمٌ، وقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ إمَّا في موضعِ الصفة أو الخبر، وهو مع مبتدآته قيل: في موضع التفسير.

وفي إسناد الإنزال إلى ضمير العظمةِ ومخاطبتِهِ عليه الصلاة والسلام مع إسناد الإخراج إليه ﷺ في قوله سبحانه: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ = ما لا يخفى من التفخيم والتعظيم. واللام متعلِّقة بـ «أنزلناه». والمرادُ من الناس جميعُهم، أي: أنزلناه إليك لتخرجَهم كافَّةً بما في تضاعيفه من البيِّنات الواضحة المفصِحَة عن كونه من عند الله تعالى، الكاشفةِ عن العقائد الحقَّة من عقائد الكفر والضلال، وعبادةِ الله عزَّ وجل من الآلهة المختلفة كالملائكة وخواصِّ البشر والكواكب والأصنام التي كلُّها ظلماتٌ محضةٌ وجهالاتٌ صرفةٌ إلى الحقِّ المؤسَّس على التوحيد، الذي هو نورٌ بحتٌ.

وقرئ: «لِيَخْرُجَ الناسُ» بالياء التحتانية[1] في «يخرج» ورفع «الناس» به. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتيسيره وتوفيقه تعالى، وهو مستعارٌ من الإذن الذي يوجب تسهيل الحجاب لمن يقصد الورود، ويجوز أن يكون مجازاً مرسلاً بعلاقة اللزوم، وقال

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٨.

مُحيي السنة: إذنه تعالى أمره[١]، وقيل: علمُه سبحانه، وقيل: إرادته جلَّ شأنه، وهي ـ على ما قيل ـ متقاربةٌ، ومنع الإمامُ أنْ يُرادَ بذلك الأمر أو العلم[٢]، وعللَّه بما لا يخلو عن نظر.

وفي الكلام على ما ذكر أوَّلاً ثلاثُ استعارات؛ إحداها ما سمعت في الإذن، والأُخرَيَان في «الظلمات» و«النور» وقد أُشيرَ إلى المراد منهما.

وجوَّز العلامة الطيبي أنْ تكون كلُّها استعارةً مركبةً تمثيليةً بتصوير الهدى بالنور، والضلالِ بالظلمة، والمكلَّفِ المنغمس في ظلمة الكفر، بحيث لا يتسهَّل له الخروجُ إلى نور الإيمان إلا بتفضُّل الله تعالى بإرسال رسولٍ بكتابٍ يُسهِّلُ عليه ذلك؛ كمن وقع في تِيْهٍ مُظلم ليس منه خلاصٌ، فبعثَ ملكٌ توقيعاً لبعض خواصِّه في استخلاصه، وضَمِن تسهيلَ ذَلك على نفسه، ثم استعمل هنا ما كان مستعملاً هناك فقيل: «كتابٌ أنزلناه» إلى آخره. وكان الظاهر: بإذننا، إلا أنَّه وضع ذلك الظاهر موضع الضمير، وقيل: «ربهم» للإشعار بالتربية واللطف والفضل، وبأنَّ الهدايةَ لطفٌ محضٌ، وفيه أنَّ الكتاب والرسول والدعوة لا تُجدي دون إذن الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]. اهـ.

وما ذكره من الاستعارة التمثيليةِ مع بلاغته وحُسنه لا يخلُو عن بُعد، وكأنَّه للإنباء عن كون التيسير والتوفيق مَنوطَين بالإقبال إلى الحقِّ، كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:٢٧] استُعير لذلك الإذن الذي هو ما علمتَ، وأُضيفَ إلى ضمير «الناس» اسمُ الرَّبِّ المُفصح عن التربية التي هي عبارةٌ عن تبليغ الشيءِ إلى كماله المتوجِّه إليه، وشمولُ الإذن بذلك المعنى للكلِّ واضحٌ، وعليه يدورُ كونُ الإنزال لإخراجهم جميعاً، وعدمُ تحقُّق الإذن بالفعل في بعضهم لعدم تحقُّق شرطِه المستنِدِ إلى سوء اختيارهم ورَدَاءة استعدادِهم غيرُ مُخلٍّ بذلك.

ومن هنا فسادُ قول الطبرسي[٣]: إنَّ اللام لامُ الغرض لا لامُ العاقبةِ وإلا لزمَ أن يكونَ جميعُ الناس مؤمنين والواقعُ بخلافه.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٥.

(٢) تفسير الرازي ١٩/ ٧٤.

(٣) مجمع البيان ١٣/ ١٩٦.

وذكر الإمامُ[١] أنَّ المعتزلة استدلُّوا بهذه الآيةِ على أنَّ أفعالَ الله تعالى تُعلَّلُ برعاية المصالح، ثمَّ ساق دليلَ أصحابه على امتناع ذلك، وذكر أنَّه إذا ثَبَت الامتناعُ يَلزم تأويلُ كلِّ ما أشعَرَ بخلافه، وتأويلُه بحملِ اللام على لام العاقبة ونحوها.

ونُقل عن ابن القَيِّم[٢] وغيرِه القولُ بالتعليل، وأنَّه مذهب السلف، وأنَّ في الكتاب والسنة ما يزيدُ على عشرة آلاف موضعٍ ظاهرةٌ في ذلك، وتأويلُ الجميع خروجٌ عن الإنصاف، وليس الدليل على امتناع ذلك من المتانةِ على وجهٍ يضطرُّ معه إلى التأويل.

وللشيخ إبراهيم الكوراني في بعض رسائله كلامٌ نفيسٌ في هذا الغرض سالمٌ ـ فيما أرى ـ عن العلَّة، إنْ أردتَه فارجع إليه.

والباء متعلِّقةٌ بـ «تُخرِج» على ما هو الظاهر، وجوِّز أنْ يكون متعلِّقاً بمضمَرٍ وقع حالاً من مفعوله، أي: مُلتبسين بإذن ربِّهم، ومنهم مَن جوَّز كونَه حالاً من فاعله، أي: مُلتبساً بإذن ربِّهم. وتعقِّب بأنَّه يأباه إضافةُ الربِّ إليهم لا إليه ﷺ. ورُدَّ بما ردَّ فتأمَّل.

واستَدلَّ بالآية القائلون بأنَّ معرفةَ الله تعالى لا تحصُل إلا مِن طريق التعليم من الرسول ﷺ حيث ذكر فيها أنَّه عليه الصلاة والسلام هو الذي يُخرجُ الناس من ظلمات الضلال إلى نور الهدى، وأُجيبَ بأنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام كالمنبِّه، وأمَّا المعرفةُ فإنَّما تحصُل من الدليل. واستَدلَّ بها أيضاً كلٌّ من المعتزلة وأهلُ السنة على مذهبه في أفعال العباد، وتفصيل ذلك في تفسير الإمام[٣].

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾ الجارُّ والمجرور بدلٌ من الجارِّ والمجرور فيما تقدَّم، أعني قوله تعالى: «إلى النور».

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٧٣.

(٢) ينظر شفاء العليل ص٣٤٥.

(٣) تفسير الرازي ١٩/ ٧٣ ـ ٧٤.

وقال بعضهم[1]: إنَّ «صراط» بدلٌ من «النور» وأُعيدَ عاملُه وكرِّر لفظاً ليدلَّ على البدليَّة كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ [الأعراف: ٧٥] ولا يضرُّ الفصلُ بين البدل والمبدَل منه بما قبله؛ لأنَّه غيرُ أجنبيٍّ، إذ هو من معمولات العامل في المبدَل منه على كلِّ حال.

واستُشكل هذا مع الاستعارة السابقةِ بأنَّ التعقيب بالبدل لا يتقاعد عن التعقيب بالبيان في مثلِ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] وأُجيبَ بأنَّ الصراط استعارةٌ أخرى للهدى، جُعِلَ نوراً أولاً، لظهوره في نفسه واستضاءة الضلال في مهواة الهوى به، ثم جُعِلَ ثانياً جادةً مسلوكةً مأمونةً لا كَبُنيَّاتِ الطرق[2] دلالةً على تمام الإرشاد.

وفي «الإرشاد»[3] أنَّ إخلالَ البيان والبدل بالاستعارة إنَّما هو في الحقيقة لا في المجاز، وهو ظاهرٌ، وجوِّز أنْ يكون الجارُّ والمجرور متعلِّقاً بمحذوفٍ على أنَّه جوابُ سائلٍ يَسأل: إلى أيِّ نور؟ فقيل: إلى صراط.. إلى آخره، وإضافة الصراط إليه تعالى؛ لأنَّه مقصده أو المبيِّن له، وتخصيصُ الوصفَين الجليلَين بالذكر للترغيب في سلوكه، إذ في ذلك إشارةٌ إلى أنَّه يُعَزُّ سالكُه ويُحمَد سابلُه.

وقال أبو حيان[4]: النكتة في ذلك أنَّه لمَّا ذكر قبلُ إنزاله تعالى لهذا الكتابِ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربِّهم، ناسَبَ ذكر هاتَين الصفتَين، صفةَ العزَّة المتضمِّنةِ للقدرة والغلبة لإنزاله مثلَ هذا الكتابِ المعجزِ الذي لا يقدر عليه سواه، وصفةَ الحمد لإنعامه بأعظمِ النعم لإخراج الناسِ من الظلمات إلى النور. ووجهُ التقديم والتأخير على هذا ظاهر.

وقال الإمامُ: إنما قدَّم ذكر «العزيز» على ذكر «الحميد» لأنَّ الصحيح أنَّ أول

---

(١) في (م): وقال غير واحد.

(٢) بنيَّات الطرق: هي الطرق الصغار المتشعبة عن الطريق الكبيرة، وأطلق بُنيَّات الطريق على الأباطيل، فقيل في المثل: دع بُنيَّات الطريق. أي: عليك بمعظم الأمر ودع سفساف الأمور. مجمع الأمثال ١/ ٢٩٦، وزهر الأكم ٢/ ٢٣٨.

(٣) إرشاد العقل السليم، وهو تفسير أبي السعود ٥/ ٣٠.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٠٣.

العلم بالله تعالى العلمُ بكونه تعالى قادراً، ثم بعد ذلك العلمُ بكونه عالماً، ثم بعد ذلك العلمُ بكونه غنياً عن الحاجات، والعزيزُ هو القادرُ، والحميدُ هو العالمُ الغنيُّ، فلمَّا كان العلم بكونه تعالى قادراً مُتقدِّماً على العلم بكونه عالماً بالكلِّ غنياً عنه، لا جَرَم قدَّم ذِكرَ العزيز على ذكر الحميد[١]. اهـ. ولم نَرَ تفسيرَ «الحميد» بما ذكر لغيره.

وفي «المواقف» و«شرح أسماء الله الحسنى» لحجَّة الإسلام الغزالي وغيرهما: أنَّ «الحميد» هو المحمودُ المُثنَى عليه، وهو سبحانه محمودٌ بحمده لنفسه أزلاً وبحَمْد عباده له تعالى أبداً[٢]، وبين هذا وما ذكره الإمام بُعد بعيدٌ. وأمَّا ما ذكره في «العزيز» فهو قولٌ لبعضهم؛ وقيل: هو الذي لا مِثْلَ له. وربَّما يقال على هذا: إنَّ التقديمَ للاعتناء بالصفات السلبيَّة، كما يُؤذن به قولهم: التخلية أَوْلَى من التحلية، وكذا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ولعلَّ كلامه قدِّس سرُّه بَعْدُ لا يخلو عن نظر.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ﴾ بالرفع على ما قرأ نافعٌ وابنُ عامر[٣] خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو الله، والموصول الآتي صفتُه، وبالجرِّ على قراءة باقي السبعة والأصمعيِّ عن نافع[٤] بدلٌ مما قبله في قول ابن عطية[٥] والحوفي وأبي البقاء[٦]، وعطفُ بيانٍ في قول الزمخشري[٧]، قال: لأنَّه أُجري مُجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصِهِ بالمعبود بحقٍّ، كما غلب النجمُ على الثريَّا. ولعلَّ جعله جارياً مجرى ذلك ليس لاشتراطه في عطف البيان، بل لأنَّ عطف البيان شرطُه إفادةُ زيادة إيضاحٍ لمتبوعه، وهي هنا بكونه كالعلم باختصاصه بالمعبود بحقٍّ، وقد خرج عن الوصفيَّة بذلك، فليس صفةً كـ «العزيز الحميد».

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٧٥.
(٢) المواقف ص٣٣٥، والمقصد الأسنى ص١٣٠.
(٣) وهي أيضاً قراءة أبي جعفر، ووافقهم رويس في الابتداء فقط. التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٨.
(٤) وهي غير المشهورة عنه، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٢.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٢.
(٦) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٩٢.
(٧) الكشاف ٢/ ٣٦٥.

ثم إنَّه لا يخفَى عليك أنَّه عند الأئمة المحقِّقين علمٌ لا أنَّه كالعلم، وعن ابن عصفور أنَّه لا تُقدَّمُ صفةٌ على موصوفٍ إلا حيث سُمِعَ، وذلك قليلٌ، وللعرب فيما وُجد من ذلك وجهان:

أحدهما: أنْ تُقدِّم الصفة وتُبقيها على ما كانت عليه، وفي إعراب مثل هذا وجهان:

أحدهما: إعرابُه نعتاً مقدَّماً.

والثاني: أن يُجعل ما بعد الصفة بدلاً.

والوجه الثاني: أن تُضيفَ الصفة إلى الموصوف. اهـ.

وعلى هذا يجوز أنْ يكونَ «العزيز الحميد» صفتَين متقدِّمتَين، ويُعرب الاسمُ الجليل موصوفاً متأخِّراً، ومما جاء فيه تقديمُ ما لو أُخِّر لكان صفةً، وتأخيرُ ما لو قُدِّم لكان موصوفاً قوله:

والمُؤمنِ العائذاتِ الطيرَ يمسَحُها ... رُكبانُ مكةَ بين الغَيْل والسَّعدِ[1]

فلو جاء على الكثير لكان التركيبُ: والمؤمنِ الطير العائذاتِ، ومثله قوله:

لو كنتَ ذا نَبْلٍ وذا شَزِيْبِ[2] ... لم أَخْشَ شدَّات[3] الخبيث الذيب[4]

وجوِّز في قراءة الرفع كونُ الاسم الجليل مبتدأً، وقوله تعالى ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾ أي: مِلكاً ومُلكاً ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خبرُه، وما تقدَّم أَوْلَى، فإنَّ في الوصفية من بيان كمالِ فخامة شأنِ الصراط وإظهار تحتُّم سلوكه على الناس ما ليس في

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٥. قال اليوسي في زهر الأكم ١/ ٨٠: أراد العائذات هذه الطير، والمؤمن هو الله تعالى، وقوله: يمسحها ركبان مكة، أي: يمسحون عليها ولا يهيجونها، والغَيل والسعد: أجمتان بين مكة ومنًى. وفي الأصل: السند، والمثبت من (م) والديوان.

(٢) في الأصل: تشزيب، وفي (م): تشذيب، والمثبت من المصادر، والشزيب: القوس ليست بجديدٍ ولا خَلقٍ. القاموس المحيط (شزب).

(٣) شدات: جمع شدة، وهي الحملة الواحدة، ومنه: شدّ على القوم في القتال: حمل عليهم. اللسان: (شدد).

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٥٩٠، والفائق للزمخشري (شزب).

الخبرية، والمرادُ بـ «ما في السموات وما في الأرض» ما وُجد داخلاً فيهما أو خارجاً عنهما، متمكّناً فيهما، ومن الناس مَن استَدلَّ بعموم «ما» على أنَّ أفعال العباد مخلوقةٌ له تعالى، كما ذكره الإمام(١)،

وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وعيدٌ لمن كَفَر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات إلى النور بالويل. وهو عند بعضٍ نقيضُ الوَأْل بالهمزة بمعنى النجاة، فمعناه الهلاك، وهو(٢) مصدرٌ إلا أنَّه لا يُشتَقُّ منه فعلٌ، إنما يقال: وَيْلاً له، فيُنصَب نصبَ المصادر، ثم يُرفع رَفْعها لإفادة معنى الثبات، فيقال: ويلٌ له كـ: سلامٌ عليك، وقال الراغب: قال الأصمعي: «ويلٌ» قُبوحٌ وقد يُستعمل للتحسُّر، و«وَيْسٌ» استصغارٌ، و«وَيْحٌ» ترحُّمٌ، ومَن قال: هو وادٍ في جهنَّم، لم يُرد أنَّه في اللغة موضوعٌ لذلك، وإنما أرادَ أنَّ مَن قال الله تعالى فيه ذلك، فقد استحقَّ مقرًّا من النار وثبت له ذلك(٣).

وقوله سبحانه: ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾ في موضع الصفة لـ «ويل» ولا يضرُّ الفصل ـ على ما في «البحر»(٤) وغيرِه ـ بالخبر، وجوِّز أنْ يكون في موضع الحال ـ على ما في الحواشي الشهابية ـ و«من» بيانية(٥)، وجوِّز أن تكونَ ابتدائيةً على معنى أنَّ الويل بمعنى عدم النجاةِ متَّصلٌ بالعذاب الشديد وناشئٌ عنه، وقيل: إنَّ الجارَّ متعلِّق: بـ «ويل» على معنى أنَّهم يُوَلْوِلُون من العذاب ويضجُّون منه قائلينَ: يا ويلاه، كقوله تعالى: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان:١٣]، ومنع أبو حيان(٦) وأبو البقاء(٧) ذلك لما فيه من الفَصْل بين المصدر ومعموله بالخبر، وهو لا يجوز، وقد مرَّ قريباً في «الرعد»(٨) ما يتعلَّق بذلك فتذكَّر، فما في العهد من قدم.

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٧٨.
(٢) في (م): فهو.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن: (ويل) و(ويس) و(ويح).
(٤) ٥/ ٤٠٤.
(٥) حاشية الشهاب ٥/ ٢٥٠.
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٠٤.
(٧) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٩٢.
(٨) عند تفسير الآية (٢٤).

وفي «الكشاف» أنَّ «مِن عذابٍ» إلخ متَّصلٌ بالويل على معنى أنَّهم يُوَلْوِلُون[1].. إلى آخر ما ذكرنا. وهو مُحتمل لتعلُّقه به، ولتعلُّقه بمحذوف، واستظهرَ هذا في «البحر»[2].

وفي «الكشف» أنَّ الزمخشريَّ لمَّا رأى أنَّ الويل من الذنوب لا مِن العذاب، كما يُرشد إليه قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة:٧٩] وأمثالُه، أشار هنا إلى أنَّ الاتِّصال معنويٌّ، لا مِن ذلك الوجه، فإنَّه هناك جَعَل الويلَ نفْسَ العذاب، وهنا جَعَله تلفُّظهم بكلمة التلهُّف من شدَّة العذاب، وكلاهما صحيح، ولم يُرد أنَّ هنالك فصلاً بالخبر لقُرب ما مرَّ في قوله تعالى: (سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ). اهـ.

واعترض عليه بأنَّه لا حاجةَ لِمَا ذُكر من التكلُّف؛ لأنَّ اتِّصاله به ظاهرٌ لا يحتاجُ إلى صَرْفه للتلفُّظ بتلك الكلمة، و«مِن» بيانيةٌ لا ابتدائيةٌ حتى يحتاجَ إلى ما ذكر، ولا يخفى قوَّة ذلك، وأنَّه لا يحتاج إلى التكلُّف، ولو جعلت «مِن» ابتدائيةً، فتأمَّل. والظاهر أنَّ المراد بالعذاب الشديد عذابُ الآخرة. وجوِّز أنْ يكونَ المرادُ عذاباً يقعُ بهم في الدنيا.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي: يختارونها عليها، فإنَّ المختار للشيء يطلب من نفسه أن يكونَ أحبَّ إليه من غيره، فالسين للطلب، والمحبةُ مجازٌ مرسَلٌ عن الاختيار والإيثار بعلاقة اللزوم في الجملة، فلا يضرُّ وجود أحدهما بدون الآخَر، كاختيار المريض الدواءَ المرَّ لنفعه[3]، وتَرْكِ ما يحبُّه ويَشتهيه من الأطعمة اللذيذة لضَرَره، ولاعتبار التجوُّزِ عُدِّيَ الفعلُ بـ «على».

ويجوزُ أنْ يكونَ استفعل بمعنى أَفْعَلَ، كاستجاب بمعنى أَجَابَ، والفعلُ مضمَّنٌ معنى الاختيار والتعدية بـ «على» لذلك.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعوقُون الناسَ ويمنعونهم عن دين الله تعالى والإيمان به، وهو الصراط الذي بُيِّن شأنه، والاقتصارُ على الإضافة إلى الاسم الجليل المنطوي على كل وَصْفٍ جميلٍ لرَوْمِ الاختصار.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦.
(٢) ٥/ ٤٠٤.
(٣) في الأصل: لنفسه، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٥٠.

وقرأ الحسنُ: «يُصِدُّون» من أصدَّ[1] المنقول من صدَّه صدوداً: إذا تنكَّبَ وحاد، وهو ليس بفصيحٍ بالنسبة إلى القراءة الأُخرى؛ لأنَّ في صدِّه مندوحةً عن تكلُّف النقل، ولا محذورَ في كون القراءةِ المتواترة أفصحَ من غيرها، ومن مجيء أصدَّ قولُه:

أناسٌ أَصَدُّوا الناسَ بالسَّيفِ عنهم صدودَ السَّواقي عن أُنوف الحَوائمِ[2]

ونظيرُ هذا: وَقَّفه وأَوْقَفه.

﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي: يبغون لها، فحذف الجارّ وأوصل الفعل إلى الضمير، أي: يطلبون لها ﴿عِوَجًاۚ﴾ أي: زيغاً واعْوِجاجاً، وهي أبعدُ شيءٍ عن ذلك، أي: يقولون لمن يُريدون صدَّه وإضلالَه عن السبيل: هي سبيلٌ ناكبةٌ وزائغةٌ غيرُ مستقيمة، وقيل: المعنى: يطلبون أنْ يَرَوا فيها ما يكون عِوَجاً قادحاً فيها، كقول مَن لم يَصِل إلى العنقود، وليسوا بواجدين ذلك، وكِلا المعنيين أنسبُ مما قيل: إنَّ المعنى: يبغون أهلَها أنْ يعوجوا بالرِّدَّة.

ومحلُّ موصول هذه الصلات الجرُّ على أنَّه بدلٌ ـ كما قيل ـ من «الكافرين»، فَيُعتَبر كلُّ وصفٍ مِن أوصافهم بما يُناسبه من المعاني المعتبرة في الصراط، فالكفرُ المنبئُ عن الستر بإزاء كونه نوراً، واستحباب الحياة الدنيا الفانيةِ المفصحةِ عن وخامة العاقبة بمقابلة كون سلوكه[3] محمودَ العاقبة، والصدُّ عنه بإزاء كون[4] سالكِهِ عزيزاً.

وقال الحوفي وأبو البقاء[5]: إنَّه صفةٌ «للكافرين»، ورَدَّ ذلك أبو حيان بأنَّ فيه الفصلَ بين الصفة والموصوفِ بأجنبيٍّ، وهو «من عذابٍ شديد» سواء كان في موضع الصفة لـ «ويل» أو متعلِّقاً بمحذوفٍ[6]، ونظيرُ ذلك على الوصفيَّة قولك:

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٨، والبحر المحيط ٥/ ٤٠٤.
(٢) البيت لذي الرمة وهو في ديوانه ٢/ ٧٧١ وفيه: رؤوس المخارم، ونقل ابن منظور في اللسان (صدد) عن ابن بري أنه هكذا صواب إنشاده، وذكره مثلَ رواية المصنِّفِ الجوهريُّ في الصحاح (صدد) والزمخشري في الكشاف ٣/ ١٩٤ دون نسبة.
(٣) في (م): مسلوكه.
(٤) في (م): كونه.
(٥) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٩٢.
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٠٤.

الدارُ لزيدٍ الحسنةُ القرشيِّ، وهو لا يجوز؛ لأنَّك قد فصلتَ بين زيدٍ وصفتِه بأجنبيٍّ عنهما، والتركيبُ الصحيح فيه أنْ يقال: الدارُ الحسنةُ لزيدٍ القرشيِّ، أو: الدارُ لزيدٍ القرشيِّ الحسنةُ، وقيل: إذا جعل «مِن عذابٍ شديد» خبرَ مبتدأ محذوفٍ، والجملةُ اعتراضيةٌ، لا يضرُّ الفصلُ بها، وهو كما ترى.

وجوِّز أنْ يكون محلُّه النصبَ على الذَّمِّ، أو الرفعَ عليه بأنْ يقدَّر أنَّه كان نعتاً فقُطِعَ، أي: هم الذين.

وجوِّز أنْ لا يُقدَّر ذلك ويُجعل مبتدأ خبرُه قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ﴾ أي: بُعْدٍ عن الحقِّ ﴿بَعِيدٖ ۝٣﴾ وهو على غير هذا الوجهِ استئنافٌ في موضع التعليل، وفيه تأكيدٌ لما أَشعَر به بناءُ الحكم على الموصول، والمراد أنَّهم قد ضلُّوا عن الحقِّ ووقعوا عنه بمراحل.

وفي الآية من المبالغة في ضلالهم ما لا يخفَى حيث أسند فيها إلى المصدر ما هو لصاحبه مجازاً كـ: جُدَّ جِدُّه، إلا أنَّ الفرق بين ما نحن فيه وذاك أنَّ المسندَ إليه في الأول مصدرُ غير المسند، وفي ذاك مصدرُه، وليس بينهما بُعْدٌ.

ويجوز أنْ يقال: إنَّه أسندَ فيها ما للشخص إلى سبب اتِّصافه بما وُصِف به بناءً على أنَّ البعد في الحقيقة صفةٌ له باعتبار بُعْدِ مكانه عن مقصده، وسببُ بُعدِه ضلالُه؛ لأنَّه لو لم يَضِلَّ لم يَبعُد عنه، فيكون كقولك: قَتَل فلاناً عصيانُه، والإسناد مجازيٌّ، وفيه المبالغةُ المذكورة أيضاً.

وفي «الكشاف»: هو من الإسناد المجازيِّ، والبعدُ في الحقيقة للضالِّ، فوُصِفَ به فعلُه، ويجوزُ أن يُراد: في ضلالٍ ذي بُعد، أو: فيه بعدٌ؛ لأنَّ الضالَّ قد يَضِلُّ عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً[(١)].

وكتب عليه في «الكشف»: أنَّ الإسناد المجازيَّ على جَعْل البُعدِ لصاحب الضلال؛ لأنَّه الذي يَتَباعد عن طريق الصواب[(٢)]، فوُصِفَ ضلالُه بوصْفه مبالغةً، وليس المرادُ إبعادَهم في الضلال وتعمُّقَهم فيه.

---

(١) الكشاف ٢/٣٦٦.
(٢) في الأصل: الطريق، وفي (م): طريق الضلال، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/٢٥١.

وأما قوله: فيجوز أنْ يراد: في ضلالٍ ذي بُعد، فعلى هذا البُعْدُ صفةٌ للضلال حقيقةً بمعنى بُعدِ غورِه وأنَّه هاويةٌ لا نهايةَ لها.

وقوله: أو فيه بعدٌ، على جعل الضلال مستقَرّاً للبُعد بمنزلة مكان بعيد عن الجادَّة، وهو معنى بُعْدِه في نفسه عن الحقِّ لتضادِّهما، وإليه الإشارة بقوله: لأنَّ الضالَّ قد يَضِلُّ مكاناً بعيداً وقريباً، والغرضُ بيانُ غاية التضادِّ، وأنَّه بُعْدٌ لا يُوازن وِزانُه، وعلى جميع التقادير البعدُ مستفادٌ من البعد المسافي إلى تفاوت ما بين الحقِّ والباطل، أو ما بين أهلهما، وجاز أنْ يكون قولُه: ذي بعدٍ، أو فيه بعدٌ، وجهاً واحداً إشارةً إلى الملابسة بين الضلال والبُعد، لا بواسطة صاحب الضلال، لكن الأوَّل أَوْلَى؛ تكثيراً للفائدة.

ثم قوله تعالى: (أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ) دون أنْ يقول سبحانه: أولئك ضالُّون ضلالاً بعيداً، للدلالة على تمكُّنهم فيه تمكُّنَ المظروف في الظرف، وتصويرِ اشتمال الضلال عليهم اشتمالَ المُحيط على المُحاط، وليكونَ كنايةً بالغةً في إثبات الوصف، ـ أعني الضلال ـ على الأوجه، فافْهم.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ أي: في الأمم الخالية من قبلك كما سيذكر إن شاء الله تعالى إجمالاً ﴿مِن رَّسُولٍ إِلَّا﴾ متلبِّساً ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ متكلِّماً بلغة مَن أُرسل إليهم من الأمم المتَّفقة على لغةٍ، سواء بُعِث فيهم أَوْ لا، وقيل: بلغة قومه الذين هو منهم وبُعث فيهم، ولا ينتقضُ الحصرُ بلوطٍ عليه السلام، فإنَّه تزوَّج منهم وسكنَ معهم، وأمَّا يُونس عليه السلام، فإنَّه من القوم الذين أُرسل إليهم كما قالوه، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّ ذلك باعتبار الأكثر الأغلب، ولعلَّ الأولى ما ذكرنا.

وقرأ أبو السمَّال وأبو الجوزاء وأبو عمران الجوني: «بلِسْن» بإسكان السين[1] على وَزْن: ذِكْر، وهي لغةٌ في «لسان» كـ: رِيْش ورِيَاش، وقال صاحب «اللوامح»: إنَّه خاصٌّ باللغة، واللسان يُطلَق عليها وعلى الجارحة، وإلى ذلك ذهب ابنُ عطية[2].

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٥٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٠٥، وزاد ابن خالويه نسبتها للأعمش.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٣.

وقرأ أبو رجاء وأبو المتوكل والجحدري: «بلُسُن» بضمِّ اللام والسين[(١)]، وهو جمْعُ لسان كـ : عِمَاد وعُمُد.

وقرئ: «بلُسْن» بضمِّ اللام وسكون السين[(٢)]، وهو مخفَّف لُسُن كـ : رُسُل ورُسْل.

﴿لِيُبَيِّنَ﴾ ذلك الرسولُ ﴿لَهُمْ﴾ لأولئك القومِ الذين أُرسلَ إليهم ما كُلِّفوا به فيتلقوه منه بسهولةٍ وسرعة، فيمتثلوا ذلك من غير حاجةٍ إلى الترجمة، وحيث لم تَتَأَتَّ هذه القاعدة في شأن سيدنا محمد ﷺ وعلى إخوانه المرسلين أجمعين لعموم بِعثته وشمولِ رسالته الأسودَ والأحمرَ والجنَّ والبشرَ على اختلاف لغاتهم، وكان تعدُّد نظم الكتاب المنزل إليه ﷺ حسبَ تعدُّد ألسنة الأمم أَدْعَى إلى التنازع واختلافِ الكلمةِ وتطرُّقِ أيدي التحريف، مع أنَّ استقلالَ بعضٍ من ذلك بالإعجاز مَئِنَّةٌ لقدح القادحين، واتِّفاق الجميع فيه أمرٌ قريبٌ من الإلجاء المُنافي للتكليف، وحصر[(٣)] البيان بالترجمة والتفسير = اقتضَت الحكمةُ [اتحادَ النظم] المنبئ عن العزَّة وجلالةِ الشأن المستَتْبع لفوائدَ غنيةٍ عن البيان على أنَّ الحاجة إلى الترجمة تَتَضاعف عند التعدُّد، إذ لابدَّ لكلِّ طائفةٍ من معرفةٍ توافقُ الكلِّ حذو القذَّة بالقذَّة من غير مخالفةٍ ولو في خَصلة فذَّة، وإنما يتمُّ ذلك بمَن يترجم عن الكلِّ واحداً أو متعدِّداً، وفيه من التعذُّر ما فيه، ثم لمَّا كان أشرفُ الأقوام وأولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام قومَه الذين بُعِثَ بين ظهرانَيهم، ولغتهم أفضلُ اللغات نَزَل الكتابُ المبين بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، وانتشرَت أحكامه بين الأُمم أجمعين. كذا قرَّره شيخُ الإسلام والمسلمين[(٤)]، وهو من الحُسن بمكان، بَيْدَ أنَّ بعضَهم أبقَى الكلامَ على عمومه، بحيث يشمل النبيَّ ﷺ[(٥)]، وأراد بالقوم الذين ذلك الرسولُ منهم وبُعث

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٠٥، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٨ لجناح بن حبيش.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٠٥.

(٣) في الأصل و(م): حصل، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٣٢. وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٤) تفسير أبي السعود ٥/ ٣٢.

(٥) جاء في حاشية (م): ادعى بعضهم أنه ﷺ كان يعلم كل اللغات لعموم بعثته وإن كان لم يتكلم على خلاف بغير العربية فافهم ولا تغفل. اهـ منه.

فيهم، والمرادُ من قومه ﷺ العربُ كلهم[١]، ونَقَل ذلك أبو شامة في «المرشد» عن السجستاني، واحتجَّ بقوله ﷺ: «أُنْزِلَ القرآنُ على سَبْعةِ أَحْرُفٍ»[٢] وفيه نظر ظاهر.

وقال ابنُ قتيبة: المراد منهم قريش ولم يَنزل القرآنُ إلا بلغتهم[٣]. وقيل: إنَّما نزل بلغةِ مُضَرَ خاصَّةً لقول عمر رضي الله عنه: نَزَل القرآنُ بلغة مُضر.

وعيَّن بعضُهم فيما حكاه ابنُ عبد البرِّ سبعاً منهم: هُذَيل وكِنَانة وقَيس وضَبَّة وتَيم الرَّباب وأَسَد[٤] بن خزيمة وقُريش[٥].

وأخرج أبو عبيد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: نزل بلغةِ الكَعبين: كعبِ قريش وكعبِ خُزاعةَ. فقيل: وكيف؟ فقال: لأنَّ الدار واحدةٌ. يعني خزاعة كانوا جيرانَ قريش فسهُلَت عليهم لغتهم.

وجاء عن أبي صالح عنه أنَّه قال: نَزَل على سبعِ لغاتٍ منها خمسٌ بلغة العجز من هوازن، ويقال لهم: عُلْيا هوازن، ومن هنا قال أبو عمرو بن العلاء: أفصحُ العرب عُلْيا هوازن وسُفلى تميم، يعني بني دارم. والذي يذهب مذهب السجستاني يقول: إنَّ في القرآن ما نزل بلغة حِمْيَر وكنانة وجُرْهُم وأزدشنوءةِ ومَذْحِج وخَثْعَم وقيس عيلان وسعد العشيرة وكِنْدَة وعُذْرَة وحضرموت وغَسَّان ومُزَيْنَة ولَخْم وجُذَام وحنيفة واليمامة وسَبَأ وسُلَيم وعمارة وطَيِّئ وخُزاعة وعمان وتَميْم وأَنمار والأشْعريِّين والأوس والخزرج ومَدْين؛ وقد مثَّل لكلٍّ ذلك أبو القاسم[٦].

(١) قوله: العرب كلهم، ليس في الأصل، وأثبتناه من (م).
(٢) أخرجه أحمد (١٥٨)، والبخاري (٢٤١٩)، ومسلم (٨١٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٣) غريب الحديث ١/ ٢٨٦، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٥٢.
(٤) في الأصل و(م): أسيد، والمثبت من المصادر.
(٥) عزاه لابنِ عبد البر ابنُ حجر في الفتح ٩/ ٢٧، والسيوطيُّ في الإتقان ١/ ١٥٠.
(٦) الإتقان في علوم القرآن ١/ ٤١٩ ـ ٤٢٣، وأبو القاسم هو يوسف بن علي بن عبادة الهذلي المغربي، له: الكامل في القراءات الخمسين، (ت٤٦٥هـ). كشف الظنون ٢/ ١٣٨١.

وذكر أبو بكر الواسطي: أنَّ في القرآن من اللغات خمسينَ لغةً، وسردها مُمَثِّلاً لها، إلا أنَّه ذكر أنَّ فيه من غير العربية الفُرس والنَّبط والحبشة والبَرْبر والسُّريانية والعِبرانية والقِبْط[١].

والذاهبُ إلى ما ذهب إليه ابنُ قتيبة يقول: إنَّ ما نُسب إلى غير قريش على تقدير صحة نسبتِهِ مما يُوافق لغتهم، ونَقَل أبو شامة عن بعض الشيوخ أنَّه قال: إنَّه نزل أوَّلاً بلسان قريش ومَن جاوَرَهم من العرب الفصحاء، ثم أُبيحَ لسائر العرب أنْ تقرَأه بلغاتهم التي جرَت عادتُهم باستعمالها، كاختلافهم في الألفاظ والإعراب، ولم يُكلَّف أحدٌ منهم الانتقال من لغته إلى لغةٍ أخرى؛ للمشقَّة ولِمَا كان فيهم من الحميَّة ولطَلَبِ تَسهيل المراد[٢]، لكن أنت تعلم أنَّ هذه الإباحة لم تستمرَّ، وكون المتبادر من قومه عليه الصلاة والسلام قريشاً مما لا أظنُّ أنَّ أحداً يمتري فيه، ويليه في التبادر العرب.

وفي «البحر»: أنَّ سبب نزول الآيةِ أنَّ قريشاً قالوا: ما بالُ الكتب كلّها أعجمية وهذا عربيٌّ[٣]؟ وهذا إنْ صحَّ ظاهرٌ في العموم، ثمَّ إنَّه لا يلزم من كون لغتِهِ لغةَ قريش أو العرب اختصاصُ بعثته ﷺ بهم، وإنْ زعمَت طائفةٌ من اليهود ـ يُقال لهم العيسوية ـ اختصاصَ البعثة بالعرب لذلك، وحكمةُ إنزاله بلغتهم أظهرُ من أنْ تخفَى.

وقيل: الضميرُ في «قومه» لمحمدٍ ﷺ المعلوم مِن السياق، فإنَّه كما أخرج ابنُ أبي [حاتم] عن سفيان الثوري: لم ينزل وحيٌ إلا بالعربية ثم تَرجَمَ كلُّ نبيٍّ لقومه[٤]، وقيل: كان يُترجم ذلك جبريلُ عليه السلام، ونُسب إلى الكلبي، وفيه أنَّه إذا لم يقع التبيين إلا بعدَ الترجمة فات الغرضُ مما ذكر.

وضميرُ «لهم» للقوم بلا خلاف، وهم المبيَّن لهم بالترجمة. وفي «الكشاف» أنَّ ذلك ليس بصحيح؛ لأنَّ ضميرَ «لهم» للقوم، وهم العرب، فيؤدّي إلى أنَّ الله تعالى أنزل التوراة مثلاً بالعربية ليُبيِّن للعرب، وهو معنًى فاسدٌ[٥].

---

(١) الإتقان ١/ ٤٢٤، وكلام أبي بكر في كتابه: الإرشاد في القراءات العشر.
(٢) فتح الباري ٩/ ٢٧.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٠٥.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨١٩، وما بين حاصرتين سقط من الأصل و(م).
(٥) الكشاف ٢/ ٣٦٧.

وتكلَّف الطيبي دفْعَ ذلك بأنَّ الضمير راجعٌ إلى كلٍّ قوم بدلالةِ السياق، والجوابُ كما في «الكشف»: أنَّه لا يدفع عن الإيهام على خلاف مُقتضى المقام.

واحتجَّ بعض الناس بهذه الآية على أنَّ اللغاتِ اصطلاحيةٌ لا توقيفيةٌ، قال: لأنَّ التوقيف لا يحصل إلا بإرسال الرسل، وقد دلَّت الآية على أنَّ إرسال كلٍّ مِن الرسل لا يكونُ إلا بلغة قومه، وذلك يقتضي تقدُّم حصولِ اللغات على إرسال الرسول، وإذا كان كذلك امتنع حصولُ تلك اللغاتِ بالتوقيف، فوجَبَ حصولُها بالاصطلاح. انتهى.

وأُجيب بأنَّا لا نُسلِّم توقُّف التوقيف على إرسال الرسل، لجواز أنْ يخلُق الله تعالى في العقلاء علماً بأنَّ الألفاظ وضَعَها واضعٌ لكذا وكذا، ولا يلزم من هذا كونُ العاقل عالماً بالله تعالى بالضرورة، بل الذي يلزم منه ذلك لو خَلَق سبحانه في العقلاء علماً ضرورياً بأنَّه تعالى الواضعُ، وأين هذا من ذاك، على أنَّه لا ضرَرَ في التزام خَلْقِ الله تعالى هذا العلمَ الضروريَّ، وأيُّ ضررٍ في كونه سبحانه معلومَ الوجود بالضرورة لبعض العقلاء؟! والقولُ بأنَّه يبطل التكليف حينئذٍ على عمومه، غيرُ مسلَّم، وعلى تخصيصه بالمعرفة مُسلَّم وغيرُ ضارٍّ.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ إضلالَه، أي: يخلق فيه الضلالَ لوجود أسبابه المؤدِّية إليه فيه، وقيل: يَخذُله فلا يَلطُف به لِمَا يعلم أنَّه لا يَنجَعُ فيه الإلطاف.

﴿وَيَهْدِى﴾ يخلق الهدايةَ، أو يَمنَح الإلطافَ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه لِمَا فيه من الأسباب المؤدِّية إلى ذلك، والإلتفات بإسناد الفعلَين إلى الاسم الجليل؛ لتفخيم شأنهما وترشيح مناطِ كلٍّ منهما، والفاءُ قيل: فصيحةٌ مثلها في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠] كأنه قيل: فبيَّنوه لهم فأَضلَّ الله تعالى مَن شاء إضلالَه، وهدَى مَن شاء هدايتَه حسبما اقتضَته حكمته تعالى البالغة، والحذفُ[١] للإيذان بأنَّ مسارعة كلِّ رسولٍ إلى ما أُمر به وجريان كلٍّ مِن الفعلَين على سَنَنه أمرٌ محقَّقٌ غنيٌّ عن الذكر والبيان.

---

(١) قوله: والحذف، ساقط من الأصل، وأثبتناه من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٣٢.

وفي «الكشف»: وجهُ التعقيب عن السابق كوجهه في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦] على معنى: أنزلنا(١) الكتاب للتبيين، فمنهم مَن نفعناه بذلك البيانِ، ومنهم مَن جعلناه حجَّةً عليه، والفاء على هذا تفصيلية، والعدولُ إلى صيغة الاستقبال؛ لاستحضار الصورةِ، أو الدلالة على التجدُّد والاستمرار حيث تجدَّد البيانُ من الرسل عليهم السلام المتعاقبة عليهم، وتقديمُ الإضلال على الهداية ـ كما قال بعض المحقِّقين ـ إما لأنَّه إبقاءُ ما كان على ما كان، والهداية إنشاءُ ما لم يكن، أو للمبالغة في بيان أنَّه لا تأثيرَ للتبيين والتذكير من قِبَل الرسل عليهم السلام، وأنَّ مدار الأمر إنما هو مشيئته تعالى بإيهام أنَّ ترتُّب(٢) الضلالة أسرعُ من ترتُّب الاهتداء، وهذا محقّقٌ لما سلَفَ من تقييد الإخراج من الظلمات إلى النور بإذن ربِّهم.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يُغالَب في مشيئته تعالى ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ فلا يشاءُ ما يشاءُ إلا لحكمةٍ بالغةٍ، وفيه ـ كما في «البحر» وغيره ـ أنَّ ما فُوِّض إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام إنما هو التبليغُ وتَبيين طريق الحقِّ، وأمَّا الهدايةُ والإرشاد إليه فذلك بيد الله تعالى يفعلُ ما يشاء ويَحكمُ ما يريد(٣).

ثم إنَّ هذه الآية ظاهرةٌ في مذهب أهل السنة من أنَّ الضلالة والهدايةَ بخلقه سبحانه، وقد ذكر المعتزلةُ لها عدَّة تأويلات، وللإمام فيها كلامٌ طويلٌ إنْ أردته فارجع إليه(٤).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ شروعٌ في تفصيل ما أُجملَ في قوله تعالى: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» الآية. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: ملتبساً بها، وهي ـ كما أخرج ابنُ جرير وغيرُه عن مجاهد وعطاء وعُبيد بن عُمير ـ الآيات التسع التي أجراها الله تعالى على يده عليه السلام(٥). وقيل: يجوزُ أن يرادَ بها آياتُ التوراة.

---

(١) في (م): أرسلنا.
(٢) في الأصل: ترتيب، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٣٢.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٠٥، وتفسير أبي السعود ٥/ ٣٣.
(٤) تفسير الرازي ١٩/ ٨١ ـ ٨٢.
(٥) تفسير الطبري ١٥/ ١٠١، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٣٥، والدر المنثور ٤/ ٧٠.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ بمعنى: أي: أَخرج، فـ «أَنْ» تفسيريَّة؛ لأنَّ في الإرسال معنى القول دون حروفه، أو بأنْ أَخرج، فهي مصدريةٌ حُذف قبلها حرفُ الجرِّ؛ لأنَّ «أرسل» يتعدَّى بالباء، والجارُّ يطَّرد حذفُه قبل «أنَّ» و«أنْ»، واتِّصال المصدرية بالأمر أمرٌ مرَّ تحقيقه.

وزعم بعضُهم أنَّ «أنْ» هنا زائدةٌ، ولا يخفى ضعفُه، والمرادُ من قومه عليه السلام كما هو الظاهر بنو إسرائيل، ومِن إخراجهم إخراجُهم بعد مهلك فرعون.

﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ من الكفر والجهالات التي كانوا فيها وأدَّت بهم إلى أنْ يقولوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهةٌ. ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيدِه وسائرِ ما أُمِرُوا به، وقيل: أَخرجْهم من ظلمات النقص إلى نور الكمال.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أي: بنعمائه وبلائه كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، واختارَه الطبريُّ[1]؛ لأنَّه الأنسبُ بالمقام والأوفق بما سيأتي إن شاء الله تعالى من الكلام، والعطف على «أَخرِجْ».

وجوِّز أنْ تكون الجملةُ مستأنفةً، والالتفاتُ من التكلُّم إلى الغيبة بإضافة الأيام إلى الاسم الجليل؛ للإيذان بفخامة شأنها والإشعار - على ما قيل - بعدم اختصاص ما فيها من المعاملة بالمخاطب وقومه، كما يُوهمه الإضافة إلى ضمير المتكلِّم، وحاصلُ المعنى: عِظْهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

وعن ابن عباس أيضاً والربيع ومقاتل وابن زيد: المراد بـ «أيام الله» وقائعُه سبحانه ونقماتُه في الأمم الخالية. ومن ذلك أيامُ العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار ويوم الفجار ويوم قِضَّة[2] وغيرها، واستظهره الزمخشريُّ[3] للغلبة العُرفية، وأنَّ العرب استعملَته للوقائع، وأنشدَ الطبرسيُّ[4] لذلك قولَ عمرو بن كلثوم:

---

(١) في تفسيره ١٣/ ٥٩٤.
(٢) مكان معروف كانت فيه وقعة بين بكر وتغلب، تسمَّى يوم قِضَّة. تاج العروس (قضض).
(٣) في الكشاف ٢/ ٣٦٧.
(٤) مجمع البيان ١٣/ ١٩٨.

وأيـــامٍ لـــنـــا غُـــرٌّ[١] طِـــوالٍ   عَـصَـيـنـا الـمَـلْـكَ فـيـهـا أَنْ نَـدِيـنـا[٢]

وأنشده الشهابُ[٣] للمعنى السابق، وأنشد لهذا قوله:

وأيـــامـــنـــا مـــشـــهـــورة فـــي عـــدونـــا[٤]

وأخرج النسائيُّ وعبد الله بنُ أحمد في «زوائد المسند» والبيهقيُّ في «شُعب الإيمان» وغيرُهم عن أُبيِّ بنِ كعبٍ عن النبيِّ ﷺ أنَّه فسَّر الأيامَ في الآية بنعم الله تعالى وآلائه[٥]، وروى ذلك ابنُ المنذر عن ابن عباس ومجاهد[٦]. وجَعَل أبو حيان من ذلك بيتَ عمرو[٧]، والأظهرُ فيه ما ذكره الطبرسيُّ.

وأنت تعلمُ أنَّه إنْ صحَّ الحديثُ فعليه الفتوى، لكن ذكر شيخُ الإسلام في ترجيح التفسير المرويِّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أوَّلاً على ما روي ثانياً بأنَّه يردُّ الثاني ما تصدَّى له عليه السلام بصدد الامتثال من التذكير بكلٍّ من السراء والضرَّاء مما جَرَى عليهم وعلى غيرهم حسبما يُتلَى بعدُ[٨]، وهو يُبعدُ صحة الحديث، والقولُ بأنَّ النقَم بالنسبة إلى قوم نِعَمٌ بالنسبة إلى آخرين، كما قيل:

مـــصـــائـــبُ قـــومٍ عـــنـــدَ قـــومٍ فـــوائـــدُ[٩]

---

(١) في الأصل و(م): غرر، والمثبت من المصادر.

(٢) معلقة عمرو بن كلثوم بشرح ابن كيسان ص٥٨، وشرح القصائد المشهورات ٢/ ٩٨، وشرح القصائد العشر ص٢٦٢، وشرح المعلقات السبع ص٩٨، وورد عند ابن كيسان: ولهم، بدل: غرٌّ.

(٣) في حاشيته على البيضاوي ٥/ ٢٥٢، ولفظ عجزه فيه: عضضنا الملك فيها إن بدينا.

(٤) صدر بيت عجزه: لها غررٌ معلومةٌ وحجول، والبيت من قصيدة قيل: هي للسموءل، وقيل: هي لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي. ديوان المعاني ١/ ٣٧، وشرح الحماسة للمرزوقي ١/ ١٢١، والمثل السائر ١/ ١٧٣، ومعاهد التنصيص ١/ ٣٨٣، والتذكرة السعدية ص٣٧.

(٥) سنن النسائي الكبرى (١١١٩٦)، وزوائد عبد الله على المسند (٢١١٢٨)، وشعب الإيمان (٤٤١٨).

(٦) الدر المنثور ٤/ ٧٠.

(٧) البحر المحيط ٥/ ٤٠٦.

(٨) تفسير أبي السعود ٥/ ٣٣.

(٩) عجز بيت للمتنبي، وصدره: بذا قَضَتِ الأيامُ ما بين أهلها، وهو في ديوانه ١/ ٣٩٩.

مما لا ينبغي أنْ يَلتفتَ إليه عاقلٌ في هذا المقام. نعم إنَّ قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب:٩] ظاهرٌ في تفسير الأيام بالنعم وما يستدعي غير ذلك ستسمعُ فيه أقوالاً لا يستدعيه على بعضها.

وزعم بعضُهم أنَّ المراد من قومه عليه السلام القِبطُ، «والظلمات والنور» الكفر والإيمان لا غير.

وقيل: قومُه عليه السلام القبطُ وبنو إسرائيل، وكان عليه السلام مبعوثاً إليهم جميعاً إلا أنَّه بُعِثَ إلى القِبط بالاعتراف بوحدانية الله تعالى، وأنْ لا يُشركوا به سبحانه شيئاً، وإلى بني إسرائيل بذلك وبالتكليف بفروع الشريعة.

وقيل: هم بنو إسرائيلَ فقط، إلا أنَّ المراد من «الظلمات والنور» إنْ كانوا كلُّهم مؤمنين ظلماتُ ذلِّ العبودية ونورُ عزَّة الدين، وظهور أمر الله تعالى.

ونحن نقول: نسأل الله تعالى أنْ يُخرجنا وأهلَ هذه الأقوال من ظلمات الجهل إلى نور العلم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في التذكير بأيَّام الله تعالى، أو في الأيام ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عظيمةً أو كثيرةً دالَّةً على وحدانية الله تعالى وقُدرته وعلمه وحكمته، وهي على الأوَّل الأيامُ، ومعنى كونِ التذكير ظرفاً لها كونُه مناطاً لظهورها، وعلى الثاني كذلك أيضاً إلا أنَّ كلمةَ «في» تجريديَّة، أو هي عليه كل واحدةٍ من النعماء والبلاء، والمشارُ إليه المجموع المشتمل عليها من حيث هو مجموعٌ.

وجوَّز أنْ يُراد بالأيام فيما سبق أنفسُها المنطوية على النعم والنقم، فإذا كانت الإشارة إليها وحُملَت الآياتُ على النعماء والبلاء، فأمر الظرفية ظاهرٌ.

﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ كثيرِ الصبر على بلائه تعالى ﴿شَكُورٍ ۝٥﴾ كثيرِ الشكر لنعمائه عزَّ وجل.

وقيل: المراد لكلِّ مؤمنٍ، فعلى الأول الوصفان عبارتان لمعنيَين، وعلى هذا عبارةٌ عن معنى واحد على طريق الكناية كـ: حيّ مستوي القامةِ بادي البشرة، في الكناية عن الإنسان، والتعبيرُ عن المؤمن بذلك للإشعار بأنَّ الصبر والشكر عنوانُ المؤمن الدالّ على ما في باطنه. والمرادُ ـ على ما قيل ـ: لكلِّ مَن يليقُ بكمال

الصبرِ والشكر، أو الإيمان ويصيرُ أمرُه إلى ذلك، لا لمن اتَّصف به بالفعل؛ لأنَّ الكلام تعليلٌ للأمر بالتذكير المذكور السابق على التذكير المؤدِّي إلى تلك المرتبةِ، فإنَّ من تذكَّر ما فاضَ أو نزل عليه أو على ما قبله، من النعمة والنقمة وتنبَّهَ لعاقبة الصبرِ والشكر أو الإيمان، لا يكادُ يُفارق ذلك، وتخصيصُ الآياتِ بالصبار الشكور لأنَّه المنتفع بها، لا لأنَّها خافية عن غيره، فإنَّ التبيين حاصلٌ بالنسبة إلى الكلِّ، وتقديمُ الصبر على الشكر لما أنَّ الصبر مفتاحُ الفرج المقتضي للشكر، وقيل: لأنَّه من قَبيل التروك؛ يقال: صبَّرتُ الدابة، إذا حبستَها بلا علفٍ، والشكر ليس كذلك فإنَّه كما قال الراغب: تَصوُّرُ النعمة وإظهارُها، قيل: وهو مقلوبُ الكَشْر، أي: الكَشْف، وقيل: أصلُه من عَينٍ شَكْرَى، أي: ممتلئةٍ، فالشكر على هذا هو الامتلاءُ من ذكر المُنعِم عليه، وهو على ثلاثة أَضرُب: شُكرُ القلب، وشُكرُ اللسان، وشكر الجوارح، وذكر أن تَوفِيَةَ شُكرِ الله تعالى صعبةٌ، ولذلك لم يُثْنِ سبحانه بالشكر على أحدٍ من أوليائه إلا على اثنين نوح وإبراهيمَ عليهما السلام[1]. وقد يكون انقسام الشكر على النعمة وعدمُ انقسام الصبر على النقمة وجهاً للتقديم والتأخير، وقيل: ذلك لتقدُّم متعلّق الصبر، أعني: البلاء، على متعلّق الشكر، أعني: النعماء.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ شروعٌ في بيان تصدِّيه عليه السلام لِمَا أُمِرَ به من التذكير للإخراج المذكور. و«إذ» منصوبٌ على المفعولية عند كثيرٍ بمضمَرٍ خُوطِبَ به النبيُّ ﷺ، وتعليقُ الذِّكر بالوقت مع أنَّ المقصود تذكيرُ ما وَقَع فيه من الحوادث لِمَا مرَّ غير مرة، أي: اذكر لهم وقتَ قوله عليه السلام ﴿لِقَوْمِهِ﴾ الذين أمرناه بإخراجهم من الظلمات إلى النور: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ تعالى الجليلة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وبدأ عليه السلام بالترغيب؛ لأنَّه عند النفس أقبلُ، وهي إليه أَميَلُ، وقيل: بدأ بهذا الأمرِ لِمَا بينه وبينَ آخِرِ الكلام السابق من مَزيد الرَّبْط، ولا يخفى أنَّ هذا إنَّما هو على تقدير أنْ يكون عليه السلام مأموراً بالترغيب والترهيب، أمَّا إذا كان مأموراً بالترغيب فقط فلا سؤالَ.

والظرفُ متعلِّقٌ بنفس النعمة إنْ جُعِلَت مصدراً بمعنى الإنعام، أو بمحذوفٍ وَقَع حالاً منها إنْ جُعِلَت اسماً، أي: اذكروا إنعامَه عليكم أو نعمتَه كائنةً عليكم.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (شكر).

و«إذ» في قوله سبحانه: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ يجوز أنْ يتعلَّق بالنعمة أيضاً على تقدير جعلها مصدراً، أي: اذكروا إنعامَه عليكم وقتَ إنجائكم. ويجوز أنْ يتعلَّق بكلمة «عليكم» إذا كانت حالاً لا ظرفاً لغواً للنعمة؛ لأنَّ الظرف المستقرَّ لنيابته عن عامله يجوز أنْ يَعمل عملَه، أو هو على هذا معمولٌ لمتعلّقه، كأنَّه قيل: اذكروا نعمةَ الله تعالى مستقرَّةً عليكم وقتَ إنجائكم. ويجوزُ أنْ يكونَ بدلَ اشتمالٍ من «نعمةَ الله» مراداً بها الإنعامُ أو العطيةُ المنعَمُ بها.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي[١]: يبغونكم، من سَامَهُ خسفاً، إذا أَوْلاه ظلماً، وأَصلُ السَّوم كما قال الراغب: الذهابُ في طلب الشيء، فهو لفظٌ لمعنًى مركبٍ من الذهاب والطلب، فأُجرِي مُجرى الذهاب في قولهم: سامَت الإبلُ فهي سائمةٌ، ومجرى الطلب في قولهم: سمتُه كذا[٢].

﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ «يسومونكم» والسُّوء مصدرُ ساءَ يسوءُ، والمرادُ جنسُ العذاب السيِّئ، أو استعبادُهم واستعمالهم في الأعمال الشاقَّة والاستهانة بهم وغيرُ ذلك.

وفي «أنوار التنزيل»: أنَّ المرادَ بالعذاب ها هنا غيرُ المراد به في سورة البقرة والأعراف؛ لأنَّه مفسَّرٌ بالتذبيح والتقتيل ثَمَّ، ومعطوفٌ عليه التذبيحُ المفاد بقوله تعالى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ ها هنا[٣]. وفيه إشارةٌ إلى وجْهِ العطف وتركه مع أنَّ القصةَ واحدة، وحاصلُ ذلك أنَّه حيث طرح الواو قصدَ تفسيرَ العذاب وبيانه، فلم يعطف؛ لما بينهما من كمال الاتِّصال، وحيث عطف لم يقصد ذلك، والعذابُ إنْ كان المرادُ به الجنسَ، فالتذبيحُ لكونه أشدَّ أنواعه، عُطِفَ عليه عطْفَ جبريلَ على الملائكة عليهم السلام، تنبيهاً على أنَّه لشدَّته كأنَّه ليس من ذلك الجنس، وإنْ كان المراد به غيرَه كالاستعباد[٤]، فهما متغايران، والمحلُّ محلُّ العطف.

---

(١) قوله: أي، ليس في (م).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (سام).

(٣) تفسير البيضاوي ٥/ ٢٥٣.

(٤) في الأصل: كالاستبعاد، والمثبت من (م).

وقد جوَّز أهلُ المعاني أنْ يكونا بمعنًى في الجميع، وذُكِرَ الثاني للتفسير، وتَرْكُ العطف في السورتين ظاهرٌ، والعطفُ هنا لعدِّ التفسير ـ لكونه أوفى بالمراد وأظهرَ ـ بمنزلةِ المغاير، وهو وجهٌ حسنٌ أيضاً.

وسببُ هذا التذبيح أنَّ فرعون رأى في المنام أو قال له الكهنة: إنه سيُولَد لبني إسرائيل مَن يذهبُ بملكه، فاجتهدوا في ذلك فلم يُغْنِ عنهم من قضاء الله تعالى شيئاً.

وقرأ ابنُ محيصن: «ويَذْبَحون»[1] مضارع ذَبَحَ ثلاثيّاً. وقرأ زيدُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما كذلك إلا أنَّه حذف الواو[2].

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: يُبْقُونَهنَّ في الحياة مع الذُّلِّ، ولذلك عُدَّ من جملة البلاء، أو لأنَّ إبقاءَهُنَّ دون البنين رزيَّةٌ في نفسه، كما قيل:

ومِن أعظمِ الرُّزْءِ فيما أرَى بقاءُ البنات ومَوتُ البنينا[3]

والجُمَلُ أحوالٌ من «آل فرعون»، أو من ضمير المخاطَبين، أو منهما جميعاً؛ لأنَّ فيها ضميرَ كلٍّ منهما، ولا اختلاف في العامل؛ لأنَّه وإنْ كان في آل فرعون «مِن» في الظاهر، لكنَّه لفظ «أنجاكم» في الحقيقة، والاقتصار على الاحتمالَين الأوَّلَين هنا، وتجويز الثلاثةِ في سورة البقرة ـ كما فعل البيضاوي بيَّضَ الله تعالى غُرَّة أحواله ـ لا يظهر وَجْهُهُ.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ أي: فيما ذكرنا من الأفعال الفظيعة ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: ابتلاءٌ منه تعالى، لا أن[4] البلاءَ عينُ تلك الأفعال، اللهم إلا أنْ تجعلَ «في» تجريديَّة، فنسبتُه إلى الله تعالى إمَّا من حيث الخلقُ، وهو الظاهرُ، أو الإقدارُ والتمكين. ويجوز أنْ يكونَ المشارُ إليه الإنجاء من ذلك، والبلاء: الابتلاء بالنعمة، فإنَّه يكون بها كما يكون بالمحنة، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقال زهير:

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٥، والبحر المحيط ٥/ ٤٠٧.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٠٧.
(٣) ذكره الشهاب في حاشيته ٥/ ٢٥٣.
(٤) في الأصل: إلا أن، وفي (م): لأن، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ١٨٩ والكلام منه.

جَزَى اللهُ بالإحسان ما فَعَلا بكم فأبْلَاهما خيرَ البلاءِ الذي يَبْلُو[١]

وهو الأنسب بصدر الآية، ويُلوِّح إليه التعرُّض لوصف الربوبية، وعلى الأوَّل يكون ذلك باعتبار المآل الذي هو الإنجاء، أو باعتبار أنَّ بلاء المؤمن تربيةٌ له ونفعٌ في الحقيقة. ﴿عَظِيمٌ ۝٦﴾ لا يُطاقُ حملُه، أو عظيمُ الشأن جليلُ القدر.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ داخلٌ في مقول موسى عليه السلام لا كلامٌ مبتدأٌ، وهو معطوفٌ على نعمة الله، أي: اذكروا نعمةَ الله تعالى عليكم، واذكروا حينَ تأذَّن ربُّكم، أي: آذن إيذاناً بليغاً، وأَعلَمَ إعلاماً لا يبقى معه شُبهةٌ؛ لما في صيغة التفعُّل من معنى التكلُّف المحمول في حقِّه تعالى، لاستحالةِ حقيقته عليه سبحانه على غايته التي هي الكمال، وجوز عطفه على «إذ أنجاكم» أي: اذكروا نعمتَه تعالى في هذَين الوقتَين، فإنَّ هذا التأذُّن أيضاً نعمةٌ من الله تعالى عليهم لِمَا فيه من الترغيب والترهيب الباعثَين إلى ما ينالون به خيرَي الدنيا والآخرة. وفي قراءة ابن مسعود: «وإذْ قال ربُّكم»[٢].

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ ما خَوَّلْتُكم من نعمةِ الإنجاء من الإهلاك[٣] وغير ذلك، وقابلتموه بالإيمان أو بالثبات عليه أو الإخلاص فيه والعمل الصالح ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: نعمةً إلى نعمة، فإنَّ زيادةَ النعمة ظاهرةٌ في سَبْق نعمةٍ أُخرى. وقيل: يُفهَم ذلك أيضاً من لفظ الشكر، فإنَّه دالٌّ على سبق النعم، فليس الزيادةُ لمجرَّد الإحداث.

والظاهر ـ على ما قيل ـ أنَّ هذه الزيادة في الدنيا، وقيل: يحتمل أنْ تكونَ في الدنيا وفي الآخرة، وليس ببعيدٍ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لئن وحَّدتُم وأطعتُم لأزيدنَّكم في الثواب. وعن الحسن وسفيان الثوري أنَّ المعنى: لئن شكرتُم إنعامي لأزيدنَّكم من طاعتي. والكلُّ خلافُ الظاهر.

وذكر الإمام[٤] أنَّ حقيقةَ الشكر الاعترافُ بنعمة المُنعِم مع تعظيمه، وبيانُ زيادة

---

(١) والبيت في ديوانه ص١٠٩، وتقدم ١٠/ ٦٩.
(٢) ذكرها الطبري في تفسيره ١٢/ ٦٠١، وأبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٤٠٧.
(٣) في (م): إهلاك.
(٤) تفسير الرازي ١٩/ ٨٦.

النعم به أنَّ النِّعَمَ منها روحانيةٌ ومنها جسمانيةٌ، والشاكرُ يكون أبداً في مطالعة أقسامِ نِعَمِ الله تعالى وأنواعِ فضله وكرمه، وذلك يوجب تأكُّدَ محبة الله تعالى المُحسنِ عليه بذلك، ومقامُ المحبة أعلى مقامات الصديقين، ثم قد يَترقّى العبدُ من تلك الحالة إلى أنْ يكون حبُّه للمُنعِم شاغلاً له عن الالتفات إلى النعمة، وهذه أعلَى وأغلَى، فثبَتَ من هذا أنَّ الاشتغال بالشكر يُوجبُ زيادةَ النعم الروحانية، وكونُه موجباً لزيادة النعم الجسمانية فللاستقراء الدالِّ على أنَّ كلَّ مَن كان اشتغالُه بالشكر أكثر، كان وصولُ النعم إليه أكثر، وهو كما ترى.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ذلك وغمطتُموه ولم تشكروه كما تدلُّ عليه المقابلة، وقيل: المرادُ بالكفر ما يقابلُ الإيمان، كأنَّه قيل: ولئن أشركتُم ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ فعسى يُصيبكم منه ما يُصيبكم، ومن عادة الكرام غالباً التصريحُ بالوعد والتعريضُ بالوعيد، فما ظنُّك بأكرم الأكرمين، فلذا لم يقل سبحانه: إنَّ عذابي لكم، أو[1]: لأعذِّبنَّكم كما قال جلَّ وعلا: (لَأَزِيدَنَّكُمْ).

وجوِّز أنْ يكون المذكور تعليلاً للجواب المحذوف، أي: لأعذِّبنكم، وبيَّن الإمام وَجْهَ كون كفرانِ النِّعَمِ سبباً للعذاب أنَّه لا يحصلُ الكفرانُ إلا عند الجهل بكون تلك النعمةِ من عند[2] الله تعالى؛ والجاهلُ بذلك جاهلٌ بالله تعالى، والجهلُ به سبحانه من أعظم أنواع العذاب[3].

والآية مما اجتمع فيها القَسَمُ والشرط، فالجواب سادٌّ مسدَّ جوابيهما، والجملةُ إمَّا مفعول لـ «تأذَّنَ» لأنَّه ضَربٌ من القول، أو مفعولُ قولٍ مقدَّر منصوب على الحال سادٌّ معمولُه مسدَّه، أي: قائلاً: لئن شكرتم . . . إلخ، وهذان مذهبان مشهوران للكوفية والبصرية في أمثال ذلك.

واستدلَّ بالآية على أنَّ شكر المُنعمِ واجبٌ، وهو مما أجمعَ عليه السُّنِّيُّون والمعتزلةُ إلا أنَّ الأوَّلِينَ على وجوبه شرعاً، والآخِرينَ على وجوبه عقلاً، وهو

---

(١) ليس في (م).
(٢) قوله: عند، ليس في (م).
(٣) تفسير الرازي ١٩/ ٨٦.

مبنيٌّ على قولهم بالحُسن والقُبح العقليَّين، وقد هدَّ أركانَه أهلُ السنة، على أنَّه لو قيل به لم يكَدْ يتمُّ لهم الاستدلال بذلك في هذا المقام، كما بُيِّن في محلِّه.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لهم: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟﴾ نِعَمَه سبحانه ولم تشكروها ﴿أَنتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الناس، وقيل: من الخلائق ﴿جَمِيعًا﴾ لم يتضرَّر هو سبحانه، وإنَّما يتضرَّر من يكفُر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ﴾ عن شكركم وشكرهم ﴿حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ مستوجبٌ للحمد بذاته تعالى، لكثرة ما يُوجبه من أياديه وإنْ لم يحمَدْه أحدٌ، أو محمودٌ تحمَدُه الملائكةُ عليهم السلام، بل كلُّ ذرَّةٍ من ذرات العالم ناطقةٌ بحمده.

والحمدُ حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها من الفضائل كان أدلَّ على كماله جلَّ وعلا، وهو تعليلٌ لِمَا حُذف من جواب «إنْ تكفروا» كما أشرنا إليه.

ثم إنَّ موسى عليه السلام بعد أنْ ذكَّرهم أوَّلاً بنعمائه تعالى عليهم صريحاً، وضمَّنه بذكر ما أصابهم من الضراء، وأمرهم ثانياً بذكر ما جَرَى منه سبحانه من الوعد بالزيادة على الشكر والوعيدِ بالعذاب على الكفر، وحقَّق لهم مضمونَ ذلك، وحذَّرهم من عند نفسه عن الكفران ثالثاً لمَّا رأى منهم ما يوجبُ ذلك = شَرَع في الترهيب بتذكير ما جَرَى على الأمم الدارجة فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ليتدبَّروا ما أصاب كلَّ واحدٍ من حِزبَي المؤمن والكافر، فيتمَّ له عليه السلام مقصودُه منهم. وجوز أنْ يكون من تَتمَّة قوله عليه السلام: «إن تكفروا»... إلخ على أنَّه كالبيان لِمَا أُشير إليه في الجواب من عَود ضَرَر الكفران على الكافر دونَه عزَّ وجلَّ.

وقيل: هو من كلامه تعالى جيء تَتمَّةً لقوله سبحانه: (لَئِن شَكَرْتُمْ)... إلخ، وبياناً لشدَّة عذابه، ونَقلُ كلام موسى عليه السلام مُعترِضٌ في البين، وهو كما ترى.

وقيل: هو ابتداءُ كلامٍ منه تعالى مخاطباً به أمة محمد ﷺ بعدَ ما ذكر إرسالَه عليه الصلاة والسلام بالقرآن، وقصَّ عليهم من قصص موسى عليه الصلاة والسلام مع أمته، ولعلَّ تخصيصَ تذكيرهم بما أصاب أولئك المعدودين مع قُرب غيرِهم إليهم للإشارة إلى أنَّ إهلاكَه تعالى الظالمين ونَصْرَه المؤمنين عادةٌ قديمة له سبحانه وتعالى، ومن الناس من استبعد ذلك.

﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾ بدلٌ من الموصول أو عطفُ بيان ﴿وَعَادٖ﴾ معطوفٌ على «قوم نوح» ﴿وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: من بعد هؤلاء المذكورين، عطف على «قومِ نوح» وما عطف عليه، وقوله تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ اعتراضٌ، أو الموصول مبتدأ، وهذه الجملة خبرُه، وجملةُ المبتدأ وخبرِه اعتراضٌ، والمعنى على الوجهين أنَّهم(١) من الكثرة بحيث لا يَعلمُ عددَهم إلا الله تعالى.

ومعنى الاعتراض على الأول: أَلَم يأتِكم أنباءُ الجمِّ الغفير الذي لا يُحصَى كثرةً فتعتبروا بها أنَّ في ذلك لمعتبراً(٢). وعلى الثاني: هو تَرَقٍّ، ومعناه: أَلَم يأتِكم نبأُ هؤلاء ومن لا يُحصَى عددهم، كأنَّه يقول: دع التفصيلَ، فإنَّه لا مطمع في الحصر، وفيه لطفٌ لإيهام الجميع بين الإجمال والتفصيل، ولذا جعَلَه الزمخشريُّ أولَ الوجهَين(٣)، وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: بين عدنان وإسماعيلَ عليه السلام ثلاثونَ أباً لا يُعرَفون(٤)، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه إذا قرأ هذه الآية قال: كذَبَ النسَّابون(٥). يعني أنَّهم يَدَّعون علم الأنساب، وقد نَفَى الله تعالى علمها عن العباد = أظهرُ فيه على ما قيل.

ومن هنا يعلم أنَّ ترجيحَ الطيبي الوجْهَ الأوَّل بما رجَّحه به ليس في محلِّه.

واعترض أبو حيان القولَ بالاعتراض بأنَّه لا يكونُ إلا بين جُزأين يَطلبُ أحدهما الآخر(٦)، وما ذكر ليس كذلك، ومنع بأنَّ بين المعترض بينهما ارتباطاً يطلبُ به أحدُهما الآخر، لأنَّه يجوز أنْ تكونَ الجملة الآتية حالاً بتقدير «قد» والاعتراضُ يقع بين الحال وصاحبها، فليس ما ذُكر مخالفاً لكلام النحاة، ولو سلّم أنَّها ليسَت بحاليَّةٍ فما ذكروه هنا على مصطلح أهلِ المعاني، وهم لا يشترطون الشرط المذكور، حتى جوَّزوا أنْ يكون الاعتراضُ في آخر الكلام،

---

(١) في حاشية (م): إلا أن مرجع الضمير في أنهم مختلف.

(٢) في الأصل: لمعتبر.

(٣) قوله: أول الوجهين، ساقط من الأصل، وأثبتناه من (م)، وينظر الكشاف ٢/ ٣٦٨.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٧٢.

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٤.

(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٠٨.

كما صرَّح به ابنُ هشام في «المغني»[(١)]، مع أنَّ الجملةَ الآتيةَ مُفسِّرة لما في الجملة الأولى، فهي مرتبطةٌ بها معنًى، واشتراطُ الارتباط الإعرابي عند النحاة غيرُ مسلَّم أيضاً، فتأمَّل.

وجعل أبو البقاء جملة «لا يعلمهم إلا الله» - على تقدير عطفِ الموصولِ على ما قبلُ - حالاً من الضمير في «من بعدهم»، وجوّز الاستئناف، ولعلَّه أرادَ بذلك الضمير المستقر في الجارِّ والمجرور لا الضمير المجرور بالإضافة، لفقد شرط مجيء الحال منه، وجوّز على تقدير كونِ الموصول مبتدأ كونَ تلك الجملة خبراً، وكونَها حالاً والخبر قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾[(٢)]. والكثيرُ على أنَّه[(٣)] استئناف لبيان نبئهم.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الظاهرة، فبيَّن كلُّ رسولٍ منهم لأمته طريقَ الحقِّ وهداهم إليه، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقَت به ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أي: على زعمكم، وهي البيِّنات التي أظهروها حُجَّةً على صحَّة رسالتهم.

ومرادُهم بالكفر بها الكفرُ بدلالتها على صحة رسالتهم، أو الكتب والشرائع. وحاصلُه أنهم أشاروا إلى جوابهم هذا كأنَّهم قالوا: هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيرُه إقناطاً لهم من التصديق، وهذا كما يقع في كلام المخاطَبين أنَّهم يُشيرون إلى أنَّ هذا هو الجواب ثم يُقرِّرونه، أو يقرِّرونه ثم يُشيرون بأيديهم إلى أنَّ هذا هو الجواب، فضمير «أيديهم» و«أفواههم» إلى الكفار. والأيدي على حقيقتها، والردُّ مجازٌ عن الإشارة، وهي تحتمل المقارنةَ والتقدُّم والتأخُّر.

وقال أبو صالح: المراد أنَّهم وضَعوا أيديَهم على أفواههم مُشيرين بذلك للرسل عليهم السلام أنْ يكفُّوا ويَسكُتُوا عن كلامهم[(٤)]. كأنَّهم قالوا: اسكُتوا فلا ينفعكم الإكثار ونحن مُصرُّون على الكفر لا نُقلع عنه:

---

(١) ص ٥٢١.
(٢) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٩٥ بنحوه.
(٣) في الأصل: أنها، والمثبت من (م).
(٤) قوله: أن يكفوا ويسكتوا عن كلامهم، ليس في الأصل، وأثبتناه من (م).

فكم أنا لا أصغي وأنت تُطيل[(١)]

فالضميران للكفار أيضاً وسائرُ ما في النظم على حقيقته.

وأخرج ابنُ المنذر والطبرانيُّ والحاكم ـ وصحَّحه ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنَّ المراد أنَّهم عضُّوا أيديَهم غيظاً[(٢)]، من شدَّة نَفْرتهم من رؤية الرسل وسماع كلامهم، فالضميران أيضاً كما تقدَّم، واليدُ والفمُ على حقيقتهما، والردُّ كنايةٌ عن العضِّ، ولا يُنافي الحقيقةَ كونُ المعضوضِ الأناملَ كما في قوله تعالى: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران:١١٩] فإنَّ مَن عضَّ موضعاً من[(٣)] اليد، يقال حقيقةً: إنَّه عضَّ اليد، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ المراد أنَّهم وضعوا أيديَهم على أفواههم تعجُّباً مما جاء به الرسل عليه السلام، وهذا كما يضعُ من غلبه الضحك يدَه على فِيْهِ، فالضميران وسائر ما في النظم كما في القول الثاني.

وجوز أنْ يرجعَ الضمير في «أيديهم» إلى الكفار، وفي «أفواههم» إلى الرسل عليهم السلام، وفيه احتمالان:

الأوَّلُ: أنَّهم أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل عليهم السلام أن اسكُتوا.

والآخر: أنَّهم وضعوا أيديَهم على أفواه الرسل عليهم السلام منعاً لهم من الكلام. ورُوي هذا عن الحسن. والكلامُ يحتمل أنْ يكونَ حقيقةً، ويحتمل أنْ يكونَ استعارةً تمثيليَّةً بأنْ يُراد بردِّ أيدي القوم إلى أفواه الرسل عليهم السلام عدمُ قبول كلامهم واستماعه مشبَّهاً بوضع اليد على فم المتكلِّم لإسكاته.

وظاهر ما في «البحر» يقتضي أنَّه حقيقةٌ حيث قال: إنَّ ذلك أبلغُ في الردِّ وأذهبُ في الاستطالة على الرسل عليهم السلام والنَّيل منهم، وأنْ يكونَ الضميرُ في «أيديهم» للكفار، وضمير «أفواههم» للرسل عليهم السلام[(٤)].

---

(١) عجز بيت لبهاء الدين زهير، وهو في ديوانه ص٢٧٩، وصدره:

ويا عاذلي في لوعتي لست سامعاً

(٢) المعجم الكبير (٩١١٩)، والمستدرك ٢/٣٥١، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٣/ ٧٢.

(٣) في الأصل: في، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٥٥.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٠٨.

والأيدي، جمع: يد، بمعنى النعمة، أي: رَدُّوا نِعَمَ الرسل عليهم السلام التي هي أجلُّ النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أُوحيَ إليهم من الشرائع والأحكام في أفواههم، ويكون ذلك مَثَلاً لردِّها وتكذيبها بأنْ يُشبَّه ردَّ الكفار ذلك بردِّ الكلام الخارج من الفم، فقيل: رَدُّوا أيديَهم، أي: مواعظهم في أفواههم، والمرادُ عدمُ قبولها.

وقيل: المرادُ بالأيدي النعم، والضميرُ الأوَّل للرسل عليهم السلام أيضاً لكنَّ الضميرَ الثاني للكفار على معنى: كذَّبوا ما جاؤوا به بأفواههم، أي: تكذيباً لا مستندَ له.

و«في» بمعنى الباء، وقد أثبتَ الفرَّاء مجيئها بمعناها، وأنشدَ:

وأرغبُ فيها عن لقيطٍ ورَهْطِهِ ولكنَّني عن سِنْبِسٍ لستُ أرغبُ[1]

وضُعِّفَ حمل الأيدي على النعم بأنَّ مجيئها بمعنى ذلك قليلٌ في الاستعمال حتى أنكره بعضُ أهل اللغة، وإنْ كان الصحيحُ خلافه، والمعروف في ذلك الأيادي كما في قوله:

سأشكرُ عَمراً إنْ تراخَتْ مَنيَّتي أياديَ لم تُمنَنْ وإنْ هي جَلَّتِ[2]

وبأنَّ الردَّ والأفواه يُناسب إرادةَ الجارحة، وقال أبو عبيدة: الضميران للكفار، والكلامُ ضربُ مَثَلٍ، أي: لم يؤمنوا ولم يُجيبوا، والعربُ تقول للرجل إذا سكَتَ عن الجواب وأمسك: ردَّ يدَه في فِيْهِ[3]، ومثله عن الأخفش[4].

وتعقَّبه القُتَبيُّ: بأنَّا لم نَسمَع أحداً من العرب يقول: ردَّ فلانٌ يدَه في فِيْهِ: إذا سكَتَ وتَرَكَ ما أُمِرَ به[5]. وفيه أنَّهما سمعا ذلك، ومَن سَمِعَ حُجَّةٌ على مَن لم يسمع.

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٧٠، والبيت دون نسبة في تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٨، وزاد المسير ٤/ ٣٤٨، ولسان العرب: (ذرا)، وجاء في هامش (م): يعني بنتاً له، ولقيط: اسم رجل، ورهطه: قبيلته، وسنبس: قبيلة أيضاً.

(٢) البيت نُسب لعبد الله بن الزبير في الأغاني ١٤/ ٢٢٣، وخزانة الأدب ٢/ ٢٦٥، ولأبي الأسود الدؤلي في اللآلي في شرح أمالي القالي ١/ ١٦٦.

(٣) مجاز القرآن ١/ ٣٣٦، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

(٤) كما في البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

(٥) غريب القرآن ص٢٣٠ - ٢٣١، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

قال أبو حيان[1]: وعلى ما ذكراه يكونُ ذلك من مجاز التمثيل، كأنَّ المُمسِك عن الجواب الساكِتَ عنه وَضَع يده على فِيْهِ. وردَّه الطبريُّ[2] بأنَّهم قد أجابوا بالتكذيب؛ لأنَّهم قالوا: «إنَّا كفرنا» إلى آخره. وأُجيبَ بأنَّه يحتمل أنْ يكون مرادُ القائل أنَّهم أمسكوا وسكتوا عن الجواب المرضي الذي يَقتَضيه مَجيء الرسل عليهم السلام إليهم بالبيِّنات، وهو الاعتراف والتصديق.

وقال ابنُ عطية: الضميران للكفار، ويحتمل أنْ يُتجوَّزَ بـ «الأيدي» ويُراد منها ما يشمل أنواعَ المدافعة، والمعنى: ردُّوا جميعَ مدافعتهم في أفواههم، أي: إلى ما قالوا بأفواههم من التكذيب، وحاصلُه أنَّهم لم يجدوا ما يدفعون به كلام الرسل عليهم السلام سوى التكذيبِ المحضِ، وعبَّر عن جميع المدافعةِ بـ «الأيدي» إذ هي موضعُ أشدِّ المدافعة والمُرادَّة[3].

وقيل: المرادُ أنَّهم جعلوا أيديَهم في محلِّ ألسنتهم على معنى أنَّهم آذَوا الرسل عليهم السلام بألسنتهم نحو الإيذاء بالأيدي، والذي يُطابق المقامَ وتشهد[4] له بلاغةُ التنزيل هو الوجه الأول، ونصَّ غيرُ واحدٍ على أنَّه الوجهُ القويُّ؛ لأنَّهم لمَّا حاولوا الإنكار على الرسل عليهم السلام كلَّ الإنكار جَمَعُوا في الإنكار بين الفعل والقول، ولذا أتَى بالفاء تنبيهاً على أنَّهم لم يمهلوا بل عقَّبوا دعوتَهم بالتكذيب وصدَّروا الجملة بـ «إنَّ»، ويَلي ذلك على ما في «الكشف» الوجهُ الثاني، ولا يخفَى ما في أكثر الوجوه الباقية، فتأمَّل.

﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾ عظيمٍ ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ من الإيمان والتوحيد، وبهذا وتفسير «ما أرسلتم به» بما ذكر أولاً يندفعُ ما يُتوهَّم من المنافاة بين جزمهم بالكفر وشكِّهم هذا.

وقيل في دفع ذلك على تقدير كونِ متعلَّقَي الكفر والشَّكِّ واحداً: إنَّ الواوَ بمعنى «أو»، أي: أحدُ الأمرين لازمٌ، وهو أنَّا كفرنا جزماً بما أرسلتُم به، فإنْ لم

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦ ونحوه.

(٤) في الأصل: ويسهد، والمثبت من (م).

نجزم فلا أقلَّ من أنْ نكونَ شاكِّين فيه؛ وأيًّا ما كان فلا سبيل إلى الإقرار والتصديق.

وقيل: إنَّ الكفر عدمُ الإيمان عمَّن هو من شأنه، فـ «كفرنا» بمعنى: لم نصدِّق، وبذلك فسَّره ابنُ عباس رضي الله عنهما، وذلك لا ينافي الشكَّ.

وفي «البحر» أنَّهم بادروا أولاً إلى الكفر، وهو التكذيب المحض، ثم أخبروا أنَّهم في شكٍّ، وهو التردُّد، كأنَّهم نظروا بعضَ نظر اقتضَى أن انتقلوا من التكذيب المحض إلى التردُّد، أو هما قولان من طائفتَين؛ طائفة بادَرَت بالتكذيب والكفر، وأُخرى شكَّت، والشكُّ في مثل ما جاءت به الرسل عليهم السلام كفرٌ[1]. وهذا أَوْلَى من قرينه.

وقرأ طلحة: «مما تَدْعونَّا»[2] بإدغام نون الرفع في نون الضمير، كما تُدغم في نون الوقاية في نحو: ﴿أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي﴾ [الأنعام: ٨٠].

﴿مُرِيبٍ ۝٩﴾ أي: مُوقِع في الريبة، مِن أرابني، بمعنى: أَوقَعَني في ريبة، أَوْ: ذي ريبة، مِنْ أَراب؛ صارَ ذا ريبة، وهي: قَلَقُ النفس وعدمُ اطمئنانها بالشيء، وهو صفة توكيدية.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ ينساقُ إليه المقامُ، كأنَّه قيل: فماذا قالت لهم رسلُهم حين قابلوهم بما قابلوهم به؟ فأُجيبَ بأنَّهم قالوا مُنكرينَ عليهم ومتعجِّبين من مقالتهم الحمقاء: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾! بتقديم الظرف وإدخالِ الهمزة عليه؛ للإيذان بأنَّ مدارَ الإنكار ليس نفسَ الشكِّ بل وقوعه فيمَن لا يكاد يُتوهَّم فيه الشكُّ أصلاً، ولولا هذا القصدُ لجاز تقديم المبتدأ، والقولُ بأنَّه ليس كذلك خطأٌ؛ لأنَّ وقوعَ النكرة بعد الاستفهام مسوِّغٌ للابتداء بها، وهو ممَّا لا شكَّ فيه، وكونُ ذلك المؤخَّرِ مبتدأً غيرُ متعيِّن، بل الأرجحُ كونه فاعلاً بالظرف المعتمد على الاستفهام كما ستعلمه[3] إن شاء الله تعالى.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٧، والبحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

(٣) في (م): ستعلم.

والكلامُ على تقدير مضافٍ على ما قيل، أي: أفي وحدانيةِ الله تعالى شكٌّ، بناءً على أنَّ المرسَل إليهم لم يكونوا دهريَّةً مُنكرين للصانع، بل كانوا عَبَدَةَ أصنام. وقيل: يُقدَّر: أفي[١] شأن الله، ليعمَّ الوجودَ والوحدةَ؛ لأنَّ فيهم دهريةً ومشركين. وقيل: يُقدَّر حسب المخاطَبين، وتقديرُ الشأن مطلقاً ذو شأن.

وفي عدم تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأنْ يقولوا: أأنتم في شكٍّ مريبٍ من الله تعالى = مبالغةٌ في تنزيه ساحة الجلال عن شائبة الشكِّ، وتسجيلٌ عليهم بسخافة العقول، أي: أفي شأن الله ـ تعالى شأنه ـ من وجودِه ووحدتِهِ ووجوبِ الإيمان به وحده شكٌّ ما، وهو أظهرُ من كلِّ ظاهر وأَجلَى من كلِّ جَليٍّ، حتى تكونوا من قِبله سبحانه في شكٍّ عظيمٍ مُريب، وحيث كان مقصدُهم الأقصى الدعوةَ إلى الإيمان والتوحيد، وكان إظهارُ البيِّنات وسيلةً إلى ذلك لم يتعرَّضوا للجواب عن قولهم: «إنَّا كفرنا» إلى آخره، واقتصروا على بيان ما هو الغايةُ القصوى، وقد يقال: إنَّهم عليهم السلام قد اقتصروا على إنكار ما ذُكر؛ لأنَّه يُعلَم منه إنكارُ وقوعِ الجزم بالكفر به سبحانه من باب أولَى.

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مبدعهما وما فيهما من المصنوعات على نظامٍ أنيقٍ شاهدٍ بتحقُّق ما أنتم في شكٍّ منه. وفي الآية ـ كما قيل ـ إشارةٌ إلى دليلِ التمانع.

وجرُّ «فاطر» على أنَّه بدلٌ من الاسم الجليل، أو صفةٌ له. وحيث كان «شكٌّ» فاعلاً بالظرف وهو كالجزء من عامله لا يُعَدُّ أجنبيّاً، فليس هناك فصلٌ بين التابع والمتبوع بأجنبيٍّ وبهذا رُجِّحَت الفاعليةُ على المبتدئية؛ لأنَّ المبتدأ ليس كذلك. نعم إلى الابتدائية ذهب أبو حيان[٢]، وقال: إنَّه لا يضرُّ الفصل بين الموصوف وصفتِهِ بمثل هذا المبتدأ، فيجوز أنْ تقول: في الدار زيدٌ الحسنةِ، وإنْ كان أصل التركيب: في الدار الحسنةِ زيدٌ.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «فاطرَ»[٣] نصباً على المدح.

---

(١) في (م): في.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.
(٣) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

ثم إنه بعد أنْ أُشيرَ إلى الدليل الدالِّ على تحقُّق ما هم في شكٍّ منه، نبَّه على عِظَمِ كرمه ورحمتِهِ تعالى فقيل: ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ أي: إلى الإيمان بإرساله إيّانا لا أنّا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا، كما يُوهم قولكم: «مما تدعوننا إليه». ﴿لِيَغۡفِرَ لَكُم﴾ بسببه، فالمدعو إليه غيرُ المغفرة. وتقديرُ الإيمان لقرينة ما سبق. ويحتمل أنْ يكونَ المدعو إليه المغفرةَ، لا لأنَّ اللام بمعنى «إلى»، فإنَّه من ضِيقِ العَطَن[1]، بل لأنَّ معنى الاختصاص ومعنى الانتهاء كلاهما واقعان في حاقِّ[2] الموقع، فكأنَّه قيل: يدعوكم إلى المغفرة لأجلها لا لغرض آخر. وحقيقتُه أنَّ الأغراضَ غاياتٌ مقصودةٌ تُفيدُ معنى الانتهاء وزيادة، قاله في «الكشف»، وهذا نظيرُ قوله:

دعوتُ لِمَا نابني مِسْوَراً فلبَّى فلبَّيْ يَدَيْ مِسْوَرِ[3]

﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ أي: بعضها، وهو ما عدا المظالم وحقوقِ العباد على ما قيل، وهو مبنيٌّ على أنَّ الإسلام إنما يرفعُ ما هو من حقوق الله تعالى الخالصة له دون غيره، والذي صحَّحه المحدِّثون في شرح ما صحَّ من قوله ﷺ: «إنَّ الإسلامَ يَهدِمُ ما قبلَه»[4] أنَّه يرفع ما قبلَه مطلقاً حتى المظالم وحقوق العباد، وأيّد ذلك بظاهر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [الصف: ١٢] بدون «مِن»، ومِن هنا ذَهَب أبو عبيدة[5] والأخفش[6] إلى زيادة «مِن» فيما هي فيه، وجمهورُ البصريين لا يجوِّزون زيادتها في الموجب، ولا إذا جَرت المعرفة كما هنا، فلا يتأتّى التوفيقُ بذلك بين الآيتَين، وجعَلَها الزجَّاج للبيان، ويحصل به التوفيق.

---

(١) يضرب المثل في المنع وضيق الخُلُق، فيقال: فلان ضيِّق العَطَن، والعطن: موضع مَبَارِك الإبل حول الماء. فصل المقال ص٤٣١.

(٢) الحاقُّ: الوسط. وحاقُّ كلِّ شيء: وسطه.

(٣) الكتاب ١/ ٣٥٢، وسر صناعة الإعراب ٢/ ٧٤٧، والمغني ص٧٥٣، وخزانة الأدب ٢/ ٩٣، قال البغدادي: هذا البيت من الأبيات الخمسين التي لا يعرف لها قائل. ونسبه السيوطي في شرح شواهد المغني ٢/ ٩١٠ لأعرابي من بني أسد.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٧٨٢٧)، ومسلم (١٢١) عن عمرو بن العاص ﷺ، ولفظ أحمد: «يَجبُّ»، بدل: «يهدم».

(٥) مجاز القرآن ١/ ٣٣٦.

(٦) ينظر معاني القرآن ١/ ٢٧٢ - ٢٧٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٠٩، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٥٧.

وقيل: هي للبدل، أي: ليغفر لكم بدل ذنوبكم، ونُسب للواحدي.

وجوِّز أيضاً أنْ تكون للتبعيض ويُراد من البعض الجميع توسُّعاً.

وردَّ الإمام[1] الأول بأنَّ «مِن» لا تأتي للبدل، والثاني بأنَّه عين ما نُقل عن أبي عُبيدة والأخفش، وهو منكرٌ عند سيبويه والجمهور، وفيه نظر ظاهر، ولو قال: إنَّ استعمال البعض في الجميع مسلَّم، وأمَّا استعمال «مِن» التبعيضية في ذلك فغيرُ مسلَّمٍ، لكان أولَى.

وفي «البحر»: يصحُّ التبعيضُ، ويُراد بالبعض ما كان قبلَ الإسلام، وذلك لا يُنافي الحديث، وتكونُ الآية وعداً بغفران ما تقدَّم لا بغفران ما يستأنف، ويكون ذاك مسكوتاً عنه باقياً تحت المشيئة في الآية والحديث[2].

ونُقل عن الأصمِّ القول بالتبعيض أيضاً على معنى: إنَّكم إذا آمنتُم يَغفر لكم الذنوب التي هي الكبائر، وأمَّا الصغائر فلا حاجةَ إلى غفرانها؛ لأنَّها في نفسها مغفورةٌ.

واستَطْيَبَ ذلك الطيبي قال: والذي يقتضيه المقامُ هذا؛ لأنَّ الدعوةَ عامةٌ لقوله سبحانه: (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ) كأنَّه قيل: أيُّها الشاكُّون الملوَّثون بأوضار الشركِ والمعاصي إنَّ الله تعالى يدعوكم إلى الإيمان والتوحيد ليطهركم من أجناس[3] أنجاسِ الذنوب، فلا وجْهَ للتخصيص، أي: بحقوق الله تعالى الخالصة له، وقد ورد: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. و«ما» للعموم سيَّما في الشرط، ومقامُ الكافر عند ترغيبه في الإسلام بسطٌ لا قبضٌ، والكفار إذا أسلموا إنَّما اهتمامُهم في الشرك ونحوه لا في الصغائر، ويُؤيِّده ما روي أنَّ أهل مكة قالوا: يزعم محمدٌ أنَّ مَن عبد الأوثان وقتَل النفس التي حرَّم الله تعالى لم يُغفر له، فكيف ولم نهاجِر وعبدنا الأوثان وقتلنا النفس التي حرَّم الله تعالى؟! فنزلت: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٩٤.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٠٩.

(٣) في (م): أخباث.

﴿أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾[١] الآية [الزمر:٥٣]، وقصةُ وَحْشِيٍّ مشهورةٌ[٢]، وجرح ذلك القاضي، فقال: إنَّ الأصمَّ قد أبعدَ في هذا التأويل؛ لأنَّ الكفار صغائرهم ككبائرهم في أنَّها لا تغفر، وإنَّما تكون الصغيرةُ مغفورةً من الموحِّدين من حيث إنهم يزيد ثوابهم على عقابها، وأمَّا مَن لا ثوابَ له أصلاً فلا يكون شيءٌ من ذنوبِهِ صغيراً، ولا يكون شيءٌ منها مغفوراً، ثم قال: وفي ذلك وجهٌ آخر، وهو أنَّ الكافر قد يَنسَى بعضَ ذنوبه في حال توبته وإيمانه، فلا يكون المغفور إلا ما ذكره وتاب منه. اهـ.

ولو سمع الأصمُّ هذا التوجيه لأخذ ثأرَه من القاضي، فإنَّه لَعمري توجيهٌ غيرُ وجيهٍ؛ ولو أنَّ أحداً سخَّم وجهَ القاضي لسخَّمتُ وجهَه.

وقال الزمخشري: إنَّ الاستقراء في الكافرين أنْ يأتي «من ذنوبكم»، وفي المؤمنين «ذنوبكم» وكان ذلك للتفرقة بين الخطابَين، ولئلا يُسوَّى في الميعاد بين الفريقَين[٣].

وحاصلُه على ما في «الكشف» أن ليس مغفرة بعضِ الذنوب للدلالة على أنَّ بعضاً آخر لا يُغفر، فإنَّه من قبيل دلالة مفهوم اللقب، ولا اعتداد به، كيف وللتخصيص فائدةٌ أخرى هي التفرقة بين الخطابَين بالتصريح بمغفرة الكلِّ، وإبقاءُ البعض في حقِّ الكفرة مسكوتاً عنه لئلا يتَّكلوا على الإيمان. وفيه أيضاً أنَّ هذا معنىً حسنٌ لا تكلُّفَ فيه.

واعترض ابنُ الكمال بأنَّ حديث التفرقة إنَّما يتم لو لم يجئ خطابٌ على العموم، وقد جاء كذلك في سورة الأنفال في قوله سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الآية:٣٨]. وأُجيبَ بأنَّ هذا غيرُ وارد، إذ المرادُ التفرقةُ فيما ذكر فيه صيغة: «ويغفر ذنوبكم» لا مطلقُ ما كان بمعناه، ولذا أسنَدَ الأمرَ إلى الاستقراء، ومثلُ الزمخشري لا يخفى عليه ما أُورد، ولا يلزم رعاية هذه النكتةِ في جميع المواد.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٢٤، وذكره الواحدي في أسباب ص٣٨٩، عن ابن عباس رضي الله عنه.
(٢) أخرجها الطبراني في المعجم الكبير ١١/ ١٩٧، والبيهقي في شعب الإيمان (٧١٤٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) الكشاف ٢/ ٣٦٩.

وذكر البيضاوي في وجه التفرقة بين الخطابَين ما حاصلُه: لعلَّ المعنى في ذلك أنَّها لما ترتَّبَت المغفرةُ في خطاب الكفرة على الإيمان، لَزِم فيه «مِن» التبعيضية لإخراج المظالم؛ لأنَّها غيرُ مغفورةٍ، وأمَّا في خطاب المؤمنين فلما ترتَّبَت على الطاعة واجتناب المعاصي التي من جملتها المظالم، لَمْ يحتَجْ إلى «مِن» لإخراجها؛ لأنَّها خرجَت بما رُتِّبَت عليه[1]. وهو مبنيٌّ على خلاف ما صحَّحه المحدِّثون، ويُنافيه ما ذكره في تفسير «مِن ذنوبكم» في سورة نوح عليه السلام؛ ومع ذا أُورد عليه قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٢-٤] حيث ذُكرت «من» مع ترتيب المغفرةِ على الطاعة واجتناب المعاصي الذي أفاده «اتقوا»، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ الآية [الصف: ١٠] لعدم ذكر«من» مع ترتُّبها على الإيمان.

والجواب بأنَّه لا ضيرَ، إذ يكفي ترتُّب[2] ذلك على الإيمان في بعض المواد، فيحمل مثله على أنَّ القصد إلى ترتيبه عليه وحدَه بقرينة ذلك البعض، وما ذكر معه يحمل على الأمر به بعد الإيمان أدنَى من أنْ يقال فيه: ليس بشيء، وبالجملة توجيهُ الزمخشريِّ أوجهُ مما ذكره البيضاوي، فتأمَّل وتذكَّر.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقتٍ سمَّاه الله تعالى وجعلَه منتهى أعماركم على تقدير الإيمان ولا يعاجلكم بعذاب الاستئصال، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يُمتِّعكم في الدنيا باللذَّات والطَّيِّبات إلى الموت، ولا يلزم مما ذكر القولُ بتعدُّد الأجل كما يزعمه المعتزلة، وقد مرَّ تحقيقُ ذلك[3].

﴿قَالُوٓا۟﴾ استئنافٌ كما سبق آنفاً ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ من غير فضل يُؤهِّلكم لما تَدَّعُون من الرسالة، والزمخشريُّ تهالك في مذهبه حتى اعتقد أنَّ الكفار كانوا يعتقدون تفضيلَ المَلَك[4].

---

(١) تفسير البيضاوي ٥/ ٢٥٧، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٥٧.

(٢) في(م): ترتيب.

(٣) ٥/ ٢٩ وما بعدها.

(٤) الانتصاف ٢/ ٣٦٩ - ٣٧٠.

﴿تُرِيدُونَ﴾ صفةٌ ثانية لـ «بشر» حملاً على المعنى كقوله تعالى: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن:٦] أو كلامٌ مستأنفٌ، أي: تريدون بما أنتم عليه من الدعوة والإرشاد ﴿أَن تَصُدُّونَا﴾ بما تدعونا إليه من التوحيد وتخصيص العبادة بالله تعالى ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ عمَّا استمرَّ على عبادته آباؤنا من غير شيءٍ يوجبه.

وقرأ طلحة: «أن تصدونّا» بتشديد النون[1]، وخُرِّج على جَعْل «أنْ» مخفَّفةً من الثقيلة وتقدير فاصل بينها وبين الفعل، أي: أنَّه قد تصدونا، وقد جاء مثل ذلك في قوله:

علموا أنْ يؤمَّلونَ فجادوا قبلَ أنْ يُسألوا بأعظمِ سُؤْلِ[2]

والأَولَى أنْ يُخرَّج على أنَّ «أنْ» هي الثنائيَّة التي تنصب المضارع، لكنَّها لم تعمل، كما قيل في قوله تعالى: «لمن أراد أن يتمُّ الرضاعة» [البقرة:٢٣٣] في قراءة الرفع[3]، حملاً لها على أُختها «ما» المصدرية، كما عملت «ما» حملاً عليها فيما ذكره بعضهم في قوله:

أَنْ تقرآنِ على أسماءَ وَيْحَكُما منِّي السلام وأنْ لا تُشعرا أحداً[4]

﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝﴾ أي: إنْ لم يكن الأمرُ كما قلنا بل كنتم رسلاً من قِبَلِهِ تعالى كما تدَّعون، فأتونا بما يدلُّ على صحة ما تدَّعونه من الرسالة حتى نتركَ ما لم نَزَل نعبدُه أباً عن جدٍّ، أو على فضلكم واستحقاقكم لتلك المرتبة.

قال ابن عطية[5]: إنَّهم استبعدوا إرسال البشر فأرادوا حُجَّة عليه، وقيل: بل إنَّهم اعتقدوا مُحاليَّته وذهبوا مذهبَ البراهمة[6]، وطلبوا الحُجَّة على جهة التعجيز، أي: بعثُكم محالٌ وإلا فأتوا بسلطانٍ مبين، أي: إنَّكم لا تفعلون ذلك أبداً. وهو

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤١٠.

(٢) شرح ابن عقيل ١/ ٣٨٨، وأوضح المسالك ص١٨٧، وشرح قطر الندى ص٢٦١.

(٣) البحر المحيط ٢/ ٢١٣، وشرح المفصل ٨/ ١٤٣، ونسباها لمجاهد.

(٤) الخصائص ١/ ٣٩٠، ومغني اللبيب ص٤٦، وشرح شواهد المغني للسيوطي ١/ ١٠٠، وخزانة الأدب ٨/ ٤٢٠.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٨.

(٦) البراهمة: قبيلة بالهند من ولد برهمي ملك من ملوكهم القدماء، ولهم علامة ينفردون بها وهي خيوط ملونة بحمرة وصفرة، وهم يقولون بالتوحيد على نحو قولنا إلا أنهم أنكروا النبواتِ. الفِصَل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١/ ٦٩.

خلافُ الظاهر. وهذا الطلبُ كان بعد إتيانهم عليهم السلام لهم من الآيات الظاهرة والبينات الباهرة ما تخرُّ له الجبال الصمُّ، أقدمَهم عليه العنادُ والمكابرة.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجاراةً لأوّل مقالتهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما تقولون وهذا كالقول بالموجب؛ لأنَّ فيه إطماعاً في الموافقة، ثم كرًّا إلى جانبهم بالإبطال بقولهم عليهم السلام: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: إنما اختصَّنا الله تعالى بالرسالة بفضلٍ منه سبحانه وامتنانٍ، والبشرية غيرُ مانعةٍ لمشيئته جلَّ وعلا، وفيه دليلٌ على أنَّ الرسالة عطائيةٌ وأنَّ ترجيحَ بعض الجائزات على بعضٍ بمشيئته تعالى، ولا يخفى ما في العدول عن: ولكنَّ الله منَّ علينا، إلى ما في النظم الجليل من التواضع منهم عليهم السلام.

وقيل: المعنى: ما نحن من الملائكة بل نحن بشرٌ مثلُكم في الصورة أو في الدخول تحت الجنس، ولكنَّ الله تعالى يَمنُّ على مَن يشاء بالفضائل والكمالات والاستعدادت التي يدور عليها فلكُ الاصطفاء للرسالة، وفي هذا ذهابٌ إلى قول بعض حكماء الإسلام: إنَّ الإنسان لو لم يكن في نفسه وبدنه مخصوصاً بخواصَّ شريفةٍ عُلْويَّةٍ قُدسيَّة، فإنَّه يمتنع عقلاً حصول صفةِ النبوَّة فيه، وأجابوا عن عدم ذكر المرسلين عليهم السلام فضائلَهم النفسانية والبدنية بأنَّه مِن باب التواضع كاختيار العموم. والحقُّ منعُ الامتناع العقلي وإن كانوا عليهم السلام جميعاً لهم مزايا وخواصُّ مرجِّحةٌ لهم على غيرهم. وإنما قيل لهم كما قيل لاختصاص الكلام بهم حيث أُريد إلزامُهم بخلاف ما سلف من إنكار وقوع الشكِّ فيه تعالى، فإنَّه عامٌّ وإن اختصَّ بهم ما يعقبه.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا﴾ أي: ما صحَّ وما استقام ﴿أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بحجةٍ ما من الحُجَج فضلاً عن السلطان المبين الذي اقترحتموه بشيءٍ من الأشياء وسبب من الأسباب ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنَّه أمرٌ يتعلَّق بمشيئته تعالى إنْ شاء كان، وإلا فلا، ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحدَه دون ما عداه مطلقاً ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم، عمَّموا الأمر للإشعار بما يُوجب التوكُّل من الإيمان، وقصدوا به أنفسهم قصداً أوّليًّا، ويدلُّ على ذلك قولهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾، ومحلُّ الخلاف في دخول المتكلم في عموم كلامِهِ حيث لم يعلم دخوله فيه

بالطريق الأولَى، أو تَقُم عليه قرينةٌ كما هنا. واحتمالُ أنْ يُراد بـ «المؤمنين» أنفسُهم و«مالنا» التفاتٌ، لا التفاتَ إليه، والجمعُ بين الواو والفاء تقدَّم الكلام فيه(١).

و«ما» استفهاميةٌ للسؤال عن السبب والعذر، و«أَنْ» على تقدير حرف الجرِّ، أي: أيُّ عذرٍ لنا في عدم التوكُّل عليه تعالى، والإظهارُ لإظهار النشاط بالتوكُّل عليه جلَّ وعلا، والاستلذاذ باسمه تعالى وتعليل التوكُّل.

﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾ أي: والحال أنَّه سبحانه قد فعل بنا ما يُوجب ذلك ويستدعيه حيث هدانا ﴿سُبُلَنَاۚ﴾ أي: أرشد كلًّا منَّا سبيلَه ومنهاجَه الذي شرع له، وأوجبَ عليه سلوكَه في الدين.

وقرأ أبو عمرو: «سُبْلَنا» بسكون الباء(٢).

وحيث كانت أذيَّةُ الكفار مما يوجب القلقَ والاضطرابَ القادح في التوكُّل قالوا على سبيل التوكيد القَسَميِّ مُظهرين لكمال العزيمة: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾ و«ما» مصدريَّةٌ، أي: أذاتكم إيَّانا بالعناد واقتراحِ الآيات وغيرِ ذلك مما لا خيرَ فيه، وجوَّزوا أنْ تكونَ موصولةً بمعنى «الذي» والعائدُ محذوفٌ، أي: الذي آذيتموناه، وكان الأصل: آذيتمونا به، فهل حُذفَ به أو الباء ووُصِل الفعلُ إلى الضمير؟ قولان.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ خاصَّةً ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢﴾ أي: فليثبُت المتوكِّلون على ما أحدثوه من التوكُّل، والمرادُ بهم المؤمنون، والتعبيرُ عنهم بذلك لسبق اتِّصافهم به، وغرضُ المرسَلين من ذلك نحو غرضهم مما تقدَّم، وربما يُتَجوَّز في المسند إليه. فالمعنى: وعليه سبحانه فليتوكَّل مريدو التوكُّل، لكن الأوَّل أَولَى.

وقرأ الحسنُ بكسر لامِ الأمر في «لِيتوكَّل»(٣) وهو الأصل.

هذا، وذكر بعضُهم أنَّ من خواصِّ هذا الآية دفعَ أذى البرغوث. فقد أخرج المستغفري في «الدعوات» عن أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا آذاك البرغوثُ فخذ

(١) ١٢/ ٤١٤.

(٢) التيسير ص٨٥، والنشر ٢/ ٢١٦.

(٣) المحتسب ١/ ٣٥٩، والبحر ٥/ ٤١١.

قَدَحاً من ماء واقرأ عليه سبعَ مراتٍ: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية، وتقول: إنْ كنتُم مؤمنين فكفُّوا شرَّكم وأذاكم عنَّا، ثم ترشُّه حولَ فراشك، فإنَّك تبيتُ آمناً من شرِّها»[1].

وأخرج الديلمي في «مسند الفردوس» عن أبي الدرداء مرفوعاً نحو ذلك إلا أنَّه ليس فيه: «إنْ كنتُم مؤمنينَ فكفُّوا شرَّكم وأذاكم عنَّا»[2] ولم أقف على صحة الخبر، ولم أُجرِّب ذلك، إذ ليس للبرغوث وَلَعٌ بي، والحمد لله تعالى. وأظنُّ أنَّ ذلك لملوحة الدم كما أخبرني به بعض الأطباء، والله تعالى أعلمُ بحقيقة الحال.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قيل: لعلَّ هؤلاء القائلين بعضُ المتمرِّدين في الكفر من أولئك الأُمَم الكافرة التي نُقِلَت مقالاتُهم الشنيعةُ دون جميعهم، كقوم شعيب وأضرابهم، ولذلك لم يقل: وقالوا لرسلهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، وجوِّز أنْ يكونَ المرادُ بهم أهلَ الحلِّ والعقد الذين لهم قدرةٌ على الإخراج والإدخال، ويكونُ ذلك علَّةً للعدول عن قالوا أيضاً.

و«أو» لأحد الأمرَين، ومرادُهم ليكونَنَّ أحدُ الأمرَين، إخراجُكم أو عودُكم؛ فالمقسَم عليه في وسع المقسِم، والقولُ بأنَّها بمعنى «حتى» أو «إلا أنْ» قولُ مَن لم يُمعن النظر ـ كما في«البحر» ـ فيما بعدها، إذ لا يصحُّ تركيبُ ذلك مع ما ذكر كما يصحُّ في: لَألزَمَنَّك أو تقضيَني حقِّي.

والمرادُ من العَوْد: الصيرورةُ والانتقال من حالٍ إلى أخرى، وهو كثيرُ الاستعمال بهذا المعنى، فيندفعُ ما يُتوهَّم من أنَّ العودَ يقتضي أنَّ الرسل عليهم السلام كانوا ـ وحاشاهم ـ في ملَّة الكفر قبل ذلك[3].

واعترض في «الفرائد» بأنَّه لو كان العودُ بمعنى الصيرورةِ لقيل: إلى ملَّتنا، فتعديتُه بـ «في» يقتضي أنَّه ضُمِّن معنى الدخول، أي: لتدخلُنَّ في ملَّتنا.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٧٢.
(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٥/ ٣٦٢.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤١١.

وردَّه الطيبي بأنَّه إنما يلزمُ ما ذكر لو كان «في ملتنا» صلة الفعل، أمَّا إذا جُعل خبراً له؛ لأنَّ «صار» من أخوات «كان» فلا يردُ كما في نحو: صار زيدٌ في الدار. نعم يُفهم مما ذكره وجهٌ آخر، وهو جعلُه مجازاً بمعنى: تدخلُنَّ، لا تضميناً، لأنَّه على ما قرَّروه يُقصد فيه المعنيان فلا يُدفع المحذور.

وفي «الكشف» أنَّ «في» أبلغُ من «إلى» لدلالته على الاستقرار والتمكُّن، كأنَّهم لم يرضوا بأنْ يتظاهروا أنَّهم من أهل ملَّتهم.

وقيل: المرادُ من العود في ملَّتهم سكوتُهم عنهم وتركُ مطالبتهم بالإيمان، وهو كما ترى.

وقيل: هو على معناه المتبادر، والخطابُ لكلِّ رسولٍ ولمن آمنَ معه من قومه، فغلَّبوا الجماعة على الواحد. فإنْ كان الجماعةُ حاضرين فالأمرُ ظاهرٌ، وإلا فهناك تغليبٌ آخر في الخطاب.

وقيل: لا تغليبَ أصلاً والخطابُ للرسل وحدهم، بناءً على زعمهم أنَّهم كانوا من أهل ملَّتهم قبل إظهار الدعوة، كقول فرعون ـ عليه اللعنةُ ـ لموسى عليه السلام: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩] وقد مرَّ الكلام في مثل ذلك، فتذكَّر.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى الرسل عليهم السلام بعد ما قيل لهم ما قيل: ﴿رَبُّهُمْ﴾ مالكُ أمرهم سبحانه ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: المشركين المتناهين في الظلم، وهم وأولئك القائلون، وقال ابنُ عطية[1]: خصَّ سبحانه «الظالمين» من «الذين كفروا» إذ جائز أنْ يُؤمن مِن الكفرة الذين قالوا تلك المقالة ناسٌ، فالتوعُّد بإهلاك من خلص للظلم.

و«أوحى» يحتمل أنْ يكون بمعنى: فعل الإيحاء، فلا مفعولَ له، و«لنهلكنَّ» على إضمار القول، أي: قائلاً لَنُهلكنَّ، ويحتمل أنْ يكونَ جارياً مجرى القول لكونه ضرباً منه، و«لنهلكنَّ» مفعولُه.

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرضَهم وديارَهم، فاللام للعهد، وعند بعضٍ عِوَضٌ عن المضاف إليه ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾ أي: من بعد إهلاكهم، وأقسم سبحانه وتعالى في مقابلة قَسَمهم، والظاهرُ أنَّ ما أقسَم عليه جلَّ وعلا عقوبةٌ لهم على قولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ وفي ذلك دلالةٌ على مزيد شناعةِ ما أَتَوا به، حيث إنَّهم لمَّا أرادوا إخراجَ المخاطَبين من ديارهم جَعَل عقوبتَه إخراجَهم من دار الدنيا وتوريثَ أولئك أرضَهم وديارَهم، وفي الحديث: «مَن آذى جارَه أورثه الله تعالى دارَه»(١).

وقرأ أبو حيوة: «لَيُهلكنَّ الظالمين ولَيُسكننَّكم الأرضَ» بياء الغيبة(٢) اعتباراً لـ «أوحى» كقولك: أقْسَمَ زيدٌ ليخرجَنَّ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموحَى به، وهو إهلاكُ الظالمين وإسكانُ المخاطَبين ديارَهم، وبذلك الاعتبار وحَّد اسمَ الإشارة مع أنَّ المشارَ إليه اثنان، فلا حاجةَ إلى جعله من قبيل: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ﴾ [البقرة:٦٨] وإنْ صحَّ، أي: ذلك الأمر محقَّقٌ ثابتٌ.

﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي: موقفي الذي يقفُ به العبادُ بين يديَّ للحساب يوم القيامة، وإلى هذا ذهب الزجَّاجُ(٣)، فالمقامُ اسمُ مكان، وإضافتُه إلى ضميره تعالى لكونه بين يديه سبحانه. وقال الفراء(٤): هو مصدرٌ ميميٌّ أُضيفَ إلى الفاعل، أي: خاف قيامي عليه بالحفظ لأعماله ومراقبتي إيَّاه. وقيل: المراد إقامتي على العدل والصوابِ وعدم الميل عن ذلك.

وقيل: لفظُ مقام مُقحَمٌ؛ لأنَّ الخوفَ من الله تعالى، أي: لمن خافني.

﴿وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ أي: وعيدي بالعذاب، فياءُ المتكلِّم محذوفةٌ للاكتفاء بالكسرةِ عنها في غير الوقف. والوعيدُ على ظاهره ومتعلَّقه محذوفٌ، وجوَّز أنْ

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٧٠، والرازي في تفسيره ١٩/ ١٠٠، قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٩٢: لم أجده.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠، والبحر المحيط ٥/ ٤١١.

(٣) كما في البحر المحيط ٥/ ٤١٢.

(٤) كما في البحر المحيط ٥/ ٤١١.

يكون مصدراً من الوعد على وزن فَعِيْل، وهو بمعنى اسمِ المفعول، أي: عذابي الموعود للكفار، وفيه استعارة الوعد للإيعاد.

والمرادُ بـ «مَن خاف» إلخ على ما أُشيرَ إليه في «الكشاف»: المتَّقون[1]، ووقوع «ذلك» إلى آخره بعدَ «ولنُسكننَّكم الأرضَ مِن بعدهم» موقع ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ في قصة موسى عليه السلام حيث قال لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي: استنصَرُوا الله تعالى على أعدائهم كقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال:١٩] ويجوزُ أنْ يكونَ من الفتاحة، أي: الحكومة، أي: استَحْكَموا الله تعالى وطَلَبُوا منه القضاء بينهم، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٨٩]. والضمير للرسل عليهم السلام كما رُوي عن قتادة وغيره. والعطف على «أَوْحَى» ويُؤيِّد ذلك قراءةُ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن: «واسْتفتِحُوا» بكسر التاء[2] أمراً للرسل عليهم السلام معطوفاً على «ليُهلِكَنَّ» فهو داخلٌ تحت الموحَى، والواوُ من الحكاية دون المحكي.

وقيل: ما قبله لإنشاء الوعد فلا يلزمُ عطفُ الإنشاء على الخبر مع أنَّ مذهبَ بعضهم تجويزُه، وأُخِّر على القراءتَين عن قوله تعالى: «لنهلكن» ـ أو «أَوْحَى إليهم» على ما في «الكشف» ـ دلالةً على أنَّهم لم يزالوا داعينَ إلى أنَّ تحقُّقَ الموعود من إهلاك الظالمين، وذلك لأنَّ «لنُهلِكنَّ» وعدٌ، وإنَّما حقيقة الإجابة حين الإهلاك، وليس من تفويض الترتيب إلى ذهن السامع في شيء، ولا ذلك من مقامه كما تُوهِّم.

وقال ابن زيد: الضمير للكفار، والعطف حينئذٍ على «قال الذين كفروا» أي: قالوا ذلك واستفتَحوا على نحو ما قال قريش: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص:١٦] وكأنَّهم لمَّا قَوِيَ تكذيبُهم وأذاهم ولم يُعاجَلُوا بالعقوبة ظنُّوا أن ما قيل لهم باطلٌ، فاستفتَحوا على سبيل التهكُّم والاستهزاء، كقول قوم نوح: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود:٣٢] وقوم شعيب: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الشعراء:١٨٧] إلى غير ذلك.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧١.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٥٩، والبحر المحيط ٥/ ٤١٢.

وقيل: الضميرُ للرسل عليهم السلام ومكذِّبيهم؛ لأنَّهم كانوا كلُّهم سألوا الله تعالى أنْ يَنصُر المحقَّ ويُهلك المبطلَ، وجعل بعضُهم العطف على «أَوحَى» على هذا أيضاً، بل ظاهرُ كلام بعضٍ أنَّ العطف عليه على القراءة المشهورة مطلقاً، وسيأتي إن شاء الله تعالى احتمالٌ آخر في الضمير ذكره الزمخشري[1].

﴿وَخَابَ﴾ أي: خَسِرَ وهَلَك ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾ مُتكبِّرٍ عن عبادة الله تعالى وطاعته، وقال الراغب: الجبَّارُ في صفةِ الإنسان يقال لمن يَجبُر نَقيصَتَه بادِّعاء منزلةٍ من التعالي لا يستحقُّها، ولا يقال إلا على طريق الذمِّ[2].

﴿عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ معاند للحقِّ، مُباهٍ بما عنده، وجاء فَعيلٌ بمعنى مُفاعل كثيرًا، كخليط بمعنى مُخالط، ورَضِيع بمعنى مُراضع، وذكر أبو عبيدة أنَّ اشتقاق ذلك من العَنَد، وهو: الناحية[3]، ولذا قال مجاهد: العنيدُ: مجانِب الحقِّ. قيل: والوصف الأوَّل إشارةٌ إلى ذمِّه باعتبار الخلق النفساني، والثاني: إلى ذمِّه باعتبار الأثر الصادرِ عن ذلك الخلق، وهو كونُه مجانبًا منحرفًا عن الحقِّ.

وفي الكلام إيجازُ الحذفِ بحذف الفاءِ الفصيحةِ والمعطوف عليه، أي: استفتَحوا ففُتِح لهم وظَفِرُوا بما سألوا وأَفلحُوا، وخاب كلُّ جبارٍ عنيد وهم قومُهم المعاندون؛ فالخيبة بمعنى مطلق الحِرمان دون الحرمان عن المطلوب، أو ذلك باعتبار أنَّهم كانوا يزعُمون أنَّهم على الحقِّ، هذا إذا كان ضمير «استفتحوا» للرسل عليهم السلام، وأمَّا إذا كان للكفار فالعطف ـ كما في «البحر»[4] ـ على «استفتحوا»، أي: استفتح الكفار على الرسل عليهم السلام وخابُوا ولم يُفلحوا. وإنَّما وضع «كلُّ جبَّارٍ عنيدٍ» موضع ضميرهم ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالتجبُّر والعناد، لا أنَّ بعضَهم ليسوا كذلك ولم تصبهم الخيبة، ويُقدَّر ـ إذا كان الضمير للرسل عليهم السلام وللكفرة ـ «استفتحوا» جميعًا؛ فنصر الرسل وخابَ كلُّ عاتٍ متمرِّد، والخيبةُ على الوجهَين بمعنى الحِرمان غِبَّ الطلب، وفي إسناد الخيبة إلى كلٍّ منهم ما لا يخفى من المبالغة.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧١، وسيأتي عند تفسير الآية (١٧) من هذه السورة.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن: (جبر).
(٣) ينظر مجاز القرآن، ومختار الصحاح: (عند).
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤١٢.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: من قُدَّامه وبَيْنَ يديه، كما قال الزجّاج[(١)] والطبريُّ[(٢)] وقُطربُ وجماعةٌ، وعلى ذلك قوله:

أَلـيـسَ ورائـي إنْ تـراخَـتْ مَـنِـيَّـتـي لُزومُ العصا تُحنَى عليها الأصابعُ[(٣)]

ومعنى كونها قُدَّامه أنَّه مرصدٌ لها واقفٌ على شفيرها ومبعوثٌ إليها، وقيل: المرادُ مِن خَلْف حياته وبعدَها، ومِن ذلك قولُه:

حَـلَـفْـتُ فـلـم أَتـرُكْ لـنـفـسـكَ رِيـبـةً ولـيـس وراءَ اللهِ لـلـمـرءِ مَـذهـبُ[(٤)]

وإليه ذهب ابنُ الأنباري[(٥)]، واستعمالُ «وراء» في هذا وذاك بناء على أنَّها من الأضداد عند أبي عبيدة[(٦)] والأزهري[(٧)]، فهي من المشترِكات اللفظية عندهما. وقال جماعة: إنَّها من المشترِكات المعنوية، فهي موضوعةٌ لأمرٍ عامٍّ صادقٍ على القُدَّام والخلف، وهو: ما توارى عنك. وقد تُفسَّر بالزمان مجازًا، فيقال: الأمرُ من ورائك على معنى: أنَّه سيأتيك في المستقبل من أوقاتك.

﴿وَيُسْقَىٰ﴾ قيل: عطف على متعلَّق «من ورائه» المقدَّر، والأكثرُ على أنَّه عطفٌ على مقدَّر جوابًا عن سؤال سائل، كأنَّه قيل: فماذا يكونُ إذن؟ فقيل: يَلقَى فيها ما يَلقَى ويُسقَى ﴿مِن مَّآءٍ﴾ مخصوصٍ لا كالمياه المعهودة. ﴿صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ قال مجاهد وقتادة والضحاك: هو ما يَسيلُ من أجساد أهلِ النار. وقال محمد بنُ

---

(١) معاني القرآن ٣/ ١٥٦.

(٢) في تفسيره ١٣/ ٦١٧.

(٣) البيت للبيد، وهو في ديوانه ص١٧٠، وجاء في هامش (م):

قوله:

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقوم تميم والفلاة ورائيا

وقوله:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

انتهى منه.

(٤) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١٧.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٢٨، والقرطبي ١٢/ ١٢٠، والبحر المحيط ٥/ ٤١٢.

(٦) مجاز القرآن ١/ ٣٣٧.

(٧) تهذيب اللغة ١٥/ ٣٠٤.

كعب والربيع: ما يسيلُ من فروج الزناة والزواني، وعن عكرمة: هو الدمُ والقيح.

وأَعربَه الزمخشريُّ[١] عطفَ بيانٍ لـ «ماء»، وفي إبهامه أوَّلًا ثم بيانه من التهويل ما لا يخفَى، وجواز عطف البيان في النكرات مذهبُ الكوفيين والفارسيِّ[٢]، والبصريُّون لا يرونَه، وعلى مذهبهم هو بدلٌ من «ماء» إن اعتُبِرَ جامدًا، أو نعتٌ إنْ اعتُبِرَ فيه الاشتقاق من الصدِّ، أي: المنعِ من الشرب، كأنَّ ذلك الماء لمزيد قُبحه مانعٌ عن شربه. وفي «البحر»: قيل: إنَّه بمعنى مصدودٌ عنه، أي: لكراهته يُصدُّ عنه[٣]. وإلى كونه نعتًا ذهب الحوفي وكذا ابنُ عطية، قال: وذلك كما تقول: هذا خاتمُ حديد[٤]. وإطلاق الماء على ذلك ليس بحقيقة، وإنما أُطلقَ عليه باعتبار أنَّه بدلُه.

وقال بعضُهم: هو نعتٌ على إسقاطِ مفيدِ التشبيه كما تقول: مررتُ برجل أسد، والتقدير: مثل صديد، وعلى هذا فإطلاقُ الماء عليه حقيقة، وبالجملة تخصيصُ السَّقي من هذا الماء بالذكر مِن بين عذابها يدلُّ على أنَّه من أشدِّ أنواعه.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ جوَّز أبو البقاء كونَه صفةً لـ «ماء»، أو حالًا منه، أو استئنافًا[٥]، وجوَّز أبو حيان[٦] كونَه حالًا من ضمير «يُسقَى». والاستئنافُ أظهرُ، وهو مبنيٌّ على سؤالٍ، كأنَّه قيل: فماذا يفعل به؟ فقيل: يتجرَّعُه، أي: يتكلَّفُ جَرْعَه مرَّةً بعد أُخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه.

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: لا يُقارب أنْ يُسيغَه فضلًا عن الإساغة، بل يَغَصُّ به فيشرَبه بعد اللُّتيا والتي جُرعةً غِبَّ جُرعة، فيطول عذابُه تارةً بالحرارة والعطش،

(١) الكشاف ٢/ ٣٧١.
(٢) كما في البحر المحيط ٥/ ٤١٣.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤١٣.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣١.
(٥) الإملاء ٣/ ٣٩٦.
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤١٣.

وأُخرَى بشربه على تلك الحالة؛ فإنَّ السَّوغَ انحدارُ الماء انحدارَ الشراب[١] في الحَلْق بسهولةٍ وقبولِ نفس، ونفيُه لا يُفيد نَفْي ما ذُكر جميعًا. وقيل: تَفَعَّل مُطاوع فَعَّلَ، يقال: جَرَّعَه فتَجَرَّع، وقيل: إنَّه موافقٌ للمجرَّد، أي: جَرَعه، كما تقول: عدا الشيءَ وتعدَّاه.

وقيل: الإساغة: الإدخال في الجوف، والمعنى: لا يُقارِبُ أنْ يُدخله في جوفه قبل أنْ يَشرَبه، ثم شَرِبه على حدِّ ما قيل في قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] أي: ما قاربوا قبل الذبح، وعبَّر عن ذلك بالإساغة لِمَا أنَّها المعهودةُ في الأشربة.

أخرج أحمد والترمذيُّ والنسائيُّ والحاكم وصحَّحه وغيرُهم عن أبي أُمامةَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال في الآية: «يُقرَّبُ إليه فَيَتَكرَّهُهُ فإذا أُدنِيَ منه شَوَى وَجْهَهُ ووَقعتْ فَرْوةُ رأسِهِ، فإذا شَرِبَه قَطَّع أمعاءَه حتى يَخرُجَ من دُبُره، يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] وقال سبحانه: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩][٢].

و«يُسيغه» بضمِّ الياء؛ لأنَّه يُقال: ساغَ الشرابَ وأَساغَه غيرُه، وهو الفصيح، وإنْ وَرَد ثلاثيُّه متعدِّيًا أيضًا على ما ذكره أهلُ اللغة، وجملةُ «ولا يكاد» إلى آخره في موضع الحال من فاعل «يَتَجَرَّعُه» أو من مفعوله أو منهما جميعًا.

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: أسبابُه من الشدائد وأنواع العذاب، فالكلامُ على المجاز أو بتقدير مضافٍ ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: من كلِّ موضعٍ، والمرادُ: أنَّه يُحيطُ به من جميع الجهات كما رُوي عن ابن عباس ﷺ، وقال إبراهيم التيميّ: من كلِّ مكانٍ من جسدِه حتى من أَطرافِ شعره، ورُوي نحوُ ذلك عن ميمون بنِ مهران ومحمد بنِ كعب، وإطلاق المكان على الأعضاء مجازٌ، والظاهرُ أنَّ هذا الإتيان في الآخرة.

---

(١) قوله: انحدار الشراب، ليس في الأصل، وأثبتناه من (م).

(٢) المسند (٢٢٢٨٥)، وسنن الترمذي (٢٥٨٣)، والسنن الكبرى للنسائي (١١١٩٩)، والمستدرك ٢/ ٣٥١، قال الترمذي: هذا حديث غريب.

وقال الأخفش[1]: أراد البلايا التي تُصيب الكافر في الدنيا سمَّاها موتًا لشدَّتها، ولا يخفَى بُعدُه؛ لأنَّ سياق الكلام في أحوال الكافرِ في جهنَّمَ وما يلقى فيها.

﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: والحال أنَّه ليس بميِّتٍ حقيقةً، كما هو الظاهر من مجيء أسبابه على أتمِّ وجهٍ فيستريح مما غشيَهُ من أصناف الموبقات.

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أي: مِن بين يدَي مَن حُكم عليه بما مرَّ ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ ⑰﴾ يَستقبلُ كلَّ وقتٍ عذابًا أشدَّ وأشقَّ مما كان قبله، وقيل: في «ورائه» هنا نحو ما قيل فيما تقدَّم أمامَه، وذِكر هذه الجملة لدفع ما يُتوهَّم من الخِفَّة بحسب الاعتياد كما في عذاب الدنيا.

وقيل: ضمير «ورائه» يعودُ على العذاب المفهومِ من الكلام السابق لا على كلِّ جبار، وروي ذلك عن الكلبي.

والمرادُ بهذا العذابِ قيل: الخلودُ في النار، وعليه الطبرسيُّ[2]، وقال الفضيل[3]: هو قطعُ الأنفاس وحبسها في الأجساد.

هذا وجوّز في «الكشاف» أنْ تكونَ هذه الآية ـ أعني قوله تعالى: (وَٱسْتَفْتَحُوا) ـ إلى هنا منقطعةً عن قصة الرسل عليهم السلام، نازلةً في أهل مكة، طلبوا الفتحَ الذي هو المطَرُ في سِنِيِّهم التي أرسلت عليهم بدعوة رسول الله ﷺ[4]، فخيَّب سبحانه رجاءَهم، ولم يَسْقِهم ووعدهم أن يَسْقيَهم في جهنَّم بدلَ سقياهم صديدَ أهل النار، والواو على هذا قيل: للاستئناف، وقيل: للعطف إمَّا على قوله تعالى: (وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) أو على خبر «أولئك في ضلالٍ بعيد» لقربه لفظًا ومعنًى.

والوجهُ الأول أوجهُ؛ لبعد العهد وعدمِ قرينةِ تخصيصِ الاستفتاح بالاستمطار؛

---

(١) كما في البحر المحيط ٥/ ٤١٣.
(٢) مجمع البيان ١٣/ ٢٠٨.
(٣) في الأصل: الفضل، والمثبت من (م)، وهو الفضيل بن عياض، وأخرجه عنه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٤/ ٧٤.
(٤) أخرجه أحمد (٣٦١٣)، والبخاري (١٠٠٧)، ومسلم (٢٧٩٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ولأنَّ الكلام على ذلك التقدير يتناولُ أهل مكة تناولاً أوّليًا، فإنَّ المقصود من ضرب القصة أنْ يعتبروا.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾ مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ، أي: فيما يُتلَى عليكم صفتُهم التي هي في الغرابة كالمَثَل، كما ذهب إليه سيبويه[1]، وقوله سبحانه: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ لبيان مَثَلِهم، ورجَّحَ ابنُ عطية[2] كونَه مبتدأً وهذه الجملة خبره.

وتعقَّبه الحوفي بأنَّه لا يجوزُ؛ لخلوِّ الجملة عمَّا يربطُها بالمبتدأ، وليسَت نفسَه في المعنى لتستغني عن ذلك لظهور أن ليس المعنى: مثلهم هذه الجملة.

وأجاب عنه السمينُ[3] بالتزام أنَّها نفسه، لأنَّ «مثل الذين» في تأويل ما يُقال فيهم ويُوصَفُون به إذا وُصِفوا، فلا حاجةَ إلى الرابط، كما في قولك: صفةُ زيدٍ عِرضُه مصونٌ ومالُه مبذولٌ، قيل: ولا يخفَى حسنُه إلا أنَّ المثل عليه بمعنى الصفة، والمرادُ بالصفة اللفظ الموصوف به كما يقال: صفةُ زيدٍ أسمرُ، أي: اللفظ الذي يُوصَفُ به هو هذا.

وهذا، وإنْ كان مجازًا على مجازٍ لكنَّه يُغتَفَر؛ لأنَّ الأولَ ملحَقٌ بالحقيقة لشهرته، وليس من الاكتفاء بعَوْد الضمير على المضاف إليه؛ لأنَّ المضاف ذُكِرَ توطئةً له؛ فإنَّ ذلك أضعفُ من بيت العنكبوت كما علمتَ.

وذهب الكسائي والفراء[4] إلى أنَّ «مثل» مُقحَمٌ، وتقدَّم ما عليه وله، وقال الحوفي: هو مبتدأٌ و«كرمادٍ» خبرُه، و«أعمالُهم» بدلٌ من المبتدأ بدلَ اشتمال كما في قوله:

ما للجمالِ مَشْيُها وئيدًا   أَجَندلًا يَحمِلْنَ أمْ حَديدا[5]

---

(١) ينظر الكتاب ١/ ٧١ ـ ٧٢، والبحر ٥/ ٤١٤.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣١.
(٣) الدر المصون ٧/ ٨٢.
(٤) ينظر معاني القرآن ٢/ ٧٢ ـ ٧٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣١، والبحر المحيط ٥/ ٤١٤.
(٥) البيت للزباء كما في أدب الكاتب ص٢٠٠، والأغاني ١٥/ ٣٢٠، ومغني اللبيب ص٧٥٨، وأوضح المسالك ص٢٣١، ومعاهد التنصيص ١/ ٣١٤، والوئيد: ذو صوت شديد.

وفيه خفاءٌ، ولعلَّه اعتبر المضاف إليه. وفي «الكشاف» جوازُ كونه بدلاً من «مثل الذين كفروا» لكن على تقدير: مَثَلُ أعمالهم، فيكونُ التقديرُ: مَثَلُ الذين كفروا مَثَلُ أعمالهم كرمادٍ[1]. قال في «الكشف»: وهو بدلُ الكلِّ من الكلِّ، وذلك لأنَّ مَثَلُهم ومَثَلُ أعمالهم متَّحدان بالذات، وفيه تفخيم. اهـ.

وقيل: إنَّه على هذا التقدير أيضاً بدلُ اشتمال؛ لأنَّ مَثَلَ أعمالهم كونُها كرمادٍ، ومثلُهم كونُ أعمالهم كرمادٍ، فلا اتِّحادَ، لكنَّ الأول سببٌ للثاني، فتأمَّل.

والرَّماد معروفٌ، وعرَّفه ابنُ عيسى بأنَّه جسمٌ يَسحَقُه الإحراق سحْقَ الغبار، ويجمع على رُمُد في الكثرة، وأَرمِدَة في القِلَّة، وشذَّ جمعُه على أفْعِلاء، قالوا: أَرْمِداء، كذا في «البحر»[2]، وذكر في «القاموس»: أنَّ الأَرْمِدَاء كالأربعاء: الرَّماد[3]. ولم يَذكر أنَّه جمعٌ.

والمرادُ بـ «أعمالهم» ما هو من باب المكارم كصلةِ الأرحام، وعتق الرقاب، وفداءِ الأسارى، وقَرْي الأضيافِ، وإغاثةِ الملهوفين وغيرِ ذلك، وقيل: ما فعلوه لأصنامهم من القُرَب بزعمهم، وقيل: ما يعمُّ هذا وذاك، ولعلَّه الأَولَى.

وجيء بالجملة على ما اختاره بعضُهم جوابًا لمَا يقال: ما بالُ أعمالهم التي عملوها حتى آلَ أمرُهم إلى ذلك المآل؟ إذ بُيِّن فيها أنَّها كرمادٍ ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: حملَتْه وأسرعَت الذهاب به، فاشتدَّ من «شَدَّ» بمعنى «عدا»، والباء للتعدية أو للملابسة، وجوِّز أنْ يكون من الشِّدَّة بمعنى القوَّة، أي: قويَت بملابسة حَمْلِهِ.

﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ العصفُ: اشتدادُ الريح، وُصِفَ به زمانُ هبوبها على الإسناد المجازيّ، كـ: نهاره صائمٌ وليله قائمٌ، للمبالغة. وقال الهروي: التقديرُ: في يومٍ عاصفِ الريح، فحذف الريح لتقدُّم ذكره كما في قوله:

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٣٧٢، والبحر المحيط ٥/ ٤١٤.

(٢) ٥/ ٤١٤.

(٣) القاموس المحيط: (رمد).

إذا جاءَ يومٌ مظلمُ الشمسِ كاسفُ[(١)]

والتنوينُ على هذا عِوضٌ عن المضاف إليه، وضَعْفُ هذا القول ظاهرٌ، وقيل: إنَّ «عاصف» صفة «الريح» إلا أنَّه جُرَّ على الجوار، وفيه أنَّه لا يصحُّ وصفُ الريح به لاختلافهما تعريفاً وتنكيرًا.

وقرأ نافع وأبو جعفر: «الرياح» على الجمع[(٢)]، وبه يشتدُّ فسادُ الوصفية، وقرأ ابنُ أبي إسحاق وإبراهيم بنُ أبي بكر عن الحسن: «في يومِ عاصفٍ» على الإضافة[(٣)]، وذلك عند أبي حيان من حذفِ الموصوفِ وإقامةِ الصفة مقامَه، والتقدير: في يومِ ريحٍ عاصفٍ[(٤)]، وقد يقال: إنَّه من إضافة الموصوف إلى الصفة من غير حاجةٍ إلى حذفٍ عند مَن يَرَى جواز ذلك.

﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ في الدنيا من تلك الأعمال ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ما، أي: لا يَرَون له أثرًا من ثواب أو تخفيفِ عذاب.

ويؤيِّد التعميمَ ما ورد في الصحيح عن عائشة أنَّها قالت: يا رسول الله، إنَّ ابنَ جدعانَ في الجاهلية يَصلُ الرحمَ ويُطعمُ المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «لا ينفَعُه؛ لأنَّه لم يقُل: ربِّي اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[(٥)].

وقيل: الكلامُ على حذف مضاف، أي: لا يقدرون من ثوابِ ما كسبوا على شيءٍ ما، والأوَّلُ أولَى، وقدم المتعلّق الأول لـ «لا يقدرون» على الثاني وعكس في البقرة لأهمية كلٍّ في آيته، وذلك ظاهرٌ لمن له أدنى بصيرة.

وحاصلُ التمثيل تشبيهُ أعمالهم في حبوطها وذهابها هباءً منثورًا لابتنائها على

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤١٤، والبيت لمسكين الدارمي، وهو في ديوانه ص٥٣، وصدره:

وتضحك عرفان الدروع جلودنا

وجاء في هامش (م): يريد كاسف الشمس.

(٢) التيسير ص١٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣.

(٣) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٦٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢، والبحر المحيط ٥/ ٤١٥.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤١٥.

(٥) أخرجه أحمد (٢٤٦٢١)، ومسلم (٢١٤).

غير أساسٍ من معرفة الله تعالى والإيمان به وكونها لوجهه = برمادٍ طيَّرته الريحُ العاصفُ وفرَّقْته، وهذه الجملة فذلكة ذلك والمقصود منه، قيل: والاكتفاء ببيان عدمِ رؤيةِ الأثر لأعمالهم للأصنام، مع أنَّ لها عقوبات = للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنَّها شفعاءُ لهم عند الله تعالى، وفيه تهكُّمٌ بهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دلَّ عليه التمثيلُ دلالةً واضحةً من ضلالهم مع حسبانهم أنَّهم على شيء ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾ عن طريق الحقِّ والصواب، وقد تقدَّم تمامُ الكلام في ذلك غير بعيدٍ.

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ خطابٌ للرسول ﷺ، والمرادُ به أمتُه الذين بُعث إليهم، وقيل: خطابٌ لكلِّ واحدٍ من الكفرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ [الآية:١٩] والرؤية رؤيةُ القلب، وقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ سادٌّ مسدَّ مفعوليها، أي: ألم تعلم أنَّه تعالى خَلَقَهما ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: ملتبسةً بالحكمة والوجهِ الصحيح الذي يحقُّ أنْ يخلق عليه.

وقرأ السلميُّ: «ألم ترْ» بسكون الراء(١)، و وَجْهُهُ أنَّه أجرى الوصلَ مجرى الوقف، قال أبو حيان: وتوجيهٌ آخرُ وهو أنَّ «ترى» حَذفَت العربُ ألفها في قولهم: قام القوم ولو ترَ ما زيدٌ، كما حذفت ياءَ: لا أُبالي، وقالوا: لا أُبالِ، فلمَّا دَخَل الجازمُ تُخيِّل أنَّ الراء هي آخرُ الكلمة، فسُكِّنَت للجازم، كما قالوا في: لا أبالِ، لم أُبَلْ، تخيَّلوا اللام آخرَ الكلمة(٢). والمشهور التوجيهُ الأول.

وقرأ الأخوان: «خالقُ السماواتِ والأرضِ» بصيغة اسم الفاعل، والإضافة، وجرِّ «الأرض»(٣).

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ يعدمْكم أيُّها الناس، كما قاله جماعةٌ، أو أيُّها الكفرة - كما رُوي عن ابن عباس - بالمرَّة. ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩﴾ أي: يخلقْ بدلَكم خلقًا مستأنَفًا، لا علاقةَ بينكم وبينهم، والجمهورُ على أنَّه من جنس الآدميِّين، وذهب آخرون إلى أنَّه أعمُّ من أنْ يكونَ من ذلك الجنس أو من غيره.

---

(١) المحتسب ١/ ٣٦٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢، والبحر المحيط ٥/ ٤١٥.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤١٥ - ٤١٦.
(٣) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٨، وهي قراءة خلف أيضًا.

أورَدَ سبحانه هذه الشرطيَّة بعد أنْ ذَكَرَ خَلْقَه السماواتِ والأرضَ إرشادًا إلى طريق الاستدلال، فإنَّ مَن قَدَر على خلقِ مثل هاتيك الأجرام العظيمة، كان على إعدام المخاطَبين وخَلْقِ آخرين بدَلَهم أقدرَ، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور من إذهابكم والإتيان بخلقٍ جديدٍ مكانكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ بمتعذِّر أو متعسِّر، فإنَّه سبحانه وتعالى قادرٌ بذاته لا باستعانةٍ وواسطةٍ على جميع المُمكنات، لا اختصاصَ له بمقدورٍ دون مقدور.

وهذه الآية على ما في «الكشاف» بيانٌ لإبعادهم في الضلال وعِظَم خَطْبهم في الكفر بالله تعالى، لوضوح آياتِهِ الشاهدة له، الدالةِ على قدرته الباهرةِ وحكمتِهِ البالغةِ، وأنَّه هو الحقيقُ بأنْ يُؤمَنَ به، ويُرجى ثوابُه، ويُخشى عقابُه[١].

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: يبرُزون يوم القيامة، وإيثار الماضي لتحقُّق الوقوع، أو لأنَّه لا مضيَّ ولا استقبالَ بالنسبة إليه سبحانه، والمرادُ ببروزهم لله ظهورهم من قبورهم للرَّائين لأجل حساب الله تعالى، فاللامُ للتعليل، وفي الكلام حذفُ مضافٍ.

وجوِّز أنْ تكونَ اللامُ صلةَ البروز وليس هناك حذفُ مضافٍ، ويُراد: أنَّهم ظهروا له عزَّ شأنه عند أنفسهم وعلى زعمهم، فإنَّهم كانوا يظنُّون عند ارتكابهم الفواحشَ سرًّا أنَّها تخفَى على الله تعالى، فإذا كان يوم القيامة انكشَفُوا له تعالى عند أنفسهم، وعلموا أنَّه لا تخفَى عليه جلَّ شأنه خافية، وقال ابنُ عطية: معنى «برزوا» صاروا بالبَراز، وهي: الأرضُ المتَّسِعةُ، فاستُعير ذلك لمجمع يومِ القيامة[٢]. وهذا ميلٌ إلى التعليل والحذف.

ونقل الإمامُ عن الحكماء في تأويل البروز: أنَّ النفس إذا فارقَت الجسد، فكأنَّه زال الغطاء وبقِيَت مجرَّدة بذاتها عاريةً عن كلِّ ما سواها، وذلك هو البروزُ لله تعالى[٣]. وهو كلامٌ تعدُّه العرب من الأحاجي، ولذا لم يَلتفت إليه المحدِّثون.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧٢.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢.
(٣) تفسير الرازي ١٩/ ١٠٧.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «وبُرِّزُوا» مبنيًّا للمفعول وبتشديد الراء(١)، والمرادُ: أظهرَهم الله تعالى وأخرجَهم من قبورهم لمحاسبته.

﴿فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ جمعُ: ضعيفٍ، والمرادُ ضعافُ الرأي وهم الأتباع، وكتب في المصحف العثماني بواو قبل الهمزة، ووجه ذلك بأنَّه على لفظ من يُفخِّم الألف قبل الهمزة فيُميلها إلى الواو، ونظيرُه ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾(٢) [الشعراء: ١٩٧] وردَّ ذلك الجعبريُّ قائلًا: إنَّه ليس من لغة العرب ولا حاجةَ للتوجيه بذلك؛ لأنَّ الرسم سُنَّةٌ متَّبعة، وزعَمَ ابنُ قتيبة أنَّه لغةٌ ضعيفةٌ(٣)، ولو وُجِّه بأنَّه اتباعٌ للفظه في الوقف، فإنَّ من القرَّاء مَن يقف في مثل ذلك بالواو = كان حسنًا صحيحًا. كذا ذكر، فليُراجَع(٤). ولعلَّ مَن أنصفَ لا يَرى أحسنَ من ترك التوجيه.

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ أي: لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغووهم: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ في تكذيب الرسل عليهم السلام والإعراض عن نصائحهم، وهو جمعُ: تابعٍ، كخادم وخَدَمٍ، وغائب وغَيَبٍ، أو اسمُ جمعٍ لذلك، ولم يذكر كونه جمعًا في «البحر»(٥). أو هو مصدرٌ نُعِت به مبالغةً، أو بتأويل أو بتقدير مضافٍ، أي: تابعين، أو ذوي تَبَعٍ؛ وبه على سائر الاحتمالات يتعلَّق الجارُّ والمجرور، والتقديم للحصر، أي: تبعًا لكم لا لغيركم.

وقيل: المعنى: إنَّا تَبَعٌ لكم لا لرأينا، ولذا سمَّاهم الله تعالى ضعفاء، ولا يلزم منه كون الرؤساءِ أقوياءَ الرأي، حيث ضلُّوا وأضلُّوا، ولو حُمل الضعف على كونهم تحت أيديهم وتابعين لهم كان أحسنَ، وليس بذاك.

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾ استفهامٌ أُريدَ به التوبيخُ والتقريع، والفاءُ للدلالة على سببيَّة الاتِّباع للإغناء، وهو من الغَنَاء بمعنى الفائدة، وضُمِّن معنى الدفع، ولذا عدِّي بـ «عن» أي: إنَّا اتَّبعناكم فيما كنتُم فيه من الضلال، فهل أنتم اليومَ دافعون

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤١٦.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤١٦.
(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٢٦١.
(٤) ينظر: التيسير ص٤١، وجامع البيان للداني ١/ ٢٨٣-٢٨٤، والنشر ١/ ٤٦٨ و٤٩٠.
(٥) ٥/ ٤١٦.

عنَّا ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: بعضِ الشيء، الذي هو عذابُ الله تعالى بناءً على ما قيل: إنَّ «مِن» الثانية للتبعيض واقعة موقعَ المفعول للوصف السابق، والأُولى للبيان وهي واقعةٌ موقع الحال من مجرور الثانية؛ لأنَّها لو تأخَّرت كانت صفةً له، وصفةُ النكرة إذا قُدِّمَت أُعربَت حالًا.

واعتُرض هذا الوجه بأنَّ فيه تقديم «مِن» البيانيَّة على ما تُبيِّنه وهو لا يجوز، وكذا تقديم الحال على صاحبها المجرور.

وأجيبَ بأنَّ في كلٍّ من هذَين الأمرَين اختلافًا، وقد أجاز جماعةٌ تقديمَ «مِن» البيانية، وصُحِّحَ ذلك، لأنَّه إنَّما يفوتُ بالتقديم الوصفية لا البيانية، وكذا أجازَ كثيرٌ كابن كيسان وغيره تقديمَ الحال على صاحبها المجرور، فلعلَّ الذاهب إلى هذا الوجه في الآية يرى رأي المُجوِّزين لكلٍّ من التقديمَين.

وقال بعض المدقِّقين: جاز تقديمُ هذه الحال؛ لأنَّها في الحقيقة عمَّا سدَّ مسدَّه «من شيء»، أعني: بعض، لا عن المجرور وحدَه، وفيه من البعد ما لا يخفى.

وجوِّز أنْ تكونَ الأُولَى والثانية للتبعيض، والمعنى: هل أنتم مُغنون عنَّا بعضَ شيءٍ هو بعضُ عذابِ الله تعالى؛ والإعراب كما سبق. واختار بعضُهم على هذا كونَ الحال عمَّا سدَّ مسدَّه «من شيء»، إذ لو جعل حالًا عن المجرور لآل الكلامُ إلى: هل أنتم مغنون عنَّا بعضَ بعضِ عذاب الله تعالى، ولا معنى له، وفيه أنَّه يُفيد المبالغةَ في عدم الغَنَاء كقولهم: أقلُّ من القليل، فنَفْيُ المعنَى لا معنَى له. ولا يصحُّ الإلغاء؛ إذ لا يصحُّ أنْ يتعلَّق بفعلٍ ظرفان مِن جنسٍ دون ملابسةٍ بينهما تُصحِّح التبعيَّة.

وجَعْل الثاني بدلًا من الأول يأباه ـ كما في «الكشف» ـ اللفظُ والمعنى؛ وقد تعقَّب أبو حيان توجيهَ التبعيض في المكانَين كما سمعتَ بأنَّ ذلك يقتضي البدليَّةَ، فيكون بدلَ عامٍّ من خاصٍّ؛ لأنَّ «من شيء» أعمُّ من قوله: «من عذاب»، وهذا لا يقال؛ لأنَّ بعضيَّةَ الشيء مطلقةٌ، فلا يكون لها بعضٌ[1]، ومما ذكرنا يُعلَم ما فيه.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤١٧.

وجوّز أنْ تكون الأُولَى مفعولًا، والثانية صفة مصدرٍ سادَّة مسدَّه، والشيء عبارة عن إغناءٍ ما، أي: فهل أنتم مُغنون عنَّا بعضَ عذاب الله بعض الإغناء.

وتُعقِّب بأنَّه يلزم على هذا أنْ يتعلَّق بعاملٍ ظرفان، إلى آخر ما سمعْتَ آنفًا، وفيه نظرٌ؛ لأنَّه لكون أحدهما في تأويل المفعول به، والآخر في تأويل المفعول المطلق، صحَّ التعلُّق ولم يكونا من جنسٍ واحدٍ، وقد يقال: إنَّ تقييد الفعل بالثاني بعد اعتبار تقييده بالأول، فليس العاملُ واحدًا.

ونصَّ الحوفي وأبو البقاء[1] على أنَّ «من» الثانية زائدةٌ للتوكيد، وسَوَّغ زيادتها تقدُّم الاستفهام الذي هو هنا في معنى النفي، و«مِن عذاب الله» إما متعلِّقٌ بـ «مغنون» أو متعلِّق بمحذوفٍ وقَعَ حالًا من «شيء» أي: شيئًا كائنًا من عذاب الله تعالى، أو مغنون مِن عذاب الله تعالى غناءً ما.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: المستكبرون جوابًا عن توبيخ الضعفاء وتقريعهم واعتذارًا عمَّا فعلوا بهم: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إلى الإيمان ووفَّقنا له ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ ولكن ضَلَلْنا فَضَلَّلْناكم، أي: اخترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا، وحاصلُه على ما قيل: إنَّ ما كان منَّا في حقِّكم هو النصحُ، لكن قصرنا في رأينا.

وقال الزمخشريُّ: إنَّهم وَرَّكوا الذنبَ[2] في ضلالهم وإضلالهم على الله تعالى وكَذَبُوا في ذلك، ويدلُّ على وقوع الكذب من أمثالهم يوم القيامة قولُه تعالى حكايةً عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨]. وقد خالف في ذلك أصول مشايخه؛ لأنَّهم لا يُجوِّزون صدور الكذب عن أهل القيامة، فلا يُقبَل منه، وجوَّز أنْ يكونَ المعنى: لو كنَّا من أهل اللطف فلَطَف بنا ربُّنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان[3]، ونقل ذلك القاضي وزيَّفه كما ذكره الإمام[4].

---

(١) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(٢) قال ابن منظور في اللسان (ورك): ورَّك فلان ذنبه على غيره توريكًا، إذا أضافه إليه، وإنه لمورِّك في هذا الأمر، أي: ليس له فيه ذنب.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٧٣.

(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٠٩، والقاضي هو عبد الجبار.

وقيل: المعنى: لو هدانا الله تعالى إلى الرَّجعة إلى الدنيا فنُصلح ما أفسدناه لهديناكم، وهو كما ترى. وقال الجُبَّائي وأبو مسلم: المرادُ: لو هدانا الله تعالى إلى طريق الخلاصِ من العقاب والوصولِ إلى النعيم والثوابِ لهديناكم إلى ذلك. وحاصلُه: لو خَلَصنا لخلَّصناكم أيضًا، لكنْ لا مطمعَ فيه لنا ولكم. قال الإمام: والدليل على أنَّ المراد من الهدى هو هذا أنَّه الذي طلبوه والتمسوه[1].

﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ﴾ مما لَقِينا ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ على ذلك، و«سواء» اسمٌ بمعنى الاستواء مرفوعٌ على الخبرية للفعل المذكور بعده؛ لأنَّه مجرَّدٌ عن النسبة والزمان، فحكمه حكم المصدر.

والهمزة و«أم» قد جُرِّدتا عن الاستفهام لمجرَّد التسوية، ولذا صارت الجملةُ خبريةً فكأنَّه قيل: جَزَعُنا وصَبْرُنا سواءٌ علينا، أي: سيَّان، وإنما أفرد الخبر لأنَّه مصدرٌ في الأصل.

وقال الرضي في مثله: إنَّ «سواء» خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: الأمران سواءٌ، ثم بيَّن الأمرَين بقولهم: «أجزعنا أم صبرنا». وما قيل: من أنَّ «سواء» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والجملةُ جزاءٌ للجملة المذكورة بعدُ لتضمُّنها معنى الشرط، وإفادة همزة الاستفهام معنى «إنْ» لاشتراكهما في الدلالة على عدم الجزم، والتقدير: إنْ جَزَعْنا أم صبرنا فالأمران سيَّان = فتكلُّفٌ كما لا يخفى.

والجزعُ: حزنٌ يَصرِف عمَّا يُراد، فهو حزنٌ شديدٌ. وفي «البحر»: هو عدمُ احتمال الشدَّة، فهو نقيضُ الصَّبر[2]، وإنما أسندوا كلًّا من الجزع والصبر واستوائهما إلى ضمير المتكلِّم المنتظِم للمخاطَبين أيضًا مبالغةً في النهي عن التوبيخ بإعلامهم أنَّهم شركاء لهم فيما ابتُلُوا به وتسليةً لهم.

وجوِّز أنْ يكون هذا من كلام الفريقَين، فهو مردودٌ إلى ما سيق له الكلام وهو[3] الفريقان، ولا نظرَ إلى القرب كما قيل في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ

---

(١) المصدر السابق ١٩/ ١٠٩.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤١٤.

(٣) في (م): وهم.

أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف:٥٢] وأيد ذلك بما أخرجَه ابنُ أبي حاتم والطبرانيُّ وابنُ مردويه عن كعب بنِ مالك رَفَعه إلى النبيِّ ﷺ فيما يظنُّ أنَّه قال: «يقولُ أهلُ النار: هَلمُّوا فلنصبر، فيَصْبِرُون خمسمئة عام، فلمَّا رأَوا ذلك لا ينفعُهم قالوا: هَلمُّوا فَلْنجزع، فيبكون خمسمئة عامٍ، فلمَّا رأَوا ذلك لا ينفعهم، قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ الآية»[١]، وإلى كون هذه المحاورة بين الضعفاء والمستكبرين في النار ذهب بعضُهم ميلًا لظواهر الأخبار.

واستظهر أبو حيان[٢] أنَّها في موضع العرض وقتَ البروز بين يدي الله تعالى، وقولُ الأتباع: (فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا) جزءٌ منهم، وكذا جوابُ الرؤساء باعترافهم بالضلال، واحتمالُ أنَّه من كلام الأوَّلين فقط خلافُ الظاهر جدًّا.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ جملةٌ مفسِّرةٌ لإجمال ما فيه الاستواء، فلا محلَّ لها من الإعراب، أو حالٌ مؤكدةٌ، أو بدل منه، والمحيصُ من حاص: حادَ وفرَّ، وهو إما اسمُ مكانٍ كالمبيت والمصيف، أو مصدرٌ ميميٌّ كالمغيب والمشيب، والمعنى: ليس لنا محلٌّ ننجوا فيه من عذابه، أو لا نجاةَ لنا من ذلك.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ الذي أضلَّ كِلا الفريقَين واستَتْبَعَهما عندما عتباه وقرَّعاه على نمط ما قاله الأتباع للرؤساء ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: أُحْكِمَ وفُرِغَ منه، وهو الحساب، ودخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النار النارَ خطيبًا في مَحْفِل الأشقياء من الثقلَين.

أخرج ابنُ جرير وغيرُه عن الحسن قال: إذا كان يومُ القيامة قامَ إبليسُ خطيبًا على منبرٍ من نارٍ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ إلى آخره[٣]. وعن مقاتل: أنَّ الكفار يجتمعون عليه في النار باللائمة فيرقَى منبرًا من نار فيقول ذلك.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ١٩/(١٧٢)، والدر المنثور ٤/ ٧٤.
(٢) البحر المحيط ٥/٤١٨.
(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٦٣١، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٧٥ إلى ابن أبي حاتم وابن المنذر.

وفي بعض الآثار ما هو ظاهرٌ في أنَّ هذا في الموقف، فقد أخرج الطبرانيُّ وابنُ المبارك في «الزهد» وابنُ جرير وابنُ عساكر لكن بسند ضعيف من حديث عُقبةَ بنِ عامر يرفعُه إلى رسول الله ﷺ، «أنَّ الكفار حين يَرَون[1] شفاعةَ النبيِّ ﷺ للمؤمنين يأتُون إبليسَ فيقولون له: قد وَجَد المؤمنونَ مَن يشفعُ لهم، فقم أنت فاشفع لنا، فإنَّك أنت أضْلَلْتَنا، فيقومُ، فيثورُ من مجلسه أنتنُ ريحٍ شمَّها أحدٌ، فيقول ما قصَّ الله تعالى»[2].

ومعنى «وَعْدَ الحقِّ» وعدًا مِن حقِّه أنْ يُنجز، أو وعدًا نجز، وهو الوعدُ بالبعث والجزاء، وقيل: أراد بـ «الحقِّ» ما هو صفتُه تعالى، أي: إنَّ الله تعالى وَعَدكم وعدَه الذي لا يُخلَف، والظاهرُ أنَّه صفةُ الوعدِ، وفي الآية على الأول إيجازٌ، أي: إنَّ الله سبحانه وعدَكم وعدَ الحقِّ فوفَّاكم وأنجزكم ذلك ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ وعدَ الباطل، وهو أنْ لا بعثَ ولا حسابَ، ولئن كانا فالأصنام تشفعُ لكم.

﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ موعدي، أي: لم يتحقَّق ما أخبرتُكم به، وظهر كذبُه، وقد استُعير الإخلاف لذلك، ولو جُعل مُشاكلةً لصحَّ.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: تسلُّطٍ أو حُجَّةٍ تدلُّ على صدقي ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ أي: إلا دعائي إياكم إلى الضلالة، وهو[3] وإنْ لم يكن من جنس السلطان حقيقةً، لكنَّه أَبرزَه في مبرزه، وجعَلَه منه ادِّعاء، فلذا كان الاستثناء متَّصلًا، وهو من تأكيد الشيءِ بضدِّه كقوله:

وخيلٍ قد دَلَفتُ لها بخيلٍ تحيةُ بينهم ضربٌ وَجيعُ[4]

وهو من التهكُّم لا من باب الاستعارة أو التشبيه أو غيرهما على ما حُقِّق في موضعه، فإنْ لم يُعتبَر فيه التهكُّم والادعاء يكون الاستثناء منقطعاً على حدِّ قوله:

---

(١) في الأصل و(م): يروا، والمثبت هو الجادة.

(٢) المعجم الكبير ١٧/ (٨٨٧)، والزهد (٣٧٤ زوائد نعيم)، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٣١، وتاريخ دمشق ٧/ ٤٥٣، وأخرجه أيضاً الدارمي (٢٨٠٤).

(٣) في (م): وهذا.

(٤) البيت لعمرو بن معديكرب كما في النوادر لأبي زيد ص١٥٠، والعمدة في محاسن الشعر ٢/ ٢٩٢، وخزانة الأدب ٩/ ٢٦٥.

وبلدةٍ ليسَ بها أنيسُ إلا اليعافيرُ وإلا العيسُ[(١)]

وإلى الانقطاع ذهب أبو حيان وقال: إنَّه الظاهر[(٢)]، وجوَّز الإمام[(٣)] القولَ بالاتصال من غير اعتبار الادِّعاء؛ ووجَّه ذلك بأنَّ القدرة على حَمْل الإنسان على الشيء تارةً تكون بالقهر من الحامل، وتارةً تكونُ بتقويةِ الداعية في قلبه وذلك بإلقاء الوَسواس إليه، وهذا نوعٌ من أنواع التسلُّط فكأنَّه قال: ما كان لي تسلُّطٌ عليكم إلا بالوَسوسة لا بالضرب ونحوه.

﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي: أسرعتُم إجابتي، كما يُؤذنُ بذلك الفاء، وقيل: يُستفاد الإسراع من السين؛ لأنَّ الاستجابةَ وإنْ كانت بمعنى الإجابة لكنْ عُدَّ ذلك من التجريد، وأنَّهم كأنَّهم طلبوا ذلك من أنفسهم، فيقتضي السرعة، وفيه بعدٌ.

﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ بوعدي إياكم حيث لم يكن على طريق القَسْر والإلجاء كما يدلُّ عليه الفاء، وقيل: بوسوستي، فإنَّ مَن صرَّح بالعداوة وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦] لا يُلام بأمثال ذلك.

وقرئ: «فلا يلوموني» بالياء[(٤)] على الالتفات.

﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ حيث استجبتُم لي باختياركم الناشئ عن سوء استعدادكم حين دعوتكم بلا حجَّةٍ ولا دليل، بل بمجرَّد تزيينٍ وتسويلٍ، ولم تستجيبوا لربِّكم إذ دعاكم دعوةَ الحقِّ المقرونة بالبيِّنات والحُجَج، وليس مرادُ اللَّعين التنصُّلَ عن توجُّه اللائمة إليه بالمرَّة، بل بيانُ أنَّهم أحقُّ بها منه.

وفي «الكشاف»: إنَّ في هذه الآية دليلًا على أنَّ الإنسان هو الذي يختارُ الشقاوةَ والسعادة ويُحصِّلهما لنفسه، وليس من الله تعالى إلا التمكينُ، ولا مِن الشيطان إلا التزيينُ، ولو كان الأمر كما تزعمُ المجبرة لقال: فلا تلوموني

---

(١) البيت لجِرَان العَوْد النميري، وهو في ديوانه ص٩٧ ـ وفيه: بسابسًا، بدل: وبلدة ـ وخزانة الأدب ١٠/١٧.

(٢) البحر المحيط ٥/٤١٨.

(٣) تفسير الرازي ١٩/١١١.

(٤) القراءات الشاذة ص٦٨.

ولا أنفسَكم، فإنَّ الله تعالى قد قضَى عليكم الكفرَ وأجبرَكم عليه، وليس قولُه المحكيُّ باطلًا لا يصحُّ التعلُّقُ به، وإلا لبيَّن الله سبحانه بطلانَه وأظهرَ إنكاره، على أنَّه لا طائلَ في النطق بالباطل في ذلك المقام، ألا تَرى كيف أتَى بالصدق الذي لا ريبَ فيه في قوله: «إنَّ الله وعَدَكم» إلى آخره. وقوله: «وما كانَ لي عليكم» إلى آخره[1]. اهـ.

واعترض قوله: وإلا لبيَّن سبحانه بطلانَه، بأنَّه ينقلبُ عليه في قول المستكبرين: «لو هدانا الله لهديناكم» إذ لم يُعقَّب بالبطلان على وجه التَّوْريك الذي ادَّعاه، وكذلك قوله: على أنَّه لا طائلَ.. إلى آخره.

والجوابُ أنَّ الأوَّل غيرُ متعيِّنٍ لذلك الوجه كما سمعتَ، ومع ذلك قد عقَّب بالبطلان في مواضعَ عديدةٍ، ويكفي حكاية الكذب عنهم في ذلك الموطن، وذلك في الموطن على توهُّم أنَّه نافعٌ كما حكَى الله تعالى عنهم، أمَّا بعدَ قضاء الأمر ودخولِ أهل الجنةِ الجنةَ، والنارِ النارَ فلا يُتوَهَّم لذلك طائلٌ ألبتة؛ لاسيَّما والشيطانُ لا غرضَ له في ذلك، فافترقا قائلًا وموطنًا وحكمًا.

بل الجوابُ أنَّ أهلَ الحقِّ لا يُنكرون توجُّه اللائمة عليهم، وأنَّ الله تعالى مقدَّسٌ عن ذلك، وحجَّته البالغةُ وقضاؤه سبحانه الحقُّ، حيث أثبتُوا للعبد القدرةَ الكاسبةَ التي يدورُ عليها فَلَكُ التكليف وجعلوا لها مدخلًا في ذلك، فإنَّه سبحانه إنَّما يخلقُ أفعالَه حسبما يختارُه، وسَلْبُهم التأثيرَ الذاتيَّ عن قدرته لا ينفي اللوم عنهم، كما بُيِّن في محلِّه[2].

وما ذكره من أنَّه لو كان الأمر.. إلى آخره، مبنيٌّ على عدم الفَرْق بين مذهبِ أهلِ الحقِّ الملقَّبينَ عنده بالمجبرة وبين مَسْلك المجبرة في الحقيقة، والفَرْقُ مثلُ الصبح ظاهرٌ.

هذا، واستدلَّ بظاهر الآية على أنَّ الشيطان لا قدرةَ له على تصريع الإنسان، أو تعويجِ أعضائه وجوارحِه، أو على إزالة عقله؛ لأنَّه نَفَى أنْ يكونَ له تسلُّطٌ

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٧٤بنحوه.

(٢) منها ما ورد في ٤/ ٣٤٨-٣٤٩، وما سيأتي في سورة الإنسان عند تفسير الآية (٣٠).

إلا بالوسوسة، وأجاب من زعم القدرة على نحو ذلك بأن المقصود في الآية نفي أن يكون له تسلُّطٌ في أمر الإضلال إلا بمحض الوسوسة، لا نفيَ أنْ يكونَ له تسلُّطٌ أصلًا، والسياقُ أدلُّ قرينةٍ على ذلك.

وانتزع بعضُهم من الآية إبطالَ التقليد في الاعتقاد، قال ابنُ الفرس: وهو انتزاعٌ حسنٌ؛ لأنَّهم اتَّبعوا الشيطان بمجرَّد دعواه ولم يطلبوا منه برهانًا، فحُكيَ ذلك عنهم متضمِّنًا لذمِّهم.

ثم الظاهرُ أن هذه الدعوة من الشيطان ـ أعني إبليس ـ بلا واسطةٍ، وهي إنْ كانت في وقت واحدٍ لمتعدِّدين فممَّا يعسرُ تصوُّره، ولا يبعدُ أنْ يقال: إنَّ له أعوانًا يفعلون كما يفعل، لكن لمَّا كان ذلك بأمره تصدَّى وحدَه لِمَا تصدَّى ونسبت الدعوة إليه، وللإمام الرازي[1] في الآية كلامٌ طويلٌ ساقه لبيان كيفيَّة الدعوة وإلقاء الشيطان الوسوسةَ في قلب الإنسان، وأكثرُه عند المحدِّثين والسلف الصالحين أشبهُ شيءٍ بوساوس الشياطين، ولعلَّ النوبة تفضي إن شاء الله تعالى إلى تحقيق ذلك بعون الله تعالى القادر المالك.

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أي بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب، يقال: استصرخَني فأصرختُه، أي: استغاثني فأغثتُه، وأصلُه من الصُّراخ وهو مدُّ الصوت، والهمزةُ للسلب، كأنَّ المغيثَ يُزيلُ صراخَ المستغيث.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ مما أنا فيه، وفي تعرُّضه لذلك مع أنَّه لم يكن في حيِّز الاحتمال مبالغةٌ في بيان عدم إصراخه إياهم، وإيذانٌ بأنَّه أيضًا مبتلًى بمثل ما ابتُلُوا به، ومحتاجٌ إلى الإصراخ فكيف له بإصراخ الغير، ولذلك آثرَ الجملة الاسميةَ، والمرادُ استمرارُ النفي وتأكيده[2] لا نفْي الاستمرار، وكذا يقالُ في التأكيد، فكان ما مضَى جوابًا منه عن توبيخهم وتقريعهم، وهذا جوابُ استغاثتهم واستعانتهم به في دفع ما دَهَمَهم من العذاب.

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ١١٣ ـ ١١٤.

(٢) قوله: وتأكيده، ليس في (م).

وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة: «بمصرخيِّ» بكسر الياء[١] على الأصل في التخلُّص من التقاء الساكنَين، وذلك أنَّ الأصل: بمُصْرِخِينَ لي، فأُضيفَ وحُذفَت نونُ الجمع للإضافة، فالتقت ياءُ الجمع الساكنة وياءُ المتكلِّم، والأصل فيها السكون، فكُسِرَت لالتقاء الساكنَين وأُدغمت.

وطعَنَ في هذه القراءة كثيرٌ من النحاة، قال الفرَّاء[٢]: لعلَّها مِن زعم القرَّاء، فإنَّه قلَّ مَن سَلِمَ منهم من الوهم. وقال أبو عبيد: نراهم غلطوا[٣]. وقال الأخفش[٤]: ما سمعتُ هذا الكسرَ من أحدٍ من العرب، ولا من أحدٍ من النحويين. وقال الزجَّاج[٥]: إنَّها عند الجميع رديئةٌ مرذولة، ولا وجهَ لها إلا وُجَيهٌ ضعيفٌ. وقال الزمخشري: هي ضعيفةٌ، واستشهدوا لها ببيتٍ مجهولٍ:

قال لها هلْ لَكِ ياتا فيِّ ... قالَتْ له ما أنتَ بالمَرضيِّ[٦]

وكأنَّهم قدَّروا ياءَ الإضافة ساكنةً فحرَّكوها بالكسر لِمَا عليه أصلُ التقاء الساكنَين، ولكنَّه غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ ياءَ الإضافة لا تكونُ إلا مفتوحةً حيث قبلها ألفٌ نحو: عصايَ، فما بالُها وقَبلها ياءٌ؟ والقولُ بأنَّه جَرَت الياءُ الأُولَى مجرَى الحرفِ الصحيح لأجل الإدغام، فكأنَّها ياءٌ وقعَت ساكنةً بعد حرفٍ صحيحٍ ساكنٍ، فحرِّكَت بالكسر على الأصل = ذهابٌ إلى القياس، وهو قياسٌ حسن، ولكنَّ الاستعمال المستفيضَ الذي هو بمنزلة الخبرِ المتواترِ تَتَضاءلُ إليه القياسات[٧]. اهـ.

---

(١) قراءة حمزة في التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٨، ونسبها ليحيى بن وثاب الفراءُ في معاني القرآن ٢/ ٧٥، والنحاسُ في إعراب القرآن ٢/ ٣٦٨، والزجاجُ في معاني القرآن ٣/ ١٥٩.
(٢) معاني القرآن ٢/ ٧٥.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤١٩.
(٤) معاني القرآن ٢/ ٥٩٩.
(٥) معاني القرآن ٣/ ١٥٩.
(٦) في هامش (م): وقبله:

أَقبلَ في ثوبٍ معافريِّ ... عند اختلاط الليل والعشيِّ

اهـ. منه. والبيت للأغلب العجلي كما في خزانة الأدب ٤/ ٤٣٠ ـ ٤٣١، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٦٣، وقوله: ياتا فيِّ: (يا) حرف نداء، (تا) منادى، وهو اسم إشارة يشار به إلى المؤنث، و(فيِّ): جار ومجرور متعلقان بخبر مبتدأ محذوف. ينظر خزانة الأدب.
(٧) الكشاف ٢/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

وقد قلّد هؤلاء الطاعنين[١] جماعة، وقد وَهِمُوا طعنًا وتقليدًا؛ فإنَّ القراءة متواترةٌ عن السلف والخلف، فلا يجوزُ أنْ يقال فيها: إنَّها خطأٌ أو قبيحةٌ أو رديئةٌ، وقد نقلَ جماعةٌ من العلماء أنَّها لغةٌ لكنَّها قلَّ استعمالُها.

ونصَّ قُطْرب على أنَّها لغةٌ في بني يَربوع فإنَّهم يكسرون ياءَ المتكلِّم إذا كان قبلها ياءٌ أُخرى، ويَصلُونها بهاء ك: عَلَيِّه ولَدَيِّه، وقد يكتفون بالكسرة، وذلك لغةُ أهل الموصل وكثير من الناس اليوم، وقد حسَّنها أبو عمرو وهو إمامُ لغةٍ وإمامُ نحوٍ وإمامُ قراءةٍ، وعربيٌّ صحيح، ورَوَوا بيتَ النابغة:

علَيَّ لعمرٍو نعمةٌ بعدَ نعمةٍ لوالدِه ليسَتْ بذاتِ عقاربِ[٢]

بكسر ياءِ: عليّ، فيه، وأنشدوا لذلك أيضاً البيت السابق، وهو للأغلب العجليّ، وجَهْلُ الزمخشريِّ به كالزجَّاج لا يُلتفَتُ إليه، وقولُه: إنَّ ياءَ الإضافة لا تكونُ إلا مفتوحةً... إلى آخره، مردودٌ بأنَّه رُوي سكونُ الياء بعدَ الألف، وقرأ به القُرَّاء في «محيايْ»[٣] [الأنعام:١٦٢] وما ذكره أيضًا قياسٌ مع الفارق، فإنَّه لا يلزمُ من كسرها مع الياء المجانسةِ للكسرة كَسْرها مع الألف الغيرِ المجانسة لها، ولذا فُتحت بعدها للمجانسة، وكونُ الأصل في هذه الياء الفتحَ في كلِّ موضع غيرُ مسلَّم، كيف وهي من المبنيَّات، والأصلُ في المبنيِّ أنْ يُبنَى على السكون.

ومن الناس من وجَّه القراءة بأنَّها على لغة مَن يَزيدُ ياءً على ياء الإضافة إجراءً لها مجرى هاء الضمير وكافِهِ، فإنَّ الهاء قد تُوصَلُ بالواو إذا كانت مضمومةً ك: هذا لهو، وضَرَبَهو، وبالياء إذا كانت مكسورةً نحو: بِهِي، والكافُ قد تلحقُها الزيادة فيقال: أعطيتكَاه وأعطيتُكِيْهِ إلا أنَّه حُذفت الياءُ هنا اكتفاءً بالكسرة.

وقال البصير[٤]: كسر الياء ليكونَ طبقًا لكسر الهمزة في قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾

(١) في (م): الطاغين.
(٢) ديوان النابغة الذبياني ص٩.
(٣) وهي قراءة قالون وورش وأبي جعفر كما في التيسير ص١٠٨، والنشر ٢/ ٢٦٨.
(٤) لعله: أبو علي الفضل بن جعفر بن الفضل النخعي، كان أديباً ظريفاً بليغاً، وكان أعمى، فلقِّب بالبصير، وقيل: لقِّب بالبصير لذكائه وفطنته. (ت٢٥١هـ). معجم الشعراء للمرزباني ص١٨٥، ولسان الميزان ٦/ ٣٣٦.

لأنَّه أرادَ الوصل دون الوقف والابتداء بذلك، والكسرُ أدلُّ على الوصل من الفتح[1]، وفيه نظر.

وبالجملة لا ريبَ في صحَّة تلك القراءةِ، وهي لغةٌ فصيحةٌ، وقد روي أنَّه تكلَّم بها رسول الله ﷺ في حديث بدء الوحي وشرحِ حاله عليه الصلاة والسلام لورقةَ بنِ نَوفل[2] رضي الله عنه، فإنكارُها محضُ جهالةٍ.

وأراد بقوله: «إنِّي كفرتُ»: إنِّي كفرتُ اليوم ﴿بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ أي: من قبل هذا اليوم، يعني في الدنيا.

و«ما» مصدريةٌ و«مِن» متعلِّقةٌ بـ «أشركتموني» أي: كفرتُ بإشراكِكُم إيَّايَ لله تعالى في الطاعة؛ لأنَّهم كانوا يُطيعونه في أعمال الشرِّ كما يُطاعُ الله تعالى في أعمال الخير، فالإشراك استعارةٌ بتشبيه الطاعةِ به وتنزيلها منزلتَه، أو لأنَّهم لمَّا أشركوا الأصنام ونحوها بإيقاعه لهم في ذلك فكأنَّهم أشركوه، والكفرُ مجازٌ عن التبرِّي كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ [فاطر: ١٤] ومرادُ اللَّعين أنَّه إنْ كان إشراككم لي بالله تعالى هو الذي أطمعكم في نُصرتي لكم، وخَيَّل إليكم أنَّ لكم حقًّا عليَّ فإني تبرَّأتُ من ذلك ولم أحمَدْه، فلم يبقَ بيني وبينكم علاقةٌ، وإرادة اليوم حسبما ذكرنا هو الظاهر، فيكونُ الكلام محمولًا على إنشاء التبرِّي منهم يومَ القيامة.

وجوَّز النسفيُّ أنْ يكونَ إخبارًا عن أنَّه تبرَّأ منهم في الدنيا، فيكون «مِن قبلُ» متعلِّقًا بـ «كفرتُ» أو متنازعًا فيه[3].

وجوَّز غير واحدٍ أن تكون «ما» موصولةً بمعنى «مَن» كما قيل في قولهم: سبحان ما سَخَّرَكُنَّ لنا، والعائدُ محذوفٌ، و«مِن قبلُ» متعلِّقٌ بـ «كفرتُ»، أي: إنِّي كفرتُ مِن قبلُ حين أبيتُ السجودَ لآدم عليه السلام بالذي أشركتُمونيه، أي: جعلتُموني شريكًا له بالطاعة وهو الله عزَّ وجلَّ، فـ : أَشْركَ، منقولٌ من: شركتُ

---

(١) مجمع البيان ١٣/ ٢١٢.

(٢) بعدها في (م): رضي الله عنه، والخبر في حاشية الشهاب ٥/ ٢٦٤.

(٣) ينظر تفسير النسفي ٢/ ٤٢٩، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٦٤ والكلام منه.

زيدًا، للتعدية إلى مفعولٍ ثانٍ، والكلامُ على هذا إقرارٌ من اللَّعين بقِدَم كفره، وبيانٌ لأنَّ خطيئتَه سابقةٌ عليهم فلا إغاثةَ لهم منه، فهو في المعنى تعليلٌ لعدم إصراخه إياهم.

وزعم الإمام: أنَّه لنفي تأثيرِ الوسوسةِ، كأنَّه يقول: لا تأثيرَ لوَسوستي في كفركم، بدليل أنِّي كفرتُ قبلَ أنْ وقعتُم في الكفر بسبب وسوسةٍ أخرى، وإلا لزِمَ التسلسل، فثبتَ بهذا أنَّ سبب الوقوع في الكفر شيءٌ آخرُ سوى الوسوسة[1]. وكان الظاهر على هذا تقديمه على قوله: «ما أنا بمصرخكم» إلى آخره، ولا يظهرُ لتأخيره نكتةٌ يَهَشُّ لها الخاطرُ.

ومنهم مَن جعله تعليلًا لعدم إصراخهم إياه، وهو مما لا وجهَ له، إذ لا احتمالَ لذلك حتى يحتاج إلى التعليل، وقيل: لأنَّ تعليل عدم إصراخهم بكفره يُوهم أنَّهم بسبيلٍ من ذلك لولا المانعُ من جهته.

واعترض بأنَّ نحو هذا الإيهام جارٍ في الوجه الأول، وهم الكفرةُ الذين لا تنفعُهم شفاعةُ الشافعين.

وتَعقَّب في «البحر» القولَ بالموصولية، بأنَّ فيه إطلاقَ «ما» على الله تعالى، والأصحُّ فيها أنَّها لا تُطلَق على آحاد مَن يعلم[2]. و«ما» في: سبحان ما سخَّركُنَّ، يجوز أنْ تكون مصدريةً بتقدير مضافٍ، أي: سبحان مُوجد أو ميسِّر تسخيركُنَّ لنا.

وقال الطيبي: إنَّ «ما» لا تُستعمل في ذي العلم إلا باعتبار الوصفية فيه وتعظيم شأنه، والمثال على ذلك، أي: سبحانَ العظيمِ الشأنِ الذي سخَّركنَّ للرجال مع مكركنَّ وكيدكنَّ، وكون «ما» موصولةً عبارة عن الصنم، أي: إنِّي كفرتُ بالصنم الذي أشركتُمونيهِ، مما لا ينبغي أنْ يُلتفَتَ إليه.

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٢﴾ الظاهرُ أنَّه من تمام كلامِ إبليسَ قطعًا لأطماع الكفار من الإغاثة والإعانة، وحَكَى اللهُ تعالى عنه ما سيقولُه في ذلك الوقت ليكونَ تنبيهًا للسامعين وحثًّا لهم على النظر في عاقبتهم والاستعدادِ لما لا بدَّ

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ١١٥.

(٢) الكلام من النهر الماد على هامش البحر ٥/ ٤٢٠.

منه، وأنْ يَتصوَّروا ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول، فيخافوا ويعملوا ما ينفعُهم هناك.

وقيل: إنه من كلام الخزنةِ يوم ذاك.

وقيل: إنَّه ابتداءُ كلامٍ من جهته تعالى، وأُيِّد بأنَّه قرأ الحسنُ، وعمرو بنُ عبيد: «أُدخلُ»[1] في قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ بصيغة المضارع المسنَدِ إلى المتكلِّم، وأنت تعلم أنَّه إذا اعتبرت هذه القراءة مؤيِّدةً لهذا القول، فلتعتبر قراءة الجمهور: «أُدخلَ» بصيغة الماضي المبنيِّ للمفعول مؤيِّدةً لمَا قبله، فإنَّ المُدخلين الملائكةُ عليهم السلام، فتأمَّل.

وكأنَّ الله تعالى لمَّا جمعَ الفريقَين في قوله سبحانه: (وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا) وذكَرَ شيئًا من أحوال الكفار ذكر ما آل إليه أمرُ المؤمنين من إدخالهم الجنةَ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمره سبحانه أو بتوفيقه وهدايته جلَّ شأنُه، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «أُدخلَ» على قراءة الجمهور. وفي التعرُّض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم إظهارُ مزيد اللطفِ بهم.

وعلَّقه جماعةٌ على القراءة الأُخرَى بقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يُحيِّيهم الملائكةُ بالسلام بإذن ربِّهم. وتعقَّب ذلك أبو حيان بأنَّ فيه تقديمَ معمول المصدر المنحَلِّ بحرفٍ مصدريٍّ وفعلٍ عليه، وهو غيرُ جائز[2]، لِمَا أنَّ ذلك في حكمِ تقديمِ جزءٍ من الشيء المرتَّب الأجزاء عليه. ورُدَّ بأنَّ الظاهرَ أنَّه هنا غيرُ منحلٍّ إليهما؛ لأنَّه ليس المعنى المقصود منه أنْ يُحيَّوا فيها بسلام، ولو سَلِمَ فمراد القائل بالتعلُّقِ التعلُّقُ المعنويُّ، فالعاملُ فيه فعلٌ مقدَّرٌ يدلُّ عليه «تحيتهم» أي: يُحيّون بإذن ربِّهم.

وقال العلامة الثاني: الأظهرُ أنَّ التقديم جائزٌ إذا كان المعمولُ ظرفًا أو شِبهَهُ، وهو في الكلام كثير. والتقديرُ تكلُّفٌ، وليس كلُّ مؤوَّلٍ بشيء حكمه حكم ما أُوِّلَ

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٦١، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٠.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٢٠ ـ ٤٢١.

به، مع أنَّ الظرف مما يكفيه رائحة من الفعل؛ لأنَّ له شأنًا ليس لغيره، لتنزُّله من الشيءِ منزلةَ نفسِهِ لوقوعه فيه وعدم انفكاكه عنه، ولهذا يُتَّسَعُ[(١)] في الظروف ما لا يُتَّسعُ في غيرها. اهـ.

وبالجواز أقولُ، وإنَّما لم يجعله المحقِّقون متعلِّقًا بـ «أُدخل» على تلك القراءة مع أنَّه سالم من الاعتراض ومشتَمِلٌ على الالتفات أو التجريد، وهو من المحسِّنَات؛ لأنَّ قولك: أدخلته بإذني، ركيكٌ لا يناسبُ بلاغةَ التنزيل، والالتفاتُ أو التجريد حاصلٌ إذا عُلِّق بما بعدَه أيضًا.

وفي «الانتصاف» الصارفُ عن هذا الوجه، هو أنَّ ظاهر «أُدخلُ» بلفظ المتكلِّم يُشعرُ بأنَّ إدخالهم الجنةَ لم يكن بواسطةٍ بل من الله تعالى مباشرةً، وظاهرُ الإذن يُشعر بإضافة الدخول إلى الواسطة، فبينهما تنافرٌ، واستَحْسَنَ أنْ يعلَّق بـ «خالدين»، والخلودُ غيرُ الدخول فلا تنافر[(٢)].

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّ ذلك لا يدفعُ الركاكة، وكأنَّه لما أنَّ الإذن للدخول لا للاستمرار بحسب الظاهر، وكونُ المرادِ: بمشيئتي وتيسيري لا يدفعُ ذلك عند التأمُّل الصادق، فما ذهب إليه ابنُ جني[(٣)] واستَطيبَه الشيخ الطيبيُّ وارتضاه، ليس بشيءٍ لمن سلم له ذوقه.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب لسيِّد المخاطبين ﷺ، وقيل: لمن يصلُح له، والفعل معلّقٌ بما بعده من قوله تعالى: ﴿كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: كيف اعتمله ووضَعَه في موضعه اللائق به. ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ نُصبَ على البدلية من «مثلًا»، و«ضَرَبَ» متعدِّية إلى مفعول واحد كما ذهب إلى ذلك الحوفيُّ والمهدويُّ وأبو البقاء[(٤)]، وهو على ما قيل: بدلُ اشتمال، ولو جُعل بدل كلٍّ مِن كلٍّ لم يَبعُد.

واعترض عليه بأنَّه لا معنى لقولك: ضَرَبَ الله كلمةً طيِّبةً، إلا بضمِّ «مثلًا» إليه، فـ «مثلًا» هو المقصود بالنسبة، فكيف يُبدل منه غيرُه، ولا يخفَى أنَّ هذا بناء

---

(١) في (م): اتسع.
(٢) الانتصاف ٢/ ٣٧٥ - ٣٧٦.
(٣) المحتسب ١/ ٣٦١ - ٣٦٢.
(٤) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٤٠٥.

على ظاهر قول النحاة: إنَّ المبدل منه[1] في نية الطرح، وهو قولٌ[2] غيرُ مسلَّم.

وقوله سبحانه: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ صفةُ «كلمة»، أو خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: هي كشجرةٍ، وجوِّز أن يكونَ «كلمة» منصوبًا بمضمَر، و«ضَرَبَ» أيضًا متعدِّيةً لواحد، أي: جعل كلمةً طيبة كشجرةٍ طيبة، أي: حكم بأنَّها مثلها، والجملةُ تفسيرٌ لقوله سبحانه: (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا) كقولك: شرَّف الأميرُ زيدًا، كساهُ حُلَّةً وحمله على فرس.

وتَعقَّب ذلك أبو حيان بأنَّ فيه تكلُّفَ إضمار لا ضرورة تدعو إليه[3]. وأجابَ عنه السمين بما فيه بحثٌ[4].

وجوِّز أيضًا أن يكونَ «ضَرَبَ» المذكور متعدِّيًا إلى مفعولَين، إمَّا لكونه بمعنى جَعَل واتَّخذ، أو لتضمينه معناه، و«كلمةً» أوَّلُ مفعوليه قد أُخِّر عن ثانيهما أعني «مثلًا» لئلَّا يَبعُدَ عن صفته التي هي «كشجرةٍ»، قيل: ولا يرد على هذا بأنَّ المعنى: أنَّه تعالى ضرَبَ لكلمة طيِّبة مثلًا لا كلمةً طيِّبةً مثلًا؛ لأنَّ المثل عليه بمعنى الممثَّل به، والتقدير: ذات مثلٍ، أَوْلها مثلًا.

وقرئ: «كلمةٌ» بالرفع[5] على الابتداء لكونها نكرةً موصوفةً، والخبرُ «كشجرةٍ»، ويجوز أنْ يكونَ خبرَ مبتدأ محذوفٍ، و«كشجرة» صفة أخرى.

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: ضاربٌ بعروقه في الأرض.

وقرأ أنس بنُ مالك: «كشجرة طيبةٍ ثابتٍ أصلُها»[6] وقراءة الجماعة على الأصل، وذكروا أنَّها أقوى معنًى، قال ابنُ جني: لأنَّك إذا قلت: ثابتٌ أصلُها، فقد أجريت الصفة على «شجرة» وليس الثباتُ لها إنما هو للأصل، والصفةُ إذا كانت في المعنى لِمَا هو من سبب الموصوفِ قد تَجري عليه لكنَّها أخصُّ بما هي له

(١) قوله: منه، ليس في (م).
(٢) قوله: قول، ليس في (م).
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٢١.
(٤) الدر المصون ٧/ ٩٩.
(٥) الإملاء ٣/ ٤٠٥، والبحر المحيط ٥/ ٤٢١.
(٦) المحتسب ١/ ٣٦٢، والكشاف ٢/ ٣٧٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٢.

لفظًا ومعنًى، فالأحسن تقديمُ الأصل عنايةً به، ومِن ثَمَّ قالوا: زيدٌ ضربته، فقدَّموا المفعول عنايةً به حيث إنَّ الغرض ليس ذكر الفاعل وإنما هو ذكر المفعول، ثُم لم يَقنعوا بذلك حيث أزالوه عن لفظ الفضلة وجعلوه ربَّ الجملة لفظًا فرفعوه بالابتداء، وصار «ضربته» ذيلًا له وفضلةً ملحقةً به، وكذلك قولُك: مررْتُ برجلٍ أبوه قائمٌ، أقوى معنًى من قولك: مررتُ برجلٍ قائم أبوه؛ لأنَّ المخبَر عنه بالقيام إنما هو الأب لا الرجل مع ما في التقديم هنا من حُسْنِ التقابل والتقسيم إلا أنَّ لقراءة أنس وجهًا حسنًا، وهو أنَّ «ثابت أصلُها» صفةُ الشجرة، وأصلُ الصفة أنْ تكونَ اسمًا مفردًا؛ لأنَّ الجملة إذا وقعَت صفةً حُكم على موضعها بإعراب المفرد، وذلك لم يبلغ مبلغَ الجملة، بخلاف: «أصلُها ثابتٌ» فإنَّه جملةٌ قطعًا[1].

وقال بعضُهم: إنَّها أبلغُ. ولم يذكر وجْهَ ذلك، فزعم مَن زعم أنَّه ما أُشير إليه من وجه الحسن، وهو بمعزلٍ عن الصواب.

وقال ابنُ تمجيد: هو أنَّه كوصف الشيء مرَّتَين، مرةً صورةً ومرةً معنًى، مع ما فيه من الإجمال والتفصيل، كما في ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] فإنَّه لما قيل: «كشجرةٍ طيبةٍ ثابت» تبادَر الذهن مِن جَعْل «ثابت» صفةً لـ «شجرةٍ» صورةُ أنَّ شيئًا من الشجرة متَّصفٌ بالثبات، ثم لمَّا قيل: «أصلُها» عُلم صريحًا أنَّ الثبات صفةُ أصلِ الشجرة.

وقيل: كونُها أكثرَ مبالغةً لجعل الشجرةِ بثبات أصولها ثابتةً بجميع أغصانها، فتدبَّر.

﴿وَفَرْعُهَا﴾ أي: أعلاها من قولهم: فَرَعَ الجبلَ: إذا علاه، وسمِّي الأعلى فرعاً؛ لتفرُّعه على الأصل، ولهذا أُفردَ، وإلا فكلُّ شجرةٍ لها فروعٌ وأغصانٌ. ويجوزُ أن يُراد به الفروع؛ لأنَّه مضافٌ، والإضافة حيث لا عهدَ تردُ للاستغراق، أو لأنَّه مصدرٌ بحسب الأصل، وإضافته على ما اشتهر تفيدُ العمومَ فكأنَّه قيل: وفروعها ﴿فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾ أي: في جهة العلوِّ ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ تعطي ثمرَها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ وقت أَقَّته الله تعالى لإثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بإرادة خالقها جلَّ شأنه.

---

(١) ينظر المحتسب ١/ ٣٦٢ - ٣٦٣، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٦٥.

والمراد بالكلمة الطيبة شهادةُ أنْ لا إله إلا الله، على ما أخرجَهُ البيهقيُّ وغيرُه عن ابن عباس[١]، وعن الأصمِّ أنَّها القرآن، وعن ابن بحر: دعوة الإسلام، وقيل: التسبيحُ والتنزيهُ، وقيل: الثناءُ على الله تعالى مطلقًا، وقيل: كلُّ كلمةٍ حسنةٍ، وقيل: جميعُ الطاعات، وقيل: المؤمنُ نفسُه، وأخرجه ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عن ابن عباس[٢]، وهو خلاف الظاهر، وكأنَّ إطلاقَ الكلمة عليه نظيرُ إطلاقها على عيسى عليه السلام.

والمرادُ بالشجرة المشبَّه بها النخلةُ عند الأكثرين، وروي ذلك عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة والضحاك وابن زيد.

وأخرج عبد الرزاق والترمذيُّ وغيرُهما عن شُعيب بن الحَبْحَاب قال: كنَّا عند أنس فأُتينا بطَبَقٍ عليه رُطَبٌ، فقال أنس لأبي العالية: كُلْ يا أبا العالية فإنَّ هذا من الشجرة التي ذكرها الله تعالى في كتابه: «ضرب الله مثلًا كلمة طيبة كشجرة طيبة ثابت أصلها»[٣].

وأخرج الترمذيُّ أيضاً والنسائيُّ وابنُ حبان والحاكم وصححه عن أنس قال: أُتي رسولُ الله ﷺ بقِناعٍ من بُسرٍ، فقال: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ حتى بلغ ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ قال: «هي النخلة»[٤].

وأخرج ابنُ مردويه[٥] عن ابن عباس أنَّها شجرةُ جوز الهند.

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي ١/ ٢٧٢ - ٢٧٣ (٢٠٦)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٣/ ٦٣٥، والطبراني في الدعاء (١٥٩٨)، وفيه: علي بن أبي طلحة مولى بني العباس. قال ابن حجر في التقريب: أرسل عن ابن عباس ولم يره، صدوق قد يخطئ.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٦٣٦، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٧٥.

(٣) تفسير عبد الرزاق ١/ ٣٤٢، وسنن الترمذي (٣١١٩)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٣/ ٦٣٨ - ٦٣٩، والرامهرمزي في الأمثال ص١١٠، وفي الأصل: أصلها ثابت، والمثبت من الطبري والدر المنثور ٤/ ٧٦، وهي قراءة أنس ﷺ كما مرَّ.

(٤) سنن الترمذي (٣١١٩)، والسنن الكبرى للنسائي (١١١٩٨)، وصحيح ابن حبان (٤٧٥)، والمستدرك ٢/ ٣٥٢، وذكر الترمذي أن الموقوف أصحُّ، والقِناعُ: الطبق الذي يؤكل عليه. النهاية: (قنع).

(٥) كما في الدر المنثور ٤/ ٧٧.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عنه ﷺ أيضًا أنَّها شجرةٌ في الجنة[١]. وقيل: كلُّ شجرةٍ مثمرة طيبةِ الثمار كالنخلة وشجرةِ التين والعنب والرُّمَّان وغير ذلك، وأنت تعلم أنه إذا صحَّ الحديث، ولم يتأتَّ حملُ ما فيه على التمثيل لا ينبغي العدولُ عنه.

ووجهُ تشبيه الكلمة الطيبة بمعنى شهادةِ أن لا إله إلا الله بهذه الشجرةِ المنعوتة بما ذكر أنَّ أصلَ تلك الكلمةِ ومنشأها ـ وهو الإيمان ـ ثابتٌ في قلوب المؤمنين، وما يتفرَّع منها وينبني عليها من الأعمال الصالحة والأفعال الزكية يصعد إلى السماء، وما يترتَّب على ذلك من ثواب الله تعالى ورضاه هو الثمرةُ التي تؤتيها كلَّ حين، ويقال نحو هذا على تقدير أنْ تكون الكلمةُ بمعنًى آخر، فتأمَّل.

والذاهبون إلى تفسير الشجرةِ بالنخلة من السلف اختلفوا في مقدار الحين، فأخرج البيهقيُّ عن سعيد بن المسيب أنَّه شهران قال: إنَّ النخلةَ إنما يكونُ فيها حملُها شهرَين[٢].

وأخرج ابنُ جرير عن مجاهد أنَّه سنة[٣]، وقيل غيرُ ذلك.

واختلفَت الرواياتُ عن ابن عباس، والأشهرُ أنَّه فسَّره بستَّة أَشهُر، وقال: إنَّ النخلة ما بينَ حملها إلى صرامها ستَّةُ أشهر، وأفتى ﷺ لرجلٍ حلَفَ أنْ لا يُكلِّم أخاه حِينًا أنَّه لو كلَّمه قبل ستَّةِ أشهر، حنَثَ[٤]. وهو الذي قال به الحنفية، فقد ذكروا أنَّ الحين والزمان معرَّفَين أو منكَّرين واقعَين في النفي أو في الإثبات ستَّة أشهر، وعلَّلوا ذلك بأنَّ الحين قد جاء بمعنَى الساعةِ، وبمعنى أربعينَ سنةً، وبمعنى الأبد، وبمعنى ستَّةِ أَشهُر، فعند عدم النية ينصرفُ إليه؛ لأنَّه الوسط؛ ولأنَّ القليل لا يقصَدُ بالمنع لوجود الامتناع فيه عادةً، والأربعونَ سنةً لا تُقصَدُ بالحلف عادةً لأنَّه في معنى الأبد، ولو سكت عن الحين تأبَّد، فالظاهرُ أنَّه لم يقصد ذلك، ولا الأبدَ ولا أربعينَ سنةً، فيحكم بالوسط في الاستعمال، والزمان استعمل استعمال الحين. ويعتبر ابتداء الستَّةِ أشهر من وقت اليمين في نحو: لا أكلِّم فلانًا

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٦٤١، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٧٧.
(٢) السنن الكبرى للبيهقي ١٠/ ٦٢، وأخرجه أيضاً الطبري ١٣/ ٦٥٠.
(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٦٤٩.
(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤٧.

حينًا، مثلًا، وهذا بخلاف: لَأصومَنَّ حينًا، فإنَّ له أنْ يُعيِّن فيه أيَّ ستةِ أشهر شاء كما بُيِّن في محلِّه، ومتى نوى الحالفُ مقدارًا معيَّنًا في الحين وأخيه، صُدِّق؛ لأنَّه نوى حقيقةَ كلامه؛ لأنَّ كلًّا منهما للقدر المشترك بين القليل والكثير والمتوسط، واستعمل في كلٍّ كما لا يخفى على المتتبع فليتذكر.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ لأنَّ في ضربها زيادةَ إفهامٍ وتذكير، فإنَّه تصويرُ المعاني العقلية بصُوَر المحسوسات، وبه يرتَفع التنازع بين الحسِّ والخيال.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي كلمةُ الكفر أو الدعاء إليه أو الكذب، أو كلُّ كلمةٍ لا يرضاها الله تعالى. وقرئ: «ومثلَ» بالنصب[1] عطفًا على «كلمةً طيبةً»، وقرأ أُبيٌّ: «وضَرَبَ الله مثلًا كلمة خبيثة»[2].

﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ ولعلَّ تغييرَ الأسلوب على قراءة الجماعة، للإيذان بأنَّ ذلك غيرُ مقصودٍ بالضرب والبيان، وإنما ذلك أمرٌ ظاهرٌ يعرفه كلُّ أحد، وفي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، أي: كمثَل شجرةٍ خبيثة، والمثل بمعنى الصفة الغريبة[3].

﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ أي: اقتُلِعَت من أصلها، وحقيقةُ الاجْتِثاثِ: أَخذُ الجثة، وهي: شخصُ الشيء كلها ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ لكون عروقها قريبةً من الفوق فكأنَّها فوق ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي: استقرارٍ على الأرض، والمرادُ بهذه الشجرةِ المنعوتة الحنظلةُ، ورُوي ذلك أيضًا مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ[4]، وعن الضحاك أنَّها الكَشُوث[5]، ويُشبَّه به الرجلُ الذي لا حسَبَ له ولا نسَبَ كما قال الشاعر:

فهو الكَشوث فلا أصلٌ ولا وَرَقٌ ولا نسيمٌ ولا ظلٌّ ولا ثمرُ[6]

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٢٢.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٢.

(٣) قوله: والمثل بمعنى الصفة الغريبة، ليس في الأصل.

(٤) أخرجه الترمذي (٣١١٩)، والطبري ١٣/ ٦٥٤، وابن حبان (٤٧٥)، وأبو يعلى (٤١٦٥)، والحاكم ٢/ ٣٥٢ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) الكَشُوث: نبتٌ يتعلَّق بالأغصان ولا عرقَ له في الأرض. القاموس (كشث).

(٦) مجمع الأمثال ١/ ٢٨٤، وتصحيح التصحيف ص١٢٣، والصحاح (كشث).

وقال الزجّاج[(١)] وفرقةٌ: شجرةُ الثُّوم، وقيل: شجرةُ الشَّوك، وقيل: الطُّحْلَب، وقيل: الكَمْأَةُ، وقيل: كلُّ شجرٍ لا يطيبُ له ثمر، وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّها شجرةٌ لم تُخلَق على الأرض.

والمقصودُ التشبيه بما اعتبر فيه تلك النعوت. وقال ابنُ عطية: الظاهرُ أنَّ التشبيهَ وقعَ بشجرةٍ غيرِ معيَّنة جامعة لتلك الأوصاف[(٢)]، وفي رواية عن الحبر أيضًا تفسيرُ هذه الشجرة بالكافر.

وروَى الإمامية ـ وأنت تعرفُ حالَهم ـ عن أبي جعفر رضي الله عنه تفسيرَها ببني أمية، وتفسيرُ الشجرة الطيبةِ برسول الله ﷺ وعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه وفاطمةَ رضي الله عنهما وما تولَّد منهما.

وفي بعض روايات أهل السنة ما يُعكِّر على تفسير الشجرةِ الخبيثة ببني أمية، فقد أخرج ابنُ مردويه عن عديِّ بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى قَلَّب العبادَ ظهرًا وبَطْنًا فكان خَيرُ عبادِهِ العربَ، وقلَّبَ العربَ ظهرًا وبطنًا فكانَ خَيرُ العرب قريشًا، وهي الشجرةُ المباركةُ التي قال الله تعالى في كتابه: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾[(٣)]» لأنَّ بني أميةَ من قريش، وأخبارُ الطائفتَين في هذا الباب ركيكةٌ، وأحوالُ بني أميةَ التي يستحقُّون بها ما يستحقُّون غيرُ خفيةٍ عند الموافقِ والمخالفِ.

والذي عليه الأكثرون في هذه الشجرة الخبيثة أنَّها الحنظل، وإطلاقُ الشجرة عليه للمشاكلة، وإلا فهو نَجْمٌ لا شجَرٌ، وكذا يقال في إطلاقه على الكَشوث ونحوه.

وللإمام الرازي[(٤)] قدِّس سرُّه كلامٌ في هذَين المثَلَين لا بأس بذكره ملخَّصًا،

---

(١) كما في البحر المحيط ٥/ ٤٢٢.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٦.
(٣) عزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٧٧، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٧/ (٢٠١)، وفي إسناده: حصين السلولي، قال الذهبي في الميزان ١/ ٥٥٤: قال الدارقطني: يضع الحديث، ونقل ابن الجوزي أن ابن حبان قال: لا يجوز الاحتجاج به.
(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١١٦.

وهو أنَّه تعالى ذكر في المَثَل الأوَّل شجرةً موصوفةً بأربعِ صفاتٍ، ثم شبَّه الكلمةَ الطيبةَ بها:

الصفة الأُولَى: كونها «طيبة» وذلك يحتمل كونَها طيبةَ المنظر، وكونَها طيبةَ الرائحة، وكونها طيبةَ الثمرة، بمعنى كونها لذيذةً مستطابةً، وكونَها طيبةَ الثمرة بمعنى كثرة الانتفاع بها، ويجبُ إرادةُ الجميع، إذ به يحصل كمالُ الطيب.

والثانية: كون أصلها ثابتًا، وهو صفةُ كمالٍ لها؛ لأنَّ الشيءَ الطيب إذا كان في معرض الزوال فهو وإن كان يحصل الفرحُ بوِجْدانه إلا أنَّه يعظمُ الحزنُ بالخوف من زواله، وأمَّا إذا لم يكن كذلك، فإنَّه يعظمُ السرورُ به من غير ما يُنغِّص ذلك.

والثالثة: كون «فرعها في السماء» وهو أيضًا صفةُ كمال لها، لأنَّها متى كانت مُرتَفعةً كانت بعيدةً عن عفونة الأرض وقاذورات الأبنية، فكانت ثمرتُها نقيَّةً خالصةً عن جميع الشوائب.

والرابعة: كونها دائمة الثمر لا أنَّ ثمرَها حاضرٌ في بعض الأوقات دون بعض، وهو صفةُ كمالٍ أيضًا، إذ الانتفاع بها غيرُ مُنقَطعٍ حينئذ.

ثم إنَّ من المعلوم بالضرورة أنَّ الرغبةَ في تحصيل مثل هذه الشجرة يجبُ أن تكونَ عظيمةً، وأنَّ العاقلَ متى أمكنه تحصيلها ينبغي أنْ يقوم له على ساقٍ ولا يتساهل عنه، والمرادُ من الكلمة المشبهةِ بذلك معرفةُ الله تعالى، والاستغراقُ في محبته سبحانه وطاعته، وشبّه ذلك للشجرة في صفاتها الأربع:

أمَّا في الأولَى فظاهرٌ بل لا لذةَ ولا طيبَ في الحقيقة إلا لهذه المعرفة؛ لأنَّها ملائمةٌ لجوهر النفس النُّطقيَّةِ والروح القدسية، ولا كذلك لذة الفواكه، إذ هي أمرٌ ملائم لمزاج البدن، ومن تأمَّل أدنَى تأمُّلٍ ظهر له فروقٌ لا تُحصَى بين اللذَّتَين.

وأما في الصفة الثانية: فثبوتُ الأصل في شجرة معرفة الله تعالى أقوَى وأكملُ؛ لأنَّ عروقها راسخة في جوهر النفس القدسية، وهو جوهرٌ مجرَّدٌ آمنٌ عن الكون والفساد، بعيدٌ عن التغير والفناء، وأيضًا مَدَدُ هذا الرسوخِ إنما هو من تجلِّي جلالِ الله تعالى، وهو من لوازم كونه سبحانه في ذاته نورَ النور ومبدأَ الظهور، وذلك مما يمتنعُ عقلًا زواله.

وأما في الصفة الثالثة فلأنَّ شجرةَ المعرفةِ لها أغصانٌ صاعدةٌ في هواء العالم الإلهي، وأغصانٌ صاعدةٌ في هواء العالم الجسماني:

والنوعُ الأوَّل: أقسامُه كثيرةٌ يجمعُها قولُه ﷺ: «التعظيمُ لأمر الله تعالى»[١] ويدخلُ فيه التأمُّل في دلائل معرفتِه سبحانه كأحوال العوالمِ العلويَّةِ والسفليةِ، وكذا محبَّةُ الله تعالى والتشوُّقُ إليه سبحانه، والمواظبةُ على ذكره جلَّ شأنه، والاعتمادُ عليه وقطْعُ النظر عمَّا سواه جلَّ وعلا إلى غير ذلك.

والنوع الثاني: أقسامُه كذلك، ويجمعُها قوله عليه الصلاة والسلام: «والشفقةُ على خلق الله تعالى»[٢] ويدخل فيه الرأفةُ والرحمةُ والصفحُ، والتجاوز عن الإساءة، والسعيُ في إيصال الخير إلى عباد الله تعالى، ودفع الشرور عنهم ومقابلة الإساءة بالإحسان إلى ما لا يُحصَى، وهي فروعٌ من شجرة المعرفةِ فإنَّ الإنسان كلَّما كان متوغِّلاً فيها كانت هذه الأحوالُ عنده أكمل وأقوى.

وأمَّا في الصفة الرابعة فلأنَّ شجرة المعرفةِ موجبةٌ لِمَا علمت من الأحوال، ومؤثِّرةٌ في حصولها، والسببُ لا ينفكُّ عن المسبَّب[٣]، فدوامُ أكلِ هذه الشجرةِ أتمُّ من دوام أكل الشجرة المنعوتة، فهي أَولَى بهذه الصفةِ، بل ربما توغَّل العبدُ في المعرفة، فيصيرُ بحيث كلَّما لاحظَ شيئًا لاحظ الحقَّ فيه، وربما عَظُم تَرَقِّيه فيصيرُ لا يرى شيئًا إلا يرى الله تعالى قِبَله، وأيضًا قد يحصل للنفس من هذه المعرفةِ إلهامات نفسانيةٌ ومَلَكات روحانية، ثم لا يزال يصعد منها في كلِّ حينٍ ولحظة كلامٌ طيِّب وعملٌ صالح وخضوعٌ وخشوعٌ وبكاءٌ وتذلُّلٌ كثمرة هذه الشجرة.

وفي قوله سبحانه: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ دقيقةٌ عجيبةٌ، وذلك لأنَّ الإنسانَ عند حصول هذه الأحوالِ السنيَّةِ والدرجاتِ العليةِ قد يفرح بها من حيث هي هي، وقد يَتَرَقَّى

---

(١) قطعة من حديث ذكره الصغاني في الموضوعات ص٦٤، قال السخاوي في المقاصد ص٢٥٣: معناه صحيح في كثير من الأحاديث، وأما خصوص هذا اللفظ فلا أعرفه، وقال الملا علي القاري في الموضوعات الكبرى ص٢٢٦: ومن كلام بعض المشايخ حيث قال: مدار الأمر على شيئين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله.

(٢) ينظر التعليق السابق.

(٣) في (م): والمسبب لا ينفك عن السبب.

فلا يفرح بها كذلك، وإنما يفرحُ بها من حيث إنَّها من المولَى جلَّ جلاله، وعند ذلك يكونُ فرحُه في الحقيقة بالمولى تبارك وتعالى، ولذلك قال بعضُ المحقِّقين: مَن آثَرَ العِرفان للعرفان فقد وَقَفَ بالساحل، ومَن آثَرَ العِرفان لا للعِرفان بل للمعروف فقد خاضَ لُجَّةَ الوصول.

وذكر بعضُهم في هذا المثال كلامًا لا يخلو عن حُسْن، وهو أنَّه إنما مثَّل سبحانه الإيمان بالشجرة؛ لأنَّ الشجرة لا تستحقُّ أنْ تسمَّى شجرةً إلا بثلاثة أشياء: عِرْقٌ راسخٌ، وأصلٌ قائم، وأغصانٌ عالية، فكذلك الإيمانُ لا يتمُّ إلا بثلاثة أشياء: معرفةٌ في القلب، وقولٌ باللسان، وعملٌ بالأركان. ولم يرتَضِ قدِّس سرُّه تفسيرَ الشجرةِ بالنخلة، ولا الحينَ بما شاع فقال ـ بعد نقل كلام جماعة ـ: إنَّ هؤلاء وإنْ أصابوا في البحث عن مفردات ألفاظِ الآية إلا أنَّهم بَعُدُوا عن إدراك المقصود؛ لأنَّه تعالى وصَفَ شجرةً بالصفات المذكورة، ولا حاجةَ بنا إلى أنَّ تلك الشجرة هي النخلة أم غيرُها، فإنَّا نعلمُ بالضرورة أنَّ الشجرةَ الكذائيةَ يسعَى في تحصيلها وادِّخارها لنفسه كلُّ عاقل، سواءٌ كان لها وجودٌ في الدنيا أو لم يكن؛ لأنَّ هذه الصفةَ أمرٌ مطلوبُ التحصيل.

واختلافهم في تفسير الحين أيضًا من هذا الباب، والله تعالى أعلم.

وذكر تباركَ وتعالى في المثل الثاني شجرةً أيضًا إلا أنَّه تعالى وصَفَها بثلاث صفات:

الصفة الأولى: كونها «خبيثة» وذلك يحتملُ أنْ يكونَ بحسب الرائحة، وأن يكونَ بحسب الطعم، وأن يكونَ بحسب الصورة، وأن يكون بحسب اشتمالها على المضارِّ الكثيرة، ولا حاجةَ إلى القول بأنَّها شجرةُ كذا أو كذا، فإنَّ الشجرةَ الجامعةَ لتلك الصفات، وإنْ لم تكن موجودةً إلا أنَّها إذا كانت معلومةَ الصفة كان التشبيهُ بها نافعًا في المطلوب.

والثانيةُ: اجتثاثُها مِن فوقِ الأرضِ، وهذه في مقابلة «أصلها ثابت» في الأول.

والثالثة: نَفْيُ أنْ يكونَ لها قرارٌ، وهذه كالمتمِّمة للصفة الثانية.

والمرادُ بالكلمةِ المشبَّهة بذلك الجهلُ بالله تعالى والإشراكُ به سبحانه، فإنَّه

أوَّلُ الآفات وعنوانُ المخافات ورأسُ الشقاوات، فخبثُه أظهرُ من أنْ يخفَى، وليس له حجَّةٌ ولا ثباتٌ ولا قوَّةٌ، بل هو داحضٌ غيرُ ثابت. اهـ. وهو كلامٌ حسنٌ لكن فيه مخالفةٌ لظواهر كثيرٍ من الآثار، فتأمَّل.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الذي ثبت عندهم وتمكَّن في قلوبهم، وهو الكلمةُ الطيبة التي ذُكِرَت صفتُها العجيبة، والظاهرُ أنَّ الجارَّ متعلِّقٌ بـ «يُثبِّتُ» وكذا قوله سبحانه: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: يُثبِّتُهم بالبقاء على ذلك مدَّةَ حياتهم فلا يَزِلُّون[1] إذا قُيِّضَ لهم مَن يفتنهم ويُحاول زلَلَهم عنه كما جرى لأصحاب الأخدود[2] ولجرجيس وشمسون، وكما جرى لبلال وكثيرٍ من أصحاب رسولِ الله ﷺ و رضي الله عنهم.

﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: بعد الموت، وذلك في القبر الذي هو أوَّلُ منزلٍ من منازل الآخرةِ، وفي مواقف القيامة، فلا يتلعثَمون إذا سُئلوا عن مُعتقدهم هناك ولا تُدهشُهم الأهوالُ.

وأخرج ابنُ أبي شيبة عن البراء بنِ عازب أنَّه قال في الآية: التثبيتُ في الحياة الدنيا إذا جاء الملَكان إلى الرجل في القبر قالا له: مَن ربُّك؟ قال: ربِّي الله، قالا: وما دينُك؟ قال: ديني الإسلام، قالا[3]: ومَنْ نبيُّك؟ قال: نبيِّي محمدٌ ﷺ[4]. وعلى هذا فالمرادُ من «الآخرة» يوم القيامة.

وأخرج الطبرانيُّ في «الأوسط» وابنُ مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ إلخ: «في الآخرةِ: القَبْر»[5]. وعلى هذا فالمرادُ بـ «الحياة الدنيا» مدَّة الحياة، وإلى ذلك ذهبَ جمهورُ

---

(١) في (م): يزالون.

(٢) سيأتي ذكر قصتهم وتخريجها عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ من سورة البروج.

(٣) في الأصل و(م): قال، والمثبت من مصنف ابن أبي شيبة.

(٤) المصنف لابن أبي شيبة ٣/ ٣٧٧، وأخرجه بنحوه مرفوعًا أحمد (١٨٥٧٥)، ومسلم (٢٨٧١).

(٥) المعجم الأوسط (٥٥٧٤)، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٧٩، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٤: فيه عطية العوفي وهو ضعيف.

العلماء واختاره الطبريُّ(١). نعم اختار بعضُهم أنَّ «الحياة الدنيا» مدة حياتهم، و«الآخرة» يوم القيامة والعَرْض؛ وكأنَّ الداعي لذلك عمومُ «الذين آمنوا» وشمولهم لمؤمني الأُمم السابقة مع عدم عمومِ سؤالِ القبر.

وجوِّز تعلُّق الجارِّ الأول بـ «آمنوا» على معنى: آمنوا بالتوحيد الخالص، فوحَّدوه ونزَّهوه عمَّا لا يليقُ بجنابه سبحانه، وكذا جوِّز تعلُّق الجارِّ الثاني بـ «الثابت».

ومن الناس مَن زَعَم أنَّ التثبيت في الدنيا الفتحُ والنصرُ، وفي الآخرة الجنةُ والثوابُ، ولا يخفَى أنَّ هذا مما لا يكادُ يُقال، وأمرُ تعلُّقِ الجارَّين ما قدَّمنا، وهذا عند بعضهم مثالُ إيتاء الشجرةِ أُكُلَها كلَّ حين.

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ أي: يخلق فيهم الضلالَ عن الحقِّ الذي ثَبَّت المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارهم الناشئ عن سوء استعدادهم، والمرادُ بهم الكفرةُ بدليل مقابلتهم بـ «الذين آمنوا» ووَصَفهم بالظلم إمَّا باعتبار وضعهم للشيء في غير موضعه، وإمَّا باعتبار ظُلمهم لأنفسهم، حيث بدَّلوا فطرةَ الله تعالى التي فَطَر الناسَ عليها، فلم يهتدوا إلى القول الثابت، أو حيث قلَّدوا أهلَ الضلال وأعرضُوا عن البينات الواضحةِ، وإضلالُهم - على ما قيل - في الدنيا أنَّهم لا يثبتون في مواقف الفتنِ وتَزِلُّ أقدامُهم أول شيءٍ، وهم في الآخرة أضلُّ وأزلُّ.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم والبيهقيُّ من حديث ابن عباس ﵄ أنَّ الكافر إذا حضَرَه الموتُ تنزلُ عليه الملائكةُ عليهم السلام يضربون وجْهَه ودُبُرَه، فإذا دَخل قبرَه أُقعِدَ فقيل له: مَن ربُّك؟ فلم يرجع إليهم شيئًا، وأنساهُ الله تعالى ذكرَ ذلك، وإذا قيل له: مَن الرسولُ الذي بُعِثَ إليكم؟ لم يهتدِ له ولم يرجع إليهم شيئاً، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾(٢).

﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ من تَثْبيت بعضٍ وإضلالِ بعضٍ آخرين حسبما تُوجبُه

---

(١) في تفسيره ١٣/ ٦٦٧.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٦٦٧ - ٦٦٨، وعذاب القبر للبيهقي ص٣١، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٧٩.

مشيئتُه التابعةُ للحكم البالغة المقتضية لذلك، وفي إظهار الاسم الجليل في الموضعَين من الفخامة وتربيةِ المهابة ما لا يخفَى، مع ما فيه ـ كما قيل ـ من الإيذان بالتفاوت في مبادي التثبيت والإضلال، فإنَّ مبدأ صدورِ كلٍّ منهما عنه سبحانه وتعالى من صفاته العُلا غير ما هو مبدأ صدورِ الآخر، وفي ظاهر الآية من الردِّ على المعتزلة ما فيها.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعجيبٌ لرسول الله ﷺ أو لكلِّ أحدٍ مما صنَعَ الكفرةُ من الأباطيل، أي: ألم تنظر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: شُكرَ نعمتِهِ تعالى الواجب عليهم، ووَضعوا موضعَه ﴿كُفْرًا﴾ عظيماً وغَمْطًا لها، فالكلامُ على تقدير مضافٍ حُذف وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه، وهو المفعول الثاني، و«كفرًا» المفعولُ الأوَّلُ، وتوهَّم بعضُهم عكس ذلك.

وقد لا يحتاجُ إلى تقديرٍ على معنى أنَّهم بدَّلوا النعمةَ نفسَها كفرًا؛ لأنَّهم لمَّا كفروها سُلبوها، فبقوا مسلوبيها موصوفين بالكُفر، وقد ذكر هذا كالأول الزمخشريُّ[1]، والوجهان كما في «الكشف» ـ خلافاً لما قرَّره الطيبي وتابعه عليه غيرُه ـ متَّفقان في أنَّ التبديل ها هنا تغييرٌ في الذات، إلا أنَّه واقعٌ بين الشكر والكفر، أو بين النعمة نفسها والكفر، والمرادُ بهم أهلُ مكة، فإنَّ الله سبحانه أسكنَهم حَرَمَه، وجعَلَهم قُوَّامَ بيته، وأكرمهم بمحمد ﷺ، فكفروا نعمةَ الله تعالى بدل ما ألزمهم من الشكر العظيم، أو أصابَهم الله تعالى بالنعمة والسعةِ لإيلافهم الرحلتَين، فكفروا نعمتَه سبحانه، فضَرَبهم جلَّ جلاله بالقحطِ سبعَ سنينَ، وقُتلوا وأُسروا يومَ بدر، فحصل لهم الكفر بدلَ النعمة، وبقيَ ذلك طوقًا في أعناقهم.

وأخرج الحاكمُ وصحَّحه وابنُ جرير والطبرانيُّ وغيرُهم من طرقٍ عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّه قال في هؤلاء المبدِّلين: هما الأفجران من قريش: بنو أمية وبنو المغيرة؛ فأمَّا بنو المغيرة فقَطَعَ الله تعالى دابرَهم يوم بدر، وأما بنو أمية فَمُتِّعوا إلى حين[2].

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧٧.

(٢) المستدرك ٢/ ٣٥٢، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٧٠، والطبراني في الأوسط (٧٧٦).

وأخرج البخاريُّ في «تاريخه» وابنُ المنذر وغيرُهما عن عمر رضي الله عنه مثل ذلك[١]. وجاء في رواية كما في «جامع الأصول»: «هم والله كفارُ قريش»[٢].

أخرج ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: هم جبلةُ بنُ الأيهم والذين اتَّبعوه من العرب، فلحقوا بالروم[٣]. ولعلَّه رضي الله عنه لا يُريد أنَّها نزلَت في جبلةَ ومَن معه؛ لأنَّ قصتهم كانت في خلافة عمرَ رضي الله عنه، وإنَّما يُريد أنَّها تخصُّ مَن فَعَلَ فِعْلَ جبلةَ إلى يوم القيامة.

﴿وَأَحَلُّوا﴾ أي: أَنزَلوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ بدعوتهم إياهم لما هم فيه من الضلال، ولم يتعرَّض لحلولهم لدلالة الإحلال عليه، إذ هو فرعُ الحلول كما قالوا في قوله تعالى في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود:٩٨]. ﴿دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)﴾ أي: الهلاك، مِنْ بار يَبُور بَوَارًا وبَوْرًا، قال الشاعر:

فلم أرَ مثلَهمْ أبطالَ حَرْبٍ غداةَ الحرب إذ خِيفَ البَوارُ[٤]

وأصلُه ـ كما قال الراغبُ ـ فرطُ الكساد، ولما كان فرط الكساد يؤدِّي إلى الفساد كما قيل: كَسَد حتى فَسَد، عبَّر به عن الهلاك[٥].

﴿جَهَنَّمَ﴾ عطفُ بيان للدار، وفي الإبهام ثم البيان ما لا يخفَى من التهويل، وأَعربه الحوفيُّ وأبو البقاء بدلًا منها[٦].

وقوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يُقاسون حرَّها، حالٌ من الدار، أو من «جهنم»، أو من «قومهم»، أو استئنافٌ لبيان كيفيَّةِ الحلولِ، وجوَّز أبو البقاء كون «جهنم» منصوبًا على الاشتغال، أي: يصلون جهنَّمَ يصلونها، وإليه ذهب ابنُ

(١) التاريخ الكبير ٣/ ٣٧٣بنحوه، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٨٤، وأخرجه أيضًا الطبري ١٣/ ٦٦٩.
(٢) جامع الأصول ٢/ ٢٠٤، وهي رواية عن علي رضي الله عنه، وأخرجها عنه النسائي في الكبرى (١١٢٠٣)، والطبري ١٣/ ٦٧١، والبيهقي في الدلائل ٣/ ٩٥.
(٣) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٥.
(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٣٦ ـ ١٣٧.
(٥) مفردات ألفاظ القرآن (بور).
(٦) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٤٠٥.

عطية[١]، فالمرادُ بالإحلال حينئذ تعريضُهم للهلاك بالقتل والأَسْر، وأُيِّد بما روَى عطاء أنَّ الآية نزلَت في قتلَى بدر[٢]، وبقراءة ابن أبي عبلة: «جهنمُ» بالرفع على الابتداء، ويحتملُ أن يكونَ «جهنم» على هذه القراءة خبرَ مبتدأ محذوفٍ، واختاره أبو حيان[٣] معلِّلاً بأنَّ النصب على الاشتغال مرجوحٌ من حيث إنَّه لم يتقدَّم ما يُرجِّحه ولا ما يجعله مساويًا، وجمهورُ القراء على النصب، ولم يكونوا ليقرؤوا بغير الراجح أو المساوي، إذ: زيدٌ ضربتُه، بالرفع أرجحُ من: زيدًا ضربتُه، فلذلك كان ارتفاعُه على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ في تلك القراءة راجحًا. وأنت تعلم أنَّ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يرجح التفسير السابق.

﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ على حذف المخصوصِ بالذمِّ، أي: بئس القرار هي، أي: جهنمُ، أو بئس القرارُ قرارُهم فيها، وفيه بيانُ أنَّ حلولَهم وَصَلْيهم على وجه الدوام والاستمرار.

﴿وَجَعَلُوا۟﴾ عطفٌ على «أَحلُّوا» أو ما عطف عليه داخلٌ معه في حيِّز الصلة وحكم التعجيب، أي: جعلوا في اعتقادهم وحكمهم ﴿لِلَّهِ﴾ الفردِ الصمد الذي ليس كمثله شيءٌ وهو الواحدُ القهار ﴿أَندَادًا﴾ أمثالًا في التسمية، أو في العبادة، وقال الراغب: نِدُّ الشيءِ: مشاركُه في جوهره، وذلك ضربٌ من المماثلة، فإنَّ المِثْلَ يقال في أيِّ مشاركةٍ كانت، فكلُّ نِدٍّ مِثلٌ، وليس كلُّ مِثلٍ ندًّا[٤]. ولعلَّ المعوَّل عليه هنا ما أشرنا إليه.

﴿لِّيُضِلُّوا۟﴾ قومَهم الذين يُشايعونهم حسبما ضلُّوا ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ القويم الذي هو التوحيدُ، وقيل: مقتضَى ظاهر النظم الكريم أن يذكر كفرانَهم نعمةَ الله تعالى، ثم كفرانَهم بذاته سبحانه باتِّخاذ الأنداد، ثم إضلالَهم لقومهم المؤدِّي إلى إحلالهم دار البوار، ولعلَّ تغييرَ الترتيب لتثنية التعجيب وتكريره والإيذانِ بأنَّ كلَّ واحدٍ من هذه

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٨.
(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٧٦.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٢٤، وفيه قراءة ابن أبي عبلة.
(٤) مفردات ألفاظ القرآن (ندّ).

الهَنَات يقضي منه العجب، ولو سيقَ النظمُ على نَسَقِ الوجود لَربَّما فُهِم التعجيبُ من المجموع، وله نظائر في الكتاب الجليل.

وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو ورُويس عن يعقوب: «لِيَضِلُّوا» بفتح الياء[1]، والظاهرُ أنَّ اللام في القراءتَين مثلها في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، وذلك أنَّه لمَّا كان الإضلال أو الضلال نتيجةً للجعل المذكور شُبِّه بالغرض والعلَّة الباعثة، فاستُعمل له حرفُه على سبيل الاستعارة التبعية، قاله غيرُ واحد. وقيل عليه: إنَّ كونَ الضلال نتيجةً للجعل لله سبحانه أندادًا غير ظاهر، إذ هو متَّحدٌ معه أو لازمٌ لا ينفكُّ عنه، إلا أنْ يُراد الحكم به أو دوامُه.

وردَّ بأنَّهم مشركون لا يعتقدون أنَّه ضلالٌ، بل يزعُمون أنَّه اهتداءٌ، فقد ترتَّب على اعتقادهم ضدُّه، على أنَّ المراد بالنتيجة ما يترتَّب على الشيء أعمُّ من أنْ يكون من لوازمه أولًا، وفيه تأمُّل.

﴿قُلْ﴾ لأولئك الضالين[2] المتعجَّب منهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ بما أنتم عليه من الشهوات التي من جملتها تبديلُ نعمة الله تعالى كفرًا، واستتباع الناس في الضلال، وجعل ذلك متمتَّعًا به تشبيهًا له بالمُشتَهيات المعروفة لتلذُّذهم به كتلذُّذهم بها، وفي التعبير بالأمر ـ كما قال الزمخشري[3] ـ إيذانٌ بأنَّهم لانغماسهم بالتمتُّع بما هم عليه، وأنَّهم لا يعرفون غيرَه ولا يُريدونه، مأمورونَ به، قد أمرَهم آمرٌ مطاعٌ لا يَسَعُهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمرًا دونَه، وهو آمر الشهوة؛ وعلى هذا يكونُ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٣٠﴾ جوابَ شرطٍ ينسحب عليه الكلام على ما أشار إليه بقوله، والمعنى: إنْ دُمتُم على ما أنتم عليه من الامتثال لآمر الشهوة، فإنَّ مصيرَكم إلى النار، ويجوز أنْ يكون الأمرُ مجازًا عن التخلية والخذلان، وأنَّ ذلك الآمر مُتَسخَّطٌ إلى غاية، ومثالُه أنْ ترى الرجل قد عزم على أمرٍ، وعندك أنَّ ذلك الأمرَ خطأٌ، وأنَّه يؤدِّي إلى ضرر عظيم، فتبالغُ في نصحه واستنزاله عن رأيه، فإذا لم تَرَ منه إلا الإباء والتصميم، حردتَ عليه وقلتَ: أنت

---

(١) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/٢٩٩.

(٢) في (م): الضلال.

(٣) الكشاف ٢/٣٧٨.

وشأنك، فافعل ما شئتَ، فلا تريدُ بهذا حقيقةَ الأمر، ولكنَّك كأنك تقول: فإذ قد أبيتَ قبولَ النصيحة فأنت أهلٌ ليقالَ لك: افعل ما شئتَ وتُبعث عليه، ليتبيَّنَ لك إذا فعلتَ صحةَ رأيِ الناصح وفسادَ رأيك. انتهى.

قال صاحب «الكشف»: إنَّ الوجهَين مشتركان في إفادة التهديد، لكنَّ الأداء إليه مختلفٌ، والأوَّل نظيرُ ما إذا أطاعَ أحد عبيدِك بعضَ من تنقم طريقتَه، فتقول: أَطِعْ فلانًا، وهذا صحيحٌ، صَدَرَ من المنقوم أمرٌ ومن العبد طاعةٌ، أو كان منه موافقةٌ لبعض ما يهواه، والقسم الأخير هو ما نحنُ فيه، والثاني ظاهر. انتهى.

وظاهر هذا أن التهديدَ على الوجهَين مفهومٌ من صيغة الأمر، ويُفهم من كلام بعضِ الأجلَّة أنَّ ذلك على الوجه الأول من الشرطية، وعلى الثاني من الأمر، وما في حيِّز الفاء تعليلٌ له، ولعلَّ النظر الدقيق قاضٍ بما أفتَى به ظاهرُ ما في «الكشف».

وذكر غيرُ واحدٍ أنَّ هذا كقول الطبيب لمريضٍ يأمرُه بالاحتماء فلا يحتمي: كُلْ ما تريد، فإنَّ مصيرَك إلى الموت. فإنَّ المقصودَ ـ كما قال صاحبُ «الفرائد» ـ التهديدُ ليرتدعَ ويقبلَ ما يقول.

وجعل الطيبي ما قُرِّر في المثال هو المراد من قول الزمخشري: إنَّ في «تمتَّعوا» إيذانًا بأنَّهم لانغماسهم إلخ. وأنت تعلم أنَّه ظاهرٌ في الوجه الثاني، فافهم.

والمصيرُ مصدر «صار» التامَّة بمعنى «رَجَع»، وهو اسمُ «إنَّ»، و«إلى النار» في موضع الخبر، ولا ينبغي أنْ يقال: إنَّه متعلِّقٌ بـ «مصير» وهو من «صار» بمعنى انتقل، ولذا عُدِّي بـ «إلى»؛ لأنَّه يدعو إلى القول بحذف خبر «إنَّ»، وحذفُه في مثل هذا التركيب قليلٌ، والكثيرُ فيما إذا كان الاسمُ نكرةً والخبرُ جارًّا ومجرورًا. والحوفي جوَّز هذا التعلُّق، فالخبرُ عنده محذوف، أي: فإنَّ مصيركم إلى النار واقعٌ أو كائنٌ لا محالة.

ثم إنَّه تعالى لمَّا هدَّد الكفار وأشارَ إلى انهماكهم في اللَّذة الفانيةِ أمر نبيَّه ﷺ أنْ يأمرَ خُلَّص عباده بالعبادة البدنية والمالية، فقال سبحانه:

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وخصَّهم بالإضافة إليه تعالى؛ رَفْعًا لهم وتشريفًا

وتنبيهًا على أنَّهم المقيمون لوظائف العبودية المُوفون بحقوقها، وتَرَك العطفَ بين الأمرَين؛ للإيذان بتبايُنِ حالهما تهديدًا وغيرَه.

ومقولُ القول على ما ذهب إليه المبرّد والأخفش والمازني محذوف دلَّ عليه «يقيموا»[١] أي: قل لهم: أقيموا الصلاة وأنفقوا.

﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ والفعل المذكور مجزومٌ على أنَّه جوابُ «قل» عندهم. وأوردَ أنَّه لا يلزم من قوله عليه الصلاة والسلام: أقيموا وأنفقوا، أنْ يفعلوا.

وردَّ بأنَّ المقولَ لهم الخُلَّصُ، وهم متى أُمِرُوا امتثلوا، ومن هنا قالوا: إنَّ في ذلك إيذانًا بكمال مطاوعتهم وغايةِ مسارعتهم إلى الامتثال، ويشدُّ عَضُدَ ذلك حذفُ المقول؛ لما فيه من إيهام أنَّهم يفعلون من غير أمر، على أنَّ مبنى الإيراد على أنَّه يشترط في السببية التامَّة، وقد منع.

وجعل ابنُ عطية «قل» بمعنى: بلِّغ وأدِّ الشريعة، والجزم في جواب ذلك[٢]. وهو قريبٌ مما تقدَّم.

وحُكي عن أبي عليٍّ وعُزيَ للمبرِّد[٣] أنَّ الجزم في جواب الأمر المقول المحذوف.

وتعقَّبه أبو البقاء بأنَّه فاسدٌ لوجهَين: الأوَّل: أنَّ جواب الشرط لابدَّ أنْ يُخالف فعلَ الشرط إمَّا في الفعل، أو في الفاعل، أو فيهما، فإذا اتَّحدا لا يصحُّ، كقولك: قم تقم، إذ التقدير هنا: إن يقيموا يقيموا. والثاني: أنَّ الأمر المقدَّر للمواجهة، والفعل المذكور على لفظ الغيبة، وهو خطأ إذا كان الفاعل واحدًا[٤]، وقيل عليه: إنَّ الوجه الأوَّل قريب، وأمَّا الثاني فليس بشيء؛ لأنَّه يجوز أنْ تقول: قل لعبدك أطعني يُطعْك، وإنْ كان للغيبة بعد المواجهة باعتبار حكاية الحال.

---

(١) الدر المصون ٧/ ١٠٥، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٦٧.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٦.
(٣) المقتضب ٢/ ٨٤.
(٤) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

وعن أبي عليٍّ وجماعة أنَّ «يقيموا» خبرٌ في معنى الأمر، وهو مقولُ القول[1].

ورُدَّ بحذف النون، وهي في مثل ذلك لا تحذف، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١] إذ المرادُ منه: آمنوا، والقولُ بأنَّه لمَّا كان بمعنى الأمر بُني على حذف النون كما بُني الاسمُ المتمكّن في النداء على الضَّمِّ في نحو: يا زيدُ، لمَّا شُبِّه بـ: قَبْلُ وبَعْدُ، وما لم يُبْنَ إنما لُوحِظَ فيه لفظُه = مما لا يكاد يُلتفَتُ إليه.

وذهب الكسائي والزجاج[2] وجماعةٌ إلى أنَّه مقولُ القول، وهو مجزومٌ بلام أمرٍ مقدَّرة، أي: لِيُقيموا ويُنفقوا، على حدِّ قول الأعشى:

مـحـمـدُ تَـفْـدِ نـفـسَـك كـلُّ نـفـسٍ إذا مـا خِـفْـتَ مِـن أمـرٍ تَـبـالا[3]

وأنت تعلم أنَّ إضمار الجازم أضعفُ من إضمار الجارِّ إلا أنَّ تقدُّم «قل» نائبٌ منابه، كما أنَّ كثرةَ الاستعمال في أمر المخاطَب ينوبُ منابَ ذلك، والشيء إذا كثر في موضعٍ أو تأكدت الدلالة عليه جاز حذفُه، منه حذفُ الجارِّ من «أنَّى» إذا كانت بمعنى: مِن أين، وبما ذكرنا من النيابة فارَقَ ما هنا ما في البيت، فلا يضرُّنا تصريحُهم فيه بكون الحذف ضرورة.

وعن ابن مالك أنَّه جعل حذفَ هذه اللام على أضرب: قليل وكثير ومتوسِّط، فالكثيرُ أنْ يكون قبله قولٌ بصيغة الأمر كما في الآية، والمتوسِّط ما تقدَّمه قولٌ غير أمرٍ كقوله:

قـلـتُ لـبـوَّابٍ لـديـه دارُهـا تِـيـذَنْ فـإنِّـي حَـمْـؤُهـا وجـارُهـا[4]

---

(١) العسكريات ص٤٩ ـ ٥٠.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ١٦٢ ـ ١٦٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٦.

(٣) قال البغدادي في الخزانة ٩/ ١٤: البيت لا يعرف قائله، وقال بعض فضلاء العجم: هو للأعشى، ونسبه ابن هشام في شرح شذور الذهب ص٢٧٥ لأبي طالب عمِّ النبيِّ ﷺ. قال الشهاب في حاشيته ٥/ ٢٦٨: أراد: لتفدِ، فحذف لام الأمر، والتَّبَال هو: سوء العاقبة، وأصله وَبَال، فتاؤه مبدلة عن واو.

(٤) الرجز في المغني ص٢٩٨، وخزانة الأدب ٩/ ١٣ دون نسبة، ونسبه العيني في هامش الخزانة ٤/ ٤٤٤ لمنصور بن مرثد. قال ابن هشام: تِيذَنْ: أي: لتأذَنْ، فحذف اللام وكسر حرف المضارعة.

والقليلُ ما سوى ذلك. وظاهرُ كلام «الكشف» اختيارُ هذا الوجه، حيث قال المدقق فيه: والمعنَى على هذا أظهرُ، لكثرة ما يلزم من الإضمار، وأنَّ تقييد الجواب بقوله تعالى: (مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ) إلى (وَلَا خِلَٰلٌ) ليس فيه كثيرُ طائلٍ، إنما المناسب تقييدُ الأمر به.

وقال ابنُ عطية: ويظهر أنَّ مقولَ القول (ٱللَّهُ ٱلَّذِى) إلخ[1]، ولا يخفَى ما في ذلك من التفكيك، على أنَّه لا يصحُّ حينئذٍ أنْ يكون «يقيموا» مجزومًا في جواب الأمر؛ لأنَّ قول: «الله الذي» إلخ لا يستدعي إقامةَ الصلاةِ والإنفاقَ إلا بتقديرٍ بعيدٍ جدًّا.

هذا، والمرادُ بالصلاة قيل: ما يعمُّ كلَّ صلاةٍ فرضًا كانت أو تطوُّعًا، وعن ابن عباس تفسيرها بالصلاة المفروضة، وفسَّر الإنفاقَ بزكاة الأموال. ولا يخفَى عليك أنَّ زكاة المال إنَّما فُرضت في السنة الثانية من الهجرة بعد صدقةِ الفطر، وأنَّ هذه السورةَ كلَّها مكيةٌ عند الجمهور، إلا آيتين[2] ليست هذه الآيةُ إحداهما عند بعضٍ، ثمَّ إن لم يكن هذا المأمور به في الآية مأمورًا به من قبلُ فالأمر ظاهرٌ، وإن كان مأمورًا به فالأمرُ للدوام، فتحقَّق ذلك ولا تَغْفُل.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ منتصبان على المصدرية لكن من الأمر المقدَّر، أو من الفعل المذكور على ما ذهب إليه الكسائي ومَن معه على ما قيل، والأصلُ: إنفاقَ سرٍّ وإنفاقَ علانيةٍ، فحذف المضاف وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه فانتصب انتصابَه.

ويجوز أنْ يكون الأصلُ: إنفاقًا سرًّا وإنفاقًا علانيةً، فحذف الموصوفَ وأُقيمَت صفتُه مقامه.

وجوِّز أنْ يكونا منتصبين على الحالية إما على التأويل بالمشتق، أو على تقدير مضافٍ، أي: مُسرِّين ومُعلنين، أو ذوي سرٍّ وعلانيةٍ، أو على الظرفية، أي: في سرٍّ وعلانية.

وقد تقدَّم الكلامُ في حكم نفقة السرِّ ونفقة العلانية[3].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٩.

(٢) في (م): والآيتين.

(٣) ص١٢٥ من هذا الجزء.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ فيبتاعُ المقصِّرُ ما يتلافى به تقصيرَه، أو يفتدي به نفسَه، والمقصودُ ـ كما قال بعض المحقِّقين ـ نَفْيُ عقد المعاوضة بالمرَّة، وتخصيصُ البيع بالذكر للإيجاز مع المبالغة في نَفْي العقدِ، إذ انتفاءُ البيع يستلزمُ انتفاءَ الشراء على أبلغِ وجه، وانتفاؤه ربما يُتصوَّر مع تحقُّق الإيجاب من البائع. انتهى.

وقيل: إنَّ البيع كما يُستعمَل في إعطاء المثمَن وأخذِ الثمن، وهو المعنى الشائع، يُستعمَل في إعطاء الثمن وأخذ المثمَن، وهو معنى الشراء؛ وعلى هذا جاء قوله ﷺ: «لا يبيعنَّ أحدُكم على بَيْعِ أخيه»[1]، ولا مانعَ من إرادة المعنَيَيْن هنا، فإنْ قلنا بجواز استعمال المشتَرَك في معنَيَيه مطلقًا كما قال به الشافعية، أو في النفي كما قال به ابنُ الهمام فذاك، وإلا احتجنا إلى ارتكاب عمومِ المجاز، فكأنَّه قيل: لا معاوضةَ فيه.

﴿وَلَا خِلَٰلٌ ۝٣١﴾ أي: مخالَّة، فهو كما قال أبو عبيدة[2] وغيرُه: مصدرُ خالَلْتُه كالخِلال، وقال الأخفش: هو جمعُ: خليل[3] كأخِلَّاء وأَخِلَّة، والمراد واحدٌ، وهو نَفْيُ أنْ يكون هناك خليلٌ يُنتَفع به، بأنْ يشفعَ له أو يُسامحه بما يفتدي به.

ويحتمل أنْ يكون المعنى: مِن قبل أنْ يأتيَ يومٌ لا انتفاعَ فيه لما لهجوا بتعاطيه من البيع والمخالَّة، ولا انتفاعَ بذلك، وإنَّما الانتفاعُ والارتفاقُ فيه بالإنفاق لوجه الله تعالى.

فعلى الأوَّل المنفيُّ البيعُ والخلالُ في الآخرة، وعلى هذا المراد نَفْيُ البيع والخلال اللذَيْن كانا في الدنيا، بمعنى نَفْي الانتفاع بهما، و«فيه» ظرفٌ للانتفاع المقدَّرِ حسبما أشرنا إليه، ولا يُشكل ما هنا مع قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٦٧] حيث أَثْبتَ فيه المخالَّة وعدمَ العداوة

---

(١) أخرجه أحمد (٤٧٢٢)، والبخاري (٢١٣٩)، ومسلم (١٤١٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٣٤١.

(٣) الذي في معاني القرآن ٢/ ٥٩٩، ومجمع البيان ١٣/ ٢٢١، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٧، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٦٨: الخلال جمع خُلَّة.

بين المتَّقين؛ لأنَّ المراد هنا على ما قيل نَفْيُ المخالَّة النافعة بذاتها في تدارك ما فات، ولم يذكر في تلك الآية أنَّ المتقين يَتَدارك بعضُهم لبعض ما فات.

وقيل في التوفيق بين الآيتين: إنَّ المراد: لا مخالَّة بسبب مَيل الطبع ورغبةِ النفس، وتلك المخالَّة الواقعةُ بين المتقين في الله تعالى، مع أنَّ الاستثناء من الإثبات لا يلزمُه النفي، وإنْ سلمَ لزومه فنَفْيُ العداوة لا يلزمُ منه المخالَّة، وهو كما ترى. ومثلُه ما قيل: إنَّ الإثباتَ والنفيَ بحسَب المواطن.

والظرفُ على ما استظهره غيرُ واحدٍ متعلِّقٌ بالأمر المقدَّر، وعلَّقه بالفعل المذكور مَن رأى رَأْيَ الكِسائي ومَن معه، بل وبعضُ مَن رأى غيرَ ذلك إلا أنَّه لا يخلُو عن شيء.

وتذكيرُ إتيان ذلك اليوم على ما في «إرشاد العقل السليم» لتأكيد مضمونِ الأمر من حيث إنَّ كلًّا مِن فقدان الشفاعة وما يُتدارك به التقصير معاوضةً وتبرُّعًا، وانقطاع آثار البيع والخلالِ الواقعَين في الدنيا، وعدم الانتفاع بهما = مِن أقوى الدواعي إلى الإتيان بما تَبقَى عوائدُه وتدومُ فوائدُه من الإنفاق في سبيل الله تعالى، أو من حيث إنَّ ادِّخار المال وترك إنفاقه إنَّما يقعُ غالبًا للتجارات والمُهاداة، فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة، فلا وجْهَ لادِّخاره إلى وقت الموت. وتخصيصُ أمرِ الإنفاق بذلك التأكيدِ لميل النفوس إلى المال، وكونها مجبولةً على حُبِّه والضِّنَّةِ به. وفيه أنَّه لا يَبعدُ أنْ يكون تأكيدًا لمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضًا، من حيث إنَّ تركها كثيرًا ما يكون للاشتغال بالبياعات والمخاللات كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾[1] [الجمعة: ١١]. وأنت تعلمُ بُعدَه لفظًا بناءً على تعلُّق «سرًّا وعلانيةً» بالأمر بالإنفاق، ثم إنَّ ما ذكر من الوجهَين في الآية هو الذي ذكره بعض المحقِّقين.

واقتصر الزمخشريُّ[2] فيها على الوجه الثاني، وكلامه في تقريره ظاهرٌ في أنَّ فائدةَ التقييد الحثُّ على الإنفاق حسبما بيَّنه في «الكشف»، وفيه في تقرير الحاصل

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٤٧.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

أنَّ قولَه تعالى: (لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ) أي: لا انتفاعَ بهما، كنايةٌ عن الانتفاع بما يُقابلهما، وهو ما أُنفِقَ لوجه الله تعالى، فهو حثٌّ على الإنفاق لوجهه سبحانه، كأنَّه قيل: لينفقوا له من قَبل أنْ يأتيَ يومٌ ينتفعُ فيه بإنفاقهم المنفقون له، ولا ينفعُ الندمُ لمن أمسكَ. والعدول إلى ما في النَّظم الجليل ليفيدَ الحصر، وأنَّ ذلك وحدَه هو المنتَفَعُ به، وليفيدَ المضادَّةَ بين ما ينفعُ عاجليًّا وما ينفعُ آجليًّا، وذَكَرَ في آية البقرة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] أنَّ المعنَى: من قبل أنْ يأتيَ يومٌ لا تقدرون فيه على تدارُك ما فاتكم من الإنفاق؛ لأنَّه لا بيعَ حتى تبتاعوا ما تُنفقونه، ولا خُلَّة حتى يُسامحَكم أَخِلَّاؤكم به[1].

وبيَّن المدقِّقُ وجْهَ اختصاص كلٍّ من المعنَيين بموضعه مع صحَّة جَرَيانهما جميعًا في كلٍّ من الموضعَين، بأنَّ الأوَّل خطابٌ عامٌّ، فكان الحثُّ فيه على الإنفاق مطلقًا وتصوير أنَّ الإنفاق نفسَه هو المطلوب، فليُغْتَنم قبل أنْ يأتيَ يومٌ يفوتُ فيه ولا يُدركه الطالبُ، هو الموافقَ لمقتضَى المقام، وأنَّ الثاني لمَّا اختصَّ بالخُلَّص كان الموافقُ للمقام تحريضَهم على ما هم عليه من الإنفاق ليدوموا عليه، فقيل: دوموا عليه وتمسَّكوا به تَغْتَبطوا يوم لا ينفعُ إلا مَن دام عليه، ولو قيل: دوموا عليه قبل أنْ يفوتكم ولا تدركوه، لم يكن بتلك الوكادةِ؛ لأنَّ الأول بالحثِّ على طلب أصلِ الفعل أشبه، والثاني بطلب الدوام، فتفطَّن له. اهـ. ولا يخلو عن دغدغة.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير ويعقوب: «لا بيعَ فيه ولا خلالَ» بفتح الاسمَين[2] تنصيصًا على استغراق النفي، ودلالةُ الرفع على ذلك باعتبار خطابي هو على ما قيل وقوعُه في جواب: هل فيه بيعٌ أو خلالٌ؟

ثم إنَّه لمَّا ذكر سبحانه أحوالَ الكافرين لنعمه، وأمرَ المؤمنين بإقامة مراسم الطاعة شكرًا لها، شرعَ جلَّ وعلا في تفصيل ما يستوجب على كافَّة الأنام المثابرة على الشكر والطاعة من النِّعم العظام والمِنَن الجسام، حثًّا للمؤمنين عليها، وتقريعًا

(١) الكشاف ١/ ٣٨٤.

(٢) التيسير ص٨٢، والنشر ٢/ ٢١١.

للكفرة المخلِّين أتمَّ إخلال بها، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلخ، وهذا أولَى مما قيل: إنَّه تعالى لمَّا أطال الكلام في وصف أحوال السعداء والأشقياء، وكان حصولُ السعادة بمعرفة الله تعالى وصفاته، والشقاوةِ بالجهل بذلك، خَتَم الوصف بالدلائل الدالَّة على وجوده ـ جلَّ شأنه ـ وكمال علمه وقدرتِه فقال سبحانه ما قال، لظهور اعتبارِ المذكورات في حيِّز الصلة نِعَمًا لا دلائل.

والاسمُ الجليل مبتدأٌ والموصول خبره، ولا يخفَى ما في الكلام من تربيةِ المهابة والدلالة على قوَّة السلطان، والمرادُ: خلَقَ السماوات وما فيها من الأجرام العلويَّة، والأرضَ وما فيها من أنواع المخلوقات.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحاب ﴿مَآءً﴾ أي: نوعًا منه، وهو المطر، وسُمِّي السحابُ سماءً لعلوِّه، وكلُّ ما علاك سماءٌ، وقيل: المرادُ بالسماء الفلك المعلوم، فإنَّ المطر منه يتبدَّى إلى السحاب ومِن السحاب إلى الأرض، وعليه الكثير من المحدِّثين لظواهر الأخبار.

واستبعدَ ذلك الإمامُ لأنَّ الإنسان ربَّما كان واقفًا على قُلَّة جبلٍ عالٍ ويَرَى السحاب أسفلَ منه، فإذا نَزَل رآه ماطرًا. ثمَّ قال: وإذا كان هذا أمرًا مشاهداً بالبصر كان النزاعُ فيه باطلًا[1]. وأوَّلَ بعضُهم الظواهر لذلك بأنَّ معنى نزول المطر من السماء نزولُه بأسبابٍ ناشئةٍ منها.

وأيًّا ما كان فـ «مِن» ابتدائيةٌ وهي متعلِّقةٌ بـ «أنزل» وتقديم المجرور على المنصوب إما باعتبار كونه مبتدأً لنزوله، أو لتشريفه كما في قولك: أعطاه السلطان مِن خزائنه مالًا، أو لما مرَّ غيرَ مرَّة مِن التشويق إلى المؤخَّر.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تعيشون به، وهو بمعنى المرزوق مرادًا به المعنى اللغوي، وهو كلُّ ما ينتفع به، فيشمل المطعومَ والملبوس، ونصبُه على أنَّه مفعول «أخرج»، و«مِن الثمرات» بيانٌ له فهو في موضع الحال منه، وتقدُّم «مِن» البيانية على ما تُبيِّنُه قد أجازه الكثيرُ من النحاة، وقد مرَّ

---

(١) تفسير الرازي ١٩/١٢٦.

الكلام في ذلك[1]. واستظهر أبو حيان المانع لذلك كون «مِن» للتبعيض، والجارُّ والمجرور في موضع الحال، و«رزقًا» مفعول «أخرج» أيضًا[2].

وجوّز أنْ تكون «من» بمعنى بعض، مفعول «أخرج»، و«رزقًا» بمعنى مرزوقًا حالًا منه، فهو بيانٌ للمراد من بعض الثمرات؛ لأنَّ منها ما يُنتفَع به فهو رزقٌ، ومنها ما ليس كذلك. ويجوز أنْ يكون «رزقًا» باقيًا على مصدريته، ونصبُه على أنَّه مفعول له، أي: أخرج به ذلك لأجل الرزقِ والانتفاع به، أو مفعول مطلق لـ «أخرج» لأنَّ: أخرج بعض الثمرات، في معنى: رَزَق، فيكون في معنى: قعدتُ جلوسًا، على المشهور، وقيل: «من» زائدة، ولا يَرَى جوازَ ذلك هنا إلا الأخفش[3]، و«لكم» صفة لـ «رزقًا» إنْ أُريد به المرزوق، ومفعول به إنْ أُريد به المصدر، كأنَّه قيل: رزقًا إياكم، والباء للسببية.

ومعنى كون الإخراج بسببه أنَّ الله تعالى أَودَع فيه قوَّةً مؤثِّرةً بإذنه في ذلك، حسبما جرَت به حكمتُه الباهرة، مع غناه الذاتي سبحانه عن الاحتياج إليه في الإخراج، وهذا هو رأيُ السلف الذي رَجَع إليه الأشعريُّ كما حُقِّق في موضعه[4]، وزَعَم مَن زعم أنَّ المراد: أخرجَ عنده، والتزموا هذا التأويل في ألوفٍ من المواضع، وضلَّلوا القائلين بأنَّ الله تعالى أودَعَ في بعض الأشياء قوَّةً مؤثِّرة في شيءٍ ما، حتى قالوا: إنَّهم إلى الكفر أقربُ منهم إلى الإيمان. وأولئكَ عندي أقربُ إلى الجنون وسفاهة الرأي.

و«الثمرات» يُراد بها ما يُراد من جمع الكثرة؛ لأنَّ صِيَغَ الجموع يتعاوَرُ بعضُها موضعَ بعض، أو لأنَّه أُريدَ بالمفرد جماعةُ الثمرة التي في قولك: أكلتُ ثمرةَ بستان فلان. وقد تقدَّم[5] لك ما ينفعُك تذكُّره في هذا المقام، فتذكَّر.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ السفن، بأنْ أقدرَكم على صنعتها واستعمالها بما أَلْهمَكم كيفيَّةَ ذلك، وقيل: بأنْ جعلَها لا ترسُب في الماء. ﴿لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾

---

(١) ص٢٥٨ من هذا الجزء.

(٢) ينظر البحر المحيط ٥/ ٤٢٧.

(٣) معاني القرآن ١/ ٢٧٢، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٧.

(٤) ينظر ٤/ ٣٤٦.

(٥) ٢/ ٢٢.

حيث توجَّهتُم ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بمشيئته التي نِيْطَ بها[1] كلُّ شيءٍ، وتخصيصُه بالذكر ـ على ما ذكره بعضُ المحقِّقين ـ للتنصيص على أنَّ ذلك ليس بمزاولة الأعمال واستعمال الآلات كما يَتراءَى من ظاهر الحال، ويندرج في تسخير الفلك ـ كما في «البحر» ـ تسخيره[2]، وكذا تسخيرُ الرياح.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ٣٢﴾ جعلها معدَّةً لانتفاعكم حيث تشربون منها، وتتَّخذون جداولَ تسقون بها زروعَكم وجنَّاتِكم وما أشبه ذلك، هذا إذا أُريد بـ «الأنهار» المياه العظيمة الجارية في المجاري المخصوصة، وأما إذا أُريد بها نفسُ المجاري فتسخيرُها تيسيرُها لهم لتجريَ فيها المياه.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أي: دائمَين في الحركة لا يفتران إلى انقضاء عُمُر الدنيا.

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في «العظمة» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الشمسُ بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربَت جرَت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلعَ من مشرقها، وكذلك القمر[3]. والقولُ بجريانهما إذا غربا تحت الأرض مرويٌّ أيضًا عن الحسن البصري، وهو الذي يشهد له العقل السليم، وللأخباريِّين غير ذلك، وظاهر الآية إثباتُ الحركة لهما أنفسِهما.

---

(١) في (م): بها نيط.

(٢) في هامش (م): فيه استخدام، فلا تغفل. اهـ منه. والاستخدام: هو أن يُذكر لفظٌ له معنيان، فيراد أحدهما ثم يراد بالضمير الراجع إلى ذلك اللفظ معناه الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحدُ معنييه، ثم بالآخر معناه الآخر، فالأول كقوله:

إذا نزل السماءُ بأرض قومٍ رَعيناه وإن كانوا غِضابا

أراد بالسماء: الغيث، وبالضمير الراجع إليه من: رعيناه: النبت، والسماء يطلق عليهما.

والثاني كقوله:

فَسَقَى الغَضَى والساكنيه وإنْ هُمُ شَبُّوهُ بَيْنَ جوانحي وضلوعي

أراد بأحد الضميرين الراجعَين إلى (الغضى) وهو المجرور في (الساكنيه): المكانَ، وبالآخر، وهو منصوب في (شبُّوه): النار، أي: أوقدوا بين جوانحي نار الغضى، يعني نار الهوى التي تشبه نار الغضى. التعريفات للجرجاني ص٣٣.

(٣) العظمة (٦٣٤)، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٥.

والفلاسفةُ يثبتون لهما حركتَين يسمُّون إحداهما الحركة الأُولَى، وهي الحركة اليومية من المشرق إلى المغرب الحاصلة لهما بقسر المحدَّد لِفلكَيهما، والأُخرَى الحركة الثانية، وهي الحركة على توالي البروج من المغرب إلى المشرق الحاصلة لهما بحركة فلكيهما حركةً ذاتيةً، ولا يُثبتون لهما حركةً في ثخن الفلك على نحو حركة السمكة في الماء، لصلابة الفلك وعدم قبوله الخرقَ أصلاً عندهم.

وأثبتَ الشيخُ الأكبر قدِّسَ سرُّه في «فتوحاته»[1] حركتهما على ذلك النحو، والفلكُ عنده مثل الماء والهواء.

وذكر بعض الأخباريِّين أنَّهما وسائر الكواكب معلَّقة بسلاسلَ مِن نورٍ بأيدي ملائكة، يُسيِّرونَها كيف شاء الله تعالى وحيث شاء سبحانه، والأفلاك ساكنةٌ عند هذا البعض، وكذا عند الشيخ قدِّس سرُّه على ما يقتضيه ظاهر كلامه، والأخبارُ في هذا الباب ليست بحيث تسدُّ ثغرَ الخصم، وذكَر النسفيُّ أنَّه ليس فيها ما يعوَّل عليه.

وكلامُ الفلاسفة ما لم يكن فيه مصادمةٌ لما تحقَّق عن المُخبر الصادق ﷺ مما لا بأس به.

وفسَّر بعضُهم «دائبين» بمجدَّين تعبَيْن، وهو على التشبيه والاستعارة. وأصلُ الدأْب: العادةُ المستمرَّة، ونصبُ الاسم على الحال، وتسخيرُ هذَين الكوكَبَين العظيمَين جعلُهما منيرَين مُصلحَين ما نِيط بهما صلاحُه من المكوَّنات، ولَعمري أنَّ الله سبحانه جعلَهما أجدَى مِن تفاريق العصا. وفي كتاب «المشارع والمطارحات»[2] للشيخ شهاب الدين السهروردي قتيل حلب: أنَّ تأثيرَ الشمس والقمر أظهرُ الآثار السماوية، وتأثيرُ الشمس أظهرُ من تأثير القمرِ، وأظهرُ الآثار بعد الشعاع التسخينُ الحاصل منه، ولولا ذلك ما كان كونٌ ولا فساد ولا استحالة، ولا ليلٌ ولا نهارٌ، ولا فصول ولا مزاج ولا حيوانات ولا غيرُها. وأطال الكلامَ في بيان ذلك وما يتعلَّق به، ولا ضررَ عندي في اعتقاد أنَّهما مؤثِّران بإذن الله تعالى كسائر الأسباب عند السلف الصالح.

---

(١) الفتوحات المكية ٣/ ٥٤٨ وما بعدها.

(٢) المطارحات في المنطق والحكمة لابن أبي الفتوح شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي الحكيم المقتول سنة (٥٨٧هـ). كشف الظنون ٢/ ١٧١٣، وهدية العارفين ٢/ ٥٢١.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣﴾ يتعاقبان لسُباتكم ومعاشكم، وأَرجعَ بعضُ المحقِّقين التسخيرَ في المواضع الأربعة إلى معنى التصريف، وأصلُه سياقةُ الشيء إلى الغرض المختصِّ به قهرًا، وذكر أنَّ في التعبير عن ذلك به من الإشعار بما في ذلك من صعوبة المأخذ، وعِزَّة المنال، والدلالة على عِظَم السلطان وشدَّة المحال ما لا يخفى، والظاهرُ أنَّه في المعنى المراد به هنا مجازٌ في تلك المواضع جميعًا.

ونقل أبو حيان(١) عن المتكلِّمين أنَّه مجازٌ في الأخير منها قال: لأنَّ الليل والنهار عَرَضان، والأعراضُ لا تسخَّر، وفيه قصور.

وفي إبراز كلٍّ من هذه النعم في جملة مستقلةٍ تنويهٌ لشأنها، وتنبيهٌ على رفعة مكانها، وتنصيصٌ على كون كُلٍّ نعمةً جليلة مستوجبةً للشكر.

وتأخيرُ تسخير الشمس والقمر عن تسخير ما تقدَّم من الأمور مع ما بينه وبَيْن خلق السماوات من المناسبة الظاهرة، قيل: لاستتباع ذكرِها لذكر الأرض، المستدعي لذكر إنزالِ الماء منها إليها، الموجبِ لذكر إخراجِ الرزق الذي من جملته ما يحصُلُ بواسطةِ الفُلكِ والأنهار، أو للتفادي عن توهُّم كونِ الكلِّ - أعني خَلْقَ السماوات والأرض وتسخيرَ الشمس والقمر - نعمةً واحدةً، وقد تقدَّم نظيرُه آنفًا.

وقد ذكر بعضُهم في وجه ذكر هذه المتعاطفات على هذا الأسلوب: أنَّه بدأ بخلق السماوات والأرض، لأنَّهما أصلان يتفرَّع عليهما سائرُ ما يُذكر بعدُ، وثنَّى بإنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات به لشدَّةِ تعلُّق النفوس بالرزق، فيكونُ تقديمه من قَبيل تعجيل المسرَّةِ.

ولما كان الانتفاعُ بما ينبُتُ من الأرض إنما يكمُلُ بوجود الفُلْكِ الجواري في البحر، وذلك لأنَّه تعالى خصَّ كلَّ طَرَفٍ من أطراف الأرض بنوعٍ من ذلك، وبالنقل يكثُرُ الربحُ = ذَكَر سبحانه تسخيرَ الفلك التي يُنقَل عليها، واقتصر عليها اعتناءً بشأنها.

ولما ذكر أمْرَ الثمرات وما به يكمُلُ الانتفاع بها من حيث النقلُ ذَكَرَ تسخيرَ الأنهار العذبة التي يشربُ منها الناس في سائر الأحيان، إتمامًا لأمر الرزق، وذَكَرَ

---

(١) البحر المحيط ٥/٤٢٨.

تسخيرَ الشمس والقمر بعدُ؛ لأنَّ الانتفاع بهما ليس بالمباشرة كالانتفاع بالفلك والانتفاع بالأنهار، وأخَّر تسخيرَ الليل والنهار؛ لأنهما عَرَضان وما تقدَّمهما جوهرٌ، والعَرَضُ من حيث هو بعدَ الجوهر. اهـ. وليس بشيءٍ يعوَّل عليه.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: أعطاكم بعضَ جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مشيئتُه التابعةُ للحكمة والمصلحة، فـ «مِن كلِّ» مفعولٌ ثانٍ لـ «آتى»، و«مِن» تبعيضيةٌ، وقال بعضُ الكاملين: إنَّ «كل» للتكثير والتفخيم لا للإحاطة والتعميم كما في قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

واعترض على حمل «مِن» على التبعيض دون ابتداءِ الغاية بأنَّه يُفضي إلى إخلاء لفظ «كل» عن فائدةٍ زائدة، لأنَّ «ما» نصٌّ في العموم، بل يوهم إيتاء البعض من كلِّ فردٍ متعلِّق به السؤال، ولا وجهَ له.

ودُفع بأنَّه بعد تسليم كون «ما» نصًّا في العموم، هنا عمومان، عمومُ الأفراد وعمومُ الأصناف بمعنى: كلّ صنفٍ صنف، وهما مقصودان هنا، فالمعنى: أعطاكم من جميع أفرادِ كلِّ صنفٍ سألتموه، فإنَّ الاحتياج بالذات إلى النوع والصنف لا لفردٍ بخصوصه، وفسّر «ما سألتموه» بما مِن شأنه أنْ يُسأل لاحتياج الناس إليه، سواء سئل بالفعل أم لم يُسأل، فلا ينفي إيتاء ما لا حاجة إليه مما لا يخطرُ بالبال، وجعلوا الاحتياجَ إلى الشيء سؤالًا له بلسان الحال، وهو مِن باب التمثيل، وسبيل هذا السؤال سبيلُ الجواب في رأي في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقيل: الأصل: وآتاكم من كلِّ ما سألتموه وما لم تسألوه، فحذف الثاني لدلالة ما أبقى على ما ألقى، و«ما» يحتمل أن تكون موصولة، والضمير المنصوب في «سألتموه» عائدٌ عليها، والتقديرُ: مِن كلِّ الذي سألتموه إياه، ومنع أبو حيان جواز أنْ يكون راجعًا إليه تعالى، ويكون العائدُ على الموصول محذوفًا مستندًا بأنَّه لو قدر متَّصلًا لزم اتِّصال ضميرَين متَّحدَي الرتبة من دون اختلاف، وهو لا يجوز ولو قدِّر منفصلًا حسبما تقتضيه القاعدةُ في مثل ذلك لزم حذفُ العائد المنفصل، وقد نصُّوا على عدم جوازه[١]. اهـ.

---

(١) البحر المحيط ٥/٤٢٨.

وذهب بعضُهم إلى جواز كلا التقديرَين مدَّعيًا أنَّ مَنْع اتِّصال المتَّحدَين رتبةً خاصٌّ فيما إذا ذُكرا معًا، أما إذا ذُكر أحدُهما وحُذف الآخرُ فلا منع، إذ الاتصالُ حينئذ محضُ اعتبار، وعلَّةُ المنع لا تجري فيه، وأنَّ منع حذفِ المنفصل خاصٌّ أيضًا، فيما إذا كان الانفصال لغرضٍ معنويٍّ، كالحصر في قولك: جاء الذي إياه[1] ضربت، إذ بالحذف حينئذٍ يفوتُ ذلك الغرضُ، أما إذا كان لغرضٍ لفظيٍّ كدفع اجتماع المثلَين فلا منع، إذ ليس هناك غرضٌ يفوت.

ويحتمل أنْ تكون موصوفةً، والكلام في الضمير كما تقدَّم، وأنْ تكون مصدريةً والضمير لله تعالى، والمصدر بمعنى المفعول، أي: مسؤولكم.

وقرأ ابن عباس والضحاك والحسن ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وعمرو بن فائد وقتادة وسلام ويعقوب ونافع في رواية: «مِن كلٍّ» بالتنوين[2]، أي: وآتاكم مِن كلٍّ شيءٍ ما احتجتُم إليه وسألتموه بلسان الحال، وجوِّز على هذه القراءة أنْ تكون «ما» نافية، والمفعول الثاني «مِن كل» كما في قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] والجملةُ المنفية في موضع الحال، أي: آتاكم مِن كلٍّ غيرَ سائليه، وهو إخبارٌ منه تعالى بسُبُوغ نعمته سبحانه عليهم بما لم يسألوه من النعم؛ ورُوي هذا عن الضحاك، ولا يخفى أنَّ الوجه هو الأول لِمَا أنَّ القراءة على هذا الوجه تخالف القراءةَ الأُولى، والأصلُ توافقُ القراءتَين وإنْ فهم منها إيتاء ما سألوه بطريق الأولى.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: ما أنعم به عليكم كما هو الظاهر. وقال الواحدي: إنَّ «نعمة» هنا اسمٌ أُقيمَ مقام المصدر يقال: أنعمَ إنعامًا ونعمةً، كما يقال: أنفقتُ إنفاقًا ونفقةً، فالنعمةُ بمعنى الإنعام ولذا لم تُجمع[3]. والمعوَّل عليه ما أشرنا إليه من أنَّها اسمُ جنسٍ بمعنى المنعَم به، والمرادُ بها الجمعُ كأنه قيل: وإنْ تعدُّوا نعم الله ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ وقد نصَّ بعضُهم على أنَّ المفرد يُفيد

---

(١) في (م): أباه.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٦٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٨، وقراءة يعقوب ونافع خلاف المشهور عنهما.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٢ ـ ٣٣.

الاستغراق بالإضافة، وما قيل: إنَّ الاستغراق ليس مأخوذًا من الإضافة، بل من الشرط والجزاء المخصوصَين، فيه نظر؛ لأنَّ الحكم المذكور يقتضي صحةَ إرادته منه، ولولاه تنافيا. والمرادُ بـ «لا تحصوها» لا تطيقُوا حصرَها ولو إجمالًا، فإنَّها غيرُ متناهية، وأصلُ الإحصاء: العدُّ بالحصى، فإنَّ العرب كانوا يعتمدونه في العدِّ كاعتمادنا فيه على الأصابع، ولذا قال الأعشى:

ولَسْتَ بالأكثر منهم حَصًى ... وإنما العِزَّةُ للكاثرِ[1]

ثم استُعمل لمطلق العدِّ، وقال بعضُ الأفاضل: إنَّ أصلَه أنَّ الحاسب إذا بلغ عقدًا معيَّناً من عقود الأعداد وضع حصاةً ليحفظَه بها، ففيه إيذانٌ بعدم بلوغ مرتبةٍ معتدٍّ بها من مراتبها، فضلًا عن بلوغ غايتها، وهو من الحسن بمكان، إلا أنَّه ذهب إلى الأول الراغبُ[2] وغيرُه، وأوَّل الإحصاءُ بالحصر لئلا يتنافى الشرط والجزاء، إذ أثبتَ[3] في الأوَّل العدَّ ونَفَى في الثاني، ولو أُوِّل «إنْ تَعُدُّوا» بأنْ تُريدوا العدَّ، يندفعُ السؤال على ما قيل أيضًا، والأولُ أَولَى.

وقال بعض الفضلاء: إنَّ المعنى: إنْ تشرَعُوا في عدِّ أفراد نعمةٍ من نِعَمِهِ تعالى لا تطيقوا عدَّها. وإنما أتى بـ «إنْ» وعدمُ العدِّ مقطوعٌ به نظرًا إلى توهُّم أنه يُطاق، قيل: والكلام عليه أبلغُ منه على الأول، لِمَا فيه من الإشارة إلى أنَّ النعمةَ الواحدةَ لا يُمكن عدُّ تفاصيلها، وأنت[4] تعلم أنَّ الظاهر هو الأوَّلُ.

وقد ذكر الإمام[5] مثالَين يستوضح بهما الوقوف على أنَّ نعم الله تعالى لا تُحصَى ولا يُمكن أنْ تُستقصَى فقال:

الأول: أنَّ الأطباء ذكروا أنَّ الأعصاب قسمان دماغيةٌ ونخاعيةٌ، والدماغيةُ سبعةٌ، وقد أتعبوا أنفسَهم في معرفة الحِكَم الناشئةِ مِن كلِّ واحدةٍ منها، ولا شكَّ أنَّ كلَّ واحدة تنقسمُ إلى شُعبٍ كثيرة، وكلُّ واحدةٍ من تلك الشعب تنقسم أيضًا إلى

(١) ديوان الأعشى ص٩٤، والمغني ص٧٤٤، وخزانة الأدب ٨/ ٢٥٠.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن (حصا).
(٣) في (م): إذا ثبت.
(٤) في (م): لكن أنت.
(٥) تفسير الرازي ١٩/ ١٢٩ - ١٣٠.

شعبٍ أدقَّ من الشعر، ولكلٍّ واحدٍ منها ممرٌّ إلى الأعضاء، ولو أنَّ واحدةً اختلَّت كيفًا أو وضعًا أو نحو ذلك، لاختلَّت مصالحُ البُنْية، ولكلٍّ منها على كثرتها حِكَم مخصوصةٌ، وكما اعتبرت هذا في الشظايا العصبية فاعتبر مثله في الشرايين والأوردة، وفي كلِّ واحدٍ من الأعضاء البسيطة والمركبة بحسب الكمية والوضع والفعل والانفعال، حتى تَرَى أقسامَ هذا الباب بحرًا لا ساحلَ له، وإذا اعتبرتَ هذا في بدن الإنسان فاعتبر في نفسه وروحه، فإنَّ عجائبَ عالم الأرواح أكثرُ من عجائب عالم الأجسام؛ وإذا اعتبرتَ أحوالَ عالم الأفلاك والكواكب، وطبقاتِ العناصر، وعجائبَ البرِّ والبحر والنبات والمعدن والحيوان، ظهَرَ لك أنَّ عقول جميع الخلائق لو رُكِّبت وجُعلَت عقلًا واحدًا وتأمَّل به الإنسانُ في حكمة الله تعالى في أقلِّ الأشياء لما أدرك منها إلا القليل.

والثاني: أنَّه إذا أخذت لقمةً من الخبز لتضعَها في فمك فانظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، فأمَّا الأوَّلُ: فاعرف أنَّها لا تتمُّ إلا إذا كان هذا العالمُ بكليته قائمًا على الوجه الأصوب؛ لأنَّ الحنطةَ لابدَّ منها، ولا تنبتُ إلا بمعونة الفصول وتركُّبِ الطبائع وظهورِ الأمطار والرياح، ولا يحصُل شيءٌ من ذلك إلا بدوران الأفلاك واتِّصال بعض الكواكب ببعض على وجوه مخصوصة، ثم بعدَ أنْ تكون الحنطة، لابدَّ لها من آلات الطحن ونحوه، وهي لا تحصل إلا عند تولُّد الحديد في أرحام الجبال؛ ثم تأمَّل كيف تكوَّنت على الأشكال المخصوصة، ثم إذا حصلَت تلك الآلات، فانظر أنَّه لابدَّ من اجتماع العناصر حتى يُمكن الطبخ.

وأما الثاني: فتأمَّل في تركيب بدنِ الحيوان، وهو أنَّه تعالى كيف خلَقَ ذلك حتى يُمكنه الانتفاعَ بتلك اللقمة، وأنَّه كيف يتضرَّر الحيوان بالأكل؛ وفي أيِّ الأعضاء تحدُث تلك المضارُّ، فلا يمكنك أنْ تعرف القليلَ إلا بمعرفة علم التشريح وعلم الطبِّ على الوجه الأكمل، وأنَّى للعقول بإدراك كلِّ ذلك، فظهر بالبرهان الباهر صحة هذه الشرطية. اهـ.

وقال مولانا أبو السعود قُدِّس سرُّه بعد كلام: وإنْ رمتَ العثورَ على حقيقة الحقِّ، والوقوفَ على ما جلَّ من السرِّ ودقَّ، فاعلم أنَّ الإنسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجودِ وما يتبعُهُ من الكمالات اللَّائقة، والمَلَكاتِ

الرَّائقة، بحيث لو انقطعَ ما بيْنَه وبين العناية الإلهية من العلاقة، لَما استقرَّ له القرار، ولا اطمأنَّت به الدارُ إلا في مطمورة العدم والبوار، ومهاوي الهلاكِ والدمار، لكن يَفيضُ عليه من الجناب الأقدس تعالى شأنُه وتقدَّس في كلِّ زمان يَمضي، وكلِّ آنٍ يمرُّ وينقضي من أنواع الفيوض المتعلِّقة بذاته ووجوده وسائرِ الصفات الروحانية والنفسانيةِ والجسمانية = ما لا يُحيطُ به نطاقُ التعبير، ولا يعلمه إلا اللطيفُ الخبير.

وتوضيحُه أنَّه كما لا يستحقُّ الوجودَ ابتداءً لا يستحقُّه بقاءً، وإنما ذلك من جناب المُبدِئ الأول عزَّ شأنه وجلَّ، فكما لا يُتصوَّرُ وجودُه ابتداءً ما لم ينسدَّ عليه جميعُ أنحاء عدمه الأصلي، لا يُتصوَّرُ بقاؤه على الوجود بعد تحقُّقه بعلَّته ما لم ينسدَّ عليه جميعُ أنحاء عدمه الطارئ؛ لأنَّ الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجبي.

وأنت خبيرٌ بأنَّ ما يتوقَّفُ عليه وجوده من الأمور الوجوديَّةِ التي هي عِلَلُه وشرائطُه، وإن وَجَب كونُها متناهيةً لوجوب تناهي ما دخَلَ تحت الوجود، لكنَّ الأمورَ العدميةَ التي لها دخْلٌ في وجوده ليست كذلك، إذ لا استحالةَ في أنْ يكونَ لشيء واحد موانعُ غيرُ متناهية، وإنما الاستحالة في دخولها تحت الوجود، وارتفاع تلك الموانع التي لا تتناهى، أعني بقاءها على العدم مع إمكان وجودها في أنفسِها في كلِّ آنٍ من آناتِ وجودِه نِعَمٌ غيرُ متناهيةٍ حقيقةً لا ادِّعاءً، وكذا الحال في وجودات عِلَلِهِ وشرائطِهِ القريبة والبعيدة ابتداءً وبقاءً، وكذا في كمالاته التابعة لوجوده[1]. اهـ.

ويتراءى منه أنَّه قد ترك الإمامَ في تحقيق هذا المقام وراءه، وأنَّه لو سمع ذلك لاقتدَى به في ذكره، ولعدَّ من النعم اقتداءَه، وقريبٌ منه ما يقال في بيان عدم تناهي النعم: إنَّ الوجود نعمةٌ، وكذا كلُّ ما يتبعُه من الكمالات، وذلك موقوفٌ على وجوده تعالى في الأزمنة الموهومة الغير المتناهية، وتَحقُّقُ ما يتوقفُ عليه وجودُ النعمة نعمةٌ، فتحقُّقُهُ سبحانه في كل آنٍ من تلك الآنات نعمةٌ، فالنعم غيرُ متناهية.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/٤٩ ـ ٥٠.

ولك أنْ تقولَ في بيان ذلك: إنَّه ما من إنسانٍ إلا وقد دفع الله تعالى عنه من البلايا ما لا يحيطُ به نطاقُ الحصر؛ لأنَّ البلايا الداخلة تحت حيطة الإمكان غيرُ متناهية، ولا شكَّ أنَّ دفْعَ كلِّ بليَّةٍ نعمةٌ، فتكون النعم غيرَ متناهية.

ومما يُوضح عدمَ تناهي البلايا الممكنة أَنَّ أهلَ النار المخلَّدين فيها لازال عذابهم بازديادٍ كما يُرشد إليه قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠] وقد ذكر غيرُ واحدٍ في ذلك أنَّهم كلَّما استغاثوا من نوعٍ من العذاب أُغيثُوا بأشدَّ من ذلك، فيكون كلُّ مرتبةٍ منه متناهياً في الشدَّة، وإنْ كانت مراتبُه غيرَ متناهيةٍ بحسب العدد والمدَّة، وعلى هذا نعم الله تعالى على المبتلَى أيضًا لا تُحصى.

وفي رواية ابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن مسعود قال: إنَّ لله تعالى على أهل النار منَّةً، فلو شاء أنْ يُعذِّبهم بأشدَّ من النار لعذَّبهم(١).

ثم الظاهر أنَّ المراد بالنعمة معناها اللغويُّ، أعني الأمر الملائم لا المعنى الشرعي(٢)، أعني: الملائم الذي تُحمدُ عاقبتُه، إذ لا يتأتَّى عليه عمومُ الخطاب، ولا يبعُدُ إطلاقُ النعمة بذلك المعنى على نحو رفْعِ الموانع وتحقُّق العلل والشرائط حسبما ذُكِرَ سابقًا، وظاهرُ ما تقدَّم يقتضي أنَّ النعم في حدِّ ذاتها غيرُ محصورة، والآيةُ ظاهرةٌ في أنَّ الإنسان لا يحصرها بالعدِّ، وفَرْقٌ بين الأمرَين، فتدبَّر.

وبالجملة ليس للعبد إلا العجزُ عن الوقوف على نهاية نعمِهِ سبحانه وتعالى، وكذا العجزُ عن شكر ذلك، وما أحسن ما قال أبو الدرداء ﵁: مَن لم يعرف نعمةَ الله تعالى عليه إلا في مَطعَمه ومَشربه، فقد قلَّ علمُه وحضَرَ عذابُه(٣).

وأخرج البيهقي في «الشعب» وغيرُه عن سليمان التيمي قال: إنَّ الله تعالى أنعمَ على العباد على قَدْرِهِ سبحانه، وكلَّفهم الشكر على قَدْرِهم(٤).

وعن طلق بنِ حبيب قال: إنَّ حقَّ الله تعالى أثقلُ من أنْ يقومَ به العبادُ، وإنَّ

---

(١) الشكر (١٨٠)، وشعب الإيمان (٤٥٧٧).
(٢) في الأصل: الأمر الشرعي، والمثبت من (م).
(٣) شعب الإيمان (٤٤٦٧).
(٤) شعب الإيمان (٤٥٧٨)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٨).

نِعَم الله سبحانه أكثرُ من أنْ يُحصيَها العباد، ولكن أصبِحوا توَّابين وأمسوا توابين(١).

وأفضلُ نعمه جلَّ شأنُه على عباده على ما رُوي عن سفيان بنِ عيينة أنْ عرَّفهم أنْ لا إله إلا الله(٢).

وأخرج ابنُ أبي الدنيا وغيرُه عن أبي أيوب القرشيِّ مولى بني هاشم أنَّ داود عليه السلام قال: ربِّ أخبرني ما أدنى نعمتك عليَّ؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود تنفَّسْ. فتنفس، فقال تبارك وتعالى: هذا أدنَى نعمتي عليك(٣).

واشتهر أنَّ أوَّلَ النعم المقصودة لذاتها الوجود، وأنَّه معدِنُ كلِّ كمالٍ، كما أنَّ العدمَ معدِنُ كلِّ نقصٍ. ويدلُّ على أنَّه نعمةٌ لا يكاد يقاس بها غيرُها عند كثيرٍ من الناس أنَّ الإنسان منهم يَفدي نفسَه بملك الدنيا لو كان بيده، وعَلِمَ أنَّ الفداء ممكنٌ إذا ألَمَّ به الألمُ وتحقَّق العدم.

ومن العجيب أنَّ أبا عليٍّ الشبلي البغدادي ـ وقيل: ابنُ سينا ـ لم يَعُدَّ وجودَ الإنسان نعمةً عليه، فقد قال من أبيات:

ودهرٌ ينشرُ الأعمارَ نَشْرًا ... كما للغُصن بالورقِ انتشارُ
ودنيا كلَّما وضَعَت جنينًا ... غَذَاهُ مِن نوائبها ظُؤَارُ(٤)

إلى أن قال:

نُعاقَب في الظهور وما وُلِدنا ... ويُذبَح في حشا الأمِّ الحُوار(٥)
ونـنتظرُ البلايا والرزايا ... وبَعدُ فللوعيد لنا انتظارُ
ونخرجُ كارهينَ كما دخلنا ... خروج الضبِّ أخرجَه الوَجَار(٦)

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٨٦، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٢٢)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٤٨٨.
(٢) الشكر (٩٦)، وشعب الإيمان (٤٥٠٠).
(٣) الشكر (١٤٦). وأخرجه أيضًا البيهقي في شعب الإيمان (٤٦٢٣).
(٤) ظُؤَارُ: جمع (ظئر)، وهي العاطفة على ولد غيرها المرضعة له في الناس وغيرهم. القاموس (ظأر).
(٥) الحُوَار: بالضم وقد يكسر: ولد الناقة ساعة تضعهُ، أو إلى أن يُفصَلَ عن أمه، وجمعه أَحوِرَة وحِيران وحُوران. القاموس (حور).
(٦) الوجار: بالكسر والفتح: جُحر الضَّبُع وغيرها، جمعه: أَوجِرَةٌ وَوُجُرٌ. القاموس (وَجَرَ).

فـمـاذا الامـتـنـانُ عـلـى وجـودٍ لـغـيـر الـمـوجَـدِيـن بـه الـخـيـار
فـكـانـت أَنـعـمًـا لـو أنَّ كـونًـا نُـخـيَّـرُ قـبـلَـهُ أو نُـسـتـشَـار
فـهـذا الـداءُ لـيـس لـهُ دواءٌ وهـذا الـكـسـرُ لـيـس لـه انـجـبـارُ(١)

إلى آخر ما قال، ولَعَمري لقد غَمِطَ نعمةَ الله تعالى عليه وظلمها.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ﴾ يظلم النعمةَ بإغفال شكرها بالكلية، أو بوضعه في غير موضعِه، أو يظلم نفسَه بتعريضها للحرمان بترك الشكر.

﴿كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ شديدُ الكفران والجحود، وقيل: ظلومٌ في الشدَّة يشكو ويَجزعُ، كفَّارٌ في النعمة يجمع ويمنعُ، والأولُ أنسبُ بما قبله، و«أل» في «الإنسان» للجنس، ومصداقُ الحُكم بالظلم وأخيه بعضُ من وُجِدا من أفراده فيه، ويدخل في ذلك الذين بدَّلوا نعمةَ الله تعالى كفرًا، والظاهرُ أنَّ الجملةَ استئنافٌ بيانيٌّ، وَقَع جوابًا لسؤالٍ مقدَّر، كأنَّه قيل: لِمَ لَم يُراعوا حقَّها؟ أو لِمَ حرمها بعضُهم؟ وقيل: إنَّها تعليلٌ لعدم تناهي النعم، لذا أتى بصيغتَي المبالغة فيها، وهو كما ترى.

هـذا وفـي الـنـحـل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] وفرَّق أبو حيان بين الختمَين: بأنَّه هنا لمَّا تقدَّم قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا) وبعده (وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا) فكان ذلك نصًّا على ما فعلوا مِن القبائح مِن الظلم والكفران، ناسَبَ أنْ يَختُمَ بذمِّ مَن وَقَع ذلك منه، فخُتمَت الآيةُ بقوله سبحانه: «إن الإنسان لظلوم كفار».

وأمَّا في النحل فلمَّا ذكر عدَّةَ تفضُّلاتٍ وأَطنبَ فيها، وقال جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] أي: مَن أوجدَ هذه النعمَ السابق ذكرُها، ليس كمَن لا يقدِرُ على الخَلْق، ذَكَر من تفضُّلاته تعالى اتِّصافَه بالغفران والرحمة، تحريضًا على الرجوع إليه سبحانه، وأنَّ هاتَين الصفتَين هو جلَّ وعلا متَّصفٌ بهما، كما هو متَّصفٌ بالخلق، ففي ذلك إطماعٌ لمن آمن به تعالى وانتقل من عبادة المخلوقِ إلى عبادة الخالق تبارك وتعالى، أنَّه يغفر زَلَله السابقَ ويرحمه.

---

(١) نسبها لأبي علي الشبلي ياقوت الحموي في معجم البلدان ١٠/٢٣ ـ ونفى أن تكون لابن سينا ـ والكتبي في فوات الوفيات ٣/٣٤١.

وأيضًا فإنَّه لمَّا ذكر أنَّه تعالى هو المتفضِّلُ بالنعم على الإنسان[١] ذَكَرَ ما حصل[٢] من المُنعِم ومِن جنس المنعَم عليه، فحصَلَ من المنعِم ما يناسبُ حالةَ عطائه وهو الغفران والرحمة، إذ لولاهما لَمَا أنعمَ عليه، وحَصَل من جنس المنعَم عليه ما يناسب حالةَ الإنعام عليه ويقع معها في الجملة وهو الظلم والكفران، فكأنَّه قيل: إنْ صدَرَ من الإنسان ظلمٌ فالله تعالى غفورٌ، أو كفرانٌ فالله تعالى رحيمٌ؛ لعلمه بعَجْزِ الإنسان وقصورِه. وما نقل السخاويُّ عن عبد الرحمن بنِ زيد بنِ أسلم من أنَّ هذه الآيَةَ منسوخةٌ بآية النحل مما لا يُلتفَتُ إليه. انتهى كلامه[٣]. وفيه بحثٌ.

وقيل: إنَّما ختم سبحانه آية النحل بما ختم للإطناب هناك في ذكر النِّعم مع تقدُّم الدعوة إلى الشكر صريحًا، فكان ذلك مظنَّة التقصير فيه، ويُناسب الإطنابَ في سرد النعم أنْ يذكرَ منها[٤] ما يتعلَّق بذلك وهو الغفرانُ والرحمةُ، فتأمَّل والله تعالى أعلمُ بأسرار كتابه.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فيه احتمالاتٌ عندهم فقيل: من ظلمات الكثرة إلى نور الوحدةِ، أو: من ظلمات صفاتِ النشأة إلى نور الفطرةِ، أو: من ظلمات حُجُب الأفعالِ والصفات إلى نور الذات، وهو المرادُ بقولهم: النورُ البَحْتُ الخالص من شَوْب المادة والمدة.

وقال جعفر: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات البدعة إلى نور السنة، ومن ظلمات النفوس إلى نور القلوب. وقال أبو بكر ابن طاهر: من ظلمات الظنِّ إلى نور الحقيقة. وقيل غير ذلك.

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ بتيسيره بهبَةِ الاستعداد وتهيئةِ أسباب الخروج إلى الفعل ﴿إِلَىٰ

(١) في الأصل: الإحسان، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٥/ ٤٢٩.
(٢) في الأصل: يحصل، والمثبت من (م) والبحر المحيط.
(٣) جمال القراء ٢/ ٧٣٨، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٢٩.
(٤) في الأصل: فيها.

﴿صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي يقهرُ الظُّلْمةَ بالنور ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ بكمال ذاته، أو بما يَهَبُ لعبادِهِ المستعدِّين من الفضائل والعلوم، أو من الوجود الباقي، أو نحو ذلك ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ المحجوبين ﴿مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ وهو عذابُ الحرمان ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ الحِسِّيةَ والصوريَّةَ ﴿عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ العقليةِ والمعنويَّةِ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ المريدين ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طريقِهِ الموصلِ إليه سبحانه ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ انحرافًا مع استقامتها.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ أي: بكلام يُناسب حالَهم واستعدادَهم وقَدْرَ عقولهم، وإلا لَمْ يفهموا، فلا يحصُلُ البيان، وعن عمر ﷺ: كلِّموا الناسَ بما يفهمون، أتريدونَ أنْ يكذَّب الله تعالى ورسولُه ﷺ[1]؟

وفي «أسرار التأويل»[2]: لكلِّ نبيٍّ وصدِّيقٍ اصطلاحٌ في كلام المعرفة وطريقِ المحبةِ، يُخاطبُ به من يعرفُه من أهل السلوك، وعلى هذا لا ينبغي للصوفي أنْ يُخاطب العامَّة باصطلاحات الصوفية؛ لأنَّهم لا يعرفونه، وخطابُهم بذلك مثلُ خطاب العربيِّ بالعجمية، أو العجميِّ بالعربية، ومنشأ ضلالِ كثيرٍ من الناس الناظرينَ في كتب القوم جهلُهم باصطلاحاتهم، فلا ينبغي للجاهل بذلك النظر فيها؛ لأنَّها تأخذُ بيده إلى الكفر الصريح، بل توقعُهُ في هُوَّة كفرٍ، كفرُ أبي جهل إيمانٌ بالنسبة إليه، ومن هنا صدَرَ الأمر السلطاني - إذ كان الشرعُ معتنًى به - بالنهي عن مطالعة كتب الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه ومَن انخرَطَ في سلكه.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ إضلالَه؛ لزوال استعدادِه بالهيئات الظلمانيَّةِ ورُسوخِها والاعتقادات الباطلةِ واستقرارِها ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ هدايتَه ممَّن بقي على استعداده، أو لم يرسخ فيه تلك الهيئات والاعتقادات.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ

---

(١) لم نقف عليه من قول عمر ﷺ، وأخرج البخاري (١٢٧) نحوه من حديث علي ﷺ، ومسلم (٥) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ بلفظ: ما أنت بمحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغُهُ عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

(٢) لعله: مطالع أنوار التنزيل ومفاتح أسرار التأويل لعبد الرزاق بن رزق الله بن أبي بكر الحنبلي توفي (٦٦١)هـ. كشف الظنون ٢/ ١٧١٥.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ وهي أيامُ وِصاله سبحانه، حين كشَفَ لعباده سجفَ[1] الربوبيَّة في حضرةِ قُدسِهِ[2]، وأدناهم إلى جنابه ومَنَّ عليهم بلذيذِ من خطابه:

سَقيًا لها ولِطيبها ... ولحسنها وبَهائها
أيامُ لم يَلجِ النَّوى ... بَيْنَ العصا ولحائها

وما أَحسن ما قيل:

وكانَتْ بالعراقِ لنا ليالٍ ... سَلَبناهنَّ من رَيْب الزمانِ
جعلناهنَّ تاريخَ الليالي ... وعنوانَ المسرَّة والأماني

وأَمَرَه عليه الصلاة والسلام بتذكير ذلك ليثور غرامهم، ويأخذَ بهم نحوَ الحبيب هيامُهم، فقد قيل:

تذكَّرَ والذكرى تَشُوقُ وذو الهوى ... يَتُوقُ ومَن يَعْلَق به الحبُّ يُصْبِهِ[3]

وجوز أنْ يُراد بـ ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ تعالى أيَّام تجلِّيه جلَّ جلاله بصفة الجلال، وتذكيرُهم بذلك ليخافوا فيمتثلوا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: لكلِّ مؤمنٍ بالإيمان الغيبي، إذ الصبر والشكر ـ على ما قيل ـ مقامان للسالك قبل الوصول.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال الجوزجاني: أي: لئن شكرتُم الإحسان لأزيدنَّكم المعرفةَ، ولئن شكرتُم المعرفةَ لأزيدنكم الوصلةَ، ولئن شكرتُم الوصلة لأزيدنكم القربَ، ولئن شكرتُم القرب لأزيدنكم الأُنسَ، ويعمُّ ذلك كلّه ما قيل: لئن شكرتم نعمةً لأزيدنكم نعمةً خيرًا منها، وللشكر مراتب، وأعلا مراتبه: الإقرار بالعجز عنه. وفي بعض الآثار أنَّ داودَ عليه السلام قال: يا ربِّ كيف أشكركَ، والشكر من آلائك؟ فأوحى الله تعالى إليه: الآن شكرتَني يا داود[4]. وقال حمدون: شكرُ النعمة أنْ تَرى نفسَك فيها طفيليًّا.

(١) السَّجْف: الستر. القاموس (سجف).
(٢) في (م): قدسيةٍ.
(٣) البيت لابن خياط الدمشقي، وقد سلف ٤/ ١٥٣.
(٤) أخرجه أحمد في الزهد ص٨٨ ـ ٨٩، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٤١٣).

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: إنَّه سبحانه لا شكَّ فيه؛ لأنَّه الظاهرُ في الآفاق والأنفس ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ موجدِهما ومظهرِهما مِن كَتْم العدم ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ليسترَ بنوره سبحانه ظلماتِ حُجُبِ صفاتكم، فلا تشكُّون فيه عند جليَّة اليقين ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى غاية يقتضيها استعدادُكم من السعادة.

﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ منعهم ذلك عن اتِّباع الرسل عليهم السلام.

و[1] ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ سَلَّموا لهم المشاركةَ في الجنس وجَعلُوا الموجِبَ لاختصاصهم بالنبوَّة ما مَنَّ الله تعالى به عليهم مما يُرشِّحُهم لذلك، وكثيرًا ما يقول المنكرون في حقِّ أَجِلَّة المشايخ مثل ما قال هؤلاء الكفرة في حقِّ رُسلهم، والجوابُ نحو هذا الجواب.

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ جوابٌ عن قول أولئك: «فأتونا بسلطانٍ مبينٍ»، ويقال نحو ذلك للمنكرين الطالبين من الوليِّ الكرامةَ تعنُّتًا ولَجَاجًا.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّ الإيمان يقتضي التوكُّل، وهو الخمودُ تحت الموارد، وفسَّره بعضُهم بأنَّه طرحُ القلب في الربوبية والبدنِ في العبودية، فالمتوكِّلُ لا يُريد إلا ما يريدُه الله تعالى، ومِن هنا قيل: إنَّ الكامل لا يحبُّ إظهار الكرامة، وفي المسألة تفصيلٌ عندهم.

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ذكر بعضُهم أنَّ البروزَ متعدِّدٌ، فبروزٌ عند القيامة الصغرى بموت الجسد، وبروزٌ عند القيامة الوسطى بالموت الإرادي، وهو الخروجُ عن حجاب صفاتِ النفس إلى عَرْصة[2] القلب. وبروزٌ عند القيامة الكبرى، وهو الخروجُ عن حجاب الآنيَّة إلى فضاء الوحدةِ الحقيقيَّة، وأنَّ حدوث[3] التقاولِ بَيْن

(١) الواو، ليس في (م).
(٢) في الأصل: عرضة، والمثبت من (م) وتفسير ابن عربي ١/ ٣٧٠.
(٣) في الأصل: حديث، والمثبت من (م) وتفسير ابن عربي ١/ ٣٧٠.

الضعفاء والمستكبرين المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ إلخ فهو: بوجود المهديِّ القائم بالحقِّ، الفارقِ بين أهل الجنة والنار عند قضاء الأمر الإلهي بنجاة السعداء وهلاك الأشقياء.

وفسَّروا الشيطان بالوهم، وقد يُفسِّرونه في بعض المواضع بالنفس الأمَّارة. والقولُ المقصوصُ عنه في الآية عند ظهور سلطانِ الحقِّ، وبعضُهم حمل الشيطانَ هنا على الشيطان المعروفِ عند أهلِ الشرع، وذكر أنَّ قوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ دليلُ بقائه على الشرك، حيث رأى الغير في البين، وما ثَمَّ غيرُ الله تعالى.

وإلى هذا يُشيرُ كلامُ الواسطيِّ حيث قال: مَن لامَ نفسَه فقد أشرك. ويخالفه قولُ محمد بنِ حامد: النفسُ محلُّ كلِّ لائمةٍ، فمن لم يَلُم نفسَه على الدوام ورضي عنها في حال من الأحوال، فقد أهلكَها. ويأباه ما صحَّ في الحديث القدسي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»(١). فتأمَّل.

﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ لم يذكر من يُحيِّيهم، وقد ذكروا أنَّ منهم مَن يُحيِّيهم ربُّهم، وهم أهلُ الصفوة والقربة، ومنهم مَن يُحيِّيهم الملائكةُ، وهم أهلُ الطاعات والدرجات، وما أطيبَ سلامَ المحبوبِ على محبِّه وما ألَذَّه على قلبه:

أشارُوا بتسليمٍ فجُدْنا بأنفسٍ ... تسيل(٢) مِن الآماقِ والاسم(٣) أدمُعُ(٤)

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۞ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ إشارةٌ كما قيل إلى كلمة التوحيدِ التي غرسَها الحقُّ في أرض بساتين الأرواح، وجعل سبحانه أصلَها هناك ثابتًا بالتوفيق،

(١) قطعة من حديث أبي ذر ﷺ أخرجه مسلم (٢٥٧٧).
(٢) في الأصل: يسيل، والمثبت من (م) والمصدر.
(٣) في الأصل و(م): الاسم، والمثبت من المصادر.
(٤) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٢/ ٣٤٤، وخلاصة الأثر للمحبي ٢/ ٢٠٥.

وفرعُها في سماء القربةِ، وسَقْيُها من سواقي العنايةِ، وساقُها المعرفةُ، وأغصانُها المحبة، وأوراقُها الشوقُ، وحارسُها الرعايةُ، تؤتي أكلَها في جميع الأنفاس من لطائف العبوديةِ وعرفان أنوار الربوبية.

وقال بعضُهم: الكلمةُ الطيبة: النفسُ الطيبةُ، أصلُها ثابتٌ بالاطمئنان وثباتِ الاعتقاد بالبرهان، وفرعُها في سماء الروحِ تُؤتي أكلَها من ثمرات المعارف والحِكَم والحقائق كلَّ وقتٍ بتسهيله تعالى.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ إشارةٌ إلى كلمة الكفر أو النفسِ الخبيثة، وقال جعفر الصادق ﷺ: الشجرةُ الخبيثة: الشهواتُ، وأرضُها النفوسُ، وماؤها الأمل، وأوراقُها الكسل، وثمارُها المعاصي، وغايتُها النار.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال الصادق ﷺ: يُثبِّتهم في الحياة الدنيا على الإيمان، وفي الآخرة على صدْق جوابِ الرحمن، وجعل بعضُهم القولَ الثابت قولَه سبحانه وحكمه الأزلي، أي: يُثبِّتهم على ما فيه تبجيلُهم وتوقيرُهم في الدارَين حيث حَكَم بذلك في الأزل، وحُكمُه سبحانه الثابت الذي لا يتغيَّر ولا يتبدَّل.

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ في الحياتَين لسوء استعدادِهم ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ من الهداية الأصليةِ والنورِ الفطري ﴿كُفْرًا﴾ احتجاباً وضلالاً ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾ مَن تابَعَهم واقتدى بهم في ذلك ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ الهلاكِ والحرمان ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ من متاع الدنيا ومُشتهياتها التي يُحبونها كحبِّ الله سبحانه ﴿لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ كلَّ مَن نظر إلى ذلك والتفتَ إليه.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ أي: سماواتِ الأرواح ﴿وَالْأَرْضَ﴾ أي: أرض الأجساد ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سماءِ عالمِ القدس ﴿مَاءً﴾ وهو ماءُ العلم ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ من أرض النفس ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وهي ثمراتُ الحكم والفضائل ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ في تقوِّي القلب بها ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ أي: فلكَ العقولِ ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ﴾ أي: بحرِ آلائه وأسرارِ مخلوقاته الدالةِ على عَظمتِه سبحانه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ

﴿ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ أي: أنهار العلم التي تنتهي بكم إلى ذلك البحر العظيم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ﴾ شمسَ الروحِ ﴿وَٱلۡقَمَرَ﴾ قمرَ القلب ﴿دَآئِبَيۡنِۖ﴾ في السير بالمكاشفة والمشاهدة ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾ ليلَ ظلمةِ صفاتِ النفس ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ نهارِ نورِ الروح لطلب المعاش والمعاد والراحة والاستنارة[1].

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ بلسان الاستعداد، فإنَّ المسؤولَ بذلك لا يمنع ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ السابقةَ واللاحقةَ ﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ لعدم تناهيها ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ﴾ يُنقِصُ حقَّ الله تعالى أو حقَّ نفسه بإبطال الاستعداد، أو يضعُ نورَ الاستعداد في ظلمة الطبيعة ومادَّة البقاء في محلِّ الفناء ﴿كَفَّارٞ﴾ لتلك النِّعَمِ التي لا تُحصَى؛ لغفلته عن المنعِم عليه بها.

وقيل: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ﴾ لنفسه، حيث يَظنُّ أنَّ شكره يقابلُ نعمَه تعالى[2]، ﴿كَفَّارٞ﴾ محجوبٌ عن رؤية الفضلِ عليه بدايةً ونهايةً، نسألُ الله تعالى أنْ يوفِّقنا لما يحبُّ ويرضى ويُكرِمَنا بالهداية والعناية.

❁ ❁ ❁

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ مفعولٌ لفعلٍ محذوفٍ، أي: اذكُر ذلك الوقتَ، والمقصودُ تذكيرُ ما وقَعَ فيه على نهْج ما قيل في أمثاله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ﴾ يعني مكةَ شرَّفها الله تعالى ﴿ءَامِنٗا﴾ أي: ذا أَمْنٍ، فصيغةُ فاعل للنسب، ك: لابِن وتامر؛ لأنَّ الأمنَ في الحقيقة لأهل[3] البلد، ويجوز أنْ يكونَ الإسنادُ مجازيًّا من إسناد ما للحالِّ إلى المحلِّ، ك: نهرٍ جارٍ، والفرقُ بين ما هنا وما في البقرة من قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ [البقرة: ١٢٢] أنَّه عليه السلام سألَ في الأوَّل أنْ يجعلَه من جملة البلاد التي يأمنُ أهلُها ولا يخافون، وفي الثاني: أنْ يُخرجَه من صفةٍ كان عليها من الخوف إلى ضدِّها من الأمن، كأنَّه قال: هو بلدٌ مخوفٌ فاجعله آمنًا، كذا في «الكشاف»[4].

---

(١) في الأصل: الاستفادة، والمثبت من (م) وتفسير ابن عربي ١/ ٣٧٢.
(٢) في الأصل: نعمة الله، والمثبت من (م).
(٣) في (م): أهل.
(٤) ٢/ ٣٧٩.

وتحقيقُه: أنَّك إذا قلتَ: اجعل هذا خاتمًا حسنًا، فقد أشرتَ إلى المادَّة طالبًا أنْ يسبكَ منها خاتم حسن، وإذا قلتَ: اجعَلْ هذا الخاتمَ حسنًا، فقد قصدْتَ الحسن دون الخاتمية، وذلك لأنَّ محطَّ الفائدة هو المفعول الثاني؛ لأنَّه بمنزلة الخبر، وإلى هذا يرجع ما قيل في الفرق أنَّ في الأول سؤالَ أمرَين البلديةِ والأمنِ، وهاهنا سؤالُ أمرٍ واحدٍ وهو الأمنُ.

واستشكل هذا التفسيرُ بأنَّه يقتضي أنْ يكونَ سؤالُ البلدية سابقًا على السؤال المحكي في هذه السورة، وأنَّه يلزم أنْ تكونَ الدعوة الأولَى غيرَ مستجابةٍ؟

قال في «الكشف»: والتفصِّي عن ذلك إمَّا بأنَّ المسؤول أوَّلًا صلوحُه للسكنى، بأنْ يُؤمنَ فيه أهله في أكثر الأحوال على المستمرِّ في البلاد، فقد كان غيرَ صالحٍ لها بوجهٍ على ما هو المشهور في القصَّة، وثانيًا إزالةُ خوف عرض، كما يعتري البلادَ الآمنةَ أحيانًا، وإمَّا بالحمل على الاستدامة وتنزيله منزلةَ العاري عنه مبالغةً، أو بأنَّ أحدهما أمنُ الدنيا والآخر أمنُ الآخرة، أو أنَّ الدعاء الثاني صدَرَ قبل استجابةِ الأوَّل، وذكر بهذه العبارة إيماءً إلى أنَّ المسؤول الحقيقيَّ هو الأمنُ والبلدية توطئة، لا أنَّه بعد الاستجابة عراه خوفٌ، وكأنَّه بنَى الكلامَ على الترقِّي، فطلب أولًا أنْ يكونَ بلدًا آمنًا من جملة البلاد التي هي كذلك، ثم لتأكيد الطلب جعلَه مخوفًا حقيقة فطلَبَ الأمنَ؛ لأنَّ دعاء المضطر أقربُ إلى الإجابة، ولذا ذيَّلَه عليه السلام بقوله: «إني أسكنتُ» إلخ. اهـ.

وهو مبنيٌّ على تعدُّد السؤال وإنْ حُمل على وحدتِه وتكرير الحكاية كما استظهرَه بعضُهم، واستظهرَ آخرونَ الأول، لتغاير التعبير في المحلَّين، فالظاهرُ أنَّ المسؤول كلا الأمرَين وقد حُكي أولًا، واقتصر هاهنا على حكاية سؤالِ الأمن؛ لأنَّ سؤال البلديةِ قد حُكي بقوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ إذ المسؤولُ هويُّها إليهم للمساكنة كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما لا للحجِّ فقط، وهو عينُ سؤال البلدية، وقد حُكي بعبارة أخرى على ما اختاره بعضُ الأجلَّة، أو لأنَّ نعمة الأمن أدخلُ في استيجاب الشكر، فذكْرُه أنسبُ بمقام تقريعِ الكفرة على إغفاله على ما قيل.

وهذه الآية وما تلاها ـ أعني قصةَ إبراهيم عليه السلام ـ على ما نصَّ عليه صاحب «الكشف» واردةٌ على سبيلِ الاعتراض، مُقرِّرَةٌ لما حثَّ عليه من الشكر

بالإيمان والعمل الصالح وزجر عنه من مقابلهما مدمجًا فيها دعوةَ هؤلاء النافرين بلسان اللطف والتقريب، مؤكدةٌ لجميع ما سلف أشدَّ التأكيد.

وفي «إرشاد العقل السليم» أنَّ المرادَ منها تأكيدُ ما سلَفَ من تعجيبه ﷺ ببيان فنٍّ آخرَ من جنايات القوم، حيث كفروا بالنِّعَم الخاصة بهم بعد ما كفروا بالنعم العامة، وعصَوا أباهم إبراهيمَ عليه السلام حيث أسكنهم مكةَ ـ زادها الله تعالى شرفًا ـ لإقامة الصلاة والاجتنابِ عن عبادة الأصنام والشكر لنعم الله تعالى، وسأله أنْ يجعله بلدًا آمنًا، ويرزقهم من الثمرات، ويهوي قلوبَ الناس إليهم، فاستجاب الله تعالى دعاءه وجعله حرمًا آمنًا تجبى إليه ثمرات كلِّ شيءٍ، فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا دارَ البوارِ بالبلدِ الحرامِ، وجعلوا لله تعالى أنداداً، وفعلوا ما فعلوا من القبائح الجسام(١).

﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾ أي: بعِّدني وإياهم ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: عن عبادتها.

وقرأ الجحدريّ وعيسى الثقفي: «وأَجْنِبْني» بقطع الهمزة وكسر النون(٢)، بوزن أَكْرِمني، وهما لغةُ أهل نجدٍ يقولون: جنَبه مخفَّفًا، وأَجْنبه رباعيًا، وأما أهل الحجاز فيقولون: جنّبه، مشدَّدًا.

وأصل التجنُّب أنْ يكون الرجلُ في جانبٍ غير ما عليه غيرُه، ثم استُعمل بمعنى البعد، والمرادُ هنا ـ على ما قال الزجّاج(٣) ـ طلبُ الثباتِ والدوام على ذلك، أي: ثَبِّتنا على ما نحن عليه من التوحيد وملَّة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام، وإلا فالأنبياء معصومون عن الكفر وعبادة غير الله تعالى.

وتعقَّب ذلك الإمام بأنَّه لمَّا كان من المعلوم أنَّه سبحانه يُثبِّت الأنبياء عليهم السلام على الاجتناب، فما الفائدةُ في سؤال التثبيت؟ ثم قال: والصحيحُ عندي في الجواب وجهان:

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٠.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٨، والمحتسب ١/ ٣٦٣.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ١٦٤بنحوه.

الأول: أنَّه عليه السلام وإنْ كان يعلمُ أنَّ الله تعالى يعصمُه من عبادة الأصنام إلا أنَّه ذكر ذلك؛ هضمًا لنفسه، وإظهارًا الحاجة والفاقة إلى فضل الله سبحانه وتعالى في كلِّ المطالب.

والثاني: أنَّ الصوفيةَ يقولون: إنَّ(١) الشرك نوعان: ظاهرٌ: وهو الذي يقول به المشركون، وخفيٌّ: وهو تعلُّق القلب بالوسائط والأسباب الظاهرة، والتوحيدُ المحضُ قطعُ النظر عما سوى الله تعالى. فيحتملُ أنْ يكون مرادُه عليه السلام من هذا الدعاء العصمةَ عن هذا الشرك(٢). انتهى.

ويرد على هذا الأخير أنَّه يعودُ السؤال عليه فيما أظنُّ؛ لأنَّ النظر إلى السِّوَى يُحاكي الشركَ الذي يقول به المشركون عند الصوفية، فقد قال قائلهم:

ولو خَطَرَتْ لي في سواك إرادةٌ على خاطِري سهوًا حكمتُ بردَّتي(٣)

ولا أظنُّ أنَّهم يجوِّزون ذلك للأنبياء عليهم السلام، وحيث بنى الكلام على ما قرَّروه يقال: ما فائدةُ سؤالِ العصمةِ عن ذلك، والأنبياءُ عليهم السلام معصومون عنه؟ والجواب الصحيح عندي ما قيل: إنَّ عصمة الأنبياء عليهم السلام ليسَت لأمرٍ طبيعيٍّ فيهم، بل بمحض توفيقِ الله تعالى إياهم وتفضُّله عليهم، ولذلك صحَّ طلبُها.

وفي بعض الآثار أنَّ الله سبحانه قال لموسى عليه السلام: يا موسى لا تأمن مكري حتى تجوزَ الصراطَ(٤).

وأنتَ تعلمُ أنَّ المبشَّرين بالجنة على لسان الصَّادقِ المصدوق عليه الصلاة والسلام كانوا كثيرًا ما يسألون الله تعالى الجنةَ مع أنَّهم مقطوعٌ لهم بها، ولعلَّ منشأ ذلك ما قيل لموسى عليه السلام، فتدبَّر.

والمتبادر من بَنِيْهِ عليه السلام مَن كان من صُلبه، فلا يتوهَّم أنَّ الله تعالى لم

---

(١) ليس في (م).

(٢) تفسير الرازي ١٩/ ١٣٢.

(٣) جاء في هامش (م): هو ابن الفارض قدس سره. اهـ، وهو في ديوانه ص٥٢، وتقدم ١/ ٣٤١.

(٤) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص٢١٨، وقال: إنه من الإسرائيليات.

يستجب دعاءَه لعبادةِ قريش الأصنام، وهم من ذرِّيَّتهِ عليه السلام، حتى يُجاب بما قاله بعضُهم مِن أنَّ المراد كلُّ مَن كان موجودًا حال الدعاء من أبنائه، ولا شكَّ أنَّ دعوتَه عليه السلام مجابةٌ فيهم، أو بأنَّ دعاءه استُجيب في بعضٍ دون بعضٍ، ولا نقص فيه كما قال الإمام[1].

وقال سفيانُ بن عيينة: إنَّ المراد ببنِيْه ما يشملُ جميع ذرِّيَّته عليه السلام، وزعَمَ أنَّه لم يَعبد أحدٌ من أولاد إسماعيلَ عليه السلام الصنمَ، وإنَّما كان لكلِّ قومٍ حجرٌ نصبوه وقالوا: إنَّ[2] هذا حجرٌ والبيتُ حَجَرٌ، وكانوا يدورون به ويُسمُّونه الدوار، ولهذا كره غيرُ واحدٍ أنْ يقال: دارَ بالبيت[3]، بل يقال: طافَ به، وعلى ذلك أيضًا حَمَل مجاهد البنين، وقال: لم يعبد أحدٌ من ولد إبراهيم عليه السلام صنمًا وإنما عَبَدَ بعضُهم الوثَنَ. وفرّق بينهما بأنَّ الصنم هو التمثال المصوَّر، والوثنَ هو: التمثال الغير المصوَّر، وليت شعري كيف ذهبت على هذَين الجليلَين ما في القرآن من قوارع تنعي على قريش عبادةَ الأصنام؟!

وقال الإمام بعد نقلِهِ كلامَ مجاهد: إنَّ هذا ليس بقويٍّ؛ لأنَّه عليه السلام لم يُرِد بهذا الدعاء إلا عبادةَ غير الله تعالى، والصنم كالوثن في ذلك[4]. ويرد مثله على ابن عيينة، ومن هنا قيل عليه: إنَّ فيما ذكره كرًّا على ما فرَّ منه؛ لأنَّ ما كانوا يصنعونه عبادة لغير الله تعالى أيضًا.

واستدلَّ بعضُ أصحابنا بالآية على أنَّ التبعيد من الكفر والتقريبَ من الإيمان ليس إلا مِن الله تعالى؛ لأنَّه عليه السلام إنما طلب التبعيد عن عبادة الأصنام منه تعالى. وحَمْلُ ذلك على الألطاف فيه ما فيه.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي: الأصنام ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: تَسبَّبنَ له[5] الضلال،

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ١٣٣.
(٢) ليس في (م).
(٣) في هامش (م): ولا يخفى أن هذا من الآداب، وإلا فقد ورد «دار» في بعض الآثار كما قال النووي. اهـ، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٧١.
(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٣٣.
(٥) بعدها في (م): في.

فإسناد الإضلال[1] إليهنَّ مجازيٌّ؛ لأنهنَّ جمادٌ لا يُعقَلُ منهنَّ ذلك، والمضِلُّ في الحقيقة هو الله تعالى، وهذا تعليلٌ لدعائه عليه السلام السابق، وصُدِّر بالنداء؛ إظهارًا للاعتناء به، ورغبةً في استجابته.

﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ منهم فيما أدعو[2] إليه من التوحيد وملَّة الإسلام ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ يحتمل أنْ تكون «مِن» تبعيضيَّةً على التشبيه، أي: فإنَّه كبعضي في عدم الانفكاكِ، ويحتمل أنْ تكون اتِّصاليةً كما في قوله ﷺ لعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: «أنتَ منِّي بمنزلة هارونَ مِن موسى»[3] أي: فإنَّه متَّصل بي لا ينفكُّ عنِّي في أمر الدين، وتسميتُها اتِّصالية؛ لأنَّه يُفهم منها اتِّصال شيءٍ بمجرورها، وهي ابتدائيةٌ إلا أنَّ ابتدائيته باعتبار الاتصال، كذا في حواشي «شرح المفتاح» الشريفي، يعني أنَّ مجرورها ليس مبدأً أو منشأً لنفس ما قبلها بل لاتِّصاله، فإمَّا أنْ يقدَّر متعلّقها فعلًا خاصًّا كما قاله الجلالُ السيوطي في بيان الخبر من أنَّ «منِّي» فيه خبرُ المبتدأ، و«مِن» اتصاليَّة، ومتعلّقُ الخبر خاصٌّ، والباء زائدة بمعنى: أنت متَّصلٌ بي ونازلٌ مني بمنزلة هارون مِن موسى. وإمَّا أنْ يقدَّر فعلٌ عامٌّ كما ذهب إليه الشريف هناك، أي: منزلتُه بمنزلةٍ كائنةٍ وناشئةٍ منِّي كمنزلة هارونَ مِن موسى عليهما السلام، وتقديرُه خاصًّا هنا كما فعلنا على تقدير جعلها اتِّصاليةً مما يَستطيبُه الذوقُ السليم دون تقديره عامًّا.

﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ أي: لم يتَّبعني، والتعبيرُ عنه بالعصيان ـ كما قيل ـ للإيذان بأنَّه عليه السلام مستمرٌّ على الدعوةِ، وأنَّ عدم اتِّباع مَن لم يتَّبعْهُ إنما هو لعصيانه لا لأنَّ الدعوة لم تبلغه.

وفي «البحر» أنَّ بين الاتِّباع والعصيان طباقًا معنويًا؛ لأنَّ الاتِّباع طاعة[4].

﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٦﴾ أي: قادرٌ على أن تغفرَ له وترحمَه، وفي الكلام على

(١) في الأصل: الضلال، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧١.
(٢) في الأصل: أدعوه، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٥١.
(٣) أخرجه أحمد (١٤٦٣)، والبخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣١.

ما أشار إليه البعضُ حذفٌ، والتقدير: ومَن عصاني فلا أدعو عليه فإنَّك. . إلخ.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ الشرك يجوزُ أنْ يُغفرَ، ولا إشكالَ في ذلك بناءً على ما قال النووي في «شرح مسلم» مِن أنَّ مغفرةَ الشرك كانت في الشرائع القديمة جائزة في أممهم وإنَّما امتنعَت في شرعنا[1].

واختلفَ القائلون بأنَّ مغفرةَ الشركِ لم تكن جائزةً في شريعةٍ من الشرائع في توجيه الآية، فمنهم مَن ذهب إلى أنَّ المرادَ غفورٌ رحيمٌ بعد التوبة، ونسب ذلك إلى السدِّي.

ومنهم مَن ذهب إلى تقييد العصيان بما دون الشركِ، وغفل عما تقتضيه المعادلة، ورُوي ذلك عن مقاتل. وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه قال: إنَّ المعنى: ومَن عصاني بإقامته على الكفر فإنَّك قادرٌ على أنْ تغفرَ له وترحمه، بأنْ تنقلَه من الكفر إلى الإيمان والإسلام وتهديَه إلى الصواب.

ومنهم مَن قال: المعنى: ومَن لم يتَّبعني فيما أدعو إليه من التوحيد، وأقام على الشرك، فإنك قادرٌ على أن تستره[2] عليه وترحَمه بعدم معاجلته بالعذاب، ونظيرُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

ومنهم مَن قال: إنَّ الكلام على ظاهره، وكان ذلك منه عليه السلام قبل أنْ يعلمَ أنَّ الله سبحانه لا يغفرُ الشركَ، ولا نقصَ بجهل ذلك؛ لأنَّ مغفرةَ الشرك جائزةٌ عقلًا كما تقرَّر في الأصول، لكنَّ الدليل السمعيَّ مَنَع منها، ولا يلزمُ النبيَّ أنْ يعلم جميعَ الأدلَّة السمعيَّة في يوم واحدٍ.

والإمام لم يرتَضِ أكثرَ هذه الأوجه، وجعل هذا الكلامَ منه عليه السلام شفاعةً في إسقاطِ العقاب عن أهل الكبائر قبل التوبةِ، وأنَّه دليلٌ لحصول ذلك لنبيِّنا ﷺ فقال: إنَّ المعصيةَ المفهومةَ من الآية إمَّا أنْ تكونَ من الصغائر، أو من الكبائر بعد التوبةِ أو قبلها، والأولُ والثاني باطلان؛ لأنَّ «مَن عصاني» مطلقٌ، فتخصيصُه عدولٌ عن الظاهر، وأيضًا الصغائرُ والكبائر بعد التوبة واجبةُ الغفران عند الخصم،

(١) شرح مسلم ١٧/ ٧٢، ونقله بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٧١.

(٢) في الأصل: تستره.

فلا يُمكن حملُ(١) اللفظ عليه، فثبتَ أنَّ الآيةَ شفاعةٌ لأهل الكبائر قبل التوبة، ومتى ثبت منه عليه السلام ثبت في حقِّ نبيِّنا عليه الصلاة والسلام لمكان: ﴿أَتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النحل:١٢٣] ونحوه، ولئلَّا يلزمَ النقص(٢). وهو كما تَرَى، وقد مرَّ لك ما ينفعُك في هذا المقام فتذكَّر هداك الله تعالى(٣).

﴿رَبَّنَآ﴾ قال في «البحر»: كرَّر النداء، رغبةً في الإجابة والالتجاء إليه تعالى، وأتَى بضمير الجماعة؛ لأنَّه تقدَّم ذِكْره عليه السلام وذِكْرُ بَنِيْهِ في قوله: «واجْنُبْنِي وبنيَّ»(٤).

وتعقِّب بأنَّ ذلك يقتضي ضميرَ الجماعة في «ربِّ إنَّهنَّ» إلخ، مع أنَّه جيء فيه بضمير الواحد؟ فالوجه أنَّ ذلك؛ لأنَّ الدعاء المصدَّر به وما هو بصدَد تمهيدِ مبادي إجابته من قوله: ﴿إِنِّي أَسْكَنتُ﴾ إلخ متعلِّق بذرِّيَّته، فالتعرُّضُ لوصْف ربوبيته تعالى لهم أدخلُ في القبول وإجابة المسؤول، والتأكيدُ لمزيد الاعتناء فيما قصدَه من الخبر.

و«مِن» في قوله ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ بمعنى بعض، وهي في تأويل المفعول به، أي: أسكنتُ بعضَ ذرِّيَّتي، ويجوز أنْ يكونَ المفعول محذوفاً، والجارُّ والمجرور صفته(٥) سدَّت مسدَّه، أي: أسكنتُ ذريةً مِن ذرِّيَّتي، و«مِن» تحتملُ التبعيضَ والتبيينَ.

وزعْمُ بعضِهم أنَّ «مِن» زائدةٌ عل مذهب الأخفش(٦)، لا يرتَضيه سليمُ البصيرة كما لا يخفَى.

والمرادُ بالمُسْكَن إسماعيل عليه السلام ومَن سيولد له، فإنَّ إسكانَه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمِّنٌ لإسكانهم، والداعي للتعميم على(٧) ما قيل قولُه

---

(١) ليس في (م).
(٢) تفسير الرازي ١٩/ ١٣٤.
(٣) ينظر ٢/ ١٥٩.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣١.
(٥) في الأصل: صفة، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧١.
(٦) معاني القرآن ١/ ٢٧٢.
(٧) في الأصل: كما.

الآتي: «ليقيموا» إلخ، ولا يخفَى أنَّ الإسكان له حقيقةٌ ولأولاده مجاز، فمَن لم يجوِّز الجمع بين الحقيقةِ والمجاز يرتكبُ لذلك عمومَ المجاز، وهذا الإسكانُ بعدما كان بينه عليه السلام وبينَ أهله ما كان، وذلك أنَّ هاجَرَ أمَّ إسماعيلَ كانت أَمَةً مِن القِبْطِ لسارةَ، فوَهَبتْها مِن إبراهيم عليه السلام، فلما ولدَت له إسماعيلَ غارَت فلم تُقَارَّهُ على كونه معها، فأخرَجَها وابنَها إلى أرض مكة فوضَعَهما عند البيت عند دوحةٍ فوق زمزم في أعلا المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحدٌ وليس بها ماءٌ، ووَضَع عندهما جِرابًا فيه تمرٌ، وسقاءً فيه ماءٌ، ثم قَفيَ منطلقًا، فتبعَتْهُ هاجرُ فقالت: يا إبراهيم أين تذهبُ وتتركُنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيسٌ ولا شيءَ. قالت له ذلك مرارًا، وجَعَلَ لا يلتفتُ إليها، فقالت له: آلله أمرَك بهذا؟! قال: نعم[1]، قالت: إذن لا يُضيِّعُنا. ثم رجعَت.

وانطلق عليه السلام حتى إذا كان عند الثنيَّة حيث لا يرَوْنَه، استقبلَ بوجهه البيتَ، وكان إذ ذاك مرتَفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيولُ فتأخذ عن يمينه وشماله، ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال: «ربِّ إني أسكنت» إلى: «العلهم يشكرون».

ثم إنها جعلَت تُرضِعُ ابنَها وتشربُ ممَّا في السقاء حتى إذا نَفَدَ عطِشَت وعطِشَ ابنُها، وجعلَت تنظرُ إليه يَتَلَبَّط[2]، فانطلقَت كراهيةَ أنْ تنظرَ إليه، فوجَدَت الصفا أقربَ جبلٍ يليها، فقامت عليه، ثم استقبلَت الوادي تنظرُ هل تَرَى أحدًا، فلم تَرَ، فهَبَطت حتى إذا بلغَت الوادي رفعَت طرفَ دِرعها، ثم سعَت سَعْيَ الإنسان المجهود حتى جاوَزَتْه، ثم أَتَت المروةَ فقامت عليها ونَظَرت هل ترى أحدًا فلم تَرَ، ففعلَت ذلك سبعَ مرَّاتٍ، ولذلك سَعَى الناسُ بينهما سبعًا[3]، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صَه، تريدُ نفسَها، ثم تَسمَّعَت فسمِعَت أيضًا فقالت: قد

---

(١) في هامش (م): وبهذا يبطل استدلال بعض غلاة المتصوفة بالآية على أنَّه يجوز للإنسان أن يضيع ولده وعياله في أرض مضيعة: اتكالًا. اهـ منه.

(٢) قال ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٠١: يتمرَّغ ويضرب بنفسه الأرض.

(٣) أخرج البخاري في صحيحه ضمن الحديث (٣٣٦٤) عن ابن عباس أنه قال: قال النبي ﷺ: «فذلك سعيُ الناس بينهما».

أسمعْتَ إن كان عندك غَواثٌ، فإذا هي بالمَلَك عند موضع زَمزَم، فبحث بعَقِبِهِ حتى ظهر الماء، فجعلَت تُحوِّضُه وتغرف منه في سقائها وهو يفور، فشربَت وأرضعَت ولدَها، وقال لها المَلَك: لا تخافي الضيعةَ فإنَّ ها هنا بيتَ الله تعالى يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإنَّ الله سبحانه لا يُضيعُ أهلَه. ثم إنَّه مرَّت بهما رُفقة من جُرْهُم، فرأوا طائرًا عائفًا[١] فقالوا: لا طيرَ إلا على الماء، فبَعثُوا رسولَهم فنظر فإذا بالماء، فأتاهم فقصدوه وأمُّ إسماعيلَ عنده، فقالوا: أشركينا في مائك نُشركك في ألباننا؟ ففَعلَت، فلمَّا أدرك إسماعيلُ عليه السلام زوَّجوه امرأةً منهم[٢]، وتمامُ القصة في كتب السير.

﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ وهو وادي مكة شرَّفها الله تعالى، ووصفه بذلك دون غير مزروع؛ للمبالغة، لأنَّ المعنى: ليس صالحًا للزرع، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر:٢٨] وكان ذلك لحَجَريَّته.

قال ابنُ عطية: وإنما لم يَصفْه عليه السلام بالخلوِّ عن الماء مع أنَّه حاله[٣] إذ ذاك؛ لأنَّه كان علمَ أنَّ الله تعالى لا يُضيعُ إسماعيلَ عليه السلام وأُمَّه في ذلك الوادي، وأنَّه سبحانه يَرزقُهما الماء، فنظر عليه السلام النظر البعيد[٤].

وقال أبو حيان بعدَ نقله: وقد يُقال: إنَّ انتفاء كونه ذا زرعٍ مستلزمٌ لانتفاء الماء، إذ لا يمكن أنْ يُوجدَ زرعٌ إلا حيث الماء، فنفَى ما يَتسبَّبُ عن الماء، وهو الزرع، لانتفاء سببه وهو الماء[٥]. اهـ.

وقال بعضهم: إنَّ طلب الماء لم يكن مهمًّا له عليه السلام لما أنَّ الوادي مظنةُ السيول، والمحتاج للماء يَدَّخِر منها ما يكفيه، وكان المهمُّ له طلبَ الثمرات،

---

(١) قال ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٠٣: هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه.

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٣٣٦٤) عن ابن عباس ﵄، وجاء في البخاري: فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء. قالوا: نعم، بدل قوله: فقالوا: أشركينا... ففعلت.

(٣) في الأصل: خال، والمثبت من (م) والمحرر الوجيز.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤١.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٢٣٧.

فوصف ذلك بكونه غيرَ صالحٍ للزرع بياناً لكمال الافتقار إلى المسؤول. فتأمَّل.

﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ ظرف لـ «أسكنتُ» كقولك: صلَّيت بمكةَ عند الركن. وزَعَمَ أبو البقاء أنَّه صفةُ «وادٍ» أو بدل منه[1]، واختارَ بعضُ الأجلَّة الأوَّلَ، إذ المقصودُ إظهارُ كونِ ذلك الإسكان مع فقدان مباديه لمحض التقرُّب إلى الله تعالى والالتجاء إلى جواره الكريم، كما يُنبئ عنه التعرُّض لعنوان الحرمة المؤذِن بعزَّة الملتَجَأ وعصمتِهِ عن المكاره، فإنَّهم قالوا: معنى كونِ البيت محرَّمًا أنَّ الله تعالى حرَّم التعرُّض له والتهاونَ به، أو أنَّه لم يزل ممنعًا عزيزًا يهابه كلُّ[2] الجبابرة في كلِّ عصرٍ، أو لأنَّه منع منه الطوفان فلم يَستولِ عليه، ولذا سمِّي: عتيقًا، على ما قيل[3]، وأَبعَدَ مَن قال: إنَّه سمِّي محرَّمًا؛ لأنَّ الزائرين يُحرِّمون على أنفسهم عند زيارته أشياءَ كانت حلالًا عليهم، وسمَّاه عليه السلام بيتًا باعتبار ما كان، فإنَّه كان مبنيًّا قبل، وقيل: باعتبار ما سيكون بعدُ، وهو ينزعُ إلى اعتبار عنوان الحرمة كذلك.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: لأنْ يقيموا، فاللام جارَّةٌ، والفعل منصوبٌ بـ «أنْ» مضمرة بعدها، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «أسكنتُ» المذكور، وتكريرُ النداء وتوسيطُه؛ لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة فإنَّها عمادُ الدين، ولذا خصَّها بالذكر من بين سائر شعائره، والمعنى على ما يقتضيه كلامُ غيرِ واحدٍ على الحصر، أي: ما أسكنتُهم بهذا الوادي البلْقَع الخالي من كلِّ مُرتَفَقٍ ومُرتزق إلا ليقيموا الصلاةَ عند بيتك المحرَّم، ويَعمُرُوه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبَّداتك، مُتبرِّكين بالبقعة التي شرَّفْتَها على البقاع، مُستَسْعدين بجوارك الكريم، مُتقرِّبين إليك بالعكوف عند بيتك والطوافِ به والركوعِ والسجودِ حولَه، مُستنزلين رحمتَك التي آثرْتَ بها سكَّانَ حَرَمك.

وهذا الحصر ـ على ما ذكروا ـ مستفادٌ من السياق، فإنَّه عليه السلام لما قال: «بوادٍ غيرِ ذي زَرْعٍ» نَفَى أنْ يكونَ إسكانُهم للزراعة، ولمَّا قال: «عندَ بيتك المحرَّم» أثبتَ أنَّه مكانُ عبادةٍ، فلمَّا قال: «ليقيموا» أثبتَ أنَّ الإقامة عنده عبادةٌ، وقد نفَى

---

(١) الإملاء ٣/ ٤١٠.

(٢) ليس في (م).

(٣) في هامش (م): وقيل: العتيق: مقابل الجديد. اهـ. منه.

كونها للكسب، فجاء الحصرُ مع ما في «ربنا» من الإشارة إلى أنَّ ذلك هو المقصود. وعن مالك أنَّ التعليل يُفيد الحصرَ، فقد استدلَّ بقوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨] على حرمة أكلها[١].

وفي «الكشف» أنَّ استفادة الحصر من تقدير محذوفٍ مؤخَّرٍ يتعلَّق به الجارُّ والمجرور، أي: ليقوموا أسكنتهم هذا الإسكان، أخبر أوَّلًا أنَّه أسكَنَهم بوادٍ قَفْرٍ، فأدمجَ فيه حاجتهم إلى الوافدين، وذكر وجه الإيثار، لشرف الجوارِ بقوله: «عند بيتك المحرَّم»، ثم صرَّح ثانيًا بأنَّه إنَّما آثر ذلك ليعمُرُوا حَرَمَك المحرَّم، وبنى عليه الدعاء الآتي، ومن الدليل على أنَّه غيرُ متعلِّق بالمذكور تخلُّلُ «ربَّنا» ثانيًا بين الفعل ومتعلَّقه، وهذا بَيِّنٌ، ولا وجهَ لاستفادة ذلك من تكرير «ربَّنا» إلا مِن هذا الوجه. اهـ.

واختار بعضُهم ما ذكرناه أوَّلًا في وجه الاستفادة، وقال: إنَّه معنًى لطيفٌ، ولا يُنافيه الفصل بالنداء؛ لأنَّه اعتراضٌ لتأكيد الأول وتذكيره، فهو كالمنبَّه عليه، فلا حاجةَ إلى تعلُّق الجارِّ بمحذوفٍ مؤخَّرٍ واستفادةِ الحصر من ذلك، وهو الذي ينبغي أنْ يُعوَّل عليه، وبجَعْلِ النداء مؤكِّدًا للأوَّل يندفعُ ما قيل: إنَّ النداء له صدرُ الكلام فلا يتعلَّق ما بعده بما قبله، فلابدَّ من تقدير متعلَّق، ووجْهُ الاندفاع ظاهرٌ.

وقيل: اللامُ لام الأمر، والفعلُ مجزومٌ بها، والمرادُ هو الدعاء لهم بإقامة الصلاة، كأنَّه طلب منهم الإقامة وسأل من الله تعالى أنْ يُوفِّقهم لها، ولا يخفى بُعده، وأبعدُ منه ما قاله أبو الفرج ابنُ الجوزي: إنَّ اللام متعلِّقةٌ بقوله: «واجْنُبْنِي وبَنِيَّ أنْ نعبدَ الأصنام»[٢]. وفي قوله: «ليقيموا» بضمير الجمع على ما في «البحر» دلالة على أنَّ الله تعالى أعلَمه بأنَّ ولدَه إسماعيلَ عليه السلام سيعقب هنالك ويكونُ له نسلٌ[٣].

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: أفئدةً من أفئدتهم ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: تُسرع إليهم شوقًا ووِدادًا، فـ «من» للتبعيض، ولذا قيل: لو قال عليه السلام: أفئدة الناس، لازدحمَتْ عليهم فارسُ والرومُ، وهو مبنيٌّ على الظاهر من إجابة دعائه

---

(١) الموطأ ٢/ ٤٩٧، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٢.

(٢) زاد المسير ٤/ ٣٦٧، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٣٢.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٣٢.

عليه السلام، وكونِ الجمع المضاف يُفيد الاستغراق. وروي عن ابن جبير أنَّه قال: لو قال عليه السلام: أفئدةَ الناس، لحجَّت البيتَ اليهودُ والنصارى.

وتعقِّب بأنَّه غيرُ مناسبٍ للمقام، إذ المسؤول توجيهُ القلوب إليهم للمساكنة معهم لا توجيهُها إلى البيت للحجِّ، وإلا لقيل: تهوي إليه، فإنَّه عينُ الدعاء بالبلدية قد حُكي بعبارةٍ أخرى. اهـ.

وأنت تعلم أنَّه لا منافاةَ بين الشرطيَّة في المرويّ وكون المسؤول توجيهَ القلوب إليهم للمساكنة معهم، وقد جاء نحو تلك الشرطيَّة عن ابن عباس ومجاهد كما في «الدر المنثور» وغيره[1]، على أنَّ بعضهم جعل هذا دعاءً بتوجيه القلوب إلى البيت، فقد أخرج ابنُ أبي شيبة وابنُ جرير وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم عن الحكم قال: سألتُ عكرمةَ وطاوسًا وعطاء بن أبي رباح عن هذه الآية «فاجعل».. إلى آخره، فقالوا: البيت تَهوي إليه قلوبُهم: يأتونه[2]. وفي لفظٍ قالوا: هواهم إلى مكة: أنْ يحجُّوا[3]. نعم هو خلافُ الظاهر.

وجوّز أنْ تكون «من» للابتداء كما في قولك: القلب منه سقيم، تريدُ قلبَه، فكأنَّه قيل: أفئدةَ ناسٍ، واعترضَه أبو حيان بأنَّه لا يظهرُ كونُها للابتداء، لأنَّه لا فعلَ هنا يُبتَدَأُ فيه لغايةٍ ينتهي إليها، إذ لا يصحُّ ابتداءُ جعل أفئدة من الناس[4].

وتعقبه بعضُ الأجلَّة بقوله: وفيه بحثٌ، فإنَّ فعل الهويِّ للأفئدة يُبتَدأُ به لغايةٍ ينتهي إليها، ألا يرى إلى قوله: «إليهم». وفيه تأمُّل. اهـ.

وكأنَّ فيه إشارةً إلى ما قيل: من أنَّ الابتداء في «مِن» الابتدائية إنما هو من متعلّقها لا مطلقاً، وإن جعلناها متعلِّقةً بـ «تهوي» لا يظهرُ لتأخيره ولتوسيط الجارِّ فائدةٌ.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٨٧، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٠، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٩٩٦).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٤/ ١١١، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٩٩، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٨٧.

(٣) الطبري ١٣/ ٦٩٩، والجعديات (٢٤٩)، والدر المنثور ٤/ ٨٧.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣٢.

وذكر مولانا الشهابُ في توجيه الابتداء وترجيحِهِ على التبعيض كلامًا لا يخلو عن بحثٍ، فقال: اعلم أنَّه قال في «الإيضاح»: إنَّه قد يكونُ القصدُ إلى الابتداء دونَ أنْ يقصد انتهاء مخصوص إذا كان المعنَى لا يقتضي إلا المبتدأ منه، ك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وزيدٌ أفضلُ من عمرٍو. وقد قيل: إنَّ جميع معاني «مِن» دائرةٌ على الابتداء، والتبعيضُ هنا لا يظهرُ فيه فائدةٌ كما في قوله: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ [مريم: ٤] فإنَّ كون قلب الشخص وعظمه بعضًا منه معنًى مكشوف غير مقصودٍ بالإفادة، فلذا جعلت للابتداء، والظرفُ مستقرٌّ للتفخيم، كأنَّ ميلَ القلب نَشَأ من جملته، مع أنَّ ميلَ جملة كلِّ شخصٍ من جهة قلبه، كما أنَّ سقم قلبِ العاشق نَشَأ منه، مع أنَّه إذا صَلُح صَلُح البدنُ كلُّه، وإلى هذا نَحا المحقِّقون من شرَّاح «الكشاف»، لكنَّه معنًى غامضٌ، فتدبَّره(١).

والأفئدةُ مفعولٌ أوَّل لـ «اجعل»، وهو جمعُ: فؤادٍ، وفسَّروه على ما في «البحر» وغيره بالقلب، لكنْ يقال له(٢): فؤاد، إذا اعتُبر فيه معنى التفؤُّد، أي: التوقُّد، يقال: فأدْتُ اللحمَ، أي: شويتُه، ولحمٌ فئيدٌ، أي: مشويٌّ، وقيل: الأفئدة هنا: القِطَعُ من الناس، بلغة قريش، وإليه ذهب ابنُ بحر. والمفعولُ الثاني جملة «تهوي»، وأصلُ الهويِّ: الهبوطُ بسرعةٍ، وفي كلام بعضهم السرعةُ، وكان حقُّه أنْ يُعدَّى باللام كما في قوله:

حتى إذا ما هَوَتْ كفُّ الوليدِ لها طارَتْ وفي كفِّه مِن رِيشها بِتَكُ(٣)

وإنما عُدِّي بـ «إلى» لتضمينه معنى الميل كما في قوله:

تَهويْ إلى مكةَ تبغي الهدَى ما مؤمنُ الجنِّ كأنجاسها(٤)

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٣.

(٢) ليس في الأصل.

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في شرح ديوانه ص١٧٥، واللسان (كفف)، ووقع في (م): تبك، بدل: بتك. وبتك: قطع، واحدها: بتكة، شرح ثعلب.

(٤) البيت من هواتف الجانِّ، هُتف به لسواد بن قارب ﷺ، وأخرج قصة إسلامه مع الشِّعر أبو نعيم في الدلائل (٦٢)، وذكرها ابن عبد البر في الاستيعاب ٤/ ٢٩٥، وابن كثير في البداية والنهاية ٣/ ٥٦٣ وما بعد، وابن حجر في الإصابة ٤/ ٢٩٤، وعجز البيت يُروى بعدَّة روايات متقاربة، ينظر البداية والنهاية. وأصل القصة أخرجها البخاري (٣٨٦٦).

ولما كان ما تقدَّم كالمبادي لإجابة دعائه عليه السلام وإعطاء مسؤوله جاء بالفاء في قوله: «فاجعل» إلى آخره.

وقرأ هشام: «أَفئِيدَة» بياءٍ بعد الهمزةِ، نصَّ عليه الحُلواني عنه(١)، وخُرِّج ذلك على الإشباع كما في قوله:

أعــوذُ بــالله مِــن الــعَــقْــرابِ الــشــائــلاتِ عُــقَــدَ الأذنــابِ(٢)

ولمَّا كان ذلك لا يكونُ إلا في ضرورة الشعر عند بعضهم قالوا: إنَّ هشامًا قرأ بتسهيل الهمزة كالياء، فعبَّر عنها الراوي بالياء، فظنَّ مَن أخطأ فهمه أنَّها بياءٍ بعد الهمزة، والمرادُ بياء عوضًا من الهمزة. وتعقَّب ذلك الحافظُ أبو عمرو الداني: بأنَّ النقَلَةَ عن هشام كانوا مِن أعلم الناس بالقراءة ووجوهها، فهم أجلُّ مِن أنْ يُعتَقَد فيهم مثل ذلك(٣).

وقرئ: «آفدة» على وَزْن: ضاربة(٤)، وفيه احتمالان: أحدُهما: أنْ يكون قُدِّمَت فيه الهمزةُ على الفاء فاجتمع همزتان(٥)، ثانيتُهما ساكنةٌ فقُلبت ألفًا، فوزْنُه: أَعْفِلة، كما قيل في «أَدْوُر» جمع «دار»، قُلِبَت فيه الواوُ المضمومةُ همزةً، ثم قُدِّمت وقُلبت ألفًا فصار: آدُر.

وثانيهما: إنَّه اسم فاعلٍ من: أَفِدَ يأفَدُ، بمعنى: قَرُبَ وَدَنا، ويكون بمعنى عَجِلَ وهو صفةٌ لمحذوف، أي: جماعة أو جماعات آفِدة.

وقرئ: «أَفِدة» بفتح الهمزة من غير مدٍّ، وكسر الفاء بعدها دال(٦)، وهو إمَّا صفة

(١) التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٢٩٩.

(٢) البيت في الجمل للفراهيدي ص٢٤٤، وضرائر الشعر ص٣٣، ورسالة الملائكة ص٢١٣، والمغني ص٤٨٧، واللسان (سبسب)، وتاج العروس (عقرب)، واللباب ١١/ ٣٩٧ دون نسبة.

(٣) ينظر النشر ٢/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٩ لابن كثير، وهي في الكشاف ٢/ ٣٨٠، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٢، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٣، والكلام الآتي منه أيضًا.

(٥) قبلها في الأصل: فيه.

(٦) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٩ لعيسى بن عمر، وهي في الكشاف ٢/ ٣٨٠، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٢.

من أَفِد بوزن: خشنة، فيكونُ بمعنى آفدة في القراءة الأُخرَى، أو أصلُه أفئدة، فنُقلَت حركةُ الهمزة إلى ما قبلها ثم طُرِحَت، وهو وجهٌ مشهورٌ عند الصرفيين والقرَّاء.

قال الأوَّلون: إذا تحرَّكت الهمزةُ بعد ساكنٍ صحيح تبقى، أو تنقل حركتها إلى ما قبلها وتحذف، ولا يجوزُ جعلُها بَيْنَ بَيْن؛ لما فيه من شبه التقاء الساكنَين، وقال صاحب «النشر» من الآخرين: الهمزةُ المتحركة بعد حرفٍ صحيح ساكنٍ كـ : مسؤولًا وأفئدة وقرآن وظمآن، فيها وجهٌ واحدٌ وهو النقلُ، وحُكي فيه وجهٌ ثانٍ وهو بَيْنَ بَيْن، وهو ضعيفٌ جدًّا، وكذا قال غيرُه منهم[١]، فما قيل: إنَّ الوجه إخراجُها بَيْنَ بَيْنٍ، ليس بالوجه.

وقرأت أمُّ الهيثم: «أفوِدة» بالواو المكسورة بدل الهمزة، قال صاحب «اللوامح»: وهو جمعُ: وَفْد، والقراءة حسنة، لكنِّي لا أعرفُ هذه المرأة، بل ذكرها أبو حاتم[٢]. اهـ.

وقال أبو حيان[٣]: يحتمل أنَّه أبدل الهمزةَ في فؤاد، ثم جُمع وأُقرِّت الواو في الجمع إقرارَها في المفرد، أو هو جَمع وَفْد كما قال صاحب «اللوامح» وقُلب، إذ الأصلُ: أوفدة، وجَمْعُ فَعْل على أَفْعِلَة شاذٌّ، نحو نجد وأنجدة، ووَهْي وأَوهية، وأمُّ الهيثم: امرأةٌ نُقِل عنها شيءٌ من لغات العرب. وقرأ زيد بن عليٍّ ﵄: «إفادَة» على وزن إمَارَة[٤]، ويظهرُ أنَّ الهمزة بدلٌ من الواو المكسورة كما قالوا: إشَاح في وِشاح، فالوزن: فِعالة، أي: فاجعل ذوي وِفادة، ويجوزُ أنْ يكونَ مصدر أفاد إفادةً، أي: ذوي إفادة، وهم الناس الذين يُفيدون ويُنتَفَع بهم.

وقرأ مسلمةُ بنُ عبد الله: «تُهوَى» بضمِّ التاء مبنيًّا للمفعول[٥]، من أهوى المنقول بهمزة التعدية من هَوِي اللازم، كأنه قيل: يسرع[٦] بها إليهم.

---

(١) ينظر النشر ١/ ٤٠٨ و٤٣٣، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٣.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٣٢.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣٣.

(٥) المحتسب ١/ ٣٦٤، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٣.

(٦) في الأصل: تسرع، والمثبت من (م) والبحر المحيط.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه وجماعة من أهله ومجاهد: «تَهوى» مضارع هَوِي[1]، بمعنى: أحبَّ، وعدِّي بـ : «إلى»؛ لما تقدَّم.

﴿وَٱرْزُقْهُم﴾ أي: ذرِّيَّتي الذين أسكنتُهم هناك، وجوّز أن يريدَهم والذين ينحازون إليهم من الناس، وإنما لم يخصَّ عليه السلام الدعاء بالمؤمنين منهم كما في قوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] اكتفاءً ـ على ما قيل ـ بذكر إقامة الصلاة.

﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من أنواعها، بأن تجعلَ بقربهم قُرًى يحصلُ فيها ذلك، أو تُجبى إليهم من الأقطار الشاسعة، وقد حصل كلا الأمرَين، حتى إنَّه يجتمعُ في مكة المكرمةَ البواكير[2] والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعيَّة والصيفيَّة والخريفيَّة في يومٍ واحد.

أخرج ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عن محمد بنِ مسلم الطائفي أنَّ الطائف كانت من أرض فلسطينَ، فلمَّا دعا إبراهيمُ عليه السلام بهذه الدعوة رَفَعها الله تعالى ووَضَعها حيث وضعها رزقًا للحرم[3]. وفي رواية: أنَّ جبريل عليه السلام اقتلعها فجاء وطافَ بها حولَ البيت سبعًا، ولذا سُمِّيت الطائف ثم وَضَعها قريبَ مكة[4]. وروي نحو ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرج ابنُ أبي حاتم عن الزهري أنَّ الله تعالى نَقَل قريةً من قُرَى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم عليه السلام[5].

والظاهر أنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم يكن مقصودُه من هذا الدعاءِ نقلَ أرضٍ مُنبتةٍ من فلسطينَ أو قريةٍ من قُرَى الشام، وإنَّما مقصودُه عليه السلام أنْ يرزقَهم سبحانه من الثمرات، وهو لا يتوقَّف على النقل، فليُنْظَر ما وجهُ الحكمة فيه، وأنا لستُ على يقينٍ من صحَّته ولا أُنكر ـ والعياذ بالله تعالى ـ أنَّ الله جلَّ وعلا على كلِّ شيءٍ قديرٍ، وأنه سبحانه يفعلُ ما يشاء ويحكم ما يريد.

---

(١) المحتسب ١/ ٣٦٤، والبحر ٥/ ٤٣٣.
(٢) في الأصل: البوكير، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٥/ ٤٣٣.
(٣) الطبري ١٣/ ٧٠١، وتفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢٣٠.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣٣.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢٣٠.

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧﴾ تلك النعمةَ بإقامة الصلاة وأداء سائر مراسم العبوديَّة، واستدلَّ به على أنَّ تحصيلَ منافع الدنيا إنما هي ليُستعان بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات، ولا يخفَى ما في دعائه عليه السلام من مراعاة حسنِ الأدب والمحافظة على قوانين الضراعة وعَرْض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة، ولذا مَنَّ عليه بحُسن القَبول وإعطاء المسؤول، ولا بِدْعَ في ذلك من خليل الرحمن عليه السلام.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ من الحاجات وغيرها، وأخرج ابنُ أبي حاتم عن إبراهيمَ النخعي أنَّ مرادَه[1] عليه السلام ما نُخفي من حبِّ إسماعيلَ وأُمِّه، وما نُعلنُ لسارةَ من الجفاء لهما[2]. وقيل: ما نُخفي من الوَجْد لما وقَعَ بيننا من الفرقة، وما نعلنُ من البكاء والدعاء، وقيل: ما نُخفي من كآبة الافتراق، وما نعلن مما جَرَى بيننا وبين هاجرَ عند الوداع من قولها: إلى مَن تكِلُنا؟ وقولي لها: إلى الله تعالى. و«ما» في جميع هذه الأقوال موصولةٌ، والعائدُ محذوف، والظاهرُ العموم، وهو المختار.

والمرادُ بـ«ما نُخفي» على ما قيل ما يقابل «ما نعلن» سواء تعلَّقَ به الإخفاءُ أو لا، أي: تعلم ما نُظهرُه وما لا نظهرُه، فإنَّ علمه تعالى متعلِّقٌ بما لا يخطُر بباله عليه السلام من الأحوال الخفيَّة، وتقديمُ «ما نُخفي» على «ما نُعلنُ» لتحقيق المساواة بينهما في تعلُّق العلم على أبلغ وجهٍ، فكأنَّ تعلُّقه بما يُخفي أقدمُ منه بما يُعلن، أو لأنَّ مرتبةَ السرِّ والخفاء متقدِّمةٌ على مرتبة العَلَن، إذ ما مِن شيءٍ يُعلَن إلا وهو قبل ذلك خفيٌّ، فتعلُّقُ علمه تعالى بحالته الأولى أقدمُ من تعلُّقه بحالته الثانية.

وجعل بعضُهم «ما» مصدريةً، والتقديمُ والتأخيرُ؛ لتحقيق المساواة أيضاً، ومن هنا قيل: أي: تعلمُ سرَّنا كما تعلم علننا.

والمقصودُ من فحوى كلامه عليه السلام أنَّ إظهار هذه الحاجاتِ وما هو من مباديها وتَتمَّاتها ليس لكونها غيرَ معلومةٍ لك، بل إنَّما هو لإظهار العبودية،

---

(١) في الأصل: أنه مرادة.

(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٨٧ عن ابن عباس ﵄.

والتخشُّع لعظمتك، والتذلُّل لعزَّتك، وعَرْض الافتقار لما عندك، والاستعجال لنيل أيادِيْك.

وقيل: أراد عليه السلام أنَّك أعلمُ بأحوالنا ومصالحنا وأرحمُ بنا من أنفسنا فلا حاجةَ لنا إلى الطلب، لكنْ ندعوك لإظهار العبوديَّة.. إلى آخره، وقد أشار السهروردي إلى أنَّ ظهورَ الحال يُغني عن السؤال بقوله:

ويَمنعُني الشكوى إلى الناس أنَّني عليلٌ ومَن أشكو إليه عليلُ
ويَمنعُني الشكوى إلى الله أنَّه عليمٌ بما أشكوه قبل أقولُ[1]

وتكريرُ النداء؛ للمبالغة في الضراعة والابتهال، وضميرُ الجماعة ـ كما قال بعضُ المحقِّقين ـ لأنَّ المراد ليس مجرَّدَ علمه تعالى بما يُخفي وما يُعلن، بل بجميع خفايا الملك والملكوت، وقد حقَّقه عليه السلام بقوله على وجه الاعتراض: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ لما أنَّ عِلْمَه تعالى ذاتيٌّ فلا يتفاوت بالنسبة إليه معلومٌ دون معلوم.

وقال أبو حيَّان: لا يظهرُ تفاوتٌ بين إضافة «ربَّ» إلى ياء المتكلِّم وبين إضافته إلى جمع المتكلِّم[2]. اهـ. ومما نقلنا يُعلَم وجهُ إضافة «ربَّ» هنا إلى ضمير الجمع، ولا أدري ماذا أراد أبو حيان بكلامه هذا، وما يرد عليه أظهرُ مِن أنْ يخفَى، وإنما قال عليه السلام: «وما يخفَى» إلى آخره، دون أن يقول: ويعلم ما في السماوات والأرض؛ تحقيقاً لما عناه بقوله: «تعلمُ ما نُخفي» من أنَّ علمه تعالى بذلك ليس على وجهٍ يكونُ فيه شائبةُ خفاءٍ بالنسبة إلى علمه تعالى، كما يكون ذلك بالنسبة إلى علوم المخلوقات.

وكلمةُ «في» متعلِّقة بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «شيء» أي: لشيءٍ كائنٍ فيهما أعمُّ من أنْ يكونَ ذلك على وجه الاستقرار فيهما، أو على وجه الجزئيَّة منهما، وجوِّز أنْ تتعلَّق بـ «يَخفَى» وهو كما ترى.

---

(١) البيتان للأمير تميم بن المعز كما في زهر الآداب ١/ ٤٣٤بنحوهما، وهما بتمامهما في حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٣ ـ٢٧٤ دون نسبة.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٣٣.

وتقديمُ «الأرض» على «السماء» مع توسيط «لا» بينهما باعتبار القُرب والبعد مِنَّا المستعدَّين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا. والمراد من «السماء» ما يشمل السماوات كلَّها، ولو أُريد من «الأرض» جهةُ السفل، ومن «السماء» جهةُ العلوِّ كما قيل، جاز[1].

والالتفاتُ من الخطاب إلى الاسم الجليل؛ للإشعار بعلَّة الحكم والإيذان بعمومه؛ لأنَّه ليس بشأنٍ يختصُّ به أو بمَنْ يتعلَّق به، بل شاملٌ لجميع الأشياء، فالمناسبُ ذكرُه تعالى بعنوانٍ مُصَحِّح لمبدئيَّة الكُلِّ.

وعن الجبَّائي أنَّ هذا من كلام الله تعالى شأنه واردٌ بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] والأكثرون على الأوَّل. و«مِن» على الوجْهَين؛ للاستغراق.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ أي: مع كِبَرِ سِنِّي ويأسي عن الولد، فـ «على» بمعنى «مع» كما في قوله:

إنِّي على ما تَرَيْن من كِبَرِي أعرفُ مِن أينَ تُؤكلُ الكتفُ[2]

والجارُّ والمجرور في موضع الحال، والتقييد بذلك؛ استعظاماً للنعمة وإظهاراً لشكرها، ويصحُّ جعل «على» بمعناها الأصلي، والاستعلاء مجازيٌّ كما في «البحر»[3]، ومعنى استعلائه على الكِبَر أنَّه وَصَل غايتَه، فكأنَّه تجاوَزَه وعلا ظهرَه، كما يقال: على رأس السنة، وفيه من المبالغة ما لا يخفَى.

وقال بعضُهم: لو كانت للاستعلاء لكان الأنسبُ جَعْل الكِبَر مستعلياً عليه، كما في قولهم: عليَّ دَيْنٌ، وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ [الشعراء: ١٤] بل الكبر أولى بالاستعلاء منهما حيث يَظهرُ أثرهُ في الرأس: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] نعم يُمكن أنْ تَجري على حقيقتها بجعلها متعلِّقةً بالتمكُّن والاستمرار، أي: متمكِّناً

---

(١) في هامش (م): قيل: وهو أوفق بإفراد السماء. اهـ منه.

(٢) كتاب الأمثال ص١٠٠، وفصل المقال ص١٤٢، وتفسير الرازي ١٩/ ١٣٨، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٤.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٣٤.

مستمرًّا على الكبر، وهو الأنسبُ لإظهار ما في الهيئة من الآية حيث لم يكُن في أوّل الكبر. اهـ. وفيه غفلةٌ عمَّا ذكرنا.

﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه وُهِبَ له إسماعيل وهو ابنُ تسع وتسعين سنة، ووُهِبَ له إسحاق وهو ابنُ مئةٍ واثنتَي عشرةَ سنة، وفي روايةٍ أنَّه ولد له إسماعيل لأربعٍ وستِّين، وإسحاق لسبعين، وعن ابن جبير: لم يُولد لإبراهيم عليه السلام إلا بعد مئةٍ وسبعَ عشرةَ سنة.

﴿إِنَّ رَبِّي﴾ ومالكَ أمري ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: لَمجِيْبُه، فالسمع بمعنى القَبول، والإجابةُ مجازٌ كما في: «سمع الله لمن حمده»[1]، وقولهم: سمع المَلِكُ كلامَه: إذا اعتدَّ به وقَبِلَه، وهو فَعيلٌ من أمثلة المبالغة، وأعمَلَه سيبويه[2] وخالفَ في ذلك جمهورَ البصريِّين، وخالفَ الكوفيُّون فيه[3] وفي إعمال سائر أمثلتها، وهو - إذا قلنا بجواز عملِهِ - مضافٌ لمفعولِهِ إنْ أُريدَ به المستقبل، وقيل: إنَّه غيرُ عاملٍ؛ لأنَّه قصد به الماضي أو الاستمرار.

وجوَّز الزمخشريُّ أنْ يكونَ مضافاً لفاعله المجازيِّ، فالأصلُ: سميعٌ دعاؤُه، بجعل الدعاءِ نفسِه سامعاً، والمراد أنَّ المدعوَّ - وهو الله تعالى - سامعٌ[4].

وتعقَّبه أبو حيَّان بأنَّه بعيدٌ؛ لاستلزامه أنْ يكونَ من باب الصفة المشبَّهة، وهو متعدٍّ، ولا يجوزُ ذلك إلا عند الفارسيِّ حيث لا يكونُ لَبْسٌ، نحو: زيدٌ ظالم العبيد، إذا عُلِمَ أنَّ له عبيداً ظالمين، وها هنا فيه إلباس؛ لظهور أنَّه من إضافة المثال للمفعول[5]. انتهى، وهو كلامٌ متينٌ.

والقولُ بأنَّ اللَّبْسَ منتفٍ لأنَّ المعنَى على الإسناد المجازيِّ، كلامٌ واهٍ؛ لأنَّ المجاز خلافُ الظاهر، فاللَّبس فيه أشدُّ.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٦٨٩)، ومسلم (٤١١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وتقدم ٢/ ٣١٧.
(٢) الكتاب ١/ ١١٠، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٣٤.
(٣) في الأصل: في ذلك، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٥/ ٤٣٤.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٨١، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٤.
(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٣٤، وكلام الفارسي منه.

ومثلُه القول بأنَّ عدم اللَّبس إنَّما يُشترط في إضافته إلى فاعله على القطع، وهذا كما قال بعضُ الأجلَّة مع كونه من تَتمَّة الحمد والشكر، لما فيه من وَصْفه تعالى بأنَّ قبولَ الدعاء عادتُه سبحانه المستمرَّةُ تعليلٌ على طريق التذييل للهبة المذكورة، وفيه إيذانٌ بتضاعف النعمةِ فيها حيث وقعَت بعد الدعاء بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات:١٠٠] فاقترنَت الهبةُ بقَبول الدعوة.

وذكر بعضُهم أنَّ موقع قوله: «الحمد لله» وتذييله موقع الاعتراض بين أدعيته عليه السلام في هذا المكانِ تأكيداً للطلب بتذكير ما عَهِدَ من الإجابة، يتوسَّل إليه سبحانه بسابق نعمته تعالى في شأنه، كأنَّه عليه السلام يقول: اللهمَّ استجب دعائي في حقِّ ذرِّيَّتي في هذا المقام، فإنَّك لم تزل سميعَ الدعاء، وقد دعوتُك على الكبر أنْ تهَبَ لي ولداً فأجبتَ دعائي ووهبتَ[١] لي إسماعيل وإسحاق، ولا يخفَى أنَّ إسحاق عليه السلام لم يكن مولوداً عند دعائه عليه السلام السابق، فالوجهُ أنْ لا يجعل ذلك اعتراضاً، بل يحمل على أنَّ الله تعالى حكى جُملاً مما قاله إبراهيم عليه السلام في أحايينَ مختلفةٍ تشتركُ كلُّها فيما سيقَ له الكلامُ من كونه عليه السلام على الإيمان والعمل الصالح وطلب ذلك لذرِّيَّته وأنَّ ولده الحقيقيَّ من تَبِعَه على ذلك، فتَرَكَ العنادَ والكفرَ، وقد ذكر هذا صاحبُ «الكشف».

ومما يعضدُه ما أخرجه ابنُ جرير وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم عن ابن عباس ﵄ أنَّه قال في قوله: (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ) إلخ: قال هذا بعد ذلك بحين[٢].

ووحَّد عليه السلام الضميرَ في «رب» وإنْ كان عقيب ذكر الولَدين؛ لما أنَّ نعمة الهبةِ فائضةٌ عليه عليه السلام خاصَّةً، وهما من النعم لا مِن المُنعَم عليهم.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ معدِّلاً لها، فهو مجازٌ من: أقمتُ العودَ: إذا قَوَّمتَه، فأراد[٣] بهذا الدعاء الديمومةَ على ذلك، وجوَّز بعضُهم أنْ يكون المعنى مواظباً عليها، وبعضُ عظماء العلماء أخذَ الأمرَين في تفسير ذلك على أنَّ الثاني قيدٌ

---

(١) في (م): وهبت. والمثبت من الأصل وتفسير البيضاوي ٥/ ٢٧٤.
(٢) عزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور٤/ ٨٧.
(٣) في (م): وأراد.

للأوَّل، مأخوذٌ من صيغة الاسم والعدول عن الفعل، كما أنَّ الأوَّل مأخوذٌ من موضوعه على ما قيل، فلا يلزمُ استعمالُ اللفظِ في معنَيَين مجازيَّيْن.

وتوحيدُ ضمير المتكلِّم مع شمول دعوته عليه السلام لذرِّيَّته أيضاً حيث قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيٓ﴾ للإشعار بأنَّه المقتدَى في ذلك، وذرِّيَّته أتباعٌ له[1]، فإنَّ ذِكرَهم بطريق الاستطراد، «ومِن» للتبعيض، والعطفُ كما قال أبو البقاء على مفعول «اجعل» الأول، أي: ومِن ذرِّيَّتي مقيمَ الصلاة[2].

وفي «الحواشي الشهابيَّة»: أنَّ الجارَّ والمجرور في الحقيقة صفةٌ للمعطوف على ذلك، أي: وبعضاً مِن ذرِّيَّتي، ولولا هذا التقديرُ كان ركيكاً[3]، وإنَّما خصَّ عليه السلام هذا الدعاء ببعض ذرِّيَّته؛ لعلمه من جهته تعالى أنَّ بعضاً منهم لا يكونُ مقيمَ الصلاة، بأنْ يكونَ كافراً أو مؤمناً لا يصلِّي.

وجوِّز أنْ يكونَ عَلِمَ من استقرائه عادةَ الله تعالى في الأمم الماضيةِ أنْ يكونَ في ذرِّيَّته مَن لا يُقيمُها، وهذا كقوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨].

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠﴾ ظاهرُه: دعائي هذا المتعلِّق بجَعْلي وجَعْل بعضِ ذرِّيَّتي مقيمي الصلاة، ولذلك جيء بضمير الجماعة، وقيل: الدعاء بمعنى العبادة، أي: تقبَّل عبادتي. وتعقِّب بأنَّ الأنسبَ أنْ يُقال فيه: دعاءَنا حينئذ.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وهبيرة عن حفص: «دعائي» بياء ساكنة في الوصل[4]، وفي رواية البزِّيِّ عن ابن كثير أنَّه يصلُ ويقفُ بياء[5]، وقال قنبل: إنَّه يشمُّ الياء في الوصل ولا يُثبتُها ويقفُ عليها بالألف[6].

---

(١) في الأصل: تبع، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٤.
(٢) الإملاء ٣/ ٤١١.
(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٤.
(٤) التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٣٠١ وهي قراءة ورش وأبي جعفر، وقراءة هبيرة عن حفص في جامع البيان للداني ٢/ ٢٣٥، ومجمع البيان ١٣/ ٢٢٥، وهي خلاف المشهور عن حفص.
(٥) التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٣٠١ وهي قراءة يعقوب أيضاً.
(٦) مجمع البيان ١٣/ ٢٢٥، وعنه نقل المصنِّف القراءات.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾ أي[١]: ما فرط منّي ممَّا أعدُّه ذنباً ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ أي: لأمّي وأبي، وكانت أمُّه على ما روي عن الحسن مؤمنةً، فلا إشكال في الاستغفار لها. وأما استغفارُه لأبيه فقد قيل في الاعتذار عنه إنَّه كان قبل أنْ يَتبيَّن له أنَّه عدوٌّ لله سبحانه، والله تعالى قد حَكَى ما قاله عليه السلام في أحايينَ مختلفة، وقيل: إنَّه عليه السلام نَوَى شرطيَّةَ الإسلام والتوبة، وإليه ذهب ابن الخازن[٢]. وقيل: أرادَ بوالده نوحاً عليه السلام، وقيل: أراد بوالده آدمَ وبوالدته[٣] حوَّاءَ عليهما السلام، وإليه ذهب بعضُ مَن قال بكفر أُمِّه، والوجْهُ ما تقدَّم.

وقالت الشيعة: إنَّ والديه عليه السلام كانا مؤمنَين، ولذا دعا لهما، وأمَّا الكافر فأبوه، والمرادُ به عمُّه أو جدُّه لأُمِّه، واستدلُّوا على إيمان أبويه بهذه الآية، ولم يرضوا ما قيل فيها حتى القول الأولَ؛ بناءً على زعمهم أنَّ هذا الدعاءَ كان بعد الكِبَر وهِبَةِ إسماعيل وإسحاق عليهما السلام له، وقد كان تبيَّن له في ذلك الوقت عداوة أبيه الكافر لله تعالى.

وقرأ الحسن بنُ عليٍّ رضي الله عنهما وأبو جعفر محمد وزيد ابنا عليٍّ وابنُ يعمر والزهريُّ والنخعيُّ: «ولولَدَي» بغير ألف وبفتح اللام، تثنية: ولد، يعني بهما إسماعيل وإسحاق، وأنكر عاصم الجحدريُّ هذه القراءة ونقل أنَّ في مصحف أبيٍّ: «ولأبوَي»، وفي بعض المصاحف: «ولذريتي»[٤]، وعن يحيى بنِ يعمر: «ولوُلْدي» بضمِّ الواو وسكون اللام[٥]، فاحتمل أنْ يكون جمعَ ولدٍ كـ: أُسْدٍ في أَسَد، ويكون قد دعا عليه السلام لذرِّيَّته، وأنْ يكونَ لغةً في الولد كما في قول الشاعر:

فليتَ زياداً كان في بطن أُمِّه ... وليت زياداً كان وُلْدَ حمارِ[٦]

---

(١) قوله: أي: ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٤.
(٢) تفسير الخازن ٤/ ٥٠.
(٣) في الأصل: والدته، والمثبت من(م).
(٤) المحتسب ١/ ٣٦٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٣، والكشاف ٢/ ٣٨٢، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٤.
(٥) المحتسب ١/ ٣٦٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٤.
(٦) اللسان (ولد)، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٤.

ومثل ذلك العَدَمُ والعُدْمُ، وقرأ ابنُ جبير: «ولوالدِيْ» بإسكان الياء[(١)] على الإفراد كقوله: واغفر لأبي. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كافَّةً من ذرِّيَّته وغيرِهم، ومِن هنا قال الشعبي فيما رواه عنه ابنُ أبي حاتم: ما يسرُّني بنصيبي من دعوة نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام للمؤمنين والمؤمنات حُمرُ النَّعَم[(٢)]. وللإيذان باشتراكِ الكلِّ في الدعاء بالمغفرة جيء بضمير الجماعة.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ أي: يثبُت ويتحقَّق، واستعمال القيام فيما ذكر إمَّا مجازٌ مرسلٌ أو استعارةٌ، ومن ذلك: قامت الحربُ والسوقُ، وجوّز أنْ يكونَ قد شبَّه الحساب برجل قائمٍ على الاستعارة المكنيَّة، وأثبتَ له القيام على التخييل، وأنْ يكون المرادُ: يقومُ أهلُ الحساب، فحذفَ المضاف، أو أسندَ إلى الحساب ما لأهله مجازاً. وجعل ذلك العلَّامة الثاني في شرح «التلخيص» مثل: ضَرَبَه التأديبَ، مما فيه الإسنادُ إلى السبب الغائيِّ، أي: يقومُ أهلُه لأجله. وذكر السيالكوتي إنَّه إنما قال مثله؛ لأنَّ الحساب ليس ما لأجله القيام حقيقةً، لكنَّه شبيهٌ به في ترتُّبه عليه، وفيه بحث.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ خطابٌ لكلِّ مَن توهَّم غفلتَه تعالى، وقيل: للنبيِّ ﷺ كما هو المتبادر، والمرادُ مِن النهي تثبيتُه عليه الصلاة والسلام على ما هو عليه من عدم ظنِّ أنَّ الغفلة تصدرُ منه عزَّ شأنُه كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨١] أي: دُمْ على ذلك، وهو مجازٌ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦] وفيه إيذانٌ بكون ذلك الحسبانِ واجب الاحترازِ عنه في الغاية حتى نَهَى عنه مَن لا يُمكن تعاطيه.

وجوَّز أنْ يكونَ المرادُ من ذلك على طريق الكناية أو المجاز بمرتبَتَين الوعيدِ والتهديدِ، والمعنى: لا تحسبنَّ الله تعالى يترُكُ عقابَهم لِلُطْفِهِ وكَرمِهِ، بل هو معاقبُهم على القليل والكثير.

وأنْ يكونَ ذلك استعارةً تمثيليَّة، أي: لا تحسبنَّه تعالى يُعاملُهم معاملةَ الغافل

---

(١) المحتسب ١/ ٣٦٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٥.

(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٨٧.

عمَّا يعملون، ولكن معاملة الرقيبِ المحاسِبِ على النقير والقِطْمير، وإلى هذه الأوجه أشار الزمخشري(١).

وتُعقِّبَ الوجهُ الأولُ بأنَّه غيرُ مناسبٍ لمقام النبوَّة؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام لا يُتوهَّمُ منه عدمُ الدوام على ما هو عليه من عدم الحسبانِ ليُثبَّت، وفيه نظر.

وفي «الكشف» الوجهُ هو الأوَّل؛ لأنَّ في إطلاق الغافل عليه سبحانه ـ وإنْ كان على المجاز ـ رِكَّةً يُصانُ كلام الله تعالى عنها، وفي الكناية النظرُ إلى المجموع، فلم يَجْسُر العاقل عليه تعالى عنه، ويجوز أنْ يكون الأوَّلُ مجازاً في المرتبة الثانية بجَعْل عدم الغفلةِ مجازاً عن العلم، ثم جَعْلُه مجازاً عن الوعيد غيرُ سديدٍ؛ لعدم منافاة إرادةِ الحقيقة.

والأسلم من القيل والقال ما ذكرناه أوَّلاً من كون الخطابِ لكلِّ مَن تَوهَّم غفلتَه سبحانه وتعالى فهو(٢) لغير معيَّن، وهو الذي اختاره أبو حيَّان(٣)، وعن ابن عيينة: أنَّ هذا تسليةٌ للمظلوم(٤) وتهديدٌ للظالم، فقيل له: مَن قال هذا؟ فغضب، وقال: إنَّما قاله مَن علمه. وقد نقل ذلك في «الكشاف»(٥)، فاستظهر صاحب «الكشف» كونه تأييداً لكون الخطابِ لغير مُعيَّن.

وجوّز أنْ يكون جارياً على الأوجه، إذ على تقدير اختصاصِ الخطاب به عليه الصلاة والسلام أيضاً لا يخلو عن التسلية للطائفتَين، فتأمَّل.

والمرادُ بالظالمين: أهلُ مكة الذين عُدَّتْ مساويهم فيما سبق، أو جنسُ الظالمين، وهم داخلون دخولاً أوليًّا، والآيةُ على ما قال الطيبي: مردودةٌ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ و﴿قُل لِّعِبَادِىَ﴾، واختارَ جعلَها تسليةً له عليه الصلاة والسلام وتهديداً للظالمين على سبيل العموم.

وقرأ طلحة: «ولا تَحْسَب» بغير نون التوكيد(٦).

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٢.

(٢) قوله: فهو، ليس في (م)، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٥.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٣٥.

(٤) في هامش (م): وروي نحوه عن ميمون بن مهران. اهـ منه.

(٥) ٢/ ٣٨٢.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٤، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٥.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يُمهلُهم متمتِّعين بالحظوظ الدنيوية ولا يُعجِّلُ عقوبتَهم، وهو استئنافٌ وقع تعليلاً للنهي السابق، أي: لا تحسبنَّ الله تعالى غافلاً عن عقوبة أعمالهم لما تَرَى من التأخير، إنما ذلك لأجل هذه الحكمة، وإيقاعُ التأخيرِ عليهم مع أنَّ المؤخَّرَ إنما هو عذابُهم، قيل: لتهويل الخطْبِ وتَفظيعِ الحال ببيان أنَّهم متوجِّهون إلى العذاب مُرْصَدون لأمرٍ ما، لا أنَّهم باقون باختيارهم، وللدلالة على أنَّ حقَّهم من العذاب هو الاستئصالُ بالمرَّة، وأنْ لا يبقَى منهم في الوجود عينٌ ولا أثرٌ، وللإيذان بأنَّ المؤخَّر ليس من جملة العذابِ وعنوانه، ولو قيل: إنَّما يُؤخِّرُ عذابَهم، لَمَا فُهم ذلك.

وقرأ السلميُّ والحسنُ والأعرجُ والمفضل عن عاصم ويونسُ بنُ حبيب عن أبي عمرو وغيرُهم: «نُؤخِّرهم» بنون العظمة[1]، وفيه التفات.

﴿لِيَوْمٍ﴾ هائلٍ ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ أي: ترتفعُ أبصارُ أهلِ الموقف، فيدخل في زُمرتهم الظالمون المعهودون دخولاً أوليًّا، أي: تبقَى مفتوحةً لا تَطرِفُ - كما قال الراغب[2] - مِن هَول ما يَرونه، وفي «البحر»: شَخَصَ البصر، : أحدَّ النظر ولم يَستقرَّ مكانه[3]، والظاهرُ أنَّ اعتبار عدم الاستقرار لجعْلِ الصيغة مِن: شَخَصَ الرجلُ من بلده: إذا خَرَج منها، فإنَّه يلزمُه عدم القرارِ فيها، أو من: شُخِصَ بفلان: إذا وَرَد عليه ما يُقْلِقُه، كما في «الأساس»[4].

وحمل بعضُهم الألف واللام على العهد، أي: أبصارُهم؛ لأنَّه المناسب لما بعده، والظاهرُ لِمَا[5] روي عن قتادة، فقد أخرج عبدُ بنُ حميد وغيرُه عنه أنَّه قال في الآية: شَخَصَت[6] فيه والله أبصارُهم فلا ترتدُّ إليهم[7].

واختار بعضُهم حَمْلَ «أل» على العموم، قال: لأنَّه أبلغُ في التهويل، ولا يلزم

(١) القراءات الشاذة ص٦٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٥، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٥.
(٢) مفردات الراغب (شخص).
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٢٩.
(٤) أساس البلاغة (شخص).
(٥) في (م): مما، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٥.
(٦) في الأصل: تشخصت، والمثبت من (م) والمصدر.
(٧) عزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٨٨، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٤.

عليه التكريرُ مع بعض الصفات الآتية، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما قيل فيه.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعينَ إلى الداعي، قاله ابنُ جبير وقتادة، وقيَّده في «البحر» بقوله: بذلَّةٍ واستكانةٍ كإسراع الأسيرِ والخائفِ[(١)]. وقال الأخفشُ: مقبلين للإصغاء، وأنشد:

بدجلةَ دارهم ولقد أراهم بدجلةَ مُهطعين إلى السماع[(٢)]

وقال مجاهد: مُديْمِينَ النظرَ لا يَطرِفُون، وقال أحمدُ بنُ يحيَى: المهطع: الذي ينظرُ في ذُلٍّ وخشوعٍ لا يقلع بصره[(٣)]. وروَى ابنُ الأنباري أنَّ الإهطاع: التجميح، وهو: قبضُ الرجلِ ما بين عينَيه[(٤)]، وقيل: إنَّ الإهطاعَ: مدُّ العُنُقِ، والهَطْعُ: طولُ العنق، وذكر بعضُهم أنَّ أَهْطَعَ وهَطَع بمعنىً، وأنَّ كلَّ المعاني تدورُ على الإقبال.

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها مع الإقبال بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفاتٍ إلى شيءٍ، قاله ابنُ عرفة والقتيبي[(٥)].

وأنشد الزجَّاج قولَ الشَّمَّاخ يصِفُ إبلاً تَرْعَى أعلا الشجر:

يُباكِرْنَ العِضاهَ بمُقْنَعَاتٍ نَواجِذُهنَّ كالحَدَأ الوَقيعِ[(٦)]

وأنشدَه الجوهريُّ لكون الإقناعِ انعطافَ الأسنان إلى داخل الفم، يقال: فمٌ مُقْنَعٌ، أي: معطوفةٌ أسنانُهُ إلى داخله، وهو الظاهر[(٧)]. وفسَّر ابنُ عباس ﵄ المُقْنِع بالرافع رأسَه أيضاً، وأنشدَ له قولَ زهير:

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٣٥.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٣٥، والبيت ليزيد بن مُفرِّغ، وهو في ديوانه ص١١٠، وفيه: أهلها، بدل: دارهم.

(٣) قال أحمد بن يحيى ثعلب في مجالسه ص٢٠: المهطع: الذي يرفع رأسه في ذلٍّ.

(٤) إيضاح الوقف والابتداء ص٦٦ ـ ٦٧، والدر المنثور ٤/ ٨٨.

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٣٣، ونقله عنه بواسطه البحر المحيط ٥/ ٤٢٩.

(٦) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ١٦٦، والبيت في ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ص٢٢٠، وفيهما: يبادرن، بدل: يباكرن.

(٧) الصحاح (قنع).

هجانٌ وحمرٌ مقنعات رؤوسُها وأصفرُ مشمولٌ من الزهر فاقعُ[1]

ويقال: أَقْنَعَ رأسَه: نكسه وطَأْطَأه، فهو من الأضداد. قال المبرِّدُ: وكونُه بمعنى رَفَع أعرف في اللغة[2]. اهـ. وقيل: ومِن المعنى الأول: قَنِعَ الرجلُ: إذا رَضِي بما هو فيه، كأنَّه رَفَع رأسه عن السؤال، وقد يقال: إنَّه من الثاني، كأنَّه طأطأ رأسه ولم يَرفعْه للسؤال ولم يستشرف إلى غير ما عنده.

ونصبُ الوصفَين على أنَّهما حالان من مضافٍ محذوفٍ، أي: أصحابُ الأبصارِ، بناءً على أنَّه يقال: شَخَصَ زيدٌ ببصره، أو: الأبصار تدلُّ على أصحابها فجاءت الحالُ من المدلول عليه، ذكر ذلك أبو البقاء[3]، وجوَّز أنْ يكون «مُهطعين» منصوباً بفعلٍ مقدَّرٍ، أي: تبصرُهم مهطعين، و«مُقْنعي رؤوسِهم» على هذا قيل: حالٌ من المستتر في «مُهطعين» فهي حالٌ متداخلة، وإضافته غير حقيقيةٍ فلذا وَقَع حالاً.

وقال بعضُ الأفاضل: إنَّ في اعتبار الحاليةِ من أصحاب، حسبما ذُكر أوَّلاً ما لا يخفى من البعد والتكلُّف.

والأَوْلَى ـ والله تعالى أعلم ـ جعْلُ ذلك حالاً مقدَّرةً من مفعول «يُؤخِّرُهم» وقوله سبحانه: (تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ) بيانُ حالِ عمومِ الخلائق، ولذلك أُوثِرَ فيه الجملة الفعلية، فإنَّ المؤمنين المخلصين لا يستمرُّون على تلك الحال، بخلاف الكفار حيث يستمرُّون عليها، ولذلك عبَّر عن حالهم بما يدلُّ على الدوام والثبات، فلا يَرِدُ على هذا توهُّم التكرارِ بين «مُهطعين» و«تشخصُ فيه الأبصار» على بعض التفاسير، وبنحو ذلك دفع[4] التكرار بَيْن الأوَّل وقولِه تعالى: ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ بمعنى لا يرجعُ إليهم تحريكُ أجفانهم حسبما كان يرجعُ إليهم كلَّ لحظةٍ، فالطَّرْفُ باقٍ على أصل معناه، وهو: تحريكُ الجفن، والكلامُ كنايةٌ عن بقاء العينِ مفتوحةً على حالها.

---

(١) لم نقف عليه في ديوانه، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٨ إلى ولده كعب، ولم نقف عليه في ديوانه أيضاً، وهو في مسائل نافع ص١٦٥.

(٢) الكامل ٢/ ١٠٢٧.

(٣) الإملاء ٣/ ٤١٣.

(٤) في(م): رفع.

وجوّز أنْ يُراد بالطَّرْف نفسُ الجفن مجازاً؛ لأنَّه يكون فيه ذلك، أي: لا ترجعُ إليهم أجفانُهم التي يكونُ فيها الطرفُ، وقال الجوهري: الطَّرْفُ: العينُ، ولا يُجمَعُ؛ لأنَّه في الأصل مصدرٌ، فيكون واحداً ويكون جمعاً، وذَكَر الآية[1]، وفسَّره بذلك أبو حيَّان أيضاً، وأنشد قولَ الشاعر:

وأغضُّ طَرْفي ما بدَتْ لي جارتي حتى يُواري جارتي مأواها[2]

وليس ما ذكر مُتعيّناً فيه، وهو معنىً مجازيٌّ له وكذا النظر، وجوّز إرادته على معنى: لا يرجع إليهم نظرهم لينظروا إلى أنفسهم فضلاً عن شيءٍ آخر، بل يبقون مبهوتين، ولا ينبغي كما في «الكشف» أنْ يتُخيَّل تعلُّق «إليهم» بما بعده، على معنى: لا يرجِعُ نظرُهم إلى أنفسهم، أي: لا يكون منهم نظرٌ كذلك؛ لأنَّ صلة المصدر لا تتقدَّم، والمسألة في مثل ما نحن فيه خلافيَّة، ودعوى عدمِ الجمع ادَّعاها جمعٌ، وادَّعى أبو البقاء أنَّه قد جاء مجموعاً[3].

هذا، وأنت خبيرٌ بأنَّ لزوم التكرار بين «مهطعين» و«لا يَرتدُّ إليهم طرفُهم» على بعض التفاسير متحقِّقٌ، ولا يدفعُه اعتبار الحاليَّة من مفعول «يُؤخِّرهم» على أنَّ بذلك لا يندفعُ عرقُ التكرار رأساً بين «تَشْخصُ فيه الأبصارُ» وكلٌّ من الأمرَين المذكورَين كما لا يخفى على مَن صحَّت عينُ بصيرته.

وفي «إرشاد العقل السليم»: أنَّ جملةَ «لا يَرتدُّ» إلخ حالٌ، أو بدلٌ من «مُقنعي» إلخ، أو استئنافٌ، والمعنى: لا يزولُ ما اعتراهم من شخوص الأبصار، وتأخيرُه عمَّا هو من تَتِمَّته من الإهطاع والإقناع، مع ما بينه وبين الشخوصِ المذكور من المناسبة لتربية هذا المعنى[4].

وكأنَّه أرادَ بذلك دفع التكرار، وفي انفهامِ لا يزول.. إلخ من ظاهر التركيب خفاءٌ.

---

(١) الصحاح (طرف).

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٣٠، والبيت لعنترة، وهو في ديوانه ص٧٦.

(٣) الإملاء ٣/ ٤١٣.

(٤) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٦.

واعتبر بعضُهم عدمَ الاستقرار في الشخوص وعدم الطرف هنا، فاعترض عليه بلزوم المنافاة.

وأُجيبَ بأنَّ الثاني بيانُ حالٍ آخرَ، وأنَّ أولئك الظالمين تارةً لا تقرُّ أعينُهم، وتارةً يبهتون فلا تطرفُ أبصارُهم، وقد جعل الحالتان المتنافيتان لعدم الفاصل كأنَّهما في حالٍ واحدٍ، كقول امرئ القيس:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبِلٍ مُدْبِرٍ معاً ... كجلمودِ صَخْرٍ حطَّه السيلُ من عَلِ[1]

وهذا يحتاجُ إليه على تقدير اعتبار ما ذكر، سواءٌ اعتُبر كونُ الشخوص وما بعدَه من أحوال الظالمين بخصوصهم أم لا، والأَولى أنْ لا يُعتَبر في الآية ما يحوجُ لهذا الجواب، وأنْ يختار من التفاسير ما لا يلزمه صريحُ التكرار، وأنْ يجعل شخوص الأبصارِ حال عمومِ الخلائق، وما بعدَه حال الظالمين المؤخَّرين، فتأمَّل.

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ أي: خالية من العقل[2] والفَهْم؛ لفرط الحيرة والدَّهشةِ، ومنه قيل للجبان والأحمق: قلبه هواء، أي: لا قوَّة ولا رَأْيَ فيه، ومن ذلك قول زهير:

كأنَّ الرَّحلَ مِنها فوقَ صَعْلٍ ... من الظِّلْمانِ جُؤجُؤهُ هواءُ[3]

وقول حسان:

ألا بلِّغ أبا سُفيانَ عنِّي ... فأنتَ مُجوَّفٌ نَخِبٌ هواءُ[4]

وروي معنى ذلك عن أبي عبيدة[5] وسفيان، وقال ابنُ جريج: صفرٌ من الخير

---

(١) ديوان امرئ القيس ص١٩.

(٢) في الأصل: عن العقل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٦.

(٣) ديوان زهير ص٦٣، قوله: صَعْل، أي: دقيق الرأس والعنق، وظليم: هو الذكر من النعام، جمعها: ظِلمان. قال ثعلب في شرحه للديوان: كأن الرحل منها: من هذه الناقة، فوق صعل: فوق ظليمٍ دقيق العنق صغير الرأس، جؤجؤه: صدره، هواء: لا مخّ فيه. قال الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي ٥/ ٢٧٦: يصف ناقته بالسرعة في السير، وتشبيهها بالنعام وهو يوصف بالجبن والخوف وسرعة المشي، فإذا خاف كان أسرع وأجدَّ في السير.

(٤) ديوان حسان ص٩.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٣٤٤.

خاليةٌ منه. وتُعقِّب بأنَّه لا يناسبُ المقام. وأخرج ابنُ أبي شيبة وابنُ المنذر عن ابن جبير أنَّه قال: أي: تمورُ في أجوافهم إلى حلوقهم ليس لها مكانٌ تستقرُّ فيه[١]. والجملةُ في موضع الحال أيضاً، والعامل فيها إمَّا «يرتَدُّ» أو ما قبلَه من العوامل الصالحة للعمل. وجوِّز أنْ تكونَ جملةً مستقلةً.

وإلى الأوَّل ذهب أبو البقاء وفسَّر «هواء» بفارغة، وذَكَرَ أنَّه إنَّما أُفردَ مع كونه خبراً لجمع؛ لأنَّه بمعنى فارغة، وهو يكون خبراً عن جمع كما يقال: أفئدة فارغة؛ لأنَّ[٢] تاء التأنيث فيه يدلُّ على تأنيث الجمع الذي في «أفئدتهم»، ومثل ذلك: أحوالٌ صعبة، وأفعالٌ فاسدة[٣].

وقال مولانا الشهاب: الهواء مصدرٌ، ولذا أُفرِدَ[٤]. وتفسيرُه باسم الفاعل كالخالي بيانٌ للمعنى المرادِ منه المصحِّح للحمل، فلا يُنافي المبالغة في جَعْل ذلك عينَ الخلاء.

والمتبادرُ من كلام غيرِ واحدٍ أنَّ الهواء ليس بمعنى الخلاء، بل بالمعنى الذي يَهبُّ على الذِّهن من غير إعمال مروحة الفكر، ففي «البحر» بعد سرد أقوالٍ لا[٥] يقضي ظاهرُها بالمصدرية: أنَّ الكلامَ تشبيهٌ محضٌ؛ لأنَّ الأفئدةَ ليست بهواءٍ حقيقةً. ويحتمل أن يكونَ التشبيهُ في فراغها من الرجاء والطمع في الرحمة، وأنْ يكونَ في اضطراب أفئدتهم وجَيَشَانها في الصدور وأنَّها تجيء وتذهب وتبلغ الحناجر[٦]. وهذا في معنى ما رُوي آنفاً عن ابن جبير.

وذكر في «إرشاد العقل السليم» ما هو ظاهر في أنَّ الكلامَ على التشبيه أيضاً حيث قال بعدَ تفسير ذلك بما ذكرنا أوَّلاً: كأنَّها نفسُ الهواء الخالي عن كلِّ شاغلٍ[٧].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٨٨.
(٢) في الأصل: لأنه، والمثبت من (م) والمصدر.
(٣) الإملاء ٣/ ٤١٣ ـ ٤١٤.
(٤) حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٦.
(٥) في الأصل: لما، والمثبت من (م).
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٣٥.
(٧) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٦.

هذا، ثمَّ إنَّهم اختلفوا في وقت حدوث تلك الأحوال؛ فقيل عند المحاسبة، بدليل ذِكْرِها عقيبَ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ وقيل: عند إجابة الداعي والقيام من القبور. وقيل: عند ذهابِ السُّعداء إلى الجنة والأشقياءِ إلى النار، فتذكَّر ولا تغفل.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ خطابٌ لسيِّد المخاطَبين ﷺ بعد إعلامه أنَّ تأخيرَ عذابهم لماذا؟ وأَمْرٌ له بإنذارهم وتخويفهم منه، فالمرادُ بالناس الكفارُ المعبَّر عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهرُ إتيان العذاب، وإلى ذلك ذهبَ أبو حيان[1] وغيرُه. ونكتَةُ العدول إليه مِن الإضمار على ما قاله شيخ الإسلام الإشعارُ بأنَّ المرادَ بالإنذار هو الزجرُ عمَّا هم عليه من الظلم شفقةً عليهم لا التخويف للإزعاج والإيذاء، فالمناسبُ عدمُ ذكرهم بعنوان الظلم[2].

وقال الجبَّائيُّ وأبو مسلم: المرادُ بالناس ما يَشملُ أولئك الظالمين وغيرَهم من المكلَّفين، والإنذار كما يكون للكفار يكون لغيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس:٨] والإتيان يعمُّ الفريقَين من كونهما في الموقف، وإنْ كان لحوقُه بالكفار خاصَّةً.

وأيّاً ما كان فـ «الناس» مفعولٌ أوَّل لـ «أَنْذِر»، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ مفعولُه الثاني على معنى: أَنذرهم هولَه وما فيه. فالإيقاعُ عليه مجازيٌّ، أو هو بتقدير مضافٍ، ولا يجوزُ أنْ يكون ظرفاً للإنذار؛ لأنَّه في الدنيا، والمرادُ بهذا اليوم اليومُ المعهود، وهو اليوم الذي وُصِفَ بما يُذهل الألبابَ وهو يوم القيامة، وقيل: هو يوم موتهم معذَّبين بالسَّكَرات ولقاء الملائكة عليهم السلام بلا بُشْرَى. وروي ذلك عن أبي مسلم، أو يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، وتُعقِّب بأنَّه يأباه القصرُ السابق، وأُجيبَ بما فيه ما فيه.

﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: فيقولون، والعدولُ عنه إلى ما في النظم الجليل، للتسجيل عليهم بالظلم والإشعار بعلِّيَّته لِمَا ينالُهم من الشدَّة المُنبِئ عنها القولُ،

---

(١) البحر المحيط ٥/٤٣٦.

(٢) تفسير أبي السعود ٥/٥٦.

وفي العدولُ عن الظالمين المتكفِّل بما ذكر مع اختصاره وسبق الوصف به؛ للإيذان على ما قيل بأنَّ الظلم في الجملة كافٍ في الإفضاء إلى ما أفضَوا إليه من غير حاجةٍ إلى الاستمرار عليه كما يُنبئُ عنه صيغةُ اسم الفاعل.

والمعنى على ما قال الجبَّائيُّ وأبو مسلم: الذين ظلموا منهم وهم الكفَّار، وقيل: يقولُ كلُّ مَن ظَلَم بالشرك والتكذيب من المنذَرين وغيرُهم من الأمم الخالية: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ﴾ أي: عن العذاب، أو: أخِّر عذابنا، ففي الكلام تقديرُ مضافٍ، أو تجوُّزٌ في النسبة. قال الضحاك ومجاهد: إنَّهم طلبوا الردَّ إلى الدنيا والإمهال ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ أي: أمَدٍ وحدٍّ من الزمان قريب، وقيل: إنَّهم طلبوا رفْعَ العذابِ والرجوعَ إلى حال التكليف مدَّةً يسيرةً يعملون فيها ما يُرضيه سبحانه. والمعنى على ما روي عن أبي مسلم: أخِّر آجالَنا وأبقنا أياماً ﴿نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ﴾ أي: الدعوةَ إليك وإلى توحيدك، أو دعوتَك لنا على ألسنة الرسل عليهم السلام، ففيه إيماءٌ إلى أنَّهم صدَّقوهم في أنَّهم رُسلُ الله سبحانه وتعالى. ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾فيما جاؤوا به، أي: نتدارك ما فرَّطنا به من إجابة الدعوة واتِّباع الرسل عليهم السلام، ولا يخلو ذكرُ الجملتَين عن تأكيدٍ، والمقام حريٌّ به، وجمع إمَّا باعتبار اتِّفاق الجميع على التوحيد وكونِ عصيانهم للرسول ﷺ عصياناً لهم جميعاً عليهم السلام، وإمَّا باعتبار أنَّ المحكيَّ كلامُ ظالمي الأمم جميعاً، والمقصودُ بيانُ وَعْدِ كلِّ أمةٍ بالتوحيد واتِّباع رسولها، على ما قيل[1].

﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ على تقدير القول معطوفاً على «فيقول» والمعطوفُ عليه هذه الجملة، أي: فيقال لهم توبيخاً وتبكيتاً: ألم تُؤَخَّروا في الدنيا ولم تكونوا حلفتُم إذ ذاك بألسنتكُم بَطَراً وأَشَراً وسَفَهاً وجَهْلاً ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾﴾ مما أنتم عليه من التمتُّع بالحظوظ الدنياويَّة، أو بألسنة الحال ودلالةِ الأفعال حيث بَنيتُم مَشِيداً وأَمَّلتُم بعيداً، ولم تُحدِّثوا أنفسَكم بالانتقال إلى هذه الأحوال والأهوال، وفيه إشعارٌ بامتداد زمانِ التأخير وبُعدِ مداه، أو مالكم من زوالٍ وانتقالٍ من دار الدنيا إلى دارٍ أُخرَى للجزاء كقوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل:٣٨] وروي هذا عن مجاهد.

(١) في الأصل: كما قيل.

وأيًا ما كان، فـ «ما لكم» إلخ جوابُ القَسَم، و«مِن» صلةٌ لتأكيد النفي، وصيغةُ الخطاب فيه لمراعاة حالِ الخطاب في «أقسمتُم» كما في: حَلَفَ بالله تعالى ليخرجَنَّ، وهو أدخلُ في التوبيخ مِن أنْ يُقال: مالنا، مراعاةً لحال المحكيِّ الواقع في جواب قَسَمهم، وقيل: هو ابتداءُ كلامٍ مِن قِبَلِ الله تعالى جواباً لقولهم: «ربَّنا أخِّرنا» أي: مالكم مِن زوالٍ عن هذه الحالِ، وجواب القَسَم: لا يبعثُ الله مَن في القبور، محذوفاً، وهو خلافُ المتبادر، وهذا أحدُ أجوبةٍ يُجابُ بها أهلُ النار على ما في بعض الآثار، فقد ذكر البيهقيُّ عن محمد بنِ كعب القرظي أنَّه قال: لأهل النار خمسُ دعواتٍ يُجيبُهم الله تعالى في أربعٍ منها، فإذا كانت الخامسة لم يتكلَّموا بعدها أبداً، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [غافر: ١١] فيجيبُهم الله عزَّ وجل: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾ [غافر: ١٢].

ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] فيجيبُهم جلَّ شأنه: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾ الآية [السجدة: ١٤].

ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ فيجيبُهم تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ الآية.

ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [فاطر: ٣٧] فيجيبهم جلَّ جلاله: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦] فيجيبُهم جلَّ وعلا: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فلا يتكلَّمون بعدها، إنْ هو إلا زفيرٌ وشهيقٌ، وعند ذلك انقطعَ رجاؤهم وأقبلَ بعضُهم ينبح في وجه بعض، وأطبقَت عليهم جهنَّم[1].

اللهم إنَّا نعوذُ بك من غضبك، ونلوذُ بكَنَفك من عذابك، ونسألُك التوفيقَ للعمل الصالح في يومنا لغدنا، والتقرُّبَ إليك بما يُرضيك قبل أنْ يخرُجَ الأمرُ من يدنا.

---

(١) البعث والنشور (٦٦٠)، وأخرجه بنحوه الطبري ١٧/ ١١٩ - ١٢٠.

﴿وَسَكَنتُمْ﴾ من السُّكنى بمعنى التبوُّء والاستيطان، وهو بهذا المعنى مما يتعدَّى بنفسه تقول: سكنْتُ الدار واستوطنتُها، إلا أنَّه عُدِّي هنا بـ «في» حيث قيل: ﴿فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ جَرْياً على أصل معناه، فإنَّه منقول عن سَكَنَ بمعنى قَرَّ وثبت[1]، وحقُّ ذلك التعديةُ بـ «في».

وجوِّز أنْ يكونَ المعنى: وقررتُم في مساكنهم مُطمئنِّين سائرين سيرتَهم في الظلم بالكفر والمعاصي غيرَ مُحدِّثين أنفسَكم بما لَقُوا بسبب ما اجترحُوا من الموبقات، وفي إيقاع الظلم على أنفسهم بعدَ إطلاقه فيما سلف إيذانٌ بأَنَّ غائلةَ الظلم آيلةٌ إلى صاحبه، والمرادُ بهم ـ كما قال بعضُ المحقِّقين ـ إمَّا جميعُ مَن تقدَّم من الأُمم المهلَكَةِ على تقدير اختصاصِ الاستمهال والخطاب السابق بالمنذَرين، وإمَّا أوائلُهم مِن قوم نوحٍ وهودٍ على تقدير عمومهما[2] للكلِّ، وهذا الخطابُ وما يتلُوه باعتبار حال أواخرهم.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ أي: ظهر لكم على أتمِّ وجهٍ بمعاينة الآثار وتواتر الأخبار ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد.

وفاعل «تبيَّنَ» مضمرٌ يعود على ما دلَّ عليه الكلامُ، أي: فعلُنا العجيب[3] بهم، أو حالهم، أو خبرهم، أو نحو ذلك، و«كيف» في محلِّ نصب بـ «فعلنا»، وجملةُ الاستفهام ليسَت معمولةً لـ «تبيّن» لأنَّه لا يعلَّق، وقيل: الجملةُ فاعل «تَبيَّن» بناءً على جواز كونه جملةً، وهو قولٌ ضعيفٌ للكوفيين.

وذهب أبو حيان[4] إلى ما ذهب إليه الجماعةُ، ثم ذكر أنَّه لا يجوزُ أنْ يكونَ الفاعل «كيف» لأنَّه لا يعملُ فيها ما قبلَها إلا ما[5] شذَّ من قولهم: على كيفَ تبيعُ الأحمرَين؟ وقولهم: انظر إلى كيف تَصنَع؟

(١) في الأصل: واثبت، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٦.
(٢) في (م): عمومها، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٧.
(٣) في (م): العجب، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٧.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣٦.
(٥) في (م): فيما، والمثبت من الأصل والبحر.

وقرأ السُّلمي فيما حكاه عنه أبو عمرو الداني: «ونُبيِّنُ» بنون العظمة ورَفْعِ الفعل، وحكى ذلك أيضاً صاحب «اللوامح» عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، وذلك على إضمار مبتدأ، أي: ونحن نُبيِّنُ، والجملة حاليَّة، وقال المهدوي عن السُّلَمي أنَّه قرأ بنون العظمة إلا أنَّه جَزَم الفعلَ عطفاً على «تكونوا» أي: أَوَلم نُبيِّنْ لكم[1].

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ﴾ أي: في القرآن العظيم على تقدير اختصاصِ الخطابِ بالمنذرينِ، أو على ألسنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على تقدير عمومِهِ لجميع الظالمين ﴿ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: صفات ما فعلوا وما فُعِلَ بهم من الأمور التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبةِ لِتَعْتَبروا وتقيسُوا أعمالَكم على أعمالهم ومآلَكم على مآلهم، وتنتقلُوا من حلول العذابِ العاجل إلى العذاب الآجلِ، فَتَرْتَدِعُوا[2] عمَّا كنتُم فيه من الكفر والمعاصي.

وجوَّز أنْ يُراد من «الأمثال» ما هو جمعُ: مِثْل، بمعنى الشبيه، أي: بيَّنَّا لكم أنَّهم مِثْلُهم في الكفر واستحقاق العذاب، وروي هذا عن مجاهد.

والجملُ الثلاث في موقع الحال من ضمير «أقسمتُم»، أي: أقسمتُم أنْ ليس لكم زوالٌ والحال أنَّكم سكنتُم في مساكن المهلَكين بظلمهم وتَبيَّن لكم فعلُنا العجيبُ بهم، ونبَّهناكم على جَليَّة الحال بضَرْب الأمثال.

وقولُه سبحانه: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ حالٌ من الضمير الأوَّل في «فعلْنا بهم»، أو من الثاني، أو منهما جميعاً، وقُدِّم عليه قولُه تعالى: «وضربنا لكم الأمثال» لشدَّة ارْتباطِهِ على ما قيل بما قبلَه، أي: فَعَلنا بهم ما فعلنا والحالُ أنَّهم قد مكروا في إبطال الحقِّ وتقريرِ الباطل مكْرَهم العظيمَ الذي استفرغُوا في عمله المجهودَ، وجاوزوا فيه كلَّ حدٍّ معهودٍ، بحيث لا يقدرُ عليه غيرُهم، والمرادُ بيانُ تناهيهم في استحقاق ما فُعِل بهم.

---

(١) البحر المحيط ٥/٤٣٦، وقراءة السلمي بالرفع في القراءات الشاذة ص٦٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٥.

(٢) في الأصل و(م): فتردعوا، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٥٨ والكلام منه.

أو: وَقَد مكروا مكْرَهم المذكورَ في ترتيب مبادئ البقاء ومدافعةِ أسباب الزوال، فالمقصودُ إظهار عجزِهم واضمِحْلال قُدرتهم وحقارتها عند قدرة الله سبحانه. قاله شيخ الإسلام(١).

وهو ظاهرٌ في أنَّ هذا مِن تتمَّة ما يُقال لأولئك الذين ظلمُوا، وهو المرويُّ عن محمد بنِ كعب القرظي، فقد أخرج عنه ابنُ جرير أنَّه قال: بلغَني أنَّ أهلَ النار ينادُون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ إلخ فيردُّ عليهم بقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾(٢). وذكره ابنُ عطيَّة(٣) احتمالاً، وقيل غير ذلك مما ستعلمه إن شاء الله تعالى قريباً.

وظاهرُ كلام غيرِ واحدٍ أنَّ استفادةَ المبالغة في «مَكَرُوا مكْرَهم» من الإضافة.

وفي «الحواشي الشهابيَّة» أنَّ «مكْرَهم» منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ مطلقٌ؛ لأنَّه لازمٌ، فدلالتُه على المبالغة لقوله تعالى الآتي: «وإنْ كان مكرهم» إلخ، لا(٤) لأنَّ إضافةَ المصدر تُفيدُ العمومَ، أي: أظهروا كلَّ مكرٍ لهم، أو لأنَّ إضافَته - وأصلُه التنكير - لإفادة أنَّهم معروفون بذلك(٥)، وللبحث فيه مجالٌ.

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي: جزاءُ مكرهم، على أنَّ الكلام على حذفِ مضافٍ، وجوَّز أنْ لا يكون هناك مضافٌ محذوفٌ. والمعنى: مكتوبٌ عنده تعالى مكرُهم ومعلومٌ له سبحانه، وذلك كناية عن مُجازاته تعالى لهم عليه.

وأيّاً ما كان فإضافة «مكر» إلى الفاعل وهو الظاهرُ المتبادر، وقيل: إنَّه مضافٌ إلى مفعوله على معنى: عنده تعالى مكرُهم الذي يمكرُهم به.

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ المحفوظَ أنَّ «مَكَرَ» لازمٌ ولم يُسمَع مُتعدِّياً(٦).

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٨.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٧١٦.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦.
(٤) قوله: لا، ساقط من الأصل، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب.
(٥) حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٧.
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٣٧.

وأُجيبَ بأنَّه يجوزُ أنْ يكون المكرُ مُتجوَّزاً به أو مضمَّناً معنى الكيد أو الجزاء[1]، والكلام في نسبة المكر إليه تعالى وأنَّه إمَّا باعتبار المشاكلة أو الاستعارة مشهورٌ.

وذكر بعض المحقِّقين أنَّ المرادَ بهذا المكرِ ما أفادَه قولُه تعالى: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ لا أنَّه وعيدٌ مستأنفٌ.

والجملة حالٌ من الضمير في «مكروا» أي: مكروا مكرَهم وعند الله تعالى جزاؤه، أو ما هو أعظم[2] منه. والمقصودُ بيانُ فسادِ رأيهم حيث باشروا فعلاً مع تحقُّق ما يُوجبُ تركه.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ أي: وإنْ كان مكرُهم في غاية الشدَّةِ والمتانة، وعبَّر عن ذلك بكونه معدّاً لإزالة الجبال عن مُقارِّها؛ لكونه مَثَلاً في ذلك. «وإنْ» شرطيَّةٌ، وصليَّةٌ عند جمع، والمرادُ أنَّه سبحانه مُجازيهم على مكرهم ومُبطلُه إنْ لم يكن في هذه الشدَّة وإنْ كان فيها، ولابدَّ على هذا الوجه من ملاحظة الإبطال، وإلا فالجزاءُ المجرَّدُ عن ذلك لا يكاد يتأتَّى معه النكتةُ التي يدورُ عليها ما في «إنْ» الوصليَّة من التأكيد المعنوي.

وجوَّز أنْ يكونَ المعنى أنَّه تعالى يُقابلُهم بمكرهم، ولا يمنَعُ من ذلك كونُ مكرِهم في غاية الشدَّةِ، فهو سبحانه وتعالى أشدُّ مكراً، ولا حاجةَ حينئذٍ إلى ملاحظة الإبطال، فتدبَّر.

وعن الحسن وجماعة أنَّ «إنْ» نافية واللام لام الجحودُ و«كان» تامَّةٌ، والمرادُ بـ «الجبال» آياتُ الله تعالى وشرائعُه ومعجزاتُه الظاهرةُ على أيدي الرسل السالفة عليهم السلام التي هي كالجبال في الرسوخ والثبات، والقصدُ إلى تحقير مكرهم وأنَّه ما كان لِتزولَ منه الآياتُ والنبوَّاتُ.

وجوَّز أنْ تكون «كان» ناقصةً، وخبرُها إما محذوفٌ، أو الفعل الذي دخلَت

---

(١) في الأصل: ومضمناً معنى الكيد والجزاء، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٧.

(٢) في (م): أو هو ما أعظم، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٨.

عليه اللام، على الخلاف الذي بين البصريين والكوفيين، وأُيِّدَ هذا الوجْهُ بما روي عن ابن مسعود من أنَّه قرأ: «وما كان» بـ «ما» النافية[١].

وتُعقِّبَ بأنَّ فيه معارضة للقراءة الدالَّة على عِظَمِ مكرهم كقراءة الجمهور.

وأُجيبَ بأنَّ الجبال في تلك القراءة يُشار بها إلى ما رامُوا إبطالَه من الحقِّ كما أشرنا إليه، وفي هذه على حقيقتها، فلا تعارضَ، إذ لم يتواردا على محلٍّ واحدٍ نفياً وإثباتاً.

ورُدَّ بأنَّه إذا جعل الحقُّ شبيهاً بالجبال في الثبات كان مثلَها بل أدونَ منها في هذا المعنى، فإذا نَفَى إزالتَه إيَّاه انتفى إزالته جبال الدنيا، وحينئذٍ يجيءُ الإشكال.

وتعقَّبه الشهابُ بأنَّ هذا غيرُ واردٍ؛ لأنَّ المشبَّه لا يلزمُ أنْ يكونَ أدونَ من المشبَّه به في وجه الشبه، بل قد يكونُ بخلافه، ولو سلم فقد يقدرُ على إزالة الأقوَى دونَ الآخر لمانع، كالشجاع يَقدِرُ على قتل أسدٍ ولا يقدِرُ على قَتْل رجلٍ مشبَّهٍ به لامتناعه بعدَّةٍ أو حِصْنٍ، ولا حِصنَ أحصنُ وأحمَى من تأييد الله تعالى شأنه للحقِّ، بحيث تزولُ الجبال يومَ تُنسَفُ نسفاً ولا يزول[٢]. انتهى.

وإلى تفسير «الجبال» على هذه القراءة بما ذكرنا ذهب شيخُ الإسلام، ثم قال: وأمَّا كونُها عبارةً عن أمر النبيِّ ﷺ وأمْرِ القرآن العظيم ـ كما قيل ـ فلا مجالَ له، إذ الماكرون هم المهلَكون لا السَّاكنون في مساكنهم من المخاطَبين، وإنْ خصَّ الخطاب بالمنذَرين[٣]. وسيظهرُ لك قريباً إنْ شاء الله تعالى جوازُ ذلك على بعض الأقوال في الآية.

والجملةُ حالٌ من الضمير في «مَكَرُوا» لا مِن قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾، وجوَّز أبو البقاء[٤] وغيرُه أنْ تكونَ «إنْ»[٥] مخففةً من الثقيلة، والمعنى:

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٩، والبحر المحيط ٥/٤٣٨.
(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٨.
(٤) الإملاء ٣/ ٤١٤.
(٥) ليس في (م).

إنْ كان مكرُهم ليزَول منه ما هو كالجبال في الثبات من الآيات والشرائعِ والمعجزاتِ، والجملةُ أيضاً حالٌ من الضمير المذكور، أي: مكروا مكرَهم المعهودَ وإنَّ الشأن كان مكرهم لإزالة الحقِّ من الآيات والشرائع على معنى أنَّه لم يكُن يصِحُّ أنْ يكونَ منهم مكرٌ كذلك وكان شأنُ الحقِّ مانعاً من مباشرةِ المكر لإزالتِهِ.

وقرأ ابنُ عباس ومجاهد وابن وثاب والكسائي: «لَتزولُ» بفتح اللام الأولى ورَفْعِ الفعل[1]، فـ «إنْ» على ذلك عند البصريين مخفَّفةٌ واللامُ هي الفارقة، وعند الكوفيين نافية[2] واللام بمعنى «إلا»، والقصدُ إلى تعظيم مكرهم، فالجملةُ حالٌ من قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: عنده تعالى جزاءُ مكرهم، أو المكر بهم، والحالُ أنَّ مكرَهم بحيث تزولُ منه الجبال، أي: في غاية الشدَّة.

وقرئ: «لَتزولَ» بالفتح والنصب[3]، وخُرِّجَ ذلك على لغةٍ جاءت في فتح لام «كي».

وقرأ عمرُ وعليٌّ وأبيٌّ وعبدُ الله وأبو سلمة بنُ عبد الرحمن وأبو إسحاق السَّبيعيّ وزيدُ بنُ عليٍّ ﷺ ورحمهم: «وإنْ كاد» بِدالٍ مكان النون، و«لَتزولُ» بالفتح والرفع[4]، وهي روايةٌ عن ابن عباس ﷺ[5]، ونَقَل أبو حاتم عن أُبيٍّ ﷺ أنَّه قرأ: «ولولا كلمةُ الله لزالَ مِن مكرهم الجبال»[6]. وحمل ذلك بعضهم على التفسير؛ لمخالفته لسواد[7] المصحف مخالفة ظاهرة.

---

(١) قراءة الكسائي في التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٣٠٠، وباقي القراءات الآتية في المحتسب ١/ ٣٦٥، والطبري ١٣/ ٧٢٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨.

(٢) في الأصل: هي نافية، والمثبت من (م).

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٣٨.

(٤) المحتسب ١/ ٤٦٥، والطبري ١٣/ ٧١٩ وما بعدها، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٧.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٣٧.

(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٣٨.

(٧) في الأصل: سواد، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٥/ ٤٣٨.

هذا ومن الناس من قال: إنَّ الضميرَ في «مكروا» للمنذَرين، والمرادُ بمكرهم ما أَفادَه قولُه عزَّ وجل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وغيرُه من أنواع مكرهم برسول الله ﷺ.

قال شيخُ الإسلام: ولعلَّ الوجْهَ حينئذٍ أنْ يكونَ قولُه تعالى: (وَقَدْ مَكَرُوا۟) إلخ حالاً من القول المقدَّر، أي: فيُقال لهم ما يقال والحال أنَّهم مع ما فعلوا مِن الإقسام المذكور مع[1] ما ينافيه قد مكروا مكْرَهم العظيمَ، أي: لم يكن الصادرُ عنهم مجرَّدَ الإقسام الذي وُبِّخُوا به، بل اجترؤوا على مثل هذه العظيمة. وقوله سبحانه: (وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ) حالٌ من ضمير «مكروا» حسبما ذُكِرَ مِن[2] قبل. وقوله تعالى: (وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ) إلى آخره مسوقٌ لبيان عدم تفاوتِ الحال في تحقيق الجزاء بَيْنَ كونِ مكرهم قويًّا أو ضعيفاً كما مرَّت الإشارةُ إليه، وعلى تقدير كونِ «إنْ» نافيةً فهو حالٌ من ضمير «مكروا»، و«الجبال» عبارةٌ من أَمْرِ النبيِّ ﷺ، أي: وقد مكروا والحال أنَّ مكْرَهم ما كان لِتزولَ منه هاتيك الشرائعُ والآياتُ التي هي كالجبال في القوَّة، وعلى تقدير كونها مخفَّفةً من الثقيلة واللام مكسورة يكونُ حالاً منه أيضاً، على معنى: أنَّ ذلك المكرَ العظيمَ منهم كان لهذا الغرض، والقصدُ إلى أنَّه لم يصِحَّ أنْ يكونَ منهم مكرٌ كذلك لِمَا أنَّ شأنَ الشرائع أعظمُ مِن أنْ يُمكَرَ بها، وعلى تقدير فَتْحِ اللام فهو حالٌ من قوله تعالى: (وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ) كما ذُكِرَ سابقاً[3]. اهـ.

ويجوز أنْ يُراد بـ «مكرهم» شركُهم كما أخرجَه ابنُ جرير وغيرُه عن ابن عباس[4]، والجبالُ على حقيقتها، وأَمْرُ الجملة على ما قال.

وحاصلُ المعنى: لم يكن الصادرُ عنهم مجرَّدَ الإقسام مع ما يُنافيه بل اجترؤوا على الشِّرْك ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٨٨-٩٠] وقد رُوي عن الضحاك أنَّه صرَّح بأنَّ ما نحنُ فيه كهذه الآية.

(١) قوله: مع، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود.
(٢) قوله: من، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٩.
(٤) الطبري ١٣/ ٧٢٢، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٩ إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

ثمَّ إنَّ القولَ بجَعْل الضميرِ للمنذَرين قولٌ بعدمِ دخولِ هذا الكلامِ في حيِّز ما يقال، وهو الظاهرُ كما قيل، وكذا حَمْل «الجبال» على معناها الحقيقي.

وفي «البحر»: الذي يَظهرُ أنَّ زوالَ الجبال مجازٌ ضُربَ مثلاً لمكر قريش وعِظَمه[١]، والجبالُ لا تزولُ، وفيه من المبالغة في ذمِّ مكرهم ما لا يخفى.

وأمَّا ما رُوي[٢] أنَّ جبلاً زال بحَلِفِ امرأةٍ اتَّهمَها زوجُها، وكان ذلك الجبلُ مَن حَلَفَ عليه كاذباً مات، فحَمَلَها للحَلِف، فمَكَرت بأنْ رَمَت نفسَها من الدابة، وكانت وعدَت مَن اتُّهِمَت به أنْ يكون في المكان الذي وقَعَت فيه من الدابة، فأركبها زوجُها وذلك الرجل، وحلفَت على الجبل أنَّها ما مسَّها غيرُهما، فنزلَت سالمةً وأصبح الجبل قد انْدَكَّ، وكانت المرأةُ من عدنان.

وما رُوي من قصة نمروذ بنِ كوش بنِ كنعان أو بُخْتُ نصَّر واتخاذِ الأَنْسُر وصعودِهما إلى قُرب السماء في قصة طويلةٍ مشهورة، وما فعل بعضُهم من حمل الجبال على دين الإسلام والقرآنِ، وحملِ المكر على اختلافهم فيه مِن قولهم: هذا سحرٌ، هذا شعرٌ، هذا إفكٌ = فأقوال يَنبُو عنها ظاهرُ اللفظ، وبعيدٌ جدًّا قصة الأَنْسُر[٣]. اهـ.

واستبعدَ ذلك أيضاً ـ كما نَقَل الإمامُ ـ القاضي، وقال: إنَّ الخطر في ذلك عظيمٌ ولا يكاد العاقلُ يُقدِمُ عليه. وما جاء خبرٌ صحيحٌ مُعتمَدٌ، ولا حاجةَ في تأويل الآية إليه[٤].

ونِعْمَ ما قال في خَبر النسور، فإنَّه وإنْ جاء عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه وعن مجاهدٍ وابنِ جبير وأبي عبيدة والسديِّ وغيرِهم إلا أنَّ في الأسانيد ما لا يخفَى على مَن نَقَّر، وقد شاعَ ذلك من أخبار القصَّاص، وخبرُهم واقعٌ عن درجة القبولِ ولو

---

(١) في الأصل: عظمته، والمثبت من (م) والبحر.

(٢) في الأصل: وما روي، والمثبت من (م) والبحر المحيط، وجاء في هامش الأصل كلمة غير واضحة، ولعلَّها ضُربَ عليها.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٣٨، وخبر النمروذ واتخاذه الأنسر ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٩٨ ـ ٩٩، والطبري ١٣/ ٧١٩-٧٢١، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٩-٩٠.

(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٤٤.

طارُوا إلى النسر الطائر، ومِثْلُ ذلك فيما أرى خبرُ المتَّهمَةِ. فافهم والله تعالى أعلم.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ تثبيتٌ له ﷺ على ما هو عليه من الثقة بالله سبحانه والتيقُّنِ بإنجاز وعدِه تعالى بتعذيبِ الظالمين المقرُونِ بالأمر بإنذارهم، كما يُفصحُ عنه الفاء، وقال الطيبي: واستحسَنَه التلميذُ أنَّه يجوزُ أنْ يُحملَ الوعدُ على المفاد بقوله تعالى: (وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ) وقد جعلَه وجهاً آخرَ لِمَا ذَكَره الزمخشريُّ من تفسيره له بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] و﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[1] [المجادلة: ٢١] وفيه نظرٌ؛ لأنَّه لا اختصاصَ لذلك ـ كما قيل ـ بالتعذيب لا سيَّما الأخرويّ، وإضافةُ «مُخلفَ» إلى الوعد عند الجمهور من إضافة اسم الفاعل إلى المفعول الثاني كقولهم: هذا معطي درهمٍ زيداً، وهو لمَّا كان يتعدَّى إلى اثنين جازَت إضافته إلى كلٍّ منهما فينصبُ ما تأخَّر، وأنشَد بعضُهم نظيراً لذلك قوله:

تَرَى الثورَ فيها مُدْخِلَ الظلِّ رأسَه وسائرُهُ بادٍ إلى الشمس أَجْمَعُ[2]

وذكر أبو البقاء أنَّ هذا قريبٌ من قولهم:

يا سارقَ الليلةِ أهلَ الدار[3]

وفي «الكشاف»: أنَّ تقديمَ الوعدِ ليُعلم أنَّه تعالى لا يُخلِف الوعدَ أصلاً كقوله سبحانه: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]. ثم قال جلَّ شأنه: (رُسُلَهُۥٓ) ليُؤذنَ أنَّه إذا لم يُخلِف وعدَه أحداً، وليس مِن شأنه إخلافُ المواعيدِ، كيف يُخلِفُ رسلَه الذينَ هم خيرتُه وصفوتُه[4]؟!.

ونظر فيه ابنُ المنيِّر بأنَّ الفعلَ إذا تقيَّد بمفعولٍ انقطَعَ احتمالُ إطلاقه، وهو

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

(٢) الكتاب ١/ ١٨١، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص١٤٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٨٠، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٣، والبيان للأنباري ٢/ ٦٢.

(٣) الإملاء ٣/ ٤١٥، والرجز في الكتاب ١/ ١٧٥، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٨٠، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥٧٧، وشرح المفصل لابن يعيش ٢/ ٤٥، وخزانة الأدب ٣/ ١٠٨.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٨٤.

هنا[1] كذلك، فليس تقديمُ الوعدِ دالًّا على إطلاقِ الوعد، بل على العناية والاهتمامِ به؛ لأنَّ الآيةَ سيقَت لتهديد الظالمين بما وَعَد سبحانه على ألسنة رسلِهِ عليهم السلام، فالمهمُّ ذكرُ الوعدِ، وكونُه على ألسنة الرسل عليهم السلام لا يتوقَّف عليه التهديدُ[2] والتخويفُ[3].

وقال صاحب «الإنصاف»: إنَّ هذا النظر قويٌّ، إلا أنَّ ما اعترض عليه هو القاعدةُ عند أهل البيان، كما قال الشيخُ عبدُ القاهر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠]: أنَّه قدَّم «شركاء»؛ للإيذان بأنَّه لا يَنبغي أنْ يُتَّخذ لله تعالى شركاءُ[4] مطلقاً، ثم ذكر «الجنَّ» تحقيراً، أي: إذا لم يُتَّخذ مِن غيرِ الجنِّ، فالجنُّ أحقُّ بأنْ[5] لا يُتَّخذُوا[6].

وتُعقِّب بأنَّه لا يدفع السؤال بل يُؤيِّده، وكذا ما ذكره الفاضلُ الطيبي فإنَّه مع تطويله لم يأتِ بطائل، فالوجْهُ ما في «الكشف» من أنَّ ذلك الإعلام إنما نشأ من جعل الاهتمام بشأن الوعدِ، فهو ما سيقَ له الكلامُ وما عداه تَبعٌ، وإفادةُ هذا الأسلوب الترقِّي كإفادة: ﴿ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ [طه: ٢٥] الإجمالَ والتفصيلَ. نعم إنَّ الظاهر من حال صاحب «الكشاف» أنَّه أَضمرَ - فيما قرَّره - اعتزالاً، وهذه مسألةٌ أخرَى.

وقيل: «مخلف» هنا متعدٍّ إلى واحدٍ كقوله تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩] فأُضيف إليه، وانتصبَ «رُسُلَه» بـ «وعده» إذ هو مصدرٌ يَنحلُّ إلى «أنْ» والفعل، وقرأت فرقةٌ: «مخلِفَ وعدَه رسلِه» بنصب «وعده» وإضافة «مُخلِفَ» إلى «رسله»[7] ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول، وهذه القراءة تُؤيِّدُ إعرابَ الجمهور في القراءة الأولى، وأنَّه مما يتعدَّى «مخلِف» هنا إلى مفعولَين.

---

(١) في الأصل: هناك، والمثبت من (م).
(٢) قوله: عليه التهديد، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٨.
(٣) الانتصاف ٢/ ٣٨٤ بنحوه.
(٤) في الأصل: شريكاً، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب.
(٥) في الأصل: أن، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب.
(٦) دلائل الإعجاز ص٢٨٦، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٨.
(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ٨١، ومعاني القرآن وإعرابه للزجَّاج ٣/ ١٦٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٩.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ لا يماكَرُ، وقادرٌ لا يُقادَرُ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ من أعدائه لأوليائه، فالجملةُ تعليلٌ للنهي المذكور وتذييلٌ له، وحيث كان الوعدُ عبارةً عن تعذيبهم خاصَّةً كما مرَّت إليه الإشارة، لم يذيَّل ـ كما قال بعض المحقِّقين ـ بأنْ يقال: إنَّ الله لا يُخلف الميعاد، بل تعرَّض لوصف العزِّ والانتقام المشعرَين بذلك، والمرادُ بالانتقام ما أُشيرَ إليه[1] بالفعل، وعبِّر عنه بالمكر.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ ظرفٌ لمضمَرٍ مُستأنَفٍ ينسحبُ عليه النهي المذكور، أي: يُنجِزُه يوم. . . إلى آخره، أو معطوف عليه نحو: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ﴾ [الدخان: ١٠] إلى آخره[2]، وجعَلَه بعضُ الفضلاء معمولاً لـ «اذكر» محذوفاً كما قيل في شأن نظائره، وقيل: ظرفٌ للانتقام، وهو يوم يأتيهم العذاب بعينه، ولكنْ له أحوالٌ جمَّةٌ يُذكَرُ كلَّ مرَّةٍ بعنوانٍ مخصوصٍ، والتقييدُ مع عموم انتقامه سبحانه للأوقات كلِّها للإفصاح عمَّا هو المقصود[3] من تعذيب الكفرةِ المؤخَّر إلى ذلك اليوم بموجب الحكمةِ المقتضيةِ له.

وجوَّز أبو البقاء تعلُّقَه بلا يُخلفُ الوعدَ مقدَّراً[4] بقرينة السابق، وفيه الوجهُ قبلَه من الحاجة إلى الاعتذار.

وقال الحوفي: هو متعلِّقٌ بـ «مُخلِفَ»، و«إنَّ الله عزيزٌ ذو انتقام» جملةٌ اعتراضيةٌ، وفيه ردٌّ لما قيل: لا يجوزُ تعلُّقه بذلك؛ لأنَّ ما قبل «إنَّ» لا يعملُ فيما بعدَها، لأنَّ لها الصدارة، ووجهُهُ أنَّها لكونها وما بعدها اعتراضاً لا يُبالَى بها فاصلاً.

وجوَّز الزمخشريُّ انتصابَه على البدليَّة من «يوم يأتيهم»[5]، وهو بدلُ كلٍّ من كلٍّ، وتَبِعَه بعضُ مَن مَنَع تعلُّقه بـ «مُخلِفَ» لمكان ما لَه الصدرُ. والعجبُ أنَّ العامل فيه حينئذٍ «أَنذِر» فيلزمُ عليه ما لَزِمَ القائلَ بتعلُّقه بما ذكر، فكأنَّه ذهب إلى أنَّ البدلَ له عاملٌ مقدَّرٌ، وهو ضعيف.

---

(١) في الأصل: عنه، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٥٩.
(٢) قوله: إلى آخره، ليس في الأصل، والمثبت من (م).
(٣) قوله: المقصود، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٦٠.
(٤) الإملاء ٣/ ٤١٥.
(٥) الكشاف ٢/ ٣٨٤.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ عطف على المرفوع، أي: وتُبدَّلُ السماواتُ غيرَ السماوات، والتبديلُ قد يكونُ في الذات كما في: بَدَّلْتُ الدراهمَ دنانيرَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦] وقد يكونُ في الصفات كما في قولك: بَدَّلْتُ الحلقةَ خاتماً، إذا غيَّرتَ شكلَها، ومنه قوله سبحانه: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان:٧٠]، والآية الكريمةُ ليست بنصٍّ في أحدِ الوجْهَين، فعن[1] ابنِ عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: تبدلُ الأرض: يُزادُ فيها ويُنقَصُ منها وتذهبُ آكامها وجبالُها وأوديتُها وشجرُها وما فيها، وتُمدُّ مدَّ الأديم العكاظي، وتصيرُ مستويةً لا تَرَى فيها عوجاً ولا أَمْتاً. وتبدلُ السماواتِ: بذهابِ شمسِها وقمرِها ونجومِها[2]. وحاصلُه: يُغيَّرُ كلٌّ عمَّا هو عليه في الدنيا، وأنشدَ:

وما الناسُ بالناس الذين عَهِدْتُهُم ولا الدارُ بالدار التي كنتُ أعلمُ[3]

وقال ابنُ الأنباري: تبدل السماوات بطيِّها وجعلِها مَرَّةً كالمُهْل ومَرَّةً وردةً كالدهان[4].

وأخرج ابنُ أبي الدنيا وابنُ جرير وغيرُهما عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّه قال: تُبدَّل الأرضُ من فضةٍ، والسماءُ من ذهب[5].

وأخرج ابنُ المنذر عن مجاهد أنَّه قال[6]: تكونُ الأرضُ كالفضة والسماواتُ كذلك[7]. وصحَّ عن ابنِ مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: تُبدَّلُ الأرضُ أرضاً بيضاءَ كأنَّها

---

(١) في (م): نص.

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩١، وعزاه للبيهقي في البعث.

(٣) نسبه العباسي في معاهد التنصيص ٤/ ٦ للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وهو في مجالس ثعلب ١/ ٤٩، والكشاف ٢/ ٣٨٤، والبحر المحيط ٥/ ٤٣٩، والذي في مجالس ثعلب وجمهرة الأمثال: تعرف، بدل: أعلم، وفي باقي المصادر: تعلم.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٣٩.

(٥) الطبري ١٣/ ٧٣٤، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (٦٢)، وأورده السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩١.

(٦) ليس في (م).

(٧) عزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩١، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٢.

سبيكةُ فضَّةٍ لم يُسفَك فيها دمٌ حرامٌ ولم يُعمَل فيها خطيئة. وروي ذلك مرفوعاً أيضاً(١)، والموقوف ـ على ما قال البيهقي(٢) ـ أصحُّ. وقد يحمل قول الإمام(٣) كرَّم الله تعالى وجهه على التشبيه.

وقال الإمام: لا يبعدُ أنْ يقال: المرادُ بتَبْديل الأرضِ جعلُها جهنَّم، وبتبديل السماوات جعلُها الجنةَ(٤).

وتُعقِّبَ بأنَّه بعيدٌ؛ لأنَّه يلزمُ أنْ تكونَ الجنةُ والنارُ غيرَ مخلوقَتَين الآن، والثابتُ في الكلام والحديثِ(٥) خلافُهُ.

وأُجيبَ بأنَّ الثابت خَلْقُهما مطلقاً لا خَلْق كليهما(٦)، فيجوزُ أنْ يكونَ الموجودُ الآن بعضَهما ثم تصيرُ السماواتُ والأرضُ بعضاً منهما، وفيه أنَّ هذا ـ وإنْ صحَّحه ـ لا يقرّ به، والاستدلالُ على ذلك بقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨] وقوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧] في غاية الغرابة مِن الإمام، فإنَّ في إشعار ذلك بالمقصود نظراً، فضلاً عن كونه دالًّا عليه.

نعم جاء في بعض الآثار ما يؤيِّدُ ما قاله، فقد أخرج ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم

---

(١) أخرجه موقوفاً الطبري ١٣/ ٧٢٩ ـ ٧٣٠، وأبو الشيخ في العظمة (٦٠٠)، والطبراني (٩٠٠١)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٥٧٠ وصحح إسناده.
وأخرجه مرفوعاً البزار (١٨٥٩)، والطبراني في الكبير (١٠٣٢٣)، وفي الأوسط (٧١٦٧)، وابن عدي ٢/ ٥٤٧، وابن عساكر ٤٦/ ٤٠٧. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٥: وفي إسناده جرير بن أيوب، وهو مجمع على ضعفه.

(٢) استدراكات البعث والنشور (٨٢).

(٣) في الأصل: كلام الأمير، والمثبت من (م).

(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٥٠.

(٥) جاء في هذا المعنى أحاديث كثيرة منها ما أخرجه البخاري (٣٢٤١)، ومسلم (٢٧٣٨) عن عمران بن حصين ﷺ عن النبي ﷺ قال: «اطَّلعتُ في الجنةِ فرأيتُ أكثرَ أهلها الفقراء، واطَّلعتُ في النار فرأيتُ أكثرَ أهلها النساء»، وينظر البخاري كتاب بدء الخلق باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، والبعث والنشور للبيهقي باب: ما يستدل على أن الجنة والنار قد خلقتا وأُعدَّتا لأهلهما.

(٦) في الأصل و(م): كلهما، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٨.

عن أُبيّ بنِ كعب أنَّه قال في الآية: تصيرُ السماواتُ جناناً، ويصيرُ مكان البحر ناراً، وتُبدَّلُ الأرضُ غيرَها(١).

وأخرج ابنُ جرير عن ابن مسعود أنَّه قال: الأرضُ كلُّها نارٌ يوم القيامة(٢).

وجاء في تبديل الأرض روايات أُخر، فقد أخرج ابنُ جرير عن ابن جُبير أنَّه قال: تُبدَّلُ الأرضُ خبزةً بيضاءَ، فيأكلُ المؤمنُ من تحت قدمَيه. وأخرجَ عن محمد بنِ كعب القرظي مثله(٣). وأخرجَ البيهقيُّ في «البعث» عن عكرمة كذلك(٤).

وأخرجَ ابنُ مردويه عن أفلح مولى أبي أيوب أنَّ رجلاً من يهود سأل النبيَّ ﷺ فقال: ما الذي تُبدَّلُ به الأرضُ؟ فقال: «خُبزةٌ». فقال اليهوديُّ: درمكة بأبي أنت. فضَحِكَ ﷺ ثم قال: «قاتل الله تعالى يهودَ هل تَدْرُونَ ما الدَّرمكةُ؟ لبابُ الخبز»(٥).

وقد تقدَّم خبرُ أنَّ الأرضَ تكونُ يومَ القيامة خُبزةً واحدةً يتكفَّؤُها الجبَّارُ بيده كما يتكفَّأُ أحدُكم خُبزَتَه في السفر نُزُلاً لأهل الجنة، وهو في الصحيحين من رواية أبي سعيد الخدْري مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ(٦).

وحكى بعضُهم أنَّ التبديلَ يقعُ في الأرض ولكن(٧) تُبدَّلُ لكلِّ فريقٍ بما يقتضيه حالُه، ففريقٌ من المؤمنين يكونون على خبزٍ يأكلونَ منه، وفريقٌ يكونون على فضَّةٍ، وفريقُ الكفرةِ يكونون على نارٍ، وليس تبديلُها بأيِّ شيءٍ كان بأعظمَ من خلقها بعدَ أنْ لم تكُن.

---

(١) عزاه للطبري ولابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩١ والكلام منه، وعزاه ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٧٦ لتفسير الربيع بن أنس، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٥، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٧٠ عن كعب، وكذا ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٢) الطبري ١٣/ ٧٣٣.

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٧٣٥.

(٤) استدراكات البعث والنشور (٨٣).

(٥) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩١.

(٦) صحيح البخاري (٦٥٢٠)، وصحيح مسلم (٢٧٩٢)، وتقدم ص٣٣ من هذا الجزء.

(٧) في الأصل: لكن، والمثبت من (م).

وذكر بعضهم أنَّها تُبدَّلُ أوّلاً صفتُها على النحو المروي عن ابن عباس ﷺ، ثم تُبدَّلُ ذاتُها، ويكونُ هذا الأخيرُ بعدَ أنْ تُحدِّثَ أخبارَها، ولا مانعَ من أنْ يكونَ هنا تبديلاتٌ على أنحاء شتَّى.

وفي «صحيح مسلم» من حديث عائشةَ ﷺ مرفوعاً أنَّ الناس يومَ تُبدَّلُ على الصراط[1]. وفيه من حديث ثوبان أنَّ يهوديًّا سألَ رسول الله ﷺ: أين الناسُ يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «هم في الظُّلْمةِ دونَ الجسر»[2]، ولعلَّ المرادَ من هذا التبديل نحوٌ خاصٌّ منه، والله تعالى أعلمُ بحقيقة الحال. وتقديمُ تبديلِ الأرض؛ لقربها منَّا، ولكون تبديلها أعظم أمراً بالنسبة إلينا.

﴿وَبَرَزُوا﴾ أي: الخلائقُ أو الظالمون المدلولُ عليهم بمعونة السياق كما قيل، والمرادُ بُروزهم مِن أجداثهم التي في بطون الأرض.

وجوّز أنْ يكونَ المرادُ ظهورهم بأعمالهم التي كانوا يعملونها سرًّا ويزعمون أنَّها لا تظهرُ، أو يعملون عملَ مَنْ يَزعُمُ ذلك، ووجهُ إسنادِ البروزِ إليهم - مع أنَّه على هذا لأعمالهم - بأنَّه للإيذان بتشكُّلهم بأشكالٍ تناسبُها، وأنت تعلم أنَّ الظاهر ظهورُهم من أجداثهم، والعطفُ على «تُبدَّلُ» والعدولُ[3] إلى صيغة الماضي، للدلالة على تحقُّق الوقوع.

وجوّز أبو البقاء أنْ تكونَ الجملةُ مستأنفةً وأنْ تكونَ حالاً من «الأرض» بتقدير «قد»[4]، والرابط[5] الواو.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ ﷺ: «وبُرِّزُوا» بضمِّ الباء وكسر الراء مشدَّدةً[6]، جعلَه مبنيًّا للمفعول على سبيل التكثير باعتبار المفعولِ لكثرة المخرَجين ﴿لِلَّهِ﴾ أي: لحُكْمِهِ

(١) صحيح مسلم (٢٧٩١)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٤٠٦٩).
(٢) صحيح مسلم (٣١٥)، والجسر: هو الصراط، كما في إكمال المعلم ٢/ ٦٥٣.
(٣) في الأصل: المعدول، والمثبت من (م).
(٤) الإملاء ٣/ ٤١٥.
(٥) في الأصل: الروابط، والمثبت من (م).
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٤٠.

سبحانه ومجازاته ﴿الْوَاحِدِ﴾ الذي لا شريكَ له ﴿الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ الغالبِ على كلِّ شيءٍ، والتعرُّضُ للوصفَين؛ لتهويل الخطْب وتربيةِ المهابةِ؛ لأنَّهم إذا كانوا واقفين[١] عندَ مَلِكٍ عظيم قهَّارٍ لا يُشاركُه غيرُه كانوا على خَطَرٍ، إذ لا مقاومَ له ولا مُغيثَ سواه، وفي ذلك أيضاً تحقيقُ إتيان العذابِ الموعود على[٢] تقدير كونِ «يومَ تُبدَّلُ» بدلاً مِن «يومَ يأتيهم العذابُ».

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ عطفٌ على «بَرزُوا» والعدولُ إلى صيغة المضارع؛ لاستحضار الصورةِ أو للدلالة على الاستمرار، وأما البروزُ فهو دفعيٌّ لا استمرارَ فيه، وعلى تقدير حالية «بَرزُوا» فهو معطوف على «تُبدَّلُ» وجوِّزَ عطفُهُ على عامل الظرف المقدَّم على تقدير كونه يُنجِزه مثلاً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ برزوا لله[٣] تعالى، أو يومَ إذ تُبدَّلُ الأرضُ، أو يومَ إذ يُنجِزُ وعدَه، والرؤيةُ إذا كانت بصريةً فـ «المجرمين» مفعولُها وقولُه تعالى: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ حالٌ منه، وإنْ كانت عِلْميةً فـ «المجرمين» مفعولُها الأوَّلُ، و«مقرَّنين»[٤] مفعولُها الثاني.

والمرادُ قَرْنُ بعضِهم مع بعضٍ، وضمُّ كلٍّ لمشاركه في كفره وعمله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧] على قول، وفي المثل: إنَّ الطيورَ على أشباهها تقَعُ[٥].

أو قُرِنُوا مع الشياطين الذين أغووهم كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨] إلخ.

أو قُرِنُوا مع ما اقترفوا من العقائد الزائغةِ والملكات الرديئةِ والأعمالِ السيئة غِبَّ تَصوُّرها وتشكُّلها بما يُناسبُها من الصُّور الموحشةِ والأشكالِ الهائلةِ.

أو قُرِنوا مع جزاء ذلك أو كتابه، فلا حاجةَ إلى حديثِ التصوُّر بالصُّورِ.

---

(١) في الأصل: واقعين. والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٨.
(٢) في الأصل: وعلى، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٦٠.
(٣) في الأصل: يرون الله، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٦١.
(٤) في (م): مقرنين.
(٥) مجمع الأمثال ١/ ٤٤٢ بلفظ: الطيورُ على أُلَّافها تقَعُ.

أو قُرنَت أيديهم وأرجلُهم إلى رقابهم، وجاء ذلك في بعض الآثار[١]، والظاهرُ أنَّه على حقيقته.

ويحتمل ـ على ما قيل ـ أنْ يكون تمثيلاً لمؤاخذتهم على ما اقترفَته أيديهم وأرجلُهم، وأصلُ المقرَّن ـ بالتشديد ـ مَن جُمِع في قَرَنٍ ـ بالتحريك ـ وهو الوَثاق الذي يُربط به.

﴿فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾ جمعُ: صَفَد، ويقال فيه: صِفَادُ، وهو: القيدُ الذي يُوضَع في الرِّجْل، أو الغلُّ الذي يكون في اليد والعنق، أو ما يُضمُّ به اليدُ والرِّجْلُ إلى العنق، ويسمَّى هذا جامعة[٢]، ومِن هذا قول سلامة بنِ جندل:

وزَيدُ الخيلِ قد لاقى صفاداً يَعضُّ بساعدٍ وبعظْم ساقِ[٣]

وجاء: صَفَد بالتخفيف وصَفَّد بالتشديد للتكثير، وتقول: أصفدْتُه، إذا أعطيتَه، فتأتي بالهمزة في هذا المعنى، وقيل: صَفَد وأَصْفَد معاً في القيد والإعطاء، ويُسمَّى العطاء صَفداً؛ لأنَّه يُقيِّد:

ومَنْ وَجَدَ الإحسانَ قَيْداً تقيَّدا[٤]

والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «مقرَّنين» أو بمحذوفٍ وقَعَ حالاً من ضميره، أي: مُصَفَّدين، وجوَّز أبو حيان كونَه في موضع الصفة لـ «مقرنين»[٥].

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي: قمصانُهم، جمع: سِرْبال ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ هو: ما يُحلَبُ من شَجَر الإبْهلِ[٦] فيُطبَخ وتُهنأ به الإبل الجربى، فيحرقُ الجربَ بما فيه من الحدَّة

---

(١) أورده الرازي في تفسيره ١٧/ ١٤٨ عن زيد بن أرقم حيث قال: قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال.

(٢) في (م): جامعه. والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨، والكشاف ٢/ ٣٨٥، والبيضاوي ٥/ ٢٧٩.

(٤) عجز بيتٍ لأبي الطيب المتنبي، وهو في ديوانه ٢/ ١٥، وصدره:

وقَيَّدتُ نفسي في ذَرَاكَ مَحبَّةً

(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٤٠.

(٦) الأبْهُل أو الإبْهِل: هو صنف من العرار أو هو نفسه، منه صغير الورق كالطرفاء، وكبير كالسرو، ويقارب النبق في الحجم، أحمر اللون فإذا تمَّ استواؤه اسودَّ. تذكرة أولي الألباب ١/ ٣٥.

الشديدة، وقد تصلُ حرارتُه إلى الجوف، وهو أسودُ منتنٌ يسرعُ فيه اشتعالُ النار حتى قيل: إنَّه أسرَعُ الأشياء اشتعالاً.

وفي «التذكرة»: أنَّه نوعان غليظٌ برَّاقٌ حادُّ الرائحة ويُعرَف بالبرقي، ورقيقٌ كَمِد ويُعرَفُ بالسائل، والأولُ من الشربين[1] خاصَّة، والثاني من الأرز والسدر ونحوهما، والأوَّلُ أجودُ، وهو حارٌّ يابسٌ في الثالثة أو الثانية[2]، وذَكَرَ في الزفت أنَّه من أشجار كالأرز وغيره، وأنَّه إنْ سالَ بنفسه يقال: زفت، وإنْ كان[3] بالصناعة فقَطران[4].

ويقال فيه: قَطْران بوزن سَكْران، وروي عن عمرَ وعليٍّ رضي الله عنهما أنَّهما قرأا به[5]، وقِطْرَان بوزن سِرْحَان ولم نقف على مَن قرأ بذلك[6].

والجملة من المبتدأ والخبر في موضع النصب على الحالية من «المجرمين»، أو من ضميرهم في «مقرَّنين»، أو من «مقرَّنين» نفسِه على ما قيل رابطُها الضميرُ فقط كما في: كلمتُه فوه إلى فيَّ، أو مستأنفة.

وأيًّا ما كان ففي «سَرابيلهم» تشبيهٌ بليغٌ، وذلك أنَّ المقصودَ أنَّه تُطلَى جلودُ أهلِ النار بالقَطِرَان حتى يعودَ طلاؤه كالسرابيل، وكأنَّ ذلك ليجتمعَ عليهم الألوانُ الأربعةُ من العذاب، لذعُهُ وحرقهُ وإسراعُ النار في جلودهم واللونُ الموحشُ والنَّتنُ، على أنَّ التفاوتَ بين ذلك القَطِرَان وما نشاهدُه كالتفاوت بين النارَين، فكأنَّ ما نشاهدُه منهما أسماءُ مُسمَّياتها في الآخرة، فبكرمِهِ العميم نعوذُ، وبكنفه الواسع نلوذُ.

---

(١) الشربين: شجر كالسرو إلا أنه أشدُّ حمرةً وأزكى رائحةً وأعرض أوراقاً وأصغر ثمراً، ومنه القطران الجيد المعروف بالبرقي، وما استخرج من غيره كالأرز فضعيف، والشربين شجرٌ يدوم وجودُه وتبقى شجرتُه نحو خمسين سنة. تذكرة أولي الألباب ١/ ٢١١.

(٢) تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب ١/ ٢٦١.

(٣) قوله: كان، ليس في الأصل، والمثبت من (م).

(٤) تذكرة أولي الألباب ١/ ١٧٨.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٤٠.

(٦) عزاها الطبري ١٣/ ٧٤٢ إلى عيسى بن عمر.

وجوّز أنْ يكونَ في الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ بأنْ تُشبَّه النفسُ المتلبِّسةُ بالملكاتِ الرديئةِ كالكفر والجهلِ والعنادِ والغباوةِ بشخصٍ لَبِسَ ثياباً من زفتٍ وقَطِرَان، ووَجْهُ الشبه تَحلّي كلٍّ منهما بأمرٍ قبيح مؤذٍ لصاحبه يستكره عند مشاهدتِهِ، ويُستعارُ لفظُ أحدهما للآخر. ولا يخفَى ما في توجيه الاستعارةِ التمثيلية بهذا من المساهلة، وهو ظاهر، على أنَّ القول بهذه الاستعارة هنا أقربُ ما يكون إلى كلام الصوفية.

وقال بعضُهم: يحتمل أنْ يكونَ القطرانُ المذكور عينَ ما لابَسُوهُ في هذه النشأة، وجعلوه شعاراً لهم من العقائد الباطلة والأعمالِ السيئة المستجلِبَةِ لفنون العذاب، قد تجسَّدَت في النشأة الآخرة بتلك الصورةِ المستتبعةِ لاشتداد العذاب، عصمنا الله تعالى من ذلك بلطفه وكرمه. وأنت تعلم أنَّ التشبيهَ البليغَ على هذا على حاله.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه وابنُ عباس وأبو هريرة وعكرمةُ وقتادة وجماعة من: «قَطِرٍ آنٍ»[1] على أنَّهما كلمتان منوَّنتان، أولاهما «قَطِرٍ» بفتح القاف وكسر الطاء، وهي النحاس مطلقاً أو المذاب منه، وثانيتُهما «آنٍ» بوزن: عانٍ، بمعنى شديد الحرارة. قال الحسن: قد سُعِّرَت عليه جهنَّم منذ خُلقَت فتناهى حرُّه.

﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ أي: تعلوها وتحيطُ بها النارُ التي تُسعَّر بأجسادهم المسربلة بالقطران، وتخصيصُ الوجوهِ بالحكم المذكورِ مع عمومه لسائر أعضائهم؛ لكونها أعزَّ الأعضاء الظاهرةِ وأشرفَها كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [الزمر: ٢٤] ولكونها مَجمَعَ الحواسِّ والمشاعرِ التي لم يستعملوها فيما خُلقَت له من إدراك الحقِّ وتدبُّره، وهذا كما تَطَّلِعُ على أفئدتهم، لأنَّها أشرفُ الأعضاء الباطنة ومحلُّ المعرفةِ وقد ملؤوها بالجهالات، أو لخلوِّها كما قيل: عن القطران المغني عن ذكر غِشْيان النار، ووجهُ تَخْليتها عنه بأنَّ ذلك لعلَّه ليتعارفوا عند انكشاف اللَّهَب أحياناً ويتضاعفَ عذابُهم بالخزي على رؤوس الأشهاد.

---

(١) القراءات الشاذة ص٧٠، والمحتسب ١/ ٣٦٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٠.

وقرئ برفع الوجوه ونصب «النارَ»[١] كأنَّه جعَلَ ورودَ الوجوهِ على النار غشْياناً لها مجازاً.

وقرئ: «تَغَشَّى» أي: تَتَغَشَّى بحذف إحدَى التاءَين[٢]، والجملة ـ كما قال أبو البقاء[٣] ـ نصبٌ على الحال كالجملة السابقة.

وفي «الكشف»: وأفاد العلَّامةُ الطيبيّ أنَّ «مقرَّنين»، «سَرابيلُهم من قَطِرَان»، «تَغْشَى»: أحوالٌ من مفعول «وترَى» جيء بها كذلك للترقِّي، ولهذا جيء بالثانية جملةً اسميَّةً؛ لأنَّ سَرابيلَ القَطِرَان الجامعة بين الأنواع الأربعة أفظعُ من الصفد، وأما «تَغْشى» فلتجديد الاستحضار المقصودِ في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى﴾ لأنَّ الثاني أهولُ، والظاهرُ أنَّ الثانِيَيْن مُنقطعان مِن حكمِ الرؤيةِ؛ لأنَّ الأوَّل في بيان حالهم في الموقف إلى أنْ يُكَبَّ بهم في النار، والأخيرَين لبيان حالهم بعد دخولها، وكأنَّ الأوَّل حرَّكَ من السامع أنْ يقول: وإذا كان هذا شأنُهم وهم في الموقف، فكيف بهم وهم في جهنَّمَ خالدون؟! فأجيبَ بقوله سبحانه: «سرابيلهم من قطران»، وأُوثِرَ الفعلُ المضارع في الثانية، لاستحضار الحال وتجدُّد الغِشْيان حالاً فحالاً، وأكثرُ المعربين على عدم الانقطاع.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ متعلِّقٌ بمضمَرٍ، أي: يفعلُ بهم[٤] ذلك ليجزيَ سبحانه ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ أي: مُجرِمةٍ بقرينة المقام ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي جزاءً وفاقاً، وفيه إيذانٌ بأنَّ جزاءَهم مناسبٌ لأعمالهم، وجوِّز على هذا الوجه كونُ النفس أعمَّ من المجرمة والمطيعةِ، لأنَّه إذا خُصَّ المجرمون بالعقاب عُلِمَ اختصاصُ المطيعين بالثواب، مع أنَّ عقاب المجرمين وهم أعداؤهم جزاء لهم أيضاً كما قيل:

مَنْ عاشَ بعدَ عدوِّهِ يوماً فقد بَلَغ المُنَا[٥]

(١) عزاه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨ إلى عبد الله بن مسعود، وهي في البحر ٥/ ٤٤٠.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٤١.
(٣) الإملاء ٣/ ٤١٦.
(٤) قوله: بهم، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٦١.
(٥) حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٠.

ويجوزُ على اعتبار العموم تعلُّق اللام بـ «بَرَزُوا» على تقدير كونه معطوفاً على «تُبدَّلُ» والضميرُ للخلق، ويكونُ ما بينهما اعتراضاً، فلا اعتراض، أي: برزوا للحساب ليجزيَ الله تعالى كلَّ نفسٍ مطيعةٍ أو عاصيةٍ ما كسَبت من خيرٍ أو شرٍّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾ لأنَّه لا يشغلُه سبحانه فيه تأمُّلٌ وتتبُّعٌ، ولا يمنعُهُ حسابٌ عن حسابٍ، حتى يَستريحَ بعضُهم عند الاشتغال بمحاسبةِ الآخرين، فيتأخَّر عنهم العذابُ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ المرادَ سريعُ الانتقام، وذكر المرتضَى في «دُرَرِه»[1] وجوهاً أُخَر في ذلك.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾ أي: ما ذُكِرَ من قوله سبحانه: (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا) إلى هنا، وجوّز أنْ يكونَ الإشارةُ إلى القرآن، وهو المرويُّ عن ابن زيد، أو إلى السورة، والتذكيرُ باعتبار الخبر وهو «بلاغٌ»، والكلامُ على الأوَّل أبلغُ، فكأنَّه قيل: هذا المذكورُ آنفاً كفاية في العِظةِ والتذكير من غير حاجةٍ إلى ما انطوَى عليه السورةُ الكريمةُ أو كلُّ القرآن المجيدِ من فنون العظاتِ والقوارع، وأصلُ البلاغ مصدرٌ بمعنى التبليغ، وبهذا فسَّره الراغبُ[2] في الآية، وذكر مجيئَه بمعنى الكفاية في آيةٍ أخرَى.

﴿لِّلنَّاسِ﴾ للكفَّار خاصَّةً على تقدير اختصاص الإنذار بهم في قوله سبحانه: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أو لهم وللمؤمنين كافَّةً على تقدير شمولهم أيضاً، وإنْ كان ما شُرِحَ مختصًّا بالظالمين على ما قيل.

﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ عطفٌ على محذوفٍ، أي: ليُنْصَحوا، أو لينذروا به، أو نحو ذلك، فتكونُ اللامُ متعلِّقةً بالبلاغ، ويجوزُ أنْ تتعلَّقَ بمحذوفٍ، وتقديره: ولينذروا[3] به أُنزِلَ أو تُلِيَ، وقال الماوردي: الواو زائدةٌ، وعن المبرِّد: هو عطفُ مفردٍ على مفردٍ، أي: هذا بلاغٌ وإنذارٌ[4]، ولعلَّه تفسيرُ معنًى لا إعراب.

---

(١) غرر الفوائد ودرر القلائد المشهور بأمالي المرتضى ١/ ٣٨٩ ـ ٣٩١.

(٢) مفردات الراغب (بلغ).

(٣) في الأصل: لينذروا، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٦٢.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٤١.

وقال ابنُ عطية: أي: هذا بلاغٌ للناس وهو لينذروا به[١]، فجعَلَ ذلك خبراً لـ «هو» محذوفاً.

وقيل اللام لام الأمر، قال بعضُهم: وهو حَسَنٌ، لولا قوله سبحانه: (وَلِيَذَّكَّرَ) فإنَّه منصوبٌ لا غير، وارتَضَى ذلك أبو حيان وقال: إنَّ ما ذُكِرَ لا يخدشه، إذ لا يتعيَّنُ عطفُ «ليذكرَ» على الأمر، بل يجوزُ أنْ يُضمَرَ له فعلٌ يتعلَّق به[٢]. ولا يخفَى أنَّه تكلُّفٌ.

وقرأ يحيى بنُ عمارة الذراع عن أبيه، وأحمدُ بنُ يزيد السُّلمي: «ولِيَنذَروا» بفتح الياء والذال[٣] مضارع نَذِرَ بالشيء: إذا عَلِمَ به فاستعدَّ له، قالوا: ولم يُعرَف لـ : نَذِرَ بمعنى عَلِمَ مصدرٌ، فهو كـ : عسى وغيرها من الأفعال التي لا مصادِرَ لها، وقيل: إنَّهم استغنَوا بـ «أنْ» والفعل عن صريح المصدر.

وفي «القاموس»: نَذِرَ بالشيء كفَرِحَ: عَلِمَه فحَذِرَه، وأَنذَرَه بالأمر إنذاراً ونُذْراً ونَذِيراً: أَعلَمَهُ وحَذَّرَه[٤].

وقرأ مجاهد وحميد بتاءٍ مضمومةٍ وكسر الذال[٥].

﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟﴾ بالنظر والتأمُّل بما فيه من الدلائل الواضحةِ التي هي إهلاكُ الأمم وإسكانُ آخرينَ مساكنهم وغيرُهما مما تضمَّنه ما أشار إليه ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريكَ له أصلاً، وتقديمُ الإنذار، لأنَّه داعٍ إلى التأمُّل المستتبِعِ للعلم المذكور.

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: ليتذكَّروا شؤونَ الله تعالى ومعاملتَه مع عباده ونحوَ ذلك، فيرتدعوا عمَّا يُردِيهم من الصفات التي يتَّصف بها الكفارُ، ويتَدَرَّعوا بما يُحظيهم لديه عزَّ وجلَّ من العقائد الحقَّة والأعمال الصالحة. وفي تخصيص التذكُّر بأولي الألباب إعلاءٌ لشأنهم.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٤١.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٤١.
(٣) القراءات الشاذة ص٧٠، والمحتسب ١/ ٣٦٧، والبحر المحيط ٥/ ٤٤١.
(٤) القاموس المحيط (نذر).
(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٤١.

وفي «إرشاد العقل السليم»: إنَّ في ذلك تلويحاً لاختصاص العلم بالكفار ودلالةً على أنَّ المشارَ إليه بهذا القوارعُ المسوقةُ لشأنهم لا كلُّ السورة المشتملةِ عليها وعلى ما سيق للمؤمنين أيضاً، فإنَّ فيه ما يُفيدُهم فائدةً جديدة، وللبحث فيه مجال، وفيه أيضاً أنَّه حيث كان ما يفيدُه البلاغ من التوحيد وما يترتَّبُ عليه من الأحكام بالنسبة إلى الكفرة أمراً حادثاً، وبالنسبة إلى أولي الألباب الثبات على ذلك، عبَّر عن الأوَّل بالعلم، وعن الثاني بالتذكُّر، ورُوعي ترتيبُ الوجود مع ما فيه من الخَتْم بالحسنَى[١].

وذكر القاضي - بيَّض الله تعالى غرَّةَ أحواله - أنَّه سبحانه ذكر لهذا البلاغِ ثلاثَ فوائدَ هي الغايةُ والحكمةُ في إنزالِ الكتبِ: تكميلُ الرسل عليهم السلام للناسِ المشار إليه بالإنذار، واستكمالُهم القوَّةَ النظريَّة التي منتهى كمالها ما يتعلَّق بمعرفةِ الله تعالى المشار إليه بالعلم، واستصلاحُ القوَّةِ العمليَّةِ التي هي التدرّعُ بلباسِ التقوى المشار إليه بالتذكُّر[٢].

والظاهرُ أنَّ المرادَ بـ «أُولي الألباب» أصحابُ العقولِ الخالصة من شوائبِ الوهْمِ مُطلقاً، ولا يقدحُ في ذلك ما قيل: إنَّ الآيةَ نزلَت في أبي بكر رضي الله عنه.

وقد ناسَبَ مُختَتَمُ هذه السورةِ مُفْتَتَحَها، وكثيراً ما جاء ذلك في سُوَر القرآن حتى زَعَم بعضُهم أنَّ قوله تعالى: ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ معطوفٌ على قوله سبحانه: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ وهو من البعد بمكان.

نسألُه سبحانه عزَّ وجل أنْ يمنَّ علينا بشآبيب العفو والغفران.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة في الآيات ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ قال ابنُ عطاء: أرادَ عليه السلام أنْ يجعلَ سبحانَه قلبَه آمناً مِن الفراق والحجابِ، وقيل: اجعلْ بلَدَ قلبي ذا أمنٍ بكَ عنكَ ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ من المرغوبات الدنيَّةِ والمشتهيات الحسِّيَّة.

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٦٢.
(٢) تفسير البيضاوي ومعه حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٠.

وقال جعفر رضي الله عنه: أرادَ عليه السلام: لا تردَّني إلى مشاهدةِ الخلَّة، ولا تردَّ أولادي إلى مشاهدةِ النبوَّة، وعنه أنَّه قال: أصنامُ الخلَّة خطراتُ الغفلة ولحظاتُ المحبة، وفي رواية أخرى أنَّه عليه السلام كان آمناً من عبادة الأصنام في كِبَرِه وقد كَسَرَها في صِغَرِه، لكنَّه عَلِمَ أنَّ هوى كلِّ إنسانٍ صنمُه، فاستعاذ من ذلك.

وقال الجنيد قدِّسَ سِرُّه: أي: امنَعْني وبنيَّ أنْ نَرَى لأنفسنا وسيلةً إليكَ[1] غيرَ الافتقار. وقيل: كلُّ ما وقف العارفُ عليه غير الحقِّ سبحانه فهو صَنَمُه، وجاء: النفس هو الصنم الأكبر.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ بالتعلُّق بها والانجذابِ إليها والاحتجابِ بها عنك سبحانك ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ في طريق المجاهدةِ والخلَّة ببذل الروح بين يديك ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ طينتُه من طينتي، وقَلبُه من قلبي، ورُوحُه من روحي، وسرُّه من سرِّي، ومَشْرَبُه في[2] الخلَّة مِن مَشرَبي، ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ وفعل ما يقتضي الحجابَ عنك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلا أدعو عليه، وأفوِّضُ أمرَه إليك. قيل: إنَّ هذا منه عليه السلام دعاءٌ للعاصي بستر ظُلمتِهِ بنورِه تعالى ورحمتِه جلَّ شأنه إياه بإفاضةِ الكمال عليه بعد المغفرة. ومن كلام نبيِّنا ﷺ: «اللَّهمَّ اهدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون»[3].

وفي «أسرار التأويل»: أنَّه عليه السلام أشارَ بقوله[4]: ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ إلى مقام الجمْعِ، ولذا لم يَقُل: ومَن عصاك، ويجوزُ أنْ يقال: إنَّما أضافَ عصيانهم إلى نفسه؛ لأنَّ عصيانَ الخلقِ للخالق غيرُ ممكنٍ، وما من دابةٍ إلا وربِّي[5]

---

(١) في الأصل: إليك وسيلة، والمثبت من (م).
(٢) قوله: في، ليس في الأصل. والمثبت من (م).
(٣) أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان ٢/ ١٦١، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٦٢/ ٢٤٧، من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً، والديلمي في مسند الفردوس (٥٣٢٦) عن أبي هريرة عن سيدنا نوح عليه السلام، وأحمد في الزهد ص٦٦ عن عبيد بن عمير عن نوح عليه السلام، وقال السهيلي في الروض الأنف ٢/ ١٧٠: وقد ذكرها ابن إسحاق رواها عنه بعض رواة الكتاب.
وأخرجه أحمد (٣٦١١)، والبخاري (٣٤٧٧) من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً بلفظ: «اللهم اغفر لقومي...».
(٤) ليس في الأصل.
(٥) في الأصل: ربي، والمثبت من (م).

آخذٌ بناصيتها، فَهُمْ في كلِّ أحوالهم مجيبونَ لداعي ألسنةِ مشيئتِهِ سبحانه وإرادته القديمة.

وسئل عبدُ العزيز المكي: لِمَ لَمْ يقُل الخليلُ: ومن[١] عصاك؟ فقال: لأنَّه عظَّمَ ربَّه عزَّ وجل وأجلَّه مِن أنْ يثبِتَ أنَّ أحداً يَجترئ على معصيته سبحانه، وكذا أجلَّه سبحانه مِن أنْ يبلُغَ أحدٌ مبلغَ ما يليقُ بشأنه عزَّ شأنه من طاعته حيث قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ قيل: إنَّ من عادة الله تعالى أنْ يَبْتليَ خليلَه بالعظائم ليَنزِعَه عن نَفسه وعن جميع الخليقةِ؛ لئلا يَبقَى بينه وبينه حجابٌ من الحَدَثان، فلذا أَمَر جلَّ شأنُه هذا الخليلَ أنْ يُسكنَ من ذرِّيته في وادي الحرم بلا ماءٍ ولا زادٍ لينقطعَ إليه ولا يعتمدَ إلا عليه عزَّ وجلَّ، وناداه باسم الربِّ؛ طمعاً في تربية عياله وأهلِهِ بألطافه وإيوائهم إلى جوار كرامته.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي يصلُ العبدُ بها إليك ويكونُ مرآة تجلِّيكَ ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ تميل بوصف الإرادة والمحبةِ ليسلِّكوهم إليك ويدلُّوهم عليك، قال[٢] ابنُ عطاء: من انقطع عن الخلق بالكليَّة، صرفَ الله تعالى إليه وجوهَ الخلقِ وجعَلَ مودَّته في صدورهم ومحبَّتَه في قلوبهم، وذلك مِن دعاء الخليلِ عليه السلام، لمَّا قطَعَ أهلَه عن الخلق والأسباب قال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قيل: أي: ثمراتِ طاعتك، وهي المقامات الرفيعة والدرجات الشريفة.

وقال الواسطي: ثمرات القلب[٣]، وهي أنواعُ الحكمةِ، ورئيسُ الحكمة رؤيةُ المنَّةِ والعجزُ عن الشكر على النعمة، وهو الشكرُ الحقيقيُّ ولذلك قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ أي: يعلمون أنَّه لا يتهيَّأ لأحد أنْ يقومَ بشكرك، وثمرةُ الحكمة تُزيلُ الأمراضَ عن القلوب كما أنَّ ثمرةَ الأشجار تُزيلُ أمراضَ النفوس. وقيل: أي: ارزُقهم الأولاد الأنبياء والصلحاء، وفيه إشارةٌ إلى دعوته بسيِّد المرسلين ﷺ المعنيُّ

(١) قوله: ومن، ليس في الأصل، والمثبت من (م).
(٢) في الأصل: وقال، والمثبت من (م).
(٣) في (م): القلوب.

له بقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ [البقرة:١٢٩] وأيُّ الثمراتِ أشهَى من أصفَى الأصفياء وأتقَى الأتقياء وأفضلِ أهل الأرضِ والسماءِ وحبيبِ ذي العظمةِ والكبرياءِ، فهو عليه الصلاة والسلام ثمرةُ الشجرة الإبراهيميَّة، وزهرةُ رياضِ الدعوةِ الخليليَّة، بل هو ﷺ ثمرةُ شجرةِ الوجود، ونورُ حديقة الكرم والجود، ونورُ حَدَقةِ[1] كلِّ موجودٍ ﷺ إلى اليوم المشهود.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ قال الخوَّاص: ما نُخفي من حُبِّك وما نُعلنُ من شكرك. وقال ابنُ عطاء: ما نُخفي من الأحوال وما نُعلنُ من الآداب. وقيل: ما نُخفي من التضرُّع في عبوديتك وما نُعلنُ من ظاهر طاعتك في شريعتك. وأيضاً: ما نُخفي من أسرار معرفتك وما نُعلنُ من وظائف عبادتك. وأيضاً ما نخفي من حقائق الشوقِ إليك في قلوبنا وما نُعلنُ في غلبة مواجيدنا بإجراء العبَرات وتصعيدِ الزفرات:

وارحمتا للعاشقين تكلَّفُوا ... سَتْرَ المحبةِ والهوَى فضَّاحُ
بالسرِّ إنْ باحوا تُباحُ دماؤهم ... وكذا دماءُ البائحين تُباحُ
وإنْ هُمُ كَتَمُوا تحدَّثَ عنهمُ ... عند الوشاةِ المدمعُ السحَّاحُ[2]

وقال السَّيِّد علي البندنيجي قدِّس سرُّه:

كَتمتُ هَوَى حُبِّيهِ خوفَ إذاعةٍ ... فلِلَّه كم صبٍّ أَضرَّ بهِ الذَّيعُ
ولكنْ بَدَت آثارُه مِن تأوُّهي ... إذا فاحَ مسكٌ كيف يَخفَى له ضَوعُ[3]

﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فيعلم ما خَفِيَ وما علن.

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ قيل: الظالم من تجاوزَ طورَه وتَبختَرَ على بساط الأنانية زاعماً أنَّه قد تضلَّع مِن ماء زمزمِ المحبةِ، واستغرقَ في لُجيٍّ بحر الفناء، وتوعَّدَه الله تعالى بتأخير فضيحتِهِ إلى يومٍ تشخَصُ فيه أبصارُ سُكارَى المعرفةِ والتوحيد، وهو يومُ

(١) في الأصل: حديقة، والمثبت من (م).
(٢) الأبيات لشهاب الدين السهروردي القتيل كما في معجم الأدباء ١٩/٣١٧.
(٣) لم نقف عليهما.

الكشف الأكبر حين تبدو أنوارُ سَطواتِ العزَّةِ، فيستغرقون في عظمته، بحيث لا يقدرُون على الالتفات إلى غيره، فهناك يتبيَّن الصادقُ من الكاذب:

إذا اشتبكَتْ دموعٌ في خدودٍ تَبيَّنَ مَن بَكَى مِمَّن تَباكَى[1]

وقوله سبحانه: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ شرحٌ لأحوال أصحابِ الأبصار الشاخصة، وهم سكارَى المحبَّةِ على الحقيقة، قال ابنُ عطاء في «وأفئدتُهم هواء»: هذه صفةُ قلوبِ أهلِ الحقِّ متعلِّقةٌ بالله تعالى لا تقَرُّ إلا معه سبحانه ولا تَسكُن إلا إليه، وليس فيها محلٌّ لغيره.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ طلبوا تدارُكَ ما فات، وذلك بتهذيب الباطنِ والظاهرِ والانتظامِ في سلوك الصادقين وهيهات ثمَّ هيهات، ثم أُجيبُوا بما يَقصِمُ الظهرَ ويَفصِمُ عُرَى الصبر وهو قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ الآية.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ وذلك عند انكشافِ أنوارِ حقيقة الوجودِ، فيظهر هلاكُ كلِّ شيءٍ إلا وجهه.

وقيل: الإشارةُ في الآية إلى تَبدُّل أرضِ قلوبِ العارفين من صفات البشريَّة إلى الصفات الروحانيَّة المقدَّسةِ بنور شهودِ جمالِ الحقِّ، وتبدُّلِ سماواتِ الأرواح من عَجْزِ صفاتِ الحدوث وضَعْفها عن أنوار العظمة بإفاضة الصفات الحقَّة.

وقيل: تبدّل أرض الطبيعة بأرض النفسِ عند الوصول إلى مقام القلبِ، وسماء القلب بسماء السرِّ، وكذا تبدّل أرض النفس بأرض القلبِ، وسماء السرِّ بسماء الروح، وكذا كلُّ مقامٍ يَعبُرُه السالك يتبدَّلُ ما فوقَه وما تحتَه كتبدُّل سماء التوكل في توحيد الأفعال بسماء الرضا في توحيد الصفات، ثم سماءُ الرضا بسماء التوحيد عند كشف الذات.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ بسلاسل الشهواتِ ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ وهو قَطِرانُ أعمالهم النتنة ﴿وَتَغْشَىٰ﴾ وتستر ﴿وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ في جهنَّم الحرمان وسعيرِ الإذلال والاحتجاب عن ربِّ الأرباب.

---

(١) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٣/ ١٣٢.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهم علماء الحقيقةِ وأساطينُ المعرفةِ وعشَّاقُ الحضرة وأمناءُ خزائنِ المملكةِ، جعلنا الله تعالى وإياكم ممن ذُكِّرَ فتذكَّر، وتحقَّق في مقرِّ التوحيد وتقرَّر بمنِّه سبحانه وكرمه.

(سورة إبراهيم) عليه السلام

(مكِّيَّة: اثنتان وخمسون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾

﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ هو خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتاب يعني السورة، والجملة التي هي ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ في موضع الرفع صفة للنكرة ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ بدعائك إياهم ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من الضلالة إلى الهدى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتيسيره وتسهيله (مُستعار من الإذن الذي هو تسهيل الحجاب) وذلك ما يمنحهم من التوفيق ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ بدل من ﴿ٱلنُّورِ﴾ بتكرير العامل ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب بالانتقام ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المحمود على الإنعام.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله: (سورة إبراهيم عليه السلام مكّية اثنتان وخمسون آية) وعدد كلماتها ثمانمائة وإحدى وثلاثون كلمة، وعدد حروفها ثلاثة آلاف وأربعمائة وثلاثون حرفًا. اهـ خطيب. **قوله:** (مستعار من الإذن الذي هو تسهيل[1] الحجاب) أي

(١) المراد به الرفع المانع. ١٢ منه.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾

﴿ٱللَّهِ﴾ **(بالرفع مدني وشامي على هو «الله»)** وبالجر غيرهما **على** أنه **(عطف بيان لـ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾)** ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا وملكًا. ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعَّد الكافرين بالويل وهو نقيض الوأل وهو النجاة وهو اسم معنى كالهلاك فقال: (﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ **وهو مبتدأ وخبر، وصفة)**.

مجاز مرسل على طريق إطلاق الملزوم وإرادة اللازم، فإنّ لفظ الإذن حقيقة في الإطلاق ورفع الحجاب ويلزمه التسهيل والتيسير، فإنّ الدخول في حقّ الغير وملكه متعذّر، فإذا صُودف الإذن يكون تسهيلًا وتيسيرًا، فلمّا كان التسهيل من لوازم الإذن صحّ استعمال لفظ الإذن فيه مجازًا، فالمراد بقوله: مستعار الاستعارة اللغوية لا ما هو مصطلح أهل البيان. وقوله: ﴿لِتُخْرِجَ﴾ متعلق بـ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾. وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ يجوز أن يتعلّق بالإخراج، أي لتخرجهم بتسهيله وتيسيره، وأن يتعلّق بمحذوف على أنه حال من ضمير الفاعل، أي مأذونًا لك أو من الناس، أي مأذونًا لهم شبّه الكفر بالظلمات لأنها نهاية ما يتحيّر الرجل فيه ولا يهتدي به إلى الحقّ والصواب، وشبّه الإيمان بالنور لأنه نهاية ما يتجلّى به الحقّ المطلوب، وجمع الظلمات لتعدّد طرق الكفر وأنواعه. اهـ شيخ زاده رحمه الله.

قوله: (بالرفع مدني) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني وليس من السبعة، **(وشامي)** أي ابن عامر الشامي **(على هو الله)** أي على أنه خبر مُضمر، أي هو الله أو مبتدأ خبره الموصول. **قوله: (عطف بيان لـ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾)** لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لغلبته على المعبود بحقّ. **قوله: (﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهو مبتدأ وخبر وصفة)** أي ﴿وَوَيْلٌ﴾ مبتدأ، و﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ خبره، ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في موضع رفع صفة لويل بعد الخبر، وهو جائز، ولا يجوز أن يتعلق بويل من أجل الفصل بينهما بالخبر. اهـ تبيان في إعراب القرآن للإمام محبّ الدين أبي البقاء عبد الله بن الحسين العُكبَري.

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ﴾ يختارون ويؤثرون ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دينه ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ يطلبون لسبيل الله زيغًا واعوجاجًا، والأصل ويبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ خبره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ عن الحق. ووصف الضلال بالبُعْد من الإسناد المجازي والبُعد في الحقيقة للضالّ لأنه هو الذي يتباعد عن طريق الحق فوصف به فِعْله كما تقول جَدَّ جدّه، أو مجرور صفة للكافرين، أو منصوب على الذمّ، أو مرفوع على أعني الذين، أو هم الذين.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ إلا متكلّمًا بلغتهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ ما هو مبعوث به وله فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولون له: لِمَ نفهم ما خُوطِبنا به. فإن قلت: إن رسولنا ﷺ بعث إلى الناس جميعًا بقوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: الآية ١٥٨] بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة. قلت: لا يخلو ما إن ينزل بجميع الألسنة أو بواد منها فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة، لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل فتعيَّن أن ينزل لسان واحد، وكان لسان قومه أولى بالتعيين لأنهم أقرب إليه ولأنه أبعد من التحريف والتبديل ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ مَن آثر سبب الضلالة ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ مَن آثر سبب الاهتداء ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فلا يُغالَب على مشيئته ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ فلا يخذل إلا أهل الخذلان. ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التسع ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ﴾ (بأن أخرج أو أي أخرج) لأن الإرسال فيه

قوله: (بأن أخرج أو أي أخرج) أشار إلى أنّ ﴿أَنۡ﴾ في ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ﴾ [إبراهيم: الآية ٥] يجوز أن تكون مصدرية، وأن تكون مفسّرة لوقوعها بعد فعل في

معنى القول كأنه قيل: أرسلناه وقلنا له: أخرج قومك ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود، ومنه أيام العرب لحروبها (وملاحمها) أو بأيام الإنعام حيث ظلّل عليهم الغَمام وأنزل عليهم المَنَّ والسلوى وفلق لهم البحر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على البلايا ﴿شَكُورٍ﴾ على العطايا كأنه قال لكل مؤمن إذ الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ «إذ» ظرف للنعمة بمعنى الإنعام أي إنعامه عليكم ذلك الوقت، أو بدل اشتمال من نعمة الله أي اذكروا وقت إنجائكم ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ ذكر في البقرة ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [الآية ٤٩]، وفي الأعراف ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ [الآية ٤١] بلا واو، وهنا مع الواو. والحاصل أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيرًا للعذاب وبيانًا له، وحيث أثبت الواو جعل التذبيح من حيث إنه زاد على جنس العذاب كأنه جنس آخر ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ الإشارة إلى العذاب (والبلاء المحنة) أو إلى الإنجاء والبلاء والنعمة. ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: الآية ٣٥].

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي آذن ونظير «تأذن» و«آذن» توعد وأوعد. ولا بدَّ في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل كأنه قيل: وإذ آذن ربكم إيذانًا بليغًا تنتفي عنده

معنى القول. **قوله**: (وملاحمها) الملاحِم جمع مَلْحَمة، والمَلْحَمة هي الحرب وموضع القتال. اهـ لسان العرب. وأيضًا فيه: المَلْحمة الحرب ذات القتل الشديد، والملحمة الوقعة العظيمة في الفتنة. اهـ.

قوله: (والبلاء المحنة)... الخ. لأن البلاء يكون ابتلاء بالنّعمة والمحنة جميعًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: الآية ٣٥].

الشكوك والشبه وهو من جملة ما قال موسى لقومه، وانتصابه للعطف على ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم والمعنى وإذ تأذن ربكم فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ما (خوّلتكم) من نعمة الإنجاء وغيرها ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمة إلى نعمة فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود. وقيل: إذا سمعت النعمة نغمة الشكر تأهَّبت للمزيد. وقال (ابن عباس) رضي الله عنهما: لئن شكرتم بالجدّ في الطاعة لأزيدنكم بالجدّ في المَثوبة ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ما أنعَمْتُ به عليكم ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ لمَن كفر نعمتي، أما في الدنيا فسلب النِّعَم، وأما في العقبى فتوالي النِّقَم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ والناس كلهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ﴾ عن شكركم ﴿حَمِيدٌ﴾ وإن لم يحمدهُ الحامدون وأنتم ضررتم أنفسكم حيث حرمتموها الخير الذي لا بدَّ لكم منه ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ من كلام موسى لقومه أو ابتداء خطاب لأهل عصر محمد عليه السلام ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضًا، أو عطف ﴿ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ و﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ اعتراض، والمعنى أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبًا لا يعرفون. ورُوِيَ أنه عليه السلام قال عند نزول هذه الآية:

قوله: (خولتكم) أعطيتكم. **قوله**: (ابن عباس) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن عمّ رسول الله ﷺ، وُلِد قبل الهجرة بثلاث سنين، ودعا له رسول الله ﷺ بالفهم في القرآن، فكان يُسمى البحر والحبر لسِعَة علمه، مات سنة ثمانٍ وستّين بالطائف، وهو أحد المُكثرين من الصحابة وأحد العبادلة من فقهاء الصحابة.

(كذب النسّابون) ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ الضميران يعودان إلى الكفَرَة أي أخذوا أناملهم بأسنانهم تعجّبًا أو عضّوا عليها تغيّظًا، أو الثاني يعود إلى الأنبياء أي ردَّ القوم أيديهم في أفواه الرُّسل كيلا يتكلموا بما أُرسِلوا به ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ﴾ من الإيمان بالله والتوحيد ﴿مُرِيبٖ﴾ موقع في الريبة.

﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝١٠﴾

﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ أُدخِلَت همزة الإنكار على الظرف لأن الكلام ليس في الشك إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وهو جواب قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ﴾، ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ﴾ إلى الإيمان (﴿لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ **إذا آمنتم**) ولم تجيء مع «من» إلا في خطاب الكافرين كقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ [نوح: الآيتان ٣، ٤]، ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ [الأحقاف: الآية ٣١]، وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ﴾ إلى أن قال: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [الصَّف: الآيات ١٠ ـ ١٢] وغير ذلك مما يُعرَف بالاستقراء، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوِّي بين الفريقين في الميعاد ﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ إلى وقت وقد سمّاه وبيَّن مقداره.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي القوم ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ لا فضل بيننا وبينكم ولا فضل لكم علينا فلِمَ تُخَصّون بالنبوّة دوننا ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ

قوله: (**كذب النسّابون**) لأنهم يدَّعون علم الأنساب، وقد نفى الله علمها عن العباد.

قوله: (﴿لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ **إذا آمنتم**) في الأشباه: أن الحربي يُغفَر له كل ذنب، والذمّي يغفر له ما عدا المظالم. اهـ.

ءَابَآؤُنَا﴾ يعني الأصنام ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة بيّنة وقد جاءتهم رسلهم بالبينات، وإنما أرادوا بالسلطان المُبين آية قد اقترحوها **(تعنتًا ولجاجًا)**.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تسليم لقولهم إنهم بشر مثلهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بالإيمان والنبوّة كما مَنَّ علينا ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ جواب لقولهم: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ والمعنى أن الإتيان بالآية التي قد اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا وإنما هو أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أمر منهم للمؤمنين كافّة بالتوكّل وقصدوا به أنفسهم قصدًا أوليًا كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكَّل على الله في الصبر على معاندتكم ومُعاداتكم وإيذائكم، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ معناه وأيّ عذر لنا في أن لا نتوكل عليه ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ وقد فعل بنا ما يُوجِب توكّلنا عليه وهو التوفيق لهداية كلٌ منّا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين. قال **(أبو تراب)**: التوكّل طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والشكر عند العطاء، والصبر عند البلاء ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ جواب قسم مضمر أي حلفوا على الصبر على أذاهم وأن لا يُمسِكوا عن دعائهم

قوله: **(تعنتًا)** في لسان العرب: تعنّته تعنّتًا سأله عن شيء أراد به اللَّبْس عليه والمشقّة. **قوله**: **(لجاجًا)** في مختار الصّحاح: لَجِجْتُ ـ بالكسر ـ لَجاجًا ولَجاجَة ـ بفتح اللام فيهما ـ فأنت لَجُوج ولَجُوجة والهاء للمبالغة، ولجَجْتَ ـ بالفتح ـ تَلِجُّ ـ بالكسر ـ لغة، والمُلَاجّة التمادي في الخصومة. اهـ.

قوله: **(أبو تراب)** عسكر بن حصين النخشبي صحب حاتم الأصمّ وأبا حاتم العطّار المصري، مات سنة خمس وأربعين ومائتين، قيل: مات بالبادية نهسته السِّباع رحمة الله عليه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي فليثبت المتوكّلون على توكّلهم حتى لا يكون تكرارًا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ﴾، (﴿سُبُلَنَا﴾، ﴿لِرُسُلِهِمْ﴾ **أبو عمرو**) ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ من ديارنا ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أي ليكونن أحد الأمرين إخراجكم أو عودكم وحلفوا على ذلك، (**والعود بمعنى الصيرورة**) وهو كثير في كلام العرب، أو خاطبوا به كل رسول ومَن آمن معه (**فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد**) ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (**القول مضمر**) أو أجرى الإيحاء مجرى القول (**لأنه ضرب منه**). ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي أرض الظالمين وديارهم. في الحديث «من آذى جاره ورثه الله داره» ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك والإسكان أي ذلك الأمر حق ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ موقفي وهو موقف الحساب، (**أو المقام**) مُقحَم، أو خاف قيامي عليه بالعلم كقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: الآية ٣٣]، والمعنى أن ذلك حقٌّ للمتقين ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾، ﴿عَذَابِى﴾ (**وبالياء: يعقوب**).

قوله: (﴿سُبُلَنَا﴾ و﴿رُسُلُهُم﴾ **أبو عمرو**) أي أسكن باء ﴿سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: الآية ١٢] وسين ﴿رُسُلُهُم﴾ [إبراهيم: الآية ٩] أبو عمرو، والباقون بالرفع. **قوله**: (**والعود بمعنى الصَّيْرورة**) أي والعود هٰهنا خارج عن أصل معناه الذي وضع هو له وهو الرجوع إلى ما كان عليه أولاً، فهذا جواب عمّا عسى يُسْأَل، ويقال: إن لفظ العود يُشعر بأنهم كانوا على ملّتهم وليس كذلك، فما معنى العود؟ فأُجيب بأن ليس المراد بالعَوْد حقيقة معناه، بل المراد به الصيرورة مجازًا. **قوله**: (**فغلبوا في الخطاب الجماعة**) وهم الذين آمنوا معه (**على الواحد**) أي الرسول؛ إذ كل قوم خاطبوا نبيّهم الذي بُعِث إليهم وهو الواحد. **قوله**: (**القول مُضمر**) أي فعل الإيحاء لا يلائم ليهلكن. اهـ شهاب. **قوله**: (**أو المقام**) أي لفظ المقام مُقحم، أي مزيد. **قوله**: (**لأنه ضربٌ منه**) أي لأن الإيحاء نوعٌ من القول، ولمّا كان الإيحاء نوعًا منه، فأية حاجة إلى اعتبار إضمار القول. **قوله**: (**وبالياء**) في الحالين (**يعقوب**) وليس من السبعة.

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ١٦﴾

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ واستنصروا الله على أعدائهم وهو معطوف على ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾، ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ﴾ وخسر كل متكبّر بطر ﴿عَنِيدٍ﴾ مُجانِب للحق. معناه فنصروا وظفروا وأفلحوا وخاب كل جبّار عنيد وهم قومهم. وقيل: الضمير للكفّار ومعناه واستفتح الكفّار على الرُّسُل ظنًّا منهم بأنهم على الحق والرُّسُل على الباطل، وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه (﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ **من بين يديه**) ﴿جَهَنَّمُ﴾ وهذا وصف حاله وهو في الدنيا لأنه مرصد لجهنم فكأنها بين يديه وهو على شفيرها، أو وصف حاله في الآخرة حيث يبعث ويوقف ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ معطوف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يَلقى فيها ما يَلقى ويُسقى ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ ما يسيل من جلود أهل النار، و﴿صَدِيدٍ﴾ عطف بيان لماء لأنه مبهم فبيِّن بقوله: ﴿صَدِيدٍ﴾.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ١٧﴾

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يشربه جرعة جرعة ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة كقوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: الآية ٤٠] أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي أسباب الموت من كل جهة أو من كل مكان من جسده، وهذا تفظيع لما يصيبه من الآلام أي لو كان ثمة موت لكان كل واحد منها مهلكًا ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ لأنه لو مات لاستراح ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ ومن بين يديه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي في كل وقت يستقبله يتلقى عذابًا أشد مما قبله وأغلظ. وعن (**الفضيل: هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد**).

قوله: (﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ **من بين يديه**) قال أبو عبيدة: هو من الأضداد، يعني أنه يقال: وراء بمعنى خلف، وبمعنى أمام.

قوله: (**الفضيل**) بن عياض مات بمكّة في المحرم سنة سبع وثمانين ومائة رحمة الله عليه. **قوله**: (**هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد**) أي لا يمكنه أن يتنفّس لاستيلاء اللّهب والدخان عليه.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ محذوف الخبر أي فيما يتلى عليكم مثل الذين ﴿كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾، **(الرياحُ مدني)** ﴿فِي (يَوْمٍ عَاصِفٍ)﴾ جعل العصف لليوم وهو لما فيه وهو الريح كقولك: «يوم ماطر»، وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم من صلة الأرحام وعتق الرِّقاب وفداء الأسرى وعَقْر الإبل للأضياف وغير ذلك، شبَّهها في حبوطها لبنائها على غير **(أساس)** وهو الإيمان بالله تعالى ـ برماد طيَّرته الريح العاصف ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ من أعمالهم ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي لا يرون له أثرًا من ثواب كما لا يقدر من الرماد المُطيَّر في الريح على شيء ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ إشارة إلى بُعْد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم الخطاب لكل أحد ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (﴿خَٰلِقُ﴾ **مضافًا: حمزة وعلي**) ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة والأمر العظيم ولم يخلقها عبثًا ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق

قوله: (الرياحُ) بالجمع (مدني) أي نافع المدني وكذا أبو جعفر المدني وليس من السبعة، والباقون بالإفراد. **قوله**: (﴿يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾) العصف اشتداد الريح وصف به زمانه للمبالغة؛ كقولهم: نهاره صائم وليله قائم. اهـ. بيضاوي. **قوله: (أساس)** بالفتح أصل البناء.

قوله: (﴿خَٰلِقُ﴾ **مضافًا**) بألف بعد الخاء وكسر اللام ورفع القاف اسم فاعل وخفض ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على الإضافة ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ على العطف عليه، **(حمزة وعلي)** الكسائي، والباقون بفتح الخاء واللام بلا ألف وفتح القاف فعلًا ماضيًا ونصب السمٰوات بالكسرة، والأرضَ على المفعولية.

مكانهم خلقًا آخر على شكلهم، أو على خلاف شكلهم إعلامًا بأنه قادر على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ بمتعذّر.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ويبرزون يوم القيامة. وإنما جيء به بلفظ الماضي لأن ما أخبر به عزّ وجلّ لصدقه كأنه قد كان ووجد. ونحوه ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: الآية ٤٤]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: الآية ٥٠]، وغير ذلك، ومعنى بروزهم لله والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خافٍ على الله، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا عند أنفسهم وعلموا أن الله لا تخفى عليه خافية، أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ في الرأي وهم السَّفَلَة والأتباع. وكتب الضعفاء بواو قبل الهمزة على لفظ مَن يفخِّم الألف قبل الهمزة فيُميلها إلى الواو ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ وهم السادة والرؤساء الذين استغووهم وصدّوهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تابعين. جمع تابع على تبع كخادم وخدم وغائب وغيب، **(أو ذوي تبع)** والتبع الأتباع يقال: تبعه تبعًا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ فهل تقدرون على دفع شيء مما نحن فيه. و«من» الأولى للتبيين والثانية للتبعيض كأنه قيل: فهل أنتم مُغنون عنّا بعض الشيء الذي هو عذاب الله، أو هما للتبعيض أي فهل أنتم مُغنون عنّا بعض شيء هو بعض عذاب الله؟ لما كان قول الضعفاء توبيخًا لهم وعتابًا على استغوائهم لأنهم علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم ﴿قَالُوا۟﴾ لهم مُجيبين معتذرين ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ أي لو هدانا الله إلى الإيمان في الدنيا لهديناكم إليه، أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم أي لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق **(الهلكة)** ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ **(مستويان علينا الجزع**

قوله: (أو ذوي تبع) على إضمار مضاف أو مصدر نعت به. **قوله**: **(الهَلَكة)** مثال قَصَبة بمعنى الهلاك. اهـ مصباح. **قوله**: (مستويان علينا الجزع

والصبر)، والهمزة وأم للتسوية. رُوِيَ أنهم يقولون في النار: تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع، فيقولون: تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر، ثم يقولون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ واتصاله بما قبله من حيث إن عتابهم لهم كان جزعًا مما هم فيه، فقالوا لهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ يريدون أنفسهم وإيّاهم لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مُجتَمِعين فيها يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ، ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (منجي) ومهرَب جزعنا أم صبرنا، ويجوز أن يكون هذا من كلام الضعفاء والمُستكبِرين جميعًا.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ حُكِم بالجنة والنار لأهليهما وفرغ من الحساب ودخل أهل الجنةِ الجنةَ وأهل النارِ النارَ، ورُوِيَ أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيبًا على منبر من نار فيقول لأهل النار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ بأن لا بعث ولا حساب ولا جزاء ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ كذبتكم ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ من تسلّط واقتدار ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ لكني دعوتكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني،

والصبر) أشار إلى أن ﴿سَوَآءٌ﴾، إنما أفرد لأنه في الأصل مصدر والمراد التثنية، وضميره راجع إلى الجزع والصبر لكونهما مبتدأ مقدَّمان عليه.اهـ قنوي. وفي حاشية البيضاوي للعلامة شيخ زاده رحمه الله: قوله: مستويان علينا الجزع والصبر إشارة إلى أن قوله: ﴿أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ في محلّ الرفع على الابتداء، والجملة إنما يمتنع الإخبار عنها إذا كانت نسبتها ملحوظة تفصيلًا. وأما إذا أُريد بها مطلق الحدث المدلول عليه ضمنًا على الاتّساع، فهي كالاسم في الإضافة والإسناد إليه.اهـ. وفي مختار الصحاح: الجَزَع ضدّ الصبر، وبابه طرب.اهـ. **قوله:** (منجي) بالقصر.

والاستثناء منقطع لأن الدعاء ليس من جنس السلطان ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ﴾ (فأسرعتم إجابتي) ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ لأن مَن تجرَّد للعداوة لا يُلام إذا دعا إلى أمر قبيح مع أن الرحمٰن قد قال لكم: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: الآية ٢٧]، ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ حيث اتبعتموني بلا حجة ولا برهان. وقول المعتزلة هذا دليل على أن الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصّلها لنفسه، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين، باطل لقوله: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي إلى الإيمان ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٢١] كما مرَّ ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ لا ينجي بعضنا بعضًا من عذاب الله ولا يغيثه. والإصراخ الإغاثة (﴿بِمُصْرِخِىِّ﴾ حمزة) اتباعًا للخاء، غيره بفتح الياء لئلا تجتمع الكسرة والياءان بعد كسرتين وهو جمع مصرخ، فالياء الأولى ياء الجمع والثانية ضمير المتكلم ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ (وبالياء بصري) و«ما» مصدرية ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلق بـ ﴿أَشْرَكْتُمُونِ﴾ أي كفرت اليوم بإشراككم إياي مع الله من قبل هذا اليوم أي في الدنيا كقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: الآية ١٤] ومعنى كفره بإشراكهم إياه تبرؤه منه واستنكاره له كقوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: الآية ٤]، أو ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلق بـ ﴿كَفَرْتُ﴾ و«ما» موصولة أي كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتمونيه وهو الله عزَّ وجل. تقول: أشركني فلان أي جعلني له شريكًا، ومعنى إشراكهم الشيطان بالله طاعتهم له فيما كان يزيّنه لهم من عبادة الأوثان وهذا آخر قول الشيطان، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قول الله عزَّ وجلّ. وقيل: هو من تمام كلام إبليس، **(وإنما حكى الله عزَّ وجلّ ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون لطفًا للسامعين)**.

قوله: (فأسرعتم إجابتي) إشارة إلى أن استجاب وأجاب وإن كان بمعنى واحد إلّا أنّ استجاب أبلغ. **قوله**: (﴿بِمُصْرِخِىِّ﴾) بكسر الياء مع التشديد (حمزة) اتباعًا للخاء. **قوله**: (وبالياء بصري) أي أثبت ياء ﴿أَشْرَكْتُمُونِ﴾ وصلًا أبو عمرو البصري، وفي الحالين يعقوب البصري وليس من السبعة. **قوله**: **(وإنما حكى الله عزّ وجلّ ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون لطفًا للسامعين)** في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بدّ لهم من الوصول إليه، وأن يتصوّروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول، فيخافوا ويعملوا ما يخلّصهم منه وينجيهم.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ عطف على ﴿بَرَزُوا۟﴾، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿وَأُدْخِلَ﴾ أي أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ هو تسليم بعضهم على بعض في الجنة أو تسليم الملائكة عليهم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي وصفه وبيّنه ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ نصب بمُضمَرٍ أي جعل كلمة طيبة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو تفسير لقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ نحو شرّف الأمير زيدًا كساه حلّة وحمله على فرس، أو انتصب ﴿مَثَلًا﴾ و﴿كَلِمَةً﴾ بـ ﴿ضَرَبَ﴾ أي ضرب كلمة طيبة مثلًا يعني جعلها مثلًا ثم قال: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي كشجرة طيبة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي في الأرض ضارِب بعروقه فيها ﴿وَفَرْعُهَا﴾ وأعلاها ورأسها ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ والكلمة الطيبة كلمة التوحيد أصلها تصديق بالجنان، وفرعها إقرار باللسان، وأكلها عمل الأركان، وكما أن الشجرة شجرة وإن لم تكن حاملًا فالمؤمن مؤمن وإن لم يكن عاملًا ولكن الأشجار لا تُراد إلا للثمار، فما أقوات النار إلا من الأشجار إذا اعتادت **(الإخفار)** في عهد الإثمار. والشجرة كل شجرة مُثمِرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين ونحو ذلك والجمهور على أنها النخلة، فعن **(ابن عمر)** أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: إن الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي؟ **(فوقع الناس في شجر البوادي)**، وكنت صبيًّا فوقع في قلبي أنها النخلة **(فهبْت)** رسول الله ﷺ أن أقولها وأنا

قوله: (الإخفار) في مختار الصحاح: أخفره نقض عهده وغدر. اهـ.

قوله: (ابن عمر) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما العدوي أبو عبد الرحمٰن، وُلِد قبل البعثة بيسير واستصغر يوم أُحُد وهو ابن أربع عشرة سنة، وهو أحد المُكثرين من الصحابة والعبادلة، وكان من أشدّ الناس اتّباعًا للأثر، مات سنة ثلاث وسبعين في آخرها وأوّل التي تليها. **قوله**: **(فوقع الناس في شجر البوادي)** أي ذهبت أفكارهم إليها دون النّخلة. **قوله**: (فهِبْت) في المصباح: هابَ

أصغر القوم فقال رسول الله ﷺ: «ألا إنها النخلة» فقال عمر: يا بني لو كنت قلتها لكانت أحبّ إليّ من (**حُمر النَّعم**).

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ تُعطَى تمرها كل وقت وقَّته الله لإثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾ بتيسير خالقِها وتكوينه ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كل شجرة لا يطيب ثمرها وفي الحديث أنها شجرة (**الحنظل**) ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ استؤصلت جثتها وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثّة كلها وهو في مقابلة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي استقرار، يُقال قرَّ الشيء قرارًا كقولك ثبت ثبوتًا، شبَّه بها القول الذي لا (**يعضد**) بحجة فهو (**داحض**) غير ثابت.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي يُديمهم عليه ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ هو قول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حتى إذا فُتِنوا في دينهم لم يزلوا

يَهابُه من باب تعب هيبة خدره ويهيبه من باب ضرب لغة. اهـ باختصار. **قوله**: (**حُمر النَّعم**) بضم حاء وسكون ميم أي أقواها وأجلدها، أي الإبل الحُمر وهي أنفس أموال العرب.

قوله: (**الحنظل**) نبات يخرج أغصانًا وأوراقًا مفروشة على الأرض له بطاطيخ مدوّرة هي مرّة شديدة المرارة. اهـ تمجيد. **قوله**: (**يعضد**) في المصباح: عضدت الرجل عضدًا من باب قتل أصبت عضده أو أعنته فصرت له عضدًا، أي مُعينًا وناصرًا. اهـ. **قوله**: (**داحض**) أي باطل.

(كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود) وغير ذلك ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ الجمهور على أن المراد به في القبر بتلقين الجواب وتمكين الصواب، فعن **(البراء)** أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثم تُعاد روحه في جسده فيأتيه مَلَكان فيُجلِسانه في قبره فيقولان له مَن ربك **(وما دينك)** ومَن نبيّك؟ **(فيقول: ربي الله)** وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ، فينادي مُنادٍ **(من السماء أن صدق)** عبدي فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾ ثم يقول المَلَكان: عشت سعيدًا

قوله: (كما ثبت الذين فَتَنهم أصحاب الأُخدود) الشقّ في الأرض، رُوي مرفوعًا: «أن ملكًا كان له ساحر، فلما كبر ضم إليه غلامًا ليعلّمه وكان في طريقه راهب فمال قلبه إليه، فرأى في طريقه ذات يوم حيّة قد حبست الناس، فأخذ حجرًا وقال: اللّهمّ إنْ كان الراهب أحبّ إليك من الساحر فاقتلها، فقتلها، وكان الغلام بعده يبرىء الأكمه والأبرص ويشفي من الأدواء وعمي جليس الملك فأبرأه، فسأله الملك: مَنْ أبرأك؟ فقال: ربّي، فغضب الملك فدلّ على الغلام فَعَرَّبَهُ، فعزّ على الراهب فقده فدعا فهلك مَنْ معه ونجا فأجلسه في سفينة ليغرق فدعا فانكفأت السفينة بمن معه، فغرقوا ونجا، فقال للملك: لست بقاتلي حتى تجمع الناس وتصلبني وتأخذ سهمًا من كنانتي، وتقول: باسم رب الغلام ثم ترميني به، فرماه فوقع السهم في صدعه فمات، فآمن الناس فأمر بأخاديد أوقد فيها النيران فمن لم يرجع منهم طرحه حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست فقال الصبيّ: أُمّاه اصبري، فإنّك على الحق، فاقتحمت». اهـ شيخ زاده رحمه الله. وكان ذلك في الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ، ورُوي أنّه كان ذلك قبل مولد النبيّ ﷺ بسبعين سنة. اهـ كمالين.

قوله: (البراء) بن عازب بن الحارث بن عديّ الأنصاري الأوسي صحابي ابن صحابي نزل الكوفة استُصغر يوم بدر، وكان هو وابن عمر لِدَة، مات سنة اثنتين وسبعين. **قوله: (وما دينك)** أي الذي اخترته من بين الأديان. **قوله: (فيقول: ربي الله)** بفتح الياء ويسكن ولو كان الميت أعجميًا صار عربيًا. **قوله: (من السماء)** أي من جهتها. **قوله: (أن صدق)** أَن مفسّرة للنداء، لأنه في معنى القول.

و(**مُتْ**) حميدًا (**نَمْ**) نومة (**العروس**) ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ فلا يثبّتهم على القول الثابت في مواقف الفتن و(**تزل**) أقدامهم أول شيء وهم في الآخرة أضلّ وأزلّ ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ فلا اعتراض عليه في تثبيت المؤمنين وإضلال الظالمين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ (**أي شكر نعمة الله**) ﴿كُفْرًا﴾ لأن شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفرًا، فكأنهم غيّروا الشكر إلى الكفر وبدّلوه تبديلًا وهم أهل مكة، كرّمهم بمحمد عليه السلام فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ الذين تابعوهم على الكفر ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ دار الهلاك ﴿جَهَنَّمَ﴾ عطف بيان ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ وبئس المقر جهنم. ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أمثالًا في العبادة أو في التسمية ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (**وبفتح الياء: مكي وأبو عمرو**) ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ في الدنيا والمراد به

قوله: (مُتْ) في مختار الصحاح: مَاتَ يموت ويَمات أيضًا فهو مَيِّت ومَيْت مشدّدًا ومخفّفًا. اهـ. **قوله**: (نم) أمر من نام ينام. **قوله**: (**العروس**) يُطلق على الذَّكر والأُنثى في أوّل اجتماعهما. **قوله**: (**تزلّ**) في مختار الصحاح: زلّ في طين أو مَنْطِق يَزِلّ بالكسر زَلِيلًا، وقال الفراء: زَلّ يَزَلّ بالفتح زَلَلًا والاسم الزَّلّة. اهـ.

قوله: (**أي شكر نعمة الله**) قدّر المضاف لأن الكفر المذكور بجنب النعمة يُراد به الكفران، ومقابلة الشكر. واعلم أن بدّل يتعدّى إلى مفعولين إلى أوّلهما بنفسه وإلى ثانيهما بواسطة الباء، وأن المجرور بالياء هو المتروك والمنصوب هو الحاصل المختار، وقد يُحذف حرف الجرّ فيتعدّى الفعل إليهما بنفسه، كما في هذا المقام والمجرور بالباء هٰهنا هو النعمة لأنها هي المتروكة، والذي تعدّى الفعل إليه بنفسه هو الكفران، فهو المفعول الأوّل.

قوله: (**وبفتح الياء**) من ضلّ يضلّ (**مكّي**) أي ابن كثير المكّي (**وأبو عمرو**)، والباقون بضم الياء من أضلّ يضلّ. واللام في ﴿لِّيُضِلُّوا۟﴾ سواء قرئ

(الخذلان) والتخلية. وقال (ذو النون): التمتّع أن يقضي العبد ما استطاع من شهوته ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ مرجعكم إليها.

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خصّهم بالإضافة إليه تشريفًا. و(**بسكون الياء شامي وحمزة وعلي والأعشى**) ﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ المقول محذوف لأن ﴿قُل﴾ تقتضي مَقولًا وهو أقيموا وتقديره: قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا. وقيل: إنه أمر وهو المقول والتقدير ليقيموا ولينفقوا، فحذف اللام لدلالة ﴿قُل﴾ عليه، ولو قيل يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام لم يجز ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ انتصبا على الحال أي ذوي سر وعلانية يعني مُسِرّين ومعلنين، أو على الظرف أي وقتي سر وعلانية، أو على المصدر أي إنفاق سر وإنفاق علانية، والمعنى إخفاء التطوّع وإعلان الواجب ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي لا انتفاع فيه بمبايعة (**ولا مخالة والخلال المخالة**)،

بفتح الياء أو ضمّها لام العاقبة؛ لأن كل واحد من الضلال والإضلال نتيجة اتّخاذ الأنداد وعاقبته. **قوله**: (الخِذْلان) في مختار الصحاح: خذله يخذُله بالضمّ خذلانًا ـ بكسر الخاء ـ ترك عونه ونصرته. اهـ.

قوله: (ذو النون) هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري، وقيل: الفيض بن إبراهيم توفي سنة خمس وأربعين ومائتين رضي الله تعالى عنه.

قوله: (بسكون الياء شاميّ) أي ابن عامر الشامي (وحمزة وعلي) الكسائي (والأعشى)[1] أي أبو يوسف يعقوب بن خليفة بن سعد بن هلال الأعشى، وفتح ياء الإضافة من ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ﴾ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم ورُوَيْس وأبو جعفر وخلف عن نفسه. اهـ إتحاف. **قوله**: (ولا مخالة) أي خلال مصدر فاعل كالمفاعلة. **قوله**: (والخلال المخالة) وهي المصاحبة والمصادقة، يقال: خالَلْته خلالًا ومخالّة.

(١) يُروى عن أبي بكر بن عيّاش عن عاصم. ١٢ منه عمّ فيضهم.

وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله. بفتحهما: (مكي) و(بصري)، والباقون بالرفع والتنوين.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ خبره ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ من السحاب مطرًا ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ من الثمرات بيان للرزق أي أخرج به رزقًا هو ثمرات أو ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مفعول ﴿أَخْرَجَ﴾ و﴿رِزْقًا﴾ حال من المفعول ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ دائمين وهو حال من الشمس والقمر أي (يدأبان) في سيرهما وإنارتهما (ودرئهما) الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان (خلفة) لمعاشكم (وسباتكم).

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ «من» للتبعيض أي آتاكم بعض جميع ما سألتموه، أو وآتاكم من كل شيء سألتموه وما لم تسألوه فـ «ما» موصولة والجملة صفة لها، وحذفت الجملة الثانية لأن الباقي يدل على المحذوف كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: الآية ٨١]. (﴿من كلٍّ﴾ عن أبي عمرو) و﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾

قوله: (مكّي) أي ابن كثير المكّي. **قوله**: (بصري) أبو عمرو البصري.

قوله: (يدأبان) أي يدأبان ويستمران ويعبران أبدًا فيما يسند إليهما من الأفعال، يقال: دأب فلان في عمله دؤوبًا، أي جدّ وتعب. **قوله**: (ودرئهما) أي دفعهما. **قوله**: (خلفة) أي يخلف كل منهما الآخر فيما ينبغي أن يفعل فيه. **قوله**: (سُباتكم) راحتكم.

قوله: (﴿من كلٍّ﴾) بالتنوين (عن أبي عمرو) عبارة تفسير النيسابوري: ﴿مِن كُلٍّ﴾ بالتنوين يزيد وعباس، والباقون بالإضافة، انتهت. وقوله: يزيد، هو أبو

نفي ومحله النصب على الحال أي آتاكم من جميع ذلك غير سائِليه، أو «ما» موصولة أي وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تطيقوا عدّها وبلوغ آخرها هذا إذا أرادوا أن يعدّوها على الإجمال وأما التفصيل فلا يعلمه إلا الله ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ﴾ بظلم النعمة بإغفال شكرها ﴿كَفَّارٌ﴾ شديد الكفران لها أو ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفّار في النعمة (**يجمع ويمنع**) والإنسان للجنس فيتناول الإخبار بالظلم والكفران مَن يوجدان منه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ واذكر إذ قال إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ﴾ أي البلد الحرام ﴿آمِنًا﴾ ذا أمن والفرق بين هذه وبين ما في البقرة أنه قد سأل فيها أن يجعله من جملة البلدان التي يأمَن أهلها، وفي الثاني أن يُخرجه من صفة الخوف إلى الأمْن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنًا ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ وبعّدني أي ثبّتني وأدِمْني على اجتناب عبادتها كما قال: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: الآية ١٢٨] أي

جعفر يزيد بن القعقاع المدني، وليس من السبعة. وقوله: عباس، هو العباس بن الفضل يروي عن أبي عمرو بن العلاء، وفي كتاب الروضة في القراءات الإحدى عشرة: وهي قِراءة العشرة المشهورة وقراءة الأعمش.

مسألة: قرأ الأعمش: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ بتنوين كلٍّ تفرّد بذلك الباقون من كلِّ ما من غير تنوين على الإضافة. اهـ بحروفه. وفي كتاب إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: وعن الحسن والأعمش ﴿مِّن كُلٍّ﴾ بتنوين ﴿كُلٍّ﴾ و﴿مَا﴾ بعدها إما نافية أو موصولة، فالجمهور على إضافة ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿مَا﴾. اهـ بحروفه. وفي كتاب المُحتسب في تبيين وجوه شواذّ القراءات ولغات العرب، ومن ذلك قراءة ابن عباس والحسين والضحّاك ومحمد بن عليّ وجعفر بن محمد وعمرو بن فائد ويعقوب: ﴿مِّن كُلٍّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ بالتنوين. اهـ. فافهم والله سبحانه وتعالى أعلم. **قوله: (يجمع ويمنع)**، أي يجمع المال ويمنعه من مستحقّيه.

ثبّتنا على الإسلام ﴿وَبَنِيَّ﴾ أراد بنيه من صلبه ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ من أن نعبد الأصنام ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ جعلن مُضِلَّات على طريق التسبيب لأن الناس ضلوا بسببهن فكأنهن أضللنهم ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ على مِلَّتي وكان حنيفًا مسلمًا مثلي ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي هو بعضي لفرط اختصاصه بي ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ فيما دون الشِّرك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أو ومَن عصاني عصيان شِرْك فإنك غفور رحيم إن تاب وآمن.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ بعض أولادي وهم إسماعيل ومَن وُلِد منه ﴿بِوَادٍ﴾ هو وادٍ بمكة ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ لا يكون فيه شيء من زرع قطّ ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ هو بيت الله سُمّي به لأن الله تعالى حرَّم التعرّض له والتهاون به وجعل ما حوله حرمًا لمكانه، أو لأنه لم يزل ممنعًا يهابه كل جبّار، أو لأنه محترم عظيم الحُرمة لا يحلّ انتهاكها، أو لأنه حرم على الطوفان أي منع منه كما سُمِّي عتيقًا لأنه أعتق منه ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اللام متعلقة بـ ﴿أَسْكَنتُ﴾ أي ما أسكنتهم بهذا الوادي (**البلقع**) إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرَّم ويعمروه بذِكرك وعبادتك ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أفئدة من أفئدة الناس و«من» للتبعيض لما رُوِي عن (**مجاهد**): لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم عليه فارس والروم والتُّرْك والهند. (**أو للابتداء**) كقولك: «القلب مني سقيم» تريد قلبي فكأنه قيل أفئدة ناس، ونكرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة

قوله: (**البَلْقَع**) الأرض القفراء التي لا شيء بها، والقَفْراء مفازة لا نبات بها ولا ماء. **قوله**: (**مجاهد**) بن جبر بفتح الجيم وسكون الموحدة ثقة إمام في التفسير وفي العلم، مات سنة إحدى واثنتين أو ثلاث أو أربع ومائة وله ثلاث وثمانون. **قوله**: (**أو للابتداء**) كقولك: القلب مني سقيم، أي القلب الكائن مني، وأفئدة كائنة من الناس، والمصنّف رحمه الله نكر لفظ الناس حيث قال: أفئدة ناس، مع أنه في الآية معرف باللام، لأن الأفئدة في الآية وقعت منكرة، ولما أراد تصوير كون القلوب مبتدأة من الناس أضاف الأفئدة إليهم، ونكر الناس ليحفظ معنى تنكير

﴿تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ﴾ تسرع إليهم من البلاد الشاسعة وتطير نحوهم شوقًا ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ مع سكناهم واديًا ما فيه شيء منها بأن تجلب إليهم من البلاد **(الشاسعة)** ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ النعمة في أن يُرزَقوا أنواع الثمرات في وادٍ ليس فيه شجر ولا ماء.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)﴾

﴿رَبَّنَا﴾ النداء المكرر دليل التضرّع **(واللجأ)** إلى الله ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ تعلم السر كما تعلم **(العلن)** ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ من كلام الله عزَّ وجل تصديقًا لإبراهيم عليه السلام، أو من كلام إبراهيم و«من» للاستغراق كأنه قيل: وما يخفى على الله شيء ما ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ «على» بمعنى «مع» وهو في موضع الحال أي وهب لي وأنا كبير ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ رُوِيَ أن إسماعيل وُلِدَ له وهو ابن تسع وتسعين سنة، ووُلد له إسحٰق وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة ورُوِيَ أنه وُلِد له إسماعيل لأربع وستين، وإسحٰق لتسعين، وإنما ذكر حال الكِبْر لأن المِنَّة بهبة الولد فيها أعظم لأنها حال وقوع اليأس من الولادة، والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ مُجيب

﴿أَفْئِدَةً﴾ في الآية، فإنّ تنكير المضاف إليه يفيد ما يُستفاد من تنكير المضاف في مقام الإثبات من البعضية وعدم الاستغراق والعموم وناس اسم جمع، فمعنى أفئدة ناس أي مما يُطلق عليه لفظ ناس، وهو معنى قوله: ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾، وإنْ كان لفظ الناس المعرّف باللام في هذا التعبير محمولًا على العموم. **قوله**: **(الشاسعة)** البعيدة، في المصباح: شسع المكان يشسع ـ بفتحتين ـ بَعُد فهو شاسع وبلاد شاسعة. اهـ. وفي مختار الصحاح. الشاسع والشُسُوع ـ بالفتح ـ البعيد. اهـ.

قوله: **(اللّجأ)** في مختار الصحاح: لجأ إليه يلجأ مثل قطع يقطع لَجَأ ـ بفتحتين ـ انتهى. **قوله**: **(العَلَن)** في مختار الصحاح: العلانية ضدّ السرّ، يقال: علن الأمر من باب دخل وطرب. اهـ. وفي المصباح: علن الأمر علونًا من باب قعد ظهر وانتشر، فهو عالِن وعلن علنًا من باب تعب لغة، فهو علن وعلين

الدعاء من قولك: «سمع الملك كلام فلان» إذا تلقَّاه بالإجابة والقبول، ومنه (سمع الله لمَن حمده) وكان قد دعا ربّه وسأله الولد فقال: ربِّ هَب لي من الصالحين، فشكر الله ما أكرمه به من إجابته. وإضافة السميع إلى الدعاء من إضافة الصفة إلى مفعولها (وأصله ﴿لسميعٌ ٱلدُّعَآءِ﴾) وقد ذكر (سيبويه) فعيلًا في جملة أبنية المبالغة العامِلَة عمل الفعل كقولك: «هذا رحيم أباه».

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ وبعض ذريتي عطفًا على المنصوب في ﴿ٱجۡعَلۡنِي﴾ وإنما بعَّض لأنه علم بإعلام الله أنه يكون في ذريته كفّار، عن (ابن عباس) رضي الله عنهما: لا يزال من ولد إبراهيم ناس على الفطرة إلى أن تقوم

والاسم العلانية مخفّف. اهـ. **قوله**: (سمع الله لمن حمده) معناه: قَبِل حَمْد مَنْ حمده، واللام في لمن للمنفعة والهاء في حمده للكناية، وقيل: للسكتة والاستراحة، ذكره ابن الملك. وقال الطيبي: أي أجاب حمده وتقبله يقال: اسمَعْ دعائي، أي أجِبْ؛ لأن غرض السائل الإجابة والقبول، انتهى. فهو دعاء بقبول الحمد، كذا قيل، ويحتمل الإخبار. اهـ مرقاة المفاتيح لمشكاة المصابيح. **قوله**: (وأصله ﴿لسميعٌ﴾) بالتنوين (﴿ٱلدُّعَآءِ﴾).

قوله: (سيبويه) هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قُنْبَر أعلم المتقدّمين والمتأخّرين بالنحو، توفي سنة ثمانين ومائة، وقيل: سنة سبع وسبعين وعمره نيّف وأربعون سنة، وسيبويه بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الباء الموحدة والواو وسكون الياء الثانية وبعدها هاء ساكنة، ولا يقال بالتاء البتّة، وهو لقب فارسي معناه بالعربية رائحة التفّاح. وقال إبراهيم الحربي: سُمّي سيبويه لأن وجنتيه كأنّهما تفّاحتان، وكان في غاية الجمال رحمه الله.

قوله: (ابن عباس) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف ابن عمّ رسول الله ﷺ، وُلِد قبل الهجرة بثلاث سنين، ودعا له رسول الله ﷺ بالفهم في القرآن، فكان يُسمّى البحر والحبر لسِعَة علمه، مات سنة ثمان وستّين بالطائف، وهو أحد المكثرين من الصحابة وأحد العبادلة من فقهاء

الساعة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ بالياء في الوصل والوقف: (مكّي)، وافقه أبو عمرو وحمزة في الوصل. الباقون بلا ياء أي استجب دعائي (أو عبادتي ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ) وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: الآية ٤٨]، ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ أي آدم وحواء، أو قاله قبل النهي واليأس عن إيمان أبويه ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ أي يثبت أو أسند إلى الحساب قيام أهله إسنادًا مجازيًا مثل ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: الآية ٨٢].

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، والخطاب لغير الرسول عليه السلام وإن كان للرسول فالمراد تثبيته عليه السلام على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلًا كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤]، ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ [القصص: الآية ٨٨]، وكما جاء في الأمر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: الآية ١٣٦]، وقيل: المراد به الإيذان بأنه عالِم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه منه شيء، وأنه مُعاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٣]، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ﴾ أي عقوبتهم ﴿لِيَوۡمٖ (تَشۡخَصُ) فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي أبصارهم لا تقرّ في أماكنها من هَوْل ما ترى.

﴿مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴿٤٣﴾﴾

﴿مُهۡطِعِينَ﴾ مسرعين إلى الداعي ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ رافعيها ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ (صفر) من

الصحابة. **قوله**: (مكّي) أي ابن كثير المكّي رحمه الله. **قوله**: (أو عبادتي) بدليل قوله تعالى: ﴿(وَأَعۡتَزِلُكُمۡ) وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: الآية ٤٨].

قوله: (﴿تَشۡخَصُ﴾) صفة ليوم وشخوص البصر ارتفاعه وعدم استقراره في مكانه من حدّة النظر، وقيل: بقاؤه مفتوحًا بحيث لا يغمض ولا يرتدّ إليه طرفه.

قوله: (صِفْر) وزان حِمْل أي خالٍ.

الخير لا (**تعي**) شيئًا من الخوف، والهواء الخلاء الذي لم تشغله الأجرام فوصف به فقيل: قلب فلان هواء إذا كان (**جبانًا**) لا قوة في قلبه ولا (**جرأة**). وقيل: جوف لا عقول لهم.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي يوم القيامة. و﴿يَوْمَ﴾ مفعول ثانٍ لـ ﴿أَنذِرِ﴾ لا ظرف إذ الإنذار لا يكون في ذلك اليوم ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أي الكفار ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ أي رُدَّنا إلى الدنيا وأمهِلْنا إلى (**أمد**) وحدّ من الزمان قريب نتدارك ما فرَّطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع رُسُلك فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي حلفتم في الدنيا أنكم إذا مُتّم لا تزالون عن تلك الحالة ولا تنتقلون إلى دار أخرى يعني كفرتم بالبعث كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: الآية ٣٨] و﴿مَا لَكُم﴾ جواب القَسَم. وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله: ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ ولو حكى لفظ المقسمين لقيل ما لنا من زوال، أو أُريد باليوم يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى فإنهم يسألون يومئذ أن يؤخِّرهم ربّهم إلى أجل قريب.

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾

(**يقال: سكن الدار**) وسكن فيها ومنه ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر لأن السكنى من السكون وهو اللبث والأصل تعديته بـ «في» نحو

قوله: (**تعي**) تحفظ. **قوله**: (جَبَانًا) ضعيف القلب. **قوله**: (جرأة) وزان غرفة أي شجاعة.

قوله: (**أمد**) في مختار الصحاح: الأَمَد ـ بفتحتين ـ الغاية. اهـ.

قوله: (**يقال: سكن الدار**)... الخ. أي وقد يُستعمل بمعنى التبوّؤ، فيجري مجراه.

«قرَّ في الدار وأقام فيها» ولكنه لما نقل إلى سكون خاص تُصرَف فيه فقيل: «سكن الدار» كما قيل: «تبوأه»، ويجوز أن يكون سكنوا من السكون أي قروا فيها واطمأنوا طيبي النفوس سائرين سيرة مَن قبلهم في الظلم والفساد لا يحدِّثونها بما لقي الأولون من أيام الله، وكيف كان عاقبة ظلمهم فيعتبروا و(**يرتدعوا**) ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بالأخبار أو المشاهدة. وفاعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ مُضمَر دلَّ عليه الكلام أي تبيَّن لكم حالهم و﴿كَيْفَ﴾ ليس بفاعل لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله وإنما نصب ﴿كَيْفَ﴾ بقوله: ﴿فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي أهلكناهم وانتقمنا منهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (**أي صفات ما فعلوا وما فعل بهم**) وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ أي مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم وهو ما فعلوه من تأييد الكفر وبُطلان الإسلام ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ وهو مضاف إلى الفاعل الأول، والمعنى ومكتوب عند الله مكرهم فهو مُجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه، أو إلى المفعول أي عند الله مكرهم الذي يمكرهم به وهو عذابهم الذي يأتيهم من حيث لا يشعرون ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ بكسر اللام الأولى ونصب الثانية والتقدير: وإن وقع مكرهم لزوال أمر النبي ﷺ، فعبّر عن النبي عليه السلام بالجبال لعِظَم شأنه، و«كان تامّة» و«إن» نافية، واللام مؤكدة لها كقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٣٣] والمعنى ومُحال أن تزول الجبال بمكرهم على أن الجبال مثل لآيات الله وشرائعه لأنها بمنزلة الجبال (**الراسية**) ثباتًا وتمكّنًا دليله قراءة (**ابن مسعود**) «وما كان مكرهم»

قوله: (**يرتدعوا**) في مختار الصحاح: رَدَعه عن الشيء فارتدع، أي كفَّه فكفَّ وبابه قطع. اهـ. **قوله**: (**أي صفات ما فعلوا**) من المناهي والمكروهات (**وما فعل بهم**) من تدميرهم بأنواع العقوبات.

قوله: (الراسية) الثابتة الراسخة. **قوله**: (ابن مسعود) هو عبد الله بن مسعود بن غافل ـ بمعجمة وفاء ـ ابن حبيب الهذلي أبو عبد الرحمٰن، من السابقين الأوّلين ومن كبار العلماء من الصحابة مناقبه جمّة، مات سنة اثنتين وثلاثين أو في

(**وبفتح اللام الأولى ورفع الثانية: عليّ**)، أي وإن كان مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقطع عن أمكانها فـ «إن» مخففة من «إن» واللام مؤكدة.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ يعني قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: الآية ٥١]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: الآية ٢١]. ﴿مُخْلِفَ﴾ مفعول ثانٍ لـ ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ وأضاف ﴿مُخْلِفَ﴾ إلى ﴿وَعْدِهِۦ﴾ وهو المفعول الثاني له والأول ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾ والتقدير مُخْلِف رُسُله وعده، وإنما قدَّم المفعول الثاني على الأول ليُعْلَم أنه لا يُخلِف الوعد أصلًا كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: الآية ٩]، ثم قال: ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾ ليُؤذِن أنه إذا لم يخلف وعده أحدًا فكيف يخلفه رُسُله الذي هم (**خِيرته**) وصفوته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يُماكِر ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لأوليائه من أعدائه.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

وانتصاب ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ على الظرف للانتقام، أو على إضمار اذكر، والمعنى يوم تُبَدَّل هذه الأرض التي تعرفونها أرضًا أخرى غير هذه المعروفة، وتبدّل السمٰوات غير السمٰوات، وإنما حذف لدلالة ما قبله عليه، والتبديل التغيير وقد يكون في الذوات كقولك: «بدّلت الدراهم دنانير»، وفي الأوصاف كقولك: «بدّلت الحلقة خاتمًا» إذا أذَبْتها وسوَّيتها خاتمًا فنقلتها من شكل إلى شكل. واختلف في تبديل الأرض والسمٰوات فقيل: تبدّل أوصافها وتسير عن الأرض جبالها (**وتفجر بحارها**) وتُسَوَّى فلا ترى فيها (**عوجًا**) ولا (**أمتًا**). وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (**هي تلك الأرض وإنما تغير**). وتبدّل السماء بانتشار

التي بعدها بالمدينة رضي الله تعالى عنه. **قوله**: (**وبفتح اللام الأُولى ورفع الثانية عليّ**) الكسائي، والباقون بكسر الأُولى ونصب الثانية.

قوله: (خيرته) بفتح الياء وتسكينها يوصف به الواحد والجمع.

قوله: (**وتفجر بحارها**) أي يبست. **قوله**: (**عوجًا**) انخفاضًا. **قوله**: (**أمتًا**) ارتفاعًا. **قوله**: (**هي تلك الأرض وإنما تغير**) صفاتها.

كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابًا. وقيل: تخلق بدلها أرض وسمٰوات أُخَر. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطىء عليها أحد خطيئة. وعن (عليّ) رضي الله عنه: تبدّل أرضًا من فضة وسمٰوات من ذهب ﴿وَبَرَزُوا﴾ وخرجوا من قبورهم ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ هو كقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: الآية ١٦] لأن المُلْك إذا كان لواحد (غلّاب) لا يُغالب (فلا مُستغاث) لأحد إلى غيره كان الأمر في غاية الشدة.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ (قرن) بعضهم مع بعض أو مع الشياطين أو قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغلّلين ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ متعلق بـ ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أي يقرنون في الأصفاد، أو غير متعلق به والمعنى مقرنين مصفَّدين، والأصفاد القيود أو الأغلال ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ قمصهم ﴿مِنْ قَطِرَانٍ﴾ (هو ما يتحلب من شجر يسمى الأُبْهَل) فيطبخ (فتهنأ) به الإبل الجربى فيُحرَق

قوله: (عليّ) رضي الله تعالى عنه ابن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم الهاشمي ابن عمّ رسول الله ﷺ وزوج ابنته من السابقين الأوّلين المرجّح أنه أوّل مَنْ أسلم وهو أحد العشرة، مات في رمضان سنة أربعين وهو يومئذ أفضل الأحياء من بني آدم بالأرض بإجماع أهل السنّة وله ثلاث وستّون سنة على الأرجح. **قوله**: (غلاب) اسم فاعل بزنة المبالغة. **قوله**: (فلا مُستغاث) الظاهر أنه مصدر، أي لا طلب العون لأحد من غيره.

قوله: (قرن) بالتشديد والتخفيف. **قوله**: (هو ما يتحلّب) أي يتقاطر (من شجرٍ يسمّى الأبهل) بضمّ الهمزة وسكون الباء وضمّ الهاء. اهـ شهاب رحمه الله. وفي ترجمة القاموس: الأبهل بوزن أحمد. اهـ. **قوله**: (فتهنأ[1]) بضمّ التاء الفوقيّة

---

(١) أي تُطلى ١٢ منه.

الجَرَب بحدَّته وحرِّه، ومن شأنه أن يُسرِع في اشتعال النار، وهو أسود اللون مُنتِن الريح فيُطلَى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل ليجتمع عليهم (لذع القطران) وحرقته وإسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح، على أن (التفاوت بين القطرانين) كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله أو وعَدَهُ به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي والمُسَمَّيات ثَمَّة نعوذ بالله من سخطه وعذابه (﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾) زيد (عن يعقوب) نحاس مُذاب بلغ حَرّه إناه ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ تعلوها باشتعالها. وخصَّ الوجه لأنه أعزّ موضع في ظاهر البدن كالقلب في باطنه ولذا قال: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: الآية ٧].

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ﴾ أيْ يفعل بالمجرمين ما يفعل ليجزي كل نفس مجرمة ما كسبت، أو كل نفس من مجرمة أو مطيعة لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم على أنه يُثيب المؤمنين بطاعتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يحاسب جميع العباد في أسرع من لَمْح البصر ﴿هَٰذَا﴾ أي ما وصفه في قوله: ﴿وَلَا

وسكون الهاء وفتح النون وفي آخره همزة مقصورة من الهنا كالطلا لفظًا ومعنى. **قوله**: (لذع القطران) بفتح اللام وسكون الذال المعجمة والعين المهملة الإحراق. في مختار الصحاح: لذعته النار أحرقته وبه قطع. اهـ.

قوله: (التفاوت بين القطرانين) أي قطران الدنيا والآخرة. **قوله**: (﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾) بفتح القاف وكسر[1] الطاء وتنوين الراء[2] وآنٍ على وزن رام، فيكون قطر آن كلمتين والقطر النحاس المُذاب والآني اسم فاعل من أنى يأني أنًا، أي تناهى في الحرارة، قال الله تعالى: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمٰن: الآية ٤٤]، زيد بن أحمد بن إسحٰق (عن يعقوب) وليس من السبعة.

---

(١) كما في الدرّ المصون، ويقال فيه: قطر بكسر فسكون. ١٢ منه عمّ فيضهم.
(٢) كذا في حاشية شيخ زاده وشهاب. ١٢ منه.

﴿تَحْسَبَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ كفاية في التذكير والموعظة ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ بهذا البلاغ وهو معطوف على محذوف أي لينصحوا ولينذروا ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد لأن الخشية أم الخير كله ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ذوو العقول.

تمت سورة إبراهيم بحمد الله وحُسن توفيقه
وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين